

أفضل القصص القصيرة الأمريكيّة في القرن العشرين



تحرير: جون أبدايك وكاترينا كنيسون

ترجمة : فؤاد سروجي




أفضل
القصص القصيرة
الأمريكية
في القرن العشرين

هذه هي الترجمة العربيّة لكتاب :

The Best American Short Stories of The Century
John Updike : editor
Katrina Kenison : co editor
© 2000, Houghton Mifflin Co.

أفضل القصص القصيرة الأمريكيّة في القرن العشرين / مختارات قصصيّة
تحرير : جون أبدايك + كاترينا كنيسون / الولايات المتحدة الأمريكيّة
ترجمة : فؤاد سروجي / مترجم من الأردنّ
الطبعة الثانية ، ٢٠٠٥
حقوق الطبع محفوظة





بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب : ٥٤٦٠ – ١١ ، العنوان البرقيّ : موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
محمد سبيتي ®
خطوط الغلاف :
زهير أبو شايب / الأردنّ
الصفّ الضوئي :
مؤسّسة الناشر ، عمّان/ الأردنّ
التنفيذ الطباعيّ :
المطابع المركزيّة ، عمّان / الأردنّ

ISBN 9953-36-021-9



أفضل القصص القصيرة الأمريكيّة في القرن العشرين

تحرير: جون أبدايك وكاترينا كنيسون

ترجمة : فؤاد سروجي



تقدمة

بقلم: كاترينا كنيسون

كان إدوارد أوبراين في الثالثة والعشرين من عمره، شاعراً وكاتباً مسرحياً مشهوراً، عندما بدأ العمل في المجلد الأول من كتابه «أفضل القصص الأمريكية القصيرة». وقام ببيع هذه الفكرة، إلى بوستون هاوس أُف سمول التابع لماينارد وشركاه، والذين قاموا بدورهم بإطلاق هذه السلسلة عام ١٩١٥. كتب في مقدمته الأولى، «لأنه تم العثور على ناشر أمريكي يشاركني إيماني، في أن المستقبل الديمقراطي للقصة الأمريكية القصيرة هو شيء سريع الزوال، بدون شك، فإن هذا الكتاب السنوي للقصص الأمريكية، سيضمن النشر سنوياً ولعدة سنوات».

بعد مرور خمسة وثمانين سنة، وصدور خمسة وثمانين مجلداً، لم تعد هذه المقتطفات الأدبية المختارة، التي صورها هذا الشاب المتخرج حديثاً من هارفارد عشية الحرب العالمية الأولى مؤسسة فحسب، بل تسجيلاً لا يقدر بثمن لقرننا هذا. وعلى الرغم من أن السلسلة قد نشرت، ولفترة قصيرة من قبل دود وميد وشركاهم قبل أن تصبح بالكامل جزءاً، من قائمة هوتون ميفلين عام ١٩٣٣، إلا أنها استمرت تنشر بدون انقطاع سنوياً منذ انطلاقها. يختلف العالم الذي نعيشه اليوم من كل النواحي تقريباً، اختلافاً هائلاً عن العالم الذي تظهره بواكير المجلدات من هذه السلسلة. ففي السنين الأولى من القرن، كانت أمريكا تستقبل موجات متواصلة من المهاجرين.

وفي الحقيقة ربما كانت هذه الهجرة أكبر قصة إنسانية في ذلك الوقت . وقد ترددت أحداثها في القصص التي عثر عليها اوبراين . كان من المستحيل تقريباً أن تعثر على تطور منتظم للأدب القصصي في الولايات المتحدة ، كما هو في الثقافة الأوروبية المتجانسة . ولكن أوبراين رأى مزية كبيرة في تنوع أدبنا ، وبينما كان نقاد آخرون في ذلك الوقت يتجاهلون القصص الأمريكي ، لافتقاره إلى البراعة الفنية والتكلف ، كان اوبريان ينشط في البحث عن شيء جديد تماماً ـ عن أدب أمريكي متميز ، يستحق أن يعرف وأن يشجع ضمن تعابيره الخاصة .

أحسّ أوبراين ببصيرته أن القصة القصيرة هي على وشك أن تظهر نفسها ، بنفسها كنوع خاص بأمريكا . لذلك قام وكما يقول بكلماته الخاصة : «بمتابعة تطورها وتغير مقاييسها من سنة إلى سنة واتساع ميدان اهتماماتها وازدياد ثقة أسلوبها بمر السنين» . وقبل كل شيء أظهر أوبراين قدرة مميزة على التقاط واختيار القصص النوعية ، وهي النقطة التي تمنحه الأفضلية بالنسبة لنا . وعند ظهور مطبوعات شيروود اندرسون عام ١٩١٦ ، أدرك أوبراين وجود موهبة جديدة من الدرجة الأولى ، وانبثاق نوع حديث من القصة القصيرة ، وصرح قائلاً : من شيكاغو جاءت فرقة من الكتاب بمن فيهم أندرسون ، بن هيكت ، لندساي ، ماسترز وساندبورغ ، وجاءت معهم «مادة جديدة كلياً مشبعة بحقائق الحياة التي خبروها» .

فجأة ، وكما يبدو ظهر نوع من القصص يستحق العناء الذي يبديه أوبراين لإظهاره «هذا الصراع من أجل الصدق في القصة القصيرة ، هو صراع يستحق الخوض» . كتب أوبراين عام ١٩٢٠ «إنني أخوض الصراع من قلب كل هذا الصدق . إن هذا الرجل الصامت الصادق الذي يريد أن يخبرنا شيئاً لا يجب أن نسمح بإسكاته ، من قبل بعض الضوضائيين ، بل لا بد أن يجد من يسمعه . إنه إنسان حقيقي ونحن بحاجة إليه . ولهذا أقوم أنا بهذه المهمة السنوية التي تضعني أمام العديد من القصص القصيرة لأقرأها .»

ظهرت نتائج كفاح أوبراين على مدى عشرين سنة ، في هذه القائمة الرائعة للكتاب الذين تم التعرف عليهم مبكراً ، وتم دعمهم من مختاراته الأدبية ، نذكر منهم : وينغ لادنر ، ويللا كاثر ، وليام فولكنر ، ج . ب ماركواند ، دوروثي باركر ،

ايرسكين كالدويل ، ف . سكوت فيتزجيرالد ، ثوماس وولف ، وليام ساروبان ، جون شتاينبك ، ايروين شو ، كاي بويل ، وريتشارد رايت .

في عام ١٩٢٣ كسر أوبراين قاعدته الرئيسية ـ إن القصص القصيرة التي تم نشرها في السابق ، هي فقط التي تستحق الأخذ بعين الاعتبار ـ وكان سبب الكسر هو نشر قصة قصيرة لكاتب شاب مكافح ، التقاه في سويسرا . وكانت كل قصص آرنست همنغواي القصيرة قد رفضت من قبل الناشرين ، قبل أن يلتقيه أوبراين ، وأخبره آرنست قصة مأساوية عن حقيبة ضائعة ، ومليئة بالمخطوطات اليدوية ، واعترف له بأنه محبط لدرجة أنه يريد أن يهجر الكتابة . طلب أوبراين منه أن يريه قصتين كتبهما ثم قرر أن ينشر له واحدة منهما وهي «رجلي *العجوز*» لم يمنح أوبراين همنغواي أول منشوراته فحسب بل كرس مجلد تلك السنة له ، وكان همنغواي يومها في الرابعة والعشرين ويعمل مراسلاً لجريدة تورنتوستار ، وبذلك فتح أوبراين الباب أمام أحد أكبر المستقبلات الأدبية الشهيرة في هذا القرن . بالعادة ، كان أوبراين يقضي كامل العطلة الأسبوعية قابعاً ، في غرفته بالطابق العلوي ، لا يخرج منها الا لتناول وجبات الطعام ، ومع حلول صباح الاثنين يكون قد قرأ من المواضيع ما يكفي لمدار أسبوع ، من القراءة سواء من أمريكا أو من بريطانيا (لأنه كان أيضاً يحرر مقتطفات أدبية مختارة من أحسن القصص البريطانية القصيرة) ، كما يكون قد رتّب وصنّف كل قصة قصيرة تم نشرها خلال الاسبوع المنصرم . وقدّر أنه في بعض السنين قرأ ما يقارب ٨٠٠٠ قصة قصيرة . ولو لم يكن أوبراين محرراً أدبياً لكان وجد ضالته في الإحصاء ، وبالتأكيد فإن أوبراين بعث الحياة في تلك الجداول والرسوم ، التي كانت تظهر في مؤخرة الكتب تماماً ، كما بعث الحياة في اختياره لهذه الكتب نفسها . بداية كان يقسم الكتب التي يقرؤها إلى أربعة فئات بناءً على استحقاقها ، إضافة إلى ذلك فقد كان يزود القارئ بفهرس مفسر عن جميع القصص القصيرة ، التي نشرت في تلك السنة ، وفهرساً منفصلاً للمقالات النقدية حول تلك القصص ، ونشرات المراجعة الجديرة بالقراءة على جانبي الأطلسي . وعناوين المجلات الأميركية التي تنشر هذه القصص القصيرة ، كذلك تواريخ حياة كل الكتاب المشمولين بلائحة الشرف عنده ، (بالإضافة إلى الكتاب اللذين ظهرت أعمالهم مع كتابه) ، ولائحة

شرف بالقصص الأجنبية القصيرة التي ظهرت في المجلات الأمريكية ، وموجز نقدي حول أفضل كتب القصص القصيرة التي نشرت خلال السنة . وفهرس بالقصص الأجنبية القصيرة التي ترجمت إلى الإنجليزية ، ولائحة متقنة لتصنيف المجلات بناء على القصص المميزة التي وردت فيها . وفهرس عن جميع القصص القصيرة التي تم نشرها في كتب ، وأخيراً بيان بجميع مجموعات القصص الإنجليزية والأميركية التي تم نشرها على مدار السنة . وفي مجلد عام ١٩١٨ وصل حجم الكتاب السنوي لأوبراين حول القصة الأميركية القصيرة ١٠٨ صفحات أي ثلث حجم الكتاب . بالنسبة للإدراك الحالي ، تبدو لوائح أوبراين ونظم تصنيفه مفرطة في أحسن الأحوال واعتباطية وكثيرة التفاصيل في أسوئها ولكن أوبراين كان محبوّاً بنعمة الثقة ـ وربما بتفاؤل ساذج أيضاً ـ لا يستطيع أحد من الناشرين المعاصرين أن يجاريه به . كان يعلم أن باستطاعته المراهنة على منطقته ، وتغطيتها مطمئناً أن لا ينفذ شيء من خلال الشقوق وأنه في نهاية السنة ، سيتمكن من مسح جميع التضاريس المتعلقة بالقصص الأميركية القصيرة مطمئناً بأنه لم يترك صخرة واحدة لم يقلبها . واليوم تقدم هذه المجلدات مرفقة بتوضيحات ـ إننا نعمل أفضل ما نستطيع ، وإننا نحاول أن نضع عيوننا على كل شيء ، ولكن مثل هذا الإنجاز يعتبر ببساطة ضمن المستحيل ، وتبقى كلمة «أفضل» صفة ذاتية خالصة لا تعكس أكثر من إدراك القارئ في لحظة معينة من الزمن . فقد اتسع عالم النشر بشكل كبير ، وأصبحنا نحن القراء نشعر بالإرهاق الشديد من محض مجلد ، وليس أمامنا طريقة أخرى .

إني أقرأ المئات من المواضيع الآن من الثلاثمائة أو أكثر من المجلات ، التي أشترك بها مع إدراكي الصعب بأني لن أستطيع أن أجاري هذا الوضع ، وأن المجلات والإعلام الألكتروني ، ونشرات الحاسوب وجرائد الجامعة والمجلات الأدبية كلها جزء من تضاريس لا أستطيع أن أنبش فيها ، كلها مهما بذلت من الساعات في الحفر . بلا شك كان هناك في دماغ أوبراين ما يقول بأن تلك القصص ، التي قام بنشرها تحمل في الحقيقة صفة الأفضل ، على الأقل ضمن مقاييسه هو . ولا يستطيع المرء إلا أن يبدي إعجابه بالوضوح الذي تميزت بها هذه المهمة وبالثقة التي تم فيها تنفيذها . وكإنجليزي غيور أمضى أوبراين سني رشده في إنجلترا ، وعندما قامت الحرب لم يختر

العودة إلى الأمان في أميركا ، بل قتل في لندن تحت وابل القنابل ، التي سقطت في ٢٤ شباط ١٩٤١ ، وكان عمره إحدى وخمسين سنة . وفي خضم تغطيتها للغارات الجوية لم تتخلَّ الجرائد الأوربية ، عن الثناء والإشادة بهذا الرجل الذي اعتبر ممثلاً حياً للأدب الأمريكي . تزامنت وفاة أوبراين مع نهاية زواج مارثا فولي من الكاتب والناشر ويت بيرنت . فقد قام الاثنان معاً بتأسيس المجلة الأدبية ذات النفوذ «ستوري» ، وترأسا نشرها لعشر سنوات . وفي الحقيقة كان أوبراين يسمي تلك السنوات العشر من ١٩٣١ ـ ١٩٤١ بعقد ستوري . لقد كانت مجلة ذات تأثير كبير ، لدرجة أنها أصبحت مسرحاً لإثبات الوجود للعديد من الكتاب الجدد .

كانت مارثا في إحدى المرات تقوم بزيارة لأوبراين في لندن ، وسألته ماذا يمكن أن يحصل لسلسلة أفضل القصص الأميركية القصيرة ، إذا ما حدث له مكروه ؟ كان أوبراين يجيبها بدون قصد ، آه ، سوف تهتمين بها أنت . وكما تبين لاحقاً توجهت هوتون مفلين فوراً إلى محرري «ستوري» ، بعد الوفاة المفاجئة لأوبراين وعرضت العمل عليهما معاً ، تقول فولي أن ويت رفض قائلاً : لا أريد أن أقرأ كل تلك المجلات اللعينة ، أما فولي فقد تركت ستوري وراءها عام ١٩٤١ للاهتمام بسلسلة أفضل القصص الأميركية القصيرة . وكانت تلك مهمتها العتيدة لسبع وثلاثين سنة لاحقة . في الوقت الذي خطت فيه مارثا خطوتها نحو عملها الجديد كانت قد أصبحت معروفة بين الكتاب لدفاعها الحار عن الأدب الجاد . ويقول أروين شو : إنها كمحررة مشاركة في ستوري أبقت تلك الراية الممزقة مرفوعة بشجاعة ، وحافظت لنا جميعاً على بصيص من أمل . والآن وقد أصبحت من أقوى وألمع المحكمين في تذوق القصص الأمريكية القصيرة ، انطلقت للبحث عن القصص القصيرة ذات القيمة الأدبية ، والتي لولاها لبقيت منسية ومجهولة ، وأعطت لهذه القصص الاستمرار في الكتب . ومثلها مثل سلفها أمنت مارثا بأن الأدب هو انعكاس للروح الوطنية ولهذا فهو يستحق الدفاع عنه . «وأمام الخلفية المأساوية للأحداث العالمية اليوم ، كانت مجموعة من القصص القصيرة تبدو هامشية جداً في الأهمية» . كتبت مارثا في مقدمتها الأولى عام ١٩٤٢ ، «ولكن رغم ذلك ولأن القصة القصيرة ظلت هي التعبير الأدبي التقليدي الخاص ، بأمريكا منذ ظهور واشنطن ايرفنغ وادغار آلان بو ، ولأن

أمريكا تدافع اليوم عما تملكه ، فإن للقصة القصيرة الحق بأن توضع بين المؤسسات الثقافية التي تكافح البلاد من أجل الدفاع عنها . ففي قصصها القصيرة يمكن لأمريكا أن تسمع شيئاً يقال ويُسمع صوته ، رغم هذه القنابل المدمرة وزحف طوابير ألوية عسكر الدبابات . هذه هي الحقيقة ، حقيقة أن أمريكا قد أصبحت أكثر وعياً من قبل للقيم الإنسانية ، التي تقف في وجه التآمر النازي ، وسط عالم ماتت فيه هذه القيم» . تابعت فولي وكما كانت تفعل في «ستوري» تمييزها بين الكتاب المعروفين ، والكتاب الجدد الذين بدؤوا يشقون طريقهم وكانت ترى إنه ، «على الرغم من كتاباتهم التي تفتقر غالباً إلى الثقة إلا أنها تظهر طازجة ومؤثرة» . كذلك أولت مارثا اهتماماً خاصاً بالمجلات المحلية والصغيرة التي كانت ترعى هذه الأصوات النامية . وقد نالت مكافآت كبيرة على جهودها تلك فخلال وجودها على رأس عملها في تحرير السلسلة كانت مارثا من بين أوائل الذين ساهموا في إبراز مواهب العشرات من الكتاب الذين لاقوا ترحيباً واسعاً بين الناس ، ومن بينهم : سول بيللو ، برنارد مالامود ، فيليب روث ستانلي إلكن ، ديلمور شوارتز ، فلانري اوكونور ، و . هـ . غاس ، فلاديمير نابوكوف ، بيتر تايلور ، ايدورا ولتي ، جويس كارول اوتس ، ج . ف . باورز ، راي برادبوري ، ليونيل تريللنغ ، شيرلي جاكسون ، جاك كيراواك ، جيمس آجي ، جون ابدايك ، روبرت كوفر ، وجين ستافورد . وعلى مدى الأربعينيات والخمسينيات والستينيات من القرن العشرين بقيت فولي مسؤولة عن كتابة ، وتقييم ما يقارب ألفي قصة أمريكية ، يتم نشرها سنوياً . لم تكن تفتقر أبداً إلى القدرة على العثور على الأعمال الجيدة واختيارها . ولكنها لم تكن تستطيع أن تتحمل ، أن ترى محرري المجلات أو المساهمين خانعين وراضين ، لذلك كانت تطلق التعليقات كل سنة وأحياناً بصراحة قاسية حول القصص ، التي لم ترض بها ، وحول الكتّاب الذين يحبطونها ، أو يفشلون في الحفاظ على سمعتهم الأدبية على صفحات المجلات .

مع حلول أواخر الخمسينات ، بدأت فولي تشعر باختراق تيار الزمن المحافظ للقصة الأمريكية ، فرفعت صوتها احتجاجاً وهي تقول : «إن الأرض التي تقوم عليها مملكة التفكير ويعبر الجميع على بساطها الأخضر ، يستحسن أن يظهر فيها بعض المغامرين» . كانت متصلبة في رأيها ، وجريئة في كلامها ولم يكن هناك ذرة من شك

في أن ولاءها كان مع الأدب الجاد ومع الرجال والنساء الذين يشدهم التزامهم إلى كتاباتهم ومنشوراتهم . كان عليها أن تحارب النزعة التجارية في كتابة القصص ، مهما بلغت التكاليف واسترسلت في مقدمتها تقول «هناك مكان اسمه الجحيم» .

ولكن اسم المكان تغير ليصبح «ماديسون افنيو» . كانت تحب أن تفرض ظلها بشكل خاص على محرري المجلات ، «رجال أعمتهم القصص» . هكذا كانت تدعوهم فهم يحاولون ترويج بضاعة سيئة بين القراء .

أمضت فولي عمرها تقرأ وتنشر القصص القصيرة ، وقد استحقت لقب «أفضل صديق عرفته القصص القصيرة» . ولكن مع تقدمها في العمر بدأ ذوقها يضيق بدلاً من أن يتوسع ، ومن غير المستغرب أن بعض القراء والنقاد شعروا بأن المجلدات أصبحت أكثر وأكثر قابلية للتنبؤ بها . في عمرالسبعينات ، كانت فولي قد بدأت تفقد لمستها أكثر وأكثر مع تحول التيارات في القصص المعاصرة ، ولم تعد قادرة على بعث الحياة في سلسلتها ، تلك السلسلة التي جعلتها في يوم من الأيام زعيمة التوجهات الأدبية .

أمضت فولي سنيّها الأخيرة وحيدة في شقتها المفروشة والمكونة من غرفتين ، في نورث هامبتون بولاية مساتشوستس . ورغم أنها كانت تعاني من ضائقة مالية ، إضافة إلى آلام شديدة في الظهر لم ترض أن تترك عملها ، بل على العكس وضعت الشجاعة بين عينيها وأخذت تعمل كل يوم ، لتكتب مذكراتها وتقرأ ما تستطيع من القصص القصيرة ، كما كانت تعمل في السابق . وتوفيت مارثا فولي في الخامس من أيلول عام ١٩٧٧ وهي في الثمانين من العمر . بعد أن ظلت قوة دافعة في الأدب الأميركي لنصف قرن .

للمرة الثانية فقط في تاريخ السلسلة ذات الاثنين وستين عاماً من العمر ، عادت دار هوتون مفلين لتبحث عن شخص يرغب في الاستمرار . والتفت الناشرون أولاً نحو تيد سولوتاروف ، وهو ناشر وناقد لامع ولكنه أحجم عن المنصب وواجههم بفكرة أخرى من عنده : بدلاً من استبدال مارثا فولي اقترح سولوتا روف أن تتم دعوة كاتب أو ناقد مختلف لتحرير كل مجلد على حدة . وافقت هوتون مافلين بتعقل ، بعد أن لاحظت أن تنوعاً في وجهات النظر قد يضيف نشاطاً وحيوية إلى السلسلة ويعطي

أبعاداً جديدة لعناوينها . لذا ومع استخدام عنوان «الأفضل» لتسلسل الأفكار والمعلومات التي اكتسبت قوتها من تنوعها ، ومع موافقة سولوتاروف لينزل ضيفاً كمحرر أول انطلقت السلسلة في اتجاهها الجديد .

حاولت شانون راڤاينل وهي محررة أدبية شابة ولامعة تعمل لدى هوتون مافلين ، أن تدعم أعمال مارثا فولي في سنيّها الأخيرة ، من خلال استطلاع القصص لها ، وعلى الرغم من أن معظم محاولاتها لاقت صدىً ، إلا أن راڤانيل أصبحت نصيرة للسلسلة . كان عليها أن تقف على إعادة ولادة المقتطفات المختارة . الآن مع وجود وجه أدبي معروف ومختلف يقوم باختيار القصص ، بدأت الإثارة تعود إلى الإصدارات السنوية «أفضل القصص الأميركية القصيرة» ومع حلول عام ١٩٩٠ ، عندما تركت راڤانيل منصبها كانت ، «أفضل القصص الأميركية القصيرة» تعتلي مركزها كألمع المختارات الأميركية السنوية في مجلدها الأول .

قدمت فولي هذا التعريف المنفتح ، والبسيط للقصة القصيرة الناجحة فقالت : «القصة القصيرة الجيدة ، هي قصة لا تطول كثيراً وتعطي القارئ شعوراً بأنه قد عاش تجربة سيظل يتذكرها» .

وخلال عملية قراءة ١٢٠ قصة قصيرة أو أكثر واختيار ماسينشر منها في الكتاب ، كان على المحررين الضيوف أن يوضحوا في نقطة ما مقاييسهم الشخصية ، إن لم يكن بتعريف القصة القصيرة فبالتشبث على الأقل بأسئلتهم التي رفعوها . ماذا يتوقعون من القصة القصيرة الجيدة ؟ كيف يحكمون على عناصر الأسلوب والموضوع والتشخيص من خلال قراءة المقدمات الموضوعة من قبل بعض الكتاب الرئيسيين عبر العقدين الماضيين؟ كان المرء يصدم ليس فقط بالدعم الحار لشكل القصة فحسب ، بل بالإرادة في قراءتها وإعادة قراءتها ومحاولة تصنيف هذا الجهد الإنساني في النهاية بذاتية تامة .

وحين يفتقر المحررون الضيوف كمجموعة إلى الثقة الذاتية العالية التي امتاز بها ، اوبراين عندما يتطلب الأمر اختيار الأفضل ، فإنهم يضيفون إلى مهمتهم خبرة وافرة وسلسلة واسعة من وجهات النظر ، وحيوية لا يستطيع محرر سنوي واحد أن يحتويها أو أن يستديم بها . أيضاً تعرض المقدمات الآن ـ بكامل عشرينها ـ ثقافة حقيقية

تعكس ما يجب أن تكون عليه القصة القصيرة ، على الأقل بالنسبة للبعض من أفضل المتمرسين في هذا الفن . ينصح رايموند كارفر في عام ١٩٨٦ قائلاً :

«تجنب الإهمال في الكتابة تماماً كما تتجنبه في حياتك» .

كتب جون غاردنر عام ١٩٨٢ : «أريد قصصاً يظهر فيها الكاتب صريح اهتمامه وليس تجرداً حساساً يعتمد وقاية الذات» .

ويقول غيل غودوين متأملاً عام ١٩٨٥ : «كلما ركزت على المفرد والغريب وأبديت له احتراماً أصبحت أكثر إدراكاً للكلي واللا محدود .»

وفي مقدمتها التي عرضت عام ١٩٨٣ دافعت آن تايلور بسخاء قائلة :

«إن أكثر كتبة القصة القصيرة جاذبية هو المتشرد فهو لا يختزن أفضل أفكاره لأمرهام ولا يهمل مادته لأنه قصة قصيرة فقط» .

وبعد عشر سنوات أيد لويس أردريش كلامها قائلاً : «إن أفضل القصص القصيرة هي تلك التي تحتوي على الجديد وغير المألوف . فإما أنها محبوكة على نحو مفرط بحيث يشكل كل سطر فيها نفاذ بصيرة أو أنها تقطر عواطفاً تنتشر بسهولة على صفحاتها وبين فصولها» .

ومنذ عام ١٩٨٨ عندما اختير مارك هيلبرن لقراءة القصص التي يتم التعتيم على كاتبها حتى لا يظهر أية محاباة لاسم أو لسمعة ، اتبع معظم المحررين الضيوف تلك المنظومة ، وكما كتب توبياس وولف عام ١٩٤٤ ، أن تقرأ وأنت «أعمى» هكذا ، يعني أن تضمن اختيار «القصص وليس كتابها» . نتيجة لذلك وفي السنين الأخيرة شهدت المقتطفات تنوعاً غنياً فاق التصور من القصص ، التي كتبت على يد كتاب جدد ، إضافة إلى أعمال لكتاب مشهورين في قمة عطائهم .

عندما استلمت العمل كمحرر للسلسلة عام ١٩٩٠ ، كنت أدرك قبل كل شيء مدى التفاني الذي قدمه أسلافي الثلاثة السابقون لهذا العمل . فقد كان أدوارد أوبراين ومارثا فولي بالنسبة لي أشخاصاً أسطوريين قضوا وأحذيتهم في أقدامهم يقرؤون القصص حتى النهاية . أما شانون رافنيل التي قادها ذوقها السديد وحكمها المتبصر إلى النجومية في هذا الحقل ، فهي المسؤولة عن رفع مستوى السلسلة إلى درجة عالية من الشعبية ، والنجاح النقدي . لذلك بدا لي هذا الحذاء الذي سأخطو

به كبيراً جداً بالنسبة لقياسي .

كانت راڤانيل تطلق أصداءً حولي وهي تمرر هذه الكلمات الحكيمة ، إذ تقول : «اقرأ كل شيء ، ولا تعر اهتماماً لمن كتبه أو لأي شعور تحمله نحو الكاتب في السابق» . كانت هذه نصيحة جيدة . فقد كان معدل قراءتي في السنة العادية ، ثلاثة آلاف قصة منشورة في المجلات الأميركية والكندية . ومن هذه القصص كنت أقتطع ١٢٠ لأمررها إلى المحرر الضيف ، الذي كان يختار المقتطفات النهائية . وبينما نحن في خضم مناقشة القصص ومقارنة الملاحظات تبدأ المجموعة بالتكامل . «إنني ممتنة بثبات لهذه الطريقة التي تضمن أن تخرج «أفضل القصص الأميركية القصيرة» التي تبقى كما كانت بالنسبة لفولي «ببساطة مجموعة من القصص التي أفضلها» .

خلال عملي كمحرر للسلسلة تشكلت هذه المقتطفات من أذواق وميول لعدة مواهب مختلفة نذكر منها روبرت ستون ، اليس آدامز ، لويس اردريش ، توبياس وولف ، جين سمايلي ، جون ادغار وايدمان ، وآني برولكس وجاريسون كيللور . وهذه المقتطفات التي جمعوها شكلت انعكاسات صادقة لماهيتهم وللحيوية النشطة للقصة الأميركية مع انتهاء القرن .

وفي مقدمته التي وضعها في أول مجلد للسلسلة ، «أفضل القصص الأميركية القصيرة» كتب أدوارد اوبراين : «خلال السنة السابقة قرأت أكثر من ٢٢٠٠ قصة قصيرة ، بروح نقدية ، وقد ملأتني هذه القصص أملاً ثابتاً بمستقبلنا الأدبي» . خلال السنة السابقة قرأت كل قصة من الألفي قصة التي جمعتها في هذه المجلدات منذ عام ١٩١٥ ، إنها تجربة لا يمكنني أن أفوتها ، وقد جعلتني فخوراً جداً بأدبنا الغابر . كان أوبراين يقول دائماً : إن السنة التي تخرج فيها قصة عظيمة هي سنة استثنائية ، وأحياناً بالطبع لا يتم التعرف إلى مثل هذه القصة ، إلا لاحقاً وأحياناً تسقط قصة سبق لها وأن حصدت المديح أول ظهورها أمام امتحان الزمن . وافق جون ابدايك مشكوراً ،وهو الذي يحمل امتيازاً بأنه الكاتب الوحيد الذي بقي على قيد الحياة والذي ظهرت قصصه في هذه المجلدات على مدى كل العقود ، التي أعقبت بداية الخمسينات من القرن العشرين ، على قبول التحدي الرهيب الذي يتطلب تحديد أيّ من قصص القرن المفضلة تستحق إدخالها في هذا المجلد . وعندما وصل الأمر إلى

قصصه ، أحال الموضوع علي ، على الرغم من عدم موافقته على القصة الطويلة التي كنت سأختارها وأصر على قصة أقصر بدلاً منها .

وكشاهدة على تلك الطريقة المضنية والمؤلمة أحياناً التي اتبعها السيد ابدايك ، في اختياره ورفضه يمكنني أن أصادق على الجهد المضني المبذول ، خلف كل قصة ظهرت في هذا المجلد ، لقد وضع في اعتباره أن يتولى هذه القصص عقداً وراء عقد ، وأن يتمحص كل واحدة منها ضمن سياقه وسياق زماننا . ويكفي أن أقول أنه لا يوجد كاتب أو محرر أو ناقد اليوم يستطيع أن يؤدي مثل هذا العمل ، بهذه الروح من الفطنة والإخلاص لزملائه الكتاب . لقد قدم لنا جميعاً قراءً أو كتاباً خدمة جليلة .

كاترينا كنيسون

مقدمـة

بقلم: جون أبدايك

تم اختيار هذه القصص أربع مرات، المرة الأولى اختيرت للنشر في مواجهة نزاعات حادة. لأن ستوري تقدم تقارير حول عشرين ألف إحالة سنوياً في حين تتسلم *بلفشيرز* ٧٥٠ شهرياً وذي نيويوركر ١٥٠٠ أسبوعياً، لاحقاً يتم تمحيص القصص المنشورة، والتي ذكرت كاترينا كنيسون في مقدمتها بأنها قد تصل إلى ٣٠٠٠ قصة جمعت من ثلاثمائة مجلة أمريكية، من أجل إدخالها في المجلدات السنوية لأفضل القصص الأمريكية القصيرة في هذه السنة. وتحتوي المجلدات الأربعة والثمانون التي صدرت منذ عام ١٩١٥ على ألفي قصة، قامت الآنسة كنيسون بقراءتها جميعاً، وأحالت علي أكثر من مئتين كما طلبت مني قراءة بضع عشرات أخرى. من بين هذه المجموعة الثالثة اخترت واستناداً إلى مشورتها المباركة هذه القصص الخمسة والخمسين، أقل من واحد إلى أربعة. ولقد أثارت محيطاً عميقاً من الرفض والإقصاء حول هذا الأسطول الصغير الشجاع الذي يبدي أفضل الأفضل.

كان لا بد من إدخال بعض الكتّاب، وهذا كان واضحاً من البداية أن أي مقتطفات مختارة للقصة القصيرة في هذا القرن لا تحتوي قصة لهمنغواي أو فولكنر أو فيتزجيرالد تبقى ناقصة وخاطئة. كذلك الأمر بالنسبة للثلاثي النسائي كاترين آن

بورتر، فلانري اوكونور، وايدورا ولتي. ومن كتّاب ما بعد الحرب كان يجب أن نذكر بيللو وروث ومالامود، على الرغم من أنه يمكننا القول أن مالامود وحده، هو الذي كرّس جزءاً كبيراً من عمله للقصة القصيرة. ولو توفر لنا لجون أوهارا وماري مكارثي (وهما أميركيان من أصل إيرلندي ذوي نزعة اجتماعية في الكتابة)، لكنا شملناهما أيضاً ولكن كلاهما لم يصنفا ضمن الأفضل، ومن تجميع هذه القصص السنوية القصيرة، تستثنى المقتطفات من الأعمال الكبيرة على الرغم من أن بعضها قد ينسل خلسة. ومن بين هؤلاء كان جاك كيرواك ووليام غوين الذين قدما تحفة من القصص.

لقد سرت على هداية مبدأين شخصيين، أوجدتهما لهذه المناسبة الأول أني أردت أن أجعل هذه المختارات، انعكاساً للقرن مع إعطاء كل عقد حصصاً متساوية وصلت من ٦ ـ ٨ قصص للعقد الواحد. وكما تبين فيما بعد، شهد عقد الخمسينات تغيراً قصيراً مع إقصاء قصة بيتر تايلور «*زوجة من ناشفيل*» وقصة جيمس بولدوين «*سونيز بلوز*» في اللحظات الأخيرة، على الرغم من أنه كان عقداً تنشيطياً بالنسبة للقصص القصيرة، ذلك قبل أن تبدأ خرافات التلفزيون لتأخذ موقعها المركزي على الساحة.

أما المبدأ الثاني فيقضي بأن فرض مثل هذا الانعكاس للحقائق الأميركية، أي استثناء أي قصة لم تقع أحداثها على هذه القارة أو لم تتعامل مع شخصيات من الولايات المتحدة أو كندا، كان هذا يعني استثناء القليل، ومع ذلك فقد صادفت في مختارات الآنسة كنيسون قصة حول العسكرية السوفياتية في الحرب العالمية الثانية، («شوتون ڤيل لكاتبها ويل لفنغتون كومفورت») وقصة تقع أحداثها بين عائلة صينية متعددة الزوجات (إلهة المطبخ بقلم جوليما فيلل السوب)، وأخرى تحكي عن الغجر قرب البحر الأسود (*وفاة موردو* بقلم كونراد بيركوفيشي)، وحكاية خرافية عن الحطابين في إسبانيا الجديدة (*الضيف الثالث* بقلم ب. تراڤن). وأخرى عن عازف قيثار تشيكي (*المستمع* بقلم جون بيري) وأخرى تقع أحداثها في قرية إفريقية (*ناس التلال* بقلم اليزابيث مارشال)، كذلك قصة تحكي عن ساحر من براتسلاڤا في القرن التاسع عشر (*ايزنهايم المخادع* بقلم ستيفن ميل هوسر) ومجموعة مترابطة من القصص حول رسائل إنجيلية اليزابيثية تحكي عن وفاة كريستوفر مارلو (*الصحوة الكبيرة في الغرفة الصغيرة* بقلم جيفري بوش)، وقصة قاسية عن حياة يتيم دنماركي (*الغابة* بقلم

ايللا لفلاند) ، وقصة تبدأ بالحديث عن «رجال في ميونيخ يشبهون ابن عرس» (شرويدر سبتز بقلم مارك هيلبيرن) وعدة قصص عن الحياة في ايرلندا بأقلام مايڤي برينان وماري لاڤين ، وقصة غنائية عن الزواج المرتب بين العائلات البرجوازية الباريسية (عبر الجسر بقلم ماڤيس جالانت) ، ورواية نسائية عميقة وفكاهية حول بعض النساء في أمريكا اللاتينية اللواتي سكنوا قارة انتاركتيكا ووصلوا إلى القطب الجنوبي قبل سنوات من وصول امندسن ، («سور» بقلم اورسولا ك . لوجوين) . كل تلك القصص لم تحدث هنا . فقط «ذات مرة في حلب» ، بقلم فلاديمير نابوكوف ، (والشال بقلم سنثيا اوزيك) حدثتا هنا ، ولكن تحت حجة ضعيفة بأن بعض شخصياتها ، (غير معروفة في حالة اوزيك) كانت قادمة إلى أمريكا . وتعتبر الهجرة مساراً مركزياً في القصة الجماعية الأميركية ، والقصتين الأوليتين في مجموعتي هذه تحكي عن تجربة المهاجرين ، يهودي في الحالة الأولى وإيرلندي في الثانية ، أما القصة الثالثة فتصور حياة الريف المعجونة بالكدح والعزلة والتي كانت مألوفة في السابق في حين يعيشها الآن ١٪ من السكان يقومون بإطعامنا جميعاً ـ إحدى أشهر التحولات التي شهدها هذا القرن . كان العقد الثالث من القرن العشرين والذي تفتتحه هنا شيروود اندرسون عقداً ذا شخصية مميزة ، علق بين بداية قانون التحريم عام ١٩٢٠ وانهيار السوق المالي عام ١٩٢٩ وتميز بحدة جديدة وحيوية . كان في أسلوبه وفي نغمه مفعماً بموسيقى الجاز الأميركية . وكانت الأقلية الأميركية في المدن ، التي أنتجت معظم هذه الكتابات تشعر باستعلاء أقرب إلى العدواة نحو من دعاهم هـ . ل . منكن «البوبوازي» ، والذين ساهمت أصواتهم الانتخابية في إنجاح التحريم والرقابة التطهيرية ، ومحاكمات سكوبز وكالڤن وكوليدج . كان ينظر إلى أفراد الطبقة الوسطى المزدهرة كأدوات للتحكم في قصص سنكلير لويس ورينغ لاردنر . وعلى الرغم من أن الاثنين ينتميان للغرب الأوسط الملتهب حماساً في ذلك الوقت إلا أن السخرية كانت أكثر رقة مما قد تبدو لأول وهلة . فقصة لاردنر «شهر العسل الذهبي» ، هي قصة سوريالية في تفاصيلها الدقيقة المتعلقة بمشهد الشخص الواحد منها تتوفر فيها معلومات حقيقية ، حول كيفية قضاء إجازة في فلوريدا من قبل طبقة معينة من مواطني شرق أميركا . قد أطلقت الأداة المستخدمة من قبل الراوي الذي يتهم نفسه

في هذه القصة والتي استخدمت بطريقة أرق وأكثر حذقاً من رواية لاردنر المعروفة «تسريحة» ، وصفاً لشخصيات أميركية (لا يجب خلطها مع الكاتب) ، يمكنها أن تجلس عى مائدة في مقهى باريسي سعيدة في غربتها . وما عدا القصص التي تحكي عن طفولته ، لم يضع همنغواي فرصة للإطناب حول الحياة في أمريكا ، وقد ظهرت للجميع وكأنها حياة عمل رتيبة . قصة البلدة أو المدينة الصغيرة المحاطة بالمزارع ، تحيا في جو من الأحلام في فترة ما بعد الكالفينية ، والطبيب المحلي الأقرب إلى شخصية البطل الذي يعد المسرح الكلي للوجود مع قصص تلك الفترة ، ليس فقط في قصة اندرسون ولويس ، ولكن في قصص همنغواي المثيرة «القمة» و«مع *الولد الذي يسردها*» و«*القتلة*» ، وكذلك في قصة ويللي كاثر «عيد ميلاد مزدوج» التي تدور في مدينة كبيرة في مثل دفء وعظمة هاملت الجنوبية .

لم يعد موضوع الجلافة الريفية الساحرة والمعتدة بنفسها ، يفرض نفسه بإلحاح في عقد الثلاثينات المظلم ، فقد بدت قصة دوروثي باركر «*ها نحن هنا*» ، والتي تحوم حول زوجين في شهر العسل ، محتارة بين أن تبتسم أو أن تبكي ، كذلك بطلة قصة كاترين أن بورتر «*السرقة*» ، تواجه عدمية حياتها بدون أن تشعر بالشفقة على روحها وسط العلاقات العابرة والسلبية في المدينة . كان هناك فترة ازدهار للقصة القصيرة ، ذورة في عطاء «*ستوري*» «*وأمريكان ميركوري*» ، ففي مسحة مزهوة مفعمة بالحماس يجمع وليام ساروبان في عبارات قليلة طائشة قصة حياة مكتنفة بالغموض الديني وحياتية في «بطريقة غير قابلة للموت» . ويضفي وليام فولكنر وروبرت بن وارن على عالمهم الجنوبي الصغير ، مدى وحدّية متراكمة لرؤية الراوي . كان فولكنر قد نقل حل العقدة في روايته «*غروب الشمس في ذلك المساء*» . إلى رواية صدرت له بعنوان «*الصخب والعنف*» عام ١٩٢٩ ورغم أنه كان يعتبر أحد الرسل لمجموعات أفضل قصة أمريكية قصيرة ، ممثلاً بقصة سنوياً في عقد الثلاثينات ، لم يكن هناك إمكانية لتجنب ذكر رائعته الخاصة ، وقصته الأكثر اختياراً ، التي استحضر فيها بأقل قدر من البلاغة حكم القدر الذي يوشك أن يتم . أما قصة فيتزجيرالد عن هوليود ، فقد ربحت أولوية الاختيار بشكل محدود على قصته المعروفة ، أكثر «*إعادة زيارة بابل*» ، والتي مثلت نهوضاً حزيناً لثقافة العشرينات المهاجرة . قصة الكسندر غودين «*أخي*

الميت يأتي إلى أمريكا» ، تعيد خوض تجربة الهجرة بأسلوب يسهب في الذكريات التي تتوقع عالماً سحرياً . والقصة الأطول بين هذه الصفحات ، وربما الأكثر إثارة هي قصة ريتشارد رايت «*نجمة الصبح الساطعة*» ، وهي ذكرى مؤلمة لزمن كان فيه الأميركيون السود يرون أملهم الوحيد في الحزب الشيوعي . فقد عاش الأميركيون الأفارقة حياة مفجعة وما زالوا يعيشون لدرجة مفجعة في بلد آخر داخل الولايات المتحدة ، تغيب عنه جميع معالم الأمان والاستقرار التي يتمتع بهما البيض . لقد حاولت أن أعطي صورة عن تمثيل البلاد ، بدءاً من قصة جين تومر «*القمر الذي يحترق دمه*» عام ١٩٢٣ إلى قصة كارولين فيريل «مكتبة حقيقية» عام ١٩٩٤ ولو سمح المجال لأضافت قصص لجيمس بولدوين وآن بتري نواح عنيفة وبائسة أخرى من الصورة . وحتى ايفي ليجر الفتى المحبوب وغير المتحيز في قصة جيمس آلان ماكفرسون ، «*الشاطئ الذهبي*» يجد نفسه في النهاية على الجانب الخاسر من التمييز العنصري . حاولت أن لا أختار القصص ليس لأنها تظهر مواضيع أو أجزاءً من التجربة الوطنية ، ولكن لأنها صعقتني بحيويتها وجمالها ومصداقيتها ، ولأهمية الأفكار الإنسانية التي جادت بها ، كانت إغراءات القصص التوضيحية شديدة في العقود الأولى ، والتي مثّلت بالنسبة لي حقبة تاريخية بالأساس ـ زمن آبائي ـ ومع حلول أربعينات القرن العشرين . أصبح الزمن زمني وأخذت القصة القصيرة منحى داخلياً بعيداً عن الحالات الاجتماعية ، وقريباً من الحالات الذهنية . بالنسبة لشخص مميز ويشعر بسعة مداه أصبحت الحقائق أكثر غموضاً . لم يعد واضحاً دائماً ، ما الذي يريد الكاتب منا أن نشعره ، دخل كاتب القصة القصيرة في منافسة مع الشاعر ، فرأيناه يطلب لنفسه ما أفصح به خيال الراوي في «*الأرض اليباب*» والذي قدم لنا قصة على شكل مقطوعات متناثرة .

يغيب دفء المدن الصغيرة بقوانينها وكبتها ، عن البلدة المضطربة الكسولة التي يزورها البائع المتجول في قصة ايدورا ويلتي «*المتجولون*» فهو يظن نفسه حراً بائساً . وويلتي هنا ، رغم ربطها عادة بزميلها فولكنر القادم من مسيسيبي ، تبدو أكثر وكأنها من مريدي همنغواي أو شقيقة لفلانري اوكونور ملكة العنصر الجرماني . الحر هنا يعني البائس ، وحريتنا الأمريكية كي ـ تنجح ـ تفشل ثم تنطلق ـ تملك جانباً

سفلياً كئيباً ومريراً ، إدراك سوداوي للتفاهة المطلقة التي تسكن المدينة الكبيرة ،من زاوية جين ستافورد «*القلعة الداخلية*» ، و إي . ب . وايت «الشجرة الثانية بعد الزاوية» وتشير قصة وايت عرضياً إلى بواكير ظهور مختارات من ذي نيويوركر . التي أسست عام ١٩٢٥ ، وسعى محرروها ، زوجة وايت كاثرين ، بالدرجة الأولى ، لإضفاء صفة عرضية عليها كسلسلة سريعة ، وخفيفة إلا أنها كانت بطيئة في اللحاق ، «بأفضل القصص الأمريكية القصيرة» ، والذي مهما قيل حول خلفية مجلتها بدت هزيلة أمام القصص الأكثر مجوناً وعنفاً . كان يمكن لنيويوركر أن تنطلق ولكنها لم تفعل . قصة اليزابيث بيشوب الشفافة «*أولاد المزارع*» كانت خرافة رائعة بشكل لا يحتمل أصبحت فيها الآلات الزراعية والبرد في كندا . رسل من عالم جهنمي ، يحتاج الأمر إلى شاعر عبقري ، وطفل بائس لكي يقوما بحبك مثل هذه الصور المضيئة الجارحة .

كل شيء ليس سوداوياً . فمن أكثر الأسس كآبة ، دفن طفل ، تمضي قصة بول هورغان «*نواة الخوخة*» لتصل إلى إثبات الخلاص . أما قصة فلاديمير نابوكوف ، التي تصور حالة الفوضى والرعب التي عاشها اللاجئون مع نهاية حربِ هتلر ، فقد أدخلت إلى الإنجليزية عينة مبكرة من حيله الفريدة ، لقد أدهشني أن الحرب العالمية بشدتها وقسوتها لم تترك سوى أثر هزيل في قصص ذلك العقد ، مقارنة بغيره . ربما تأخذ الأحداث الجسيمة وقتاً أطول لتنفذ إلى الأدب . ومع ذلك فأنا أتذكر مجلات الأربعينات التي كانت مليئة بالقصص ، عن المعسكرات والجبهات ــ الكثير منها كانت بلا شك مليئة بشكل زائد بالعواطف والمزاح بالنسبة لذوقنا . ولكنه أدى عمله كبلاغ للجبهة الداخلية . واستجابة للطلب ، جاءت الآنسة كنيسون ببعض القصص ومنها تمهيدة إدوارد فينتون ، «*دفن في الصحراء*» التي تصور حصاد الأجساد في حملة شمال إفريقيا ، وفي النهاية جاءت قصة مارثا غيلهورن فقط بغزلها غير الكافي «ميامي ــ نيويورك» لتنقل لي شعور أمريكا أيام الحرب . الاضطراب العام الذي شمل حالات من التعرض للغزل والإعياء المتواصل والطيش المُعْدي .

جاءت الخمسينات على رغم قلة تمثيلها ، ممثلة بشكل أنيق بقصتين من روائع كتاب القصص القصيرة في القرن : جون شيڤر وفلانري اوكونور وقد غطت قصصهما

مناطق عدة من البلاد ومن المجتمع ومن العالم الأدبي ، ولكنهما كانا متشابهين في القدرة على بناء قلاعهما القصصية بسرعة تماماً ، عند حافة السخف . كتبا بضغط موحى ووضوح عالم ولم يحمل نثرهما أي تناقض أو بعد عن الإيمان ، فقد كان الاثنان متدينين ـ اوكونور التي كتب لها أن تموت ميتة عنيفة ، وهي في ريعان شبابها وقد مكنهما هذا الإحساس فوق المادي بأن يسبغا نوراً على شخصيات قصصهما مثل المصابيح الورقية ، وأن يضفيا دفعة كهربائية لصعقتهم ويضعا المآسي الإنسانية في سياق أخلاقي جياش .

كل من «*الورقة الخضراء*» و«*الزوج الريفي*» ، تصوران الحيوانات ـ ثور وكلب ـ ضمن وجود روحي ، وقصة جـ . ف . باورز «*موت محظية*» تروى على لسان قطة وتأثيرها ليس تافهاً أبداً . فبالنسبة لباورز الذي كان كاثوليكياً مثل اوكونور شكلت الحياة الدنيوية العازبة المنغمسة بالسياسة ، التي كان يعيشها الرهبان هاجساً استثنائياً وخطيراً . قلة من كتاب القصص ذوي الجدارة العالية ، راهنوا بالدخول إلى مثل هذا المجال الضيق ، ولماذا ؟ قد يسأل القارئ ، مع وجود كل هذه الأعمال المحترفة ضمن الاختيار ، قمت بإدخال قطعة خفيفة تميل إلى ربط غير منطقي ، وتظهر وكأنها سريعة الزوال . حسناً هناك تحولات خطيرة تعلق ضمن عدم الثقة المؤدية التي تظهرها تينيسي ويليامز في قصتها «*الشبه بين صندوق الغيتار والتابوت*» ، ورغم أن الكاتب كان يخشى أن القصة سوف تبدو وكأنها تفقد نفسها مثل مر جبلي ، ظل يرتفع حتى ضاع أثره وسط العليق ، حين يصل إلى إدراك مزدوج بأن أخته مريضة نفسياً وأنه لوطي . بشكل عام توجد قصص أقل مما كنت أتوقع تمس تجارب اللواطيين ـ لم يكتب الكثير منها على ما أعتقد قبيل عام ١٩٧٠ أو ما شابهه ـ ولكن الأكثر كان عن الموسيقى والأداء . قصة فيليب لوبيت «*ليلة الموسيقى*» ، وقصة شارلز باكستر «*انسجام العالم*» كانتا رفيقين ومؤثرتين وقد آلمني أن لا أجد لهما مكاناً .

في الستينات ، وعلى الأقل إلى الوقت الذي اغتيل فيه الرئيس كينيدي عام ١٩٦٣ . وربما حتى إلى الوقت الذي عمق فيه الرئيس جونسون تورط الولايات المتحدة في حرب فيتنام عام ١٩٦٥ ، ظل هناك امتداد يندر تمييزه لعقد الخمسينات . على أي حال علينا أن نتذكر حين نحاول النظر إلى أن القصة تعكس زمنها ، فإن الكُتَّاب

عامة يكتبون عبر عدة عقود ويجمعون مكونات تعابيرهم ، في عقود باكرة . عالم سول بيللو على سبيل المثال بقي أساساً في عالم الثلاثينات ، عالم الصحوة والاندفاع . قصة لورنس سارجنت هال «*الحيد*» لا تعبر عن زمن معين ـ حكاية عن الطبيعة ، رهيبة في بساطتها وقسوتها ، مثقلة بالموت في كل تفاصيلها . قصة فيليب روث «*المدافع عن الإيمان*» ، تعود إلى زمن الحرب العالمية الثانية ، وكذلك قصة برنارد مالامود «*اللاجئ الألماني*» : قصة فيليب روث «مدافع عن الإيمان» تعود بنا إلى زمن الحرب العالمية الثانية وهي التي كتبها شاب أصغر من يخدم في الجندية ، هي قصة ترتدي ثياباً كاكية حقيقية وتنكشف على سخرية مغطاة كان يصعب تجميعها عام ١٩٤٥ . أما اختيار قصة مالامود فقد تم بعد تردد حول رائعته المشهورة «*البرميل السحري*» ، وهي أقل روعة وتبدأ بحكاية صغيرة . أما قصة اللاجئ الألماني ، فتحمل نكهة مفاجئة وقوية ويتخللها الحس اليهودي لملامود القائم على المعاناة بقوة غامضة لليهودية ! ماذا يمكن أن يفعل الأدب القصصي الأميركي بعد الحرب بدونها؟ بدون لونها وعينيها الحادتين ، حيويتها العامية وعواطفها الهزلية وحزنها الجياش . ستانلي ايلكين كان نادراً ما يعرف متى يتوقف وقصته «*باعة وفضوليون ، فضوليون وباعة*» كان يمكن أن تكون أقصر ، بدءاً بعنوانها ولكنها تعطيك ما يندر أن تجده عادة في قصة طعم واحساس التعاطي بالأعمال ، الضغوط اليومية المركزية ، التي تتنافس حتى مع اعمق الأحزان الشخصية التي يعانيها الرجل . أحد لم يستطع أن يلمس ملاحظة العرقية اليديشية بنقاوة ولمسة فضية ، أكثر من الكاتب اليهودي إسحق باشفيس سنغر . «*قصة المفتاح*» ، تصف عيد الغطاس الديني مزخرف ببشائر وبنذائر دينية من عجوز مريبة مرت غفلة في الليل ، على إحدى البلدات وتذكرنا القصة بشاغال وبرونو شولتز في محاكمات منتصف الليل في العهد القديم .

وعبر فحصنا لقصص الستينات في محاولة للعثور على مؤشرات ثورية ، نسأل فيما لو كان البطل الغريب في قصة جويس كارول أوتس ، «*إلى أين أنت ذاهب ، أين كنت*» ، خرافة مشوهة ولكنها لا تقاوم حول ثقافة شبابية لا تفارق ـ يمكن اعتبارها صرخة ثقافية مضادة ، تحاول جذب الروح الأنثوية المتململة في الخمسينات خارج جحور الأمان التي تقبع فيها لتخرج إلى الطريق . والقصة مكرسة لبوب ديلان .

خمسة عشر عاماً من ثورة الحقوق المدنية والتقدم الاختياري ، تقف خلف رواية ماكفيرسون على لسان مثقف عصامي في «*الشاطئ الذهبي*» ، والذي يتحرك بهدوء ـ أريد فقط أن أكون نفسي التي أسر بها عبر عالم متعدد الأعراق .

وقصة ماري لادغافل ذات المعارضة الفنية النارية الحزينة ، «*الحيوان الدولابي*» والتي تقفز برشاقة من غزل دقيق إلى غزل تاريخي معاصر ، هل كان بإمكانها أن تكتب قبل عشر سنوات؟ بدون ذكر معارضة بارثيلم أو صوت سالينغر الطفيلي المتسلط . كانت هذه التحفة قصة غافل الوحيدة ، التي تم نشرها خلال عملي كمحرر إداري لمجلة «*سايكاتري*» فقد توفيت عام ١٩٦٧ عن عمر يناهز الثامنة والأربعين ونشرت المجلة هذه القصة تذكاراً لها .

كذلك يمكن سماع بعض توجهات جافل العميقة الممتحنة في العصر التالي ، «*كيف تفوز*»؟ بقلم روزالين براون و«*ورد وخلنبج*» بقلم أليس أدامز ، فهناك الحقائق ـ طفلة مختلة وصديقتها في طفولتهما ـ وهناك العقل الأنثوي الذي ينظر إلى الحياة من خلال اندفاع فلسفي . هذه هي النسائية في عملها الأدبي ، النهاية التأملية لسلسلة متصلة من الأحداث تنطوي على ذكريات واعترافات غاضبة في تلك الفترة . عندما قام لاردنر أو باركر بتوظيف الشخص الأول ، كان الأمر خاضعاً لتمرين فيه سخرية درامية . فقد عرفنا أكثر ما عرفه الكاتب البريء . والآن بعد أن تم توظيف الشخص الأول بحماس بسبب عدم وجود آخر يثق به ، ينهمك الكاتب والقارئ في شراكة بحث علاجي سيكون كما نعلم غير حاسم .

وقصة هارولد برودكي «*فيرونا*» : امرأة شابة تتكلم هي تمرين من نوع آخر ، ومحاولة لسبر الأغوار لتصوير السعادة القابعة ، في جذر الحياة ، لتعبر عن شيء لم يعبر عنه من قبل ، في نقطة تلتقي فيها التعقيدات العائلية ، وجبال الألب البيضاء اللامعة والظلال الزرقاء العميقة العجيبة . وإذا كان برودكي يسعى من خلال نبشه المضني للأحاسيس والأعماق ، فإن دونالد بارثليم وآن بيتي وريموند كارفر يقدمون لنا السطحيات ـ حوار لا يثني وأسلوب فظ في الملاحظة . لم يوفق كاتب أبداً بادعاء عنوان مثل «الأدنى» مع أن تعبير «الأدنى» ، والمأخوذ من عالم الفن يقوم بالتعريف عن شيء جديد ، أو أنه أصبح جديداً منذ برع التقليد الهائج لهمنغواي في

الثلاثينات ـ تخلٍ عن الإرشاد الإبداعي ، وعزم وجودي لترك الأشياء تخرج عن صمتها . مثل هذه المؤلفات عبرت عن الكره الذي تولد بعد حرب فيتنام تماماً مثلما عبر همنغواي ، عن المزاج المخدوع الذي ظهر بعد الحرب العالمية الثانية .

تم تقنين تعطيش القارئ للمعنى والعظمة ، ويقف في موازاة بطلي الغرابة ، تفاهة الحوار العادي . كان بيتي أول من قدم أسلوب عدم التكلف والسذاجة (مارثا فولي تجنبت المحاولات المبكرة وتركت لنا الأخيرة ، ليس تماماً ، ولكن تبقى محاولة هادئة في «جانوس») . أصبح كارفر معبود الجماهير في الكليات ، وبارثليم معبود الأنتيجلنسيا النيويوركية . فالأسلوب الإنجليزي يحتاج إلى تهذيب من فترة لأخرى ، وقد أعطت فكرة الحد الأدنى لمعلمي الكليات مثالاً تدريبياً عبر تكاثر مساقات الكتابة «دعه يبقى نظيفاً ومتماسكاً» . وكما خلدها وليم كارلوس وليامز «لا توجد الأفكار إلا في الأشياء» وهذا القول الفصل يظل ملائماً ، لا يطلب مقدماً ، أية تفاهة حول البراغماتية الأميركية .

ولكن الأفكار توجد في الرؤوس الأنسانية . ولن تضيع تلك المحاولات الغريبة في اللغة والتصور والصوت الإبداعي الرقيق المعشر . من ينكر على «صحن فضي» ، غناه البارع وتشخيصه المفرط بللو ، العادي على طريقة نوع من العجلة والازدحام المديني . يتابع المعلم موضوعه العادي تقلبات الحيوية الإنسانية ـ هو هكذا كان ـ تهز الجملة الأخيرة في القصة كتفيها استهجاناً ، في تساؤل متذمر عن الحياة ووحشيتها والمشاعر العائلية . هل ماتزال العواصف الشتائية في شيكاغو على حالها ؟ قصة جولة في السيارة وسط العاصفة تعطي صورة ، عن عناد الإنسانية الشجاعة . سينثيا اوزيك هي متانة الغرابة للجيل القادم . قصتها القصيرة البائسة «*الشال*» ، التي تقترب كثيراً من الحقائق في معسكرات الموت ، تأخذنا إلى أبعد ما يمكن للخيال . ويجب قراءتها بالترافق مع الأميركية الصريحة «*روزا*» ، والتي تعطي صورة سوريالية للمتقاعدين اليهود في فلوريدا . قصتي أنا ظهرت من بين عدة قصص ، قدمت حبكة رشيقة ، خلطت بين صورة ناطحة السحاب ، التي يمكن أن تقع وصورة الزواج المنهار بمرح الزواج والعلاقات مع تقدم القرن ، يقفان على أرض مهزوزة مع وجود بدائل اشتراكية ، أقل وأقل مثل عصبية زوجات المزارعين في قصة «هيئة محلفين من

نظرائها» ، أو الأخوية الشيوعية في «*نجمة الصبح الساطعة*» ، حيث الحياة المنزلية بتسليتها الداخلية وولائمها الخارجية ، بالكاد أصبحت طريقة معيشة قابلة للهروب . رغم أن الدافع للهروب أصبح مؤرقاً بشكل واسع .

ماذا عن صحة القصة القصيرة ؟ يدعي أنصارها أنه لم ينشر في الدنيا شيء ، كما نشرت القصص القصيرة . ولكن يوجد هناك فرق في المجتمع الإستهلاكي ، بين شيء يجب علينا امتلاكه ، وشيء يحلو لنا أن يكون حولنا . قلة هي المجلات التي تستطيع دفع مكافآت يمكن أن تبقي لفيتزجيرالد نشوته .

مهما أوردت من إحصائيات فإن انطباعي الثابت هو أن أهمية القصة القصيرة الكامنة في كونها توسط لنقل الأشياء في زمني ، ـ نقل أخبار عن الأمريكيين وكيف يعيشون ولماذا ـ قد تقلصت؟ وفي رد فعل لهذا التقلص ، بدا كتّاب القصص القصيرة الذين لم يعودوا يدعون كثيراً ، وكأنهم يحاولون الولوج أكثر وأكثر في فرص الأداء . تلج أليس مونرو وهي الأشمل رؤية ، بقصتها *نمر مينيستنغ* في حياة كاملة ، لامرأة تعيش في بلدة اونتاريو في العهد الفيكتوري ، وتعطي سوزان سونتاج صورة مصغرة شاملة عن جمهور نيويورك الفني في قصة ، «*طريقة عيشنا الآن*» ، بينما تتفاعل دائرة من الأصدقاء في قصص غيمة مثل قفير نحل مثار ، مع خبر ابتلاء أحد أعضائها بمرض غامض ، قد يكون الايدز رغم عدم تسميته . تيم اوبراين يستحضر حرب فيتنام وحيويتها وأحداثها في «*الأشياء التي حملوها*» ، يحمل أسلوب أوبراين السهل المفصل قدراً من الحد الأدنى ، ولكن مجال موضوعه يتحرك نحو أرضية قصوى فيما يحاول الملازم أول جيمس كروس أن يتعلم كيف يستغني عن الحب .

في عالم القصة القصيرة ، التي ضاع الكثير من إمكانيات كتّابها مع ظهور البرامج التلفزيونية وسلبيات المراهنة على القصة . برزت لوري مور وتوم جونز ، كأصوات قوية بأطوال متوسطة تعطي المجال للتعبير ، (ليس بدون بعض الفكاهة المنمقة) ، عن الغضب الكامن في قلب أنثى مستاءة وذكر مشاكس لم يدجن إلا قليلاً . والصورة التي تنتهي بعبارة ، «وأنت قبيح أيضاً» رغبة البطلة الكاملة بأن تدفع رجلاً من سطح ناطحة سحاب ، يرتدي جوارب تظهر جلده كالمرأة العارية ـ تحمل عوالم من المشاعر الأنثوية المعاصرة والمتصارعة . جونز وهو كاتب يشارك الملاكمين ، والجنود والرجال

الذين يتعاطون الحبوب ، يتحدث باستبصار في قصة ، «*أريد أن أحيا*» عن التفاصيل المروعة في تدهور امرأة في مراحل إصابتها الأخيرة بالسرطان ، دواءً وراء دواء . وفي قصة أليس إليوت «*عند الشفق*» ، ترعى امرأة ابنها وهو يموت من مرض الإيدز ، وهي في عملها هذا تعيد الرابطة بين الابن وأمه . قلة هي القصص التي تملك الجودة والقدرة على التأثير مثل تلك القصة .

يغمر المختارات الأخيرة نوع من الذوبان الذي يعكس يأس نهاية العصر ، خوف من أن تكون أفكارنا قد استنفذت ـ أو ربما يعكس الصعوبة التي ألاقيها في اختيار القصص .

قصة مكتبة حقيقية لـ كارولين فيريل تصور لنا عائلة غير مستقرة من السود ، تثير اهتمام المشرعين والعاملين الاجتماعيين والأخلاقيين . وتنقل وجهة نظر أحد أعضائها ، الذي لا يرجى منه نجاحاً . ولد حذق يحاول أن يتماشى مع رغباته اللواطية . ويتخلل القصة إحساسات بالارتباط والكفاح الإنساني . «أرجوك أعطني فرصة» ، قصة بطل جيش جن «*مواليد اليوم نفسه*» ، الذي ينتمي إلى مجموعة من الأميركيين الآسيويين ، الذين اكتشفوا صوتهم الإنجليزي مؤخراً . لم يساعده وجوده ، في نهاية حبله وفي عز ثورة الحاسوب على إقامة علاقة في مكانها .

«قريباً» ، قصة بام ديربان تأخذنا إلى الوراء إلى منحنى القرن ، وعملية جراحية خرقاء لعين صبية صغيرة ، وبعد ذلك إلى عمق القرن السابق ، عندما يضع إحدى تلك الفروع البروتستانتية الخاصة رهانه في العالم الجديد ، ويظهر هذا الرهان في ذاكرة امرأة عجوز .

قصة آني برولز «*العجل النصف المسلوخ*» ، والمأخوذة عن أفضل القصص الأميركية القصيرة عام ١٩٩٨ ، تعيدنا لزيارة الغرب ، والذي كان يبدو وكأنه جوهر هذه البلاد ولكن مزارعنا عجوز لم يجد فيه إلا الفراغ والجريمة . كانت التجربة الأميركية حين صدرت القصص قصة وراء قصة قاسية و شاقة . كانت القارة تطلب ثمناً من مستملكيها ، وبالذات من استسلموا لها .

ندمت لأنني لم أستطع أن أدخل قصة عن مواطني أمريكا الأصليين في محتويات الكتاب . الأقرب لهذا الموضوع كانت قصة جيمس فيري «*البط الراقص*

والأست *المتكلم*» ، والتي تصور طقوس الألم التي وجدت قبل ظهور الرجل الأبيض .

ليصل القرن حتى نهايته تم إدخال قصة في عام ١٩٩٩ ، في النسخة الورقية للكتاب . تصور قصة بام هوستون «*الصديقة التي لم تكن لك أبداً*» ، مجموعة من الأصدقاء ماضون نحو الألفية التي لم تكتمل بعد ، يطلبون الحب أكثر وأكثر والبطلة التي تروى القصة مثلها مثل أبطال الروايات الأولى ، في هذه المقتطفات هي مهاجرة لا تعبر الأطلسي ، بل تعبر قارة متعبة بآلية نحو شيء يشبه الحياة الحقيقية . حيث تخرج الحقيقة من الأحلام وبالعكس . بينما كنت أشق طريقي في الاختيار ، كنت دائماً يقظاً للقصص ، التي تظهر كما يقول وليام دين هاولز ، المظاهر الباسمة في الحياة وهي قصص أكثر أمريكية . فكرت بإدخال عدة قصص خفيفة مثل ، «*الفتاة ذات الشعر الكتاني*» لمانويل كومروف و«*مكانك فارغ*» ، لآن تايلر ـ ولكني اضطررت إلى الخضوع لضغوط أثقل وأكثر عدوانية من المنافسين ومع ذلك أبقيت على قصة واحدة وهي الوحيدة التي لم أذكرها من بين مختاراتي ، الأخيرة في هذه المقدمة وهي القصة اللذيذة «*الخوخ البري*» ، بقلم غريس ستون كوتس والتي نشرت في الفرونتير Fron-tier عام ١٩٢٩ وفيها تناضل طفلة ضد وصايا أهلها التطهيرية ، التي تعززت مع الحذر الذي رافق المهاجرين والوعي الطبقي الريفي .

تبدو الطفلة المطيعة وكأنها منعت من تجارب الحياة نفسها . وقارئ القصة القصيرة المخضرم ، يخشى وقوع الأسوأ مع ما يتخلله من مصادفات مميتة ، وتعاليم مريرة . ولكن النتيجة تخرج في الحقيقة ، مثل العسل البري تحمل دفء الرمل الموشح بالشمس ، وغموض المياه تحت الفروع المنحنية . قصة بسيطة بتفوق ، عذبة عن غير توقع ولكنها رغم هذا ليس أقل أميركية من الباقين .

جون أبدايك

١٩١٥

بنجامين روزنبلاط

زيليغ

عن «ذي بلمان»

كان أقارب زيليغ العجوز ينظرون إليه بازدراء . لم يتلطف أحد منهم ويناديه مرة باسم «ريب» أو يضع معادله الأمريكي «السيد» أمام زيليغ . كانوا بداية يقولون أن العجوز عبارة عن برميل ينقصه ثقب . فهو لا يصرف سنتاً واحداً ، ولا ينتمي لأي مكان . كانت كلمة ينتمي في ناحية نيويورك الشرقية ، تتضمن أهمية معينة . فهي تعني أنك عضو في إحدى الطوائف ، التي لا تحصى . وكل يهودي صالح يجب أن ينضم إلى «جماعة تهتم بدفن أعضائها» ، لكي يتسنى له الحصول على حجرة ضيقة في آخر مساره ، لم يكن زيليغ عضواً حتى في هذه الجماعات . وحده مثل الحجر ، هكذا كانت زوجته تقول عنه وهي تتنهد .

وفي مصنع القبعات حيث كان زيليج يعمل ، كنت تجده يقف كل يوم يلوح بمكواته الثقيلة ، على القماشة الساخنة . بالكاد ينظر حوله . كان زملاؤه في العمل يكرهونه ، لأنه عاد بعد يومين فقط من إعلان الإضراب عن العمل . لم يكن يستطيع أن يبقى عاطلاً عن العمل ، وراح يفكر مرتعباً بيوم السبت الذي سيأتي دون أن يصله مغلف الرواتب . كان مجرد ظهوره أمام أقاربه يبدو غريباً ، فقد كان طويل القامة ، وكأنه قالب من الحديد الصلب ، وعندما كان يحدق بغباء في شيء ، يبدو وكأنه شمشوم الأعمى ، وشعره الرمادي الطويل يسقط شعثاً على كتفيه العملاقين

اللذين ، يبدوان وكأنهما جاهزان للانقضاض ، كانت ثيابه الرثة تتهدل عليه وتغطي رأسه الضخم صيفاً وشتاءً ، بنفس القبعة القديمة دائماً .

كان قد قضى معظم حياته في قرية معزولة في روسيا الصغيرة ، حيث كان يحرث الأرض ويلبس الثوب الوطني الفلاحي دائماً . عندما وصل ابنه الوحيد وهو أرمل فقير يحمل طفله في الشهر الثاني عشر من عمره بين يديه إلى أمريكا ، كان قلب الأب يدمى حزناً ، ولكنه عاد واختار البقاء في قريته الأصلية رغم كل الصعوبات وقرر أن يموت هناك . ذات يوم وصلت رسالة من ابنه ، تقول بأنه مريض ، ولكن هذه الأنباء المحزنة تبعتها كلمات ذات طبيعة مرحة تقول : إن حفيدك موسى يذهب إلى المدرسة الحكومية ، وهو أمريكي تقريباً ولا يجبره أحد على نسيان «إله إسرائيل» وسوف يتم منحه التثبيت الديني قريباً . «لقد اقترب موعد بارميتشڤا» . بكت زوجة زيليج ثلاثة أيام وليالي حال تلقيها هذه الرسالة . ولم ينطق الرجل العجوز إلا قليلاً ولكنه بدأ ببيع ممتلكاته .

كانت مواجهة العالم خارج قريته تبدو مكربة بالنسبة للعجوز البسيط . ومع ذلك فقد ظل يظن أنه يستطيع التكيف مع الوطن الجديد ، الذي اختاره ابنه . ولكن الرحلة الغريبة في السفينة البخارية والقطارات ، أذهلت العجوز بشكل مرعب . كما أن الصخب في محطة القطارات ، التي قذف إليها بسرعة واضطراب أصابه بالصدمة . وراح يحملق في الفردوس المفقود ، وقد خلا وجهه من أي تعبير وكأنه قد تحجر من داخله . وأصبح مثل برميل ينقصه ثقب ، لا أثر لشعلة الحياة في عينيه . كانت هناك فكرة واحدة تطغى على دماغه ، ورغبة واحدة تنبض في قلبه : أن يوفر ما يكفي من النقود له ولعائلته ، ليعود بسرعة إلى قريته الأصلية . أعمى بصره عن كل شيء وبقي يتحرك كالأبكم ، والألم يمزق قلبه . كان مشتاقاً إلى وطنه . قبل أن يعثر على وظيفة كان يسير يومياً ، يقطع طول شارع منهاتن بخطوات عملاقة . في حين كان الأطفال وحتى المارة ، من البالغين ينزلقون إلى الممرات الجانبية ليفسحوا له الطريق ، كان يبدو مثل وحش ضخم ينطلق كالسهم أمامهم .

في المشغل وعندما عثر أخيراً على عمل ، كان العمال يخافونه في البداية ، ولكن عندما وجدوه بالنتيجة عملاقاً ، غير مؤذٍ أخذوا يرمون عليه النكات ويتهكمون على

رأسه . ومن بين العديد من الرجال والنساء ، الذين يعملون في المشغل ، كان هناك شخص واحد استطاع أن يحوز على امتياز زمالة لزيليج العجوز . كان هذا الشخص ، هو المراقب اللطيف أو بواب المشغل ، وهو بولندي أشقر له عينان مرعبتان وفم مفتوح دائماً . كان هنا الكثير من التهكمات ، التي تستهدف هذين الغريبين . إن الضخم يبدو كالفيل ، أما الرجل الكثير التنكيت في المشغل فكان يضعف إلا أنه يجب أن يتقوى بالبنسات بدلاً من الفستق .

أوي ، أوي إن أنفه قد يخدعه . كان فيلسوف المشغل يتدخل مقاطعاً ، وفي ساعة الغداء كان يضيف : أترى أن النقود تجري في عروقه . إنه يجوع نفسه لكي يوفر ما يكفي من الدولارات ، ليعود إلى وطنه ، لقد أخبرني البولندي كل شيء عنه . ولماذا عليه أن يبقى هنا ؟ إن الحرية الدينية ، لا تعني بالنسبة له شيئاً . فهو لا يذهب إلى الكنيس ، وحرية الصحافة ؟ هاه ، إنه لا يقرأ حتى جريدة تاغبلات المحافظة .

كان زيليج العجوز يواجه هذه المعايرة بهدوء ، ونادراً ما كان يقلب بياض عينيه ، وكأنه في وضع قذف ، ولكنه سرعان ما يعود ليقطب حاجبيه الثقيلين ، ويعزز تكشيرته بهزة ثقيلة من مكواته الساخنة .

وعندما دوت الصرخة المرعبة لليهود الذين ذبحوا في روسيا ، عبر الأطلنطي وتظاهر سكان الجيتو اليهودي في منهاتن عبر الشوارع الضيقة ، المغطاة بالأعلام السوداء . وعبر الطريق التي كانت صاخبة في السابق ، وانغمست اليوم في صمت مطبق . والدكاكين والمخازن المصعوقة بالحزن والنواح الخارج من كل الأبواب والنوافذ ، كان هناك شخص واحد فقط باقياً في المشغل ، هو زيليج العجوز . لم يدعه زملاؤه للانضمام إليهم في التظاهرة ، فقد كانوا يشعرون بالتنافر بين مظهر هذا الوحش وبين صفوف المفجوعين ، السائرين في خطوات مكتومة . وفي اليوم التالي تحدث الحارس اللطيف ، وقال إنه في اللحظة التي سُمعت فيها أصداء الترانيم الجنائزية من الشارع البعيد ، رفع زيليج قبعته الملوثة بالشحم عن رأسه ، ثم أعادها إلى رأسه بسرعة وارتباك وتابع البولندي . وقد تملكه الرعب حتى آخر النهار ، بدا زيليج أكثر وحشية من قبل ، كان يضرب بمكواته على القماش ، بطريقة خشيت على أثرها أن تقع البناية .

ولكن زيليج كان غير مبال بما يقال عنه ، فقد كرّس وجوده تماماً ، لتوفير مدخراته ، كان ما يخشاه فقط ، هو أن يضطر إلى إنفاق بعض منها . أكثر من مرة كانت زوجته تنتفض رعباً في ظلام الليل ، وهي ترى ظله في ثياب النوم جالساً على السرير ، يعد حزمة من أوراق النقد ، التي كان يخبئها دائماً تحت وسادته . وأكثر من مرة وبختته بشدة ، على هذه النزعة البخيلة في طبيعته ، وعلى رفضه كل الطلبات خارج حدود مصروف البيت ، وكم كانت تناشده وتنصحه ، وتشكو إليه . ولكنه كان يجيبها بثبات ويقسم بروحه ، أنه لا يوجد معه سنت . كانت تشير إلى الجدران العادية والأثاث المحطم وملابسهم التي تشبه ملابس الشحاذين .

ـ إن ابننا مريض ـ كانت تنوح دائماً . وهو بحاجة إلى طعام خاص وراحة ، وحفيدنا لم يعد طفلاً وسوف يحتاج إلى النقود للدراسة . إن عالمي مظلم فأنت تقتلهما كليهما .

كان لون زيليبح يختفي ، وترتجف يداه من التأثر ، وما تكاد المرأة تظن أنها نجحت معه ، حتى يرد عليها في اللحظة التالية بتنهيدة : على روحي لا يوجد سنت واحد .

في أحد الأيام استدعي زيليج العجوز من مشغله ، لأن ابنه قد أصيب بذبحة شديدة وفجائية ، وبينما هو يصعد درج بيته صاح أحد الجيران : أسرع بطلب الطبيب ، لا يمكن أن نعيد إحياء المريض ، خرج صوت وكأنه آت من القبر مجيباً : على روحي لا أملك سنتاً واحداً . كان رواق المنزل يعج بصخب المستأجرين ومعظمهم من الأطفال والنساء ، من بعيد كانت تسمع صيحات بكاء الأم . وقف الرجل العجوز لبرهة ، وكأنه قد تجمد من رأسه حتى أخمص قدميه ، ثم سمع الجيران صوته وكأنه قادم من القبر . كان يتمتم : سوف أضطر إلى الاستدانة من مكان ما ، أو أتوسل إلى أحد . نزل الدرج وأحضر الطبيب وعندما طلب حفيده نقوداً لإحضار الدواء ، خطف زيليج الوصفة وهرع وهو يتمتم : سوف أضطر إلى الاستدانة . سوف أضطر إلى التوسل .

في ساعة متأخرة من الليل ، سمع الجيران صوت عويل صادر من شقة زيليج العجوز ، فهم الجميع منه أن ابنه قد فارق الحياة تقلصت محفظة زيليج بشكل ملموس ، فقد سحب منها بأصابع مرتجفة نقوداً لجميع نفقات الدفن . كان ينظر

كالدائخ ثم أقام طقوس الصلاة عليه بطريقة ميكانيكية تماماً مثلما علمه جيرانه . استل سكيناً ، وغرزها في ثوبه البالي فاتحاً فيه شقاً عميقاً ثم خلع حذاءه وجلس على الأرض برأسه الضخم المنحني جامداً لا يذرف دمعة .

حدق رجال المشغل فيه ، عندما عاد بعد ثلاثة أيام من الغياب . حتى البولندي لم يجرؤ على الاقتراب منه . كانت هناك غشاوة تغطي عينيه البارقتين وتجاعيد عميقة ، على وجهه وهيكله العضلي الذي بدا وكأنه قد تقلص . ومنذ ذلك اليوم بدأ بتجويع نفسه بطريقة أسوأ من قبل ، لم يفقد رغبته بالعودة إلى روسيا بحرا ، «والموت في وطنه أخيراً » . فهو لم يفقد إلا القليل من حدة هذه الرغبة . ولكن كان هناك شيء ، كأنه خيط ضعيف يربطه بالعالم الجديد .

فوق رابية صغيرة عند قاعدة أشايم «بيت الحياة» ، وتحت حجر قبر كتبت عليه بعض العبارات بالعبرية ، كان هناك جزء منه مدفوناً . ولكنه كان يحاول إبعاد أفكاره عن تلك الرابية . كم أمضى من الوقت الطويل ، وهو يكد ليوفر النقود . سبقه العمر بخطوات واسعة ، لم يبق لديه من الهمة للعمل إلا القليل ، ولكن حلمه بوطنه بدأ يقترب من التحقيق ، بضعة أسابيع قليلة ، بضعة أشهر قليلة ، كانت الفكرة تبعث الدفئ في أوصاله المتجمدة . فقد بدأ يتلطف على زوجته بالتحدث معها ، حول خططه لتحسين معيشتهم في المستقبل ، وخاصة عندما كانت تعيد ترديد شكاويها المالية .

كانت تجادله : أرأيت ماذا فعلت بنا وبهذا الطفل المسكين ، كانت تشير إلى حفيدها الذي كبر الآن ومنذ تركه للمدرسة وهو يعمل من أجلك وماذا ستكون النهاية ؟ .

عند هذه النقطة كان قلب زيليج ينقبض كما لو أنه يشفق من بعض الخوف المجهول ، وكانت الأجوبة المتعلقة بحفيده حادة ، مقتضبة وغير مترابطة ، وكأنها إجابات على أسئلة غامضة تطرح عليه من قبل محاور لا يستطيع أن يفهمها ويخشى أن يكشفه محاوره .

بدأت الأحداث المريرة المتعلقة بالصبي تختلط مع أحلام الرجل العجوز . بداية لم يكن يعيره اهتماماً أو تفكيراً ، كبر الصبي بدون ضجة . ولكن موجة الدراسات

الدنيوية ، التي كانت تتصاعد في الطرف الشرقي جرفت الصبي في طريقها ، بدأ يجهز نفسه لدخول الكلية ، وفي خضم حماسه لتجميع المبلغ المطلوب ، كان زيليج غير مبال بما يجري حوله ، ولكنه الآن عند نقطة انتصاره أصبح واعياً وبرعب لتنامي شيء يختمر على غير عادة . خامره الشك ، وفي إحدى الليالي سمع الصبي يتكلم مع جدته ، عن كراهيته لاستبداد الدولة الروسية وعن رغبته في البقاء في أمريكا . وانتهى الحوار بالتوسل إلى جدته لكي تلتمس من جده وعداً ، بإعطائه ما يكفي من النقود لتعليمه في الكلية . انقض عليهم زيليج وقد لمعت عيناه بوحشية : نحتاج الكثير أيها الأبله . كان يرعد بغضب عفوي على الصبي : سوف تكمل دراستك في روسيا أيها الأحمق دوراك . وهنا انفجرت زوجته صارخة ، وكأن الشجاعة تجمعت لديها فجأةً : نعم يجب أن تعطي مدخراتك للصبي كي يكمل تعليمه ، اللعنة علي ، إنهم لا يقبلون شباناً يهوداً في الجامعات الروسية . احمر وجه زيليج العجوز ونهض ثم عاد إلى الجلوس فجأة ، ثم اندفع بجنون رافعاً ذراعه مهدداً باتجاه الصبي ، فقد رأى فيه ذلك العدو المرعب الذي كان يخشاه منذ زمن .

ولكن المرأة العجوز تدخلت بسرعة وهي تزعق بحدة : أيها الرجل المجنون ، انظر إلى الطفل المريض ، وهل نسيت سبب موت ولدنا وكيف انطفأ كالشمعة التي أومضت ثم خبت .

تلك الليلة تقلب زيليج محموماً على سريره ، لم يخالجه النوم . ولأول مرة تبين له ماذا كانت زوجته تعني وهي تشير إلى المظهر السقيم للطفل . فعندما توفي والد الطفل أعلن الطبيب أن سبب الوفاة هو مرض السل .

نهض على قدميه وكانت حبات العرق البارد تتساقط من جبينه وتقطر عبر خديه وذقنه ووقف شاحباً يلهث . ومثل صوت مروع اقتحمت الفكرة رأسه ـ الصبي ، ماذا يجب أن نفعل مع الصبي ؟ كان عتم الليل الأزرق يومض عبر النافذة والمدينة يكتنفها الصمت ، وكان لهذا المشهد تأثير خاص ورتيب في ذاته ، هناك ، استفاق طفل بصرخة ألم تبعها سعال مخنوق . تحرك العجوز الرمادي وبخطوات سريعة انسل إلى حيث ينام الطفل . ومر بعض الوقت وهو واقف يحدق في ملامحه الذاوية وفي جسمه الضئيل ثم رفع يده ومررها برفق على شعر الصبي وعلى خده وذقنه . فتح

الولد عينيه ونظر برهة إلى هذا الشكل الذابل الذي يحنو عليه ثم أغمض عينيه بفظاظة .

إنك تكره أن تنظر إلى جدك فهو عدوك ، هدر صوت الرجل العجوز وبدا كأنه صوت طفل استيقظ وسط الليل ، فلم يجب الصبي ، ولكن العجوز لاحظ كيف كان جسمه يرتجف ، ودموعه تفيض فوق خديه الغائرين .

وقف صامتاً لبضع لحظات ، ثم وكأن جسمه قد تقلص إلى حجم طفل ، انحنى عند أذن الصبي وهمس له بصوت أجش : إنك تبكي ، آه ، جدك هو عدوك أيها الأحمق . غداً سوف أعطيك النقود للكلية ! أتكره النظر إلى جدك أهو عدوك آه ؟

١٩١٦

ماري ليرنر

نفوس صغيرة

عن «ذي أتلانتك منثلي»

كانت مارغريت أدبريان عمة عظيمة ، في الخامسة والسبعين من العمر ، لم تكن تتذمر رغم علمها بأن نهايتها قد اقتربت ، لأنها عاشت حياة طويلة شاقة ، ولأنها كانت متعبة . وقد أقام لها الكاهن الشاب ، الذي جاءها بالعشاء الرباني الطقوس الأخيرة – زيوت مقدسة على جفنيها (اللهم سامحها على خطايا النظر) وعلى شفتيها (اللهم سامحها على خطايا الكلام) وعلى أذنيها وعلى يديها المعقودتين وعلى قدميها المنهكتين . أصبحت الآن مستعدة ، رغم علمها أن اقتراب الحضور الإلهي الرهيب قد يعني لها معاناة أكبر . إلا أنها طوت تحت قلبها يدين هادئتين . لم تلد طفلاً قط حتى يثقل الآن على عزيمتها . بدت مستسلمة إلى حلم لذيذ .

جاء الجيران لرؤيتها ، فكانت ترفع رأسها وتستقبلهم بلباقة كل له لمسته الشخصية – هل ذهبت ابنتك جوليا إلى نيويورك يا سيدة كارتي ؟ أعتقد أن لا شيء يؤثر عليها مثل اضطرارها للذهاب . كان الأمر مشابهاً بالنسبة لي عندما قدمت هنا من الريف العتيق ، الشوارع ملأى بالنقود حسناً ، حسناً ، التلال البعيدة هناك خضراء .

أو كانت توجه حديثها إلى السيدة ديفلين – لقد عاد تيرنس إلى معاقرة الخمر . أنا أرى ذلك في عينيك ، يا للرجل التعس لا يمكن ضبطه . يا عزيزتي العطش هو نهاية الشرب والأسى هو نهاية الحب . كان انتباهها يحيد عندما يبقى زوارها لأكثر من عدة

دقائق ، وتصبح أجوبتها أكثر إيجازاً ، وقد تهمهم شيئاً حول «كل الطوائف السبعة» أو «تلال ويكلو» أو «خليج كورك تبتو الجميل في المحيط» ثم تخلد للصمت مبتسمة وعيناها مغلقتان ، لكن مع مسحة غريبة من التيقظ . عند هذا قد يهمس محدثوها : المجد لله ، إنها قريبة جداً ، هذا الأمر ليس هزلاً . أبداً ثم ينسلون بهدوء إلى المطبخ . كانت ابنة أختها أنا لينان وهي أم لجنس رائع من الأطفال ، تتوقف عن العمل قليلاً لتأخذ نفساً وتستمتع ببعض الحديث . ومع ذلك : ألا تضعف هذه المخلوقة المسكينة الموجعة ؟ صاحت السيدة هانكي يوماً ، كأن ذهنها قد ذهب عنها للتو .

– هل أنت مع هذا الظن؟ أنا أظن أن لديها الذهن الكافي عندما ترغب في الإصغاء ، ولكنها انسحبت إلى داخل نفسها مثل النحلة . مشغولة بشيء ما ، مهما كان الشيء الذي يدور في رأسها ، فهي يوماً موجودة ويوماً لا ، ورغم أنها مستلقية هناك بهدوء إلا أنها لا يغمض لها جفن . أسمعها أنا وزوجي في الليل تكلم نفسها : كلا كلا . كانت تقول : لقد عدت إلى الماضي ، يجب أن أعود إلى البداية» أو مرة أخرى تقول «هذا هو الأمر الآن يا ليتني أستطيع التوقف .»

– وما هو الموضوع السري الذي تظنينها تتحدث عنه ؟

– وماذا يوجد لديها لتقول أنها مثل راكب المصعد؟ ينزل ويطلع طوال النهار ، ماذا تتوقعين غير ذلك؟ إلى الأعلى وإلى الأسفل والليل كله سواء . لقد ضعت بين الاثنين وكثرة انتقالهما . هل ينقصك شيء يا عمتي مارغريت؟ أنادي عليها فتجيب وكأنها فقدت صبرها : أنا ! كلا ، لا تكوني لحوحة كثيراً ومزعجة هش ، هش .

وهل تعتقدين أن الأطفال يريحونها ؟ أبداً ، نظره واحدة إليهم وتأتيها الرغبة في البقاء وحدها ، خذوهم من هنا تقول وهي تغلق عينيها .

وهل تظنين أنها في مزاج صحيح طوال الوقت ؟

– أظن ذلك ، إنه شيء تحب أن تفكر به دائماً ، شيء تشعر بالاضطراب نحوه . لماذا ؟ الأمر نفسه عندما يكون الأب فلنت ، هنا تكون مؤدبة ووقورة في البداية ، ثم يبدأ صبرها بالنفاذ ، ثم وإذا لم يتفهم الرجل المسكين هذه الملاحظة . تغلق عينيها وتعود إلى أطوارها الغريبة ، حتى إنك تكاد تقسم أنها تخاف من أن تضيع شيئاً . كان

للزائرة التي يدور معها الحديث بصفتها زوجة شاب تفسيراً لهذه المصادفات .

– لو كانت أرملة الآن أو متزوجة ، ربما كانت تكن حباً لأحد مرة ، ربما تحاول أن نتخيل أيام الشباب مرة أخرى . هل تظنين أن الأمر يمكن أن يكون هكذا ؟

أطرقت آنا برأسها . كانت أمي تقول إنها ولدت لتكون خادمة ، فكل ما كانت ترغب فيه هو العمل ، وتوفير بعض المال والذهاب إلى الكنيسة في كل دقيقة تستطيع أن توفرها .

– ومع ذلك فأنت لا تخبرين شيئاً ، إن مثل هذا النوع من الناس يبكي في الغالب ، لأنه يشعر بالندم لتأخر الوقت عليه ، كانت عمتي العجوز تبكي وتقول لو أستطيع أن أعود إلى عمر الخامسة والعشرين ، فربما سيكون الأمر مختلفاً .

– ربما ، ربما رغم أني أشك أن الأمر كذلك .

لم يكن الأمر كذلك أيضاً ، فتلك المرأة العجوز التي تنام على ظهرها بين الوسائد وعيناها مغمضتان علاوة على تلك النظرة العازمة والمركزة فيها ، لم تكن تبحث عن عاشق من أيام صباها . رغم أنها بالتأكيد كان لها عاشق ذات مرّة ، وكانت تحاول من وقت إلى وقت أن تمنعه من الظهور ، حين تغرق في أحلام اليقظة ، وعند تلك النقطة بالذات ، كانت تطلق تعليقها الوحيد «ذهب في الماضي» لا بد أن أعود إلى البداية . ثم تعود لتبحث في بواكير وعيها لتركب تيار السنين الجارف .

في كل مرة ، تحاول أن تصل إلى مكان أبعد ، على الرغم من أن الأشكال البعيدة ، كانت تبدو خادعة ، وتختفي كلما اقتربت منها . لأنها ما تكاد تصعد نهر ذكرياتها ، حتى تهبط ، وبسرعة لا تعرف الرحمة . كم كانت تعذبها تلك السرعة ، إذ إنها ما تكاد أيضاً تحن إلى بقاء الصورة حتى تختفي بسرعة مبحرة في ضوء النهار العادي . عند تلك النقطة تعيد تجهيز نفسها وتبدأ جاهدة بالصعود مرة أخرى .

واليوم ذكرت ابنة أختها شيئاً حول معرض دوني بروك ، جعلها ترفع أشرعتها لريح الرؤى ، وتغلق ذهنها عن كل الأشكال المألوفة ، وتبصره بعيداً إلى الخلف مركزة كل طاقتها في جهد إرادي لبعض الوقت ، بدت وكأنها تحوم في مكان مزدحم بالناس . لم يكن هذا الأمر يضايقها ، فقد جربت مثله من قبل ، ولكنه كان يعني أنها قد وصلت إلى رأس النبع ، أي أن الصور والأشكال التي كانت تحضرها هي الصور الأكثر

رغبة إلى نفسها . أخيراً بدأت تلك الصور تأخذ شكلاً ، ضعيفة في البداية ثم بكامل هيئتها ، كل صورة تحضر معها مكانها وزمانها وجوّها العام ، سواء كان غمامة ايرلندية موشحة بريش الحمام أو خضرة المروج الناضرة ، أو هطول المطر الفجائي يتبعه صفاء السماء الفجائي أيضاً ، ونقاط الماء التي تقطر من أوراق الشجر ، تتواصل قطرة قطرة وسط شمس ساطعة .

بالنسبة لمارغريت أو بريان ، بدأت شمس الصيف المتوهجة تنتشر فجأة داخل غرفة النوم الباردة المرتبة . ثم ها هي طفلة صغيرة جداً في الرابعة ترقص وسط المشهد ، ترتدي ثوباً قرنفلي اللون ، مشدوداً عند الأعلى وفضفاضاً عند الأسفل . كانت تشق الطريق نحو منزل صغير ، تسمع منه أصوات المطارق . كانت هناك أدوات وأشياء مبعثرة حولها . ومن الداخل كانت تسمع أصوات رجال . داست الصغيرة بقوة ، وهي تعد الأدراج ثم نظرت في الداخل وسارت نحو درج ضيق .

قال أحد الرجال : إلى أين ذهبت مارغريت ؟ إن الدور العلوي لم ينته إنشاؤه بعد ، سوف تقع الصغيرة منه . «بيغي !» نادى الرجل الأكبر سناً انزلي إلى هنا .

كانت هناك صرخة فرح ، وأطل الثوب القرنفلي من رأس الدرج . آه - الرجل الصغير المضحك ، أبي ، يا له من عجوز صغير مضحك ذي قبعة عالية تعال بسرعة ، اصعد وانظر إليه .

ركض الرجلان صعوداً على الدرج - أين هو ؟

تراجعت إلى الوراء وأشارت بيدها ولكن وجهها سقط .

- لقد رحل ، الرجل الصغير رحل .

ضحك أبوها والتقطها بين ذراعيه - كم كان حجمه يا بيغي ؟

هل هو بحجمك إني أتساءل ؟

- كلا ، كلا بل أصغر .

- بحجم الطفل

فكرت قليلاً ثم قالت : نعم بهذا الحجم ولكنه رجل يا أبي .

حسناً ، لماذا لم تمسكي به وتحتفظي به كرهينة لطلب فدية فهؤلاء القوم الصغار يخبئون كميات كبيرة من الذهب وسوف يدفعون ما تطلبين مقابل إطلاق سراحهم ؟

تجهم وجهها استياءً وقالت وهي على وشك البكاء - أريد أن يعود .

- أشك أنه سيفعل ذلك ، هذا الجني الخبيث ، حين تغفل عينك عنه قليلاً لن تعودي ترينه أبداً .

هنأت مارغريت أوبريان نفسها فرحة . إن هذا الأمر جديد لم تكن تستطيع أن تصل إلى هذا المدى من قبل . كيف استطاعت تذكره ! بدت وكأنها تشتم الرائحة الحادة للخشب المقطع وعبق الكلس الخارج من تبييض القبو الحجري في الحقل .

استمر حلم المرأة العجوز ، كانت الأحلام تخرج من مخزن الماضي ، الذي لا ينضب . كانت تستدعي ذكرياتها المحببة ، واحدةً واحدة ، هذه مارغريت هنا بالقبعة ، والشال وضفيرتها المجدولة تتدلى من مؤخرة رأسها ، تسير مجهدة إلى المدرسة في يوم ماطر .

لقد شهدت الكثير من أيام المدرسة الماطرة . ولكن هذا اليوم كان ماطراً بسبب الدموع ، التي أراقتها على الطريق . رأت البنوك المدرسية الطويلة وألواح الكتابة ، وجداول الرسم البياني ، وكذلك المعلم الطويل القامة وهو يجلس على مكتبه . رأت الفتاة الصغيرة تبلع ريقها ثم تصرخ بصوت متشنج : لن أعود إلى المدرسة بعد اليوم أيها السيد وايلد .

- ما هذا يا مارغريت ؟ لماذا ؟ ألم أكن لطيفاً معك ؟

كادت العبرات تخنق الطفلة . آه ، يا سيد وايلد ، إنه بسبب أنك كنت لطيفاً جداً معي . لقد ظنوا أنك تحاول أن تجعل مني بروتستانتية لذا فلن أعود بعد اليوم .

سحب الرجل الطويل الطفلة وقربها إلى ركبته وطمأنها .

تستطيع مارغريت أوبريان أن تستعيد هذا المشهد بغبطة رائعة الآن . لم تضطر إلى ترك مدرستها الحبيبة . فقد شرح لها السيد وايلد أن إخوتها يحاولون فقط إغاظتها لأنها كانت محظية وسريعة في درسها .

كانت مارغريت الصغيرة تركع على أحجار الأرضية الباردة في الكنيسة ، وتحدق في صور القديسين ، أو تستمع إلى حفيف الأغصان النامية في البستان الخارجي .

كانت هناك مارغريت أخرى ، أطول قليلاً تتوسل إلى أبيها أن يحضر لها أوراق ، كلما كان يذهب إلى المعرض . كانت تلك الأوراق عبارة عن صحائف طويلة طبعت

عليها الأبيات الشعرية بشكل متقارب .

هذه الأبيات عليك أن تكتبيها على ألحان مألوفة ، مارغريت هذه كانت تنظف الموقد ، وتكدس الحطب وتغني من على معقدها في زاوية المدخنة . أحياناً كانت تغني عن «المعطف الأحمر العتيق ، الذي يرتديه أبي كان كله أزرار وأزرار وأزرار وكل الأزرار الموجودة» . أو أغنية أخرى تبدأ بـ «يا عزيزي ماذا يمكن أن يكون الأمر؟ لقد غاب جوني طويلاً في المعرض ، وعدني أن يشتري لي عقدة شعر زرقاء اربط فيها شعري الأريني البني» .

ثم كانت هناك صورة ، لزمن سحرت فيه الجنيات مخضة اللبن . فمهما كانت تبذل من الجهد لم يتكون هناك أي زبدة ، ولا حتى بقعة صغيرة . أخذت مارغريت وأمها المخضة جانباً ، وقامتا بفحص كل جزء فيها ولم يكن هناك شيء ، فقط الساحرات فيها .

قالت أمها «يا كلٌ الأرواح ، اليوم هو الجمعة ، أخرجي الليلة صحيفة من القشطة للقوم الصغار» .

قامت فتاة حسنة النمو ترتدي سترة قطنية زرقاء ، تتطاير ضفائر شعرها الأسود الطويل حولها مع نسائم المساء ، ووضعت صحن القشطة على اللوح الحجري أسفل مدخل البيت ، ولم تضع الوقت بإدخالها مرة أخرى ، وفي اليوم التالي : كيف جاءت الزبدة ! لم تكادا تبدآن حتى أحستا بها تتكون . وعندما قامت مارغريت بغسل الخفاقة ، كانت تراقب بطرف عينها زوايا الغرفة المظلمة ، وبدت كأنها مليئة بهمس الهواء .

بعد هذه الصورة ، جاءت صورة الفتاة الطويلة بنفس السترة الزرقاء ، ولكنها هذه المرة كانت تضع شالاً حول رأسها ، أحضرت بعض حبات البطاطس من الكوم المكشوف في الخارج ، والمظلل في الشتاء وانتشلت حجراً مسطحاً من دلو . كان مستطيلاً وناعماً ومتناسقاً أكثر من أي حجر رأته من قبل .

– يا له من حجر غريب ! قالت لأمها .

تركت أمها تمشط الصوف لتلقي نظرة . بإمكانك أن تقولي هذا إنها . إحدى جداول الجنيات . تمعني جيداً وسوف تقلبين هذه الكراسي الصغيرة أيضاً .

لذا قامت مارغريت بتكديس الكراسي ، طاولة الجنيات في الخارج . وفي الصباح التالي ، جاءت تركض كارهة فقد كانت تخاف إذا وجدتهم أن تفسد القصة كلها . ولكن ، لا ، لقد اختفوا ، ولم ترهم مرة أخرى ، مع أنها بحثت في جميع الأماكن التي يمكن تخيلها . لم تخرج أياً من تلك الأحجار الغامضة حتى آخر كومة من البطاطس . أخذت مارغريت تكبر من مشهد إلى مشهد وظهرت مرة أخرى بين مجموعة من الصبيان والفتيات الضاحكين .

- ماذا سنلعب الآن ؟

- لنكتب أسماءنا على أوراق الشجرة المعرشة .

- هذه هي الأوراق .

كتب كل منهم اسمه على ورقة ورموها في جرةالماء . وفي اليوم التالي ، انسلت مارغريت التي كانت تراودها الشكوك باكراً ، وراحت تبحث عن ورقتها . نعم ألقي النرد ، عند رؤيتها سطح الورقة الممزق غمرت عينيها العبرات الجاهزة . كانت قد كتبت اسم جدتها ، لكن وضع الورقة كان ينبئ عن وفاتها خلال السنة ، أما الأوراق الأخرى فكانت سليمة . قامت بسرعة بتمزيق قطعة النبات الملعونة ، ولم تقل شيئاً عنها رغم أن الأولاد كانوا يضجون بالصياح - هناك ورقة مفقودة - من الذي غاب ؟ ورقتي هنا ، هل هي ورقتك يا جون ؟ هل هي ورقتك يا ايستر ؟ أما مارغريت فقد أبقت رأيها لنفسها وخلال السنة توفيت جدتها ، بالطبع كانت امرأة مسنة رغم حيويتها . ولكن مارغريت لم تلعب تلك اللعبة مرة أخرى ، فقد كانت مثل مقامرة على المصير .

ومع احتفاظ الفتيات بالانتقال من حال إلى حال ، وبسرعة كبرت مارغريت . وأصبحت قامتها قامة امرأة ، ومع ذلك بقي سروالها يسحل إلى الأسفل ، وجدائلها تتمايل خلفها . فقد تركتها تتدلى ، وهي تركض مع الفتيات ، وتنقب في المستنقعات وتتسلق أشجار التفاح وتذرع التلال مع اندفاع الريح . كانت أمها تشير إلى أختها ماري ، التي رغم أنها كانت تصغرها بالسن ، إلا أنها كانت تظل جالسة بجوار المدفأة تثبت تطريزها من أجل النوعية ، وكانت ماري تستطيع أن تحبك أيضاً ، وتملك مجموعة أنيقة من أنماط «الشامروج» . لذا كانت الأم دائماً توبخ مارغريت .

أي نوع من الفتيات أنت ؟ تندفعين وتقفزين مثل الغزلان ذوات السيقان الحمراء ؟ لقد حان الوقت كي تتعقلي وتتعلمي شيئاً . إنك لا تصلحين إلا للصفافير والبنادق الكشفية ولا أرى في هذه الأشياء شيئاً مفيداً .

ما أروع تلك الصفافير التي كانت تستنبطها من سيقان الصفصاف القوية في الربيع . والبنادق الكشفية التي كانت تجوفها من السيقان الأكبر عمراً وتملؤها بالماء من الغدير ، بواسطة حشوات من العصي تصبح على أثرها مثل المسدس . كانوا يختبئون خلف السياج ، ويرشون الماء الموحل على الأعداء والأصدقاء على حد سواء . كم مرة كانت تُشدّ آذانهم أو يذهبون إلى السرير بدون عشاء مدعين أنهم لم يروا الطاولة المليئة بالبطاطا المقلية «البطاطا الضاحكة»؟ كانوا يسمونها لأنهم كانوا يشقون أطرافها ، إلى جانب مخيض اللبن والبيض الطازج ، وكعكات الشوفان والزبدة الطازجة . كانت أمهم تقول وهي تبتسم «طفل بلا عشاء يعني طفلين عند الفطور» . عندما كانت تشاهدهم يلتهمون عصائدهم ففي اليوم التالي .

كم كانت تلك الصور مليئة بالحيوية والنشاط؟ هذا المخلوق الطائش بدأ يكبر ، كيف يمكن لهذه الأشياء أن تحدث؟ كانت خطوات البلوغ الرزينة تبدو بعيدة عن نجمها . ومع ذلك كانت تكبر وتنمو وهي كارهة . كانت هناك دعوة غريبة للانطلاق ، تقف عند الباب تحت ضوء القمر ، ورغم أنها كانت في الداخل جاهزة للاختباء إلا أن أحداً لم يلاحظ إنذارها هذا .

ها هو ذلك الفتى ماكوري ذو السيقان الطويلة ، جاء يستطلع أخبار ماري مرة أخرى ، قالت أمها لا شعورياً ، سأعصب رأسي ولكنه لم يأت من أجل ماري رغم أنها تزوجته وجاءت معه ومع أطفالهما إلى أمريكا بعد سنين من سفر أختها وحيدة .

كان تطفّل جيري ماكوري مؤشراً لدفع مركب أحلامها على المياه الضحلة . للحقيقة ، من الذي سيهتم بحياة جافة وجريحة لامرأة بالغة ، أصبح الفرح خلفها الآن ، وحين كانت الفترات التي تمر بين الألم والألم تسمح لها ببعض الهدوء ، كانت تدير وجهها المتلهف نحو رؤى الماضي الطفولية . أحياناً كانت تقوم بتلك الرحلة مرتين قبل أن يعود الألم ويداهمها . ولكن فترات الهدوء كانت أقصر وأقصر ، غالباً ما كان الألم يقاطعها قبل أن تصل إلى صرخة الرؤيا . دائماً كانت هناك رؤيا

أكثر وهماً من غيرها ، تفضل دائماً أن تعيد اغتنامها ، وأخيراً كانت كلمات أنا تجيء لتضعها بالصدفة على طريق الوعي .

عندما لا تكون في نشوة استسلامها للأحلام ، كانت آنا تحاول قدر استطاعتها أن تصرف انتباهها ، فترسل أطفالها كي يسألوها إذا كانت ترغب في فنجان من الشاي ، أو أن تتذوق بعض حلوى النبيذ ، وفي أحد الأيام وبعد أن قضت المريضة ليلة سيئة . أحضرت لها آنا ثوبها الحريري الطويل الجديد لتتفقده ، كانت العمة معروفة بذوقها في الملابس ، وكم من ثوب رائع حاكته في أيامها . أخذت العيون الحادة العجوز تتمعن في هذه الحلية الثمينة والمدهشة التي تزين المقدمة الفضفاضة للثوب .

ما هذا اللاصق ؟ سألتها باستخفاف :

ردت آنا بحنق : اعتقد أنك تفضلين الستر الضيقة المحكمة الحبك والمزررة من رأسها لقاعها .

برق وهج مفاجئ في الوجه العجوز ، فصاحت : لقد وجدته . هو ما كنت أبحث عنه طوال هذه الفترة سوف يأتي الآن ، الثوب الأحمر ، لا بد أن أعود إلى البداية .

بهذا أنهت حديثها لتعود وترتاح وتلملم نفسها وكأنها تستسلم لسحر منوم مغناطيسي .

ولكي تصل إلى الصورة المرغوبة في معرضها ، لا بد لها أن تعود من البداية ، ثم تتابع الصور بترتيب متناسب : موكب الفتيات الصغيرات : بالثياب القرنفلية ، والثياب الزرقاء المزركشة ، عاريات الأرجل أو بالأحذية الغليظة ، يتلوين بتنانيرهن القصيرة ويطوين ضفائرهن الثقيلة . في وسط الطريق فرضت صورة جديدة نفسها - فتاة في التاسعة أو العاشرة ، تتمايل على الجهتين أمام قطعة مرآة وتعبس لرؤية الثوب الأحمر الذي يتلاطم عند أكعابها - اشتروه لها أكبر من حجمها حتى لا تكبر عليه مبكراً ، تكاد أكمامه أن تبتلع يديها الصغيرتين البنيتين ، وأكتافها وظهرها على نحو مضحك مثل هيئة كيس ، أما مقدمته فكانت مشقوقة قليلاً .

إنني أبدو مغفلة ، وجالبة للسخرية في هذا الثوب الذي ألبسه ، عبست بحدة وقالت إنني أتساءل إذا كان بالإمكان أن أقصره ليلائمني تماماً ، مثلما تقصر أمي ثياب جون لتلائم مارتن ، أحضرت إبرة ومقصاً وخيوطاً وانسلت إلى غرفتها الصغيرة تحت

الإفريز . وبدأت العمل في أول النهار ومرَّ الصباح وجاءت ساعة الغداء .

– بيغي أين ذهبت هذه الفتاة ؟ إني أعجب ؟

– أظن أنها ذهبت إلى عمتها تيريزا .

– حسناً ، أنا سعيدة أنها بعيدة عن ناظري لأن يدي تتلهفان لهزها ، فإنها تقف وتتمايل في الداخل ، وتحتج على الثوب الجديد ، بعد أن اشترته لها . هذه المشاغبة الصغيرة !

بالنسبة للخيّاطة الصغيرة تحت السقف ، مرّ العصر على جناح السرعة ، وهي غارقة وسط ثقوب الإبر وخيوط التسريج والحياكة ، تقيس الثوب ثم تقصه مرة أخرى وتعيد ترتيبه ، سوف أقوم بتصغيره قليلاً ، حشرت نفسها بجانب النافذة لتلتقط آخر ضوء من النهار ، وعند الغسق رقعت شعرها الداكن عن خديها الحمراوين ، وأدخلت جسمها قسراً داخل الثوب الأحمر . لقد أصبح ملائماً ، صدقوني فقد أحكمت موضته على أثر سيدة كاملة الصورة ، كانت تراها تصطاد وهي تركب الخيل في ناحية الريف . كان الثوب يزررها حتى صدرها الصبياني المسطح ويغلفها حتى خصرها المربع الصغير ، ويتموج بمرح حول أردافها الضيقة . وفي أسفل الفستان المنقط ، ظهرت قدماها البنيتان المليئتان بخدوش العليق . نزلت الدرج وهي تطير مفعمة بحرارة النصر . كانت أمها تجلس مع جارة لها قرب المدفأة . حاولت أن تواجههم بثقة ، ولكن أمام منظر وجوههم المندهشة ، أرتج عليها فأخذت تدور حول المرآة .

– يا للساعة المقدسة ، صاحت أمها أي جلد تقانق هذا الذي حشرت نفسك . فيه ثم مع اكتمال إدراكها تابعت الصياح : يا ربي العظيم . هذا ما تبقى من ثوب جديد رائع اشتريته لها كبيراً لكي يستوعبها لخمس سنوات قادمة .

– كان كبيراً جداً أجابت الفتاة بتشنج ، وكنت أبدو فيه مغفلة ثم أضافت وبتملق أريد أن أقصر منه قليلاً يا أمي ، فسوف أكبر الآن وقد يزداد وزني ، انظري إنه مناسب جداً .

– مناسب ! صاحت أمها ، الله يحميك من السخرية .

– هل قامت الصغيرة بصنع هذا الثوب بنفسها ؟ سألت الجارة .

– أنا صغيرة قالت مارغريت بحدة ، وأضافت : لقد قصصته وجمعته وأعدت

خياطته ، إن له جيوباً حتى الأسفل .

- «ماغي» قالت الجارة موجهة حديثها إلى أم مارغريت : إنه عمل رائع بالنسبة لطفلة في عمرها ، لم أر مثله من قبل ، ولا يجب أن تعنفيها لقد فعلت شيئاً جيداً ، ثم انفجرت بضحك لم تسطع أن تسيطر عليه ،

إنها هي التي سترتديه يا عزيزتي ، وكل ما تحتاجه الآن هو حصان وسرج جانبي حتى تصبح فارسة .

هكذا انتهى هذا التدمير الجائر لثوب أحمر جيد - في منزل تعزّ فيه الثياب الجيدة - بضحكة . أما إلى متى ستظل ترتدي هذا الثوب الضيق ، كم من العظمة ستشعر فيه ، فهذا شيء متروك للأطفال الآخرين ، ليضحكوا ما شاؤوا .

يا للفرح الذي كان يغمر المرأة العجوز ، عندما تتذكر هذه الواقعة بأدق تفاصيلها ، كانت تحقق فيها ديمومة لذتها مقارنة ، مع أوهام اللحظات الأخرى . كانت مارغريت أوبريان تشاهد كل هذه الوجوه الأخرى ، لكنها كانت هي الطفلة ذات الرداء الأحمر . وفي السنين التي مرت بعد هذه الحادثة ، قامت بتفصيل العديد من الثياب الرائعة ، ثم ألبست فتيات سعيدات ثياب حفلاتهن ، وأكست عرائس جميلات لوقفة فرحهن في الكنائس . لم يتبق من هذا شيء ، ولكنها ظلت تشعر بجودة ثوبها الأحمر تحت خدشات الإبر في أصابعها وترى لمعة اللون الفني ينعكس على خديها البنيين أمام قبلات الريح .

- إلى الحياة كانت تصيح بابتهاج شديد : إلى الحياة .

- إلى حياة يا عمتي مارغريت ؟ سألتها آنا بقلق خفيف ، هل تخافين من النهاية التي أنت فيها يا عزيزتي ؟

- أبداً ، أبداً لقد أقلت نفسي منذ زمن ، رغم أن المعرفة كانت مريرة في البداية ، حسناً ، حسناً أن الله جيد ولا يمكن أن نعيش للأبد .

كانت عيناها تتفتحان أمام وهج مشعل الغاز ، وتغمزان وهي تنظر طويلاً في الضوء الخفيف . لماذا كل هذا الوهج ؟ سألت بمرح ، أظن أن زوجة صانع الشموع قد ماتت - أطفئي كل هذه الشموع المحرقة ، لقد بزغ ضوء النهار وأنه الجزء من النهار الذي أحبه .

أطاعت آنا وجلست بجوارها على السرير ، كان الغسق ربيعياً ناعماً ، وكانت هناك

نسمة خفيفة تتسلل خلف الستائر البيضاء ، عابقة برائحة نموات العشب الجديدة ، وأزهار الآجاص في الساحة المزينة ، بدت كأنها فترة قد مرت بين ساعات النهار المسرعة ، للراحة والتفكير والإيمان . ساعة مفتوحة ، لا بد للمرأة العجوز قد أحست بهذه الدعوة ، لذا أدارت رأسها ومدت يدا خجولة لابنة أختها .

– أنا يا بنيتي تخيلي ، وأنت معي والقمر بدراً وأنا أفكر . ولا يوجد امرأة في كامل ذهنها مثلما أنا الآن . هل تريدين أن أخبرك ما الذي كنت أخزنه كل هذه الأيام والليالي الطويلة ولو أخبرتك فسوف تضحكين كثيراً وتطلقين سراحي؟

وبقدر استطاعتها ، أخذت تسرد من خيالاتها ، وبدلاً من أن تضحك آنا طفحت عيناها بالدموع ، وبكل عطف وتفهم «السلتيين» . اعترفت العجوز بأنها فكرة كانت تراودها دائماً : دعيني أخبرك . وأضافت : بين كل الفتيات الصغيرات اللواتي كنتهن ، والآن لن يعدن إلى الحياة مرة أخرى ! لقد قلتها بنفسك قالت العجوز وسرها هذا التجاوب غير المتوقع ، بالنسبة لي فقط هو أمر أحتفظ به . من بين كل تلك الفتيات التعيسات ، لم يعد هناك أحد ليتذكر سوى آنا وقريباً ، لن يعود هناك آنا أيضاً . أحياناً يبدون لي وكأنهن يتوسلن بأن لا يُنسين ، لذا أحاول أن أبقيهن أحياء في مخيلتي . ولقد نجحت في ذلك صدقيني .

هذه الخفقات الصغيرة ، تبدو وكأنها حقيقية ، وهؤلاء الأطفال يتجسدون . اختنق صوتها فجأة بالدموع ، إنهم الأطفال الوحيدون الذين كنت أعرفهم . يا للأسى ، علي المغادرة وسوف يموتون الآن لأنه لا يوجد أحد يستطيع أن يتذكرهم بعد اليوم .

بدا وكأن جمال آنا الذي ذبل ، مع أعمال البيت وهموم الأطفال قد عاد إلى نضارته السابقة ، مالت إلى الأمام بحماس الفتيات الصغيرات وقالت : عمتي مارغريت . تنفست برقة أمامها وتابعت : لا يزال أمامك الكثير من الأيام ، وسوف أبقى جالسة بقربك كل مساء عند حمرة الغروب ، وبإمكانك أن تريني جميع الفتيات اللواتي في ذهنك . فقد أخبرتني أمي عدة مرات عن هذا المكان القديم وأستطيع أن أتذكره جيداً ، رغم أنني كنت أصغر الجميع . لذا تستطيعين أن تملئيه بكل أهلنا : ماري ومارغريت وجون ومارتن وابستر والعم شيموس والباقين . سوف أراهم بوضوح ، كما ترينهم أنت لأن لدي في دماغي ، موضعاً تظهر فيه الصور حادة ،

وكثيفة كالنجوم في ليلة صقيع . وعندما أناديهم سوف يرقصون ويعيشون حتى يوم القيامة .

وهكذا حققت المرأة العجوز أمنية قلبها ، وأعادت خلق بواكير نفسها ومررتها إلى المستقبل ، سعيدة في داخلها لأنها أنقذتهم من النسيان . هل تمانعين أن تقوم هذه الفتاة بضرب ثورها الآن ؟ قد تسأل بجذل وهي تتكلم أكثر وأكثر كأنها تتكلم عن شخص ثالث . وهذه الفاجرة هل تسمحين لها بأن تصنع مسخرة من ثوبها الجيد؟ إنني أفضل أن أجلد تلك الأخرى .

لبثت المرأة العجوز شهراً كاملاً بعد ميعادها . ومع نضوج الربيع أصبحت الأيام أطول . وفي ضوء الشفق الذابل ببطء ، قامت المرأتان بتهيئة مسرحهما ، وإعطاء الطوابير للدخول والخروج . وعلى اللحاف الأبيض رقصت الوجوه المرحة لامعة ومفعمة بالشباب والحياة ، في دورة كاملة من طفولة امرأة . أصبحت مألوفة الآن مع الوقت ، دخلت في تآلف مع بعضها ، تُلطِّف ساعات الألم بالجمال الضاحك ، أو بتأمل فجائي ليساعدها هذا الديكور الجذاب على تكريس نفسها للسعادة .

إنها امرأة قديمة . قال الكاهن الشاب موجهاً حديثه إلى آنا في أحد أيام العجوز الأخيرة . إنها ستنتهي نهاية مقدسة . لا بد أن تأملاتها جميلة ، فوجهها يضيء بأنوار الجنة الحقيقية وتبدو وكأنها قد سمعت لتوها أناشيد الملائكة .

وافقت آنا باحترام وأبقت السر لنفسها ، كان الكاهن رجلاً طيباً وعطوفاً ومن أبناء الله ، كان يشبه زوجها ، حنوناً متبلد الحس وكأنه يعيش خارج الدائرة السحرية للاستيعاب كانت تفكر بتسامح . إن الرجل المسكين لا يرى شيئاً ولكن نيته طيبة . لذا فقد هيأت زوجها لكي يهتم بالصغار ، وتخلصت من أشغالها اليومية الخسيسة بسهولة ، وانسلت عائدة إلى الحلقة السعيدة .

١٩١٧

سوزان غلاسبل

هيئة محلفين من أترابها

عن «إيفري ويك»

ما كادت مارثا هيل تفتح باب العواصف حتى لحقتها لسعة من ريح الشمال . أقفلت عائدة تركض إلى وشاحها الصوفي الكبير . وبينما هي تلفُّه بسرعة حول رأسها ألقت نظرة شاملة على مطبخها . لم يكن الشيء الذي استرعى انتباهها شيئاً عادياً – لقد كان شيئاً أبعد بكثير من الأمور العادية ، التي تدور بالعادة في ديكسون كاونتي . إلا أن ما التقطته عيناها كان أن مطبخها ، لم يكن متهيئاً لأن يترك . فالخبز جاهز للخلط ، ونصف الدقيق قد تم تنخيله في حين بقي النصف الآخر بدون تنخيل .

كانت تكره أن ترى الأشياء نصف جاهزة . ولكن هكذا كان حالها عندما توقف الفريق (طاقم التحقيق) ، القادم من البلدة ليأخذ السيد هيل . دخل بعدها رجل الأمن راكضاً ليقول ، أن زوجته ترغب بأن تأتي السيدة هيل معنا مضيفاً بابتسامة عريضة ، أنه يعتقد بأنها بدأت تشعر بالهلع وأنها تفضل أن تصطحب امرأة معها . لذا فقد اضطرت مارثا أن تترك كل شيء مكانه .

«مارثا» اجاءها الآن صوت زوجها وقد نفذ صبره :لا تتركي القوم ينتظرون في البرد خارجاً . فتحت باب العواصف مرة أخرى ، وفي هذه المرة انضمت إلى الرجال الثلاثة والمرأة الذين ينتظرونها في العربة الكبيرة ذات المقعدين . وبعد أن أسبلت

ثيابها حول جسمها ، اختلست نظرة أخرى إلى المرأة التي تجلس إلى جوارها في المقعد الخلفي . لقد سبق لها وأن قابلت السيدة بيترز في معرض المقاطعة في السنة الماضية . والشيء الذي ظلت تتذكره بشأنها هو أنها لم تكن تبدو بمظهر زوجة ضابط أمن . فقد كانت صغيرة ونحيفة وذات صوت ضعيف . أما السيدة جورمان زوجة ضابط الأمن الذي حلّ بيترز محله فقد كانت تملك صوتاً بدا وكأنه داعماً للقانون بكل معنى الكلمة . ولكن إذا لم تكن السيدة بيترز تظهر بمظهر زوجة ضابط أمن فقد عوّض عنها السيد بيترز بمظهره المناسب جداً ليكون كذلك . فقد كان وفقاً لما هو ظاهر ، رجلاً من الصنف الذي ينجح في أي انتخابات تجرى لمثل هذا المنصب . رجلاً ثقيلاً ذا صوت قوي ، يعامل من يطيعون القانون معاملة خاصة ، ورقيقة كأنه يريد أن يبين بأنه يعرف الفرق بين المجرمين وغير المجرمين .

عند ذلك ، خطر ببال السيدة هيل أن هذا الرجل الذي كان لطيفاً ، يفيض بالحيوية بينهم جميعاً ، هو الآن في طريقه إلى منزل آل رايت كرجل أمن .

- إن البلاد ليست في حال يسرُّ البال في مثل هذا الوقت من السنة . أخيراً تجرأت السيدة بيترز بالكلام ، وكأنها شعرت بأن عليهن أيضاً أن يتكلمن مثل الرجال . بالكاد أنهت السيدة هيل إجابتها ، حتى كانت العربة تتسلق تلة صغيرة ، أصبح بإمكانهم بعدها رؤية منزل «رايت» . ولعل رؤيته جعلتها تشعر بعدم الرغبة في الكلام . فهو يبدو موحشاً جداً في هذا الصباح البارد من شهر آذار . كان منظره دائماً يبدو موحشاً ، وقد جاء بناؤه في موقع أجوف داخل التل . حتى أشجار الحور حوله ، كان منظرها موحشاً وكان الرجال ينظرون إليه ويتحدثون بشأن ما جرى .

كان محامي المقاطعة ينحني على أحد جوانب العربة ، وينظر بتواصل وإمعان إلى المكان ، بينما هم يقتربون منه .

- أنا سعيدة لأنك جئت معي . قالت السيدة بيترز بعصبية ، بينما كانت المرأتان على أهبة اللحاق بالرجال عبر باب المطبخ .

حتى بعد أن وضعت قدمها على عتبة الباب ، ويدها على مقبضه ، ظل يعتري مارثا هيل ، شعور بأنها لن تستطيع عبور تلك العتبة . كان السبب في عدم استطاعتها العبور ، ببساطة أنها لم تعبرها من قبل . فكم كان يدور في رأسها مرة بعد مرة بأنه

يجب عليها أن تعبر وترى ميني فوستر؟ كانت ما تزال تفكر فيها كميني فوستر رغم أنها ومنذ عشرين سنة أصبحت السيدة رايت . منذ ذلك الحين ، كان هناك دائماً شيء تفعله ، يغيّب ميني فوستر عن ذاكرتها . ولكنها الآن تمكنت من العودة .

توجه الرجال نحو المدفأة ، ووقفت المرأتان متلاصقتين بجانب الباب . استدار الشاب هندرسون محامي المقاطعة وقال : اقتربن من النار أيتها السيدات . تقدمت السيدة بيترز خطوة إلى الأمام ، ثم توقفت فجأة وقالت : أنا لا أشعر بالبرد . وهكذا بقيت المرأتان بجانب الباب . ولم تكونا قد التفتا بعد إلى جهة المطبخ .

تحدث الرجال لدقيقة حول روعة العمل الذي قام به ضابط الأمن ، عندما أرسل مندوبه منذ الصباح ليشعل نار الموقد . بعد ذلك خطا الضابط بيترز بعيداً عن المدفأة ، وفكّ أزرار معطفه الخارجي ثم مال بيديه على طاولة المطبخ إيذاناً ببدء العمل الرسمي : الآن يا سيد هيل . قالها بصوت شبه رسمي : وقبل أن نقوم بتحريك الأشياء هنا وهناك ، أرجو أن تخبر السيد هندرسون ، ما الذي رأيته بالضبط ، عندما وصلت إلى هنا صباح يوم أمس . كان محامي المقاطعة في ذلك الحين ينظر في أرجاء المطبخ ثم قال :

- بالمناسبة ، هل تم تحريك أي شيء ؟ ثم تابع وهو يلتفت إلى ضابط الأمن : هل الأشياء ما تزال بالضبط كما تركتها أمس ؟ نظر بيترز نظرة امتدت من خزانة المطبخ إلى المغسلة ثم إلى كرسي هزاز بالٍ يقبع قرب أحد جوانب طاولة المطبخ ، إنها بالضبط كما تركتها . قال ضابط الأمن . كان يجب ترك أحدٍ هنا . قال محامي المقاطعة : آه أمس . أجاب ضابط الأمن مع إيماءة صغيرة ، كما لو أن أمس هو أكثر مما يستطيع تفكيره أن يحتمل ثم أضاف :

عندما اضطررت إلى ارسال فرانك إلى موريس سنتر لإيقاف ذلك الرجل الذي أصيب بالجنون . . . دعني أخبرك أمس كان نهاراً حافلاً . كنت أعرف بأنه يمكن أن يعود من أوماها بحلول هذا اليوم يا جورج . . . وطالما أني تفحصت كل شيء بنفسي . . .

- حسناً . . . . يا سيد هيل . قال محامي المقاطعة بطريقة معناها أن دع الماضي فما فات قد فات : . . . ارو فقط ما حدث عندما جئت إلى هنا صباح أمس .

أحست السيدة هيل ، والتي كانت ما تزال مستندة إلى الباب بشعور يشبه شعور المرأة التي يوشك طفلها على إلقاء كلمة . فقد كان لويس هيل غالباً ما يتوه في الكلام ويخلط الأشياء في قصصه . كانت تأمل أن يروي هذه القصة بشكل واضح ومباشر ، وأن لا يقول أشياء غير ضرورية قد تؤدي إلى تصعيب الأمور أمام ميني فوستر . لم يبدأ فوراً بالكلام ، ولاحظت أنه كان يتصرف بغرابة وكأن وقفته في ذلك المطبخ ليروي ما رآه بالأمس ، جعلته يبدو مريضاً على الأرجح .

- نعم يا سيد هيل . عاد محامي المقاطعة ليذكره بالسؤال .

- نزلنا أنا وهاري إلى البلدة ، ومعنا شحنة من البطاطا . ابتدأ زوج السيدة هيل بالكلام . كان هاري هو الابن الأكبر للسيدة هيل ، ولم يكن معهم الآن لسبب وجيه جداً ، هو أن تلك الشحنة من البطاطا لم تصل إلى المدينة يوم أمس ، فاضطر إلى إحضارها صباح اليوم ، لذلك لم يكن متواجداً في منزله ، عندما توقف ضابط الشرطة ليطلب من السيد هيل مرافقته إلى منزل رايت ، وسرد قصته هناك لمحامي المقاطعة . ومع جميع العواطف التي تجيش داخل السيدة هيل ، جاءها الخوف الآن من أن هاري ربما لم يكن يرتدي ملابس دافئة بما فيه الكفاية . لم يكن أحد من الآخرين يدرك مدى قوة لسعة الريح الشمالي .

عبرنا هذه الطريق . أخذ هيل يتابع قصته ، مشيراً بيده إلى الطريق التي جاؤوا منها بالضبط . وعندما أصبح البيت على مرأى منا ، قلت لهاري : أنا ذاهب لأرى إذا كنت سأتمكن من إقناع جون رايت بأن يركّب جهاز هاتف . «تصور» وجّه السيد هيل الشرح إلى هندرسون ، أنهم لا يرغبون بتمرير الخط في هذا الطريق الفرعي ، ما لم أحضر شخصاً آخر معي ، إلا إذا دفعت رسماً لا أستطيع دفعه .

وقد كنت قد تحدثت مع رايت بشأن هذا الموضوع ، ولكنه خذلني قائلاً أن الناس يتكلمون كثيراً . وعلى أي حال أن كل ما يسأله هو السلام والسكينة . أظنك تعلم إلى أي مدى تقريباً يعاند رايت في الحديث . الا أنني فكرت بأني ربما لو ذهبت وتكلمت مع زوجته بالأمر كأن أقول لها إن النساء كلها تحب الهواتف ، وأن الهاتف قد يكون مفيداً في مثل هذه الطريق المعزولة . . حسناً . . قلت لهاري ذلك ما أنا ذاهب لأقوله . ومع ذلك فكرت بنفس الوقت أني لا أعرف إذا كان جون يعير أي اهتمام

لرغبات زوجته .

والآن . . . يقول أشياء ليس بحاجة لقولها . حاولت السيدة هيل شدّ انتباه زوجها ولكن لحسن الحظ ، قاطعه محامي المقاطعة بقوله : دعنا نتكلم في ذلك بعد قليل يا سيد هيل ، أنا أرغب في الحديث بهذا الأمر ولكني الآن مهتم فقط بأن أعرف ماذا حصل عندما دخلت إلى هنا .

وعندما عاود هيل الحديث هذه المرة ، كان شديد التروي والحذر . لم أر أو أسمع شيئاً . طرقت على الباب ، وكان كل شيء هادئاً في الداخل . كنت أعرف أنهم يجب أن يكونوا مستيقظين ، فالساعة قد تخطت الثامنة . لذلك طرقت على الباب مرة أخرى ثم اعتقدت بأني سمعت شخصاً يقول : ادخل . لم أكن متأكداً ولست متأكداً حتى الآن . ولكني فتحت الباب - . . . مشيراً بيده ناحية الباب الذي تقف المرأتان إلى جواره ، وهناك - في ذلك الهزّاز - أشار بيده إلى الكرسي ، كانت تجلس السيدة رايت . نظر الجميع نحو الكرسي الهزاز ، وخطر للسيدة هيل أن الكرسي لا يليق بميني فوستر . تلك الميني فوستر التي كانت تعرفها لعشرين سنة خلت . كان لونه أحمر داكناً ، وله دعامات خشبية على الظهر ، وقد تم إزالة الدعامة الوسطى بحيث بات الكرسي متدلياً من جانب واحد .

- كيف كان شكلها ؟ سأله محامي المقاطعة .

- حسناً . . . قال هيل . . . بدت مريبة .

- ماذا تعني بقولك مريبة ؟ سأله المحامي ثم أخرج دفتر ملاحظات وقلماً . لم تستسغ السيدة هيل منظر ذلك القلم ، وأبقت عينيها مثبتتين على زوجها كما لو أنها تريد منعه من قول أشياء غير ضرورية قد تجد طريقها إلى تلك المفكرة وتسبب إزعاجاً .

راح هيل يتكلم بحذر ، كما لو أن القلم قد أثّر عليه أيضاً .

- حسناً ، كما لو أنها لم تكن تعرف ما الذي ستفعله فيما بعد ونوع من . . . . كأنها انتهت من شيء .

- كيف كانت تشعر بشأن قدومك ؟ سأله المحامي .

- لماذا أظن أنها لم تأبه لذلك بطريقةٍ أو بأخرى؟ حتى أنها لم تعرني أي انتباه .

قلت لها كيف حالك يا سيدة رايت ؟ الطقس بارد أليس كذلك ؟ أجابت :هل هو كذلك . واستمرت في ثني مريولها .

– حسناً استغربت أنها لم تدعوني للاقتراب من المدفأة ، ولا حتى إلى الجلوس ولكني جلست هناك دون أن تنظر إلي . وهكذا قلت لها : أود رؤية جون .

ضحكت . . . أظن أنك قد تسميها ضحكة . فكّرت في هاري وفي الجياد في البرد ، لذلك قلت لها بشيء من الحدة : هل أستطيع أن أرى جون ؟ قالت بفتور : كلا . سألتها ولكن أليس هو في البيت . نظرت إلي وقالت : نعم هو في البيت . سألتها : إذن لماذا لا أستطيع أن أراه؟ بدأ صبري ينفذ . آجابتني بهدوء وبرودة : لأنه ميت . وعادت إلى ثني مريولها . ميت؟ قلت ذلك بصيغة الذي لم يحتمل ما يسمعه . هزت رأسها دون أي شعور بالإثارة ، بل أخذت تهز كرسيها جيئة وإياباً . أين هو ؟ سألتها دون أن أعرف ما الذي أقوله «أشارت إلى الطابق العلوي – هكذا – وأشار إلى الغرفة فوق . نهضت واقفاً مصمماً على أن أصعد إلى فوق بنفسي . خلال هذا الوقت ، لم أكن أعرف ما الذي أفعله ، مشيت من هناك إلى هنا ثم سألتها بعد ذلك : ماذا كان سبب موته ؟ أجابتني وتتابع ثني مريولها : مات بحبل التفٌ حول عنقه . توقف هاري عن الحديث ، وراح يحدق في الكرسي الهزاز ، كما لو أنه لا يزال يرى المرأة التي كانت تجلس هناك في الصباح السابق . ساد الصمت بين الجموع ، وكأن كل واحد منهم كان يرى أيضاً المرأة التي كانت تجلس هناك في الصباح السابق .

– ماذا فعلت بعد ذلك ؟ سأله محامي المقاطعة كاسراً الصمت أخيراً .

– ذهبت إلى الخارج وناديت هاري ، ظننت أنني سأحتاج إلى مساعدة . أدخلت هاري وصعدنا إلى الطابق العلوي . انخفض صوته إلى ما يشبه الهمس تقريباً كان هناك – ملقىً على – أظن أنه من الأفضل أن أدخلك إلى الطابق العلوي . بالتأكيد قاطعه المدعي العام ، لكي تستطيع أن تشير لنا إلى كل شيء . استمر الآن في سرد باقي القصة . حسناً ، أول ما فكرت به هو أن ازيل ذلك الحبل ، فقد بدا – توقف عن الكلام وأخذ ، وجهه يرتعش ، ثم تابع لكن هاري تفحصه وقال : إنه ميت بالتأكيد ، ومن الأفضل ألاّ نلمس أي شيء . لذا نزلنا إلى الطابق الأسفل . كانت لا تزال على نفس الجلسة ، سألتها إن كانت قد أخبرت أحداً فأجابت بدون اكتراث : لا . من

فعل هذا يا سيدة رايت؟ سألها هاري وكأنه يقوم بصفقة تجارية . توقفت عن ثني مريولها ، وقالت : لا أعرف . لا تعرفين ؟ قال هاري : ألم تكوني نائمة في الفراش معه ؟ قالت : نعم ، ولكنني كنت نائمة من الجهة الداخلية . سألها هاري بتعجب : لقد ربط أحدهم الحبل حول عنقه وخنقه دون أن تستيقظي ؟ دون أن استيقظ رددت بعده . ظهر علينا وكأننا لم نستوعب كيف يمكن أن يحدث مثل هذا الأمر ؟ وبعد دقيقة أجابت : أنام نوماً عميقاً .

كان هاري يرغب في طرح المزيد من الأسئلة عليها . ولكنني قلت له إن ذلك ليس من شأننا . ربما يتوجب علينا أن ندعها تسرد قصتها أولاً على المحقق أو لضابط الأمن . لذلك انطلق هاري وبأقصى سرعته إلى الطريق العام حيث يوجد هاتف لدى محل ريفرز .

– وماذا فعلت عندما علمت بذهابك إلى المحقق ؟ أمسك المحامي بالقلم متأهباً للكتابة .

– انتقلت من هذا الكرسي إلى هذا الكرسي هنا – وأشار هيل إلى كرسي صغير في الزاوية .

«جلست هناك ، تنظر إلى الأسفل وقد ضمت يديها . شعرت أن عليّ أن أبدأ ببعض الحديث ، لذلك قلت بأني جئت إلى هنا لأرى إذا كان جون يرغب بأن يتقدم بطلب لتركيب هاتف . عند ذلك شرعت في الضحك ثم توقفت ونظرت نحوي مرتاعةً . وعند سماع صوت القلم ، نظر الرجل الذي كان يدلي بأقواله إلى فوق ثم تابع : لا أعرف ، ربما لم تكن مرتاعة . ثم قال بسرعة : لم أرغب بأن أقول لك ذلك ، ولكن سريعاً ما عاد هاري وجاء بعده الدكتور لويد ثم أنت يا سيد بيترز . هذا كل ما أعرفه زيادة عما تعرفه أنت . قال ذلك أخيراً بارتياح ثم تحرك قليلاً كأنه يسترخي . تحرك الجميع وسار محامي المقاطعة ناحية باب سلم الدرج .

– أظن أن علينا أن نصعد إلى الطابق العلوي أولاً – ومن ثم نخرج إلى مخزن الحبوب ونقوم بجولة حول المكان قال المحامي ثم توقف فجأة وأدار بصره في أنحاء المطبخ .

– هل أنت مقتنع بأنه لم يكن هناك شيء مهم هنا ؟ سأل ضابط الأمن : أي

شيء يمكن أن يشير إلى وجود دافع .

أدار ضابط الأمن بصره في أنحاء المطبخ كما لو أنه يعيد إقناع نفسه : لا شيء هنا سوى أغراض المطبخ . قالها بضحكة خفيفة لشعوره بعدم أهمية أغراض المطبخ . كان المحامي ينظر إلى الخزانة بتركيبتها الغريبة التي تعوزها المهارة وكأن نصفها مخصص للأطباق ، النصف الآخر خزانة ملابس . كان جزؤها العلوي مبنياً في الجدار وجزؤها السفلي من الطراز القديم بخزانات المطبخ . وكأن غرابتها لفتت انتباهه فقد صعد على كرسي وفتح الجزء العلوي ونظر فيه وبعد لحظة سحب يده بعيداً ، وقد تغطت بمادة لزجة : هذه فوضى رائعة . قالها بامتعاض . اقتربت المرأتان أكثر وهنا تكلمت زوجة رجل الأمن : أوه مربيات الفاكهة ! قالت وهي تنظر إلى السيدة هيل ، كأنها تستعطفها لكي تفهم ما تقول . ثم استدارت ناحية المحامي موضحة : كان بالها مشغولاً بهذا الأمر ، خاصة عندما مال الجو للبرودة في الليلة الماضية ، فقد كانت تخشى أن تنطفئ النار وتنفجر علب المربيات .

انفجر زوج السيدة بيترز بالضحك قائلاً ، حسناً هل تستطيع أن تهزم المرأة ؟ تُعتقل لجريمة وتقلق على مربياتها . أطبق المحامي شفتيه : وقال : أظن أننا عندما ننتهي من هنا ، سيكون أمامها شيء أكثر جدية من المعلبات لتقلق بشأنه .

- أوه ، حسناً . قال زوج السيدة هيل بتعالٍ طيب . اعتادت النساء أن تقلق على مربياتها . تحركت المرأتان قليلاً لتصبحان أكثر قرباً من بعضهما دون أن تنبس أي منهما ببنت شفة . وفجأة ظهر محامي المقاطعة وكأنه قد تذكر آدابه ومستقبله السياسي ، فقال بحنكة السياسي الصغير : على الرغم من جميع مشاكلهن ، ماذا يمكننا أن نفعل بدون السيدات . لم تجب المرأتان ولم تتصرفا بطريقة خالية من الرسميات . أما هو فذهب إلى المغسلة وغسل يديه ثم استدار لينشفهما بالمنشفة الورقية الدوارة المعلقة بجانبها . أخذ يسحب الأوراق ليبحث عن جزء أكثر نظافة وقال : إن هذه المناشف تتسخ ، كما أن هذه المنشفة ليست نظيفة كفاية بالنسبة لمدبرة منزل ، ماذا تقلن أيتها السيدات ؟

بعد ذلك ، أزاح بقدمه بعض الأواني القذرة التي كانت موضوعة تحت المغسلة .

- هناك قدر كبير من العمل ، الذي تتطلبه المزرعة قالت السيدة هيل بانقباض .

– هذا مؤكد . أجابها وهو ينحني انحناءة صغيرة لها ، ثم أضاف ومع ذلك فأنا أعرف عدداً من بيوت المزارعين في مقاطعة ديكسون ، لا يوجد فيها مناشف قذرة مثل هذه . قام بجر مقبض المناشف ليفردها على طولها ، ويبين قذارتها مرة أخرى . ولكن السيدة هيل استمرت : تلك المناشف تلتقط الغبار بسرعة هائلة ، كما أن أيدي الرجال ليست نظيفة دائماً كما ينبغي أن تكون .

– آه ، مخلصة لبنات جنسك كما أرى ! ضحك ثم توقف ونظر إليها نظرة قاطعة : لكنكم أنت والسيدة رايت كنتما جارتين ، وأعتقد أنكما كنتما صديقتين أيضاً .

هزت مارثاهيل رأسها وقالت : لم أرها كثيراً في السنين الأخيرة . لقد مرت سنين لم أدخل فيها هذا البيت .

– ولماذا كان ذلك ، ألم تحبيها؟

لقد أحببتها بما يكفي . أجابت بحيوية : إن زوجات المزارعين مشغولات دائماً يا سيد هندرسون وأيضاً . . . راحت تنظر حول المطبخ .

– نعم قال وهو يستحثها للكلام .

– إن هذا المكان لم يكن أبداً مكاناً مبهجاً . قالت ذلك وكأنها توجه الكلام لنفسها أكثر مما توجهه له .

– لا . وافقها الكلام . لا أظن أن أحداً هنا يمكن أن يدعوه مكاناً مبهجاً لا يمكنني القول بأنها كانت تمتلك موهبةتدبير منزل .

– حسناً لا أعلم إذا كان رايت هكذا أيضاً . تمتمت السيدة هيل :

– تقصدين أنهما لم يكونا منسجمين جيداً ؟ ألقى سؤاله بسرعة وأجابت بعزم – أنا لا أقصد شيئاً ثم ابتعدت عنه قليلاً وأضافت لكني لا أظن أن مكاناً يوجد فيه جون رايت يمكن أن يبعث على البهجة .

أنا أرغب أن أتحدث إليك بشأن ذلك بعد قليل يا سيدة هيل . ثم أردف : أنا مهتم بتفحص ترتيب الأشياء في الطابق العلوي الآن . تحرك باتجاه باب سلم الدرج متبوعاً بالرجلين .

– أنا أعتقد أن أي شيء تفعله السيدة بيترز سيكون جيداً . سأل المحامي ضابط الأمن : كانت ستحضر لها بعض الملابس كما تعرف ، وأشياء أخرى قليلة . وكما

تعرف فقد تركنا المكان في عجلة بالأمس .

نظر محامي المقاطعة باتجاه المرأتين ، اللتين تركهما هناك بين أشياء المطبخ وقال : نعم سيدة بيترز . واستقرت نظراته على المرأة التي لم تكن السيدة بيترز بل المزارعة الكبيرة التي كانت تقف وراء زوجة ضابط الأمن .

بالطبع ، إن السيدة بيترز واحدة منا . قالها بأسلوب مسؤول وواثق : ابقي عينيك مفتوحة يا سيدة بيترز ، على كل شيء . يمكن أن يستخدم في هذه القضية ، ربما وقعتن يا سيداتي على مفتاح لاكتشاف الدافع ، وهذا هو الشيء الذي نريده .

فرك السيد هيل وجهه على غرار مُقدّم عروض يستعد لتقديم وصلة هزلية ، وقال : ولكن هل ستعرف النساء مفتاح اللغز إذا أتين عليه ؟

وبعد أن خلّص نفسه من هذا المأزق ، لحق بالرجلين الآخرين عبر باب سلم الدرج . ووقفت المرأتان صامتتين بلا حراك تصغيان إلى أصوات خطوات الأقدام ، فوق الدرج أولاً وثم من الغرفة التي تعلوهما .

بعد ذلك بدأت السيدة هيل ، وكأنها تريح نفسها من شيء غريب ، بترتيب الأواني القذرة تحت المغسلة ، التي أفسد محامي المقاطعة ترتيبها عندما ركلها بقدمه بازدراء .

أنا أكره أن يدخل رجال إلى مطبخي . قالتها بحدة : إنه تطفل كامل ومنتقد .

– إنها ليست أكثر من مهمتهم طبعاً . أجابت زوجة ضابط الأمن بطريقتها الأليفة المذعنة .

– مهمتهم بلا ريب . رددت السيدة هيل بخبث : ولكنني أظن أن نائب ضابط الأمن الذي جاء إلى هنا ليشعل النار قد ترك أثره هنا – وجذبت المنشفة الدوارة إلى الأسفل . ياليتني فكرت بهذا الأمر قبل الآن . ليس من المستحسن أن يقول عنها ، أنها لم تكن تنظف أشياءها عندما كان عليها أن تعود إلى المنزل بهذه السرعة .

ألقت نظرة حول المطبخ . بالتأكيد لم تكن مدبرة منزل ممتازة ! ووقعت عيناها على دلو للسكر فوق رف سفلي . كان غطاؤه قد أزيل عنه وعلى جانبه وضع كيس من الورق نصف مملوء .

تقدمت السيدة هيل نحوه : كانت تضع هذا في ذلك المكان . قالت لنفسها – ثم

أخذت تفكر بالدقيق في مطبخ بيتها ، نصفه منخول ونصفه غير منخول . ما الذي قاطع ميني فوستر في عملها حتى تترك أعمالها نصف جاهزة . قامت بحركة تنم عن رغبتها في أن تكمل العمل - فالأشياء غير المنجزة تضايقها - ولكنها عندما ألقت نظرة عجلى في أنحاء المطبخ ورأت السيدة بيترز تراقبها ، لم ترغب أن تشعرها بأنها تبدأ العمل ثم تتركه غير منجز لسبب ما .

- أسفي على مربياتها وفاكهتها . قالت ذلك ومشت باتجاه الخزانة التي كان المحامي قد فتحها ثم صعدت على الكرسي وهي تتمتم : أتساءل إذا كانت جميعها قد فسدت . كان المشهد يدعو للأسف الشديد . ولكن هنا يوجد قطعة سليمة . قالت أخيراً ورفعتها باتجاه الضوء هذا كرز أيضاً . نظرت مرة أخرى ثم قالت : أغلب الظن أن هذا هو الشيء الوحيد الذي تبقى سالماً . نزلت عن الكرسي وهي تطلق تنهيدة ثم ذهبت لتغسل الزجاجة : سوف تشعر بسوء مفرط . بعد كل هذا العمل الشاق في الطقس الحار . وضعت الزجاجة على الطاولة ثم أطلقت تنهيدة أخرى وأخذت تتهيأ للجلوس على الكرسي الهزاز .

لكنها لم تجلس ، شيء ما منعها من أن تجلس على ذلك الكرسي ، عدلت قامتها وخطت إلى الخلف وبنصف استدارة ، وقفت تنظر إليه من بعيد وكأنها ترى المرأة التي كانت تجلس هنا وتثني مريولها .

انقضَّ عليها صوت زوجة ضابط الأمن الرفيع وهي تقول : يجب أن أجمع هذه الأشياء من خزانة الغرفة الأمامية . فتحت الباب إلى الغرفة وهمت بالدخول ، إلا أنها عادت إلى الخلف ونادت : أتأتين معي يا سيدة هيل ؟ ثم قالت بانفعال : أنت - أنت تستطيعين مساعدتي في جمعها . ولكنهما عادتا بسرعة فلم تكن البرودة في تلك الغرفة المغلقة شيئاً يدعوك إلى إطالة المكوث بها .

يا إلهي . قالت السيدة بيترز وهي تلقي الأشياء على الطاولة وتسرع نحو المدفأة .

وقفت السيدة هيل تتفحص الملابس ، التي كانت المرأة المحتجزة في البلدة تريدها : أصبح رايت صعب المنال . قالت وهي ترفع قميصاً أسود رثاً يحمل علامات عمل كثير : أظن أن ذلك جعلها تتكتم كثيراً على نفسها ، ثم افترض بأنها شعرت بعدم تمكنها من أداء العمل الخاص بها ، عندها لن تستمتع بالأشياء ، حين تشعر

بحقارتها . لقد اعتادت على لبس الملابس الأنيقة ، والانطلاق في الحياة بحيوية – عندما كانت ميني فوستر – واحدة من بنات البلدة ، تغني في الجوقة ، ولكن ذلك كان منذ عشرين سنة .

لفّت الملابس بالطريقة التي تلفُ بها الأشياء الرقيقة ، ثم كدستها على أحد زوايا الطاولة ونظرت إلى السيدة بيترز ، كان هناك شيئاً ما في نظرة المرأة الأخرى أثار غضبها : إنها لا تهتم . قالت لنفسها : ماذا يهمها لو كانت ميني فوستر تمتلك أجمل الثياب عندما كانت فتاة . عادت ونظرت إليها مرة أخرى ولكنها لم تكن متأكدة منها تماماً . في الحقيقة إنها لم تكن متأكدة معظم الوقت ، فيما يتعلق بالسيدة بيترز ، فقد كانت تتصرف بطريقة خجولة ، ومع ذلك فقد بدت عيناها وكأنهما تريان الأشياء بعمق .

هذا كل ما تودين أخذه ؟ سألت السيدة هيل لا . أجابت زوجة ضابط الأمن . لقد قالت أنها تريد مريولاً ، شيء مضحك ، أن يرغب المرء في حاجة مثل هذه . ثم أضافت مجازفة وبنبرة عصبية : لا يوجد في السجن ما يكفي ليجعلك قذراً ، ولكن الله أعلم ، أني أريد فقط أن أجعلها تشعر بأن الأمر طبيعي ، بالنسبة لها إذا كانت معتادة على ارتداء مريول . قالت لي أنه موضوع في الدرج الأسفل من جرار هذه الخزانة . نعم ، إنه هنا . وكذلك شالها الصغير ، المعلق دائماً على باب السلم . أخذت الشال الرمادي الصغير من خلف الباب ، المؤدي لسلم الدرج ومكثت دقيقة تنظر إليه .

فجأة ، مشت السيدة هيل بخطى سريعة نحو المرأة الأخرى .

سيدة بيترز . قالت .

– نعم سيدة هيل

– هل تظنين أنها فعلتها ؟

غشيت عيني السيدة هيل نظرة مذعورة : أوه ، أنا لا أعرف . قالت بصوت بدا وكأنه يتضاءل بعيداً عن الموضوع .

– حسناً ! لا أظن أنها فعلتها . أكدت السيدة هيل بجرأة ، متسائلة عن المريول والشال الصغير ، ومبدية قلقها في نفس الوقت بشأن المربيات . ثم أكملت : يقول

السيد بيترز . . . توقفت وهي تصغي لوقع خطوات في الغرفة ، التي تقع فوقها . نظرت إلى الأعلى ثم واصلت الكلام بصوت خفيض : يقول السيد بيترز إن الأمر سيئ بالنسبة لها ، ويتحدث السيد هندرسون بسخرية مؤلمة ، أظن أنه سيقوم بتهزيئها حين تقول أنها لم تستيقظ . وللحظةٍ لم يعد لدى السيدة هيل أية إجابة ولكنها تابعت بعد ذلك : حسناً ، أظن ان جون رايت نفسه لم يستيقظ - عندما دسّوا ذلك الحبل تحت عنقه . همهمت قليلاً .

- لا ! إنه شيء غريب . قالت السيدة بيترز هامسة أنهم يعتقدون أننا مجرد طريقة غريبة ،لقتل رجل . أخذت تضحك بصوت مرتفع ثم توقفت فجأة . أجابتها السيدة هيل بصوت طبيعي مصمم : هذا بالضبط ما قاله السيد هيل . يوجد مسدس في البيت وهذا بالضبط مالا يستطيع أن يفهمه .

كان السيد هندرسون يتحدث ، وهو ينزل من الطابق العلوي قائلاً : ما نحتاج إليه في القضية هو الدافع - أي شيء يثير الغضب - أو شعور مفاجئ .

- حسناً ! إني لا أرى أية علامات للغضب حولنا . قالت السيدة هيل : أنا ، لا - . . . توقفت كما لو أن أفكارها داست على شيء ووقعت عيناها على منشفة الأطباق الموضوعة في وسط طاولة المطبخ . تحركت ببطء نحو الطاولة . كان نصفها قد تم مسحه ، والنصف الآخر ما يزال قذراً . استدارت عيناها ببطء نحو دلو السكر ، وكيس الورق نصف الفارغ إلى جانبها - كلها أشياء قد بوشر بعملها ولكنها لم تنجز .

- أتساءل كيف تسير الأمور في الطابق العلوي؟ أرجو أن يكون فيها بعض الإثارة أكثر من هنا ، أنت تعلمين . . . توقفت وهي تشعر بتماسكها ثم تابعت : يبدو كنوع من اللصوصية أن يقفلوا عليها الأبواب في البلدة ثم يأتون إلى هنا ليستولوا على بيتها وينقلبوا ضدها .

- لكن يا سيدة هيل . قالت زوجة ضابط الأمن : القانون هو القانون .

- أنا أفترض كذلك . أجابت السيدة هيل بعد قليل ، ثم انتقلت نحو المدفأة وهي تتمتم بأشياء تتعلق بتلك النار التي لا تشكل شيئاً نفاخر به . حركتها لمدة دقيقة ثم اعتدلت وقالت بعدوانية : القانون هو القانون ، والموقد الرديء هو الموقد الرديء . هل يمكنك أن تطبخي على موقد كهذا ؟ مشيرة إلى حافته المكسورة بعود تحريك النار .

فتحت غطاء الموقد وراحت تعبر عن رأيها فيه ، ولكنها سرعان ما غرقت في أفكارها الخاصة ، وأخذت تفكر ماذا تعني مكافحة مثل هذا الموقد عاماً بعد عام . كان مجرد تصورها لميني فوستر وهي تخبز في هذا الموقد وأنها لن تراها مرة أخرى ، يعني لها الكثير .

جفلت عند سماعها السيدة بيترز وهي تقول : الإنسان يصاب بالإحباط ويحرق قلبه .

أخذت زوجة ضابط الأمن تجول ببصرها من المدفأة ، وحتى المغسلة ثم ألقت نظرة على دلو الماء الذي تم نقله من الخارج . وقفت المرأتان صامتتين ، بينما كانت تسمع أصوات خطوات الرجال في الأعلى ، وهم يبحثون عن دليل يدين المرأة . التي كانت تعمل في مثل ذلك المطبخ . ظهرت الآن تلك النظرة المتعمقة في الأمور في عيني زوجة ضابط الأمن .

وعندما تحدثت إليها السيدة هيل تالياً ، كان حديثها وديعاً . من الأفضل يا سيدة بيترز أن تخففي من أحمالك ، سوف لن نشعر بها عندما نخرج .

ذهبت السيدة بيترز إلى مؤخرة الغرفة ، لتعلق لفاع الفرو الذي كانت ترتديه ثم هتفت بعد لحظة : لماذا كانت تقطع اللحاف إرباً . رفعت بيدها سلة خياطة كبيرة مليئة بقطع ممزقة من اللحاف . قامت السيدة هيل بفرد بعض القطع بعيداً عن الطاولة .

– إنه نمط تفصيلي . قالت وهي تجمع القطع المختلفة مع بعضها .

– لطيف . أليس كذلك ؟ انشغلت الاثنتان باللحاف ، لدرجة أنهما لم تسمعا أصوات خطوات الأقدام على سلم الدرج ، وبينما كان باب السلم يفتح قالت السيدة هيل : هل تفترضين على وجه الدقة بأنها كانت في صدد تنجيده أو تجميعه ؟ رنت الكلمات في أذن المحامي . رفع يديه إلى الأعلى وهو يقول : إنهن مشغولات فقط فيما إذا كانت بصدد تنجيده أو تجميعه ؟ سرت في المكان ضحكات حول أحاديث النساء ، ثم تحلقت الأيدي حول الموقد ، بعدها قال محامي المقاطعة بحدة : حسناً دعونا نذهب إلى الجهة اليمنى من مخزن الحبوب ونقوم بتمشيطها .

– لا أرى هناك أية غرابة . قالت السيدة هيل بامتعاض بعد أن أغلق الباب

الخارجي على الرجال الثلاثة ، إننا نضيع وقتنا في أشياء صغيرة أثناء انتظارهم ليحلصوا على دليل ، لا أرى شيئاً مضحكاً في الأمر .

– طبعاً ، لقد أخذوا الأشياء الهامة والخطيرة على عاتقهم ، قالت زوجة ضابط الأمن العام مدافعةً . عُدْنَ إلى فحص قالب اللحاف كانت السيدة هيل تتمعن في خياطتها الدقيقة المتوازنة ، وأفكارها مشغولة بالمرأة التي قامت بهذه الخياطة ، حين سمعت زوجة ضابط الأمن تقول بنبرة غريبة : رباه انظري إلى هذا . استدارت لتأخذ القالب الذي عرضته عليها .

الخياطة . قالت السيدة بيترز بنبرة قلقة : معظم الباقين كانوا رائعين ومنتظمي الحياكة لكن – هذه – لماذا تبدو كما لو أنها لم تعرف شيئاً عنها .

التفت أعينهن وبرز للوجود شيء ما عبر من بينهن ، ثم بدأتا بالتراجع عن بعضهما البعض وكأن قوة تدفعهما لذلك . جلست السيدة هيل هناك للحظة تلفُّ يديها حول تلك الحياكة ، التي كانت تختلف عن باقي التطاريز ثم سحبت عقدة وانتزعت خيوطها .

– أوه ، ماذا تفعلين يا سيدة هيل

– مجرد سحب غرزة أو غرزتين غير مخاطتين بشكل جيد . قالت السيدة هيل بلطف

– أظن أن علينا أن لا نمس الأشياء . قالت السيد بيترز بوهن

– سوف أكمل خياطة هذا الطرف فقط . أجابت السيدة هيل وهي لا تزال تتكلم بطريقتها اللطيفة وضعت الخيط في الإبرة وأخذت في تبديل الخياطة الرديئة بخياطة جيدة . كانت تحبك بصمت لمدة قصيرة إلى أن سمعت ذلك الصوت الواهن المذعور يناديها .

– سيدة هيل !

– نعم سيدة بيترز

– ماذا في اعتقادك الشيء الذي سبب هذه العصبية بشأن اللحاف ؟ .

– أوه ! لا أعرف . قالت السيدة هيل كما لو أنها ترفض الغوص بشكل كاف لئلا تضيع المزيد من الوقت حول موضوع غير مهم بما يكفي لإضاعة الوقت عليه .

- أنا لا أعرف إذا كانت عصبية . . . ولكني أنا نفسي أخيط برداءة عندما أكون متعبة . ردت السيدة هيل ، ثم قطعت خيطاً ونظرت إلى السيدة بيترز من طرف عينها . بدا وجه زوجة الضابط صغيراً أو هزيلاً ومتوتراً . كان في عينيها تلك النظرة ، التي تدخل في عمق الأشياء ، ولكنها في اللحظة التالية تحركت وقالت بطريقتها الخفيفة غير المحددة :

- حسناً ! - يجب أن أطوي تلك الملابس ، فهم قد ينتهون من عملهم بأسرع مما نظن . إني أتساءل أين يمكن أن أجد سلكاً وقطعة من الورق .

- ربما في تلك الخزانة . أشارت السيدة هيل . وبعد أن ألقت نظرة حولها ، وجدت أن قطعة واحدة ، من هذا التطريز الواهن بقيت غير ممزقة . استدارت السيدة بيترز إلى الخلف بينما وقفت مارثا تتفحص تلك القطعة ، وتقارنها مع التطريز الدقيق والأنيق للقوالب الأخرى . كان الفرق مروعاً . أشعرها اقتناء مثل هذا القالب بالغرابة ، كما لو أن الأفكار المتحيرة للمرأة ، التي كانت تعمل به أخذت تنتقل إليها .

نبهها صوت السيدة بيترز : يوجد قفص عصفور هنا . قالت : هل كان لديها عصفور يا سيدة هيل ؟ - لماذا ؟ لا أعرف ما إذا كان لديها عصفور أم لا . التفتت إلى القفص الذي كانت ترفعه السيدة بيترز وقالت : أنا لم آت إلى هنا منذ زمن . تنهدت ثم أردفت : مرَّ من هنا في السنة الماضية بائع متجول ، ظل يبيع عصافير الكنار بسعر رخيص ، ولكني لا أعلم ، إذا كانت قد ابتاعت واحداً منه . ربما تكون قد فعلت . فقد كانت هي نفسها بارعة في الغناء . جالت السيدة بيترز نظرها في أنحاء المطبخ وقالت : يبدو غريباً التفكير بعصفور هنا . ضحكت نصف ضحكة ثم أردفت : ربما أرادت أن تضع حاجزاً - إذ إنه يجب أن يكون لديها واحد هنا - وإلا فلماذا تضع القفص . إني أتساءل ماذا حصل للعصفور ؟

- أفترض أن القطة قد التهمته . قالت السيدة هيل وهي تستأنف خياطتها .

- لا . لم يكن لديها قطة فقد كانت تملك ذلك الشعور الذي يصيب بعض الناس عند رؤية القطط . عندما أحضروها إلى بيتنا بالأمس قمنا بإدخال قطتنا إلى الغرفة المجاورة ، فقد أصابها الاضطراب ، عند رؤيتها وطلبت منا إبعادها .

- كانت أختي بيسي تعاني من هذا الشعور . ضحكت السيدة هيل . لم تجب

زوجة الضابط ، ومع طول الصمت ، التفتت السيدة هيل نحوها . كانت السيدة بيترز تتفحص قفص العصفور .

- انظري إلى باب القفص . قالت ببطء : إنه مكسور وقد تم سحب إحدى المفصلات منه .

اقتربت السيدة هيل أكثر وقالت : «يبدو أن أحداً قد تعامل مع القفص بخشونة .

مرة أخرى التقت نظراتهن - جافلات متحيرات ، مترقبات . وللحظةٍ مرت لم تتحركا أو تتحدثا إلى أن استدارت السيدة هيل وقالت بفظاظة :

- إذا كانوا في طريقهم لايجاد أي دليل ، فأنا أتمنى أن يكونوا على وشك العثور عليه . أنا لا أحب هذا المكان .

- ولكني سعيدة جداً لأنك جئت معي يا سيدة هيل . قالت السيدة بيترز ثم جلست بعد أن وضعت قفص العصفور على الطاولة ثم قالت :

- كان الأمر سيبدو موحشاً لو جلست هنا لوحدي - نعم ، سيبدو كذلك بالتأكيد ، وافقت السيدة هيل بنبرة صارمة طبيعية ، والتقطت التطريز وألقته في حجرها ثم غمغمت بصوت مختلف : ولكني سأخبرك بما أتمناه يا سيدة بيترز ، أتمنى لو أني أتيت إلى هنا بعض الأحيان ، عندما كانت موجودة . أتمنى لو أني فعلت ذلك!

- ولكنك بالطبع كنت مشغولة جداً يا سيدة هيل - بيتك أطفالك .

- كنت أستطيع المجيء . ردت السيدة هيل بفظاظة ولكني ابتعدت لأن المكان لم يكن مبهجاً . ربما لهذا كان يجب أن أجيء -تابعت وهي تنظر حولها : أنا . . . لم أحب هذا المكان أبداً ، ربما لأنه مبني داخل تجويف مغلق لا يمكن أن ترى الطريق منه . أنا لا أعرف ماهيته ولكنه مكان موحش . أتمنى لو أنني جئت لأرى ميني فوستر بعض الأحيان - لقد كان هذا المكان دائماً موحشاً . أستطيع أن أرى الآن . . . لم تُتِم جملتها .

- حسناً ! لا يجب أن تلومي نفسك أشارت السيدة بيترز عليها . بطريقة أو بأخرى ، نحن لا نرى بالضبط كيف يكون حال الناس الآخرين إلى أن يحدث لهم شيء؟

- عدم وجود أطفال يخفف من الأعمال ، قالت السيدة هيل وهي مستغرقة في

التفكير ، ولكنه يجعل البيت هادئاً . لقد كان رايت يخرج للعمل طوال النهار وعندما يعود لا يكون رفيقاً ممتعاً ، هل تعرفين جون رايت يا سيدة بيترز ؟

- لم أكن أعرفه ، بل كنت أشاهده في البلدة . إنهم يقولون بأنه كان رجلاً طيباً .

- نعم قالت جارة جون رايت متجهمة : لم يكن يعاقر الخمر وكان يحترم كلمته ، يسدد ديونه . ولكنه كان رجلاً قاسياً يا سيدة بيترز ، أقسى من أن تستطيعي أن تمضي اليوم كله معه . توقفت ثم ارتعشت قليلاً ، وأضافت : مثل الريح الجافة التي تنخر العظم . وقعت عيناها على القفص الموضوع على الطاولة أمامها ، وأضافت بمرارة : يمكن أن أجزم بأنها لم ترغب بأن يكون لديها عصفور . وفجأة ، انحنت إلى الأمام وهي تنظر مكبّة على القفص . ولكن ماذا حصل لذلك العصفور ؟

- لا أعرف . ردت السيدة بيترز : ربما مرض ومات . قالت ذلك ثم رفعت يدها وهزت الباب المكسور : كما لو أن أحداً خلعه . كانت المرأتان تراقبان القفص كما لو أنهما متعلقتان به .

- إنك لم تعرفيها ؟ سألت السيدة هيل بنغمة أكثر لطفاً .

- ليس قبل أن يأتوا بها بالأمس . قالت زوجة الضابط .

- إنها لو فكرت بالأمر . كانت هي نفسها مثل العصفور ، في الحقيقة جميلة وحلوة ولكن دائماً مرتعشة وخائفة .

مرَّ وقت طويل وأخيراً ، وكما لو أن فكرة سعيدة طرقت رأسها ، شعرت بالارتياح للعودة إلى الحديث عن الأشياء اليومية ، وهتفت تقول :

- سأقول لك شيئاً يا سيدة بيترز . لماذا لا تأخذين اللحاف معك ، ربما تفرح بـــه !

- ماذا ! في الحقيقة أعتقد أنها فكرة لطيفة يا سيدة هيل !

وافقت زوجة الضابط على الفكرة ، وكما لو أنها كانت سعيدة بالعودة إلى جو من الهدوء البسيط .

هل يمكن ذلك ؟ لا يمكن أن يعترض أحد على ذلك ! والآن ماذا سأخذ بالضبط ، أتساءل لو أستطيع أخذ قطعها الحريرية في الداخل هنا ، وكذلك أشياءها . استدارت ناحية سلة الخياطة .

- هنا يوجد شيء هام . قالت السيدة هيل وهي تخرج لفة من القماش ، كان

يوجد تحتها علبة . هنا يمكن أن نجد مقصها وأشياءها . رفعت العلبة إلى الأعلى . يا له من صندوق جميل . أظن أنها تمتلكه منذ زمن طويل مضى ، ربما عندما كانت لا تزال بنتاً . رفعته بيدها لحظة ، ثم أطلقت تنهيدة قصيرة وفتحته . رفعت يدها فوراً على أنفها .

– ماذا ؟ اقتربت السيدة بيترز أكث »ر ثم استدارت مبتعدة

– هناك شيء ملفوف في قطعة الحرير : هذه قالت السيدة هيل متلعثمة

– هذا ليس مقصها ، قالت السيدة بيترز بصوت منقبض

وبيد ترتعش ، رفعت السيدة هيل قطعة الحرير ، أوه سيدة بيترز . صاحت : إنه– انحنت السيدة بيترز أكثر : إنه العصفور . همست .

ولكن سيدة بيترز صاحت السيدة هيل : انظري إليه ، إلى عنقه – انظري إلى عنقه ! إليه كله وإلى الجانب الآخر» . انحنت زوجة الضابط أكثر وأكثر .

– شخص ما لوى عنقه . قالت ذلك ببطء ، وبصوت عميق .

مرة أخرى التقت أعين المرأتين – والتصقتا ببعضهما وهما تنظران نظرات يغمرهما الاستغراب ، والرعب المتزايد . أزاحت السيدة بيترز نظرها عن العصفور الميت وركّزته على باب القفص المكسور . ومرة أخرى التقت أعينهما . في هذه اللحظة سمع صوت عند الباب الخارجي . قامت السيدة هيل بدس الصندوق تحت قطع اللحاف في السلة ، ثم غاصت في الكرسي الموضوع أمامها ، في حين وقفت السيدة بيترز على مقربة من الطاولة . دخل محامي المقاطعة ، ورجل الأمن قادمين من الخارج .

– حسناً ، سيداتي . قال محامي المقاطعة بطريقة تعني انتقال شخص ما من الحديث ، عن أشياء هامة إلى الحديث عن أشياء مسلية . هل قررتما فيما إذا كانت ذاهبة لتنجيد اللحاف أو تجميعه ؟

– نحن نظن . بدأت زوجة الضابط بصوت مضطرب : أنها كانت ذاهبة لتجميعه . كان المحامي مشغولاً لدرجة لم يلاحظ التغير ، الذي طرأ على نبرة صوتها .

– حسناً ذلك مهم جداً . أنا متأكد قالها مجاملاً ، وألقى نظرة على قفص العصفور . هل طار العصفور ؟

– نظن أن القطة أكلته . قالت السيدة هيل بصوت حشري ومتوازن .

كان المحامي يمشي إلى الأعلى ، وإلى الأسفل كما لو أنه يسعى لإطلاق فكرة ما هل هناك قطة ؟

سأل بدون انتباه . صوبت السيدة هيل نظرة إلى زوجة رجل الأمن .

– حسناً ، ليس الآن : قالت السيدة بيترز . إنهم يؤمنون بالخرافات ، وأنت تعرفين أنهم سيغادرون . وغاصت في كرسيها .

لم يلتفت إليها محامي المقاطعة بل عاد ليقول للسيد بيترز : لا توجد علامة مطلقاً ، على أن أحداً قد دخل هنا من الخارج ، إن هذا الحبل هو ملكهم . ثم تابع ، كأنه يواصل حديثاً منقطعاً . والآن دعنا نصعد إلى الطابق الثاني مرة أخرى ، ونعود إلى مسحه قطعة قطعة .

لا بد أن أحداً ما كان يعرف بالضبط . أقفل باب السلم وراءهم ، ثم تدريجياً بدأت الأصوات تخبو . جلست المرأتان دون حراك ، ودون أن تنظرا إلى بعضهما البعض ، لكنهما بدتا وكأنهما تمعنان النظر في شيء ما ثم تتراجعان عنه في نفس الوقت . وعندما عادتا للكلام ظهرتا خائفتين من الكلام ، ومع ذلك عادتا للحديث :

– لقد أحبت العصفور . قالت مارثا ببطء وبصوت خفيض : وكانت ستدفنه في هذا القفص الجميل .

– عندما كنت بنتاً . قالت السيدة بيترز بصوت هامس : كنت أملك قطة صغيرة ، وكان هناك صبي يحمل فأساً صغيرة ، ويقف أمامي غطت وجهها برهة ثم تابعت : لو لم يقوموا بسحبي إلى الوراء ربما كنت . . . أمسكت نفسها ونظرت إلى الطابق العلوي حيث كانت تسمع أصوات الخطوات – كنت أذيته .

بعد ذلك ، جلست المرأتان دون حراك

أتعجب كيف بدا الأمر ! أخيراً ابتدأت السيدة هيل وكأنها تتلمس طريقها فوق أرض غريبة . لم يكن حولهما أي أطفال ؟

جالت بعينها نظرة شاملة وبطيئة على المطبخ ، كما لو أنها ترى ماذا كان يعني مثل هذا المطبخ خلال كل تلك السنين؟ لا لم يكن بوسع رايت أن يحب العصفور . ثم أضافت : شيء يغني . هي اعتادت الغناء ، لقد قتل ذلك أيضاً . أخذ صوتها يخفت في حين تحركت السيدة بيترز بتثاقل : طبعاً نحن ، لا نعرف من قتل

العصفور .

- أنا عرفت جون رايت . كان جواب السيدة هيل .

- شيء فظيع . . . ما جرى في هذا البيت تلك الليلة يا سيدة هيل . قالت زوجة الضابط : رجل قتل أثناء نومه بربط حبل حول عنقه نزع منه الحياة .

أشارت السيدة هيل إلى قفص العصفور : عنقه هو . . . . لقد انتزعت منه الحياة أيضاً .

- نحن لا نعرف من الذي قتله . همست السيدة بيترز بتوحش

- لم تأت السيدة هيل بأية حركة

- «لو كان هناك لسنين وسنين ل - لا شيء إلا عصفور يغرد لك - فإن الأمر قد يصبح مروعاً لو . . . بعد أن يسكت العصفور . بدت وكأن شيئاً يتكلم بداخلها ووجدت في السيدة بيترز شيئاً ما لم تكن لتعرفه .

- أنا أعرف ماذا يعني السكون ؟ قالت السيدة بيترز :بصوت غريب ورتيب . عندما كنا بمنزل العائلة في داكوتا ومات طفلي الأول - عن عمر عامين - وأصبحت بعد ذلك بدون طفل . تحركت السيدة هيل حركة بطيئة .

- متى تظنينهم ينتهون من البحث عن الدليل؟

- أنا أعرف ماذا يعني السكون . كررت السيدة بيترز بنفس النبرة الغريبة السابقة . ثم تراجعت إلى الخلف : على القانون أن يعاقب الجريمة يا سيدة هيل . أجابت بطريقتها المتوترة .

- كنت أتمنى لو أنك تعرفين ميني فوستر . جاءت إجابتها : عندما كانت ترتدي الثوب الأبيض ذا الأوشمة الزرقاء وتقف لتغني في الجوقة . كانت صورة تلك الفتاة إضافة إلى حقيقة أنها عاشت جارة لها مدة عشرين سنة ، إلى أن تركتها بسبب افتقارها إلى الحياة حولها ، شيئاً أكثر مما تستطيع أن تتحمله .

- أوه ، كنت أتمنى لو أني أتيت إلى هنا بين الحين والآخر . بكت قليلاً ، ثم أضافت تلك هي الجريمة ! تلك هي الجريمة من الذي سيعاقب عليها .

- يجب أن لا نتحدث بانفعال . قالت السيدة بيترز وهي تنظر خائفة نحو السلم .

- أقول لك ، كان يجب أن أعلم أنها بحاجة للمساعدة . إنه أمر غريب يا سيدة

بيترز ، لقد عشنا متقاربتين من بعضنا البعض ، ومتباعدتين في نفس الوقت . وجميعنا نمر بنفس الأشياء ، رغم أن أشكال هذه الأشياء تختلف . وإذا لم يكن الأمر كذلك ، فلماذا ندركه أنا وأنت ؟ لماذا نعرف - ماذا نعرف في هذه الدقيقة ؟ مسحت عينيها بيديها بضعف ، وحين رأت جرة المربيات على الطاولة ، مدت يدها إليها وصاحت باختناق : لو كنت مكانك لما رغبت في إبلاغها بأن مربياتها قد فسدت . أخبريها بأنها لم تفسد ، أخبريها بأنها جميعاً على ما يرام - جميعها - هنا خذي هذا لتبرهني لها على ذلك فهي لن تعلم إن كانت فسدت أم لا . أدارت ظهرها .

مدت السيدة بيترز يدها إلى زجاجة المربى . كانت سعيدة لأخذها - كما لو أنها لمست شيئاً حميماً - فقد أصبح لديها شيء تفعله مما قد يشغلها عن أي شيء غيره . نهضت وبحثت من حولها عن شيء لتلف به الزجاجة ، ثم تناولت تنورة قصيرة من بين أكداس الملابس التي جلبتها من الغرفة الأمامية . وبعصبية أخذت تلفها حول الزجاجة .

- يا إلهي . عادت لتقول بصوت ناشز ومرتفع . إنه لأمر جيد أن الرجال لا يستطيعون سماعنا ، نثور هكذا على أمر صغير مثل - كناري ميت : يا إلهي ألن يسخروا منا . سمعت أصوات خطوات أقدام على السلم : ربما يفعلونها . . . غمغمت السيدة هيل . :ربما يفعلونها .

- لا يا بيترز . كان محامي المقاطعة يقول بحدة : كل الأمور واضحة تماماً باستثناء الدافع . ولكنك تعرف هيئات المحلفين عندما يمس الأمر بامرأة . لو كان هناك شيء واضح ومحدد لنقدمه أو شيء نصنع قصة حوله . شيء يمكن أن يرتبط بهذه الطريقة الفوضوية في القتل .

نظرت السيدة هيل بطريقة خفية ناحية السيدة بيترز . فيما كانت السيدة بيترز تنظر إليها ، وسرعان ما أشاحتا بأعينهما بعيداً عن بعضهن البعض .

فتح الباب الخارجي ودخل السيد هيل : لقد قمت بإحضار الجياد إلى هنا ، الجو بارد في الخارج .

- أنا سأبقى هنا لوحدي فترة . قال محامي المقاطعة فجأة ثم أضاف : بإمكانك أن ترسل لي فرانك ، أتستطيع أن تفعل ذلك؟ وجه حديثه إلى رجل الأمن ثم تابع :

أريد أن أفحص كل شيء فأنا غير مقتنع بأننا لا نستطيع تقديم شيء أفضل .

مرة أخرى ، وللحظة وجيزة ، وجدت عينا المرأتين طريقهما لبعضهما البعض .

تقدم الضابط إلى الطاولة وقال : هل تود أن تعرف ماذا ستأخذ السيدة بيتز معها ؟

التقط المحامي المريول وضحك : أوه ، أظن بأن السيدات قد التقطن أشياء خطيرة . وضعت السيدة هيل يدها على مسلة الخياطة التي أخفت فيها الصندوق ثم شعرت بأنه يستحسن أن تخرج يدها من السلة . لم يبد أنها قادرة على ذلك .

التقط إحدى قطع اللحاف ، التي كانت قد كدستها لتغطي الصندوق . أحست بالنار في عينيها ، كان لديها شعور أنه لو أخذ السلة منها فسوف تنتزعها منه . لكنه لم يأخذها بل ابتعد وضحك ضحكة خفيفة ثم قال : لا ، إن السيدة بيترز لا تحتاج إلى رقابة ، لأن زوجة ضابط الأمن تكون بالعادة متزوجة من القانون . هل فكرت بهذه الطريقة يا سيدة بيترز ؟

كانت السيدة بيترز تقف بجانب الطاولة ، صوبت السيدة هيل نظرة نحوها ولكنها لم تتمكن من رؤية وجهها . انصرفت السيدة بيترز بعيداً وعندما تحدثت بدا صوتها مكتوماً :

- ليست - تماماً بتلك الطريقة . قالت .

- متزوجة من القانون ! ضحك السيد بيترز بينه وبين نفسه ثم تحرك باتجاه الباب ، إلى داخل الغرفة الأمامية وقال لمحامي المقاطعة : أنا أريدك أن تأتي إلى الداخل هنا لدقيقة فقط .

- يا جورج علينا أن نلقي نظرة على هذه النوافذ .

- أوه . . النوافذ . قال محامي المقاطعة بسخرية ، ثم وجه حديثه إلى المزارع ، الذي كان ما يزال ينتظر عند الباب : سنكون في الخارج يا سيد هيل .

ذهب السيد هيل ليعتني بالجياد ، وتبع ضابط الأمن محامي المقاطعة إلى داخل الغرفة الأخرى مرة ثانية لكي ينهي الموضوع .

عادت المرأتان وحيدتين في ذلك المطبخ . وثبت مارثا هيل ويداها مشدودتان إلى بعضهما ، تنظر إلى تلك المرأة الأخرى التي كانت تقضي الوقت معها . في البداية لم تتمكن من رؤية عينيها . لأن زوجة الضابط لم تعد للالتفات إلى الوراء ، بعد أن

ابتعدت بسبب ذلك الإيحاء، بأنها متزوجة من القانون. لكن عيني السيدة هيل أجبرتاها على الاستدارة، إلى الخلف ببطء. أدارت السيدة بيترز رأسها حتى التقت عيناها بعيني السيدة هيل. مرت لحظة كانت نظراتهما النارية مصوبة، بثبات إلى بعضهما البعض.

وبلا مراوغة أو إحجام، أشارت مارثا هيل بعينيها، نحو السلة حيث خبأت ذلك الشيء، الذي يمكن بالتأكيد أن يدين المرأة الأخرى - تلك المرأة التي لم تكن موجودة هناك. ومع ذلك فقد بقيت معهما، طوال تلك الساعة بكاملها.

للحظة، لم تتحرك السيدة بيترز. ثم اندفعت إلى الأمام، وأعادت نشر اللحاف. أخذت الصندوق وحاولت أن تضعه في حقيبة يدها إلا أنه كان كبير الحجم. وبشكل مشهور فتحته، وبدأت تخرج العصفور. ولكنها انهارت بعد ذلك - لم تستطع أن تلمس العصفور ووقفت هناك عاجزة مرتبكة.

سمع صوت مقبض باب الغرفة الداخلي وهو يدور. انتزعت مارثا هيل الصندوق من زوجة الضابط، ووضعته في جيب معطفها الكبير مباشرة - في الوقت الذي دخل فيه الضابط والمحامي إلى المطبخ.

حسناً هنري. قال محامي المقاطعة بظرف: على الأقل وجدنا أنها لم تكن تريد تنجيده - ولكنها كانت تريد - ماذا سميتموه سيداتي كانت يد السيدة هيل قبالة معطفها.

حسناً نحن ندعوه «تجميع» يا سيد هندرسون.

١٩٢٠

شيروود اندرسون

المرأة الأخرى

عن «ذي ليتل ريفيو»

أنا أحب زوجتي ، قال ــ ملاحظة غير ضرورية ــ حيث أنني لم أكن لأرتاب في ارتباطه بالمرأة التي تزوجها . سرنا لمدة عشر دقائق ، ثم عاد وكررها مرة أخرى . استدرت لأنظر إليه . بدأ يتكلم وأخبرني القصة ، التي أنا على وشك أن أقصها هنا .

الأمر الذي كان في باله ، حدث خلال الأسبوع ، الذي كان بدون شك من أكثر الأسابيع الزاخرة بالأحداث في حياته . فقد كان على وشك الزواج ، بعد ظهر يوم الجمعة . وكان قد استلم يوم الجمعة السابق برقيه تبلغه بتعيينه في منصب حكومي . حصل أمر آخر جعله سعيداً وفخوراً جداً ، كان يكتب أشعاراً بالسر ، وفي السنة التي سبقت ، كان قد نشر بعضها في عدة مجلات شعرية . كما قامت إحدى الهيئات التي توزع جوائز عن أفضل قصائد بإعلان اسمه خلال السنة على رأس القائمة . ثم وردت قصة نجاحه في صحف مدينته الأصلية ، وظهرت صورته في إحدى هذه الصحف .

وكما هو متوقع ، فقد بقي طوال الأسبوع مشدود الأعصاب ، وفي حالة من الإثارة . وكان يزور خطيبته مساءً في أغلب الأوقات ، وكانت هي ابنة لأحد القضاة . وكلما وصل إلى هناك كان المنزل يعج بالناس وبالعديد من الرسائل والبرقيات ورزم الهدايا .

وقف قليلاً على جانب ، وكان هناك نساء ورجال يأتون للحديث معه . يهنئونه على منصبه الحكومي الجديد ، وعلى إنجازه كشاعر . الجميع كانوا وكأنهم يطرونه ، وعندما عاد إلى منزله لم يستطع النوم .

مساء الأربعاء ذهب إلى المسرح ، وبدا له أن كل الناس يعرفونه ، كانوا ينحنون له ويبتسمون . وبعد الجزء الأول من العرض ، جاءه خمسة أو ستة رجال وامرأتان ، كانوا قد غادروا مقاعدهم ليتجمعوا حوله . فتشكلت حوله مجموعة صغيرة ، كان الغرباء الجالسين على نفس الصف من المقاعد ، يمدون أعناقهم وينظرون . ولم يتلق مثل هذا الاهتمام من قبل ، والآن ملكت حواسه حمّى الترقب . وكما شرح لي عندما أخبرني عن تجربته ، كان وقتاً غير عادي أحس ، وكأنه يسبح في الهواء ، وعندما عاد إلى سريره بعدرؤيته ، هذه الأعداد من الناس وسماع العديد من كلمات الإطراء ، ظل رأسه يدور ويدق . وعندما أغمض عينيه أحس بحشد من الناس يغزون غرفته . بدا وكأن أفكار أهل المدينة كلهم قد تركزت حوله ، وتملكته أكثر التخيلات سخافة . أخذ يتخيل نفسه راكباً عربة عبر شوارع المدينة ، وكانت النوافذ تفتح ، والناس يتراكضون خارج منازلهم «هذا هو» «ها هو هنا» ، كانوا يصيحون وفي كلماتهم صيحات سعيدة . وعبرت العربة في شارع مغلق بالناس ، وكانت هناك عشرات آلاف العيون تحدق به «هذا أنت» ، «يا للشخص الذي استطعت أن تصنع من نفسك ، بدت العيون وكأنها تتحدث هكذا !» .

لم يستطع صديقي أن يفسر فيما إذا كانت كل هذه الإثارة الشعبية ، قد نتجت عن كتابته لقصيدة جديدة ، أو أنه استطاع في منصبه الحكومي أن يؤدي عملاً فذاً . كانت الشقة التي يسكنها تقع على شارع معلق ، فوق جرف صخري يمتد عند طرف المدينة ، ومن نافذة غرفة نومه كان بإمكانه أن يشرف على الأشجار ، وأسقف المصانع قرب النهر ، ولما لم يكن يستطيع النوم ، ولما كانت الخيالات التي تملكته ، قد سببت له مزيداً من الإثارة ، فقد غادر سريره وبدأ يفكر .

وكما هو طبيعي في ظل مثل هذه الظروف ، حاول السيطرة على أفكاره . ولكنه عندما جلس قرب النافذة وهو في كامل صحوه ، حدث شيء هو أكثر الأمور إذلالاً وأقلها توقعاً . كان الليل صافياً وهادئاً والقمر بارزاً ، أراد أن يحلم بالمرأة التي

ستصبح زوجته ، ويفكر بأبيات القصائد النبيلة التي سيكتبها ، وبالخطط المستقبلية لكنه فوجئ بأن عقله رفض أن يفعل شيئاً مثل هذا .

عند زاوية الشارع حيث كان يسكن ، كان يوجد متجر لبيع السجائر ، والصحف يديره رجل سمين في الأربعين من عمره ، وزوجته وهي امرأة صغيرة ، نشيطة وذات عينين رماديتين لامعتين . كان يتوقف في الصباح عند المتجر ، لشراء صحيفة قبل نزوله إلى المدينة . كان أحياناً يجد الرجل السمين لوحده ، ولكن الرجل بدا وكأنه اختفى منذ فترة وبقيت المرأة تنتظره . وكانت المرأة ، كما شرح لي أكثر من عشرين مرة . امرأة عادية ليس فيها شيء خاص أو جدير بالملاحظة ، ولكنه لسبب ما لم يكن يستطيع أن يفسر ، لماذا عندما يكون بحضرتها يشعر بشيء يحركه من الأعماق؟ خلال ذلك الأسبوع وفي خضم ارتباكه ، كانت هي الشخص الوحيد الذي ظل يتواجد صافياً ومميزاً في ذهنه . وعندما كان يريد أن يغوص في الأفكار النبيلة ، لم يكن يخطر على باله سواها . وقبل أن يدري ما كان يحدث ، كانت فكرة ممارسة الحب معها ، قد استحوذت على مخيلته . لم أستطع أن أفهم نفسي ، قال وهو يحدثني بقصته . في الليل وفي هدوء المدينة ، وحيث يجب أن أكون نائماً ، كنت أفكر فيها طوال الوقت . وبعض مضي يومين أو ثلاثة على هذا الأمر ، بدأت تراودني بكل وعي في أفكاري اليومية ، حتى اختلط الأمر علي بشدة ، وعندما ذهبت لأرى المرأة التي هي زوجتي الآن ، وجدت أن حبي لها لم يتأثر أبداً بتلك الأفكار الزائفة . فقد كان هناك امرأة واحدة في الدنيا فقط أرغب في أن تعيش معي ، وتكون رفيقتي في العمل على تحسين شخصيتي ، ووضعي في هذا العالم . ولكن في هذه اللحظة ، كما ترى كانت تحدوني رغبة في أن تكون المرأة الأخرى بين ذراعي . فقد شقت طريقها جيداً داخل كياني . من كل النواحي كان الناس ، يقولون أنني رجل كبير وسأقوم بأعمال كبيرة ، وهكذا كنت أنا في ذلك المساء ، عندما ذهبت إلى المسرح ، عدت إلى المنزل سيراً على الأقدام لأني كنت أعلم بأنني لن أستطيع النوم . ولكي أرضي هذا النبض المزعج في نفسي ، ذهبت ووقفت على الممر الجانبي المقابل للمبنى الذي يوجد فيه دكان التبغ . كان مبنى من طابقين ، وكنت أعرف أن المرأة كانت تعيش مع زوجها في الطابق العلوي . وقفت في الظلام لوقت طويل وجسمي مشدود

على جدار البناية ، ثم أخذت أفكر بالاثنين . لا بد أنهما فوق في السرير معاً . وكان هذا ما جعلني أستشيط غضباً .

ثم بدأت أغضب من نفسي . عدت إلى المنزل ودخلت سريري وأنا أرجف من الغضب . كانت هناك بعض كتب الشعر وبعض قطع النثر ، التي كانت تحركني من الأعماق ، وضعت عدة كتب على المنضدة بجوار سريري . كانت الأصوات في الكتب تشبه أصوات الموتى . لم أكن أسمعها ولم تكن الكلمات المطبوعة على السطور لتخترق ذهني . حاولت أن أفكر بالمرأة التي أحبها ، ولكن وجهها بان لي مثل شيء بعيد ـ شيء بدا وكأنه في هذه اللحظة لا علاقة لي به ، تقلبت في سريري ، فقد كانت تجربة بائسة .

صباح الخميس ذهبت إلى المتجر ، كانت المرأة تقف وحدها ، وأظنها عرفت بماذا أشعر . ربما كانت تفكر بي هي الأخرى كما أفكر أنا بها . كانت هناك ابتسامة شكاكة ، ومترددة تتلاعب على زوايا فمها . كانت ترتدي ثوباً محاكاً من قماش رخيص ، ممزق عند الكتف ، لا بد أنها كانت تكبرني بعشرة سنوات . وعندما حاولت أن أضع النقود على المنضدة الزجاجية التي كانت تقف خلفها ، ارتجفت يدي وراحت النقود تقرقع في جلبة حادة . وعندما تكلمت خرج الصوت من حلقي وكأنه لم يكن ليمتُّ إلى صوتي بصلة . لم يرتفع أكثر من همسة غليظة . أريدك . قلت : أريدك كثيراً ، ألا تستطيعين الهروب من زوجك لكي تأتي إلى شقتي عند الساعة السابعة هذه الليلة . جاءت المرأة إلى شقتي عند الساعة السابعة . وعند الصباح لم تنبس ببنت شفة . وقفنا ربما لدقيقة ننظر إلى بعضنا البعض . نسيت كل شيء في الدنيا ما عداها ثم أحنت رأسها وذهبت أنا . والآن وأنا أفكر بالأمر ، لا أستطيع تذكر أني سمعتها تقول كلمة . جاءت إلى شقتي عند الساعة السابعة وكان الجو معتماً . وعليك أن تفهمي أن الوقت كان شهر أكتوبر . لم أشعل ضوءاً واحداً كما أنني صرفت الخادم بعيداً .

خلال ذلك اليوم لم أكن في حالة جيدة أبداً . جاء عدة رجال ليروني في المكتب ، ولكن الأمر اختلط علي وأنا أكلمهم . كلهم نسبوا ارتباكي إلى قرب موعد زواجي وانصرفوا ضاحكين .

حدث الأمر في ذلك الصباح . يوماً فقط قبل زواجي ، تلقيت من خطيبتي رسالة طويلة وجميلة . لم تستطع النوم في الليلة السابقة ونهضت من سريرها لتكتب الرسالة . كان كل شيء قالته في الرسالة دقيقاً وحقيقياً ولكنها هي بذاتها ككائن حي ، بدت وكأنها تراجعت مسافة بعيدة . بدت لي وكأنها عصفور ، يحلق في سماوات بعيدة ، وكنت أنا مثل صبي مربك عاري القدمين يقف في الطريق ، المغبر أمام بيت ريفي في مزرعة وينظر إلى تلك الصورة التي تبتعد . أتساءل إذا كنت ستفهم ما أقول ؟

بالنسبة للرسالة ، فقد صبت فيها المرأة المستيقظة في الليل كل قلبها ، هي بالطبع لم تكن تعرف شيئاً عن الحياة ولكنها كانت امرأة ، كانت تنام في سريرها متوترة ومنفصلة كما كنت . وأدركت أن تغييراً كبيراً على وشك أن يحدث في حياتها . وكانت مسرورة وخائفة في نفس الوقت . كانت مستلقية هناك تفكر في كل هذا . ثم نهضت من الفراش وأخذت تتحدث معي من خلال الورقة . أخبرتني كم هي خائفة وسعيدة؟ ومثل كل الفتيات الشابات كانت تسمع أشياء هامسة . كانت رسالتها رقيقة ولطيفة جداً . ولمدة طويلة بعد زواجنا سوف ننسى أننا رجل وامرأة . كتبت : سنكون مخلوقات إنسانية . عليك أن تتذكر أنني جاهلة وأنني غالباً ما سأظهر غبية جداً . عليك أن تحبني وتكون صبوراً وحنوناً معي . وعندما أعرف أكثر ، وعندما ، بعد وقت طويل . تكون قد علمتني طريقة الحياة ، سأحاول أن أرد لك الجميل ، سوف أحبك برقة وحماس . إن كل هذه الاحتمالات موجودة في داخلي وإلا لما كنت رغبت في الزواج أبداً . أنا خائفة ولكني سعيدة أيضاً ، آه ، والآن بإمكانك أن ترى بوضوح أية ورطة أدخلت نفسي فيها ، في مكتبي وبعد أن قرأت رسالة خطيبتي ، أصبحت أكثر عزماً وأقوى أتذكر أنني نهضت من مقعدي وتمشيت قليلاً ، أشعر بالفخر من حقيقة أني سأصبح زوجاً لامرأة نبيلة مثل هذه . وبسرعة شعرت نحوها كما كنت أشعر نحو نفسي قبل أن أكتشف كم كنت ضعيفاً . في الساعة التاسعة من تلك الليلة وكنت قد خططت للذهاب للقاء خطيبتي . قلت لنفسي أنا في حالة جيدة ، لقد خلّصني جمال شخصيتها من نفسي . سوف أعود إلى المنزل الآن وأبعد المرأة الأخرى . في الصباح كنت قد اتصلت بخادمي وأخبرته ، بأني لا أريده في

الشقة ، والآن أخذت الهاتف لأتصل به كي أخبره بأن يأتي . ثم راودتني فكرة فأنا لا أريده بأية حال . قلت لنفسي ماذا سيظن بي لو رأى امرأة تدخل إلى شقتي ، في الليلة التي تسبق يوم زواجي . أعدت السماعة مكانها وجهزت نفسي للذهاب إلى البيت . إذا أردت أن أبعد خادمي عن الشقة فالسبب هو أني لا أريده أن يسمعني أتكلم مع تلك المرأة . لا يمكنني أن أكون فظاً معها ، بل علي أن أعطيها بعض التفسيرات . قلت لنفسي .

جاءت المرأة عند الساعة السابعة ، كما أظنك خمنت ، أدخلتها إلى البيت ونسيت القرار الذي كنت قد اتخذته . أظن أنه لم يكن يخطر ببالي أن أفعل شيئاً غير هذا . كان هناك جرس عند الباب إلا أنها لم تقرع الجرس ، بل دقت الباب برقة . بدا لي أن كل شيء تفعله في تلك الليلة كان هادئاً ورقيقاً ، ولكن حازماً وسريعاً . هل أظهر واضحاً في كلامي ؟ عندما جاءت ، كنت واقفاً وراء الباب أنتظرها منذ نصف ساعة . كانت يداي ترتجفان كما كانتا عندما حاولت أن أضع النقود على المنضدة الزجاجية . ذلك الصباح في المتجر ، وكانت عيناها تحدقان بي . عندما فتحت الباب ، دخلت بسرعة ، وأخذتها بين ذراعي ، وقفنا معاً في الظلام . لم تعد يداي ترتجفان . شعرت بالقوة والسعادة .

ورغم أنني حاولت أن أوضح لك كل شيء ، إلا أنني لم أخبرك كيف هي المرأة التي تزوجتها . لقد ركزت كما ترين على المرأة الأخرى ، لقد أطلقت تصريحاً أعمى بأني أحب زوجتي . وبالنسبة لرجل في مثل دهائك فإن مثل هذا الكلام لا يعني شيئاً . وأقول لك الحق لو لم أبدأ بالحديث عن هذا الموضوع لكنت أشعر براحة أكثر . ولكن من المحتم أنني أعطيتك الانطباع بأني واقع في غرام زوجة بائع السجائر . هذا ليس صحيحاً . من المؤكد أنها كانت حاضرة في وعيي طوال الأسبوع الذي سبق زواجي ، ولكنها عندما حضرت إلى شقتي أصبحت بعيدة عن ذهني ، هل أقول الحقيقة ؟ أنا أحاول بجهد أن أخبرك ماذا حدث لي . أقول لك إنني ومنذ تلك الليلة لم أعد أفكر بالمرأة ، التي جاءت إلى شقتي والآن أورد حقائق القصة . هذا ليس صحيحاً . ففي تلك الليلة ذهبت إلى خطيبتي في الساعة التاسعة ، كما طلبت مني في رسالتها أن أفعل . بطريقة ما لا أستطيع أن أشرحها ، فقد جاءت المرأة الأخرى

معي . هذا ما أعنيه ، فأنا كنت أعتقد بأنه إذا ما حدث شيء بيني وبين زوجة بائع السجائر فلن يكون بإمكاني الاستمرار في زواجي . كان بالنسبة لي إما هذا وإما ذاك هكذا قلت لنفسي .

وللحقيقة ذهبت لأرى محبوبتي في تلك الليلة ، يحدوني إيمان جديد بما سينتج عن حياتنا معاً . إني أخشى أنني سأخلط الأمور وأنا أحدثك عن هذا الأمر . قبل لحظة ، قلت لك أن زوجة بائع السجائر قد ذهبت معي ، أنا لا أعني أنها ذهبت حقيقة . بل إن ما أحاول قوله هو أن بعض من إيمانها برغباتها الذاتية ، وبعض من شجاعتها في رؤية الأمور ذهبا معي . هل هذا واضح بالنسبة لك ؟ عندما وصلت إلى بيت خطيبتي ، كان هناك حشد من الناس يقفون حولها . بعضهم كانوا أقارب لم أرهم من قبل وقد جاؤوا من أماكن بعيدة . نظرت بسرعة عندما دخلت إلى الغرفة . لا بد أن وجهي كان مشعاً فلم أرها متأثرة هكذا من قبل ، لا بد أنها ظنت أن رسالتها قد أثرت فيَّ بعمق وطبعاً هذا صحيح . قفزت ركضاً لتلاقيني . كانت تشبه طفلاً سعيداً . وأمام الناس الذين التفتوا ينظرون إلينا متسائلين قالت الشيء الذي خطر ببالها ، آه ، إني سعيدة جداً ، كانت تصيح أفهمت الآن سوف نصبح إنسانين ليس بالضرورة زوجاً وزوجة .

وكما قد تظن ، ضحك الجميع ولكنني لم أضحك ، بل تدفقت الدموع من عيني . كنت سعيداً لدرجة أني أردت أن أخرج . ربما تفهم ما أعني . ذلك النهار عندما قرأت رسالة خطيبتي في مكتبي قلت لنفسي سوف أعتني بتلك المرأة الصغيرة الغالية .

كان هناك شيء نظيف ، حول الموضوع . عندما صرخت بهذه الطريقة في بيتها . وعندما ضحك الجميع ، قلت لنفسي سوف ، نعتني ببعضنا البعض . همست في أذنها بشيء من هذا القبيل . وأقول لك الحقيقة ، لقد نزلت من عليائي . كانت روح تلك المرأة هي التي فعلت بي هكذا . أمام جميع الناس المجتمعين حولنا ، اقتربت خطيبتي ، مني وتبادلنا القبلات ، ظنوا جميعاً بأنه شيء رائع أن نتأثر من رؤية بعضنا بهذا الشكل ، ماذا كانوا يظنون لو علموا بحقيقتي؟ . الله أعلم .

مرتين قلت بأني بعد تلك الليلة ، لم أعد أفكر بأية امرأة أخرى . كان هذا صحيحاً جزئياً ولكن أحياناً عند المساء ، عندما كنت أسهر لوحدي في الشارع أو

عندما نسير معاً في الحديقة ، الآن وعندما يهبط المساء بقوة وبسرعة ، كما يفعل الليلة ، يغمر قلبي وذهني شعور حاد بها ، بعد ذلك اللقاء لم أرها أبداً . فقد تزوجت في اليوم التالي ولم أعد إلى الشارع أبداً . ولكني دائماً عندما أسير في الشارع كما أفعل الآن يتملكني شعور دنيوي حاد ، وكأنني بذرة في الأرض تداعبني أمطار الربيع الدافئة . كان الأمر وكأنني لم أكن رجلاً بل شجرة في حقل . والآن كما ترى ، فأنا متزوج وكل شيء يسير على ما يرام . وزواجي بالنسبة لي هو حقيقة جداً . إذا كنت تقول أن زواجي ليس سعيداً ، فسأدعوك بالكاذب بكل تجرد . كنت أحاول أن أخبرك عن المرأة الأخرى . أتساءل لماذا كنت سخيفاً لأني أخاف أن أعطيك الانطباع بأنني لا أحب زوجتي؟ لو لم أكن أثق بتفهمك غريزياً لماكنت تكلمت . وكما أرى الأمر فقد تركت نفسي قليلاً .

هذه الليلة سوف أفكر بالمرأة الأخرى . إن هذا يحدث لي أحياناً ، ويحدث عادة عندما أذهب للنوم . زوجتي تنام في الغرفة المجاورة لغرفتي والباب مفتوح بيننا دائماً . سوف يظهر القمر الليلة ، وعندما تهبط خيوط الضوء القمرية على سريرها سوف أنهض في منتصف الليل ، سوف تكون نائمة وذراعها حول رأسها .

ما الذي أتكلم عنه ؟ الرجل لا يتكلم عن زوجته في السرير ، ما أحاول أن أقوله هو أنني بسبب هذا الكلام سوف أفكر بالمرأة الأخرى الليلة . وحتى تأخذ أفكاري ذلك الشكل ، الذي اتخذته في الأسبوع السابق للزواج ، فإنني سأتساءل ماذا حصل للمرأة . لوهلة سوف أشعر بنفسي وأنا أضمها إلي . سوف أظن أني لساعة من الزمن كنت أقرب لها أكثر من قربي لأي شخص آخر . ثم أفكر في الوقت الذي سأشعر بمثل هذا القرب مع زوجتي . فهي ما تزال كما ترى مستيقظة . للحظة ، سوف أغلق عيناي بينما عينا تلك المرأة السريعة الذكية الحازمة تنظران في عيني . سوف يسبح رأسي وأفتح عيني بسرعة وأرى مرة أخرى المرأة العزيزة التي تعهدت بأن أعيش حياتي معها . ثم سأعود إلى النوم وعندما أستيقظ في الصباح سيكون شعوري تماماً مثل تلك الأمسية ، التي خرجت فيها من شقتي المظلمة بعد أن تعرضت لأكثر تجربة بارزة في حياتي . ما أريد أن أقول ، إنه وكما تفهمني ، بالنسبة لي عندما أستيقظ ستكون المرأة الأخرى قد اختفت تماماً .

١٩٢٢

رنغ لاردنر

شهر العسل الذهبي

من «ذي كوزموبوليتان»

تقول «ماما» أنني حين أبدأ بالكلام ، لا أعرف متى سأتوقف . ولكني أقول لها بأن الفرصة لا تسنح لي بالكلام إلا عندما لا تكون هي في الجوار ، لذلك أحاول أن أكسب منها ما أستطيع .

وفي الحقيقة لا أظن أحد منا سيكون مرحباً به في أي اجتماع للكويكرز . ولكني كما أقول لها : لماذا يعطينا اللّه ألسنةً إذا كان لا يريد منا أن نستعملها . وتقول هي لي : إن اللّه لم يعطنا ألسنة لنكرر بها نفس القول مرة بعد مرة «كما أفعل أنا» .

وأجيبها : حسناً يا ماما ، عندما يكون الناس مثلي ، ومثلك متزوجين منذ خمسين سنة ، هل تتوقعين أن تسمعي مني شيئاً لم أقله من قبل ؟ ربما يكون جديداً بالنسبة للآخرين لأن أحداً منهم لم يعش معي فترة طويلة مثلما عشت أنت .

عندها تقول لا يمكنك أن تراهن عليهم ، لأن أي شخص آخر لا يستطيع أن يتحملك طويلاً .

ـ حسناً أقول لها إنك تبدين بصحة جيدة ، وعندها ستقول لي : ربما أبدو كذلك ولكنني كنت بصحة أفضل قبل أن أتزوجك .

لن تستطيع أن تتفوق على ماما .

نعم يا سيدي . في اليوم السابع عشر من كانون الأول الأخير ، كان قد مضى على زواجنا خمسون عاماً تماماً . وقد حضرت ابنتي وزوجها من ترنتون ليساعدانا في ترتيب الاحتفال بالزواج الذهبي . إن جون . هـ . كريمر هو زوج ابنتي وهو رجل عقارات ويكسب ١٢,٠٠٠ دولار في السنة الواحدة ويتمتع بسمعة طيبة ، في جميع أنحاء ترنتون ، فهو طيب ومثابر ويعمل بجدّ . وقد لاحقه الروتاريون مدة طويلة لكي يضمُّوه إلى ناديهم ، ولكنه كان يقول لهم دائماً بأن بيته هو ناديه . إلا أن إيدي ، وهي ابنتي جعلته ينضم إليهم في النهاية .

حسناً على كل حال ، جاؤوا إلينا ليساعدونا في الاحتفال بالزواج الذهبي ، كان الطقس متقلباً إلى حد ما ، ولم يعد الموقد يعطي من الحرارة أكثر مما اعتاد عليه . أبدت ماما أملها بأن لا يكون هذا الشتاء بارداً ، كما كان الحال في الشتاء الماضي .

عندها قالت إيدي بأنها لو كانت مكاننا ، وليس هناك شيء يشدها للمكوث في البيت ، فإنها بالتأكيد لن ترغب في قضاء المزيد من فصول الشتاء هنا لذلك ، لماذا لا نقوم بإقفال المياه وإغلاق المنزل والنزول إلى تامبا في فلوريدا ؟

وكما تعلم فقد سبق وكنا هناك منذ أربعة فصول شتاء ، ومكثنا خمسة أسابيع إلا أن تكلفة فاتورة الفندق وحدها بلغت ٣٥٠ دولاراً . لذلك قالت «ماما» أننا لا نود الذهاب ، إلى مكانٍ تُسلب فيه نقودنا . أجابها زوج ابنتي أن تامبا ليست المكان الوحيد ، في الجنوب ! وبالإضافة إلى ذلك فليس علينا أن نربك أنفسنا بالبحث عن فندق رخيص ، إذ بإمكاننا أن نستأجر غرفتين مزدوجتين في مكان ما . وقد سمع بأن سانت بيترسبورغ في فلوريدا تعتبر بقعة ملائمة . وإذا وافقنا فإنه سيقوم بالمراسلة والاستعلام حول الموضوع .

حسناً ولكي نجعل القصة الطويلة قصيرة ، فقد قررنا أن نفعل ذلك ، وقالت إيدي بأنه سيكون شهر عسلنا الذهبي . وفي الحال قام زوج ابنتي بدفع فرق أجرة المقصورة ، ليصبح بذلك لدينا مقصورة ولتصبح لدينا خصوصية أكبر ففي المقصورة يوجد مضجع علوي وآخر سفلي تماماً مثل عربة نوم نظامية إلا أن غرفة المقصورة تكون مغلقة ذاتياً وفيها مغسلة . لقد كانت العربة التي سافرنا بها مؤلفة من عدة مقصورات ، ولا يوجد

بها مضاجع نظامية ، على الإطلاق . كانت فقط عبارة عن مقصورات .

ذهبنا إلى ترينتون في الليلة السابقة ، ومكثنا ليلة عند ابنتي وزوجها ثم غادرناها عند الساعة ٣,٢٣ من بعد ظهر اليوم التالي .

كان ذلك اليوم هو الثاني عشر من شهر كانون الثاني . جلست ماما في مواجهة مقدمة القطار ، لأن الجلوس عكس الاتجاه يسبب لها الدوار وجلست أنا مقابلها لأنهذا الأمر لا يؤثر فيَّ . وصلنا شمال فيلادلفيا عند الساعة ٤,٠٣ ثم غرب فيلادلفيا عند الساعة ٤,١٤ ، ولكننا لم نعبر شارع برود . وعند الساعة السادسة والنصف وصل بنا القطار إلى بالتيمور ، ثم إلى واشنطن دي سي عند الساعة ٧,٢٥ توقف قطارنا في واشنطن دي سي لمدة ساعتين بانتظار أن يأتي قطار آخر لالتقاطنا .

خرجت لأتجول على الرصيف في داخل يونيون ستيشن وعند عودتي ، وجدت أن عربتنا قد تم ربطها بقاطرة سكة حديد أخرى تحمل اسم «لابيش» . تذكرت الاسم مرة اسماً لبحيرة رأيتها في أوكونوووك بولاية وسكونشن ، عندما كنت أزور عمتي ذات مرة وكانت البحيرة تحمل نفس الاسم . لذلك لم أجد صعوبة في تحديد موقع العربة ، ولكن ماما كادت تجن من القلق خوفاً من أن يغادر القطار ويتركني .

قلت لها : حسناً كان يمكن أن ألحق بك في القطار التالي .

ــ «إنك لن تستطيع» ، قالت ماما ملمحةً إلى أن النقود بحوزتها .

ــ حسناً ، قلت لها : نحن في واشنطن وأستطيع أن أقترض من خزينة الولايات المتحدة برغم أنني رجل إنجليزي .

ضحكت ماما من كل قلبها فقد فهمت مقصدي تماماً .

أقلع قطارنا من واشنطن عند الساعة ٩,٤٥ . وأويت أنا وماما إلى الفراش مبكراً . نمت أنا في المضجع العلوي . وأثناء الليل عبرنا خلال سهول فرجينيا القديمة الخضراء . مع أن الظلام كان دامساً لكي نستطيع الجزم بأنها كانت خضراء أو تحمل ألواناً أخرى . وعندما استيقظنا في الصباح كنا قد وصلنا إلى فايتفيل بكارولاينا الشمالية . تناولنا وجبة الإفطار في عربة الطعام وبعد الإفطار تجاذبت أطراف الحديث ، مع الرجل الموجود في المقصورة المجاورة . كان من ليبانون بولاية نيو هامبشاير وفي الثمانين من عمره تقريباً ، ترافقه زوجته وابنتان غير متزوجتين . أبديت ملاحظة بأنهم قد

يشعرون بالازدحام كأربعة أشخاص في مقصورة واحدة ، ولكنه أجابني بأنهم يقومون بهذه الرحلة في كل شتاء ، ومنذ خمسة عشرة عاماً وقد خبروا كيف يتجنب كل منهم طريق الآخر . وقال إنهم ينوون الذهاب إلى ينابيع تاربون .

وصلنا إلى شارلستون بولاية كارولاينا الجنوبية عند الساعة ١٢,٥٠ مساءً ثم إلى سفانا بجورجيا في الساعة ٤,٢٠ ثم إلى جاكسون فيل بفلوريدا عند الساعة ٨,٤٥ مساءً . كان لدينا ساعة وربع للتوقف هناك ، ولكن ماما احتجت على مغادرتي القطار ، في حين قامت امرأة سوداء بترتيب أسرتنا ، وغادرت قبل أن نغادر جاكسون فيل . لم أنم جيداً تلك الليلة لأن القطار كان يصدر أصوات قرقعة وهمهمة عند الانعطافات .

أما ماما فإنها لم تنم جيداً أيضاً كما تقول بسبب خوفها الدائم من أن أسقط خارج القطار ، وتقول بأنها ترغب في النوم في المضجع العلوي ، لأنها حينذاك لن تقلق بشأني ولكنني أخبرتها بأنني لن أخاطر بأن ينتشر خبر سماحي لزوجتي بالنوم في المضجع العلوي لأن ذلك قد يفتح علينا باباً للنميمة .

استيقظنا صباحاً في الوقت المناسب لكي نرى أصدقاءنا من هامبشاير ، يغادرون القطار إلى ينابيع تاربون التي كنا قد وصلنا إليها عند الساعة ٦,٥٣ صباحاً .

غادر أيضاً بعض من رفاقنا المسافرين عند كليرووتر والبعض الآخر عند بيللير حيث توقف القطار تماماً حتى بوابة فندق الماريوت .

وبيللير هذه تعتبر المركز الشتوي الرئيسي للاعبي الجولف ، وكل من ينزل هناك ، رجلاً كان أم امرأة يحمل معه أو معها حقيبةً للمضارب ، تحتوي كل منها على ١٠ أو ١٢ مضرباً . عندما كنت شاباً صغيراً كنا نسمي هذه اللعبة «شايني» ، وكنا نحتاج لنلعبها إلى مضرب واحد فقط ، ولعل لعبة واحدة منها أو مضرباً واحداً تقريباً ، قد تكون كافية لبعض هؤلاء المتأنقين إذا ما لعبوها على طريقتنا .

توقف القطار في سانت بيترسبورغ عند الساعة ٨,٢٠ . وعندما غادرنا القطار ، بدا الأمر وكأن هناك شغباً فقد كان كل هؤلاء السود يصرخون ، بصوت عالٍ يشبه النباح . كنوع من الدعاية للفنادق المختلفة . قلت لماما . . . قلت : إنه لشيء جيد أننا قد حصلنا على مكان مميز نذهب إليه ، دون أن يتطلب الأمر منا اختيار فندق ، لأن

الاختيار سيكون صعباً بين كل هؤلاء الذين يزعمون بأن فندقهم هو الأفضل .
ضحكت . . .
عثرنا على حافلة نقل صغيرة وأعطينا السائق عنوان الغرفة ، التي حجزها لنا زوج ابنتي ، وسريعاً ما كنا هناك ، قدّمنا أنفسنا للسيدة مالكة النزل ، كانت أرملة صغيرة لا تتجاوز الثامنة والأربعين من العمر ، قادتنا إلى غرفتنا . كانت غرفة جيدة الإضاءة والتهوية ومزودة بسرير مريح وخزانة ومغسلة . وكانت أجرتها ١٢ دولاراً أسبوعياً ، ولكن الموقع كان جيداً ولا يفصله عن حديقة وليامز سوى ثلاثة صفوف من البنايات .
«سانت بيت» هو الاسم الذي يطلقه كافة الناس على البلدة مع أنهم يدعونها ، أيضاً مدينة الشمس ، لأنهم يزعمون بأنه لا يوجد مكان آخر في البلاد يضاهيها في عدد الأيام القليلة ، التي لا تبتسم فيها الشمس لأمنا الأرض . حتى أن إحدى الجرائد توزع نسخها مجاناً في كل يوم لا تسطع فيه أشعة الشمس ، ويدعي أصحاب الجريدة ، بأنهم وزعوها مجاناً ستين مرة فقط خلال الإحدى عشرة سنة الأخيرة .
كنيةٌ أخرى أطلقوها على البلدة وهي «شاطئ نخيل الرجل الفقير» ، ولكنني أخمّن بأن هناك رجالاً يأتون إلى هنا ممن يستطيعون الاقتراض من البنك بالقدر الذي يقترضه بعض الأولاد المدللين في الشاطئ الآخر .
أثناء إقامتنا ، قمنا بزيارة إلى «لويس تنت سيتي» ، التي تعتبر المركز الرئيسي لسواح «التن كان» أو «علب الصفيح» . ربما أنك لم تسمع بهم ، حسناً إنهم ينتمون إلى منظمة يقضي أعضاؤها رحلات عطلاتهم في السيارات ويحملون معهم كل شيء . هذا هو الأمر ! هم يحضرون خيمهم ، يطبخون فيها وينامون ولا يتعاملون مع الفنادق والمطاعم . ولكن يتوجب عليهم أن لا يكونوا مخادعين وإلا فلن يسمح لهم بالانتماء إلى المنظمة .
لقد أخبروني بأن المنظمة تضم أكثر من مائتي ألف عضو ، يطلقون على أنفسهم «سالتن كانرز» ، نسبة إلى طعامهم الذي يتألف بمعظمه من المعلبات ، إحدى الأزواج التي قابلناها في «التن سيتي» ، كانا زوجين من برادي بولاية تكساس ، يقال لهما السيد والسيدة «پنس» ، والرجل عجوز تجاوز الثمانين من العمر ، وقد قدم الاثنان من

منزلهما بالسيارة طوال الطريق قاطعين مسافة ١٦٤١ ميلاً وفي رحلة استغرقتهم خمسة أسابيع . وكان السيد بنس يقود السيارة كل هذه المسافة .

يتوافد «التن كانزز من جميع أنحاء ولايات الاتحاد ويقصدون في الصيف أماكن مثل نيوإنجلاند ومنطقة البحيرات الكبرى . ولكن في فصل الشتاء يأتي معظمهم ، إلى فلوريدا ويتوزعون في جميع أنحاء الولاية . وقد تصادف أثناء وجودنا هناك ، انعقاد مؤتمر وطني لهم في جينسفيل بولاية فلوريدا ، تم فيه انتخاب رئيس لهم ، وهو رجل نيويوركي من فريدونيا ، وقد أعطوه لقب «فاتح علب الصفيح الملكي في العالم» .

كان لديهم أغنية مكتوبة ، وكان يتوجب على كل شخص أن يتعلمها قبل أن يصبح عضواً .

علبة الصفيح إلى الأبد
«هوراي! يا أولا ، هوراي!
تعيش علبة الصفيح
وليسقط العدو
سوف نتجمع حول نار المخيم
ونتجمع مرة أخرى
ونادي بأعلي صوتنا
سنظل نخيم في السيارات إلى الأبد

كان هذا هو الشيء ، أو مثله وكان على الأعضاء أيضاً أن يثبتوا علبة من الصفيح على مقدمة سياراتهم .

سألت ماما : هل تفضلين السفر بهذه الطريقة ؟ فقالت : نعم إنها رائعة ولكن ليس مع عجوز مهزوز مثلك .

حسناً . قلت لها : إنني أصغر ثماني سنوات من السيد «بنس» الذي قاد السيارة من تكساس إلى هنا .

قالت : نعم ولكنه كبير بما فيه الكفاية على ألاعيبك .

لا تستطيع أن تتفوق على ماما أبداً .

حسناً ، من أول الأشياء التي فعلناها في سانت بيترسبورغ ، كان الذهاب إلى

غرفة التجارة ، وتسجيل أسمائنا والمكان الذي أتينا من ». والسبب هو أن المنافسة كانت كبيرة بين مختلف الولايات فيما يتعلق بأعداد مواطنيها الذي يقومون بزيارة البلدة ، وبالطبع فإن ولايتنا الصغيرة لا تملك فرصة كبيرة في مثل هذا العرض ولكن أي أمر صغير قد يساعد ، كما يقول الرجل .

وقد أخبرنا الرجل أيضاً أن عدد الزائرين الكلي ، الذي تم تسجيله بلغ أحد عشر ألف اسم ، وكانت ولاية أوهايو في المقدمة بعدد ألف وخمسمئة تلتها نيويورك بعدد ألف ومائتين ثم ميتشيغان وبعدها بنسلفانيا ، وهكذا يستمر العدد في الهبوط إلى أن يصل إلى اسم واحد من كل من كوبا ونيفادا .

في الليلة الأولى التي قضيناها هناك ، شهدنا لقاءً لجمعية «نيويورك ـ نيوجيرسي» ، عقد في كنيسة الأبرشية وكان المتحدث رجلاً من أوجد نسبورغ من ولاية نيويورك ، وهو عضو في نادي الروتاري . كان حديثه مقنعاً جداً رغم أني قد نسيت اسمه . كان موضوع الحديث «تعقب قوس قزح» . كان عملنا الأول ، طبعاً ، هو العثور على مكان لتناول الطعام وبعد تجربة عدة أماكن مختلفة ، عثرنا على كافيتيريا في سنترل أڤينو تلائمنا صعوداً وهبوطاً . وقد تناولنا معظم وجباتنا هناك . بكلفة دولارين في اليوم لكلينا . كان الطعام مطهواً بشكل جيد وكل شيء في المكان أنيقاً ونظيفاً . وكما تعلم الرجل لا يهتم بدفع ثمن الأشياء إذا كانت نظيفة ومطبوخة جيداً .

في اليوم الثالث من شباط ، والذي يصادف عيد ميلاد ماما ، متّعنا أنفسنا بتناول العشاء في فندق بوانسيتيا ، الذي يتقاضى خمسة وسبعين سنتاً ثمناً لشريحة من لحم البقر لا تكاد تكفي لشخص واحد منا .

قلت لماما : حسناً ، قلت : إني لأظنه شيئاً جيداً أن عيد ميلادك لا يصادف كل يوم وإلا لانتهى بنا الأمر في ملجأ للفقراء .

ـ لا . قالت ماما ، لأنه لو كان عيد ميلادي كل يوم لبلغت من الكبر ما يكفي لأن أودع في القبر منذ زمن طويل .

لا يمكنك أن تتفوق على ماما .

كان في الفندق غرفة للعب الورق ، حيث كان العديد من الرجال والسيدات

يلعبون لعبة «الخمسمائة» ، إضافة إلى هذه اللعبة الجديدة الصامتة «البريدج» . كما شاهدنا أيضاً مكاناً للرقص كان يرقص فيه بعض الشباب ، سألت ماما فيما إذا كانت ترغب في تحريك إصبعها الخفيف الرائع ، فأجابت : لا ، أصبحت كبيرة على التلوي والتثني مثلما يرقصون هذه الأيام . رحنا نراقب بعض الشباب ، وهم يتراقصون إلى أن شعرت الماما بالقرف ، وأبدت رغبتها في مشاهدة فيلم جيد «التغييير طعم أفواهنا» ، فماما من أعظم هواة حضور الأفلام ، وفي موطننا نذهب مرتين في الأسبوع إلى السينما .

ولكني أرغب أن أحدثك عن الحديقة العامة ، ففي اليوم التالي لزيارتنا ذهبنا إلى الحديقة العامة في سانت بيترسبورغ ، هي تشبه تلك التي في تامبا إلا أنها أكبر ويوجد فيها من المتعة أكثر مما تتوقع . ففي منتصف الحديقة ، توجد منصة كبيرة مخصصة للعزف في الهواء الطلق ، وكراسي لكي يجلس عليها المستمعون . ويقدمون هنا موسيقى تناسب جميع الأذواق من الديكسي إلى المقطوعات الكلاسيكية مثل قلوب وأزهار كذلك يوجد في كل موضع أماكن للرياضة ، والألعاب كالشطرنج والدمينو للراغبين ، في مثل هذه الألعاب إضافة إلى لعبة الكرات الخشبية ، ولعبة قذف حدوات الخيول لمن هم أكثر رشاقة . اعتدت أناعلى قذف الحدوات ، ببراعة ولكني لم أعد أمارس هذه اللعبة خلال العشرين سنة الأخيرة .

حسناً ، على كل حال ، اشترينا بطاقة عضوية في النادي ، وتكلفتها دولار في الموسم فقط . وقد أخبروني بأن الاشتراك كان خمسين سنتاً قبل سنتين ، إلا أنهم رفعوه لكي يتجنبوا دخول الرعاع .

حسناً ، قضينا أنا والماما يوماً عظيماً في مراقبة قاذفي الحدوات . كانت هي ترغب أن أشارك في اللعبة ، ولكني أخبرتها أنني لم أتمرن من زمن وقد أبدو كالأحمق ، إذا ما اشتركت . إنني أعتقد أنني أستطيع مجاراة عدد كبير من الرماة الذين رأيتهم حتى وأنا بدون تمرين .

على أي حال ، كان هناك بعض الرماة الجيدين ، مثل هذا الفتى من أكرون ، بولاية أوهايو الذي استطاع بالتأكيد أن يقذف حدوة رائعة . وقد أخبرني أنه قد يفوز ببطولة الولايات المتحدة في دورة شباط ، ولكننا كنا قد غادرنا قبل أيام قليلة ، من

عقد هذه الدورة بحيث لم أسمع فيما لو فاز أم لا . لقد نسيت اسمه ، كان شاباً رائعاً وله أخ ينتمي إلى نادي الروتاري ويعيش في كليفلاند .

بقينا نتسكع ، ونراقب الألعاب المختلفة لمدة يومين أو ثلاثة . وأخيراً جلست ألعب الشطرنج مع رجل من دانفيل/ الينوي يدعى ويفر . كان لاعباً بارعاً ، ولكنه لم يكن نداً لي . وأرجو أن لا تظن أن هذا من باب التفاخر . ولكنني كنت أستطيع دائماً أن أثبت نفسي على رقعة الشطرنج ، ومعظم الناس حولنا سيخبرونك بنفس الشيء .

لعبت مع ويفر هذا معظم فترات الصباح ، ولمدة يومين أو ثلاثة استطاع فيها أن يهزمني مرة واحدة فقط . وفي أحد الأوقات وعندما بدا وكأن الحظ يحالفه انطلقت صافرة الظهيرة ، فكان علينا أن نتوقف ونذهب لتناول الغذاء وبينما كنت ألعب الشطرنج ، كانت ماما تجلس وتستمع إلى الفرق الموسيقية ، لأنها كانت تحب الموسيقى الكلاسيكية أو أي نوع آخر ، لا يهم .

على كل حال ، وفيما هي تجلس هناك في أحد الأيام ، نصبت المرأة التي تقف بجوارها حديثاً معها ، كانت امرأة في مثل سن ماما تقريباً ، في السبعين أو الحادية والسبعين ، سألت ماما عن اسمها ومن أين أتت كما سألتها ماما نفس الأسئلة .

ومن تظن كانت هذه المرأة ؟

حسناً يا سيدي ، كانت زوجة فرانك . م . هارتزل ، الرجل الذي كانت ماما مخطوبة له قبل أن أدخل على الخط وتقطع العلاقة معه منذ ٥٢ سنة .

نعم ، سيدي

يمكنك أن تتخيل دهشة ماما ، وكذلك السيدة هارتزل عند أخبرتها ماما بأنها كانت صديقة لزوجها ذات يوم ، إلا أنها لم تفصح عن مدى حميمية تلك العلاقة أو أنني أنا وماما كنا سبب رحيل هارتزل غرباً ! ولكن ذلك هو ما حصل ! فقد غادر هارتزل إلى ميتشيغان ليصبح بيطرياً ، وليستقر في هيل سديل بولاية ميتشيغان إلى أن تزوج بزوجته في النهاية .

حسناً شحذت ماما كل شجاعتها لتسأل فيما لو كان فرانك ، ما يزال على قيد الحياة ، أخذتها السيدة هارتزل ، إلى حيث كانوا يقذفون حذوات الحصان وهناك كان فرانك العجوز واقفاً ينتظر دوره . عرف ماما حال أن رآها مع أن الفترة كانت خمسين

سنة . قال لها إنه عرفها من عينيها .

هتف مندهشاً ماذا ! إنها لوسي فروست ثم رمى حدواته وأنهى اللعبة ، ثم جاؤوا والتقطوني ، وأقرُّ بأنني لم أكن لأعرفه . فأنا وهو بنفس العمر إلى حد الشهر ، ولكنه يبدو للناظر أكبر مني فهو أكثر صلعاً ويغطي اللون الأبيض مجمل لحيته في حين أن لحيتي ما يزال فيها خط من السواد .

كان أول شيء قلته له :

حسناً ، فرانك ، لحيتك تلك تجعلني أشعر كأنني عدت شمالاً ، إنها تشبه عاصفة ثلجية بكل معنى الكلمة .

حسناً قال : أظن أن لحيتك يمكن أن تصبح بيضاء تماماً لو قمت بتنظيفها على دراي كلين .

لكن ماما لم تحتمل ذلك .

ـ هكذا الأمر ، إذن قالت لفرانك حسناً ، إن شارلي لم يدخل الدخان إلى فمه منذ أكثر من عشرة سنوات .

وأنا لم أكن أدخن فعلاً .

حسناً اعتذرت عن لعبة الشطرنج ، وكان الوقت قد اقترب من الظهر ، لذلك قررنا أن نتناول طعام الغداء جميعنا معاً . لم يكن هناك أية مشكلة سوى أن علينا أن نجرب الكفيتيريا ، التي يتناولون فيها طعامهم ، والتي تقع في الشيرد آفنيو . كانت أغلى قليلاً من خاصتنا ، كما أن الطعام كما ظننت لم يكن بجودة مطعمنا . تناولنا أنا والماما نفس الوجبة التي نتناولها كل يوم ، وكانت فاتورتنا ١,١ دولار أما فاتورة فرانك فكانت ١,٢ له ولزوجته . نفس الوجبة لم تكن لتكلفهم أكثر من دولار واحد في مطعمنا .

بعد الغداء ، دعوناهم إلى بيتنا ، وجلسنا جميعاً في الردهة التي أعطتنا إياها صاحبة المنزل ، لاستعمالها في استضافة الزوار . بدأنا الحديث عن الأيام الخوالي ، وأبدت ماما تخوفها من أن تتضايق السيدة هلرتزل وهي تصغي إلى حديث ثلاثتنا عن الأيام القديمة ، ولكن تبين فيما بعد أن أحداً منا لم يملك الفرصة للكلام ، في حضور السيد هارتزل . لقد سمعت عن أنواع من النساء لا يتوقفن عن الكلام ، ولكن

زوجة هارتزل تستطيع أن تستحوذ على كعكة الحديث أكثر من جميع النساء اللواتي رأيتهن في حياتي .

فقد حدثتنا عن تاريخ عائلة كل شخص في ولاية ميتشيغان تقريباً ، وتبجحت لمدة نصف ساعة ، وهي تتحدث عن ابنها الذي قالت بأنه عضو في الروتاري وأنه يعمل في تجارة الأدوية في جراند رابيدز . وحالما تمكنا أنا وهارتزل من الإمساك بأطراف الحديث ، وانتزاع كلمة بدأنا في التندر على بعضنا البعض ، جيئة وإياباً إلى أن أثرت حنقه بالحديث عن كونه طبيب خيول .

حسناً يا فرانك قلت له إنك تبدو ناجحاً وميسور الحال لهذا فإني أفترض بأن هناك وفرة في الخيول المريضة حول هيل سديل .

حسناً قال لقد تدبرت أمري في صنع حياة جيدة بعض الشيء ، ولكن كان عليَّ أن أعمل بجد ومثابرة .

نعم ! قلت له وافترض أن الأمر استلزم منك ساعات من السهر في الليل على الولادات وهكذا دواليك .

أخرستني ماما .

حسناً لقد ظننت بأنهم لن يذهبوا أبداً إلى بيتهم ، وكنت أنا وماما نحاول جاهدين لإبقاء عيوننا مفتوحة فقد كنا في العادة نأخذ غفوة بعد الغداء .

أخيراً ، ذهبوا بعد أن اتفقنا على أن نلتقي بهم صبيحة اليوم التالي في الحديقة ، وبعد أن دعتنا السيدة هارتزل للمجيء إلى بيتهم في الليلة التالية ، لنلعب الورق «لعبة الخمسمائة» ،عادت وتذكرت بأن هناك لقاءً لجمعية ميتشيغان في تلك الليلة ، لذلك لم نتمكن من إقامة لعبتنا الأولى إلا بعد ليلتين .

كان هارتزل وزوجته ينزلان في بيت يقع في ثيرد أفنيو نورث ، وتوجد في البيت غرفة خاصة للجلوس إلى جانب غرفة النوم . لم تستطع السيدة هارتزل التوقف عن الحديث ، حول غرفة جلوسهم الخاصة وكأنها شيء عجيب .

لعبنا الورق معهم ، وكانت ماما وهارتزل شريكين ضدي أنا وزوجته . وقد تبين أن السيدة هارتزل لاعبة ورق بائسة وقد هزمنا شرّ هزيمة . بعد اللعبة أحضرت السيدة هارتزل طبقاً من البرتقال ، وقد اضطررنا إلى التظاهر بأن هذا ما كنا نريده بالضبط . مع

أن البرتقال في هذه البلاد يشبه لحية شاب صغير ، تتمتع فيها في البداية ثم تصبح إزعاجاً بغيضاً فيما بعد .

لعبنا الورق مرة أخرى في الليلة التالية في بيتنا ، وبنفس الشراكة وطبعاً هزمنا أنا والسيدة هارتزل مرة أخرى . كانت ماما وهارتزل يطريان بعضهما البعض لكونهما فريقاً ممتازاً ، ولكن كل منهما كان يعلم بما يكفي أين يكمن سر نجاحهما .

بلغ مجموع ما لعبناه من الزمن ، عشرة ليالي مختلفة . لم نتقدم منها أنا ولاسيدة هارتزل سوى ليلة واحدة . وتلك الليلة الوحيدة لم تكن بسبب غلطة مالك الحزين .

كان قد مر على وجودنا هناك حوالي أسبوعين ، وقد استضافونا في إحدى الليالي ، في لقاء اجتماعي لمجتمع ميتشيغان بكنيسة الأبرشية ، وتحدث في هذا اللقاء رجل يدعى بتنغ من ديترويت ، وهو روتاري عريق وبارع في التحدث ، وكان موضوعه يدور حول ، «كيف شفيت من رواية القصص» .

بعد ذلك عزفت امرأة تدعى السيدة أكسفورد بعض المختارات ، التي قالت عنها السيدة هارتزل بأنها موسيقى أوبرا عظيمة . مهما يكن فإن ابنتي إيدي يمكنها أن تفرد جميع أوراق اللعب دون أن تحدث مثل هذه الضوضاء حولها .

تلى ذلك عرض لرجل يتكلم من بطنه ، وهو من جراند رابيدز ثم قامت امرأة صغيرة في الخامسة والأربعين من العمر بتقليد أصوات مختلف الطيور . همست لماما بأن كل الأصوات بدت وكأنها أصوات صيصان ، لكنها وكزتني لأكف عن الكلام .

بعد العرض ، توقفنا عند إحدى الصيدليات ، أحضرت بعض المرطبات وكانت الساعة قد قاربت العاشرة قبل أن نعود . كنت أنا وماما نفضل الذهاب ، إلى السينما ولكن ماما قالت : يجب علينا أن لا نجرح مشاعر السيدة هارتزل . رغم أنني كنت قد سألتها ، فيما إذا كنا قد أتينا إلى فلوريدا لنمتع أنفسنا أم لكي لا نجرح مشاعر عجوز ثرثارة من ميتشيغان .

شعرت بالأسف على السيد هارتزل في صبيحة أحد الأيام ، عندما التقيت معه في الحديقة ، وكانت النسوة قد ذهبن لرؤية أحد اختصاصي معالجة الأقدام . وقد تحامق وطلب مني أن ألعب معه الشطرنج . كان هو الذي اقترح ذلك وليس أنا . وأظن أنه ندم على ذلك قبل أن نلعب أول لعبة . ولكنه كان عنيداً جداً ولم يستسلم .

بقيت أهزمه اللعبة تلو اللعبة وبقي هو ثابتاً مكانه ، ولكن الأسوأ حصل عندما تجمع حولنا حشد من الناس الذين اعتادوا على مراقبتي خلال اللعب وراحوا ، ينظرون إلى الهزائم المتتالية لذلك الأحمق فرانك ، ثم بدؤوا بإثارته وإبداء ملاحظاتهم : قال له أحدهم : من الذي أخبرك بأنك لاعب شطرنج .

وقال آخر : يمكنك أن تكون جيداً في لعبة الأقراص ، والكأس ولكن ليس الشطرنج شعرت برغبة في أن أجعله يهزمني في لعبتين ، ولكن الأمر سيبدو جلياً بأنه عمل مهيأ سلفاً .

حسناً ، انضمت إلينا النسوة في الحديقة ، ولم أكن بصدد الإشارة إلى لعبتنا الصغيرة ولكن هارتزل تحدث حولها بنفسه وأقرَّ بأنه ليس نداً لي .

حسناً قالت السيدة هارتزل : ليست الشطرنج لعبة مميزة على أي حال أليس كذلك ؟ ثم أردفت : إنها لعبة يلعبها الأطفال أكثر أليس كذلك ؟ على الأقل أنا أعرف أن أحفادي اعتادوا أن يلعبوها بكثرة .

نعم يا سيدتي ، إنها لعبة أطفال وخاصة بالطريقة التي يلعبها زوجك . تدخلت ماما لتسوية الأمور وقالت :

هناك ألعاب أخرى يمكن لفرانك أن يهزمك فيها .

نعم قالت السيدة هارتزل ، وأنا أراهن أنه يستطيع أن يهزمك في قذف حدوات الحصان .

حسناً قلت : بودّي أن أعطيه فرصة ليجرب ذلك مع العلم بأني لم أقذف حدوة منذ ستّ عشرة سنة .

وأنا قال هارتزل لم ألعب الشطرنج منذ عشرين سنة .

قلت له : إنك لم تلعبها أبداً !

على أي حال قال فرانك إنني أنا ولوسي سادتكم في لعبة الخمسمائة

حسناً ، كان بإمكاني أن أخبره عن سبب ذلك ولكن كان لدي من اللياقة ما يكفي لأن أمسك لساني .

أصبح هارتزل الآن يرغب في لعب الورق كل ليلة . وصرنا أنا وماما ، إذا رغبنا في مشاهدة فيلم سينما ، يتظاهر أحدنا بأن لديه صداع وبعد ذلك نستلهم أن لا يرانا

أحد منهما ونحن نتسلل إلى داخل السينما .

أنا لا أجد مانعاً في لعب الورق ، حين يضع شركائي جلّ اهتمامهم في اللعبة ، ولكنك حين تشارك امرأة كزوجة هارتزل ، كيف يصبح بإمكانك لعب الورق وهي لا تكف عن التبجح كل ثانيتين حول ابنها الذي يعمل في جراد رابدز؟

حسناً . أعلنت جمعية نيويورك ـ نيوجيرسي بأنها ستقيم ليلة اجتماعية أيضاً فقلت لماما :

ـ تلك أمسية يمكننا أن نعتذر فيها عن لعب الخمسمائة .

ـ نعم قالت ، ولكن علينا أن ندعو فرانك وزوجته إلى هذا اللقاء كما دعونا قبل ذلك إلى لقاء جمعية ميتشيغان .

ـ حسناً قلت ، إني أفضل البقاء في البيت على اصطحاب تلك الثرثارة إلى أي مكان نذهب إليه .

قالت ماما حينذاك .

ـ إنك سيئ الطبع ربما هي تثرثر كثيراً لوقت قصير ، ولكنها طيبة القلب كما أن فرانك رفيق جيد .

قلت

ـ إذا كان رفيقاً جيداً فلماذا لم تتزوجيه ؟

ضحكت ماما وقالت : تبدو وكأنك تشعر بالغيرة . غيرة من طبيب بقر . على أي حال ، اضطررنا إلى أخذهم معنا إلى الحفلة الاجتماعية ، ويمكنني القول بأننا أعطيناهم من الاهتمام أكثر مما كانوا قدأعطونا .

قدّم القاضي «لين» ، من باترسون خطبة جميلة عن «أحوال الأعمال» تلته السيدة نيوبل من ويستفيلد حيث قامت بتقليد أصوات الطيور ، والفرق هنا أنك تستطيع تمييز مختلف الأصوات . بعد ذلك غنت امرأتان شابتان من ردبانك ، مختارات من الكورال ، وقد صفقنا لهما كثيراً حتى أنهما قدمتا لنا أغنية «وطننا في مرتفعاتنا» ظهرت على أثرها الدموع في عيني الماما وعيني السيدة هارتزل وحتى السيد هارتزل أيضاً .

وبطريقة أو بأخرى ، عرف الرئيس بوجودي وطلب مني أن ألقي كلمة . لم أكن

أرغب في ذلك، ولكن المالما دفعتني للوقوف وهكذا نهضت وقلت :

سيداتي سادتي

«لم أكن أتوقع أن أدعى للحديث في مناسبة كهذه، أو في مناسبة أخرى، كما أنني لم أعد نفسي لأكون صانع خطابات، ولكني سأعمل ما بوسعي أن أعمله تماماً مثل أي شخص يقدم أفضل ما عنده» .

بعد ذلك سردت على مسامعهم قصة «بات والدراجة النارية» مستخدماً اللهجة الارلندية، التي بدت وكأنها قد راقت لهم. ثم رويت لهم قصة أو قصتين. ولم يستغرق مني الأمر كله أكثر من ٢٠ أو ٢٥ دقيقة وأنا واقف على قدمي. ولك أن تسمع التصفيق والصياح بعد ما جلست. حتى السيدة هارتزل اعترفت، بكوني خطيباً مفوهاً. وقالت لي : إذا ذهبت يوماً إلى جراند رابدز بولاية ميتشيغان فإن ابنها سيجعلني أتحدث إلى الروتاريين .

عندما انتهى اللقاء، رغب هارتزل بأن يصطحبنا إلى منزلهم للعب الورق. إلا أن زوجته ذكرته بأن الساعة قد تعدت التاسعة والنصف مساءً، وأن الوقت متأخر للبدء بلعب الورق. ولكنه استمر بحماقة في الحديث عن لعب الورق، ربما لأنه ليس مفطراً ليكون شريكاً لزوجته في اللعب. على أية حال تخلينا منهم وذهبنا إلى فراشنا .

في الصباح التالي، عدنا والتقينا في الحديقة العامة وأبدت السيدة هارتزل ملاحظة، بأنها لم تمارس تمارينها. عندها، اقترحت عليها أن تأخذ شوطاً في لعبة الكرات الخشبية (الروك). قالت إنها لم تلعب الروك منذ عشرين سنة، ولكنها ستلعب إذا ما رغبت الماما في ذلك. حسناً ، في البداية، لم ترغب ماما بأن تصغي للموضوع ولكنها وافقت في النهاية، إرضاءً للسيدة هارتزل، أكثر من أي سبب آخر .

حسناً . لعبت الاثنتان مع السيدة ريان من إيجل، نبراسكا، ومع سيدة صغيرة أخرى تدعى مسز موريس من رتلاند، ڤيرمونت وقد كانت ماما قد التقتها في عيادة أخصائي الأقدام .

حسناً ، لم تستطع ماما أن تضرب برغوثاً ، وأثارت ضحك الجميع، حتى أنا لم أستطع منع نفسي من الضحك. وأخيراً انسحبت بحجة أن ظهرها، قد أصبح ضعيفاً على الانحناء. وحلت مكانها سيدة أخرى وتواصل اللعب. تحول الضحك الآن على

السيدة هارتزل ، فقد كان عليها أن تضرب الكرة السوداء ضربة طويلة ، وبينما هي تستعد لذلك ، سقط طقم أسنانها في الملعب . لم أر في حياتي امرأة في حالة من الهياج مثلها ، وحدها السيدة هارتزل لم تكن تضحك ، كانت أكثر هياجاً من دبور ، وأعلنت أنها لا ترغب بالمزيد من اللعب . وهكذا انفضت اللعبة .

عادت السيدة هارتزل إلى البيت دون أن تكلم أحداً ، ولكن هارتزل بقي واقفاً لفترة . وأخيراً قال لي :

حسناً ، لقد لعبت معك الشطرنج في ذلك اليوم وهزمتني شرَّ هزيمة فماذا تقول لو لعبنا معاً لعبة قذف الحدوات .

أخبرته بأنني لم أقذف حذوة منذ ستة عشر عاماً ، ولكن ماما قالت : امض قدماً والعب ، فقد تعودت أن تكون جيداً في هذه اللعبة وربما تعود إليك مهارتك . حسناً ، ولكي نختصر قصة طويلة ، استسلمت للتجربة ، وكان علي أن لا أفعل لأنني لم أقذف حدوةً منذ ستة عشرة عاماً . وافقت على ذلك فقط مسايرة للسيد هارتزل .

قبل أن نبدأ اللعب ، ربتت ماما على ظهري وطلبت مني أن أعمل جهدي . بدأنا اللعب ، وبدا للتو أنني على قدر الحمل ، على الرغم من أني لم أقذف حدوة منذ ١٦ عاماً ، إضافة إلى أنه لم يكن لدي مدى مناسب . إلا أن ما حصل بعد ذلك كان مريعاً ، فقد كانت الحدوات قديمة وكان الطلاء قد بدأ يزول منها ، وأخذت تلتصق بإبهامي ، فلم أتمكن من الرمي أكثر من مرتين أو ثلاثة لأن إبهامي بدأ يتسلخ ، وربما كان سيقتلني لو استمريت في اللعب .

حسناً ، رمى هارتزل أسوأ رمية رأيتها في حياتي . لا يمكن أن تفكر وأنت تراه يرمي إلا بأنه لم يقرب مثل هذه اللعبة أبداً . ولكنه كان من أكثر الرماة المحظوظين الذين رأيتهم في حياتي . فقد رمى عدة رميات قصَّرت فيها الحدوة خمسة أو ستة أقدام وبعد ذلك تطوق الوتد . لا توجد فائدة من محاولة إلحاق الهزيمة بغريمك عندما يملك مثل هذا الحظ .

كان هناك حشد من الناس يتفرج علينا ، وكان من بينهم أربعة أو خمسة سيدات إضافة إلى الماما . وكان هارتزل يعلك ثم يبصق العلكة كلما قام بالرمي مما سبب قلقاً بين السيدات . إذ بدا وكأنه لا يكترث إلى أي اتجاه سيبصق علكته .

ولك أن تفكر في رجل وصل إلى مثل سنه ، ولم يتعلم بعد أساليب اللياقة .
حسناً ، مختصر الموضوع ، كنت قد بدأت آخذ مداي ، في القذف عندما شعر بأني مضطر إلى الاستسلام بسبب الألم في إبهامي ، وقد أريت هارتزل إصبعي ، ووافقني بأن أتوقف عن اللعب . فقد كان الإبهام مسلوخاً وينزف دماً . وحتى لو رغبت بالاستمرار فإن ماما كانت ستمنعني بعد أن رأت إبهامي .

على كل حال ، تركت اللعبة وقال هارتزل أن النتيجة هي ١٩ إلى ٦ إلا أنني لم أكن أتابع الموضوع ولم أهتم به أيضاً .

حسناً ، عدت أنا وماما إلى البيت وقلت لها : آمل أن نكون قد انتهينا من آل هارتزل فقد سئمت منهم وتعبت . ولكنها كانت قد وعدتهم بزيارة في تلك الأمسية ، من أجل لعب الورق الذي لا ينتهي .

حسناً . لقد تسبب لي إبهامي بألم شديد ، وشعرت بنوع من انحراف المزاج ، حتى أنني نسيت نفسي ، وعلى كل حال ، بينما كنا على وشك الانتهاء من اللعب ، أبدى هارتزل ملاحظة بأنه لن يخسر أبداً في لعب الورق إذا ضمن أن تكون ماما شريكة دائمة له .

تعقيباً على ذلك ، قلت : حسناً كان لديك فرصة منذ خمسين سنة لتكون شريكة دائمة لك ، ولكنك لم تكن رجلاً كفاية لكي تحتفظ بها . ندمت على اللحظة التي نطقت بها هكذا . ارتبك هارتزل ولم يعرف ماذا يقول كما لم تستطيع زوجته أن تقول شيئاً . حاولت ماما أن تسوي الأمر بأن تقول أنني ربما قد تناولت شراباً أقوى من الشاي حتى أتكلم بمثل هذه الحماقة . ولكن السيدة هارتزل كانت في حالة تجمد مثل جبل جليدي . وبالكاد قالت لنا : ليلة سعيدة قبل أن نخرج وأراهن أنها هي وفرانك قد قضيا ساعة سارةً من الزمن بعد مغادرتنا . قالت له ماما بينما نحن نغادر : لا تهتم بثرثرة شارلي يا فرانك ، أعتقد أنه جنّ لأنك هزمته في رمي الحدوات وفي لعب الورق . قالت ذلك لتصلح ما سببته زلّة لساني ، ولكنها في نفس الوقت أثارت حنقي . حاولت أن أبقى رابط الجأش ، ولكن ما أن أصبحنا خارج البيت حتى أثارت الموضوع وبدأت تعنفني على تلك الفوضى التي سببتها .

حسناً : لم أكن في حالة أحتمل فيها التوبيخ لذلك قلت :

ـ أظن بأنه كان عليك أن تتزوجيه ما دام رائعاً في الرمي وفي لعب الورق الذي تحبينه .

حسناً . قالت : على الأقل هو ليس طفلاً ليتوقف عن الرمي من أجل إبهام أصيب ببعض الخدوش !

وماذا عنك ، قلت لها لقد جعلت من نفسك أضحوكة في قاعة الرك ، بزعمك أن ظهرك ضعيف وأنك لا تستطيعين الاستمرار في اللعب أكثر .

نعم . أجابتني وأنا لم أضحك عليك عندما جرحت إصبعك ! فلماذا ضحكت عليَّ عندما التوى ظهري ؟

ـ من سيستطيع أن يصمد بدون ضحك ؟ قلت لها .

ـ حسناً . قالت لي : لم يضحك فرانك هارتزل .

ـ حسناً . قلت لها : لماذا إذن لم تتزوجيه ؟

ـ حسناً . قالت ماما : أكاد أتمنى أن ذلك قد حصل !

ـ وكذلك أنا أيضاً أجبتها .

ـ سوف أتذكر ذلك . قالت ماما ، أخر كلمة قالتها لي قبل يومين .

في اليوم التالي ، رأينا آل هارتزل في الحديقة العامة . كنت أرغب في الاعتذار ، ولكنهم أومؤوا لنا برؤوسهم فقط وتابعوا سيرهم . وبعد يومين سمعت أنهم غادروا إلى اورلاندو ، حيث يوجد بعض أقاربهم هناك ، تمنيت لو أنهم ذهبوا إلى هناك منذ البداية .

سوَّينا الأمور أنا وماما في جلسة هادئة على المقعد في الحديقة .

اسمع يا شارلي ! قالت لي إن هذا هو شهر عسلنا الذهبي ، ولا نريد أن نفسد الأمور بمشاجراتنا القديمة .

ـ حسناً ! قلت لها : هل تقصدين ما قلته بأن كان عليك الزواج من هارتزل ؟

ـ طبعاً لا ! إذا كنت أيضاً لا تعني ما تمنيت ؟

قلت : أنا ، لقد كنت منهكاً من التعب . وأحمد اللّه أنك اخترتيني بدلاً منه ، لأنه لا يوجد امرأة أخرى ، في العالم أستطيع أن أعيش معها كل هذه السنين .

وماذا بشأن السيدة هارتزل ؟ قالت ماما

ـ «يا لطف اللّه» قلت لها : «تخيلي أن أكون متزوجاً من امرأة تلعب الخمسمائة مثلما تفعل وتسقط طقم أسنانها في صالة «الرك»

حسناً : قالت ماما : إنه لن يكون أسوأ من الزواج برجل يبصق باتجاه النساء ويتحامق في لعب الشطرنج .

بعد ذلك طوقت كتفها بذراعي ، ومسحت هي بلطف على يدي وأعتقد بعد ذلك أننا انزلقنا في عاطفة مفرطة .

بقي يومان لإقامتنا في سانت بيترسبورغ . وفي اليوم السابق لليوم الأخير ، قدمتني ماما إلى السيدة كندال من كنسنغتون/ رود أبلاند وهي سيدة قابلتها ، أيضاً عند اختصاصي الأقدام . وعرّفتنا السيدة كندال بزوجها ، الذي يعمل بأعمال البقالة . ولهذين الزوجين والدان وخمسة أحفاد وابن حفيد واحد . ويعيش أحد أولادهم في «بروفيدانس» بأعالي «الألكس» ، وهو عضو في نادي الروتاري أيضاً .

وقد وجدنا فيهما رفقة ملائمة ، ولعبنا معهما الورق في الليلتين الأخيرتين . كلاهما خبيران : وقد تمنيت لو أننا التقينا بهم منذ البداية بدلاً من الجري وراء آل هارتزل . ولكن آل كندال سيكونون هنا في الشتاء القادم ، وقد نلتقي بهم مرة أخرى إذا قررنا أن نكرر الرحلة في العام القادم .

غادرنا مدينة شعاع الشمس في الحادي عشر من شباط عند الساعة الحادية عشرة صباحاً ، وقد أعطانا هذا فرصة لنرى فلوريدا في النهار فقد كنا قد دخلنا أثناء الليل عند قدومنا .

وصلنا جاكسون ڤيل في الساعة السابعة مساءً وانطلقنا من هناك عند الساعة ٨,١٠ إلى فاينفيل بكارولينا الشمالية ، والتي وصلناها عند الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي ثم إلى واشنطن دي سي عند الساعة ٦,٣٠ حيث توقفنا هناك لمدة نصف ساعة .

عند الساعة الحادية عشرة ودقيقة وصلنا إلى ترنتون . هاتفت ابنتي وزوجها وحضروا لالتقاطنا من محطة القطارات وقضينا الليل في منزلهم ، كان جون يرغب في أن نسهر الليل لكي نروي له ما جرى معنا . ولكن إيدي قالت : لا بد أنكما متعبان . وأجبرتنا على الذهاب إلى الفراش تلك هي إيدي . . . ابنتي .

في اليوم التالي استقلينا القطار إلى موطننا . ووصلنا سالمين معافين بعد شهر واحد من سفرنا .

أظن أنه من الأفضل أن أكفّ عن الكلام . لقد وصلت ماما .

١٩٢٣

جين تومر

القمر الذي يحترق دمه

عن «براري»

-١-

من فوق هياكل الجدران الحجرية ، من بين ألواح الأرضية العفنة ، وعوارض البلوط القاسية الصماء المقطعة بالفؤوس ، في مصنع القطن قبل الحرب ، ظهر الغسق ، ومن فوق الغسق أطل البدر مثل عقدة خشب صنوبر محترقة ، وأضاء الباب الكبير ، مغدقاً نوره برقة على أكواخ العبيد المصطفة عبر الشارع الوحيد في البلدة التي يوجد فيها المصنع . كان البدر على الباب الكبير ، يمثل نذير نحس لنساء العبيد اللواتي كن يرتجلن الأغاني لطرده .

كانت لويزا تغني وهي تطل على قمة التلة ، من مطبخ القوم البيض الذين تعمل لديهم . كان لون جلدها يشبه أوراق البلوط على النموات الجديدة في الخريف . وصدرها صلب وناهض للأعلى مثل جوز البلوط الناضج ، أما غناؤها فيشبه همس الرياح الرقيقة ، وسط أشجار التين . كان بوب ستون الابن الأصغر للقوم الذين تعمل عندهم يحبها .

وعلى طريقة ما ، يعتبر العالم الأشياء ، ورؤية ذلك الوميض الدافئ . الذي يتسلل إلى ذهنها كلما فكرت به ، بدا الأمر وكأنه ربح قلبها . كذلك كان توم برويل ، الذي تدعوه البلدة كلها بالفتى . الكبير يحبها ولكن عمله في الحقول طوال النهار بعيداً

عنها لم يتح له الفرصة لكي يظهر هذا الحب . ورغم قوة ساعديه في ضرب الفأس ، أو على المحراث كان يجد صعوبة في الاحتفاظ بها ، أو هكذا كان يظن . لكن الحقيقة كانت أنه أبقاها مشدودة إلى بلدة المصنع ، أكثر مما كان يعتقد ، كان لونه الأسود يوازن الأمر ويدفع ضد لون ستون الأبيض ، عندما كانت تفكر بهما . أما ذهنها فكان يدور حولهما بغموض ، بينما هي تطل من مطبخ القوم وتغني بعذوبة أمام وجه البدر المحجب .

هناك شيء غريب يحركها ، وبدون أي ألم كانت تحاول أن تعزي الأمر إلى بوب أو توم ، ولم يكن لقاؤها مع بوب في محلة ، مكسر القصب كما كانت تنوي بعد ساعة أو أكثر بالشيء الجديد . أما عرض توم الذي كانت تشعر أنه قادم لها فيمكن وضعه جانباً إلى ما لا نهاية . وعلى حدة لم يكن هناك اهتمام غير عادي بأي منهما ، ولكن لسبب ما كانا يختلطان عندما تحدق بعينيها الخاليتين من التعبير على القمر المشرق .

من هذا الخلط كانت تأتي تلك الحركة الغريبة ، بداخلها ، فترتجف شفتاها ويزداد النغم البطيء في أغنيتها إثارة وهيجاناً .

كانت الكلاب الصدئة السوداء منها والمرقطة ، التي تغفوا في زوايا الشرفات المظلمة أو تجوس خلسة في الساحات ترفع أنوفها في الهواء ، تلتقط تلك الرجفة فتبدأ بإطلاق عوائها الحزين ، لتستيقظ الدجاجات بالقوقأة .

بشكل متقطع عبر المنطقة الريفية ، كانت الكلاب تعوي ، والديوك تصيح وكأنها تنذر بفجر مشؤوم ، أو بصحوة شيطانية .

كانت النسوة يغنين بشهوانية ، كأن أغانينهن أعواد قطن تعطل آذانهن .

نزلت لويزا إلى مدينة المصنع ، جلست منهكة على الدرج أمام منزلها . كان القمر يصعد باتجاه طرف غيمة كثيفة سوف تخفيه بعد قليل :

أيها القمر الزنجي الأحمر !

يا قمر الدم المحترق الآثم !

اخرج من باب المصنع .

- ٢ -

فوق الغسق العميق الخارج من بقعة عارية على طرف الغابة ، ينتشر وميض رقيق على شكل مروحي ، وسط سماء منخفضة تتدلى ، وفي الأجواء كان الهواء مثقلاً برائحة القصب المغلي . هناك حزمة من أعواد القصب ملقاة مثل ظلال موشحة فوق الأرضية ، وبغل مشدود إلى عامود يدور مجهداً حول محور جاروشة القصب ، تحت ضوء مصباح زيتي يتمايل ، هناك زنجي يطعم أعواد القصب في الجاروشة يجلد البغل بالسوط من حين إلى آخر . وصبي سمين ينقل دلاء العصير المطحون الطازج بين الجاروشة وموقد الغلي . البخار يتصاعد من الغلاية النحاسية رائحة القصب الخارجة من الغلاية النحاسية تغمر بشذاها الغابة والتل ، المنحدر نحو مدينة المصنع ، والرجال يتحلقون جلوساً حول الموقد بعضهم يمضغ اللباب الأبيض لسيقان القصب . لم يكن هناك حاجة لوجودهم لأن كل همهم تذوق القصب . واحد منهم كان يتذوق في مدينة المصنع . ومن المدينة يمكن للمرء أن يشاهد الضباب الرقيق ، الذي يقذف من الموقد المتوهج نحو السماء المنخفضة المعلقة .

العجوز دافيد جورجيا يحرك الشراب المركز في الغلاية ، بمغرفة طويلة يسحبها من فترة لأخرى ، ويحافظ على موقده جيداً ، ويروي للرجال الجالسين حول الموقد قصصاً عن القوم البيض ، وعن صناعة الويسكي غير المشروعة ، وعن حصاد القطن ، والفتيات الزنجيات الطيبات ، يريدهم أن يستمعوا له ، ظل توم برويل يعلك بعض سيقان القصب ، يضحك مع الآخرين . إلى أن ذكر أحدهم شيئاً ، عن لويزا وبوب ستون ، عن جوارب الحرير التي قد تكون حصلت عليها منه . صعد الدم إلى رقبة توم حامياً أكثر من الوهج الطافح من الموقد .

هب واقفاً ، حدق في الرجال قائلاً : إنها فتاتي ، ضحك ويل مانغ فخطا توم نحوه وجذبه إلى الأعلى ثم ضربه ضربة أوقعته على الأرض ، ونهض عدد من أصدقاء مانغ للدفاع عنه فاستل توم سكيناً طويل النصل ، ويمكن أن يقطعهم إرباً لولا أنهم ولوا هاربين إلى الغابة ، فاكتفى توم بما فعل ثم انحنى لديفيدجورجيا وانطلق عبر طريق مدينة المصنع .

عندها فقط بدأت الكلاب بالنباح ، والديوك بالصياح ، أحس توم بغرابة الأمر ،

وبعيداً عن المعركة ، وعن الموقد أحس برجفة برد تعتريه . أخذ يرتعش ولحقت به ، رعدة عندما رأى البدر يصعد باتجاه طرف الغيمة ، وهو الذي لم يأبه أبداً بأحاديث النساء العجائز ، أجبر ذهنه على التركيز على لويزا . من الأفضل أن لا يكون بوب ستون ، استدار نحو الشارع ، ورأى لويزا تجلس أمام بيتها فسار نحوها وتمهل وهو يتحسس طرف قبعته المنقطة ، والعجيبة الشكل وقال : إنه يريد أن يقول لها شيئاً ، ثم اكتشف أنه لم يجد شيئاً ليقوله لها ، أو أنه إذا وجد فلن يستطيع أن يقوله . دفع قبضتيه الضخمتين في سرواله ، وابتسم ابتسامة عريضة ثم استعد للانطلاق .

- هل تريدني يا توم

- نعم هذا ما أريده بالتأكيد يا لويزا .

- حسناً ، ها أنا .

- وها أنا أيضاً ولكن الأمر لا يساعد بشيء فهو سيان .

- أردت أن تقول شيئاً . . . .؟

- نعم أردت ذلك بالتأكيد ، ولكن الكلمات هي مثل البقع على النرد ، فهي مهما تلمستها لا تأتي كما تشائين أحياناً ، لا أدري لماذا يبدو وكأن الحب الذي أشعره نحوك قد سرق لساني ، لقد أدركته الآن ، حبيبتي لويزا يجب أن أخبرك بما أشعر به ، أشعر ، أنه يجب علي ذلك لأنك ما تزالين شابة وتذهبين إلى الكنيسة . وأنا لي نصيب مع فتيات أخريات ، لكن أنا بالتأكيد أحبك يا لويزا ، يا صغيرتي كنت أراقبك منذ الأيام الأولى عندما كنت تجلسين هنا أمام بيتك ، وتغنين بطريقة تخلع قلبي . لقد حملتك معي في الحقول يوماً بعد يوم ، وكنت أحرث الأرض وأقلع القطن ، وأنت معي بالتأكيد ، لقد كدت أغلب بارلو بالأمس ، لقد فعلت ذلك ، وفي السنة القادمة إذا وثق فيّ العجوز ستون فسوف يكون لي مزرعة لي شخصياً ، وسأبيع بالات الحصيد ، لأشتري لك ما تحصلين عليه من القوم البيض . الآن من جوارب حرير وأثواب أرجوانية . طبعاً أنا لا أصدق ما يهمس به بعض الناس عن كيفية حصولك على هذه الأشياء . إن القوم البيض دائماً يعطون السود ما يرغبون به ، وهم لا يستطيعون إلا أن يحبوك يا لويزا . إن بوب ستون يحبك طبعاً ، لكن ليس بالطريقة التي يتهامس بها بعض الناس ، أليس كذلك يا عزيزتي ؟

- لا أعرف ما الذي تعنيه يا توم .

- طبعاً لا تعرفين ، لقد ضربت لتوي اثنين من السود . لم أكن أريد القول لهم هذا ، فهم يحاولون صنع شيء من لا شيء ، إلى جانب ذلك ، فالقوم البيض لم يعودوا مخادعين كما كانوا سابقاً . اللعنة ، من الأفضل لهم أن يكونوا كذلك . على الأقل ليس معك ، لأني لا أستطيع تحمل ذلك بالتأكيد .

ماذا ستفعل يا توم ؟

- أقطعهم كما قطعت الزنجي .

- كلا يا توم .

- لقد قلت أني لن أفعل ذلك ، لم أعد أفعل ذلك ، لكن هذا الحديث ليس الآن ، غني يا لويزا غني ، بينما أنا أسمعك وأستطيع أن أمارس معك الحب .

أخذ توم يدها بيده ، وأمام كفه الخشنة الغليظة بدت قبضتها صغيرة رقيقة ، ثم انسل بجسمه الضخم إلى جانبها على الدرج . كان البدر يغرق وسط الغيمة الأرجوانية ، وجاءت امرأة عجوز بمصباح مضيء ، وعلقته على البئر العمومي الذي افترش ظله الضخم ، وسط الطريق في مواجهة توم ولويزا ، ورفعت المرأة العجوز غطاء البئر وأمسكت بالسلسلة ، وبدأت تسحب الدلو الثقيل من الماء . كانت تغني بينما هي تفعل ذلك . الوجوه تنتقل كأنها تتململ بين الضوء والنافذة في غرف الصف الأول من الأكواخ ، كانت ظلال الوجوه تتقاتل على الغبار الرمادي الذي يغطي الطريق ، بعض الوجوه فتحت النوافذ ، وأخذت تشارك المرأة العجوز في الغناء ، تمتمت لويزا وتوم وغنى معهما الشارع كله :

أيها القمر الزنجي الأحمر الآثم !

يا قمر الدم المحترق يا آثم !

اخرج من باب المصنع .

كان بوب ستون يسير بهدوء ، من شرفة منزله نحو عتمة أشجار الماجنوليا والتنوب أمامه ، وقد شحب جلده الأبيض الصافي ، وتوردت خداه . وكأنما يوازن هذا التغير الخارجي ، انقلب ذهنه واعياً . بأنه رجل أبيض . يتخيل بزته مر أمام المنزل ذي الموقد الضخم المفتوح ، الذي كان في أيام العبودية مطبخاً للمستعمرة . رأى لويزا منحنية

أمام الموقد ، فدخل مثلما يدخل السيد وأخذها . مباشرة ، وبصدق وبجرأة لم يكن بحاجة إلى كل ذلك التكتم ، الذي يمر به الآن كان التناقض منفراً بالنسبة له ، فهل فقدت عائلته مركزها؟ يا للجحيم . إن عائلته ما تزال تملك العبيد عملياً ، اللعنة عليهم إذا فعلوا وإلا فلماذا كان يحتاج إلى التواري هكذا؟ ماذا سيظنون به إذا علموا ؟ أمه ؟ أخته ؟ لا يجب أن يذكر لهم أي شيء . لا يجب أن يفكر بهم . ضمن هذا السياق وهناك أمام الغسق احمر وجهه من فعلته ، لا بأس بالقوم في البلدة ولكن ماذا عن أصدقائه في الشمال ؟

كان يراهم منفرين وغير معقولين . لم يكونوا ليعرفوا . هذه الفكرة جعلته يضحك في البداية ، ثم بدأ يشعر بالحرج وعيونهم تحدق به . أحس بضرورة شرح الأمور لهم ، شرح الأمور ! إلى الجحيم ! لن يفهموا إضافة لذلك من سمع عن جنوبي يركع لشمالي أو لأحد . كلا يا سيدي سوف يذهب لرؤية لويزا الليلة ويحبها ، كانت رائعة بطريقتها ، طريقة الزنوج . ما هي هذه الطريقة ؟ اللعنة إذا كان يعلم . يجب أن يعلم ، لقد عرفها لفترة طويلة . هل هناك شيئ في العبيد لا يمكنك معرفته؟ الاستماع لهم في الكنيسة لا يعلمك شيئاً . النظر إليهم والتحدث معهم كذلك ! إلا إذا كان الأمر يشتمل على نميمة ، أو إذا رغبوا في الحديث ، طبعاً حول مواضيع الزراعة والخمر والقمار . لكن هؤلاء لم يكونوا زنوجاً . الزنوج شيء أكثر من هذا ، كم أكثر ؟ شيء تخافه ! أكثر ! كلا يا للجحيم . من سمع من قبل أنه يخاف من الزنجي توم برويل ! أخبره كارتويل أن توم ذهب مع لويزا عندما وصلت إلى البيت . كلا يا سيدي لا يوجد زنجي مع فتاتة ، إنه يحب أن يرى أحداً يجرب هذا ، يا لوقعته ! هو بوب ستون من عائلة ستون في نزاع مع زنجي على فتاة سوداء . في الأيام الرائعة السابقة ، ها ، يا للأيام التي كانت ! لقد اهتز مركز عائلته ، ليس كثيراً على كل حال . لكن بما يكفي لكي يقوم بعبور حقل القصب التابع لليمون العجوز ، ثم عبر الغابة كي يستطيع مقابلتها ، كانت جديرة بذلك ، فتاة سوداء جميلة ، لماذا سوداء؟ لماذا لم تكن فتاة فقط ! كلا كان سبب ذهابه عندها أنها كانت سوداء لطيفة . وصلت إلى أنفه رائحة القصب المغلي ، ثم رأى الوهج القوي الصادر عن الموقد ، وسمع أصوات الرجال المتحلقين حوله ، كان على وشك أن يلتف حول الأرض المكشوفة ، عندما سمع اسمه

يذكر ، توقف وهو يرتجف واتكأ على جذع شجرة وأصغى

– إنه زنجي سيئ ، بالتأكيد إنه سيئ عندما يبدأ .

– لقد دخل توم باروبل ثلاث مرات ، إلى العصابة لقطعه الرجال

– ماذا تظن أنه سيفعل ببوب ستون؟

– لا أعرف ، لم يعرف بعد ، ولكن عندما يعرف . يا ولد !

– لن يقول .

– إن ستون الشاب لا يستسلم بسهولة ، أقول لك هذا لأن دماء قديمة تسري في عروقه .

– هذا صحيح ! إنه سيقاتل بالتأكيد .

– لقد أصبح الأمر حامياً إلى حد بعيد بالنسبة للسود .

– اخرس أيها الأسود ، فأنت لا تعرف ما الذي تتكلم عنه .

كانت أذنا بوب ستون تحترقان ، وكأنما كان يسندهما إلى الموقد . وأحس بحرارة شديدة تشتعل بداخله حتى أن أقدامه بدت وكأنها تقف على جمر مشتعل ، أحس بلسعة تدفعه إلى التحرك بسرعة ، التف حول حافة دائرة النار ، لم ينكسر غصن واحد تحت قدميه ووصل إلى الممر ، الذي يؤدي إلى مدينة المصنع وعبره بغضب ، وفي منتصف الطريق دفعه عمى ، تأجج في داخله إلى أن ينحرف جانباً . أصطدم بحاجز من القصب وأحسّ بأوراق القصب وهي تقطع وجهه وشفتيه ، أحس بطعم الدم فرمى بنفسه إلى الأسفل ، ثم غرز أصابعه في الأرض . كانت الأرض باردة وسحبت جذور القصب الحرارة من يديه . بعد برهة أو ما شابهها عاد إليه إدراكه ، وعادت اليه فكرة أنه يجب أن يرى لويزا ، نهض على قدميه وسار بهدوء إلى مكان لقائهما ، لم تكن لويزا هناك فقد أخذها توم بيرويل ، برزت عروق جبينه . وأخذ اللعاب يرطب الدم المتجفف على شفاهه ، عض على شفتيه وتذوق الدم ، لم يكن الدم دمه بل دم توم بيرويل ، برز أمامه كلب أسفل الممر . المتجه نحو مدينة المصنع ولم يستطع بوب رؤيته ، فتنحى الكلب جانباً لكي يجعله يمر ، لكن غضب بوب الأعمى جعله يتعثر به فسقط على الأرض . وأصابته السقطة ببعض الدوار . نبح الكلب وجاوبه النباح من جميع أطراف المنطقة الريفية ، ثم أخذت الدجاجات

بالقوقأة والديوك بالصياح ، معلنة استيقاظ العيون الدموية في الجنوب . صمت المغنون في البلدة ، وأغلقوا النوافذ ، وسرت رعشة بين الديوك ، وغمر صمت بارد على جسمي توم ولويزا ، قفزت صورة من الظل ، ووقفت أمامهما فنهض توم على قدميه :

-ماذا تريد ؟

- أنا بوب ستون .

- نعم بالتأكيد وأنا توم بيرويل ، ماذا تريد ؟

اندفع بوب نحوه ، ولكن توم تنحى جانباً وأمسكه من كتفه ، ثم رماه أرضاً ووقف فوقه وقدماه متباعدتين .

- اتركني انهض .

- نعم بالتأكيد ، لكن انتبه لما تفعله يا بوب ستون .

عدد قليل من الوجوه في الظلام جذبتها أصوات العراك ، وقفت حولهم نهض بوب على قدميه :

- قاتل مثل رجل يا توم بورويل ، وسوف أهزمك .

ومرة أخرى اندفع نحوه ، ولكن توم تنحى جانباً ورماه أرضاً ووقف فوقه .

- ابتعد عني أيها الأسود اللعين .

- لقد بدأت شيئاً فعلاً ، والآن انهض .

رفعه توم إلى الأعلى راح يكيل له الضربات ، وكانت كل ضربة تبدو وكأنها تحطم شيئاً رقيقاً لا يمكن إصلاحه .

ومن الأسفل مال بوب إلى الخلف ومد يده إلى جيبه وتناول سكيناً .

- هذه هي لعبتي بالتأكيد .

بلمعان أزرق شق نصل السكين ، طريقه عبر حنجرة بوب ستون ، أحس بشعور سقيم وحلو ، وبدأ بعد ذلك الدم في الجريان . ثم أحس بلسعة ألم حادة أسقط السكين من يده ، مرر إحدى يديه على رقبته وضغط بالأخرى على رأسه ، كأنه لا يريد أن يقع . ومن ثم استدار وسار مترنحاً نحو قمة التل باتجاه مدينة البيض . وانسل السود الذين شهدوا المعركة إلى منازلهم ، أطفؤوا مصابيحهم ، أما لويزا التي أصيبت بالدوار فقد كانت في حالة هستيرية ، ورفضت الدخول إلى البيت . انهارت ثم

حاولت إسناد جسدها على خشبة البئر ، اتكأ توم بورويل على البئر . كان يبدو وكأنه زرع هناك .

وصل بوب إلى الشارع العريض ، وركض الرجال البيض نحوه فانهار بين أيديهم وهو يقول : توم بورويل .

اندفع الرجال البيض مثل نمل في عشب ، الصمت خيم عدا أصوات حركتهم المتوترة ، بنادق ، مسدسات ، حبل ، كاز ومشاعل وسيارتين قويتين تحملان كشافات ضوئية ، التقوا جميعهم ، تعالت أصوات الحركات إلى صراخ منخفض ، ولم يعد يُسمع شيء سوى خبط أقدامهم ، على الغبار الكثيف في الطريق ، وسبقتهم حركات صمتهم عبر قمة التل إلى بلدة المصنع . التي أرعبت السود في الأسفل وهي تهدر نحو جدار المصنع ، حيث توقفت . كان توم يعلم انهم قادمون ، فلم يستطع الحراك ثم رأى أضواء سيارات التفتيش تسطع عليه ، سرت في جسمه رعشة التعذيب وتجمد . ثم بدأ بالركض ، وتعالت صيحة من بين الضوضاء وأستدارَ توم وواجههم ، إلا أنهم انقضوا عليه ، وتكالبوا فوقه وتقدم نحوه رجل ضخم ذو وجه أبيض ، كبياض الموت وخدود مترهلة ، وكاد يدخل ما سورة بندقيته في معدته .

- ضع يديك خلفك أيها الزنجي .

وتم تكبيل يدي توم ، ودفعه الرجل الضخم نحو البئر ،

- أحرقوه وعندما تلتقط خشب البئر النار سينزل جسده إلى القعر .

- فليمت هذا الزنجي اللعين مرتين ، ثم دفع لويزا إلى الخلف واندفع الرعاع وكان ضغطهم شديداً جداً .

- اسحبوه نحو المصنع .

تحرك توم في الاتجاه الذي أشاروا إليه ، إلا أنهم أصروا على جره ، ووصلوا إلى الباب الكبير ، وكانوا أكثر من أن يدخلوا جميعهم ، فانقسموا إلى قسمين وداروا حول الجدار كل من جهة ، ودفعه الرجل الضخم عبر الباب ، وضغط عليه الرعاع من الجوانب ، وكانوا يهمهمون ولا يتكلمون ، دقوا عصاً في الأرض وكوموا ألواحاً عفنة من الأرضية ، حوله ثم صبوا الكاز على ألواح الأرضية العفنة ، وربط توم إلى العصا وهو عاري الصدر . كان الدم يسيل من بعض خدوش الأظافر ويسبح على شعر

جسده ، كان وجهه وعيناه كالحجر ، ولولا نَفَسه المنتظم لظن المرء أنه قد مات ، قذفت المشاعل وسط كوم الخشب . وهبت النار وتصاعد الدخان الأسود وصاح الرعاع ثم صمتوا ، كانوا يستطيعون رؤية توم وسط النيران ، ورأسه منتصب مثل حجر أسود ، بدأت رائحة اللحم المحترقة النتنة تثقل الجو ، جحظت عينا توم واستقر رأسه إلى الأسفل . صاح الرعاع وكان صدى صوتهم يسمع على هياكل الجدران الحجرية وبدا كأنه مئات الصيحات ، كأنها صيحات مئات من الغوغاء أصواتهم ترتطم بالجدار الأمامي السميك ، وتنعكس إلى الوراء . انسل شبح صيحة وسط النيران إلى خارج الباب الكبير . لم تسمعها لويزا الجالسة على الدرج ، أمام منزلها لكنها فتحت عيناها ببطء ، رأي الجميع البدر يتلألأ على الباب الكبير . البدر نذير الشر يغمز برقة نحو منازل القوم الذين تعرفهم . أين هم هؤلاء الناس؟ سوف تغني ربما خرجوا لينضموا إليها وربما يأتي توم بورويل . على أي حال كان البدر على الباب الكبير نذير شؤم وكان عليها أن تغني له :

أيها القمر الزنجي الأحمر . آثم !
أيها القمر المحروق بالدم . آثم !
اخرج من باب المصنع

١٩٢٩

ويلا كاثر

يوم ميلاد مضاعف

عن «ذي فورام»

حتى في المدن الأميركية التي تكاد تشبه بعضها البعض، ويبدو الناس فيها كأنهم يعيشون حياة متشابهة ويحملون أفكاراً متشابهة، ويكافحون للحصول على أشياء متشابهة، يبقى هناك أفراد يعيشون خارج الزمن، وكأنهم بقايا من ماض مهلهل النسيج، تجيش في نفوسهم مشاعر القلق من مستقبل مجهول.

عصر يوم معتم من شهر تشرين الثاني، وبينما كان القاضي هامرسلي خارجاً من مبنى محكمة غراي ستون في مدينة بيتسبورغ، صادف في وجهه أحد هؤلاء الرجال الذين لا تعرف في أي موقع تضعهم، أو ربما تشعر بالحرج من مواجهتهم لأنهم لا يريدون أن يسيروا في الطريق التي يجب أن يسيروا بها.

رأى القاضي الرجل يشد الخطوة إلى الخارج، وجهه في وجه الريح، يحمل قبعته الناعمة بيده ورأسه مدفوع إلى الأمام، يجد السير بخطى خفيفة سريعة كأنه عازم على الوصول إلى هدف خاص به، كان يمكن للقاضي أن يتفادى الاحتكاك به لو استدار من الباب الجانبي، ولكن هذا الأمر لم يكن من طباعه ومبادئه.

«صباح الخير... ألبرت» غمغم القاضي كأنه يشعر في قرارة نفسه بالحرج من هذا اللقاء، بينما رفع الرجل الآخر قبعته مطلقاً ابتسامة تعكس سروراً واضحاً وشعوراً بالفخر، مبرزاً رأساً جذاباً صغيراً ناعماً ومحدد المعالم كأنه واحد من هذه

الرؤوس المنحوتة في قطعة فخمة من الخشب الثمين على يد نحات بارع . كان وجهه الحليق الأسمر بلون القهوة الساخنة ، أما عيونه فكانت تضج بالدفء والحيوية ، لم يكن ألبرت في عمر الشباب ولكن ملامحه كانت تنم عن سرعة حركته ، وحتى موقفه أمام القاضي العابس والواقف أمامه بجمود ، كان يفيض بالاحترام والإعجاب .

وحين سأله القاضي عن صحته وصحة عمه ، أجاب سريعاً «عمي ألبرت يحافظ على نفسه جيداً بالنسبة لعمره ، ولكنه ضعيف قليلاً ولا يمكنه تحمل أي نوع من الضغط ، إلا أنه يبقى في وضع سليم طالما هو قادر على المحافظة على روتين حياته . . . سوف يحتفل بعيد ميلاده الثمانين يوم الأول من كانون الأول أما أنا فسأكون في الخامسة والخمسين في نفس اليوم . كما تعلم فقد سموني ألبرت على اسمه لأني ولدت يوم ميلاده الخامس والعشرين» .

همهم القاضي ملتفتاً يمنة ويسرة وكأن هذه الملاحظة لم تناسب ذوقه ، ولكنه أبدى إعجابه بها وأجاب بحماس سريع : «سوف تكون هذه مناسبة بحق ! أحب أن أتذكرها بطريقة ما ، هل هناك شيء مميز يرغب فيه عمك ؟» تمتم القاضي بعد أن سعل سعلة خفيفة .

ضحك ألبرت انجلهارت الشاب ، كما كانوا يدعونه ، ضحكة واثقة كأنه يعتذر عن شيء «أظن أن هناك شيئاً يرغب فيه أيها القاضي هامرسلي ، لقد كنت أفكر أن أجيء إليك لأطلب منك معروفاً ، فأنا سوف أقوم بإعداد عشاء للعم ألبرت بمناسبة عيد ميلاده ،وأنت تعلم كم هو يحب النبيذ الجيد . ولكن مع وجود المسكرات غير الشرعية هذه الأيام من الصعب أن تعثر على نبيذ جيد أليس كذلك ؟» .

«بالتأكيد بالتأكيد» أجابه القاضي بسرعة ، ثم نظر إليه لأول مرة نظرة حادة وتابع قائلاً : «إياك أن تحضر له شيئاً من هذه المهربات ، سأجد له شيئاً في مخزني ، أرجو أن تحضر معك غداً كيساً أو حقيبة ، سأوافيك بعد الساعة الثامنة وسأكون مسروراً لمساعدتك يا ألبرت ، إن من دواعي غبطتي وسروري أن يساعد الأصدقاء القدامى بعضهم بعضاً» . . . فتح انجلهارت الباب الثقيل بسرعة لكي يسمح للقاضي بالمرور (شكراً يا ألبرت) قالها القاضي وانصرف خارجاً .

كانت سيارة القاضي بانتظاره ، وفي طريق عودته من سكويرل هيل أخذ يفكر بعائلة انجلهارت وكان مغتاظاً بعض الشيء . فرغم طباعه التي تبدو صارمة إلا أنه كان رجلاً حنوناً يخبئ في داخله مشاعر عميقة ، كان شديد الوفاء لأصدقائه القدامى وللعائلات التي كان يعرفها سابقاً ، لم يكن يثمن كثيراً صفات النجاح في هذه الأيام ، ولكنه مع ذلك كان يتمنى النجاح لأصدقائه ، ويغتاظ عندما يجدهم عكس ذلك ، فقد اغتاظ من ألبرت لأنه كان يعلن بفخر واعتزاز أنه أصبح اليوم في الخامسة والخمسين من العمر ، إذ أنه بدا وكأنه لا يملك شيئاً آخر ليفخر به ، كان ألبرت آخر الأحياء من أولاد انجلهارت وجميعهم لم يكن لديهم شيء يفخرون به ، فقد فارقوا الحياة في وضع أسوأ مما دخلوها . كانوا يملكون مصنعاً عامراً للزجاج في أعلى النهر وثروة مريحة ومنزلاً أنيقاً يقع قرب المنتزه في اليجني ، إضافة إلى مركز رفيع في المجتمع . . . ولكن ذلك كله انتهى إلى غير رجعة .

كان أوغست انجلهارت رجلاً قوياً يفيض حيوية على الرغم من رأسه الضخم ، وكان صديقاً للقاضي هامرسلي وواحداً من أول زبائنه ، ولكن أولاده الخمسة باعوا المصنع بعد وفاته ، وأضاعوا الأموال في مشاريع فردية حمقاء ، خسروا على أثرها منزلهم الكبير ، وقد أصبحوا جميعاً اليوم في عداد الأموات ما عدا ألبرت ، لقد كان الأجدر بهم أن يكونوا اليوم أحياء يملكون عقارات ومصانع وعائلات ، ولكنهم بالتأكيد كانت لديهم تلك المسحة الألمانية الشاذة ، ومع أن أوغست كان يملك تلك المسحة أيضاً إلا أن ذلك لم يمنعه من الوصول إلى ما كان عليه ، ربما كان هناك خطأ في تربيتهم ، فقد كان أوغست فخوراً بأولاده الأنيقين ، ومغروراً بهم لدرجة الإفراط في التساهل معهم . كانوا دائماً يلعبون الكثير من التنس ويحتسون نبيذ الراين الفاخر إلى آخر المطاف من الموسيقى والسخافات الأخرى ، إضافة إلى كثرة السفر إلى نيويورك مثل ألبرت هذا ! إنك لو سألت أحدهم ماذا فعل ألبرت الشاب بثروته التي ورثها فسيجيبك ضاحكاً : «لقد أنفقها على طريق سكة حديد بنسلفانيا» .

لم يكن القاضي هامرسلي يرى أن ألبرت يمكنه أن يقوم برأسه ، فقد كان يعمل في وظيفة متواضعة في مكتب قسيس المقاطعة ، وكان يعتمد تماماً على هذه الوظيفة ، ولا يملك شيئاً آخر سوى منزل صغير رث في الجهة الجنوبية ، حيث يعيش

هو وعمه . كانت المقاطعة تعتني به من أجل أبيه المتوفى والذي كان ضابطاً لامعاً خلال الحرب الأهلية ، ثم أصبح مواطناً محبوباً قدم الكثير من أجل رفع البطالة عن العمال في المنطقة ، ولكن القاضي هامرسلي ، كان كلما ورد اسم ألبرت خلال حديثه مع القاضي ميريمان يقول بمرارة «لولا أن أصدقاء أبيه ظلوا يتأملون منه شيئاً لما استطاع هذا الفتى أن يعيش» ، ولعل هذا القول يعتبر ثاني أسوأ قول يمكن أن يقال عن رجل ما بعد تهمة قلة الشرف .

يقع منزل القاضي همرسلي في سكويرل هيل ، وسط حديقة تعج بأشجار البلوط القديمة ، كان يعيش وحيداً مع ابنته الأرملة مارغريت بارمنتر . وكان لمارغريت ارتباطات اجتماعية كثيرة ، ولكنها كانت تحرص دائماً أن تتناول العشاء مع أبيها في المنزل ، ولعل هذا كان أقصى ما يتطلبه المجتمع من أي علاقات عائلية ، كان منزل القاضي مريحاً ومجهزاً تجهيزاً جيداً ، ولكن على الطراز القديم ،خاصة تلك المكتبة التي كان القاضي يعيش فيها تقريباً حين لا يكون في المحكمة أو في السرير .

هذه الليلة ، عندما نزل القاضي لتناول العشاء ، كانت مسز بارمنتر جالسة على المائدة وقد ارتدت ثيابها استعداداً لحفلة ساهرة في الخارج . كانت طويلة وأنيقة ، ناعمة وخفيفة الحركة ولكن وجهها كان مثل وجه أبيها يحمل ملامح صارمة وحنونة في نفس الوقت ، إلا أنها لم تكن مثله جامدة الطباع ، تلك الطباع التي تجعل عضلات وجهه تتقلص بشكل احتجاج عفوي على أي شيء مخالف للأصول أو لآلية الحياة ، كانت تتقبل العثرات والحوادث بهدوء ، إن لم يكن بلا مبالاة .

بينما كان الخادم الأسود يشد كرسي القاضي لكي يجلس ، نظر هذا إلى ابنته من طرف عينه قائلاً : «لقد رأيت بعد ظهر اليوم ابن المرحوم اوغست انجلهارت» قالها بصوت غاضب ومتحدٍ .

عندما كانت مارغريت صغيرة كانت معتادة على تقبل تحدي أبيها والدفاع بحرارة عن الشخص الذي سبب له الإحباط أو أثار غيظه ، ولكن مع تقدمها في العمر أصبحت مدركة أكثر لهذا الشعور في داخلها ، وخاصة عندما يأتي الناس بتصرفات تكون دون توقعاتها ، كما أنها أدركت الآن أنه عندما يهاجم والدها بعنف شخصاً ما ، فإن هذا يعني أنه محبط منه ، أو أنه يشعر بالأسف له ، إذ أنه لم يكن يتكلم أبداً

بهذا الشكل عن الأشخاص الذي لا يكن لهم أية مشاعر ، لذلك أجابته بهدوء «حقاً إنني لم أره منذ سنوات ، ربما منذ الحرب ، كيف أصبح شكله يا ترى ؟ رثاً» .

أجاب القاضي : «ليس رثاً كما كان متوقعاً ،ولكن هذا الشخص قد يصل حد العوز يوماً ما» ، ردت مارغريت متنهدة تنهيدة خفيفة :«أخشى ذلك» ولكني أعتقد أنه يملك من الشجاعة ما يكفي لمواجهة هذا الأمر» . هز القاضي كتفيه استهجاناً وقال : «إنه قادم إلى هنا غداً عند المساء ليأخذ غرضاً لعمه» .

أجابت مسز بارمنتر : «إذن سوف تتاح لي الفرصة لرؤيته شخصياً ، لا شك أنه يبدو الآن أكبر مما كان عليه ، ورغم ذلك لا أستطيع أن أتخيله كبيراً في العمر أو مستقراً في حياته» .

قال القاضي : «أرجو أن لا تطلبي منه البقاء ، لا أحب أن أراه يتسكع حولنا ، سوف يأخذ الغرض الذي جاء يطلبه وينصرف ، لقد بلغت به الجرأة أن يخبرني أنه سيصبح في عمر الخامسة والخمسين في يوم الأول من كانون الأول وأنه سيقيم حفلة عيد ميلاد لعمه ألبرت» وهنا سعل القاضي سعلة مؤدبة ، دون أن يتم ابتسامته التي حاول رسمها على شفتيه ، إلا أن شفتيه كانتا تنضحان بالسخرية ، وظهر في عينيه تهكم خبيث .

(هل من المعقول أن يكون قد بلغ هذا العمر ؟) حدقت مسز بارمنتر ثم تابعت «أعتقد ذلك لأننا عندما كنا معاً لدى مسز سيتريت في روما ، كنت أنا في الخامسة عشر ، وكان هو حسب ظني في الثلاثين» سعل القاضي مرة أخرى وقال : «كان من الأفضل له أن يكون في هومستيد» هنا رفعت مسز بارمنتر نظرها إلى أبيها ، كان هذا المكان يبدو سوقياً بالنسبة له ثم قالت : «آه . . . لا أعرف ولا أظن أنهم بحاجة إليه في هومستيد في حين أنه كان مفيداً جداً لمسز سيريت في روما» رد القاضي : «ولماذا كانت ترغب به حولها ؟ معظم الرجال في عائلتها على درجة جيدة من التحصيل والمكانة»

«للحقيقة كانت ترغب دائماً أن يكون هناك تلك الفراشات التي تحتاجها لكي تحوم حول حفلات المنزل ، كان هو خفيفاً في حين أن آل سيتريت وآل دنت كانوا جميعاً من ذوي الوزن الثقيل ، لقد أمضى هناك وقتاً ممتعاً وعلى كل حال فإنه يتكلم

الإيطالية جيداً وهذا قد ساعده الآن ! أليس كذلك ؟ لا بد أنك سوف تطلب مساعدته إذا احتجت إلى مترجم في المحكمة» . قالت مسز بارمنتر . رد القاضي : «ليس كثيراً في الغالب ، إنه يحصل على بعض الدولارات القليلة ، عمل خفيف لشخص كان له مثل ذاك الأب»

بعد العشاء ، انسحب القاضي إلى مكتبته حيث كان موقد الغاز مضاءً ، كان يحمل كتابه وقد برزت بداخله ورقة مروسة موضوعة في الصفحة التي توقف عن قراءتها في تمام الساعة العاشرة والنصف من الليلة السابقة ، ذهب إلى الباب الرئيسي وهو في طريقه إلى المكتبة وفتحه وأشغل ضوء الشرفة ، ثم تفقد ميزان الحرارة وسجل شيئاً في دفتر ملاحظاته ، بعد دقائق قليلة جاءت ابنته مرتدية ثياب السهرة ، وقفت على باب المكتبة وتمنت له ليلة سعيدة ثم انطلقت باتجاه الرواق السفلي و بقي هو مصغياً إلى صوت إغلاق الباب وراءها ، لكي يطمئن ، كان يحب أن يخلو لنفسه ولكتبه في منزله القديم ، فقد كان شخصاً غارقاً في روحانيته وفلسفته وفي تاريخ شمال أمريكا أيضاً .

بينما كان القاضي هامرسلي يقرأ كتابه بهدوء ، كان ألبرت أنجلهارت جالساً على مقعد البيانو في منزله يعزف لعمه مقطوعة كرايسلريانا لشومان ، مرتدياً بذلته الحمراء المخملية .

كانت أسرة أنجلهارت تعيش في بيت مؤلف من طابقين يقع في منطقة تعتبر شاذة في المدينة ، على أحد الشوارع القذرة المتفرعة من شارع كارسون كثيرة الضوضاء إلى أعلى التل ، ويعود المنزل المخصص لسكن الطبقة العاملة لشخص كان يعمل لدى والد ألبرت ثم استولى عليه ألبرت مقابل دين ، في ذلك الوقت كان هذا المنزل لا يعني شيئاً أمام القصر الفخم والمبني على الطراز الألماني قرب منتزه اليجني ، حيث كانت تعيش أسرة أنجلهارت كما كانت الأسرة تملك بالإضافة إلى هذا المنزل مصنعاً للزجاج وعدداً كبيراً من المباني غيره ، وعندما قام الأبناء ببيع ممتلكات العائلة وأراضيها وتحويلها إلى نقود بعد وفاة الوالد ، لم يفطن أحد لهذا البيت الصغير المنسي في المنطقة الجنوبية ، لذا بقي البيت بدون بيع إلى أن اكتشفه ألبرت وهو الابن الوحيد الذي بقي حياً وكان هو الشيء الوحيد الذي يملكه في هذه الدنيا بالإضافة إلى

ممتلكاته الشخصية ، لذلك أخذ عمه الذي كان يعاني آنذاك من إحباط مدمر ويرغب أن يتقاعد من مهنة الطب وأسكنه معه في هذا البيت .

لم يكن مجيئه إلى البيت نتيجة مزاج يائس ، فالفقر لم يداهمه فجأة بل جاءه بالتدريج وقبل أن يمتلك هذا البيت ، كان يعيش في بيت بالإيجار لذلك جاءت النقلة بالنسبة له ارتفاعاً في مستوى المعيشة وليس انخفاضاً ، كان مسروراً جداً بامتلاكه بيتاً مرة أخرى ، بيتاً يضع فيه أثاثه وكتبه وصورة هي أثمن ما يملكه في الوجود ، لأنها تحوي تاريخه وتاريخ أسرته ، فهي تمثل بالنسبة له جزءاً من شخصيته . . . فصباه وشبابه وسنين عمره التي مرت ما تزال معلقة بهذه الأشياء .

كان ألبرت يبدو أنيقاً حين يجلس إلى البيانو الموضوع تحت رسم (فتيات الباليه الثلاثة في البار) لديجاس أو حين يتمركز على طاولة الكتابة المزخرفة الموضوعة برفق فوق السجادة الجميلة ، كان لديه مجموعة كبيرة من الكتب ذات الطابع الشخصي ، والتي على الرغم من مظهرها الحديث ، كانت قديمة وتعود إلى ماضٍ بعيد فقد ولت روح الإثارة والتمرد التي كانت تسببها وربما بقي البعض منها في الذاكرة ، ولكن قدرتها على استنفار الشباب واستثارتهم لم يعد لها وجود ، كان لديه مجلد كامل من الكتاب الأصفر ، من يستطيع استخراج السم الحلو من مثل هذه المجلدات اليوم ؟ كما كان يملك حقيبة رسومات أودري بيرسلي . . . المدرسة الرمزية كما كانوا يسمونها ومجلداً أنيقاً يحوي الأعمال الكاملة للشاعر الحديث أر نست داوسون ، وحتى كتب أوسكار وايلد التي ذهب سحرها وأصبحت تبدو اليوم وكأنها قبعة رثة من العهد الفيكتوري استخدمت بما فيه الكفاية ، ثم ما لبثت أن ذوت بعد أن ضاعت زينتها .

كان ألبرت وعمه يحتلان الطابق العلوي من المنزل أما الطابق السفلي فكان مؤجراً لألماني عجوز يعمل في حفر الزجاج ، وكان في السابق عاملاً في مصنع أوغست أنجلهارت ، أما زوجته فكانت طباخة ماهرة ترسل لهم الطعام ساخناً كل ليلة ، كان المنزل يطل على الشارع مباشرة ، ولكي تصل إلى شقة ألبرت كان لا بد من عبور ممر ضيق على جانب المنزل يرتقي إلى أدراج خشبية في آخره ، كان لدى ألبرت وعمه في الشقة أربعة غرف ، غرفتي نوم وغرفة جلوس أنيقة تستخدم أيضاً لتناول الطعام ومطبخ صغير يتناول ألبرت فيه فطوره كل يوم ، وعند عودته من العمل كانت مسز

رودر تصعد الدرج إلى الشقة لتغسل الأطباق وتنظف البيت وتدخل بعض الفرح إلى قلب الطبيب الجلهارت .

في تلك الليلة ، على مائدة العشاء أخبر ألبرت عمه عن لقائه مع القاضي هامرسلي وعن سؤال القاضي حول صحته ، فرجت أسارير الرجل الكهل وشعر ببعض الفخر والاستحقاق لهذه المجاملة ولكنه لم يستطع إخفاء امتنانه لها .

«هل ما تزال ابنته تعيش معه ؟ إنها امرأة فاتنة» تمتم الطبيب مخرجاً الكلام من بين أسنانه ، كان العم ألبرت بصفته أعزب ، خبيراً ضليعاً في شؤون النساء في أيامه .

مباشرة بعد العشاء ، كان ألبرت حين لا يخرج للسهرة ، يعزف لعمه ساعة على البيانو ، كان عازفاً ماهراً . . . وكان عمه يجلس قرب النار ، ويدخن سيجارة ويستمع وقد غابت عن ملامح وجهه ، تلك النظرة الحكيمة التي تعكس هيبة مهنته ، وتغيرت هذه الملامح وبدا وكأنه يعرض مسرحية صغيرة لنفسه ، ينتابه خليط من الأمزجة من السخرية إلى التحدي ، إلى تفاهة خليعة فحزن وجداني يخلق فيه نوعاً من الوحدة والانعزال ، كان الطبيب دائماً يطري نفسه بأنه يشبه أحد آلهة الإغريق ، لأن أذنيه كانتا مدببتين عند الطرف قليلاً كما كان يلمّح للأولاد بأن هذا يعتبر دليلاً على مزاجه العاشق ، أما أسنانه الصفراء الطويلة فقد كانت تزدحم في فمه بشكل غير منتظم يطبق عليها ، كلما أراد أن يشجب قطعة من الفن الحديث ، أو من التعديل الثامن عشر ، كان لديه شاربان قصيران مفتولا الأطراف ، أما شعره الرمادي الكثيف فكان يقصه خفيفاً ويوقفه بخشونة على الطريقة الفرنسية ، وكانت يداه صغيرتين أنيقتين . ويحمل في رقبته قرب الحنجرة أثراً عميقاً لجرح طويل ، يدعي أمام أولاد أخوته الشباب أنه نتيجة لضربه من زوج ثائر . . . طلقة مسدس في الظلام . . . ولكن أخوه أوغست كان يقول دائماً أنه أثر جرح من زجاجة خمر أصابته عندما وقع على حاجز زجاجي بينما كان يتجول في الحديقة وهو ثمل .

بعد أن عزف لشومان ، انتقل ألبرت بدون أن يتوقف ليعزف لسترافنسكي ، تحرك الطبيب الجلهارت بصعوبة وهو جالس قرب النار وأدار رأسه الهام نحو ابن أخيه وعض على أسنانه قائلاً :

«هذه المقطوعة تشكو فقراً في الخيال وفقراً في الإبداع الموسيقي . . .إنها تمثّل نهاية القرن» .

ضحك ألبرت وقال له :

«لقد خلتك نائماً ، لماذا تستخدم هذه العبارة ؟ إنها تدل على معدنك ليس هناك أفضل من هذا ؟ ثم بدء يعزف لحناً ثانياً من مقطوعة بيلياس وميليساندي نكس الطبيب رأسه قائلاً «هذه أفضل رغم أني لا أنفعل بها كثيراً ، نفض أنفه قليلاً كأنه يشم رائحة ما ، ثم نظر إلى البيانو شزراً وأردف قائلاً» إنها جديدة بالنسبة للغوغاء ولكن بالنسبة لي تعود إلى زمن باخ» . «نعم إذا شئت ذلك» أجابه ألبرت .

كان ألبرت ، شأنه شأن القاضي هامر سلي يغار على وحدته ويرغب بأن يقضي بضعة ساعات وحيداً بين كتبه ، وقد حان الوقت للطبيب العم أن يخلد للنوم ، لذا أنهى موسيقاه بعزف بعض الأغاني الألمانية التي كان العجوز يرغب دائماً بسماعها دون أن يطلبها ، وهنا غاصت ذقن الطبيب في طرف قميصه العلوي واستسلمت عيناه لحزن عميق وبدأت ملامحه تفقد وعيها وكأنها تقلصت بشكل كبير ، كان ابن أخته يعلم أن هذا المزاج هو بداية دخوله عالم الراحة والظلام ، فقد عانى الطبيب انجلهارت من خسائر ثقيلة في أواخر عمره وللحقيقة فقد عانى من الخسائر مرتين .

غادر ألبرت مقعد البيانو ، نهض الطبيب ومشى بتثاقل عبر الردهة ثم توقف عند باب غرفته ، رفع يده كأنه يؤدي التحية العسكرية ثم انحنى انحناءة طويلة حتى لم يعد يظهر منه إلا شيبته الرمادية وأنفه الإجاصي الطويل ، بعد ذلك دخل إلى غرفته وأغلق وراءه الباب . . . . جلس ألبرت يقرأ كتابه ثم ما لبث بعد قليل أن سمع صوت الماء يجري في صنبور الحمام ، فقد أنهى الطبيب حمامه وانسل في فراشه بسرعة قبل أن يصاب بالبرد ، لحسن الحظ كان ينام جيداً ، ربما لأنه كان يحلم بذلك المغني الشاب التعيس الذي كان يدعوه لينور التائه .

III

منذ سنين طويلة ، عندما كان أولاد أسرة انجلهارت يعيشون مع أمهم في المنزل القديم الفخم في اليجني ، بعد وفاة والدهم ، كان الطبيب انجلهارت يمارس الطب في

عيادته القريبة من المنتزه والتي تبعدخمسة دقائق سيراً على الأقدام من منزل زوجة أخيه ، كان في العادة يتناول الغداء مع العائلة بعد أن ينهي عمله الصباحي ، فقد كان لدى العائلة طباخ ماهر وكانت مسز انجلهارت تذهب في الصباح للتسوق في سوق اليجني المعروف بأنه الأفضل في العالم ، كانت تبتاع ما تشاء من الخضار والدجاج والأجبان والنقانق والسمك المخلل والمدخن ثم تعود أدراجها بعد جولاتها يتبعها أولاد يرتدون مرايل بيضاء ، يحملون لها مشترياتها إلى المنزل . كان الجميع يعرف منزل آل انجلهارت المبني من طوب كثير الألوان ، وتعلو الأبراج جدرانه السميكة ، وكان على جهته الغربية زجاج كبير ملون رسم عليه مشهداً للقنال الكبير في مدينة البندقية وكنيسة سانتا ماريا على جهته الخلفية ، أما على واجهته فقد رسم زورق من زوارق البندقية يقوده رجل نحيف ، كان المارة يعلقون دائماً أن أوغست ومسز انجلهارت يجب أن يجلسا في المقدمة لتصبح الصورة كاملة .

تخصص الطبيب انجلهارت في أمراض الحنجرة ، خاصة تلك الحناجر التي كانت تغني ، فقد قام بدراسة كل قصاصة ورق تركها مانويل غارسيا في مخططاته وكل حوار أجري معه ، كما عالج العديد من المغنين وكان يتخيل أنه أنقذ الكثير من الأصوات ، كان هواء بيتسبرغ قاسياً على الحنجرة ، لذا فقد احتاج معظم المغنين المتنقلين إلى العناية الطبية ، وكان معظم قواد الفرق الموسيقية يوصون بالطبيب انجلهارت ، لأنه يغض الطرف عن أخذ الرسوم من المغنين المحترفين ، خاصة عندما كانوا يرسلون له صورهم المزخرفة . درس انجلهارت الطب في نيويورك في الفترة التي كان فيها باتي مغنياً ، وشاء حظه أن يقع بين أصوات جميلة ، تماماً كما يقع مالك الخيل في مجموعة من الخيول السريعة ، أعطته هذه العاطفة لسماع الأصوات الجميلة شعوراً بالتميز وكونه فريداً في مهنته ، كما جعلت منه طوال حياته إنساناً سعيداً وقنوعاً إضافة إلى جعله فقيراً أيضاً .

في ذات صباح بينما كان الطبيب انجلهارت يقوم بجولته الاعتيادية حول المنتزه ، قبل البدء بعمله الصباحي في العيادة ، توقف أمام مدرسة اليجني الثانوية ، فقد سمع غناءً لمجموعة من الأصوات الشابة ، كان الشهر حزيران ونوافذ الكنيسة مفتوحة ، توقف الطبيب بضعة دقائق يصغي إلى الغناء ، ثم أدار رأسه على جهة

أخرى ، وضع سبابته على أنفه الإجاصي الشكل مبدياً نظرة قلقة متسائلة ، فقد سمع من بين الأصوات صوتاً أعقب آخر دقة بيانو ثم ضحكات وضجيجاً ، رأى ولداً يركض على الدرج ، استوقفه الطبيب وعلم منه أن هذا الغناء هو عبارة عن بروفة لتمارين الصفوف اليومية . . . . عندها عاد البيانو إلى العزف «أعتم من الليل وأوسع من البحر» ثانية ، سمع الطبيب هذه المرة نفس الصوت يغني وحيداً .

لم يكن الطبيب على خطأ ، فهذا صوت سوبران وقوي ، وغني ومليء فيه ثقة وسلاسة ودفء ذهبي ،حتى في أدائه العالي ، قبل انتهاء المقطع الثاني وجد نفسه يدخل بخفة إلى الكنيسة ،عندها وقعت عيناه لأول مرة على مارغريت ثيسنجر ، وبما رئاه فيها فتاة ألمانية قوية مشرقة تقف قرب البيانو ، تفيض حلاوة وحيوية ، كأنها قرنفلة مزهرة تتلألأ تحت ضوء الشمس .

كانت الشمس تشع في شعرها الأحمر وفي عينيها العسليتين الصغيرتين ، وعندما انتهت من أغنيتها بدأت ترقص مع أحد الأولاد .

انتظر الطبيب ألبرت عند الباب وبادرها بالسلام بينما هي خارجة تحمل ثوبها وكتبها المدرسية ، قام بالتعريف بنفسه وسألها إذا كانت تقبل دعوة الغداء على مائدة مسز انجلهارت لتغني له .

طبعاً ، أجابت الفتاة فقد كانت تعرف أحد أولاد انجلهارت ولطالما رغبت برؤية نوافذ المنزل الجميلة من الداخل .

ذهبت الفتاة عند الظهر وغنت قبل الغداء ، أبدت العائلة فرحاً وترحيباً شديداً بها ، كانت الفتاة تتكلم لغة ألمانية عادية ، ولكن لغتها الإنجليزية لم تكن جيدة ، كان أهلها أناساً عاديين وأما لهجتها العامية فلم تبد سوقية بسبب بساطتها ، لم تكن تعرف طريقة أخرى للكلام ، عجب الأولاد بها لأنها كانت مرحة وتبدي اهتماماً بكل شيء ، فقد حكت لهم قصصاً عن الأيام القديمة الرائعة عندما كانت تذهب إلى الرقص في ضاحية تيرنر هول ، وعن الرحلات في جوف الغابات الرطبة الدخانية في أعالي اليجني ، ضحك الأولاد من أعماق قلوبهم عندما سمعوا عن تلك المناطق المجهولة التي ذكرتها ، كانت تحمل دفئاً في كلامها يجعل من كل شيء حولها أمراً رائعاً ، حتى كونها طالبة في مدرسة اليجني الثانوية كان شيئاً رائعاً أيضاً .

عادت الفتاة عدة مرات لتناول الغداء مع العائلة ، فقد أحبت الأولاد وأعجبت بالمنزل الرائع ، ولكن الطبيب كان ينظر إليها ببعض الضيق ، كان واضحاً أنها لم تكن تملك أي طموح أو أي أهداف ، كانت تغني لكسب الرضا ولم تكن تتمتع بذكاء كبير ،ولكنها كانت تملك الدفء في قلبها ، والذي كان بالنسبة لطريقة تفكيره أفضل من كل الأدمغة ، أخذها الطبيب إلى مكتبه ، وبخها ونصحها ، وعندما انتهى من الامتحان ، وقف أمام هذا الشيء الفتي الطائش والسعيد ، وأحنى رأسه بطريقته الفريدة قائلاً .

«مسز ثيسنجر ، إن لي الشرف أن أعلن أنك تقفين الآن على عتبة مستقبل لامع عظيم» ، ضحكت الفتاة ضحكة رنانة وقالت «ألست لطيفاً جداً لتتجشم كل تلك المصاعب من أجلي» رفع الطبيب سبابته منبهاً : «ولكن يجب عليك أن تديري ظهرك لكل هذا الطيش وهؤلاء الحمقى الصغار الذين تلعبين الكلة معهم ، يجب أن تقلعي عن هذه السخافات» قالها الطبيب وهو يقف رافعاً رأسه كالديك ، وبالكاد استطاعت مارغريت أن تخفي قهقهتها ، كان الطبيب انجلهارت يرغب بأن يأخذها إلى نيويورك فوراً ، كي تبدأ دراستها الموسيقية ، وكان مستعداً تماماً أن يقوم بتمويل ذلك ، فقد عقد العزم أن يرهن كل شيء على هذا الصوت ولكنها كانت في وادٍ آخر ، طبعاً بالنسبة لها هي فكرة جيدة ، ولكنها كانت مغرمة بزملائها في الصف وأرادت أن تتخرج معهم في السنة القادمة ، إضافة إلى ذلك فقد كانت قد أعطيت منصباً جيداً في فرقة الترتيل التابعة لأكبر كنائس بيتسبورغ على الرغم من أنها كانت ما تزال طالبة مدرسة ، فسوف يتيح لها هذا شراء الثياب الجميلة والحصول على المال لأول مرة في حياتها ولم تكن ترغب أن تفقد ذلك .

طوال فترة الدراسة التالية ، كان الطبيب ألبرت يذهب بانتظام إلى الكنيسة التي ترتل فيها ، يراقبها ويبدي إعجابه بها ، ويحاضر بها ويؤنبها أحياناً ، محاولاً أن يوقظ بعض الطموح العنيف في هذه القرنفلة المزهرة ، لكنها كانت في ذلك الوقت مهتمة بأشياء أخرى على الرغم من صبرها عليه ، فقد تقبلت إخلاصه بطبيعتها الطيبة واحترمت حكمته وتكيفت مع طباعه المسرحية كما كانت تدعوها . . . . عندما تخرجت في حزيران ، لم تكن قد بلغت التاسعة عشرة بعد ، حين هربت بعد حفلة

التخريج فوراً مع أحد العاملين في وكالة تأمين وذهبت لتعيش معه في شيكاغو ، وقد كتبت حينها إلى ألبرت ، «أني أقدر لطفك معي ولكنني سوف أريح صوتي في الوقت الحالي» .

مرت ثلاث سنوات على فرارها ، وذات صباح دخلت مارغريت تيسنجر فجأة إلى عيادته في شارع أرش وبدون سابق إنذار قالت له «أنا الآن جاهزة للدراسة» فقد سارت أمور زوجها على ما يرام وهو الآن مقتنع أنها يجب أن تفعل بصوتها كل ما تستطيع «لقد أصبح صوتي أفضل من قبل» قالت مارغريت وهي تنظر إليه بعينيها الصغيرتين ، كانت تتميز بلون أخضر مصفر في عينيها ، وكأن فيهما مسحة ذهبية ، صدقها الطبيب فوراً وأدرك أنها ، بطريقتها غير المألوفة كانت صادقة تماماً وربما كانت حمقاء ولا تملك خيالاً وقد تنحرف سعادة في تيار حيويتها الدافئ ولكنها كانت صادقة لدرجة لم يشهدها في رجل أو امرأة من قبل ، والآن جاءت إليه وقد أصبحت امرأة حقاً . اصطحبها إلى منزل زوجة أخيه ، كان ألبرت يومها في البيت ، طلب منه أن يعزف ولم تكن هي مخطئة أبداً ، فقد كان الطبيب يشيح برأسه ليخفي فرحه ، أو ربما لمرة أو مرتين ليخبئ دمعة ، كانت عيناه مغرورقتين من الفرح قال لنفسه ، إن الصوت في النهاية شيئاً مادياً ، كبرت ونضجت كالثمرة في الشمس ونضج الصوت مع الجسد .

عندما خرج الطبيب من غرفة الموسيقى إلى المستنبت الزجاجي في الخارج ، وقف أمام آنية زهور فيها نخلة صغيرة وأخذ يخاطبها وقد قلب شفته خلف أسنانه «إذن فقد أخرجناه منك أيها المسافر والآن سوف نلقي بك كما نلقي بليمونة معصورة» .

وعندما عاد إلى مغنيته ، وجدها تخاطبه بجدية من تحت قبعتها الربيعية الليلكية ، قبل زواجي ، عرضت بأن تأخذني أيها الطبيب انجلهارت إلى معلم في نيويورك وأن تقرضني بعض المال لكي أبدأ ، إذا كنت ما تزال عند عرضك فأنا متأكدة أني أستطيع أن أرده لك في مدة قصيرة ، سوف أتبع تعليماتك ! ماذا كنت تقول لي ؟ يجب أن أمتلك طموحاً وقدرة !

حدق بها قائلاً : اكتبي لديك ملاحظة يا غريشتين ، لقد غيرت وصفتي ، هناك شيء سوقي حول الطموح ، الآن سوف نلعب على رهان أعلى ، فالطموح أصبح أرقى

الآن ، كانت إصبعه تشير إلى الأعلى .

في نيويورك ، لم يجد انجلهارت صعوبة في إثارة اهتمام أصدقائه ومعارفه ، ففي خلال أسبوع قدم هذه الجميلة التي تحت حمايته إلى فنانه شهيرة تقاعدت حديثاً من الأوبرا ، وكانت تلميذة لبولين غارسيا فياردوت ، أدرك الطبيب انجلهارت هنا حلم حياته فقد اكتشف صوتاً رائعاً يتدفق غنى وحيوية ، وخلال سنة واحدة تبوأت مارغريت واحداً من أرفع المناصب في كنيسة نيويورك وأصرت على تسديد الدين لمحسنها ، قبل أن تذهب لتتابع دراستها ، كان الطبيب انجلهارت يسافر كثيراً إلى نيويورك لإسداء النصح أو لتقديم الاستشارة والتأمل في كنزه الثمين ، كان يرتجف خوفاً كلما قطع النهر في عبارة جيرسي ، خوفاً من القدر ، كان يقوم بتعداد قدراتها على أصابعه من أجل أن يطمئن نفسه ، فقد كانت ترى فيه رجلاً صغيراً في العقد الخامس من عمره ، واقفاً قرب حاجز العبارة ، برأس منحنية كأنه يخاطب مسرحاً مليئاً بالطلاب ويشد على أصابعه من وقت لآخر .

ولكن القدر ضرب ضربته ، وهذه المرة من زاوية لم تكن واردة أبداً . ضرب الجسد الفتي المشع الممتلئ صح ،ة والذي كان الطبيب يدعوه بفخر حيوية فلاحية . كانت عيادة الطبيب انجلهارت قد بدأت تشهد جموعاً من الأمهات اللواتي كن يحضرن بناتهن لأسماع أصواتهن للطبيب ، لم يكن الطبيب فاقداً لحسن المجاملة ، ولكنه كان يتخلص منهن بأن يقوم بنفض أصابعه في الهواء ثم يهدأ قائلاً : «نعم إن بإمكانها الغناء فلديها صوت جميل» بالنسبة له كان مفعماً بالبهجة والفرح لوجود وردته الجميلة حوله ،كان يفاخر أمام أبناء أخوته بأن إمكانياتها تضاهي كبار مغني هذا العصر فيشبهها تارة بإيما أيمس وطوراً بجيرالدين فبرار وغيرهما من المغنيات .

كانت مارغريت قد أمضت سنتين في نيويورك تقفز من نجاح إلى نجاح . عندما كتبت إلى الطبيب تخبره عن ورم معين أصابها وأن الجراحين يريدون أن يستأصلوه ، سارع الطبيب إلى ركوب القطار التالي إلى نيويورك ، فقد كان مجرد إجراء عملية يعني وقوع أمر سيئ ، ربما ورماً خبيثاً وصل إلى درجة أن مبضع الجراح قد لا يستطيع فعل شيء أمامه ، فقد سبق لجدتها وأمها أن قضتا بنفس المرض .

أمضت مارغريت سنة كاملة في مستشفى للأمراض المستعصية ، وكان الطبيب

يتفاجأ كلما زارها في نهاية الأسبوع بتغيرات سريعة ومرعبة ، بقي طوال فصلي الشتاء والربيع يهيم في مستنقع مظلم ، ربما كان يعاني أكثر من معاناة معبودته ، فقد بقيت هي هادئة يحدوها الأمل حتى النهاية ، ولم تكن تشك للوهلة أنها سوف تتعافى .

كانت تردد على مسامعه ، أنا أعتذر لأنني لم أستمع إليكم حين قررت الفرار مع فيليب . أعرف الآن أنه لم يكن يهتم بي ، أما أنت فقد قدمت لي كل شيء ! لو كنت أستطيع أن أعود بعمري ستة وعشرين سنة إلى الوراء لعشته بشكل مختلف تماماً .

كانت تبدو مستسلمة تماماً في آخر مرة رآها فيها ، ولكنها كانت نبيلة وطيبة المشاعر تقدم الاعتذار تلو الاعتذار لأنها خذلته ، تماماً مثل طفل صغير كسر آنية ثمينة ثم وقف بخجل معتذراً ، بدا جسمها كأنه يشبه جسم طفل ، أما شعرها فقد كان قصيراً جداً بسبب الحلاقة المتواصلة ، ويداها كالخيال رغم مسحة من لون بقيت تجمل خديها .

أرخى ألبرت يدها من يده وسار إلى النافذة ، كانت الدموع تنهمر على خديه ، كان يتمتم «لماذا» «لماذا» ويحدق في الشباك الزجاجي المثبت أمامه دون أن يرى شيئاً ، ثم يعود ليجلس إلى الكرسي بجانب سريرها ، ألقت رأسها الأجرد على ركبته واستلقت وهي تبتسم وتتنفس بنعومة ، قالت له :

«لا أتوقع منك أن تكون من الذين يؤمنون بالحياة بعد الموت ، فالأشخاص العلميين لا يؤمنون عادة بهذه الأمور ،ولكن إذا كان هناك شيء من هذا القبيل ، أعدك أني لن أنساك وسأظل أذكرك دائماً» .

عندما عادت الممرضة لتعطيها الإبرة ، انسحب ألبرت وسار إلى الحديقة المركزية في الخارج وهو يسائل نفسه : «كيف ولماذا» إلى أن عبقت حوله رائحة جميلة تنبعث من شجرة زيزفون مزهرة ، جلس تحت الشجرة واضعاً وجهه بين يديه وبكى كما تبكي النساء ! «لماذا يضيع هذا الغنى والحب والشباب والأحلام ، لماذا تضيع القلوب الطيبة وتغادر صيفها إلى ظلام أبدي ؟ لماذا ؟ لماذا ؟» كان يظن أنه ذاق من الدنيا ما يكفي في السابق ، ولكنه لم يتخيل أن تصل به المعاناة إلى هذا الحد .

جلس على المقعد الخشبي ، كما يجلس رجل ثمل أو رجل يحتضر ، كان يهمهم : «لماذا هذه القسوة يا رب ؟ لقد كانت تعتذر منك» تذكر وجهها النضر وضرب رأسه بقبضة يده ، ثم حدق كالمعذب في السماء من خلال أغصان الزيزفونه التي فوقه ولكن لا مجيب ، أخذ وجهه يهدأ قليلاً وعاد نفسه منتظماً ، راح يتأمل بالسحب البيضاء فوقه ، بعضها يشبه رؤوس الملائكة في لوحات رافاييل ، شعر بشيء فيه ينهض ويجول مع هذه السحب . وعندما عاد في المساء إلى المستشفى ، أخبروه أنها أسلمت الروح بهدوء ما بين الساعة الحادية عشرة والثانية عشرة ، في تلك الساعة كان هو جالساً على المقعد تحت الزيزفونه .

كان ألبرت يحدث الطبيب أحياناً وبعد طول صمت : على كل حال لقد كنت أنا الذي يحتضر ، لم تكن تعرف صراع الموت ، لقد ذهبت في سبات عميق ، كان صراعها يحتدم في جسدي وكان موتها في روحي وداخلي .

IV

في هذه الأيام ، لم يعد انجلهارت العجوز يخرج كثيراً ، كان ابن أخته يأخذه أحياناً في نزهة بالسيارة بيوم أحد مشمس ، ربما حول التلال المحيطة بجبل أوليفيه» أو لزيارة مقبرة تقع حول دير ألماني قديم ، أما حين يكون الطقس مناسباً فكان يسير عند العصر على طول الرصيف المحاذي لباب المنزل حتى يصل أول زاوية في الشارع فيبتاع جريدته وسجائره ، وربما يمشي لمسافة أبعد قليلاً حين ترافقه ألسا الحفيدة الجميلة لربة المنزل ، وفي الصباح عندما تقوم مسز رودر بتنظيف البيت يجلس الطبيب على الشرفة المطلة على الساحة ليستنشق بعض الهواء .

كانت الساحة عبارة عن بناء من الطوب ، بجانبه حوض ماء قديم وصنبور عتيق ، وتحيط بها ثلاث شجرات من نوع الايلنطس الاستوائي . هي آخر ما تبقى لعائلة انجلهارت من الأشجار التي كانت في السابق تملأ المكان إضافة إلى الزهور والبيوت الزجاجية الشهيرة بين معالم اليجني ، كانت الثياب المغسولة تعلق على شكل مثلث بين جذوعها . لطالما كان الطبيب يمتع بصره بالنظر إليها رغم أن نظره كان يقصر عن رؤية الغبار الأسود الملوث بالسخام والمنطلق من مداخن الجيران باتجاه الغسيل المعلق ،

لذا لم يكن يبدي أي انزعاج لمثل هذا الأمر ، بل كان يستمتع في الصيف بالنظر إلى هذا الشجر الصيني وإلى أوراقه الخضراء البليدة التي بالكاد كانت تتحرك في الليالي الرطبة حين يظهر القمر بلون أحمر فوق أسطح المنازل ومداخنها .

أما في الخريف فكان يجلس ليتأمل ورق السرخس الأصفر وهو يتساقط على الرصيف ، واليوم بينما يقترب موعد عيد ميلاده بدت الأشجار جرداً ، وبدا له أنه يفضلها هكذا ، خاصة عندما تتدلى خيوط الثلج على عقد أغصانها الملتوية .

وحينما كان يجلسن هناك مدثراً ببطانيته وعلى رأسه قبعته الثقيلة ، إذ لم يكن يرضى بأية قبعة ، ويخبئ يديه في قفاز صوفي ، كانت تطل عليه إلسا الحفيدة الجميلة وتحضر معها أدوات الخياطة وتتحدث إليه ، «كم تأخرت في خياطة جهاز العرس» كان الطبيب يستمتع بهذا الحديث مع علمه أن هذا يعني أنها ستفارقه قريباً لتذهب للعيش مع عريسها في الجهة الأخرى من اليجني ، أما عريسها ،فكان يدعي كارل ابرلوك ، يبدي بعض الاهتمام بشراء كشك لبيع اللحوم في سوق اليجني وكان يريد أن يتزوج في أسرع وقت ممكن .

كانت مسز رودر عندما تنتهي من تنظيف المكان ، تعود إليه وترفع البطانية عن ركبتيه قائلة : سيدي الطبيب ، حان وقت الذهاب .

IV

في الليلة التالية غادر ألبرت البيت بعد العشاء ، يجرجر حقيبته التي اعتاد أن يستنقل بها إلى نيويورك كلما حل موسم الأوبرا ، توقف أسفل الدرج ليطلب من إلسا أن تحمل أدوات الخياطة وتسلي عمه بعض الوقت ثم نزل إلى الشارع عبر الجسر . مر قرب مطاحن الفولاذ الملتهبة ، ووقف ينتظر عند تلة سوهو ، مرور سيارة متجهة إلى الشارع الخامس ، بدء الهواء يصبح باردا ثقيلاً ثم تحول إلى ثلج ، تمنى ألبرت لو كان مرتدياً معطفه القديم ، فلم يكن يرغب أن يتبلل المعطف الذي كان يرتديه ، بدء يفكر ببعض الأشياء وبدا عليه التردد قليلاً بالنسبة للتاكسي الذي سيقله ، ولكن سيارة الايست أند وصلت فجأة ، فاستقلها باتجاه الطريق الصاعدة إلى سكويري هيل ، بدأ اللون الأبيض يغطي كل شيء ، كان ألبرت على دراية جيدة بمعظم المناطق ، فقد كان

يعيش هناك عدد من أصدقائه ، هنا بيوت حجرية كبيرة تعلوها الأبراج ، مقامة على مساحات واسعة من الأراضي المغطاة بالأشجار الجميلة والشجيرات الخضراء والممرات ، تنحى جانب الطريق على الرصيف الحجري ليتفادى سيارة مسرعة على الشارع المليء بالحصى ، لو رآه القاطنون في تلك البيوت لأشفقوا عليه ، لكنه لم يكن يشفق على نفسه ، نظر إلى النوافذ المضاءة والأنوار الحمراء المنعكسة على الأغصان الوردية المغطاة بالثلج ، أخذ يفكر بزملائه السابقين الذين صاروا يذهبون إلى نيويورك بالقدر الذي كان يذهب هو في شبابه . الفرق هنا أنهم يذهبون لاستشارة طبيب أو لإيصال أطفالهم إلى المدارس أو لدفع فواتير أولادهم الذين أفسدوهم دلعاً ، بدا له أنه حصل من الدنيا على أفضل ما فيها ، فبالنسبة له ، هذه البيوت الضخمة المحاطة بالحديد الشائك لا تعني شيئاً بل هي عبارة عن روتين منزلي ثقيل بكل ما تحتويه من أحقاد واحتكاكات وخلافات عائلية .

كان يشعر بخفة وحرية وهو يتسلق التلة ، بمعطفه الرقيق . . ظل يعتقد أن حياته كانت أكثر متعة من معظم أصدقائه الذين يملكون عقارات وبيوت . كان يعرف كيف يرفه عن نفسه . . . يكفي أنه أشبع روحه من كل أنواع الموسيقى والفنون التي ظهرت بزمانه ، ولا يمكن أن يبدل الآن حياته وذكرياته وخاصة مع معلمه رافاييل جوزيفي بأي من هذه البيوت الفخمة وبحياة الرجال الذين يعيشون ويتعبون ليصرفوا على صيانتها ، ولكن لو ظهر له ميفيستوفيليس شيطان القرون الوسطى من بين الأشجار ، ووقف خلف كتفه يعرض عليه الأموال فلن يتردد . فهو يتمنى لو كان معه مال ولكنه لا يرغب بكل ما يأتي به هذا المال .

وصل إلى منزل القاضي هامرسلي ، الجاثم بين أشجار البلوط ، كان هناك سيارة تنتظر في الممر ، أدخله الخادم الأسود إلى الردهة وفيما هو يهم بدخول القاعة ، رأته السيدة بارمنتر من أعلى الدرج : «آه هذا أنت يا ألبرت ، أبلغني والدي أنك ستأتي الليلة لقد أبقيت السيارة في الانتظار لكي أتمكن من رؤيتك» .

كان ألبرت قد خلع قبعته وأرخى حقيبته ووقف ممسكاً بيدها ، ما زال يحمل تلك الملامح الطيبة كما تتذكره .

«إني سعيد جداً برؤيتك» أجابها بإعجاب كانت تقرأ في عينيه أنه صادق فيما

يقول «إن هذا لا يحصل معي دائماً ، أنه لمن دواعي سروري ودهشتي أن أراك – ظل ممسكاً بيدها – لقد مضى زمن طويل منذ أيام الفيلا سيبيوني أليس كذلك ؟»

وقف الاثنان للحظة تحت ضوء الردهة المسقوفة ، بدت مسز بارمنتر أنيقة جداً ، كان ألبرت يعتقد أنها تملك كل قدرات والدها إضافة لبعض الرشاقة والانطلاق ، كانت مندفعة ولا مبالية إلى حد ما ، بينما كان والدها قوياً ومنكمشاً بعض الشيء وقد ثبت له أكثر من مرة أنها ليست مؤذية أبداً شرط أن لا تكون من الذين يخشون أحاديث النميمة ، كانت تفعل ما يحلو لها والكل راض عنها بينما أبوها القاضي كان من النوع الجامد الصارم .

ضحكت مسز بارمنتر من تلميحه حول ذلك الصيف الذي قضياه في منزل مسز سيريت في روما وسلمته معطفها ليلبسها إياه ، «أتذكر يا ألبرت كيف كنا ننهض باكراً أيام العيد ونسرع إلى باب الحديقة لنشاهد الملك الشاب راكباً على حصانه والحرس حوله ، أتذكر كيف كانت الشمس تلمع على خوذته ، يا للسماء يا ألبرت لقد رأيته في الصيف الماضي ، لقد أصبح هرماً أشيب الرأس .

أجابها ألبرت ، «أتذكرين كيف كنا نريد دائماً الهرب معاً إلى روسيا أما اليوم فلم يعد هناك روسيا ، لقد تغير كل شيء إلا أنت يا مسز بارمنتر» .

«يا ليتني أستطيع أن أفكر هكذا ! ولكنك لم تكن تعرف مسز بارمنتر ، أنا اسمي مارجوري ومازلت أذكر دائماً فترات بعد الظهر السعيدة التي كنت أقضيها معك ومع إخوتك في الحديقة الخلفية لمنزل اليجني ، أريد أن أقول أشياء كثيرة . . . ثم متى ستكون حفلة عيد الميلاد هذه ؟ هل أستطيع أن أرسل بعض الورود لعمك ؟ إنني أتذكر دائماً طيبته وعطفه على المسكينة مارغريت ثيسنجر ، لا أظنه استطاع أن يتغلب على هذا ولكن أعتقد أنني تأخرت عن الموعد ، تصبح على خير ، سوف أرسل لك رسالة .»

انحنى ألبرت وقبل يدها على الطريقة التقليدية القديمة وظل ممسكاً بها للحظة وهو يستنشق بهدوء رائحة العطر على ثيابها ، رائحة ذلك العالم الذي كان ينتمي إليه مرة تم انسل عنه تدريجياً حتى أصبح بالكاد يدركه ، فقط عندما يصطدم وجهاً لوجه بشيء جميل يذكره فيه .

أفلت يدها والتقط قبعته ثم فتح لها الباب وحاول اللحاق بها قليلاً ولكنها دفعته برفق وابتسمت له : كلا كلا إن أبي ينتظرك في المكتبة ، تصبح على خير !

وقف القاضي هامرسلي عند المدخل ، يهز بمجموعة من المفاتيح وعيناه ترمشان بضيق فهو يريد أن ينهي هذه الخدمة بأسرع وقت ، كان باب المكتبة مفتوحاً على الردهة ولم يستطيع إلا أن يسمع حديث ابنته ، كان منزعجاً من نبرتها المتحررة والمنطلقة مع مثل هذا الرجل الذي كان يبدو صغيراً بينما هو في عمر يجب أن يكون أكبر من ذلك ، فقد كان أعزباً في حين يجب أن يكون متزوجاً وكان مفلساً في حين يجب أن يكون في أحسن حال .

فيما بعد ، عندما كان ألبرت ينزل التل حاملاً زجاجتين من أفضل أنواع الشمبانيا ، أهداها القاضي هامرسلي إلى عمه ، كان يفكر أن من أكثر السيئات التي يأتي بها الفقر أو الهبوط إلى الطبقات الدنيا ، هي فقدان فرصة مقابلة النساء الجميلات الجذابات !! لم يكن يهمه لو لم يقابل رجالاً ولكن النساء؟ خاصة اللواتي على شاكلة مارجوري هامرسلي ، يتواجدن دائماً حيث توجد النار الكبيرة ، المال والنجاح والبيوت الفخمة والقوارب السريعة والسيارات الفرنسية . . . إن هذا أمر طبيعي .

أما مسز بارمنتر ، فقد عقدت العزم وهي منطلقة في السيارة ، على رؤية ألبرت وعمه ، وتساءلت كيف أمكنها أن تترك صديقاً قديماً مثل هذا يغيب عنها كل هذا الوقت ، عندما كانت طفلة صغيرة ، كانت تقضي أحياناً أسبوعاً كاملاً مع عمتها في اليجني ، كانت تحب عمتها كثيراً وتكره أولاد عمتها في نفس الوقت ، وكانت تنسل دائماً كلما استطاعت إلى حديقة آل انجلهارت التي تبعد عنهم مسافة قليلة ، لم يكن يوجد عشب في تلك الحديقة ، فالعشب يجلب معه دائماً القذارة ، كانت الحديقة مبلطة بأحجار لامعة ومحاطة بسياج من الورود الليلكية الجميلة التي تزهر في الربيع وأشجار البار باريس الحمراء في الخريف ، وكان هناك دائماً أقفاص العصافير والورود والظلال المقلمة ، والأولاد الذين يرتدون ثياب التنس وشراب النعناع المنعش قبل الغذاء ، وشرب القهوة في ظل أشجار الجميز بعد العشاء .

كان أولاد عائلة انجلهارت يختلفون عن باقي الأولاد وكأنهم خرجوا من كتاب أو

مسرحية ، كان معظم الفتيان في منطقتها يستهزئون بالفتيات إلى أن يرغبوا في واحدة منهن وعندما يتمكنون منها ينتهي كل شيء ، ولكن فتيان عائلة انجلهارت كانوا يعجبون بالفتاة دون محاولة إيذاءها ، وكانوا هم معجبين بجمال مارجوري كما يمكن أن يقال ، أما هي فكانت مغتبطة جداً لهذا الشعور .

في الساعة الرابعة عصر يوم الأول من كانون الأول ، غادر ألبرت عمله في مكتب قسيس المقاطعة وهو يشعر كأنه طالب يغادر المدرسة في منتصف عصر اليوم السابق لعطلة عيد الميلاد ، كان تفكيره مشغولاً بحفلة ميلاد عمه ، لم يكن عيد ميلاده هو يمنحه أية متعة . عبر جسر شارع سميث فيلد ، كان هناك غيمة بنية كثيفة تظلل المنطقة بالسواد إضافة إلى رائحة الثلج في الهواء ، وكانت الأضواء قد أشعلت عبر المنحدرات الشاهقة لجبل واشنطن القابع فوق النهر ، عندما كان ألبرت فتى صغيراً ، كانت تلك الأضواء المصفوفة على طول المنحدر تبدو وكأنها في أعالي السماء ، تذكره بمدينة غارقة في الغيوم في إحدى دول قارة آسيا البعيدة ، كان يحب أن يطلق عليها اسم المدينة المنسية ، ولكن هذا كان شيئاً قديماً ، أما الآن فهناك الكثير من المياه التي تجري أسفل الجسر وقد سقطت ممالك وإمبراطوريات منذ ذلك الزمن !! كان العم الطبيب ما يزال في البيت ولم تكن الأمور تبدو سيئة والأفضل له أن لا يسرف في التفكير ، ركب السيارة وأزاحت له المرأة العجوز مكاناً بين السلال المليئة التي ابتاعتها للتو من السوق ، وصل ألبرت إلى المنزل ،كانت المائدة جاهزة في غرفة الطعام وغطاء الكتان هو ما تبقى من إسراف أمه أيام الخير ، يزين المائدة ، كان لديه الكثير من هذه الأغطية حتى أنه أراد أن يهدي بعضها إلى إلسا يوم زواجها ، فقد كانت مسز رودر تعتني بتنظيفها عناية فائقة ، وضعت مسز رودر أفضل أطقم الفضة على الطاولة ، أراد هو أن يحضر بعض الورود ولكن المرأة العجوز كانت قد سبقته بإحضار بعض أزهار الجيرانيوم الأحمر ووضعتها وسط المائدة ، كان العم ألبرت يغفو قرب الموقد ويرتدي بذلته السموكن وعلى ركبته مجلة لشيلر .

«سوف أضع لك أزرار القميص يا عماه فقد حان الوقت لكي ترتدي ثيابك» ابتسم الطبيب في وجه ألبرت قائلاً بابتهاج «بدلة السهرة الرسمية»

طبعاً بذلة السهرة الرسمية أجاب ألبرت ، إن إلسا وكارل ذاهبان إلى حفلة تنكرية

وسوف يمران لرؤيتك قبل الذهاب ، لقد وعدتهما أن تكون في أكمل حلتك .

ألبرت نادى الطبيب وهو يبتسم ابتسامه خفيفة ، من أين جئت بهذا النبيذ ؟؟

آه أراك قد عثرت عليه أخيراً ؟ عندما وضعته مسز رودر في الثلج أليس كذلك؟ أنه أفضل ما لدى القاضي هامرسلي ، لقد أصر أن يهديها إليك مع تحياته .

نهض العم ألبرت ورفع كتفيه إلى أعلى بغرور ، أرى أني ما أزال معتبراً من أصدقائه ، ثم نظر إلى ابن أخيه نظرة جانبية طويلة : «يا الله إن مثل هذا الشيء سيترك شعوراً جيداً وهو يجري في المريء .

أجاب ألبرت الشاب فوراً : سوف يكون لك ما تريد إنها مناسبة عظيمة ! هل حلقت ذقنك جيداً ! سوف أذهب لأستحم وأعود لأراك جاهزاً .

عاد ألبرت بعد نصف ساعة مرتدياً ثيابه ، كان عمه ما يزال يقرأ لشاعره المفضل في غرفة الجلوس ، احتج الطبيب أن البنطلون يبدو كبير الحجم «لماذا لا ارتدي بذلة السهرة مع بنطلوني القديم ؟ لن تلاحظ إلسا ذلك !»

طبعاً سوف تلاحظ أجابه ألبرت ، إنها تراك فيه منذ خمسة سنوات ، هيا أسرع وغيره بسرعة .

استسلم الطبيب انجلهارت وعندما ارتدى بنطلونه الجديد ، نظر بارتياح إلى نفسه في المرآة رغم أنه قام بتبديل المحرمة التي توضع في جيب البذلة ، بواحدة غير تلك التي أحضرها ألبرت له ، وعندما عاد إلى غرفة الجلوس كانت مسز رودر قد وزعت أقداح النبيذ ، ما زال الوقت مبكراً على موعد العشاء لذا جلس ألبرت بعزف لعمه بعض المقطوعات على البيانو وقد بدء ينتابه شعور بأنه قد فعل كل هذا من أجل لا شيء ! كان هناك قرع خفيف على الباب ، دخلت إلسا مع رجلها الشاب ، كانت تتنكر بزي صبية بولندية أما كارل فكان يرتدي التنورة الإسكتلندية التي يشتهر بها أهل الجبال .

«تهانينا» : بادرته إلسا «يوم عيد ميلاد سعيد أيها الطبيب ، لقد أحضرت لك بعض الورود ، ثم انحنت لكي يقبلها واضعة الورود بين يديه .

وقف الطبيب يحدق في الورود وقال مازحاً ما هذا ؟ هل تظنين أنني بونابرت؟ ما هي وردة موسوليني يا ألبرت ، أخبرنا أصدقاؤك في روما ، أن الدكتاتور يجب أن

يحمل دائماً وردة ، ثم التفت إلى الفتاة وداعبها على كتفها قائلاً : «إنها نكتة قديمة ، ولكن هذه هي الموضة اليوم أن الرجل سوف يظل يرغب في أن يمتلك شيئاً دائماً إلى يوم تتجمد جهنم أليس كذلك يا كارل ؟ قالت الفتاة ضاحكة كان كارل شاباً عريض الوجه ، باسماً وله أذنان كبيرتان ، وقد هم بالإيجاب إلا أنه سكت فجأة فقد دخلت إلى الردهة امرأة جميلة ، تراجع كارل ليخفي ركبتيه المكشوفتين أما إلسا فتراجعت إلى الوراء وهي تلتقط أنفاسها .

وبدون أن تقرع الباب ظهرت مسز بارمنتر على المدخل وفي يدها باقة كبيرة من الورد ، كان يقف خلفها سائق سيارتها وهو يحمل طرداً ، «ضعه هنا وانتظرني خارجاً» قالت له مسز بارمنتر ثم انسلت إلى الغرفة وقبلت الطبيب انجلهارت بدون أن ترخي باقة الورد من يدها أو تخلع معطفها «لقد جئت لأبارك لك شخصياً ، أخبروني أنك تستقبل الناس هنا أرجوك أن تتقبل مني هذه الباقة من الورد» . ألبرت أريد أن أتحدث برهة مع الطبيب انجلهارت .

وقف الطبيب بوقار كأنه في مسرحية ، كانت ورود البنفسج ما تزال في يديه ثم رد عليها بأفضل انحنائه لديه وقال لمن ؟ لمن أنا مدين بكل هذا الاحترام والتقدير؟

إنك لست مديناً لأحد إلا لشخصك المميز ، لقد كنت دائماً مميزاً بين الرجال الذين عرفتهم .

احمر وجه الطبيب خجلاً ، فقد ترك عليه هذا الإطراء أثراً مضاعفاً ولكنه لم يكن ينسى في غمرة هذا الشعور ملاحظة صديقته إلسا وهي تنسل مع زوجها عبر الدرج الخشبي ناداها بصوت آمر : «إلسا عودي إلى هنا وقبليني قبلة المساء ثم جذبها نحوه ليقدمها إلى مسز بارمنتر ، هذه الجميلة هي إلسا رودر وهي صديقتي الحميمة) كان يجب أن تشاهدي شعرها الفاتن قبل أن تقصه ، احمر وجه إلسا وحدقت في السيدة لترى إذا كانت قد فهمت مقصد الطبيب ، قبلها الطبيب في جبينها وأجرى يده على رأسها الصغير ، تسعة عشرة سنة ، قالها بنعومة ثم أردف : (لو جاءت التسعة عشرة سنة القادمة بمثل هذه السعادة فلن يهمنا ما تبقى) .

(شكراً أيها العم الطبيب) قالتها إلسا وودعته (تصبح على خير) .

بعد أن غادرت إلسا ، التفت الطبيب إلى مسز بارمنتر وقال : إن هذه الفتاة

الصغيرة هي وردة في الشتاء ، إنها وريثتي ، سوف أترك لها كل ما أملك .

كل شيء ما عدا هديتي لك في عيد ميلادك ، أرجو أن تشربها بالكامل لقد أحضرت لك زجاجة شمبانيا ، قالت السيدة بارمنتر .

ضحك ألبرت وعمه (ولكن أباك سبقك وأحضر لنا زجاجتين !)

نظرت مسز بارمنتر إلى ألبرت وعمه ثم أردفت (أبي . . حسناً إن هذا إطراء لي لم أكن أعرف ذلك ، طبعاً كلانا نملك خزانة منفصلة عن الآخر ولم نكن لنتفق متى سنفتحهما ، لا أظن أنه فتح خزانته منذ عشائه الأخير مع رئيس المحكمة ، سأترككما الآن أظن أنكما ستكونان سعداء جداً بوجود ثلاث زجاجات ، لقد أخبرتني السيدة الفاضلة في الطابق السفلي أن عشاءكما سيكون جاهزاً خلال نصف ساعة .

تقدم الرجلان نحوها قائلين : «أرجوك أن لا تذهبي ، ابقي معنا على العشاء إن هذا أكثر شيء يفرحنا) ، حاول ألبرت أن يطريها ببعض الكلمات الإيطالية ، وهي لغة لا يفهمها عمه ، اعترف لها أنه تجمد في الساعة الأخيرة ، لم يستطع أن يتمم . . . فالأمر يحتاج إلى دفء امرأة جميلة .

شكراً ألبرت ، وتابعت لدي ارتباط على العشاء ، يجب أن أكون في هذه الدقيقة في آخر شارع السن وارث .

«إن هذا الأمر لا يأتي إلا مرة في العمر ، ولكن إذا كان أصدقاؤك بانتظارك أظنك لن تستطيعين البقاء ، كما تشائين» ، تناول ألبرت معطفها ووقف ليلبسها ، كان وجهه مخطوفاً وبدا مختلفاً كأنه منهك من التعب ، أدخلت مسز بارمنتر يدها في المعطف ثم سحبتها قائلة ، «لا أستطيع أن أترككما ، سوف أرسل السائق مع ملاحظة لأصدقائي أني سأوافيهم بعد العشاء» ضغط ألبرت يدها ممتناً ورافقها إلى المكتبة «آه يا ألبرت مكتبك الإيطالي هذا وكل الأشياء الجميلة ، تماماً كما كانت في فيلا سكيبيوني ، لقد كنت تكتب لي الرسائل من هناك ، كانت لك طريقة لطيفة مع الصبايا ، لو كان لدي ابنه لرغبت أن تعيد الكرة معها مرة أخرى .

كتبت ملاحظة على الورقة ، كان ألبرت قد أفسح مكاناً ثالثاً على المائدة ، لاحظ أن عمه قد خرج من الغرفة ثم عاد وقد عدل من استقامة ربطه عنقه ورش وجهه ببعض الكولونيا .

بينما كان ألبرت منهمكاً بإشعال الشموع وإحضار النبيذ ، جلست مسز بارمنتر بجوار الطبيب الذي أشعل سيجارة وقدمها لها ، بدأت تتكلم ببساطة وهدوء عن مارغريت ثيسنجر ، لم تكن لتكون أكثر ذوقاً من هذا ، كان ألبرت يعلم أن لا شيء في الدنيا يجلب السعادة للعجوز في عيد ميلاده مثل الحديث عنها .

لم يكن ألبرت يستطيع أن يفعل شيئاً ، فقد خارت قواه من الحديث عن هذه القصة المحزنة ، حاول أن يعزف بعض المقطوعات التي كانت تغنيها على البيانو .

تحدثت مسز بارمنتر وهم جالسون على المائدة : «ألبرت أن هذه البقعة هي الوحيدة في العالم التي أعرفها قبل الحرب ، إن لديكم هنا حقبة مخبأة من التاريخ ، آخر عشر سنوات من القرن وأول عشر سنوات من الذي يليه ، حين أجلس هنا ، لا أعود أصدق أن هناك طائرات أو موسيقى جاز أو تكاعيب سحرية . أصبح والدي بعمر الطبيب انجلهارت ولم نقم بشراء شيء جديد ولم نحتفظ بشيء من الماضي ، كيف تمكنتم أنتم من فعل ذلك ؟ ابتسم ألبرت بحسرة وقال : أظن أن السبب هو أنه لا يوجد بيننا جيل جديد من الشباب ، فهم الذين يأتون بالأشياء الجديدة» .

«ولكن يوجد لدينا إلسا» أجابه الطبيب ، «ولكن أظن أنها ما تزال طفلة» .

إني آسف لجيل هذا اليوم من الشباب فهم خشنون في معاملتهم ويعانون من المرارة ، لم يبق لهم شيء جميل في هذا العالم ، فالحرب دمرت كل شيء ! أين يمكن لأي فتاة أن تجد بيتاً مثل بيت أمك تهرب إليه ؟ بيت مليء بهذه الأغطية الجميلة ! البيوت كلها أصبحت كالفنادق ، لم يبقى فيها شيء نثمنه ! لقد كان بيتكم رائعاً مع كل هذه الموسيقى ، هل تذكر يوم أخذتني لأستمع إلى جوزيفي وهو يلعب مع جيريك البراهما الثانية ، لقد كانت آخر مرة أسمع فيها عنه ، ماذا حدث له يا ترى ؟ لقد انتهى بطريقة ما أليس كذلك ؟» .

تنهد ألبرت وأطرق برأسه ، كانت الخمرة قد بدأت تلفُّه بشعور لذيذ من الحزن الشاعري : «لا أدري إذا كان هناك أحد يعرف ، لقد بقيت طويلاً في روما لكي أعرف شخصياً ، وقبل أن أترك كنت أتلقى بعض الدروس معه ، لم يتغير به شيء سوى أنه أصبح يقلل من حفلاته الموسيقية ، وعندما عدت كتبت له من نيويورك ، كان يعيش يومها في هدسن وقد تلقيت جواباً من مدبرة منزله تقول فيه ، أنه لم يعد يعطي

دروساً وأنه مريض ولا يرى أحداً ، وقد زرته مرة ولم يدعني أحد إلى الدخول ،بل انتظرت في الحديقة لمدة طويلة قبل أن يخرج إلي مرتدياً ثيابه البيضاء كالعادة وقبعة بنية ويحمل عصاً صغيرة ، سلم علي وسألني عن مسز سيريت ، كان رجلاً آخر لقد شعرت أنه انتهى ، وأنني كنت أتحدث إلى صورته فقط»

«إنها المخدرات» تمتم الطبيب من زاوية فمه .

«كلام فارغ» أجاب ألبرت ساخراً «ربما كان يتعاطاها ولكنها لم تكن السبب الرئيسي ، كانت نتيجة ولم تكن سبباً ، لقد كان يرى الجانب الآخر من الأشياء ، لقد حصل شيء في دماغه ، ولكن ليس شللاً» .

انحنت مسز بارمنتر إلى الأمام قائلة (هل كان يبدو كما كان سابقاً ؟ كان يملك بالتأكيد أكثر الرؤوس أناقة في الدنيا هل تذكر جبينه ؟ لقد كان رمادياً وكان لون شعره أحمر كستنائياً على ما أذكر ؟

«ربما رمادياً» أجاب ألبرت ، ليس بالكثير ولكن لم يكن هناك أي تغيير في وجهه ، عيناه فقط ذهب بريقهما أما جسده فكان يجره جراً عندما يتحرك .

«هل كان باستطاعته أن يعطيك درساً» سألت مسز بامنتر .

«كلا» أجاب ألبرت ، قال «إنه لم يعد يعطي شيئاً ، لقد اعتذر ، ولم يعد يقابل أحداً على الإطلاق ، أذكر أنه جلس يرسم بعصاته أشكالاً من الحصى على الأرض ، عبس وقال إنه ببساطة لم يعد يستطيع أن يرى أحداً ، فقد أصبح يكره الوجوه البشرية والأصوات البشرية ، أنا آسف أجابني ولكن هذه هي الحقيقة ، نظرت إلى يده اليسرى الملقاة على ركبته ، لم أكن يا مارجوري أملك القوة لأنهض وأتركه ، لقد شعرت أن كل شيء قد أخذ مني ، نهض هو وأخذ يدي ، أدركت أنني يجب أن أغادر سألته بيأس هل ما زالت الموسيقى تعني له شيئاً ؟ رد علي بشبح ابتسامة ، نعم بعضها فقط ثم غاب في المنزل ، كانت هذه آخر كلمات سمعتها منه .

يا عزيزي ألبرت لقد كان يملك كل الأشياء الجميلة ، حتى اسمه كان ملائكياً أظن أننا سببنا الحزن للطبيب بكل هذه الذكريات ، قم وافتح زجاجة أخرى يا ألبرت لقد أحسن والدي صنعاً ، ولكننا لم نشرب نخباً واحداً بعد ، لماذا لا يشرب كل منا نخب من يحب ، نظرت إلى الطبيب انجلهارت ، وكان منهمكاً باستنشاق باقة الورد

الموضوعة بجانبه ، «نخبك أيها الطبيب الجلهارت» .

وضع الطبيب باقة الورد جانباً وتناول كأسه بهدوء ثم رفعه أمام وجهه ، كانت كل حركة يقوم بها بيديه رشيقة وخفيفة ، ظهرت نظرة رائعة على وجهه بينما كانت مسز بارمنتر تراقبه ، قال ببطء سأشرب لذكرى المرحومة لينور .

أما ألبرت فقال سأشرب نخب شبابي السعيد الضائع .

اغرورقت عينا مسز بارمنتر بالدموع وأخذت تفكر : هل هذا ما يعنيه أن نحب الناس ، أن نحب سخافاتهم وتفاهاتهم ؟ فهذه هي الحقيقة ! ثم قالت بصوت عالٍ : وأنا سأشرب نخب المستقبل ، نخب صداقتنا التي تجددت ونخب المزيد من سهرات العشاء معاً ، إنني أحبكما أكثر من أي شخص في الوجود .

عندما عاد ألبرت إلى المنزل ، بعدأن رافق مسز بارمنتر إلى باب سيارتها ، وجد عمه واقفاً بجانب النار ومتكئاً على حائط الموقد يشعل سيجارة ، قال له بصوت واثق عميق ، «ألبرت لقد كان كل شيء كاملاً الليلة ، نبيذ جيد ، موسيقى جيدة وامرأة جميلة» ضحك ألبرت ، لم يكن عمه ليتفوه بأية سخافات أبداً ، أجابه : لماذا يا عماه أنت ومارتن لوثر . . . رفع الطبيب يده يأمره بالتوقف وعبق وجهه قليلاً ، كان من الواضح أنه لم يكن يعرف أنه يقتبس من قول أحد لقد جاءت كلماته من قلبه «مارتن لوثر ، لقد كان سوقياً من الدرجة الأولى ، توقف قليلاً ليشعل سيجارة أخرى ، ولكنها لا تخدع نفسها من كان مثلها يعرف مَنْ مِن الرجال حقق نجاحاً مع النساء» .

صب ألبرت آخر قدح من الزجاجة وشربه بحرج ، نعم لقد حققت أنت نجاحاً مؤكداً الليلة ، لقد لاحظت أن مارجوري متأثرة جداً ، سوف تأتي لتأخذك بنزهة غداً بعد أن تأخذ قسطاً من النوم بعد الظهر فكن مستعداً .

مسح الطبيب بيديه العصبيتين شعره الكث المقصوص على الطريقة الفرنسية وتمتم بكبرياء (حتى ونحن رميم) .

١٩٢٩

غريس ستون كوتس

الخوخ البري

عن «ذي فرونتيير»

عرفت عن الخوخ البري مرتين قبل أن أتذوقه .

المرة الأولى عندما كانت نساء مدرسة الأحد ذاهبات لقطف الخوخ . أحنى أبي ، يومها كتفيه إلى الأمام وضحك بدون أن يصدر صوتاً وقال : الخوخ البري حبته صغيرة ورديئة ، ثم شرع يخبرنا عن أنواع الفواكه التي تناولها في إيطاليا .

أبدى أبي وأمي دهشتهما ، عندما علما أن السيدة غوير ومعلمة المدرسة ترغبان في الذهاب مع السيدة سلمب لقطف الخوخ . كنت أعلم أن قطف الخوخ لم يكن أمراً لطيفاً بدون أن أعرف ما هو السبب . وأردت يوماً أن أذهب حتى أفهم ما يحصل . توقفت النساء عند منزلنا ليدعين أمي ، التي شرحت لهن بأننا لا نهتم كثيراً ، بالخوخ البري . ولكن والدي قال بأننا نخاف من طعم هذه البذرة المقدسة حتى لا نجبر على البقاء إلى الأبد في المناطق السفلية .

قالت السيدة سلمب هه ؟ إنك لا تأكل النواة ولكنك تبصقها ، ولكن والدي أحنى كتفيه مرة أخرى وضحك تلك الضحكة ، «بدون صوت» والتي كانت تزعج أمي عندما كان والدي يكلم أشخاصاً لا يحبهم ، كان يصنف كلماته تصنيفاً فلا يستخدم إلا الكلمات الناعمة اللطيفة ، شرحت لي أمي السبب وقالت بأنه كان يتكلم الألمانية فقط عندما كان صغيراً .

بعد أن غادرت النساء دخل أبي وأمي في مشاجرة ، كانا يتشاجران بصوت منخفض ، حتى لا أسمعهما . ولكني سمعت أمي تقول قبل أن تأمرني بالذهاب إلى اللعب أن الخوخ البري قد يعطي طعماً لخبز الرتابة الجاف .

والمرة الثانية التي عرفت فيها عن الخوخ البري ، كانت في منزل السيدة سلمب عندما كانت تصنع زبدة الخوخ . قالت إنها لا تستطيع أن تطلب منا الدخول ، لأن الأرضية كانت قذرة بسبب تحريك المربى . لم يكن آل سلمب يستخدمون المقاعد . كانت لديهم علب كبيرة نجلس عليها ، في حين كان الأطفال يجلسون على الأرضية مع الكلاب . وكانوا الوحيدين الذين يملكون كلاباً من بين معارفنا . كنت أرغب في الدخول عندهم فنحن لم نقم بزيارتهم قط . وكنا الآن عند منزلهم لأن والدي أراد استعادة محراث كان قد أعاره لهم . لم يكن والدي ليرغب في أن تبقى ، آلاته خارج المنزل فقد كانت لديه سقيفة يضع فيها محاريثه عندما لا يستخدمها . ولكن آل سلمب كانوا يتركون محاريثهم أينما كانوا يحلون .

كانت السيدة سلمب تقف عند الباب وظهرها نحونا عندما حضرنا . لقد كانت سمينة وترتدي دثاراً وكان دثارها ممزقاً عند الظهر .

خرج السيد سلمب ، وأخذ يكلم والدي وكان طويلاً ونحيلاً . وخرجت السيدة سلمب ووقفت قرب العربة ، وكنت أنا وتيريزا على المقعد الخلفي . كانت تيريزا تكبرني ولها قدمان طويلتان تلمس أصابعهما المقعد الأمامي ، عندما تمدهما . ولم أكن أستطيع أن أفعل ذلك . فقد كانت ترطم المقعد وراء أمي فتلتفت أمي إلى الوراء وتأمرها بالتوقف . ولم تكن قدماي لتصلا إلى مقعد أبي ، لذا لم أكن أفعل شيئاً ولم أضطر إلى التوقف . قرصتني تيريزا .

تسلقت خارج العربة دون أن يؤذن لي ، فأخذت تيريزا تخبر أمي بأني قد خرجت ، ولكنها انتظرت لترى ماذا أنوي أن أفعل . كنت أنوي التسلل خلف السيدة سلمب . فهي لم تكن ترتدي جوارب ، وكانت النسوة في مدرسة الأحد يتحدثن بأنها لا ترتدي ثياباً داخلية أيضاً . وكنت أريد التحقق من هذا الأمر .

نادت علي أمي تأمرني بالعودة ، فقد كانت أمي تعلم ما الذي أفكر به أحياناً دون أن تسألني . وأمسكت يدي بشدة بينما كنت أحاول تسلق العربة ، وقالت لي

بهمس : إنه أمر مخجل . . مخجل . كان رأسها ملتوياً لأنها ظلت تحاول أن تبتسم في وجه السيدة سلمب ، بينما كانت تهز يدي . حاولت أن أشرح لها ولكنها لم تدعني . فدفعني منعها لي إلى الرغبة في أن أقول ما كنت أفكر به ، لكنني لم أجرؤ على ذلك .

قال السيد سلمب بأنه سيحضر المحراث هذا الصباح ، في حين كان والدي يرغب في أن يأخذه بنفسه ، ولكن السيد سلمب لم يكن يصغي إليه . وكان يذكر فقط كيف استعاره وكفى . وقال أنه سيحضره خلف عربة الخشب في اليوم التالي ، وسيتركها على الطريق . فهم سيذهبون غداً لقطف المزيد من الخوخ البري وسيمرون بجانب بيتنا .

في اليوم التالي وبعد تناول الإفطار ، وكنت أنا وأمي وأبي لا نزال في المطبخ وكانت تيريزا قد ذهبت لإطعام الدجاجات ، بعد أن قامت بمسح الصحون لكنها لم تكن تحب أن تجلس هادئة ، بينما الناس يتحدثون ، فقد أحبت دائماً أن تفعل الأشياء وهي تتحرك . كان أبي وأمي يتحدثان ، فيما كنت أنا أنظر من النافذة ، وعندما كنت أنظر إلى الشمس ، ثم أنظر بعيداً كنت أحس بأشياء صباحية جميلة تلمع فوق ساحة المنزل . أخبرني أبي بأن هذه التألقات ، في عيني وليست في الهواء . لذلك لم أستدعه لكي يراها . وبينما كنت أراقب هذه اللمعات ظهر كلوبي سلمب أمامي وسط لمعة لافندر . كان كلوبي أضخم مني وأغبى ، وكان يقف وفمه مفتوحاً ، دون أن يجيب عندما كان يكلمه أحد ما . وكان شعره دائماً بحاجة إلى التمشيط ، ولم يكن يستخدم منديلاً . قالت له أمي صباح الخير فأشار إلى العربة في آخر الممر وصاح «خوخ» ثم انطلق يعدو أسفل الممر . فانطلق أبي وأمي نحو الطريق ، وسرت أنا أمامهم حيث كانت العربة متوقفة عند آخر ممر الحور القطني ، وكان السيد سلمب يجلس على المقعد العالي للعربة ، ويمسك بالأعنة وبجانبه تجلس السيدة سلمب ، وفي حضنها طفلها وجلست بينهما ليني سلمب ، فيما كان يجلس على المقعد الخلفي السيدة غوير وامرأتان أخريان لا أعرفهما في حين أن باقي العربة كان مليئاً بالأطفال . ولكن السيد سلمب كان قد نسي إحضار المحراث .

صاحت السيدة سلمب تنادينا : جميعكم تعالوا معنا سنذهب ، لقطف الخوخ من

على تلة نينيسكو ونقضي الليل هناك . ويمكن للشباب أن يأتوا معنا ، فلا يوجد عمل يشغلكم في هذا الوقت من السنة ، لذا تعالوا معنا ، فلدينا فراش للجميع . جلس السيد سلمب ينظر إلى آذان الخيول ، وكلما توقفت السيدة سلمب عن الحديث كان يقول لها : أخبرتك أنهم ، لن يأتوا ولكنك أردت أن تتوقفي هنا . فترد عليه قائلة والآن اسكت أيها الرجل . لم أعرف في حياتي شخصاً يستطيع البقاء بدون نَفَس ، مثل السيدة سلمب وهي تسألنا أن نذهب معها . وكانت دقات قلبي تهز قلادتي التي أعلقها على صدري ، حيث كنت قد نسيت أن أضعها بالشكل الصحيح ، انتظرت أن ترفع أمي قدمها وتضعها على محور العجلة : جاهزون للركوب . وهمّ والدي أن يرفعها من كوعها ، فقد كان الجميع يضحكون دائماً ويقهقهون ، عندما تركب النساء في العربات . ولم أر أمي يوماً تركب عربة ، ولكنني كنت أعرف كيف تسير الأمور في مثل هذه الحالات . وكنت أتساءل ، إذا كان أبي سيقفز في العربة قبل أن يدفعني أولاً . فقد كان سريعاً في ركوب العربات لا يضحك ولا يهزر .

تساءلت إذا كان سينساني وحينها سيراني الأطفال وسيحنون على طرف اللوح ويرفعونني وأنا أتدلى بيد واحدة وأخذت أفكر باهتياج عما سيحصل لتيريزا .

عاد إليّ نَفَسي حين تكلم أبي وقال : حتى عندما تكون في دغل من الخوخ ، وهو أمر قليل الاحتمال ، تظل تواجهك الشكوك في العثور على الخوخ . لقد كان الموسم جافاً جداً ، وحتى عندما تجد الخوخ ستجده لاذعاً وغير صالح للاستهلاك البشري . ها قد عاد أبي ليخرب الأمور مرة أخرى ، توقفت قلادتي عن الاهتزاز ، وأصبحت بدون حراك فكأنما قلبي قد توقف . قالت السيدة سلمب إنها تصلح لأن نصنع منها جيلو جيداً . وعاد السيد سلمب ليقول : لقد قلت لك أنهم لن يأتوا ولكنك أردت أن تقفي عندهم . ثم بدأ بتجهيز الصفوف للانطلاق .

كرهت أن أرى وجه أمي في هذه اللحظة ، ونظرتها المجروحة ولكني كنت أعلم أنه يجب عل أن أبتسم أمامها ولا أهتم . والغريب في الأمر أن نظرتها كانت لطيفة ، نظرة كانت قد جعلت أصابعي ، كالزجاج ودماغي يتسلّ منها دون أن أفهم ما الذي يحصل . فقد كانت تبتسم .

ـ في الحقيقة لا نستطيع أن نذهب اليوم . قالت لهم ، لقد كان لطفاً منكم أن

تطلبوا منا ، وأرجو أن تتمتعوا بهذه النزهة وأن تعثروا على الكثير من الخوخ . وكانت تنظر إلي وهي تتكلم ، ثم اقتربت مني وأمسكت بيدي .

نظرت السيدة سلمب إليّ من أعلى العربة وقالت :

ـ ألا يستطيع الأطفال الذهاب . إن الأطفال يحبون الخروج بالتأكيد . شدت أمي بيدها على يدي : أنا أخشى أنهم لا يستطيعون الذهاب بدوني أيضاً . نظرت بحزم إلى قلادتي وأضافت أنهم لا يرتدون أزياء مناسبة .

ـ آه ، يمكننا الانتظار حتى تخلع هذا الثوب الجميل ، قالت السيدة سلمب بأريحية ، ولكن أمي احمر وجهها وأطرقت برأسها .

كان السيد سلمب قد بدأ ينظم صف الخيول ، ويحفزها للانطلاق وغرقت في وسط صيحات الوداع آخر كلمة له في مسلسل لقد قلت لك . . . وبدأت العربة تقعقع باتجاه الطريق .

عادت أمي إلى المنزل ، وهي ما تزال ممسكة بيدي وعندما أصبحنا في الداخل التفتت نحوي قائلة : هل كنتِ ترغبين حقاً في الذهاب مع هؤلاء . . . وترددت قليلاً ثم أضافت هؤلاء الأشخاص ؟

ـ كانوا سيذهبون للنوم في الخارج . قلت لها .

ارتجفت أمي قليلاً وسألتني . هل كنت ستذهبين معهم ؟

ـ السيدة غوير كانت معهم ، تجنبت الجواب وأنا أعلم ما الذي لم تكن لتقوله .

ـ هل كنت ستذهبين ؟

ـ نعم . أجبتها .

وقفت لفترة طويلة تحدق في أفق المرعى أمامنا ثم تفحصت وجهي بفضول ، وقالت ـ ربما كان من الأفضل . . . . كان من الأفضل ، ثم استدارت وأخذت بتنظيف طاولة الفطور .

في اليوم التالي لعبت على الطريق ، وكنت في العادة أقضي أوقات العصر تحت أشجار البقس الهرمة ، أو عند الخندق المحفور خلف سقائف المعدات ، حيث ذبابات التنين والفراشات السوداء الشاحبة تحوم بعيداً عن أن يصل إليها أحد . ولكني قضيت يومي هذا عند الطريق . نادتني أمي إلى المنزل لأحضر قطع الفحم ، ثم نادت

علي مرة أخرى لأجمع البيض بعد الظهر، ونادتني مرة ثالثة، ولم يكن يبدو الارتياح على وجهها، وقالت لي: إذا مرَّ آل سلمب في طريق العودة لا تطلبي منهم شيئاً من الخوخ.

كانت أمي تعلم أنني لن أطلب.

ـ وإذا عرضوا عليك شيئاً لا تأخذيه.

ـ ماذا سأقول لهم.

ـ قولي لهم بأننا لا نهتم بها.

ـ وإذا أجبروني على أخذها.

عندما ظهر آل سلمب، كانت خيولهم تسير متعبة، كانت تلة نينيسكو تبعد مسافة خمسة عشر ميلاً من هنا.

فكرت في أن أكلم الأطفال حال مرور العربة، ولكن السيد سلمب ضرب الخيول مرتين بغصن صفصاف، قبل أن تصل العربة إلى مكاني فقفزت الخيول وعبرت عني والعربة تقرقع.

كان الأطفال في المقعد الأخير في مواجهتي، ضحكوا ولوحوا لي بأيديهم، ومال كلوبي إلى الأمام وأمسك بكمشة خوخ. لا بد أن العربة كانت ممتلئة حتى منتصفها بالخوخ. قذف علي الكمشة وألحقها بالأخرى، وسقطت الخوخات متبعثرة، وسط الغبار الذي تكوم حولها على شكل دوائر صغيرة وأخفاها قبل أن أمسك بها.

مسحتها بمقدمة قميصي ثم أسقطتها في جيب مريولي.

انتظرت فقط لأجد أحد الطقوس السرية قبل أن أهرع وقلبي يخفق بعنف لاخبر أمي ماذا اكتشفت.

ـ قاطعتني قائلة: هل شاهدوك وأنت تجمعينها؟

رأيت نفسي أقف مثل كلوبي سلمب، فاغراً فمي وبلا حراك، وضحكت حتى انزلقت حبتا خوخ من مريولي. آه، نعم لقد جمعتها قبل أن ينفك الغبار، وصحت شكراً لكم.

كانت أمي ما تزال مستاءة، وقالت لي: ارميها، فلن تأكلي بالتأكيد شيئاً قذفوه لك على الطريق.

كان من الصعب علي أن أجيب ، واقتربت منها وهمست : هل أستطيع الاحتفاظ بها ؟

غادرت أمي الغرفة ، وبدا لي أن وقتاً طويلاً قد مر قبل أن تعود وتضع ذراعها حولي ، وتقول : خذيها إلى المضخة واغسليها جيداً ، ثم كليها بهدوء دون أن تبتلعي القشور ، إنك لن ترغبي في أكل الكثير منها لأنها مرّة وغير ملائمة للأكل .

انسللت بهدوء ، دون أن أرغب في إخبارها أن طعم الحب في فمي كان غريباً ، مثل العسل المر ، الذي يحتفظ في طعمه بدفء الرمال ولمسة الشموس وغموض المياه في الغصون المائلة .

فلقد التهمت حبة منها على الطريق .

١٩٣٠

كاثرين آن بورتر

سرقـــة

عن «ذي جيروسكوب»

كانت حقيبتها بيدها عندما دخلت . ووقفت في منتصف الأرضية ، تلف ثوب الاستحمام حولها وتجر منشفة مبتلة بيدها وهي تعاين في مخيلتها الماضي القريب ، وتتذكر كل شيء بوضوح . نعم . فقد قامت بفتح جيب الحقيبة ، ونشرت محتوياتها على المقعد الطويل بعد أن جففت حقيبتها بمنديلها الخاص .

كـانت تنوي أن تأخـذ القطار فـوق الأرض ، وبحكم العـادة ألقت نظرة داخل حقيبتها ، لتتأكد من أنها تملك الأجرة وسُرّت لعثورها على ٤٠ سنتاً في كيس النقود . سوف تدفع أجرتها بنفسها ، حتى ولو اعتاد كاميلو كلما رآها عند الأدراج ، أن يضع نقوداً في الآلة قبل أن يدفعها إلى الداخل ، بانحناءة مهذبة . استطاع كاميلو من خلال سلسلة من الحلول الوسط أن ينشط نظاماً كاملاً من المجاملات الصغيرة ، متجاهلاً الأكبر والأكثر إزعاجاً منها . سارت معه إلى المحطة تحت وابل المطر ، لأنها كانت تعلم أنه فقير مثلها تقريباً ، وعندما كان يصر على تاكسي ، كانت ترد عليه بحزم ، أنت تعلم أن هذا الأمر لا يصلح . كان يرتدي قبعة جديدة ذات ظل أسمر شاحب ، لأنه لم يكن يخطر على باله يوماً ، أن يشتري شيئاً ذا لون عملي . ارتدى القبعة لأول مرة ، ولكن المطر أفسدها . ظلت تفكر ، ولكن هذا مروّع! فمن أين سيأتي بواحدة أخرى ؟ أخذت تقارنها بقبعات إيدي التي كانت تبدو دائماً وكأنها أكبر

بسبع سنوات أو أنها قد تركت تحت المطر عن عمد ، ثم جلست بصعوبة وبلا مبالاة على رأس إيدي . ولكن كاميلو كان مختلفاً تماماً . فإذا ارتدى قبعة بالية فإنها تبدو بالية فعلاً على رأسه وقد يفقد معنوياته بسببها ، ولو لم تكن خائفة من أن يشعر كاميلو بالاستياء ، إذ أنه كان يصر على ممارسة طقوسه الصغيرة ، حتى آخر حد يقيمه لها ، لقالت له عندما كانا يغادران منزل ثورا ، اذهب إلى البيت أستطيع أن أصل إلى المحطة لوحدي .

قال كاميلو : لقد كتب علينا أن نتلقى المطر على رؤوسنا الليلة ، لذا فلنكن معاً .

عند قاع درج رصيف السكة الحديدية ، ترددت قليلاً ، كانا كلاهما مهيأ بشكل لطيف لحضور كوكتيل ثورا . قالت له على الأقل يا كاميلو اصنع معي معروفاً ، ولا تتسلق هذه الأدراج في وضعك الحالي لأنها بالنسبة لك مسألة وقوع فوري مرة أخرى ، وأنا متأكدة أنك ستدق عنقك .

انحنى لها ثلاث مرات بسرعة ، كان إسبانياً . قفز في العتمة الماطرة وراحت هي تراقبه . فقد كان شاباً رشيقاً يظن دائماً أنه سيستيقظ في الصباح وينظر بجد إلى قبعته التالفة ، وإلى حذائيه المبلولين وربما يربط بينهما وبين تعاسته . وبينما هي تراقبه توقف عند الزاوية البعيدة ورفع قبعته وخبأها تحت معطفه ، فأحست بأنها خانته بالنظر ، لأنه بالتأكيد يشعر بالإهانة ، لو راوده الظن بأنها تشك في أنه يحاول إنقاذ قبعته .

جاءها صوت روجر من بين أزيز المطر المتساقط على سقيفة الدرج ، وكأنه قادم من خلف كتفيها يريد أن يستعلم ماذا تفعل تحت المطر في هذا الوقت من الليل؟ وهل تظن نفسها بطة برمائية؟ كان وجهه الطويل الهادئ ينضح بالماء وكانت هناك بقعة منتفخة في صدر معطفه المزرر . إنها قبعة قال لها تعالي لنأخذ تاكسي .

استلقت على ذراعي روجر الذي ، كان قد أحاط بكتفيها وتبادلا إيماءة بالنظر تنم عن ود قديم ، ثم نظرت عبر النافذة نحو المطر الذي كان يغير أشكاله ، أخذ التاكسي يتحرك جيئة وذهاباً بين أعمدة الطوابق المرتفعة ، وهو ينزلق ببطء عند كل منعطف فقالت له : كلما انزلق أكثر ، شعرت بالهدوء أكثر . لا بد أنني ثملة .

ـ نعم ، يجب أن تكوني ثملة . إن هذا الطائر مجنون قاتل وقد أستطيع أن أتناول

كوكتيلاً بنفسي هذه اللحظة .

انتظر الاثنان على الإشارة الضوئية بين الشارع الأربعين والطريق السادس ، عبر ثلاثة أولاد الطريق أمام التاكسي ، وكانوا يبدون مثل فزاعات مرحة تحت الضوء . جميعهم في غاية النحافة ويرتدون ثياباً بالية حادة القص وربطات عنق غريبة . لم يكونوا في حالة صحو تامة أيضاً ووقفوا برهة يتهادون أمام السيارة ، وكأن بينهم جدال من نوع ما . كانوا يميلون نحو بعضهم البعض ، وكأنهم يستعدون للغناء قال : الأول عندما أتزوج فلن يكون الأمر بغرض الزواج فقط ، فسأتزوج عن حب ، أترى؟ وأجاب الآخر : آه ، اذهب وقل لها هذه الأمور لماذا لا تذهب ؟ أما الثالث ، فقد أطلق صيحة استهجان وقال : يا للجحيم ما الذي يملكه هذا الرجل؟ قال الأول : اخرس أيها المغرم الموله لقد امتلأت . ثم أخذ ثلاثتهم يصيحون ويتأرجحون عبر الشارع ، وكان اثنان منهم يضربون الثالث على ظهره ويدفعونه حولهما .

ـ مجانين . علق روجر مجرد مجانين .

مرت فتاتان رشيقتان ترتديان معطفين للمطر قصيرين وشفافين ، الأول لونه أخضر والثاني أحمر ورأساهما ينثنيان مع حبات المطر . كانت الأولى تقول للأخرى : نعم أعلم كل شيء ، عن هذا الأمر ولكن ماذا عني ؟ إنك تشعرين دائماً بالأسف نحوه ، ثم سارتا وأقدامهما تتراقصان جيئة وذهاباً .

تراجع التاكسي إلى الخلف ، فجأة ثم انطلق إلى الأمام وبعد فترة قال روجر : لقد استلمت رسالة من ستيلا اليوم وسوف تكون في البيت في السادس والعشرين من الشهر ، لذا أظن أنها قد عقدت عزمها وقررت تماماً .

لقد استلمت أيضاً رسالة منها اليوم . قالت له ، أظن أن الوقت قدحان لكي تقررا شيئاً محدداً أنت وستيلا .

عندما توقف التاكسي عند زاوية الشارع ٥٣ الغربي قال روجر : إن معي ما يكفي إذا أعطيتني عشرة سنتات ، فقامت بفتح حقيبتها وأعطته دولاراً ، قال لها إن هذه الحقيبة جميلة .

ـ إنها هدية عيد ميلاد قالت له وأنها تحبها : كيف تسير بعروضك ؟

ـ آه ما يزال الأمر معلقاً على ما أعتقد ، فأنا لا أذهب إلى ذلك المكان . لم يُبَعْ

شيء بعد . إنني أنوي أن أبقى سائراً على الطريق التي انتهجتها وعليهم أن يقبلوا ذلك أو يرفضوه . لقد انتهيت من هذه المناقشة .

ـ إذن المسألة وبشكل مطلق هي مسألة صمود وتحمل ؟

ـ الصمود هو الجزء الصعب منها .

ـ تصبح على خير يا روجر .

ـ تصبحين على خير ، عليك بتناول الإسبرين وأخذ حمام ساخن . تبدين وكأنك ستصابين بنزلة برد .

ـ سوف أفعل ذلك .

صعدت إلى المنزل وحقيبتها تحت إبطها ، وعند أول الدرج سمع بيل خطواتها وأطل برأسه ذي الشعر الأشعث والعينين الحمراوين قائلاً : بحق المسيح ادخلي وتناولي كاساً معي إن لدي أخباراً سيئة .

إنك شخص مناسب للتهدئة . قال بيل ، تناولا كأسين ، وأخبرها بيل كيف أن المدير قد رفض مسرحيته بعد أن فاز بالقرعة مرتين ، وبعد أن قام بثلاثة تمرينات . لقد قلت له : إنها جيدة للعرض ، ولم أقل له إنها تحفة رائعة ، فأجابني أنها لا تصلح . أترين ؟ أنا بحاجة إلى طبيب ، لقد علقت ، علقت تماماً . قالها بيل هو على حافة البكاء مرة أخرى . لقد بكيت قال لها بين الكؤوس ثم راح يسألها إذا كانت تدرك ، أن زوجته تسير إلى تحطيمه بتبذيرها . أنا أبعث إليها بعشرة دولارات كل أسبوع من حياتي التعسة دون أن أكون مضطراً لذلك . هي تهدد بحبسي إذا لم أفعل . لكنها لا تستطيع . يا إلهي دعها تجرب ذلك بعد الطريقة التي عاملتني بها ، ليس لها أي حق بالنفقة وهي تعلم ذلك . ولكني أرسل إليها النقود ، لأني لا أتحمل أن أرى أحداً يعاني ، وأنا متأخر جداً في البيانو والفيكترولا .

ـ حسناً ، إن هذه السجادة جميلة بأية حال . قالت له . حدق بها بيل ثم مخط أنفه ، لقد حصلت عليها من ريشي بخمسة وتسعين دولاراً قال ريشي إنها كانت ملك ماري دريسلر وأن ثمنها خمسمائة دولار ، ولكن يوجد فيها حرق هل تستطيعين أن تحزري أين هو ؟

ـ كلا . قالت .

تناولا كأساً آخر من الشراب ثم ذهبت إلى شقتها في الطابق العلوي ، وهناك تذكرت بوضوح انها كانت قد أخرجت الرسالة من الحقيبة ، قبل أن تنثر محتوياتها لتجف .

بدأت تقرأ الرسالة مرة أخرى فقد كان منها عبارات تلح عليك ، بأن تقرأها عدة مرات ، وقد بدت وكأن فيها حياة تخصها لوحدها لا علاقة لها بالعبارات الأخرى . وعندما حاولت أن تقرأ ، ما يلي تلك العبارات أو ما حولها . بدت هذه العبارات وكأنها تتحرك مع تحرك عينيها . لم تستطع أن تتهرب منها «أفكر فيك أكثر مما أعني» ، «حتى أنني أحياناً أتكلم معك ، لماذا كنت متلهفة لتدمير . . . . حتى لو رأيتك الآن ما كنت لأستطيع . . . الأمر لا يستحق كل هذا البغض . . . النهاية . . . .» .

مزقت الرسالة إلى قطع صغيرة ، ثم أشعلت عوداً من الكبريت وحولت القطع إلى رماد .

باكراً ، في الصباح التالي ، وكانت لا تزال في حوض الحمام ، قرعت منظفة المنزل الباب ودخلت ، وهي تنادي بأنها تريد أن تتفقد الراديترات قبل أن تقوم بتشغيل الحارق في الشتاء . وبعد أن تنقلت داخل الغرفة لبضع دقائق انسحبت بعد أن أغلقت الباب بقوة .

خرجت من الحمام ، لتناول سيجارة من علبة السجائر في حقيبتها . ولكن الحقيبة كانت قد اختفت . ارتدت ثيابها وغلت بعض القهوة ثم جلست تحتسيها عند النافذة . لا بد أن المرأة المنظفة ، هي التي سرقت الحقيبة . وبالتأكيد سيكون من المستحيل ، إعادتها بدون الخوض في إثارة سخيفة . إذن فليكن . وباتخاذها هذا القرار ، اشتعل في دمها حقداً قاتلاً . وضعت الكأس بحذر في منتصف الطاولة . ومشت تتقلقل في خطواتها نحو الأسفل . ثلاثة طوابق وقاعة صغيرة ومن ثم طابق سحيق نحو الدور الأرضي حيث كانت مدبرة العمارة بوجهها المرشوم بغبار الفحم تهز المحرق .

ـ من فضلك أعيدي لي حقيبتي ، لا يوجد فيها أية نقود ، إنها هدية ولا أريد أن أفقدها .

استدارت مدبرة العمارة دون أن تقف ، ونظرت إليها بعينين ترتجان اشتعالاً من

انعكاس الضوء الأحمر في المحرق عليهما .

ـ ماذا تعنين بحقيبتك ؟

الحقيبة المذهبة التي تناولتيها من المقعد الخشبي في غرفتي . يجب أن أستعيدها .

ـ واللّه لم تقع عيني على مثل هذه الحقيبة ، وتلك هي الحقيقة المقدسة . أجابت المرأة .

ـ حسناً ، احتفظي بها قالت لها بصوت مرير . إبقيها إذا كنت تحتاجينها لهذه الدرجة .

تذكرت أنها لم تكن لتغلق باباً في حياتها . بناءً على بعض المبادئ الرافضة ، التي تركت لها بعض الراحة في امتلاكها للأشياء ، وبناءً على تفاخرها المتناقض ، أمام تحذيرات أصدقائها بأنها لم تفقد بنساً واحداً بسبب السرقة ، وكم سُرَّت بهذا التواضع المكشوف لهذه الامثولة القاسية ، التي صممت لكي تشرح وتبرر إيماناً عاماً ، ومحدداً لا أساس له ، طغى على تحركات حياتها بدون أي اكتراث لرغبتها في الأمر .

في هذه اللحظة ، أحست أن أشياء عديدة وثمينة ، قد سرقت منها . سواء كانت أشياء مادية أو غير محسوسة . أشياء فقدتها أو كسرتها بخطأ منها . أشياء كانت قد نسيتها وتركتها في البيوت التي تحركت فيها . كتب تم استعارتها ولم تتم إعادتها ، رحلات خططتها ولم تقم بها ، كلمات انتظرت كي تسمعها ولم تسمعها . وكلمات عنت بأن تجيب بها ببدائل مريرة وغير محتملة ، لم تكن أفضل من لا شيء ولكن لا مهرب منها : المعاناة الطويلة الصبورة لأصدقاء يحتضرون ، والموت المعتم لحب يتعذر تفسيره ـ كل ما كانت تملكه ، وكل ما كانت تفتقده ضاع معاً وضاع مرتين ، في خضم انهيار الذكريات الضائعة . كانت مدبرة المنزل تسير خلفها حاملة الحقيبة في يدها ، وفي عينيها ما زالت تتقد تلك الشعلة الحمراء . رمت الحقيبة باتجاهها حين كانت تفصلهما مسافة ستة خطوات وقالت : لا تخبري عني أبداً ، لا بد أنني جننت ، إنني أصاب بالجنون أحياناً أقسم على ذلك ، ابني قد يخبرك عني .

أخذت الحقيبة بعد برهة وتابعت المرأة تقول . لدي ابنة أخ ستبلغ السابعة عشرة ، إنها فتاة لطيفة واعتقدت أن بإمكاني أن أهدي إليها الحقيبة . لأنها بحاجة إلى

حقيبة جميلة . لا بد أنني جننت ، ظننت أنك لن تمانعي لأنك تتركين أشياء كثيرة ولا تلاحظين ذلك . أجابتها : لقد افتقدت هذه لأنها كانت هدية من شخص . . . . أجابت مدبرة العمارة : سوف يحضر لك غيرها ، إذا فقدتيها ، إن ابنة أخي ما تزال يافعة وبحاجة لأشياء جميلة ، يجب أن نعطي الشباب فرصة ، فالكثير من الشباب حولها يلاحقونها ، وربما يريدون الزواج منها . يجب أن تمتلك أشياء جميلة وهي بحاجة ماسة لهذه الأشياء . إنك أصبحت امرأة ناضجة الآن ، وقد كانت لك فرصتك . لا بد أنك تعرفين كيف هي الأمور .

ناولت الحقيبة إلى المرأة قائلة : إنك لا تعرفين ما الذي تتكلمين عنه هيا خذيها ، لقد غيرت رأيي ، أنا لست بحاجة إليها في الحقيقة . نظرت إليها المرأة بحقد وقالت : أنا لا أريدها أيضاً . إن ابنة أخي شابة وجميلة على أي حال وهي لا تحتاج أن ترتب نفسها لتبدو جميلة ، إنها على أي حال شابة وجميلة وأظن أنك بحاجة إليها أكثر منها . إنها لم تكن ملكك في المكان الأول ، ثم تابعت وهي تستدير عائدة ، لا يجب أن تتكلمي وكأنني قد سرقتها منك ، إنك لم تسرقيها مني بل إنك تسرقينها منها ، قالت المرأة ونزلت الدرج .

وضعت الحقيبة على الطاولة وجلست لتناول فنجان القهوة الباردة وقالت لنفسها لم أكن محقة بأن أخاف من أي لص سوى نفسي . التي ستنتهي بأن تتركني بدون شيء .

١٩٣١

وليام فوكنر

غروب الشمس في ذلك المساء

عن «ذي *أمريكان* مركوري»

١

لا يختلف يوم الاثنين في جيفرسون الآن، عن أي يوم آخر في الأسبوع، فالشوارع أصبحت الآن معبدة، وشركات الاتصالات والكهرباء تقطع كل يوم، المزيد من الأشجار المظللة - البلوط المائي والقيقب والخرنوب والدردار، لإفساح المكان أمام الأعمدة الحديدية، التي تحمل عناقيداً شبحية منفوخة لا تجري فيها الدماء. كما أصبح لدينا مغسلاً للملابس، يقوم بجولاته صباح الاثنين ليجمع أكوام الثياب في سيارات خاصة، زاهية الألوان، تهرب بملابس الأسبوع المغبرّة مثل الأشباح خلف الأبواق الكهربائية المثيرة للسيارات وسط أصوات المطاط التي يطول تلاشيها على الاسفلت مثل أصوات تمزيق الحرير. حتى نساء العبيد اللواتي ما زلن يغسلن ثياب البيض، بحسب العادات القديمة، صرن ينقلن الملابس في السيارات.

قبل خمسة عشر عاماً كانت الشوارع الهادئة المغبرة والمظللة، صبيحة الاثنين تمتلئ عادة بنساء العبيد، وهن يوازنّ على رؤوسهن المعممة أكداس الثياب المربوطة في ملاءات، يصل حجم بعضها إلى حجم بالات القطن، ويسرن بها دون أن تلمسها أيديهن بين أبواب مطابخ البيض وقدور الغسيل السوداء قرب مداخل الأكواخ في نيجروهولو.

كانت نانسي تضع كومة الغسيل على رأسها ، ومن فوق الكومة تركز قبعة القش البحرية السوداء التي كانت ترتديها صيفاً وشتاءً ، كانت طويلة ذات وجه عال حزين غائر قليلاً حول فمها الذي فقد أسنانه ، كنا أحياناً نرافقها جزءاً من الطريق أسفل الممر الضيق ومن ثم عبر المرعى لنراقب الكومة المتوازنة ، والقبعة التي لم تهتز أو تتمايل أبداً . حتى وهي تعبر الخندق ، وتتسلق مرة أخرى أو حين تنحني لتمر عبر السياج . كانت تنزل على يديها وركبتيها ، وتزحف عبر الفتحة ورأسها صلب ، مرفوع والكومة ثابتة كالصخرة أو كالبالون ثم تنهض على قدميها وتتابع السير .

أحياناً كان أزواج النسوة الغسالات يقومون بإحضار الغسيل ، ولكن جوبا لم يكن ليفعل ذلك لنانسي ، حتى قبل أن يبلغه أبي بأن يبقى بعيداً عن منزلنا وحتى عندما كانت ديلسي مريضة ، وكانت نانسي تأتي لتطبخ لنا الطعام .

وبعد مضي نصف الوقت اللازم لعبورنا أسفل الممر الضيق إلى منزل نانسي لإبلاغها ، كي تأتي وتحضر الفطور ، كنا نقف عند الخندق ، لأن والدي يقول لنا أن لا نتعاطى بشيء مع جوبا ، الذي كان رجلاً أسود قصيراً على وجهه أثر لضربة سكين ، وكنا نرمي الأحجار على بيت نانسي حتى تطل من الباب . وتقف متكئة عليه دون أن تكون مرتدية أي ثياب .

- «ماذا تعنون بهذا ؟» قالت نانسي «ترمون بيتي بالحجارة» .

«ماذا تريدون أيها الشياطين الصغار»

- «يقول والدي بأن تأتي وتحضّري الفطور» يجيبها كادي «يقول والدي لقد مضت نصف ساعة على الوقت ويجب أن تأتي في هذه الدقيقة» .

- «لا أريد أن أحضّر أي فطور» أجابت نانسي أريد أن أحصل على نصيب من النوم .

- أ«راهن أنك ثملة» قال جاسون «يقول والدي أنك ثملة ألست ثملة يا نانسي ؟»

- «من يقول ذلك» تجيب نانسي «أريد أن أنام الآن . لن أحضّر أي فطور .»

بعد ذلك نتوقف عن رشق المنزل ، ونعود إلى بيتنا ، وعندما تأتي هي أخيراً يكون الوقت قد تأخر على ذهابي إلى المدرسة ، كنا نظن أن سبب ذلك هو الويسكي . إلى

أن جاء اليوم الذي اعتقلوها فيه مرة أخرى ، وعلى طريق السجن مروا بالسيد ستوڤال ، الذي يعمل أمين صندوق في البنك ، وشماساً في الكنيسة الإنجيلية وعندها بدأت نانسي بالصراخ :

«متى ستدفع لي أيها الرجل الأبيض ؟ متى ستدفع لي أيها الرجل الأبيض ؟ لقد مرت ثلاث مرات ، منذ أن دفعت لي سنتاً واحداً» . أوقعها السيد ستوڤال أرضاً ، إلا أنها استمرت في قول : «متى ستدفع لي أيها الرجل الأبيض لقد مرت ثلاث مرات منذ» . . . . . إلى أن ضربها السيد ستوڤال على فمها ، وسقطت نانسي في الشارع وهي تضحك . استدارت نانسي وبصقت بعض الدم والأسنان وقالت لقد مرت ثلاث مرات ولم يدفع لي سنتاً واحداً .

هكذا فقدت نانسي أسنانها ، ومر النهار والجميع يتحدثون عن نانسي والسيد ستوڤال ، كان العابرون قرب السجن يسمعونها طوال الليل ، تغني وتزعق وكانوا يرون يديها معلقتين بقضبان النافذة . وقف العديد منهم قرب السياج يستمعون لها وللسجان وهو يحاول أن يخرسها . لم تسكت إلى ما قبل طلوع النهار ، عندما بدأ السجان يسمع أصوات ارتطام وكشط في الأعلى . عندما صعد وجد نانسي معلقة على قضيب النافذة ، قال أن السبب هو الكوكائين وليس الويسكي لأنه لا يوجد أسود يحاول الانتحار . إلا إذا كان معبأً بالكوكائين ، لأن الأسود الذي يمتلئ بالكوكائين لا يعود أسود أبداً . أنزلها السجان وأنعشها ثم أوسعها جلداً وضرباً ، حاولت شنق نفسها بثوبها ، كانت قد ثبتته تماماً ، لكن عندما تم اعتقالها لم يكن عليها سوى هذا الثوب ، لذا لم يكن لديها شيء لتربط يديها به ، لم تستطع أن تفلت يديها من إفريز النافذة . لذا عندما سمع السجان الأصوات صعد راكضاً ووجد نانسي مدلاة من الشباك عارية تماماً .

عندما كانت دلسي مريضة في كوخها ونانسي تطبخ لنا ، كنا نرى مريولها منفوخاً . كان هذا قبل إخبار والدي جوبا ، بأن يبقى بعيداً عن المنزل . كان جوبا يجلس في المطبخ خلف الموقد ، وندبة السكين على وجهه الأسود كقطعة سلك قذرة . قال إن نانسي تضع تحت ثوبها بطيخة . كان الفصل شتاءً وسأله كادي :

– من أين تأتي ببطيخة في الشتاء ؟

- أنا لم آت بها قال جوبا أنا لم أعطها إياها ولكني أستطيع أن أنزلها تماماً كما كانت .

ما الذي يجعلك تتكلم هكذا أمام هؤلاء الأطفال ؟ قالت نانسي . لماذا لا تذهب إلى عملك ؟ هل تريد أن يقبض عليك السيد جاسون ، وأنت تتجول حول المطبخ وتتكلم بهذه الطريقة أمام الأطفال ؟

- يتكلم بهذه الطريقة يا نانسي ؟ قال كادي

- «لا أستطيع أن أبقى حول مطبخ الرجل الأبيض» قال جوبا ، «ولكن الرجل الأبيض يستطيع أن يبقى في مطبخي . ويستطيع الرجل الأبيض أن يأتي إلى بيتي ، ولا أقدر أن أمنعه . عندما يأتي الرجل الأبيض إلى بيتي ، لن يكون لدي بيت . فأنا لا أستطيع منعه وهو يستطيع أن يطردني خارجه . ولا يجب أن يفعل هذا » .كانت ديلسي ما تزال مريضة في كوخها . أخبر والدي جوبا البقاء بعيداً عن المكان ، كانت دلسي مريضة منذ وقت طويل ، وكنا نحن في المكتبة بعد العشاء .

- «ألم تنتهي نانسي بعد»؟ قالت أمي «يبدو لي أنها أمضت وقتاً طويلاً في غسيل الأطباق .»

«ليذهب كوينتين وير» قالت «أمي اذهب لترى إذا كانت نانسي قد انتهت وقولي لها أن تعود إلى بيتها .»

«ذهبت إلى المطبخ ، كانت الأطباق مرفوعة والنار خامدة ، ونانسي قد انتهت من عملها ، جلست على كرسي بجانب المدفأة الباردة ، نظرت إلي فقلت لها : أن أمي تسأل إذا كنت قد انتهيت .»

- نعم لقد انتهيت ، نظرت إلي .

- «ماذا هناك» قلت «لها ماذا هناك ؟»

- «أنا لست سوى زنجية» قالت نانسي : «إن هذه ليست غلطتي» . نظرت الي وهي تجلس على الكرسي بجانب المدفأة الباردة ، وقبعتها البحرية على رأسها . عدت إلى المكتبة . كانت المدفأة الباردة ، وكل شيء ولكنك عندما تفكر بالمطبخ تراه دافئاً ومزدحماً ومرحاً . والآن أصبح الموقد بارداً ، والأطباق مرفوعة ولا يوجد أحد ليأكل في تلك الساعة .

- هل انتهت ؟ سألت أمي
- نعم يا أمي . قلت
- ماذا تفعل ؟ سألت أمي
- إنها لا تفعل شيئاً لقد انتهت .
- «سأذهب لأرى» قال أبي
- «ربما تنتظر جوبا ليأتي ويصطحبها إلى البيت» قال كادي .
- جوبا ذهب . قلت : فقد أخبرتنا نانسي كيف أنها استيقظت ذات صباح وكان جوبا قد أختفى .
- «لقد تركني» ، قالت نانسي «وذهب إلى ممفيس على ما أظن ، مراوغاً شرطة المدينة على ما أظن» .
- «ونعم الخلاص» قال أبي« آمل أن يبقى هناك» .
- «إن نانسي تخاف من الظلام» قال جيسون .
- «كذلك أنت» . قال كادي .
- «أنا لست كذلك »قال جيسون .
- «أيها القطة المرعوبة» قال كادي .
- أ«نا لست كذلك» قال جيسون .
- «أنتما» . . . قالت أمي . عاد أبي
- «سوف أسير عبر الممر الضيق مع نانسي» قال أبي «إنها تقول أن جوبا قد عاد» .
- «هل رأيته ؟» سألت أمي
- «كلا ، . جاء شاب أسود وأبلغها بأنه قد عاد إلى البلدة ، لن أمكث طويلاً» .
- «تتركني لوحدي ، لترافق نانسي إلى بيتها ؟ هل سلامتها أثمن لديك من سلامتي قالت أمي .»
- «لن أتأخر كثيراً» قال أبي .
- «هل تترك هؤلاء الأطفال بدون حماية من أجل تلك السوداء»؟
- «أنا ذاهب أيضاً» قال كادي «دعني أذهب يا أبي» .
- «ماذا سيفعل بهم إذا كان حظه سيئاً لدرجة الحصول عليهم؟» قال أبي

- «أنا أريد أن آتي أيضاً» قال جيسون .

«جيسون» قالت أمي موجهة حديثها إلى أبي - يمكنك أن تشعر من الطريقة التي قالتها ، بأنها تظن أن أبي كان يجهد تفكيره طوال النهار ، بأن يفعل أكثر شيء تكرهه . وأنها كانت تعلم طوال الوقت أنه سوف يفكر بفعله بعد فترة . لبثت هادئةً ، لأن أبي وأنا كنا نعلم بأن أمي تريدني أن أبقى معها ، لو فكرت بالأمر في وقته . لذا لم ينظر والدي إليّ . فقد كنت أنا أكبرهم وفي التاسعة من عمري كان كادي في السابعة وجيسون في الخامسة .

- هراء قال أبي لن نتأخر .

نانسي تضع قبعتها على رأسها ، وصلنا إلى الممر الضيق ، قالت نانسي «لقد كان جوبا لطيفاً معي . كلما كان في جيبه دولاران كان أحدهما لي» . سرنا عبر الممر . وقالت نانسي ، «سأكون بخير عندما أستطيع عبور الممر حينها فقط سأكون بخير» .

الممر معتماً دائماً . قال كادي «هنا أصيب جيسون بالهلع في عيد الهالوين» .

- «أنا لم أخف» قال جيسون .

- «ألا تستطيع العمة راشيل أن تفعل معه شيئاً ؟» قال أبي كانت العمة راشيل عجوزاً ، تعيش في كوخ بقرب كوخ نانسي ، لها شعر أبيض وتدخن الغليون على باب بيتها طوال النهار . وهي لم تعد تعمل أبداً ، يقولون إنها والدة جوبا وكانت تعترف أحياناً بذلك ، في حين كانت في أحيان أخرى تنكر أي صلة قرابة لها مع جوبا .

- «نعم لقد خفت» قال كادي . «إنك تخاف أكثر من فروني ، لقد خفت حتى أكثر من تي . بي وخفت أكثر من السود» .

- «لا يستطيع أحد أن يفعل معه شيئاً» قالت نانسي ، «إنه يقول بأنني أصحي الشيطان فيه ولا يعيده إلى هدوئه إلا شيء واحد» .

- «حسناً ، لقد ذهب الآن» ، قال أبي : «لايوجد شيء تخافين منه» لو يمكنك فقط أن تتركي الرجال البيض بحالهم .

- «كيف تترك الرجال البيض فقط؟» قال كادي «كيف تتركهم؟»

- «إنه لم يذهب إلى أي مكان» قالت نانسي : «إني أشعر به ، إنني أشعر به الآن

في هذا الممر الضيق وأنه يسمع حديثنا وكل كلمة . أنه يختبئ في مكان ما وينتظر . لا أراه ولا أريد أن أراه مرة أخرى ، وهو يحمل ذلك السكين المدلى بسلك وراء ظهره ، داخل القميص ولن أدعه لا يفاجئني .

- «لم أكن خائفاً» قال جيسون .

- «لو أحسنت التصرف لبقيت في منأى عن هذا كله» ، قال أبي : «ولكن لا بأس ، الآن على الأرجح أنه في سانت لويس وربما تزوج امرأة أخرى ، نسي أمرك» .

- «إذا فعل ذلك فالأفضل لي أن لا أعرف» قالت نانسي : «لأني سأقف هناك وأقطع ذراعه كلما حاول أن يضمها إليه ، أو أقطع رأسه وأشق بطنها وسوف أكده . . . .»

- «هش» قال أبي :

- «تشقين بطن من يا نانسي ؟» سأل كادي

- «لم أكن خائفاً» قال جيسون «وأستطيع ان أسير الآن لوحدي في هذا الممر .»

- «نعم» . كادي لن تجرؤ أن تضع قدمك فيه لو لم نكن نحن معك .

كانت ديلسي ما تزال مريضة ، لذا بقينا نحضر نانسي كل ليلة ، إلى أن قالت أمي : إلى متى سيستمر هذا الأمر ، أن أترك لوحدي في هذا البيت الكبير وأنت تذهب لترافق زنجية مرعوبة إلى منزلها ؟

أقمنا لنانسي في المطبخ فراشاً من القش . وفي إحدى الليالي ، استيقظنا بعد سماعنا صوتاً قادماً من الدرج المظلم في الأعلى ، لم يكن صوت بكاء . هناك ضوء في غرفة أمي ، سمعنا أبي ينزل إلى القاعة أسفل الأدراج الخلفية . ذهبت أنا وكادي إلى القاعة ، كانت الأرضية باردة ، كنا نحاول إبعاد أصابع اقدامنا بعيداً عن الأرضية الباردة ، نحن نستمع إلى الصوت . كان يشبه الغناء ولكنه ليس غناءً ، كان صوت من تلك الأصوات ، التي تصدر عن الزنوج . ثم توقف الصوت ، وسمعنا والدي يصعد الدرج الخلفي مرة أخرى ، ذهبنا إلى رأس الدرج ، عاد الصوت مرة أخرى في مر الدرج . لم يكن عالياً واستطعنا رؤية عيني نانسي في منتصف الدرج قرب الجدار ، كانت عيناها تشبهان عينا قط . مثل قط كبير ، يرقبنا من اتجاه الجدار عندما نزلنا الدرج حيث تجلس ، توقفت عن إصدار الصوت ، بقينا واقفين حتى عاد أبي من

المطبخ ، ومسدسه في يده . عاود النزول إلى أسفل ، مع نانسي ثم عاد وهو يحمل فراشها . وضعنا الفراش في غرفتنا بعد أن انطفأ النور في غرفة والدتي ، ورأينا عيني نانسي مرة أخرى . همس كادي : «نانسي هل أنت نائمة ؟» همست نانسي شيئاً : مثل آه أو لا أعلم أيهما وكأن أحداً لم يقلهما ، أو أنهما قدمتا من مكان غير معروف ، وذهبتا إلى مكان آخر غير معروف ، وكأن نانسي لم تكن هناك أبداً .

كنت أنظر إلى عينيها عند الدرج بحدة ، شعرت وكأنهما انطبقتا على جفني ، مثلما تفعل الشمس ، عندما تغمض عينيك ولا تراها . «يا يسوع» همست نانسي ، «يا يسوع»

- «هل هو جوبا» همس كادي «هل حاول أن يدخل إلى المطبخ؟»

- «يا يسوع» قالت نانسي : وظلت تقول يا يسوع إلى أن اختفى الصوت كما يختفي ضوء الشمعة .

- «هل تستطيعين رؤيتنا يا نانسي؟» همس كادي «وهل تستطيعين رؤية أعيننا أيضاً؟» .

- «أنا لست الا زنجية سوداء ، الله يعلم ، الله يعلم» .

- «ما الذي رأيته في المطبخ ؟» همس كادي ، «من الذي حاول الدخول؟»

- «الله يعلم» قالت نانسي وكنا نستطيع رؤية عينيها .

- لقد تحسنت حالة ديلسي وجهزت لنا الغداء ،وقال لها أبي : تستطيعين أن تبقي في الفراش يوماً أو يومين آخرين

- ولماذا ؟ لو تأخرت يوماً أو يومين ، لتحول هذا المكان إلى خرابة ، اخرجوا من هنا الآن ودعوني أعيد تنظيم مطبخي مرة أخرى .

جهزت ديلسي العشاء أيضاً في تلك الليلة قبل حلول الظلام . وجاءت نانسي إلى المطبخ .

- «كيف تعرفين أنه عاد؟» قالت لها ديلسي «فإنك لم تريه .»

- «جوبا أسود» قال جيسون .

- «إنني أشعر به ، أشعر به مختبئاً في ذلك الخندق» قالت نانسي .

- «الليلة ؟» قالت ديلسي «هل هو هناك الليلة ؟»

- «ديلسي زنجية أيضاً» قال جيسون .

- «حاولي أن تأكلي شيئاً» قالت ديلسي .

- «لا أريد شيئاً» قالت نانسي .

- «أنا لست زنجياً» قال جيسون .

- «تناولي بعض القهوة» قالت لها ديلسي ، صبت لنانسي فنجاناً من القهوة ، وأضافت «هل تعلمين أنه هناك الليلة ؟ وكيف تعلمين ذلك ؟»

- «أنا أعلم» قالت نانسي - «إنه هناك ينتظر ، أنا أعلم ، لقد عشت معه طويلاً وأعرف ماذا يريد أن يفعل قبل أن يعرف هو . »

- «تناولي بعض القهوة» قالت ديلسي ، ورفعت نانسي الفنجان إلى فمها ، نفخت فيه وخرج فمها من الفنجان ، كالأفعى المبسطة ، وكأنه فم مطاطي أو كأنها لم تبق من شفاهها أي لون وهي تنفخ في القهوة .

- «إني لست أسود» قال جيسون : «وأنت سوداء يا نانسي»

- «يا للجحيم ، لقد ولدت هكذا يا ولد» . قالت نانسي : «وقريباً لن أكون شيئاً - سأعود قريباً من حيث أتيت .»

بدأت تشرب قهوتها ، وهي تمسك الفنجان بيديها الاثنتين ، ثم بدأت بإصدار ذلك الصوت مرة أخرى . أطلقت الصوت داخل الفنجان فارتشّت القهوة على يديها وثوبها وكانت عيناها تنظر إلينا ، وهي جالسة وأكواعها عند ركبيتها تمسك الفنجان بكلتا يديها وتنظر من خلال الفنجان المبتل وتطلق هذا الصوت .

- «انظر إلى نانسي» قال جيسون «إنها لن تطبخ لنا الآن فقد عادت ديلسي إلى صحتها .»

- «اخرس أنت» قالت ديلسي في حين كانت نانسي تطلق ذلك الصوت ، وهي تنظر إلينا ممسكة الفنجان بكلتا يديها ، وبدت كأن هناك اثنتين منها واحدة تنظر إلينا والأخرى تصدر الصوت .

- لماذا تركت السيد جاسون يهاتف المارشل؟ قالت ديلسي .

توقفت نانسي عن الشرب ، وهي ما تزال ممسكة بالفنجان بكلتا يديها السمراوتين ، وحاولت أن تشرب القهوة مرة أخرى ، ولكن أندلَقَ فنجان على يديها

وعلى ثوبها . فوضعت الفنجان جانباً في حين راح جيسون يراقبها .

- «لا أستطيع أن أبتلعها» قالت نانسي «إنني احاول ابتلاعها ولكنها لا تنزل .»

- «انزلي إلى الكوخ» قالت ديلسي : «سيجهز لك فروني فراشاً وسأوافيك بعد قليل» .

- «ألن يوقفه أي زنجي؟» سألت نانسي .

- «أنا لست زنجياً» قال جيسون «هل أنا كذلك يا ديلسي؟»

- «لا أظن ذلك» . قالت ديلسي ونظرت إلى نانسي «لا أظن ذلك ماذا ستفعلين الآن؟»

حدقت نانسي بها ، وكانت عيناها تدوران بسرعة دون أن تتحرك ، كانت خائفة من أن لا تجد الوقت لتنظر ، وتحدق بنا نحن الثلاثة وفي وقت واحد وقالت :

- «هل تذكرون تلك الليلة التي نمت فيها في غرفتكم؟»

أخبرتنا كيف استيقظنا في اليوم التالي ، ولعبنا بهدوء على فرشتها إلى أن استيقظ أبي وصار لزاماً عليها أن تنزل لتحضير الفطور .

- «اذهبوا واسألوا أمكم إذا كنت أستطيع البقاء هنا الليلة . أنا لا أريد فراشاً ويمكننا أن نلعب المزيد» . قالت .

سأل كادي أمي وكذلك جيسون .

- «لا أستطيع أن أترك سوداً ينامون في بيتي» قالت أمي .

بكى جيسون ، وظل يبكي إلى أن هددت أمي بأنه لن يتناول الحلوى لثلاثة أيام ، إذا لم يتوقف عن البكاء . عندها قال جيسون أنه سيتوقف إذا قامت ديلسي بصنع كعكة شوكلاتة ، وكان أبي واقفاً هناك .

- «لماذا لا تفعل شيئاً حول الموضوع ؟» قالت أمي «لماذا يوجد رجال شرطة هنا؟»

- «لماذا تخاف نانسي من جوبا؟» قال كادي : «هل تخافين من أبي يا أمي؟»

- «ماذا يمكنهم أن يفعلوا ؟» قال أبي : «إذا كانت نانسي لم تره بعد فكيف يمكن للضباط أن يروه ؟»

- «إذن لماذا كل هذا الخوف من طرفها ؟» قالت أمي .

- «تقول إنه هنا ، تقول إنها تعلم أنه الليلة هنا .»

- «ومع ذلك فنحن ندفع الضرائب» قالت أمي؟ وأنا علي أن أنتظر هنا في هذا البيت الكبير لوحدي ، بينما أنت ترافق امرأة سوداء لبيتها . »

- «إنك تعلمين أنني لا أبيت الليل في الخارج ، ومعي سكين» قال أبي

- «سوف أتوقف إذا صنعت ديلسي كعكة شوكلاته» قال جيسون : أمرتنا أمي بالخروج وقال أبي لجيسون إنه لا يعلم إذا كان سيحصل على كعكة شوكلاته أم لا ولكنه يعلم ما الذي سيلاقيه جيسون بعد دقيقة ، عدنا جميعاً إلى المطبخ وأخبرنا نانسي .

- قال لها أبي أن عليها العودة للبيت واغلاق الباب وسوف تكون بخير ، وقال كادي «بخير من ماذا ؟ يا نانسي هل جوبا غاضب عليك ؟» كانت نانسي تحمل فنجان القهوة بين يديها ، وأكواعها عند ركبتيها والفنجان بين ركبتيها وكانت تنظر في الفنجان .

- «ماذا فعلت حتى غضب منك جوبا ؟» قال كادي .

أفلت الفنجان من بين يدي نانسي ، وسقط على الأرضية دون أن ينكسر ، لكن القهوة اندلقت . جلست نانسي ، وقد لفت يديها على هيئة فنجان ، ثم بدأت بإطلاق ذلك الصوت مرة أخرى ، ليس عالياً كأنها تغني ولا تغني وأخذنا نراقبها .

- «هيا توقفي عن هذا» قالت ديلسي : «وتمالكي نفسك وانتظري هنا فسوف أطلب من ڤيرش أن يرافقك إلى المنزل» ثم خرجت ديلسي ونظرنا إلى نانسي ، كانت كتفاها ترتجفان . ولكنها توقفت عن إطلاق الصوت . بقينا نراقبها . «ماذا سيفعل لك جوبا ؟» قال كادي : «لقد غادر» نظرت نانسي إلينا .

- «لقد تمتعنا في تلك الليلة التي أمضيتها في غرفتكم أليس كذلك؟»

- «كلا» . قال جيسون . «أنا لم أتمتع» .

- «لقد كنت نائماً» قال كادي : «إنك لم تكن معنا .»

- «لنذهب إلى منزلي ونتمتع أكثر» قالت نانسي :

- «إن أمي لن تسمح لنا» قلت لها ، «والوقت متأخر الآن»

- «لا تقلقوها سوف نخبرها في الصباح ، لن تبالي كثيراً !»

- «إنها لن تسمح لنا» قلت لها .

- «لا تطلب منها الآن» قالت نانسي : «لا تزعجها» .
- «لم يقولا بأننا لا نستطيع الذهاب» قال كادي :
- «إننا لم نسأل» قلت له :
- «إذا ذهبتما فسوف أخبر عنكما» قال جيسون :
- «سوف نتمتع» قالت نانسي ، «لن يباليا كثيراً ، فقط إلى بيتي» .
لقد عملت عندكم وقتاً طويلاً . لذا فهما لن يباليا .
- «أنا لست خائفاً من الذهاب» ، جيسون هو الذي يخاف ، وسوف يخبر عنا .
- «أنا لست خائفاً» قال جيسون :
- «أنت خائف» قال كادي وسوف تخبر عنا .
- «أنا لن أخبر عنكم ولست خائفاً» . قال جيسون :
- «جيسون لا يخشى بأن يذهب معنا ، هل أنت خائف يا جيسون ؟»
قالت نانسي :
- «جيسون سوف يخبر» قال كادي .

كان الممر الضيق معتماً ، مررنا عبر بوابة المرعى . قال كادي : «إذا قفز علينا شيء من خلف ذلك الباب ، فإن جيسون سوف يصيح » .

- «لن أفعل ذلك» قال جيسون : وسرنا عبر الممر الضيق ، فيما كانت نانسي تتكلم بصوت مرتفع .
- «لماذا تتكلمين بصوت مرتفع هكذا يا نانسي ؟» قال كادي :
- «من ؟ أنا ؟» قالت نانسي «اسمعوا ! كوينتين وكادي وجيسون يدعون بأني أتكلم بصوت مرتفع .»
- «إنك تتكلمين وكأننا أربعة هنا» قال كادي : «تتكلمين وكأن أبي هنا أيضاً» .
- «من ؟ أنا أتكلم بصوت مرتفع يا سيد جيسون ؟» قالت نانسي :
- «لقد نادت نانسي جيسون باسم سيد» قال كادي :
- «اسمعوا كيف يتكلم جيسون وكوينيتين وكادي» قالت نانسي :
- «إننا لا نتكلم بصوت مرتفع» قال كادي ، «بل إنك أنت التي تتكلمين وكأن أبي» . . .

- «هش . اسكت يا سيد جيسون» .

- نادت نانسي جيسون باسم سيد مرة أخرى . . .

- «هش» قالت نانسي : كانت تتكلم بصوت مرتفع ، عندما عبرنا الخندق وانحنينا لنمر عبر السياج ، الذي كانت تنحني لتمر خلاله . وهي تحمل الثياب على رأسها ثم وصلنا إلى بيتها . كنا نسير بسرعة حينها . فتحت الباب كانت رائحة البيت تشبه رائحة المصباح ، أما رائحة نانسي فكانت كرائحة الفتيلة . وكأنهما كانا ينتظران رائحة أخرى . أضاءت المصباح وأغلقت الباب وأقفلته بالمزلاج ثم بدأت تتكلم ، لكن بصوت منخفض وهي تنظر إلينا .

- «ماذا سنفعل ؟» قال كادي :

- «ما الذي تريدون كلكم ان تفعلوه ؟» قالت نانسي :

- «لقد قلت أننا سنستمتع .» قال كادي :

كان هناك شيء في منزل نانسي ، شيء تستطيع شمّه ، حتى جيسون شمَ ذلك ، قال لا أريد أن أبقى هنا ، أريد أن أعود إلى البيت

- «عد إذن» قال كادي :

- «لا أريد أن أعود لوحدي» قال جيسون :

- «سوف نتسلى قليلاً» قالت نانسي :

- «كيف؟» قال كادي :

وقفت نانسي بجانب الباب وراحت تنظر إلينا ، لكن هذه المرّة كانت عيناها مفرغتين وكأنها توقفت عن استعمالهما .

- ماذا تريدون أن تفعلوا؟ قالت نانسي :

- «أخبرينا قصة» . قال كادي : «هل تستطيعين أن تخبرينا قصة؟ »

- «نعم» قالت نانسي :

- «إذن احكي» قال كادي : «ألا تعرفين أي قصص» . نظرنا جميعاً إلى نانسي

- «نعم» قالت نانسي «أعرف» .

جلست على مقعد بالقرب من المدفأة ، هناك بعض النار . أوقدتها قليلاً وأصبح المكان حاراً . لم نكن نحتاج إلى نار فقد ، كان اللهب كافياً . حكت لنا قصة . كانت

تتكلم وعيناها تراقبنا ، أو كأنها صوتها ليس لها ، أو كأنها تعيش في مكان آخر . تنتظر في مكان آخر ، وكأنها كانت خارج البيت . صوتها وشكلها كانا خارج البيت ، تلك النانسي التي كانت تنحني أسفل السياج ، وهي تحمل كومة من الثياب بتوازن على رأسها وكأنها لا تحمل وزناً أو كأنها تحمل بالوناً ، كانت هناك وكان هذا كل شيء . تابعت تروي القصة : «وهكذا كانت الملكة تسير صاعدة إلى الخندق ، وكان الرجل الشرير يختبئ هناك ، وكانت تقول : لو أستطيع فقط عبور هذا الخندق ، . هذا ما كانت تقوله» .

- «أي خندق ؟» قال كادي : «أهو خندق مثل ذلك الذي في الخارج ؟»

«لماذا تريد الملكة أن تدخل إلى الخندق .»

- «لكي تصل إلى بيتها» قالت نانسي : ونظرت الينا - «كان عليها أن تعبر الخندق لكي تصل إلى بيتها .»

- «لماذا أرادت أن تذهب إلى بيتها ؟» قال كادي :

٤

نظرت نانسي إلينا ثم توقفت عن الكلام ، كانت رجلا جيسون بارزتين خارج بنطاله بسبب صغر حجمه وقال :

- «لا أظن أن هذه القصة جيدة ، أريد أن أعود إلى البيت .»

- «ربما لدينا قصة أفضل» قال كادي ونهض عن الأرضية ، أظن أنهم يبحثون عنا الآن ثم اتجهت نحو الباب .

- «كلا» قالت نانسي : «لا تفتح الباب» .

نهضت بسرعة وسبقت كادي نحو الباب وقالت : «لا تلمس الباب ولا المزلاج الخشبي .»

- «لم لا ؟» قالت كادي :

- «تعالوا إلى المصباح» قالت نانسي «سوف نتسلى . لا تذهبوا .»

- «إن علينا أن نذهب» قال كادي «إلا إذا تسلينا كثيراً .» عاد هو ونانسي نحو نار المصباح .

- «أريد أن أعود إلى البيت» قال جيسون : «سوقف أبلغ عنكم .»

- أعرف قصة أخرى قالت نانسي ووقفت بجوار المصباح ونظرت إلى كادي مثلما تكون عيناك تنظر إلى عود موضوع بتوازن على أنفك . كان عليها أن تنظر إلى الأسفل ،لترى كادي ولكن عيناها كانتا هكذا كأنما يوازنان عوداً .

- «لن أستمع إليها» قال جيسون : «سوف أطرق على الباب .»

- «إنها قصة جيدة» قالت نانسي : «وأفضل من الأولى .»

- «عن ماذا تتحدث هذه القصة» قال كادي :

كانت نانسي تقف بجوار المصباح ، ويدها فوقه أمام الضوء طويلة وسمراء .

- «إن يدك على هذه الكرة الساخنة . ألا تشعرين بحرارتها على يديك» قال كادي : نظرت نانسي إلى يدها على مدخنة المصباح ، ورفعتها ببطء ووقفت هناك تنظر إلى كادي ، وهي تلوي يدها وكأنها كانت مربوطة بخيط إلى معصمها .

- «لنفعل شيئاً آخر» قال كادي :

- «أريد أن أعود إلى البيت» قال جيسون :

- إن لدي بعض البوشار» قالت نانسي ونظرت إلى كادي ، ثم إلى جيسون ثم إليّ ومن ثم إلى كادي مرة أخرى .

- «إن لدي بعض البوشار» قالت مرة أخرى .

- «أنا لا أريد البوشار» قال جيسون : «أفضل الحلوى .»

نظرت نانسي إلى جيسون وقالت : «بإمكانك ان تمسك بوعاء تحميص الذرة» وكانت لا تزال تلوي يدها الطويلة السمراء .

- «حسناً» قال جيسون : «سوف أبقى إذا تمكنت من فعل ذلك ، فكادي لا تستطيع الإمساك به ، وسوف أذهب إلى البيت اذا أمسك كادي بوعاء التحميص .»

أشعلت نانسي النار وقال كادي : «انظروا إلى نانسي إنها تضع يدها في النار ، ما بالك يا نانسي»؟

- «إن لدي بوشار» ، وأخرجت وعاء التحميص من تحت السرير ، كان مكسوراً فأخذ جيسون بالبكاء وقال لا يمكننا أن نحصل على بوشار .

- «علينا أن نعود إلى البيت على أية حال» قال كادي وأردف : «هيا يا كوينتين» .

- «انتظرا» قالت نانسي : «انتظرا سوف أصلحه ألا تريدان مساعدتي في إصلاحه .»

- «لا أظن أنني أريد شيئاً» قال كادي : «فالوقت متأخر جداً الآن .»

- «أتساعدني يا جيسون ؟» قالت نانسي : «ألا تريد أن تساعدني ؟»

- «كلا» قال جيسون : «أريد أن أعود إلى البيت .»

- «هش» قالت نانسي : «هش ، راقبني وانظر كيف يمكنني أن أصلحه ، بحيث يمسكه جيسون ويحمص الذرة» أحضرت قطعة سلك وأصلحت وعاء التحميص .

- «إنه لن يمسك جيداً» قال كادي :

- «نعم سوف يمسك» قالت نانسي : «انظروا جميعاً ستساعدوني في تقشير الذرة» .

كانت الذرة موضوعة تحت السرير أيضاً ، قمنا بتقشيرها ووضعها في وعاء التحميص ، وساعدت نانسي جيسون في تثبيت الوعاء فوق النار .

- «إنها لا تفرقع» قال جيسون ، «اريد أن أعود إلى البيت .»

- «انتظر» قالت نانسي : «سوف تبدأ بالفرقعة وعندها سوف تتسلى» ، كانت تجلس بقرب النار ، كان المصباح قد أدير عالياً لدرجة أنه بدأ يدخن .

- «لماذا لا تخفضين منه قليلاً ؟» قلت لها :

- «إنه على ما يرام» قالت نانسي : «سوف أنظفه ، انتظروني سوف يكون البوشار جاهزاً خلال دقائق .»

- «لا أصدق أنه سيبدأ بالفرقعة» قال كادي : «يجب أن نعود إلى البيت على أي حال ، فإنهم سيقلقون علينا .»

- «كلا» قالت نانسي : «سوف يفرقع ، وإن ديلسي ستقول لأمكم أنكم معي ولأنني عملت لديكم وقتاً طويلاً فهم لن يبالوا كثيراً إذا كنتم في منزلي . والآن انتظروا فإن الفرقعة ستبدأ خلال دقائق .»

دخل بعض الدخان في عيني جيسون ، وبدأ يبكي ثم أسقط الحماصة في النار . أحضرت نانسي رقعة مبلولة ، ومسحت وجه جيسون ولكنه لم يتوقف عن البكاء .

- «هش» قالت له «هش» ولكنه لم يسكت . أخرج كادي وعاء التحميص من

النار ، وقال «لقد احترقت وعليك إحضار المزيد من الذرة يا نانسي .»

- «هل وضعتها كلها فيها ؟» سألت نانسي :

- نعم قال كادي ، فنظرت نانسي إلى كادي ثم أخذت الحماصة من كادي وفتحتها وسكبت البوشار الأسود في مريولها . ثم أخذت تفرز الحبوب بيديها الطويلتين السمراوين فيما نحن جميعاً نراقب .

- «أليس لديك المزيد ؟» سألها كادي :

- «نعم ،» قالت نانسي ، «انظروا ! هذه لم تحترق وجميع ما نحتاج فعله . . .»

- «أريد أن أذهب إلى البيت» قال جيسون ، «سوف أبلغ عنكم .»

- «هش» قال كادي ، أخذنا نصغي جميعاً ، كان رأس نانسي قد اتجه نحو الباب المغلق بالمزلاج ، وعيناها تلمعان في ضوء المصباح الأحمر .

- «هناك شخص قادم ،» قال كادي :

بدأت نانسي بإطلاق ذلك الصوت مرة أخرى بصوت غير مرتفع . كانت تجلس قرب النار ويداها الطويلتان تتدليان بين ركبتيها ، وفجأة بدأ الماء يخرج من وجهها في نقاط كبيرة ، وينسل أسفل وجهها في كل نقطة ، منه تجري كرة ضوء نارية إلى أن يصل إلى ذقنها .

- «إنها لا تبكي» قلت :

- «أنا لا أبكي» قالت نانسي بعينين مغمضتين «أنا لا أبكي : من هناك ؟»

- «لا أعلم قال كادي . ذهب إلى الباب وأخذ ينظر .

- إن علينا العودة الآن إلى البيت ها هو أبي قادم .»

- «سوف أبلغ» قال جيسون : «لقد أجبرتموني جميعاً على المجيء إلى هنا .» كان الماء ما يزال يجري على وجه نانسي ، واستدارت في مقعدها ثم قالت : «اسمعوا أخبروه أنكم استمتعتم هنا ، وأنني اعتنيت بكم جيداً حتى الصباح . أخبروه أن يسمح لي بالذهاب معكم إلى البيت والنوم على الأرضية . أخبروه أنني لا أحتاج إلى فراش . سوف نستمتع معاً ، فهل تذكرون كم استمتعنا في المرة الأخيرة ؟»

- «أنا لم أستمتع أبداً» قال جيسون : «إنك سببت لي الأذى وأدخلت الدخان في عيني» .

٥

دخل أبي – ونظر إلينا – لم تنهض نانسي .

– «أخبروه» قالت :

– «لقد أحضرنا كادي إلى هنا» قال جيسون – «لم أكن أريد ذلك» اقترب والدي من النار ، نظرت نانسي إليه فقال لها : «ألا تستطيعين الذهاب إلى العمة راشيل والبقاء عندها ؟»

نظرت نانسي إلى أبي ، كانت يداها بين ركبتيها . فقال أبي : «إنه ليس هنا وإلا لرأيته ، لم يكن هناك شخص واحد على الطريق» . «إنه في الخندق» قالت نانسي : «ينتظر في الخندق هناك» .

– «كلام فارغ» قال أبي : «هل تعلمين أنه هناك ؟»

– «لقد وصلتني إشارة .»

– «أية اشارة ؟»

– «لقد وصلتني . كانت موضوعة على الطاولة عندما دخلت ، فقد كانت هناك عظمة خنزير ، وعليها بعض اللحم والدم بالقرب من المصباح . إنه في الخارج هناك ، وعندما تغادرون هذا الباب سأكون قد انتهيت .»

– «من الذي انتهى يا نانسي» قال كادي :

– «أنا لست بواش» قال جيسون :

– «كلام فارغ !» قال أبي :

– «إنه هناك في الخارج ينظر من النافذة في هذه الدقيقة – ينتظر خروجكم جميعاً وعندها سأكون قد انتهيت .»

– «كلام فارغ »! قال أبي : «اقفلي باب بيتك وسنأخذك عند العمة راشيل» .

– «لن ينفعني هذا الأمر بشيء» قالت نانسي ولم تكن الآن تنظر إلى أبي بل كان هو ينظر اليها إلى الأسفل إلى يديها الطويلتين المنهكتين المتحركتين .

– «لو غضضت الطرف عن الأمر فلن ينفعني بشيء» قالت نانسي :

– «إذن ماذا تريدين أن تفعلي »؟ قال أبي

– «لا أعرف» قالت نانسي : «لا أستطيع أن أفعل شيئاً . فقط نسيان الأمر وهذا

لن ينفعني بشيء ، أظن أن الأمر عائد إلي ، أظن أن ما سأناله هو عائد إلي .»

– «تنالين ماذا ؟» قال كادي : «ما الذي لك ؟»

– «لا شيء» قال أبي يجب أن تذهبوا جميعاً إلى النوم .

– «لقد أجبرني كادي على المجيء هنا» قال جيسون :

– «اذهبي إلى العمة راشيل» قال أبي .

– «لن ينفعني بشيء قالت نانسي ، وجلست بجانب النار واضعة أكواعها ويديها الطويلتين بين ركبتيها وأضافت : «حتى إن مطبخكم لن ينفعني بشيء وحتى عندما أنام على أرضية الغرفة مع أولادك وفي الصباح التالي ها أنا والدم . . .»

– «هش» قال لها أبي : «أقفلي الباب وأطفئي النور واذهبي للنوم .»

– «إني أخاف من الظلام» قالت نانسي : «أخاف أن يحدث الأمر في الظلام .»

– «هل تعنين أنك ستبقين جالسة هنا والنور مضاء؟» قال أبي :

بدأت نانسي تطلق الصوت المعهود مرة أخرى وهي جالسة أمام النار ويداها بين ركبتيها .

– «آه يا للعنة» قال أبي : «هيا يا أولاد حان وقت النوم .»

– «عندما تذهبون جميعاً ، أذهب وسأكون ميتة غداً» قالت نانسي : «لقد وفرت بعض المال لكفني لدى السيد لفلادي – .»

كان السيد لفلادي رجلاً قصيراً قذراً ، يجمع التأمين للسود ، ويأتي صباح كل سبت إلى الأكواخ ليجمع خمسة عشر سنتاً . كان هو وزوجته يعيشان في فندق . في أحد الأيام عثر على زوجته منتحرة . كان لديهما طفلة صغيرة ، وكان السيد لفلادي وطفلته قد رحلا بعد انتحار زوجته ، إلا أنه عاد بعد فترة . وكنا نراه وهو يعبر الممرات والأزقة الضيقة صباح كل سبت ، ويذهب إلى الكنيسة المعمدانية .

حمل أبي جيسون على ظهره ، وخرجنا من باب منزل نانسي ، وبقيت هي جالسة أمام النار .

– «تعالي وضعي المزلاج» قال لها أبي لكنها لم تتحرك ولم تنظر نحونا مرة أخرى . تركناها مكانها بجوار النار وباب منزلها مفتوح حتى لا يحدث الأمر في الظلام .

١٩٣١

دوروثي باركر

هانحن هنا

عن «ذي كوزموبوليتان»

أنهى الشاب ذو البدلة الزرقاء الجديدة تثبيت حقيبة سفره اللامعة ، في احدى الزوايا الضيقة في مقصورة عربة القطار . فقد كان القطار الذي أقلهم الى هنا كثير الانحراف ، والوثوب على الطريق لدرجة كان معها حفظ التوازن متقطعاً ، وجديراً بالثناء ، مما اضطر الشاب الى نقل الحقائب ، ورفعها ومن ثم دفعها وتثبيتها بعناية فائقة .

ومع ذلك فقد استغرق وقتاً طويلاً في تثبيت حقيبته ، وصل الى الثماني دقائق . جلس بعدها مسنداً ظهره على المقعد الخشن الأخضر ، ذو الملمس الخملي في مواجهة الفتاة التي ترتدي ثوباً لونه بيج ، والتي كانت تبدو مثل بيضة جديدة مقشرة ، بقبعتها وفراؤها وثوبها وقفازيها التي تلمع وكأنها صقلت على الطراز الحديث .

وكانت تلصق على احدى زوايا نعل حذائها الزلق ، الذي هو بلون الثوب ، ورقة بيضاء مستطيلة مطبوع عليها السعر المدفوع بهذا الحذاء اضافة الى اسم المتجر الذي

يصلها الصدأ . ما أن جلس الشاب حتى التفتت نحوه بأدب ، وابتسمت نصف ابتسامة عندما تلاقت عيونهما بينما ظلت تحدق بنظرها فوق كتفه .

- حسناً ، قال الشاب .

- حسناً ، اجابته .

- حسناً ، ها نحن هنا - قال لها

- نحن هنا ، أليس كذلك؟ أجابته

- علي أن أقول اننا هنا نعم نحن هنا

- حسناً ، قالت له .

- حسناً ، كيف تشعرين بكونك امرأة متزوجة منذ زمن .

- آه ، من المبكر أن تسألني هذا السؤال - قالت له على الأقل - أعني حسناً ، أعني لم يمض على زواجنا ثلاث ساعات بعد ، أليس كذلك؟

تفحص الشاب ساعة يده ، وكأنه يحاول أن يمتلك موهبة قراءة الوقت .

- لقد مضى على زواجنا ساعتان وستة وعشرون دقيقة .

- يا الهي! قالت : تبدو وكأنها أطول من ذلك .

- كلا قال لها ، فالساعة لم تبلغ السادسة والنصف بعد .

- تبدو وكأنها تجاوزت هذا الوقت ، أظن ان السبب هو حلول الظلام مبكراً .

- فعلاً إنه يحل مبكراً ، قال «سوف تكون الليالي أطول من الآن ، وصاعداً أعني - أعني أن الظلام سيحل مبكراً .

- لم يكن لدي فكرة عن الوقت ، قالت له لقد اختلط علي الأمر ، وصرت الى حد ما لا أعرف أين أنا ولا ماذا يحدث حولي . العودة من الكنيسة ثم رؤية كل هؤلاء الناس ، ثم تبديل ملابسي ، والكل يرمي علينا اشياء ، وكل شيء يا للنعمة - لا أرى كيف يفعل الناس هذه الأشياء كل يوم .

- يفعلون ماذا؟ قال لها .

- يتزوجون ، قالت : عندما تفكر بكل هؤلاء الناس في العالم ، يتزوجون وكأنه ليس في الأمر شيء ، الشعب الصيني وجميع الشعوب ، وكأن الأمر لا شيء .

- حسناً ، دعينا لا نقلق بشعوب العالم قال لها ، ودعينا لا نفكر كثيراً

بالصينيين . ان لدينا شيئاً أفضل نفكر بها - أعني أعني - ماذا يهمنا من أمرهم؟

- أعرف . قالت له ، ولكنني كنت فقط افكر بهم جميعهم في كل أنحاء العالم ، يفعلونها كل الوقت على الأقل . أعني يتزوجون . أنت تعلم كيف هو الأمر - حسناً - انه شيء كبير تفعله يجعلك تشعر بالغرابة ، وأنت تفكر بجميع هؤلاء الناس يفعلونها وكأنها لا تعني شيئاً وكيف لأحد أن يعلم ماذا سيحدث بعد ذلك؟ .

- دعيهم يقلقون . قال لها . ليس علينا أن نقلق ، اننا نعلم تماماً ماذا سيحدث بالتالي . أعني - أعني حسناً أنت تعرفين سيكون شيئاً رائعاً ، حسناً أننا نعلم أننا سنكون سعداء أليس كذلك؟

- أوه ، طبعاً قالت له . فقط أن تبدأ بالتفكير بكل هؤلاء الناس وتستمر في التفكير بهم - يخلق لديك شعوراً غريباً . اعداد كبيرة من الناس تتزوج ولا ينتهي بهم الأمر على خير . وأعتقد أنهم جميعاً كانوا يظنون ان الأمر سيكون رائعاً .

- هيا الآن قال لها هذه ليست طريقة لبدء شهر العسل ، مع كل هذا التفكير ، انظري الينا - لقد تزوجنا وانتهينا من العرس أعني كل شيء قد تم بخير .

- آه ، لقد كان لطيفاً ، اليس كذلك؟ هل أعجبك خماري .

- لقد بدوت رائعة . قال لها رائعة .

- أوه : أنا سعيدة جداً قالت له . ايلي ولويز كانتا رائعتين أليس كذلك؟ أنا سعيدة جداً أن رأيهما استقر أخيراً على اللون الأرجواني ، لقد ظهرتا رائعتين .

- اسمعي . قال لها أريد أن أقول لك شيئاً . عندما كنت أقف في تلك الكنيسة القديمة انتظر قدومك . وانظر الى هاتين الوصيفتين قلت لنفسي حسناً لم أكن أظن ، أن لويز يمكن أن تبدو كذلك . لماذا؟ لأنها خلبت أنظار الكثيرين .

آه ، حقاً قالت له ، غريب طبعاً ، لقد اعتقد الجميع أن قبعتها ، وثوبها كانا رائعتين . ولكن العديد من الناس شعروا بأنها بدت متعبة ، لقد ردد الكثيرون ذلك كثيراً في الآونة الأخيرة وأقول لهم : أعتقد أنه ليس من اللائق أن يتحدثوا عنها هكذا .

أقول لهم . انهم يجب أن يتذكروا أن لويز لم تعد شابة كالسابق وعليهم أن يتوقعوا منها أن تبدو متعبة ، يمكن للويز أن تقول ما تشاء بأنها في الثالثة والعشرين ولكنها

أقرب بكثير الى السابعة والعشرين .

– حسناً لقد كانت تبدو صرعة في حفلة العرس . قال لها يا ولدا! .

– أنا سعيدة جداً أنك تفكر هكذا قالت أنا سعيدة أن أحدا فكر هكذا ، كيف تظن إيلي بدت؟

– ماذا؟ أقول لك بصدق لم أنتبه كثيراً لها . قال

– أوه ، حقاً قالت ، أظن أن هذا أمر سيء ، لا أظن أنه يجب أن أتكلم هكذا عن آختي ولكني لم أرى جمالاً مثل جمالها هذا اليوم . كما أنها أيضاً رقيقة وغير أنانية على الدوام ، ولم تلاحظ ذلك . ولكن على أي حال لم تكن تهتم بأيلي ، ألا تظن اني لم ألاحظ ذلك ، أن هذا يترك لدي شعور سيء للغاية حقيقة ، بأنك لا تحب أختي .

– أنا أحبها قال لها ، أنا مفتون بايلي ، أظن انها صبية رائعة .

– لا تظن أن هذا الأمر يهم ايلي . قالت له فلها العديد من المعجبين المفتونين بها . لن يهمها اذا كنت معجباً بها أم لا ، لا نطري نفسك بأنها تهتم بك . والشيئ الوحيد الذي يصعب علي كثيراً ، هو أنك لا تحبها ، هذا هو الشيء الوحيد فقط . افكر دائماً عندما نعود ونستقر في الشقة ويتم كل شيئ فسوف يصعب علي ، كثيراً أنك لن ترغب في أن تزورني أختي أو أن تأتي لتراني .

سوف يصعب علي كثيراً أنك لا ترغب في أن ترى عائلتي حولنا .

أنا أعرف شعورك نحو عائلتي ، لا تظن أني لا أرى .

وأنت الخاسر فقط اذا لم تكن ترغب في رؤيتهم وليس هم . لا تطري نفسك بذلك .

– اوه ، ما هذا ؟ قال لها ما كل هذا الكلام الآن عن عدم رغبتي في رؤية عائلتك حولنا؟ لماذا؟ أنت تعرفين كيف أشعر نحو عائلتك . وأظن أن أمك العجوز – اعتقد أن أمك رائعة وكذلك ايلي وأبوك فلم كل هذا الكلام؟

– حسناً ، لقد رأيت هذا ، قالت . لا تظن اني لم أره ، كثير من الناس يتزوجون ويظنون أن الأمر سيكون رائعاً وكل شيء . ولكن سرعان ما يتحطم الزواج لأن بعض الناس ، لا يحبون عائلات الناس الآخرين أو أي شيء شبيه بذلك . لا تقل لي ، لقد

رأيت مثل هذا الأمر يحدث .

- يا عزيزتي لماذا هذا كله ، وما هو الشيء الذي تغضبين منه؟

انظري أن هذا شهر عسلنا ، هل تحاولين أن تبدأي مشاجرة ما؟

آه ، أظن أنك تشعرين بنوع من العصبية فقط .

- أنا؟ قالت له . لا يوجد شيء يسبب لي العصبية - أعني - أعني يا للنعمة . أنا لست عصبية .

- أنت تعلمين قال لها ، يقولون أن البنات في الكثير ، من الأحيان تنتابهن نوبات عصبية نتيجة لتفكيرهن حول . . . أعني - أعني حسناً ، ان الأمور كما قلت سابقاً مختلطة . . . وكل شيء حالياً .

ولكن فيما بعد سوف تصبح كلها على ما يرام اعني - أعني - حسنا انظري يا عزيزتي ، انك لا تبدين مرتاحة جداً ، ألا تودين أن تنزعي قبعتك ودعينا لا نتشاجر بعد الآن ، هل تقبلين ذلك؟

- آه ، أنا آسفة لقد كنت عنيدة . قالت اعتقد أني أشعر بعدم الراحة قليلاً ، والأمور مختلطة بعض الشيء ، واظن أيضاً أن تفكيري بكل هؤلاء الناس ، في كل مكان وكوني أنا معك وحيدة هنا يجعلني أحس ببعض الاختلاف ، ان ما يحصل شيء عظيم ، ولا يمكنك أن تلوم الانسان اذا أخذه التفكير . أليس كذلك؟ نعم دعنا لا نتشاجر أبداً ، لن نكون مثل أكثر هؤلاء ، لن نتشاجر ولن نسيء الى بعضنا . سوف ترى .

- راهني بحياتك أننا لن نتشاجر . قال لها .

- أظن اني سوف أنزع هذه القبعة اللعينة عن رأسي ، قالت : انها تضغط علي ، فقط ضعها على العلاقة اذا سمحت يا عزيزي ، هل تعجبك يا حبيبي؟ .

- انها تبدو رائعة عليك قال لها

- كلا ولكني أعني هل تعجبك حقاً؟

- حسناً ، سأقول لك ، قال اعلم أنها موضة جديدة وكل شيء وانها في الأغلب ، رائعة ولكني لا أفهم في مثل هذه الأشياء ، فقط أحب نوع القبعات الزرقاء مثل هذه . نعم أنا أحب هذه القبعة .

– أوه ، حقاً قالت حسناً هذا لطيف ورائع . ان أول شيء تقوله لي بعد أن ترجلنا من القطار ، وتركت عائلتي وكل شيء . انك لا تحب قبعتي . أول شيء تقوله لزوجتك أن لديها ذوق سيء في اختيار القبعات ، هذا لطيف أليس كذلك؟

– يا عزيزتي قال لها أنا لم أقل شيئاً من هذا ، لقد قلت فقط . . .

– ان ما لا تدركه هو . قالت . ان هذه القبعة قد كلفتني اثنان وعشرون دولاراً نعم اثنان وعشرون . وهذا الشيء الأزرق المرعب الذي تظن أنك مفتون به كلفني ثلاثمائة وخمس وتسعون .

– أنا لا أبالي بتكلفتها ، أنا قلت فقط ، أنا قلت أني أحب هذه القبعة الزرقاء ، أنا لا أفهم شيئاً بالقبعات . سوف أكون مفتوناً بهذه عندما اعتاد عليها . فقط أنها نوع مختلف عن باقي القبعات ، أنا لا أعرف الموضة الجديدة . ماذا تظنيني أعرف عن القبعات النسائية .

– ان هذا مؤسف جداً . قالت انك لم تتزوج امرأة تلبس نوع القبعات الذي يعجبك . قبعات تكلف ثلاثمائة وخمسة وتسعون دولاراً . لماذا لم تتزوج لويز طالما تعتقد بأنها جميلة؟ وسوف يعجبك ذوقها في القبعات لماذا لم تتزوجها؟

– والآن يا عزيزتي أرجوك لأجل السموات .

– لماذا لم تتزوجها . قالت . كل ما فعلته منذ ركبنا هذا القطار هو الحديث عنها ، وأنا جالسة هنا استمع فقط الى حديثك عن كم هي رائعة لويز .

أظن هذا لطيفاً . أن تأتي بي الى هنا وحدي وثم تتشدق بجمال لويز أمام وجهي ، لماذا لم تطلب منها الزواج . أنا متأكد أنها ستقفز لتمسك بهذه الفرصة . لا يوجد الكثير ممن يطلبون الزواج منها . أنا متأكدة أنها ستكون أسعد حالاً .

– اسمعي يا صغيرتي . قال ما دمت تتكلمين عن أشياء كهذه ، لماذا إذن لم تتزوجي جوبروكس . اعتقد أنه سيعطيك كل قبعات الاثنين وعشرين دولاراً التي ترغبينها .

– حسناً . انا لست متأكدة بأني أسفت لأني لم أفعل دلك هناك ، جوبروكس لن ينتظر حتى نصبح لوحدنا لكي يسخر من ذوقي في اختيار الثياب . جوبروكس لن يجرح شعوري أبداً ، لقد كان دائماً معجباً بي هناك .

- نعم قال لها انه معجب بك لدرجة أنه لم يرسل لك هدية زفاف . هكذا هو معجب بك .

- للحقيقة . قالت . أنا أعرف أنه - أنه ليس هنا وأنه ذهب بعيداً في عمل وحالما يعود سوف يعطيني كل ما أطلبه ، للشقه .

- اسمعي قال لها أنا لا أريد شيئاً في شقتي من طرفه ، أي شيء يعطيك اياه سوف القيه من النافذة . هذا ما أظنه في صديقك جوبروكس وعلى أي حال كيف تعرفين ؛ أين هو؟ وماذا سيفعل؟ هل كان يكتب لك؟

- أظن أن اصدقائي يمكنهم أن يكتبوا لي قالت لم اسمع عن أي قانون يحرم هذا .

- حسناً أعتقد أنه بامكانهم ، قال لها . وما دمت تظنين ذلك ، أنا لن أقبل أن تتلقى زوجتي رسائل كثيرة من بائعين متجولين رخيصين .

- جوبروكس ليس بائعاً متجولاً رخيصاً قالت؟ انه ليس كذلك . انه يحصل على اجر كبير .

- حقاً قال لها وكيف علمت بهذا؟

- لقد أخبرني بنفسه . قالت له .

- آه ، لقد قال لك ذلك بنفسه قال لها . أرى الآن ، انه قال لك ذلك بنفسه .

- ان لك الحق بالتحدث عن جوبروكس قالت له . انت وصديقتك لويز كل ما تتحدث عنه هو لويز .

- آه ، بحق السماء قال لها ماذا يهمني من لويز ، لقد ظننت أنها صديقتك هذا كل شيء وهذا ما جعلني انتبه لها .

- حسناً ، يبدو أنك انتبهت أكثر من اللزوم اليوم قالت ، وفي يوم زفافنا ، لقد قلت بنفسك بأنك بقيت تفكر بها وأنت تقف بانتظاري في الكنيسة هناك على المذبح وفي حضور الله كل ما كنت تفكر به هو لويز .

- اسمعي يا عزيزتي ، ما كان يجب علي أن أقول هذا . كيف يمكن لأحد أن يعرف أية أفكار غريبة تدخل في رأس الانسان؟ وهو واقف ينتظر أن يتزوج . لقد قلت لك هذا لأنه كان شيئاً غريبا وظننت أنه قد يضحكك .

أنا لم أعلم ! قالت . لقد كان الأمر مختلطاً جداً علي اليوم ، لقد أخبرتك بذلك ، كل شيء غريب وكل شيء والتفكير بكل هؤلاء الناس في العالم ، والآن نحن هنا وجدنا وكل شيء ، أنا أعلم أن الأمر اختلط عليك فقد ظننت أنك عندما استمريت في الكلام حول كم كانت لويز رائعة ، أنك كنت تقول ذلك بخبث وعن سبق تخطيط . أنا لم أفعل شيئاً عن خبث وعن سابق تخطيط قال لها ، أنا فقط أخبرتك عن لويز لأني ظننت أن هذا قد يسرك .

- حسناً ، انه لم يسرني قالت له .

- كلا ، كلا أنا أعلم أنه لم يسرك . بالتأكيد لم يسرك

آه ، يا عزيزتي ، وعلينا أن يكون جونا ضاحكاً الآن ، يا للجحيم يا عزيزتي ، ان هذا شهر عسلنا ، ما الأمر؟

- لا أعرف ، قالت له ، لقد كنا نتشاجر كثيراً أيام الخطبة وما سبقها . ولكني اعتقدت ان الأمر سيصبح مختلفاً حالما ، نتزوج والآن أشعر بشيء من الغرابة . وكل شيء أشعر كأنني وحيدة .

- حسناً أتري يا عزيزتي أننا لم نصبح متزوجين بعد - أنا أعني ، أأ أعني ، حسناً ستصبح الأشياء مختلفة فيما بعد ، آه يا للجحيم أعني لم يمض على زواجنا وقت بعد .

- كلا قالت له .

- ليس لدينا وقت طويل . لننتظر الآن ، قال لها أعني حسناً ، سوف نكون في نيويورك خلال عشرين دقيقة سوف نتعشى بعدها وسوية سنستشعرُ ما سنفعله . أو أعني هل هناك شيئاً خاصاً ترغبين في فعله الليلة .

- ماذا ؟ قالت له .

- إن ما أعنيه هو هل ترغبين في الذهاب لحضور عرض أو شيئاً آخر؟

- كما تشاء ، لقد كنت أعتقد أن الناس لا يذهبون الى المسرح أو أي شيء ليلة . . . أعني لدي رسالتان لأكتبهما - أرجوك أن تذكرني بهما .

- أوه ، قال لها هل ستكتبين رسائل الليلة؟

- حسناً ، أترى لقد كنت في وضع مريع تماماً . لقد نسيت مع كل هذه الاثارة

حولنا ، وكل شيء ان أشكر السيدة سبراغ العجوز على صحن التوت كما لم أفعل شيئاً بخصوص نهايات الكتب التي أرسلها الماكماسترز . ان هذا الأمر يثقل علي ويجب أن أكتب لهم هذه الليلة بالذات .

- وعندما تنتهين من كتابة الرسائل قال لها ، ربما احضر لك مجلة أو كيساً من الفستق .

- ماذا؟ قالت له .

- أعني . قال لها . لا أريد ان تشعري بالضجر .

- وكأنه يمكن أن أشعر بالضجر معك . قالت له ، سخف ، ألسنا متزوجين فكيف نضجر .

- ما طننته! قال لها ظننت أنه يمكننا الذهاب مباشرة الى بالتيمور وترك حقائبنا ، ثم ربما نتناول العشاء في الغرفة بهدوء ونفعل ما نشاء أعني ، أعني دعينا نذهب هناك مباشرة من المحطة .

- آه ، نعم . دعنا نفعل ذلك . قالت له . أنا سعيدة جداً أننا ذاهبان الى بالتيمور . أنا أحبها ، خلال المرتين اللتين ذهبنا فيهما ، الى نيويورك مع عائلتي أمضينا الوقت فيها ، لقد فتنا بها جميعاً . أبي وأمي وايلي وأنا ، لقد كنت أنعم بنوم مريح هناك . كنت أخلد للنوم في اللحظة ، التي ألقي فيها برأسي على الوسادة .

- أوه حقا؟ قال .

- على الأقل اعني أن تلك الأعالي هادئة جداً .

- قد نذهب لحضور عرض ما ليلة غد بدلاً ، من الليلة قال لها أليس هذا أفضل؟

- نعم أظن أنه أفضل . قالت

نهض ووازن نفسه قليلاً ثم جلس بجانبها .

- هل يتوجب عليك حقاً ان تكتبي هذه الرسائل الليلة؟ قال لها

- حسناً . قالت له أعتقد أنني لو كتبتها اليوم فلن تصل اسرع مما لو سأكتبها غداً .

ساد الصمت مع كل ما يرافقه من أشياء .

- وسوف لن نتقاتل أبداً بعد الآن . أليس كذلك؟ قال لها .

- أوه . كلا قالت له أبداً ، لا أدر ما الذي جعلني اتصرف هكذا .

لقد وصل الأمر الى الغرابة حتى الى حد الكابوس .

الطريقة التي كنت أفكر فيها بكل هؤلاء الناس ، الذين يتزوجون في الوقت نفسه ، والكثير منهم يتحول زواجهم الى أشلاء ، نتيجة للمشاجرة وكل شيء ، لقد اختلط علي الأمر وأنا أفكر بهم .

أوه أنا لا أريد أن أكون مثلهم ، و لكننا لن نكون كذلك اليس هذا صحيحاً؟

- بالتأكيد لن نكون كذلك قال لها .

- لن يتحول زواجنا الى أشلاء ، قالت له لن نتشاجر ، سوف يكون الأمر كله ، مختلفاً الآن وقد تزوجنا سوف يكون رائعاً ، اعطني قبعتي يا عزيزي أرجوك ، لقد حان الوقت لأضعها على رأسي ، شكراً . أنا آسفة جداً لأنك لم تحبها .

- أنا أحبها الى أبعد حد ، قال لها

- ولكنك قلت أنك لا تحبها . قالت له . لقد قلت أنها مروعة تماماً .

- أنا لم أقل شيئاً من هذا القبيل قال لها . انك مجنونة .

- حسناً ، قد أكون مجنونة ، قالت شكراً جزيلاً لك ، ولكن هذا ما قلته ليس لأن الأمر يهمني ، انه شيء تافه ، ولكنك قد تشعر بالغرابة عندما تفكر بأنك قد تزوجت انساناً يدعى بأن ذوقك سيء بشكل مطلق في اختيار القبعات ، ثم الى جانب هذا يقول بأنك مجنون .

- والآن اسمعي هنا قال لها أنا لم أقل شيئاً من هذا القبيل . واي! أنا أحب هذه القبعة ، وكلما نظرت اليها كلما احببتها أكثر اعتقد تماماً انها رائعة .

- لم يكن هذا ما قلته من قبل . قالت له .

- يا عزيزتي قال لها توقفي ، أرجوك لماذا تريدين أن تبدئي هذا الأمر مرة أخرى؟ أنا أحب هذه القبعة اللعينة اعني أحب قبعتك . وأحب كل شيء ترتديه . ما الذي تريدين مني قوله أكثر من هذا؟

- حسناً ، أنا لا أريدك أن تقوله بهذه الطريقة . قالت له .

- لقد قلت أظن أنها رائعة قال لها : هذا كل ما قلته .

- أحقا تظن ذلك؟ قالت آه ، أنا سعيدة وكنت سأكرهك لو لم تحب قبعتي ، وسوف يكون الأمر لا أدري ، ولكن سيكون نوعاً من البداية السيئة .

- حسناً ، أنا مفتون بها والآن انتهينا من هذا الأمر . بحق السموات يا حبيبتي ، يا حملي الصغير . لن نبدأ أية بدايات سيئة . انظري الينا نحن في شهر عسلنا ، وقريباً سنصبح شخصين متزوجين منتظمين . أعني بعد عدة دقائق سنصل الى نيويورك ، ثم نذهب الى الفندق ثم سيكون كل شيء على ما يرام ، أعني انظري الينا ، . ها نحن هنا متزوجان ، ها نحن هنا .

- نعم ها نحن هنا قالت له ، اليس كذلك؟

١٩٣٣

ف - سكوت فيتزجيرالد

الأحد المجنون

عن «ذي اميريكان مركوري»

لم يكن يوم الأحد يوماً ، بل كان فجوة بين يومين ، فلكم خلف وراءه أحداثاً وترتيبات ، أجواء صراع وتنافس بين الشخصيات المبدعة المتواجدة في غرف الاجتماعات ، إضافة إلى تجمعات الانتظار الطويلة الواقفة تحت الذراع المتأرجح للميكروفون ، قيادة السيارات يومياً مسافة مئات الأميال ذهاباً وإياباً إلى مقاطعة هوليوود وحلول الوسط التي لا تنتهي ، الصراعات والضغوط التي يتعرض لها أشخاص مكافحون في سبيل لقمة العيش .

والآن عاد يوم الأحد ودبت الحياة من جديد ، عادت العيون لتتوهج ثانية بعد الغشاوة التي اعترتها ، نتيجة رتابة عمل اليوم السابق واستيقظت مع مضي الساعات ، كان هناك حوار حاد في الزاوية ، بعض العشاق يحاولون الاختباء في الردهة ، ربما لانتزاع بعض القبلات ، الشعور السائد ممزوج بكلمات مثل : أسرع . . . ليس الوقت متأخراً بعد . . . . ولكن بالله عليك أسرع قبل أن تنقضي الأربعون ساعة المباركة من الراحة .

كان جويل كولز يعمل كاتباً للسيناريوهات السينمائية ، وفي عمر الثامنة والعشرين ، لم تكن هوليوود قد حطمته بعد ، فقد حظي ببعض المهمات اللطيفة منذ التحاقه بالعمل ، قبل ستة أشهر ونجح بتقديم مشاهدها وأحداثها بحماس ، كان يشير

إلى نفسه بكل تواضع أنه «حمار شغل» ، لم يكن هكذا يظن نفسه ، فقد كانت أمه ممثلة قديرة ناجحة . أما هو فقد أمضى طفولته متنقلاً بين لندن ونيويورك ، محاولاً طوال الوقت التمييز بين ما هو واقعي وما هو غير واقعي ، أو على الأقل تكوين رأي عما يحدث حوله . كان أنيقاً وذا عينين بنيتين جذلتين ، تحدقان في مشاهدي مسرح برودواي عام ١٩١٣ كأنهما يطلان من وجه أمه .

عندما وصلته تلك الدعوة ، تأكد أنه سوف يصل إلى موقع ما ، لم يكن يفارق البيت أيام الأحد ، بل كان يحضر عمله معه إلى المنزل ، كان قد استلم حديثاً عملاً مسرحياً لأوجين أوتيل ، يبدو من مشاهده أنه مهيأ ، لممثلة هامة ، كان كل ما قام به حتى الآن مقبولاً لدى مايلز كالمان . هذا الأخير هو المدير الأوحد لتلك المجموعة التي ترفض العمل ، تحت إشراف الغير إضافة إلى كونه مسؤولاً عن الشؤون المالية . كان كل شيء يسير بانتظام في انطلاقة جويل نحو المستقبل (كانت الدعوة موقعة من سكرتير السيد كالمان وتقول : أرجو أن تتقبل دعوتنا إلى احتساء الشاي من الساعة الرابعة حتى الساعة السادسة من مساء يوم الأحد . . . عنواننا هو بفرلي هيلز . . . . منزل رقم . . .)

أحس جويل بنشوة غرور ، فهذه الدعوة هي لكبار الشخصيات ، وقد شكلت بالنسبة له موضع تقدير لموهبة واعدة ، فهناك في الحفلة سوف يقابل جمهور ماريون دافيز والقبعات العالية ، في القطط السمان والأرقام المالية الضخمة ، ربما يرى ديتريش وجاربو والمركيز الذين لا تراهم في أي مكان ، كل هؤلاء قد يشاهدهم في حفلة كالمان .

لن أحتسي أي نوع من الخمر قبل الحفلة . لأن كالمان لا يحب السكارى ويعتقد من المؤسف أن صناعة السينما ، لا تستطيع أن تخطو خطوة دون وجود مثل هؤلاء الأشخاص ، أقر جويل بأن معظم الكتاب يحتسون الكثير من الخمر ، فهو نفسه كان كذلك ، لكنه لن يسكر أبداً بعد ظهر اليوم ، كان يأمل لو أن هذا الحديث الرزين يصل إلى أسماع مايلز عندما يبدأ تقديم المشروبات .

كان منزل مايلز كالمان قد شُيد خصيصاً للمناسبات العاطفية الكبيرة ، كان يمتاز بجو من الاستمتاع ، كأن مشاهده البعيدة القابعة في الصمت تملك جمهوراً دائماً

حولها ، المنزل هذا اليوم كان مزدحماً ، كأن الناس جاءت إليه بناءً على أوامر صدرت لها وليس بناءً على دعوة ، لاحظ جويل بفخر أنه لم يكن بين المدعوين إلا اثنين من الكتاب إضافة إليه ، شاهد هناك ، لدهشته ، ذلك البحار الإنجليزي النبيل «نات كيوخ» الذي كان أحد أسباب إثارة مايلز للملاحظات حول السكر والسكيرين .

أما ستيللا كالمان (تسيللا ووكر طبعاً) فلم تتحرك أبداً لمقابلة باقي ضيوفها بعد أن تحدثت إلى جويل ، بقيت تحوم حوله وتنظر إليه نظرات ترى فيه ذلك الثراء الدرامي الذي ورثه عن والدته .

قالت له بابتهاج وهي تقف بجانبه : «إنك تبدو في السادسة عشرة أين سيارتك الصغيرة التي تلعب بها ؟» أحست بأنه سوف يجيبها جواباً واثقاً وسهلاً ، كان قد قابلها أول مرة عندما كانت تكافح للعيش في نيويورك ، في هذه اللحظة مر النادل بينهما ، تناولت ستيللا كأساً من الكوكتيل ووضعته في يد جويل .

«الجميع خائفون ، أليس كذلك ؟» قال لها وهو ينظر بشرود ، «الجميع يراقبون ليسجلوا هفوات بعضهم البعض أو يحاولون التأكد من أن الأشخاص الذين يبادلونهم الحديث سيكونون ذوي نفع لهم !» إنتبه لنفسه فجأة ، حاول تغطية ما قال بسرعة : «طبعاً هذا لا يطبق في منزلك ، لقد كنت أعني أن الأمر هكذا بشكل عام في هوليوود»

وافقت ستيللا على كلامه ، ثم قامت بتعريفه على بعض الأشخاص ، كأنه شخصية هامة جداً ، أكمل جويل شرب كأسه بعد أن تأكد بطرف عينه من أن مايلز موجود في الجهة الأخرى من الردهة ، «إذن أصبح لديك طفل الآن» سألها جويل وأردف : « هذا هو الوقت الذي يجب أن تبقي فيه حريصة ، فبعد أن تضع المرأة الجميلة مولودها الأول ، تصبح في وضع أضعف ، لأنها تريد أن تطمئن نفسها أنها لم تفقد سحرها السابق إثر هذه الولادة ، إنها تريد أن تمتحن نفسها من خلال إعجاب رجل جديد لا خبرة له ، من أجل التأكد أنها لم تخسر شيئاً من هذا السحر» .

– «إنني لا أطلب إعجاب رجل لا خبرة له» ردت ستيللا بترفع .

– «إنهم خائفون من زوجك» قال جويل .

– «أتظن أن الأمر هكذا» غضت ستيللا حاجبها أمام هذه الفكرة ، فجأة دخل

من يقاطع هذا الحوار في اللحظة المناسبة التي كان جويل سيختارها .

شعر ببعض الثقة من جراء اهتمامها به ، لكنه لم يكن من عادته الانضمام إلى مجموعة ما أو الانطواء تحت جناح بعض المعارف ، من أجل ضمان مصلحته لذلك انسل إلى جانب النافذة ووقف يتأمل في المحيط الباسيفيكي الممتد أمامه ، كان يبدو بلا لون تحت أشعة شمس راكدة ، قال لنفسه : «إن هذه الريفيرا الأميركية وكل ما حولها هي مكان رائع إذا ما أتيح المال للاستمتاع بها ، الناس الأنيقون في القاعة ، يرتدون ثياباً جميلة والفتيات الجميلات . . . آه . . . الفتيات الجميلات . . . . . لا يمكن الحصول على كل شيء» نظر إلى وجه ستيللا الفتي ورمشها المرخي الذي كان يتدلى أحياناً ليغطي جزءاً من عينها ، كانت تتحرك بين ضيوفها ، أما هو فكان يريد أن يجلس معها ويتحدث مطولاً ، كأنها ما تزال فتاة وليس اسماً شهيراً كما هي عليه اليوم ، تناول قدحاً آخر ، ليس لأنه بحاجة إلى ثقة ، ولأنها أعطته الكثير منها ثم اختار له مكاناً بجانب والدة المدير .

- «لقد أصبح أبنك أسطورة يا سيدة كالمان ، كأنه مهبط وحي أو رجل مصير ، شخصياً أنا أقف ضده ، لكني من الأقلية ، ماذا تظنين به ؟ هل أنت متأثرة بمدى النجاح الذي استطاع الوصول إليه» . . . . قال جويل .

- «كلا أنا فقط مندهشة» أجابته بهدوء «لقد كنا دائماً نتأمل الكثير من مايلز»

- «حسناً ، إن هذا الأمر غير طبيعي» قال جويل «كنت دائماً أعتقد أن جميع الأمهات مثل أم نابليون ، لم تكن أمي ترغب أن أدرك سبل الملذات ، بل كانت تريدني أن أمضي إلى وست بوينت وأن أكون آمناً» .

- «لقد كنا دائماً نثق في مايلز . . . .» رددت الأم .

- وقف بجانب البار المبني داخل جدار غرفة الطعام . كان بجانبه نات كيوخ السكير المرح الذي يتقاضى راتباً مرتفعاً .

قال له نات : «لقد حققت هذه السنة دخلاً وصل إلى مائة ألف دولار ، خسرت أربعين ألفاً منهم في لعب القمار لذلك قمت بتعيين شخص ، يدير أموالي» .

- «أتقصد وكيلاً» ؟ رد جويل .

- «لا فلدي وكيل ، أعني إدارياً ، إني أسلم كل شيء لزوجتي ثم تقوم هي

بالتعاون مع هذا الإداري بتسليم المال لي ، إني أدفع له خمسة آلاف دولار سنوياً ليقوم بتسليمي المال» ، قال نات .

– «أتعني بذلك وكيلك» قال جويل .

– «كلا بل أعني مديري الإداري ، أنا لست الوحيد الذي يفعل ذلك ، هناك عدد كبير من الأشخاص الذين لا يستطيعون تحمل المسؤولية يفضلون التعامل معه» ، قالت نات .

– «حسناً إذا كنت أنت شخصاً غير مسؤول ، فكيف تكون مسؤولاً بما يكفي لتعيين مدير لك» قال جويل .

– «إني أتحمل المسؤولية فقط خلال القمار . . . انظر إلى هناك» ، وهنا بدأ أحد المغنين بتقديم وصلة غنائية ، انطلق الاثنان للاستماع إليه .

II

كان الغناء يصل إلى مسامع جويل بوضوح . كان سعيداً وودوداً مع جميع الأشخاص المتواجدين في الحفل ، مثل رجال الصناعة الشجعان الذين تفوقوا على البورجوازيين في الجهل والحياة الطليقة ووصلوا إلى مراكز لامعة في أمة ، ظلت لعقد من الزمان لا ترغب إلا في الترفيه عن نفسها فقط .

كان يحبهم ويقدرهم ويكن لهم مشاعر طيبة

عندما انتهى المغني من تقديم وصلته ، بدء الناس بالتدافع نحو المضيفة لتوديعها ، خطرت لجويل فكرة ، سوف يقوم بتقديم سيناريو مشهد من تأليفه الخاص يدعي «إصلاح الأمر» ، كانت هذه هي لعبته المتقنة الوحيدة ، وقد لاقت إقبالاً جيداً في عدة حفلات وربما تفرح السيدة ووكر اليوم ، اتجه نحو السيدة ستيللا ، مدفوعاً بحدس امتلك عليه حواسه ، ومشدوداً بنزعة للظهور وعرض القدرات .

– «طبعاً» إجابته ستيللا بحماس ! «هل تحتاج إلى شيء»

– «نعم . . شخص يمثل دور السكرتيرة التي سأقوم بالإملاء لها» قال جويل .

– «سوف أكون أنا هذه السكرتيرة» أكدت ستيللا .

سرى الخبر بين الضيوف الذين كانوا قد شرعوا بارتداء معاطفهم استعداداً لمغادرة

المكان، وبدؤوا بعدها بالعودة ،أصبح جويل وجهاً لوجه مع العديد من العيون الغريبة، توجس شراً، لأنه أدرك أن الشخص الذي كان يقدم الوصلة قبله كان مذيعاً لامعاً في عالم الترفيه، تعالت أصوات تطالب الناس بالسكوت ووجد نفسه واقفاً مع ستيللا لوحده، كأنه في وسط حلقة رقص دائرية لمجموعة من الهنود الحمر، ابتسمت ستيللا وهي تلتفت إليه بلهفة، عندها بدأ بتقديم وصلته .

كان برنامجه الهزلي قائماً على بعض الشروط الثقافية التي وضعها ديف سيلفرشتاين وهو منتج مستقل ويفترض في هذه المسرحية أن يقوم سيلفرشتاين بإملاء رسالة على سكرتيرته، محدداً طريقة التعامل مع إحدى القصص التي قام بنشرها .

قصة طلاق بين منتجين شباب وبين رابطة أجنبية، قالها بصوت يحاول تقليد مخارج صوت السيد سيلفرشتاين . . . . . «لكننا سنحاول إصلاح الأمر»

سرت بداخله فجأة رعشة شك، كانت الوجوه المحيطة به تبدوا مشدودة وفضولية تحت الضوء ،لكن لم تكن هناك أية ابتسامة، أمامه كان يقف أمير الشاشة يحدق به بنظرات حادة، فقط كانت ستيللا ووكر الوحيدة بين الحضور تبتسم له مشجعة .

استمر في إملاء القصة «إذا جعلناها من نوع مانجو فسيتكون لنا شيء يشبه مايكل أرلني، لكن في أجواء هونو لولية» .

لم يصدر أي صوت بعد، لكنه أحس بحركة بسيطة بين الحضور خلفه، تتجه نحو باب الخروج .

تابع جويل «ثم قالت له أنها تشعر بجاذبية نحوه فاشتعل وقال لنفسه اذهب ودمر نفسك»

خيل له لوهلة أنه سمع صوت نات كويخ يضحك ضحكة مكبوته، لاحظ بعض الوجوه المشجعة هنا وهناك، عندما اقترب من نهاية العرض أدركه شعور سقيم بأنه قد جعل من نفسه أضحوكة أمام مجموعة هامة في عالم السينما يعتمد عليها مستقبلة المهني .

وجد نفسه برهة وسط جو من الصمت المربك، لا يشقه سوى تلك الحركة باتجاه الباب، شعر بتيار خفيف من السخرية يسري في همهمات الحضور، مر كل هذا

خلال عشر ثوان إلى أن صاح المدير الكبير وهو ينظر إليه نظرة حادة وفارغة مثل ثقب الإبرة .... بو بو بو بو ...... كانت صيحته هذه تعكس مزاج الحضور ، كان مزاجاً مليئاً بالاحتقار الذي يبديه المحترفون تجاه الهواة أو المجتمع تجاه الشاذين ، كان شعوراً بالاستهجان بشكل عام .

فقط ستيللا ووكر كانت ما تزال واقفة بجانبه تشكره على أدائه الناجح ، كأنما لم يخطر ببالها أن أحداً من الحضور لم يرقه العرض أبداً ، وقف نات كويخ يساعده في ارتداء معطفه ، شعر بموجة من احتقار الذات تسري في عروقه ، حاول يائساً أن يبعد عنه هذا الشعور بالانحطاط حتى لا يعود يشعر به ، التفت إلى ستيللا قائلاً : «على كل حال إنه برنامج جيد حين يوفى حقه ، أشكرك كثيراً على تعاونك» ظلت مبتسمة له ، انحنى أمامها كالثمل وقام نات بدفعه نحو الباب .

أيقظه وصول طعام الإفطار ، وجد نفسه يصحو على عالم محطم مكسور ، كان ما حدث بالأمس يمثل حقيقة نفسه ، نقطة نار في مواجهة صناعة كبرى .

شعر أنه أمام خطر جسيم في مواجهة هذه الوجوه ، هذا الازدراء الذاتي والسخرية الجماعية ، الأسوأ من ذلك أنه أصبح بالنسبة لمايلز كالمان واحد من هؤلاء السكيرين الفاقدي الكرامة ، الذين طالما شعر كالمان بالندم لاضطراره إلى التعامل معهم ، أما بالنسبة لستيللا ووكر فلم يكن يجرؤ أن يراجع نفسه بالسؤال عن رأيها به إلى الحد الذي قد يضطره للموت في سبيل حفظ كرامة بيتها ، أحس بعصارة معدته تتوقف عن الجريان ، ألقى بثقله على طاولة الهاتف وبدأ يكتب :

عزيزي مايلز

تستطيع أن تتخيل مدى احتقاري العميق لنفسي ، إني أعترف بأنني في الساعة السادسة من بعد الظهر ،وقعت تحت تأثير نزوة استعراضية وفي وضح النهار . يا إلهي إني أقدم أعمق اعتذاري إلى زوجتك .

لك إلى الأبد

جويل كولز

نهض جويل من مكتبه وانسل خلسة إلى كشك التبغ القريب . كانت حركاته تبدو مريبة لدرجة أن أحد رجال الأمن العاملين في الاستديو ، طلب منه إبراز بطاقة دخوله ، كان قد قرر تناول الطعام في الخارج عندما داهمه نات كونج ضاحكاً بثقة وهو يقول :

- «ماذا تعني أنك في حالة تقاعد دائم ، ماذا يعني إذا احتج عليك هذا الشخص الذي يرتدي بذلة بثلاث قطع ؟ لماذا تصغي إليه ؟» دفع نات جويل داخل المطعم وتابع يقول «في أحد عروضه الأولى ، كاد جو سكوايرز أن يظهر ذيله وهو ينحني للحضور لشدة ما صفقوا له ، حتى أن الممثل العظيم أخبره أنه سيتصل به حتماً في وقت لاحق ،عندما هاتفه جو عند الساعة الثامنة من اليوم التالي مذكراً إياه ، أنه ينتظر اتصاله أغلق هذا الممثل العظيم الخط في وجهه» .

أدخلت هذه القصة العجيبة ، بعض الفرح في قلب جويل ، وجد بعض العزاء في التحديق بالمجموعة الجالسة على المائدة المجاورة . كان هناك أشخاص بعضهم يشبه التوأمين الحزينين ، والبعض الآخر كالأقزام الخبيثة أو المارد المبتكر القادم من صورة السيرك ، لكنه حين حانت منه التفاته إلى الوجوه الصفراء لبعض النساء الجميلات بعيونهن الحزينة ، الملطخة بالمسكارا وملابسهن الصارخة ، تعرف على بعض منهن ، فقد كن حاضرات يوم حفلة كالمان .

جفل . . . ثم قال بصوت عال «ليس مرة أخرى ، إن هذه هي المناسبة الاجتماعية الأخيرة التي سأظهر بها في هوليوود .

في اليوم التالي ، وجد بانتظاره على المكتب ، البرقية التالية :

«لقد كنت أحد أكثر الأشخاص الرائعين في حفلتنا ، إني أتوقع أن أراك على العشاء لدى أختي جوون يوم الأحد القادم .

ستيللا ووكر كالمان» .

أحس بالدم ينفر في عروقه ، قرأ البرقية مرة أخرى وهو لا يصدق ما يقرأ : «حسناً إن هذا أفضل شيء أسمعه في حياتي»

III

أحد مجنون مرة أخرى . . . استلقى جويل على فراشه حتى الساعة الحادية عشرة ،قرأالجريدة ليلتقط أخبار الأسبوع الذي مضى ، تناول الغداء في غرفته كان عبارة عن وجبة من سمك التراوت وسلطة الأفوكادو وقدح من نبيذ كاليفورنيا . عندما نهض ليرتدي ثيابه استعداداً للحفلة ، اختار بدلة أنيقة وقميصاً أزرق وربطة عنق برتقالية محروقة اللون . كان التعب قد خلف حول عينيه دوائر سوداء ، قاد سيارته المستعملة إلى شقق الريفيرا وفيما كان يقدم نفسه لأخت ستيللا ، وصل مايلز وستيللا وهما يرتديان ثياب الفروسية ، كانا يتشاجران بعنف طوال فترة بعد الظهر على امتداد الطرق الخلفية القذرة لبيفرلي هيلز .

كان مايلز كالمان رجلاً طويلاً عصبي المزاج ،لم ير جويل مثله من قبل إنساناً حزيناً يائساً ، كان يبدو فناناً من رأسه حتى أخمص قدميه ، وللحق فهو يستحق ذلك إذ أنه لم يقدم طوال حياته أي فيلم رخيص رغم أنه دفع أحياناً ثمناً باهظاً لبعض أخطائه التجريبية المترفة ، على الرغم من معشره الرائع فلا يمكن لأحد عمل معه فترة إلا أن يدرك أنه كان إنساناً في وضع غير سليم .

منذ اللحظة التي دخل فيها جويل ، أرتبط وضعه بهما بطريقة لا سبيل للخلاص منها ،بينما كان يحاول الانضمام إلى المجموعة حولهما ، انسحبت ستيللا مبدية عدم الصبر وأدار مايلز وجهه مخاطباً الرجل الذي يقف بجانبه :

«هون الأمر مع إيفا جوبل «أن هناك الكثير الذي سوف تدفعه في البيت» ثم استدار نحو جويل قائلاً «آسف لأنني لم أستطع مقابلتك في المكتب أمس ، لقد أمضيت طوال فترة بعد الظهر مع الطبيب النفسي»

– «هل كنت تقوم بتحليل نفسيتك ؟» سأله جويل

– «لقد مضى عليَّ عدة شهور في هذه الحالة ، بدأت أولاً بظهور شعور الخوف من الأماكن المغلقة وانتهت بمحاولة إصلاح حياتي بالكامل» قال مايلز .

– «ليس هناك أي شيء يبدو خطأً في حياتك» أكد له جويل .

– «آه . . . . كلا . . . . حسناً إن ستيللا تظن ذلك ! «أسأل الجميع يخبرونك الشيء نفسه» قالها بمرارة .

- جاءت إحدى الفتيات فجأة وجلست على يد الكرسي التي يجلس عليه مايلز ، بدأت تحادثه ، توجه جويل نحو ستيللا التي كانت تقف حزينة بجانب النار قال لها مخاطباً .

- «أشكرك على برقيتك ، لقد كانت رائعة ، لا يمكنني أن أتخيل شخصاً حسن الشكل مثلما تبدين حين يكون مزاجك مرحاً»

كانت تبدو جميلة أكثر من ذي قبل وربما كان الإعجاب غير المحدود ، والذي يظهر في عينيه تجاهها ، دافعاً لها لكي تلقي بهمها عليه ، لم يأخذ الأمر طويلاً .

فقد بدا واضحاً إنها تقف على حافة انهيار عاطفي ، قالت مخاطبة جويل :

- «لقد مضى على مايلز سنتين على هذا الحال لم أكن أعلم لماذا ؟ لقد كانت واحدة من أعز صديقاتي ، كانت تتردد دائماً على منزلي ، ولكن في النهاية عندما بدأ الناس يخبروني بالأمر ، اضطر مايلز أن يعترف لي .»

- جلست بحماس على طرف الكرسي التي يجلس عليها جويل ، كان لون بنطلون الفروسية الذي ترتديه بلون الكرسي ، لاحظ جويل كتلات شعرها المحاكة من خيوط ذهبية حمراء باهته ، لدرجة كان يصعب صبغها ، لم تكن تضع أية مساحيق . كانت تبدو جميلة جداً .

- كانت لا تزال ترتجف من الصدمة لاكتشافها أمر مايلز ، لم تستطع أن تحتمل منظر الفتاة التي تحوم حول كرسي مايلز ، أخذت جويل معها إلى غرفة النوم وجلسا على طرفي السرير وأخذا يتحدثان .كان الناس يمرون أمام الغرفة في طريقهم للتوا ليت وينظرون إليهما ، بعضهم كان يدلي ببعض الملاحظات --- ولكنهما لم يعيرا الأمر اهتماماً .

بعد فترة وجيزة ، أقحم مايلز رأسه من الباب وقال : «لا فائدة من شرح حالتي لجويل في مدة نصف ساعة ، وضع لم أستطع أنا أن أفهمه لدرجة أن المحلل النفسي أبلغني أن الأمر سيأخذ سنة كاملة لكي يتم فهمه»

- تابعت حديثها مع جويل كأن مايلز لم يكن موجودً .ا كانت تحب مايلز كما قالت وبقيت مخلصة له رغم مرور أيام صعبة ، تابعت حديثها مع جويل «قال المحلل النفسي لمايلز أن لديه عقدة من أمه وقد قام بنقل هذه العقدة إلى زوجته الأولى

خلال زواجه الأول منها ، أرأيت ؟؟ ثم تحول اتجاهه الجنسي نحوي ، لكن بعد الزواج حصل الأمر نفسه معي ، نقل عقدة أمه إلي وتحولت شهوته نحو تلك المرأة الأخرى؟؟»

أدرك جويل أن هذا الكلام ليس بلا معنى رغم أنه بدا كذلك ، فقد كان يعرف إيفا جوبل ، كانت لها شخصية الأم ، كانت أكثر حكمة من ستيللا التي تبدو مثل طفل ذهبي .

اقترح مايلز بعصبية أن يرافقهم جويل إلى منزلهم في بيفرلي هيلز طالما ما زال لدى ستيللا الكثير لتخبره ، بدا الأمر أكثر نبلاً ومأساوية .

كانت ليلة غريبة صافية ، تظهر عتمتها بوضوح خلف النوافذ بينما ستيللا تركض وتصرخ في الغرفة ، لم يكن جويل يؤمن أن مثل هؤلاء الناس ، يمكن أن ينتابهم الحزن أبداً فلديهم أشغالهم الكثيرة الأخرى وحياتهم مليئة بوجوه جميلة وذهبية الورود ، محاطون دائماً بالكتاب والمخرجين الذين يتندرون دائماً بالشائعات ويغمزون من قناة بعضهم البعض ، إضافة إلى أن جوهم يعبق بالمغامرات .

أحياناً كان يدعي أنه يستمع لحديثها بينما فكره مشغول بمظهرها الرائع أمامه ، البنطلون الضيق ، القدمان المتناسقتان تماماً ، والسترة الإيطالية ذات القبة العالية ومعطف الشوموا البني القصير ، لم يستطع جويل أن يقرر إذا كانت هي تقلد السيدات الإنكليزيات أم أن الأخيرات يعتبرن تقليداً لها ، كانت صورتها تتأرجح بين أكثر الحقائق واقعية وبين التقليد الصارخ ، قالت له :

- «إن مايلز يغار علي كثيراً لدرجة أنه يسأل عن كل شيء أفعله ـ أخذت تبكي بحرقة . . ـ عندما كنت في نيويورك كتبت له أني ذهبت إلى المسرح مع أيدي بيكر وقد بلغ من شدة غيرته أنه هاتفني عشرة مرات ذلك اليوم» .

- «لقد كنت هائجاً» رد مايلز بخنة حادة في لفظة وهي عادة كانت تلم به حين يشعر بالضغط ،لأن المحلل النفسي لم يستطع أن يأتي بأية نتائج لمدة أسبوع كامل .

- أطرقت ستيللا برأسها في حركة يائسة وخاطبته قائلة : «هل كنت تتوقع مني أن أجلس في الفندق لمدة ثلاثة أسابيع ؟»

- «أنا لم أكن أتوقع شيئاً» قال مايلز «أنا لا أنكر أني غيور ، رغم أني أحاول

جاهداً أن لا أكون كذلك ، لقد عالجت هذا الأمر مع د . بريدجبين ، لكني لم أحصل على أية نتيجة ، حتى أني شعرت بالغيرة من جويل حين جلست على طرف كرسيه عصر هذا اليوم» .

– «كنت غيوراً» ؟ ردت ستيللا بحنق «أنت كنت غيوراً» ألم تر تلك الفتاة التي كانت تجلس على طرف كرسيك ، لم تكلمني في حينها لمدة ساعتين متواصلتين .

– «لكنك كنت تشكين لجويل همومك في غرفة النوم» رد مايلز محتداً

– «عندما أفكر أنك كنت تحضر تلك المرأة إلى البيت» . كانت تعني إيفا جويل إذ أنها لم تكن ترغب أن تلفظ أسمها وكأنها تتمنى أن لا تكون حقيقية .

– «حسناً . . . . حسناً» قال مايلز بسأم «لقد اعترفت لك بكل شيء وإني أشعر بالسوء مثلك تماماً» ثم التفت إلى جويل وبدأ بالحديث عن الصور بينما تحركت ستيللا بتململ نحو حائط الغرفة ويداها في جيوب بنطلون الفروسية ، عادت فجأة للحديث مرة أخرى وكأن الحديث السابق لم يكن دائراً حولها .

– «لقد أساؤوا معاملة مايلز ، أخبره يا عزيزي عن بلتزر العجوز الذي حاول أن يغير صورتك» .

أخذت تحوم حول مايلز كأنها تحاول حمايته وعيناها تتفجران غضباً لصالحه ، أدرك جويل أنه وقع في حبها ، أخفى تأثره ونهض ليتمنى لهما ليلة سعيدة ، جاء يوم الاثنين وعاد الأسبوع إلى إيقاع عمله المعتاد . عادت المراجعات المطولة للسيناريوهات مقابل تلك المناقشات النظرية والنميمة والفضائح التي طغت على يوم الأحد . عادت قصص تصوير المشاهد وتخفيض الصوت وتقريب الكاميرا وما إلى ذلك . . . .

مع حلول عصر يوم الاثنين ، كان جويل قد نسي مرة أخرى أن الأشخاص الذين يعملون في حقل الترفيه يحق لهم أن يرفهوا عن أنفسهم ، اتصل في المساء بمنزل مايلز ليسأل عنه ولكن ستيللا ردت على الهاتف .

سألها : «هل الأمور على ما يرام» ؟

أجابته : «ليس بالتحديد ولكن ماذا يوجد لديك مساء السبت القادم؟»

«لا شيء» : أجاب جويل .

«إن عائلة بيبري ستقيم عشاءً وحفلاً مسرحياً ، ومايلز لن يكون هنا لأنه سوف

يسافر جنوباً إلى ساوث بند لحضور لعبة نوتردام كاليفورنيا ، هل باستطاعتك أن ترافقني مكانه ؟» سألته ستيللا .

صمت جويل برهة ثم قال : «طبعاً ولما لا ؟ إذا كان هناك اجتماع فربما لن أستطيع حضور العشاء ، ولكني سوف أتمكن من اللحاق بالمسرحية» .

«إذن سأخبرهم إننا سوف نحضر» أجابت ستيللا .

غادر جويل مكتبه وهو يفكر «هل سيكون مايلز راضياً عن هذا ، في ضوء الخلافات التي تعصف بآل كالمان أم هل قصدت ستيللا أن لا يعرف مايلز بالأمر؟ إن هذا الموضوع غير وارد وإذا لم يذكر مايلز الأمر فأنا سأذكره .»

كان يوم الأربعاء حافلاً وقد احتدم الجدال الدائر منذ أربعة ساعات في غرفة الاجتماعات المزدحمة بالمشاهير ودخان السجائر ، كان هناك ثلاثة رجال وأمرأة يذرعون أرض الغرفة ذهاباً وإياباً ، يحتجون ويعارضون ويتحدثون بجدية أو يحاولون إقناع الآخرين مرة بثقة ومرة بيأس ، أخيراً بقي جويل وحده مع مايلز ، كان الرجل متعباً ، ليس من فرط تعب ، بل من هموم حياة ، كانت جفونه مرخية ولحيته بارزة تحت الظلال السوداء المتجمعة حول فمه .

- «لقد سمعت أنك ستسافر إلى نوتردام» . . . بادره جويل .

- نظر مايلز إلى الأمام وأطرق برأسه مجيباً . . . . «لقد غضضت النظر عن الموضوع» .

- «لماذا ؟» سأله جويل .

- «بسببك أنت» ، أجاب دون أن يرفع نظره إلى جويل .

- «ماذا يا مايلز ؟ بحق الجحيم نفر جويل فجأة

- «لهذا السبب تخلفت عن الذهاب» أجاب مايلز ثم انفجر ضاحكاً بلا مبالاة «إنني لا أعرف ماذا يمكن لتستيللا أن تفعل حتى تغيظني ، لقد دعتك للذهاب معها إلى حفلة آل بيبري أليس كذلك ؟ كيف سأستطيع أن أتمتع باللعبة إذن ؟»

- وقف جويل مشدوهاً ، ضاعت منه فجأة ،غريزة البداهة والثقة التي رافقته في حطوال حياته وحل مكانها شعور بالعجز ، رد قائلاً :

- «انظر يا مايلز » قالها وهو عابس «إنني لم أتحرش بستيللا أبداً ، إذاكنت تنوي

أن تلغي رحلتك بسببي فلن أذهب معها إلى حفلة آل بيبري ، لن أعاود رؤيتها ، يمكنك أن تكون متأكداً من ذلك» .

نظر إليه مايلز بتمعن ثم هز كتفيه استهجاناً وقال :

- «ربما ، ولكن سوف يكون هناك دائماً شخص آخر ، لن أستطيع أن أتمتع برحلتي»

- «يبدو أنك لا تثق كثيراً بستيللا ، لقد أخبرتني أنها كانت دائماً صادقة معك» قال جويل :

- «ربما كانت صادقة معي» أجاب مايلز وقد ارتخت العضلات حول فمه «ولكن كيف يمكنني أن أطلب منها شيئاً بعد الذي حصل؟ كيف يمكنني أن أتوقع منها . . .؟» وهنا تراجع قليلاً وبدا وجهه أشد صلابة من السابق ثم تابع يقول : «سوف أقول لك شيئاً واحداً ، مهما بدر مني من الأفعال الصحيحة أو الخاطئة ، لو علمت أنها قامت بعمل سيئ لطلقتها فوراً ، إذ إني لا يمكن أن أسمح لأحد بأن يجرح كرامتي ، سوف تكون هذه هي القشة الأخيرة»

انزعج جويل من طريقة كلامه ولكنه عاد وسأله :

- «ألم تهدأ الأمور حول قصة أيفا جوبل بعد ؟»

- «كلا» خنخن مايلز بتشاؤم «لا أستطيع التغلب على هذا الأمر»

- لقد كنت أعتقد أن القصة انتهت ؟» عاود جويل السؤال مرة أخرى .

- إني أحاول أن لا أرى ايفا مرة أخرى ، لكن لا يمكنني ترك إمرأة مثلها بهذه السهولة ، إنها ليست مثل أي فتاة أصادفها في التاكسي . . . يقول الطبيب النفسي : وهنا قاطعة جويل قائلاً : «إنني أعلم ماذا يقول الطبيب النفسي ، لقد أخبرتني ستيللا ، إن هذا أمر مؤلم . . . حسناً ولكني أؤكد لك أنه بما يخصني فإني لن أرى ستيللا إذا ذهبت أنت إلى تلك اللعبة . كما أنني أعلم أن نيتها حسنة تجاه أي شخص»

- «ربما لا» كرر مايلز بفتور ، «على كل حال سوف أبقى لأرافقها إلى الحفلة» ثم سأله فجأة : «هل لك أن تأتي معنا» أريد أن يكون هناك شخص متعاطف مع قصتي حتى أستطيع التكلم معه ، هذه هي مشكلتي ، لقد أثرت على ستيللا في كل شيء

لدرجة أنها أصبحت تحب الرجال الذين أحبهم أنا ، إن هذا الأمر صعب» .
- «لا بد أنه كذلك» وافقه جويل .

IV

لم يتمكن جويل من حضور العشاء ، وقف بقبعته الحرير ينتظر أمام مسرح هوليوود ويراقب الجموع التي تمر أمامه ، كأنها نسخ غامضة من مشاهير السينما رجال منتفخون يرتدون معاطف مصنوعة من وبر الحيوانات ، راقص جاز متدروش ، له لحية مثل لحى الأنبياء ، زوجان فيليبينيان أنيقان ، يرتديان ثياباً جامعية مما يذكر بأن هذه المنطقة من العالم مفتوحة على البحار السبعة ، موكب طويل من المنشدين الدينيين التابعين لأخوية دينية . فجأة تفرق الجمع إلى خطين لكي يفسحوا المجال لمرور سيارتين من نوع ليموزين ، توقفتا أخيراً عند حافة الطريق .

كانت تقف هناك ، بلباسها الثلجي اللون والمركب من ألف قطعة زرقاء شاحبة ، مزين بما يشبه الكتل الثلجية المدلاة عند العنق ، بادرته بالكلام قائلة بعد أن لاحظت نظراته إلى ثوبها .

- «إذن فقد أعجبك ثوبي ؟»

- رد جويل فوراً «أين مايلز» ؟

أجابت سيتللا : «لقد انطلق إلى لعبته أخيراً ، غادر أمس صباحاً على ما أظن وقد وصلتني منه برقية للتو ، تقول أنه سوف يعود ، لقد نسيت ! هل تعرف كل هؤلاء الناس؟»

بدأت حفلة مسرح الساعة الثامنة ، أخذ جويل يفكر لقد غادر مايلز إذن هل كان مجيئه الليلة إلى الحفلة محبذاً ؟

عندما جلس مع ستيللا وأرخت شعرها الذهبي الخفيف على جانبه ، نسي جويل موضوع مايلز تماماً ، كان ينظر إليها وتنظر إليه ، يبتسمان تارة وتلتقي عيناهما تارةأخرى ، قاما بتدخين سيجارة في الردهة خلال فترة الاستراحة ، همست له قائلة ، سوف يذهبون لحضور افتتاح نادي جونسون الليلي ، لا أشعر برغبة في الذهاب ، هل ترغب أنت ؟

- «هل نحن مضطرون لذلك ؟» سألها جويل .

-«لا أعتقد» ، أجابت بتردد ، «أريد أن اتحدث إليك ، أظن أن بإمكاننا الذهاب إلى منزلنا ، فقط لو كنت متأكدة» . . . ترددت قليلاً قبل أن تكمل جملتها .

- «متأكدة من ماذا» ؟ سألها جويل .

- : لا ليس إلى هذا الحد ، لكن أفترض أنه الآن يراقب كل شيء أفعله ، أنت تعلم أن مايلز يفعل أشياء غريبة أحياناً ، في أحد الأيام أراد أن يشرب الشاي مع شخص ملتحي ، أرسل إلى وكالة إعلان يطلب أن يوافوه بمثل هذا الشخص وظل طوال بعض الظهر يشرب معه الشاي» .

- «ولكن هذا شيء مختلف ، لقد أرسل لك برقية من ساوث بند ، هذا يثبت أنه هناك» قال لها جويل .

بعد انتهاء المسرحية ودع جويل وستيللا رفاقهما عند حافة الطريق وانسلا عبر الأضواء الذهبية ، بعيداً عن الجموع التي احتشدت حول ستيللا .

- «أرأيت أن باستطاعته تدبير البرقيات بسهولة» قالت ستيللا كان هذا يبدو صحيحاً بالإضافة إلى أن شعورها بعدم الراحة بدا مبرراً .

- اشتد غضب جويل ؛ إذا كان مايلز قدجهز كاميرا للتنصت عليها فإنه لن يشعر بأي التزام تجاهه ، ردد بصوت عال «إن هذا سخيف»

- كانت واجهات المحلات قد بدأت للتو بعرض أشجار عيد الميلاد بكثرة . كان البدر يضيء على الشارع العريض كمشهد سينمائي ، مثله مثل المصابيح المعلقة على الزوايا ، سار الاثنان بين عتمة الأشجار المظلمة ليلاً والملتهبة نهاراً . كان جويل يراقب ومضات الوجه الأبيض الذي يرتخي أسفل كتفه ، فجأة ابتعدت ستيللا قليلاً ونظرت إليه قائلة :

- «إن عينيك تشبهان عيني أمك ، كان لدي صور كثيرة لها .»

- أجابها جويل «إن عينيك تشبهان عينيك فقط وليس لها نظير بين كل العيون الأخرى» .

- كان جويل يسير وينظر حوله ، كأنه يشعر بأن مايلز مختبئ خلف إحدى الشجيرات ، وصلا إلى البيت ، كان هناك برقية موضوعة على الطاولة ومصدرها

شيكاغو، قرأتها ستيللا بصوت عال .

- «سأكون في المنزل غداً مساءً، أفكر بك دائماً، حبي لك «مايلز» «أرأيت» قالت له وهي تلقي الورقة على الطاولة» إنه يستطيع تزوير مثل هذه البرقية بسهولة» .

أمرت الساقي بإحضار بعض المشروبات والسندويشات ثم صعدت الدرج إلى غرفتها . بقي جويل يتمشى بين غرف الاستقبال الفارغة . . . . بينما هو كذلك وقع نظره على البيانو الذي شهد على مهزلته يوم الأحد السابق، أخذ يتذكر : «إذن نستطيع أن نسدل الستار على قصة الطلاق بين السينمائيين الشباب والفرقة الأجنبية» ثم تذكر البرقية التي أرسلتها ستيللا : «لقد كنت من أكثر الناس إشراقاً في حفلتنا» خطرت له فكرة : إذا كانت برقية ستيللا تعبر عن مجاملة فقط ، فلا بد أن مايلز هو الذي أوحى لها بالفكرة لأنه هو الذي قام بدعوته إلى الحفلة ، ربما قال مايلز لستيللا : «أرسلي له برقية ، من المؤكد أنه يشعر بالتعاسة بعد أدائه في السهرة»

راقت هذه الفكرة لجويل لأنها تتطابق مع ما قاله له مايلز «أنني أؤثر على ستيللا بكل شيء فقد أصبحت تحب الرجال الذين أحبهم أنا»

إن أي امرأة يمكن أن تفعل مثل هذا بدافع الشفقة ، لكن الرجل يفعل هذا فقط عندما يشعر بالمسؤولية .

عندما عادت ستيللا من الغرفة ، تناول يديها بين يديه وقال لها : «إن لديّ شعوراً غريباً بأنني موضع رهان بينك وبين مايلز»

- «تفضل ! تناول بعض المشروب» قالت له .

- تابع جويل «والغريب في الأمر أنني واقع في حبك على أي حال»

- رن جرس الهاتف فانطلقت لتجيب : «برقية أخرى من مايلز» قالت له «ربما أسقطها هو أو أسقطت من الطائرة ،فوق كنساس سيتي»

- «لا أظنه أراد أن أتذكره» قال جويل

- «كلا قال فقط أنه يحبني ! أظنه كذلك فهو ضعيف جداً» ردت ستيللا .

- تعالي واجلسي بجانبي حثها جويل .

- كان الوقت ما يزال مبكراً ، بقيت بضع دقائق فقط حتى منتصف الليل ، سار جويل نحو الموقد البارد وقال بأدب : «هل تشعرين بنوع من الفضول نحوي؟»

- «كلا إنك تجذبني كثيراً وأنت تعرف ذلك ، للحقيقة ، أعتقد أنني أحب مايلز حقاً» أجابت ستيللا

- «واضح جداً» قال جويل

- « أشعر الليلة بعدم الراحة من كل شيء حولي» تابعت سيتللا . لم يغضب جويل بل شعر ببعض الارتياح لإنه تمكن من تجاوز ورطة محتملة ، نظر إليها ، كان جسدها يبدو ناعماً دافئاً تحت هذا اللباس الأزرق البارد . كان يعلم أنها ستظل من الأشياء التي سيندم عليها كل حياته

- «يجب أن أذهب» قال جويل «سوف أطلب تاكسي»

- «هراء إن لدينا سائق تحت الطلب» ردت عليه آمرة .

- أجفل قليلاً حين لاحظ مدى جاهزيتها لكي تتركه يذهب ، لكنها حين أدركت ذلك قبلته بخفة وقالت : «إنك رائع يا جويل» ،فجأة حدثت ثلاثة أشياء ، فقد جرع جويل كأسه بسرعة ورن جرس الهاتف عالياً في المنزل وقرعت ساعة الردهة بصوت كصوت البوق ، معلنة الساعة الثانية عشرة - تسعة - عشرة - إحدى عشر - إثنا عشر .

V

عاد يوم الأحد مرة أخرى ، أدرك جويل أنه جاء إلى المسرح هذا المساء تاركاً عمل الأسبوع معلقاً فوق عنقه كالكفن . لقد مارس الحب مع ستيللا كأنه يمارس عملاً يريد أن ينتهي منه بسرعة قبل انقضاء النهار ، ها قد جاء يوم الأحد ، أخذ يحسب في ذاكرته توقعات الأربعة والعشرين ساعة القادمة ، ساعات كسولة ورائعة ، كانت كل دقيقة فيها تستحق الاقتراب منها بكل استرخاء ، فقد كانت تخبئ في ثناياها احتمالات لا يحصى عددها ، لم يكن هناك شيء مستحيل ، كان كل شيء في بدايته .

قام جويل وصب كأساً ، ازدردها بسرعة .

كانت ستيللا ترد على الهاتف قائلة «أي كلام أخرق تظن أنك تقول» ثم سقطت مغشياً عليها على أرض الغرفة . كانت تئن حين رفعها جويل ووضعها على الأريكة ،

صب بعض ماء الصودا على المحرمة وصفعها على وجهها ، كانت سماعة الهاتف ما تزال تجرش ، وضعها على أذنه وسمع من يقول : سقطت الطائرة على هذه الجهة من مدينة كنساس وتم التعرف على جثة مايلز كالمان .

أغلق جويل السماعة وتوجه نحو ستيللا التي كانت قد فتحت عينيها وهي تقول _«آه . . . ماذا حدث ؟» ثم همست «اتصل بهم مرة أخرى ماذا حدث؟»

- «سوف أتصل بهم فوراً ، ما اسم طبيبك ؟» سألها .

- «هل قالوا أن مايلز قد مات؟»

- «اهدئي هل هناك خادم فوق؟»

«ضمني إليك إنني خائفة؟»

ضمها إليه وهو يسألها بإصرار «ما اسم طبيبك ، قد يكون الأمر خطأً ولكن يجب أن يكون أحداً معك هنا .»

أجابته . . . «إنه يدعى . . . يا إلهي أن مايلز قد مات»

صعد جويل الدرج مسرعاً وأخذ يبحث في تلك الخزائن الغريبة المزدحمة بالأدوية عن بعض الروائح المنعشة وعندما عاد أدراجه كانت ستيللا تصيح :

«إنه لم يمت إنها إحدى خططه فهو يحاول تعذيبي ، أعرف إنه حي يرزق إني أشعر بهذا»

«أريد أن أصل إلى بعض أصدقائك يا ستيللا ، لا يمكنك أن تبقي هنا وحيدة طوال الليل» رد جويل .

«كلا لا أريد أن أرى أحداً ، ابق أنت ، ليس لدي أصدقاء» نهضت والدموع تنحدر على خديها «إن مايلز هو صديقي الوحيد ، لم يمت مايلز لا يمكن أن يكون ميتاً ، سوف أذهب هناك لأرى ، يجب أن تأتي معي لكي نحجز في القطار»

- «لا يمكنك ذلك ، لا يوجد شيء تستطيعين فعله الليلة ، أرجوك أن تعطيني اسم امرأة أستطيع الاتصال بها لويس ؟ جوان كارميل؟ ألا يوجد واحدة ؟»

- حدقت ستيللا به ثم قالت : «إيفا جوبل إنها أفضل صديقة لي»

- فكر جويل بمايلز ، بوجهه الحزين البائس . قبل يومين في المكتب أصبح كل شيء حوله واضحاً في خضم هذا الصمت الذي اكتنف موته ، كان هو المدير الوحيد

الأمريكي المولد الذي يملك مزاجاً مشوقاً وموهبة وقد دفع أعصابه المنهكة ثمناً ، كي لا يكون هناك أية ردة أو سخرية ولا حتى ملجأ ، فقط هروباً مثيراً للشفقة ومحفوفاً بالمخاطر .

كان هناك صوت عند الباب الخارجي ، فتح الباب فجأة وسمع صوت خطوات في الردهة ، صاحت ستيللا «إنه مايلز ، أهذا أنت يا مايلز؟ آه إنه مايلز»

ظهر فتى يحمل بيده برقية ، إنه موزع البرقيات ، بادر بالاعتذار قائلاً «أنا آسف لم أستطع أن أجد جرس الباب ، وسمعتكم تتحدثون في الداخل ، ناولها برقية كانت تحوي ما ذكر في الحادثة التلفونية ، أخذت ستيللا تقرؤها مرة تلو الأخرى كأنها كذبة سوداء ، أجرى جويل بعض الاتصالات الهاتفية . كان الوقت ما يزال مبكراً ، لم يستطع أن يجد أحداً ، عندما عثر أخيراً على بعضهم ، قام بصب كأس لستيللا ، وقد حرص أن يكون ثقيلاً .

- «سوف تبقى هنا يا جويل» همست ستيللا وكانت ما تزال بنصف وعي «لن تذهب إن مايلز أحبك كثيراً وقال إنك» ؟؟؟ ارتجفت بشدة وأردفت «يا إلهي إنك لا تعلم كم أشعر بالوحدة» أغلقت عينيها وقالت «أرجوك ضمني بين ذراعيك كان لمايلز بذلة مثل بذلتك» انتصبت فجأة وقالت «فكر كيف يمكن أن يكون قد شعر ، كان يخاف تقريباً من كل شيء» ثم أطرقت برأسها وهي تشعر بالدوار ، فجأة أمسكت بوجه جويل وأدنته قرب وجهها «لن تذهب إنك تحبني أليس كذلك ؟ لا تطلب أحداً ، لدي وقت كاف غداً ، أبق معي الليلة»

حدق بها في البداية ، يكاد لا يصدق ما يحدث لهول صدمته أدرك كل شيء ، كانت ستيللا تحاول أن تتلمس طريقها وسط الصدمة بأن تبقي مايلز حياً بداخلها من خلال تخيل وضع كان يتخيله هو ،كأن عقل مايلز لن يموت طالما بقيت الاحتمالات التي تقلقه موجودة ، كانت تبذل جهوداً يشوبها العذاب والأسى لكي تحكم إدراكها بأن مايلز قد مات .

قام جويل إلى الهاتف عازماً على الاتصال بالطبيب .

- «لا تطلب أحداً أرجوك» صاحت ستيللا «عد إلى هنا وضمني بين ذراعيك»

- «هل الطبيب بيلز موجود ؟» سأل جويل على الهاتف .

- «جويل» صاحت ستيللا «لقد ظننت أن بإمكاني الاعتماد عليك إن مايلز يحبك وكان يغار منك . . . . جويل تعال إلى هنا»

- كان ظن جويل في محله ،كانت تعتقد أنه إذا خان مايلز فسوف يبقى هذا الأمر مايلز حياً في مخيلتها لأنه إذا لم يكن حياً فكيف يمكن خيانته !

- تابع جويل على الهاتف «أرجوك أن تتمكن من إحضار ممرضة معك»

- «جويل» نادت ستيللا بيأس .

- رن جرس الباب ثم بدأ الهاتف يرن بلا انقطاع وازدحمت السيارات على الباب الأمامي .

- «لن تذهب» توسلت إليه ستيللا «سوف تبقى أليس كذلك ؟»

- «كلا لن أبقى ولكنني سوف أعود حين تحتاجينني» قال جويل

- وقف على درج البيت الذي ابتدأ يضج بالقادمين ، كأنهم يلتفون حول الموت كالأوراق الواقية ، شعر بغصة في حلقه ، أخذ يفكر «إن كل شيء يلمسه يؤثر فيه كالسحر ، حتى أنه أحيا هذا الولد المرح وجعل منه نموذجاً رائعاً»

وبعد

«ما أعمق هذه الحفرة الذي خلفها في تلك البرية اللعينة»

التفت ونادى بصوت فيه بعض المرارة ، نعم سأعود . . . سأعود .

١٩٣٤

الكسندر غودين

أخي الميت يأتي إلى أميركا

عن «ذي وندسور كوارترلي»

كان الشتاء قد حل، عندما وصلنا إلى خليج نيويورك، وكانت الأرض مغطاة بطبقة من الثلج، قاسية وسريعة الانكسار. وكان الميناء يبدو على أبعد ما يمكن أن يصل إليه بصرنا، وكأنه قد طلي طلاءً قوياً بالفرشاة.

وقفنا على سطح السفينة، وكانت الشمس عمودية فوق رؤوسنا، وقد تأذت عيوننا من النظر، إلى مثل هذا البياض الشاسع.

إلى جوارنا كان لون الماء أخضر شفافاً، يتحول بعيداً إلى لون أزرق معكّر. وكانت قوارب القطر التي تدور حول سفينتنا تحدث ضجيجاً متواصلاً، ومن مداخنها ينبعث دخان أسود، يقذف بالسخام المتطاير على سطح السفينة، وعلى وجوهنا. كان الجو ضبابياً في الخليج، والقوارب الأخرى تهدر فيه دون اتجاه.

وكلما اقتربت منا المدينة لتستقبلنا، ظهر لنا لونها الرمادي أكثر رمادية، وبدت ناطحات السحاب، وكأنها ترتفع فوقنا أكثر وأكثر، مما أسبغ علينا شعوراً بصغر حجمنا وبالخوف والروعة، إضافة إلى قشعريرة أحسسنا بها، ليس نتيجة للبرد فقط بل لأن أنفاس العالم الجديد قد بدأت تهب علينا.

وعندما وصلت السفينة إلى الحد المسموح لها من الشاطئ، قامت قوارب القطر بتحرير نفسها وأبحرت بسرعة خارج الطريق، بعد ذلك سمعت أصوات قعقعة

سلاسل صدئة ، ثم ارتطمت المرساة الضخمة بالمياه محدثة صوتاً مدوياً ومطلقة رذاذها في جميع الاتجاهات .

كانت هناك صيحات تصدر من الماء في الأسفل : من قوارب صغيرة تبحر على طول جانب السفينة ، يحاول راكبوها جلب انتباه المهاجرين على سطح السفينة ، كان يتبع هذه الصيحات صراخ هائج لأناس تعرفوا على بعضهم البعض ، من كلا الجانبين . قُذف من الأسفل إلى الأعلى ، طرد يحتوي على برتقال فتمزق الورق ، وتدحرج البرتقال على سطح السفينة ، لتلحق به النسوة ويركض وراءه الأطفال ، وهم يزعقون ، كانت هناك طرود أخرى ، تقذف إلى السطح ولكنها تعود لتسقط في الماء ناثرة الرذاذ حولها ، كان راكبو القوارب الصغيرة يغطّون عيونهم بطريقة غريزية اتقاءً منها .

سُمعت صيحة تلتها أخرى تنادي أمي باسمها ، كانت صيحة حادة ، بدت وكأنها قادمة من بعيد . رحنا نتزاحم على درابزين السفينة ، ولكن أمي كانت الوحيدة ، التي تستطيع النظر من فوقه وإلى الماء في الأسفل . كان عمر أختي الكبرى أربعة عشرة عاماً ، وكنت أنا في الثالثة عشرة وأما البنت الصغرى ، فكان عمرها تسع سنوات ، ولكن حياتنا القاسية خلّفت فينا قصراً ونحولاً بالنسبة لأعمارنا ، تسلقنا الدرابزين إلى أن لامست ركبنا ، أعلى الدعامة الأفقيَة الرئيسة . واستطعنا أن نرى ناطحات السحاب ، وباقي أجزاء الميناء ، الذي كان رأسه يغوص في الماء . كان الهيجان والتأثر لدى أمي قد بلغ أشده ، بحيث أنها لم تعد تنتبه لنا خشية سقوط أحدنا عن ظهر السفينة . لوَّحت بيدها وتبعنا إشارة يدها وعيوننا محدِّقة .

كان أبي .

كنت أول من تعرَّف عليه بين الأطفال ، وبغريزة خلت من الفرح ، حاولت أن أقدِّر مشاعري تجاهه ، فقد تركني وأنا طفل في الخامسة والآن أصبحت فتى نامياً . إلا أن هذه اللحظة ، لم تكن تحمل نفس المعنى بالنسبة لي كما كانت بالنسبة للآخرين .

كانت أختي الكبرى ترقص فرحاً ، وتصرخ دون قيد ، فقد كانت تتذكر الجانب الجيد ، من الأبوة لأن أبي كان يلاطفها أكثر من جميع الباقين . أما أنا فلم أتذكر شيئاً سوى مرارة الطفولة ، والإحباط والألم . كانت الطفلة الصغرى ما تزال في المهد

عندما غادرنا وأبحر . وقد قامت الآن بشد أمي بقوة من كمّها وقالت :

أيٌ من هؤلاء هو أبي يا أماه ؟

في هذا الوقت كانت رفات أخي الميت تتحلل في مكان أسفل رابية صغيرة عبر البحر . كانت التربة التي تغطي تلك الرابية قاسية وباردة وأشجار الحور الصغيرة ترتعش مستسلمة للريح .

مات أخي فجأة . كانت عيناه الحكيمتان المتعبتان تنظران إلينا لحظة موته وكأنهما تقولان : أنا أعلم أنني سأموت ، لا تقلقوا علي . لا توجد فائدة من البكاء على شيء تافه كالموت .

مرت ثمان سنوات منذ أبحر والدي إلى أمريكا . وكان أخي الذي جاء بعدي قد مات أثناء الحرب ، ولكن أمي ، وبداعي الإهمال أو الخوف أبقت وفاته في دائرة الظلام بالنسبة لأبي .

عشنا خلال فترة بطولية من التاريخ ، دون أن يكون في طبائعنا شيء من البطولة . كما أن أشياء كثيرة حصلت لنا خلال ذلك الوقت ، فقد تحطمت حياتنا وتناثرت قطعاً . ومن موقعي هناك ، شعرت بأننا لن نتمكن أبداً من لملمة تلك القطع مرة أخرى . ولم تستطع عدمية كل هذه الأشياء أن تكسر شعور اللامبالاة في قلبي فقد شعرت بأن لا شيء أبداً يمكن أن يحطم قلبي مرة أخرى مثل ما حطمه موت أخي . فقد كان أول وأرهب مشهد للموت أراه أمامي .

أخبروني فيما بعد ، بأني بكيت كما لو أن عالمي بأجمعه قد انهار فصدقتهم ، وأخبروني أيضاً بأني مزقت ملابسي ، وضربت برأسي جدران المنزل ، صدقتهم أيضاً ولكني لذت بالصمت عندما أخبروني بأن هذا الحزن سوف ينقضي وأن قلبي سيعود نقياً مثل حقول أوكرانيا الفسيحة بعد حصاد الحبوب .

شعرت بالامتنان ، وأنا أقف على السطح مع الآخرين ، لأن السفينة كانت عالية لدرجة لم تمكن أبي من ملاحظة أن أحداً منا قد فقد . أحسست في تلك اللحظة بأن أمي قد عملت عملاً طيباً ، في عدم كتابتها له حول موت ابنه الأصغر . لم يكن ذلك الإحساس من قبيل الشفقة على مشاعر أبي ، فقد كان بالنسبة لي أقل من غريب .

ولكني كنت أحسده على معاناته عندما سيعلم عن موت أخي ، كنت أحسد ألمه بشدة ربما لأني كنت أشعر وبصدق ، أنني مؤهل أكثر منه للحزن على أخي .

كانت تلك الليلة التي قضيناها على السفينة ، رمزاً لكل المعاناة التي تجشمناها خلال العبور ، فقد كنا ما نزال نشعر بالغثيان وبرائحة الأمونيا في البحر ، تنفذ في أنوفنا ونرى فراغ المياه الذي لا حد له عدا بعض طيور البحر الكئيبة وكتل الطحالب على سطح الماء .

ولكن الطريقة التي كان يشخر بها بعض النائمين ، أشعرتنا جزئياً بعودة بعض الاطمئنان ، في حين ظل آخرون يتقلبون ويئنون على سرائرهم .

حلمت بأن أخي الميت كان واقفاً على سريري بوجهه الحكيم الحزين ، وأنه مرَّر أصابعه النحيلة على كتفي . حاولت أن أتحرك ولكنني لم أستطع . كنت أراقبه بهلع وافتتان . أفقت محاولاً التعلق بالحلم وأخذت أحدق بلا أمل في الأرضية المغطاة بالقاذورات .

بعد الإفطار ، تم تجميعنا كلنا مثل قطيع أغنام . كنا شاحبين مثل أشباح مرعوبة تتأرجح بين عالمين : أحدهما كان يعاقبنا بقضبان فولاذية قبل أن يلقي بنا إلى الخارج ، والآخر كان قاسياً لا مبالياً ، وكان علينا أن نتذلل أمامه ، ونبكي قبل أن يفسح لنا المجال للدخول وبعد أن يكون قد استنزف من قلوبنا كل إحساس بالأمل .

لم يكن أملنا أو ألمنا بذات بال لأننا كنا جميعاً متعبين جداً . ومثل معظم الناس المتعبين جداً ، كنا نعلم بأننا قد بلغنا من الإرهاق درجةً تجعلنا نقع نياماً أثناء وقوفنا أو أثناء سيرنا . كما أننا قد نعمل أثناء نومنا ما كنا قد عملناه أثناء يقظتنا .

تم وضع لوح خشبي منخفض حتى حد المركب ، الذي أخذنا إلى جزيرة إيليس .

كانت جزيرة إيليس رمادية تحطم القلوب ، تماماً مثل كابينة الدرجة الثالثة ، وتتكون جميع بناياتها من حجر رمادي مائل إلى اللون الأخضر الرطب ، بسبب الطحالب التي تنمو عليه . كانت بعض النوافذ مسدودة بالبيجيرون المجدول وبعضها الآخر محاط بأطر ثقيلة من الزجاج ، غير الشفاف المحبوك بأسلاك رقيقة . ومن خلال القضبان ، استطعنا أن نراقب الطحالب البحرية ، وهي تطفو بهدوء فوق مياه الخليج .

كان الأطباء الذين قاموا بفحصنا قساةً كقسوة السلطة ، التي أهلتهم لهذه

الوظيفة . فقد أمسكونا بقوة وحذر ، وبشكل مهين ، على قناعةٍ بأننا لم نعد قادرين على الخجل أو الألم . بعد ذلك تم استجوابنا بالدور من قبل كتبة عديدين يجلسون على مقاعد عالية ، وكنا ما نزال نحمل أمتعتنا بأيدينا . كان جميع هؤلاء الكتبة يرتدون معاطف الألبيكا السوداء ذات الأزرار اللامعة ، والياقات المنشّاة . وكانت مكاتبهم طويلة أيضاً ومائلةً بزاوية غريبة مثل المساند الخشبية ، التي يضع عليها اليهود كتب صلواتهم في الكنيس . كانوا جميعاً يبتسمون نفس الابتسامة البغيضة وينظرون إلى أوراقهم ، وهم يتابعون كتابة أجوبة أمي على أسئلتهم .

على الجانب الآخر من الحاجز ، كان أبي أيضاً يخضع للاستجواب ، في حين كانت تتم مقارنة أجوبة كل منهما .

وفجأة توقف شيء ما . كأن ماكنة الأجراءات قد أصابها عطل وتوقفت عن الاستمرار . دبَّ الذعر في أمي وبدت وكأنها قد كذبت . تمتم الكاتب غاضباً لأن الموقف غير المألوف لم يتطابق مع دماغه الصدئ . وأخذ يتعرق بشدة ثم حاول أن يقدم المساعدة بطريقته الرسمية ، وكأن هذا الارتباك قد أثار عاطفته وأخرج إنسانيته إلى السطح . كان من الواضح أنه لم يكن يعرف كيف حصل ذلك له؟ ثم طلع بتصريحه الفظ وسأل أمي : يقول زوجك بأن لديه أربعة أطفال وأنت معك ثلاثة فكيف تفسيرين ذلك يا سيدتي ؟ كيف يتوجب علينا نحن أن نفكر يا سيدتي ؟

تمتمت أمي ببضعة كلمات ، ثم بدأ اللون الأبيض يظهر على شفتيها والدموع تنهمرمن عينيها ، وراحت تتلعثم وهي تحاول أن تفسر الأمر للكاتب بدا الكاتب مرتعباً وأحنى رأسه إلى الأسفل ، بينما كان نحيب أمي المتصاعد يصعب عليه استيعاب تفسيرها للأمر . راحت كرسيه تتأرجح بخطر ، وتشبث بمكتبه بأصابع عصبية رقيقة . ظهرت ابتسامة حزينة على وجهه ، ثم ، وكأنه قد فهم الأمر فجأةً أو أنه لم يعد يهتم بإطالة الاستماع إلى هذه القصة التي آلمته ، قال لنا : يمكنكم المضي قدماً . ركضنا جميعنا خلف أمي كالصيصان التي فرّخت حديثاً . كان أبي واقفاً على الجانب الآخر من الحاجز . ماذا كان يفكر في تلك اللحظة يا ترى؟ كيف كان يشعر ؟

وحال أن رآنا صاح بشدة «بيسي . . . . أولادي!»

كان الإرهاق بادياً على وجهه وكانت عيناه حمراوين ، وقد ترك مسار الدموع من

عينيه إلى وجنتيه أخدودين بارزين على خديه . بدا بائساً جداً ومحطماً .

عانقنا جميعاً بحرارة وكأنه يحاول حمايتنا . في تلك اللحظة ، تملكني شعور بالحب بدافع الشفقة على والدي . لكنه عندما جذبني إليه ، مال رأسي وانثنت ساقاي إلى الخلف مثل العدائين وأصبحت عضلاتي مشدودة كالوتر . لا بد أنه شعر بمقاومتي ، لأنه لم يحاول أن يفرض علي عواطفه .

كان وجهه يطفح سعادةً ولم يتطرق إلى سؤال أمي حول الولد الميت ؛ رفع هذا الأمر من قدره في عيني . كان هو نفسه كما كان دائماً ، لأنه كان يبدو مضحكاً وهو سعيد مثل رجل عجوز واقع في الحب أخرج بعض القبعات الصوفية من جيبه ، ووضعها على رأسي وعلى رأسي شقيقتيّ . كانت القبعات دافئة ولها شراريب حمراء ، في أعلاها مثل الطرابيش التركية ، ولكننا لم نرتح لها بسبب شعورنا بأنها مضحكة .

مرة أخرى كان هناك لحظة مأساة ، تلك المأساة السخيفة والحتمية التي غلّفت حياة هذا الرجل ، والدي .

كان قد أحضر معه أربع قبعات ، لكنه لم يجد الوقت الكافي لإخفاء القبعة الرابعة في مكان ما . عندما رأتها والدتي أصيبت بالهستيريا . أخذ والدي ينظر إليها يائساً . كانت شفتاه ترتعشان وهو يحاول أن يلفظ اسمها كأن شفتيه لم تطيعاه في ذلك ورجرجت الكلمات في حنجرته محدثةً صوتاً غريباً .

استقلينا المعدية إلى باولنج غرين ثم استقلينا القطار فوق الأرضي ، وعلى طول الطريق إلى بيتنا الجديد . كان الناس يحدقون بنا وكأننا قادمون من كوكب آخر . أردنا أن نخلع قبعاتنا ، ولكن والدنا التمس منا عدم فعل ذلك وبطريقة كان من المستحيل فيها عدم إطاعته .

هبطنا درج القطار ، وكان والدي يتقدمنا برشاقة كعادته ، كانت القبعة التي أعدَّها للولد الميت تبرز من أحد جيوبه . ركضنا خلفه ، وكأننا خائفون من أن يهجرنا . كان الثلج ينسحق تحت أقدامنا محدثاً جلبة . وقد أتلف الرماد الخشن المنتشر على الأرصفة نعال أحذيتنا الرقيقة . طوال الوقت ، كان نظري مركزاً على القبعة البارزة من جيب أبي وأنا أفكر في أخي الميت .

عندما اقتربنا من شارع بروك تجاوز عنا موزع البريد على دراجته ، كانت حقيبة الرسائل تتدلى على كتفه ، وعجلات الدراجة تطلق صوتاً حاداً ، كلما اصطدمت بالثلج القاسي .

دخلنا إلى منزلنا الجديد ببطء وحذر ، كأننا ندخل إلى بيت غريب . كانت الشقة معتمة لا هواء فيها . وخلال الدقائق الأولى تكومنا عند الجدران خائفين . كان الأثاث قديماً ، ومرتباً على عجل وعلى أرضية المطبخ تكدست أكوام من النفايات .

ما أن دلفنا عتبة المنزل ، حتى بدأ والدي ينتحب ببؤس . بعد ذلك وضع القبعة الصوفية الإضافية على الطاولة ، وأشعل مدفأة الغاز الصغيرة التي أطلقت صوتاً يشبه الفحيح . رويداً رويداً ، بدأ الصقيع ينقشع عن جوانب النافذة . التهمنا طعامنا بعيون جاحظة وشرهة ظانين أننا ربما نكون في حلم وأن الوجبة القادمة بعيدة جداً .

فيما بعد ، أعطانا جميعاً ملابس جديدة ، وقام بطي البدلة التي كان قد أعدَّها للولد الميت ووضعها بعيداً في أحد الأدراج ، وكأنه يتوقع أن يظهر صاحبها عند الباب يوماً ما ويطالب بها .

حل المساء ، وخيَّم على حياتنا هدوء عظيم . كان التعب قد نال منا لوقت طويل . والآن بدأ تعبنا يتلاشى . وما أن بدأنا نترنح كالسكارى على مقاعدنا ، حتى عادت ظلال الحمق والحزن لتغزو منزلنا . جلسنا وأصغينا ، كانت أعصابنا مشدودة وجفوننا ترتعش مثل عصافير جريحة فوق أعيننا .

كانت القبعة الصوفية البيضاء ذات الشراريب الحمر ، والتي لا يطالب بها أحد ملقاةً على الطاولة ، ولسبب ما ، كانت أعيننا جميعاً تتجه نحوها بينما هي تنتصب في الظل مثل نجم وحيد في ليلة ضباب . كان الصدأ في دمنا ثقيلاً وساماً ، يزيد من حدة حزننا . وفي تلك اللحظة أصبحنا مدركين لعودة الولد الميت إلى حياتنا المحطمة . فهو أيضاً جاء معنا إلى أميركا .

١٩٣٥

ويليام سارويان

بعث حياة

عن «ستوري»

كل شيء يبدأ بالشهيق والزفير ولاينتهي ، لحظة إثر لحظة تجد نفسك تمارس عملية التنفس والنظر والسمع والشم واللمس والتذوق والحركة والنوم والصحو ، يوماً إثر يوم وعاماً بعد عام ، إلى أن تصل لتلك اللحظة ، لحظة وجودك ، اللحظة الأخيرة التي تعتبر أكثر اللحظات حزناً وأعظمها ، جل ما في الأمر أننا نتذكر . أنا أذكر أنني عشت لحظات موت ، لكنها لم تعد كذلك لأني مازلت أتذكرها ، عشت لحظات بين الناس الذين أصبحوا الآن أمواتاً أو أصبحوا ذكرى بعد أن كانوا جزءاً متدفقاً من الحياة في عالمي أنا شخصياً وفي هذا العالم . أعبر الشارع وأنظر إلى الناس الذين يسيرون في الاتجاه المقابل ، السيارات التي تبتعد ، أسماء الأشخاص والعائلات والسيارات والقطارات والجياد والعربات وأنا مازلت ولداً صغيراً أعبر الشارع حياً ، قاصداً مكاناً ما .

كان في البداية يبيع الجرائد ويرغب في عمل شيء ما ، كان يقف في وسط المدينة وينادي بصوت عال بأهم الأحداث العالمية في الصحف وينسجم في هذا الصياح لدرجة ينسى بها أن هدفه الأساسي هو بيع الجرائد وليس الصياح كانت الفكرة لديه أنه يجب أن ينادي دائماً ،عل الناس يستوعبون ما يجري من أحداث . كان يطوف في المدينة مثل قطط الأزقة ، يجوس في كل الأماكن ، في الصالونات ،

في المواخير ، في علب القمار ، ينظر إلى وجوه الناس التي تحيا معه على هذه الأرض ، إشكالهم وتعابير وجوههم ، ينظر إلى وجوه المومسات العجائز وطريقتهن في الكلام ورائحة الأماكن القبيحة القذرة والبنايات القديمة المتداعية ، كان يعيش كل هذه الأمكنة والأزمنة ويعتبرها جزءاً منه .

كان يطوف المدينة ينظر ويشم ويتحدث وينادي بالأحداث الجسيمة ، يتنفس ويتحرك الدم فيه ، مثل إيقاع بحري يغدو ويعود إلى شاطئ الأنفاس ، تولد الحياة حوله وتموت وهو لا يفارق أزقة المدينة ، يطوف وينادي بالعناوين الرئيسية للأخبار .

كان كل شيء حوله قبيحاً ، لكن وجوده هنا كان رائعاً ، حتى ولو غطت قذارة المدينة وجهه ويديه ، فقد ظل الأمر رائعاً أن يحيا ويسير وسط أحداث الكرة الأرضية كل يوم يليه يوم جديد مفعم بالأحداث والأخبار الجديدة .

ينقلب الجو حاراً في الصيف ، يعطش جسده لسوائل الشمام والبطيخ وظل الأشجار الوارفة وبرودة نبع صغير ، ولكنه كان محاصراً ينادي في المدينة .كانت تلك منطقته وكان هو رجلها ، يريدها أن تبقى على ما هي عليه فقد كانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي يتصورها دائماً .

كان يحدق في الناس الأغنياء وهم يتناولون البوظة في المطاعم الراقية ، محاطين بالمراوح الكهربائية التي توفر لهم نسيماً بارداً . يراهم وهم يتجاهلون المدينة وكأنهم ليسوا منها .كان هذا الأمر يثير حنقه «إنهم خنازير» هكذا كان يدعوهم ، يمتلكون كل شيء يرغبون به ، ماذا يعرف هؤلاء عن هذا المكان ؟ ماذا يعرفون عني أنا ؟ هل نظروا إلى هذا المكان بعيون نظيفة يوماً ما .

في الصيف كان يذهب إلى بار كريستال يراقب الرجل البدين الذي يقضي الصيف كله نائماً على الأريكة ، جبل من اللحم بوجه حي ومادة حية ، ينام كل يوم من أيام الصيف ، بماذا يحلم يا ترى ؟ رجل بدين وزنة ثلاث مائة باوند ، بماذا يحلم ؟ هل يحلم بأنه جالس في صالون ، أو على الزاوية أو يلعب القمار أو الورق مثل سائر الرجال ، أم ينام فقط ليطرد الذباب عن وجهه البدين ؟ بماذا يحلم رجل في مثل هذه البدانة وما الذي يخبئه تحت كل هذه الشحوم نعمة أم نقمة ؟ كان يمر بجانب الصالون ويبصق على الأرض مثل سائر الرجال ، يراقب في الخفاء هذا الرجل البدين

النائم ، يحاول أن يفهم أمره هل هو مثله حي يرزق ! هل هذا الشيء النائم حي يرزق مثلي تماماً ؟ في الشتاء يختفي الرجل البدين ، كان شيئاً صيفياً فقط ، يشبه الشمس الحارة فهو موجود لكل شيء وقريب من كل شيء ، ينام والذباب يملىء أنفه الضخم . كان شتاء المدينة بارداً ممطراً . كان المطر ينهمر عليه ويبلل ثيابه ، ولكنه لم يكن يهرب من المطر ، بل يتابع طوافه داخل المدينة ، يرى فيها أشياء لا يراها الآخرون ويعبر كل الأماكن القذرة ليرى تعابير الوجوه تحت المطر ،ورغم جسده المرنح بالماء يظل ينتقل من مكان لآخر ينادي بالعناوين الرئيسية ويعلم المدينة عما يحدث في هذا العالم .

لقد كنت أنا ذلك الصبي ، هو ميت الآن ولكنه سيظل يطوف حول المدينة عندما يختفي ظل جسدي عن الرصيف . وإذا لم أكن أنا ذلك الصبي فسيكون هناك صبي غيري هو أنا نفسي حياً يسير على الأرض ، يراقب حقائق المشاهد وينبش تحت الساكن والدقيق عن كل شيء يتحرك حتى ولو لم يكن دقيقاً .

كان المسرح يقف وسط المدينة كأنه عالم آخر . اعتاد الصبي أن يقتحم ظلمته باحثاً في تلك الصور المتحركة الكاذبة ،عن حقيقة نفسه وحقيقة مدينته وحقيقة كل شيء . نظر إلى كل تلك العيون في مسرحية«بينما تنام لندن» رأى اليد السارقة الهزيلة وهي تتحول نحو الجريمة في «جان فال جان» . رأى أشباح الرجال تتحرك جيئة وذهاباً في الظلام تضع ظلالاً صامته مرعبة في«حجرة د . كاليجاري» رأى البحر الذي لا نهاية له وهو يضرب الصخور بعنف والعصافير التي تحلق في الفضاء والمراعي وقطعان الخيول ، رأى نيويورك وعتاة الرعاع فيها ، القطارات المتوحشة والبواخر العابرة والرجال الذين يسيرون إلى القتال ، وصف العسكر يتبدل بصف اخرفي «ميلاد أمة» ، وبينما كان يجلس بين خفايا المسرح ، دخل إلى بيوت الأغنياء شاهد إناثهم وذكور هم ، شاهد السقوف العالية وأعمدة الرخام الضخمة ، الأثاث الفاخر والحمامات الواسعة والموائد التي تزخر بألوان الطعام ، رأى الأغنياء يتضاحكون و يأكلون ويشربون ، رأى في الخفايا ذكراً يتعقب أنثى ، وجد نفسه يراقب باهتمام لكي يفهم ما الذي يحدث . أحدهم يلاحق والآخر يهرب . شعر بشهوة الرجال تتعاظم فيه ، رغبة في امرأة جميلة ذات كتفين بيضاوين وفخذ ممتلئ . كان هو ابن العاشرة يشتعل رغبة في الظلام .

أصبح الآن ميتاً وليس بميت ، يحدق في الصورة المكبرة لقبلة محمومة ، ويزداد توتره لمشهد عناق حميم بين رجل وامرأة . غادر المسرح وسار لوحده وهو يلتهب بعاطفة الحياة . لم يستطع تحمل المدرسة وأهلها . . . . . كانوا أناساً سطحيين لم يستطع تحمل سطحيتهم و بقي على موقفه «لا أريد أن أتعلم شيئاً منكم» «اذهبوا وعلموا الحمقى ، لا تحاولوا أن تقولوا لي شيئاً ، بل سأقولها لكم مباشرة ، اثنان ×اثنين= ملايين الناس على هذه الأرض ، وحيدين يرتجفون و يئنون كل بدوره ، يحاولون أن يتصوروا ما يحدث . لا تحاولوا أن تعلموني شيئاً فأنا سأكتشف بنفسي .

أنا أعرف دانييل بوون ، لا تحدثني عنه ، فهو الذي قتل دباً بينما كان في كنتاكي أما لنكولن فكان رجلاً ضخماً وحيداً ينظر إلى الأشياء وكأنه يشفق عليها بوجه أشبه بوجه رجل . أن أرض الريف مليئة بالرجال الميتين ، رجال أحبهم هو وبقي حياً بعدهم . لا تطلب مني أن أحفظ الخطاب . أنا أعرف حتى طريقة وقوفه والطريقة التي ينطق بها كلماته .

كان يستيقظ باكراً ، قبل انبلاج الفجر و يسير إلى مخبز سان جواكين ، كانت رائحة الخبز الطازج عظيمة ، كذلك منظر الآلة التي تغلف الخبز بورق الشمع . كان خبزاً جيداً رغم أنهم يدعونه خبز الدجاج . كان الرجل الأنيق المسؤول يبتسم له و يسأله دائماً : أي نوع من الدجاج تربون في منزلكم أيها الصبي ؟ كان يبتسم له برقة حتى لا يشعره بالإهانة ، أما الصبي فكان يحجم عن إبلاغ الرجل أنه وأخوه وأخواته هم الذين يأكلون خبز الدجاج هذا . و يقف بجوار منصة البيع صامتاً ،لا يطالب بأفضل الأرغفة ولكن الرجل المسؤول كان يتفهمه ، و يختار له أفضل الأرغفة ليضعها في كيسه . كان يحصل أحياناً أن يضع الرجل رغيفاً سيئاً في الكيس ، ولكن الصبي لا ينطق بكلمة فلا يلبث الرجل المسؤول أن يلاحظ ذلك ويعيد الرغيف إلى منصة البيع ، و يضع رغيفاً أفضل بدلاً منه . وحين يسأله الرجل ربما لن تحب الدجاجات هذا الرغيف ، يبتسم الصبي و لكنه لا يجيب .

لم يكن خبزاً سيئاً في كثير من الأحيان ، بل كان طازجا جداً و ما يزال يحتفظ ببعض السخونة ، علته فقط أنه سقط من آلة التغليف ، لذلك لن يشتريه الأغنياء . كان رغيفاً مخبوزاً بنفس الطحين ونفس الفرن ، ولكنه عندما يقع من آلة التغليف

يصبح اسمه خبز الدجاج ، وثمنه ربع ثمن الرغيف الأصلي . لم يقم الرجل المسؤول بإهانته أبداً ، ربما هو نفسه عرف الجوع مرة ، كان رجلاً مضحكاً يسأل دائماً عن الدجاجات ، ورغم علمه أنه لا توجد دجاجات . كان يختار دائماً أفضل الأرغفة .

كان الصبي بحاجة للخبز ، كي يتمكن من الطواف حول المدينة والصياح ، ولكي يشد عوده ويغذي غضبه ويملأ جوهره بالحيوية التي تصيح على الأرض ، كان بحاجة للخبز الذي سيحمله إلى الموت ومن ثم إلى الحياة شهيقاً وزفيراً ليبقى على شعلة الحياة . كان يطلب خبز الدجاج بلا خجل . لقد كنا نأكله بالتأكيد فهو لا يصلح للأغنياء ، يوجد الكثير منه في بيتنا ، ونحن نلتهم كل قطعة منه بدون أن نابه لبعض الأوساخ هنا وهناك . نلتهمه كله في معدنا . نعلم أننا فقراء وأن الريح عندما تهب تهز بيتنا هذا ، لكننا لا نرتجف بل نأكل هذا الخبز الذي لا يصلح للأغنياء وهو خبز عالي الجودة بالنسبة للدجاج . لكننا كنا نأكله بدون خجل فنحن نعتاش من النقود التي نحصلها من بيع الجرائد .

سقف منزلنا يدلف ونلتقط المياه بالأوعية و الجرادل ، ولكننا نعيش هنا كلنا ، حتى أرضية المنزل المليئة بالعناكب و الصراصير ، تهبط عندما ندوس عليها ولكننا نستمر في العيش في المنزل حيث يأكل الناس خبز الدجاج الذي يرفضه الأغنياء . اختفى الولد فجأة و عاد بشكلي أنا ، لم يعد الولد هناك ، و اللحظة تلك أصبحت ذكرى . شجرة التين التي أحبها و كانت أجمل شيء في نظره ، ما زالت تقف ثابتة في الشتاء عارية من الورق ، ترقص مع الريح . أما في الربيع فتظهر أوراقها الجديدة و يدب فيها اللون الأخضر ،وعندما تشتد الشمس وترتفع الحرارة كان يتسلق تلك الشجرة ويلتهم ثمارها الطرية وكأنه يقبل شفاه تلك المرأة ذات الكتفين البيضاوين .

لكنه كان يعود دائماً إلى المدينة ، إلى نفس الشارع والباب والنافذة و القاعة والسقف والأرضية والزوايا المعتمة ، وحركة الرعاع والأسرة والكراسي والأفران بعيداً عن الشجرة والمرج وغدير الماء .

كانت الشجرة بالنسبة له ، قادمة من أرض أخرى ، أرض أقدم وأجمل ، أرض ساكنة ، هادئة وذات جمال رباني ، جاءت من الأرض والسماء والماء ، من العصور القديمة تحت الشمس ، من روما وأثينا والقاهرة . كانت شجرة التين ترقص . كان

يخاطبها وهو مطبق الفم يجر الكلام جراً من شفاهه الصغيرة الرقيقة ويقول لها إني سعيد أن أكون أنا ، سعيد أن أعيش في زمانك وأكون معك في هذا العالم القديم ، آكل ثمارك وأشعر بقوتك ، أتحرك معك وأنت ترقصين ، وحيداً في هذا العالم معك يا شجرتي أشعر كما تشعرين .

مات الصبي وماتت الشجرة ، لكنهما بقيا حيين للأبد . الشجرة البيضاء ترقص ببطء والصبي يكلمها بلغة لم تحكى ولا يمكن أن تحكى ، يقول لها يا شجرتي ! يا حب هذه الأرض . إن الشارع ينتظرني ودقائق زمني تناديني !

وجد نفسه في وسط الشارع ينادي بأن عشرة آلاف جندي ألماني قد قتلوا جندي ألماني ! ماذا يعني هذا ، إنهم رجال أليس كذلك ؟ رأى أهل المدينة يبتسمون ويتخاطبون جذلين حول الأخبار . كان هو نفسه يقدر تلك الأخبار الجيدة ،التي تساعده على بيع الجرائد ، ولكنه عندما ينتهي من مناداته ويعود لنفسه مرة أخرى يبدأ بالتفكير بالعشرة آلاف رجل الذين قذفوا من الحياة إلى الموت كل بدوره ، كل رجل بنفسه ، مثله مثل الولد نفسه ، كان ينزف و يصيح ويبكي و يتذكر الحياة ، كما يتذكرها الرجال الذين يحتضرون ، يرغبون بها ، يتلهفون على بقايا نفس يستمرون في الشهيق و الزفير والحياة والموت ، عشرة آلاف يشعرون فجأة بالرعب والصدمة ، أمام أهوال الحرب ووحشية الإنسان الذي كان يمكن أن يكون ذو سمات إلهية .

لم تكن هناك كلمات تفسر غضبه . كل ما كان يستطيع فعله هو أن ينادي ، ولكنني حتى في مثل هذا الوقت لا أستطيع أن أنظر إلى الحرب ، كما ينظر إليها المؤرخون ، لقد نقلت اللحظات المتعاقبة مافي داخلي إلى مثل هذا الوجه والهيئة اللحظية ، فأنا الآن موجود في الغرفة الصغيرة وحيداً كما كنت دائماً ، أتذكر الصبي ، أحاول أن أبعثه حياً ولكنني لايمكن أن أرى الحروب كما يراها المؤرخون فهؤلاء الأذكياء يدرسون جميع الحقائق وينظرون إلى الحرب باعتبارها حدث جلل ، واحدة من الأحداث الكبرى في تاريخ البشر ، شيء عام ومتعدد . أما أنا فأراها كحدث كبير أيضاً ، ولكنني أقسمها إلى أجزاء صغيرة هي عبارة عن رجل في كل وقت ، وأراها موتاً في عدة هيئات لرجال يرتدون البزات العسكرية ، وأرى الرجال الذين عاشوا هذه الحرب بمن فيهم أنا والرجال الذين قضوا مع إخوتهم وهم يرتدون البزات العسكرية .

لا يوجد شيء اسمه عسكري . فأنا أرى الموت كحدث خاص يتناول تدمير العالم في الدماغ وفي حواس إنسان واحد ، ولا أستطيع أن أرى موت إنسان كعامل مساهم في نجاح أو فشل حملة عسكرية ، كان على الصبي أن ينادي بما حدث مهما حدث لكي تعرف المدينة . عشرة آلاف جندي ألماني قضوا ، عشرة آلاف كل على حدى واحد٠٠٠اثنان٠٠٠ثلاثة٠٠٠أربعه٠٠٠ إلى عشرة آلاف ، كانوا أحياء وقتلوا ، أطلقت عليهم النار أو شوهوا عشرة آلاف جندي ألماني . عشرة آلاف رجل ! إني ألوم المؤرخين على هذا التحريف ، مازلت أذكر عندما ظهرت أقنعة الغاز على وجوه الرجال ، أقنعة الرعب المفضلة للكابوس الذي كنا نمارسه . إنها تعبر بكل براعة عن الوحشية التي تسكن وجه الإنسان ، وهي الحقيقة الأكثر صلة والتي انشقت عن العملية كلها .

بالنسبة للصبي الذي مات ، كانت هذه الحرب بمثابة صراع ألَّم بجسد وروح الإنسان وقد جلب التدمير المنظم لكل رجل بدوره وزمنه ، حتى قضى على ملايين البشر .

هناك وجد نفسه فجاءة يركض في الشارع .كان العام ١٩١٧ ، وكان ينادي بأحدث جريمة للإنسان ، بعشرة آلاف جندي ألماني ماتوا وتبعهم عشرة آلاف آخرون ، لم تهتز البنايات القبيحة ولا الشوارع ولا المدينة لهذه الجريمة . . . . عشرة آلاف . . . . .كانت النوافذ تفتح والأبواب تفتح أهل المدينة يبتسمون للخبر عظيم . . . . جيد . . . . جيد . . . . عشرة آلاف منهم قتل ، جيد جداً . . . . جوني أحضر بندقيتك هناك قطار أخر محمل بالشباب يغادرون الوطن ، يقتلعون من جذور حياته ، ابتساماتهم حزينة وقلوبهم محطمة ، كل شيء في العالم محطم .

ولكن ماذا عن الرجل البدين النائم في زاوية بار كريستال ، ينام هناك حياً رغما عن الموت الداعر الذي لا يتزحزح فيه «خنزير» دعاه الصبي ، عشرة آلاف جندي ألماني قتلوا ، عشرة آلاف جسد شوهه الموت هل يعني هذا شيئاً له ، هل يضايق حلمه البدين ، شباب لهم حبيبات ورجال لهم زوجات وأطفال ، وأنت ما بالك نائم لقد ماتوا جميعهم . هل تظن نفسك حياً أم تحلم أنك حي؟ إن الذبابة التي على أنفك هي حية أكثر منك .

سوف يأتي يوم الأحد ، يوم الراحة والفرح والسعادة والنور ببلسم من الرعاية والحزن جميل ورائع ، سوف يرتدي أجمل قميص عنده وأجمل بنطال ويحاول أن يمشط شعره ليبدو نظيفاً وأنيقاً ، سيذهب إلى الكنيسة ليلتقي مع ربه ويجلس في ظل الدين ، حيث داود الصغير يهزم جولياث وحيث ربيكا الجميلة ودانيال الذي يقف بين الأسود ويسوع المسيح الذي يكلم الرجال بهدوء ويوبخهم في الموكب بصوت عالٍ ، لأنهم خافوا ويغضب عليهم لأن الخوف اعترى قلوبهم ، اهدؤوا أيها الشباب ، ودعوا العاصفة تثور والباخرة تغرق ، هل تخافون لقاء الله ، إن هذا رائع ، حب الموت رائع ، ويسوع المسيح يحبه هدؤوا روعكم أيها الأولاد لعنكم الله . . . . . . إنني لا أؤمن . . . . لا أؤمن ، إنني أسمع تراتيل الله ولكنني لا أؤمن ، هؤلاء الأغنياء والفقراء من يستحق منهم الحياة ومن يستحق الموت ، وهذه البشاعة في كل مكان ، أين هو الله والسفن الكبيرة تغرق في البحر والغواصات والرجال في الماء والمدافع التي تقصف والرشاشات ، والرجال الذين يموتون ، عشرة آلاف ، أين ؟ ونحن مازلنا نغني ونرتل تراتيل الميلاد .

كلا ٠٠ لا يمكن أن يؤمن فقد رأى بنفسه ، كان هناك في المدينة ، ورأى كل ما ليس له صلة بالله ، عيون المومسات ، الرجال الذين يلعبون الورق ، الرجل البدين النائم وعناوين الصحف المجنونة ، كلها كانت هناك ، الكفر والإلحاد في كل مكان ، والعالم يمشي كيف يمكنه أن يؤمن !

ولكن هذه الموسيقى الجميلة النظيفة ، أجمل ما في الإنسان ، التراتيل الجميلة ، بصق على أرض بار كرستال وفي غرفة كوليت وعلى باب صيدلية ركس ، الرجال الذين يحلون أزرارهم وعشرة آلاف جندي ألماني قتلوا .

بصق على الأرض وهو يسمع شخير الرجل البدين ، باخرة أخرى غرقت !المارن ، ايبرا ، روسيا ، بصق مرة أخرى ، منطاد زبلين يطير فوق باريس ، العسكر يسيرون ، واحد اثنين ثلاثة جنود غير مسيحيين ، بصق في كل مكان .

جلس في قبو الكنيسة الصغيرة ، تحت ظلال الإيمان وعدم الإيمان لا أستطيع أن أؤمن ، إن الأمر وحشي جداً . أخذ يذكر شجرة التين ، والمدفع الذي يقصف والطائرات . السيدة الرائعة في المسرح المظلم ، شفاهها أكتافها ، الدماء التي تنزف في

البحر ، جبل اللحم النائم طوال الصيف عشرة آلاف جندي ألماني قتلوا !

سوف يأتي يوم الأحد لينقله من العالم الخارجي إلى العالم الداخلي ، إلى سرية الماضي والمستقبل الذي لا ينتهي ··· عودة إلى يسوع المسيح ، إلى الله ···عادت التراتيل تصدح ولكنه لأيستطيع أن يؤمن .كان المسيح إنساناً رائعاً لايمكن تصوره . كان يكن حباً مقدساً للموت ، بطل رهيب ولكنه لا يستطيع أن يؤمن .

أخذ يرتل الأناشيد التي يحبها بكل قوة ، بصق على أرضية بار كريستال ، ها قد عاد يوم الأحد مرة أخرى ، أيها العدم المبارك إننا نعبدك . بصق ···وفجأة عطس الرجل البدين النائم ، هللويا أمين ، بصق مرة أخرى ، نم أيها العزيز وخذ راحتك .

عاد صباح الأحد والحرب ما تزال مشتعلة ، بعد الغناء والأناشيد ، كان يذهب إلى مكتب الصحيفة ، يستلم الأعداد الإضافية الخاصة به ، ويطير إلى المدينة وقد سرح شعره جيدا ويبدأ بالمناداة : عشرة آلاف جندي ألماني قتيل وأنا ما أزال حياً ، أتنفس وأركض عبر المدينة . أنا شخصياً أستطيع أن أرى وأسمع وألمس وأصيح واشم وأنشد وأرغب ، أنا الشخص الباقي حيا بإرادة الله··· عشرة آلاف قتلوا عشرة ملايين خمسة سنتات للصحيفة ···عشرة آلاف قتلوا .

لقد كنت أنا ذلك الصبي الذي ضاع ودفن في غياهب نفسه ، وأنا الآن في اللحظة الأخيرة في هذه الغرفة الصغيرة . همس الليل حولي والوقت يمضي ويجيء ويمضي ثم يمضي ، ثم يعود وأنا الملم شهيقي الأخير وأطلق زفيري الأخير حياً وميتاً ، كل ما تعلمته هو أننا نتنفس في الحاضر من لحظة لأخرى ودائماً في الحاضر . وأننا نتذكر ونرى الصبي يتحرك داخل المدينة التي ضاعت ، وصار الناس فيها أمواتا أو يعيشون ساعة الموت .

يعبر الشارع كما يقول المشهد ، أو يقف قرب نافذة الخبز في المخبز ، يطلب كيساً من خبز الدجاج لكي يقتات به ، إنها حكاية تبدأ من لاشيء وتنتهي بلا شيء وكل ما أعرفه هو أننا أحياء نوعاً ما جميعنا تحت ضوء الشمس ، نضع حولنا خيالات ومواقع ، نتنفس على شكل رجال في كل مكان ، نشعر باللذة والألم والجنون مرة بعد مرة ، بحرب أو بلا حرب بسلام أو بلا سلام ، الأرض ثابتة لا تعلم عنا ولاعن مدننا وأحلامنا ولاعن حبنا لهذه الحياة ، حب لم يكن لدى الصبي علم به ، لا عن قدومه

ورحيله ولا عن ثبات هذه الأرض ، أو عن البحر الذي يتحرك مثل حركات أنفاسه والأمواج التي تضرب شاطئه .

كل ما أعرفه هو أنني حي وسعيد لذلك ، سعيد لما أراه من قبح ومن مجد وسعيد لأنني أستطيع أن أتذكر . أتذكر الصبي الذي يتسلق شجرة . لم يكن يصلي ، لكنه كان ممتلئاً قداسة بفرحه وبالأرض وبزمن الأرض وبأبدية الحياة والعدم . تبارك أو لا تبارك فهي مثلي لا تموت وليس لها حدود ، سعيدة حتى الجنون ! هذه هي الحقيقة لا يوجد موت ولن يوجد موت أبداً .

١٩٣٨

روبرت پن وارن

هدية عيد الميلاد

عن «ذي ڤيرجينيا كوارترلي ريڤيو»

تساقطت حبات الثلج الكبيرة من السماء الغائرة ، فيما كان ضوء رمادي رطب يخيم على كل شيء ، وقد عكس لونه الرمادي حتى على حبات الثلج ، التي سرعان ما كانت تتحول إلى اللون الأبيض ، وهي تقترب هابطة على الأرض المظلمة . بدت أسقف البيوت القليلة المنتشرة على الطريق ، سوداء مبتلة بالماء .

كانت العربة تشق طريقها ببطء عبر الطريق . والرجل الجالس فيها يلف بطانية قديمة ، حول كتفيه ويرتدي قبعة قطنية ، تتدلى فوق عينيه . وظهرت أذناه خارج القبعة ، رقيقتين كالورق وموشحتين بخطوط شريانية حمراء ، وكانت حبات الثلج أمامه تتلاشى ، بعد أن تلمس ظهور البغال المعرقة ، والتي بدت سوداء كالحديد الرطب . عندما تكلم الرجل مخاطباً الصبي الجالس ، على المقعد بجانبه ، ارتعشت نقاط العنبر التي تعلقت بشنبه ، وقال للصبي بإمكانك الذهاب إلى المخزن . أومأ الصبي ، برأسه الذي بدا صغيراً أنيقاً تحت القبعة الرجالية الصدئة ، التي كان يرتديها .

كانت حوافر البغال تكسر الثلج الرقيق ، عند أثر الدواليب والطين الأصفر الشاحب يتطاير حول شعر حوافرها .

استدارت العربة بعناء والثلج حولها ، يتكسر بصوت مثل صوت الورق .

شـد الرجل عنان البغـال فتـوقـفت ، ورؤوسـهـا تتـدلى تحت اندفـاع حبـات الثلج الخفيفة . «واوا» . قال الرجل بعد أن توقفت البغال . وأشار بأصبعه نحو هيكل ، بناية على جـانـب الطريق . تسـتطيع أن تنزل هنا يا بني ثم أردف : على الأرجح إنهم يستطعيون أن يدلوك من هنا .

تسلق الصبي جانب العربة ، ووضع قدمه على محور العجلة ، وقفز فغاصت قدماه في الطين اللزج الذي تجمد نصفه .

سار نحو البناية ثم توقف . واستدار نحو السائق قائلاً : أنا ممتن لك ، وتابع سيره . لوهلة حدق به الرجل بطرق عينيـه الحمـراوين ، ثم هز العنان : انهضـوا . صاح في البغال ، وعادت هذه تشد رحالها وحوافرها تقرقع فوق الثلج الرقيق .

صعد الصبي الدرج ، حتى طرف الشرفة المنحدر . ووضع أصابعه الحادة الرمادية ، التي تشبـه المخالب على مزلاج البـاب . وبهـدوء دفع البـاب للداخل مسافة قليلة ، وأدخل جسمه من خلال الفتحة ، وأغلق الباب تاركاً المزلاج ، يعود إلى مكانه دون صوت . حدق في أسفل الممر المظلل للمخزن ، بين رفوف المعلبات والصفائح والألبسة المعلقة على المناصب ، بجوار الجدار المقابل . كان هناك رجال جالسون في نهاية الممر وأجسامهم تحلق حول الضوء الأحمر للموقد .

اقترب الصبي منهم بخطوات مترددة ، ثم توقف وراء الحلقة .

قام رجل ضخم يتـدلى كرشـه أسـفل زنار جلدي عـريض ، كـان يرتديه ، وأزاح مقعده أمامه ليجلس على الأرض ثم نظر إليه :

ماذا أستطيع أن أفعل لك يا صديقي ؟ قال الرجل .

شعر الصبي بوجهه المتغضن ، يشتد نزولاً نحو شفتيه . وانتفضت تفاحة آدم وسط حلقه . ظل الرجل يحدق بالصبي ، الذي وقف ببـلاهة قـرب الحلقـة . بمعطفه الصوفي ، الذي يتدلى إلى ركبتيه ثم هز رأسه أمام الرجل الضخم .

ـ هل تريد أن تتدفأ ؟ سأله الرجل؟

هز الصبي رأسه مرة أخرى .

ـ كلا يا سيدي . استطاع أن يرد أخيراً .

ـ تبـدو وكـأنك تشعـر بالبـرد ، قـال الرجل الضخم . تعـال هنا . وأشـار إلى مكان

مكشوف أمام الموقد .

أطاع الصبي وعيناه مثبتتان بتساؤل على وجه ، الرجل الضخم ، وخطا بحذر فوق قدم ممدودة لأحد الرجال المتحلقين ، حول النار ثم وقف داخل الحلقة بعيداً مسافة ستةً أقدام عن الموقد ومد يديه إليه .

اقترب أكثر . قال له الرجل الضخم وارفع جسمك إلى الأعلى لتبلغه . تحرك الصبي أماماً وأدار ظهره للموقد ، وكانت يداه خلفه تحاولان بضعف أن تنالا بعض الدفء . ظل الرجال يحدقون به ، ثم بدأ البخار يتصاعد من المعطف القريب ، من الموقد وتصاعدت رائحة تعيسة من الصوف الرطب الحار .

ـ ألست أحسن حالاً الآن ؟ سأله الرجل الضخم .

أومأ الصبي برأسه .

ـ من أنت يا رفيقي ؟ سأله أحد الرجال .

التفت الصبي إليه ، كان رجلاً قصيراً ممتلئ الجسم أصلع الرأس داكن البشرة ، يجلس وجزمته مربوطة واضعاً قدميه تحته مثل حيوان يتجهز للانقضاض .

ـ أنا أعرف من هو ، لقد رأيته من قبل . قال رجل آخر : إنه أحد أولاد ميلت لانكستر . اقترب رجل آخر بكرسيه من الصبي منحنياً ، إلى الأمام وقال : أليس هذا رائعاً ، إني سعيد لمقابلتك ، فأنت إذن واحد من زعران ميلت الصغار . حملق به الرجل الأصلع الداكن البشرة ،وقال له بصوت آمر : اخرس . أرجع الرجل الآخر ظهره ، إلى الخلف ، وأخذ يحدق في السقف وهو يطلق صفارة خفيفة من بين شفتيه .

ـ هل تقوم بتجارة يوم السبت ؟

هز الصبي رأسه ثم نظر إلى الرجل الضخم ـ أريد أن أصل إلى طبيب . لهذا جاء الصبي . قال الرجل الضخم ، ورمش أمام الموقد .

ـ هل أهلك مرضى ؟ سأله الرجل الأصلع الداكن البشرة .

ـ أختي سوف تلد طفلاً ، قال الصبي .

توقف الرجل الذي كان يصفر وسأله : أختك الصغيرة يا عزيزي . كان ما يزال يحدق في السقف بسخرية صامتة ويهز برأسه : ما زالت عجول لانكستر صغيرة

على ذلك .

ـ إنها أختي الكبيرة ، قال الصبي للرجل الأصلع ، لقد جاءت إلينا في نهاية الصيف ، إنها أختي من جهة أمي .

حسناً ، حسناً ، قال الرجل الذي يحدق في السقف ، ترك كرسيه تقع على قدميه الأماميتين ، محدثة جلبة وقال ، دون أن يخاطب أحداً على وجه الخصوص .

ـ إذن سوف يكون لميلت أزعر آخر .

رمق الرجل الأصلع الداكن البشرة وجه المتكلم بنظرة كالحة ، ورد عليه دون أن يظهر على وجهه أية عواطف : بيل ستوفر . سوف تدفعني إلى أن أريك الجحيم قبل ظهور الشمس .

نقل الصبي عينيه بين الرجلين ، أخذ الرجل الأصلع الداكن البشرة يحدق في الفراغ أمامه وقد تكومت رجلاه تحته . أما الرجل الآخر فابتسم وأطرق بعينيه جانباً .

ـ إن علي أن أضرب الآن . قال الرجل الأصلع الداكن البشرة ؛ وكأنه يكلم نفسه .

توقف الرجل الآخر عن الابتسام .

إذا أردت الطبيب قال الرجل الضخم : سر في الطريق على بعد أربعة منازل على الجهة اليمنى ، ليس هناك أي صعوبة ، وهناك يعيش الدكتور سمول . يوجد مكتب في الساحة الأمامية ، يمكنك أن تقرع الباب . ولكن الأفضل أن تذهب إلى المنزل ، فستجده هناك . سوف يكون في مكتب الدجاج . قال أحد الرجال ، فهناك يحتفظ الطبيب بدجاجاته منذ عشرين سنة .

خرج الفتى من الحلقة ووقف أمام الرجل الضخم ، نظر إليه وهز رأسه بحركة سريعة . أنا ممتن لك . قال له ثم لف معطفه حوله مدخلاً بنطلونه في ثوبه ، وسار عبر الممر نحو الباب .

انتظر دقيقة . ناداه الرجل الضخم ثم نهض على قدميه وعقد زناره حول كرشه ، وسار باتجاه صندوق عرض زجاجي وحيد ، راقبه الرجال وأعناقهم مشرئبة . وحده الرجل الأصلع داكن البشرة ، ظل يحدق في نار الموقد الحمراء .

فتح الرجل الضخم صندوق العرض الزجاجي ، وتناول نصف دزينة من عصي

الحلوى الحمراء اللون ودفعها نحو الصبي ، الذي كان ينظر إليها بريبة ثم هز رأسه .

خذها . قال له الرجل الضخم بصوت آمر :

أبقى الصبي يديه في جيوب معطفه : إنني لا أملك شيئاً لأدفع ثمنها .

قال الصبي .

ـ هيا خذها يا صديقي . قال الرجل .

مد الصبي يده بامتعاض ، محدقاً طوال الوقت بوجه الرجل يحاول أن يفهمه . لم يكن على وجهه أي تعبير . أطبق بأصابعه الرمادية الباردة التي تشبه مخلب العصفور ، على الحلوى ثم عاد إلى الخلف وهو ممسك بها ودفعها خلسة في جيب معطفه .

ـ اشبع منها . قال له الرجل الضخم : قبل أن يشبعوك ضرباً في البيت . انسل الصبي من الباب بسرعة وبهدوء مثل القط .

عاد الرجل الضخم إلى الموقد ، وغاص بكآبة في مقعده ثم دفع قدميه إلى الخلف ، ووضع ذراعيه خلف رأسه المغطى بشعر بني خفيف مفرق .

ـ إنك مريض يا آل قال له أحد الرجال .

لم يجب .

ـ لا بد أنك مريض ، إذ أعطيت شيئاً بدون مقابل هكذا .

مال بيل ستوفر إلى الأمام ، وبلل شفتيه وغمز الرجل الذي تكلم . وكان هو نفسه ، يريد أن يتكلم لولا أن حانت منه التفاتة نحو الرجل الأصلع الداكن البشرة ، ورأى عينيه تتوقدان بوحشية متراخية .

ـ اذهب مباشرة إلى الجحيم . قال آل بضجر .

توقف الثلج تقريباً وبدأ الجو يزداد برودة ، أصبحت حبات الثلج صغيرة جداً ، تسقط لاهثة مثل قطع من الكتان الأبيض . كانت أقدام الصبي تشق الثلج المتراكم فوق الطين ، ثم تتراجع فجأة إلى الوراء مطلقة صوتاً ناعماً .

قطع مسافة مائتي ياردة صعوداً عبر الطريق . ثم وصل إلى المكان . كانت البناية ذات الغرفة الواحدة تنتصب تحت شجرة أرز ، وكأنها نتوء وسط الطريق ، وأمامها إشارة معدنية باهتة بفعل الزمن ، والصدأ مثبتة على الباب كتب عليها : «د . أ . ب

سمول ـ العيادة» . صعد الصبي الممر بجانب الأرزة التي كانت أغصانها السوداء ، تتدلى نزولاً نحو الأرض العارية . كان المنزل مشيداً بعيداً إلى خلف الشارع ، ولم يكن يظهر منه إلا نصفه بفعل العرائش التي تسلقت عليها بإحكام كرمة شوكية ملتوية بلا أوراق . كانت نوافذ المنزل شاحبة ، بلا انعكاس تطل على الساحة التي التصق بها العشب وسط برك ثلجية قذرة ، تخثرت عند الجذور . أما الباب فقد تغطى قسم منه بلوح زجاجي ، خلفه ستارة معلقة مثل نسيج عنكبوت ضخم .

قرع الباب الخشبي ، أطلت عليه امرأة ، وبالكاد فتحت له الباب .

ـ ماذا تريد أيها الصبي ؟ سألته .

ـ أريد أن أصل إلى الطبيب . أجابها .

قالت له المرأة : نظف قدميك وادخل . ثم استدارت بحركة مفاجئة ، نحو القاعة السفلى ، فرك حذاءه ثم انحنى لينظفه بأصابعه ، وعصر الطين بيديه ومسحهما بمعطفه . ثم تبعها وهو ينظر خلسة من ناحية لأخرى . وقفت أمام أحد الأبواب ، وأشارت له بإصبعها الرفيع وبصوت آمر قالت له : سر إلى الداخل . ابتعد عن الموقد ، بينما المرأة تدفع يديها بعصبية نحو وهج النار . كانت امرأة صغيرة الجسم ، وفيما كانت تدفئ يديها ظلت تحدق به من فوق كتفها مصعِّرة خدها بحدة ،

ـ ما الأمر ؟ قالت له .

ـ إن أختي ستلد طفلاً . قال لها .

ـ من أنت أيها الفتى ؟

ـ اسمي سيل لانكستر أجاب . وهو ينظر إلى يديها الصغيرتين وهما تقتربان وترتعشان أمام اللهب اللامع .

ـ آه ، قالت ، ثم نظرت إليه نظرة كاملة وأخذت تتفحصه من رأسه ، إلى أخمص قدميه : عليك أن تنزع قبعتك عندما تدخل إلى المنزل أيها الفتى . قالت له .

خلع قبعته الضخمة وتوقف أمامها ، وهو يحمل القبعة بين يديه . انحنت له وقالت : انتظر دقيقة . ثم خرجت من الباب .

بخطوات مترددة ومتحققة كأنها على الجليد ، سار فوق حصيرة القش نحو الموقد وأدار ظهره إلى النار . ونظر إلى كل الأشياء في الغرفة ، راح يتجسس عليها بخفية ،

وكأن لها حياة بذاتها . نظر إلى السرير الحديدي المطلي بالذهب ، والمغطى بلحاف مشدود . وإلى المقاعد الهزازة غير المدهونة ، والوسائد الملونة على المقاعد ، والتي كانت مرفوعة باتجاه الموقد نحو الموقد ، وإلى المائدة التي انتصبت عليها سلة مليئة ، بالجوارب الملفوفة بأناقة كالطابات . كانت النار تقرقع مصدرة صفيراً خفيفاً ، وهي تلتهم قطع الخشب المنشور في الموقد . أما الساعة التي يرتكز جانباها على تمثال لكيوبيد ممتلئ الجسم ، ومصنوع من الصيني المصبوغ ، فقد كانت تدق بصوت خفيف . وضع الصبي قبعته على وسادةصفراء ملقاة على أحد المقاعد ، وأدنى يديه من النار ، فبدت القبعة ضخمة وقذرة أمام الوسادة الممتلئة ذات اللون البراق . نظر إليها الصبي ويداه ممدودتان إلى النار . كان لونها أسود رطباً ، وقد لصقت عليها بقع مبللة من الطين . كانت ممزقة تماماً عند أطرافها المجعدة . تناولها الصبي بسرعة ورفعها عن الوسادة .

وكانت الساعة ما تزال تدق بصوت صناعي أنيق .

مرحباً يا بني . دخل رجل من الباب ـ كان الرجل يزرر معطفاً بنياً يتدلى حتى كاحليه . ومن تحت المعطف برزت قدماه الصغيرتان داخل الحذاء . مرت المرأة عنه باتجاه النار . ومدت يديها نحو الوهج مرة أخرى . كانت تنظر إلى الفتى وهي تفرك يديها أمام النار . وضع الرجل قبعة سوداء على رأسه وأنزل طرفيها على أذنيه وقال : لننطلق .

رفعت المرأة جسمها إليه وهي تلمس صدره بحركة سريعة ، مترددة وكأنها تمد يديها للنار .

ـ لا تنتظريني . قال لها .

وأنزل وجهه إلى الأسفل ، كان وجهه حاداً بلا تعابير . بدا وكأنه وجه غير منطقي تحت قبعة الصوف الضخمة ، قبّلته المرأة على خده قبلة أحدثت صوتاً جافاً منمقاً مثل تكة . ثم قال : دعنا ننطلق . دخل إلى القاعة وتبعه الفتى حتى باب الغرفة . تنحت المرأة جانباً لتسمح لهما بالمرور . توقف الفتى قليلاً عند طرف الباب وقال لها : أنا ممتن لك . ثم انسل أسفل القاعة وهو يتابع الرجل مثل ظله .

كان هناك حصان وعربة في الخارج ، وكانت ستائر العربة مرفوعة ، وتقف قرب شجرة الأرز على زاوية المكتب ، بينما حبات الثلج الهاطل تتفتت وتضيع على

الأغصان الداكنة . وعلى الطريق كان يقف الحصان صابراً ورأسه في الأرض .

تفضلوا . قال الرجل وذهب ليجلس جهة السائق . وتسلق الصبي العربة وانسل تحت الستارة ، دخل الرجل إلى العربة ثم انحنى ليشد حاشية الستارة . على جهته وقال للصبي شدها من ناحيتك ، وعاد ليأخذ عنان الحصان ، حاول الفتى أن يتلمس طريقه مع المقبض المعدني بينما الرجل يراقبه ويده قابضة على العنان .

ـ ألا تعرف شيئاً يا صبي ؟ قال له .

ـ أنا لم أشد واحدة مثل هذه من قبل ، قال الصبي .

وضع الرجل العنان في يد الصبي ، ثم جثى على ركبتيه ليثبت الستارة ثم نهض واقفاً وسحب العنان من يد الصبي كأنه يسحبه من وتد وقال له اسحب هذه القماشة عن المقعد نحوك وضعها هنا .

أطاع الصبي ، وأخذ يبسط القماشة وتناول الرجل طرفاً منها وشكها تحت فخذه ثم طواها حول رجله : والآن ثبتها من طرفك . قال بصوت آمرٍ وهز العنان من خلال فتحة في الستارة .

أخذ الحصان يتمايل على الطريق ، وكانت العجلة الأمامية تصدر صريراً مع الاستدارة القصيرة ، واهتزت العربة على الجانبين ثم انتصبت مستقيمة براحة أكثر ، وبدأت الحوافر تشق الطريق محدثة جلبة .

ـ هذا صحيح أليس كذلك ؟ قال الطبيب . لنسلك الطريق إلى خارج المستوطنة من هنا .

ـ نعم يا سيدي . أجاب الصبي .

ـ لقد عرفت أني سأتذكرها .

مروا بجانب المخزن ، كان هناك رجل ينزل على الدرج ، ثم أخذ يسير في الطريق مندفعاً بخطوات واسعة ، وغير منتظمة وكأنه يحرث في الطين كانت كتفاه العاليتان تتأرجحان أماماً .

جون غرابر . هز الطبيب إصبعه المغطى بالقفاز صوب الرجل وقال : الأفضل أن يذهب إلى البيت فإن امرأته مريضة . هز رأسه وبدت ملامحه كالعادة بلا تعبير . إنها امرأة مريضة جداً الكلى ! . نعم يا سيدي . قال الصبي .

إن غرابر يضطر إلى تحضير عشائه بنفسه ، وسيبقى هكذا لمدة طويلة . جاوزوا المنزل الأخير ، كان منزلاً رمادياً يقع في حقل مكشوف ، مليء بالأخاديد الصفراء التي تكونت بفعل المياه . وقد امتلأت الطبقة العليا من التراب بين الأخاديد ، العارية بالثلج . كان هناك بغل يقف بقرب سياج شائك ، يفصل الحقل عن الطريق بينما بقيت حبات الثلج تغوص في الحقل ، وفي الأخاديد . كان هناك عامود من الدخان ، يخرج من مدخنة البيت وسط حبات الثلج الساقطة .

ـ هذا هو بيت غرابر . قال الطبيب .

جلس الصبي معتدلاً ، ونظر من خلال إطار النافذة الملصق بالغراء إلى المنزل وإلى الدخان والحقل الممزق بالأخاديد .

ـ هل نستدير صعوداً عبر الممر الضيق .

ـ نعم يا سيدي .

قطعت العربة الجسر الخشبي ، كانت قرقعة ألواح الخشب تسمع تحت الدواليب . والمياه المرتفعة أسفل الجسر تضرب الصخور الكلسية ، وتمتص رغوتها الصفراء . والثلج يتساقط فوق نزيز الرغوة ويغوص في الماء مصدراً صوتاً أجوف متواصلاً .

ـ ماذا يفعل أبوك الآن ؟ سأل الطبيب .

ـ إنه يزرع حقل السيد بورسوم ، ولكنه ليس نافعاً .

ـ آه ، شخر الرجل ثم التفت إلى الأمام .

كانت العربة قد استدارت عن الطريق الرئيسي صاعدة الممر الضيق . على أحد جوانب الممر برزت الأحجار الكلسية ، من الجانب الشديد الانحدار وقد تدلت منها خيوط رمادية رقيقة من الكلس ، كأنها كتل جليد مدلاة وسط أوراق نباتات الخنشار الذابلة . ومن حلق الممر الضيق في الأسفل ، كانت تصدر أصواتاً جوفاء مع الريح .

ـ إنها لا تنفع لشيء ، لا يمكنك حتى زراعة شجرة ساسفراس وسطها .

ـ آه ، همهم الرجل .

ـ سوف نغادر هذه السنة ، لن نحصل على شاحنة من السيد بورسوم . هذا العجوز اللعين لم يف بوعده لنا .

ـ أهذا ما يقوله أبوك ؟ قال الرجل :

ـ أبي يقول عنه إنه سارق أغنام لعين .

حدَّق الرجل عبر اللوح الزجاجي الملصق ، كان أنفه الحاد وذقنه بارزين إلى الأمام ، ورأسه يتهادى مع اهتزاز العربة .

وعبر فوضى الطين الأحمر على الطريق ، برزت أحجار الكلس رمادية ملساء ، كالعظام الرطبة وقد توشحت بالطين الأحمر . مرت العجلات ، على حجر وأخذت تضرب في الطين الهش وهي تنزل عنه . على جهة المنحدر كانت جذور أشجار الأرز ، الكثيفة تبرز من بين شقوق الأحجار العفنة ، تغطيها طحالب سوداء اللون موشحة بالثلج بينما قممها تحجب الضوء .

سلم الرجل العنان للصبي قائلاً تمسك بها .

مد الصبي يده من تحت القماشة ، وشد على العنان بكلتا يديه . كانت مفاصل أصابعه مشققة من البرد . نظر إلى الحصان من خلال الزجاج الملصق . كان رأسه يصعد ويهبط تحت غصون الأرز . لف الرجل سيجارة وهو يضع قفازيه بين ركبتيه . كانت أنفاسه وهو يلعق الورقة تخرج صقيعاً من فمه وسط سحب رفيعة من الدخان . أشعل السيجارة ثم أمسك بالأعنة ورأى أن الصبي يراقبه ، وكان يراقب اللفافة المدلاة من شفتيه . لم يكن قد أعاد كيس التبغ إلى جيبه بعد ولكنه بعد لحظات من التردد ناولها للصبي وقال له حسناً خذها .

هز الصبي رأسه وهو يراقب الكيس .

إلى الجحيم . قال الرجل ووضع الكيس على حضن الصبي .

أخذ الصبي الكيس بتردد ، وعدل الورقة ووضع فيها بعض التبغ ثم عض على الخيط بأسنانه الكبيرة المربعة والتي تبرز بدون انتظام في فمه ، أعاد ربط الكيس ووضعه جانباً ، ثم رفع الورقة إلى شفتيه وأخرج لسانه بسرعة من وجهه المتبلد ، الذاوي ولعق طرفها وبحركة ملتذة أحكم أصابعه الرمادية ، التي تشبه المخالب على السيجارة ورفعها إلى فمه ثم تسلل ، إلى عتمة الداخل مثل هر يأكل بنهم وسحب نفساً عميقاً من الدخان وارتج طرف السيجارة بينما تمدد صدره إلى الأمام تحت سترة المعطف .

وازن كيس التبغ في يديه المشققتين . وكان الطبيب يراقب العملية فيما الدخان

ينطلق ، بلا لون من فتحتي أنف الصبي الحمراوين : لا يجب عليك أن تفعل ذلك . قال له الطبيب فأنت ما تزال صغيراً .

ـ إنني في العاشرة من العمر . قال الصبي .

ـ إن هذا سيقزم نموك .

ـ إنها لم تقزم نمو أبي وهو يدخن منذ عمر الثامنة ، إنه ضخم ألم تره من قبل؟ نظر الطبيب إلى شفاه الصبي الرمادية ، وهي تتجعد مع كل نفس سيجارة . كانت عيناه الشاحبتان تغلقان على بعضهما تحت القبعة الرجالية الضخمة . وكانت السيجارتان ، سيجارة الرجل وسيجارة الصبي تلمعان في الظل .

ـ إني أعرفه لقد رأيته من قبل . قال الرجل .

ـ إنه ابن قحبة قوي عفي . قال الصبي .

دفع الرجل سيجارته من خلال شق في الستارة وغاص إلى الوراء . كان جسده الملفوف بالمعطف الثقيل ، يهتز كلما مرت العربة فوق حجر مثل جسم يعوم في الماء بلا حياة .

وعند فم المضيق ، كان الصوت الأجوف ما يزال يسمع من الممر كأنه صوت الريح وهي تهدر بين أشجار الغابات .

ـ لم أكن أعلم أن ميلت لانكستر له ابنة في عمر الإنجاب قال الرجل .

ـ ليس له ، ليس على حد علمي .

ـ ولكنك قلت إنها اختك ، أليس كذلك ؟

ـ إنها أختي من جهة أمي ، هذا ما تقول هي وما تقوله أمي .

احترقت السيجارة في النهاية بفم الصبي ، وبقيت معلقة بين شفتيه يضعف بريقها ، ويقوى بين كلماته . ظلت معلقة دون أن يلمسها ، وبقيت يداه مخبئتين تحت القماشة ، لم يعد يسحب الدخان ، ولكنه بدا وكأنه ينسل إلى داخله ثم يخرج من فتحي أنفه رفيعاً مع أنفاسه .

ـ لقد جاءت إلينا الصيف الماضي . قال الولد . ولم أكن أعرف عنها من قبل ، وكانت أمي سعيدة لرؤيتها في البداية على ما أظن .

ـ آه . أجاب الرجل بدون انتباه ، كانت ملامحه الحادة مثبتة ، إلى الأمام بدون

انتباه .

ـ ولكن أبي لم يكن سعيداً ـ وظل يلعن قدومها . وظلت هي تعمل حول البيت ولم تكن تكلم أحداً سواي أنا والأطفال ، ولم يكن والدي يدفع لها شيئاً ولم يهتم إذا كلمناها .

اقترب طرف السيجارة كثيراً من شفاه الصبي ، وسقط بعض الرماد الأحمر منها فوق القماشة . سحب الصبي يده من تحت القماشة ، وأصابعه معقودة ثم انتزع السيجارة . كانت الورقة قد التصقت بلحم شفتيه ، هزها بعيداً ولعق مكانها بحركة سريعة بطرف لسانه . كان لسانه أرجوانياً ورطباً بين شفاهه الرمادية الجافة .

ـ ثم فجأة مرضت وسوف تنجب طفلاً الآن .

ـ إذن لهذا السبب هي هنا . قال الرجل .

هز الصبي رأسه : لا أعرف . أعرف أنها جاءت فقط . ووسط عتمة العربة كانت الأجساد تهتز . الأول طويل يجلس بارتخاء على ظهر المقعد والثاني قصير ويجلس منتصباً . ارتفعت الطريق قليلاً ، وخفت حدة المنحدر الجانبي بعد أن تحول إلى أكداس من الفتات الصخرية بين الصخور الضخمة ، لا توجد هنا أشجار أرز ، فقط سيقان الأعشاب وصفوف الكروم المعلقة على الأسلاك ، فوق سطح التربة المشقق . ثم انحدرت الطريق قليلاً إلى الأسفل ، وهي تتلوى بعيداً عن الممر لم يعد يسمع صوت المياه بعد ذلك .

في أسفل المنحدر البطيء ظهر قاع السهل وحقول الذرة العارية ، تنتشر فيها مخلفات المصائد والتي بدأت تتحلل في التراب . وتلتف حولها الأسلاك الشائكة وتموت بلا ورق . ومن بعيد على اليسار انتصب منزل خشبي أسود مظلل بأشجار سوداء عارية ، يتصاعد منه دخان تعس ، يتلون باللون الأبيض والرمادي وسط سماء رمادية ، لقد توقف الثلج .

خلف القيعان ظهرت كتل أشجار دخانية باردة . وخلفها بدت شعب من الضباب بيضاء وسط السواد ، تتلوى نزولاً نحو الأرض العارية . كان طرف الأفق ذاوياً تجوبه سحب الدخان مثل أكاليل ذاوية تنطلق في الفضاء بلا شمس .

دخلوا إلى الممر المفضي إلى المنزل .

اعبر من هنا قال الصبي . إنها بعد تلك الجذوع .

وبحركة شبه خفيفة التقط الصبي من جيبه عصا من الحلوى ، قطعها نصفين ووضعها بين شفتيه ثم نظر إلى الرجل ذي الملامح الحادة ، التي لا تعرف التعبير وناوله قطعة من الحلوى . ودون أن يتفوه بكلمة أخذ الرجل القطعة ، ووضعها بين شفتيه وراح يمصها . وتحركت العربة إلى الأمام بين الحقول الفارغة .

١٩٣٩

ريتشارد رايت

نجمة الصبح الساطعة

عن «نيو ماسز»

وقفت بوجهها الأسود ، ستة بوصات بعيدة عن لوح النافذة الرطب ، وهي تتساءل متى يمكن لهذا المطر أن يتوقف ، ربما يبقى هكذا طوال الأسبوع . أخذت تفكر ثم سمعت دندنة المطر على السقف . راحت عيناها تلاحق عاليا ، وسط السماء الرطبة ، ومضة صامتة لشعاع أصفر لامع ، ينعكس من ضوء طائرة تخترق سماء عميس . بين لحظة وأخرى ، كانت تراها تشق طريقها عبر ظلمة المطر وتحوم ثانية مثل سيف يبرق فوق رأسها ثم تختفي .

تنهدت منزعجة ، فقد كان جوني بوي يدوس وسط الوحل طوال النهار ، بدون حذاء لائق في قدميه . . . ومن خلال النافذة كانت ترى الأرض الغنية السوداء تبسط ذراعيها للظلام في الخارج . كان المطر أكثر مما تستطيع التربة استيعابه ، والبرك منتشرة في كل مكان . تثاءبت وتمتمت : المطر جيد وسيئ ، يمكنه أن يزهر البذور من الأرض . ولكنه يمكن أن ينقعها ، مثل كفن مبتل . كانت يداها متشابكتين بارتخاء فوق معدتها . هواء المطبخ الساخن ينشر ستاراً من العرق ، على جبهتها . ومن مدفأة الطبخ كانت تسمع أصواتاً رقيقة للخشب ، وهو يحترق وظهرت الآن فقاعة حلقية من وعاء تغلي فيه بعض الأعشاب .

سحقاً ، لم يسمح جوني بوي لأحد غيره أن يقوم بكل هذا العمل الحزبي في

المطر ، هناك آخرون أفضل منه في ذلك ولكن جوني ، لا يثق بأحد أن يفعل له شيئاً ، فهو يفعلها بنفسه .

حدقت في كومة من الثياب الرطبة ، الملقاة في حوض نحاسي . «واو» من الأفضل أن أبدأ بالعمل ، استدارت ثم تناولت مكواة للتمليس ، مع قطعة سميكة من القماش ولمستها بإصبع مبلول باللعاب في حركة سريعة : سميتز ! نعم إنه حار .

انحنت وتناولت قميص عمل أزرق اللون من الحوض ، وهزته قليلاً . وباستدارة رشيقة من كتفها ، التقطت المكواة بيدها اليمنى في حين قامت بسحب قطعة من الشمع من علبة نحاسية ، بأصابع يدها اليسرى ، وسمع صوت أزيز القلي ، بينما هي تمسح قاعها . لم تعد تفكر بشيء الآن ، فقد اتبعت يداها طقوساً حياتية طويلة من الكدح والعمل . بسطت قميصاً ثم مررت المكواة جيئة ، وذهاباً حتى تصلَّب الثوب المبلل . كانت ما تزال في خضم عملها ، عندما شقت شفتاها الغارقتين أغنية قديمة تعود لأيام الطفولة البعيدة :

هذه هي زنبقة الوادي ، نجمة الصباح المشرقة

هذه هي الأجمل بين عشرة آلاف

رشقت هبة ريح ببعض المطر على النافذة ، يجب أن يعود جوني بوي ــ إلى البيت لتناول عشائه ، يا إلهي سيكون رائعاً ، أن يأكل «سغ» حقاً الليلة ، مثل أيام زمان ، ربما لن يطول به الأمر حتى يعود ، قال في رسالته في الأسبوع الماضي أن لا أقطع الأمل . نعم علينا أن نعيش في أمل . فقد يعود والداها الاثنان سغ وجوني بوي . وبحركة عصبية لا إرادية ، توقفت عن الكوي ، ووقفت ثابتة تصغي . ولكن الصوت الوحيد الذي طرق مسامعها ، كان صوت رشق المطر المتساقط . سحقاً! لا فائدة من حديثي بهذه الطريقة ، كانت تفكر ، منذ أن جهزوا أنفسهم لعقد الاجتماعات . أصبحتُ عصبية ، وأصبحتُ أخاف قليلاً منذ وضع سغ في السجن .

سمعت قرع الساعة ونظرت إليها . لقد تأخر جوني بوي ساعة . لا بد أنه يستمتع بوقته وهو يدوس في هذا الوحل . ولكن خوفها كان هادئاً ، كان نوعاً من الاكتئاب الشديد ، أكثر منه خوفاً . نوعاً من احتضان الحقائق الكريهة ، عن قرب بحيث أصبحت تشعر بالجزع ، تماماً مثل ما تشعر بسريان الماء البارد على يديها من صنبور في

صباح يوم شتاء .

عادت إلى الكي مرة أخرى ، ولكن بسرعة هذه المرة ، وكأنها كلما أشغلت نفسها بالعمل كلما قل انهماكها في التفكير . ولكن كيف يمكنها أن تتناسى جوني بوي في تلك الحقول الرطبة؟ وهو يجمع الشيوعيين من البيض والسود لحضور اجتماع في الغد وماذا كان يفعل سغ بالضبط عندما ألقى رجل الشرطة القبض عليه ؟ وضربه وحاول أن يجبره على الاعتراف من هم رفاقه وأين هم ؟ لا بد أنهم ضربوه ضرباً مبرحاً المسكين سغ ، الحمد لله إنه لم يتكلم فهو ليس ضعيفاً لقد كان قلبه قلب أسد طوال حياته .

حدث هذا قبل سنة ، وكلما عادت مثل هذه الاجتماعات عاد الرعب ليستولي عليها . وبينما هي تدفع بالمكواة ، عادت إليها ذكرى أيام الكفاح ، أيام الغسيل والكي من أجل إطعام جوني بوي وسيغ ليتمكنوا من القيام ، بالأعمال الحزبية . أياماً من حمل مئات الباوندات من ثياب القوم البيض فوق رأسها عبر حقول رطبة أحياناً وجافة أحياناً أخرى . ولكن في تلك الأيام ، لم يكن حمل مئات الباوندات يعني شيئاً عندما يكون الحمل متوازناً على الرأس ، وهي تدور بالغريزة بين خطوط الذرة والقطن . والمرة الوحيدة التي شعرت بثقلها كانت عندما سمعت عن اعتقال سغ . كانت عائدة ذات صباح إلى البيت وعلى رأسها رزمة من الغسيل ، ويداها تلوحان بتراخ على جنبيها ، كانت تسير ببطء وعيناها مثبتتان أمامها ، عندما ناداها بوب صديق جوني بوي عبر الحقول وأبلغها أن رجل الأمن ، قد قبض على سغ ، في ذلك اليوم أصبحت الرزمة أثقل مما تستطيع أن تتذكر .

ومع كل أسبوع يمر الآن ، رغم أنها لم تقل شيئاً لأحد ، أصبحت الأشياء أثقل . أصبحت دلاء الماء والمكواة ورزم الثياب أصعب على الحمل من قبل . فقد ازداد وجع ظهرها وصار العمل يأخذ منها مدة أطول . كل هذا لأن سغ قد غاب ولا تدري متى سيأتي دور جوني بوي . وحتى تخفف من ألم القلق الذي يثقل على قلبها أخذت تهمهم ثم بدأت تغني برقة :

إنه يمشي معي .

إنه يتكلم معي .

ويقول لي أنني ملكه .

توقفت وابتسمت ، وشعور بالذنب يراودها ، قالت لنفسها يبدو أني لا أستطيع نسيان هذه الأغاني ، مهما حاولت جاهدة . كانت قد تعلمت هذه الأغاني منذ نعومة أظفارها ، عندما كانت تعمل في مزرعة . صبيحة كل اثنين ، وعبر حقول الذرة والقطن ،كانت هذه الأغاني البطيئة تتردد على شفاه أمها وحيدة ومتلازمة . وفيما بعد ، ومع مرارة السنين ، تعلمت تماماً المعاني العميقة لهذه الأغنيات . علمتها الساعات الطويلة من مسح الأرضيات ، مقابل بعض السنتات القليلة . ماذا كان المسيح وأي نعمة عظيمة أن تلتصق به ، وأن تكون مثله تعاني دون أن تنبس بكلمة . صبت كل شوق حياتها في الأغاني ، واستشعرت مدعومة بإيمان أبعد من هذا العالم ، صورة الرجل وهو مسمر بألم على الصليب ، ثم صورة دفنه في قبر بارد وانبعاثه المجيد فيما بعد ، حقيقة كونه نفس وطين واله وإنسان ، كل هذا ركز مشاعرها ، نحو صورة جرفت حياتها في مسار من الرؤى الرائعة ولكن ، مع تقدمها في السن ، اقتحم رؤاها جبل أبيض بارد ، القوم البيض وقوانينهم ، بعثروا أغانيها ، وحطموا تعاويذ السلام فيها ، بالنسبة لها شكّل هذا الجبل تجربة ، وكان شيئاً يغريها بالابتعاد عن إلهها ، أو جزءاً من عالم نظمه اللّه لكي تستطيع تحمله ، وتخرج من التجربة أقوى من قبل ، تماماً مثلما خرج المسيح من القبر بمجد عظيم .

عززت الأيام المفعمة بالمشاكل من إيمانها ، وكبرت لتعشق الصعاب بكبرياء مريرة . أطاعت قوانين القوم البيض بابتسامة هادئة تعرف سرها .

وبعد أن رُفعت أمها إلى السماء في عربة من نار ، جاءها نصيبها من السنين برجل ، يعمل بكدح وطفلين أسودين هما سغ وجونيبوي . قامت هي بإدخالهم في رؤياها ، ثم جاءتها التجربة من اللّه ، فقد توفي رجلها وكانت تجربة استطاعت تحملها بالقوة التي أسبغتها عليها نعمة رؤياها .

وأخيراً ذابت ذكرى رجلها في الرؤيا نفسها ، وتركتها مع ولديها الأسودين الذين راحا ينموان تدريجياً على طريق الرجولة . إلى أن جاء يوم امتلأ قلبها بالحزن ، عندما تقدم جوني بوي وسغ نحوها يطلبان بأن يعيشا حياتيهما . كانت تريد أن تملأ عينيهما برؤياها ، ولكنهما لم يريدا شيئاً من هذا . بكت عندما أخذا يفاخران بالقوة ، التي

أسبغتها عليهما رؤيا جديدة ورهيبة ، ولكنها كانت تحبهما كما أحبتهما الآن ، وقلبها الدامي يتابعهما . لم تكن تستطيع أن تفعل أكثر من هذا كونها امرأة عجوزاً في عالم غريب . ويوماً بعد يوم أخذ أولادها ينتزعان ، رؤياها القديمة من أمام عينيها المروعتين . وصورة تلو صورة بدأت تظهر لها رؤيا مختلفة ، كانت كافية بما فيها من القوة والعظمة ، لأن تزج بها في نور نعمة أخرى . أخذت عذابات ومعاناة الرجال السود مكان المسمر على الصليب . وأصبحت البدايات الضعيفة للحزب بمثابة انبعاث جديد لها . وصار الحقد على هؤلاء الذين يريدون تدمير إيمانها الجديد ، يسرع فيها نهماً ويشعرها بمدى عمق قوتها . يا إلهي ، جوني بوي ، كانت تقول أحياناً : القوم البيض يحاولون أن يجبروني على إخبارهم عمن ينتمي إلى الحزب ، ومن لا ينتمي ولكني سأريهم شيئاً لم يظنوا أن امرأة سوداء يمكن أن تمتلكه .

ولكن في بعض الأحيان ، مثل هذه الليلة ، وبينما هي غارقة في العمل الذي ينسيها همها ، يختلط الماضي بالحاضر في مخيلتها ، وهي مستمرة في الكدح ، تحت نجمة غريبة تبحث عن حرية جديدة ، تنزلق من شفتيها تلك الأغاني القديمة بعذوبتها الخادعة .

بدأت المكواة تبرد ، فوضعت مزيداً من الحطب على النار ، ووقفت أمام النافذة تراقب قطعة من الضوء الأصفر وهي تشق رطوبة الظلام . لم يعد جوني بوي بعد . . . ثم وقبل أن تعي الأمر صمتت برهة تستمع إلى الأصوات . ووسط أزيز المطر ، سمعت وقع أقدام في الطين ، هذا ليس جوني بوي ، فقد كانت تعرف وقع أقدامه الثقيلة الطويلة بين الملايين . أصغت إلى وقع الأقدام وهي تسير على الشرفة ، إنها امرأة ، سمعت أصابعها العارية تدق الباب ثلاث مرات متتالية ، ثم مرة واحدة . لا بد أنهم بعض الرفاق ، رفعت مزلاج الباب ثم فتحته قليلاً وأحجمت إثر رشقه باردة من الهواء الرطب .

ـ من هذا ؟

ـ إنها أنا .

ـ من ؟

ـ أنا ريڤا .

فتحت الباب على مصراعيه .

ـ يا إلهي إن الجو بارد ، ادخلي .

تنحت خطوات جانباً ، وهرعت بسرعة عبر الباب فتاة بيضاء ، نحيفة شقراء الشعر ، وفيما كانت تحكم إغلاق الباب ، سمعت لهاث الفتاة ، هي تنفض ثيابها المبتلة ، لا بد أن هناك أمراً سيئاً ، فلو لم يكن هناك شيء لما جاءت ريڤا سيراً عبر المنحدر إلى منزلي . إن هذه الفتاة متعلقة بجوني بوي ، فهل حدث له شيء؟

ـ ادخلي إلى المطبخ يا ريڤا فإنه أدفأ . يا إلهي كم أنت مبتلة؟

ـ كيف تظنينني سأكون مع مثل هذا المطر ؟

ـ ألم يعد بعد جوني بوي ؟ سألت ريڤا .

ـ كلا ، لا فائدة من القلق عليه . فقط قومي بنزع حذائك ، وإلا ستموتين من البرد ، وقفت تنظر بذهول : نعم . أظن أن شيئاً قد حصل بالنسبة للحزب أو لجوني بوي يا إلهي» وتتساءل كيف يشعر أبوها لو عرف شعورها نحو جوني بوي ؟

ـ يا عزيزتي ما كان يجب أن تأتي في مثل هذا الجو الموحل .

ـ لقد كان لزاماً علي أن آتي يا عمة سو .

قادت ريڤا إلى المطبخ .

ـ اخلعي حذاءك ، واقتربي من المدفأة كي تجفي كلياً .

ـ عمة سو أريد أن أخبرك شيئاً .

أحست بوقع الكلمات تكتم أنفاسها . لا بد أن الأمر يتعلق بجوني بوي .

ـ ماذا يا عزيزتي ؟

ـ لقد جاء رجل الأمن إلى بيتنا الليلة ليرى أبي .

ـ نعم .

ـ لا بد أنه سمع كلاماً حول ذلك الاجتماع غداً .

ـ هل الأمر متعلق بجوني بوي يا ريڤا ؟

ـ كلا يا عمة سو لم أسمع أي كلمة حوله ، هل سترينه الليلة ؟

ـ لم يعد للبيت ليأكل بعد .

ـ أين يمكن أن يكون ؟

ـ اللّه أعلم يا بنيتي .

ـ لا بد لأحد أن يخبر الرفاق ، بأن الاجتماع قد ألغي . قالت ريڤا لقد وضع رجل الأمن رجالاً ليراقبوا بيتنا ، وكان علي أن أتسلل سراً ، لأصل إلى هنا دون أن يتبعوني .

ـ ريڤا ؟

ـ نعم ؟

ـ إنني امرأة عجوز ، ويجب عليك أن تقولي لي الحقيقة .

ـ ماذا يا عمة سو ؟

ـ أنت لا تخدعينني ، أليس كذلك ؟

ـ أخدعك ؟

ـ بخصوص جوني بوي .

ـ يا إلهي ، كلا يا عمة سو .

ـ إذا كان هناك شيء خطأ فأخبريني يا بنيتي . إني أستطيع تحمله . وقفت قرب لوح الكي ويداها معقودتان بتراخ فوق بطنها ، تراقب ريڤا وهي تنزع حذاءها المبلل . كانت تشعر أنها قد أضاعت جوني بوي ، أخذت تشعر بالألم الذي سيراودها ، عندما تعلم حقيقة ذلك . كما شعرت بأن عليها أن تكون شجاعة وأن تتحمل . كانت مثل شخص عالق وسط تيار ماء سريع ، والمياه تجرفها ولا ترغب في الاستمرار ولكن كان عليها أن تمضي للنهاية .

الأمر لا يتعلق بجوني بوي يا عمة سو ، قالت ريڤا ولكن علينا أن نفعل شيئاً وإلا سنقع في ورطة .

ـ كيف عرف رجل الأمن عن هذا الاجتماع ؟

ـ هذا ما يريد والدي أن يعرفه .

ـ لا بد أن أحداً خان مثل يهودا .

ـ يبدو الأمر كذلك .

ـ أراهن أنه أحد هؤلاء الأعضاء الجدد قالت : ـ من الصعب معرفة ذلك ، قالت ريڤا .

ـ اسمعي يا ريڤا عليك أن تبقي هنا لكي تجففي نفسك ، ولكن عليك بعد ذلك أن تذهبي وتخبري أباك أن جوني بوي ليس هنا ، ولا أدري متى سيأتي . وعلى أحد أن يخبر الرفاق ، بأن يبقوا بعيداً عن بيت أبيك .

وقفت وظهرها إلى النافذة ، تنظر إلى عيني ريڤا الزرقاوين الواسعتين ، ولسان حالها يقول مسكينة هذه المخلوقة ، لقد سارت كل هذه الطريق المنحدر .

وبالرغم من أنها شعرت بالشفقة على ريڤا ، إلا أنها لم تشك لحظة في أن ما فعلته كان يتوجب عليها فعله . كون ريڤا لم تكن امرأة مشبوهة ، ولا بد لها أن تخرج من البيت . كان طبيعياً أن تخرج ريڤا في مثل هذا المطر القارس ، تماماً كما هو طبيعي بالنسبة لها ، وهي تقضي الليل والنهار تكوي ، أو كما هو بالنسبة لسغ بأن يكون في السجن . أو كما هو حالياً بالنسبة لجون بوي ، الذي ما يزال يطارد في تلك الحقول المظلمة ، محاولاً أن يعود إلى البيت . يا إلهي لا تدعه يأتي هنا الليلة ! وعلى الرغم من تمزق أحاسيسها ، فقد كانت تحب ابنها . ومن خلال محبتها له أصبحت تحب كل ما يحاول أن يفعله . كان جوني بوي في أسعد حالاته ، وهو يعمل من أجل الحزب . كانت محبتها له هي سبب سعادته في الأساس . تجهم وجهها قليلاً ، وهي تحاول تجميع مشاعرها لتصل إلى شيء ما . إن محاولتها منع جوني بوي ، تعني الاعتراف بأن كفاحها طوال هذه السنين كان عبثاً .

كما أن محاولة تركه على سجيته ، تعني أنه سوف يقبض عليه بعد حين تماماً مثلما قبض على سغ . ذهلت قليلاً وهي تحاول مواجه الأمر بهذه الطريقة ، وكأنها وصلت فجأة إلى حائط مسدود في الظلام . ولكن في الخارج كان هناك أناس ، سواء بيضاً ، كانوا أم سوداً ممن عرفتهم طوال حياتها . وكان هؤلاء الناس يعتمدون على جوني بوي ، ويحبونه وينظرون إليه كرجل وكقائد . نعم عليه أن يستمر ، لا يمكنه أن يتوقف الآن . نظرت إلى ريڤا . كانت تبكي تشد حذاءها إلى الخلف لتدخل فيه أصابعها المترددة .

ـ لماذا تتعبين نفسك من هذه الطريق يا بنيتي ؟

ـ لقد خسرت سغ والآن ستخسرين جوني بوي .

ـ لقد فهمت ذلك يا عزيزتي .

كانت سعيدة لأنها استطاعت أن تقول ذلك . فقد كانت ريڤا تؤمن بقضية السود . ولا يمكن تحت أي ظرف في الدنيا أن تتردد أمامها . وجدت في ثقة ريڤا وتقبلها لها ، بدايات إحساساتها بالإنسانية . كانت محبة ريڤا هي ملجؤها من العار ، والذل . فإذا كان الجبل الأبيض قد جرفها في بداية حياتها ، بعيداً عن الأرض ، فإن صحبة ريڤا قد أعادتها إليها تماماً مثل المنارة في الخارج ، والتي ترشد الضالين في الليل .

سمعت ريڤا تبكي .

ــ اهدئي يا عزيزتي .

ــ إن إخوتي في السجن أيضاً وأمي تبكي كل يوم .

ــ أنا أعلم يا عزيزتي .

ساعدت ريڤا على ارتداء معطفها ، وتحسست كتفيها الهزيلين . لا بد أنها لا تأكل بما فيه الكفاية ، لفت خصر ريڤا بذراعيها وضمتها إليها لبرهة .

ــ والآن توقفي عن هذا البكاء .

ــ لا أستطيع ، إنه رغم إرادتي .

ــ سوف يكون كل شيء على ما يرام ، سيعود جوني بوي .

ــ هل تظنين ذلك ؟

ــ بالتأكيد يا طفلتي . لأنه سوف يعود .

توقفتا عن الكلام حتى وصلتا إلى باب الممر . وكان خرير المياه يسمع في الخارج وسط أقنية الشوارع .

قالت ريڤا ــ تأكدي أن ترسلي جوني بوي ليخبر الشباب بأن يبقوا بعيداً عن البيت .

ــ سأقول له . لا تقلقي .

ــ وداعاً .

ــ رافقتك السلامة .

اتكأت على نافذة الباب وراحت تهز رأسها ببطء وهي تراقب ريڤا تختفي وسط المطر المنهمر .

عادت ثانية إلى لوح الكي ، وعندما سمعت أصوات أقدام تغوص في الوحل من الناحية الخلفية من الدار ، عرفت فوراً ومن خبرة سنين طويلة في الإصغاء ، أن جوني بوي قد عاد . ولكن الليلة ، مع كل هذا المطر والخوف ، بدا لها حضوره مثل ذهابه شيء أكبر من أن تستطيع تحمله ، غمرت الدموع عينيها وأشاحت بعيداً . شعرت بأنه جاء إليها لكي تتخلى عنه ، أن تراه الآن مثلما أن تقول له وداعاً ، ولكن «وداعاً» كانت تعلم تماماً بأنها لن تستطيع أن تقولها أبداً . لم يكونا يشعران بهذه الطريقة تجاه بعضهما البعض . فقد كانا يجلسان طوال النهار في غرفة واحدة دون أن يتكلما . كانت هي أمه وكان هو ابنها . معظم الوقت كانت مجرد إيماءة ، أو شخرة صغيرة تحمل كل المعاني ، التي تريد أن تقولها له أو يقولها لها .

لم تدر رأسها عندما سمعته يدخل ، سمعته وهو يجر كرسياً ، يجلس ويتنهد ، ويخلع حذاءه الموحل سمعت الحذاء ، يسقط على الأرض ، ثم ما لبثت رائحة جواربه التي بدأت تنشف ، وغليونه المشتعل تعم المطبخ . لا بد أنه جائع . توقفت ونظرت إليه من فوق كتفها . كان ينفخ غليونه ، ورأسه مائل إلى الوراء وقدماه مستندتان على طرف الموقد ، كان جفناه متدليين ، والبخار يتصاعد من ثيابه المبتلة على وهج النار . يا إلهي هذا الولد ، ينقلب مثل أبيه يوماً بعد يوم . استغرقت في التأمل ، وافترت شفتاها عن ابتسامة واهية . إنه يضع الغليون في فمه ، تماماً مثلما كان يضعه أبوه . وتساءلت كيف سيكون أمره مع والده لو بقي الأخير حياً؟ لا بد أنهما كانا سيحبان بعضهما البعض . فهما متشابهان كثيراً ، وتمنت لو كان لها أولاد غير سغ كي ، لا يشعر جوني بوي بالوحدة . فالرجل يحتاج إلى امرأة ، تقف إلى جانبه . فكرت بريڤا ، فهي تحب ريڤا .

لم يعرف قلبها إشراقة أجمل من تلك اللحظة ، التي علمت فيها أن ريڤا تحب جوني بوي . ولكن وراء ريڤا تقف تلك الوجوه البيضاء الباردة ، لو عرفوا بالأمر ، فقد يعني هذا الموت . تحركت قليلاً ، عندما سمعت جوني بوي ينفض غليونه على الأرض ، ثم رأته يلمه ثانية ويبتسم لها ابتسامة خجولة ثم يهز رأسه .

ـ يا إلهي كم أنا تعس ، تمتم .

ـ أحضرت وسادة من غرفتها وأعطتها له .

هنا ! قالت له .

ـ هه ، قال هو يضع الوسادة بين رأسه وطرف المقعد الخلفي . عادا للصمت ثانية ، نعم إن عليها أن تخبره أن يعود أدراجه ، وينطلق في هذا الجو الممطر البارد . ربما لكي يتم القبض عليه . ربما لآخر مرة ، لم تكن لتعلم . ولكنها أرادت أن يأكل ويجفف نفسه ، قبل إبلاغه بأن رجال الأمن قد عرفوا عن الاجتماع الذي سيعقد غداً في بيت «ليم» . ستجعله يأخذ جرعة كبيرة من الصودا قبل أن يخرج ، فالصودا تساعد دائماً على دفع البرد . نظرت إلى الساعة الحادية عشرة ، يوجد وقت كاف . نشرت صحيفة على ستار الموقد ووضعت وعاءً مليئاً بالخضار ، بجانبه سكينة وشوكة وفنجان من القهوة ، وقطعة من خبز الذرة وصحناً يحتوي على فطيرة دراق .

عشاؤك جاهز . قالت .

نعم . أجابها ولم يتحرك ، وعادت ثانية إلى كيّ الملابس ، ثم ما لبثت أن سمعته يأكل . وعندما لم تعد تسمع فرقعة سكينه على طرف الصحن ، أدركت أنه قد انتهى من تناول طعامه . الساعة الآن الثانية عشرة ، ربما ستدعه يرتاح قليلاً ، قبل أن تخبره ، ربما عند الساعة الواحدة فهو متعب جداً . انتهت من الكي ، وضعت اللوح جانباً ثم كدست الثياب في جرار الألبسة وصبت لنفسها فنجاناً من القهوة ، وجلست لتحتسيه على الكرسي .

ـ نعم لقد نشفت تقريباً ، قالت دون أن تنظر حولها .

ـ نعم أجابها وهو يلتفت نحوها بحدة . أحس في نبرة صوتها أن هناك المزيد . أنهت شرب فنجانها ثم انتظرت بعض الوقت .

ـ ريفا كانت هنا .

ـ نعم ؟

ـ لقد غادرت منذ ساعة .

ـ ماذا قالت ؟

ـ قالت إن رجل الأمن قد جاء إلى بيت ليم اليوم .

ـ بخصوص الاجتماع .

ـ نعم .

رأته يحدق في قطع الفحم المتجمرة في شق الموقد ، ويمرر أصابعه في شعره بعصبية ، علمت بأنه يتساءل كيف عرفت رجل الأمن؟ في هذا الصمت قد يسأل سؤالاً بدون أن ينطق ، وفي هذا الصمت قد تجيبه ودون أن تنطق أيضاً . فكرت في نفسها ، أن جوني بوي يثق بسرعة ، ويحاول أن يوسع الحزب ، لذا فهو يضم أناساً لا يعرفهم جيداً بعد ، لا يمكنك أن تثق في كل رجل أبيض تلاقيه .

ـ أتعلم يا جوني بوي ، لقد كنت تضم مؤخراً أعداداً أكبر من البيض .

ـ أوه ، يا أمي .

ـ ولكن يا جوني بوي .

ـ أرجوك ألا تكلميني في هذا الموضوع الآن .

ـ عليك أن تصغي وتتعلم يا بني . قالت له .

ـ أنا أعلم ماذا ستقولين يا أمي ، ستقولين «كلا أنت على خطأ ، لا يمكنك أن تحكم على الناس فقط من خلال ما تشعر نحوهم ، بل من خلال المدة التي تعرفهم فيها . وأنا أقول : لو بدأنا نطبق هذا ، فلن نضم أحداً إلى الحزب ، وعندما يقسم الناس بأن يقفوا معنا ، فعلينا أن نضمهم . إننا أضعف من أن ننتقي .

نهض فجأة ، وأدخل يديه في جيوبه ثم وقف في مواجهة النافذة . نظرت إليه من الخلف في صمت ، كانت تعلم أن إيمانه عميق ، كان يقول دائماً أن السود لا يمكنهم أن يحاربوا ، الزعماء الأغنياء لوحدهم . لا يمكن للرجل أن يحارب حين تكون كل الأيادي ضده . لقد كان يؤمن إيماناً أعمى بقضيته . وفي بعض الأوقات السيئة كانا يتجادلان ، وكان دائماً يشفق على مشاعرها أمام شدة تفكيره ودائماً كان يخسر . أطرقت برأسها : المسكين جوني بوي إنه لا يعرف .

ـ ليس من جماعتنا من قام بالتبليغ ـ قالت له .

ـ كيف عرفت ؟ سألها بصوت منخفض ولكن بنبرة غضب . وكان لا يزال يواجه النافذة ، ومن حين لآخر كان شعاع الضوء الأصفر يلمع عبر ملامحه السوداء الحادة .

ـ لأني أعرفهم . قالت له .

ـ يمكن لأي كان أن يبلِّغ .

ـ إنه ليس من جماعتنا . قالت له ثانية .

رأت يده تتحرك سريعاً باشمئزاز .

ــ جماعتنا يا أمي بربك من هم جماعتنا ؟

ــ الناس الذين ولدنا وتربينا معهم . الناس الذين نعرفهم .

ــ لا يمكننا أن نوسع الحزب هكذا يا أمي .

ــ ربما كان بوكر قالت له .

ــ أنت لا تعرفين

ــ أو بلا تبرغ . . .

ــ بحق المسيح .

ــ أو أي من الأربعة أو الخمسة ، الذين انضموا في الأسبوع السابق .

ــ أماه ، إنك لا ترغبين أن أخرج الليلة ؟ قال لها .

ــ كلا ، إن أمك تريدك أن تخرج . ولكن كن على حذر يا بني .

ــ أماه ، عندما تبدئين بالشك في أبناء الحزب فإن الأمر ليس له نهاية .

ــ يا بني ، أنا أعرف كل رجل أسود ، وكل امرأة سوداء في هذه الناحية من البلد ، ثم أردفت قائلة ، وهي واقفة أيضاً : لقد راقبتهم يكبرون وحتى أنني ساعدت في ولادة بعضهم . أنا أعرفهم جميعاً منذ زمن . لا يوجد منهم أحد ممن يبلغ رجال الأمن .

إن الناس الذين أعرفهم لا يتكلمون ، حتى لو واجهوا الموت .

إنه أحد القوم البيض . فقط تذكر ما قلته لك .

ــ لماذا يجب أن يكون من القوم البيض ؟ سألها . إذا أبلغوا فهم بالضبط مثل يهودا .

ــ يا بني انظر ماذا أمامك .

ــ أطرق برأسه وتنهد .

ــ أماه ، لقد قلت لك مئات المرات ، لا أرى بيضاً وسوداً ولكنى أرى أغنياء وفقراء فقط .

تناولت أطباق الطعام القذرة ووضعتها في وعاء . ومن طرف عينها ، رأيته يجلس ويشد حذاءه الرطب ، إنه ذاهب . عندما وضعت آخر طبق ، كان قد انتهى من لبس

ثيابه ، وقف يدفىء يديه عند الموقد . بعد دقائق قليلة سيذهب ، ربما مثل سغ ، تورم حلقها ، إن كفاح السود سيأخذ كل شيء ! وكأن اللّه قد وضعنا في هذا العالم فقط من أجل أن يحطمنا !

ـ أَبقي هذه معك يا أماه .

رأت رزمة مجعدة من الأوراق المالية بين أصابعه الممدودة .

ـ كلا ، أبقها معك فقد تحتاجها .

ـ إنها ليست لي ، إنها للحزب .

ـ ولكن يا جوني بوي قد تضطر إلى الذهاب بعيداً .

ـ أستطيع أن أدبر أمري .

ـ لا تنس نفسك كثيراً يا بني .

ـ وإذا لم أعد فسوف يحتاجون هم لها .

كان ينظر إلى وجهها فيما كانت هي تنظر إلى النقود .

ـ أبقي هذه معك ، أنا سأعطيهم النقود .

ـ من أين ؟

ـ لدي بعضها .

ـ من أين جئت بها ؟ تنهدت .

ـ كنت أوفر دولاراً كل أسبوع من أجل دخوله إلى السجن .

ـ يا إلهي أماه .

لاحظت نظرة المحبة المميزة والمندهشة في عينيه ، أعاد النقود إلى جيبه بطريقة فوضوية .

ـ أنا ذاهب قال لها .

ـ خذ اشرب هذا الكأس من الصودا .

وراقبته وهو يشرب الصودا ويضع الكأس جانباً .

ـ حسناً ، قال

ـ أخرج جميع الأوراق من جيبك .

رفعت غطاء الموقد ورمت جميع الأوراق ، التي كانت في جيبه ، داخل حفرة

الموقد ، ثم لحقت به إلى الباب وأجبرته على الاستدارة نحوها .

ـ يا إلهي إنك تحاول أن تصنع ثورة ، وأنت لا تستطيع حفظ أزرار معطفك ، شدت بأصابعها الرشيقة ، قبة المعطف حول رقبته هكذا أفضل .

شد طرف قبعته لتغطي فوق عينيه ، فتحت الباب ومع الوقع المفاجئ للريح الباردة ، التي لفحت وجهها ، كان قد ذهب . راقبت الحقول السوداء بينما هو يشق المطر ، كانت عيناها تلتهبان حرقة . وعندما لم تعد تسمع آخر صوت لوقع أقدامه أغلقت الباب ، واستلقت على سريرها بكامل ثيابها ورفعت الغطاء عليها . كانت مشاعرها تسرح مع إيقاع المطر ، لقد ذهب ! يا إلهي ! أنا أعلم أنه قد ذهب ، أحست بالدم البارد يسري في عروقها .

٣

كانت تسبح في فراغ رمادي بين الحلم واليقظة ، إلى أن استيقظت فجأة وهي تسمع الباب يفتح على مصراعيه ، وتشعر بالريح الباردة تملأ الغرفة ، كان الظلام حالكاً ، راحت تحدق وهي تتكئ على أكواعها ، وفمها مفتوح بدون نفس ، وأذناها تمتلئان بأصوات وقع أقدام وألفاظ مدوية . عرفت على الفور أنهم يبحثون عنه . نهضت على قدميها بإرادة ثابتة صارمة ، تنتظر وتصغي .

ـ إن المصباح مشتعل .

ـ ألق نظرة عليه .

ـ الآن .

ـ انظر في المطبخ .

ـ هذا المكان له رائحة السود .

ـ أقول ، لا بد أن أحداً هنا أو كان هنا .

ـ ربما كان هنا وذهب .

ـ يا ولد ! انظر إلى أوعية المربى هذه .

ـ إن السود يصنعون مربيات جيدة .

ـ أحضر بعض الخبز .

ـ يوجد هنا بعض خبز الذرة .

ـ أقول دعني آخذ شيئاً .

ـ على مهلك يوجد الكثير هنا .

ـ سوف آخذ بعضاً منها إلى البيت .

ـ انظر يوجد هنا بعض الخضروات .

ـ وبعض القهوة الساخنة .

ـ أقول يا شباب توقفوا عن هذا وتعالوا هنا ، فنحن لم نأت هنا لاحتفال .

سارت ببطء عبر الردهة ، إنهم يبحثون عنه ولكنهم لم يعثروا عليه بعد ، توقفت عند ممر الباب ، ويداها السوداوتان معقودتان فوق معدتها ولكنها كانت تشدهما ، الآن حتى تكاد تبرز عروقهما . كان المطبخ يزدحم بالرجال البيض ، الذين يرتدون معاطف متلألئة ، ورغم أن المصباح كان مشتعلاً ، إلا أن مصابيحهم اليدوية ، كانت تلمع في قبضاتهم الحمراء ، وشاهدت على الأرضية آثار الطين من أقدامهم .

ـ أيها القوم البيض اخرجوا من منزلي .

ساد صمت سريع ، التفتت كل الوجوه نحوها ، ولاحظت حركة سريعة ، لكنها لم تعرف معناها حتى صفعها شيء رطب ، وساخن في وجهها . لهثت ولكنها لم تتحرك ، وبهدوء مسحت عينيها بيدها اليسرى ، لتنظفهما من مرقة الخضروات اللزجة الساخنة . حيث كان أحد الرجال البيض قد قذفها بحفنة الخضروات ، التي وجدها في الوعاء .

ـ كيف هو طعمها أيتها العجوز القحبة ؟

ـ يجب أن أتخرجوا من بيتي .

يخرج رجل الأمن من بين الحشد ويسير باتجاهها .

ـ والآن يا عمتي . .

ـ أنا لست عمتك أيها الرجل الأبيض .

ـ إنك لست في روح جيدة .

ـ لتذهب الروح إلى الجحيم ، أخرج هؤلاء الرجال من بيتي .

ـ يبدو أن الأمر لا يعجبك ؟

ـ كلا لا يعجبني وأنت تعلم تماماً أن هذا الأمر لا يعجبني .

ـ ماذا ستفعلين إذن ؟

ـ أنا أقول لك أن تخرج من بيتي .

ـ لقد بدأت تصبحين وقحة .

ـ إذا كان طلبي إليك أن تخرج من بيتي وقاحة ، فأنا وقحة . بدت كلماتها ، مثل همسة متوترة ، ولكنها كانت تراقب الرجال عن كثب ، تفكر كيف تتعامل معهم وتقيمهم؟

ـ اسمعي يا عمتي ، جاء صوت رجل الأمن ناعماً خفيفاً : أنا هنا لأساعدك ، لماذا تتصرفين هكذا ؟

ـ إنك لم تساعد نفسك منذ ولدت ـ انفجرت غاضبة ـ كيف يمكن لأمثالك أن يساعدوني ؟

تقدم أحد الرجال البيض من الخلف ، ووقف في وجهها مباشرة .

ـ اسمعي أيتها المرأة السوداء ، إنك تكلمين رجالاً بيضاً .

ـ أنا لا أبالي من الذي أكلمه .

ـ سوف تتمنين يوماً أن تبالي .

ـ ليس أمثالك .

ـ إنك تحتاجين إلى شخص يعلمك كيف تصبحين سوداء صالحة؟

ـ إنك لن تستطيع أن تعلمني ذلك .

ـ سوف تغيرين من نبرتك .

ـ لن أفعل طالما في جسمي عرق ينبض .

ـ لا تدعي الذكاء الآن .

ـ يجب أن تخرجوا من بيتي .

ـ وإذا لم نخرج ؟ سألها الرجل الأبيض .

كانوا قد تجمهروا حولها ، لم تكن قد تحركت من مكانها ، منذ أن وقفت على باب الممر . كانت ترمي لهم بالكلمات وتتلقاها منهم . وتفكيرها منصبّ فقط على جوني بوي ــ كانت تعلم أنهم يفكرون أيضاً في جوني بوي ، وفي أنهم يريدون القبض

عليه ، كان قلبها يتحداهم على أخذه منها .

ـ افرضي أننا لن نخرج ؟ سألها رجل الأمن مرة أخرى .

ـ عشرون منكم يهاجمون امرأة عجوزاً ، أتشعرون بالسرور لشجاعتكم امسك رجل الأمن بذراعها .

ـ كفى الآن ، لقد كلت لنا من الوقاحة ، ما يكفي لليلة واحدة ـ أين ابنك الأسود ؟

ـ ألا تتمنى أن تعرف ؟

ـ هل تريدين أن تُضربي؟

ـ لم أعرف من أمثالكم شخصاً لم يكن حقيراً لدرجة . . . .

صفعها رجل الأمن على وجهها براحة يده المفتوحة ، فوقعت على ركبتيها عند الجدار .

ـ هل هذا ما يفعله الرجال البيض للنساء السود ؟

نهضت ببطء ووقفت مرة ثانية ، دون أن تتحسس مكان الألم الذي سببته الصفعة ، وكانت يداها معقودتين على معدتها .

ـ لم أعرف من أمثالكم شخصاً لم يكن حقيراً لدرجة . . .

صفعها رجل الأمن مرة أخرى . نكصت على عقبيها عدة أقدام ثم وقعت على جنبها .

ـ هل هذا أقل ما يمكن أن تفعله ؟

وقفت أمامه ثانية ، وعيناها جافتان لكنها لم تتلق أيّ ضربة . كانت شفتاها خدرتين وذقنها مبتلة بالدم .

ـ آه اتركوها تذهب ، إنه الأسود الذي نحن بصدده .

ـ أين ابنك الأسود سألها رجل الأمن ؟

ـ اعثر عليه ، قالت له

ـ بربي إذا وجدناه فسنقتله .

ـ إنه لن يكون الأسود الوحيد الذي تقتلونه . قالت .

كانت قد استنفذت مرارة كبريائها . شعرت بأنه لا يوجد شيء على الأرض يمكن

أن يفعلوه إلا وتستطيع تحمله .

وقفت على تلك القطعة الضيقة من الأرضية ، حيث مواجهة الموت . دون أن تتكلم . وهنا تبين لها الأمر ، حين كانت تتحسس الدم الذي يسيل على رقبتها بأنها تخلت عن جوني بوي ، تخلت عنه للقوم البيض ، لأنهم جاؤوا يدوسون على قلبها ، ويطلبونه وقد ظنوا أنهم يستطيعون انتزاع الكلام منها بالضرب والتخويف . لقد تخلت عنه ، لأنها أرادت أن يعرفوا أنهم لن يستطيعوا الحصول على ما يشاؤون بالخداع والقتل .

ـ أين سيعقد هذا الاجتماع ؟ سألها رجل الأمن؟

ـ ألا تتمنى أن تعرف ؟

ـ أليس هناك اجتماع سيعقد ؟

ـ ولماذا تسألني ؟

ـ سوف يكون هناك اجتماع قال رجل الأمن .

ـ هل سيكون ؟

ـ إن لدي عقلاً كبيراً لأخرج الكلام من فمك .

ـ إنك ذكي جداً . قالت .

ـ إننالا نلهو معك .

ـ هل قلت إنك تلهو ؟

ـ إن ابنك الأسود موجود هنا في مكان ما ، ونحن نريد العثور عليه قال رجل الأمن ، إذا أخبرتنا أين هو وإذا هو تكلم فسنخرج من الأمر بسهولة؟ ولكن إذا اضطررنا للبحث عنه فسوف نقتله . إذا اضطررنا للبحث عنه فعليك أن تحضري ملاءةً في الصباح لتغطيه ، أترين ؟ أحضري ملاءة لأنه سيكون ميتاً حينها .

ـ لن يكون الأسود الوحيد الذي تقتلونه . قالت له مرة أخرى ، مر رجل الأمن من أمامها وتبعه الآخرون ، كانت تفكر بابتهاج إنك لم تحصل على ما أتيت من أجله ، ولن تحصل عليه أبداً . كان هناك ألم حار في قلبها ، جعلها تشعر بحدة كبريائها وحريتها . كان قلبها يتلمس طريقة ، لكي يحول هذه الساعات المريرة من حياتها إلى كلمات من النوع الذي يشعرها بأنها قد تحملت كل ما فعلوه بها في مسيرتها وأنها

تستطيع تحمل المزيد . حلق بها إيمانها عالياً ، قد تكون كل شيء ، ولكنها ليست عمياء . سارت خلفهم ، وهي تعقد أصابعها ورأتهم ينزلون إلى الأرض الغارقة في الطين ، كانت كل دورة من الضوء الأصفر ، تكشف لمحة من المطر الساقط ، تحركت شفتاها وصاحت :

ـ لم تحصل على ما تريد ولن تحصل عليه .

توقف رجل الأمن واستدار جاء صوته قاسياً وخفيضاً .

ـ بربي ، الآن هذا يكفي .

ـ كلا هذا لا يكفي ، إنك لا تعرف متى يكفي ، ولكني سأعلمك ذلك الليلة .

انطلق نحو الدرج ووصل إلى الشرفة بقفزة واحدة ، تراجعت هي نحو القاعة وكانت عيناها تمتلآن من وجهه .

ـ قولي لي متى ستتوقفين عن الكلام . قالها وهو يلوح بقبضة يده ، تلقت الضربة عند خديها ، أحست بفراغ في عينيها ووقعت على الأرض ، شعرت بكعب حذائه المبتل يدخل في معدتها وفي صدغها .

ـ دعيني أسمعك مرة أخرى .

أرادت أن تتكلم ، ولكنها لم تتمكن فقد كان الألم يخنقها ، ارتمت على الأرض بلا حراك ، ومن وسط الفراغ الرمادي ، الذي سبق فقدانها الوعي سمعت صوتاً يقول : لأجل المسيح اتركها لوحدها ، إن الشاب هو الذي نحن بصدده .

٤

لم تعلم كم مضى عليها من الوقت وهي مكومة في ردهة الممر المظلمة ، وأول شعور راودها عند عودتها إلى الوعي ، كان خوفاً لا اسم له يتجمع داخلها ثم ألماً شديداً يمتد من صدغها نزولاً حتى باقي جسمها . كانت أذناها مشبعتين بأزيز المطر ، وكانت ترتعد من الريح الباردة ، التي تهب عبر الباب فتحت عينيها وفي البداية لم تستطع أن ترى شيئاً ، بل بدت وكأنها تتخيل الأشياء ، كانت تعلم أنها كانت نصف ممدة ونصف جالسة ، عند زاوية الجدار . أدارت رقبتها بصعوبة وصعقت لما رأته . فقد كان هناك غشاوة ،ضخمة معلقة فوقها مباشرة أيضاً . ولوهلة لم تكن

تستطيع أن تجزم ، إذا كان خوفها ناجماً عن هذه الغشاوة أم أن هذه الغشاوة ناجمة عن خوفها . تدريجياً بدأت الغشاوة تتوضح في صورة وجه أبيض ، ضخم ملأ بصرها ببطء ، تجمدت كالحجر ، وكانت في الحقيقة ، واعية بأنها تحاول أن تتنفس وشعرت بأنها عاشت فقط ، بسبب رحمة هذا الوجه الأبيض . كانت قد شاهدت مثله من قبل ، تملكها الخوف عدة مرات . وكان الخوف دائماً ، من الوجوه البيض التي رأتها في حياتها . سو . . . وكأنها من مسافة بعيدة سمعت من ينادي عليها باسمها ، وبدأت الآن تسترد وعيها ، ولكن الخوف بقي مرافقاً لها . نظرت في وجه الرجل الأبيض ، يراودها شعور بأن تصرخ وتطلب منه أن يذهب ولكنها رضيت بتقبل وجوده ، لأنها أحست بأنها في حاجة إليه ، بقيت شفتاها عاجزتين عن النطق . رغم أن جزءاً من ذهنها عادت إليه حيويته .

بدأ الأمر وكأن سكيناً خفية شقتها ، إلى نصفين ، نصف ملقى على الأرض بلا حول ولا قوة في حين تقلص النصف الآخر ، مرعوباً من عدو مألوف قد نسيته . سو إنه أنا ياسو . . . وفجأة بدا الصوت واضحاً لها .

ـ إنه أنا بوكر .

سمعت صوتاً مجيباً في داخلها : إنه بوكر الشخص الذي انضم حديثاً ، نهضت وهي تحاول استعادة وعيها ، وبينما هي تفعل ذلك نقلت إلى شخص بوكر ؛ هذا الخوف اللامسمى الذي تشعر به . بدا لها وكأن بوكر يحلق فوقها في تحد ، لحقها بالوجود على وجه الأرض .

ـ حسناً ، هل أنت على ما يرام ؟

ـ لم تجب وحاولت أن تقف على قدميها ولكنها عاودت السقوط .

ـ سو هل تأذيت ؟

ـ نعم أجابت لاهثة .

ـ أين ضربوك ؟

ـ على رأسي همست .

كانت تتكلم ، رغم أنها لم تكن ترغب في الكلام ، ولكن الخوف أجبرها على ذلك .

ـ لقد ضربوك .

ـ نعم .

ـ الأوغاد ، الأوغاد الملعونون .

سمعته يرددها مرات ، ومرات ثم أحست بشيء يرفعها .

ـ لا ، كانت تلهث .

ـ سوف آخذك إلى المطبخ .

ـ انزلني .

ـ ولكن لا يمكنك البقاء هكذا .

انكمشت بين ذراعيه ودفعت جسمه بيديها . عندما أصبحت في المطبخ ، حررت نفسها ، وغرقت في أحد المقاعد ، وهي تقبض بشدة على مؤخرة المقعد . نظرت بتساؤل إلى بوكر ، فلم يكن فيه شيء يخيفها ، ولكن حتى هذا الأمر لم يخفف من توترها ، رأته يمضي إلى دلو الماء ، ويبلل منديله ويطويه ثم يقدمه لها . نظرت إلى الخرقة المبللة بريبة .

ـ هنا ! ضعي هذا على جبينك .

ـ كلا .

ـ هيا سيجعلك تشعرين بتحسن .

ترددت حائرة ، ولكن ما الحق الذي تملكه في أن تخاف من شخص ، يتصرف معها بمثل هذه الرقة . مالت إلى الأمام ، بتردد ثم وضعت الخرقة المبللة على رأسها . ساعدتها قليلاً ، وكانت مع كل دقيقة تمر تحاول أن تتمالك نفسها متسائلة لماذا شعرت هكذا

ـ ماذا حدث ؟

ـ لا أعلم .

ـ هل تشعرين بتحسن؟

ـ نعم .

ـ من الذي كان هنا ؟

ـ لا أعلم ، قالت مرة أخرى . .

ـ هل ما زال رأسك يؤلمك ؟

ـ نعم .

ـ أنا آسف .

ـ أنا على ما يرام ، تنهدت ودفنت وجهها في يدها .

أحست به يمسك كتفها .

ـ سو ، لدي أخبار سيئة لك .

عرفت ما حدث ، تجمدت وأحست بالبرد ، لقد حدث الأمر ، حدقت بعينيها الجافتين ، تكلمت وشفتاها مضغوطتان .

ـ إنه جوني بوي ـ قالت .

ـ نعم ، أنا آسف بأن أخبرك الأمر بهذه الطريقة ، ولكني ظننت بأنه يجب أن تعرفي .

خف توترها وأحست بمساحة فارغة ، تمتد في داخلها وصوت يهمس : أيها المسيح ساعدني .

ـ أين هو ؟

ـ لقد قبضوا عليه خارج غابات فوليز ، ويحاولون استنطاقه عن الآخرين .

ـ لن يخبرهم ، قالت له . يمكنهم أن يقتلوه لأنه لن يخبرهم .

ـ آمل أن لا يخبرهم ، قال بوكر : ولكن الفرصة لم تتح له لإخبار الآخرين ، فقد قبضوا عليه عندما خرج من الغابات . اعتراها خوف شديد ، رأت في المنطقة الريفية الماطرة ، صفاً من الأكواخ يخرج منها رفاق سود وبيض متوجهين نحو منزل ليم حيث سيقبض عليهم . كل هذا يعني الرعب والسجن والموت . يجب على أحد أن يخبر الرفاق ، عليها هي أن تخبرهم ، لا يمكن أن تسلم عمل جوني بوي لأحد غيره ، وخاصة بوكر الذي طالما شعرت نحوه ما تشعره الآن . قبضت على رِجل المقعد ، بيديها الاثنتين وحاولت النهوض ولكنها أحست بالدوار وترنحت وجدت نفسها مرة أخرى بين ذراعي بوكر .

ـ دعني أذهب .

ـ إنك أضعف من أن تستطيعين السير .

ـ علي أن أخبرهم . قالت
ـ اجلسي يا سو إنك مصابة ومريضة .
جلست ثم نظرت إليه ببؤس .
ـ اسمعي يا سو لقد اعتقل جوني بوي ، وأنا هنا ، أخبريني من هم ؟ وسأقوم بإبلاغهم .
حدقت نحو الأرضية ولم تجب . كانت أضعف من أن تستطيع السير ، لا سبيل أمامها لقطع كل هذه الأميال ، وسط هذا المطر الليلة . ولكن هل عليها أن تبلغ بوكر . لو أن هناك شخصاً مثل ريڤا لتكلمه . لم تكن ترغب ، في أن تأخذ هذا القرار وحدها . لا يجب أن ترتكب خطأ بهذا الشأن . أحست بأصابع بوكر تضغط على ذراعها . بدا وكأن الجبل الأبيض يدفعها نحو حافة مرتفع شديد الانحدار . أخذت تتساءل بداخلها ـ يا يسوع ساعدني ـ كان وجه بوكر متجهاً نحوها ينتظر . هل تفعل الصحيح إذا أخبرته ؟ ماذا لو لم تخبره وتم اعتقال الرفاق؟ لا يمكن أن تسامح نفسها أبداً على هذه الفعلة ، ولكن ربما تكون على خطأ ، ربما يكون خوفها ناتجاً فقط . عما كان جوني بوي دائماً يدعوه حماقة . وتذكرت كلماته : أماه لا يمكننا أن نؤلف حزباً إذا بدأنا نشكك في الجميع .
ـ أخبريني من هم يا سو فقد انضممت إلى الحزب لتوي؟ ولا أعرف من هم؟
ـ وأنا لا أعرف من هم أيضاً؟
ـ يجب عليك أن تخبريني .
ـ لقد قلت لك لا أعرف .
ـ إنك تعرفين . هيا اجلسي وتكلمي .
ـ كلا .
ـ هل ترغبين بأن يقتلوهم جميعاً ؟
أطرقت برأسها وبلعت ريقها ، يا إلهي أنا لا أؤمن بهذا الرجل .
ـ اسمعي سوف أقرأ الأسماء وأخبريني أنت أيّاً منهم في الحزب وأيّاً لا .
ـ كلا .
ـ أرجوك يا سو .

ـ لا أعرف . قالت له .

ـ سو إنك لا تفعلين الصواب ، إن جوني بوي لا يرغب منك أن تفعلي هكذا ، لقد خرج هناك يسعى في طريقه دعينا نسعى نحن .

ـ يا إلهي ، أنا لا أعرف .

ـ هل تخافين مني لأني أبيض؟ جوني بوي ليس كذلك ، لا تجعلي عملنا كله يذهب سدى .

استسلمت وأحنت رأسها بين يديها .

ـ هل هو جونسون ؟ قولي لي يا سو؟

ـ نعم ، همست برعب .

تملكها رعب طاغ وشعرت كأنها تتفكفك .

ـ هل هو جرين ؟

ـ نعم .

ـ ميرفي

ـ يا إلهي لا أعرف .

ـ يجب أن تخبريني يا سو .

ـ سيد بوكر أرجوك اتركني لوحدي .

ـ هل هو ميرفي ؟

أجابت بنعم ، على أسماء رفاق جوني بوي ، بقيت تجيب حتى توقف عن الأسئلة ، ثم أخذت تفكر ، كيف علم أن رجال الأمن يراقبون منزل ليم؟ وقفت وأمسكت بالكرسي ، وهي تشعر بشيء واثق وأكيد بداخلها .

ـ كيف عرفت عن ليم ؟

ـ ماذا ! كيف أعرف ؟

ـ ما الذي تفعله هنا في مثل هذا الوقت من الليل . وكيف عرفت أن رجال الأمن قد قبضوا على جوني بوي ؟

ـ سو ألا تثقين بي ؟

لم تكن تثق به ولكنها لم تجب ، حدقت به حتى فغرت شفتيها وهي تبحث في

أعماقها عن الحقيقة .

ـ هل قابلت ريفا ؟ سألته

ـ ريفا ؟

ـ نعم ابنة ليم .

ـ طبعاً بالتأكيد قابلت ريفا .

ـ هل هي التي أخبرتك ؟

كانت توجه الأسئلة إلى نفسها ، أكثر من توجيهها إليه وكانت تتوق إلى تصديقه .

ـ نعم ، أجاب بهدوء . أظن أنه علي أن أذهب ، لأخبرهم الآن .

ـ تخبر من ؟ سألته

وكانت كل عضلات جسدها تتيبس ، وهي تنتظر جوابه وأحست كأن الحياة تعتمد على هذا الجواب .

ـ الرفاق . قال :

ـ نعم . تنهدت .

ولم تنتبه متى غادر ، لم تكن تنظر أو تسمع ، وفجأة رأت الغرفة خالية فأحست أن الرعب الذي في داخلها قد ولّى .

٥

مرت فترة من الوقت ، بدت لها طويلة كطول بقائها على هذه الأرض . وكومت نفسهابالقرب من الموقد البارد . ولدقيقة حدثت نفسها . لقد ذهب الاثنان الآن جوني بوي وسغ ، وربما لن تراهما بعد اليوم ، واعتراها إحساس بالذنب أحبط مشاعرها . يا إلهي ما كان يجب أن أقول له ، تمتمت ، ولكن لا يوجد إنسان بهذه الحقارة ، ليفعل ذلك . وراودها لعدة مرات شعور بأن تحاول هي نفسها إخبار الرفاق ، أخذت تشعر بالتحسن ، الآن ولكن ما الفائدة لقد أعطت الأسماء لبوكر . لا يمكن أن يكون يهودا أمام قوم فقراء مثلنا . . . لا يستطيع .

عمتي سو !

هذه ريڤا ! قفز قلبها بمزيج من الفرح والقلق ، ونهضت دون أن تجيب ، وسارت وهي تعرج أسفل ممر الردهة المعتمة . وعبر الباب المفتوح في مواجهة المطر ، رأت وجه ريڤا يضيء تارة ، ويتحول إلى البياض تارة أخرى بفعل أنوار المنارة المتموجة . كانت على وشك أن تنادي ، ولكن منعتها فكرة راودتها ، يا يسوع المسيح ساعدني لا بد أن أخبرها عن جوني بوي ، يا إلهي لا يمكن .

ـ عمتي سو هل أنت هناك ؟

ـ ادخلي يا طفلتي .

ـ أمسكت بريڤا وضمتها لبرهة دون أن تنطق بكلمة .

ـ يا إلهي ، كم أناسعيدة لأنك هنا؟ قالت أخيراً .

لقد ظننت أن أمراً ما قد حصل لك ، قالت ريڤا وهي تتنحى جانباً عندما رأت الباب مفتوحاً ، لقد قال لي والدي أن أعود وأبقى معك الليلة ـ وفجأة توقفت ريڤا وحدقت بها ماذا حدث ؟

كان فرحها بوجود ريڤا ، قد أنساها ما حدث ، ولم تفهم ماذا يعني السؤال .

ـ هه ؟

ـ رقبتك . . .

ـ لا شيء يا طفلتي تعالي إلى المطبخ .

ـ ولكن هناك دم على رقبتك !

ـ كان رجل الأمن هنا . . . .

ـ إنهم حمقى ، لماذا يريدون أن يضايقوك ، إن باستطاعتي أن أقتلهم ، فليساعدني اللّه على أن أستطيع ذلك .

ـ لا شيء قالت لها .

كانت تتساءل كيف ستخبر ريڤا عن جوني بوي وبوكر ، سوف أنتظر قريباً فكرت في نفسها بما أن ريڤا هنا ، أحسست أن الخوف لم يعد مؤلماً كما قبل .

ـ تعالي لأعالج لك رأسك ، تبدين مصابة يا عمة سو .

ذهبتا إلى المطبخ ، وجلست صامتة فيما كانت ريڤا تربط لها رأسها ، شعرت بتحسن الآن ، وبعد قليل ستخبر ريڤا وأحست بأصابع الفتاة تضغط برقة على

رأسها .

ــ هل هذا يؤلم ؟

ــ قليلاً يا طفلتي .

ــ أيتها المسكينة .

ــ إن هذا لا شيء .

ــ هل جاءجوني بوي ؟

ترددت قليلاً .

ــ نعم .

ــ وهل ذهب لإبلاغ الآخرين ؟

بدا صوت ريڤا واضحاً ، وواثقاً مما جعلها تهزأ من نفسها يا إلهي لا أستطيع إخبار هذه الطفلة .

ــ لقد أخبرتيه يا عمة سو . أليس كذلك ؟

ــ نعم .

ــ هذا جيد . وقد أخبرت والدي أن لا يقلق إذا وصل الخبر إلى جوني بوي ، أرجو أن تتعدل الأمور .

ــ أمل ذلك .

لم تستطع أن تستمر ، فقد وصلت إلى أبعد حد ولأول مرة في تلك الليلة شرعت بالبكاء .

ــ هش يا عمتي سو ، فالأمر على ما يرام ، كنت دائماً شجاعة .

ــ لا شيء على ما يرام يا طفلتي ، إن العالم أصبح كبيراً علينا على ما أظن .

ــ إذا استمريت في البكاء هكذا فسأبدأ أنا بالبكاء .

أجبرت نفسها على التوقف عن البكاء ، لا يمكنني أن أستمر هكذا أمام ريڤا ، أنا الآن بحاجة إلى ثقة ريڤا بي . راقبت الفتاة وهي تجمع أغصان الصنوبر من خلف الموقد وتعيد إشعال النار . إلى أن وضعت عليها إبريق القهوة .

ــ هل ترغبين ببعض القهوة يا عمة سو ؟

ــ كلا يا عزيزتي .

ـ هيا يا عمة سو .

ـ قليلاً يا عزيزتي .

هكذا يجب أن تسير الأمور ، لقد نسيت قالت ريڤا .

أخبرني والدي ،أن تلزمي الحذر من هذا الشاب بوكر إنه حقير . لم يصدر عنها أية إيماءة أو تعبير ، ولكنها أحست بشلل في داخلها ، وهي تستمع إلى الكلمات تخرج من فم ريڤا .

ـ لقد أخبرني والدي بالأمر ، عندما عدت إلى البيت ، وصله خبر من المدينة .

توقفت عن الإصغاء ، وأحست كأنها تلقت صفعة ، في أعمق أعماق حياتها . نظرت من خلال ضباب الألم ورأت بوكر . كانت صورته مثل صورة القوم البيض ، والخوف الذي يجيء معهم ، ذلك الخوف الذي رأته ، وأحست به طوال حياتها . ومرة أخرى أحست بأن ما شعرت به . قد تجسد حقيقة ثانية ، وكل ما استطاعت أن تقوله لنفسها إنها لم تحبه ، الله أعلم إنها قد أخبرت جوني بوي أنه أحد هؤلاء القوم البيض . . .

ـ هيا اشربي قهوتك

ـ رفعت الفنجان ، كانت يداها ترتعشان وتدفق السائل البخاري على ثوبها ورجلها .

ـ أنا آسف يا سو .

شعرت بحرق في رجلها جراء السائل المسكوب ولكن الألم لم يضايقها .

ـ لا بأس ، قالت .

ـ انتظري ، دعيني أضع شيئاً على هذا الحرق .

ـ إنه لا يؤلم .

ـ هل أنت قلقة من شيء ؟

ـ كلا يا عزيزتي .

ـ دعيني أعد لك المزيد من القهوة .

ـ لا أريد شيئاً الآن يا ريڤا .

ـ إذن اهدئي . لا تتصرفي هكذا .

ساد الصمت بينهما ، وسمعت ريڤا تشرب القهوة ، كلا لن تخبرها . إن ريڤا هي كل ما بقي لها . ولكن عليها أن تفعل شيئاً ، شيئاً ما وبطريقة ما . لقد تفككت بما يكفي ، لم يكن في مقدورها أن تخبر ريڤا بما حصل مع جوني بوي ، ومع بوكر ، إنه لعار بارد عليها . أرادت أن تكون لوحدها وأن تخوض هذه المعركة بنفسها .

ـ اذهبي للنوم يا عزيزتي إنك متعبة .

ـ كلا أنا على ما يرام يا عمتي سو .

سمعت صوت طقة فنجان ريڤا على الموقد ، سأذهب لأحضر لها الفراش ، إن بوكر سوف يخبر رجل الأمن بأسماء الرفاق ، لو تستطيع فقط أن توقفه بطريقة ما . هذا هو الجواب ، النقطة الرئيسية ، النجمة التي تلمع في الصباح بأمل جديد ، لقد مضى نصف ساعة حتى الآن ، وسيصل بوكر إلى غابات فوليز ، وهو لا يعرف الطريق المختصرة إلى الغابة لذلك فهو سيستخدم الطريق الطويلة ، أستطيع أن أصل إلى الجرف وأوقفه هناك ولكن ماذا ستفعل بعد ذلك ؟

ـ ريڤا يا عزيزتي اخلدي للنوم فإنك بحاجة إلى الراحة .

ـ أنا لست نعسانة يا عمتي .

ـ أنا أعلم ما هو الأفضل لك ، إنك متعبة ومبتلة .

ـ أريد أن أبقى معك .

أجبرت نفسها على الابتسام وقالت :

ـ لا أظن أنهم سيؤذون جوني بوي .

ـ أحقاً يا عمة سو ؟

ـ بالتأكيد يا عزيزتي .

ـ ولكني أريد أن أنتظر معك .

ـ هذه وظيفتي يا عزيزتي . إنه تحد سوف أقف له .

ـ تصبحين على خير يا عمة سو .

ـ تصبحين على خير يا عزيزتي .

راقبت ريڤا وهي تنهض ، وتغادر المطبخ وسمعت صوت اللحاف وهو يرتفع ويهبط ، وعلمت بأنها أصبحت لوحدها ، وأن ريڤا قد نامت . رأت النار في شقوق

الموقد ، وهي تتحول إلى رماد محترق . وعاد البرد إلى الغرفة ، وكانت أشعة الضوء ما تزال تتماوج عبر النافذة والمطر يتساقط . نعم لقد أصبحت لوحدها ، وقد فعلت هذا الشيء المروع وحدها ، ولا بد أن تجد مخرجاً ، وكأنها لمست قيح الجرح ، ووضعت أصبعها على تلك اللحظة ، التي صاحت بها بتحد أمام رجل الأمن ، صاحت لتستشعر قوتها ، لقد أضاعت سغ لتحمي الآخرين . وتخلت عن جوني بوي لتحمي الآخرين وبعدها وفي لحظة ضعف نبعت من فرط قوتها خسرت الجميع . لو لم تصرخ بتحد أمام رجل الأمن ، لبقيت في قوة كافية لتواجه بوكر . كان يمكنها أن تبلغ الرفاق بنفسها . انقبض شيء بداخلها ، وهي تستذكر وتستوعب نوبة الرعب ، التي داهمتها عندما عادت إلى وعيها في ممر الردهة المظلم . ظنت بأن جزءاً من حياتها قد انتهى . مع كل ما عانت في ذلك الوقت . ظنت بأن الماضي الرقيق الدافئ قد ولى . وأن الأغنية التي تغنيها لم تعد تعني شيئاً «وردة الأقحوان» في الوادي ونجمة الصباح المشرقة .

كانت الأيام التي رددت فيها هذه الأغنية ، هي الأيام التي لم تكن تأمل فيها شيئاً على وجه الأرض . الأيام التي دفعها فيها الجبل الأبيض البارد ، نحو أحضان المسيح . فكرت كيف أن جوني بوي وسغ علماها أن تنساه وأن تركز أملها على صراع السود؟ من أجل الحرية عبر السنين المارّة ، آمنت وعملت معهما ، وأحست بالقوة تنبع من نعمة رؤاهما الرهيبة .

لقد حلت عليها هذه النعمة منذ اللحظة التي سمحت فيها لرجل الأمن ، أن يصفعها ويسقطها على الأرض ، وبقيت هذه النعمة عندما نهضت مرة ثانية عن الأرض وواجهته ، ولكنها أوقعت نفسها في فخ جوعها . فمن أجل أن تروي عطش ، إيمانها قطع كبرياؤها عهداً لا يستطيع جسدها الوفاء به . أن تقر بأسماء رفاق جوني بوي ، كان بالنسبة لها حادث أوقعها في رعب عميق . وقفت ونظرت إلى الأرضية تتنازعها قوتان : قوة تدعوها للإبلاغ وقوة تقف ضد هذا ، قوة الولاء وقوة عدم الولاء .

كانت واقعة بين عالمين مهجورين ، عالم الحياة وعالم الموت بدون أن تملك قوة النعمة ، التي يعطيها كل منهما . وكلما توضحت الأمور أمامها أحست ، بشيء في أعماقها يريد أن يتحرر . ولمّا أحست بحاجة ملحة لإطلاق نجمة أخرى في سمائها

السوداء ، وإلى إطلاق أمل آخر ورؤيا رهيبة تمنح لها قوة الحياة والتصرف ، خرجت من المطبخ بهدوء ، وقلق وهي تشعر بنفسها عارية أمام الليل والمطر والعالم . كان العار يغلفها ، كلما خطر ببالها حب ريڤا . رفعت يديها الفارغتين ، ونظرت إلى أصابعها الملوية . يا إلهي ماذا أفعل الآن ، كان ما يزال باستطاعتها أن تصل إلى الجرف . ومن ثم إلى غابات فوليز قبل وصول بوكر ، ثم ماذا ؟ كيف يمكنها أن ترى جوني بوي أو بوكر .

مرة أخرى استذكرت رجل الأمن ، وهو يهدد ويطلب إليها إحضار ملاءة لتغطيته لأنه سيكون ميتاً . الملاءة ! هذه هي الملاءة ! قفزت بكل جوارحها ، تحولت كل سنين حياتها الطويلة إلى لحظة تركيز ، إلى نقطة ، أستطيع أن أذهب بالملاءة ، سوف أفعل ما طلبه . يا إلهي في السموات سأذهب مثل أي امرأة سوداء وأحمل الملاءة لأحضر ابني الميت . ثم ماذا ؟

انتصبت واقفةً وابتسمت ، كانت تحفظ في قلبها كل معنى حياتها . كانت كل شخصيتها ، تقف بتوازن على حافة عمل كلي . أنا أعلم ! أنا أعلم ! فقد تذكرت بندقية جوني بوي في جرار الملابس . سوف أخبئ البندقية ، في الملاءة وأسعى وراء جثة جوني بوي . سارت على رؤوس أصابعها إلى غرفتها . وفتحت الجرار ، وأخرجت ملاءة . كانت ريڤا نائمة وصوت أنفاسها يملأ الظلام ، بحثت في الجرار ، إلى أن عثرت على البندقية ، ولفتها بالملاءة ثم حملتها تحت مئزرها . اقتربت من السرير ، إلى جانب ريڤا ونظرت إليها ، يا رب ساعدها ولكن ربما تتحسن الأمور ، إن مثل هذه الأشياء تحصل أحياناً ، لن تستطيع ريڤا وجوني بوي أن يبقيا معاً في هذا الجنوب . . . كما أنها لا تستطيع أن تخبرها عن بوكر .

سوف تسير الأمور ولن تعلم شيئاً . لا يجب أن تهتز ثقة ريڤا . التقطت أنفاسها ، حين سمعت صوت حفيف الشرشف . ثم سارت تتنفس بهدوء ، على أصابع قدميها نحو باب الغرفة ، ثم باتجاه الردهة ووقفت عند الشرفة . وفي الأعلى كان يتماوج شعاع الضوء الأصفر عبر المطر ، نزلت إلى الأرض المغمورة بالطين ، ثم ارتقت مرتفعاً صغيراً ، توقفت ونظرت خلفها إلى المنزل ، كان المصباح يلمع في نافذتها والشعاع الأصفر في الخارج ، يبدو وكأنه يغذيه بالضوء ، استدارت وسارت عبر الحقول تحمل

البندقية المغطاة بالملاءة وهي تفكر بريقا ، المخلوقة المسكينة . لا بد أنها نائمة .

٦

سارت معظم الطريق وعيناها نصف مغلقتين وشفتاها مضغوطتان تواجه بجسدها الريح والمطر المنهمر وتتحسس البندقية تحت الملاءة ، باردة وثقيلة بين أصابعها . بدت مبتلة تماماً كما لو أن قدميها كانتا تبحثان عن كل بقعة ماء وسط صفوف الذرة لتدوس بها .

وصلت إلى حافة الجرف وتوقفت ، وأخذت تفكر في أخفض نقطة للمرور ، رفعت الملاءة من مريولها ولفت البندقية لكي تبقي يدها على الزناد . لقد سارت كل الطريق إلى هنا ، ولم تكن في البداية تشعر بالماء ، فقد كانت قدماها مبللتين ولكن الماء أصبح بارداً كلما اقترب من ركبتيها ، أخذت تلهث عندما وصل الماء إلى خصرها ، يا إلهي إن هذا الجرف مرتفع ، وعندما عبرت وسطه علمت بأنها ابتعدت عن الخطر . خرجت من الماء ، وتسلقت تلاً عشبياً ثم سارت قليلاً . وشاهدت أضواء السيارات تلمع من بعيد . نعم إنهم ما يزالون هناك ، أسرعت الخطى ، ورأسها إلى الأسفل ، وهي تتساءل فيما إذا كانت تستطيع الوصول قبله ، يا إلهي آمل ذلك . لاح وجه بوكر لوهلة أمام عينيها ، وتدفقت فيها إرادة كانت من القوة والقسوة بحيث تلاشى واختفى .

اقتربت من السيارات ، وأصبحت تسمع أصوات الرجال الجشة عن قرب .

ـ هي ، أنت !

توقفت ، وهي تقبض بعصبية على الملاءة ، واقترب منها رجلان من البيض يحملان بنادق .

ـ ماذا تفعلين هنا بحق الجحيم ؟

لم تجب .

ـ ألم تسمعي أحداً يكلمك .

ـ لقد جئت أبحث عن ابني ، قالتها بتواضع .

ـ ابنك ؟

ـ نعم .
ـ ماذا يفعل ابنك هنا ؟
ـ إنه في قبضة رجل الأمن .
ـ يا إلهي يا جيم إنها أم هذا الأسود .
ـ ماذا لديك هنا ؟ سألها أحدهم .
ـ إنها ملاءة .
ـ ملاءة ؟
ـ نعم .
ـ ولماذا ؟
ـ لقد قال لي الشريف ، بأن أحضر ملاءة لأغطي بها جسد ابني .
ـ حسناً ، حسناً .
ـ أليس هذا شيئاً عجيباً ؟
نظر الرجال البيض إلى بعضهم البعض .
ـ إن هؤلاء السود ، يحبون بعضهم بعضاً .
ـ إن هذه حقيقة وليست كذباً . قال آخر .
ـ خذوني إلى رجل الأمن . توسلت لهم .
ـ إنك لا تعطينا أوامر ، أليس كذلك .
ـ كلا يا سيدي .
ـ سنأخذك عندما يكون الوقت مناسباً .
ـ نعم يا سيدي .
ـ إذن تريدين جسده ؟
ـ نعم يا سيدي .
ـ حسناً إنه لم يمت بعد .
ـ سوف يقتلونه ! قالت .
ـ إذا تكلم فلن يقتلوه .
ـ لن يتكلم ، قالت .

ـ كيف تعلمين ذلك .

ـ لأنه لن يتكلم .

ـ إن لدينا طرقاً لجعل السود يتكلمون .

ـ إنك لا تملك طريقة له .

ـ إنك تقدرين هذا الأسود كثيراً ، أليس كذلك ؟

ـ إنه ابني .

ـ لماذا لا تعلميه أن يعقل .

ـ إنه ابني . قالت مرة أخرى .

ـ اسمعي أيتها العجوز السوداء ، وأنت تقفين هنا بشعرك الأبيض ، لا بد أن لديك منطقاً أفضل لكي تؤمني بأن السود يستطيعون القيام بثورة . . .

ـ جمهورية سوداء ! قال الآخر ضاحكاً .

ـ أرجوكم خذوني إلى رجل الأمن .

ـ أنت أمه قال أحدهم ربما تؤثرين عليه ، كي يتكلم ويبلغ عن رفاقه في هذه القضية .

ـ إنه لن يتكلم . قالت .

ـ هلي تريدين له أن يعيش ؟

لم تجب

ـ هيا لنأخذها إلى برادلي .

أمسكا بذراعيها ، وشددت هي من قبضتها على الملاءة والبندقية ، ثم سارا بها نحو جمع من الأشخاص في الغابة . كانت مشاعرها بسيطة ، بوكر لن يتكلم هي هنا لتكون له بالمرصاد إذا فعل ذلك . وكلما تعالت أصوات الرجال . تعمقت لديها مشاعر الرغبة ، بإصلاح الغلطة التي ارتكبتها ، وأن تشق طريقها لتعود الى الأرض الصلبة . سوف تتحايل على الوقت لحين وصول بوكر . آه لو يدعوني فقط أقترب من جوني بوي . وعندما اقترب بها الإثنان من الجمع شاهدت الوجوه البيضاء تلتفت وتحدق بها والصيحات تتعالى حولها .

ـ من هذه ؟

ـ امرأة سوداء .

ـ ماذا تفعل هنا ؟

ـ إنها أمه ، صاح أحد الرجال .

ـ ماذا تريد ؟

ـ أحضرت ملاءة لتغطي جسده !

ـ إنه لم يمت بعد .

ـ إنهم يحاولون إجباره على الكلام .

ـ ولكنه سيموت قريباً إذا لم يتكلم .

ـ أقول ، انظروا ، لقد أحضرت أم الرجل الأسود ملاءة لتغطي بها جسده !

ـ أليس هذا لائقاً ؟

ـ ربما تريد أن تقيم له الصلاة .

ـ هل أحضرت معها كاهناً ؟

ـ أقول ، إذهب واحضر برادلي .

ـ حسناً .

هدأت أصوات الجميع . كانوا ينظرون إليها بفضول ، وأحست عيونهم الباردة وهي تحاول أن تبحث عن ضعف فيها . وقفت بتواضع والملاءة تغطي بندقيتها ، لقد قبلت بكل ما سيفعلونه بها . وصل رجل الأمن .

ـ إذن فقد أحضرت ملاءتك ، ها ؟

ـ نعم يا سيدي ، همست .

ـ يبدو أن الصفعات ، التي تلقيتها قد أوجدت فيك بعض المنطق ، أليس كذلك؟ لم تجبه .

ـ إنك لا تحتاجين لهذه الملاءة ، فابنك لم يمت بعد ، اقترب منها فتراجعت إلى الوراء قائلة :

ـ كلا .

ـ والآن اسمعي يا عمة . قال لها ، لا تتصرفي كالحمقاء ، فلن ينفعك هذا التصرف بشيء . ادخلي إلى هنا واطلبي من ابنك ، أن يعترف بأسماء شركائه

وأعدك أننا لن نقتله ، إذا تكلم وسوف نخرجه إلى خارج البلدة .

ـ لا يوجد شيء أقوله له .

ـ هل تريدين أن نقتله ؟

لم تجب ، ورأت شخصاً يميل نحو رجل الأمن ويهمس ، في أذنه شيئاً . أحضروها هنا .

أخذوها نحو ساحة خالية من الطين . وكان المطر ينهمر عبر الوهج الضبابي ، لمصابيح اليد ، وشاهدت الرجال يتحلقون في نصف دائرة ، وشاهدت جوني بوي مبطوحاً في حفرة من الطين وكان مقيداً بحبل ، وقد ترك في الحفرة محدودباً . وجانب من وجهه ملقى في بركة من الماء الأسود ، وكانت عيناه تحدقان بها في تساؤل .

ـ كلميه . قال لها رجل الأمن .

لو أنها فقط تستطيع أخباره لماذا هي هنا ، ولكن كان هذا مستحيلاً ، كانت قريبة مما تريد ، وأخذت تحدق أمامه بشفاه مضغوطة . لم يتحرك جوني بوي ولم يتكلم ، وعاد رجل الأمن ليقف أمامها مرة أخرى .

ـ اسمعي يا عمة ، إن لديك الكثير لتقولينه أكثر من أي شخص آخر ، قولي له أن فرصته هي في التكلم ، لماذا يريد أن يحمي السود الآخرين ؟ والبيض ؟

وضعت أصبعها على زناد البندقية وحدقت في الطين بنظرة كالحجر .

ـ اذهبي إليه ، قال رجل الأمن .

لم تتحرك وكان قلبها يصيح راغباً في الرد على السؤال الذي يبدو في عيني جوني بوي المدهوشتين ، ولم يعد هناك أي طريق الآن .

ـ حسناً ، إنك تطلبين هذا ـ بربي ـ سوف نجعلك تتكلمين معه قالها ثم التفت إلى تيم ، وقال أحضر أحد جذوع الشجر لنعلق عليه هذا الزنجي رأساً على عقب .

سرت همهمات الرضا ، بين الجمع فعضت على شفتيها لأنها تعلم ماذا يعني ذلك .

ـ هل تريدين أن تري ابنك مشلولاً؟ سألها رجل الأمن . ولكنها لم تجب ، ورأتهم يدحرجون جذع شجرة ورفعوا جوني بوي ، ثم بطحوه على وجهه ومعدته ، وربطوا

رجليه على جذع الشجرة ، وكانت ركبتاه موضوعتين على الجزء العاري من الجذع الخلفي للشجرة وأصابع قدميه مثبتة في الأرض . كانت منهمكة في مراقبة ذلك لدرجة شعرت فيها بأنها هي التي رفعت وجهزت للتعذيب .

أحضر عصا قال رجل الأمن .

احضر رجل طويل نحيل الجسم ، عصا من سيارة قريبة ، ووقف فوق جذع الشجرة ، وفكاه تتحركان ببطء وهو يمضغ بعض التبغ . والآن المجال مفتوح أمامك يا عمة ، قال رجل الأمن ، لذلك قولي له ماذا عليه أن يفعل .

حدقت عبر المطر ، والتفت رجل الأمن وقال : ربما تعتقدين بأننا نلعب ، إذا لم تتفوهي بشيء أضربه عند قمة ركبتيه .

حسناً يا سيدي !

وقفت تنتظر بوكر ، وأحست برجليها تضعفان ، وتساءلت فيما إذا كان باستطاعتها أن تنتظر أكثر ، مرة تلو الأخرى كانت تقول لنفسها ، إذا وصل الآن فسأقتلهما الاثنين .

ـ إنها لا تقول شيئاً يا سيدي .

ـ حسناً ، اللعنة دعه يذوقها .

انهالت العصا ، واهتز جسم جوني بوي وسط الطين . وكانت هناك صيحة فتمايلت ولكنها شددت قبضتها على الملاءة والبندقية .

ارفعه !

وانهالت العصا مرة أخرى ، وتعالت صيحة أخرى .

سوف تكسرها ؟ سأل رجل الأمن .

رفع الرجل الطويل رجلي جوني بوي ، ثم طوحهما مرة أخرى ، ليقلب ركبته على الجهة الأخرى . كان جسد جوني بوي راقداً بلا حراك ورأسه مائل إلى جهة واحدة يمكن معها رؤية وجهه .

ـ تماماً مثل جناح عصفور دوري مكسور ، قال أحدهم وهو يضحك ، التفت جوني بوي نحوها وصاح :

ـ اذهبي يا أماه ، اذهبي .

كانت أول مرة تسمع فيها صوته ، منذ وصلت إلى الغابة ، فقدت السيطرة على نفسها وتقدمت نحوه إلا أن رجل الأمن أمسك بها .

والآن لقد أخذت فرصتك ثم التفت إلى جوني بوي ، وقال : يمكنك أن تذهب إذا تكلمت .

ـ يا سيد إنه لن يتكلم .

ـ اذهبي يا أماه قال جوني بوي .

ـ اقتلوه لا تتركوه يتعذب هكذا ، قالت متوسلة .

ـ إما أن يتكلم أو لن يسمعك أبداً ، قال رجل الأمن ، هناك أشياء أخرى يمكننا أن نفعلها به .

لم تجب .

ـ لماذا جئت إلى هنا يا أماه ؟ سألها جوني بوي بعبوس .

ـ سوف أمزق طبلتي أذنيه ، قال رجل الإمن إذا كان لديك شيئاً تقولينه فقوليه الآن .

أغمضت عينيها ، وسمعت صوت أقدام رجل الأمن تدوس في الوحل ، يمكنني أن أنقذه . فتحت عينيها ، كانت هناك صيحات حقد تنطلق من الجمع وتحاصرها :

ـ فجره يا سيدي .

ـ اضربه حتى لا يعود ليسمع .

ـ إنه يعلم كيف يفعلها أيضاً .

ـ لقد لكم شاباً يهودياً قبل فترة بهذه الطريقة .

رأت رجل الأمن يدوس فوق جوني ، ويضع راحة يده فوق أذنه ثم رأته يضربها بقبضته بكل عزم ، ثم يفعل الشيء ذاته بالأذن الأخرى . كان أنين جون بوي عالياً ، وهو يلوح برأسه من جهة لأخرى . وظهر بياض عينيه في دهشة من عالم بلا موت .

ـ لم تتكلمي معه عندما أعطيناك فرصة ، قال رجل الأمن : حاولي الآن . أحست بدموع حارة تسيل على خديها ، وتاقت إلى قتل جوني بوي وإخلاء سبيل روحه ، ولكنها إذا فعلت فإنهم سيأخذون البندقية منها ، وستتاح الفرصة لبوكر لكي يعطيهم الأسماء . يا رب ساعدني ، كان الرجال قد بدؤوا يتكلمون بصوت مرتفع ،

الآن وكأن القضية الرئيسية قد انتهت . بدا لها وكأنها وقفت دهراً وهي تنظر إلى جوني بوي ، يترنح ويئن في عالم من الصمت .

ـ سيدي هناك شخص يسأل عنك .

ـ من هو ؟

ـ لا أعرفه .

ـ أحضره إلى هنا .

تجمد الدم في عروقها ونظرت حولها بوحشية ، وهي تقبض بشدة على البندقية ، هل يكون هذا بوكر ؟

وقفت هادئة وهي تشعر أن إثارتها ستخدعها . ربما أستطيع أن أقتل الاثنين ، وقف أمامها رجل الأمن ، ينتظر وقد تفرق الجمع ثم رأت بوكر يتقدم .

ـ إني أعرفهم جميعاً يا سيدي ، نادى بوكر وهو يسير نحو الساحة الفارغة من الطين حيث كان جوني بوي مبطوحاً .

ـ هل تعني أن لديك أسماء .

ـ بالتأكيد! هذه العجوز السوداء . . . . .

ـ رأت شفاهه تتحرك ثم تصمت ، عندما رآها فتقدمت إلى الأمام ورفعت الملاءة .

أطلقت النار ، وبدون توقف استدارت ، هي تسمع صراخهم وسددت نحو جوني بوي ، ولكن أذرعهم التي امتدت نحوها ألقتها على الأرض . وبينما هي تلقي بالملاءة من يدها ، لاحت منها نظرة نحو بوكر ، كان ممرغاً في الطين . وقد سقط على وجهه بينما كانت يداه ممدودتين أمامه . قامت مجموعة من الرجال برفعه ، وارتمت هي على الأرض بدون مقاومة ، تنظر عبر المطر إلى تلك الوجوه البيضاء فوقها . وشعرت فجأة بأنها في سلام ، لم يعودوا جبلاً أبيضاً الآن ، لم يعودوا ليدفعوا بها إلى أطراف الحياة . أصبحت الآن على ما يرام .

ـ لقد أطلقت النار على بوكر .

ـ كانت تحمل بندقية تحت الملاءة .

ـ لقد أطلقت النار على رأسه مباشرة .

ـ لماذا قتلته ؟

ـ اقتلوا القحبة .

ـ لقد كنت أظن أن هناك أمراً غريباً بالنسبة لها !

ـ لقد قلت لكم من الأفضل أن ننتهي منها أولاً .

ـ هذا ما تتلقاه عندما تعامل السود بلطف !

ـ أقول إن بوكر قد مات .

وقفت تنظر في الوجوه البيضاء ، وتصغي ، انتظرت . لكي تسلم حياتها قبل أن يأخذوها منها . لقد فعلت ما كانت تريد أن تفعله . فقط لو أن جوني بوي . . . نظرت إليه . كان ملقى هناك ينظر إليها بعينين متعبتين . لو أنها فقط تستطيع أن تخبره .

ـ لماذا قتلته ؟

كان هذا صوت رجل الأمن .

لم تجب .

ـ ربما أرادت أن تطلق النار عليك يا سيدي .

ـ لماذا قتلته ؟

أحست بقدم رجل الأمن ، تكاد تدوس عليها ، أغمضت عينيها .

ـ أيتها القحبة السوداء .

ـ دعها تمت .

ـ لا بد أنها اكتشفت أمر بوكر .

ـ ربما .

ـ يا يسوع المسيح ، ماذا تنتظرون أيها الأغبياء .

ـ نعم اقتلوها .

ـ اقتلوهما معاً .

ـ دعها ترى مقتل ابنها أولاً .

أدارت وجهها نحو جوني بوي ، كان ملقى هناك ينظر بحيرة في عالم يخلو من الأصوات ، وقالت في نفسها إنه على الأقل لن يسمع .

ـ هيا لنقتله .

وقفت تصغي إلى الصوت الذي لن يسمعه جوني بوي ، جاء اثنان منهم واحد تلو

الاخر ، كانا قريبين جداً لدرجة أن الأمر ظهر ، وكأنه طلقة واحدة . لم تنظر إلى جوني بوي بل نظرت إلى وجوه الرجال البيض القاسية ، وهي مقبلة تحت وهج المصابيح .

ـ هل سمعت هذا أيتها السوداء ؟

ـ هل تفاجأ ؟ لا بد أنه يتساءل في الجحيم ما هو الشيء الذي ضربه ؟

ـ هيا اقتلها يا سيدي .

ـ دعني أقتلها أنا فهذا الذي قتلته كان صديقي .

ـ حسناً ، يا بيتر هذا يكفي .

أعطت من عمرها ما استطاعت قبل أن يأخذوه منها ، ولكن صوت الطلقة ، وشريط النار الذي مزق صدرها أجبرها ، وبشدة على أن تحيا ثانية . لم تتحرك سوى بقدر صدمة الرصاصة . أحست بحرارة دمها ، تدفئ ظهرها البارد . رغبت فجأة في الكلام . إنكم لم تحصلوا على ما أردتم ، ولن تحصلوا عليه . إنكم لم تقتلوني . لقد جئت هنا بنفسي ـ أحست بالمطر يسقط في عينيها الضعيفتين ، وسمعت أصواتاً خافتة ، وكانت شفتاها تتحركان بدون صوت : إنكم لم تحصلوا على ما أردتم . كانت مركزة تماماً ، على وضعها وغارقة في أعماق نجمتها ، ومشبعة بسلامها وقوتها . لم تكن تشعر بجسدها وهو يبرد ، تماماً مثل المطر البارد ، الذي يسقط من سماء غير منظورة فوق الأحياء الملعونين ، والأموات الذين لا يموتون أبداً .

١٩٤٠

إيدورا ولتي

المتجولون

عن «ذي سذرن ريفيو»

كان توم هاريس وعمره ثلاثون عاماً بائعاً متنقلاً يبيع أدوات مكتبية ، حين غادر ثيرستون عصر ذلك اليوم ، بعد أن قابل بعض الأشخاص في فلات توب وباكستر . ولكنه توجه نحو ممفيس التي كانت تمثل نقطة انطلاق بالنسبة له ، كان يشعر برغبة في عمل شيء تلك الليلة .

عند المساء ، بينما كان يقود سيارته على طريق طويل الامتداد ، أبطأ قليلاً ليقل بعض المسافرين الواقفين على حافة الطريق ينتظرون أي سيارة عابرة تقلهم بالمجان ، كان أحدهم يقف على جانب الرصيف ورجله عالقة ، كأنها جذر شجرة عتيقة ، أما الآخر فكان يعزف على غيتار أصفر اللون .

بدأ النعاس يغزو عينيه بعد قيادة طويلة للسيارة ، وأخذ علماً أنه قد قام ببعض الأعمال على الطريق ، بالنسبة له كان مشهد هؤلاء المنتظرين الواقفين ، وهم ينظرون إلى السماء ، يبعث فيه ومضة إحساس تعلمها منذ صغره ، أن يقف الإنسان بهدوء وكأن لا شيء حوله ، يشعر أنه طويل القامة ، والعالم يقف تحت قدميه بشكله الدائري وهو يلتفت حوله في الفضاء مثل مغامر وحيد .

توقف ليقل الرجلين باحترام ، استقل الاثنان السيارة وجلس الرجل ذو الغيتار واضعاً غيتاره بين قدميه ، أزاح له هاريس قليلاً في مقعده ثم أدار الراديو واستأنف

رحلته .

_«موسيقى ، إن هذا جيد» قال الرجل ذو الغيتار .

- «إنني أنساها أحياناً» أجابه هاريس .

- «لقد انتظرنا طوال النهار في هذا المكان» ، قال الرجل ذو الغيتار وهو يبتسم ، وتابع : «ورأينا الشمس وهي تغرب ، طبعاً كنا نستلقي بعض الوقت لنريح أجسامنا .»

ساروا في الطريق صامتين ، بينما كانت الشمس تغرب خلف السحب الحمراء ، تغير برنامج الراديو عدة مرات ، أضاء توم أنوار السيارة وعندها بدأ الرجل ذو الغيتار بالغناء ، رسم خطاً على قرص الراديو بإصبعه الغليظ وقال :

* إني اقدر تلك الغيتارات الكهربائية .

* «إلى أين أنتما ذاهبان» سأله توم .

* «شمالاً يبدو لي» أجاب الرجل .

* «فليكن . . . . . هل تدخن» سأله توم مرة أخرى .

* «نادراً» أجاب الرجل ذو الغيتار .

لم يتوقع هاريس مثل هذه الكلمات غير المألوفة ، تناول علبة سجائره وقدمها لهما أشعل الثلاثة سجائرهم ، كان الرجل الصامت في الخلف يمسك سيجارته بين سبابته وإبهامه ويمدها أمامه كأنها قطعة من النقود .

لاحظ هاريس أن الرجل لم يكن يدخن ، بل يراقب السيجارة وهي تحترق .

- «لقد بدء الظلام يحل» قال الرجل ذو الغيتار بصوت مفاجئ .

- «هل تريدان أن تأكلا شيئاً» سألهما هاريس .

- نقر الرجل نقرة على وتر الغيتار ونظر إلى هاريس .

- «نعم بعض التوت إذا أمكن» قالها الرجل بصوت بطيء متأمل ، ثم أردف «لقد مر بنا أرنب صغير لطيف ونحن ننتظر ، لكنه كان حذراً وتمكن أخيراً من الهرب ، كان الرجل الآخر يبدو وكأنه يغوص في غضب مكتوم ، أخذ هاريس يتخيله وهو يطارد الأرنب ، ابتسم لكنه لم يلتفت إليه .

- ينبغي الآن أن نجد لنا مكاناً للنوم ، قال الرجل بخشونة ، ثم نقر نقرة أخرى على وتر الغيتار وتثاءب .

- بدت أمامهم أنوار بلدة قريبة تلمع على جرف عال .

- «هذه هي بلدة كلير ووتر» قال هاريس متثائباً أيضاً .

- «أراهن أنه ليس لديك أية فكرة عن الأمكنة التي كنا ننام فيها» خاطب الرجل هاريس مباشرة ، إنفرجت أساريره عن إبتسامة بدت تحت ضوء الشارع غريبة مشاكسة .

- «أستطيع أن ألتهم قطعة هامبرجر كاملة» قال هاريس وهو يحيد بالسيارة عن الطريق قليلاً قرب أحد المقاهي الليلية ، حيث خرجت فتاة ترتدي بنطالاً أحمر» وقفزت فجأة بجانبهم .

- «ثلاثة رجال . . . . ثلاثة أقداح من البيرة ،» سألتهم بابتسامة وقد دست رأسها عبر نافذة السيارة . . .«مرحبا» قالت لهاريس .

- «كيف حالك» سألها هاريس . . . . وتابع «شكراً على كل حال» .

- «ياه» قال الرجل ذو الغيتار هاهي بناطيل البحارة الحمراء «انتظر هاريس ليسمع نقرة الغيتار ولكنها لم تخرج ، ثم ما لبث أن سمع صوتاً خشناً ينادي من خلف باب المقهى : «تفضلوا أيها الرجال ، يوجد لدينا فتيات» .

- قل لهن أن يأتين إلى هنا» صاح الرجل ذو الغيتار ثم صمت تماماً كأنه شعر أنه قد تمادى كثيراً في الحديث .

- أغلق هاريس الراديو وجلس الثلاثة في السيارة ، يستمعون إلى صوت مسرحية تدور في المقهى ، بينما الأضواء في الداخل تتبدل من أخضر إلى أحمر إلى أزرق .

- التفتت إليهم الفتاة وقالت : «أظن أنها ستمطر» .

تناول الثلاثة بعض الهامبرجر بسرعة وصمت ، جاءت فتاة ونظرت إليهم عبر النافذة .كان هناك رجل وامرأة يرقصان في الداخل على نغمة فالس .

- «نفس الأنغام تسمعها في كل مكان» قال الرجل ذو الغيتار بهدوء .

- في كل مرة يتكلم فيها هذا الرجل ، كان خدا هاريس ينتفضان ، كان هاريس اجتماعياً يتقبل الناس بسهولة ، ولكنه يعرف متى يثق بهم ، ومتى يتراجع . لاحظ أنه كلما تحدث هذا الرجل ازدادت لديه رغبة بالاستماع ، «سوف أسمعه يلعب بغيتاره» قال هارس لنفسه ، «لقد أصبح الغيتار غطاً دارجاً هذه الأيام» كانت قدرة

هاريس على الاستماع خاطفة ، مثل وضع اليد في الجيب .

- «هذه ليست موسيقى راقصة» قال الرجل ذو الغيتار وهو يلعق الخردل عن أصابعه «كانت أمي مخلوقة لمثل هذا الرقص ، رقيقة الخصر ولكن صوتها عالٍ ، كانت غزيرة الغناء ولكنها ماتت منذ زمن ، كان أبي يعود ثملاً إلى البيت ، يتدحرج كالعجلة . كانت تجلس على أول درجة من باب المنزل تنظر إلى الطريق وتغني ، لقد ماتت واحترق البيت» ، ازدرد قدح البيرة أمامه وقدماه تتحركان مع نغمات الموسيقى ، لمس هاريس أحد مفاتيح الغيتار ثم سأله «ألا يمكن لهذا الغبار أن يكون وسيلة رزق» .

- أدرك هاريس من وجود الغيتار أنهما لم يكونا مسافرين عاديين ، بل كانا متسكعين متفرغين للتسول . كان يدرك أن الغيتار هو الذي جعله يتوقف ليقلهما معه في السيارة .

- أجاب الرجل وهو ينقر الغيتار براحة يده : «هذه العلبة ألعب فيها لنفسي فقط» ضحك هاريس بجذل ، ظل يحاول إثارته كأنه يريده أن يتوسل ليعتقه .

- «ألم تحاول أن تقف يوماً وتلعب الغيتار من أجل رقصة ما مع فتاة» .

- أجاب الرجل ذو الغيتار وكأن الرجل الآخر لم يكن موجوداً «ولكنني الآن أملك هذا» وأشار إلى الرجل الآخر .

- هو . . . ؟ سأل هاريس محدقاً .

- «إنه متضايق ، أظنه لا يحب المناورات ويريد منا أن ننطلق» . قال الرجل ذو الغيتار تجشأ الرجل الآخر بقوة ، عندها وضع هاريس يده على زامور السيارة . قال للفتاة وهو يفتح جيباً صغيراً في الجاكيت عند صدرها بأدب ويضع فيها بعض النقود . . إلى اللقاء .

- ما أن انطلق الثلاثة مرة أخرى عبر الطريق السريع حتى رفع الرجل الآخر زجاجة من البيرة ونظر إلى الرجل ذي الغيتار وكان فمه ملآنا .

- «ارجع بسرعة ، لقد نسي سوبي أن يعيد الزجاجة» ، ضحك ثم أردف«علينا أن نعيد الزجاجة لها» .

- «ليس لدي وقت لذلك» قال هاريس مؤكداً وزاد من سرعة السيارة وهو يقول لنفسه «لقد كان ينقصني أن آخذ منه التعليمات»

- نظر الرجل ذو الغيتار إلى هاريس وقال له«بدوت كأنك تعتقد أنه سيضرب رأسك بهذه الزجاجة»

- أوقف هاريس السيارة عند باب أحد الفنادق على الشارع العام .

- «إني أقدر لك ذلك» قال له الرجل ذو الغيتار .

- «انتظراني هنا» قال هارس

- جلس الاثنان بطاعة وهدوء ، وقد انعكس ضوء الشارع على وجههما ، كان لهما رائحة كرائحة الغبار .

- أغلق هاريس باب السيارة ودخل إلى الفندق .

- «لقد عدت» صاح الرجل الذي يقف عند الاستقبال مبتسماً ، «مضى على غيابك شهر كامل ، لقد كنت أفكر فيك» .

- السيد جين ، مرحباً ، يجب أن أكمل طريقي ، ولكن معي اثنان في السيارة ، لا يجدان مكاناً يناماان فيه ، أتذكر تلك الشرفة الخلفية . . . . ؟

- «ولما لا إنها ليلة جميلة» أجاب السيد جين بصوت عال وهو يبتسم بهدوء

- «يملؤون فراشك بالبراغيث» قال هاريس وهو يقلب يده إلى الخلف «لكن تلك الشرفة القديمة ، إنها ليست سيئة ، لقد قضيت الليل فيها مرة ولكنني لا أذكر الآن كيف حصل ذلك» .

- ضحك صاحب الفندق ضحكة هادرة ثم اعتدل فجأة وقال .

- «طبعاً بالتأكيد . . . انتظرني دقيقة . . . . . إن مايك مريض . . . . . . تعال هنا يا مايك ، إنه الصديق القديم هارس»

- كان مايك كلباً اسكتلنديا عجوزاً ، نهض من تحت لحافة بتثاقل ووقف بجانب الباب وهو يتهادى على السجادة ببطء ، ثم أدخل جسمه بين الرجلين وأخذ ينقل رأسه بين يديهما ،راخياً فكيه على راحة يد هاريس دون أن يأتي بحركة .

- هل أنت مريض يا مايك . . . .؟ قال هاريس .

- «إنه الكبر ، لقد بدأ يحتضر» تمتم صاحب الفندق متأثراً ، داعب هاريس الكلب بحماس في البداية ثم تراجع قليلاً وظهر عليه بعض التردد ، بدا مايك منهاراً .

- «لقد غابت روحه كما ترى» قال السيد جين مشفقاً . فجأة سمع الاثنان صوتاً

عند الباب . . . . . . كان هناك فتىً يقف على المدخل الرئيسي .

– تفضل . . . . تفضل وانظر إلى مايك العجوز قال السيد جين .

– «لقد عرفت أنها سيارتك يا سيد هاريس» قال الفتى وهو يحاول إدخال قميصه البنع كروسبي داخل بنطاله ثم أردف قائلاً : «كانا يحاولان سرقة سيارتك، لكن أحدهما شج رأس الثاني بزجاجة، ألم تسمع الصراخ أسفل الشارع، الناس متجمعة هناك، لقد عرفت السيارة من رخصتك ومن البضاعة التي تنقلها معك» .

نظر هارس إلى مقعد السيارة . . . . . «لم يمت بعد على أي حال»

كان وجه الرجل ذو الغيتار يبدو محطماً تسيل منه الدماء بغزارة، كان ضوء السيارة في السقف مطفئاً، وبدا جسده في الظلمة منحنياً على غيتاره ويداه مرخيتان على الجوانب وجسده مترنحاً كأنه انقلب على ظهره، نظر هارس إلى الرجل الآخر كان سوبي واقفاً وقد أحكم القبضة عليه رجلان، بدا وكأنه يتفرج مثل الآخرين وظل يحمل بيده زجاجة البيرة إلى أن انتزعها منه أحدهم .

– كان يجهزها لضربة، يبدو أنه اختار أن يضربه بالغيتار، إنه لشيء رهيب أن تضرب رجلاً بشيء مثل هذا ! قال أحدهم .

– هنا تدخل صوت آخر : إني أرى أن الأمر قد تم بالطريقة التالية«كان الصوت يتكلم وكأنه امرأة تحاول تفسير كل شيء لزوجها» لقد ترك الرجلان وحدهما، حاول هذا الذي يقف هناك أن يسرق السيارة، لأننا وجدناه جالساً على مقعد السائق عندما أمسكنا به، أظن أنه الطرف الشرير في القضية أما الآخر وهو الطرف الطيب فقد حاول منعه (ربما الأمر كان معكوساً) قال هاريس لنفسه وهكذا قرر الآخر ضربه«بام بام وانتهى الأمر»

– «مرحباً سيد هاريس» . . . . . ناداه صوت في الشارع، كان رجل البريد الملتحي مقبلاً نحوه وهو يحمل رسالة بيده .

– سأل هاريس«من الذي يحمل مفتاح سيارتي الآن»، ومن دون أن يدرك، كان قد نحى الغيتار من طريقه وأزاح باقي الأشياء جانباً وتمكن من إيقاف نزيف الرجل .

كان يعرف طريق مستشفى كليروورتر فقد بات هناك مرة «غادر المكان بينما كان الشرطي يدور حول السيارة وينظر من زجاج النوافذ بحذر وقد أخفض نظارته . كان

يتكلم معه عبر النافذة وهو يجر سوبي بعد أن وضع الأصفاد في يديه . كانت هناك مجموعة من الأولاد يركبون الدراجات ويرتدون القمصان الملونة ، بينما وقف السيد جين ينادي من بعيد وكلبه مايك ينبح متأخراً قليلاً عن باقي الكلاب ، قاد هاريس السيارة حول زاوية الشارع عند المصرف ثم دخل إلى شارع مظلل معتم واضعاً يديه المعرقتين على الزامور .

عند باب الطوارئ ، نزل الطبيب العجوز وساعده في سحب الرجل الجريح بينما رفع الغيتار إلى كتفيه ، سمع أحد الأولاد الملونين يقول «أظن أنه سيموت قريباً لا أدري من سيد فنه» .

عاد هاريس إلى غرفته في الطابق الثاني من الفندق ذي الطابقين ، أخذ حماماً وارتدى ثياباً نظيفة . كان السيد جين يلاعب الكلب مايك ويربت على معدته : «لقد أتلفت هذه الربطة الملونة التي ترتديها» قال صاحب الفندق وهو يلهث ، «لقد جن جنون مايك فهي أول مرة ينبح فيها منذ أطلق بد ميلتون النار على ذلك الصيني» رفع رأسه قليلاً وأخذ جرعة طويلة من قدح الويسكي أمامه ، وظهرت الدموع على عينيه البنيتين الدافئتين وأردف ، «افرض أنهما فعلاها على الشرفة» .

رن جرس الهاتف .

– أظن أن الجميع يعلم أنك هنا قال السيد جين .

– «هل هي روث» سأله هاريس .

– «إنه هذا القزم ، هو لا يعلم كيف ينهي الأمر» قال صاحب الفندق بعد أن أغلق السماعة : لقد قام هذا الشرطي باعتقال أحد السود ولم يعد لديه متسع من المكان ليقبع فيه رجلك ذو القنينة وأظن أنه يفكر بحبسه في الفندق»

– يا إلهي هل سيقضي الليل معي ، قال هاريس .

– «كلا ولكن عبر الردهة ، اعتقد أن الرجل الآخر سيموت ، إن المكان الوحيد الذي يغلق عندنا بالمفاتيح هو المصرف» .

– «كم الوقت الآن» سأل هارس مسرعاً .

– «ليس متأخراً» أجاب السيد جين ، فتح الباب لمايك وتبعه هذا مسرعاً ، «سوف أراك فيما بعد ، لا أظنك ستغادر في الصباح» ثم أضاف «أنا آسف لأن الأمر

حدث في سيارتك» .

- «لا بأس» قال هاريس .نظر هارس عبر النافذة نصف المفتوحة وكان الضوء يشع على سلم الدرج .

- هل تمطر ؟

- هذه ليست نشارة خشب ، إنها تمطر منذ المساء . . . . ثم أردف «إنك لا تعرف هذا المثل بالتأكيد» قام إلى مكتبه وتناول منه كيساً بنياً وأعطاه إلى هاريس تفضل ، لقد أرسلت بيب إلى المتجر ليحضر لك بعض الويسكي من ممفيس»

- «شكراً» أجابه هارس «أرجو أن نتناول بعضاً منه الآن» .

- كلا إن هذا سيقتلني ، قال السيد جين .

- عند ناصية الشارع اتصل هاريس هاتفياً بروث وهي امرأة تعرف عليها في البلدة ، وجدها في منزلها تحيي حفلة هناك .

- توم هاريس بذاته «صاحت روث» كنت أتساءل ماذا أفعل بهذه الطفلة ، كارول «ما شأنها» قال هارس .

- «يا لها من طفلة بدون مواعيد» أجابت روث .

- كان هناك بعض الأشخاص يريدون أن يكلمونه على الهاتف ، استمع لهم لبرهة ثم اعتذر لاضطراره للخروج .

- اتصل بالمستشفى ، لم يطرأ شيء جديد على وضع الرجل ذي الغيتار .

- كما قلت لك «أجابه الطبيب» لا نملك إمكانيات نقل«لقد تنقل الرجل بما فيه الكفاية«أني أنصح بأخذه إلى ممفيس»

- سار على أقدامه نحو الحفلة حتى لا يستخدم سيارته ، كان الوحيد الذي يسير في هذا الشارع المظلم وهو يلتفت أحياناً إلى المنازل المضاءة والمغلفة بالضباب بينما المطر ينسل إليها من بين الأشجار ، نسي البلدة التي هو فيها والبيت الذي يقصده .

- استقبلته روث بثوب أسود طويل ، كانت تتكئ على الباب المفتوح ضاحكة ، سمع من الداخل صوت شخصين يعزفان على البيانو .

- «كيف أتيت لكي تتبلل هكذا» ، صاحت روث من فوق كتفه ، كانت تتكئ على يديها «ماذا حدث لسيارتك الزرقاء؟ أرجو أن تكون قد أحضرت هدية معك!»

- دخل معها إلى البيت وبدأ بمصافحة الموجودين ثم وضع زجاجة الويسكي الملفوفة بورقة هدية على الطاولة .

- «أه إنه . . . ه لا ينسى أبداً» صاحت روث .

- «لنشرب الويسكي» عاد الجميع إلى الضجيج .

- تقدمت منه صبية شقراء وقالت : «اسمي كارول» .

- «لقد أطال غيبته كثيراً هذه المرة» قالت إحدى الفتيات وهي تقوم بالتعريف .

- «إذن هذا هو هاريس الشهير ، الذي يتحدث عنه الجميع دائماً ، علقت فتاة ترتدي ثوباً أبيض ، كان الجميع ينادونها الآنسة بيتيبون .

- قال لنفسه «يا ليتهم يخاطبونني بكلمة أنت عندما أحضر إلى هنا»

- «يا عزيزتي إنه أسطورة» قالت روث مؤكدة وسحبته معها إلى المطبخ .

- «لقد حدث القليل والكثير» وبدأت بإخباره بينما كان يصب بعض الأقداح ، كان متأكداً أنها لم تسمع بالحادث الذي جرى في السيارة .

- «هل الحفلة مستمرة منذ العصر» سألها هاريس .

- «نعم» قالت فجأة تبدو وكأنك قد تعرضت لضربة شمس»

- نعم لقد اضطررت للذهاب إلى الساحل في الأسبوع الماضي«أجاب هاريس .

- «ماذا فعلت» سألته روث

- «نفس العمل القديم» . . . . بدأ يخبرها عن حادث مضحك ، حصل معه عند خليج سانت لويس حيث التقط في الطريق ، عاشقين فارين في المنطقة السكنية ، هددا بالانفصال عن بعضهما إذا لم يأخذهما إلى البلدة المجاورة ، ثم تذكر كيف تحدق به روث ، عندما يحدثها عن مناطق أخرى كان يتوقف بها في رحلاته .

- رن جرس الهاتف عدة مرات ، ولما لم يتكلف أحد بالإجابة ، وجد نفسه يقفز إلى السماعة .

- «كنت أظن أنك توقفت عن الشرب» قالت له وهي تمسك بالزجاجة .

- «نعم لقد بدأت أتوقف ثم عدت» أخذ الزجاجة وصب منها قدحاً .

- وقفت بجانبه بينما كان يضع نظارته على الطبق أمامه ، تساءل هل كانت مهتمة به يا ترى ، مرت برهة اقتربا فيها من بعضهما البعض ، لكنها أبعدت شفاهها

وأخذت تحدق في الفراغ كأنها تركت غيرتها جانباً ، كان هواء الشرفة يتلاعب بشعرها .

- وضع الطبق جانباً وراح يخبرها عن المتجولين اللذين كانا معه في السيارة ، كان يشعر أنه تحت تأثير وهم معين .

- لمعت عيناها وهي تستمع ، «ما أغباهما» قالت بغضب ثم تناولت الطبق وهي تقول «يا لهذه الفوضى» بدت وكأنها تعرفهما مسبقاً ، التقى الجميع معهما عند باب المطبخ .

- اتصل أحدهم هاتفياً ، كان يحدث روث عن الجريمة التي جرت في سيارة توم .

- هل مات ؟ صاح هاريس .

- «يا للشيطان الخبيث» قالت الفتاة ذات الرداء الأبيض وهي تنظر إليه من الجانبين وكأنها تحاول تقليد بياتريس ليلي .

- «لقد كنت أعرف كل شيء عن الموضوع» صاحت روث كان خداها متوردين أخبرني توم كل شيء عن الحادثة ، لقد دمرت السيارة عملياً أليس كذلك؟ «كيف تورطت في أمر خطير مثل هذا ؟»

- «لأنه شخص لطيف» أجابت كارول بصوت أجوف كأنها تتكلم من خلال كأس فارغ .

- «من الذي اتصل» سأل هاريس .

- «إنها السيدة داجيت العجوز ذات المليون عام ، إنها تتصل دائماً وقد كانت هناك حين وقوع الحادثة»

- «إن هذا الأمر في منتهى الإثارة أخبرنا يا توم» قال شاب بدين يلبس قميص بولو .

- «كلا إنه لا يتكلم أبداً ، أنا سأخبركم» قالت روث تعالوا لنجلس في المطبخ ، كارول هل بإمكانك أن تقلي بعض البيض ؟

- وهكذا أصبحت الحادثة قصة تلوكها الألسن ، تضايق هاريس من الأمر ، كانت روث تنظر إليه بعينين واثقتين «إنه شيء رائع كيف يرتبط توم دائماً بشخص ثم يحصل أمر»

- «إنه لطيف جداً» قالت كارول وذهبت لتجلس على سلم الدرج .
- «إنه لطيف طبعاً» أعقبت روث ثم سألته «هل تبقى غداً» ؟ أخذته بذراعه وتمتمت : «هل يتم الحجز عليك هنا»؟
- نعم إذا مات الرجل أجابها هاريس ثم ودعها وغادر المكان .
- «يا للنهر» قالت الفتاة ذات الثوب الأبيض «أليس هذا ما قاله الرجل الصغير»
- «نعم» قال هاريس ، كان المطر قد بدأ يسقط على وجهه ، لم يرغب أن يقضي الليل هنا أو أن يعود إلى الفندق .
في الردهة المتشعبة للفندق ، وجد السيد جين غافياً تحت ضوء المكتب . كان النمش على وجهه يتحول إلى اللون الغامق عندما ينام .
أيقظه هاريس «أذهب إلى سريرك ! لماذا تنام هنا ؟ هل حدث شيء؟»
- «أردت أن أخبرك فقط أن هذا الأحمق ينام في الغرفة (٢١٠) ، لقد أقفلنا عليه الباب وهو مقيد إلى السرير ، أحببت فقط أن أحذرك» قال السيد جين .
- «شكراً جزيلاً لك» أجابه هاريس .
- «هذا ما يجب أن يفعله أي رجل مهذب» قال السيد جين ، «كان يبدو ثملاً ، أردت فقط أن أحذرك»
- «شكراً إن الساعة الآن الثانية صباحاً» قال هاريس .
- «ولكن مايك لا يستطيع النوم إنه يجد صعوبة في التنفس» هل استفاق الرجل الآخر؟ قال السيد جين .
- كلا إنه ما زال غائباً عن الوعي ، تناول المفاتيح من السيد جين الذي قال فجأة :
- «أقفل علي أنا أيضاً أريدك أن تقفل الباب . كانت يداه ترتجفان ، همس السيد جين : «إنه قاتل» بدا وكأن النمش في وجهه قد برز إلى الخارج «لا يمكننا قول شيء ، إني أحب مايك العجوز!»
- «إنه ليس قاتلاً بعد» أجابه هاريس وقد بدأ يعبس .
عندما مر بالقرب من الغرفة (٢١٠) لم يسمع أي صوت . تذكر أقوال سوبي وهو مقيد اليدين أمام المستشفى ولم يكن أحد يصغي له : «سئمت منه إنه يحتج ويثور

على أي شيء»

استلقى هاريس على سرير غرفته ولكن دون أن يخلع ثيابه أو أن يطفئ الضوء لم يستطع أن ينام من شدة التعب ، أخذ يحدق في الجدران المكسوة بالورق وعيناه نصف مغمضتين من قوة الضوء ، نظر إلى سطح المرآة الأبيض ، فوق خزانة الملابس ثم نهض وأدار مروحة السقف لإثارة بعض الحركة وبعث بعض الصوت في الغرفة ، كانت مروحة نصف معطلة تصدر قرقعة كلما دارت دورة ، استلقى تحتها مباشرة وهو ما يزال بثيابه وأخذ يتنفس بطريقة متناغمة مع إيقاع صوت المروحة .

أغمض عينيه فجأة ، أحس بأنه في ظلمة حمراء وشعر بأنه قد بدء يفقد صبره وكأنها بداية رغبة لديه ، تذكر الفتاة التي وضع النقود في جيب صدرها أحس باستسلام مقلق ثم تذكر روث وهي متكئة على يديها . كان يعلم أنه لن يستطيع أن يمسك أياً منهما ، شعر بارتياح عندما تحولت أفكاره نحو المتسكعين اللذين كانا معه في السيارة ، تلك الوحشية التي ارتكبت عندما أدار ظهره ، كيف سينتهي هذا الأمر ، دهش عندما أحس بأن هذا الضعف الذي انتابه في مواجهة الحياة قد أصبح مقبولاً لديه بشكل أكبر .

لم يستطع أن يتغلب على شعوره هذا المساء ، إذا كان هذا المساء يشبه أمسيات أخرى ، كذلك البلدة بدت له مثل البلدات الأخرى ، لم يشجعه شيء لينهض من فراشه إلى الراحة أو إلى اليأس ، حتى المطر كان مملاً هناك دائماً مطر ودائماً حفلات ودائماً عتاق ليس من صنيعه ، الصراعات التي تدور في سيارته ، الاعترافات غير المسبوقة بإنذار ، ممارسة الحب فجأة ، كل هذه الأشياء لم تأت من قبله بل جاءته من تلك البلدات التي يمر بها ، من ماضي الناس المتجذر ، من وضع بقائهم في مكان واحد ومن وقتهم ، هو نفسه ليس لديه وقت ، كان حراً طليقاً لم يساعده أحد ، تمنى أن يعرف كيف أصبح الرجل ذو الغيتار ؟ هل ما يزال فاقداً للوعي ؟ هل يشعر بأي ألم ؟ .

استوى على سريره ثم نهض وسار نحو النافذة .

– «توم» ناداه صوت في الظلام .

– رد فوراً ثم أخذ يستمع ، كان صوت فتاة ، لم يستطع أن يميزها بسبب شدة

الظلام ، لا بد أنها تقف فوق العشب خارج فسحة الفندق ، ربما تبللت قدماها ربما تشكو التهاباً رئوياً ، كان متعباً لدرجة ظن أنها فتاة من بلدة أخرى . كان هناك شيء غير واضح فيما قالته ، كان صوتها منخفضاً ولا هشاً كأنها تركض نحو العاب نزل إليها وأدخلها إلى ردهة الفندق ، ركضت إلى منتصف الغرفة كأن شيئاً يدفعها ، كانت كارول التي قابلها في الحفلة .

- «إنك مبتلة» قال لها وهو يلمسها

- «إنها تمطر دائماً» نظرت إليه وتراجعت إلى الوراء «كيف حالك»؟

- «لا بأس جيد» أجابها .

- «لم أكن متأكدة» قالت بعصبية «كنت أعرف أن هذه قد تكون غرفتك ، أرجو أن لا أكون قد أيقظت أحداً ؟»

- تساءل هاريس إذا ما كان سوبي نائماً ، ثم سألها هل ترغبين في كأس أم نذهب إلى مقهى أول نايت ونشرب القهوة .

- «إنه ما يزال مفتوحاً» قالت وهي تومي بإشارة من يدها «إن أول نايت مفتوح حتى الآن وقد مررت به للتو» .

- سار الاثنان وسط الضباب ، وضعت معطفه على كتفها باحتجاج صامت ، كانت تسير في الشارع بإغراء ولكنها لم تكن ثملة .

- «ألا تذكرني من الحفلة ؟» سألته ولم تنتظر حتى يجيبها ، «يقولون أنك لا تنسى أحداً ، لكنني اكتشفت أنهم مخطئون في ذلك على أية حال»

- «إنهم دائماً مخطئون» أجاب هاريس ثم سألها بسرعة «متى تقابلنا»؟

- «كنت أنزل في فندق مانغ على الساحل مع عمتي في كل صيف ، لم أكن قد كبرت بعد ، كان مسموحاً لي فقط بأن أرقص . كنت أنت قد بدأت تسافر كثيراً ، كنت تكلمني دائماً خلال فترات الاستراحة من رحلاتك»

- ضحك ضحكة قصيرة ، أضافت «وكنت تتكلم عن نفسك»

- كانا يسيران بجوار الكنيسة التي بللها المطر ، كان صدى خطواتهما مسموعاً ، «لم يكن الأمر منذ زمن طويل ، خمس سنوات فقط» قالت له «تحت شجرة المغنوليا إذا كنت تذكر» .مدت يدها ورافقته وهي تنظر إليه بوجهها الطفولي «عندما رأيتك

الليلة أردت أن أعرف كيف تجري أمورك»

لم يجبها ولكنها استمرت «لقد كنت تعزف على البيانو»

سارا تحت ضوء الشارع ، حدقت به متأملة تقلصات في عضلات وجهه «هناك على الشرفة الواسعة حيث رقصا» قال لها وهما يمشيان معاً وأضواء المصابيح . . .» «لقد نسيت هذا كله ، أنا متأكد من ذلك ، ربما كنت تعنين رجلاً آخر .كنت تضع يدك على لوحة المفاتيح كأنك تقول «هكذا هو الأمر إذن» صاحت وأدارت رأسها «أظن أنني كنت مجنونة بك»

– «مجنونة بي» أشعل سيجارة ووضعها بين أسنانه .

– كلا . . . . نعم . . . . والآن أيضاً صاحت بحدة وكأنها تريد أن تنكره .

– وصلوا بالقرب من مستودع صغير ، كانت هناك آلة تطلق أصواتاً مزعجة ، عبرا الشارع المعتم ، لقد انضم الماضي إلى الحاضر قال لنفسه ، إن الأمر لا يحدث معي دائماً ولن يحدث مرة أخرى ، أمسك بيدها وقادها عبر المدخل القذر لملهى أول نايت جلست هي على طاولة قرب الجدار . أخذت تمسح وجهها بمنديل بينما ذهب هو ليطلب القهوة ، عاد حاملاً فنجانين بين يديه وهو يبتسم لها من بعيد ، جلسا تحت الروزنامه المعلقة التي تحوي صوراً لشجر عملاق يتم قطعه .

– تكلما قليلا ، ضايقتها ذبابة عابرة ، وعندما أنهت فنجانها رافقها إلى تكسي يقف خارج المستودع وقبل أن يغلق الباب قال لها : «إني أقدر لك كل شيء لقد كنت رائعة» تناولت منديلها وأخذت تبكي «ما هو الشيء الرائع الذي تجده في»؟ .

«أن تخرجي هكذا تحت المطر وتأتي إلى هنا» أجابها وأغلق الباب ، كان التعب قد أخذ منه كل مأخذ .

كتمت أنفاسها وودعته قائلة : «أرجو أن لا يموت صديقك» «أرجو أن يتحسن حاله» لكنه عندما استفاق في الصباح وهاتف المستشفى أبلغوه أن رجل الغيتار قد مات ، كان ميتاً حين كان هاريس يسهر في أول نايت .

لقد كان قاتلاً تمتم السيد جين وهويشد أذني كلبه مايك .

أعلن المدعو سوبي أنه سيعترف بكل شيء ، هزّ رأسه ببطء وابتسم للرجال الجالسين حوله ، نظر إليه السيد جين الذي كان قد حضر مع هاريس نظرة واحدة ثم

خرج وأغلق الباب خلفه بعنف .

«يا لجهنم لقد فعلتها ، ألم تروني أم أنكم كنتم عميان» قال سوبي .

سألوه عن الرجل الذي قتله .

«أسمه ساتفورد» قال وهو يمد قدمه إلى الخارج وكأنه يريد أن يتذكر شيئاً خاصاً ودقيقاً ، لكنه لا يملك شيئاً وليس له أقارب ، ليس أكثر مني ، قابلته منذ أسبوعين» نظر إلى وجوههم ، كأنه يطلب المساعدة «لقد كان مغروراً ومعتداً بنفسه ويحمل دائماً غيتار»

عاد هاريس من دكان الحلاقة ، راح ينتظر الانتهاء من تنظيف سيارته في محطة الغسيل .

التفت حوله . كانت تقف حول السيارة مجموعة من الأولاد الذين يرتدون قمصاناً زاهية ، بينما وقف خلفهم بعض الأولاد الملونين .

_«هل سيتمكنون من تنظيف الدم عن المقعد وعن عجلة القيادة يا سيد هاريس؟»

أومأ برأسه ولكنهم هربوا .

- «سيد هاريس» سأله أحد الأولاد الملونين «هل تريد العلبة»

- «ماذا ؟» أجاب هاريس .

- أشار الولد الملون إلى علبة كانت موضوعة بين الصناديق في المقعد الخلفي «علبة الغيتار» .

- «كلا» قال هارس وناولها له .

١٩٤٣

بول هورغان

نواة الخوخة

عن «ذي ييل ريفيو»

كانوا جميعهم يعلمون أن الطريق ستستغرقهم أربعة ساعات إلى ويد حيث ولدت «هي» . وكانوا يحفظون الطريق جيداً لكثرة ما استخدموها ، كانت المرة الأولى في سيارتهم القديمة أما الآن ، ففي السيارة الجديدة ، الجديدة بالنسبة لهم لأنهم اشتروها مستعملة في العام الماضي ، حين كانوا في روزويل يحتفلون بعيد زواجهم العاشر . كان جودي وكليوتي يعتبران أنفسهما زوجين شابين ، أما هو فكان يرتكب حماقات من حين لآخر ويسخر منها عندما تعارضه على تبذيره للنقود هنا وهناك بدلاً من صرفها لما يلزم .

إلا أنه كان يملك الكثير من الطباع المشاكسة التي تثير الضحك ، بحيث لم يكن بإمكانها أن تغضب منه حتى لو أرادت ذلك ، وكلما ازدادت الأمور صعوبة بينهما أحبته أكثر ، خاصة عندما رافقته إلى تلك المزرعة الصغيرة الواقعة في السهل الممتد أسفل الجبال .

كان هذا صبيحة يوم ربيعي حار . كان الجبل يتشح بلون أزرق ذائب ، يذكرك بشيء تستطيع لمسه كوعاء صيني مزخرف ، وكانت ظلال الأعشاب الخضراء تبرز على سطح التراب البني ، والهواء بارداً يضرب في عمق صدريهما ، أما هو فقد جاء من تكساس وهو بعد فتى ، عاش منذ ذلك الحين في نيومكسيكو . بالنسبة لها كانت

كلمة وطني تعني مجموعة من البيوت مطبوعة في مخيلتها على صورة بيوت خشبية صغيرة بنية اللون ، تتألف منها بلدة ويد الواقعة على الطرف الأخير من الجبل حيث التقت مع جودي باورز وتزوجته قبل عشر سنوات .

واليوم كانوا عائدين من تلك الطريق نفسها ، جودي يقود السيارة بعينين نصف مغمضتين بسبب وطأة ضوء النهار ، كان الضوء شديداً بينما هم صاعدون عبر الوادي قبل الظهر ، كان جودي دائم التطلع حوله خلال قيادته سيارته الشفروليه ذات اللون الأزرق الفاتح ، كان نحيف الجسم ولكنه يبدو للناظر مكتنزاً بسبب طريقته المتهدلة في تحريك أطرافه ، كان يرتفع وينخفض ويميل على جنبيه وهو يقود السيارة على الطريق الوعر وكأنه يركب حصاناً هزيلاً يتمايل في السير كان جلده بنياً أحمر من شدة الشمس ، وعيناه الزرقاوتان الباهتتان محاطتين بأهداب سوداء ، غالباً ما كانت مثار ضحك لها حين تقول «وقد أفلت ضوؤهما علي» ، كان يرتدي بذلته البنية المقلمة وقميصاً أزرق جديداً ، له قبتان كبيرتان ، لكنه مع ذلك كان يبدو أنيقاً ، إلا أن الغريب في الأمر أنه كان يبدو دائماً في منتهى الأناقة حتى وهو عار من الملابس فقد كانت له القدرة على نقل تعابير جسده من خلال أي رداء يرتديه ، كانت حركاته هي التي تكلم من يخاطبه ، بقي الأمر كذلك حتى تزوج من كليوثا ، وأعطاه هذا الزواج فرصة للتفكير .

جلس ابنه بادي بجانبه على مقعد السيارة ، كان عمره تسع سنوات ، وكان دائم التحديق بأبيه وأمه ، أما «هي» فجلست في المقعد الخلفي ، وبجانبها صندوق خشبي صغير محاط بالورود ، لكنه غير ملون ، وقد وضع عليه غطاء أطفال أصفر اللون وعليه باقة ورد زاهية الألوان ، لم تكن الأم لتلمس الصندوق ، إلا عندما تميل السيارة أو حين تتدرج العجلات على الطرق الرملية والمسارات الوعرة ،فتسبب اهتزازاً بداخل السيارة ، كان في الصندوق جثة مكفنة لطفلة ميتة عمرها سنتان ، كانت الطفلة هي ابنتها ، وكان الجميع متوجهون إلى ويد لدفنها .

في الزاوية الأخرى للمقعد الخلفي ، جلست المعلمة السيدة لا تشر ، كان الصمت مخيماً على الجميع في هذا اليوم الربيعي ، لم يكن يسمع إلا صوت أنفاس السيدة لاتشر التي كانت تتنفس بعمق وأصوات أنفاس الباقين ، كانت تحاول أن تستفيد من

خبرتها ومعرفتها في هذه الحياة . فقد شعرت أن الوقت ليس وقت عواطف بل عليها أن تكون في منتهى الذكاء واليقظة .

كانت الطفلة قد احترقت بالأمس حتى الموت ، وهي تلعب خلف قن الدجاج المبني من الطين قرب غدير صغير ،يقع خلف المنزل ويمر عبر السياج الذي تعلق على أسلاكه دائماً الأعشاب المتطايرة ، يوم أمس حملت الريح عدة شرارات مشتعلة من مدخنة المطبخ ، وأشعلت هذه الشرارات الأعشاب الجافة العالقة بالسياج ، كان جودي يرغب دائماً في تنظيف السياج من هذه الأعشاب ولكن دون أن يقوم بشيء من هذا القبيل ، كان يقول لكليوثا دائماً أنه سيقوم بتنظيفها صباح السبت المقبل قبل الذهاب إلى روزويل . لكن السبت كان يمر وخلفه سبت آخر وآخر والرياح تقذف بهذه الأعشاب على حد السياج ، لم يتنبه الاثنان لهذا الأمر فقد أصبح منظر الأعشاب مألوفاً لديهما ، وكانت الفتاة الصغيرة تلعب أيام الربيع خلف بيت الطين الذي تبرز أحجار الطوب خارجه في عدة أماكن .

كان في السيارة شيئاً لم يحكم ربطه ، اعتقد الجميع أنه رفراف العجلة الخلفية فقد كانت تصدر أصوات قرقعة على الطريق المليء بالحصى .

ليلة أمس توقفت كليوثا عن البكاء ، فقد حدث أمر اليوم ، خطر لها بينما السيارة تشف الطريق صعوداً إلى المزرعة . بدت كأنها تحاول أن تدفع السيارة لكي تميل إلى الأمام أو تمد رأسها للنظر إلى النافذة الأمامية من جانب رأسي جودي .

كانت بالطبع تملك بصيرة جيدة ، لم تكن ترفض أن تنظر إلى العالم حولها فيما السيارة تقطع الوادي ، بل كانت تحدق في اتجاهين ، الأول ، باتجاه ذكريات المناظر المألوفة لتلك المنطقة التي عاشت فيها طفولتها وصباها ، والثاني ظهر وكأنها لا تنظر فقط ، بل وكأنها ترى ولأول مرة ، بدء قلبها يخفق بسرعة وكأنه يدق على باب صدرها ، يريد الخروج ليسبقها عبر ممرات الحياة التي تشرق عليها الشمس ، أخذت تشعر بالدوار ، كيف لا وهذا الحزن يشع من عينيها ، لم تعد تهتم بالشيء الذي سبب لها هذا الحزن ، بقيت ثابتة ومستعدة لأن لا تنظر إلى أحد أو إلى أي شيء آخر مرة أخرى ، بل تنظر من خلال نافذة السيارة المشقوقة شقاً طويلاً يشبه رسماً لنهر على خارطة ، كانت كل ما تنظر إليه عزيزاً على قلبها .

لم يكن جودي يعرف شيئاً غير قيادة السيارة ، كان يراقب الطريق وكأنه يتوقع منها أن تقوم بإلقائهم في الوادي حيث تلمع الأشجار تحت أشعة الشمس ، راقب جودي الطريق وقال لنفسه ، إذا كانت هذه الطريق تعتقد أنها ستقلبني فوق الصخور المجانبة للتل الذي تتسلقه ، أو تظن لوهله أنني لست سيداً لهذه السيارة ولهذه الطريق ولهذه الرحلة ، إذن فهي مجنونة حقاً ! كانت الحصى تتطاير من تحت عجلات السيارة المندفعة وكأنها تتطاير من تحت قدميه ، تصلبت عضلاته وشعر بالتعب وكأنه يركض مع السيارة ، حاول أن يشغل باله بالتفكير فلم يستطع ، إذ لم يخطر على باله شيء ، يريد التحدث إليها عنه ، رغم اعتقاده أنها كانت تجلس هناك منحنية إلى الأمام تنتظر منه أن يقول شيئاً .

لم يستطع أن يتفوه بكلمة ، أسرع قليلاً وبدا كأن عقدةً قد ظهرت على حنكه لكثرة ما صر عليها من الغضب ، أثارت اهتمامه كتلة رآها في منتصف الطريق ، سدد مقدمة السيارة باتجاهها واصطدم بها ، انزلقت السيارة قليلاً واهتزت بركابها ، أخذت السيدة لا تشر نفساً حاداً وحاولت التعلق بأي إنسان ، خوفاً من الاهتزاز فلم تصل يدها إلى أحد ، نظر جودي في المرآة أمامه نحو الخلف وهو يتوقع شيئاً ما ولكن زوجته كانت تحدق في النافذة من جهتها ، لم يصدق عينيه حين وجدها تبتسم وهي تضع أصابعها على فمها .

حقاً أحس بنقط من الدم تجري من تحت قميصه ، أرتج عليه الأمر وألم به وجع في عينه ، لم يستطع أن يفسر لنفسه لماذا فعل شيئاً مثل هذا بها ، وكأنها هي التي سببت غضبه ، أراد أن يوقف السيارة وينزل منها ليفتح الباب الخلفي ، يمسك يدها ويخرجها لتقف أمامه على الطريق ، يضع ذراعه حولها ويضمها بشدة ، وضع هذه الصورة أمام عينيه وتابع قيادة السيارة .

أما بادي ، الطفل الصغير فكان يراقب الوجوه مرة تلو الأخرى ، وكأنه يريد أن يعرف ماذا يجري من خلال النظر في عيون الموجودين . كان خائفاً من تلك اللامبالاة التي يبديانها تجاه بعضهما البعض ، فقد كان وجه أبيه ممتقعاً ونظراته غائرة ، وكأنه استفاق لتوه من النوم . كان في وجهه شيء جعل من المستحيل لبادي أن يتفوه بشيء ، التفت إلى أمه ولكنها كانت تحدق في النافذة غير آبهة له ، لم يستطع أن

يكلمها حتى بعينيه دون أن تلتفت نحوه ، وحتى لو التفتت فسيظل ينتظر ويراقب كيف ستكون أول ردة فعل لها ، ثم يبتسم لها لأنه يحبها . لكنه يريد أن يتأكد أولاً إذا كانت ما تزال أمه أم لا ، وإذا كان كل شيء على ما يرام ،أم أن الأمر قد تحول إلى حطام ، كما يفعل الديناميت بأطراف التلال حين يفجره الرجال الذي يعملون في فتح الطريق السريع ، المار أمام مزرعتهم ، الذي ظلوا يعملون به هناك لأشهر طويلة . كانت هناك أشياء كثيرة يتأملها ويراها ، أمه وأبوه ، الجميع كانوا بخير .

توسل إليها بصمت أن تلتفت نحوه ، فهو لن يشعر أبداً بالأمان حتى تفعل ذلك . ماما ! نادى فجأة ، ولكنه فطن إلى أنه كان يكلم نفسه فهي لم تسمعه ، أخذ يتلهى بمناداة أسمها بصمت وكأنها لعبة عثر عليها بالصدفة ، حدق في الطريق أمامه وهو يلتفت إليها بين الفينة والأخرى علّها تنظر إليه ، كانت الحصى البيضاء تتطاير حول عجلات السيارة معظم الوقت .

كان بادي فتى قوياً وعلى وجهه زغب فضي يمتد فوق خديه الورديين ، اشتم رائحة تشبه رائحة البطاطا المقشرة حديثاً ، كانت أشعة الشمس ترسم حلقة من الضوء على شعره الأسود .

كانت كليوثا خائفة أن تكسر الصمت إذا تفوهت بكلمة ، أو نظرت إلى أي منهم كذلك كانت رؤيتها للأمور ، لم تستطع أن تفكر بشيء آخر ، لأنها لم تكن قد خاضت تجربة مثل هذه من قبل ، كل ما حدث جعل قلبها يخفق بشدة ، كانت تظن عند الصباح أن لا شيء يمكن أن يجعل قلبها يخفق بشدة بعد اليوم ، فليس هناك حزن يقارن حزنها ، لم تستطع التفكير بإجابة تبرر وفاة طفلتها .

في الساعة الأولى من الحادث ، لم تصدق ما حدث ، أخذت تتحسس جلدها وتستشعر ماذا لو أن هذه النار قد هبت بها بدلاً من طفلتها ، أقرت بينها وبين نفسها أنها من الممكن أن تتقبل تلك النار بدل ابنتها بكل رضا . استلقى بادي بجانبها ، ظلت تمسك بيديه حتى خلد للنوم ، ثم أرخته جانباً وأجهشت بالبكاء لما راودتها من ظنون حول قلة وفائه لها ، فقد أرادت أن يكون قلبه معها اليوم ، وبدا لها أن آخر ما قد تشعر به من الحزن هو الشفقة التي قد تبديها له بينما هو نائم .

وجدت هذا العزاء بداخلها توقفت حيناً عن البكاء ، كأن شيئاً يشبه كبرياء

الأعراس وواجباتها برز بداخلها ، ظنت أن كل شيء ستجده بداخلها إذا ما أرادت ذلك ، استقبلت تلك المشاهد الرملية التي امتدت حولها بينما السيارة تقطع بهم الوادي نحو التلال الموصلة إلى قرية ويد ، فكرت أنها حتى لو أرادت أن تشرح رؤياها للآخرين فلن تجد كلماتها أي وقع لديهم .

نظرت إلى بستان خوخ أمامها وأخذت تفكر : إنني لم أرى للخوخ لوناً مثل لونه هذه السنة ، تبدو الأشجار كأنها مصابيح ينفذ الضوء من خلالها ، لا بد أن الشمس تسطع في الجهة المقابلة ، كانت بتلات الأزهار ما تزال رقيقة شفافة كالحرير ، لذلك ظل الضوء يمر من خلالها ويضيء الجانب الآخر ، كانت تلمع بشدة ، أذكر عندما كنت صغيرة في منزلنا في ويد أننا كنا نملك بستان خوخ ولكن لونه كان أكثر حدة من ذلك الذي في الوادي ، كنت أجمع حبات الخوخ بقبضة يدي ، وكنت أؤمن آنذاك أنني إذا طحنتها ووضعتها في محرمة وأجريت هذه المحرمة على صدري ، فستصبح رائحته كرائحة الخوخ ويظهر لونه على وجهي ، أن بعض الفتيات اللواتي كنت أعرفهن قلن لي إنني إذا حملت بذرة خوخ بيدي لمدة طويلة فستظهر لي براعم ، وبقيت أحلم بهذا الشيء لوقت طويل . رغم علمي بأنه كلام فارغ ، ولكن هكذا كان الأطفال يتكلمون ويفكرون في ذلك الوقت ، كنا دائماً نعتقد أن ليس هناك شيء مستحيل إذا أعطي ما يستحق من الجد والوقت الكافي .

لكن أحداً لا يرغب في حمل بذرة خوخ بيده مدة كافية ، ليعرف ما إذا كانت ستبرعم أم لا ، كم كنا نسخر من الفكرة ونؤمن بها في نفس الوقت ، بدت لي هذه الفكرة كأنها ضمن أفكاري العقلانية ، شيئاً يمكن لأي امرأة أن تفعله مثل حكاية من حكايات الكتاب المقدس ، يمكنني أن ألقي فيها عظة هذا اليوم .

أعتقد أني أرى شجرة ميتة في طرف تلك البيارة المجاورة ، غصونها سوداء ملوية كأنما ضربها مرض الروماتيزم ، بقيت بعض الأوراق القليلة على غصنها العلوي وكان هذا كل شيء ، ربما لم تكن ميتة ولكنها كانت هرمة ، لا تستطيع أن تضع أوراقاً خضراء أو أن تجذب الفراشات ، كانت هذه الشجرة أجمل شيء وقعت عليه عيناي هذا النهار ، أشكر الله على ذلك لأنني إذا كان هناك شيء أحب أن أراه فهو منظر شيء ينمو .

ارتدت السيدة لا تشر قفازين من القماش ، كانتا موضوعتين في كيس أزرق بجانبها ، فقد أشعرتها تلك النسمات التي تتلاحق مع سير السيارة بالبرد أحست به في أنفها ورؤوس أذنيها وأصابعها الطويلة ، كان هذا البرد سبباً في زياراتها المتكررة لعدة أطباء ، قالوا لها جميعهم أن لا داعي للقلق إذا ما بردت أصابعك أو عرقت يداك فهذه ردات فعل عصبية فقط ، لا تؤخذ طبياً على محمل الجد ، بينما يكفي استخدام مطرٍّ لليدين أو القيام بتمرين بسيط لكي يذهب بها ، ربما لعب البيانو مثلاً ، لكنها كانت تشعر دائماً أن الأطباء لم يعيروها اهتماماً كافياً أبداً .

كان اسمها الأول آرلين ، وكانت تعتبره اسما جميلاً ، أجمل من اسم كليوثا ، وتؤمن أن هناك شيء اسمه نظرة آرلينية ، وإذا ما أردت أن تعرف ما هو هذا الشيء فما عليك إلا أن تنظر إليها فقط ، كان لها وجه طويل وشعر باهت ، وجلد أبيض وعينان زرقاويان ، كانت دائماً نظيفة بشكل عجيب ، لم تكن تضع أي نوع من المكياج ، ولم تكن فتاة من الحي بل إنها درست في الكلية وحلت التعاليم الدراسية مكان الكثير من الأفكار التي حملتها في صغرها ، كان عليها الاعتراف بأن هناك اختلافاً بين الناس هنا وهناك ، فالرجال مختلفون ولم تكن هي لتتخيل أبداً أنها سوف تتزوج مزارعاً وتضحي بكل ما تعلمته في الكلية .

هذه المسكينة التي في الزاوية الأخرى ، مثلاً ، تبدو مصدومة لما حصل لها ، كل ما استطاعت عمله هو الجلوس والتحديق من النافذة ، وهذا الرجل الجالس في المقدمة يقود السيارة بصمت تام ! ماذا حصل لهما ؟ كيف كانت حياتهما ؟ لم يكونا يملكان حتى ثياباً لائقة لارتدائها حين الذهاب إلى روزويل ، أو حين يريدان زيارة طبيب أو حضور مناسبة اجتماعية .

ولكن لا يجب أن يكون تفكيري قاسياً ، قالت لنفسها ثم جلست مشفقة وعلى وجهها إمارات الراحة والاهتمام ، فادعاء الحزن والظهور بمظهر حزين أثار فضولها ، ذكرها بشيء لطالما أثار فيها شعوراً بالبكاء ، ولكنها لم تكن لتبكي بل تقف وتغرق في التفكير .

ذلك الرسم المعلق على جدار الممر الطويل في الكلية الذي يفضي من قاعة المحاضرات الرياضية إلى المركز الرياضي للفتيات ، والذي يصور مأساة الشهداء

المسيحيين في روما القديمة ، كم كانت تمر أيام لا تستطيع فيها النظر إليه في حين كانت هناك رسوم لطالما وقفت أمامها تتأملها مثل صورة العذارى ، ووجوههن الباكية وصمتهن الشجاع ، كانت ترى نفسها بينهن ، كن كلهن آرلينات ، وكانت عندما تشيح بوجهها عن الصورة ،تغرق في الخيال ويسحبها الحزن والألم لألفي عام إلى الوراء ، خطر لها ذلك الرسم الآن ، وراحت تبادل أحزان اليوم بتلك الأحزان البعيدة فيه ، ظلت على هذه الحال حتى نسيت الأم والأب والأخ الصغير ، لتلك الطفلة الميتة والذين يرافقونها الآن في السيارة ، حيث القمر يبعث الدفء في الغبار المتصاعد من عجلات السيارة التي تنهب في طريق الحصى ، كان غباراً أبيض ناعماً يسقط رذاذه عليهم من النوافذ .

كان لدى جودي باورز خطة رائعة ، يفكر فيها دائماً ، كانت تدور حول تجميع هذه الأعشاب المتطايرة ووضعها في رزم وبيعها لغايات الوقود ، كان عليه أولاً أن يضغطها ربما في مصنع ضغط القطن في روزويل ، حيث تسحب الرزمة الرخوة على عجلات إلى مسقط الطاقة ، ويقوم أحد العمال السود الواقفين على المقبض بنشرها وتحزيمها ومن ثم تعرض للضغط بالبخار مرة أو مرتين ، وتبقى ملقاة هناك إلى أن يجرها الرجال على عجلات أخرى ويربطونها لتنزل إلى السوق رزمة كاملة .

كان باورز يعتقد أنه إذا صنع كمية كافية من بالات الأعشاب فسيصبح غنياً ، فهذه الأعشاب تشتعل كمنزل تحت النار ، كأن نفطاً يوجد في داخلها ولكن الأمر يتطلب صنع هيكل لها لتبدو بشكل وقود . تخيل كل هذه الأعشاب التي تتقاذفها الريح هنا و هناك في ولاية مكسيكو في الخريف ، وأحياناً في فصل الشتاء بأكمله ، ففي الشتاء تكون هذه الأعشاب هشة سوداء تفرقع عند اصطدامها بالأسلاك وتعلق أحداها بالأخرى على السياج ، وكلما هبت الريح للمرة التالية تتطاير الرمال وتتدحرج هذه الأعشاب وتتكوم على بعضها البعض فوق الأسلاك ، وحين تشتد الريح وتزداد الرمال حولها تكوّن الأعشاب سياجاً آخر موازياً للسياج المعدني على طول مر الريح ، حتى أنها تقفز أحياناً فوق السياج كالخيول وتتطاير في المراعي المجاورة وعبر السهول في تظاهرة سوداء ساحرة .

وعندما تصل إلى غدير ماء تتجمع كالقذارة على جوانب الممرات المائية التي غالباً

ما تكون جافة إلا حينما تنحدر من التلال . كان الغدير الذي في باحة المنزل الخلفية مليئاً بالأعشاب ، وعندما تشتد الريح ويقسو البرد في شهر تشرين الثاني ،قبل موعد هطول الثلوج تتوزع هذه الأعشاب هنا وهناك بعضها يعلق بالسياج كالأسلاك الصدئة المحروقة ،ثم تتراكم على بعضها البعض ، كم من مرة فكر أن يذهب إلى هناك ، ينظف السياج منها ويجمعها ثم يشعل فيها النار إلى أن ينتهي الأمر كله في خمس دقائق ، لو أنه فعل ذلك لبقي المكان نظيفاً . كانت كليوثا تسخر منه أحياناً عندما يقول ذلك ، لأنها كانت تعلم أنه سوف ينسى الأمر بعد وقت قصير ، وربما ذكر الموضوع آلاف المرات بدل المرة الواحدة ولم يفعل ، كأن يقوم بجمع الأعشاب وبيعها في روزويل ، أو بتجميع قطع السيارات القديمة ورفاريف العجلات التي يلقيها أصحابها على الطريق السريع وبيعها بمساعدة السائق .

ولكن هذا الحديد الصدئ ظل هناك وأصبح هو مهووساً به ، ولو أن أحداً انتزعه في الليل ولم يره عندما يستفيق في الصباح ، لهبَّ يسأل عن من سرقه لأنه كان بالنسبة له خردة غالية ، ربما تكون ملقاة هناك ولكنها ملكه إذا أنها أصبحت تشكل جزءاً منه ، حتى ذلك الكوم من العجلات القديمة التي يتطاير غبارها على الثياب مثل فرو الجنادب ، كان عزيزاً على قلبه .

حين تخطر على باله تلك الأمور ، مروراً بما حدث بالأمس ، ينتابه شعور بأنها لم تحدث منذ وقت طويل ، ربما يكون الأمر مسألة عادة أو لا مبالاة ، ليس هناك أي سبيل للهرب منها ، لماذا يكون هو الذي يلام على ما حدث بالأمس عندما انطلقت تلك الشرارات من مدخنة المطبخ .

لم يكن جودي باورز يدعي أنه أفضل من غيره من الرجال . ولكن كل شيء كان يأمل به ، كالأطفال الذين أنجبهم ، وكلمات التعزية من الناس الآخرين ، أوجد لديه فكرة أنه رجل طيب وأصبح مفتوناً بتلك الفكرة . لو كان وحده في تلك البرية لعزى نفسه بمثل هذه القصص البطولية التافهة ، أو لربما خلق من نفسه شيئاً بغيضاً على وسع اليأس في الكتب المقدسة ، ولكنه لم يكن وحده ، كانوا كلهم جالسين ، كان هناك بادي بجانبه «وكلي» في الخلف حتى المعلمة آرلين التي يدين لها ببعض الشجاعة في قلبه . كل ما استطاع فعله هو قيادة السيارة ومواصلة التفكير في الأمر ،

تمنى لو أنه يستطيع التفكير بشيء يقوله ، أو أن تقول كلي شيئاً ولكن الصمت استمر وكان يظن أنه السبب في ذلك .

كان حلم اليقظة الذي تعيش فيه آرلين حلماً مريضاً جاء نتيجة لتلك التجارب الحزينة والمفرحة التي عاشتها مع هؤلاء الناس منذ زمن بعيد ، كم هو رائع أن تعيش مثل هذه الحياة الغنية ، تبحث فقط عن أشياء ، ولعل أروع شيء هو أنها حتى ولو كانت جميلة وترتدي ثياباً نصف شفافة تصل ثناياها الثمينة حتى الأرض . فقد كانت العذارى جميعهن نقيات ، أخذت تفكر كم كن بريئات وهو يؤخذن إلى مصيرهن ، إلى الموت ، هل يوجد شيء أجمل وأروع من هذا ، لعل تلك الأسود الجائعة أفضل لهن بكثير من لمسات الرجال الشهوانين .

تقطعت أنفاسها لوهلة من الوقت ، أغمضت عينيها وكان أكثر ما ملأها بشعور حقيقي هو اختفاء الشعور بوجود عائلة باوزر معها في السيارة الزرقاء عبر الوادي المشمس ، إذ لم تعد أنفاس الحياة قريبة من خديها ، لقد عانى الآخرون فلتعاني هي أيضاً .

استقرأت من الكتاب المقدس ما يلي : كلما يمر بك ، صفق له فهم يتهامسون ويهزون رؤوسهم لابنة أورشليم .

أجفلتها هذه الكلمات كما لو أنها هي التي كانت مقصودة بالهمس وهز الرؤوس ، كل شيء كانت تعرفه جعلها ترى نفسها تلك العذراء الفخورة والمهددة منذ زمن التوراة ، كانت هذه الصورة أقرب للحقيقة بالنسبة لها من معظم تلك السنين التي عاشتها سابقاً . ولكن هيهات لاورشليم أن توجد في بلد مثل هذا ، وهؤلاء المكسيكيون البسطاء الذين يمتطون بغالهم باتجاه الأعتاب المقدسة ، إننا في الغالب لا نرى أنفسنا على حقيقتها ، أخذت تفكر بذلك المخلوق الوهمي الذي بعثه اسم آرلين في مخيلتها .

كانت هناك قطعتان ملونتان على خديها ، وكأنها تعاني من حمى ، حاولت أن تبقي في مخيلتها ذكريات الأيام الرومانية القديمة ، ولكنها بدأت تنفذ منها ، حاولت منع حدوث ذلك فقد كانت تظن أنها مخلوقة لمثل هذا الأمر ، لكنها في الحقيقة لم تستطع عمل شيء . لعل من المؤسف أنها لم تستطع أخذ مسز باورز بين ذراعيها

وتقديم العزاء لها . فقط لتتركها تمشي وتبكي فربما ساعدها هذا الأمر ، ولكن مسز لاتشر كانت تدرك تماماً أنها لا تكن أية شعور بالنسبة لعائلة باورز ومشاكلها .

عادت لتبحث داخل قلبها وتناجي تضحيات تلك المخلوقات السماوية التي تنتمي إلى فصيلة الآرلينات وهن يمشين بشجاعة نحو عرين الأسود ، ولكنها لم تلق جواباً ، قامت بخلع قفازيها وطوتهما معاً ، تمنت على نفسها أن تجد طريقة لتقديم العزاء للسيدة باورز ، فهي إن وجدت طريقة لفعل ذلك فربما يمتلئ قلبها الفارغ حتى ينضح بما فيه .

كانت كليوثا تعلم أن بادي يريدها أن تنظر إليه ، لكنها وعلى الرغم من أن قلبها كان معه وكما يجب أن يكون دائماً مهما طلب منها ، إلا أنها هذه المرة كانت خائفة أن تفعل ذلك لئلا تفقد رهبة الموقف ، بحيث لا تعود رصانته إليها اليوم وخاصة أن المشكلة الأكبر لا تزال أمامها .

اكتفت من الأمر بنظرات بادي وهو يلتفت إليها من زوايا عينيه ، استرقت النظر إلى رأسه ورقبته مثل قطة صغيرة ، كانت عظام رقبته عريضة خلف أذنيه ، على مؤخرة عنقه تبرز الشرايين بطريقة تدفع إلى الضحك ، بسبب منظرها المثير للشفقة ، كانت كلما عانقته ، تداعب تلك التجاويف الوعرة خلف أذنيه ، وحدها السماء كانت تدري ما الذي يدور في هذا الرأس ، كانت تدعو دائماً في صلاتها بأن لا تقلقه تلك الأفكار التي يخزنها في رأسه ، وكم أدهشها أن تجد فيه خصالاً تشبهها ، أو صفات اعتقدت في الغالب أنها قادمة من مصدر غريب ، كانت دائماً تخاف عليه وتشعر أنه صغير جداً ليكون غريباً عنها .

دارت السيارة حول منحنى صخري ، وعلى الجهة الأخرى كانت هناك رقعة صغيرة خضراء من الأرض مزروعة بالفصة تلمع تحت ضوء الشمس ، على يمين الطريق كانت الأرض مستوية . قد بنيت على إحدى أطرافها المرتفعة غرفتان من الجص لصقت بعض الأحجار القليلة على زواياها لإبقائها ثابتة ، كم من المرات قد شاهدت هاتين الغرفتين ، فقد كان يعيش هناك العجوز ولندز الذي توفيت زوجته منذ سنوات قليلة ، كان عجوزاً بسيط التفكير ويدعي أن عمره مائة عام .

كانت في السابق تتعمد النظر إلى الجهة الأخرى كلما مرت من هنا ، كم كان

يؤلمها التفكير بذلك العجوز الضعيف الذي لا يقوى إلا على الزحف إلى الخارج كلما تسطع الشمس وتصبح الجدران دافئة . كان يجلس هناك ويحدق في تلك التلال التي لم يغادرها منذ ولد فيها ، جاء أحدهم مرة ليقدم له الطعام وليتفقد أحواله الصحية ونظافته . كان هناك كلب في البيت على ما تذكر ، أما الرجل العجوز فكان له أولاد وأحفاد وأولاد أحفاد وكأنهم بستان من الأشجار ، تفرعت من تلك الشجرة المحتضرة التي ما تزال تحتفظ ببعض الأغصان الخضراء في عروقها الهرمة .

لمحته قبل أن تتجاوز السيارة عنه ، كانت الشمس تسطع والجدران دافئة بما فيه الكفاية لتبعث الدفء في كتفيه ، كان يشعر بانعكاس هذا الدفء عليها ، ويجلس هناك على المقعد المهترئ ، يحمل بيده غصن شجرة تفاح يلمع من كثرة استخدامه كعصا ، وكان باب بيته مفتوحاً تغطيه الظلال .

مالت كليوثا إلى الأمام لتلقي نظرة عليه ، كأن النظر إليه واجب من واجباتها اليومية ، كان حنكه يتحرك صعوداً ونزولاً ، لم يكن يمضغ شيئاً ، فقط يفتحه ويغلقه ، لم تستطع أن تسمعه بسبب صوت الريح الناتج عن سرعة السيارة ، لكنها لم تدهش إذا اعتقدت أنه يغني . فقد كانت عيناه المغلقتان وفمه المتحرك وحركات رأسه تدل على ذلك ، أخذت تضحك وهي تتخيل نوعية الصوت الذي قد يصدر عنه ، شعرت في صدرها فرحة غامرة . فقد أثارها منظر هذا العجوز الذي كانت في السابق تدير نظرها عنه باشمئزاز ، كان آخر شيء رأته قبل أن تتجاوز السيارة المكان ، كلب العجوز وهو يدور حول زاوية البيت ، كان جرواً هجيناً مثيراً للضحك ، جاء يرقص بين قدمي معلمه مهتاجاً يطلب دلالاً لم يلقه عنده ، ولكنه كان مضحكاً أكثر من معلمه . فقد رمى نفسه بعد أن صده معلمه إلى الخلف وكأنه قطعة تتحطم ، كان كل شيء فيه يهتز كالمجنون ، أخذت تتخيل أشعة الشمس وهي تدخل في جلده كما تدخل في جلد العجوز ، تأثرت كليوثا بهذا الكلب المرح . عندما زلت قدمه وتعر وتمرغت قفاه بالتراب استبدت بها رغبة بالضحك بصوت عال .

ابتعدت السيارة عن مكان العجوز ، ظلت عيناها ترفان مرحاً ولكنها أدركت أنها لن تستطيع أن تخبر أحداً عن ذلك .

كان جودي مرتاحاً لأمر واحد فقط . فقد اتصل من بلدة هوندو الليلة الماضية

ببلدة ويد وأخبروه أن كل شيء سيكون جاهزاً هناك وأنه سوف يلتقي بالجميع عند مقبرة العائلة أعلى التل ولن يضطر للانتظار ، كان مرتاحاً أيضاً لأن الريح لم تكن تهب بشدة . كان قلبه يهبط من الخوف كلما سمع صوت الريح وهي تدب في السهول وتحيل السماء إثرها مغبرة مخيفة بالأمس . كان كل شيء يستطيع رؤيته مهما حاول التفكير بأمور أخرى ، منظره وهو عائد على حصانه من المرعى المجاور للمنزل خالي الذهن من كل شيء إلا من التفكير بينه وبين نفسه بأشجار الخوخ ، وكم من الوقت تستطيع أن تتحمل قبل أن يقتلها الصقيع بليلة واحدة ، عندما شاهد فجأة دخاناً كثيفاً يرتفع من الأعشاب الملاصقة للسياج ، أخذ يسائل نفسه عمن أشعلها؟ وهو يلاحق بنظره كتل الدخان المرتفعة إلى الفضاء .

«يا إلهي» صاح وانطلق مسرعاً بأقصى ما أمكن للحصان أن يأخذه ، شاهد النار واللهب المتصاعد منها ، كانت تتتابع كالخرق الصفراء تمزق الهواء وهي تتطاير من الأرض ، وصلت كليوتا إلى المكان في اللحظة التي وصل هو فيها ولكنهما كانا متأخرين فقد كانت الطفلة في حالة إغماء ، حملاها وركضا بها إلى داخل البيت من المدخل الجانبي ، كانت البيت بارداً حينها ، حملا الطفلة بينهما خوفاً من سقوطها على الأرض ، ناديا على بادي ولكنه كان ما يزال في المدرسة ومن المرجح أنه لن يعود قبل وصول الباص البرتقالي إلى موقع صندوق البريد الموضوع على باب بيتهما قبل الساعة الرابعة ، كانت النار تثير قرقعة وجلبة بين الأعشاب اليابسة ، وخلال أقل من عشرة دقائق ، كانت سحب الرماد تتطاير من الأرض إلى الفضاء تصبغ الهواء باللون الأسود ، كانت ما تزال هناك ثلاث نقاط مشتعلة عند السياج والأسلاك أصبحت ساخنة كالنار أما الطفلة فقد قضت نحبها ، ووضعاها على السرير الكبير .

يكاد جودي يتذكر كل كلمة قالتها له كليوتا ، لم تكن كلمات كثيرة ولكنها أشعرته بالذنب في داخله ، إذ إنه لم يستطع التفوه بأي رد ، أخذ يعزيها ويضمها إليه وهي تبكي . لو أراد أن يقول لها شيئاً وهما في السيارة فلن يسعفه الكلام إلا عن النار التي كانت تلتهب بألوان صفراء وزرقاء ، امتدت عالياً إلى السماء ، كان يظن أنها تعلم بتقصيره وربما ترغب في لومه ، لكن الصمت في مثل هذه الظروف أفضل

بكثير من التوبيخ .

لم يكن واثقاً مما يخبئه المستقبل ، وصلت السيارة إلى المفرق الرئيسي الذي يأخذهم عبر السلاسل الصخرية للجبال شرعوا بالارتفاع ، كان الهواء صافياً ورقيقاً ويبدو كنسيم أزرق يمر بين الأشجار ، وهو ينقلهم بخفة عبر الوديان والمنحدرات .

فجأة غطى بريق ضوء لامع ظهر وسط الطريق على عيني كليوثا ، كان الضوء عبارة عن كرة ماسية لامعة ، تتجول بعيداً على الطريق بين أشجار الصنوبر . كانت كرة فاتنة ساحرة لم تر مثلها من قبل ، كأنها نوع من تلك العجائب التي ينتظرها الصغار ، حاولت أن تفسر الأمر لنفسها ، فربما تكون هذه الكرة نجمة أشرقت في النهار تنتقل أمامهم لترشدهم إلى الطريق ، ولكنها كانت على شكل سحابة ، مضيئة ، حبست كليوثا أنفاسها خوف أن تختفي الكرة ، لكنها استمرت في الظهور وتساءلت هل رآها الآخرون في السيارة وبهروا بها مثلها . كانت تلك الكرة أبهر من الشمس في ضوء النهار . طغى بريقها الراقص على كل شيء حولها .

بدا الأمر وكأنها اقتربت من البراءة التامة في محنتها ، ظهرت لها رؤى لم يراها الآخرون ، أغمضت عينيها في تلك اللحظة .

دارت السيارة حول منحنى طويل ودار كل شيء معها ، وعندها فقد البريق لمعانه وانقلب إلى مجرد إشارات معدنية تلمع على ظهر شاحنة نفط عملاقة ، تهدر على طريق الجبل وتجر مقطورتها خلفها .

عاودت كليوثا النظر ، كانت النجمة قد اختفت عن الطريق ، لم تعد زاوية الشمس المنعكسة على السيارات التي تعبر الجبال ، قادرة على إطلاق المعجزات ، رأت أخيراً شاحنة النفط الحمراء ، أدركت أن أشعة الشمس لا بد قد انعكست على تلك العاكسات المعدنية الملصقة على ظهرها الخلفي . لكنها لم ترغب أن تصدق ذلك فقد كان حلماً جميلاً لا تريد أن تستيقظ منه .

بدأت أذنا السيدة لا تشر تفرقعان من الارتفاع ، وأخذت تبلع ريقها لتخفف من أثر هذه الفرقعة ولكن شيئاً لم يحصل ، عاودت التجربة وهي تتحسس أذنيها بأصابعها ، أحست بالدوار ، لا بد أن سبب ذلك هو الارتفاع فعندما تعاود الهبوط ستخف هذه الظاهرة .

بدا واضحاً لها أن ثقافتها وعقلها المجرب قد ساعداها على تكوين الأفكار وإطلاقها ، فخلف الحقائق التي تغلف هذه العائلة الصغيرة وهي في هذا الوضع السيئ تقف حقيقة الحسد في صدر آرلين ، سببت لها هذه الفكرة دواراً آخر . إذ أنها كانت تحسد أفراد هذه العائلة لتمسكهم ببعضهم البعض ، وتأديتهم لواجبهم على أكمل وجه ،خاصة حضورهم اليوم إلى مدافن العائلة في ويد ، جاءت هي لتقدم لهم بعض العون ولكن دون نتيجة لأنها لم تستطع أن تبتلع تلك الرغبة للحياة التي اعتمرت في صدرها إثر تلك التجربة التي تعيشها عائلة باورز ، كان الشعور بالحسد والمذلة قد غمر صدرها طوال طريق هذه الرحلة ، أما الآن فقد بدء الشعور يخنقها رغم محاولتها صرف النظر عنه ، حاولت جهدها أن تبعد عن نفسها شعور الخطر بتلمس الحياة من خلال الآخرين .

التفت بادي إلى أمه مرة أخرى ببطء وخفة مثل ذكر قطة ، يحاول أن يتلمس ما يراه بهدوء ، نظر إليها بعينيه الواسعتين ، كانتا مثل عيني أبيه ، لونهما أزرق باهت ، تضيئان كعيني قط برموش سوداء ، نظر نظرة جدية إلى وجه أمه ، كان يتوسل بصمت كي ترد عليه لأنها إذا لم تفعل فسيبقى وحيداً لا يشعر بالأمان وهو يروح ويغدو نحو الطريق السريع قرب المنزل ليرى العمال وهم يحفرون الطريق أو لمشاهدة ناقلات السولار العملاقة أو السيارات ذات الأرقام الغريبة ، التي شاهد منها حتى الآن اثنتين وثلاثين سيارة من نوع مختلف ، أطلق على هذه المشاهدات اسم مجموعته الخاصة ، إذا لم تفعلها وتلتفت إليه ماذا سيحصل له في الأوقات التي سيعود بها إلى البيت هل سيلعب فقط لوهلة بسيطة ويترك كل هذا .

وصلت السيارة إلى الجانب الآخر من الجبل ، بقيت دقائق ويصلون إلى بلدة ويد ، كانت المشاهد بالنسبة إلى كليوتا تشبه فترة من الصحو ، بدأت تحس بحرقة في صدرها أمام هذه الذكريات ، رأت المدخنة الحديدية الطويلة فوق مطحنة القش ، كانت ترتفع فوق الأشجار العالية على المنحدر الواقف أمامهم ، كان هناك بيت حجري مهجور منذ أيام طفولتها ، أبوابه ونوافذه مفتوحة طوال الوقت كأنها تعبر عن أساها ، انحدرت بهم السيارة نزولاً حتى المنحنى الأخير إلى اليسار ، بدت البلدة أمامهم . كانت أشعة الشمس تسطع فوق تلك المنازل التي بدء لونها الرمادي يذوي

إلى اللون الفضي الغامق ، لا بد أن الجميع ينتظرونهم الآن ، هذه البيوت كلها تشهد أنها تعرف كليوثا منذ القدم ، حين رفعت رأسها ، رأت النظرات تتجه إليها ، كان بادي يتطلع برزانه ويحاول أن يستشف التوقعات حول ما قد يحصل لها ، كان وجهه الصغير يعكس تماماً صدى يظهر على وجهها ، بينما السيدة لاتشر تراقبهما وقلبها يخفق في داخلها .

أبطأت السيارة قليلاً ، لم تعد كليوثا تستطيع أن ترى الشوارع والبيوت حولها منذ أن دخلت السيارة وسط البلدة في طريقها إلى التلة المجاورة ! ماما !؟ نادى الطفل بهدوء ، غمزت له كليوثا بطرف عينها وابتسمت وانحنت نحوه قليلاً احمرت خداه وغمرت الفرحة وجهه ، ابتسم لها ، كان وجهه مشعاً لدرجة أن السيدة لا تشر تحشرجت وانفجرت بالبكاء عندما نظرت إليه .

أخذت آرلين تمسح دموعها بيديها حتى تبلل قفازها ، كانت مبهورة لما استطاعت هذه الأم أن تفعله لولدها وأطرقت رأسها تتنهد ، حتى شعورها بالخيانة لم تخفف منه حقيقة أنها كانت تبكي على حالها .

مالت كليوثا عليها وأخذت بيدها وهي تتمتم لها معزية بهدوء

اهدئي يا عزيزتي ، سوف تكونين بخير ، لا تبكي الآن ، ألا تفكرين بنا ، لقد وصلنا وسرعان ما ينتهي الأمر ، الله وحده يعلم كم نقدر مجيئك معنا اهدئي الآن يا آرلين ، سوف تدفعين بادي إلى البكاء .

كان الصبي يراقب معلمته ، هذه الشخصية التي يعرفها حق المعرفة من المدرسة ، قد بدأت تنهار ، ترك هذا الأمر في نفسه شعوراً بالشفقة غير العادية ، كان كمن يرى انعكاساً في بركة ماء ثم يرمي حجراً به فيختفي هذا الانعكاس في حلقات تتباعد شيئاً فشيئاً ، ولكن آرلين لم تستطع أن تتوقف عن البكاء أثارت تشنجاتها غضب جودي ، نظر في المرآة إلى المقعد الخلفي وراءه ، ورأى زوجته ترتب على ظهر آرلين وتحاول أن تهدئ من روعها ، كانت كليوثا تبدو متوترة ووجهها شديد البياض ، تملكه الخوف وقال دون أن يلتفت خلفه ، «توقفي يا آرلين ، اسكتي لا أريدك أن تجهدي كليوثا» .

ولكن هذا الغضب الذي انطلق من حس عادل جعل آرلين تشعر بالذنب أكثر من

قبل ، اتكأت برأسها على نافذة السيارة ، وأخذت تشنجاتها تضرب حاجبيها بشدة على الزجاج .

«اهدئي» أعادت كليوثا الكرة ، ولكنها لم تستطع أن تفعل شيئاً آخر ، لأن السيارة كانت قد وصلت إلى التلة وبدأت بالتوقف ، كان عليهم أن يستفيقوا في الرحلة ويجدوا السير نحو التلة الصفراء حيث الناس تنتظرهم ، كان العشب الأصفر على الأرض قد بدء يتحول إلى اللون الأخضر ، ظهر كأنه سجادة مخملية بألوان فاتحة وداكنة حسبما تضربه الريح وأشعة الشمس .

كانت التلة ترتفع بعظمة إلى السماء ، أمام الجبال المواجهة لها عبر الطريق كانت تدعى تلة المدرسة ، في يوم من الأيام كانت هذه التلة كلها ملك لوالد كليوثا ، وقبل أن تبني أية مدرسة على هذه الأرض العزيزة ، كان أفراد عائلته كليوثا يدفنون موتاهم في منتصف الطريق الصاعد إليها .

ساعدها جودي بالنزول من السيارة ، حاول أن يكلمها وهو ممسك بيدها كانت ترتجف ، أطرقت برأسها أمامه ثم بدأت تصعد ببطء . اتجه إلى السيارة وحمل الصندوق الخشبي بكلتا يديه وتبعها .

كانت السيدة لا تشر قد نزلت لتوها من السيارة مشيحة بظهرها ، كأنها تحاول الاختباء ، كانت تمسك محرمتها بيدها ، تحاول السيطرة على أفكارها وتنهداتها وعندما رأت أن أحداً منهم لم ينتظرها ، أسرعت الخطى محاولة بتذلل أن تمسك بيد بادي كي تسير معه ، أعطاها بادي يده وسار معها وهو يراقب والده والهواء يضرب بشعره ويطيره ، أما جودي فكان يبدو من الخلف كالصبي الصغير .

بدا لكليوثا أن رؤياها التي رافقتها في الطريق قد أعطت بعض الفائدة ، عند حاجتها تماماً ، أحست بنعمة التوحد الأعمى مع الحياة وهي تقف أمام هذه المقبرة الصغيرة ،حيث تجمع معظم أصدقائها المقربين وأقربائها على سفح التل الذي بنيت عليه مدرستها أيام الطفولة .

كان الوقت عصراً وكان الجميع راكعين ورؤوسهم للأعلى بينما القسيس كريتندن يقرأ في الكتاب المقدس ، كل شيء اختفى ما عدا ذلك الشعور بالتعبد .

كان هناك صبي ينزل التل قادماً من المدرسة ، يتساءل ما الذي يفعله هؤلاء الناس

الراكعون ، وقفت كليوثا تراقب الصبي النازل من التل كانت أكثر الأشياء التي ترغب أن تتذكرها موجودة اليوم ، فقد استمرت في الحياة مع ابنتها الصغيرة التي تقوم بدفنها الآن والتي تركت لها بعض الفرح في حياتها . كأن تسأل أمها مثلاً هل يستمر الحب إلى الأبد ؟ لاحقت عيون كليوثا الصبي وهو ينزل بتخف من التل محاولاً أن يبعد عنه الأنظار ، كان فضولها الشديد يدفعها لمعرفة ماذا تعني الحياة لمثل هذا الصبي ولمثل الذين سيكونون معه فيما بعد ، احترمت فضوله حول هؤلاء المشيعين الراكعين ، كانت الشمس فوقه وهو ينزل التل ، كل هذه الأشياء بعثت في نفسها غبطة ، كان صدرها مشحوناً بثقل الحدث ولكنه لم يكن حزناً فقط بل دعاءً وتسبيحاً .

«إنني أؤمن . . . أؤمن» كان قلبها يصرخ في جسدها فقد أصبحت تمسك ببذرة الخوخ التي كانت تتحمس لمسكها وهي طفلة ، أصبحت الآن بيدها وهي امرأة وضعت وجهها بين يديها وبكت ، اقترب الجميع منها ، حققت الروح اكتشافاً آخر ، أحس جودي أنها عادت إليهم ، لم يعد ينظر ، لكنه أخذ يتذكر ما حدث بالأمس واستتب له حبه لزوجته ، كأمر لا يستطيع قياسه أو التعبير عنه في كلمات .

١٩٤٤

فلاديير نابوكوف

ذات مرة في حلب...

عن «ذي أتلانتك منثلي»

عزيزي ف .

من بين أشياء أخرى سأكتبها ، أود أن أخبرك أنني أصبحت أخيراً هنا في هذه البلاد التي تغرب فيها الشمس كثيراً . كان من بين أول الأشخاص الذين قابلتهم كان أول من العجوز الطيب جليب الكسندروفيتش جيكو ، رأيته يعبر شارع كولومبوس باتجاه المقهى الصغير على الزاوية والذي لن يزوره أحد منا مرة أخرى . يبدو لي بأنه كان يعتقد أنك بطريقة أو بأخرى خنت أدبنا الوطني . أعطاني عنوانك وهو يهز رأسه الرمادي استهجاناً وكأنك لا تستحق حتى متعة أن تسمع مني .

لدي قصة لك لتكتبها ، مما يذكرني بالأيام التي كتبنا فيها أول أشعارنا الحماسية ، حينما كانت جميع الأشياء حولنا ، الوردة ، النافذة المضاءة ، بركة الماء ... تنادينا لنكتب لها الأشعار ، نعم هذا هو العالم الأفضل ، نلعب ثم نموت .كانت الأرواح الطنانة للأفعال المستخدمة في اللغة الروسية تعطي معنى لحركات الأشجار أو للجرائد المهملة ، التي تتطاير وتختلط ثم تهدأ لتعود وتختلط مرة أخرى ، وتظل تتلاطم بلا نهاية على الحواجز التي تعصف بها الرياح . ولكنني الآن لست بصدد الشعر ، لقد أتيت إليك مثل تلك السيدة المتدفقة العواطف عند تشيكوف والتي كانت

متلهفة لكي تصفها .

لقد تزوجت بعد شهر من مغادرتك فرنسا وبضعة أسابيع قبل اجتياح باريس من قبل الألمان اللطيفين . ورغم أن باستطاعتي أن أبعث لك وثائق تثبت زواجي إلا أنني متأكد الآن أن زوجتي لم تكن موجودة أبداً ، ويمكنك أن تطلع على اسمها من أي مصدر آخر ، ولكن هذا الأمر ليس مهماً . إن اسمها وهم معين يمكنني أن أستعيض عن ذكره في الشرح عنها بالتجرد ذاته الذي أشرح فيه شخصية في قصة (إحدى قصصك على وجه الدقة) .

كان حب من أول لمسة أكثر منه من أول نظرة ، فقد قابلتها عدة مرات في السابق دون أن أشعر بأية عواطف تجاهها . ولكن في إحدى الليالي حصل أمر غريب بينما كنت معها في منزلها . أمر قالته جعلني أقع على الأرض ضاحكاً وأقبلها برقة على شعرها . وطبعاً نحن نعرف جميعاً تلك الهبّة العمياء التي يمكن أن يسببها العثور على دمية صغيرة في أرضية منزل مهجور . فالجندي المتورط في المعركة لا يسمع شيئاً . الأمر بالنسبة له لا يعدو أن يكون امتداداً وجدانياً بلا صوت ولا حدود لما كان يعتبره في حياته إشعاع ضوء يلمع في ظلمته الداخلية . وللحقيقة أن السبب الذي يجعلنا نفكر بالموت ضمن مفاهيم سماوية هو تلك السماء الزرقاء التي تظلل باريس ليلاً بالأقواس المضيئة على بولفار اكسلمانز والضجيج المتواصل لتلك المناطق المعزولة في الألب والتي تعتبر رمزاً مناسبًا ودائم الوجود لهذا الانفجار الصامت الضخم .

ولكن ليس باستطاعتي أن أميزها فهي ستبقى غامضة مثل قصيدتي الأولى ، تلك القصيدة التي جعلت منها أضحوكة كبرى في كتابك الشهير «ليترا تورناي زاييسكي» . عندما أريد أن أتخيلها ، ينجذب فكري نحو تلك الوحمة البنية الصغيرة على ساعدها الناعم الأملس ، و أركز عليها تماماً كما يركز كاتب على نقطة أو فاصلة في جملة صعبة القراءة . ربما كنت أستطيع تخيل وجهها اليوم فقد كانت قد وضعت الكثير من المساحيق . أحاول أن أتخيل تلك الشفتين الشفافتين الناعمتين ولكن عبثاً رغم أنني ما أزال أشعر بلمستها المراوغة بين الفينة والأخرى تدب في صلب إحساساتي العمياء وفي أحلامي العبقة بالتنهدات ، عندما كنا نمسك ببعضنا البعض بدون تعقل وبحرقة قلب ضبابية ، بحيث لا أعود أتمكن من رؤية لون عينيها

بسبب ذلك البريق المنبعث من دموعها التي تطفح حتى تغرق حدقات العيون .

كانت أصغر مني سنًا ، ليس بصغر نتالي ذات الكتفين الجميلتين العاريتين وحلقتي الأذن الطويلتين . أو صديقة بوشكين الأسمر ، و لكنها تعطي هامشاً كافياً لذلك النوع من الرومانطيقية المستعادة التي تجد لذتها في تقليد مصيري عبقري فذ حتى لا يعود المرء بعدها يستطيع تقليد شعره . كانت تحب شعري ولو أنها بقيت كشبح بالنسبة لي . أعتقد أن حبها لشعري كان بسبب ذلك الغموض الذي فيه ، كأن تحفر حفرة في قناعك و ترى وجهاً غريباً غير مرغوب فيه .

وكما تعلم ، كنت أخطط منذ مدة لهذه السفرة المحظوظة ، لقد وصفت لي عمّها الذي كان يعيش هنا ، تعلم ركوب الخيل في الكلية الجنوبية وانتهى به الأمر إلى الزواج من امرأة أمريكية ثرية أنجب منها ابنة ولدت صماء . أخبرتني أنها فقدت عنوانه منذ مدة طويلة ، و لكنها عثرت عليه بأعجوبة قبل بضعة أيام ، كتبنا له رسالة مؤثرة ولكننا لم نتلق أي رد . الأمر لا يهم لأني تسلمت للتو شهادة خطية من أجل قراءة القسم من البروفيسور لومنشكو في شيكاغو . ولكن الغزو الألماني بدء قبل أن ننهي تحضير الأوراق الضرورية . لقد توقعت أننا لو بقينا في باريس فربما يقوم أحد مواطنيّ الأعزاء بالإشارة إلى المقاطع الحزبية المتعددة في إحدى كتاباتي ، التي كنت أناقش فيها أن ألمانيا مع سجلها الأسود كان لا بد لها أن تبقى و إلى الأبد مثار سخرية العالم .

بعد ذلك بدأنا شهر عسلنا المشؤوم ، محطمين و مهزوزين إثر هذه الهجرة الاضطرارية الغامضة المصير . نلاحق قطارات بدون مواعيد ، ونذهب في اتجاهات مجهولة داخل مدن مبتذلة . ندمن على الإرهاق الجسدي ، قمنا بالهرب وكنا كلما ابتعدنا أكثر يتبين لنا بوضوح أن ما كان يدفعنا للهرب لم يكن حمقاً بل كان الحمق رمزه فقط . كان شيئاً رهيباً لا يمكن إدراكه بالحس .كان كتلة من الرعب القديم الذي لا زمن له و لا وجه ، عاد ليسكننا منذ القدم إلى هنا وإلى هذا الفراغ الأخضر في الحديقة المركزية .

أما هي فقد تحملت الأمر بجذل و غبطة إلا أنها بدأت تتنهد بطريقة تثير الشفقة . كانت تقول «الكلب ، الكلب . . لقد تركناه وراءنا ولا أستطيع أن أنسى منظر هذا

الكلب المسكين» . صعقت من صدق حزنها ، إلا أننا لم نكن نملك كلباً على الإطلاق . قالت «أنا اعرف ذلك و لكني أحاول أن أتخيل أننا اشترينا كلباً مثل هذا ، تخيله الآن و هو يحوم حول أبواب مغلقة» . لم نكن حتى قد تحدثنا في السابق عن شراء كلب .

لا أود أن أنسى أيضاً ذكر مشهد عائلة من اللاجئين (امرأتان و طفل) . كانوا يعبرون الشارع بعدما مات والدهم أو ربما جدهم على الطريق . كانت الغيوم السوداء و الملونة تزرع السماء بشكل فوضوي ، وأشعة الشمس تبرز بقبح خلف التلة المغطاة بالأشجار .كان الرجل الميت ممدداً على ظهره في ظل شجرة مغبرة جرداء . حاولت النسوة حفر قبراً له على جانب الطريق بأيديهن وبعصاة كنّ يحملنها ولكن التربة كانت قاسية ، عندما يئسن من الأمر ، جلسن جنباً إلى جنب بين شجر الخشخاش الذابل بعيداً عن الجثة قليلاً . و لكن الصبي استمر بالحفر إلى أن اصطدم بحجر مبسط ، و عندها نسي الهدف من حفرياته و جثم على ركبتيه حتى برزت عظام رقبته ، و هو يرقب في أسفل الحجر فريقاً من النمل ، الآلاف منها تدب وتتوزع هاربة إلى أماكن آمنة . أماكن مثل غارد واود ودروم وفار وباس-بيرينيه . وحيث توقفنا نحن أيضاً في بو .

كانت الحياة في أسبانيا صعبة للغاية ، قررنا الانتقال إلى نيس بالقطار . في الطريق توقف القطار بنا في مكان يدعى فيوجيري لمدة عشر دقائق . نزلت لأشتري بعض الطعام وعندما عدت بعد دقيقتين كان القطار قد غادر ، و عندما أبديت احتجاجي لدى المسؤول العجوز في المحطة رد علي بجلافة أنني على كل حال ما كان من المفروض أن أخرج من القطار .

في عالم أفضل من هذا ، ربما كنت استطعت الاتصال بزوجتي و تحديد مكانها ، فقد ظلت النقود والتذاكر في جيبي ، وجربت كابوس الاتصال الهاتفي فلم أفلح لذلك قمت بإرسال ثلاث برقيات ثم ركبت القطار المحلي ليلاً إلى مونبيلير لعلمي أن القطار الذي يقل زوجتي لن يصل إلى أبعد منها .

لم أجدها هناك ؛ ولم يبق أمامي سوى خيارين أحدهما أن أواصل الطريق إلى مرسيليا التي تجاوزني قطارها منذ لحظات و الآخر أن أعود إلى فوجيريس ، ولا أذكر

الآن ما هو المنطق الذي جعلني اتبع الخيار الأول .

فيما عدا إرسال بعض المعلومات الخاطئة لم تساعدني الشرطة في شيء ؛ بل على العكس نهرني أحدهم بسبب كثرة إزعاجي ، وتنطح آخر يشكك في شهادة زواجي لأنها كانت مختومة على الجانب الخطأ ، أما الثالث وهو بدين ذو عيون بنية فقد استغل الوضع لإبلاغي أنه يكتب الشعر في أوقات فراغه . سألت بعض معارفي من الروس المقيمين في نيس و سمعت من بعضهم ممن صدف وكانوا من اليهود قصصاً عن أقارب أُحرِقوا في القطارات ، فوجدت أن إخبارهم عن محنتي أصبح أمراً غير واقعي أمام مثل هذه الأحداث الجسام ، لذلك جلست على شاطئ البحر في ذلك المقهى المزدحم اسمع حولي قصصاً وأحاديث عن المآسي والمذابح التي تدور حولنا وعن الجنة الرمادية خلف المحيط وعن نزوات الحكام الظالمين .

بعد أسبوع من وصولي ناداني رجل كسول رث الثياب و اصطحبني معه إلى شارع تنبعث منه روائح كريهة ، ثم أدخلني إلى منزل مطلي باللون الأسود كتب على بابه كلمة بالكاد تقرأ ، لكثرة ما علق بها من قذارة . فهمت منها أنها «فندق» وهناك أبلغني أنه عثر على زوجتي ، ومن ثم أحضرت لي فتاة غريبة تماماً عني ولكن السيد هولمز أصر عليها لبعض الوقت لكي تعترف أنها زوجتي بينما وقف قوادها ذو العضلات المفتولة صامتاً بجانبي . كان يصغي فقط عاقداً ذراعيه المكشوفتين على صدره البارز .

وأخيراً بعد أن نجحت في التخلص من هؤلاء الناس عدت أدراجي إلى الحي الذي كنت فيه . شاهدت طابوراً من الناس يقفون أمام مدخل محل لبيع الأطعمة وهناك في أخر الطابور عثرت على زوجتي . كانت تحاول أن تقف على أطراف أصابعها لكي ترى ما الذي يباع في ذلك المحل ، وأظن أن أول كلمة قالتها لي كانت :«أتمنى أن يكون بين ما يبيعونه بعض البرتقال» . كانت قصتها مهزوزة ولكنها سخيفه تماماً . قالت أنها عادت إلى فويجيري وذهبت مباشرة إلى الشرطة بدلاً من السؤال عني في المحطة حيث كنت قد تركت لها رسالة ، من ثم دعاها بعض اللاجئين للذهاب معهم وهناك قضت الليل في مكان لبيع الدراجات لا توجد فيه دراجات . كانت هناك ثلاث نساء عجائز ينمن على الأرضية في صف واحد مثل

ألواح خشب وفي اليوم التالي أدركت أنها لا تملك نقوداً كافية للسفر إلى نيس ، لذلك استدانت بعض النقود من إحدى هذه الألواح ، إلا أنها ركبت القطار الخطأ الذي أوصلها إلى بلدة لا تتذكر اسمها . وصلت إلى نيس منذ يومين وعثرت على بعض الأصدقاء في الكنيسة الروسية الذين أخبروها بدورهم أنني موجود في الجوار أبحث عنها ولابد أن أظهر قريباً .

وفي وقت متأخر بينما كنت جالساً معها على طرف الكرسي الوحيد الموجود في الحجرة ممسكاً بها من خصرها الرقيق ، انقلبت ابتسامتها الباهتة فجأة وبدأت ترتجف وهي تضع يدها على كتفي وتحدق بي كما لو أنني كنت انعكاساً في بركة ماء تشاهده للمرة الأولى .

«لقد كذبت عليك يا عزيزي» قالت لي : «لقد بقيت عدة ليالٍ في مونبيلييه مع رجل شهواني قابلته في القطار كان بائعاً جوالاً يبيع مطرياً للشعر . لم أكن أريد ذلك ولكن هذا ما حصل» . قضيت تلك الليلة وبعدها العديد من الليالي ، أحاول أن أخرجها من رأسي قطعة قطعة ، لم أستطع فعل ذلك . كنت أعيش في وهم غريب من أنني يجب أولاً أن أعرف كل التفاصيل ، وأن أعيد تركيب كل دقيقة مرت ، ومن ثم أقرر إذا ما كنت أستطيع تحمل الأمر أم لا . ولكن حدود الرغبة في المعرفة كانت صعبة الإدراك ، لم أستطع أن أصل إلى الحد الأقرب الذي يمكن أن أتخيل فيه نفسي راضياً لأن القاسم المشترك بين جميع أجزاء المعرفة كان بلا حدود تماماً ، كما هو الرقم الكسري بين الأجزاء نفسها في المرة الأولى .كانت تعبة جداً لتقول شيئاً وفي اليوم الذي تلاه لم تتعهد بشيء ، لأنها كانت واثقة أنني هجرتها . كانت تدرك أن مثل هذه التفسيرات يجب أن تكون على شكل جائزة تعزية لي ، بدلاً من هذا الهراء والألم الذي تمثله . استمر هذا الأمر إلى مالا نهاية ،كانت تنهار من حين لآخر ثم تعود لتجيب على أسئلتي الشفهية بهمس متقطع الأنفاس ، ترد أحياناً بابتسامة مثيرة للشفقة في محاولة للتملص من تعليقاتي التي لا علاقة لها بالموضوع وأنا أصك على أسناني طوال الوقت حتى كاد فكي ينفجر من الألم . ولكن هذا الألم كان مقبولاً أكثر بكثير من ذلك الألم الصامت الناتج عن تحملي المتواضع لما قامت به .

وسجل هنا ... أننا بين الفترة التي تخللت هذا التحقيق، كنا نحاول انتزاع بعض الأوراق من تلك السلطات المترددة من أجل استخدامها في إصدار أوراق قانونية أخرى، تساعدنا على إيجاد موطئ قدم في مكان آخر، نستطيع فيه تقديمها والحصول على أوراق أخرى تساعد على امتلاك وسائل نكشف من خلالها كيف ولماذا حدث ما حدث. كنت أستطيع أن أتخيل هذا المشهد المتكرر ولكني فشلت في ربط ظلال زواياه الحادة البشعة مع وضع زوجتي التي كانت أطرافها تذوب وترتجف في رحى قبضتي الغاضبة.

هناك. لم يتبقّ لنا شيء نفعله سوى تعذيب بعضنا البعض، وانتظار الساعات للوقوف أمام مكاتب تعبئة النماذج، والتشاور مع الأصدقاء الذين سبق وخاضوا تجربة تقديم طلبات التأشيرات، متوسلين السكرتيرات ومعبئين المزيد من النماذج، إلى أن انتهى الأمر بأن أصبح رجلها الشهواني المتجول منغمساً في مزيج رهيب من مسؤولين غاضبين، وأكوام عفنة من السجلات المهملة وروائح الحبر الليلكي والرشوات التي تمرر ضمن الأوراق الملطخة بالحبر والذباب الضخم الذي يوخز بأقدامه الخفيفة الباردة رقابنا المعرقة والصور الغوغائية الحديثة، بنسخها الست والعيون الصبورة المتألمة للمراجعين المتوسلين الذين ولدوا في ستلوتسك أو ستارودب أو بوبرسيك؛ وأخيراً لا آخراً الابتسامة المأساوية للرجل الأصلع الذي يضع نظارات على عينيه وقد أخبروه للتو أنهم لم يتمكنوا من العثور على جواز سفره.

أعترف أنني وفي إحدى الأمسيات، وبعد انتهاء يوم بغيض، غصت في مقعد حجري أبكي وألعن هذا العالم المخادع الذي يتقاذف فيه المسؤولون والشرطة ملايين البشر بين أيديهم القذرة المجرمة. حين لاحظت أنها تشاطرني البكاء، أخبرتها أن الأمر كان يمكن أن يكون أخف وطأة لو لم تفعل الذي فعلته، أجابتني بعنف جعلني أعتقد للوهلة أنها جدية: «سوف تظنني مجنونة ولكنني أقسم أنني لم افعلها وربما أني أعيش أكثر من حياة في حياة واحدة، ربما أردت أن أمتحنك فقط أو ربما يكون هذا المقعد حلماً أو إننا موجودون في ساراتوف أو فوق إحدى النجوم !!».

من غير المجدي الإسهاب في شرح المراحل المختلفة التي اضطررت للمرور بها قبل أن أتقبل أخيراً التفسير الأول لتأخرها. لم أتكلم معها وأصبح الأمر بيننا شبه اتفاق

حل وسط . كانت تومض أحياناً وتذوي أحياناً أخرى ، ثم تبرز بفكرة سخيفة تظن أنني أقدرها مثل حبات كرز أو ثلاث سجائر ثمينة أو ما شابه .كانت تعاملني بعذوبة صامتة كما تعامل الممرضة الحنونة مريضها العنيد المتماثل للشفاء . انقطعت عن زيارة معظم أصدقائنا المشتركين ، بسبب مللهم من الحديث عن جوازات السفر ، حيث أداروا ظهرهم لنا بطريقة غير ودية . كتبت بعض الأشعار واحتسيت كل ما وقعت عليه يداي من النبيذ ، ضممتها في إحدى الأيام إلى صدري المتأوه و ذهبنا لقضاء أسبوع على الشاطئ الضيق في كابول . قد تجد غرابة لو قلت لك أنني صرت كلما ازدادت علاقتنا سعادة شعرت بحزن خفي ينتابني ولكنني بقيت أعزي نفسي أن هذا الأمر هو تعبير غريزي عن السعادة الحقيقية .

في نفس الوقت ، وقع شيء قلب نمط مصيرنا و خرجت أخيراً من أحد هذه المكاتب الحارة المظلمة بتأشيرتي خروج حملتهما ويداي ترتجفان . كانت تعبق منها رائحة أمريكا . هرعت إلى مرسيليا وقطعت تذكرتي سفر على الباخرة التالية . عندما عدت إلى المنزل صعدت الدرج لأجد أمامي وردة موضوعة في الآنية التي على الطاولة ، وردة جميلة ، ما تزال فقاعات الهواء ملتصقة بساقها ·· بحثت في المنزل فلم أعثر على الثوبين الاحتياطيين اللذين كانت تحبهما ، حتى مشطها ومعطفها اختفيا ·· وقبعتها الليلكيه أيضاً . لم تكن هناك أية ملاحظة على المخدة ولا حتى أي أثر في الغرفة يرشدني إلى أين ذهبت ، فقط تلك الوردة التي يسميها الشعراء الفرنسيون «علاقة»

ذهبت لزيارة عائلة فيرتيننكوف علهم يخبروني شيئاً ، وإلى عائلة هيلمانز الذين رفضوا أن يدلوا بأي شيء ، وإلى عائلة الاغواني الذين لم يكونوا واثقين هل يخبروني أم لا وأخيراً جاءت تلك المرأة العجوز ··· هل تذكر آنا فلاديروفنا التي تظهر لك في أحرج الأوقات ·· هي مثلها ··· اصطحبتني إلى الحديقة بعد أن حملت عصاها وانتزعت جسمها الثقيل من كرسيها الضخم وهناك أبلغتني أنها وبصفتها أكبر مني سناً تستطيع أن تقول لي أنني وغد غبي !

وما عليك يا عزيزي «ف» إلا أن تتخيل المشهد ، تلك الحديقة المغطاة بالحصى الصغيرة والتي تنتشر فيها الجرار العربية الزرقاء وشجرة السرو اليتيمة وتلك الشرفة

المتصدعة ، حيث كان والد العجوز يستلقي مرخياً لحافه على ركبتيه عندما تقاعد من حاكمية نوفكورود ليقضي عدة أمسيات في نيس ، السماء الخضراء الباهتة ، رائحة الفانيلا التي تفح وسط هذا الظلام الدامس ، قرقعة الصراصير التي تغني بأنماط شعرية راقية وأخيراً آنافلاديميروفنا بخديها المتدليين وهي تمطرني بعبارات التوبيخ تماماً كما توبخ أم ابنها .

في الأسابيع التي تلت يا عزيزي «ف» كانت زوجتي كلما قامت بزيارة لتلك العائلات الثلاثة أو الأربعة التي نعرفها ، تملأ آذانهم المتفتحة بقصص عجيبة غريبة ، أذكر منها أنها عاشت حباً عاصفاً مع شاب فرنسي أسكنها في منزل ذي أبراج وقدم لها اسماً لامعاً وأنها توسلت إلي كي أطلقها ولكني رفضت ، وهددتها أنني أفضل أن أقتلها وأقتل نفسي على أن أرحل إلى نيويورك بدونها ، وأنها قالت لي حينذاك أن والدها قد تصرف بشهامة في موقف مماثل وأنني أجبتها أنني لا أعير أي اهتمام لوالدها هذا .

كانت هناك قصص أخرى عجيبة من هذا النوع ولكنها كانت محبوكة بطريقة فنية رائعة جعلت تلك المرأة العجوز تجبرني أن أقسم أنني لن ألاحق هذين العاشقين بمسدسي اللئيم ، قالت لي إنهما ذهبا إلى قصر لوزيير . ولكنني لما بحثت في الأمر وجدت أنها لم تعرف حتى هذا الرجل ولكن أحدهم أطلعها على صورته .

وبينما كنت في طريقي للمغادرة ظهرت آنافلاديميرووفنا فجأة ، وكانت قد أخذت بعض الراحة قبل ذاك ومدت إليّ أصابعها السمينة لكي أقبلها وأخذت تضرب الحصى بعصاها ثم قالت لي بصوت أجش عميق : «شيء واحد لن أغفره لك ، ذلك الكلب المسكين الذي كان بحوزتها ، لماذا قمت بدق عنقه بيديك قبل أن تغادرا باريس» ؟!!

حتى لو تحول رجلها الشهواني إلى بائع متجول ، أو أن هذا التحول كان معكوساً أو هذا أو ذاك لم يحصل ، إلا أن هذا الشاب الروسي الذي كان يتودد إليها قبل الزواج لم يعد ضرورياً أبداً ، أما هي فقد اختفت .كانت هذه هي النهاية . لابد أنني كنت أحمق لأقحم نفسي في كابوس البحث عنها أو انتظارها مرة أخرى .

في اليوم الرابع من رحلتي البحرية الطويلة ، التقيت على سطح السفينة طبيباً

عجوزاً لطيفاً كنت أحياناً ألعب معه الشطرنج في باريس وسألني إذا ما كانت زوجتي تنزعج من سفر البحر وأجبته أنني مسافر لوحدي ، دهش لأنه حين سألها عن حالها قبل يومين ، أخبرته أنني سأنضم إليها للسفر بعد أن أحضر الأمتعة والتذاكر .

هذه هي على ما أظن القطعة الرئيسية في القصة كلها ، فقد تأكدت منذ هذه اللحظة أنها لم تكن موجودة أبداً ، وسوف أخبرك شيئاً آخر عندما وصلت انطلقت مسرعاً أشبع فضولاً تولد لدي ، ذهبت إلى العنوان الذي أعطتني إياه مرة وتبين أنه فجوة مجهولة بين بنايتين بحثت عن اسم عمها في الدليل فلم أعثر عليه أبداً .عندها قمت بإجراء بعض التحقيقات وأخبرني جيكو الذي يعرف تقريباً كل شيء أن الرجل و زوجته كانا موجودين ، و لكنهما انتقلا للعيش في سان فرانسيسكو بعد وفاة ابنتهما الصماء .

عندما أحاول أن تصور ما حدث في الماضي ، أرى تلك العلاقة الرومانسية و قد لفها واد سحيق في ضباب كثيف . لم تكن حياتي حقيقية قبل الآن و لكني أقدر أنها ستصبح كذلك منذ الآن وصاعداً . ربما غداً و ربما بعد غد . . . . .

أما أنت أيها الإنسان السعيد الفاني وعائلتك المحبة . (كيف حال اينيس والتوأم) . وعملك المتشعب (كيف تسير أمور الاشنة) إني لا أتوقع منك أن تفسر لي هذا الحظ العاثر ضمن تعابير إنسانية ولكن يمكنك أن توضح لي الأمور بطريقتك الفنية .

إلا أن الحزن في الأمر كله . . . لعنة الله على فنك . . . أنني حزين من الداخل ؛ فما تزال هي تروح و تغدو في رأسي ، كلما علقت شباك الصيد لتجف على الأحجار الساخنة ، وكلما سبح ضوء الشمس إلى جانب مركب الصيد في البحيرة . هناك في مكان ما ، قمت بارتكاب خطأ قاتل . هناك بقايا أسماك محطمة باهته تظهر بين الفينة و الأخرى بين البنية اللون ، ربما ينتهي الأمر في حلب إذا لم أنتبه له . احفظ عني يا عزيزي «ف» سوف تورط نفسك في أمر لا يحتمل ، حال استعارة هذه الكلمات عنواناً لقصتك .

١٩٤٧

جين ستافورد

القلعة الداخلية

عن «بارتيزان ريڤيو»

كانت بانسي ڤانيمان تعالج من جراح أصيبت بها نتيجة حادث سير، وهي تستيقظ غالباً قبل الفجر، فيما أصوات المستشفى في الليل ما تزال تسمع من خلال باب غرفتها النصف مغلق. خلال النهار كانت تسمع الممرضات وهن يثرثرن بصوت عال مع الأطباء، أو يتضاحكن بلا رادع غير آبهات للأصوات المزعجة التي تصدر عن دعسات أحذيتهن على أرضية المستشفى. كان روتين العمل في المستشفى يسير عادياً في النهار كما في مصنع أو مصرف. لكن حين يحل الليل تصبح أصوات قرقعة الأوعية وأنات المرضى الذين بدأ مفعول المورفين يتلاشى من أجسادهم، وصرير دواليب النقالات وهي تتحرك عبر ممرات الطوارئ كأنها نذر للموت والأسى.

استفاقت بانسي قبل طلوع النهار بوقت طويل، ووجدت نفسها في مكان خيل إليها أنها تسمع منه جميع شكاوي المرضى الذين ينازعون الموت. كان هناك ضوء ينعكس على أرضية السرير المجاور لها. كانت جارتها تحتضر وبجانبها يقف قسيس يمسح رأسها بالزيت. عجوز في منتهى القبح تعاني من أزمة شديدة، لم تكن بانسي تسمع إلا صوت صراعها من أجل التقاط ما تبقى من أنفاسها، فقد طغى هذا الصوت على كل الأصوات الأخرى المنبعثة منها. كان هناك رجلان في أواسط العمر راكعين بجانب السرير وقد التف كل منهما بمعطف، أما المرأة العجوز فكانت تهذي

بالصلوات وراء القس وتمسك بمسبحتها التي حاولت أن تضعها في فمها عدة مرات ولم تستطع .

لم تشعر بانسي بالشفقة على العجوز ، تملكها رعب شديد ، مضت ساعة من الوقت ثم أطفأت أنوار السقف وانقلبت كل الوجوه واللحف والأيادي التي كانت تتحرك تحتها إلى هدوء رمادي ، سحب المرأة العجوز على كرسي متحرك لكي تنام نومتها الأخيرة في مكان آخر . لم تستوعب بانسي تماماً ما حدث بل استمرت تحدق في السرير الفارغ الذي تم استبداله .

في اليوم التالي استيقظت بانسي قبل طلوع الفجر ، وجدت نفسها هذه المرة في غرفة خاصة ، راحت تستذكر تلك المرأة العجوز في حزن فقط . كان يمكن أن تصبح صديقة لها ، أجهشت بالبكاء عندما تذكرت سائق التاكسي الذي أقلها والذي جرح في الحادث وتوفي ظهر اليوم السابق حيث تم إبلاغها بوفاته بينما هي ممددة على النقالة في الممر بانتظار تصويرها بالأشعة ، مر بها أحد الأطباء حينئذ وابتسم لها قائلاً : «لقد توفي سائق التاكسي الذي كان يقلك ، لقد كنت محظوظة»

مرت ستة أسابيع على الحادث ، استيقظت بانسي بينما كان ضوء النهار يتسلل إلى الغرفة في مسحة جانبية مضيئة ، مضت دقيقة أو دقيقتان قبل أن تدرك لماذا لا ترغب بأن تستيقظ ، ولماذا يتصاعد قلقها اليوم إلى حد الإنذار ؟ تذكرت أنها تنتظر اليوم إجراء عملية جراحية في الأنف ، استلقت باستقامة تحت لحافها القطني دون أن تأتي بحركة ، أخذت تحدق من خلال النافذة بعيون صبغها الدم باللون الأحمر .

نظرت إلى النهر المتجمد وأشجار الدردار العارية وإلى الساحة الرمادية المنبسطة أمامها . كانت الكلاب تلعب على أطرافها الرطبة بينما يتعثر أصحابها المدججين بالثياب ، وهم يركضون خلفها وقد ترك النعاس والبرد أثرهما على أنظارهم ، كان المستشفى دافئاً ولكن هذا لم يمنع بانسي من الإحساس بشدة البرد في الخارج ، كانت أغصان الأشجار تبدو متصلبة ولون البنايات أحمر شاحباً كأنها كيس مثقوب .

تغير المشهد قليلاً بعد ستة أسابيع ، لم تعد السماء تبدو حمراء عند الغروب ، والأشجار لم تعد تورق ثانية ، لم تذكر بانسي فصلاً مر عليها سابقاً بهذا الجمود حتى الدقائق بدت وكأنها تسقط من ساعة الحائط المواجهة لضوء القمر ، متقعة بلون

الشتاء الشاحب ، كذلك الغرفة نفسها لم يتغير فيها شيء ، يوم بعد يوم نمت على رف مرآة الخزانة الزجاجية بعض نباتات الزينة ، المحاطة ببطاقات التهنئة بالسلامة والتي وصلت إليها بالبريد من الأحباء البعيدين ، كانت نباتات قوية ، إذ كلما سقطت ورقة من أوراقها استعادتها بسرعة ، فقد كانت جذورها مصممة على الصمود . الطاولة بجانب سريرها كانت تغطى كل يوم بمنشفة بيضاء نظيفة ، وضع عليها إبريق من الماء مع كأس وبضعة محارم ورق .

كان هناك عدة رسائل في الجرّار إضافة إلى فرشاة للشعر وبعض البطاقات البريدية ، التي كانت تكتب عليها من وقت لآخر ، رسائل مختصرة للأقارب والأصدقاء : «يقول (د .ناش استجابتها أصبحت ممتازة أما د . ريفرز فيؤكد أن الكسور الأمامية ، قد شفيت جميعها بينما أصبحت الكسور الخلفية في وضع أفضل أما د . نيكولاس وهو الطبيب المشرف على كسور الأنف ، سيقوم بإجراء العملية مباشرة بعد أن يعطيه د . ريفرز إشارة الموافقة .

كان سرير بانسي مرتباً رغم فترة النقاهة الطويلة التي مرت بها ، لم يكن متوقعاً من بانسي على أي حال . أن تقلب المخدات أو توقع اللحف على الأرض ، فقد بقيت مسمرة في سريرها بعناد ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم ، دون حراك وكأن جسدها قطعة من قطع الأثاث الموجودة في الغرفة ، كان الصمت الشديد الذي يظللها طوال الوقت إضافة إلى إحجامها عن الكلام ، يترك الممرضات في شك من كونها تعاني من غيبوبة أخيرة ، بعضهن كن يشفقن على مثل هذه الفتاة المتلهفة للحياة من أن تموت ، كن يوبخنها من وقت لوقت لاعتقادهن أنه ضعف في معنوياتها ، فإصابة السير مهما بلغت خطورتها ، ليست سبباً كافياً للاستسلام وفقدان الرغبة في الحياة ، لم تكن بانسي تملك المروءة الكافية لتشكر ربها إذ إنها كان من الممكن أن تموت ، بدلاً من السائق الذي قضى بطريقة بشعة مرعبة ، جاءت بانسي من مدينة بعيدة . كانت لا تزال في الخامسة والعشرين وكان واضحاً أنها لم تمض وقتاً طويلاً في هذا المستشفى بعد ، إذ إنها لم تكن تستقبل زواراً كثيرين . كان الأمر في البداية مثار شفقة للممرضات ، تحول فيما بعد إلى مصدر للقلق . هل يعقل أن يعيش إنسان في مثل هذا الخوف وحده ؟ لم يكن من الممكن أن يسخر منها أحد ، لأنها لم تكن

سخيفة أبداً ، أما طلباتها فلم يشك منها أحد أيضاً لأنها أساساً لم تكن تطلب شيئاً ، كما أن أحداً لم يكرهها رغم لسانها اللاذع وتكبرها ، إلا أنها في الوقت نفسه لم تلق الإعجاب من أحد لشجاعتها وسرعة بديهتها أو لاهتمامها بالناس حولها ، كان من المعتقد لدى الجميع أنها شخصية متعجرفة ومخيفة .

أما بانسي من جهتها فقد كانت تشعر في قرارة نفسها باللذة في إثارة أعصاب الحاضرين حولها ، وكلما ازداد إطراؤهم لها بإحضار الهدايا والمجلات وحتى الراديو الذي يمكنها استئجاره من المستشفى ، ازداد انسحابها منهم وانغلاقها على نفسها في عالم خلقته هي على مدى الساعات الطويلة التي قضتها هنا ، عالم لا يمكن لأحد أن يتخيله أو أن يقتحمه ، وفي أحيان كثيرة ترد على أسئلة الممرضات بينما هن يفركن ظهرها بالكحول أو يحادثنها بتواصل ، كانت تقف بعيدة عنهن أميالاً عديدة ، لم تكن تشعر أنها أعلى منهن منزلة ، إنما تختلف عنهن . في هذا الوقت بالذات لم تكن تملك القوة الكافية لكي تهدرها على توثيق العلاقة بهن وزيادة شهرتها بينهن .

كان كل ما حصل معها في السابق حتى ذكرياتها التي كانت تستخدمها في كسر رتابة الأعمال الصباحية ، وما علق بهذه الذكريات من معانٍ للماضي غير وارد في دائرة اهتماماتها في الوقت الحاضر ، لم تكن تعطي لهذه الذّكريات حتى دقيقة واحدة من تفكيرها . كانت تلك الذكريات تأتي في صور غير واضحة ومنفصلة عن بعضها البعض ، كانت على سبيل المثال ترى أمها النحيفة القوام ، والتي كانت تزداد نحفاً و شاعريه ، تجلس على كرسيها المتحرك وهي تقرأ قصة للاروخ ، رأت نفسها ترتدي قبعة وردية اللون لا تلائمها . كانت تشرب الشاي المثلج في حديقة تفوح منها رائحة القبس لدرجة غطت على نكهة الشاي نفسه ، تذكرت عصر يوم خريفي في فيرمونت عندما سمعت نباح كلاب ثلاثة في الغابات الشمالية ، استطاعت أن تدرك أنهم عثروا على طريدة ما ، كانت السماء زهرية اللون في الشرق وهياكل الأشجار تبدو في الأفق ، كأنها جهاز هضمي مرسوم على ورقة ملونة .

كان ما يشغل بال بانسي كل الوقت هو دماغها ، كمركز للضمير بل كعضو في الجسم ينظر إليه بطريقة رومانطيقية ، كأنه جوهرة أو وردة أو نور يطل من الزجاج أو مجلد ورقي ، يحتوي على مغلفات تتداخل بعضها ببعض ثم تختفي ، كان دائماً

زهري اللون ، رقيقاً ، عميقاً نحو الداخل ، ولا يقدر بثمن . كانت بانسي تعتقد أنها وصلت إلى آخر الغرف الداخلية للمعرفة ، وأن معرفتها أصبحت بمستوى الحب الخالص الموجود فقط لدى القديسين ، كانت تقول إن التقاليد فقط هي التي صنعت كلمة «القلب المقدس» بدلاً من كلمة «الدماغ المقدس» .

كان اللون الزهري غالباً ما يسبب لها الاضطراب ، إذ تبدأ بتخيل صورتها وهي تقوم بتعليق القبعة الخطأ أمام عيون دماغها ، لم ترتد أي من الفتيات الأخريات قبعات مثل هذه ، لكنهن مع حلول الخريف هذا العام ارتدين الألوان البنية والخضراء والصفراء الغامقة ، في حين ظلت بانسي التعسة ، ترتدي عباءة كعباءة الرهبان مثقوبة الطرف ولها رباط أسود حول العنق . عندما عبرت المدخل تحت القوس . كانت مشبعة بروح المتعة الممزوجة بالألم إذ رأت أن أحداً لم يسمع باسمها من قبل ، كادت أن تعود أدراجها ولكن السيد أوليفر كان هناك ، كانت تحبه رغم أنه يكبرها بعشرة سنوات ، لم يبد أي اهتمام يذكر بها إلا حين سألها مرة بحماقة ، لكن بصوت دافئ حنون إذا كان صياح بائع المحار المتجول قد جعلها تتمنى زيارة سويسرا ؟ للحقيقة كان هناك الكثير مما يستحق النظر في هذا السؤال ، فقد علمت بانسي بعد مرور بضعة أيام أن السيد أوليفر هذا . كان غنياً جداً ويملك شقة في جنيف ، خاطبها ذلك اليوم في الحديقة مرة واحدة ، قال لها يا عزيزتي إنك تشبهين تماماً شيئاً في كاترين مانسفيلد ، ثم أدار ظهره وسمعته يدعو بياتريس شيربورن إلى العشاء معه في نادي المقاطعة ، بعد ذلك نزلت بانسي إلى البحر ورمت تلك القبعة الجميلة فوق الموج ، ظلت تراقبها وهي تختفي في إثر سفينة صيد كانت تمر بذلك المكان ، بعد ذلك عادت إلى البيت وأقفلت الباب إثر سماعها صوت بائع المحار المتجول القادم من أسفل الطريق . عندما توقف قرع الباب ، نادتها أمها من على الكرسي الطويل «من كان ذلك يا عزيزتي» فأجابتها بانسي «بائع ما» .

كانت الحقيقة التي تقلقها هي كون القبعة زهرية اللون ، أما باقي ذكرياتها فلم تكن بذات أهمية ، كانت تعلم أنها مهما أحبت أشياء وتعلقت بها ، فلن يكون هذا الحب بمستوى حبها لروح بانسي فانيمان المحبوسة بداخلها .

ولكن دراستها هذه لم تكن تمر دون تشويش ، فقد كانت بانسي تواجه عدوين

هما الألم ودكتور نيقولاس ، لم يكن الأخير يقلقها ، لأنها كانت تدافع عن نفسها في مواجهته ببساطة مشوبة ببعض الخوف ، أما الألم فكان خارجاً عن قدراتها . كانت ترى نفسها في مواجهته كطفل وسط مقبرة يرتعد من الخوف .

كان الطبيب نيكولاس يبدي إعجابه بأنفها المحطم الذي كان يعالجه ويراقبه يومياً ويردد دائماً ، أنه لم يرى بحياته شيئاً مثيله أبداً ، كانت يداه تتوقان لاستعمال أدوات الجراحة الحادة ، ولم يكن يبدي صبراً تجاه أي تأخير في إجراء جراحة كسور الجماجم . كان يذكر أنفها كأنه شيء يخصه ويشير إليه بكلمة أنفنا ، سوف نصبح شخصاً جديداً عندما نعاود القدرة على التنفس من جديد» ، أما أنفه الرهيب فقد كان دليلاً على مهنته ، إذ لا يوجد أي نوع من الجراحة يستطيع أن يصلح أنفاً مثل هذا «ولا حتى نحات من الطراز الأول يمكنه أن ينحت أنفاً له مثل هذا الخط المنحدر الذي يكاد لا يسمح في آخره إلا بأقل قدر من الانحراف نحو الداخل ، تلك الانحدارات الجانبية المتكورة بدقة والمغلفة بغلاف رقيق ينتهي إلى فتحتين لمنخرين متوازنين تماماً ، لم تكن الآنسة فينيمان تشك في موهبته وإنسانيته فقد كان شخصاً مشهوراً ، لكنها تتساءل دائماً إذا كان يملك أي نوع من الخيال .

كان كنزها الثمين يقع مباشرة تحت حد منظاره الطبي ، كان كنزاً لم يكن هو ليقدر ثمنه بأكثر من تقدير الممرضات حوله ، كانت تعتقد أنه لن يستطيع تدميره لكنها كانت تخشى من تشويهه أو ترك خدوش أبدية على تلك الجوهرة ، كأن يجرح الوردة مثلاً أو يلطخ الزجاج الذي يدخل منه الضوء أو يترك بقعاً قذرة على المغلفات المتداخلة ببعضها البعض ، ربما حينها قد تموت أو تفقد عقلها .

لم تكن تتساءل عن قيمة هذا الأمر ، بالقدر الذي كان عقلها يسترجع بعد فترة اعتقاده بخلوها من الأخطاء ، فهي لا تريد أن تدخل في التفكير بالأبدية ، لأنها لم تكن متأكدة من قدرتها على المحافظة على معرفتها وما تحتويه تلك المعرفة .

رغم تصرفاته الحمقاء فقد كان الطبيب نيكولاس عدواً شريفاً يختلف عن العدو الشيطاني «الألم» الذي كان يختبئ خلف آلاف الأقنعة والوجوه داخل رأسها ، كم من مرة حاولت أن تهاجم نفسها بتهور ، ولكن الخوف كان يمنعها . كان العرق يتصبب بعد كل هزيمة ، يبلل وجهها حتى طرف عنق قميص المستشفى الخشن الذي كانت

ترتديه ، للحقيقة كان الألم يأتي في العادة طوعاً ومن داخلها ، ثم يمتد كالنار الهائجة داخل جميع تلافيف دماغها ، يضرب بلهبه الأحداق والمواقع الصغيرة ، ثم ينسحب تاركاً خلفه في الرأس ، صدى ورجفة . كانت تشعر في تلك الأحيان بأنها أضعف من شجرة في مهب ريح ، الريح ، في أحياناً أخرى كانت تغلق عينيها وتدير مقلتيها إلى الأعلى بطريقة تجعلها تتخيل بأنها تنظر مباشرة إلى موقع الألم في دماغها ، كان هذا الألم يستيقظ متراخياً ثم يتقدم نحوها ببطئ شديد ، يستنهض سرعته شيئاً فشيئاً ، ربما يتراجع أحياناً ليستجمع ثقله حتى يعود بعدها لينطلق كموجة بحر عارمة ، يدفعها الإعصار لتهدر وتضرب بعنف إلى أن ترفع بانسي يديها عن اللحاف وتهرس أسنانها المحطمة داخل شفاهها المنتفخة . تحدق برعب ، في عينيها الحمراوين نحو جدران الغرفة ترتجي منها مسكناً للألم ثم تمد قدميها ما استطاعت حتى تسمع قرقعة عظامها تحت اللحاف ، كان كل تجويف في جسدها ، كل معبر خليج حي ، يفيض بالألم أما دماغها الضعيف فكان أشبه بزورق على شكل قبعة تتقاذفه الأمواج في كل جهة ، كانت تشعر أن جمجمتها بحجم العالم كله بينما دماغها أصغر من صَدَفة بحرية .

بعد ذلك يعود الهدوء وتصل من الرحلة بسلام ، مع ذلك تبقى بانسي يقظة لبعض الوقت ، لا تغلق عينيها بل تحدق بهدوء في الأشجار ، تحاول أن تعتبر هذا الألم حارساً للكنز ، يريد أن يمنعها من رؤيته ، لهذا السبب كانت تشعر بوحشيته كلما حاولت النظر داخل نفسها .

مرت مثل هذه الساعة ونظرت بانسي بالصدفة عبر الممر ، لمحت كتلة شعر خشن تنسل عبر الباب يتبعها حمّال خرف ، كانت هناك عينان رطبتان تشبهان عينا كلب عجوز ، تحدقان بها دون تركيز ثم انطلقت بعض الكلمات الفظة من فم لا توجد فيه أسنان ، تملكتها الدهشة لدرجة أنها أغلقت عينيها لإبعاد تلك الكلمات عن وجهها ، ثم عاد الألم يضرب أنحاء رأسها بمعاوله الضخمة الغريبة ، كان ذلك الألم مألوفاً لديها إلا أنه هذه المرة وعلى الرغم من قدرتها على تحمله ، كان أقل أثر عليها من ناحية المضمون و النتيجة ، خاصة من ناحية اضطرابها المؤقت وأسلوب التشويش الغريب الذي كان ينتاب أحاسيسها المختلفة ، في تلك اللحظة ورغم أن دماغها عاود

إبلاغها بأن الألم يهاجمها بعنف ، إلا أنها أطبقت يدها اليمنى على يدها اليسرى في محاولة لتسكين الألم الذي بدأ يتبدد منذ مدة ، اختبار نتائجه بخوف مثالي ، هيمن عليها التفكير بأن الألم قد اكتمل في شرايين دماغها ، لم يكن منظر هذا الشريان جميلاً . في تلك اللحظة أخذت تفكر في وهن ، بتلك الثنايا البلاستيكية في دماغها ، كانت تحس بها تماماً كما تحس أصابع يدها المغلقة ، تتحسس شقوقها وجزئي دماغها البغيضين ، روحها وذكاءها الغامض ، في هذه اللحظة رأت الحمّال الذي يشبه صوته صوت الكلاب يتسكع حولها ، جاء الطبيب نيكولاس عند الساعة التاسعة كي يجهزها للعملية ، وجاءت معه حاشية من المساعدين ذوي المرايل البيضاء ، كان أحدهم يجر عربة عليها مختلف أنواع المقصات والمثاقب والسكاكين وأدوات التنظيف والشاش ، برز في وسطها وعاء يحتوي على سائل أرجواني اللون ، يشبه مزيجاً كيميائياً غريباً .

«كل شيء جاهز» سألها مبتسماً : «تبدين عصبية قليلاً ، كلا أنا لا ألومك أبداً إني أقول دائماً ، أفضل فقدان ذراع على أن أقوم باستئصال مواد مخاطية داخلية» . ظنت بانسي لأول وهلة أنه سيقوم بلمس أنفها . كان يحاول أن يقترب منها بطريقة ملتوية ، كان جبينه يلمع تحت ضوء السقف الأصفر ، توقف عند الطاولة ، لمس زهرة من نوع سيكلامن كانت موضوعة في آنية ، نظر من النافذة وبدأ الحديث ، بدا كأنه لا يحدث أحداً أو أنه يحدث الجميع» لم أستطع تشغيل السيارة هذا الصباح ، لذلك جئت في تاكسي» ثم تقدم منها وأخرج منظاراً طبياً من جيب مريوله القصير ، ومثل قطة تتأمل سطح مخالبها قرَّب المنظار منها ثم ابتعد متمتماً «يجب أن لا تشعري بالخوف يا عزيزتي ، لا يوجد أي خطر كما تعلمين ، هل تعتقدين لدقيقة واحدة أني سوف أقوم بإجراء مثل هذه العملية لو كانت تنطوي على أي خطر»

كان الطبيب نيكولاس شاباً ذكياً أنيقاً وأرستقراطياً فذاً ، كان زوجاً وأباً وعضواً في ناد ومسيحياً صالحاً ومستشاراً لطيفاً ووصياً على مجلس خريجي مدرسته ، مثله مثل كثير من الأطباء ، حتى هؤلاء الذين تركزت تخصصاتهم حول الأعضاء ذات الحواس الدنيا ، كان يبدي اهتماماً بالحالة النفسية لمرضاه ويقول إنه اكتشف في معظم الأحيان أن بعض أشد الالتهابات في الجيوب الأنفية كانت تترافق مع حدوث

أزمات عاطفية لدى المرضى .

سيطرت الآنسة فانيمان على مخيلته ، لأنها وعلى الرغم من تحطم جمجمتها فقد كان تصرفها طوال الوقت تصرفاً غير عادي لدرجة أنه شعر للوهلة الأولى أنه حيال إنسانه تعاني من نتائج صدمة ، كانت الصدمة تشكل عنصراً خبيثاً لا يمكن قياسه أو رؤيته فعلى سبيل المثال ، أبدت بانسي هدوءاً عجيباً خلال إجراء عملية جراحية لأسفل ظهرها ، ورد هذا الأمر في التقارير التي وضعت في ملفها ، كما أطنب الطبيب المسؤول في الحديث عنها ، فيما عدا رعشة في الحلق وشحوب في اللون لم يكن هناك أية مؤشرات ، تدل على كونها مدركة لما يحدث لها ، لم يصدر عنها أي صوت ، لم تغمض عينيها أو تطبق قبضتيها ، أجريت لها عدة جراحات ، لم تظهر أي رد فعل سوى في أول عملية ، عندما شرح لها الطبيب أنه سيقوم بإفراغ سائل النخاع الشوكي الذي كان يضغط على دماغها ، ردت بدهشة «يا إلهي» ، لم يكن ردها خوفاً كما يحصل عادة مع سائر المرضى ، حتى الطبيب لم يستطع أن يصف تماماً ماذا كان يظهر من نبرة صوتها ، غرابة أمرها! لم يستطع أن يتكهن إذا كانت هذه القدرة على التحمل وعدم التطلب أمراً طبيعياً فيها ، في كل الأحوال فقد تركت فيه انطباعاً سعيداً ولكن مشوباً بالحزن ، إذا أنها ظلت طوال فترة الحادث جريئة وكثيرة الكلام .

بينه وبين نفسه ، كان يعتقد أنها كانت جميلة ، حين رأى وجهها لأول مرة من خلف الزجاج ، أدرك أنها قد فقدت كل الفرح الذي كان في داخلها ، كان من الصعب عليه أن يتخيل وجهها في السابق ، إذ إنها أحضرت إلى المستشفى بوجه مقطع إرباً إرباً ، مهشم منتفخ وغير متجانس . كانت الغرز السوداء على طول الأنف والهيكل وعظام الوجه تنبئ باحتمال بقاء ندب قبيحة على الوجه ، تجرأ مرة وأعطاها اسماً لطبيب تجميل ولكنها رفضته بابتسامة ، رفع كتفيه وقال لها «أنت الطبيب» .

فكر بها كثيراً ، لكنه لم يصل إلى نتيجة تدله على ما يجري داخل هذه الجمجمة المثيرة للشفقة ، كان أكثر اهتمامه منصباً على أنفها الذي تشوه بشكل يحتاج إلى مهارة فائقة لإعادة عمل وظائفه ، لم يكن الأمر بحاجة لإجراء جراحة تحت مخاطية فقط . كان عليه أن يقوم بعملية خلع عظام ، وهي عملية دقيقة ومعقدة في مثل هذه الحالة ، بسبب قرب العظام من خط الكسر الأمامي الذي لم يكن مغلقاً تماماً ، فلو أنه

قام بإجراء الجراحة مبكراً ووجدت جرثومة باردة طريقها عبر هذه الفتحة غير المغلقة سينتهي الأمر بالمريض إلى إصابة سريعة بداء السحايا ، فكر فيما إذا كانت هي مدركة لعظمة الخطر الذي يكتنفها ، كان يرغب أن يؤكد لها أنه وصل تقريباً إلى درجة الكمال في عملياته ، وإنها لا يجب أن تخشى شيئاً ، لكن شعوره بجهلها وعدم تخيلها لما يحدث إضافة إلى خشيته من أن هذا الكلام قد يدخل عليها خوفاً جديداً بدلاً من أن يبدد الخوف فيها ، منعه من ذلك ، حفظ لسانه واقترب من سريرها ، كانت بانسي تراقبه وبدأت تشعر للتو بشعبة كماشته تفتح أنفها لإدخال المسار الدقيق ، كان الألم الذي تسببه هذه الأدوات مختلفاً لدرجة أنها أحست بأن لا حول لها ولا قوة أمامه ، كان ألماً مجرداً شديداً سبب لها الإغماء والمرض حتى أنها تمنت الموت ، استمر الطبيب في العمل حتى النهاية رغم إغمائها ، كانت الذكرى التي تتركها فيها هذه الأدوات تُسَبِبُ لها البكاء في مرات عديدة .

هذا الصباح نظرت بانسي إلى الطبيب نيكولاس واستمعت له بحقد مركزة نظرها على منتصف حاجبه العالي البارز ، أخذت تتخيل الركام الموجود خلف هذا الحاجب وتستخف بتلك الزوايا المنفرجة والمنحرفة التي تكونه ، فعلى الرغم من لطافته كان رجل الأنوف هذا يلعب بالنار ، كانت تتمنى أن تصيبه علة ، قال لها : أنا لا ألومك ، كلا أبداً ، أتوقع أنك تنتظرين حفلتنا الصغيرة ولكنني أعلم أنك ستكونين مسرورة بعودة قدرتك على التنفس .

قام بتوزيع مراكز معاونيه ، وقف الطبيب المساعد في مواجهته على الجهة اليسرى للسرير ، أما الممرضة المساعدة فقد جرت العربة لتصبح تحت متناول يديه ثم وقفت بجانبه ، تمركزت ممرضة أخرى على الطرف الآخر للسرير وثالثة قامت بإغلاق ستائر النوافذ ثم خرجت وأغلقت خلفها الباب بهدوء .

حدقت بانسي في الربطة الفضية المعقودة حول الورق الأخضر في إحدى آنيات الزهور ، تذكرت أن عيد الميلاد قد مر عليها وهي ملقاة على هذا السرير لم يكن لديها الوقت للتفكير في تلك الحقائق المثيرة ، لأن الطبيب نيكولاس كان قد بدء بشرح عملية التخدير . قام بتغطيس كمية من الشاش في السائل الأرجواني الذي بدا وكأنه محلول من الكوكايين ، ثم أدخل الشاش المبلل في أنفها وتركها هناك لمدة ساعة .

حذرها من أن هذا الآمر قد يكون مزعجاً ، لم يقل إنه ربما يكون مؤلماً ، دقائق من الإزعاج كانت مقبولة مقابل أن لا تعود مريضة بعد العملية ، سألها إذا كانت مستعدة وعندما أومأت برأسها «نعم» عدل المرآة التي على جبينه وبدأ .

عند أول لمسة من منظاره الطبي لوت بانسي أصابعها بحركة ميكانيكية داخل راحتيها وتصلبت ، ارتفع صوت الطبيب أريد شاشاً يا آنسة كينيدي «أغمضت بانسي عينها وأحست بألم مفاجئ يندفع داخلها في اللحظة التي أدخل فيها الطبيب قطعة الشاش إلى أعلى أنفها ، أحست بحرقة في حلقها أجبرتها على التقيؤ ، توقف الطبيب للحظة وقامت الممرضة بتنظيف فمها .

عاد الطبيب إلى العمل مرة أخرى دافعاً بمجموعة أخرى من الشاش بمخرزه لتستقر بعد عناء إلى جانب المجموعة الأولى ، بدأت الأعصاب على سطح جلدها بالعويل «توقف . .توقف» . بدت وكأنها مزقت أغلفتها وأخذت تركض عارية في الشوارع توقف . . توقف ولكن الطبيب نيكولاس لا يسمع . بل عاد بعد قليل بشحنه طازجة أخرى من الشاش ولم يتوقف هذه المرة حتى أنهى العمل في الفتحة الأولى من الأنف ، فتحت عينيها ورأته يمسح عرقه عن جبينه .كانت الممرضة المساعدة السمراء تجثو فوقها مدهوشة ونظفت الآنسة كينيدي جسدها بالماء المثلج ثم قال الطبيب نيكولاس «هيا لن يأخذ الأمر وقتاً طويلاً ، سوف أطلب لك بعض القهوة رغم شكي بأنك لن تشعري بطعمها . هل شربت القهوة مرة مع الهندباء ؟ أنا لا أشربها هكذا » .

ذهلت قليلاً من غرابة حديثة ، رغم أنها لم تتذوق القهوة مع الهندباء من قبل أجابته بجدية «نعم إني أحبها» .

ضحك الطبيب نيكولاس ضحكة خافتة ، التفت إلى الآنسة كيندي قائلاً «هل نحن جاهزون ؟ أعطيني بعض الشاش» ثم بدأ يعمل في الفتحة الثانية من الأنف ، هذه المرة كان الأمر أصعب من السابق لأن الجهة الأخرى كانت منتفخة وأصبح الممر أضيق بكثير وكأنه ممر أنف طفل ، كان الألم لا يوصف بلغة ، لذلك أدارت عينيها للداخل وبدأت تفكر أن بإمكانها خلف هذا الألم الشديد أن ترى دماغها ،بدون أن تعرف صاحبته ، ولكن الطبيب نيكولاس ومعاونيه لم يعطوها فرصة للسلام ، فقد

كانوا يدورون حولها ويتمتمون . كانت أصوات دعساتهم وحفيف عباءاتهم المنشّاة تسمع في جميع أنحاء المكان ، كانت جفونها تدور وراءهم بشك وحرج ، امتلكها فجأة ألم شديد وأحست بأن لا معنى له إذ أنها نسيت ما يعنيه لها ، لم تدرك شيئاً سوى أنها كانت تصعد نحو شيء ما ، لم تكن تعرف ماهيته ! هل هو برج ؟ قمة ؟ أو سلم يعقوب ؟ أصبحت الآن مثل كلمة مجردة أو مثل نظرية هندسية أو طائرة ورقية ، أو هرم يلمع أو مشكال يدور .

لكن أحداً في الغرفة لم يستطع رؤية ما حدث بداخلها . عندما أنهى الجراح عمله قالت لها الممرضة التي تقف على طرف السرير «أرجو أن تلقي نظرة في المرآة إن الأمر مفرح للغاية» . ضحكوا جميعاً كأنهم أصدقاء قدامى ابتسمت بانسي بأدب ونظرت في المرآة كانت عيناها تحدقان بلوم فوق أنفها المتورم المخيف وشفتيها المقلوبتين اللتين استحال لونهما رمادياً لكثرة الجراح ، رغم ابتسامتها المخادعة فقد كان فمها يبدو محتاراً وكأنه يذكرها بأنها تركت شيئاً ما جانباً ، لم تتذكر ما هو هذا الشيء ، كانت تشعر أنها قد أفرغت تماماً ، وأصبحت جافة مثل عظمة بيضاء .

ربطوا كاحليها على طاولة العمليات ولفوا معصميها برباطات جلدية ، كان هناك مرآة فوق رأسها ، تريها وجهها بآلاف الأشكال وعلى يمينها طاولة مغطاة بشرشف أبيض ، تلمع فوقه السكاكين تحت أشعة الضوء ، كانت كل الأشياء حولها باردة بيضاء ونظيفة كالثلج ، أما الطبيب نيكولاس فبدا كأنه رجل ثلجي طويل بعيون وأظافر فضية ، دخل إلى الغرفة دون أن يصدر أي صوت ، كأنه يسير فوق الثلج ، خلفه كان يقف المساعد وهو عبارة عن رجل ثلجي صغير ، غير متناسق الشكل . أما على طرف السرير ، فكان هناك شكل ثلجي آخر يضع يديه الباردتين على قدمي بانسي ، سحب الطبيب الشاش من الأنف الصامت البارد ، كانت ضحكته تبدو كضحكة في ليلة ساكنة قارصة «سوف أريك الآن» أخذ ينادي عبر مساحات الثلج «إنك لن تشعري بشيء» ، حرك مثاقبه على وجهها دون أن تشعر بشيء ، فقد اصطدم بقطعة ثلج بلا أعصاب رددت بانسي صدى صوته «لا أشعر بشيء» .

بدت الحيطان حولها رمادية اللون ، فجأة تغير وجه الممرضة الواقفة على طرف السرير ظنت بانسي أنها حزينة لسبب ما ، لكنها كانت تبتسم ، سألتها هل

استمتعت بالقهوة «كانت الكلمات تصل إلى مسامعها كأنها تتموج عبر ممر رمادي ، مثل فئران أو عصافير مسرعة ، هل استمتعت بالقهوة ؟ بالقهوة ؟ بالقهوة ؟ ثم ما لبثت أن سمعت صوتاً قادماً من غرفة أخرى يسأل «هل أسقيها بعض الويسكي» كانت بانسي تكاد تضج بالشكر لتلك المرأة الشابة التي وقفت معها تلك الليلة وتقف معها الآن «كم كانت جميلة بشعرها الأبيض ووجهها الأبيض وعينيها الزرقاوين»

بدأت العملية وسط سكون الشتاء . كانت المباضع تحفر في الثلج وبانسي تبدو سعيدة فقد أعطيت إبرة تحت الجلد قبل أن تؤخذ إلى غرفة العمليات ، كان من الممكن أن تخلد للنوم وتفقد المتعة في رؤية سحر الطبيب نيكولاس الذي أصبحت تحبه الآن . كان هناك ساعة حائط في غرفة العمليات تنظر إليها بانسي من حين لآخر . مرت ساعة ، بدء وجه الرجل الثلجي يذوب حتى أن بعض قطرات الماء كانت معلقة بأنفه ، ظلت عيناه الفضيتان تلمعان ، دائماً كان حبهما متبادلاً فقد كانت تعلم أنه أحب أنفها تماماً مثلما أحب سكاكينه ، رأته في المرآة المقببة وهو ينظر إلى وجهها . كان يرى كيف أن الدم ، بدء يتدفق في خديها البيضاوين حتى كاد يغطيهما . عادت لتسمع أغنيتها الخاصة : «هل استمتعت بالقهوة . . . بالقهوة . . . . بالقهوة . . . .

بعد نصف ساعة سمعت همهمة أفعوانية هادئة تتسلل إليها ، حاولت مرتين استعادة الكلمات لكي تحفرها في ذاكرتها كان الطبيب نيكولاس يقول «ارجعي إلى الوراء أيتها الممرضة ، أنا أقف الآن عند دماغ الفتاة ، لا أريد أن تحصل أي ضربة كوع بالخطأ ، عادت الحياة إلى بانسي وتقوس كاحلاها بغضب وشدت قبضتيها على رباط يديها وحركت رأسها ، شعرت بالألم فجأة حتى أن سكين الجراح انزلقت قليلاً ، صاح الجراح «اهدئي أرجوك أن تهدئي» .

ذكرها صوت الطبيب بما خسرت . كان يحشو أنفها بالشاش ، أخذت تستحثه مثل ربة منزل ، تسرع لإغلاق الباب قبل دخول اللصوص ، كانت أمها قد تركت باب القبو مفتوحاً وجاء اللص ومن بين كل الأشياء لم يسرق إلا المرعى اليابس الذي لا ماء فيه .

كان الطبيب نيكولاس يهمس لها بصوت كصوت العاشق المحب : «إذا استطعت

التحمل خمس دقائق أخرى فسأجري العملية الثانية ولن تكوني بحاجة لخوض مثل هذا الأمر مرة أخرى ! فماذا تقولين ؟»

لم تجب بانسي ، استغرقت عدة دقائق ، لتتذكر لماذا أقامت أمها ذلك المخزن وسط المرعى اليابس ، خطر لها أن أرملة الأسقف قد أحضرت لها عشبه من فلسطين لتزرعها فيه ، قال لها المساعد «لا تريدين أن يكون أنفك محشواً مرة أخرى أليس كذلك ؟!» وقالت الممرضة المساعدة «أنها مريضة رائعة أليس كذلك؟ يا سيدي الطبيب» أجاب الطبيب نيكولاس «لم أر أروع منها ولكن لا تناديني بكلمة سيدي ، لا بد أنك كندية الأصل لتناديني هكذا !» أما الممرضة الواقفة على الطرف الآخر من السرير ، قالت لها «سوف أطلب لك المزيد من القهوة» .

سمعت صوت الطبيب نيكولاس يخاطبها «ماذا تقولين يا آنسة فينيمان هل أسير قدماً ؟»

أخذت تفكر بينها وبين نفسها ، حين تنتهي من كل هذا سوف تغادر المستشفى ولن ترى الطبيب نيكولاس مرة أخرى ولن يرغمها شيء على العودة إلا أنها تعلم أيضاً ، أنها لن تتمكن من العيش بمعزل عن الناس ، عليها أن تعود ثانية إلى العالم وأن تجهز نفسها للعيش فيه وأن تدرك ويا لسخافة الأمر ، أن عليها أن تتنفس ، رغم أن العالم الذي ستعود إليه لن يكون حقيقياً إلا أنها وافقت على السماح للجراح بالاستمرار .

كان على الطبيب نيكولاس الآن أن يدخل إلى مناطق لم يتم تخديرها وقد أبلغها ذلك بصراحة ، ولكنه أكد لها أن الأمر ليس خطيراً واعتذر لها عن زلة لسانه فللحقيقة أنه لم يكن واقفاً بجانب دماغها ، كان فقط نوعاً من الاستعارة في الحديث .

أخذت المقصات تجز الغضاريف القاسية وتقطع في العظام ، كان الأمر يبدو وكأنها تقطع كتلة متشابكة من الأعصاب المتناهية في الصغر ، ببراعة فائقة ، قطعة . . . قطعة ، كان الألم يتلوى دائرياً بداخلها ، عاد إليها كطائر زهري يقف على كوز صنوبر ، كان الألم يشبه هرماً مصنوعاً من الماس أو نوراً شديداً ، كان يوصف بأنه أحمى ما في النار وأشد ما في البرد وأعلى ما في القمم وأسرع ما في القوى وأبعد ما في المسافات

وأحدث ما في الزمان ، لم يتملك منها إلا مشهداً صغيراً خلف الشاشة ، مشهد أرق من شباك العنكبوت ، كان دماغها يرتجف للحياة وهو يصغي لأصوات المباضع والسكاكين ، تهدر كالذئاب في الخارج تشم وتنهش . . . . الرحمة . . . . . الرحمة صاحت أعصاب جلدها .

وأخيراً وبأعجوبة تحولت بعينيها إلى الداخل ، بهدوء ، وسمعت الطبيب نيكولاس يقول «لقد انتهى الأسوأ ، سوف أبدأ العمل الآن على أرضية أنفك» وعند إشارته أغمضت عينيها ، شعرت هذه المرة وهذه المرة فقط بأن دماغها موضوع في داخل صندوق صدفي زهري مغلق بالساتان ، كان دماغها عبارة عن جوهرة زهرية اللون بحجم عين الإبرة ولكنه كان جميلاً ونقياً .

لم يكن صغر حجمه يعني لها أي فرق ، وعلى كل حال فقد أخذت تراقبه وهو يكبر ويكبر ، حتى أصبح بحجم فقاعة ضخمة احتوت الجراح وسائر من في الغرفة ، داخل لمعانها الوردي ، في أحد أشهر الصيف السابقة كانت بانسي تتأثر كثيراً بمنظر الطيور الصفراء اللون وهي تقف على أغصان شجرة أرز . كانت تتذكر دائماً أن الصيف هو عبارة عن ظل أصفر . في أحد أعوام طفولتها أخذتها أمها في زيارة لمعلمة المدرسة العجوز لشرب الشاي ، كان يوجد على رف الموقد تماثيل عاجية لقطيع من الفيلة ، كانت تلك السنة سنة بيضاء ، جاء الربيع بعدها أخضر ، رأت يومها في الأول من نيسان أفعى عشبية تقف على صخرة ، لكن الصيف الذي تلاه كان ليلكي اللون ، فقد غطت أزهار البرسيم حديقة والدتها ، رأت بوجها قطعة قماش من التول الأزرق موضوعة في سلة رافيا ، على الواجهة الأمامية لشرفة منزل العم ماريون ، لم تر العالم زهري اللون مثل ذلك اليوم مهما كان سابقاً أو سيكون في أحيان أخرى ، لم تكن متأكدة ولا مهتمة ، لكنها كانت مدركة لأمر واحد «لم يسبق للعالم أن غلفها بهذا الشكل أو كان هادئاً كما هو اليوم»

لوهلة صغيرة ، تركها الجميع في نشوتها وفجأة عادوا يثرثرون واقتحموا عليها تلك النشوة بالأسئلة والتهاني والعبارات الجادة والدعابات ، «لاحقاً» قالت لهم بصمت «ربما لاحقاً ، إني مشغولة الآن» ، لكن الأصوات لم تبتعد عنها ، بدأت بلمسها وغسل وجهها بقطع قماش باردة ، أخذت تلدغ معصميها بأصابع مطهرة نظيفة . كان

الجراح يضغط على يدها بكبرياء حنون ويقول «فتاة رائعة» كأنها كلب ذكي تمكن من استرجاع عظمة ، كان عقلها الصامت يلعنه ويقول له «إنك لص ، إنك متشرد لا رحمة في قلبك ، يجب أن تموت» .

بعد دقائق ، غادر الطبيب ولحق به المساعد إلى خارج غرفة العمليات وهو يتمتم مثل ولد سخيف ، بعد ذلك بوقت قليل نقلت بانسي إلى غرفتها . كان الطقس قد انقلب إلى الأسوأ ، لكن الشمس برزت للحظة من مخبئها الضبابي وبقيت إلى أن عاد الثلج وعادت معه الرياح الثلجية العاصفة . كان الألم شديداً ولكنها غالبته لأنه لم يعد يخدمها واستلقت في هدوء مرير وكأنها على أرجوحة برية ، أغمضت عينيها وعادت مرة أخرى ، لتغلق نفسها داخل رأسها التعس .

١٩٤٨

مارثا غلهورن

ميامي - نيويورك

عن «ذي أتلانتك منثلي»

كانت الطائرة تستعد للإقلاع حين صعد إليها خمسة ضباط من القوات الجوية ، وما أن عثروا على مقاعدهم حتى بدؤوا ينادون على بعضهم البعض عبر الممر الداخلي للطائرة أو من فوق ظهور المقاعد ، كيف ترى هذا ياجو؟ أظن أنها أفضل طريقة للسفر أين يحتفظون بالمظلات يا ترى؟ ويا صبي لقد عثرت على مخدة . . . بدت مشاعرهم طيبة رغم أصواتهم المرتفعة . فقد كانوا شباباً يافعين معتدّين بأهميتهم كطيارين مقاتلين ، ربما أرادوا أن يعلموا باقي الركاب المدينة أنهم ينتمون إلى عالم مختلف ، أشد صلابة وقساوة .

كان هناك ستة رجال ، بدوا وكأنهم يسافرون دائماً من وإلى واشنطن ، يرتدون بدلات رمادية وقبعات ، ويحملون حقائب بنية صغيرة وقد سرحوا شعورهم بطريقة مرتبة ، كانت وجوههم متشابهة ولم يكن لهم عمر محدد ، وكانوا يضعون قبعاتهم دائماً فوق حقائبهم ثم يفتحون هذه الحقائب ويطلعون على بعض الأوراق المطبوعة أو المنسوخة أو يغطون في نوم عميق .

«اربطوا أحزمتكم» ، ظهرت المضيفة الشابة ذات الشعر الأشقر المنسدل على الكتفين والجسد الأنيق المتناسق طولاً ووزناً ، وأضافت بصوت عذب ودود ، «أربطوا أحزمتكم إذا سمحتم ، هل يرغب أحد ببعض العلكة؟ سيدي اربط حزامك لو

سمحت هل ترغب بعلكة؟» .

كان هناك امرأة تجلس في المقعد المزدوج الأمامي بجانب منصة الصحف ، وتبدو مخضرمة في شؤون السفر . ولكنها لم تكن تثق بالطائرات لأنها لا تفهم فيها شيئاً . كان هذا المقعد ، بحد علمها ، أفضل المقاعد لأنه يعطي مساحة لمد القدمين ، كذلك تسهل الرؤية منه بشكل جيد ، حدقت المرأة لوهلة قصيرة من النافذة ورأت أشجار النخيل في آخر المدرج وهي تتراقص مع الريح ، هناك شيء في ميامي ، ربما خطأ ، يجعلك تشعر بأن ليلة جميلة لامعة النجوم ، تبدو لك فيها وكأنها دعاية لمكتب عقاري ، خلعت المرأة قرطي أذنيها ووضعتهما بلا مبالاة في جيب معطفها ثم مررت يدها على شعرها الأسود القصير وكأنها تتعمد أن تبدو أنيقة لليلة القادمة ، أحنت كتفيها إلى الأمام لكي تريح عنقها المتيبس وتراخت على مقعدها ، ولكنها ما كادت ترمي رأسها على ظهر المقعد غير آبهة بشيء حتى سمعت صوت رجل يقول : «هل هذا المقعد مشغول؟» «كلا» أجابته دون أت ترفع نظرها أليه ثم اقتربت من النافذة وقالت لنفسها : «ستستغرق الرحلة إلى نيويورك ثماني أو عشرساعات! حتى لو كان يشخر فلا أظن أنه سيفعلها طوال الوقت .

تمركزت الطائرة في موضعها ودارت المراوح كأنها أقراص فضية تلمع تحت أضواء المدرج ثم هدرت المحركات وبدأت بالإقلاع ، هذا الإقلاع يدفع قلبك دائماً إلى التوقف بغض النظر عن المرات التي خبرته فيها . في المدرجات الخطرة والسيئة وفي الظروف الجوية المختلفة تجد نفسك تنتظر دائماً لترى إذا كانت هذه اللحظة ستتكرر أو تسأل نفسك هل سترتفع هذه الآلة المضخمة بهدوء هذه المرة في الهواء حيث لا يوجد أحد عدا بعض الطيور .

«لقد مرت بسلام» همهم الرجل الجالس بجانبها على المقعد ، نظرت إليه بعين الرضا وقد دهشت لأنه نطق تماماً بالكلمات التي أرادت أن تقولها ، التفت الرجل إليها ، ولاحظت أنه يرغب في الكلام ، كان عليها فقط أن ترد بكلمة نعم وتبتسم أو أن تقول نعم إنه إقلاع جيد «ولكنها لم تكن ترغب في قول شيء أو أن تحدث أحداً قالت في نفسها : أمامي عشرة ساعات ، وهن ملكي ولست مرغمة أن أكلم أحد فيهن» . أشاح الرجل بوجهه حين لمس صدها ثم أخرج سيجارة وأشعلها وأخذ ينظر

إلى الأمام، لم تستطع هي أن تتجاهله رغم أنه لم يقم بشيء يلفت انتباهها، استطاعت أن تلاحظه من دون أن تنظر إليه، كان يبدو ضابطاً في البحرية برتبة ملازم كما تدل العلامة الرمادية السوداء على قبعته، إلا أن شارته العسكرية بدت وكأنها فقدت لمعانها، وكانت بزته غير مكوية وبدا وكأن الشمس قد عسفت وجهه. أما شعره الأشقر فكان قصيراً بطيء النمو كأنما مر على حلاقته شهر كامل.

بدأت تتأمله بامتعاض رغم عدم رغبتها بأن يلاحظ ذلك، رآها تتأمله ولكنها لم تأبه حين التفت إليها، كانت تنظر إليه بعيون ناقدة كعيون الرسامين «عيون خرزية» كما يقول زوجها، كان وجهه مربعاً ويبدو غاضباً وغارقاً في التفكير، وحاجباه السوداوان ينبسطان بكثافة فوق عينيه أما فمه فكان مستوياً ليس به انحراف وذقنه مستقيمة في خط واحد، كانت هناك ثلاثة خطوط مستقيمة تمتد متعاقبة على عرض وجهه وتصطدم في آخرها بعظامه القاسية، ولكنه حين استدار ليكلمها بدا وجهه بيضاوياً مبتسماً والخطوط متجهة بجذل إلى الأعلى، كان يمتاز بفرح ظاهر في صفاء عينيه الزرقاوين وحتى فمه كان يبعث على الفرح، وللحقيقة كان له وجه مثير للاهتمام وكأنه وجه رجلين مختلفين، تحيرت وهي تفكر من أين اختار هذه السمة المعكرة والغاضبة التي تُغلِّف وجهه.

«اللعنة» قالت لنفسها وماذا يهمني، فليكن له ستة وجوه ولكنه قصة مسلية، كيف يمكنك رسم وجه وجعله في نفس الوقت مربعاً وبيضاوياً ومرحاً وودوداً وغاضباً ولا مبالياً! كل هذا في نفس الوقت أيضاً.

كان الرجل يتساءل في الوقت نفسه: ما الذي يؤلمها خلف هذا الوجه المعقد، أنها لا تبدو امرأة حزينة طوال الوقت، النساء الجميلات لا يبقين حزينات دائماً. يمكنه أن يصنفها كما يصنف الناس من جنسيات واحدة بعضهم البعض بشكل عام فهي تملك المال والذوق وثيابها لا تبدو ثمينة وعصرية كما هو مألوف فحسب بل متناسقة وملائمة ولا يوجد فيها أي تكليف، لم يسمع لها صوت بعد ولكنه يستطيع التخيل بأنه صوت إنجليزي، ولا بد أنها تتلفظ بكلمات مثل: «هذه هي الجنة» أو «هذه حيوية مجنونة» أو «هذا مروع» «وما شابه هذه الأشياء»، أظن أنها مدللة ومتحررة فجميعهن كذلك، ولكن وجهها كان أفضل ما فيها، لم يكن ليصنف النساء بين

غبيات وغير غبيات ولكن وجهها لم يكن مثل باقيهن كان وجهاً صغيراً ومدبباً ورغم ملامحه الحزينة ، إلا أنه لم يكن وجهاً جامداً بل كان مفعماً بالحياة ويعتلي عينيها السوداويين اللامعتين حاجبان رقيقان متجهان إلى الأعلى أما يداها فكانتا جميلتين وقد لاحظ وهو يسترق النظر إليها أن طلاء أظافرها قد بدأ يذوي وأظفر أصبعها المؤشر مضوغ قليلاً على الجهة اليمنى ، كانت أظافرها طفولية مهملة ولكنه أحب ذلك فيها لولا أنها تبدو حزينة كالعنز ، فكر قليلاً ثم تناسى أمرها ، بدت معالم الارتياح تظهر على وجهه الثاني الذي كان غاضباً دون أن يدري عنه شيء . أرتاح لفكرة أنه ما زال حياً وأنه أصبح قريباً من البيت فقد غاب ثمانية عشرة شهراً لم يتوقف فيها عملياً عن التفكير بالعودة ورغم جدية تفكيره فقد ظل يشكل في إمكانية عودته وكلما راوده الظن بأنه لن يعود ((لا يعني التفكير بعدم العودة أنه يفكر بالموت فالموت شيء قد يقع ولكن نوع من الشفقة النفسية)) يقول لنفسية هازئاً ومتجهماً أن الحياة على السفينةُ المدمِّرة هي تجربة تعليمية كبيرة وعليه أن يكون شاكراً لذلك .

كان يعمل في السابق ولفترة وجيزة في مطاحن والده قبل أن يصبح ضابطاً على مدمرة ولكنه لم يرغب بأن يعود رجل أعمال مرة أخرى والحقيقة أنه لم يعد يتذكر كيف يمكن أن يكون وضع الرجل في مكتب . لذلك لم يعر الأمر أي اهتمام ولم يعد يرغب في شيء الآن أكثر من أن يبقى سعيداً . وقد كان هو رجل سعيد يرتاح خلف هذا الوجه الذي يحمله وكان يقول لنفسه بأن الجلوس على هذا المقعد مريح للغاية وأنه قضى وقتاً ممتعاً بالأمس في ميامي مع بوب جاميسون وهاتين الجميلتين وأن الأيام القادمة لا بد ستكون رائعة ، مدد جسده دون أن يتحرك من مكانه وأحس بأن الأيام مقبلة عليه مثلما تقبل الشمس والمياه العذبة .

عاودت المرأة التفكير بالرجل الذي بجانبها على المقعد لا بد أن له زوجة صغيرة رائعة تنتظره وأنه عائد إلى بيته إذ يبدو من ثيابه ونظراته أنه كان في مكان ما ، كانت هناك أوشحة تزين صدره ولكن هذه الأوشحة قد تعني أو لا تعني شيئاً فجميع الرجال الذين يرتدون البزات العسكرية يحملون أوشحة ، كانوا ينطلقون من بيوتهم نحو محطة القطارات تحت الأرض إلى شارع الكنيسة وهم يربطون أوشحة ، كذلك كانوا يعيشون في وسط الزحام بواشنطن ويتسكعون حول بناية البنتاغون ويذهبون إلى

حفلات الكوكتيل وهم يربطون أوشحة كان يسكن بجوارهم شابان نحيفان فاتنان يضعان على كتفيهما نسرين فضيين ويربطان أوشحة كثيرة عند عودتهما من لندن، كانت تعرفهما وتعرف تماماً أنهما لا يعلمان بأمور الحرب أكثر مما تعلم هي. وكانت متأكدة أنهما لم يبتعدان مبدئياً أكثر من بيكاديللي سيركس، هذا إذا كان معسكرهما في غروسفورد سكوير، لذلك لم تكن تأبه لهذه الأشرطة والأوشحة ولا تفقه مدلولاتها، عادت إلى التفكير، لا بد أن زوجته تعرف عن هذه الأوشحة وتفتخر بها ولمالا؟ ماذا لَدَيكِ ضد الزوجات، ألست أنا زوجة أيضاً، ألا يمكنني ارتداء شارة عليها نجمة، شارة مستطيلة مطلية وملمعة إذا لم يكن معي ما يكفي من المال وشارة من الألماس أو الياقوت أو الزمرد إذا ما وجد المال الكافي، ألست عائدة الآن من رؤية زوجي في ميامي! توماس! إنه معتاد جداً على نيل ما يرغب لدرجة أنه بات يعتقد أن المشاعر يمكن أن تعمل مثل الأمنيات، الرجل يغادر للخدمة في أعالي البحار وقد حصل على إجازة لثمان وأربعين ساعة، طارت إليه زوجته لتودعه وقضيا ثمان وأربعين ساعة رائعة معاً حتى أن الساعات الأخيرة بدت وكأنهما دفنا حيين، يتملكك شعور بكونك حياً مع غريب وجب عليك أن تحبه إلا أنه يعود بعدها غريباً.

«زوجة رائعة» قالت لنفسها، كل النساء يستطعن مداراة قلوبهن بهدوء، سمها وطنية، أو كبرياء أو حنان أورقة أو وداع أو شوق للوطن، أني لست كذلك «قالت وهي تحاول الدفاع عن نفسها» أن توماس ذاهب إلى البرازيل، لا أمانع أن أذهب أنا شخصياً إلى البرازيل ولكني أظن أنه مسرور لذهابه هناك فطالما أنك لا تقوم بعمل خاص بك، من الأفضل أن تكون في البرازيل أو ميامي أو بنساكولا أو في بحرية بروكلين، فقط لو أنني كنت زوجة حقيقة جيدة ومساعدة لصنعت من مسألة ذهابه أمراً كبيراً ولكن لماذا يجب عليه أن يخدع نفسه «أخذت تفكر بغضب» لماذا يريد أن يخدع نفسه؟ لماذا يستمر في حبي بينما أنا أمثل كل شيء يكرهه ويشكك به يمكنها أن تسمع توماس الآن وقلبها يشفق عليه رغم الغضب، «إني أحبك يا كيت أكثر من أي شيء في الدنيا وأنت تعلمين ذلك، أريك فقط أن تكوني سعيدة» كان توماس يؤمن بما يقول أما هي فكانت تشعر أنها باردة قاسية مخادعة لأنها لم تكن لتصدق مثل هذا الهراء.

تأوهت المرأة قليلاً وكأنها تشعر بألم، التفت الرجل الذي يجلس بجانبها وحدق بها ولكنه لم يستطع أن يرى وجهها، كل ما رآه هو خط كتفها الأيمن وهو منحن للأمام بعيداً عنه، كانت المرأة تكلم نفسها بيأس وتقول: إنسي الأمر، إنسي الأمر ليس هناك شيئاً تفعليه، لا يمكن أن تفهمي الأمر، اتركيه وشأنه، لن تعرفي عن نفسك شيء ولن تعرفي لماذا ظننت أنك تحبين رجلاً ما ثم لم تعودي تحبينه، ليس من الضروري أن تعرفي . . . إنه عالم واسع يحوي ملايين البشر وإذا لم تكوني مهتمة بنفسك فلماذا لا تكفين عن التفكير بحياتك التافهة الكئيبة، سوف تطول غيبة توماس لأشهر وربما لسنة أو سنتين، توقفي عن التفكير به .

فجأة وبدون أي تخطيط أو توجيه عقلي سحبت خاتم الخطوبة الماسي المربع وخاتم الزواج المستطيل من يدها اليسرى بعنف وكأنهما لم يكونا ليسحبا إلا بالإكراه ودفعتهما في جيب معطفها إلى جانب القرطين ثم فركت يدها وهي تضغط عظام يدها إلى الداخل وأصابعها إلى الخارج، قال الرجل الذي يجلس بجانبها لنفسه: يا ألهي ماذا يحدث هنا، «إنها ليست حزينة فقط إنها مجنونة» . ثم عدل من تفكيره «أنها مجنونة أو أنها تعاني من مشكلة خاصة بها» . لم يرغب في أن يكون جزءاً من الأمر إذا لم يفهم ماذا يحدث تماماً فالحياة بالنسبة له أصبحت بسيطة لدرجة أنه لم يعد يفهم شيء سوى العيش والبقاء حياً .

اطفئت المضيفة أنوار السقف في الطائرة وأحد أضواء القراءة المعلق على جدار الطائرة الداخلي . وهنا غرقت الطائرة في الظلام وكأن عتمة الليل الرمادية دخلت إليها من النافذة . شخر الرجلان القادمان من واشنطن شخيراًحقيقياً بينما كان أحد ضباط القوات الجوية يشخر بصوت عال وكأنه يتمتع بالأمر ويعطيه استحقاقه، أصبح الشخير جزءاً من الأصوات العادية داخل الطائرة، كل شيء عداه كان هادئاً، نامت المرأة ذات الشعر القصير الأجعد وهي تلوي جنبيها أما الضابط فقد أتكئ برأسه على ظهر المقعد ومد قدميه واتخذ وضع الاستعداد لكي يغفو للصباح .

بدا وجهه أكثر تربيعاً وهو نائم، كأنه يحلم بشيء جعله يشعر باليأس البارد أو الغضب، لم يكن يحلم ولا يمكن أن يكون حلماً لأن الأمر كان متشابهاً عند النوم وكأنه ذاهب إلى مكان معين لينام، كان المكان معتماً جداً والظلمة تتحرك ببطء، لم

تكن تأتي من الماء ولهواء بل كانت ظلمة جامدة كالعمى ، شعر بثقل الظلام فوقه وهو وحيد نائم أو عائم بلا ألم لا يلوي على شيء ، شعر نفسه فقط بأنه يستلقي في وحدة تامة وسط الظلام ، كان يشعر بنفسه ولا يراها ، كان الأمر مرعباً لأنه أحس بعدم وجود مخرج ومع ذلك لم يحتج أو يناقش أو يعيش الحلم كل ليلة وكأنه محشور فيه إلى الأبد .

كان يستيقظ في الصباح ممتناً ومندهشاً وكأنه لا يذكر لماذا نام ولا يذكر المكان الذي كان ينام فيه . كان هذا النوم البطيء جوف الظلمة التامة ينزل عليه وهو على متن السفينة ، لم يكن يعرف شيئاً عن نفسه بل يعتبر نفسه إنساناً عادياً محظوظاً لا يؤرقه هم ولا غم ، كل ما يحصل معه يحصل في العادة مع مئات الرجال ، وخلال حواره مع الآخرين في غرفة طعام الضباط لم يستطع أن يشعر بأي ميزة خاصة يملكها زيادة عنهم فقد كانوا يتكلمون بسخافة وبدون أدنى تفكير أو إدارة للنفس ولكنها كانت اللغة المميزة التي يتكلمها الجميع .

عندما أُغرقت المدمرة الأولى إثر قصفها بالقنابل قفز عن ظهرها إلى البحر ، كان يشعر أنها قفزة عادية وكأنه يقفز في مسبح بلدي ، سبح قليلاً ثم عثر على طوف حمله باتجاه الشاطئ كان الغضب قد أخذ منه كل مأخذ ، لم يعرف تماماً ما هو مصدر هذا الغضب ، هل يعود لشعوره بأنه تم اصطيادهم وقذفهم في البحر أم بسبب إحساسه بالعجز أمام الهجوم أم لأنه خسر السفينة التي كان يحبها كثيراً أم لشعوره بأنه بقي لوحده والمياه تتلاعب به كيفما تشاء ، كان غاضباً لدرجة لم يعد يرى أو يسمع ولم يعد يتذكر كيف سبح وكيف تعلق بالطوف وتملكه الرعب عندما شاهد الطائرات اليابانية تحوم فوقه عن قرب تبحث عنهم في الماء وتطاردهم وكأنهم خنافس مائية مرعوبة ، كان رعباً بارداً كالماء سبب له ضغطاً ودواراً ثم اختفى الرعب وهدئت الأمور بعد أن تم التقاطهم بسرعة وإنقاذهم .

تذكر نفسه مرة عندما كان يقف خلف المدفع الأمامي للمدمرة . لم يكن لديه عمل معين هناك ، كان يراقب البحار وهو يقصف بالمدفع ويلاحق جسده وهو يرتج خلف دعامة المدفع ثم ينظر إلى سيل الرصاص اللامع يندفع منه ، ولكن الرجل خلف المدفع كان بطيئاً ، كل شيء كان يبدو بطيئاً ، هو نفسه لم يصدق أنه قد أتيح

له وقت بلا عمل مثل هذا ، مرت عدة ثوان أحس أنها مدة طويلة ثم قال لنفسه «إن هذا جنون ، ما الذي تفعله» وأخذ يكررها بعقله وأحياناً بصوت مرتفع أنه لجنون ، أنه لجنون» .

حتى هذا الأمر بحد ذاته لم يكن ملاحظاً فالرجال الباقين كانوا يظنون أنه سخيف لدرجة الجنون «إن عليك أن تقتل اليابانيين بعد أن فعلوا هذا كله ولا يمكنك أن تدعهم بفلتون بأمر مثل هذا ولكن هذا جنون أيضاً عندما تفكر بنفسك وبالرجال الذين تعرفهم وسط هذا المحيط السيء الصيت ، ترى الأمر جحيماً كيفما قلبته ، ما تفعله وما يفعله الآخرون كان جنوناً به ثم أنك إذا حاولت التفكير كيف بدء الأمر وماذا يعني وما الفرق الذي سيظهر بعد هذا فقد تجن أنت شخصياً ، لم يكلم أحد بالموضوع ولكنه كان يعلم أن الجميع يشاطرونه هذه الفكرة : بوب جاميسون ، وتروبي بارتلت وجو باركز وكل الرجال الآخرين يعرفون ذلك جيداً .

لقد توصلوا جميعاً إلى طريقة سليمة للتفكير بالأمر ، فقد كانت أعمارهم تتناسب مع هذه الحرب ، لو كانوا أصغر أو أكبر عمراً لما تواجدوا فيها ولكن الأمر حصل وكان عليهم أن يفعلوا هكذا ، كانوا يتبادلون الكثير من النكات ويحنون إلى الأشياء المحسوسة : الخمر والفنادق الفاخرة والنساء الجميلات والرهان على البريدج والبوكر بقيم مالية مرتفعة . ويمر الوقت وتبقى أنت نفس الرجل الذي كنته سابقاً ، كل ما كان يشغل بالك هو أن تبقى حياً ولكنه مع ذلك كان يعود كل ليلة إلى ذلك الظلام الفارغ الثقيل ويدفن نفسه فيه للأبد بلا أمل ولا مخرج ولا أحد يستجير به .

استفاق الرجل النائم فجأة ووجد وجهه قريباً جداً من وجه المرأة ، كانت قد أدارت رأسها نحوه وهي نائمة ، كانت عيناها مغمضتين ، وبدت شاحبةً تعبةً ومريضة قليلاً إلا أنها فمها كان رقيقاً جداً ، لم يكن الرجل قد استفاق تماماً ونظر بدهشة إلى ذلك الوجه الذي لم يتوقع أن يراه وأخذ يفكر : أنها تبدو وحيدة ، كان يفكر أفضل مما كان يفعل فيما لو كان مستيقظاً وكان يحمي نفسه دائماً بتلك العادة القديمة التي ألفها وهي عدم الملاحظة وعدم التفكير ، «أنها مريضة من الوحدة» قال لنفسه وبدون أن يتعمد الأمر اقترب من تلك الشفاه الرقيقة ، كان وجهها بانتظار قبلة منه ، ولكنه استيقظ فجأة وتذكر أين هو وتراجع مصدوماً وهو يفكر «يا إلهي ماذا كان سيحدث لو

فعلتها ، ربما صرخت وفتحت علي باب جهنم ، تنهد ثم أشاح برأسه عنها وأرخى جسده وعاد للنوم ، ارتجت الطائرة قليلاً لدى دخولها مطب هوائي ، بدت وكأنها تشق طريقها بقوة داخل هواء أثقل من الماء ، كان ركاب الطائرة هادئون ونائمون ، وكانت الطائرة تعج بروائح الدخان والأجسام .

فجأة شعرت المرأة بيد تمسح شعرها ، لم تكن يد رقيقة بل كانت يد تضغط شعرها الأجعد وقد ضربتها مرة من جبينها حيث مؤخرة العنق ، استفاقت تماماً ولكنها لم تتحرك فقد كانت لا تزال تعاني من الصدمة وعدم استيعاب ما يحدث ابتعدت اليد عن شعرها ثم نزلت بثقة إلى صدرها ، أحست بها داخل نسيج معطفها الرقيق ، ظنت أنها تحلم ولكن هذا الاحتمال كان ضعيفاً رغم أنها لم تستطيع أن ترى تلك اليد وسط الظلام المخيم على الطائرة نظرت إلى الرجل ورأت وجهه في الظلام ، كان نائماً وتلك السمات المضطربة التي عهدتها به ما تزال ظاهرة على وجهه ، كانت يده هادئة ثقيلة ولكن واثقة توقفت اليد ما الذي يفعله؟ يا إلهي ما الذي يحدث؟ أخذت تفكر ضاحكة لهذا الوضع الغريب .

ظلت اليد مصرة على الإمساك بها ولدهشتها واستحياءها أحست برغبة في النوم على كتفه وعناقة وسط هذه السيطرة الصامتة التي لا تنازع من قبله ، كانت ترغب أن توقظه ليضمها ويقبلها ، لم يعد يهمها من هو أو من هي ولا من هم سائر الركاب في الطائرة فقد وجدت نفسها هنامعه في هذا المعتم وحدث هذا الأمر الذي لا يصدق لم ترغب بأن توقظه لذلك استدارت نحوه وتململت . . . تنهد الرجل كان لا يزال نائماً عندما سقطت يده على حجرها ثم تراجعت كأنها تتحرك بدون إرادته ثم استقرت على جنبه ، انتظرت قليلاً وهي تراقبه ، استيقظ على نظراتها رآها مضطربة وحزينة وعلامات التساؤل بادية على وجهها ، رأى شفتيها اللتين تحثانه للتقبيل ، أبعد يده اليمنى ما استطاع لجهته ولكن بقي هناك جاذب بينهما ورغم تعاستها الشديدة قبلها وكانت قبلة أليفة جداً وكأنها جاءت بعد ممارسة حب رائعة وكأن ما مرّ بينهما سابقاً كان معروفاً لديها ، استفاقت كل جوارحه وأعضائه ، لم يدرك تماماً ما حدث ولكنه أدرك أن هناك أحداً يقبله ، لم يندهس لهذا الأمر ، مثل هذه الشفاه الرائعة ، لاحظ فجأة ولدهشته الحقيقية أن الشيء الذي كان ينخزه بجنبه طوال

الوقت هو طرف يد المقعد ، عندها عرف بالضبط أين هو وأين مكانه أما المرأة فقد سحبت شفتيها بعيداً عن ذراعيه وعن فمه المتسلط .

- أسمي كيت ماريلين ، همست المرأة باستغباء ، وهي ترتعد من الخوف ، ضحك الرجل برقة . لم يرى ما علاقة الاسم بهذا الموقف ولكنه أجابها وأنا أدعى جون هانلي .

- «كيف حالك» سألته ثم ضحكت بعد أن شعرت أنها بدت سخيفة وحمقاء .

- «دعينا نزيل هذه العراقيل» قال لها الرجل ، تملكها الخوف فقد كان يأخذ الأمور بهدوء ، هل يظن أنها تقوم دائماً بتقبيل الرجل الجالس إلى جانبها في مقعد طائرة ميامي الليلية ، عمل الضابط على إرخاء يد المقعد ووضعها أمام قدميه على الأرض كانت هي مائلة إلى الأمام بعيداً عنه ، لم تكن تعرف ماذا تقول لكي تشرح له أنها ليست امرأة تقبل الرجال على الطائرات وذلك في حالة كان هذا التعريف بالنسبة لديه يتطابق مع فئة معينة من النساء ، لم يقل شيئاً كانت هذه هي صفته الخاصة ، كان يصل إلى ما يريد دون أن يفتح فمه فقد كان جسده يتولى الكلام عنه ، أقترب منها وضمها إليه كأنها كانت ملكه ، ولم تكن هي لتفكر بغير ذلك ، قربها إليه حتى تريح رأسها وقبلها وهي يلقي بيده الواثقة حولها .

«هذا رائع» قال الرجل لنفسه ، أن هذا جزء من الوقت الرائع في ميامي وما بعدها شعر بأنه محظوظ ، لما لا فأحياناً يأتيك الحظ وأنت لا تدري ، شعر بأن إجازته هذه ستكون عظيمة كان ينتظر مثل هذه الإجازة وكان واثقاً أنها لن تخذله ، سيقوم الآن بتقبيل هذه المرأة الغريبة الناعمة ثم ينامان ، لم يكن هناك شيئاً أخر يفعلانه على الطائرة وهو أمر مثير للشفقة ، إن من السخافة أن تقلق لأمر لا يمكنك تحقيقه فقط خذ الأمر كما يأتي اليك فقد كان يمكن أن تكون جالساً بجانب أحد أفراد القوة الجوية وعندها لن تحصل على شيء ، كانت رائحتها تعبق برائحة الجاردينيا وشعرها ناعماً ينسل رقيقاً على خديها . قبلها ثانية وأحس بالدفء والراحة والسعادة .

- كيف عرفت؟ سألته المرأة باضطراب .

- عرفت ماذا؟ أجابها .

- عرفت أنك تستطيع أن تقبلني .

- يا إلهي فكر لنفسه سوف تبدأ بالحديث عن الموضوع! لماذا بحق الجحيم تريد أن تبدأ مثل هذا الحديث!

- «لم أكن أعرف شيئاً قال لها» لم أخطط لشيء .

- من أنت ؟ سألته ، لم تكن تعني ذلك بل أرادت أن تقول له كيف حدث هذا .

- أنا لا أحد أجابها بقناعة تامة . . . مجرد لا أحد ولكن من أنت؟

- لا أعرف من أنا ، أجابته .

- «لا تقلقي لذلك» قال لها وقد بدأ يشعر بالضيق من هذا الحوار غير الهادف ، «ولكن السنا نتمتع بوقتنا؟ أمسكت أنفاسها بصرامة وقرف» إذن هذا جل ما في الأمر ، من الممكن أن يحدث هذا مع أي كان «قالت لنفسها» تعال يا حبيبي وقبلني لنستمتع بوقتنا . . . يا إلهي ما هذا ما الذي أقحمت نفسي فيه» أرادت أن تخبره أنها لم تفعل بحياتها شيئاً مثل هذا من قبل »- لا أريدك أن تفكر أنني . . .» أرادت أن تجعله يقدر أن هذا الأمر نادر الحدوث ولذا فهو هام بالنسبة لها ، ما كان يمكن أن يحدث في أية ليلة ومع أي رجل ، لا بد أنه شيئاً مميزاً وإلا لم تكن لتتقبله ، مرة أخرى استخدم الرجل لغة الصمت ، وهي لغة كان يتقنها أكثر من الكلام وسمح لجسده أن يقدم ما استطاع من التفسي ، شعرت بضعفها وكانت سعيدة لذلك ولكنها لم تكن تريده أن يظنها امرأة راغبة ، بهذا الشيء فقط ، كيف يمكنها أن تواجهه في الصباح إذا أساء فهم الأمر .

«أترى» . . . بدأت بالكلام ولكنه عاجلها بقبلة ليمنعها من الحديث وضغط شفتيه على شفتيها «لا بأس» قال لها .

أخذت الأمر كما رغبته هي ، بأن تتركه يفكر كما يشاء كانت ما تزال مندهشة ولكنها سعيدة . فكرت بحياتها وكيف كانت تدور بمعظمها حول الكلام والمسببات ، لقد تبين لها أن الكلام كان خاطئاً وأن المسببات كانت تافهه . . . حسناً حدث أمر فوري ، ومن تلقاء نفسه وبدون تمهيد كأنه السحر ، ضغط الرجل رأسها على كتفه وسحبها جانباً برفق لتبقى مرتاحة ثم أحنى رأسه على ظهر المقعد واستعد للنوم ، كان مرتاحاً جداً ولكنه لم يستمر في التقبيل طويلاً لأن الأمر لن يتعدى ذلك ثم أنه قد يصبح متعباً ومملاً إذا استطال ، لقد سار كل شيء على ما يرام وحان وقت النوم

الآن ، كان متعباً جداً . . . قبلها على جبينها وقال لها : «نامي جيداً» .

عكرت السماء بعض الغيوم الشعثاء الطويلة وكان القمر يسير أمامهم وكأنه هدفاً جائزاً للقنص أمام منصة إطلاق نار . أصبحت الطائرة أكثر برودة . وفجأة سعل أحد رجال القوة الجوية سعلة استيقظ على أثرها ، شتم وتنهد وعدل من جلسته ثم عاد للنوم ، أخذت المضيفة تفكر إذا كان من الضروري أن تقوم بجولة لتفقد الركاب ثم قررت أنهم جميعاً بخير ، كانت تقرأ قصة تدور حول حياة المجتمع في إحدى قرى الريف الإنكليزي وبدت مأخوذة بها .

استلقت المرأة بهدوء على كتف الضابط وتركت أفكارها تسرح في أحلام لذة دافئة إذ أنه بعد مرور أشهر مزعجة من الحب المفقود جاءها هذا الرجل الذي يجلس بجانبها على مقعد الطائرة ولم تعد مضطرة لتخاف من نفسها كمخلوق لا يحب شيء ، لم تكن لتحب هذا الرجل ولكنها أحبت شعورها وأحبت ما نتج عنه من دفء وحيوية وأمل وراحت تنسج الخطط التي تشبه الأحلام الكاملة حيث تظل البطلة جميلة ويأتيها كل يوم مفعماً بالعجائب أكثر من لاحقه ، ربما ينزل معها في بيتها في نيويورك فقد كانت تعيش وحيدة هناك ، أو ربما من الأفضل أن يذهبا إلى فندق لكسر روتين حياتهما العادية . سوف يعاملان بنيويورك وكأنها مدينة غريبة مثل فيينا في الربيع ، يبحثان عن أماكن غريبة لتناول الطعام وأماكن أخرى مضحكة للرقص حول برودواي . أو يسيران في الحديقة العامة ويزوران مركز الأحواض المائية وحديقة حيوان برونكس أو يتسكعان ويضحكان ويقابلان أناساً مجهولين بحيث يشعران بأنهما غريبان في مدينة رائعة . يوماً ما سيعود من حيث أتى وستعود هي إلى عملها ولكنها يملكان هذا الآن وهو شيء أكثر بكثير مما كانت تتأمله أو تتخيله سوف ترسم وجهه الغريب الذي كان في السابق وجهين وستحافظ على نضارتها وإثارتها كل يوم وكل ليلة معه ومع صحته وثقته الرائعة ونظرته السعيدة الغاضبة . بدأت الطائرة هبوطها في مدرج واشنطن وأخذت أطراف العجلات تضرب المدرج الأسمنتي بحيث أيقظت الرجل الذي استوى جالساً وهو يحدق حوله .

- «صباح الخير» همست المرأة . . . أعاد يد المقعد إلى مكانها : لم تكن تريد أن تنتبه المضيفة لهما ، لا بد أن شعرها قد أصبح ناعماً الآن ، أرادت أن تلمسه ولكن

ليس الآن ، نظرت إليه بعينين ذابلتين دافئتين أما هو فنظر إليها ببلاهة وكأنه لم يرها من قبل .

- «يد المقعد» . . . قالت له مرة أخرى ، ابتسم الرجل فجأة وأخذ يد المقعد وأعاد تركيبها في مكانها ثم التفت إلى المرأة ، كان وجهها مرحاً مغتبطاً .

- «هل نمت جيداً»؟ سألها .

- «أنا لم أنم» لم تكن تتخيل أن وجهه بهذا الإشراق وكأنه يضحك لهما معاً .

- «هذا سيء . . . على كل حال أظن أنني سوف أنهض وأحرك رجلي قليلاً هل تأتي «سألها» لا شكراً أجابته وهي خائفة .

شق رجال القوة الجوية طريقهم إلى خارج الطائرة ، أحدهم نادى المضيفة قائلاً ، لا تتركي الطائرة بدوننا يا عزيزتي ثم ضحكوا جميعاً وعبروا المدرج الأسمنتي نحو بناية المطار وهم يعدلون ثيابهم ويشدون أحزمتهم وكأنهم خرجوا للتو من مباراة في المصارعة .

أما الرجال ذوي الحقائب الصغيرة فقد تناولوا قبعاتهم ومعاطفهم من المضيفة وشكروها بأصوات خشنة على هذه الرحلة الممتعة وغادروا بسرعة وكأنهم يخافون أن يتأخروا على مكاتبهم .

جلست كيت ميريلن في مقعدها الأمامي ، تستمع إلى المضيفة وهي تحدث أحد رجال الطواقم الأرضية ، كان صوتها واضحاً ونشيطاً في مثل هذه الساعة من الصباح ، شعرت كيت بالبرد وانقبض صدرها قليلاً ولكنها لم ترغب أن تفكر بالأمر .

عاد الرجل إلى جانبها ، كانت المضيفة ما تزال تجول في ممر الطائرة وكأنها ممرضة متدربة تأخذ حرارة المرضى في جناح أحد المستشفيات ، كانت تتفقد إذا كانت الأحزمة مشدودة والركاب جاهزين للإقلاع .

ربط الجميع أحزمتهم مرة أخرى وعادت الطائرة لتشق عنان سماء الصباح الرمادية .

- أذكر إنك قلت أن أسمك كيت ميدلين .

- نعم .

لقد ظننت ذلك .

تعجبت من لطافة سؤاله ولكن بدا واضحاً انه لم يضيف كلمة أخرى على ما قال ، نظرت من النافذة كانت يداها باردتين وكان الرجل غارقاً في التفكير ، أنه لمضحك جداً كيف تسير الأمور ، تذكر الليلة السابقة بوضوح فيما هو يسير على الرصيف الأسمنتي بجانب بناية المطار في واشنطن ، كانت تبدو غريبة عنه في الصباح ولكنها هنا أقرب .

ولكونها فنانة قال لنفسه أنهن دائماً غريبات . لم يقابل فنانة من قبل ولكنه كان مستعد دائماً للاعتقاد بأنهن مختلفات عن باقي الناس ، وكونها غنية أيضاً يجعلها أكثر غرابة لا بد أن زوجها واسمه ليس ميرلين بالتأكيد ، غنياً جداً لقد قرأ عنهم وعن أسمائهم التي هي مثل السماء الأخرى ولها قيمة محسوسة كالأسهم والجواهر والعقارات عند كتاب الأعمدة في نيويورك ، لقد ورث زوجها الملايين ويملك إسطبلاً مشهوراً ومصانع للطائرات ومصانع أخرى ، توماس سترانغ هاميلتون ، كان هذا هو أسمه وكان الأمر مميزاً فهي رسامة ناجحة بينما زوجها غني جداً ولا تحتاج لأن تكون هكذا .

- «لقد قرأت عنك . . . قال لها» .

- «أنا لم أقرأ عنك شيئاً قالت لنفسها ماذا عساي أقول لقد شقّ علي القول يا سيدي» .

- أجابها بصوت مرح : لقد قرأت عنك شيئاً ، قرأت أن زبائنك ، كما تسميهم ، كانوا سعيدين بأن يدفعوا الآلاف من أجل رسوماتك لأنك كنت تنجحين دائماً بإعطائها صبغة خطرة كما قرأت أنهم كانوا يفضلون هذا الآمر على عنصر الجمال فيها . النساء على ما أقصد ولكني لا أذكر أين قرأت هذا .

- كان هذا الموضوع مقرفاً ومؤلماً ، ربما ورد في إحدى أعمدة صحف الإثارة حيث يصورونها رسامة من وجوه المجتمع ، وربما ورد شيئاً فيها أيضاً عن توماس وثروته .

- ماذا يفعل الرسام في زمن الحرب؟ سألها .

- يرسم! إجابته ولكن الأمر بدا وكأنها أنانية منها ورغم أنها شعرت بالخجل من تبرير عملها للرجل إلا أنها أجابت بسرعة ، أنا لا أعرف أن أفعل شيئاً غير الرسم كما أنني أهب المال للإغاثة الروسية أو الصينية أو الصليب الأحمر أو غيرهم ، أنه أفضل

شيء أستطيع أن أفعله لأنني لم أتعلم شيئاً غير الرسم ، توقفت عن الكلام قليلاً وكأنها شعرت بالخوف مما فعلته . ما الذي جعلها تدخل في مثل هذا التفسير التبريري وكأنها ترغب أن يعرف هذا الرجل أي مواطنة رائعة هي في الحقيقة .

بالنسبة له كان المدنيون مشغولين في الحرب كأنهم كلاب صيد تلتقط العصافير ربما يكون الأمر جيداً بالنسبة لهم ولكنه لم يكن يحب أن يسمع عنهم شيئاً ، شعر أنهم يتوقعون منه أن يكون ممتناً وهو ليس كذلك في الحقيقة ، لم يكن يهتم ماذا يفعل الآخرون فليس هو الذي يقود هذه الحرب ثم فكر قليلاً أن هذا الوضع ليس مثل وضع ليلة البارحة نظر إلى المرأة بجانبه ، كانت تبدو أجمل من ليلة أمس ، من المدهش كيف يمكن للمرأة أن تسهر كل الليل في طائرة وتبدو نظيفة وجذابة هكذا ، أحس بخشونة ذقنه ورطوبة في عينية ، بدت شهية فاتنة تذكر كيف كانت تنام بنعومة بين ذراعية وأخذ يتساءل ماذا يمكن أن يفعله الآن .

– لقد تخيلت أن كيت ميرلين أكبر عمراً ، قال وهو يفكر بصوت عال ، هنا وهناك فقط أدركت كم هو أصغر منها وكم هو شاب بعد ، في الرابعة والعشرين أو ربما أقل رغم أن صحته وثقته بنفسه إضافة إلى وجهه العبق أعطوه عمراً أكبر مما هو عليه ، لماذا لم تفكر بهذا الأمر من قبل . أحست بالرعب وهي تفكر ماذا أنا بفاعلة؟ هل سأجعل نفسي مثل أولئك النسوة اللواتي يقعدن بلا أزواج ويتصيدن شباباً أصغر منهن سناً .

التفت إليها وابتسم .كانت عيناه تقولان : أنا أعرف عنك ، أعرف من أنت «عاد الرجل كما كان ليلة أمس ، الرجل الواثق الذي يتكلم جسده بدلاً من لسانه ، هذه الموهبة التي يمتلكها في صمته تعمل فيها عمل السحر ، بدا وكأنه يعرف هذا الأمر ، مد يده بتراخ ووضعها خلف رقبتها حيث ينعم شعرها أكثر ويصبح مثل ريش البط ، ارتاح جسدها تحت سيطرة ذراعه نعم «إني كذلك» قالت وهي تناقض نفسها إني في الخامسة والثلاثين .

«أنت كذلك؟» قال لها! أحست بتغيير في موقع يده ، بدت يده مختلفة وكأنها ارتكبت خطأ ولم تعد تدري أين موضعها ، كانت مثل يد ترغب في الانسحاب وإعادة التقدم بأدب . أخذ الرجل يفكر في الخامسة والثلاثين ! أنها كبيرة ، أصبح الأمر مختلفاً الآن ، أيضاً كونها رسامة لا بد أن في الأمر خدعة ما . أحس وكأنه

تورط في أمر لا يفقه منه شيء لا بد أنها تعلم أكثر مما يعلم هو أو أنها كانت تسخر منه ، ربما اعتقدت أنه شخص بسيط بدون خبرة وأنها كانت تتمتع بنصب فخ له .

شعرت المرأة بأن أمراً سيئاً ومؤلما قد وقع ، لم تستطع أن تسميه ولكنها تشبثت بخططها لليلة أمس لأنها كانت سعيدة وراغبة في ذلك قالت بصوت حرج وكأنها لا تثق بالكلمات التي تنطق بها - هل ستبقى في نيويورك؟

«لا أظن ذلك» أجابها وأعطاه الحوار فرصة لسحب يده وإشعال سيجارة ، قد يكون الأمر ممتعاً في نيويورك ، فكر قليلاً من الممكن أن يقابل كل هؤلاء المشاهير الذين تعرفهم أو أن يتجول معها في المورركو والكولوني وغيرها من الأماكن للتعرف على أصدقائها . قد يكون شيئاً لم يعهده من قبل ، في الخامسة والثلاثين ومشهورة أيضاً إلا أنه لم يشعر بالراحة تجاه هذه الفكرة لم تكن هذه المنطقة المألوفة ولم تكن هذه فكرته حول قضاء وقت ممتع ، كانت الفكرة معقدة بعض الشيء وغير آمنة سوف لا يعرف ماذا يفعل ثم ماذا عن زوجها؟

ألا تعرف؟ سألته مرة أخرى . لم يعجبه السؤال . ظهرت وكأنها تريد أن تملي عليه الأوامر أو أنها ترغب في السيطرة عليه ، دب فيه الشك فجأة .

- «ما الذي تريد أن تفعله» أصرت على سؤاله مرة أخرى .

- «سوف أذهب إلى البيت أولاً» قال لها «إلى سبرنغفيلد! لم يبدوا أنه يحاول فرض سيطرته كما فعلت هي ربما تظن الآن أنه أبن بلدة صغيرة في مساتشوتس ولكن الأمر سيان عنده .

- انتابته البهجة عندما فكر بسبرنغفيلد ، سوف يقضي وقتاً ممتعاً هناك ، ربما يذهب إلى بوسطن حيث يعرف طريقه جيداً ويتمتع بوقته بطريقة مختلفة . ربما في النهاية يذهب إلى نيويورك لقضاء عدة أيام لوحده وضمن شروطه . لم يكن يريد أن يشوش تفكيره أو يدخل بأمر لا يستطيع إدارته ، كان يرغب فقط أن يقضي وقتاً مريحاً دون أن يقلق تفكيره بشيء ولم تكن هي ضمن خططه فهو لا يعرف شيئاً عن مشاهير النساء الأغنياء في عمر الخامسة والثلاثين .

شعرت المرأة بالبرودة تسري في عروقها لمدرجة حاولت أن تتماسك جيداً لكي لا ترتجف ، أخذت تفكر بحالها ، أمرأة في منتصف العمر تحاول أن تصطاد شاباً يافعاً ،

لا بد أن هذا ما يفكر به الآن لقد قدمت نفسها له ورفضها ولم يرغب بها ، كانت كبيرة جداً بالنسبة له . يا ليت الطائرة تسرع أكثر حتى تستطيع الاختباء منه ، يا ليتها لم تجلس بجانبه . لم تستطع أن تحمي نفسها من الصدمة التي تلقتها بسبب صدها له وشعرت بالخجل والبؤس من مجرد ما يمكن أن يكون قد ظن بها .

حلقت الطائرة شمالاً باتجاه النهر الشرقي وظهرت المدينة تحت الضوء الأزرق وكأنها أثار قديمة ، الأبراج بدت مثل العواميد الضخمة المزروعة في الضباب بأسطحها الحادة المشققة أما ناطحات السحاب المربعة فكانت تشبه معابد بيضاء قديمة أو قلاع ضخمة ، لم يكن هناك أثر للحياة في تلك المقالع الاسمنتية الفظة ، كانت جميلة تهز القلوب تخيلت المرأة أن هذه المدينة كانت هكذا منذ مئات السنين ضخمة ميتة .

انحنى الرجل إلى الأمام لينظر من النافذة ، جميلة أليس كذلك؟ قال لها الرجل كان يعني تماماً ما يقول ، كان هذا ما رآه .

استحال الأمر عادياً . لم يعد يهمها ما يفكر بها فقد كان غبياً جداً لكي تهتم به ولكنها كانت تدرك بأنها تكذب على نفسها فلم يتغير شيء من الحقيقة التي لن تستطيع الهروب منها وهي أنه كان بإمكانه امتلاكها بسهولة ولكنه لم يرغب بذلك .

كانا آخر من نزل من الطائرة . بدا وكأن باقي المسافرين يحاولون عرقلة طريقهما عمداً . أرسلت المرأة حمالاً ليطلب لها تكسي ، على الأقل لتهرب من وجوده بأسرع وقت ممكن . عندما رأى التاكسي أمامها سألها ألا تستخدمين سيارات المطار؟

كلا . . . لم تطلب منه أن يركب معها لتوصله إلى المدينة ساعدها في حمل حقائبها إلى السيارة «لا تتعب نفسك» قالت له سيأخذها الحمال . بدا مرهقاً قليلاً من الرحلة ، «حظاً طيباً» قال لها وهو يغلق الباب خلفها أرجو أن أراك مرة أخرى في مكان ما ، كانت كلمة تقال فقط» . حظاً طيباً لك قالت له تمنت أن يكون صوتها رقيقاً ودوداً ولكنها لم تحاول النظر إليه .

– إلى أين يا سيدتي؟ . . . سألها السائق أعطته عنواناً وتعمدت أن لا تلتفت إلى الرجل الذي كان يودعها مؤشراً بيديه عند حافة الطريق .

– كان يمكن أن يكون الأمر ممتعاً فكر الرجل لنفسه وهو يراقب التكسي يمضي قدماً باتجاه الطريق السريع . ولكن لا وحق الجحيم! لا أريد تعقيدات أخرى ، كان من

الممكن أن ينتهي الأمر هكذا ، بدأ يشعر بالارتياح ثم لم يعد يفكر بالأمر ، لم يرغب أن يعكر صفاء إجازته بالأسئلة والمشاكل ، أخذ يفكر بسبر نغفيلد وبدا وجهه بيضاوياً مبتسماً الآن .

كان على عجلة من أمرة ليصل إلي المدينة ويبدأ . . . لا يريد أن يضيع تفكيره في تعداد الوقت الممتع القادم بدأ يفكر بإجازته ونسي أمر المرأة تماماً .

مرت السيارة على عدة مداخل من المطار ، انحنت المرأة إلى الخلف وأخذت نفساً عميقاً لتهدئ من روعها وتخفف من ألم الحرقة التي اشتعلت في صدرها .

أغمضت عينيها بيديها «أظن أنني تعبت جداً» قالت لنفسها هذا ما ظنت أنها تريد أن تفكر به أنه ليس أمراً يبعث إلى اليأس أنا تعبت فقط ، أجبرت نفسها على الاقتناع أظن السبب هو أنني سهرت الليل كله في الطائرة .

١٩٤٨

أيه . ب . وايت

الشجرة الثانية بعد الزاوية

عن «ذي نيويوركر»

«هل تخطر لك أفكار غريبة ؟» سأله الطبيب !

لم يفهم السيد تركسلر تماماً ، قصد الطبيب ، أجاب متسائلاً :

«أي نوع من الأفكار»؟

«الغريبة» ! رد الطبيب . كان صوته ثابتاً وهو يراقب مريضه ، يلاحظ أي تغيير بسيط في تعبيرات وجهه ، رعشة ، جفلة أو رمشه عين . بدا لتركسلر أن الطبيب لا يراقبه عن كثب فحسب بل يحاول التسلل نحوه ببط مثل سحلية تراقب حشرة للانقضاض عليها .دفع تركسلر كرسيه قليلا إلى الخلف واستعد للإجابة . كان على وشك أن يقول نعم ، إلا أنه أدرك أنه لو أجاب بنعم على هذا السؤال ، فلن يستطيع الإجابة على السؤال التالي . . . أفكار غريبة أفكار غريبة هل مرت به أفكار غريبة ؟ منذ كان عمره سنتين وهو لا يرى ألا أفكار غريبة .

أحس تركسلر بالوقت يمر بسرعة وأنه بحاجة إلى أن يجد جواباً ، فهؤلاء الأطباء النفسيون أشخاص مشغولون ،مثقلون بالعمل ولا يجب أن نتركهم ينتظرون ، ربما يكون المريض التالي جالساً الآن في غرفة الانتظار ، وحيداً قلقاً يتنقل بين المقاعد ورأسه مفعم بأفكار غريبة ومخاوف مختلفة ، مسكين قال تركسلر لنفسه لابد أنه يجلس وحيداً في تلك الغرفة اللعينة ، يحدق في خزانة الملفات ويتساءل إذا كان

يجب أن يخبر الطبيب عن ذلك الحدث الذي عصف به ، في باص شارع ماديسون .

لنر تلك الأفكار الغريبة ، عاد تركسلر بذاكرته عبر ذلك الممر المرعب من السنين لينبش عن جواب قد ينفعه ، شعر بعيني الطبيب تخترقانه ، وأن الوقت يمضي بسرعة ، لا تكن حي الضمير لدرجة كبيرة ، قال لنفسه ، إذا عثرت على فكرة غريبة في كيس الذكريات فأخرجها وانطلق بها . إن رجلاً مثلك يملك رصيداً ضخماً من الأفكار الغريبة لن يعجز عن العثور على واحدة . نبش تركسلر في كيس ذكرياته وتوقف قليلاً أمام إحدى الأفكار كما يتوقف الطائر الطنان في العشب .كلا ليست هذه ! بحث عن فكرة أخرى ، تلك التي تدور حول القرد الهندي القصير الذيل ، توقف قليلاً . كلا ليست هذه أيضاً .

أدرك تركسلر أنه يجب أن يسرع ، فقد استخدم ما يقارب أربعة ثوان منذ أتاه السؤال ، لكن الوضع كان معجزاً بعض الشيء ، مرة أخرى وجد نفسه متورطاً في وضع معجز وسيئ . أخذ يسأل نفسه متى ستكف عن حشر نفسك في الجيوب ؟ حاول مرة أخرى وهذه المرة توقف عند فكرة المصح حيث القضبان كانت تبدو محززة ومنكمشة على بعضها ... كلا ليست هذه !!

نظر إلى الطبيب نظرة مباشرة وأجاب بهدوء : كلا لم تمر علي أبداً أفكار غريبة!

أخذ الطبيب نفساً من غليونه ثم نفخ الدخان باتجاه رفوف الكتب الطبية . كان تركسلر يلاحق بنظراته مسار الدخان ، تمكن من قراءة أحد عناوين الكتب وهو النظام البولي والتناسلي ، سرت بجسده رعشة خوف وأجفل وهو يشعر بألم ، نتيجة وجود حصى في كليته تحركت فجأة تذكر عندما دخل عيادة طبيب لأول مرة وهو طفل ، وكيف نظر خلسة إلى رفوف الكتب وتذكر الرعب الذي انتابه حينها وقميصه المبلل تحت ذراعيه .

تذكر الكتاب حول مرض السل ومعرفته الفجائية بأنه قد وصل طوراً متقدماً من المرض ومشاهدته السريعة للنزيف ، تنهد بإعياء . لقد مرت أربعون سنة وأنا ما أزال أعاني من عنوان ذلك الكتاب الطبي . أربعون عاماً وأنا لا أستطيع أن أثبت على حصان هذه الحياة العنيد . لاعجب إذن أن أجد نفسي جالساً هنا في هذا المكان

الموحش في نهاية عصر هذا اليوم الكئيب، أكذب أمام الطبيب حول أفكاري الغريبة وهو ينظر إليّ متعباً. مرت هذه الفترة ببط ثم نفض الطبيب غليونه بعد عشرين دقيقة ونهض تركسلر يحاول أن ينقض رماد أفكاره ووقف ينتظر. ابتسم الطبيب بدفء وأشار بيده نحوه قائلاً : إنك لا تشكو من شيء، كنت تتهرب مني وأنا أطرح الأسئلة وهذا يعني أنك خائف.

أهذا صحيح ؟ أجاب تركسلر وهو يحاول افتعال ابتسامة «نعم أظن أن الأمر هو كذلك» صافح تركسلر الطبيب ثم انطلق بتردد عبر المخرج ماراً بغرفة الانتظار. هناك رأى المريض التالي كان رجلاً متورد الوجه نحيفاً يجلس على الأريكة ويحرك قبعته بعصبية ويحدق مباشرة في الملفات. كان المسكين يبدو خائفا لابد أنه قرأ في مجلة تايمز أن أمريكياً من كل اثنين سيموت بمرض القلب قبل حلول الساعة الثانية عشرة من يوم الخميس المقبل. إنهم يرددون هذا في الصحيفة كل صباح وربما هو يفكر أيضاً بذلك اليوم في باص شارع ماديسون.

عاد تركسلر بعد أسبوع إلى العيادة واستمر يزور الطبيب لعدة أسابيع تلت ودائماً في فترة بعض الظهر عندما تتكثف الأبخرة حول دماغه وتدب الظلمة في أجزائه الشرقية. لم يشعر تركسلر بأي تحسن مع مرور الوقت وأصبح العمل مستحيلاً ثم اكتشف أن الزيارات صارت تأخذ طابعاً روتينياً، رغم أنه لم يكن يتطلع إلى هذا الروتين إلا انه استسلم للأمر الواقع تماماً كما حصل معه قبل عدة سنين عندما استسلم للعلاج ولمدة طويلة، لدى طبيب أسنان بددً له وقته على سنتين ميتتين إلا أن الأمر الآن أصبح غطاً أكثر إدراكاً لدى المريض، كل جلسة كانت تبدأ باستعادة سرد الأعراض : دوار في الشارع والألم الناتج عن تقلص عضلات أسفل الرقبة ، الخوف من شر مرتقب ، تيبس جلدة الرأس مع عدم القدرة على التركيز، فترات الكأبه والحزن والشعور بالضغط والتوتر والغضب من عدم القدرة على العمل، القلق على العمل الذي لم ينجز والغازات التي تظهر في المعدة ••• أغبى مجموعة من الأعراض العصبية في العالم.

كان تركسلر يفكر كلما أعاد سرد هذه الأعراض طوعاً أمام الطبيب ، الذي يخرج عليه سؤال بعد أن يصغي بانتباه لهذا السرد : هل عثرت على شيء يمكن أن يريحك

ويجيب تركسلر فوراً : نعم كأس من المشروب ، يحني الطبيب رأسه وكأنه يعلم بالأمر .

مع ازدياد شعوره باعتياد هذا النمط في العلاج ، أصبح تركسلر يحدد نفسه بالطبيب ويضع نفسه في مكانه ، ربما كان هذا نوعاً من التهرب كما اعتقد ، لكنه على كل حال ، لم يكن بالأمر الجديد عليه . فقد كان تركسلر عندما يركب سيارة الأجرة ، يصبح فوراً كأنه هو السائق ، يرى العالم من زاويته ينظر إلى مشاكل السير والتعرفة وكل شيء ويتعلق بها من خلال عيني انتوني روكو أو إيزيدور فريدمان أو ماثيوسكوت . أما في دكان الحلاقة فكان تركسلر هو الحلاق ، يلف أصابعه حول المشط ويضع على مكانه العطور .كان شيئاً طبيعياً إذن أن يأخذ تركسلر مكانه الطبيب ، يسأل الأسئلة وينتظر الإجابات . أصبح أكثر اهتماماً بالطبيب وبهذه الطريقة أحب الطبيب أكثر بعد أن وجده مريضاً سهلاً .

كان يجلس في منتصف الزيارة الخامسة ، عندما التفت الطبيب إليه فجأة وسأله ما هو الشيء الذي تريده ؟

– «لا أعرف» أجاب تركسلر بصعوبة ، «لا أظن أن أحداً يعرف الجواب لهذا السؤال»

– «بالتأكيد يعرفون» . . أجابه الطبيب .

– «هل تعرف أنت ما الذي تريده ؟» سأله تركسلر بضيق

– «بالتأكيد» أجاب الطبيب لاحظ تركسلر أن الطبيب حرك كرسيه إلى الخلف بعيدًا عنه ، أطلق تركسلر ابتسامة صغيرة ومثل أرنب مذعور ، قال لنفسه انتبه الآن كرر السؤال مرة أخرى للطبيب وبشدة هذه المرة : «ما هو الشيء الذي تريده ؟» أرجع الطبيب كرسيه مرة أخرى أمام سائله ثم أجابه قائلاً : «أريد أن أبني جناحًا جديداً ملحقاً ببيتي الصغير في وست بورت ، وأريد أن أحصل على نقود أكثر وعلى فرصة لأعمل الأشياء التي أرغب في عملها .»

كان تركسلر على وشك أن يسأله : «ما هي الأشياء التي ترغب في عملها ؟» ولكنه أمسك نفسه ، خوفاً من أن يغالي في الأمر ، ويخسر الجولة وثم··· ما الذي يحصل هنا بحق الجحيم أنني أدفع ١٥ دولاراً للطبيب من أجل هذه الجلسات ثم

أقوم بعمل نفس الشيء فأنا أسأل الأسئلة وأوزن الأجوبة··· يريد جناحا جديداً··· إن هذه قطعة مسرحية جديدة جاءته ليفكر فيها··· جناحاً جديداً !!

هدأ تركسلر قليلا ثم عاد إلى لعب دور المريض طوال الوقت المتبقي من الزيارة والتي انتهت بود وهدوء . أعاد الطبيب التأكيد له بأن مخاوفه هي سبب مرضه وأنها لا تستند على أسس ، تصافح الاثنان وغادر تركسلر وهو يبتسم .

سار عبر غرفة الانتظار الخالية وهو يشعر بدوار خفيف ، تبعه الطبيب حتى الباب كان الوقت متأخراً والسكرتيرة قد غادرت المكتب··· «مع السلامة» قال تركسلر ثم نزل إلى الشارع واستدار غرباً باتجاه شارع ماديسون وهو يفكر بالطبيب الذي بقي وحده بعد عمل ساعات في المكتب الصغير . رجل يعمل ساعات أطول بكثير من سكرتيرته إنه مسكين وخائف ومثقل بالعمل ويريد جناحاً جديداً .

كان الجو في المساء صافياً والحديقة العامة تبدو خضراء جذابة ، وضوء النهار يسحب آخر خيوطه عن الجدران الحجرية وطوب البنايات يُسبغُ منظراً ساحراً على الشارع . أخذ تركسلر يفكر بالشيء الذي يريده .كان يعرف ماذا يريد وماذا يريد كل الرجال ، كان سعيداً من ناحية أن هذا الشيء لا يستطيع أن يعبر عنه ولا أن يحصل عليه ولكنه لم يكن جناحاً إضافياً بالتأكيد . اكتفى بتذكير نفسه أنه كان شيئاً عميقاً لا هيأة له وصعب التحقيق وهو يسبب المرض للرجال . إنك حين تتسكع في الشارع الثالث وتنظر عبر مداخل البيوت وباتجاه الصالونات المعتمة ، يصبح بإمكانك أن تختار من بين هذه المجموعات الضالة أناساً لم ينسوا بعد ، يحدقون في قيعان كؤوسهم علهم يجدون فرصة لإلقاء نظرة أخرى عليها . وجد تركسلر نفسه يتجدد . عندما تذكر أن ما يريده هو شيء صغير جداً ولكنه عظيم وأنه رغم كونه مشتقاً من طبيعة الأعمال الكبيرة والحب الفتي والأغاني القديمة والعلاقات الصبيانية الحميمة ، إلا أنه لم يكن أي شيء من هذه الأشياء وأنه لم يستطع تحديدها ، أو اختيارها ، إن أي رجل يحاول أن يحددها في عيادة الطبيب الخاصة سوف يقع على وجهه .

أحس تركسلر بالانتعاش . فقد زال عنه المرض فجأة وانقلب إلى صحة وغاب عنه الدوار . كان هناك شجرة صغيرة تقف بينه وبين الضوء ، بدت كأنها تشبعت بالماء وأوراقها مذهبة الطرف ، مفعمة بالروعة والإبداع . أحس تركسلر ولأول مرة حين

ارتجف أن الرجفة أصبحت خفيفة ، لم يعهد مثل هذه الخفة من قبل خاصة وهو يرى هذا الاضطراب الطبيعي في المشهد الجميل . أريد تلك الشجرة الثانية على الزاوية كما هي الآن قال وهو يجيب على سؤال وهمي من طبيب وهمي . شعر ببعض الكبرياء وهو يدرك أن ما يريده لا يستطيع أحد أن يهبه ، وأن ما يملكه لا يستطيع أحد أن يأخذه .كان مرتاحاً لكونه مريضاً ولكنه لم يشعر بالحرج من الخوف ، في غمرة خوفه لمح في قلبه ريشاً لامعاً ينبت لعصفور شجاع .

ثم فكر بالطبيب مرة أخرى ، كيف يعيش وحيداً وتعباً ومرتاعاً وشرع يغني وروحه ترف مع صوت ميرمان القوي .عبر شارع ماديسون واستقل الباص المتجه إلى وسط المدينة ، عبر الطريق الطويل عبر شارع ٢٥ قبل أن يعثر أخيراً على الفكرة المناسبة التي تليق بأن يسميها غريبة !

١٩٤٩

اليزابيث بيشوب

أولادالمُزارع

عن «هاربرز بازار»

على مزرعة كبيرة تبعد عشرة أميال عن أقرب بلدة ، عاش مزارع كادح مع زوجته وبناته الثلاثة الصغار ، وطفلين من زواجه السابق ، هما صبيان عمرهما ١١ و١٢ سنة . كانت زوجته الأولى وهي ابنة قسيس امرأة بسيطة ، أطلقت على ولديها أسماء كاتو وإيمرسون . في حين كانت الزوجة الثانية امرأة رومانسية ومفرطة في الكرم ، لأطفالها على الأقل ، وقد سمت بناتها الثلاث لياليولا ، وروزينا ، وغريسي بل .

كما يوجد في المزرعة تشكيلة من الحيوانات الأليفة ، كالخيول والأبقار والدجاج إضافة إلى عامل بالأجرة يدعى جد .

تعود ملكية المزرعة إلى جد المزارع ، على الرغم من أن أجزاء منها قد بيعت من حين لآخر إلا أنها ظلت كبيرة ، وفي الحقيقة كبيرة جداً . البيت القديم في المزرعة يبعد مسافة ميل عن البيت الحالي ، ويقع على الطريق «*القديم*» . وقد احترق قبل عشرة سنوات ، نتيجة إصابته بصاعقة ، على أثرها انتقل جدا إمرسون وكاتو اللذان كانا يسكنان فيه ، مع ابنهما وزوجته الأولى طوال السنة أو السنتين اللتين عاشاهما بعد الحريق . البيت القديم طويلاً وكان منخفضاً وما تزال تنمو بجانبه شجرة صفصاف ضخمة ، تمكنت من الإفلات بأعجوبة من الحريق ، وما زالت تنمو بحيث أصبحت تغطي زاوية كاملة من السقف . أما البيت الجديد فقد أنشىء بجانب الطريق الجديدة

الجديدة المرصوفة ، كان عالياً ويشبه العلبة في شكله وكان مدهوناً باللون الأصفر ومسقوفاً بالصفيح اللامع .

بجانب شجرة الصفصاف ، كانت وجد الحظيرة الرئيسية للمندل القديم ، التي نجت أيضاً من الحريث ، ما زالت حتى اليوم تستخدم في تخزين القش ، إضافة إلى معظم آليات المزرعة . كان العامل الأجير «جد» ينام في ذلك المخزن كل ليلة فوق كوم من القش ، لكي يحرس تلك الآليات ، التي كانت ثمينة جداً وتكلف المزارع أكثر من قدرته .

ظهرت معظم تلك الحقائق في الصحف فيما بعد ، كما تبين أن «جد» العامل الأجير قد دأب ، هو والأب ومنذ ثلاثة أشهر على الذهاب إلى البلدة كل ليلة بحجة إنهاء أعمال ، متعلقة ببيع قطعة أخرى من الأرض ، إلا أنهما في الحقيقة كانا يقصدان البلدة لاحتساء بعض أقداح الخمر . فيما كان الولدان كاتو وإيمرسون ينامان في المخزن ، مكان جد لحراسة آلة الحصد وآلة نشر التبن وآلة توزيع الزبل وآلة جمع القش وغيرها من الآلات الغريبة ، والثمينة التي تحتوي على أسنان وأذرع ومخالب ذات حركات مباشرة وغريبة . كانت آلات ذكية في ظاهرها ، لكنها قليلة الحيلة لأنها كانت ما تزال تجر على الخيول .

الوقت شهر كانون أول والبرد مروعاً . البدر قد بدء يظهر فيما السقف المعدني لبيت المزرعة يلتقط ضوءه ، وكذلك بقع الطريق المرصوفة بالحصاء . بينما ظلت ساحة المزرعة شبه غارقة في الظلام . كانت الأم قد تركت الأولاد في الخارج ، بعد أن انتابتها موجه غضب لوجودهم في طريقها ، خلال تحضيرها للعشاء . كانوا يرتدون معاطف الماكينو الأميركية القديمة ، ويلعبون لعبة المركب الغارق في البحر . كانت هناك كومة من الألواح الخشبية في الساحة ، والتي كان والدهم يخطط لإصلاح بعض جوانب البيت بها . وعلى تلك الألواح جلست ليالولا وروزينا ببلاهة ، بعد أن أنقذهم كاتو ، الذي كان يقود السفينة واقفاً وبيده عامود تعليق الثياب يستخدمه كسارية . وعلى السفينة الغارقة التي كانت عبارة عن قن للدجاج كانت الطفلة غريسي بيل ترفع ذراعيها وتنظر حولها بقلق ، تكاد تبكي ، وهي تطلب النجدة ، فيما كان إيمرسون يسبح لإنقاذها . كان يسير ببطء واضعاً كعبه في مواجهة أصابع قدميه

في كل خطوة ، ملوحاً بيده بشكل دائري .

- تشجعي يا غريسي بل ، لقد كدت أصل إليك صاح بصوت عال وأضاف إن قواي تكاد تخور ولكني سأنقذك .

كان كاتو يواصل توجيه النداءات ، «السفينة تغرق إنشاً إنشاً ، السفينة تغرق إنشاً إنشاً»

صدى أصواتهم يتردد صغيراً ، وفضياً عبر الأراضي الريفية الباردة ، حرر القمر نفسه ، من ظلمة آخر حقل . وراحت أشعته تسطع بالتساوي فوق ملحمة بحرية خيالية تدور على البر . رفع إيمرسون غريسي بل بين ذراعية ، فيما تعلقت هي بشدة حول عنقه وراحت تطلق تنهدات عالية . ولكنه استدار بثبات إلى الخلف وراح يلاطم الماء بخطواته الصغيرة . ظلت غريسي تزعق وظل يردد سوف أنقذك يا غريسي ، سوف أنقذك يا غريسي ، لكن دون أن يغير من وقع خطواته .

فتحت الأم ، وزوجة الأب الباب الخلفي فجأة وصاحت :

إيمرسون ضع الطفلة جانباً ، ألم أقل لك أنه في المرة التالية التي تتسبب فيها ببكاء هذه الطفلة فسوف أضربك ، حتى لا تعود تقدر على الصياح . أليس كذلك ؟

- يا أماه كنا فقط . . . . .

- ما بالكم أيها الاولاد ، على أي حال ، تتشاجرون وتتصايحون من الصباح إلى المساء ، وأنتما أيها الصبيان لقد أصبحتما كبيرين . . . واستمرت الكلمات القبيحة تنطلق من لسانها ، باتجاه الأطفال الذين وقفوا في الساحة مثل ممثلين مصعوقين على المسرح . ولكن كما كان أبوهم يقول : إن نباحها أقوى من عضتها ، وخلال دقائق ، وكأن في رقة القمر سراً أخرسها توقفت عن الصياح ، قالت بصوت خفيض : حسناً أيها الأولاد ! ما بالكم واقفين تنتظرون هكذا . ادخلوا إلى البيت لتناول العشاء ، كان المطبخ ورائحة البطاطا المقلية والمصباح الزيتي الدافئ ذو الوهج الأصفر على الطاولة ، يطلق شعوراً بالأمان والطمأنينة جلس الولدان على جانب واحد ، فيما جلت البنتان الكبيرتان على الجانب الآخر ، وجلست غريسي بل على حضن أمها عند طرف الطاولة ، كان الأب وجد قد نزلا إلى البلدة ، وكان هذا أحد أسباب سوء المزاج الذي اعترى الأم طوال فترة بعد الظهر . أكل الجميع في صمت ، فيما عدا صوت الأم وهي

تدلل غريسي بل ، وتحاول أن تساعدها في شرب الشاي الممزوج بالحليب في الفنجان الأبيض . أكلوا البطاطا المقلية ومعها قطع من لحم الخنزير ، إضافة إلى قطع الخبز وصحون المربيات .

شربوا الشاي الساخن مع الحليب . كان ستار الطاولة غامق اللون منقطاً برسوم صغيرة لأزهار الخشخاش الصفراء ، التي كانت تلمع بلطف مع لمعة المخللات التي بدت على المائدة ، وكأنها نقط سوداء وحمراء محاطة بياقوت أحمر شفاف .

«الليلة هي ليلة فتات الخبز» ، كان كاتو يفكر بعد أن استطاع تمرير أربع قطع من الخبز من تحت ستار الطاولة الزيتي ، إلى داخل سترته . إذ بدت أفكاره وكأنها مسموعة وعالية بداخله ، نظر بحذر إلى شقيقتيه ليرى ما إذا لاحظتا شيئاً ، لكن ملامحهما الباهتة لم تظهرا شيئاً فيما هما تنظران إليه بدون أي تعبير ، على وجهيهما . على كل حال ، كانت الليلة هي ليلة فتات الخبز ، ماذا عساه سيفعل غير ذلك . في المرتين الأخيرتين ، التي قضاها هو وإيمرسون في المخزن القديم ، استخدم قطعاً من جرائد ممزقة ، لأنه لم يستطع العثور على حصى بيضاء صغيرة في أي مكان . فقد عاد هو وأخوه إلى البيت نصف نائمين ، تحت الضوء الأزرق الشاحب قبل ظهور الشمس . كان سعيداً لعثوره على قصاصات صغيرة من الورق المنقط ، المتناثر على الطريق هنا وهناك . كان يسقطه من جيبه من وقت لآخر دون أن يجرؤ على الالتفات إلى الخلف . قد نجحت طريقته . لكنه كان يطمح إلى ضوء قمر لانهائي وحصى تلمع مثل النقود الفضية . لم يكن إيمرسون يعلم شيئاً عن خطته - أو عن نظامه على الأرجح - لكن الأمر سار بدون مساعدته وعلى الرغم من جميع العوائق .

أنزلت الأم غريس بيل عن حضنها وبدأت بنقل الصحون عن الطاولة إلى المجلى .

- أظن أيها الصبيان انكما ستذهبان إلى الحظيرة هذه الليلة ؟

قالت بسخرية :

احتج إيمرسون قليلاً .

- والآن اجمعوا أشياءكم ، واذهبوا قبل أن تتأخروا . ربما سيقوم أبوكم يوماً ما بإصلاح الأبواب ، أو بناء حظيرة جديدة اذهبوا الآن وقامت برفع إبريق الشاي عن الموقد .

لم يستطع كاتو العثور على قفازيه المحبوكتين . ظن أنهما على الرف في الزاوية ، التي يضعون فيها حقائبهم المدرسية ، أخذ يبحث عنهما بطريقة منهجية في كل مكان ، وفي النهاية انتبه إلى الابتسامة الماكرة على وجه لياليولا .

– ماما ، إن لياليولا اخذت قفازي وخبأتهما .

– لياليولا هل قفازاه معك ؟ مشت أمها نحوها .

– دعيها تعطيني إياهما .

– قالت لياليولا : أنا حتى لم أرهما وأخذت تبكي .

– والآن انظر يا كاتو ماذا فعلت ، وأنت يا لياليولا اخرسي بحق الله ، وأنتما أيها الصبيان اخرجا من هنا بسرعة يكفيني مشاكل لهذا اليوم .

عند الباب قال إيمرسون : إن الجو بارد يا أمي .

– حسناً إن لدى جد بطانيات ، هيا اذهبا وأغلقا الباب . لقد بدأ البرد يدخل إلى المنزل .

كان الجو في الخارج مشرقاً كالنهار ، وبدت الطريق المرصوفة رمادية ترن تحت أقدامهم ، التي تخدرت فوراً مع البرد ، أخذ البرد يضرب شعرهما وأنفيهما تاركاً شعوراً بالألم بسبب الهواء الثلجي ، لكنهما حين حاولا تدفئة أنفيهما بفركهما على الطبقة الداخلية من معطفيهما الصوفيين ، كانت الرطوبة المتجمدة لهما بالمرصاد تاركة شعوراً أسوأ . فاستسلما للأمر ووجها أنفاسهما نحو بعضهما البعض ، بينما كانت تتلون بالأبيض ثم تختفي . أصبح القمر خلفهما ونظر كاتو خلف كتفه فرأى السقف المعدني لمنزل المزرعة يلمع بلون أزرق ، وبدت فوقه النجوم زرقاء أيضاً ، أو ربما صفراء صغيرة جداً ، ولم يكن بالإمكان رؤيتها جميعها . إيمرسون يتكلم بهدوء ويتوسع في الحديث ، حول موضوعه المفضل ، وهو كيف يمكنه الحصول على دراجة رآها قبل فترة من خلال زجاج إحدى محلات بيع الخردوات في البلدة؟ واستمر في حديثه دون أن يعيره كاتو اهتماماً كبيراً ، لأنه أولاً يعرف تقريباً ، كل ما يقوله أو سيقوله إيمرسون حول موضوع الدراجة . وثانياً لأنه كان مشغولاً بتفتيت شرحات الخبز التي خبأها في جيوب بنطلونه ، شرحتان في كل جيب بدت له وكأنها تحولت إلى كتل بدلاً من الفتات . كان من الصعب سحب القطع الصغيرة من جيبه ونثرها

على الطريق من وقت لآخر ، من تحت سترة معطفه .

لم يكن إيمرسون يفرق بين الطرق الشريفة وغير الشريفة ، في الحصول على الدراجة . أحياناً يناقش بخداع مالك مخزن الخردوات ، لإرسالها له بالخطأ أو مكافأة له على عمل بطولي ، أحياناً كان يتكلم عن استخدام قاطعة زجاج رآها مرة بين القطع الرائعة . التي يستخدمها أبوه ضمن آليات المزرعة ، فلو كان يملك واحدة مثلها ، لصنع شقاً في زجاج نافذة المخزن في الليل ، كان يقول أيضاً بأنه سيعمل بالأجرة في الصيف القادم لدى المزارع ، الذي يملك مزرعة بجوارهم وكان يرى نفسه يقوم بأداء أعمال مذهلة كتجميع القش وحلب الأبقار .

لكن بلاكيدر العجوز ، لا يدفع للصبيان الكبار سوى أربعة دولارات أسبوعياً ، قال له كاتو بتعقل ولن يدفع لك هذا المبلغ أيضاً .

– حسناً .

أخذ إيمرسون يلعن ويبصق على جانب الطريق؟ ثم تابعا المسير بينما القمر يرتفع بانتظام تدريجياً .

سرت أصوات همهمة في خطوط الهاتف ، فوق رؤوسهما وظنا أنها قد تكون أصوات المتكلمين على الهواتف ولكنها لم تكن تبدو مثل أصوات . كان الناقل الزجاجي الذي يحمي الأسلاك يلمع بلونه الأخضر الشاحب ، والأعمدة تبدو فضية بيضاء تحت ضوء القمر ، كان يخرج من كل عامود صوت هادر أعمق من همهمة الأسلاك ، بدا وكأنه صوت قفير من النحل . وضعا أذنيهما على الشقوق السوداء العميقة وحاول كاتوا أن ينظر من خلال أحدها وبالكاد ظن أنه رأى كتلة من النحل الأسود القزحي داخلها .

– لا بد أنها متجمدة جداً . قال إيمرسون :

– كلا أنها لا تتجمد بل تنام طوال فصل الشتاء .

أراد إيمرسون أن يتسلق أحد الأعمدة لكن كاتو حذره من أنه قد يتلقى صدمة . إلا أنه مع ذلك ساعده ورفع وركيه بيديه . ولكن إيمرسون لم يستطع الوصول حتى أدنى نتوء في العامود ، فلم يكن قوياً كفاية لأن يرفع نفسه .

أخيراً وصلا إلى مفترق الطرق ، ودخلا عبر حقل للذرة ، حيث سيقان النباتات

تقف بلا حراك وسط البرد . أسقط كاتو بعض فتات الخبز لكي يعلم مكان استدارتهما على سيقان الذرة . كانت الأوراق بلا لون ، وتعلقت كأنها أسمال أو قصاصات من ورق الكريب . أو كأنها بقايا اكشاك تقف في منتصف طريق معرض محلي . كانت سيقان النباتات أعلى من رأسيهما ، كالأشجار ، كما ظهرت خطوط مزدوجة من الأسلاك ، ذات الأشواك المتلألئة على طرفي طريق العجلات .

كانا كاتو وإيمرسون يتشاجران طوال النهار ، كل نهار تقريباً ولكن نادراً ما يتشاجران خلال الليل والآن كانا يتناقشان حول شدة البرد .

-ربما سيسقط الثلج قال كاتو :

- كلا ، قال إيمرسون إنها أبرد من أن تثلج .

- ولكن عندما يصبح البرد شديداً ، فإن الثلج سيسقط .

- لكنها عندما يصبح البرد حقيقياً ، وشديداً مثل الآن لا يمكنها أن تثلج .

- ولماذا لا يمكنها ؟

- لأنها باردة جداً ، على كل حال لا يوجد شيء من هذا في الأعلى ، ونظر إلى الأعلى . وفعلاً لم يكن هناك شيء ما عدا القمر الأبيض . كانت ا لسماء فارغة .

حاول كاتو أن لا يرمي فتات الخبز على التراب الناشف ، بين آثار عجلات العربة حيث لا يمكن أن يظهر ، وعند مجرى الدولاب كان يرمي أمام القطع الصغيرة الرمادية . لكنه لم يكن يستطيع أن يخمن اذا كانت خطته هذه ستنفعه في شيء أم لا .

في منزل المزرعة الأصغر ، كانت زوجة الأب تجهز نفسها للنوم وراحت تبحث عن لحاف إضافي ، لتضعه على لياليولا وروزينا وغريس بل اللواتي كن ينمن في فراش واحد ، وفي الغرفة المجاورة . ثم ورغم البرد وقفت برهة تنظر بقلق إلى اللحاف ذي النمط السداسي المتفرع ، والأبيض اللون أو ربما بلا لون تقريباً ، تحت أشعة القمر ، لقد كان دائماً لحافاً جميلاً ، وأمها هي التي قامت بحياكته ! ماذا كان اسم ذلك النمط من الخياطة ؟ ما الذي كانت تتذكره به ؟ وكأنه من بين لعب طفولية ضائعة أو من بين صفحات كتاب مدرسي ضائع ، بدت الصورة في مخيلتها حبة ثلج رقيقة .

أين هي هذه الحظيرة اللعينة ؟ سأل إيمرسون ثم بصق مرة أخرى . شعرا بالراحة

لدى وصولهما إليها ، ولدى رؤية تلك الصفصافة الأليفة ، ثم فتحا باب الحظيرة من جهة واحدة بيديهما اللتين لم يتبق فيهما شعور ، وبدت الحظيرة مظلمة في البداية ، ولكن سرعان ما أضاءت أشعة القمر أرجاءها . على اليسار كانت تقع المرابط المهجورة للأبقار والخيول ، وقد صُفّت الآلات المختلفة في وسط الطريق وعلى اليمين ، فيما كان القش المعلق على الجهتين فوق رأسيهما ، ولكن الجو كان أبرد من أن يشم المرء رائحة القش .

أين هي بطانيات جد ؟ لم يستطيعا العثور عليها ، وبعد أن بحثا في كل المرابط وعلى الأوتار الخشبية التي وضعت عليها أطقم الخيول ، سقط إيمرسون على كومة من القش ، أمام النكاشة قرب الباب وقال كاتو ربما يكون الأفضل أن ننام في المخزن العلوي ووضع يديه العاريتين على درجة السلم .

قال إيمرسون اني أشعر بالبرد الشديد ، ولا أكاد أستطيع أن أتسلق السلم . وكان يقهقه .

جلس كاتو أيضاً على كومة القش فوق الأرضية ، وأخذا يكومان القش فوق أقدامهما وجسميهما ، بدا الأمر غريباً ، فلم يكن له وزن ولا مادة بين أيديهما . كان أخف من الريش ولم يستطيعا تثبيته عليهما ، بل أنه كان يخزهما قليلاً .

قال إيمرسون : أنا متعب واستدار على جنبه واطلق عدة لعنات ، بدون انتباه كما أخذ كاتو يلعن أيضاً ثم استلقى على ظهره بجانب أخيه . كانت النكاشة موضوعة قرب رأسه ، أقراصها المسطحة الحادة الأطراف تومض باردة أمامه . واستطاع أن يرى خلفها تماماً آلة تجميع القش ذات الأشواك المنحرفة ، مرتبة في صف طويل تحت أشعة القمر . ومن مكان نومه وعلى نفس المستوى كانت الأشواك تشكل موجة من الفولاذ ، تتجه نحوه مباشرة على ألواح الأرضية . أما حوله في الظلام ، وتحت الضوء فقد اصطفت الآلات الأخرى ، ناثرة الزبل بظلها الضخم ، والحصادة مرفوعة على ذراع أمامي قوي بأسنانها المنشارية ، كأنها أسنان جندب عملاق وناشرة التبن بأشواكها الحادة معلقة في إحدى البقع المضيئة بعضها إلى الأعلى ، بعضها إلى الأسفل ، كأنها توقفت لتوها عن الرقص وانتقلت إلى وضع إغماء تخشبي . من فوق رأسيهما وبين رفوف المخزن العلوي كان يظهر كل شق في السقف القديم ، كانت نقاط

من الماء تبدو وكأنها شرائح من القمر مجمدة تسقط عليهم ، وعلى الآليات وعلى القش الرمادي ، ومن حين إلى آخر تسمع قرقعة بعض الألواح الخشبية ، أو طقطقة الأغصان الهشة لشجرة الصفصاف في الخارج .

فكر كاتو بسعادة ، في ذلك الأثر من الخبز ، الذي تركه على طول الطريق من المنزل ، وأنه لا يوجد طيور أيضاً ، أطربته الفكرة ، فهو سوف يعود هو وإيمرسون إلى المنزل ، كما فعلا في المرات السابقة قبل شروق الشمس ، وسوف يرى تلك الفتات وهي تقوده في طريق العودة ، من حيث أتى ، بيضاء وثابتة تحت الضوء الباكر .

ثم بدأ يفكر بأبيه ، وبالعامل الأجير جد في البلدة هناك ، وتخيل أباه في مطعم صغير ، مشرق مضاء بالكهرباء جدرانه زرقاء اللون والجو حار في الداخل . وهو يلتهم صحناً من الفاصوليا الحمراء الغامقة اللون . لقد ذهب مرة إلى هناك كان هذا ما أعطوه ليأكله . وفكر لوهلة وبازدراء ، بزوجة أبيه وأخواته من أبيه ، ثم عاد بتفكيره إلى أبيه . كان إيمرسون قد تمتم شيئاً حول جد العجوز ، وانسل بعمق في التبن . كانت أسنانهما تصطك ، حاول كاتو أ يضع يديه بين فخذيه لتدفئتهما ، إلا أن القش قد وقف حائلاً في طريقه . وبدء الصقيع البارد ينهشه ، ثم يذوب على جلد يديه الخدرتين ، وأحس بنفس الشعور ، الذي كان ينتابه عندما كان يأكل جيلو العنب الحامض ، الذي ظلت زوجة أبيه تصنعه كل خريف ، تماماً مثل العصى الصغيرة ، العصي الزجاجية المتيبسة تلسعه مثل الثلج ، وتذوب في الظلام على سقف فمه .

من خلال الباب ، نصف المفتوح بدت أعواد نباتات الذرة في الحقل مستقيمة وطويلة ، ما الذي يجري بين أوراقها المتعلقة بالأعواد ؟ ألا يجب قطعها على أي حال؟

هناك تقف سيقان الذرة وهنا تجثم الآلات . أدار رأسه ينظر إليها ، يجب حصاد كل هذه الذرة ، وبدت الحصادة وكأنها تقبض على يديه بشدة ، أما ماكنة جمع القش فبدت أسلاكها الملفوفة مثل فخ كبير .

كان يتألم كلما حرك قدمه ، شعر كأن قدميه حوافر حصان أو كأن عليهما حذوتين ، ولمس إحداها ، نعم أنها تماماً مثل حذوة كبيرة .

عدة الخيل معلقة على ألواح خشبية فوقه ، وقطعها المعدنية تلمع بلون شاحب

أزرق وأصفر مثل نجمات صغيرة .

إذا وقعت هذه الأجمة فوقه ، عليه أن يصبح حصاناً يجر النكاشة الثقيلة في الحقل البارد ، كانت العدة ثقيلة أيضاً . جرب وضع الطوق عليه عدة مرات فكان ثقيلاً جداً . لا بد أن يكون هناك حصانان . ربما توجب عليه إيقاظ إيمرسون على الرغم من أن نوم إيمرسون كان ثقيلاً .

بدت له أقراص النكاشة مثل دروع معلقة ، على جوانب سفينة ڤايكنغ ، كانت النكاشة سفينة تنطلق صعوداً نحو القمر ، والدروع تتدلى من جوانبها . كان عليه النهوض إلى مقعدها ويقودها . هذا المقعد الحديدي المثقوب ، لم يكن مقعداً مريحاً ولكن حين تجلس عليه يعطيك شعوراً بالقوة والراحة .

لكن كيف له أن ينطلق إلى القمر الذي ينحدر نحو التل . كلا بل هنالك أقمار . كان هناك صف كامل منها لا بد أنها أقراص النكاشة كلا لقد انقسم القمر إلى حزمة من الأقمار تنزلق إلى جانب بعضها البعض ، مرة تلو مرة تلو مرة .

التفت إلى إيمرسون وناداه باسمه ، لكن إيمرسون كان يغط في نومه قام بتثبيت ركبتيه في فراغات ظهر أخيه وضمه نحوه عند الخصر .

عند الظهر وجدهم أبوهم في نفس هذا الوضع .

ظهرت القصة في كل الصحف ، على الصفحة الأولى من الصحيفة المحلية ، وانتقلت وهي تجوب قرى الريف ، في عباراتها القصيرة ، في الصفحات الداخلية حتى وصلت إلى الساحل .

بكى المزارع بحرقة شديدة لمدة سنة ، ولسبب ما أطلق العنان لمشاعره بتعبير واحد ؛ إذ قام بطرد العامل الأجير جد .

١٩٥١

جي . ف . باورز

موت محظية

عن «ذي نيويوركر»

قضيت معظم فترة بعد الظهر ، أتجول في الحقول المشمسة التي تبدأ عند بابنا الخلفي وتمتد باستمرار مئات الأميال عبر ولايتي داكوتا .

وتخليت تدريجياً عن فكرة الصيد ، فقد أقنعتني الجنادب أن لا فائدة من التسلل والسرقة . حتى النوم في مثل هذه الظروف كان صعباً ، رغم أنني استطعت أن أتدبر أمري ، عدت متأخرة في المساء وعلى مائدة العشاء تعرفت على المبشرين الزائرين . كانا مندهشين ، كما يفعل معظم الزوار عادة عندما يرونني أجلس على المقعد يمين الأب مالت . كان الأب مالت كعادته طيباً وقام بالتعريف ، وقال أبتاي : «أقدم لكما ڤريتز» .

نظرتُ إلى القادمين الجديدين ، تلك النظرة الأولى التي تمكنني من التكهن إذا كان هذا الشخص يحب القطط أم لا يهتم بها ، كان واضحاً أنني لم أنل إعجاب ومودة العجوز الخسيس المسؤول عن الفريق ، لاحظت هذا بوضوح أما الآخر فربما نلت عنده حظوة ، لكنه لم يكن ذو شأن في معهد اللاهوت ، شعرت أنني لم أحقق شيئاً إيجابياً هنا .

«هذا هو مساعدي» قال الأب مالت وهو يشير إلي ، بهذه العبارة سدد الأب مالت ضربة إلى الرجل السمين الجالس على الطرف الآخر من المائدة ، مسكين لقد مرّ وقت ،ظننتُ فيه أنه يمكنني أن أعني له شيئاً آخر غير عدوه ، لكنه كان عدواً

وكنت مدركاً منذ البداية ربما بحكم غريزتي أنه كان عدواً رغم تودده لي في بعض الأحيان ، أعتقد أن هذا الرأي كان مكتسباً أكثر منه بالفطرة إذ كان بالطبع محدداً بإنسان وليس بالقطط عامة ، كان هذا الأمر في صالحه فقد حاولت أن أكون منصفاً ما استطعت حتى ولو أدى الأمر إلى قتلي .

كانت ملاحظاتي في التجارب الإنسانية تميل إلى الاعتقاد أن أحدنا فقط ، أنا أو الأب بيرنر سوف يسيطر في النهاية على الآخر ، أما بالنسبة لي فلم يكن من المفروض أن أشعر بالشك من الإنتصار في هذه المعركة لأني كنت أحظى بدعم صلب ، من الأب مالت ، لكن الأخير بدأ يهرم ويقترب من عتبة القبر ومع وجود الأب بيرنر وراءه لا أعلم إلى متى سيصمد أو بالأحرى كم سأصمد ، أنا لسوء الحظ فإن الشواغر في المناصب اللاهوتية غالباً ما تحسم بالقوة المجردة ، مع مسار الأمور الآن فإني أرى أن سلامتي تعتمد على بقاء الأب مالت ، وكلما فكرت بإجراء مصالحة أعود لأرى أن سلامتي تعتمد على بقاء الأب مالت ، أو اصطدم باستحالة الأمر بدون شك ، لكن إلى أي مدى سيبقى الأمر مستحيلاً «الله يعلم أنني لم أكن لأرهق تفكيري بهذا الموضوع لو لا تصديقي للإشاعات التي كانت تروج بأن الأب بيرنر سوف يخلف الأب مالت في هذه الأبرشية» ، أنا أحب العيش هنا وليس من طبيعتي أبداً أن أنسى أو أسامح خاصة فيما يتعلق بالأب بيرنر ، لكن من طبيعتي أن أتوصل إلى تفاهم ما مثلما تفعل الدول فيما بينها عند الضرورة ومثل هذا الحل يتطلب القليل من النيات الحسنة ، إذ لا يمكن لكلب أن يدلي بمثل هذا التصريح أو يتحمل العواقب التي تبدو صعبة في الأيام القادمة : تحولات وتحالفات وغيرها . . . . وهناك شيء قاتل في مسألة أن تكون محظياً ، لكن هذا هو الوضع الوحيد الذي يناسبني رغم أني لا أستطيع أن أبحث الأمر وأخجل أن أراهن عليه إلا أن فوائده ملائمة تماماً .

– «إننا نمر بشيكاغو كل يوم» قال رئيس بعثة المبشرين وبدا أنه يعود إلى النقطة التي كان قد بدأها حين وصولي ، كنت أعرف أن الأب مالت سيكون في الخارج تلك الليلة تلبية لدعوة من شيكاغو حيث يقوم الأباء الداعون بتنظيم إقامة عبادة تستمر أربعين ساعة ، هؤلاء يتبعون نظاماً حديث العهد في الأسقفية ويرغبون في ترك انطباع جيد ، يقومون في الوقت الحالي على الأقل بتسهيل الأمور بعض الشيء .

الشكر لهم على كل حال فقد أتاحوا الفرصة لبعض القساوسة في الرعية الذين

لم يكن باستطاعتهم الخروج أن يتمتعوا بالسفر إلى فلوريدا في الشتاء الماضي .

- «بعض الأحيان ، كنا نبقى في شيكاغو حيث يوجد أحد المبشرين الشباب ، كان يشبه متدرباً جديداً في لعبة الكرة ، لم يتح له المجال بعد لاكتساب خبرة في اللعب .»

- «يوجد لنا منزل هناك» قال الأول واسمه في الدين فيلبرت كما ينادونه ، كان الأب مالت يجد مدعاة للضحك في اسم فيلبرت ، مع أنه لم يكن يتذكره أحياناً .

- «ما هي نوعية هذا البيت» سأل الأب مالت ثم وضع يده على سماعته ينتظر الإجابة ، أجاب الأب فيلبرت بصوت مرتفع .

- «إن الأخوية تملك بيتاً هناك»

- ركز الأب مالت سماعته وهنا تدخل الأب بيرنر ليشرح للأب فيلبرت :

- أظن يا أبتي أن الأب مالت يقصد أن يسألك من أي حجر مبني هذا البيت» .

- «إنه طوب أحمر . . . . طوب أحمر» قال الأب فيلبرت بصوت مرتفع .

- «إن بيتي مبني أيضاً من الطوب الأحمر» رد الأب مالت .

- «لقد لاحظت ذلك» أجابه الأب فيلبرت .

- وجه الأب مالت سماعته باتجاه الأب فيلبرت مرة أخرى .

- «إني أعلم ذلك» كرر الأب فيلبرت الرد بصوت مرتفع .

- أحنى الأب مالت رأسه ورمى إلي قطعة من السمك ، لكنها لم تكن لتشكل وجبة هامة ،خاصة يوم الجمعة ، لن أشعر بالأسف إذا ذهبت مدبرة المنزل من هنا .

- «حسناً حسناً» وجه الأب بيرنر حديثه لتلك الشخصية الجاثمة خلف الباب بانتظاره فقد كان دائماً الأخير الذي يقوم عن مائدة الطعام ، أراهن أنها تقف هناك وتسترق النظر من شق الباب لتترك فيك شعوراً أنك متهم ، دخلت مدبرة المنزل إلى غرفة الطعام في حين خاطب الأب بيرنر المبشر الشاب وكان ماهراً في استجواب الشباب .

- «هل قرأت أياً من كتب كوستلر أيها الأب ؟»

- «اليسوعي ؟» سأله الشاب .

- «كلا بحق الجحيم ، إنه كاتب آخر من نوع معين ، أنا أعرف الرجل الذي عنيته على كل حال ، إن اسمه يلفظ بشكل مختلف وقد سبق وكتب كتاباً حول علم الدفاع عن العقائد المسيحية .»

- «أهو الكتاب الذي . . . .»
- «السخيف نعم .»
- «حسناً .»
- «إن الرجل الآخر يختلف عنه ، فهو كاتب سابق لزمانه ، يجيد الكتابة عن السجون ومعسكرات الاعتقال ، يجعلك تظن وأنت تقرأ كتابه أنه ولد في واحد منها .
- نظر الأب بيرنر إلى الشاب نظرة لا مبالية وقال له .
- «ولكنك لم . . . .»
- قاطعه الشاب كلا ولكن هل هو كاثوليكي؟»
- «إنه غساوي أو شيء آخر .»
- «آه» .
- رفعت مربية المنزل الطعام وأحضرت الحلوى .عندما وصلت بالصحن إلى الأب بيرنر سألها بشكل شخصي - «ماذا هناك ؟»
- بودينغ قالت له بصوت غير هامس ، كأنها ترغب في أن يسمع الجميع .
- «بودينغ مع الخبز» ؟سألها بصوت مهدد .
- «نعم يا أبتي» .
- ارتعد الأب بيرنر وأعلن للجميع - «لا أريد حلوى لي» وعندما عادت مربية المنزل إلى مطبخها قال : «أحياناً أعتقد أنها كانت تعمل في مستشفى وأحياناً يا أبتي أجزم أنها جاءت من إحدى مؤسساتكم الرائعة» ، قال وهو يلتفت إلى الشاب . ضحك الأب فيلبرت فقد كان الوحيد الذي فهم النكتة .
- «يا إلهي» قال الأب بيرنر وهو يزداد صلافة - «لن أنسى يوم نزلت ببيتك في لويز فيل ، لو بقيت هناك أكثر من يوم واحد ، من أجل لعبة الدربي في الحقيقة ، لكنت استدعيت إلى روما . أظن أنني تناولت وجبات أفضل هنا» .
في الطرف الآخر من المائدة كان يجلس الأب مالت ، لم يكن يسمع شيئاً مما يدور حوله رمش فجأة وابتسم ، التفت إليه الجميع ينتظرون أن يبدأ بالحديث ولكن بلا نتيجة .
- «إنه لا يسمعني إضافة إلى أنه ربما يصغي للأنباء» .
- «لم أدرك أن هناك راديو» قال الشاب .

- «آه يا للجحيم نعم هناك راديو» .
- «أظن أنه يحاول أن يجرك للحديث» قال الأب فيلبرت .
- «حسناً لقد ظننت ذلك» قال الشاب بأسف .
- «إنها فكرة» قال الأب بيرنر موجهاً كلامه للأب فيلبرت الذي كان يفضله عن ذلك الشاب ، بالتأكيد فلم يكن الشاب من النوعية التي يحبها .
- «هل ستعود بسيارة الأولدز الجديدة يا أبتي»؟ سأل الأب بيرنر .
- «إنها ليست لي أيها الأب» أجاب فيلبرت باعتدال يصعب عليك تصديقه حتى ولو كان يعني ما يقول ، ولكن الأب بيرنر فهم منه تماماً ما يعنيه ، اعتقد أنهما يعرفان بعضهما تمام المعرفة .
- «سيارة جيدة . . . يقولون إنها تقارن بالكاديلاك ، ماذا تسمي هذا اللون أكسفورد أم رمادي» ؟
- «لا أستطيع أن أجزم في ذلك فالسيارة ملك أخي الذي يعمل في أبرشية سانت ستيفن في مينيابوليس كشخص مدني وليس لاهوتياً ، قد أعارني إياها خصيصاً لهذه الرحلة» رد الأب فيلبرت .
- ابتسم الأب بيرنر ، كان يعتقد مثلي أن الأب فيلبرت شخص كثير الاحتجاج .
- «ظننتك ستغادر باكراً ما الأمر ؟ ألم ترغب بدخول المكان حين رأيته ؟»
- ضحك الأب فيلبرت بحذر ، كان معتاداً على تجاهل الأب مالت ، «لم أكن متأكداً من البيت فالبيت الذي على الجهة الأخرى من الكنيسة» . . . قاطعه الأب بيرنر «البيت على الجهة الأخرى عائد لشخص ماسوني» .
- تنهد الأب فيلبرت وأكمل «كان يمكن» . . . ولكن الأب بيرنر قاطعه مرة أخرى ، «كلا أبداً إني أفضله عن غيره» كان يتكلم عن الماسوني ، فالأب بيرنر معروف بتحرره بعض الشيء ، أضاف وهو ينظر إلى منزل الماسوني «لقد لعبت معه الجولف مرة» نظر الشاب إلى الأب بيرنر مرتعباً أما الأب فيلبرت فاكتفى بالابتسام»«ماذا ! الأب بيرنر يلعب الجولف مع شخص تافه مثل هذا» قال الشاب والتفت نحوي .
- «هل رن جرس ما ؟» سأل الأب مالت . . . .
- «إنه جهازه السمعي» تولى الأب بيرنر الشرح موجهاً كلامه إلى الشاب ثم

أردف قائلاً : «تولّ أنت الإجابة فلن يسمعني من هناك مع هذه البطاريات التي يستخدمها .»

- «لم يقرع أي جرس» أجاب الشاب وهو يحرك وجهه ويديه بطريقة تدل على ذلك ، أومأ الأب مالت برأسه ، لم يكن يتوقع ذلك .

- «كيف تجدها ؟» سأل الأب بيرنر .

- تردد الأب فيلبرت قليلاً ثم قال - «أتعني هنا ؟»

- «كلا لم أكن لأسألك ذلك إني أعني تلك السيارة الأولدز ! هل تحبها ؟»

- «لا شك أنك تمزح يا أبتي إنها ليست لي» احتج الأب فيلبرت .

- «حسناً حسناً» قال الأب بيرنر ، كان واضحاً أنه لم يصدقه «هذا يكفي أرجوك أن لا تبدأ بتلاوة قسم الفقراء ثم التفت إلى صحن البودينغ الذي لم ينهه الأب فيلبرت .

- «هل اكتفيت ؟» سأله ثم قام عن المائدة وهو يبارك نفسه ، تبعه الآخران عندما أشار لهما الأب مالت ، وكان منهمكاً حينئذٍ بإطعامي بعض قطع الجبنة .

- عاد الأب بيرنر صوبنا واصطدم خلال عودته بالمقعد الذي أجلس عليه . . أعرف سبب ذلك ثم وقف خلف الأب مالت وصاح في أذنه - «هل هاتفني أحد بعد الظهر»

- يبدو أنه كان خارجاً في مكان ما كالعادة ، إنه من النوع الذي يتوقع دائماً وقوع أحداث كثيرة في غيابه .

- كان هناك شيء . . . . . حك الأب مالت رأسه محاولاً أن يتذكر ، كانت ذاكرته ضعيفة «ولكنهم قالوا أنهم سيعاودون الاتصال» نظر إلى الأب بيرنر وهو يشعر باستيائه ، تركت الأب مالت على مكتبه يقرأ تحت ضوء مصباحه البرتقالي وذهبت إلى غرفة المعيشة قرب النافذة . كان الشاب ممسكاً بكتاب الصلاة الخاص به ، أظن أن الناموس سيتبعه بعد قليل أما الآخران فكانا يدخنان ويتسكعان حول المنطقة مثل لاعبي بلياردو ، ينتظران تحضير الطاولة سمعت الأب فيلبرت يقول «هل تريد أن تلقي نظرة عليها يا أبتي ؟»

- «إنها فكرة طيبة» قال الأب بيرنر .

- رأيتهما يتجهان نحو سيارة الأولدز المتوقفة على حافة الطريق ، ركب الأب بيرنر في مقعد السائق ، انطلقا ثم ما لبثا أن عادا ظهر وكأنه يسوق السيارة بطريقة غير

واثقة ، لاحظت ذلك بغبطة إلى أن أدركت أنه يجرب الفرامل ثم انطلق مرة أخرى . حين تأخرا بالعودة راودتني فكرة أنهما ربما دهسا بعض الدجاج على الطريق العام .

- ذلك المساء ، عندما عاد المبشرون إلى بيت القسيس ، لم يكن الجو بينهم مثلما كان عندما جاءوا للعب الورق ، وبدون جعجعة أصوات قدم السيد بومان حقيبة سفر إلى الأب مالت ، أظن أنها كانت فكرة جيدة ولطيفة منه ، كان السيد بومان يعمل في بيع الخردوات أما السيد كيلر فكان صيدلياً ، وكان الاثنان هما الوحيدين بين المجموعة الذين يمكن وصفهما بميسوري الحال ، لا بد أنهما كلفا نفسيهما كثيراً شراء هدية رائعة مثل هذه حتى ولو حصلا على خصم معقول .

- أحنى الأب مالت رأسه عدة مرات شاكراً المبشرين الستة ، لم يكن يحابيهم أبداً بل استمر بالقول : «ما كان يجب أن تفعلوها» هز الرجال رؤوسهم وحاولوا إطراءه بقولهم أنه يستحق كل شيء فعلوه وأكثر ، تقدم السيد كيلر ليرشد الأب مالت حول طريقة استخدام مشابك الحقيبة وسحاباتها ، كان في داخل الحقيبة هدية أخرى ، عبارة عن مجموعة من فراشي الشعر العسكرية والتي بدا واضحاً أنهم كانوا خائفين أن لا يكتشفها هو بنفسه ، تناول فرشاة وأجراها على شعره بجذل بعد أن بصق في شعيراتها ، ضحك الجميع لذلك «شيء طريف» قال أحد المبشرين الجدد وهو الشاب الوحيد بينهم وكان السيد كيلر قد عينه أميناً للمستودع . قصد من تعيينه مساعداً في الكلية ليبعده تدريجياً عن قيادة الدراجات النارية وقد كون الشاب إلى جانب السيد كيلر ، كتلة في مواجهة السيد بومان . لكنه بالتأكيد كان حليفاً سيئاً للسيد كيلر ، فمعظم كبار السن رغم ادعائهم الرغبة في مساعدته لمواجهة مشاكل المرشد المساعد ، إلا أنهم كانوا يغتبطون عندما كان يخطئ في توقيت جمع المال في صينية الكنيسة أو عندما يقفز عن صف أو يتداخل في صف آخر .

- أخرج السيد كِيلر علبة سيجار وقدمها للأب مالت كهدية شخصية منه كانت مفاجأة لم تلق استحساناً لدى الآخرين . لم يكن نبيلاً كفاية ليقدمها باسم الجميع . كان يتوقع استياءهم على أي حال ، لذا قدم على إثرها زجاجة من حليب الماجنيسيا ، لم يستطع أحد أن ينكر التأثير المرح لهذه الحركة فقد كان الأب مالت دائماً ينصح بتناول هذه الزجاجة الزرقاء من على منبر كرسي الاعتراف .

- «ها» ! قال الأب مالت وضحك الجميع .

- «هذا إذا شعرت بأي وعكة في طريق رحلتك» قال له الصيدلي .

- «أنت تعلم أنها أفضل شيء بالنسبة لي» قال الأب مالت بجدية ، تذكر أنه قد كررها عدة مرات ، قام بتمرير علبة السجائر بين الضيوف ولكن أحداً لم يأخذ منها شيئاً ، عدا كاتب الصيدلي الذي لم يقل لا .

- كرر الأب مالت شكره على الحقيبة ، أكد أنه مدين لهم بهذا الفضل لدرجة جعلت الجميع يشعرون بأهمية كرمهم ولكن بالطبع لم يمتلك أي منهم في حياته حقيبة مثل هذه .ذهب الأب مالت إلى مدبرة المنزل وطلب منها أن تنقل ثيابه من الحقيبة القديمة إلى الحقيبة الجديدة . عندما عاد كان المبشرون ما يزالون واقفين وقد تملكهم الحبور - بشأن الحقيبة ، والإستياء - بشأن السيجار . لكنهم أجلوا نقاش الأمر فيما بعد .

- حثهم الأب مالت على البقاء ، بدا وكأنه يحاول إبقاءهم حوله ما استطاع فقد كانوا أصدقاءه ، ولكنني لا ألوم الأب بيرنر على محاولته تفاديهم دائماً ، ورغم أنه لم يكن موجوداً ذلك اليوم إلا أنه كان يلبي نداءهم ، أؤكد أنه لو قيض له أن يصبح رئيساً خلفاً للأب مالت ، فسيكون هؤلاء أول من يعاني . . . . بعدي أنا . . . فقد ظلوا يسرحون ويمرحون في عهد الأب مالت .

- كان الأب مالت يمثل قلب الرعية ، هؤلاء كانوا مادتها الريفية الوحيدة المتبقية خاصة بعد أن اتجهت الأبرشية نحو المدينة ، كانوا يرتدون زياً ريفياً في المناسبات ، يهبطون على أبرشيات سانت بول ومينيا بولس ، كأنهم أطفائيون جاءوا ليعملوا في جهنم . هيهات ، من الصعب أن تتخيل مكاناً آخر بالياً مثل بلدتنا الصغيرة الصعبة كان اسمها شيروود ، لكنها كانت ساكنة جامدة مثل ملعب تنس .

- لكن المبشرون يشبهون أمناء رعية منتظمة ، لم يكونوا رهبانيين مثل زملائهم في المدن ، كانت أصواتهم عالية وأقدامهم ثقيلة ويرتدون الثياب الداخلية الطويلة في الشتاء والبدلات الرمادية طوال العام ، أما فكرتهم عن قضاء وقت طيب مثل احتساء الجعة والسيجار الرخيص ولعب الورق ، فقد كانت تترافق بسهولة مع مفهومهم حول الأعمال الحسنة إذا كانوا يقتطعون نسبة مئوية من مراهناتهم لصالح صندوق البناء في الأبرشية أما زوجاتهم فكن نشيطات يلعبن الورق في الدور السفلي من الكنسية ويبعن مستخلص الفانيلا في العادة عادة لبعضهن البعض ، كان كل دخل يتعدى الكلفة يحول إلى الرعية تحت بند مهمات .

- أما أنا فكنت ممتناً جداً هذا المساء لأن الوقت لم يسمح لأحد بلعب الورق .

كالعادة جاء في منتصف فترة العمل وكان الأمر قاسياً علي كما هو على مائدة العشاء ، شعرت أنهم يجب أن يلعبوا الورق على خشبة تقطيع اللحم ، جلس الأبوات في غرفة المعيشة ، أخذوا في الحديث عن رحلة الأب مالت إلى شيكاغو ، أحضرت مربية المنزل بعض أقداح الجعة .

– «كم ستمضي من الوقت في شيكاغو يا ابتي ؟ ثلاثة أيام ؟» سأله أحدهم أجاب الأب مالت .

– «سأبقى ثلاثة أيام»

– «ثلاثة أيام ! اليوم الجمعة غداً السبت ثم الأحد والاثنين ، هل ستعود يوم الثلاثاء؟» أحنى الأب رأسه بإشارة نعم .

– «من سيستلم مكانك يوم الأحد ؟»

– أجاب السيد كيلر بالنيابة عن الأب مالت – لديه عدد من القسس مؤهلين لذلك . هنا بدأ المرشد الشاب باستعادة الحديث حول بعض المواضيع .

– «لا تنسى يا أبتي أن تمر على يو إس يو ، ربما لا يزال يقطنون هناك ، لقد كنت في تشي أبان فترة الحرب» . . . توقف عن الحديث فلم يكن يصغي إليه أحد .

– اختلى السيد بومان بالأب مالت بإحدى الزوايا ، محاولاً أن يخبره عن مطعم يقدم وجبات جيدة ، ظل يرتاده خلال المعرض العالمي في شيكاغو وعن إحدى نادلات المطعم في ولاية مينيسوتا ، أما أنا فقد سئمت كل ذلك ، بقي عليه أن يرسم خارطة ذلك المطعم على ظهر إحدى المظاريف . كنت قد سمعت صوت الأب بيرنر وهو يدخل ، صعدت الدرج أبحث عنه ، توقفت دقيقتين أسترق السمع أمام باب غرفته ، كان معه الأب فيلبرت . كان الاثنان يسخران من الأب مالت حين استضاف قبل سنوات بعثة شيروود وسألهم عن أفضل مكان لبيع اللحوم ، ضحك الأب فيلبرت وكنت أستطيع سماعه وهو يأخذ رشفة من كأسه ثم يضع الأبريق على الكرسي بجانبه ، دخلت الغرفة محاولاً البقاء في الظل قرب الخزانة ، كنت متلهفاً لمعرفة ماذا يحتسون ، تمكنت من الوصول بخفية إلى كأس الأب فيلبرت لأشمه . كانت رائحة الويسكي تعبق منه ، هذا هو الدليل لماذا اتخذ الأب بيرنر من الأب فيلبرت صديقاً له .

لم أستطع أن أدرك في تلك اللحظة ما الذي يتوقعه مثل هذا الأب ، من بعثة كنسية وضيعة مثل هذه . كان خطئي أنني لم أعرف كم كنت مصيباً في السابق

عندما ظننت أن الاثنين هما من طينة واحدة ،كان الأب بيرنر نادراً ما يشارك أحداً في شرب الويسكي . لم يكن يقدم شيئاً لضيوفه ، سياسة مأمونة العواقب لوجود العديد من الآباء الذين يمتنعون عن شرب الخمر أو يبدون اعتدالاً في تناولها . بالنسبة للضيوف غير المرغوب فيهم والذي يلحون على تناول الويسكي . كان الأب بيرنر يخصص نوعاً معيناً من الويسكي هو عبارة عن خليط خفيف مدخن يعبأ في زجاجات فاخرة ، رخيص وحاد الطعم رغم صعوبة الحصول على مثله في فترة نهاية الحرب . كان له طريقة ساحرة في سحب الزجاجة من جرار المكتب ، ومثل هذا السحب بالتأكيد مناسبة هامة له ، مع ذلك لم يكن يشرب منها شيئاً مدعياً بأنه يفضل الأذواق البسيطة ، مع أنني متأكد أنه لا يملك ذوقاً لشيء في هذه الدنيا . كان يفضل النبيذ المصنع من أعناب بلادنا ، هذا إذا كان لدينا أعناب ! كان يحب لعب هذا الدور ويستمتع به وهو ممسك بكأس الماء ويسأل هنا وهناك : كيف وجدت مشروبك يا أبتي ؟ هل هو قوي كفاية ؟

عادت مدبرة المنزل وأبلغتهم وهي تقف على الباب : «لقد حصل تغيير في البرنامج ، سوف يقوم بعض المرشدين بإيصال الأب مالت إلى محطة القطارات :

«ألم يذهب بعد ؟» سألها الأب بيرنر .

- «ليس بعد يا أبتي»

- «إذن قولي له باسمي مع السلامة»

- «حاضر يا أبتي»

ما إن ابتعدت مدبرة المنزل قليلاً حتى قال الأب بيرنر «كنت أود توديعه بنفسي ولكني لا أحب الاختلاط بهذه المجموعة حوله»

ابتسم الأب فيلبرت وسأله «ماذا سيفعل الأب مالت في شيكاغو ؟»

- «لديهم اجتماع لرعاة الأبرشية مع البنائين في فندق ستيفنز .»

- «هل يقوم ببناء شيء؟»

- «كلا ولكنه بصفته من رعاة الأبرشية ، يستطيع الحصول على عينات مجانية فهو لن يقوم بشراء شيء .»

- «لم يتم بناء شيء كثير هنا على أية حال» !

- بدا وكأن الأب بيرنر ينتظر مثل هذا السؤال ، بادر القول بسخرية : «لقد بنى حوضاً للسمك في الباحة الخلفية ليربي فيه أسماكه الصغيرة ، هذا هو أقصى ما

وصل إليه برنامج البناء في عهده ، بالطبع لقد مضى عليه وقت طويل هنا .

- «كم من الوقت مضى عليه هنا »؟ سأل الأب فيلبرت .

- « 14سنة ، لقد كان باستطاعته أن يكون من أفضل البنائين لو أتيحت له الفرصة» أشعل الأب بيرنر سيجارة وقال : «إن السبب الرئيسي لذهابه إلى شيكاغو هو حضور ألعاب الكرة» .

- أجاب الأب فيلبرت بدون أن يبتسم أو يعلق : «من الذي يلعب هناك الآن؟»

- رد الأب بيرنر مستغرباً هذا الاهتمام باللعب بدلاً من الاهتمام بموقف الأب مالت : «أعتقد أنه فريق الردز ! كيف لي أن أعرف» .

- «لا يمكن أن يكون الردز !» قال الأب فيلبرت ، «لقد كنت في الأسبوع الماضي مع فريقهم في سينسيناتي وكان الفريق كله يستعد لأخذ إجازة طويلة .»

- «يحتمل !» قال الأب بيرنر .

- وبينما كان أحد المرشدين وهو مشجع لفريق كاردينالز يحلل حول سباق البطولة في العصبة الوطنية ، قطب الأب بيرنر جبينه ثم سأل فجأة «ما هو أفضل قطار للسفر من شيكاغو إلى واشنطن »؟

- أجابه الأب فيلبرت بما يعرفه عن الموضوع ، لكنه اعترف بأن معلوماته تعود إلى سنين خلت وقال «إننا لم نذهب أبداً إلى واشنطن ! . .»

- «معك حق» قال الأب بيرنر «فواشنطن تعتبر ضمن العصبة الأميركية .»

- ضحك الأب فيلبرت متجاهلاً موضوع سفره مع فريق كاردينالز ثم قال : «ظننت أنك لا تعلم شيئاً عن هذه المواضيع ؟»

- «من المستحيل أن تبقى بعيداً عن هذه المواضيع !» أجابه الأب بيرنر «هنا وحيث كنت سابقاً ، حتى في معهد التعليم الثانوي لم أتغير أبداً إنها الكرة والمضرب والله دائماً وكما يقول المثل إذا كنت في روما فأفعل ما يفعله الرومان .»

- «ما هو ثمن المجد» سأله الأب فيلبرت وقد اشتم من حديثه رائحة هرطقة .

- «إني أعلم» قال الأب بيرنر «ربما يكلفني هذا الأمر طاقيتي الحمراء» .

كانت ملاحظة شجاعة من شخص ، لم يصبح بعد راعي منطقة فقد ظهر لي تماماً أين تتجه أفكاره ، لم يستطع أن يخفي طموحه المتواضع تحت ستار الكلام الهادئ ، حول موضوع مستحيل ، «كلما احتككت بأسقف وجدت في داخله إنساناً وضيعاً» حاول الأب فيلبرت تغيير الموضوع «لقد أخبرني أحدهم مرة أن الأب مالت

يعتبر بمثابة طارد للأرواح الشريرة في هذه الأبرشية .»

- «لقد كان كذلك» لمعت عينا الأب بيرنر بشقاوة .

- «هل تمادى في فعلها» سأل الأب فيلبرت وكأنه لم يسمع الجواب .

- «نعم بعض الشيء»

- «كنت أتوقع من الأب بيرنر أن يسهب في هذا الموضوع ، فقد كانت لديه بعض القصص المخيفة التي تتمحور كلها حول تمادي الأب مالت قليلاً في هذا الأمر ولكن التصاق الأب مالت بعملية تربية الحيوانات ، ظلت تعتبر في نظره نقطة إيجابية لصالحه .»

- «يا للفضيحة !» قال الأب فيلبرت .

- «بعض الشيء ! »

- «ولكنها ليست مسألة خطيرة على أي حال .»

- «كلا» .

- «إلا أني أعتقد أن الأمر يعتمد على تعريفك لمعنى خطيرة .»

- لم يجب الأب بيرنر ، انقلب مزاجه فجأة إلى الكآبة ، ربما شعر أنه كان موضع شفقة أو أن الأب فيلبرت كان يحاول أن يسبر غوره من خلال إعطائه فرصاً قوية ليستفيض بالنميمة عن الأب مالت .

- سمع صوت عزف على الأكورديون في الأسفل فسأل الأب فيلبرت : من الذي يعزف على الأكورديون .

- «هو يعزف» كان يقصد الأب مالت .

- «تابع .»

- «بالتأكيد .»

- «و لكن كيف يمكنه سماع عزفه ؟»

- «وما الفرق إذا كان يعزف على الأكورديون .»

- ضحك الأب فيلبرت ثم رفع الغطاء الشفاف عن سيجار جديد والتفت فرآني ، لم أحاول أن أختبئ

- «ها هي القطة اللعينة ثانياً !»

- «إنها مساعدته» قال الأب بيرنر بمرارة تثير الدهشة «مساعدة الأسقف التي يحق لها خلافته .»

- لف الأب فيلبرت الورقة الشفافة ورماها في سلة القمامة ، لكنه أخطأ .
- «أحضرها» خاطبني ببلاهة .
- تجاهلته تماماً وسرت نحو الباب .
- حرك الأب بيرنر أصابع قدميه ليوهمني أنه سيقوم لي ولكنني كنت أعرف أنه لن يتعب نفسه بذلك ، ورحت أسير على مهل .
- سأل الأب فيلبرت : «هل باستطاعتها اصطياد الفئران ؟»
- بـ«استطاعتها ؟ هي ؟ للحقيقة منذ قدومي للعيش في هذه الأسقفية وأنا عزباء ! هذه هي الحقيقة ، يمكنني القول إنني أكثر رجولة من أي قط آخر» لم يجب الأب بيرنر بشيء .
- تبدو سمينة جداً لكي تستطيع اصطياد الفئران .
- حدقت مطولاً في هذا الرجل الحقير ، لا بد أن شخصاً له مثل هذا الاهتمام باصطياد الفئران قد سمع عن وجود مصيدة فئران ، نظرت إليهما نظرة قذرة ثم تركتهما ليعاقبا بعضهما البعض بحديثهما ، نزلت إلى القاعة وحاولت أن أتذكر آخر مرة صدت فيها فأراً ، ثم مررت قرب الغرفة التي ينام فيها المرشد الشاب ، تبسمت وأنا أعبر بجانب الباب فقد كنت واثقة أنه في الداخل يصلي بحرارة .

في الصباح التالي وبعد أن تناولت طعام الإفطار كالعادة في المطبخ ، توجهت إلى الحديقة الباردة حيث كنت ألوذ دائماً في يوم موعود مثل هذا ، لم أكن أملك الشهية لالتهام عصافير الدوري التي تقفز من شجرة إلى أخرى ، لم يكن هناك طريقة لإقناعهم بالتوقف عن ذلك فكل منهم يزهو بغروره ظاناً نفسه قابلاً أكولاً بتفوق . حين تعبت من أصواتهم ، نهضت عن العشب وغادرت الحديقة رافعة أذني وملوحة بذيلي في غضب مزيف يلهم الذكور بالقيام بأعمال بطولية ويرعب صغار الإناث بشكل يبحث على الاستمتاع . ذهبت بعد ذلك إلى بقعة كانت دائماً مفضلة لدي ، هي عبارة عن رقعة من العشب الظليل تمتد بين الكنيسة وجدار الطوب ، ولكن هنا أيضاً وجدت الذباب يلاحقني وانتابتني رؤى مرعبة لكلاب ضالة وأطفال أشقياء ، طار النوم من عيني وكنت بحاجة ماسة للنوم بعد قضاء تلك الليلة المرهقة وغير العادية .

في فترة بعد الظهر ، تذكرت أن اليوم هو السبت وأن الأبرشية تخلو لي تماماً فالأب بيرنر والمرشدون عادة ما ينشغلون بأمور الاعترافات ومع حلول العصر كانت

الحرارة قد وصلت إلى قمتها ، أشفقت على المرشد الشاب . أعترف أن فكرة رؤية الآخرين وهما يتصببان عرقاً في غرفة الاعتراف ، أنعشتني قليلاً ، وعند العصر غفوت غفوة طويلة اقتربت قليلاً من موعد النوم الأساسي .

لا بد أني استيقظت على أصوات الأواني المطبخيه ، هرعت إلى غرفة الطعام بدون أن أغتسل واتخذت مكاني الاعتيادي على المائدة ، وهنا فقط لاحظت المقعد الفارغ بجانبي والذي ذكرني بما قد أواجهه يوماً ما ، إضافة إلى وجود الأب بيرنر وهو يطحن العظام بين أسنانه على الطرف الآخر من المائدة ، وهنا أيضاً واجهت المشكلة الفورية ، لا يوجد أحد ليخدمني ، ابتسم المرشد الشاب لي ولكن كيف يمكن أن يمتلئ بطني من ابتساماته ، أما الآخران فقد كان الذبول واضحاً عليهما تمنيت لهما العودة بسرعة إلى علبهم الحارة ، كانا يتحدثان بأصوات مرهقة عن الخطايا وأسرارها ولم يعيراني أي انتباه ، لم تمر الوجبة الأولى التي أتناولها في ظل غياب الأب مالت بدون وقوع حادثة وعلى كل حال فقد بدأت الاضطرابات عندما مرر لي المرشد الشاب قطعة من اللحم .

- «لا تفعل ذلك» قال الأب فيلبرت ، لن تجعل منها صيادة للفئران بهذه الطريقة .

- «هذه القطعة فقط !» قال المرشد الشاب ، أصبحت القطعة في فمي .

- «حسناً انتبه في المستقبل» قال الأب فيلبرت ، كانت كلمة مستقبل هي التي تؤرقني هل يعني هذا أنه قرر قطع مخصصات أكلي من طعام المطبخ وأني سأبقى إلى حين عودة الأب مالت مخيرة بين الجوع أو اصطياد الفئران .

- تسللت إلى المطبخ لأتناول صحن الحليب الاعتيادي اليومي ، لم أعد أعرف إذا كانت مدبرة المنزل التي اعتادت على إعطائي الوجبة الرئيسية على المائدة قد افترضت أنه لا يوجد تغيير في حياتي أو أنها بدأت تتصرف معي بناءً على أوامر هذين الشريرين ، كنت منزعجاً من نذالتهما إلى حد كبير ، فقدت شهيتي للأكل ، عندما يغيب الأسقف المسؤول يبدأ المساعد باللعب ، هكذا خطر ببالي وعلى العموم ، أصبحت أشعر ببعض الكآبة كانت الوجبة الرئيسية تقدم ظهر يوم الأحد ، وصلت مبكراً قبل وصول الآخرين ، كنت في أسوأ حالات الجوع التي لم يمر علي مثلها من قبل ، مع ذلك لم أكن أتوقع أي طعام على هذه المائدة ، جئت إلى هنا لسبب واحد ، لكي أفرض نفسي على الوضع وربما لأثير شفقة المرشد الشاب وأحتقر مضطهدي ،

عرفت الآن كيف سأعلمهم بوجودي .

- دخل الاثنان إلى قاعة الطعام .

- «أين الفتى الشاب» سأل بيرنر .

- «إنه يشعر بتوعك» قال الأب فيلبرت .

- «لم أتفاجأ بذلك فقد اتفق الاثنان على جعله يقدم قداسي« الساعة السادسة والساعة الحادية عشر مما يعني أنه قد صام في فترة الاستراحة ، لم أكن أعتقد أنه من النوع الصلب على أي حال .»

- «سأطلب من مدبرة المنزل أن ترسل له بعض مرق اللحم قال بيرنر» كنت ما أزال أفكر بوضعي عندما هجم علي فجأة وأزاحني عن المقعد ثم تناول المقعد ووضعه مقابل الحائط ثم عاد إلى الطرف الأسفل من الطاولة ، وتناول صحنه وباقي أواني المائدة وجلس في مقعد الأب مالت وهو يكلم نفسه بغضب ، لم أستطع أن أظهر شجاعتي ، خفت وانكمشت مرتعدة ، أما الأب فيلبرت الذي كان يراقب المشهد بحماس فقد حيا النظام الجديد قائلاً عافاك يا أيرنست .

- بدأ الأب بيرنر بتبرير موقفه ، «أرجو إضاءة المكان هنا» وأضاف «إن القطط تقتل العصافير» ولسبب ما كان يلهث .

- «لو كانوا يقتلون الفئران فقط لما اعتبروا بهذا السوء» رد فيلبرت ، كان دماغه على ما يبدو يعمل في اتجاه واحد فقط .

- «إني لأتساءل كم طائر قتل هذا الشيطان الأسود» قال الأب بيرنر محدداً موقفاً نارياً ومتميزاً ضد القطط من شاكلتي رغم أني كنت أضع طوقاً أبيض ، نظر إلي وتمتم بس بس . . . . . ولكني ثبت مكاني .

- «إني أفضل أن أقتني كلباً أي يوم» قال فيلبرت التافه .

- «وأنا أيضاً» .

- بعد قليل ، وبينما هما منهمكان في أكل اللحم المشوي قال الأب فيلبرت ، «ماذا لو أخذناها في نزهة ريفية» .

- «يا للجحيم أنها ستعود فوراً» قال الأب بيرنر .

- «ليس إذا فعلناها بطريقة صحيحة !»

- «اسمع» قال الأب بيرنر : «لقد ألقى بعض أصدقائي بقط من أعلى جسر سان بول وراقبوه وهو يختفي في الماء ! إني أتكلم عن نهر الميسيسيبي ! هل تفهم؟

وظنوا أنهم لن تقع عيونهم على وجهه بعد اليوم أبداً ، لكنهم عندما عادوا إلى منزلهم وجدوه قبلهم في المنزل» توقف الأب قليلاً إذ لاحظ أن الأب فيلبرت لم يقتنع بذلك عاود الكرة «في الحقيقة يا أبتي لقد حاولوا مرة أخرى ولكنه عاد إلى المنزل ولم يكن مبتلاً هذه المرة ،بقي عندهم ولم يتغير شيء بل أنهم أصبحوا يهابونه» لخيبة أمل الأب بيرنر رفض الأب فيلبرت أن يصدق أو أن يتأثر بهذه القصة بل عاود السؤال مرة أخرى - «هل استخدموا أكياساً أو أثقالاً ؟»

- «أحجار مطحنة !» قاطعة الأب بيرنر .

- وانطلقا يتناقشان حول الطرق التي يتبعها رجال العصابات لتصفية أعدائهم مثل صب الأسمنت على الجثث واندمجا في الحديث لدرجة أنهما نسيا أمري تماماً .

- هناك عند زاوية الجدار بدأت أللم قواي لكي أحبط خططهم وعندما استجمعت شجاعتي قفزت إلى مقعدي على المائدة وأنا أتوقع الضرب والقدح ، وواجهتما بلا مبالاة غريبة ، لاحظت إثرها أين وصل الأمر بهما في تقديري ، وأخذت أتذكر الماضي القديم كانت عزة السياسيين الشرفاء في المنفى قوية جداً في نفسي ، لكن الأمل في العودة إلى الوضع السابق كان ضعيفاً جداً .

عندما انتهيا من وجبتهما عاداً إليّ مرة أخرى - «أظن أني أعرف طريقة أفضل» قال الأب فيلبرت ثم انتزع الصليب من الحائط ومرره إلى الأب بيرنر الذي وقف ينظر إليه مدهوشاً ، امسكني من أذني وهو يقول «يا قطتي العزيزة !» وقال للأب بيرنر أرجوك أن تضع الصليب مقابلها أترى هذا ! قال الأب فيلبرت وهو يضع الصليب في وجهي ، بدأت بالمواء . . . . «خذ هذا» ودفع الصليب في وجهي وصفعني ثم عاد يقول : «أترى هذا» .

كنت أتوقع ما سيحصل بعد هذا أذ أنه عندما صفعني ثانية ، عضضته في رسغه برفق ، بالتأكيد بدأ الأب بيرنر بإدراك وتقدير النتائج ورغم أنني كنت في وضع جيد لأستطيع ملاحظة كل شيء ، إلا أنني لم أكن أقدر على ذلك ، كان الأب بيرنر في منتهى الحماس ، نخزني بالصليب وقال «يا ليته يتجاوب جيداً»

«لا يخشى شيئاً إنه ذكي جداً» رد الأب فيلبرت وهو يلعق رسغه ، قلت لنفسي أرجو أن يصاب بداء الكلب ، جر إحدى خفيه ورماني به وتساءل الأب بيرنر وهو يوجه الصليب نحوي «هل أنت متأكد أنه بإمكاننا الاستمرار بهذا الشيء ؟» أجابه الأب فيلبرت «نعم إنها النية التي تحسم في هذا الأمر ، إن دافعنا واضح جداً» ثم

عادا إلي مرة أخرى .

بعد هذه الضربة في غرفة الطعام ، شعرت بالغباء لاعتقادي أني ساكون بأمان طالما بقيت بعيداً عن الطاولة . كان هناك شيء في وجودي يحث فيهما وحشية شيطانية ، للحقيقة كان هذا كل ما هو موجود فيهما ، قبضا علي وأنا أنزل الدرج ذلك المساء وانهالا عليّ بالضرب ، حاول أحدهما أن يسد علي طريق الهرب . كانت الضربات هذه المرة أسوأ من سابقتها لأنها جاءت بعد تأخير قصير اعتقدت إثره خطأ أنهما قد أرجآ الشر إلى حين ، لكن الأب بيرنر عاد من غرفة الطعام حاملاً الصليب بيده وهو يرعد ويزبد ويتمتم : «لن أترك هامشاً للخطأ هذه المرة» ، ورغم أن الصلبان منتشرة في كل مكان في الأبرشية إلا أنه أحضر ذلك الصليب بذاته ، التفت المرشد الشاب إليهما وقال : «إني أغسل يدي من هذا الأمر» كنت أظن أنه سيقف موقفاً أفضل من هذا ! .

بقيت في الجوار . كنت أتحاشى العودة إلى الأبرشية لاعتقادي أن استراتيجيتهما الأساسية كانت إبعادي عن هنا ، وجدت أن من الأفضل لي أن أبتعد ما استطعت ، حتى أترك لديهما الانطباع أنهما قد نجحا في إبعادي . كان هذا عزائي الوحيد في ذلك الوقت . لكن لم يكن ليمثل شيئاً أمام جرائمهما .

قضيت الليالي في الحقول وتضورت جوعاً حتى عثرت على فأر حقل عجوز ، كان طعمه مراً مثل العلف المبتذل ، شعرت وأنا ابتلعه بسخرية الاستسلام للعدو ، أقسمت أن أجوع نفسي على أن التهم فأراً مرة أخرى ، رحت أعاقب نفسي بمطاردة عصافير الدوري في الحديقة ، كم كنت أكره نفسي لذلك . كنت أحاول أشفاء غليلي من مضطهدي اللذين يحبان الطيور ، بذلك أستطيع أن أبرر أفعالي في مواجهتهما . أنتما اللذان جعلتهما مني هكذا ! فقد أيقظتما الجزء القاتل في نفسي ولحسن الحظ أني لم أقتل عصفوراً واحداً فقد كان دافعي واضحاً جداً ، كنت أجد متعة في مشاكسة أفكارهما ومبادئهما بدون إراقة دماء وخلق فوضى .

وجاء يوم الثلاثاء ، اليوم الثالث لعودة الأب مالت ، سرت بحذر نحو شجرة الليلك عند الكاراج ، كنت أعلم أنني لن أكون آمناً في ضوء النهار قبل عودة الأب مالت ، وصل الأب مالت عند موعد العشاء ويجب أن أسجل هنا أن مجرد رؤيته أشعلت في نفسي شعوراً هو أقرب ما يكون إلى العواطف الإنسانية ، كان المرشد الشاب الذي استقبله في محطة القطارات يحمل له حقيبته الجديدة .

كان الأمر بالنسبة لي رمزاً لثورة مضادة ، لم أستعجل الخروج من مخبئي فقد عانيت الكثير من التصرفات الحمقاء ، تسللت إلى المطبخ من خلال فتحة في نافذة الباب لم يفطنا إلى إغلاقها ، انتظرت اللحظة المناسبة قرب الفرن مثل ممثل ينتظر موعد أداء دوره وراء الكواليس .

سمعت وقع خطواتهم تقترب من غرفة الطعام ، ثم سمعتهم يجلسون وسمعت صوت الأب مالت يقول : «لقد تحادثت مطولاً مع الأسقف» كدت أسمع الأب بيرنر وهو يتمنى أن يقول : هل سأل عني؟ « وعلى فكرة أين فريتز ؟»»

- «لم نره مؤخراً في الجوار» قال الأب بيرنر بمكر ، لم يكن يقول الحقيقة ولم يكن يرغب أن يكذب .

- «أتعلم هناك شيء غريب في هذا القط» قال الأب فيلبرت «أعتقد أنه مسكون» تعجبت لكلامه ! كدت أفكر بالأمر دقيقة لو لا أنني أصبحت داخل الغرفة .

- «مسكون» صاح الأب مالت «كلا» .

- «نعم» قال الأب بيرنر وهو يمد يده إلى اللحم مباشرة «من الأفضل الخلاص منه» بدأت بالمواء وشاهدوني جميعاً .

- بسرعة ، قال الأب فيلبرت الذي استعاد نشاطه وبحركة لا إرادية مد يده نحوي ونحو صندله في نفسه الوقت ، ركض الأب بيرنر وأحضر الصليب الذي أصبح يمثل بالنسبة لي مظهراً كافراً من مظاهر عذابي ، كان الصليب يبدو وكأنه أداة لمعاقبتي ، لقد نالوا مني تماماً لدرجة أن منظر الصليب أثار فيّ الآن خوفاً لم أتمكن من السيطرة عليه ، سلم الأب بيرنر الصليب إلى الأب مالت .

- سوف ترى الآن قال الأب فيلبرت .

وجدت أني لن أستطيع أن أقاوم أكثر ، وما فعلته بعد ذلك كان أمراً مجهولاً لديهم لا يمكن أن تدركه عيون بشرية ، استسلمت للخوف الذي أوجدوه في نفسي وكما خططوا سابقاً ، هربت من الصليب كأنني مسكون حقيقة ، هرعت من غرفة الطعام إلى المطبخ وإلى الحديقة وانتهيت في الشارع حيث صدمتني سيارة رمادية ضخمة . هناك بدلت روحي القديمة بروح جديدة .

شعرت أنني ولدت مجدداً ، لم يعد الخوف السابق يسكنني ، سرت نحو الأب مالت بشكلي السابق تماماً ،شكل لن تستطيع عيونهم أن تميز فيه تغييراً ، كان ما يزال

ممسكاً بالصليب ، قفزت في حجره ، سمعت المرشد الشاب وهو عائد من عمل له بسيارة أخ الأب فيلبرت ، كان يظن أنه وصل متأخراً إلى العشاء ، لكنه في الحقيقة وصل في الوقت المناسب ليرى تلك النظرة المصعوقة في عيني مضطهدي ، هذه النظرة التي عوضت لي كل ما مر علي من عذاب .

- «ماذا فعلنا» صاح الأب فيلبرت كان شخصاً عاطفياً ، أظنه كان مستعداً في هذه اللحظة للتصويت على تطويبي .

- «لقد دهست قطة» قال المرشد الشاب مهتاجاً وأقسم أنها كانت هذه ولكني حين التفت لم أجد أحداً»

- من الأفضل أن تصعد إلى فوق وتاخذ قسطاً من الراحة ، تمتم الأب بيرنر ثم جلس في مكانه ، كان منظراً في غاية المتعة وأنا أراه في مقعده الصحيح في الطرف الأسفل من المائدة وربما لوقت طويل .

أخذت أتساءل فيما لو كان بإمكاني أن أنقله إلى أبرشية أخرى يكون فيها الشيطان وعدد من مساعديه ، مسؤولين فيها عن الرعية وحيث بإمكانه أن يبدأ من القاع مرة أخرى .

ولكن كل شيء سيأتي في أوانه ، كنت أقول هذا دائماً وأفضل الأشياء هي التي تجيء في موسمها ، أما الآن فقد كان الأب مالت يقرب كرسيي من الطاولة ويعيدني إلى مكاني الصحيح .

١٩٥١

تينيسي وليامز

وجه الشبه بين صندوق الغيتار والتابوت

مهداة لذكرى ايزابيل سيفيير وليامز

عن «فلير»

كانت أختي تكبرني بأكثر من سنتين ، لقد وصلت إلى عمر البلوغ المبكر للفتيات ، مما جعلها تتقدمني في تلك البلاد التي يكبر فيها الأطفال ضمن اختلافات تكتنفها الأسرار . على الرغم من استمرارنا بالعيش في بيت واحد وبشكل طبيعي ، فقد بدت لي أختي وكأنها ذهبت إلى رحلة بالرغم من بقائها على مرأى عينيّ .

ظهر الاختلاف مباغتاً أكثر مما كان ممكناً ، كان اختلافاً واسعاً ، تماماً مثل ضفتي نهر صنفلاور الذي يمر بالبلدة التي نعيش فيها . على الضفة الأولى كانت تقف غابة من أشجار السرو العملاقة التي تبدو وكأنها منغمسة في طقوس صامتة من الهدوء على حافة النهر ، إضافة إلى ذلك الضباب الشاحب فوق ساحة دوباين التي كانت في السابق مشتلاً عامراً ، ثم أخليت وحل فيها تدمير أسوأ من آثار النيران ، خلف هذه الستارة القاتمة تمتد حقول القطن بشكل كاسح وعلى مدّ النظر ، أما على الضفة الأخرى فتزدهر المنطقة بالبنايات التجارية والأرصفة والشوارع العريضة والمنازل والسكان . ولا يفصل بين المنطقتين سوى مجرى صفراويّ اللون كسول وضيّق بحيث يمكنك أن ترمي حجراً عبره من ضفة إلى أخرى .

أما الجسر الخشبي المترنح والذي يقسم أو يجمع بين ضفتي النهر فقد كان بالكاد

أقصر من المسافة التي كانت تتحرك فيها أختي .

بعيداً عني ، كانت نظراتها فزعة إلى حد ما بينما كانت نظراتي تنم عن ذهول وألم . كان لا بد من وجود أو عدم وجود تفسير بين تلك التي ترحل وتلك التي تبقى .

أول ما أتذكره من هذا القبيل ، حدث يوم استفاقت أختي متأخرة قليلاً عن موعدها وهي تنظر نظرة غريبة ، كأنها قد قضت الليل وهي تبكي أو أنها تلقت مفاجأة مؤلمة ومرعبة ،لاحظت نفس الاختلاف في طريقة معاملة جدتي وأمي لها حيث رافقتاها إلى طاولة الإفطار في المطبخ وكأنها في خطر من أن تنقلب على أحد جنبيها ، وساعدتاها في تناول كل شيء تقريباً وكأنها لا تستطيع أن تصل إلى تلك الأشياء . كانتا تكلمانها باهتمام وبصوت منخفض تماماً مثلما يكلم الخدم الطيِّعون أصحاب عملهم . شعرت بالحيرة وبقليل من الاشمئزاز . لم أكن ألقى منها أي اهتمام وحتى تلك النظرة أو النظرتين اللتين رمقتني بهما كانتا تنمان عن بعض الكراهية ، كأنني قمت بضربها في الليلة الماضية وأسَلْتُ الدم من أنفها وسبَّبت لها زرقة في عينيها . لم تكن تعاني من أي جرح أو ضربة ولم يكن بيننا أيّة خلافات حديثة العهد .

حاولت أن أكلمها عدة مرات ، لكن لسبب ما تجاهَلَتْ جميع ملاحظاتي وعندما انتابني غضب وصرخت تدخلت جدتي وشدَّت أُذُني ، ولعل هذه هي إحدى المرات القلائل التي تعنفني جدتي بهذا الشكل ، فقد اعتادت على أن تعاتبني برقة دائماً . كان الوقت صباح السبت على ما أذكر وكان الجو مصفراً وحاراً ، كنت في تلك الساعة أنطلق مع أختي نجوب الشوارع بالدراجات ولكن هذه العادة تم تجاهلها الآن . بدت أختي بعد الإفطار أحسن حالاً ولكن شحوب الوجه لم يفارقها ، استمرت صامتة تماماً حيث رافقتها جدتي وأمي إلى غرفة الاستقبال وشجعتاها على العزف على البيانو .

كانت تكلم جدتي بصوت ضعيف بينما كانت جدتي تقوم بتعديل مقعد البيانو ووضع وسادة عليه ، حتى أنها قامت بتقليب صفحات دفتر الموسيقى وكأن أختي غير قادرة على فعل ذلك بنفسها . كانت تعزف قطعة بسيطة تسمى القيثار

الأيولي ،جلست جدتي بجانبها خلال العزف وهي تتابع الإيقاع بصوت لا يكاد يسمع ، تلمس بين الفينة والأخرى معصمي أختي ، كأنما لتذكرها بأن تبقيهما مقوستين . أما في الغرف العليا ، فقد بدأت أمي تغني وحدها ، وهو الأمر الذي لم تكن تفعله إلا عندما يغادر أبي مع عيناته في سفر طويل ، لا يتوقع أن يعود منه إلا بعد فترة من الوقت ، أما جدي فكان يأخذ فترة راحته النهارية يتمتم ببعض المقطوعات الدينية في غرفة المكتبة بالبيت .

كان كل شيء هادئاً مسالماً ما عدا وجه أختي ، لم أكن أعرف إذا كان يجب عليّ أن أبقى أو أن أخرج ، بقيت أتسكع حول غرفة الاستقبال بعض الوقت وأخيراً سألت جدتي : لماذا لا تتركيها تتمرن فيما بعد ، قفزت أختي والدموع تملأ وجهها وكأنني قلت شيئاً قاسياً ، هرعت إلى غرفتها في الأعلى ، ماذا جرى لها ؟ سألت جدتي ، فأجابتني بهدوء أن أختك ليست بصحة جيدة اليوم ، ثم تبعَتْها إلى الأعلى وتركتني لوحدي في غرفة الاستقبال المملة ، لم تكن فكرة الذهاب على الدراجات لوحدي تروق لي ، ولم ترق لي أبداً لأني كنت أواجه فتية البلاد الأكثر غلاظة والذين كانوا ينعتونني بالواعظ ويجدون لذة خاصة بأن يطرحوا علي أسئلة كانت تحرجني لدرجة الغثيان . وهكذا في ذلك الوضع المنفر الذي لم أكن أفهمه . منذ ذلك الوقت وقع الانقسام بيني وبين أختي وبشكل أكثر وضوحاً وبدا لي أن أمي وجدتي كانتا تتآمران لتعميق ذلك الانقسام . لم تهتما في السابق بمسألة اعتمادي على رفقة أختي . لكنهما الآن أخذتا تلحان عليّ أن أقيم صداقات مع أطفال آخرين . كنت أخجل أن أقول لهما أن الأطفال الآخرين يخيفونني كما أنني لم أرغب في الاعتراف أمامهما بأن الأفكار الهائجة التي كانت تدور برأس أختي ، إضافة إلى حيويتها التي لا تهدأ ، جعلا جميع البدائل والعلاقات تبدو أمامي وكأنها ظلال الظلال ، بعد أن هجرتني الآن بهذا الشكل الإرادي والغامض وبعد حرماني من رفقتها الرائعة ، أصبحت أكره بشدة الاعتراف لنفسي ولو بالسر كم أفتقد كثيراً الأشياء التي أضعتها أو حرمتني منها .

في بعض الأحيان ، أفكر بأنها قد ترغب بالذهاب بعيداً إلى أحداث الطفولة المألوفة لو كان الأمر بيدها ، لكن السيدات البالغات في المنزل كنّ دائماً يلاحقنها

بالتعليمات (حتى تلك السيدة الملونة أوزي) ماذا يجب أن تفعل أو أن لا تفعل ، فلم يكن من اللائق لأختي أن ترتدي جوارب أو أن تلعب بالطابة المطاطية أو بالبنانير ، كما لم يكن من اللائق لي أن أدخل غرفتها دون أن أقرع الباب ، كل هذه التعليمات صدمتني ، بدت لي سخيفة وسقيمة وتسببت في تعميق الجراح بداخلي . كانت أختي متناغمة وبشكل يشبه السحر مع الحياة الطفولية البرية في الريف . كان علينا الانتظار كي نراها كيف ستتأقلم مع الحياة الأكثر انتظاماً وتعقيداً للفتيات الكبيرات . أشك أنني ربما أخطأت في إعطاء صفة انتظام لهذا العمر ، لكن نعم ، فهو يصبح منتظماً فيما بعد ويدخل في أنماط من الحياة أكثر ترتيباً . لكن بين الطفولة والمراهقة توجد مساحة مقطوعة قد تكون أكثر برية من الطفولة نفسها .

هذه الصفة البرية هي أمر داخلي ، قد تخلف وراءها العروق والأغصان لكن هذه العروق تظهر أكثر غلاظة واضطراباً على الرغم من أنك لا تلاحظها في الخارج . فهذه السنوات القليلة تشبه ممراً خطراً ، يصعد نحو جبال مجهولة تقطع الأنفاس أحياناً وتدهش الرؤى . ربما لأن أمي وجدتي جاءتا من دم أكثر هدوءاً من دمي ودم أختي . لم تستطيعا توقع المعوقات التي تواجهنا ونحن نحمل هذا الدم الثائر الذي يسير في عروق والدنا . كانت تتنازعنا التناقضات ولم يكن السلام ممكناً في داخلنا ، ربما نصل إلى هدنة معينة في أفضل الأحوال بعد خوض عدة معارك ، في حين تبقى الطفولة تلك الصراعات معلقة إلا أنها تعدو لتنفجر في سن المراهقة ، تزلزل الأرض من حولنا . بدأت أختي الآن تشعر بتلك الاهتزازات تحت قدميها ، ظهرت وكأن خيالاً قد وقع عليها أو أنه وقع علي ، بينما بقي ضوؤها بعيداً بعض المسافة عني . نعم بدا الأمر وكأن أحداً قد أضاء مصباحاً في غرفة أخرى لم أستطيع دخولها . كنت أراقبها عن بعد وتحت الظل . عندما أستعيد الأمر في ذهني الآن ، أرى أن تلك السنتين أوالثلاث سنوات عندما كان ذلك الزهر القاتل موضوعاً في العلبة ، كانت أكثر سنين حياتها إشراقاً .

جدائل الشعر النحاسية الطويلة التي تتدلى على كتفيها . كانت تتأرجح بإثارة دائمة ! قامت أمي بقصها بشكل غير متوقع في نفس اليوم الذي غادرت فيه مقعد البيانو إلى غرفتها وهي تبكي بلا سبب حيث أنزلتها أمي إلى الأسفل ولم تسمح

لي بدخول الغرفة ، بل أخبرتني أن أذهب لأعثر على صديقة أخرى . عندما عدت كانت أختي بلا جدائل نحاسية . كانت تلك الحادثة بمثابة اعتراف رسمي بتلك الفروقات والانقسامات المؤلمة التي سكنت منزلنا لفترة من الوقت . لاحظت عندما اقتربت من الباب الرئيسي أنها بدأت تقلد النساء البالغات في طريقة مشيتها ، خاصة تلك المشية السريعة المنمقة التي كانت أمي تخطوها . أصبحت تضع يديها على جانبيها ، بدلاً من التلويح بهما وكأنها تنظف الستائر على الجوانب في تلك الأيام الراحلة .

كانت هناك أشياء أكثر من هذا . عندما دخلت إلى غرفة الاستقبال بعد الظهر بدت وكأن أبواقاً نحاسية تدق للحظتها . كانت ترتدي ثياباً جميلة . سارت أمي خلفها وجهها تعلوه الحمرة من شدة الإثارة ، أما جدتي فنزلت الدرج بخفة غير عادية . كانتا تتهامسان ، شيء مدهش قالت أمي : إنها تشبه ايزابيل . كان هذا هو اسم عمتي التي اشتهرت بجمالها في بلدة نوكس ڤيل ، ربما كانت هي المرأة الوحيدة في العالم التي تهابها وتحسب لها أمي حساباً ، فقد كانت معظم رحلاتنا الصيفية من دلتا مسيسيبي إلى نوكس ڤيل تبدو وكأنها رحلات لأداء فريضة دينية إلى صرح مقدس ، فعلى الرغم من أن أمي لم تكن لتعترف شفهياً بتفوق عمتي ، في الفروق والصفات النوعية إلا أنه كان واضحاً أنها كانت تتعامل مع تلك الشخصية في نوكس ڤيل بطريقة لا تخلو من الخوف أو الرهبة .

كانت إيزابيل بلا شك مثل شرارة نارية ، ما أن تشعر بها حتى تبقى مشتعلة في عينيك . كان فيها صفة مؤلمة فقد كانت تبدو وكأنها تشتعل من الخارج وتنطفئ في الداخل . ولم يمض وقت طويل على تلك اللقاءات حتى توفيت فجأة وبلا سبب نتيجة لاقتلاع أحد أسنان العقل الذي كان مصاباً بالتهاب . بقيت أسطورتها في القلوب والعيون وكذلك ذكرياتها التي طبعت في قلوب الكثيرين ومنهم أنا حيث بقيت أقارن بها الكثير من النساء الأخريات .

إنها تشبه إيزابيل قالت أمي بشكل هامس . لكن جدتي لم تعترف بهذا ، كانت معجبة بإيزابيل ، لكنها تعتقد أنها كثيرة التدخل ، لم تكن تستطيع أن تفرقها بشكل عام من ناحية رابطة الدم بينها وبين أبي الذي كان رجلاً شيطانياً ، لم يكن أحد

يفهمه كما أن العيش كان معه صعباً .

ما رأيته في أختي لم يكن إيزابيل بل كان شخصاً غريباً نامياً أدى جماله إلى شحذ إحساسي بالبقاء وحيدةً . رأيت أن الأمر بيني وبينها قد انتهى ، فقد تم إبعادي مثل لعبة لم تعد تثير الاهتمام ، فقدت تلك الألفة الحميمة السحرية التي رافقتنا خلال طفولتنا ، الألعاب وسباق الدرجات وغيرها . نعم لأول مرة رأيت جمالها وقد جاهرت به لنفسي على الرغم من أنني كنت أتهرب منه وأُشيح بوجهي بكبرياء ، كلما ولَجتْ إلى غرفة الاستقبال لتقف أمام المرآة وتتلقى الإعجاب . منذ ذلك الوقت بدأت أجد أنَّ الحياة لا تقدم تفسيراً كافياً عن نفسها وأُجبرت على تبني طريقة الفنان في عدم تفسير الأشياء ، بل وضع القطع على بعضها البعض بالطريقة التي تلائمه . ربما تكون هذه العبارة هي المعنى الآخر لقول أَني بدأت الكتابة . كان لأختي شغل آخر هو دراسة الموسيقى ، بداية تحت إشراف وتعليمات جدتي ، ثم انتقلت تحت إشراف معلمة محترمة كان اسمها مس إيهلي وهي مثال لعانس تعيش في بيت منسق له شرفة مغطاة بعرش عنب وسياج تغطيه النباتات المدادة . كانت تلفظ اسمها «إيل لي» وتعمل لتعيل نفسها ووالدها المشلول من خلال إعطاء دروس في عزف البيانو والقيثارة ، كانت معلمة موهوبة رغم أنها لم تكن تعزف جيداً . حتى لو لم تكن موهوبة تماماً فقد كانت تملك الكثير من الحماس إضافة إلى رومانسية حقيقية مزروعة في شخصيتها ، وحين تتحدث ، كانت تنساق في الحديث ثم تعود مذهولة لتسأل نفسها : «ماذا كنت أقول؟» . كانت واحدة من البريئات في هذا العالم ، لا يوجد حولها من يقدر قيمتها سوى طلابها وبعض كبار السن ، كان طلابها يعبدونها لأنها كانت تترك فيهم إحساساً بأن مجرد عزف بضع قطع على البيانو أو إطلاق عدة ألحان على الكمان تكفي لإصلاح كل الأخطاء في هذا العالم الذي خلقه اللّه وأضل طريقه الشيطان .

كانت متدينة وطيبة ، لم تكن لتقر بفشل تلاميذها أو قصر موهبتهم حتى ولو كانوا لا يفهمون الموسيقى ، أما الذين كانوا يعزفون جيداً فكانت تقول بالتأكيد أنهم عباقرة . كانت أختي من بين طلابها وكانت إحدى محظياتها على البيانو أما الآخر فكان ولداً يدعى ريتشارد ويعزف على القيثارة . كان حماسها لهذين الاثنين بلا

حدود . كانت الآنسة ايهلي تحلم بأن تجمع الاثنين اختي بلمستها الناعمة على البيانو وريتشارد مايلز بعزفه النقي على الكمان في عزف ثنائي ضمن احتفالات تأخذهما إلى عوالم العالم . ما زلت أذكر ريتشارد مايلز الآن وهو فتى في عمر السابعة عشرة ، لكنه في ذلك الوقت بدا بالنسبة لي شاباً بالغاً أكبر نسبياً من أختي التي كان عمرها حينذاك أربع عشرة سنة . كنت أكرهه بشدة على الرغم من أنني وفور إدراكي لوجوده ، حلمت به كما حلمت سابقاً بأبطال القصص ، صار اسمه يسكن في قلبي ، كذلك على شفاه أختي ، تلك الشابة الصغيرة التي جاءت لتعيش معنا ، كانت تذكر اسمه باستمرار ، عندما يخرج الاسم من شفتيها يبدو وكأنه يسقط عنهما ولا يخرج منهما . في اللحظة التي تذكر اسمه ينطلق اسمه في الهواء مترقرقاً ليناً ويأخذ ألواناً جميلة على طريقة فقاقيع الصابون التي تنفخها على درجات البيت الخلفية المشمسة في فصل الصيف .

قد تنفجر هذه الفقاقيع ، لكن ليس قبل أن تطفوا إلى جانبها فقاقيع أخرى مذهبة . هكذا كان اسم ريتشارد ذهبياً أيضاً ، أما الاسم الثاني مايلز فكان يعطيك إحساساً بالمسافات . هكذا كان ريتشارد شيئاً مشعاً وبعيداً .

كان هوس أختي بريتشارد أشد من هوسي به ، لأنه في حالتي كان ذلك الهوس منسوخاً عن هوس أختي ، ربما كانت متعلقة به أكثر في البداية ، بينما ظل هوسي أنا خجولاً ومؤلماً يدخل في باب الإحساس بالهجران . ظل ولعها به مرحاً فقد وقعت في حبه . وكما يحدث دائماً قلدتها أنا .

بينما زادها حبها إشراقاً في البداية ، أحالني حبي إلى شخص ممل وكسول حزين ومشوش ، انعقد لساني ، ولم أعد أنطق إلا تمتمة وانعكس الأمر بشكل لا يحتمل على عينيَّ فصرت أشيح بهما بعيداً . هذه هي الشدائد التي لا تستطيع العيش معها بل عليك أن تخرج منها ، كي تستمر ، لكن الإنسان لا يملك إلا أن يتأثر بها . إلى متى تستطيع شرايين دمائنا أن تحمل بواكير هذا الحب معها ، لأنها لو فعلت ، ستنفجر العروق وتستحيل هذه العواطف إلى ظلام مبكر ، أبكر من الزمن المعهود بها . ما زلت أذكر حين كنت أتمشى أنا وأختي عبر الشارع بعد ظهر يوم خريفي ، عندما ظهر ريتشارد مايلز فجأة من مكان ما وهو يطلق صرخة مذهلة . رأيته يبرز من

معرشات العنب نازلاً على درجات المنزل الأبيض اللون حيث تقطن الآنسة إيلي ، كان يحمل بيده قيثارة لاحظت يومها أن تلك القيثارة تشبه كفناً صغيراً لطفل أو لدمية . عندما تستذكر الأشخاص الذين عرفتهم في طفولتك فإنهم يظهرون لك فقط ضمن صفات مثل قبيح أو جميل ، فاتح اللون أو غامق . أنا لا أذكر إذا كان ريتشارد فاتح اللون بمعنى أشقر أو أن لونه جاء من صفات أعمق من لون الشعر أو الجلد . نعم ربما كليهما فقد كان من الأشخاص الذين يتحركون في الضوء ويتزودون من كل شيء حولهم . ما زلت أذكر هذه التفاصيل ، كان يرتدي قميصاً أبيض يظهر من أطرافه جلد كتفيه الأشقر ، ربما كانت هذه أول مرة أدرك فيها وجود جاذبية للجلد كشيء ترغب في لمسه . هذا الإدراك دخل عقلي وإحساسي مثل لهب مفاجئ يتبع انطلاق الصاروخ .

أما مأساتي فقد اكتملت عندما رأيت ريتشارد يتجه نحونا . عندما التفت إلي مديده الضخمة ليصافحني ، قمت بحركة منفرة جداً لم أستطع بعدها أن أقترب منه دون أن أشعر بالخجل فبدلاً من مصافحته ، سحبت يدي بعيداً عنه وأخذت أتمتم بصوت أشبه بإلقاء خطبة ثم انسحبت بعيداً عنهما ، عن أختي وريتشارد اللذين هرعا بعيداً إلى الصيدلية المجاورة .

في ذلك الخريف نفسه ، قدّمت الآنسة إيلي تلاميذها في إحدى الحفلات الموسيقية التي أقيمت في دار الأسقفية التابع للكنيسة التي يذهب إليها جدي . وقد ظل التلاميذ لأسابيع يجهزون أنفسهم لتلك الحفلة التي بدت وكأنها بأهمية حفلات عيد الميلاد . كان على أختي وريتشارد مايلز أن يلعبا ثنائياً ، هي على البيانو وهو على الغيتار وقد تمرنا لوحدهما ومع بعضهما البعض ، عندما كانت تتمرن لوحدها كانت أختي تجيد العزف تماماً ، ولكن لسبب ما ظهر فيما بعد أنه أكثر شؤماً مما بدا كانت تجد صعوبة في مرافقة ريتشارد على العزف إذ تتخدر أصابعها فجأة وتتيبس يداها ويتجمد جسمها أمام البيانو وحتى جمالها ولياقتها يختفيان تماماً .

كان الأمر غريباً ولكن الآنسة إيلي كانت واثقة أنها ستعتاد على الأمر مع المزيد من التدريب . كان ريتشارد صبوراً بشكل لا يصدق ، وقد بدا مهتماً بأمر أختي أكثر من اهتمامه بأمره شخصياً . كان هناك ضرورة للمزيد من ساعات التمرين الإضافية

حتى أنهما كانا يأتيان إلى المنزل لمتابعة التدريب بعد وصول الطلاب الآخرين إلى منزل الآنسة إيلي . كان بعد الظهر غير آمن بالنسبة لي فلم أكن أعلم متى ينفتح الباب ويظهر أمامي ريتشارد بجماله وتحيته التي لم أكن أحتمل الرد عليها بل أنفر منها بعيداً . لكن منزلنا كان منظماً لدرجة أني كنت أستطيع مراقبة ريتشارد وأختي وهما يتمرنان من باب غرفة نومي التي كانت تشرف على الدرج المؤدي إلى غرفة الاستقبال حيث يقومان بالتمرين .

كان البيانو موضوعاً في الجهة المضاءة من الغرفة وعلى مرمى نظري تماماً ، أما ستائر النوافذ فكانت مفتوحة على الجانبين ، وضوء الشمس يعم الزاوية كلها ولا يقطعه إلاّ ظل بريمات الستائر وبعض النباتات الخنشارية .

خلال الأسبوع الأخير الذي يسبق الاحتفال أو العزف الموسيقي كما يسمونه كان ريتشارد يأتي عندنا بدون انقطاع في الساعة الرابعة من بعد ظهر كل يوم ، وفي الساعة الأخيرة لضوء الشمس الساطعة في أواخر تشرين الأول . كنت أقوم قبل دقائق من هذه الساعة بكشف الزاوية الخضراء المحجوبة في غرفتي بهدوء وبسريّة حتى لا يكشف الصوت مثل هذا العمل السقيم ، ثم أفتح الباب لدرجة كافية تمكنني من تغطية زاوية البيانو ، باعتبارها الحدود الجانبية للمسرح . عندما أسمعهما يدخلان من الباب الرئيسي أو حتى قبل ذلك أي عندما أرى ظلها على الزجاج البيضاوي وعلى الستائر أو أسمع صوتهما وهما يصعدان إلى الشرفة أَنبطح على بطني فوق الأرضية الباردة وأبقى في هذا الوضع ما بقيا رغم الآلام التي كنت أشعر بها في ركبتي وأكواعي ، كنت حريصة جداً على أن لا أفوِّت هذا المنظر لدرجة أنني في بعض الأحيان لم أكن أجرؤ على التنفس .

وصل الآن اهتمامي بريتشارد إلى درجة الاستحواذ التام ، لم أكن ألاحظ حتى وجود أختي عند البيانو . كنت أغضب من تكرار أخطائها شفقة عليه . عندما أتذكر كم كنت صغيرة ومتشددة في تلك الأيام ، أستعيد ذلك التناقض الفظيع الذي كان يسكن أفكاري وإحساساتي ، وأنا أحدق في الأسفل من خلال الشق في باب غرفة نومي . كيف يمكن أن أفسر لنفسي في ذلك الوقت ، جماله الساحر دون أن أعترف بيني وبين نفسي ، أني كنت صغيرة متوحشة . ربما كان هذا الأمر في الحقيقة ، قبل

أن أبدأ بربط الأمور الحسية بالأمور اللا أخلاقية ، وهو أمر عذبني كثيراً خلال فترة ما بعد بلوغي ، أو ربما أقول لنفسي وهذا قد يبدو أكثر احتمالاً ، نعم ، يا توم إنك متوحشة ، لكن هكذا هو الأمر ، ولا يمكنك أن تفعلي شيئاً إزاءه . هذا هو الحد ، فكل ما تبقى من مقاومة للكتيبة الأخلاقية المرابطة في روحي تحطم عند أول مناورة ، لم يتم إبادته ، لكنه هزم تماماً وأخذت شكواه لاحقاً شكل احمرار غير مرئي . لا يعني هذا أنّ هناك أمراً مُخجلاً في عشق جمال ريتشارد فقد كان جماله مخلوقاً لهذا الشيء ،كأنه مثال يحرك الأولاد في مثل عمري . فقد أشْبَعتُ قميصه الأبيض الذي كان يظهر منطقة أعلى جسده ـ نظراً ووصفاً ـ والآن في فترات بعد الظهر وبسبب وقوع البيانو بين نافذتين تلتقي أشعتهما في زوايا عكسية ظهر ذلك القميص الأبيض اللون شفافاً ، مع الضوء يشيع جسده من خلاله ألوانا فضية وزهرية ، حتى حلمتا صدره وإبطيه تبدوان مثل نقاط داكنة ، وحجابه الحاجز ينبض بوضوح وهو يتنفس . ربما رأيت قبل ذلك أجساداً جميلة لكن جسده ظل ماثلاً في عقلي الباطني . الآن عندما أستذكر صورته من خلال تلك الأحاسيس المقدسة الغامضة التي كانت تنتابني وأنا أزحف على بطني ، فوق الأرضية الباردة لغرفة النوم ، أفكر بكاميلا روسيلا تلك الفاتنة الغامضة في فلورنسا والتي من المفروض أن تكون قد رأت بيكو ديللا ميراندولا وهو يعبر شوارع المدينة ، ممتطياً حصانه الأبيض حليبي اللون ، وسط عاصفة من أشعة الشمس والورود ، ثمّ أصابها الدوار وسقطت مغشياً عليها ، أمام منظره وهي تمتم «سوف يمر في زمن الزنابق» بمعنى أنه سيموت باكراً لأنه لا يمكن لشيء بهذا الجمال أن ينحط تدريجياً إلى عمر الشيخوخة . . كان الضوء هناك بكل قوته وكذلك الورود ، ظلالها على الأقل ، لأنه لم يكن هناك ورود أسفل بريمات الستائر بل أغصان شجيرات يتسلل منها الضوء . لم يكن هناك عاصفة من الورود بل ظلال ورود ربما كانت أكثر ملاءمة مع الوضع . أكثر ما كان يلفت نظري هي طريقة رفعه لقيثارته وتعامله معها . فكان أولاً يرفع أكمام قميصه الأبيض ويفك رباطة عنقه ثم يرخي ياقة قميصه وكأنه يستعد لممارسة الحب . كنت أسمع طرطقة معدن عندما يفتح قفل صندوق القيثارة . بعدها يسحب الغطاء العلوي للصندوق إلى الخلف وتدخل أشعة الشمس إلى داخل الصندوق . كان صندوقاً فاخراً مخططاً بخطوط زمرد

على جوانبه ، أمّا القيثارة نفسها فكانت براقة كلون الدم وربما أكثر ،كانت بالنسبة لريتشارد شيئاً ثميناً ، فقد كانت حركات يديه وذراعيه وهو يرفع القيثارة من الصندوق تقولان كلاماً في الحب أكثر مما يمكن للكلام أن يقول ، آه ، كم من المشاعر الناعمة المحببة السابقة لشيء ما ، كانت تثيرها فيّ هذه الحركة . كنت مثل جندي جريح ، أصغر جندي في الكتيبة ، أما هو ، ريتشارد ، فكان الضابط الشاب المسؤول عني والذي يعرض حياته للخطر لكي ينقلني من ساحة المعركة حيث سقطت ويحملني إلى بر الأمان بين ذراعيه اللتين يحمل بهما القيثارة الآن .

أشعر ببعض القلق الآن ، إن هذه القصة تبدو وكأنها تستهلك نفسها مثل ممر يتسلق إحدى التلال ، ثم يضيع وسط نموات العليق والأعشاب ، لأن ما أخبرتكم إياه حتى الآن . كان كل شيء ما عدا أحد الأشياء التي تتمثل أمامي بوضوح ومع ذلك فلم أصل معكم بعد لأية نتيجة . هناك نتيجة طبعاً ، حتى لو لم تكن محددة تماماً . لكن يبقى هناك نقطة تخدم الحاجة إلى الذكريات والقصص القديمة .

الشيء الواضح جداً والباقي من هذه القصة فهو ليلة الاحتفال أو الحفلة الموسيقية ، التي تمت في وسط شهر تشرين الثاني ، قبل أن أتحدث عن هذه الحفلة يجب أن أخبركم عن حالة أختي المضطربة في ذلك الوقت . قد يكون من الممكن أن أحشر نفسي بإرادتي داخل دماغها وعواطفها ، لكني أتساءل عن الحكمة في هذا : لأنه في ذلك الوقت كنت أُعتبر متفرجاً عدائياً بالنسبة لما يتعلق بها .كانت تتنازعني مشاعر الحسد والحقد وكأنها هي المسؤولة عن خيانة رفقتنا الطفولية . كان إحساسي مزيج من الرضا والتحدي كلما لمست مصاعبها في العمل الثنائي مع ريتشارد .

في إحدى الأمسيات تنصّتُ على مكالمة تلقتها أمي من الآنسة إيلي حيث أبدت فيها الآنسة إيلي قلقها ، حذرت من حالة التردي الغامضة التي وصلت إليها أختي ، وتراجع ثقتها أمام البيانو .

بقيت الآنسة إيلي تكيل لها الثناء لعدة أشهر ، أما الآن فيبدو أنها ستجلب لنا العار أمام الجمهور . فجأة لم تعد تستطيع أن تحفظ المعزوفات الجديدة في الوقت الذي راحت فيه تنسى المعزوفات القديمة ، وسوف تضطر الآنسة إيلي إلى إلغاء المعزوفات المنفردة من البرنامج وتخشى أيضاً أن تضطر لحذف المعزوفات الثنائية مع ريتشارد ،

بعد أن كان مخططاً أن تبدأ العزف منفردة ثم تنتقل إلى العزف الثنائي . كانت الآنسة إيلي تطلب من أمي أن تفكر في الأسباب التي أدت بأختي للوصول إلى هذا الانحطاط المؤلم .

هل كان نومها سيئاً ؟ كيف كانت شهيتها للأكل ؟ هل كانت مزاجية جداً ؟ عادت أمي بعد تلك المحادثة الهاتفية بمزاج سيئ جداً ، راحت تكرر شكاوي المعلمة وتقديراتها أمام جدتي التي لم تكن ترد بشيء سوى هز رأسها وزمّ شفتيها . أثناء إنشغالها بالحياكة ، مثل تلك النسوة المخضرمات اللواتي يتفهمن ويتحكمن بمصير الأحياء الفانين . لم يكن لديها شيء تقدمه على شكل حل عملي سوى أن تقول ربما كان من الخطأ دفع الأطفال النابغين إلى عمل أشياء مثل هذه في وقت مبكر . . . .

بقي ريتشارد صبوراً ومتحملاً معظم الوقت . كانت تمر أوقات انبعاث حيث تقوم أختي بالعزف على البيانو بنشوة وثقة ، تخرج الألحان من تحت يديها كالعصافير من الأقفاص ، لكن مثل هذا الانتعاش لم يدوم حتى نهاية القطعة إذ تمر لحظة تعثر ثم انهيار آخر . أما هو فكانت تنتابه لحظات يرفع فيها قيثارته عالياً في الهواء مثل مكنسة تنظيف زوايا السقف ويسير عبر غرفة الاستقبال يلوح بها مهدداً ، يطلق عنّات تنمّ عن الصدق أحياناً وعن الهزل أحياناً أخرى ، عندما يعود إلى مقعد البيانو ويجدها مكوّمة عليه بيأس ، يأخذها من كتفيها ويهزها . عندها تنفجر هي بالبكاء وتحاول الهروب إلى أعلى الدرج ، لكنه يلتقطها من ذراعها عند مطلع الدرج ويتمتم لها بكلام لم أكن لأفهمه ثم يسحبها برفق نحو البيانو ، يجلس بجانبها ممسكاً خصرها النّحيل بيديه الكبيرتين وتأخذ هي بالتشنج وهي تشيح بوجهها جانباً وأصابعها معقودة معاً . بينما كنت أراقب ذلك من كهفي المظلم ، تعلم جسدي قوة إرادة الحياة لتجاوز الجسد المفرد والتقدم للّحاق بالزمن .

ليلة الاحتفال اشتكت أختي على مائدة العشاء بأن يديها متجمدتان ،ظلت تفركهما ببعضهما حتى أنها وضعتهما فوق ثقب إبريق الشاي لتدفئهما ببخاره . كانت تبدو جميلة جداً . عندما ارتدت ثيابها كان لونها أحلى ما رأيته في حياتي كانت تنساب من جوانب جبينها حبات العرق ، أشارت إليّ أن أترك الغرفة عندما ظهرت أمامها عند الباب قبل أن تصبح جاهزة لأن تتفقدها بقية العائلة . كانت

ترتدي حذاءً فضياً وثوباً أكبر من عمرها ، أخضر كلون البحر في عينيها ، كان خصرها ساحلاً كما هي الموضة في تلك الأوقات ، تتدلى منه خيوط فضيّة مجدلة ومستقيمة .

كان البخار القادم من الحمّام المجاور لغرفة نومها يملأ الغرفة ، فتحت النافذة لكن جدتي أغلقتها فوراً خوفاً من أن تصاب بالبرد . آه ، اتركيني لوحدي قالت لها ، كانت عضلات رقبتها بارزة بشكل ظاهر وهي تحدق في زجاج النافذة ، توقفي عن رش البودرة قالت لها جدتي ، إنك تطبخين وجهك بهذه البودرة . أجابتها أختي على كل حال إنه باهت ، ما إن سمعت بعض التعليقات النافذة من أمي حتى تشنجت ودخلت في نوبات عصبية وراحت تصيح : أنا لا أملك موهبة للموسيقى ! لماذا يجب علي أن أتعلمها ؟ لماذا تجبرونني على فعل ذلك ؟

استسلمت جدتي وانسحبت من الغرفة . لكن عندما جاء موعد الذهاب إلى الأسقفية نزلت أختي الدرج بفرح وثقة . لم تتفوه بكلمة واحدة أثناء مغادرتنا ، في السيارة همست بكلمة إذاكان شعرها بحاجة إلى تمشيط ، أبقت يديها الجامدتين معقودتين في حضنها . انطلقنا بالسيارة نحو منزل الآنسة إيلي ، وجدناها في حالة هستيرية ، بعد أن علمت أن ريتشارد قد سقط عن الدراجة وجرحت أصابعه ، كانت متأكدة أن هذا سيعرقل عزفه ، ولكن عندما وصلنا إلى الأسقفية كان ريتشارد هادئاً كبحيرة البط ، يعزف بنعومة على أوتار القيثارة دون أن تظهر عليه أية إعاقة . تركنا المعلمة والتلاميذ في غرفة الملابس وأخذنا مقاعدنا في القاعة التي بدأت تمتلئ بالناس ، أذكر أنني قرأت شيئاً على اللوح يتعلق بدروس يوم الأحد .

كلا ! لم تسر الأمور على ما يرام ، فقد عزفا بدون تكملة القطع وارتكبت أختي ، جميع الأخطاء التي ارتكبتها خلال التمارين ، إضافة إلى أخطاء أخرى جديدة ، لم يبدُ عليها أنها استطاعت تذكر القطع التي تلت أول الصفحات القليلة ، أطالت في العزف وأعادت عزف بعض القطع مرتين وثلاثة ولكن ريتشارد كان مبدعاً ، بدا وكأنه يتوقع كل خطأ ترتكبه ، قام بتغطيته بالضرب على أوتار قيثارته بصوت عال ، وعندما لاحظ أنها بدأت تفقد السيطرة على نفسها رأيته يقترب منها بحيث يحجب وجهه المشرق جزئياً منظرها كما رأيته في إحدى اللحظات الحرجة ، حين أصبح العزف

الثنائي على وشك الانهيار ، بدأ يلوح بقيثارته في الهواء ويلتقط أنفاسه بصوت يشبه أصوات مصارعي الثيران في هجمة جريئة ثم يخفض الأوتار في سحبة رائعة ، أخذ فيها المبادرة من أختي وأكمل القطعة التي كانت قد نسيتها في خضم نوبة الخوف التي انتابتها . للحظة أو لحظتين شعرت أنها توقفت عن العزف وجلست مذهولة بلا حراك ، أخيراً أدار وجهه للجمهور وتمتم لها شيئاً فعادت إلى العزف ثانية ، ريتشارد أبدع بشكل رائع وملحوظ غطى على صوت البيانو لدرجة لم يعد معها ملاحظاً . وهكذا مر الأمر ، وعندما أنهيا العزف استقبلهما الجمهور بحماس وتصفيق طويل .

حاولت أختي أن تهرع هاربة إلى غرفة الملابس ، لكن ريتشارد أمسك بها من رسغها وأعادها مكانها ، ثم حدث شيء غريب فبدلاً من أن تنحني أمام الجمهور أدارت وجهها فجأة وضغطت بجبينها على طية سترته الزرقاء . احمرّ وجهه وانحنى أمامها ثم أحاط خصرها بأصابعه وكانت عيناه تلمعان .

عدنا إلى المنزل بصمت ، كان هناك شبه مؤامرة لتجاهل ما حدث ، ظلت أختي صامتة لم تنبس ببنت شفة ، جلست ويداها معقودتان على حضنها تماماً كما كانت قبل ذهابها إلى الحفل ،عندما نظرت إليها لاحظت أن كتفيها كانتا ضيقتين وفمها عريضاً بالنسبة لفتاة جميلة ، كما لاحظت أن عادة الانحناء الجديدة التي استحوذت عليها جعلتها تبدو مثل طفلة تقلد سيدة عجوزاً .

عند هذه النقطة اختفى ريتشارد مايلز من حياتنا . فقد رفضت أختي الاستمرار في دراسة الموسيقى . لم يمض وقت طويل على ذلك حتى نال أبي ترقية كإداري صغير في عمل مكتبي لدى إحدى شركات الأحذية في الشمال . انتقلنا من الجنوب . كلا ، أنا لا أضع هذه الأمور في ترتيبها الزمني الصحيح ، عليّ أن أعترف بذلك . إن فعلت ذلك أكون قد خالفت عهدي ككاتب قصص .

أما بالنسبة لريتشارد فالحقيقة تناغم القصيدة تماماً ، فقد تناهى إلى سمعنا بعد سنة أو أكثر في تلك البلدة الشمالية التي انتقلنا إليها ، أنه قد توفي بداء الرئة .

عندها تذكرت صندوق القيثار وكيف كان في ذلك الوقت يشبه كفناً أسود لطفل أو لدمية . . . .

١٩٥٥

جون شيفر

الزوج الريفي

عن «ذي نيو يوركر»

لنبدأ من البداية ، كانت الطائرة التي أقلعت من منيابوليس نحو الشرق ، وعلى متنها فرانسيس ويد تطير في جو ثقيل ، عبر سماء ملبدة بالغيوم التي تقاطبت أسفل الطائرة حتى حجبت رؤية الأرض . أخذ الضباب يتشكل خارج النوافذ ، ودخلت الطائرة وسط غيوم بيضاء كثيفة لدرجة أنها كانت تعكس اللهب ، الذي تنفثه محركات الطائرة ، وقد تغير لون الغيوم ليصبح قاتماً رمادياً وأخذت الطائرة تهتز ، ومع أن فرانسيس كان قد سبق له أن ركب الطائرة في جو ثقيل كثيف الغيوم والضباب ، إلا أنه لم يسبق له أن شهد ارتجاجاً بمثل هذه الصورة .

سحب الرجل الذي يجلس بجواره في المقعد قارورة من جيبه ، وتناول منها جرعة . ابتسم فرانسيس لجاره ، ولكن الرجل اشاح بوجهه وأخذ ينظر إلى البعيد . فلم يكن يريد من أحد أن يشاطره مسكّن الألم الذي يتناوله ، وأخذت الطائرة تنحدر وتتخبط بعنف ، . كان هناك طفل يبكي . الهواء داخل القمرة حاراً أكثر مما ينبغي ومجهداً ، وأخذت قدم فرانسيس اليسرى في التخدر ، وقرأ قليلاً في صفحة من كتاب كان قد اشتراه من المطار ، ولكن عنف العاصفة شتت ذهنه ، وفي الخارج سادت الظلمة ، وكان لهيب المحركات المتوهج ينثر الشرر خلالها ، أما في داخل قمرة

الطائرة ، فقد أشاع خفوت الاضاءة والازدحام وستائر النوافذ جواً من الإجهاد وعدم الإلفة ، ثم أخذت الأضواء تومض وتخبو داخل الكابينة إلى أن انطفأت تماماً .

– هل تعلم ما كنت أرغب في فعله دائماً؟ قال الرجل الذي يجلس بجوار فرانسيس فجأة «لقد كنت دائماً أرغب في شراء مزرعة في نيوهامبشير وأربي فيها قطيعاً من الأبقار» .

أعلنت المضيفة بأنهم سيقومون بهبوط اضطراري ، الجميع ما عدا الطفل رأو في أذهانهم الأجنحة المنتشرة لملاك الموت ، وكان يمكن سماع الطيار وهو يغني بصوت هزيل ، «لقد حصلت على ستة بنسات ، ست بنسات ، فرحة فرحة ، لقد حصلت على ست بنسات لتكفيني مدى حياتي . . .» ، ولم يكن هناك صوت آخر سواه .

علا صوت هدير الصمامات الهيدروليكية ، وتضخم حتى غطى على أغنية الطيار ، وكان هناك زعيق في أعلى الجو يشبه صوت كوابح سيارة وانزلقت الطائرة على بطنها في حقل ذرة وهزتهم بعنف حتى أن رجلاً عجوزاً أخذ يولول «كلوتي ، . كلوتي»!

فتحت المضيفة باب الطائرة بسرعة ، وقام احد الأشخاص بفتح باب طوارئ في المؤخرة مدخلاً ضجة لطيفة على شعورهم المستمر بالموت الجماعي – رذاذ خفيف من الماء ورائحة المطر الكثيف في وسط الرعب والقلق على حياتهم . اندفعوا في طوابير عبر الأبواب ، وانتشروا في جميع الاتجاهات وسط حقل الذرة وتحت رذاذ المطر وهم يصلّون من أجل عدم انقطاع خيط الحياة ، وهذا ما حصل بالفعل ، فلم تحترق الطائرة ولم تنفجر ، ولما تأكد أن ذلك لن يحصل قام طاقم الطائرة ومعهم المضيفات بجمع الركاب وقادوهم إلى ملجأ في حظيرة ، لم يكونوا بعيدين عن مدينة فيلادلفيا ، وخلال وقت قصير حضر رتل من سيارات التاكسي ، التي أقلتهم بدورها إلى المدينة «أنه بالضبط مثل المارن» قال أحدهم ، الا أن المفاجأة كانت وجود بعض الارتياح من الشك الذي ينتاب العديد من المسافرين الأمريكيين من المسافرين الآخرين معهم .

وفي فيلادلفيا ، استقل فرانيس القطار إلى نيويورك ، وفي نهاية الرحلة عَبَر إلى المدينة ، وبالكاد تمكن من اللحاق بالقطار الذي يستقله خمسة ليالي في الأسبوع إلى منزله في شادي هيل . جلس مع تريس بيردن «أتعلم أنني كنت على متن الطائرة

التي سقطت منذ لحظات خارج فيلادلفيا» قال «وهبطنا في حقل . . . .» . لقد اجتاز المسافة أسرع من الصحف أو المطر . كان الجو في نيويورك مشمساً ، ولطيفاً . وكان يوم من أواخر أيام شهر ايلول منعشاً وهادئ الشكل مثل تفاحة . استمع تريس إلى القصة ، ولكن أنّى له أن يستثار؟ ففرانسيس لا يملك قوى تستطيع أن تجعله يعيد الحياة إلى غصن في حالة الموت - خاصة في جو قطار الضواحي ، الذي يرتحل خلال منطقة ريفية مشمسة ، بدأت حدائقها الفقيرة للتو تعلن موعد الحصاد .

التقط تريس جريدته وبقي فرانسيس وحيداً مع أفكاره . ودَّع تريس متمنياً له ، ليلة سعيدة عند رصيف محطة القطار في شادي هيل ، ثم استقل سيارته الفولكس فاجن المستعملة إلى حيث يسكن في ضاحية بلنهولو .

كان منزل آل ويد قد بني أيام المستعمرات الهولندية . وكان أوسع مما يبدو من الطريق العام . كانت غرفة المعيشة واسعة ومقسمة إلى ثلاثة أجزاء ، على طراز بيوت بلاد الغال ، وحول الجناح القائم على يسار المخل المسقوف ،توجد الطاولة الطويلة ، المعدة لستة أشخاص مع شموع وطبق فواكه في الوسط . وكانت الأصوات والروائح التي تنبعث من باب المطبخ المفتوح مثيرة للشهية ، فقد كانت جوليا ويد طاهية ماهرة ، وكان الجزء الأكبر من غرفة المعيشة يتحلق حول الموقد ، وعلى اليمين توجد بعض أرفف الكتب وبيانو ، كانت الغرفة مرتبة وهادئة ، تتسلل في نوافذها بعض خيوط شمس آخر الصيف وتطل على الجهة الغربية صافية كصفاء الماء ، ولم يكن هناك شيء مهمل أو شيء لم يتم تلميعه . انه لم يكن من تلك البيوت ، التي اذا قادك الفضول إلى فتح صندوق السجائر الملصق فانك ستجد تحته زراً لقميص قديم ، أو قطعة نقود صغيرة قد فقدت بريقها . كان الموقد منظفاً ، والزهور الموضوعة على البيانو تنعكس على صفحة السقف اللامعة ، وكان هناك البوما لمعزوفات شوبارت على الحمالة .

كانت لويزا ويد ، الفتاة الجميلة ابنة التسعة سنوات تنظر من النوافذ الغربية ، إلى الخارج . والى جانبها يقف شقيقها الأصغر هنري فيما شقيقها توبي الذي لا يزال صغيراً يتأمل أشكال بعض الرهبان الحليقي الرؤوس ، وهم يشربون الجعة على الصفحة النحاسية اللامعة لصندوق الخشب .

خلع فرانسيس قبعته ووضع أوراقه ، لم يكن مغتبطاً لهذا المشهد . فلم يكن ذلك الإنسان التأملي ، ذلك هو عنصره وتلك هي حلقته وتكوينه . يعود اليها دائماً مع الإحساس بالإشراق ، والقوة التي يعود بها أي مخلوق إلى بيته ، «مرحباً لكل واحد» قال «الطائرة من مينابوليس . . .» ، تسعة من كل عشر مرات كان فرانسيس يستقبل بحرارة ، ولكن الجميع هذه الليلة كانوا مستغرقين في خصوماتهم الخاصة . لم يكد فرانسيس يكمل جملته بشأن الطائرة التي سقطت . الا وكان هنري يسدد ضربة إلى ظهر لويزا ، التفت لويزا حول نفسها وهي تقول «عليك اللعنة» ، كان فرانسيس دائماً يرتكب غلطة بتوبيخه لويزا على اللغة السيئة قبل أن يعاقب هنري . استدارت لويزا الآن نحو ابيها واتهمته بالمحاباة ، فهنري دائماً على حق ، وهي مضطهدة ومتوحّدة ولا فائدة من حظها . استدار فرانسيس نحو ابنه ، ولكن الولد قال إن لديه العذر في توجيه الضربة لأنها هي التي ضربته أولاً على اذنه وهي منطقة خطرة ، وأقرت لويزا بهذا الأمر بانفعال واعترفت بأنها ضربته على اذنه ، وكانت تقصد أن تضربه على أذنه لأنه أفسد لها مجموعة الخزف الصيني .

رد هنري بأن هذا كذب . ادار توبي الصغير نظره بعيداً عن صندوق الخشب ، ليقدم الدليل على صدق لويزا . فقام هنري بوضع يده بقوة على فم توبي الصغير ليمنعه من الكلام ، حاول فرانسيس الفصل بين الأولاد ولكنه عن غير قصد دفع بتوبي إلى صندوق الخشب ، فأخذ توبي في البكاء بينما كانت لويزا قد شرعت في البكاء للتو .

حينئذ دخلت جوليا ويد إلى ذلك الجزء من الغرفة حيث الطاولة معدة ، كانت امرأة لطيفة وذكية وقد بدا البياض يغزو شعرها باكراً ، لم يبدُ عليها أنها لاحظت وجود شجار .

-«مرحباً حبيبي» ، قالت لفرانسيس بلهجة صادقة ثم تابعت «اغسلوا ايديكم جميعاً فالعشاء جاهز ، اشعلت عود ثقاب واضاءت الشمعات الستة وسط هذا الجو من الدموع .

هذا الإعلان البسيط الذي يشبه صيحات الحرب لرؤساء الجماعات الاسكتلندية يؤدي فقط إلى تأجيج شراسة المحاربين . إثر ذلك ، توجه لويزا ضربة ، إلى كتف

هنري ، ومع أن هنري نادراً ما يبكي ، الا أنه كان تعباً فقد رمى تسعة ، رميات في لعبة البيسبول ذلك النهار . لذلك ينفجر بالبكاء ، ويكتشف توبي الصغير شظية في يده فيأخذ في العويل .

يصرخ فرانسيس بصوت عال بأنه كان على متن الطائرة التي تحطمت ، ولذلك فهو متعب تظهر جوليا مرة أخرى من المطبخ متجاهلة كل هذه الفوضى . وتطلب من فرانسيس أن يصعد إلى الطابق العلوي ويخبر هيلين بأن كل شيء جاهز ، فرانسيس يبدي سروره بالذهاب ، مثل سروره بالرجوع إلى المركز الرئيسي للشركة . ويخطط أن يخبر ابنته الكبرى عن الطائرة التي تحطمت ، ولكنه يجد هيلين مستلقية على سريرها تقرأ مجلة «ترورومانس» . وكان أول شيء يفعله فرانسيس هو أن ينتزع المجلة من يدها ويذكرها بأنه قد منعها من شرائها .

– تجيبه هيلين بأنها لم تقم بشرائها ، وانما اعطتها اياها بيسي بلاك أعز صديقاتها ، وبيسي بلاك وكل شخص يقرأ «ترورومانس» . وحتى والد بيسي بلاك يقرأ ترورومانس» ، ولا توجد فتاة في صف هيلين لا تقرأ «ترورمانس» . يعبر فرانسيس عن مقته لهذه المجلة ثم يخبرها بعد ذلك بأن العشاء جاهز – على الرغم من أن الأصوات المنبعثة من الأسفل لا توحي بذلك – تتبعه إلى أسفل الدرج . كانت جوليا قد جلست على ضوء الشموع وفردت منديلاً على حجرها .

لم تحضر لويزا ولا هنري إلى المائدة . وكان توبي الصغير لا يزال يولول ووجهه على الأرض . يخاطبه فرانسيس بلطف «كان أبوك في الطائرة التي تحطمت بعد ظهر هذا اليوم . ألا تريد أن تسمع يا توبي قصتها؟» .

يستمر توبي في البكاء . «اذا لم تأت الآن إلى المائدة يا توبي» يقول فرانسيس «فانني سوف أرسلك إلى السرير بدون عشاء» .

ينهض الولد الصغير ويوجه اليه نظرة قاطعة ، ثم يصعد الدرج بسرعة إلى غرفة نومه ويغلق الباب خلفه بعنف .

– أوه يا عزيزي» تقول جوليا . وتهم باللحاق به .

– يقول فرانسيس بأنها ستفسده .

– تقول جوليا ان وزن توبي أقل عشر باوندات مما يجب أن يكون عليه وأنه بحاجة

إلى من يشجعه على الأكل ، كما أن الشتاء على الأبواب وسيمضي الأشهر الباردة في السرير ، ما لم يتناول طعامه ، تصعد جوليا إلى الطابق العلوي . ويجلس فرانسيس مع هيلين على الطاولة . كانت هيلين تشعر بالكآبة لأنها قرأت بتركيز مفرط في يوم لطيف مثل هذا . ترمق والدها والغرفة حولها بنظرة منهكة ، ولم تفهم ما جرى للطائرة التي تحطمت لأنه ، لم يكن هناك قطرة مطر في شادي هيل .

تعود جوليا مع توبي ويجلسوا جميعاً لتناول الطعام .

- «هل يتوجب علي أن انظر إلى تلك السمينة الخرقاء؟» . يقول هنري قاصداً لويزا . يتدخل الجميع ، ما عدا توبي في هذه المشادة الكلامية التي يمتد سعيرها ، لمدة خمس دقائق فوق الطاولة وتحتها . وعند النهاية يضع هنري منديل المائدة فوق رأسه ، محاولاً أن يأكل بتلك الطريقة مما تسبب في دلق السبانخ على جميع انحاء قميصه .

ويسأل فرانسيس جوليا ، ألم يكن بالإمكان ان يتناول الأولاد عشاءهم في وقت مبكر . وهنا تشرع جوليا جميع اسلحتها فهي لا تستطيع أن تطبخ عشائين ، وان تعد مائدتين : - وترسم مثل خطوط البرق صوراً للكدح ، والعمل الشاق الذي أضاع شبابها وجمالها وأفقدها عقلها .

- يقول فرانسيس . ان عليهم ان يدركوا أنه كان على وشك أن يقتل في حادث تحطم طائرة ، ولا يرغب ان يعود إلى البيت ليشهد ساحة قتال في كل ليلة .

وهنا تشعر بأن جريمة قد ارتكبت بحقها ، ويرتجف صوتها : ليس صحيحاً أنه يعود كل ليلة إلى البيت ليشهد ساحة قتال ، هذا اتهام غبي وخسيس ، كل شيء كان هادئاً إلى أن وصل ، ثم توقفت عن الكلام ووضعت الشوكة والسكين وراحت تتأمل ، في طبقها كأنها تتأمل في خليج ثم اجهشت بالبكاء .

«مسكينة امي» قال توبي ، وعندما تنهض جوليا عن الطاولة تقوم بتجفيف دموعها بمنديل مائدة ، ويذهب توبي ليقف بجانبها «مسكينة امي» . يردد «مسكينة أمي» . : ثم يصعد الاثنان الدرج معاً . وينفّض الأطفال الآخرون مبتعدين عن ساحة المعركة . ويخرج فرانسيس إلى الحديقة الخلفية لتدخين سيجارة ولتنشق الهواء . كانت حديقة مبهجة توجد فيها ممرات ومساكب زهور وأماكن للجلوس . وكانت الشمس على وشك الأفول ، ولكن كان ما يزال هناك الكثير من الضوء .

انشغل تفكيره تماماً في سقوط الطائرة وفي المعركة ، وكأن حادث سقوط الطائرة والمشاجرة في البيت قد فتحا على مزاجه باب التفكير ، وأخذ ينصت إلى أصوات المساء في شادي هيل .

«حقيرين ! أوغاد» ، كان نيكسون العجوز يصرخ على السناجب في محطة اطعام طيوره «اغربن عن ناظري» .

وسمع صوت طرقة باب ، فقد كان احدهم يلعب التنس في ساحة آل بابكوكس . وآخر كان يجر العشب .

وبعد ذلك ، بدأ دونالد جوسلين الذي يسكن عند الزاوية بعزف «لحن ضوء القمر» . وكان يفعل ذلك في كل ليلة تقريباً . ويطلق اللحن قوياً خارج النوافذ ويعزفها ، روباتو من البداية إلى النهاية ، مثل فيضان سيل من الدموع والوحشية والاشفاق على الذات - من كل شيء . وعن كل شيء لم تعرفه عظمة بيتهوفن . دوت الموسيقى في أعلى الشارع وفي أسفله تحت الأشجار وكأنها دعوة للحب وللرقة موجهة إلى احدى خادمات البيوت التي تشعر بالوحدة - أو إلى فتاة حسنة الوجه من جالواي ، تنظر إلى صور ة فوتوغرافية قديمة في غرفتها بالطابق الثالث وتحن إلى وطنها .

«مّن هنا يا جوبيتر ، من هنا يا جوبيتر» نادى فرانسيس على كلب آل ميرسير ، جوبيتير الذي اندفع عبر أشتال الطماطم ، يحمل في فمه بقايا قبعة ، كان جوبيتر كلباً شاذا ذو غرائز ومعنويات عالية غير معهودة في شادي هيل . كان لونه اسوداً كالفحم ، ويشع وجهه الطويل فطنة وذكاء وفجوراً ، في حين تومض عيناه بالشر . ولا يسير الا رافعاً رأسه عالياً . كان جوبيتر من نوعية الكلاب الشرسة التي تشد حول رأسها الأطواق بكثافة وتظهر صورها على الأنسجة والسجاجيد ومقابض الشماسي وعصي السير ، كان يذهب حيث يحلو له منقباً في حبال الغسيل أو صناديق القمامة ، أو حقائب الأحذية . يخرب حفلات الحدائق ومباريات التنس ، ويحشر نفسه في مسيرات الكنائس يوم الأحد ، وينبح على الرجال الذين يرتدون الثياب الحمراء . كان يندفع عبر حديقة ازهار السيد نيكسون العجوز ، مرتين أو ثلاث مرات في اليوم ، يشق فتحة عريضة عبر حوض ورود الكونيساوي ساستاغوس ، وحالما

يشعل دونالدجوسلين نار منقله في ليالي الخميس ، يلتقط جوبيتر الرائحة . ولا يوجد شيء يمكن لآل جوسلين ان يفعلوه حتى يبعدوه عنهم ، فالعصي ، والحجارة والأوامر القاسية تحركه فقط إلى حافة الشرفة ، حيث يبقى واقفاً بفمه الودود الأنيق ، ينتظر ان يدير دونالد جوسلين ظهره باحثاً عن الملح فيقفز نحو المصطبة وينتزع قطعة من اللحم المشوي بخفة عن النار ويهرب بعيداً بعشاء آل جوسلين .

أيام جوبيتير كانت معدودة ، فسرعان ما سيقدم المزارع الألماني أو طباخ آل فاركاسون ، بوضع السم له في القريب العاجل . حتى العجوز نيكسون يمكن أن يضع له بعض الزرنيخ في القمامة التي يحبها جوبيتر . «هنا جوبيتر ، جوبيتر» نادي فرانسيس ، ولكن الكلب وثب مبتعداً وهو يهز القبعة بأسنانه البيضاء .

وفيما هو ينظر إلى داخل نوافذ بيته ، رأى فرانسيس جوليا وهي تنزل وتطفئ الشموع ، جوليا وفرانسيس كانا يخرجان كثيراً ، فجوليا كانت اجتماعية ومحبوبة وقد جاء حبها للحفلات نتيجة خوف طبيعي من الفوضى والوحدة . وكانت تقرأ بريدها الصباحي بقلق حقيقي ، باحثة فيه عن دعوات غالباً ما كانت تجد البعض منها ، ولكنها كانت نهمة للخروج . ولو أنها خرجت سبع ليالي في الأسبوع لهدأ هذا الأمر من نظرتها التأملية - نظرة شخص يستمع إلى الموسيقى البعيدة - لأنها كانت تفترض دائماً وجود حفلات أكثر تألقاً في مكان آخر . وقد حدد لها فرانسيس حفلتين ليليتين في الأسبوع ، واضعاً تفسيراً مرناً ليوم الجمعة . بينما يعبر عطلة نهاية الأسبوع كما يعبر زورق صغير وسط ريح . وفي اليوم الثالث لسقوط الطائرة كان من المفترض أن تتناول عائلة ويد طعام العشاء وعائلة فاركوانرسون .

وصل فرانسيس من البلدة إلى البيت متأخراً . واثناء ارتدائه لملابسه ، أحضرت جوليا جليسة الأطفال الليلية للبقاء مع الأولاد ، كانت الحفلة صغيرة ولطيفة ، وهدأ فرانسيس ، قاصداً الترويح عن نفسه . قامت خادمة جديدة بتقديم المشروبات . كان شعرها داكناً ووجهها مستديراً وشاحباً ، وبدت مألوفة لفرانسيس . لم يكن قد نمّى ذاكرته في مواجهة قدرات أحاسيسه . فرائحة الخشب والليلك والروائح الأخرى المشابهة لم تكن تثيره . وكانت ذاكرته تشبه زائدته الدودية - مخزن بلا وظيفة . لم يكن هذا العجز ناتجاً عن عدم رغبة للهروب من الماضي ، بل ربما كان عجزه انه

استطاع تجاوز هذا الماضي بنجاح . يمكن أن يكون قد رأى الخادمة في حفلات أخرى ، أو يمكن أن يكون قد رآها تمشي في نزهة بعد ظهر أيام الأحد ، ولكنه في كلتي الحالتين لم يكن يرغب في نبش ذاكرته الآن . كان وجهها رائعاً كوجه قمر - نورمانديه أو ايرلندية - ولكنها لم تكن جميلة إلى حد أن تثير شعوره ليتذكر أين يمكن أن يكون قد رآها من قبل ، في ظروف تستحق الاستذكار . سأل نيللي فاركوارسون من تكون . فأجابت نيللي بأن الخادمة جاءتها عبر أحد الوكالات ، وأن موطنها هو ترينون في نورماندي - وهو مكان صغير توجد فيه كنيسة ومطعم كانت نيللي قد زارته من قبل .

وبينما كانت نيللي تتحدث عن رحلاتها الخارجية ، أدرك فرانسيس أين رأى المرأة من قبل . حصل ذلك في نهاية الحرب . غادر مركز تدريب المجندين التكميليين مع بعض الرجال الآخرين في اجازة لمدة ثلاثة أيام في ترينون ، وفي يومهم الثاني ساروا نحو تقاطع طرق ليشاهدوا عقاباً علنياً لامرأة شابة ، كانت تعيش مع قائد وحدة الماني خلال الاحتلال .

كان صباحاً خريفياً معتدل البرودة ، السماء ملبدة بالغيوم تصب ضوءاً هزيلاً على الطرق المتقاطعة المغبرّة . كانو ا يقفون على أرض مرتفعة يستطيعون ان يروا منها ، وكانت أشكال الغيوم والتلال الشبيهة ببعضها البعض تمتد باتجاه البحر . وصلت السجينة في عربة زراعية ، وقد أجلست على مقعد بثلاثة أرجل وأوقفت بجانب العربة أثناء تلاوة المحافظ لائحة الاتهام وقرار الحكم . كان رأسها منحنياً وعلى وجهها نصف ابتسامة تخفي روحها المعذبة ، وعندما انتهى المحافظ حلّت شعرها وتركته ينتثر على ظهرها ، وقام رجل ضئيل ذو شوارب رمادية بقص شعرها بمقص كبير ثم القاه على الأرض . وبعد ذلك أحضر وعاء مملوءاً بماء الصابون وقام بحلاقة رأسها بموس حلاقة ولم يبق فيه شعره واحدة ، ثم وصلت امرأة وبدأت في فك رباطات ملابسها الا أن السجينة دفعتها جانباً ، وبدأت بخلع ملابسها بنفسها ، وعندما خلعت قميصها من فوق رأسها ورمته على الأرض اصبحت عارية . فسخرت المرأة منها أما الرجال فظلوا هادئين ، ولم يطرأ أي تغيير على الابتسامة الزائفة الكئيبة التي كانت على وجه السجينة . وقد جعل الهواء البارد جلدها مشدوداً وصلّب حلمات ثدييها .

خفت السخرية تدريجياً نتيجة ادراكهم لانسانيتهم العامة . وبصقت احدى النساء عليها ، لكن جلال عريها الذي لم ينتهك بقي معها خلال محنتها . وعندما هدأ الجمهور ، استدارت وأخذت في البكاء ، وسارت بعد ذلك وحيدة في الطريق المغبرة مبتعدة عن القرية ولم تكن ترتدي شيئاً سوى حذاء بال وجوارب . لقد شاخ قليلاً ذلك الوجه الأبيض المستدير ، ولم يعد هناك شك الآن بأن الخادمة التي قدمت الكوكتيل والتي قامت أخيراً بخدمة فرانسيس على العشاء ، كانت هي المرأة التي تمت معاقبتها عند تقاطع الطرق .

بدت الحرب بعيدة الآن ، وبدا ذلك العالم الذي كان فيه ثمن التحزُّب يعني الموت أو التشويه ، بعيداً جداً .

لقد أضاع فرانسيس مسار أولئك الرجال الذين كانوا معه في فيسي .

ولم يكن يستطيع الاعتماد على تعقل جوليا . لم يستطع أن يخبر أحداً ، واذا قام الآن بأخبار القصة على مائدة العشاء ، فإنه سيرتكب مغالطة اجتماعية وخطأ انسانياً . بدا الناس في غرفة معيشة عائلة فاركواراسون متحدين في صمتهم الضمني بأنه لم يكن هناك لا ماضٍ ولا حروب وأنه لا يوجد خطر أو قلق في هذا العالم . في التاريخ المسجل للترتيبات البشرية ، كان يمكن لهذا اللقاء غير العادي أن يجد له مكاناً لكن الجو في شادي هيل . كان يمكن أن يجعل من هذا الترتيب ، غير لائق وغير مهذب . انسحبت السجينة بعد تقديم القهوة ، ولكن اللقاء أوهن شعور فرانسيس ، فقد فتح ذاكرته واحساساته . كما وسع مدارك ذهنه . قاد سيارته بصحبة جوليا عائدين إلى البيت بعد انتهاء الحفلة ، ودخلت جوليا إلى البيت فيما بقي فرانسيس في السيارة ليوصل جليسة الأطفال إلى منزلها كان يتوقع أن يرى السيدة هينلين ، المرأة العجوز التي تمكث عادة مع الأولاد . ولكنه دهش عندما فتح الباب وخرجت إلى الشرفة المضاءة على مدخل ، المنزل فتاة شابة وقفت تحصي كتبها المدرسية تحت الضوء ، كانت متجهمة وجميلة ، العالم الآن مليء بالفتيات الشابات الجميلات . لكن فرانسيس رأى هنا الفرق بين الجمال والكمال . لم يكن فيها أي من تلك العيوب أو الشامات أو وحمات الولادة أو آثار الجروح ، دارت في ذهنه تلك اللحظة التي تكسر فيها الموسيقى الزجاج ، وشعر بوخزة من الإدراك غريبة وعميقة ومدهشة

كأي شيء في حياته ، جاءته تلك الوخزة من عبوسها ، ومن نظرة كئيبة غير محسوبة في وجهها - نظرة تركت في نفسه انطباعاً ينم عن نداء مباشر للحب . وعندما احصت كتبها ، نزلت الدرجات ثم فتحت باب السيارة وتحت الضوء رأى أن خديها كانا مبللين .

ثم دخلت في السيارة وأغلقت الباب .

- «أنت جديدة» قال فرانسيس

- «نعم ، السيدة هينلين مريضة ، وأنا آن مورشيسون» .

- «هل سبب لك الأولاد أي ازعاج؟»

- «أو ، . لا ، لا» استدارت وابتسمت له بحزن تحت الضوء الخافت للوحة أجهزة القياس «التابلوه» ، وعلق شعرها اللامع في قبة سترتها فهزت رأسها لتطلقه .

- «كنت تبكين»

- «نعم»

- «أرجو أن لا يكون قد حدث شيء في بيتنا» .

- «لا . لا . لم يحدث شيء في بيتكم» كان صوتها كئيباً . انه ليس سراً . فالكل في القرية يعرف أن أبي مدمن كحول . وقد استدعاني إلى أحد البارات ووبخني بقسوة ، فهو يعتقد أنني فاسقة . لقد هاتفني قبل عودة السيدة ويد بقليل» .

- «أنا آسف» .

- «أوه ، يا الهي» ، وأخذت تلهث ثم بدأت في البكاء . استدارت ناحية فرانسيس فأخذها بين ذراعيه وتركها تبكي على كتفه . ارتعشت في احضانه وأثارت هذه الحركة شعوره بلياقه لحمها وعظامها . واحس برقة ملابسها على صدره . وعندما خفتت حدة رجفتها ، بدا الأمر وكأنه نوبة حب .

فقد فرانسيس عقله وشدها اليه بقوة ولكنها تملصت وانسحبت بعيداً .

- «أنا أسكن في شارع بلليفيو» ، قالت «اسلك اسفل شارع لانسنغ إلى جسر سكة الحديد .

- «حسناً» وشغل السيارة .

- «استدر إلى اليسار عند الاشارة الضوئية . . . والآن استدر هنا إلى اليمين واتبع

المسارات باتجاه مستقيم» .

الطريق التي سلكها فرانسيس أخذته إلى خارج الضاحية التي يعيش فيها عبر خطوط سكة الحديد . ومن ثم باتجاه النهر إلى شارع يسكن فيه الفقراء متوسطي الحال في بيوت تعكس اسطحها المثلثة وحوافها الخشبية الناتئة ، انقى مشاعر الكبرياء والرومانسية ، مع أن البيوت نفسها لا يوجد فيها ما يوحي بالخصوصية ، أو بالراحة فكلها كانت صغيرة جداً . كان الشارع مظلماً ، وكان فرانسيس قد تحركت مشاعره أمام رشاقة وجمال هذه الفتاة المضطربة . وعندما دخل الشارع بدا له ، وكأنه دخل في أعمق أجزاء ذاكرته المدفونة . وعلى البعد شاهد ضوء شرفة يتوهج ، كانت الشرفة الوحيدة المضاءة ، فقالت له ان ذلك المنزل المضيء هو المكان الذي تعيش فيه . وعندما أوقف السيارة استطاع أن يرى خلف ضوء الشرفة عبر رواق خافت الاضاءة مشجباً عمودياً للملابس قديم الطراز .

«حسناً ، نحن هنا» قالها وهو مدرك بأن شاباً يافعاً كان يمكن أن يقول شيئاً مختلفاً .

لم تحرك يديها عن الكتب المطوية فيها ثم استدارت وواجهته . كانت في عينيه دموع الشهوة - شهوة عازمة وغير حزينة - فتح الباب إلى جانبه ثم استدار ليفتح لها الباب من جانبها ، امسك بيدها الطليقة مشبكاً اصابعه في أصابعها ، وصعد معها الدرجتين الاسمنتتيين ثم سارا في ممر ضيق عبر حديقة أمامية حيث الأضاليا والأذريون والزهور - نباتات مقاومة لصقيع الليل الخفيف - ما زالت تزهر وتتفتح ، وتفوح منها روائح لطيفة بقوة في هواء الليل . عند الدرجات حررت يدها وقبلته برشاقة ، ثم عبرت الشرفة وأغلقت الباب ، انطفأ ضوء الشرفة وبعده ضوء الصالة ، بعد ثانية أشعل الضوء المؤدي إلى الطابق الثاني على جانب من البيت ، مخترقاً شجرة ما زالت تكسوها الأوراق . استغرقها الأمر بضع دقائق حتى تخلع ملابسها وتذهب إلى الفراش وبعدها انكفأ البيت في الظلام .

كانت جوليا نائمة عندما عاد فرانسيس إلى البيت . فتح نافذة ثانية واندس في الفراش ليغمض عينيه على تلك الليلة ، لكنه حالما اغمض عينيه - محاولاً الاستغراق في النوم - دخلت الفتاة في مخيلته ، تتجول بحرية كاملة عبر الأبواب

المغلقة ، وتدلف من غرفة إلى غرفة باشراقتها ، ورائحة عطرها ، ونغمة صوتها . كان يعبر معها الأطلسي على متن الماوريتانيا القديمة ولاحقاً يعيش معها في باريس ، عندما استيقظ من حلمه . نهض ودخن سيجارة عند النافذة المفتوحة ، ثم عاد إلى الفراش وأخذ ينبش في ذهنه عن بعض الأشياء التي يرغب في فعلها دون أن تتسبب أذى لأي أحد ، فكّر في ممارسة التزلج على الجليد . وظهرت له من خلال ظلمة تفكيره صورة لجبل مغطى بالثلج . كان الوقت متأخراً وأينما اتجهت عيناه كان يرى أشياء رحبة وعاطفية . عبر كتفه رأى وادياً يملؤه الثلج يصعد نحو تلال تكسوها الغابات ، حيث الأشجار تجعل البياض يبدو معتماً ، مثل فروة رأس غير كثة . كان البرد قد أخرس كل الأصوات ، ما عدا الأصوات العالية لقرقعة حديد الآلة الرافعة . وكان الضوء على مسارات السكك يبدو أزرقاً . وأصبحت رؤية المنعطفات والتقدير اصعب ، مما كانت عليه قبل دقيقة أو دقيقتين ، والآن اصبح لون الثلج أزرقاً قاتماً . كذلك الأديم والجليد والبقع العارية ومحارق البارود الجاف العميقة .

كان هو في أسفل الجبل يتهادى ، محاولاً ضبط سرعته في مواجهة خطوط منحدر ، قد تشكّل منذ عصر الجليد الأول ، باحثاً بحماسة عن بعض البساطة في الشعور وفي الواقع . بعد ذلك هبط الليل فشرب كأساً من المارتيني ، مع بعض الأصدقاء القدامى في حانة ريفية قذرة .

في الصباح ، كان جبل فرانسيس المغطى بالثلج قد زال ، وبقي مع ذكرياته المفعمة بالحيوية عن باريس والماوريتانيا . كان حلماً منهكاً جداً . نهض واستحم ، ثم حلق ذقنه وشرب القهوة . ولكنه لم يستطع اللحاق بالقطار رقم ٧٣١ . انطلق القطار بالضبط في اللحظة التي دخل فيها بسيارته إلى المحطة ، ذكره ذلك الشعور باللهفة نحو الحافلات التي انطلقت مبتعدة عنه بنزوات الحب ، فانتظر قطار الثامنة ودقيقتين على الرصيف ، الذي أصبح خالياً الآن ، كان صباحاً صافياً ، يرتمي على أفكاره المختلطة مثل جسر يومض بالضياء ، كان يشعر بمعنويات عالية وانفعال شديد ، وبدت صورت الفتاة وكأنها تدخله في علاقة مع عالم ساحر عميق الأسرار . بدأت السيارات تملأ ساحة الوقوف ولاحظ ان السيارات القادمة من الأراضي المرتفعة فوق شادي هيل كانت بيضاء ، مغطاة بالندى المتجمد . كانت هذه اولى الملامح الخريفية التي تثيره .

ورأى قطار الليل السريع القادم من بوفالو أو الباني وقد تغطت سطوح عرباته الأمامية بطبقة من الجليد . فتنته المعجزات المادية لكل شيء ، وراح يبتسم للمسافرين في عربة الطعام الذين كانوا منهمكين في تناول البيض ويمسحون أفواههم بمناديل خلال السفر . أما الحجيرات في عربات النوم فبدت شراشف أسرتها الكتانية بنية اللون تحت نور الصباح ، مثل سلسلة من نوافذ غرف مفروشة للايجار . بعد ذلك رأى شيئاً استثنائياً ، من احدى نوافذ عربة النوم . رأى امرأة فاتنة الجمال ، لا ترتدي اية ملابس ، تمشط شعرها الذهبي ، عبرت شادي هيل مثل ظاهرة غريبة تمشط وتمشط شعرها ، تابعها فرانسيس بنظرة حتى اصبحت خارج مرمى البصر ، بعد ذلك انضمت اليه السيدة العجوز ريغستون على الرصيف وأخذا يتحدثان .

– «حسناً ، اظن انك قد فوجئت برؤيتي ثالث صباح واقفة بالصف» . قالت له «ولكن بسبب ستائر نوافذي اصبحت مسافرة منتظمة على الخط . فالستائر التي اشتريتها يوم الاثنين ارجعتها يوم الثلاثاء ، وها أنا أرجعها اليوم ، في يوم الأثنين حصلت بالضبط على ما كنت أريده – كانت نسيجاً صوفياً مزوداً برسوم الطيور والزهور – ولكن عندما أخذتها الي البيت وجدت أن المقاس كان خطأ . حسناً . قمت بتبديلها أمس وعندما أخذتها إلى البيت وجدت ان مقاسها ما يزال خطأ . والآن أصلي للسماء العليا من أجل أن يقوم فني الديكور باعطائي المقاس الصحيح ، لأنك تعرف بيتي وتعرف شبابيك غرفة معيشتي وبامكانك ان تتخيل ما المشكلة التي تسببها . ولا أعلم ما الذي أفعله بها» .

– «أنا أعلم ما الذي تفعلينه بها» قال فرانسيس .

– «ماذا؟»

– «ادهنيها بالأسود من الداخل واغلقي فمك» .

كان هناك صوت استهجان صادر عن السيدة ريغستون ، ونظر فرانسيس إلى الأسفل نحوها ليتأكد من أنها أدركت انه قصد ان يكون فظاً . استدارت ومشت بعيداً عنه بروح متحطمة لدرجة انها أخذت تعرج .

أحاط به شعور مدهش كما لو أن نوراً قد اهتز حوله وفكر مرة أخرى في «فينوس» ، وهي تمشط وتمشط شعرها بينما هي مندفعة عبر خط برونكس . كان

ادراكه لعدد السنين التي مرت منذ أن استمتع بتعمده الفظاظة ، كفيلاً باحساسه بالتعقل ، فقد كان من بين اصدقائه وجيرانه أناس رائعين وموهوبين ، وقد رأى ذلك بنفسه ، ولكن الكثير منهم أيضاً كانوا حمقى وثقيلي الظل ، وقد ارتكب خطأ عندما كان يستمع اليهم جميعاً بنفس الدرجة من الاهتمام ، كان يخلط عدم التمييز في المعاملة مع المحبة المسيحية ، وبدا هذا الخلط عاماً ومهلكاً . وكان ممتناً لتلك الفتاة لأنها منحته احساساً بالاستقلالية - كانت طيور الكاردينال وما تبقى من طيور أبو الحناء تغرد في الأعلى ، والسماء تلمع مثل طلاء مصقول من الميناء وحتى رائحة الحبر المنبعثة من جريدته الصباحية ، شحذت شهيته للحياة ، وشعر بأن العالم حوله هو ببساطة جنة ساحرة .

اذا كان فرانسيس قد آمن ببعض المراتب الهرمية للحب - في الأرواح المسلحة بأقواس صيد وفي نزوات لڤينوس أو ايروس - أو حتى في المشروبات والأمزجة السحرية التي تثير العشق في العظام . وفي تأثير القمر وهو في ربعه فإن ذلك يمكن أن يفسر أحاسيسه ومشاعره المحمومة الجذلة . ان قصص الحب الخريفية للرجال في منتصف العمر معروفة جيداً ، وقد أظن بأنه يقف وجهاً لوجه أمام واحدة منها ، ولكن لم يكن هناك أي أثر للخريف فيما كان يشعر به ، فقد أراد أن يتريض في الغابات الخضراء ، ويحك جلده حيث يستدعي الحك وأن يشرب من نفس نفس الكأس .

كانت سكرتيرته الآنسة ريني قد تأخرت ذلك الصباح - فهي تذهب إلى الطبيب النفساني ثلاث صباحات في الأسبوع - وعندما قدمت تساءل فرانسيس عن النصيحة . التي يمكن أن يسديها له الطبيب النفساني . لكن الفتاة تعهدت بأن تعيد إلى حياته شيئاً مثل صوت الموسيقى . كان ادراكه بأن هذه الموسيقى قد تقوده مباشرة إلى دار قضاء المقاطعة لمحاكمته بتهمة اغتصاب ، قد أسقط عنه سعادته . وأنّبته صورة اطفاله الأربعة وهم يضحكون للكاميرا على الشاطىء في خليج هيد . كانت الأوراق المروّسة باسم مؤسسته تحمل رسماً للّلاوكون . وشكلاً لراهب يقف مع أولاده في تلافيف أفعى ، وقد ظهر له هذا الرسم وكأنه يحمل أعمق المعاني .

تناول غداءه مع پنكي ترابيرت الذي روى له قصتين قذرتين ، وعلى مستوى المحادثة كانت أخلاق اصدقائه مطاطة وغير مصقولة . ولكنه كان يعرف أن البيت

الأخلاقي المبني من الورق سوف يتهدم على رؤوسهم جميعاً - على جوليا وعلى الأولاد - اذا ما قبض عليه وهو يحاول استغلال جليسة أطفال ، نظر إلى الوراء ، إلى تاريخ شادي هيل الحديث باحثاً عن حالة سابقة فلم يجد شيئاً . لم يكن هناك اي حالة لفساد خلقي ولم يحصل أي طلاق منذ أن عاش هناك . وحتى أنه لم يكن هناك خبر لفضيحة . وجد أن الأشياء بدت محتشمة بطريقة تفوق حتى مملكة السماء . بعد أن غادره بنكي ذهب فرانسيس إلى بائع مجوهرات وابتاع اسوارة للفتاة . كم جعلته هذه الصفقة السرية سعيداً؟ وكم بدا وجه بائع المجوهرات متجهماً ومضحكاً؟ وكم كانت رائحة العطر المنبعثة من المرأة التي عبرت من خلفه رائعة!

في الشارع الخامس ، حين تخطى فرانسيس تمثال أطلس بأكتافه المنحنية تحت ثقل العالم ، فكر في النشاط الذي احتوته طبعيته البدنية ضمن النماذج التي اختارها . لم يكن يعرف متى يمكن أن يرى الفتاة تالياً . وضع الأسوارة في جيبه الداخلي ، عندما دخل إلى البيت وعندما فتح باب بيته وجدها في الصالة وكان ظهرها باتجاهه ، استدارت عندما سمعت الباب يغلق ، كانت ابتسامتها صريحة ومحبة . واذهله كمالها الذي يشبه يوم جميل - يوم يلي عبور عاصفة رعدية - أمسك بها والصق شفتيه بشفتيها قاومت ، الا أنها لم تضطر للمقاومة طويلاً ، لأنه في تلك اللحظة بالضبط ظهرت الصغيرة جيرترود فلانري من مكان ما وقالت «أوه ، سيد ويد . . .» . كانت جيرترود فتاة مشردة وقد ولدت مع ولع بالاستكشاف ، ولم تعمل على تركيز حياتها مع والديها الحنونين ، الناس الذين لا يعرفون عائلة فلانري ، يذهب بهم الظن إلى أنها طفلة قادمة من عائلة متفسخة حيث مشاجرات السكر هي السائدة ، ولكن هذا لم يكن حقيقة ، فحقيقة رغبة جيرترود بارتداء ملابس رثة وهزيلة كانت نكاية بأمها التي تحاول اجبارها ، على ارتداء ملابس دافئة ونظيفة . كانت ثرثارة هزيلة الجسم ولا تغتسل ، تندفع من بيت إلى بيت عبر ضاحية بلنهولو ، تقيم التحالفات المبنية على تعلقها بالرضع وبالحيوانات والأطفال في مثل سنها ، والمراهقين والكبار في بعض الأحيان ثم تخربها . عندما تفتح باب بيتك الأمامي في الصباح ، فإنك قد تجد جيرترود جالسة على الشرفة عند مدخل البيت ، وعند ذهابك إلى الحمام ، لكي تحلق قد تجدها تستعمل مقعد الحمام ، وعندما تنظر في مهد طفلك

وتجده فارغاً ، ابحث في الأمر قليلاً وعندها قد تجد أن جيرترود قد أخذته نزهة ، في عربيته إلى القرية المجاورة ، كانت تقدم مساعدتها في كل مكان ، أمينة ، جائعة ووفية . ولم تكن لتعود إلى بيتها باختيارها أبداً . لا تكترث بكل النداءات التي تصدر اليها حين يحين موعد عودتها إلى البيت .

«اذهبي إلى البيت جيرترود» تستطيع ان تسمع الناس يقولونها في منزل أو في آخر ليلة إثر ليلة «اذهبي إلى البيت يا جيرترود» ، «لقد حان وقت عودتك إلى البيت يا جيرترود» . . «من الأفضل أن تعودي إلى البيت وتتناولي طعام العشاء يا جيرترود» . «لقد أخبرتك أن تذهبي إلى البيت قبل عشرين دقيقة يا جيرترود» .«سوف تقلق امك عليك يا جيرترود» . «اذهبي إلى البيت يا جيرترود ، اذهبي إلى البيت» . هناك أوقات تبدو فيها الخطوط حول عين الانسان مثل نحت في جروف صخرية ، وعندما ترمقنا هذه العين المحدقة نفسها بوحشية المشاعر الحيوانية فإننا نصبح في ضياع ، كانت النظرة التي رمق بها فرانسيس الفتاة الصغيرة بشعة وشاذة اصابتها بالهلع . مد يده إلى جيبه - كانت يداه ترتعشان - وأخرج منها ربع دولار» اذهبي إلى البيت يا جيرترود ، اذهبي إلى البيت ولاتخبرني أحداً يا جرترود . اياك أن . . .» . . اختنق صوته وركض إلى غرفة المعيشة عندما نادته جوليا من الطابق العلوي كي يسرع ويرتدي ملابسه .

كانت فكرة قيامه بايصال آن مرشيسون إلى بيتها في وقت متأخر ، من تلك الليلة تطرق رأسه مثل خيط ذهبي خلال أحداث الحفلة ، التي ذهب اليها مع جوليا . وقد ضحك بصخب على نكات باهتة وغير مضحكة . وجفف دمعة عندما تحدثت اليه ما بل ميرسر بشأن موت قطتها . وتمطى وتثاءب وتنهد ونخر مثل أي رجل آخر على موعد غرامي في باطن ذهنه . كانت الأسوارة في جيبه ، وعندما جلس يتحدث كانت رائحة العشب في انفه ، وبدا محتاراً أين سيوقف سيارته فلا أحد يعيش في قصر باركرالقديم ، وكانت الدرب المتفرعة عن الطريق العام تستعمل كشارع للعشاق . كما أن شارع تاوسند كان شارعاً غير نافذ في نهايته ، وقد يستطيع أن يوقفها هناك وراء البيت الأخير ، كان الزقاق القديم الذي يصل بين شارع إلمْ وضفاف النهر قد غطاه العشب ، لكنه كان قد تنزّه هناك مع أطفاله ويمكنه أن يقود سيارته إلى عمق

كاف يساعده على الاختفاء داخل الأجمة

كان آل ويد آخر من غادر الحفلة ، وتحدث مضيفهم ومضيفتهم عن سعادتهم الزوجية أثناء وقوف أربعتهم في الرواق متمنين لبعضهم ليلة سعيدة .

«انها فتاتي» ، قال مضيفهم وهو يعانق زوجته «انها سمائي الزرقاء ، بعد ستة عشر عاماً لا أزال أعض كتفيها ، . أنها تجعلني أشعر مثل هانيبال وهو يجتاز جبال الألب» .

عاد آل ويد بسيارتهم إلى البيت صامتين ، . وأوقف فرانسيس السيارة على مفرق الشارع وبقي جالساً فيها والمحرك يدور .

«تستطيع أن تضع السيارة في الجراج» . قالت جوليا حال نزولها من السيارة : «لقد أخبرت فتاة مرشيسون بأنها تستطيع أن تغادر عند الحادية عشرة . لا بد أن أحداً ما قد أوصلها إلى بيتها» . أغلقت الباب وجلس فرانسيس في الظلام . لم تبق صفة من صفات الجنون الا وتوفرت به في تلك الليلة ، ضراوة في الفسق وغيرة ، جرحت مشاعره إلى درجة ظهور الدموع في عينيه ، الازدراء - لأنه استطاع الآن أن يرى بوضوح الصورة التي تستحضره ، امتدت ذراعاه حول عجلة القيادة ودفن رأسه بهما من أجل الحب .

كان فرانسيس عضواً مخلصاً في منظمة كشفية عندما كان صغيراً ، تذكر قواعد السلوك في شبابه ، وغادر مكتبه مبكراً بعد ظهر اليوم التالي ، ولعب بضعة جولات من السكواش ، لكنه ادرك بأنه كان من الأفضل له لو بقي جالساً في مكتبه ، بعد أن تنشط جسده بالتمرين ودش الماء . كانت ليلة شديدة الصقيع عندما وصل إلى بيته ، اشتم في الهواء رائحة تغيير حاد .

وعندما دلف داخل عتبة البيت ، شعر أن هناك جلبة غير عادية ، فقد كان الأولاد في أحسن هندام ، وعندما هبطت جوليا كانت ترتدي لباساً ارجوانياً شاحباً وتضع بروشها الماسي الذي يمثل شمساً تكتنفها الأشعة .

فسرت له الجلبة بقولها : سوف يحضر السيد هابر عند الساعة السابعة ليأخذ لهم صورة فوتوغرافية ، من أجل بطاقات عيد الميلاد ، كانت قد جهزت بدلة فرانسيس الزرقاء . وربطة عنق فيها بعض الألوان . لأن الصورة ستكون بالألوان هذه السنة .

وكانت جوليا مبتهجة لكونها ستأخذ صورة من أجل عيد الميلاد ، فقد كان بالنسبة لها نوع من الاحتفال الذي تستمع به . صعد فرانسيس إلى الطابق العلوي ليبدل ملابسه ، كان متعباً من عمل اليوم ومتعباً بشوق . وقد زاد جلوسه على طرف السرير من عمق تعبه . وأخذ يفكر في أن مرشيسون وفي الحاجة الطبيعية للتعبير عن نفسه بدلاً منه ، بقائه مقيداً بالأضواء القرنفلية المتبعثة من طاولة زينة جوليا . ذهب إلى مقعد جوليا وتناول قطعة من ورق الكتابة ، وأخذ يكتب عليها «عزيزتي آن ، أنا أحبك . أنا أحبك ، أنا احبك . . .»

لا يمكن لأحد أن يرى الرسالة ولم يتقيد هو بشيء ، فقد استخدم عبارات مثل «النعيم السماوي» و «عش الحب» .

سال لعابه وتنهد وارتعش . وعندما نادت عليه جوليا ، كي ينزل أحس بازدياد عرض الفجوة بين خياله الجامح والعالم العملي لدرجة أثرت على عضلات قلبه . كانت جوليا والأولاد يقفون على الشرفة عند مدخل البيت . وقد جهز المصور ومساعده بطارية مزدوجة للضوء ، الغامر لكي تظهر صورة العائلة والجمال المعماري لمدخل بيتهم . وكان الناس الذين عادوا إلى بيوتهم في القطار المتأخر ، يبطئون بسياراتهم ليشاهدوا عائلة ويد وهي تأخذ الصور من أجل بطاقات عيد الميلاد . كان البعض يلوح للعائلة وينادي عليها . استغرقت العملية نصف ساعة من الابتسام ، والتعرُّق قبل أن يأخذ السيد هابر كفايته من التصوير . وقد تسببت حرارة الأضواء في رائحة مزعجة في الهواء البارد جداً ، وعندما أطفأها بقي أثرها واضحاً حول شبكية عيون فرانسيس .

في وقت متأخر من تلك الليلة ، بينما فرانسيس وجوليا يحتسيان قهوتهما في غرفة المعيشة ، قرع جرس الباب ففتحت جوليا وأذنت للطارق بالدخول ، كان كلايتون ثوماس . وقد جاء ليدفع لها قيمة بعض بطاقات المسرح ، التي كانت قد أعطتها لأمه قبل فترة من الوقت ، وأخبرها بأن هيلين ثوماس قد ألحت عليه باصرار لأن يدفع ثمن ، البطاقات مع العلم ان جوليا كانت قد طلبت منها أن لا تفعل .

دعته جوليا إلى الداخل لتناول فنجان من القهوة «لا أريد أن أتناول أي قهوة» قال كلايتون «لكني سأدخل لدقيقة» ، تبعها إلى غرفة المعيشة وقال لفرانسيس ليلة

سعيدة وجلس مرتبكاً على الكرسي .

كان والد كلايتون قد قتل في الحرب . وقد أحاط به فقدان أبيه طوال حياته ، . وكان هذا واضحاً جلياً في شادي هيل لأن عائلة ثوماس هي العائلة ، الوحيدة التي فقدت جزءاً منها ، في حين بقيت جميع الزيجات الأخرى سليمة ومثمرة لم يمسها أذى .

كان كلايتون في سنته الثانية أو الثالثة في الكلية ويعيش مع أمه وحيدين في بيت واسع ، كانت الأم تأمل في بيعه .

ومنذ سنين مضت تسبب كلايتون ببعض المشاكل عندما سرق نقوداً وهرب ، إلى كاليفورنيا قب أن يدركوه ويعيدوه إلى البيت ، كان طويلاً وبيتي الطبع ويلبس نظارات ذات اطار مدبب ويتكلم بصوت عميق .

- «متى ستعود إلى الكلية يا كلايتون؟» ، سأل فرانسيس .

- «أنا لست عائداً» ، قال كلايتون «ليس لدى أمي ما يكفي من النقود لذلك ، وليس هناك أي معنى لكل هذا الأمر ، فسوف أقوم بالبحث عن وظيفة ، واذا تمكنا من بيع البيت فسنقوم بأخذ شقة في نيويورك» .

- «ألن تفتقد شادي هيل؟» سألت جوليا .

- « كلا» قال كلايتون «أنا لا أحبها» .

- «لم لا؟» سأل فرانسيس .

- «حسناً ، هناك مجموعة اشياء لا استحسنها هنا» قال كلايتون بصوت رزين «أشياء مثل رقصات النادي ، ففي ليلة السبت الماضية مكثت حتى النهاية وشاهدت السيد جرانر يحاول وضع السيدة مينوت في داخل صندوق الطعام . فقد كانا سكرانين . أنا لا استحسن الشرب بهذه الطريقة .

- «كانت ليلة سبت» قال فرانسيس .

- «جميع ابراج الحمام زائفة» ، قال كلايتون «وهذه الفوضى التي يسيّر بها الناس حياتهم ، لقد فكرت بشأنها كثيراً ، وما ظهر لي خطأ حقاً في شادي هيل هو أنها لا تملك أي مستقبل ، فقد انفق الكثير من الطاقة في ادامة المكان - مثل تجنب الأشياء غير المرغوب فيها وهلم جرا - بحيث بقيت الفكرة الوحيدة لمستقبل هذا المكان هي

القيام بمزيد من الرحلات في قطارات الضواحي . واقامة المزيد من الحفلات وحسب . واظن ان ذلك ليس صحياً . أظن أنه يجب على الناس أن يصبحوا قادرين على أن يحلموا أحلاماً كبيرة بشأن المستقبل ، أظن أنه يتوجب على الناس ان يصبحوا قادرين على أن يحلموا أحلاماً عظيمة» .

- «انه لأمر سيء جداً ان لا تستطيع الاستمرار في الكلية» ، قالت جوليا .

- «أنا لا أرغب في الذهاب إلى مدرسة لاهوت» قال كلايتون .

- «ما هي كنيستك؟» سأل فرانسيس .

- «الموحدة ، الثيوصوفية ، الانسانية المتعالية عن الوجود المادي قال كلايتون» .

- «ألم يكن ايمرسون من اتباع الحركة المتعالية عن الوجود المادي» . سألت جوليا .

- «اقصد الحركة المتعالية الانجليزية» . قال كلايتون «جميع الأميركيين من اتباع الحركة المتعالية ، كانوا حمقى» .

- «ما نوع الوظيفة التي تتوقع الحصول عليها؟» سأل فرانسيس .

- «حسنا ، أرغب أن أعمل كناشر إلى حد ما» قال كلايتون «ولكن الجميع أخبرني بأنه لا يوجد ما أفعله في هذا العمل الا أنني مهتم به ، وأنا أكتب قصيدة مسرحية طويلة حول الخير والشر ، ويمكن أن يحصل لي العم شارلي على وظيفة في بنك ، وذلك سيكون جيداً بالنسبة لي ، فأنا بحاجة إلى الانضباط واحتاج إلى وقت طويل لأنظم مسلكي ، فأنا كثير الكلام وأظن أنه يتوجب علي أن آخذ على نفسي عهداً بالصمت ، كما يتوجب علي أن أجرب عدم الكلام لمدة اسبوع ، وأن أضبط نفسي . فكرت في القيام برياضة روحية في أحد أديرة الكنيسة الأسقفية البروتستانتية لكنني لا أحب عقيدة التثليث» .

- «هل لديك صديقة؟» سأل فرانسيس .

- «أنا خاطب وفي طريقي للزواج » ، قال كلايتون «أنا لست كبيراً أو غنياً بما فيه الكفاية لأجعل من خطوبتي شأناً لافتاً للنظر أو أي شيء لكنني اشتريت بالنقود التي استقطعتها من قص الحدائق هذا الصيف قطعة شبيهة بالزمردة لآن مرشيسون وسنتزوج حالما تنهي المدرسة» .

نكص فرانسيس عند سماعه اسم الفتاة . وانبثق حينها من روحه ضوء داكن

أظهر له كل شيء - جوليا والولد والكراسي - في عدميته لونهم الحقيقية ، لقد كان وقع الأمر يشبه تغييراً حاداً في الطقس .

- «سنقوم بتكوين عائلة كبيرة» . قال كلايتون «والدها سكير مزعج وأنا لدى طباع صعبة ، ونريد عدداً كبيراً من الأولاد ، أوه ، أنها مدهشة يا سيد ويا سيدة ويد ، ونحن متشابهان بشكل عام ، فنحن نحب نفس الأشياء ، وفي السنة الماضية ارسلنا نفس بطاقة عيد الميلاد بدون تخطيط مسبق ، ولدِى كل منا حساسية من البندورة وحواجبنا تنمو مع بعضها في الوسط . حسنا ، ليلة سعيدة .

رافقته جوليا إلى الباب . وعندما عادت قال فرانسيس : لقد كان كلايتون كسولاً ، غير قادر على تحمل المسؤولية ، متكلف وكريه الرائحة . أجابت جوليا . بأن فرانسيس أصبح غير قادر على التحمل .

كانت جوليا قد لاحظت حالات أخرى انفعل فيها فرانسيس قليلاً* ، وقالت :

- «لقد دعت السيدة ريغستون كل من في شادي هيل عدانا نحن إلى حفلتها السنوية»

- «أنا أسف يا جوليا» .

- «هل تعلم لماذا لم يدعوننا» .

- «لماذا؟» .

- «لأنك أهنت السيدة ريغستون» .

- «اذن فقد عرفت بهذا الشأن؟» - «أخبرتني جون ماسترسون فقد كانت تقف خلفك» .

مشت جوليا أمام الكنبة خطوة صغيرة ، عرف منها فرانسيس انها تعبير عن غضبها .- «لقد أهنت السيدة ريغستون يا جوليا ، وأنا قصدت ذلك ، فأنا لا أحب حفلاتها أبداً وأنا سعيد لأنها أهملتنا» .

- وماذا بشأن هيلين؟» .

- «كيف أقحمت هيلين في هذا؟»

- «ان السيدة ريغستون هي الوحيدة التي تقرر من بامكانه ان يذهب إلى الاجتماعات»

- «تقصدين بأنها تستطيع منع هيلين من الذهاب للرقص» .

- «نعم» .

- «أنا لم أفكر بذلك» .

- «أوه ، أنا أعرف بأنك لم تفكر في ذلك» صاحت جوليا وهي تغرز مقبض سيفها في هذا الشق من درعه «ويغضبني كثيراً هذا النوع من العبث الأحمق الذي يتسبب في تحطيم سعادة الآخرين» .

- «أنا لا أظن بأني قد حطمت سعادة أحد» .

- «ان السيدة ريغستون هي التي تسيّر شادي هيل وقد سيّرت المكان خلال الأربعين سنة الأخيرة ، وأنا لا أعرف ما الذي يجعلك تظن أنك في مجتمع مثل هذا . يمكنك أن تطلق العنان لكل نبضة فيك لكي تكون مهيناً وعدوانياً وسوقياً» .

- «ان لدي سلوكيات جديدة جداً » قال فرانسيس محاولاً أن يلطف جو الأمسية .

- «عليك اللعنة يا فرانسيس ويد» ، صرخت جوليا وكان رذاذ اللعاب المرافق لكلماتها يصفعه في وجهه ، «لقد عملت بجهد من أجل بناء هذا المركز الاجتماعي الذي ننعم به في هذا المكان ، ولن أقف مكتوفة اليدين وأنا أراك تحطمه ، لا بد أنك قد أدركت حين استقريت هنا أنك لن تستطيع أن تتوقع العيش مثل دب في كهف» .

- «أن علي أن أعبّر عما أحب وعما لا أحب» .

- «باستطاعتك أن تخفي ما لا تحبه ، وليس لك أن تقابل كل شيء بعناد مثل طفل ، مالم تكن تواقاً لأن تصبح منبوذاً اجتماعياً . ليست مصادفة أننا ندعى دائماً للحفلات ، وليس مصادفة أن يكون لهيلين العديد من الأصدقاء . هل ترغب في أن تقضي ليالي السبت في مشاهدة الأفلام؟ هل ترغب في أن تقضي أيام الأحد في جمع الأوراق المتساقطة؟ هل ترغب أن تقضي ابنتك ليالي الاجتماعات وهي تجلس على نافذتها تستمع إلى الموسيقى المنبعثة من النادي؟

هل ترغب في ذلك---؟» .

عند هذه النقطة قام فرانسيس بحركة غير مسؤولة ، . فقد رفعت كلماتها بينهما

حائطاً مرعباً دفعه لاخراسها واغلاق فمها ووجه لها لطمة على ملء وجهها فترنحت . وبعد ذلك بلحظة عاد لها الهدوء وصعدت إلى غرفتها بالطابق العلوي ، ولم تطرق الباب بشدة ، وعندما لحق بها فرانسيس بعد بضع دقائق وحدها ترزم حقيبتها .

- «جوليا ، أنا آسف جداً»

- « لا يهم» قالت وهي تبكي .

- «الى أين تفكرين بالذهاب؟»

- «لا أعرف ، لقد نظرت إلى جدول المواعيد ، وهناك قطار إلى نيويورك عند الساعة الحادية عشرة وستة عشرة دقيقة ، سوف آخذ ذلك القطار» .

- «لا تستطيعين الذهاب ، جوليا» .

-« لا يمكنني ان أمكث ، أنا أعلم ذلك» .

- «أنا آسف بخصوص السيدة ريغستون يا جوليا وأنا» .

- «المشكلة لست السيدة ريغستون ، ليست هي تلك المشكلة» .

- «ما هو البلاء اذن؟»

- «انك لا تحبني» .

- «بل أنا أحبك يا جوليا» .

- «لا ، لست تحبني» .

- «جوليا ، بل أنا أحبك وأرغب في أن نكون كما كنا - سعيدين وفاسقين ولطيفين - لكن هناك أناس كثيرون» .

- «أنت تكرهني» .

- «أنا لا أكرهك جوليا» .

- «ليس لديك فكرة إلى أي حد أنت تبغضني في عقلك الباطني ، فأنت لا تدرك الأشياء القاسية التي تفعلها» .

- ««ما هي الأشياء القاسية يا جوليا» .

- «الأفعال القاسية التي يقودك لا وعيك اليها من أجل أن تعبر عن كرهك لي» .

- «ماذا ، جوليا؟» .

- « أنا لم أتذمر أبداً» .

- «أخبريني» .

- «أنت لا تعلم ماذا تفعل» .

- «أخبريني» .

- «ملابسك» .

- «ماذا تقصدين؟» .

- «أقصد الطريقة التي تترك بها ملابسك المتسخة ، متناثرة هنا وهناك حتى تعبر لي عن بغضك الدفين» .

- «أنا لم أفهم» .

- «أنا أعني جراباتك المتسخة وبيجاماتك المتسخة ، وملابسك الداخلية المتسخة ، وكذلك قمصانك المتسخة!» . نهضت من الركوع على قدميها بجانب الحقيبة وواجهته ، كانت عيناها تتوهجان وصوتها يرن بانفعال .

- «أنا أتكلم حول الحقيقة ، فانك لم تتعلم آن تعلق أي شيء . أنت فقط تترك ملابسك حيث تلقيها في جميع أنحاء الأرضية . من أجل أن تذلني . أنت تفعلها لهدف!» وارتمت على السرير وهي تنشج .

- «جوليا ، حبيبتي» ، قال ، لكنها هبت واقفة عندما احست بيده فوق كتفها .

- «اتركني لوحدي» قالت «يجب أن أذهب» وتخطته بسرعة إلى دورة المياه ثم عادت ومعها رداء «أنا لم آخذ أي شيء من الأشياء التي أعطيتني اياها» ، قالت «وقد تركت عقد اللؤلؤ ومعطف الفرو» .

- «أوه . جوليا!» ، كان شكلها بائساً إلى حد بعيد في خداعها لذاتها ، وانحناؤها على حقيبة الملابس جعله يشعر بالشفقة عليها ، انها لم تفهم كم ستكون حياتها كئيبة بدونه ، ولم تدرك كم هي ساعات العمل التي على المرأة أن تقضيها . كما أنها لم تدرك بأن أغلبية صداقاتها قد حافظت على استمرارها من خلال بنية زواجها وبدون ذلك فستجد نفسها وحيدة . ولم تدرك ما يتعلق بالسفر وما يتعلق بالفنادق والنقود .

- «جوليا ، لا أستطيع أن أدعك تذهبين! ما لا تفهميه يا جوليا هو أنك أصبحت

تعتمدين علي» .

ردت رأسها إلى الوراء بحركة مفاجئة وغطت وجهها بيديها .

- «هل قلت بأنني كنت أعتمد عليك؟ «سألت « هل هذا ما قلته؟» .

«من الذي يخبرك عن الوقت لتنهض في الصباح ومتى تذهب إلى الفراش في الليل»؟

«من هو الذي يعد ويجهز وجباتك وينظف خزانتك القذرة ويدعو اصدقاءك إلى العشاء؟» «ولو لم أكن موجودة ، لكانت ربطات عنقك ملوثة بالشحمة ولكانت ملابسك مليئة بثقوب العث» .

«لقد كنت وحيداً عندما قابلتك وستعود وحيداً عندما أغادر»

«وعندما طلبت أمي منك قائمة بأسماء من ستدعوهم إلى حفل زفافنا كم اسماً اعطيتها؟ أربعة عشر!» .

- «لم تكن كليفلاند موطني يا جوليا» .

- «وكم عدد اصدقائك الذين جاؤوا إلى الكنيسة؟ اثنان!» .

- «كليفلاند لم تكن موطني يا جوليا» .

- «وبما أنني لم آخذ معطف الفرو» قالت بهدوء «فمن الأفضل ، ان تعيده إلى مخزن الملابس ، وهنا بوليصة تأمين على عقد اللؤلؤ تستحق في شهر كانون الثاني ، ان اسم المصبغة ورقم تلفون الخادمة - كل تلك الأشياء - موجودة في درج مكتبي . أرجو أن لا تشرب كثيراً يا فرانسيس . وأرجو أن لا يحدث لك أي مكروه ، واذا وجدت نفسك في مشكلة عويصة فبامكانك أن تستدعيني» .

- «آوه ، حبيبتي لا أستطيع أن أدعك تذهبين!» ، قال فرانسيس «لا أستطيع أن أدعك تذهبين» وأخذها بين ذراعيه .

- «أظن أنه من الأفضل أن أمكث واعتني بك لبعض الوقت» قالت . وعند ركوبه في الصباح في طريقه إلى العمل ، رأى فرانسيس الفتاة تمشي اسفل ممر الحافلة ، فوجئ بذلك ، لم يكن يتوقع أن تكون المدرسة التي تذهب اليها في المدينة . لكنها كانت تحمل كتباً وبدت وكأنها ذاهبة إلى المدرسة . لقد أخرت الدهشة ردة فعله . لكنه بعد ذلك نهض مرتبكاً داخل الممر ، مرَّ العديد من الناس بينهما ولكنه استطاع

ان يراها أمامه تنتظر أي شخص ليفتح لها باب العربة ، بعد ذلك ، وعندما اهتز القطار مدت يديها لتسند نفسها أثناء عبورها المنصة التالية ، فلحق بها خلال تلك العربة وقبل أن يصل إلى منتصف المسافة ناداها باسمها - «آن ، آن!» ، الا انها لم تلتفت ، عاد ولحق بها إلى داخل العربة الأخرى ورآها تجلس على كرسي جانبي ، وصل اليها وهو يضج بحرارة المشاعر ثم انحنى إلى جهتها ووضع يده على ظهر الكرسي الذي تجلس عليه - حتى هذه اللمسة زادت في حرارة عواطفه - وانثنى إلى الأسفل كي يتحدث معها ولكنه اكتشف انها لم تكن آن ، كانت امرأة كبيرة وتلبس نظارات . عاد إلى العربة الأخرى بأناة وقد احمر وجهه من الارتباك ومن شعور سيء ألمّ به لأنه لم يستطع ان يعتمد على تقدير حواسه ، اذ لم يعد يستطع أن يميز شخصاً من آخر .

ماذا يوجد من أدلة على أن حياته مع جوليا والأولاد هي حقيقة ناصعة مثل احلامه . في دروب الخطيئة بباريس . إو مهاد القش حيث رائحة العشب والأشجار التي تشبه الكهوف في زقاق المحبين .

في وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم اتصلت جوليا بالهاتف لتذكر فرانسيس ، بأنهما سيتناولان عشاءهم خارج المنزل ، وبعد دقائق معدودة لاحقاً اتصل تريس بيردن «انظر يا فلاح» قال تريس ، «أنا اتصل معك من أجل السيدة ثوماس . هل تعرفها؟ يبدو أن كلايتون ، ذلك الولد ، إبنها غير قادر على الحصول على وظيفة وأنا أتساءل اذا كان في استطاعتك مساعدته . ليتك تتصل مع شارلي بيل - أنا أعلم بأنه مدين لك - وقل له كلمة طيبة بحق الولد - اعتقد أن شارلي يرغب - » .

- «تريس ، أنا أكره قول هذا» قال فرانسيس ، «لكني لا أشعر بأنني أستطيع أن أفعل شيء من أجل ذلك الولد . فالولد عديم النفع ، أعرف أن ما أقوله هو شيء مؤلم لكنها هي الحقيقة ، أي معروف تفعله من أجله سيعطي عكس النتائج المرجوة في وجه كل شخص ، انه مجرد ولد تافه ، يا تريس . ولا يوجد هناك أي شيء يمكن فعله بهذا الشأن . حتى لو حصلنا له على وظيفة فانه لن يكون قادراً على الاحتفاظ بها لمدة اسبوع ، أنا أعرف أن تلك هي حقيقة . انه شيء مروع يا تريس وأنا أعرف أنه كذلك ، لكن بدلاً من تزكية ذلك الولد اشعر بأنني مكره ، على تحذير الناس منه - الناس الذي عرفوا والده ويودون بشكل طبيعي أن يتدخلوا ويفعلوا شيئاً لصالحه .

اشعر بأنني مجبر على تحذيرهم، انه لص ...».

في اللحظة التي انتهت فيها المكالمة دخلت عليه الآنسة ريني، ووقفت إلى جانب مكتبه «لم أعد استطيع أن أعمل معك أكثر يا سيد ويد» قالت «استطيع أن أمكث حتى السابع عشر اذا كنت بحاجتي، ولكني أرغب في أترك في أسرع وقت ممكن».

خرجت تاركة اياه يواجه منفرداً الأذى الذي سببه للفتى ثوماس. كان أولاده في الصورة الفوتوغرافية، يضحكون مشرقين بكل ألوان الصيف الساطعة، وتذكر أنهم قابلوا على الشاطئ عازفاً على مزمار القربة في ذلك اليوم. وأنه أعطى العازف دولاراً، كي يعزف لهم أغنية معركة «البلاك ووتش». قد تكون الفتاة في منزلهم عند عودته إلى البيت. وسوف يقضي ليلة أخرى بين جيرانه الكرماء يختار ويدقق الشوارع غير النافذة، وفي أثر العربات ودروب البيوت المهجورة.

لا يوجد هناك شيء يلطف شعوره - لا شيء يفرحه، حتى ولا لعبة الكرة الناعمة، مع الأطفال يمكنها أن تبدل حاله - عاد إلى التفكير بالطائرة المعطوبة، وخادمة عائلة فاركوارسون الجديدة، وفي آن مرشيسون والصعوبات التي تواجهها مع والدها السكير، وتساءل كيف يمكنه تجنب الوصول إلى ما هو عليه الآن؟ كان واقعاً في مشكلة، لقد سبق له أن ضلَّ مدة في حياته عندما كان عائداً من نهر لصيد سمك السلمون في الغابات الشمالية، وها قد عاد به الآن نفس ذلك الادراك الكئيب بأنه لا يوجد أي مقدار من سعادة أو أمل أو شجاعة أو مثابرة. تستطيع أن تساعده على ولوج هذه الظلمات المتراكمة في الممر الذي أضاعه، كان قد اشتم رائحة الغابات. وكان الشعور بالكآبة لا يطاق ورأى بوضوح بأنه قد، وصل إلى نقطة اصبح لزاماً عليه فيها أن يضع اختياراً.

يستطيع أن يذهب إلى طبيب نفساني مثل الأنسة ريني، ويستطيع أن يذهب إلى كنيسة ويعترف بشهواته، ويستطيع ان يذهب إلى قاعة مساج دنماركي في الوست سيڤنتيز كان قد اقترحها عليه رجل مبيعات، يستطيع أن يغتصب الفتاة، أو يثق في أن يحال بينه وبين هذا الفعل بطريقة ما، أو يستطيع أن يسكر، فالأمر متعلق بحياته، وقاربه، ومثله مثل أي رجل آخر، لقد خلق ليكون أباً لآلاف، وما الضرر في تحديد موعد لقاء يجعل نظرة كليهما إلى العالم أكثر لطفاً؟

وكان هذا تسلسلاً خاطئاً للأفكار ، عاد إلى الوراء ، إلى البداية ، إلى الطبيب النفساني ، كان لديه رقم هاتف طبيب الآنسة ريني ، اتصل وطلب موعداً عاجلاً ، وكان شديد الالحاج على سكرتيرة الطبيب - تلك كانت طريقته في العمل - وعندما قالت أن برنامج مواعيد الطبيب مليء لبضع أسابيع تالية ، طلب فرانسيس موعداً في ذلك اليوم وتم اخباره ان يأتي عند الساعة الخامسة .

كان مكتب الطبيب في بناية يشغل معظمها أطباء وأطباء أسنان ، وكانت الردهات مليئة برائحة غسول الفم التي تشبه رائحة الحلوى وذكريات الآلام . كانت شخصية فرانسيس قد تشكلت بناء على سلسلة من الحلول الخصوصية - حلول بشأن النظافة ، وبشأن الابتعاد عن منصة الغطس العالية ، أو تكرار أي عمل آخر يتحدى جرأته ويثبط همته ، وحلول بشأن الدقة في المواعيد ، والأمانة ، والفضيلة ، كان التخلي عن الانفرادية التامة التي اتخذ فيها معظم قراراته الحيوية . قد شتت مفهومه لشخصيته ، وتركه الآن في حالة من الصدمة ، كان يبدو وكأنه مخدراً ، وكان المشهد مثل غرفة الانتظار في عيادات كثير من الأطباء ، يشبه تمثالاً عارياً . يومئ باتجاه حلاوة السعادة المنزلية ، والمكان منسقاً بالأثريات وطاولات القهوة ، ونباتات الزينة في القوارير وكليشيهات لثلج يغطي الجسور ، وأوز يطير ، بالرغم من أنه لم يكن هناك أطفال ولا فراش زوجي ولا مدفأة ، في محاكاة زائفة للبيوت ، حيث لا أحد يمضي الليل هنا أبداً ، وحيث النوافذ المغطاة بالستائر والتي تطل مباشرة على ممر التهوية المظلم .

أعطى فرانسيس اسمه وعنوانه للسكرتيرة . وبعد ذلك رأى في جانب الغرفة رجل شرطة يتقدم نحوه «توقف ، توقف» قال رجل الشرطة «لا تتحرك وابق يديك حيث هي»

- «اعتقد أن كل شيء على ما يرام أيها الضابط» ، وابتدأت السكرتيرة «أظن أنه سيكون - » .

- «دعينا نتأكد» قال رجل الشرطة ، ثم أخذ يفتش في ملابس فرانسيس ، يبحث عن ماذا - مسدسات ، سكاكين ، واداة تكسير الثلج؟ لم يجد شيئاً ، فابتعد ، وأخذت السكرتيرة بالاعتذار في عصبية ، «عندما اتصلت بالهاتف يا سيد ويد بدوت

مهتاجاً جداً ، وكان أحد مرضى الطبيب يهدد حياته ، وعلينا أن نكون حذرين ، اذا رغبت يمكنك أن تدخل الآن» .

دفع فرانسيس بابا متصلاً بجرس كهربائي ، وجلس في سرير العيادة بتثاقل ومخط انفه بالمنديل ثم أخذ يبحث في جيوبه عن سجائر ، عن كبريت ، عن شيء ما ، ثم بصوت اجش والدموع في عينيه :

- «أنا واقع في الحب يا دكتور هيرزوغ» .

مرَّ اسبوع أو عشرة أيام على شادي هيل ، وجاءت احتفالات السفن فوزتين وذهبت ، وانتهت وجبات العشاء هنا وهناك ، ووضعت الأطباق في ماكنات الغسيل . كانت القرية معلقة اخلاقياً واقتصادياً ، لكنها تتعلق بخيطها في ضوء الليل . راح دونالد جوسلين يقلق القلوب بعزف «سوناتا ضوء القمر» ، بدا وكأنه يعصر منشفة حمام ، لكن الخادمة لم تبال به فقد كانت في قبو منزله تكتب رسالة إلى آرثر جودفري ، وكان فرانسيس ويد يصنع طاولة للقهوة ، فقد أوصى الدكتور هيرزوغ بالأعمال الخشبية كعلاج ، ووجد فرانسيس بعض التعزية الحقيقية في البساطة التي تتضمنها هذه الحسبة ، وفي رائحة الخشب الجديد المفعمة بقوة خفية . وكان الصغير توبي يبكي في الطابق العلوي ، ولأنه كان متعباً فقد وضع قبعته الكاوبوي والقفازات والسترة ذات الأهداب جانباً ، وفك ابزيم حزامه المرصع بالذهب والياقوت ، وقراب مسدسه ورصاصاته الفضية ، ثم ازلق حمالات البنطلون وخلع قميصه وشيالاته وبنطلونه الأزرق الضيق ، وجلس على طرف سريره ليخلع حذاءه الطويل ، ترك هذه التجهيزات مكومة هناك ، وذهب إلى دورة المياه وانتزع بدلته الفضائية من مسمار التعليق ، كان ادخال جسمه في البدلة الضيقة صراعاً بالنسبة له ولكنه نجح في النهاية ، ثم عقد رداءه السحري على كتفيه وتسلق قائمتي سريره ، وفرد ذراعيه وطار عبر المسافة القصيرة إلى الأرضية ، وهبط مرتطماً بالأرضية محدثاً صوتاً مسموعاً لكل من في البيت ما عداه هو .

- «اذهبي إلى البيت يا جرترود ، اذهبي إلى البيت» . قالت السيدة ماسترسون «لقد قلت لك منذ ربع ساعة ان تذهبي إلى البيت يا جرترود فقد تجاوز الوقت موعد عشائك وستقلق امك عليك ، اذهبي إلى البيت!» .

فتح باب عند شرفة بيت بوبكوس بعنف وخرجت منه السيدة بوبكوس بدون

ملابس ، متبوعة بزوجها العاري (كان اطفالهم في مدرسة داخلية وشرفتهم محجوبة بواسطة سياج) ، كانا يروحان ويجيئان عبر الشرفة بجانب المطبخ مثل أي صورة تجدها على جدران مدينة البندقية . حورية مشبوبة العاطفة ترافق إلهاً اغريقياً شبقاً ، وبينما كانت جوليا تقطف آخر زهرة من حديقتها سمعت صوت العجوز نيكسون . وهو يصرخ على السناجب في محطة اطعام طيوره «حقيرين ، اوغاد ، اغربن عن وجهي!» .

وعبر حديقة منزلهم كانت تتجول قطة مسكينة بائسة جسداً وروحاً ، وقد شُدّت على رأسها قبعة قش صغيرة - قبعة لعبة - كما لُفّ عليها باحكام ثوب لعبة ، ومن بين قطع القماش برز ذيلها الطويل الكثيف الشعر ، وبينما هي تسير زلت قدمها وسقطت في الماء .

- «تعالي بوسي ، بوسي ، بوسي» ، نادت جوليا .

- «هنا بوسي ، هنا بوسي المسكينة!» ، لكن القطة نظرت اليها نظرة متشككة ، وابتعدت وهي تمشي في ثيابها باضطراب .

وكان آخر القادمين جوبيتر ، وثب من خلال معرش البندورة يحمل في فمه الكريم ، بقايا شبشب ليلي . وبعدها سقط الظلام ، انه الليل الذي يمتطي فيه الملوك بملابسهم الذهبية ظهور الفيلة فوق الجبال .

١٩٥٧

فلانري أوكونور

ورقة خضراء

عن «ذي كينيون ريفيو»

كانت نافذة غرفة السيدة ماي واطئة ومواجهة لناحية الشرق . وكان الثور بلونه الفضي اللامع تحت ضوء القمر يقف تحتها رافعاً رأسه يسترق السمع (مثل - اله صبور هبط يخطب ودها) ، إلى أي حركة بداخل الغرفة .

كانت النافذة معتمة وصوت تنفسها أخف كثيراً من أن يسمع في الخارج . وكانت الغيوم العابرة أمام القمر تلونه بالسواد بينما ، هو يندفع في الظلمة ناحية السياج النباتي . وعند انقشاعها يعود للظهور مرة أخرى ، في نفس المكان وقد مزق نباتات السياج وأخذ يمضغها بثبات بعد أن علقت في أطراف قرونه . وعندما عاد القمر إلى حالة الانكفاء التدريجي مرة أخرى ، لم يكن هناك شيء يحدد مكان وجوده سوى صوت مضغة .

فجأة ، بعد ذلك ملأ النافذة وميض وردي ، وانزلقت اعمدة الضوء مثل ستارة ذات اضلاع تنشق على طولها ، خطى خطوة إلى الخلف ، وخفض رأسه كما لو أنه يعرض إكليل السياج عبر قرونه .

مرت دقيقة تقريباً ، ولم يكن يسمع أي صوت في الداخل ثم بعد أن رفع رأسه المغطى مرة أخرى ، ظهر هناك صوت إمرأة تتمتم وكأنها توجه حديثها إلى كلب

وتقول : «ابتعد من هنا أيها السيد» وغمغم الصوت مرة أخرى وأكمل «ثور حقير لأحد الزنوج» .

ضرب الحيوان الأرض بحافره ، ووقفت ماي منحنية إلى الأمام خلف الستارة ، ثم اغلقتها بسرعة خشية أن يكشف الضوء أمامه باقي الشجيرات وانتظرت للحظة وهي ما تزال منحنية إلى الأمام وثوبها الليلي ، يتدلى فضفاضا من على كتفيها الضيقين ، كانت لفافات الشعر المطاطية الخضراء مثبتة بدقة على جبينها . وتحت تلك اللفافات بدا وجهها ناعماً ، ومتماسكاً بفعل معجون بياض البيض الذي تضعه خلال نومها لازالة التجاعيد .

قد أدرك سمعها خلال نومها ايقاع صوت المضغ المتواصل ، والذي بدا وكأن شيئاً يأكل أحد جدران البيت . كانت تدرك أن هذا الشيء الذي ظل يأكل طيلة امتلاكها للمكان قد التهم كل شيء ، بدءاً من السياج حتى مدخل البيت ثم بدأ الآن يأكل البيت ، وبهدوء وبنفس الإيقاع سوف يستمر حتى يأتي على ما في البيت فيأكلها هي والأولاد ومن ثم يأكل كل شيء عدا آل غرينليف . ويستمر في الأكل حتى لا يترك سوى آل غرينليف على جزيرة صغيرة وسط ما كان يسمى مكاناً لها . . وعندما وصل صوت المضغ الطاحن إلى مقربة من كوعها ، قفزت لتجد نفسها في كامل صحوها واقفة في وسط غرفتها ، ميزت الصوت في الحال : كان صوت بقرة تمزق الشجيرات تحت نافذتها ، فقد نسي السيد غرينليف ممر البوابة الضيق مفتوحاً ، ولم يكن يساورها أدنى شك بأن القطيع بأكمله قد اصبح فوق مرجتها . اشعلت مصباح المنضدة الوردي الباهت ، ثم ذهبت إلى النافذة وفتحت الستارة فاذا بالثور الهزيل يقف بأرجله الطويلة على بعد أربعة أقدام منها يمضغ بهدوء مثل خاطب ريفي فظ . منذ مدة خمسة عشرة سنة ، فكرت وهي تنظر اليه شزراً ، ظلت خنازير القوم العديمي التدبير تقتلع شوفانها ، وبغالهم تتمرّغ على عشباتها وثيرانهم الحقيرة تُلقّح بقراتها ، واذا لم يوضع حد لهذا الثور الآن ، فسوف يقتحم السياج ويخرب قطيعها قبل الصباح – أما السيد غرينليف فهو يغط الآن في نوم عميق في البيت المستأجر ، على مسافة نصف ميل أسفل الطريق ، ولا توجد هناك طريقة لاحضاره سوئ أن ترتدي ملابسها وتركب سيارتها وتقودها إلى الأسفل هناك وتوقظه . قد يأتي إلى هنا ولكن تعابير

وجهه وشكله العام وتردده كلها ستقول : «هه - يبدو لي أن أحداً من الأولاد أو كليهما على السواء لا يمكن أن يدعا أمهما تخرج في منتصف الليل بهذه الطريقة ولو كانوا - أولادي لقاموا بطرد الثور بأنفسهم .

خفض الثور رأسه وهزه ، فانزلق اكليل الزهر إلى أسفل قرنيه حيث بدا وكأنه تاج خطر ومليء بالأشواك . عند ذلك اغلقت الستارة وفي خلال ثوان سمعته يتحرك بعيداً ببلادة وثقل .

السيد غرينليف يمكن أن يقول «لو كانوا اولادي فانهم لن يسمحوا لأمهم ، أن تذهب لتطلب مساعدة أحد في منتصف الليل من أجل عمل يمكنهم القيام به بأنفسهم» .

قلبت الأمر في ذهنها ثم قررت أن لا تزعج السيد غرينليف ، عادت إلى فراشها ،وهي تفكر بأنه لو كان لغرينليف أولاد في هذا العالم فسيكون السبب أنها منحت ، والدهم وظيفة لديها في حين أن أحداً غيرها لن يفكر بمنحه ذلك ، فقد تحملت السيد غرينليف منذ خمسة عشرة سنة في حين لا يستطيع أحد أن يتحمله أكثر من خمس دقائق . ان طريقة اقترابه من أي هدف كانت كافية لأن تنبئ كل من له عينين اي نوع من العمال هو . فقد كان يسير إلى العمل ببطء ، كأنه يزحف وقد رفع منكبيه دون أن يمضي مباشرة لهدفه أو كأنه يسير على محيط دائرة غير مرئية ، واذا أردت أن تنظر في وجهه فعليك أن تتحرك وتقف أمامه . لم تحاول طرده أبداً لأنها كانت تظن أنه سوف يتحسن ، كان عديم الحيلة إلى حد كبير ، لم يبادر للبحث عن محل آخر فلم يكن لديه أية مبادرة للسرقة ، ولا يقوم بأي عمل الآ بعد أن تطلب منه ذلك ثلاث أو أربع مرات ، كما أنه لم يكن ليبلغها قط عن وجود بقرة مريضة الا بعد أن يصبح الوقت متأخراً على استدعاء الطبيب البيطري ، واذا اشتعلت النيران في حظيرتها فقد ينادي زوجته لمشاهدة ألسنة اللهب قبل أن يبدأ باطفائها .

وبالنسبة لزوجته فإنها لم تكن ترغب حتى في التفكير . وكان السيد غرينليف يبدو ارستقراطياً مقارنة بزوجته .

سيقول : لو كانوا هـ - أولادي فسيقومون بقطع يدهم اليمنى قبل أن يسمحوا لأمهم أن . . .» .

- «لو كان لأولادك أي كبرياء يا سيد غرينليف» ودت لو تقول له ذات يوم «فإن هناك أشياء كثيرة عليهم أن لا يسمحوا لأمهم القيام بها» .

- في صباح اليوم التالي وحال وصول السيد غرينليف إلى الباب الخلفي اخبرته بأنه كان هناك ثوراً ضالاً يجوب المكان وتريد منه أن يطرده في الحال .

- «لقد تم انجاز ذلك عندما كان هنا قبل ثلاثة أيام» ، قال ذلك وكأنه يخاطب رجله اليمنى التي كان يدفعها إلى الأمام ، ثم التفت بلا مبالاة كما لو أنه ينظر إلى نعل الحذاء ، كان يقف أسفل الدرجات الخلفية الثلاث بينما كانت ، هي تقف متكئة على باب المطبخ ، كانت تبدو أمرأة صغيرة ذات عينين حسيرتين واهنتين وشعر أشهب منفوش إلى الأعلى مثل عرف مبعثر لطائر .

- «ثلاثة أيام» ، قالتها بصرخة الألم المكبوتة التي اصبحت معتادة عليها . كان السيد غرينليف ينظر إلى الرقعة المنبسطةمن الأرض إلى جانب المرعى القريب . اخرج علبة السجائر من جيب قميصه واسقط واحدة في يده ثم أعاد العلبة إلى جيبه ، ومكث فترة ينظر إلى السيجارة «لقد وضعته في الزريبة الا أنه اندفع بقوة إلى خارجها» ، وقال حالياً «لم أره بعد ذلك» ثم انحنى على السيجارة وأشعلها وأدار رأسه ناحيتها لفترة وجيزة كان وجهه يشبه كأساً غير مستو ، كان الجزء العلوي منه ينحدر تدريجياً داخل الجزء السفلي ، الذي كان بدوره طويلاً وضيقاً وكانت عيناه غائرتين كلون عيني الثعالب تظللهما قبعة شهباء ، يرتديها منزلقة إلى الأمام كأنها تتبع خط انفه . كانت بنيته حقيرة .

- سيد غرينيليف أخرج هذا الثور في هذا الصباح ، قبل أن تفعل أي شيء آخر ، فانت تعلم بأنه سيخرب برنامج التلقيح .

أمسكه واحتفظ به ، وفي المرة القادمة أخبرني عن أي ثور ضال يتواجد على هذا المكان ، أخبرني في الحال ، هل تفهم؟»

- «أين تريدين أن نحتفظ به؟ سأل السييد غرينيليف .

- «أنا لا أبالي أين ستحتفظ به» ، قالت «من المفترض أن يكون لديك بعض المنطق ، ضعه في مكان لا يستطيع الخروج منه . لمن يكون هذا الثور؟» .

بدا السيد غرينليف لوهله متردداً بين أن يصمت أو أن يتكلم .

تأمل الهواء على يساره ثم قال بعد وهلة «من المفروض أن يكون الثور لأحد الناس» .

- «نعم من المفروض أن يكون كذلك» ، قالت ثم اغلقت الباب بضربة خفيفة محكمة وذهبت إلى غرفة الطعام حيث كان الولدان يتناولان طعام الافطار ، وجلست على طرف كرسيها عند رأس الطاولة ، لم تتناول الافطار أبداً ولكنها جلست معهم لتتأكد انهم آخذوا ما يريدون .

- «بأمانة» ، قالت ثم أخذت تتحدث حول الثور مشيرة إلى ما قاله السيد غرينليف» من المفروض أن يكون الثور لأحد ما» .

واصل ويسلي قراءة الجريدة المطوية بجانب صحنه ، الا أن سكوفيلد كان يقاطع طعامه من وقت لآخر لينظر اليها ويضحك . لم يكن لدى الولدان نفس ردة الفعل تجاه أي شيء ، كان مختلفين ، كما تقول مثل الليل والنهار والشيء الوحيد ، الذي يشتركان فيه هو أن لا أحد منهما يبالي بما يحصل في المكان . كان سكوفيلد نموذجاً لرجل أعمال أما ويسلي فكان مثقفاً عقلانياً .

كان ويسلي الطفل الأصغر قد أصيب بحمى روماتيزم ، عند ما كان في السابعة من عمره ، وتظن السيدة ماي بأن ذلك ما جعله يصبح عقلانياً . أما سكوفيلد الذي لم يصب بأي مرض في أي يوم في حياته ، فكان مندوب مبيعات تأمين ، ولم تكن تكترث بمبيعاته من التأمين لو كان يبيع انواعاً أفضل ، لكن بيعه كان مقتصراً على النوع الذي يشتريه الزنوج فقط ، وكان الزنوج يدعونه «رجل عقود التأمين» ، كان يقول يوجد نقود في تأمين الزنوج أكثر من أي نوع تأمين آخر ، وكان يتفاخر بهذا أمام الناس . ويقول «ان امي لا تحب أن تسمعني اقولها ولكني أفضل مندوب لمبيعات تأمين زنوج في هذه المقاطعة!» .

كان سكوفيلد في السادسة والثلاثين ، وكان ذا وجه عريض مبتسم دائماً لكنه لم يكن متزوجاً . «نعم» ، كانت السيدة ماي تود أن تقول «لو أنك تقوم ببيع تأميناً جديراً بالاحترام فقد تجد فتاة جميلة راغبة بالزواج منك ، اين ستجد فتاة جميلة ترغب بالزواج من رجل تأمين زنوج؟ سوف تستفيق على ذلك في أحد الأيام ولكن الوقت سيكون متأخر جداً .

وعند هذا يصرخ سكوفيلد قائلاً «لماذا يا أمي فأنا لن أتزوج الا بعد موتك ، ورحيلك فبعد ذلك سأتزوج من فتاة مزارعة جميلة وسمينة ، تستطيع أن تدبر أمر هذا المكان!» . وفي احدى المرات اضاف «سيدة حسناء مثل السيدة غرينليف» .

وعندما قال ذلك ، قامت السيدة ماي عن كرسيها وظهرها متيبس مثل يد أداة جمع العشب ، وذهبت إلى غرفتها ، وجلست هناك على طرف سريرها لبعض الوقت بوجهها الصغير المرسوم . وأخيراً همست «أنا أعمل واكدح ، أكافح وأعرق للمحافظة على هذا المكان لهم . وحال وفاتي سيتزوجون من نفايات ويحضرونهن إلى هنا ليخرّبن كل شيء . سوف يتزوجون من قمامة ويدمرون كل شيء بنيته» .

وفي تلك اللحظة قررت أن تغير وصيتها ، فذهبت في اليوم التالي إلى محاميها ، واضافت شرطاً إلى ملكية الارث بأنه اذا تزوج اولادها فلا يحق لهم ترك هذه الملكية لزوجاتهم .

وكأن مجرد تفكيرها بأن أحدهم قد يتزوج امرأة بعيدة مثل بعد السيدة غرينليف كافياً ، لأن يجعلها مريضة ، لقد تحملت السيدة غرينليف لمدة خمس عشرة سنة ، ولكن الطريقة التي استطاعت بها تحملها كانت بابقائها بعيدة عن ناظريها تماماً ، كانت السيدة غرينليف ضخمة مترهلة ، وكانت الساحة التي تحيط بمنزلها تشبه مكب نفايات ، أما بناتها الخمسة فكن قذرات حتى أصغرهن ، كانت تبدو متفحمة مثل فتيل الشمعة المحترق ، وبدلاً من أن تنظف الحديقة أو تغسل ملابسهن ، كان شغلها الشاغل هو الانغماس بما تدعوه الشفاء بالصلاة .

في كل يوم كانت تقوم بقص الأخبار الكئيبة من الجرائد ، مثل أخبار النساء اللواتي تعرضن للاغتصاب والمجرمين الهاربين والأطفال الذين تعرضوا للحريق ، وحوادث تحطم القطارات والطائرات وحالات طلاق نجوم السينما . وتأخذ جميع هذه القصاصات إلى الأحراش ، ثم تحضر حفرة وتدفنها فيها وبعد ذلك تطمرها في التراب ، وتتمتم وتتأوه لمدة ساعة أو نحوها وهي تجر ذراعيها الضخمتين تحتها إلى الأمام والخلف ، ثم إلى الخارج مرة أخرى وفي النهاية تستلقي مطروحة على الأرض . كانت السيدة ماي تشك في أنها ستنام وسط التراب . ولم تكتشف ما يتعلق بهذا الأمر الا بعد مضي بضعة أشهر على وجود عائلة غرينليف معها . في صباح أحد

الأيام كانت ذاهبة لمعاينة حقل ترغب بزراعته بالجاودار، لكنها وجدته قد زرع بالبرسيم لأن السيد جرينليف، قد قام بوضع البذور الخطأ في ماكنة البذار، وبينما هي عائدة عبر ممر خشبي يفصل بين مرعيين تضرب الأرض بعنف، وبطريقة منتظمة بواسطة عصا طويلة كانت تحملها في حال ظهرت لها أفعى وتتمتم لنفسها بصوت خفيض «لا أستطيع أن أتحمل نتيجة أخطائك، فأنا امرأة فقيرة، وهذا المكان هو كل ماأملكه ولدي ولدان للانفاق على تعليمهما، أنا لا أستطيع ...»، عندما سمعت من حيث لا تدري صوت أنين صادر من حنجرة متألمة، «يا مسيح يا مسيح»، وفي المرة الثانية عاد الصوت بالحاح رهيب «يا مسيح يا مسيح». جمدت السيدة ماي في مكانها ورفعت يديها إلى حنجرتها. كان الصوت نفاذاً إلى القلب، مما جعلها تشعر كما لو أن قوة عنيفة قد انطلقت من باطن الأرض، وتقدمت هاجمة نحوها. ولكن فكرتها التالية كان أكثر اعتدالاً: أن شخصاً ما قد اسيء اليه في المكان ويود أن يقاضيها عن كل شيء تملكه. لم يكن لديها أي تأمين، اندفعت إلى الأمام ثم استدارت بانحناءة في الممر وعندها رأت السيدة غرينليف منبطحة على يديها، وركبتيها بجانب الطريق ورأسها إلى الأسفل.

- «سيدة غرينليف» زعقت «ماذا حصل!».

رفعت السدة غرينليف رأسها، كان وجهها خليطاً من التراب والدموع، وعيناها الصغيرتان اللتان تشبهان بلونهما حبتي بازيلاء حقلية بدتا مجمدتين، ومنتفختين ولكن تعابير وجهها بقيت رابطة الجأش مثل كلب البلدوغ. انحنت على يديها وركبتيها إلى الخلف ثم إلى الأمام وهي تتأوه ضارعة: «يا مسيح! يا مسيح!»

جفلت السيدة ماي: فقد كانت تعتقد أن كلمة مسيح يجب أن تلفظ داخل الكنيسة مثلها مثل الكلمات الأخرى، التي لا تقال الا في غرف النوم، لقد كانت امرأة مسيحية متدينة وتحترم عقيدتها رغم عدم ايمانها بصحة أي شيء منها.

- ما هي مشكلتك؟» سألتها بحدة.

- «لقد قطعت ابتهالي»، قالت السيدة غرينليف وهي تزيحها جانباً واضافت لا أستطيع أن أتكلم معك حتى انتهي.

وقفت السيدة ماي منحنية إلى الأمام فاغرة فمها وارتفعت عصاها عن الأرض،

كما لو أنها لم تكن متأكدة من الذي تنوي ضربه بها .

- «يا مسيح إطعنّي في القلب» ، صرخت السيدة غرنيليف» يا مسيح إطعنّي في القلب» ، ثم سقطت إلى الوراء متمددة وسط التراب ،

- مثل جبل بشري ضخم بسطت ساقيها وذراعيها ، كأنها تحاول أن تلف الأرض بهما .

أحست السيدة ماي كما لو أنها أهينت من قبل طفل . «المسيح» قالت وجرت نفسها إلى الوراء» ، قد يخجل من افعالك فهو يريد منك أن تنهضي من هنا في هذه اللحظة وتذهبي لغسل ملابس أطفالك!» . ثم استدارت وابتعدت بأقصى ما تستطيعه من سرعة . ظلت كلما خطر على بالها كيفية تقدم أولاد جرينليف في هذا العالم ، تفكر فقط في السيدة جرينليف ، وهي تتمدد بقذارة على الأرض وتقول لنفسها «حسناً ، لا مشكلة فانهم مهما تقدموا فهم قد أتوا من تلك» .

ودت لو تضع في وصيتها حين تموت الا يستمر ويسلي وسكوفيلد باستخدام السيدة غرينليف .

فقد كانت هي قادرة على التعامل مع السيد غرنيليف ، ولكنهما لم يكونا كذلك . اشار اليها السيد غرينليف في احدى المرات بأن اولادها لا يعرفون التبن ، من العلف المحفوظ . ولكنها ردت عليه مشيرة إلى أنهم يمتلكون مواهب أخرى وان سكوفيلد رجل أعمال ناجح وويسلي مثقف مرموق . ولم يعلق السيد جرينليف ، ولكنه لم يفوت فرصة في جعلها ترى عن طريق تعبيره أو عن طريق بعض تلميحاته البسيطة ، أنه كان يحمل لكليهما ازدراء غير محدود .

وعلى الرغم من كون آل غرينليف مخلوقات حقيرة إلا أنه لم يتردد أبداً في أن يجعلها تعرف بأنه في أي ظرف مشابه ، يمكن أن يتورط ولداها فيه فان ولداه أي - ت و أو - ت غرينليف كانا سيتصرفان بشكل أفضل . كان أولاد غرينليف ، بصغرون أولاد ماي بسنتين أو ثلاث سنوات وكانا توأمين لا تستطيع اذا حدثتهما أن تعرف أياً منهما تحدث أو . ت أو اي - ت ، ولم يكن لديهما الكياسة ، اللازمة لإعلامك بذلك . كانا طويلي الساقين ونحيلين أحمري البشرة ، ويملكان عيوناً لامعة جشعة ملونة كعيون الثعالب مثل والدهم تماماً كانت حقيقة كونهما توأمين مدعاة فخر للسيد

غرينليف ، الذي كان يتصرف كما لو أن هذا شيء أنجزته براعتهما وحدهما ، كما كانت تقول السيدة ماي : كانا نشيطين وشديدي الاحتمال والقدرة على العمل ، وكانت تعترف لأي كان انهما قدما من مسافة بعيدة ، وان الحرب العالمية الثانية هي التي تسببت بمجيئهما هنا . التحق الولدان بالخدمة العسكرية متنكرين بملابسهما الرسمية ، بحيث لم يعد هناك مجال للتمييز بينهما وبين أطفال الأخرين ، وكان يمكن أن تعرف طبعاً إذا فتحا أفواههما ولكنهما نادراً ما كانا يفعلان ذلك .

ولعل أكثر شيء براعة بالفعل هو تمكنهما من اجتياز ماوراء البحار وزواجهما من فرنسيتين ، لم يتزوجا من فرنسيات قذرات ، بل من فتاتين جميلتين لم تستطيعا بطبيعة الحال أن تبلغا عن قتلهما لانجليزية الملك أو أن آل غرينليف هم كما هم الآن .

لم تسمح حالة قلب ويسلي له بخدمة بلده ، الا أن سكوفيلد التحق بالجيش لمدة عامين ، ولم يكن يهتم بهذا وبقي حتى نهاية خدمته العسكرية ، جندي خاص من الصف الأول فقط .

وكان ولدا غرنيليف قد حصّلا رتبة رقيب ، وفي تلك الأيام لم تفوت السيدة غرينليف فرصة في الإشارة اليهم عن طريق رتبهم . لقد تدبر الاثنان امرهما بأن يقعا جريحين ، وهما الآن يتقاضيان معاشاً تقاعدياً وعلاوة على ذلك وحال تسريحهما من الجيش ، قاما باستغلال جميع المنافع المتاحة والتحقا بكلية الزراعة في الجامعة - وفي هذه الأثناء كان دافعوا الضرائب يعيلون زوجاتهم الفرنسيات . ويعيش الاثنان معاً الآن على بعد حوالي ميلين اسفل الطريق العام على قطعة من الأرض ، ساعدتهما الحكومة على شرائها ويملكان فيلا مزدوجة من القرميد ساعدتهما الحكومة كذلك في بنائها وتسديد ثمنها . «إذا كانت الحرب قد صنعت أحداً» قالت السيدة ماي ، «فانها صنعت أولاد غرينليف» .

ولدى كل منهما ثلاثة أطفال يتكلمون لغة غرينليف الانجليزية ، واللغة الفرنسية . وبسبب خلفية امهاتهم فقد تم ارسالهم إلى مدرسة الراهبات ويحصلون على تربية رائعة .

- «بعد عشرين سنة» سألت السيدة ماي سكوفيلدوويسلي» ، هل تعرفون ماذا سيكون اولئك الناس؟» .

- وأجابت بمرارة على سؤالها «سيكونون هم المجتمع» .

لقد بدت خمسة عشرة سنة ، وهي تحاول التكيف مع السيد غرينليف ، واليوم شكّل التعامل معه طبيعة ثانية فيها ، كان مزاجه في أي يوم مميز يعتمد على ما تستطيع ، وعلى ما لا تستطيع أن تفعله هي ، تماماً مثل الطقس .

تعلمت أن تقرأ وجهه كما يقرأ أهل الريف الحقيقيين طلوع الشمس وغروبها .

كانت امرأة ريفية عن طريق الملاحقة ، لأن رجل الأعمال الراحل السيد ماي ، كان اشترى المكان حين كان سعر الأرض منخفضاً ، وعندما توفي كانت هذه الأرض هي كل ماتركه لها . لم يكن الأولاد سعداء بالانتقال إلى الريف ، إلى مزرعة خربة ، ولكن لم يكن هناك شيء آخر تفعله ، فقامت بقطع الأشجار من المكان ، ومن عائدات البيع هيأت لنفسها معمل الألبان بعد أن استجاب السيد غرينليف لاعلانها ، «لقد رأيت اعلانك وسوف آتيك ومعي ولدان» ، هذا كل ما قاله في رسالته ، ولكنه وصل في اليوم التالي في شاحنة قد تم تجميعها ، كانت زوجته مع بناته الخمسة يجلسن على الأرضية في الخلف وكان هو والولدان في غرفة القيادة .

مرت السنين وهم على أرضها ، ولم يبدُ على السيد والسيدة غرينلييف أي أثرٍ لكبر السن على الإطلاق ، لم يكن لديهم هموم ولا مسؤوليات فقد عاشوا مثل زنابق الحقل ، بعيدين عن هم الاستثمارات التي وضعتها في الأرض ، وعن الكفاح الذي خاضته في سبيل ذلك وحين تموت وتنتهي من العمل ، والهم فان آل غرينليف الأصحاء والناجحين سوف يكونوا على استعداد لاستنزاف سكوفيلد وويسلي .

- قال ويسلي ، «أن سبب عدم شيخوخة السيدة غرينليف يرجع إلى أنها كانت تبث كل همومها في صلاة الشفاء» . عليك أن تبدأي الصلاة يا عزيزتي قالها بصوت ولد مسكين لا يستطيع الكف عن تعمُّد اثارتها .

كان سكوفيلد فقط هو من يغضبها فوق احتمالها ، لكن ويسلي كان يسبب لها قلقاً حقيقياً ، فقد كان نحيفاً وعصبياً واصلعاً وكونه مفكراً ، كان يفرض توتراً رهيباً على مزاجه ، كانت تشك فيما اذا كان ستيزوج قبل موتها ولكنها كانت متأكدة بعد ذلك أنه سيحظى بالمرأة غير المناسبة .

فالفتيات الأنيقات لا يرغبن في سكوفيليد ، لكن ويسلي لا يرغب بالفتيات

الأنيقات، لم يكن يرغب في شيء . كان يقود سيارته كل يوم مسافة عشرين ميلاً ، إلى الجامعة التي تعلم فيها وعشرين ميلاً أخرى في العودة كل مساء لكنه يكره العشرين ميلاً ويكره جامعة الدرجة الثانية ويكره الأغبياء الذين يحضرون اليها . كان يكره البلد ويكره الحياة التي يعيشها ، ويكره العيش مع أمه ومع شقيقه الأحمق ، ويكره سماع الأحاديث حول الألبان اللعينة» ، والمساعدات اللعينة والآلات المحطمة اللعينة ، لكه مع كل ذلك كان يقول : «انه لن يقوم بأي حركة لهجر المكان ، كان يتحدث عن باريس وروما لكنه لم يصل حتى إلى اتلانتا .

- يمكنك أن تذهب إلى تلك الأماكن ويمكن أن تصاب بالمرض» قد تقول السيدة ماي «من في باريس سيراعي حصولك على وجبة حمية بدون ملح؟ وهل تظن أنك إذا تزوجت واحدة من هذه الأعداد القديمة ستضمن ان تطبخ لك وجبة بدون ملح؟ بالتأكد لا فهي لن تفعل ذلك» .

وعندما كان الحديث يأخذ هذا المسلك ، كان ويسلي يستدير بخشونة في كرسيه ويتجاهلها . وفي احدى المرات عندما تواصلت بمثل هذا الحديث مطولاً ، وبدون انقطاع زمجر قائلاً «حسناً ، لماذ لا تقومين بشيء عملي؟ لماذا لا تصلين لأجلي مثلما تفعل السيدة غرينليف؟» .

- أنا لا أحب أيها الأولاد أن تطلقوا نكاتاً حول الدين» ، تقول «اذا رغبتم في أن تذهبوا إلى الكنيسة فسوف تلتقون بفتيات جميلات» .

كان من المستحيل أن تخبرهم بشيء عندما تنظر اليهما الآن وهما يجلسان على جانبي الطاولة ، لا يباليان على الإطلاق إذا ما دمر الثور الضال قطيعها الذي كان هو قطيعهم ومستقبلهم . وحينما تنظر إلى كليهما ، احدهم منكب على صحيفة يقرؤها ، والآخر يميل إلى الخلف على كرسيه ويبتسم في وجهها كالأبله ، تراودها رغبة في القفز وضرب الطاولة بقبضتها صارخة ، «سوف تكتشفون يوماً ما ، سوف تكتشفون ما هي الحقيقة عندما يصبح الأمر متأخراً جداً!»

- «يا أمي» ، قال سكوفيلد» ، لا تتهيجي الآن ولكني سأخبرك ثور من هذا وكان ينظر اليها بخبث . ثم نهض وترك كرسيه يسقط للأمام وبعد ذلك احتى منكبيه ، ورفع يديه ليغطي بهما رأسه ومشى على رؤوس أصابعه إلى الباب ثم تراجع إلى

الصالة ، وقام بسحب الباب ليخفي كل جسمه ، ما عدا وجهه وسأل : هل تودين أن تعرفي يا حلوتي؟» .

جلست السيدة ماي تنظر اليه ببرود .

- «إنه ثور أو . ت و آي . ت» ، قال «أبلغني الزنجي الذي يعمل لديهم انهما يفتقدان ثوراً ، ثم فتح فمه على وسعه ليريها اسنانه واختفى بصمت .

نظر ويسلي إلى الأعلى وضحك .

ادارت السيدة ماي رأسها إلى الأمام مرة أخرى دون أن تتغير تعابيرها ، وقالت «أنا البالغة الوحيدة في هذا المكان» ثم انثنت على الطاولة وسحبت الصحف من جانب طبقه «هل ترى كيف سيؤول الحال عندما أموت؟» وأنتم أيها الأولاد ، هل ستتدبرون؟؟» بدأت الحديث .

- هل ترون الآن لماذا لم يعرف صاحب الثور؟ لأنه كان ثورهم .

هل ترون ما الذي أتحمله ؟

هل ترون لو أنني لم أبق قدمي فوق رقبته كل هذه السنين لكنتم الآن أيها الأولاد تحلبون الأبقار عند الساعة الرابعة من كل صباح؟

- قام ويسلي بسحب الصحيفة باتجاه طبقه وتمتم محدقاً في وجهها «أنا لا أرغب ، في حلب بقرة لانقاذ روحك من الجحيم» .

- «أنا أعلم بأنك لا ترغب» قالت ذلك بانفعال ، ثم جلست تدير سكينها بسرعة على أطراف طبقها .

- «أو . ت . و أي . ت هما ولدان رائعان» قالت ، «كان يجب أن يكونا أولادي» ، كانت الفكرة رهيبة إلى حد أنها غشيت وهي تنظر إلى ويسلي وغطتهما الدموع و كل ما كانت تراه هو هيكله المعتم وهو ينهض عن الطاولة ، وتابعت تصيح وانتما الاثنان كان يجب أن تنتميا لتلك المرأة . وعندما أموت ، قالت بصوت ضعيف ، «وهي تتجه نحو الباب لا أدري ماذا سيحصل لكما!» .

- «أنت دائماً تثرثرين حول موتك» كان صوته يهدر وهو يندفع إلى الخارج «ولكنك تبدين لي بصحة جيدة» .

جلست لبعض الوقت في المكان الذي كانت فيه تحدق ، عبر نافذة الغرفة نحو

اللون الرمادي والأخضر غير الواضح في الخارج ، مطّت وجهها وعضلات عنقها ، وأخذت نفساً عميقاً ، لكن المشهد امامها ، على أي حال ، تحول برمته إلى كتلة رمادية مبللة .

- «أنهم لا يحتاجون إلى التفكير في أنني سوف أموت قريباً في أي وقت ، تمتمت ، وردّ صوت بداخلها أكثر تحدياً قائلاً : «سوف أموت عندما أكون جيدة ومستعدة» .

مسحت عينيها بمنديل المائدة ثم نهضت وذهبت إلى النافذة وحدقت في المشهد أمامها ، كانت البقرات ترعى على مرجتين خضراوين في الناحية الأخرى ، من الطريق يحيط بهن من الخلف جدار اسود من الأشجار ذات الأطراف المسننة ، كالمناشير والتي كانت تحميها من لامبالاة السماء . كانت رؤية المراعي كافية لتهدئتها ، وعندما كانت تنظر إلى الخارج من أي نافذة في بيتها فانها كانت ترى انعكاساً لشخصيتها .

قال عنها أصدقاؤها في المدينة انها كانت أكثر امرأة مميزة عرفوها ، فقد ذهبت وهي عملياً لا تملك خبرة ، ولا فلساً واحداً إلى مزرعة خربة وحققت فيها ذلك النجاح .

كانت تقول «إن كل شيء كان ضدها : فالطقس ضدها ،والغبار ضدها ، وكذلك العون ضدها ، كل هذه الأشياء جميعاً شكلت عصابة ضدها ، وليس لها الآ أن تواجهها بيد من حديد» .

- «أنظر إلى يد أمك الحديدية» ، كان سكوفيلد يصيح ويرفع ذراعها حتى تتدلى يدها ذات الأوردة الزرقاء الرقيقة إلى تحت خصرها مثل رأس زنبقة محطمة «الأصدقاء دائماً يضحكون» .

كانت الشمس وهي تتحرك فوق قطيع الأبقار السوداء والبيضاء التي ترعى واصبحت إلى حد ما أكثر لمعاناً في قبة السماء . نظرت إلى الأسفل ورأت شكلاً ، أكثر قتامة لا بد أنه كان ظل الشمس ، وهو ينتقل في زاوية ويتحرك بينها ، اطلقت صرخة حادة ثم استدارت وخرجت من البيت . كان السيد غرينليف في خندق العلف يعبئ عربة اليد ، وقفت على الحافة ونظرت اليه «لقد أخبرتك أن تطرد ذلك الثور . هاهو الآن مع القطيع الحلوب» .

- «لا تستطيعين عمل شيئين في آن واحد» أشار السيد غرينليف .
- لقد طلبت منك أن تفعل ذلك أولاً .
جرّ العربة من نهاية الخندق باتجاه المخزن ، وتبعته بشكل لصيق وقالت :
- «وأنت لا تحتاج إلى الظن ياسيد غرينليف» ، اتظن بأني لا أعرف لمن هذا الثور أو لماذا لم تكن متعجلاً لتبلغني عن صاحبه أم أنه يجب علي أيضاً أن أطعم ثور أو . ت و اي . ت ما دمت ستبقيه هنا ليخرب قطيعي .
توقف السيد غرينليف مع عربة اليد ونظر وراءه .
- «هل ذلك ثور الأولاد؟ سأل بنغمة يشوبها الشك .»
لم تقل كلمة ولكها اشاحت بنظرها عنه وفمها مشدوداً .
- «لقد أخبروني بأن ثورهم كان غائباً ولكني لم أعلم بأن ذلك كان هو» .
- «أريد الآن أن تضع ذلك الثور في القيد» «قالت «وأنا ذاهبة إلى أو . ت و اي . ت لأخبرهم بأن عليهم أن يحضروا اليوم لآخذه : ويستحسن أن أطلب ثمناً عن فترة وجوده هنا حتى لا يحدث مثل هذا الأمر مرة أخرى» .
- «انهم لم يدفعوا به سوى خمسة وسبعون دولاراً» اعترض السيد غرينليف .
- «أنا لا أرغب فيه حتى كهدية» قالت .
- «لقد كانوا بالضبط في صدد ذبحه» . استطرد السيد غرينلبيف ولكنه افلت ونطح شاحنتهم الصغيرة برأسه ، فهو لا يحب الشاحنات والسيارات وقد استغرقوا وقتاً ، في اخراج قرنه من صدّام الشاحنة ، وعندما خلصوه في النهاية ، افلت منهم وكانوا متعبين جداً حتى يلحقوا به -
- ولكني لم أعرف أنه هو الذي هناك» .
- «لم يكن ينفعك الأمر لو عرفت يا سيد غرينليف» ، قالت ، «اما الآن وقد عرفت فخذ حصاناً واحضره» .
وخلال نصف ساعة ، رأت من نافذتها الأمامية ذلك الثور ذو اللون السنجابي ، والأوراك البارزة والقرون الطويلة ذات اللون الفاتح يسير بتمهل اسفل الطريق الترابي ، التي تمر من أمام المنزل ووراءه يسير السيد غرينليف ممتطياً الحصان .
- «ذلك ثور غرينليف لو أني لم أر واحداً لهم في حياتي» ، تمتمت ثم صعدت إلى

الشرفة وصاحت «ضعه حيث لا يستطيع الخروج» .

- «يجب أن يتمتع بحرية نسبية في الحركة» ، قال السيد غرينليف وهو ينظر باستحسان إلى ردف الثور «ان هذا السيد النبيل رياضي» .

- «إذا لم يأت أولئك الأولاد لأخذه سوف يكون هذا الرياضي ميتاً - قالت «أنا أحذرك فقط» .

سمعها لكنه لم يجب .

- «انه أبشع ثور رأيته في حياتي» ، صاحت عليه ولكنه لم يسمع فقد كان بعيد جداً أسفل الطريق .

كان الوقت ضحىً عندما توجهت إلى او . ت و أي ، . ت عبر طريق السيارات .

كان بيتهم مبنياً من طوب أحمر جديد ومنخفض البناء كأنه مستودع بنوافذ ، كان مقاماً على قمة تلة خالية من الأشجار ، تسقط أشعة الشمس على سطحه الأبيض مباشرة ، كان من تلك البيوت التي يبنيها أي شخص الآن ، ولا يميز كونه لعائلة غرينليف سوى وجود ثلاثة كلاب هي نصف اسبنتزو ونصف كلاب صيد .

اندفعت إلى الوراء حالما اوقفت السيار ، وذكّرت نفسها بأنك تستطيع دائماً أن تعرف نوعية الناس من نوعية كلابهم . واطلقت بوق السيارة ، وبينما كانت تنتظر قدوم أحد ، أتمت تفحصها للبيت ، كانت جميع النوافذ مغلقة وتسائلت إذا كانت الحكومة قد ركبت لهم مكيفات هواء . لم يحضر احد فأطلقت البوق مرة أخرى ، فتح الباب وظهر العديد من الأطفال الذين وقفوا ينظرون اليها دون أن يأتوا بحركة للتقدم نحوها . فادركت أن هذه طبيعة مميزة لعائلة غرينليف - اذ يمكنهم أن يقفوا بالباب لساعات وهم ينظرون اليك .

- «الا يستطيع أحدكم أيها الأطفال أن يأتي إلى هنا» ، صاحت .

وبعد دقيقة أخذوا جميعهم في التحرك ببطء إلى الأمام .

كانوا يرتدون أفرهولات واقدامهم عارية ، ولكنهم لم يكونوا بالقدارة التي كانت تتوقعها ، كان اثنان أو ثلاثة منهم ينظرون نظرة خفية ، مثل آل غرينليف ، أما الأخرون فلم يكونوا إلى حد ما كذلك . كان اصغر الأطفال بنتاً بشعر اسود غير مرتب . وقفوا على بعد حوالي ستة أقدام من السيارة وهم ينظرون اليها .

- «أنت لطيفة ورائعة» ، قالت السيدة ماي وهي تقدم نفسها للفتاة الصغرى . لم يجبها أحد . وبدوا كأنهم يتشاركون في تعبير هادئ فيما بينهم .

- «أين امك؟؟ سألت .

لم تحصل على اجابة على هذا السؤال لبعض الوقت ، وبعد ذلك قال احدهم شيئاً بالفرنسية ولكن السيدة ماي لا تتكلم الفرنسية .

- «أين أبوك؟» سألت .

بعد هنيهة أجاب احد الأولاد «انه ليس هنا أيضاً» .

- «آ هـ هـ هـ هـ » قالت السيدة ماي وكأن شيئاً قد تم اثباته .

- «أين الرجل الملون؟»

انتظرت ثم قررت أن احدهم لن يجيب .

- «ان للقطة ستةُ ألسن صغيرة» ، قالت «هل ترغبون أن تأتوا معي إلى البيت لأعلمكم كيف تتكلمون؟» ضحكت ولكن ضحكتها ضاعت مع الهواء الساكن وشعرت كما لو أنها كانت في محاكمة على حياتها وأنها تواجه هيئة محلفين من آل غبرنيليف .

- «سأنزل لأرى إذا كنت أستطيع أن أجد الرجل الملون» ، قالت - «بامكانك أن تذهبي اذا كنت تريدين ذلك» قال أحد الأولاد .

- «حسناً ، . شكراً لك» تمتمت ثم ابتعدت بالسيارة .

كانت الحظيرة تقع أسفل الممر إلى البيت ، ولم تكن قد شاهدتها من قبل ، لكن السيد غبرينليف كان قد وصفها بالتفصيل لأنها بنيت طبقاً للمواصفات الحديثة . فقد جاء ترتيب قاعة الحلب بحيث تحلب الأبقار في الأسفل ثم يمرر الحليب عبر أنابيب من الماكنات إلى المخزن ولم يكن أبداً لينقل في الدلاء حسبما قال السيد غبرنيليف ولا تمسه يد بشر .

- «متى ستقررين الحصول على واحد مثله؟ » كان قد سألها .

- «سيد غبرنيليف» اجابته «أنا أعمل بجهدي ولا أعتمد على مساعدة الحكومة يداً وقدماً ، ان تركيب قاعة حلب قد يكلفني عشرين الف دولار ، وأنا بالكاد أستطيع أن الملم نفسي هكذا» .

– «لقد فعلها أولادي «تمتم السيد جرينليف ولكن بعد ذلك «ليس كل الأولاد متماثلين» .

– «كلا بالطبع» قالت «أحمد الله على ذلك» .

– «أنا أحمد الله على كل شيء» ، تشدق السيد غرينليف .

– «يمكنك أن تفعل ذلك بالطبع» ، وفكرت خلال فترة الصمت الرهيب التي تلت حديثهما ثم قالت «أنت لم تفعل أبداً أي شيء لنفسك» . وقفت بجانب الحظيرة واطلقت بوق السيارة ولكن لم يظهر أحد . ولبضع دقائق جلست في السيارة ، تلاحظ الماكنات المختلفة التي تجثم في المكان متسائلة ، كم منها قد تم دفع ثمنه .

كانت لديهم حصادة للمزروعات العلفية وآلة لضغط القش في بالات وكان لديها مثلها أيضاً .

قررت بعد أن لم تجد احداً هنا أن تنزل من السيارة لتلقي نظرة على قاعة الحليب وترى فيما اذا كانوا يحافظون عليها نظيفة . فتحت باب غرفة الحلب وادخلت رأسها ، ولثانية واحدة ، أحست كما لو أنها تكاد تفقد القدرة على التنفس .

كانت الغرفة المبنية من الاسمنت الأبيض نظيفة ، تملؤها أشعة الشمس الساقطة من صف النوافذ المرتفعة ، على طول الجدارين ، كما كانت الدعامات المعدنية العمودية تومض بشدة مما اضطرها إلى اغماض عينيها نصف اغماضة ، لتتمكن من النظر إلى الكل ، ثم أخرجت رأسها من الغرفة بسرعة واغلقت الباب ، واتكأت عليه عابسة . لم يكن الضوء في الخارج ساطعاً لهذه الدرجة ، ولكنهاشعرت بأن الشمس تقف فوق قمة رأسها مباشرة ، مثل رصاصة فضية متأهبة لاختراق دماغها .

ظهر زنجي يحمل دلواً اصفراً لعلف العجول ، من حول زاويةغطاء الماكنة ، وتقدم نحوها . كان ولد أصفر اللون هزيلاً يلبس ملابس التوأمين غرينليف ، من مخلفات الجيش . توقف على مسافة معتبرة ،ووضع الدلو على الأرض .

– «أين السيد أو . ت . والسيد اي . ت؟ سألت

– «ان السيد أو . ت . في البلدة ، والسيد أي . ت . هناك في ا الحقل» قال الزنجي مشيراً ناحية اليسار أولاً ثم بعد ذلك ناحية اليمين ، كما لو أنه كان يحدد مركزاً لجرمين سماويين .

- «هل يمكن أن تتذكر رسالة؟» ، سألته وهي تنظر كما لو أنها فكرت بأن ذلك أمر مشكوك فيه .

- «سوف أتذكرها إذا لم أنساها» ، اجابها بمسحة من الكآبة .

- «حسناً ، سوف اكتبها حالاً قالت ذلك ودخلت إلى سيارتها ، وأخرجت عقب قلم رصاص من مفكرة جيبها ، وبدأت تكتب على ظهر مغلف فارغ ، جاء الزنجي ووقف عند النافذة» .

- «أنا السيدة ماي» قالت ، كما كتبت» ، ان ثورهم في مزرعتي وأريدهم أن يبعدوه اليوم وبإمكانك أن تخبرهم أنني غاضبة بهذا الشأن . - «ذلك الثور غادر من هنا يوم السبت» ، قال الزنجي« ولم يره أحد منا منذ ذلك الحين ولا نعرف أين هو» .

- «حسناً ، ها أنت تعرف الآن «قالت» ، وبامكانك أن تبلغ السيدان أو . ت . واي . ت . انهما اذا لم يأتيا لأخذه هذا اليوم ، فاني سأجعل والدهم يطلق النار عليه أول شيء في الصباح ، أنا لا أطيق أن يقوم ذلك الثور بتدمير قطيعي» ، وسلمته المذكرة بيده .

- «إذا أعلمت السيد أو . ت . والسيد اي . ت . فسيقولان لك بأن تطلقي عليه النار ، فقد قام بتحطيم احدى شاحناتنا تماماً وسنكون سعداء لأن نشهد نهايته» .

ارتدت برأسها إلى الوراء ورمقته بنظرة من عينين بارقتين .

- «هل يتوقعون مني أن أضيع وقتي ووقت عاملي في اطلاق النارعلى ثورهم؟» «سألت» ، ألأنهم لا يريدونه ، تركوه سائباً ويتوقعون أن أحداً غيرهم سيقتله؟ انه يأكل شوفاني ويدمر قطيعي ويتوقعان مني أيضاً أن أقوم بقتله؟» .

- «أنا قلت لك» قال الزنجي برقة «لقد عمل تدميراً . . .» .

رمقته بنظرة حادة جداً وقالت «حسناً ، أنا لست متفاجئة . هذه بالضبط طريقة عمل بعض الناس» وبعد ثانية سألت :

- «من منهما الرئيس هل هو السيد أو . ت . ام السيد اي . ت .؟» فقد كانت دائماً تشك في انهما يتقاتلان فيما بينهما في الخفاء .

- «أنهما لم يتشاجرا أبداً قال الولد «أنهما مثل رجل واحد في جلدين» .

- همم - اتوقع انك لم تسمعهما يتشاجران أبداً

- «ولا أي شخص آخر أيضاً قال وهو ينظر بعيداً ، كما لو أن هذه الاهانة موجهة إلى شخص ما غيرها .

- «حسناً قالت «لم أتمكن من التصدي ، لوالدهم لمدة خمس عشرة سنة ولم أعرف أشياء قليلة عن آل غرينليف» .

التفت اليها الزنجي وكأنه أدرك فجأة فسألها هل أنت والدة رجل التأمين خاصتي»؟

- «أنا لا أعرف من يكون رجل التأمين خاصتك» ، قالت بحدة «اعطهم هذه المذكرة وأخبرهم بأنهم اذا لم يأتوا من أجل ذلك ا لثور هذا اليوم ، فانهم سيجعلون والدهم يطلق النار عليه في الغد» ، ثم غادرت بسيارتها . مكثت في البيت طيلة بعد الظهر ، في انتظار أن يأتي توأمي غرينليف من أجل الثور ، ولكنهما لم يأتيا ، يجب أن أعمل أيضاً لأجلهم! وفكرت بغضب أنهم بكل بساطة سيستغلونني حتى النهاية .

وعلى مائدة العشاء ، عادت إلى ذكر الموضوع مرة أخرى من أجل مصلحة الأولاد لأنها ارادت أن تريهم بالضبط ماذا يمكن أن يفعل أو .ت و اي ب» ، «انهم لا يريدون ذلك الثور» قالت - مرر الزبدة - «لذلك وبكل بساطة أفلتوه وتركوا شخصاً آخر يقلق عنهم بشأن التخلص منه ، كيف ترون ذلك؟ أنا الضحية ، كنت أنا الضحية دائماً .

- «مرر الزبدة إلى الضحية» ، قال ويسلي وكان في مزاج ساخر أسوأ من المعتاد لأن احدى اطارات سيارته قد فرغ منها الهواء وهو في طريق عودته إلى البيت من الجامعة .

ناولها سكوفيلد الزبدة وقال «لماذا يا أمي؟ ألا تشعرين بالخجل من اطلاق النار على ثور عجوز لم يقترف ذنباً سوى أنه أعطاك عجلاً صغيراً هجيناً في قطيعك؟ ثم تابع قائلاً «أنا أعلن أنه مع وجود أم مثل أمي ، فاني اتساءل كيف خرجت لأكون ولداً طيباً»؟

- «أنت لست أبنها قال ويسلي

أراحت ظهرها في كرسيها ، بينما ظلت اطراف اصابعها على حافة المائدة .

- «كل ما اعرفه هو أني» ، قال سكوفيلد «قد ابليت بلاءً حسناً لأصبح لطيفاً حين انظر وارى من من أتيت» .

عندما كانوا يريدون مضايقتها في سخريتهم ، كانوا يتحدثون بلهجة غرينليف الانجليزية ، لكن نبرة ويسلي الخاصة كانت تنفذ إلى أعماقها مثل حد السكين .

- «حسناً ، دعني أخبرك شيئاً يا أخي «قال وهو ينثني فوق الطاولة ، «لو كان لديك نصف عقل لكنت تعرف الآن» .

«ما هوذلك يا أخي؟» سأل سكوفيلد ، وكان وجهه العريض يبتسم أمام الوجه النحيل الذي يجلس مقابله .

- «ذلك هو » قال ويسلي «لا أنت ولا أنا من أولادها . . .»

ولكنه توقف بشكمل مفاجئ عندما أصدرت صوتاً أجشاً يشبه صهيل حصان عجوز يندفع فجأة وبدون توقع ،

انتصبت واقفة وركضت إلى خارج الغرفة .

«أوه اكراماً لله» صرخ ويسلي «لماذا اطلقتها هكذا؟»

- «أنا لم أطلقها» قال سكوفيلد «أنت الذي اطلقها» .

- «هاه» .

- «لم تعد شابة كالسابق ولم تعد تحتمل أيضاً .

- «انها تطلق ما تشاء من الكلام وأنا الشخص الذي يتقبله» ، قال ويسلي تغير وجه أخيه اللطيف وانقلبت الصورة بينهما لتظهر تشابهاً بشعاً في العائلة .

- «لن يشعر أحد بالأسف من أجل خسيس شاذ ملك» ، قال وامسك بمقدمة قميص أخيه عبر الطاولة .

سمعت من غرفتها صوت تكسير الأطباق فاندفعت عائدة إلى غرفة الطعام عبر المطبخ ، كان باب الصالة مفتوحاً وكان سكوفيلد يخرج منه ، فيما كان ويسلي مبطوحاً على ظهره مثل المخبول ، وحافة الطاولة المقلوبة تربض على وسطه وقد تبعثرت فوقه بعض الصحون المحطمة .

أزاحت الطاولة عنه وأمسكت بذراعه لمساعدته على النهوض ، ولكنه قفز واقفاً ودفعها عنه بعنف دفعة قوية واندفع بقوة إلى خارج الباب في اثر أخيه .

وكادت تنهار لولا أن سمعت طرقات على الباب الخلفي شدت عودها ، فاستدارت وتوجهت عبر المطبخ إلى الشرفة الخلفية . رأت السيد جرينليف يحدق

بتلهف عبر حاجز الأسلاك ، فعادت جميع طاقاتها إلى العمل - بكامل قوتها ، كما لو أنها كانت بحاجة فقط إلى أن يتحداها الشيطان نفسه حتى تستعيدها هكذا .

- «لقد سمعت صوت خبطة» قال : «وخشيت أن تكون طبقة الجص قد سقطت عليك» .

لو كانت تريده ، لكانت اضطرت لركوب الحصان حتى تعثر عليه . عبرت المطبخ ثم الشرفة ووقفت داخل حاجز الأسلاك : وقالت :

- «لا لم يحدث شيء ولكن الطاولة انقلبت لأن احدى قوائمها كانت ضعيفة» . وأضافت بدون توقف «لم يأت الأولاد من أجل الثور لذلك فانه عليك أن تطلق النار عليه غداً .

كانت هناك أعمدة من الشعاع الأحمر والقرمزي تتقاطع في السماء ، ومن ورائها كانت الشمس تتحرك ببطء نحو المغيب كأنها تهبط على سلم . جلس السيد غرينليف القرفصاء على احدى الدرجات ، مديراً ظهره لناحيتها بينما قمة قبعته على مستوى قدميها وقال :

- «في الغد سوف أعيده إلى المنزل من أجل خاطرك» .

- «أوه ، لا ، سيد غرينليف» قالت ذلك بصوت ساخر ، «تقوده غداً إلى البيت وفي الأسبوع القادم سيعود إلى هنا ، فأنا أعرف طريقة أفضل من ذلك» ، ثم اضافت بعد ذلك وبصوت مفجوع «أنا مستغربة أن يعاملني أو . ت . و اي . ت . بهذه الطريقة ، لقد ظننتهم أكثر عرفاناً بالجميل ، لقد أمضى اولئك الأولاد أياماً رائعة وسعيدة في هذا المكان ، اليس كذلك يا سيد غرينليف؟» .

لم يقل السيد جرينليف شيئاً .

- «أظن انهم فعلوا» ، قالت «اظن انهم فعلوا ولكنهم الآن نسوا كل تلك الأشياء الصغيرة اللطيفة ، التي عملتها من أجلهم اذا اردت أن أستذكر ، فقد كانوا يرتدون ملابس أولادي القديمة ، ويلعبون بألعاب اولادي القديمة ويصطادون ببنادق اولادي ايضاً ، لقد كانوا يسبحون في بركتي ، ويطلقون النار على عصافيري ، ويصطادون الأسماك من جدولي» .

لم أكن لأنسى أعياد ميلادهم ، وكنت حولهم دائماً في عيد ميلاد المسيح لو

أردت أن أتذكر جيداً ، هل يفكرون في أي من تلك الأشياء الآن؟»

سألت ثم أجابت «لا ، لا ، لا» .

بعد لحظات نظرت إلى الشمس . متجهة فيما كان السيد غرينليف يتفحص راحتي يديه . وفي الحال وكما لو أن خاطراً خطر لها سألت :

– «هل تعلم السبب الحقيقي وراء عدم مجيئهم من أجل ذلك الثور؟»

– «لا ، اني لا أعلم» قالها السيد غرينليف بصوت قوي .

– «لم يأتوا لأنني امرأة» قالت «تستطيع ان تفلت من أي شيء دون عواقب عندما تتعامل مع امرأة ،لو كان هناك رجل يدير هذا المكان . . .» .

– وبسرعة كأن أفعى لدغته قال السيد غرينليف «لديك ولدان وهما يعلمان بأن لديك رجلين في المكان» .

اختفت الشمس خلف خط الأشجار ، والتفتت إلى الأسفل نحو ذلك الوجه الداكن الماكر الذي رفع رأسه الآن إلى الأعلى ونحو تلك العيون الحذرة وهي تلمع تحت ظل طرف القبعة ، لقد انتظرت بما فيه الكفاية لكي تشعره انها جرحت وبعد ذلك ، قالت له «بعض الناس يعترفون بالجميل في وقت متأخر جداً يا سيد غرينليف ، وبعضهم لا يتعلموه أبداً على الاطلاق» ثم استدارت وتركته جالساً على الدرجات .

في منتصف الليل سمعت في نومها ضجة ، كما لو أن حجراً كبيراً كان يحفر ثقباً في جدار دماغها الخارجي ، كانت تمشي في داخلها فوق سلسلة من التلال الجميلة المتشابكة ، وتغرس عصاها أمام كل خطوة تخطوها ، ادركت بعد فترة أن الضجة لم تكن إلا الشمس ، وهي تحاول أن تخترق صف الأشجار ثم توقفت للمراقبة ، وهي تعلم أنه لا يمكنها ذلك ، ان عليها أن تغرب نحو الطريق التي تسلكها دائماً خارج حدود ملكيتها ، عندما توقفت في البداية كانت الشمس ماتزال كرة حمراء منفوخة ولكن بينما هي تراقبها ، راحت تتضاءل وتبهت حتى تقلصت إلى حجم رصاصة . ولكنها فجأة اندفعت بقوة خلال صف الأشجار وانطلقت بسرعة اسفل التل في اتجاهها . استيقظت ويدها فوق فمها وما تزال تلك الضجة تدق في اذنها . خفيفة الآن ولكن جلية . كان الثور يمضغ تحت نافذتها . لقد تركه السيد غرينليف طليقاً .

استيقظت وسارت في الظلام باتجاه النافذة ، ونظرت إلى الخارج من خلال الستارة المشقوقة ، ولكن الثور كان قد تحرك بعيداً من السياج ولم تره في البداية ، الا أنها بعد ذلك رأت شكلاً ثقيلاً بعيداً بعض الشيء واقفاً كأنه يراقبها .

– «هذه آخر ليلة أتحمل فيها ذلك» قالت ذلك وظلت تراقب إلى أن تحرك الظل الحديدي بعيداً في الظلمة .

في صباح اليوم التالي انتظرت حتى الساعة الحادية عشرة بالضبط ، ثم ركبت سيارتها وتوجهت نحو الحظيرة ، كان السيد غرينليف ينظف صفائح الحليب . كان لديه سبعة منها موضوعة خارج غرفة الحليب تحت اشعة الشمس . وكانت قد طلبت منه أن يفعل ذلك منذ اسبوع .

– «حسناً ، يا سيد غرينليف» قالت «اذهب واحضر بندقيتك فنحن ذاهبون لاطلاق النار على الثور» .

– «لقد ظننت أنك تريدين هذه الصفائح . . .» .

– «اذهب واحضر بندقيتك يا سيد غرينيليف» قالت وكان صوتها ووجهها خاليين من أي تعبير» .

– «ذلك السيد النبيل خرج من هناك الليلة الماضية» ، تمتم بنغمة أسى وانثنى مرة أخرى على الصفيحة التي كانت يده فيها .

– «اذهب واحضر بندقيتك يا سيد غرينليف» قالت ذلك بنفس ذلك الصوت المنتصر الخالي من أية نغمة ، «ان الثور موجود في المرعى مع البقرات جافات الضروع . لقد رأيته من نافذة الطابق العلوي في منزلي ، سآخذك بسيارتي إلى الحقل ، ويمكنك أن تجعله يركض إلى مرعى خالٍ وتطلق النار عليه هناك» .

وببطء حرر جرينليف نفسه من الصفيحة :

– «ألا يوجد احد غيري يطلق النار على ثور أولادي!» ، قال ذلك بصوت خشن مرتفع ثم أخرج خرقة من جيبه الخلفي وأخذ يمسح يديه بعنف ثم بعد ذلك انفه .

استدارت وكما لو أنها لم تسمع ما قاله وقالت ، «سأنتظرك في السيارة ، اذهب واحضر بندقيتك» .

جلست في السيارة وأخذت تراقبه وهو يمشي ببطء في اتجاه غرفة أطقم الخيل ،

حيث يحتفظ ببندقيته هناك ، وسمعت بعد دخوله إلى الغرفة صوت ضجة عالية وكأنه ركل شيئاً ما اعترض طريقه .

بعد ذلك ظهر ومعه البندقية . استدار خلف السيارة وفتح الباب بعنف ، والقي بنفسه على المقعد بجوارها ، ووضع البندقية بين ركبتيه ونظر بشكل مستقيم امامه ففكرت بأنه ربما يود اطلاق النار عليها بدلاً من الثور ، فادارت وجهها بعيداً حتى لا يتمكن من رؤية ابتسامتها .

كان الصباح جافاً وصافياً ، قادت السيارة خلال الأحراش لمسافة ربع ميل ثم خرجت بعد ذلك إلى الساحة المكشوفة حيث تمتد الحقول على جانبي الطريق الضيق . كان ابتهاجها بتحقيق رغبتها قد شحذ احساساتها ، وكانت الطيور تزعق في كل مكان ، والعشب أكثر لمعاناً من أن تستطيع النظر اليه ، والسماء هادئة وحادة الزرقة ، فقالت بابتهاج «لقد حل الربيع» .

رفع السيد غرنيليف احدى عضلات فمه وكأنه وجد أن تلك الملاحظة كانت أكثر ما يمكن أن يقال بلاهةً .

وعندما توقفت أمام بوابة المرعى الثاني دفع نفسه بقوة من باب السيارة ، وأغلقه خلفه بعنف ، ثم قام بفتح البوابة ثم أغلقها بعد أن دخلت السيارة من خلالها ، ثم اندفع بصمت إلى داخل السيارة ، فيما قادت هي السيارة حول أطراف المرعى ، إلى أن شاهدت الثور يقف في وسط المرعى تقريباً يرعى بطمأنينة وسط الأبقار .

- «ان السيد النبيل في انتظارك » قالت ورمقت طرف وجه السيد غرينليف بنظرة ماكرة . «اجعله يركض إلى داخل المرعى التالي وعندما تحاصره في الداخل سأقود السيارة خلفك واغلق الباب بنفسي» . أندفع خارج السيارة بقوة ولكنه ترك باب السيارة في هذه المرة مفتوحاً بصورة متعمدة ، مما اضطرها إلى الانحناء فوق المقعد لاغلاقه .

جلست تبتسم وهي تراقبه يشق طريقه عبر المرعى باتجاه البوابة المقابلة . بدا كأنه يرمي بنفسه إلى الأمام في كل خطوة ثم ينسحب إلى الوراء كما لو أنه يستدعي قوة ما لتشهد بأنه يفعل هذا الأمر مرغماً .

- «حسناً» قالت بنبرة الصوت الطبيعي وكأنه لا يزال في السيارة «أنهم اولادك

الذين جعلوك تفعل هذا يا سيد غرينيليف» .

من المحتمل ان أو . ت . واي . ت . سيضحكان الآن حتى تتشقق اشداقهما . تستطيع ان تسمع اصواتهم المتماثلة الخنانة ، وهم يقولون لقد جعلنا والدنا يطلق النار على ثورنا ، والدنا لا يعرف أكثر من أن يظن انه يقتل ثوراً جيداً ، قد نقتل والدنا لنجعله يقتل ذلك الثور .

«لو كان أولادك اولئك يهتمون بأمرك يا سيد غرنيليف لحضروا من أجل هذا الثور ، انا مندهشة منهم» .

استدار ليفتح البوابة أولاً .

كان الثور الداكن اللون يقف بين البقرات المبرقعة يأكل باطمئنان ، ورأسه إلى الأسفل دون حركة .

فتح السيد غرينيليف البوابة ثم أخذ يدور لكي يأتيه من مؤخرته ، وعندما صار على بعد حوالي عشرة أقدام منه صفق بيديه على جانبيه ، فرفع الثور رأسه بتكاسل ثم قام بخفضه مرة أخرى واستمر يأكل . وقف السيد غرينليف مرة أخرى والتقط شيئاً ما ، ورماه به بقوة قررت على أثرها أنها ربما تكون صخرة حادة ، لأن الثور وثب ثم أخذ يعدو بسرعة إلى أن اختفى فوق حافة التل وتبعه السيد غرينيليف على مهل .

- «أنت لست بحاجة للتفكير بأنك ستفقده ،» صاحت ثم قادت السيارة مباشرة عبر المرعى وقد اضطرت ، لأن تقود ببطء فوق المصاطب وحين وصلت إلى البوابة كان السيد غرينيليف والثور قد اختفيا عن ناظريها .

كان هذا المرعى أصغر من الآخر وجزؤه المتوسط اخضراً تحيط به الأحراش ، من كل جانب . نزلت من السيارة واغلقت البوابة ثم وقفت تنتظر اشارة ما ، من السيد غرينليف الا أنه كان قد اختفى تماماً .

وفي الحال خطر ببالها أن خطته هي أن يفلت الثور في الغابات . في النهاية ظهر من بين احدى دوائر الأشجار ، وتقدم نحوها وهو يعرج وعندما وصل اليها أخيراً قال ، «اذا استطعت ان تكتشفي ذلك السيد النبيل في هذه الغابات فستكونين أفضل مني» .

- «يا سيد غرينليف» ، قالت «إذا اقتضى الأمر فاني سأرافقك إلى تلك الغابات ،

ونمكث طيلة بعد الظهيرة حتى نجد ذلك الثور ونطلق النار عليه ، وعليك أن تطلق النار على هذا الثور حتى لو اقتضى الأمر ، أن أضغط أنا بنفسي على الزناد» .

عندما رأى جدية قصدها قرر أن يعود وبسرعة ، ويطلق النار بنفسه على الثور .

عادت إلى السيارة وقادتها ، إلى وسط المرعى بحيث لا يضطر إلى المشي طويلاً في الوصول اليها .

تخيلته في هذه اللحظة يجلس على عقب شجرة خارج الأحراش يرسم بعصاه خطوطاً على الأرض ، فقررت أن تنتظر عشر دقائق بالضبط وفقاً لساعتها ثم تعلق بعدها بوق سيارتها . غادرت السيارة ومشت قليلاً هنا وهناك ، ثم عادت وجلست على صدام السيارة الأمامي لتستريح ، وتنتظر . فقد كانت متعبة جداً . ألقت برأسها على غطاء محرك السيارة وأغمضت عينيها .

لم تفهم لماذا هي متعبة هكذا مع أن الوقت ما يزال منتصف فترة الصباح؟ . كانت تشعر أثناء اغلاق عينيها بأن الشمس حمراء حامية فوق رأسها ، فتحت عينيها بوهن لكن الشعاع الأبيض آجبرها على اغلاقهما مرة أخرى ، وبقيت لبعض الوقت ملقية برأسها على غطاء محرك السيارة ، وهي مغمضة العينين مندهشة من سبب شعورها بالتعب هكذا ونعسة وعيناها ثقيلتان .

لم تكن تفكر بتقسيم الزمن إلى أيام وليالي ، بل إلى ماضٍ ومستقبل واستقر رأيها على أن تعبها يعود إلى عملها الدؤوب ، وبصورة مستمرة طيلة خمس عشرة سنة ، فحسمت الأمر بأن معها كل الحق في أن تشعر بالتعب ، وأن تستريح لبضع دقائق قبل أن تبدأ العمل مرة أخرى . وأمام أية هيئة قضائية ومن أي نوع تستطيع أن تقول :

«لقد عملت ولم أتعثر ولم تفسدني النعمة» .

في هذه اللحظة بالذات وبينما هي تستذكر عمر عملها ، كان السيد غرينليف يتسكع في الغابات ، وربما كانت السيدة غرينليف منبطحة على الأرض تنام على حجر مليء بالقصاصات فقد ساء وضع المرأة مع مرور السنين واصبحت السيدة ماي تظن بأنها الآن قد فقدت عقلها فعلاً .

- «أنا خائفة من أن زوجتك قد جعلت الدين ينحرف بها من السبيل» ، قالت

ذلك بلباقة ذات مرة للسيد غرنيليف «يجب أن يكون كل شيء باعتدال ، انت تعرف» .

- «لقد عالجت رجلاً ذات مرة كانت الديدان قد أكلت نصف احشائه» ، قال السيد غرنليف ، فغدت الآن نصف مريضة وفكرت ببساطة في هذه الأرواح المسكينة طيلة الدقائق ، التي غفت فيها عيناها وعندما نهضت نظرت إلى ساعتها فوجدت أنه قد مر أكثر من عشر دقائق ، ولم تسمع أي صوت لاطلاق النار . خطرت ببالها فكرة جديدة : لتفرض أن السيد جرينيليف قد استثار الثور بضرب الحجارة ، ثم استدار الحيوان نحوه على غير توقع وحشره إلى شجرة وغرز قرنه فيه ، ؟فان سخرية الأقدار ستتعمق : حينئذ سيقوم أو . ت . و أي . ت . بتوكيل محام مشبوه يقوم بأسلوبه الملتوي ، برفع دعوى ضدها ومقاضاتها وقد تكون هذه نهاية ملائمة للخمسة عشر سنة التي قضتها مع آل غرينليف .

وجدت متعة في التفكير بهذه القصة ، وكأنها عثرت على نهاية مناسبة لقصة كانت تسردها على اصدقائها . الأ أنها طرحتها جانباً لأن السيد غرنيليف لديه بندقية ولأن لديها بوليصة تأمين .

قررت أن تطلق بوق السيارة فنهضت ، ومدت يدها عبر نافذة السيارة ثم اطلقت البوق ثلاث مرات طويلة ثم اثنتين أو ثلاثة أقصر لتشعره بأنها قد فقدت صبرها .

عادت وجلست على صدام السيارة الأمامي ، وبعد بضع دقائق ظهر شيء ما من بين خط الأشجار ، شيئاً ذو ظل أسود ثقيل هز رأسه عدة مرات واتجه بعدها إلى الأمام ، وبعد ثانية رأت أنه كان الثور . كان يقطع المرعى باتجاهها وكان يعدو بمرح وهو يتهزهز كما لو أنه قد امتلأ ابتهاجاً لرؤيتها مرة أخرى .

نظرت إلى ما وراءه لترى اذا كان السيد غرينليف قادماً من الأحراش أيضاً الا أنه لم يظهر .

صاحت أنه هنا يا سيد غرنيليف ونظرت إلى الجهة الأخرى من المرعى ، ربما يكون قادماً من هناك الا أنه لم يظهر ايضاً نظرت خلفها فرأت الثور يجري نحوها ، وقد أخفض رأسه مما جعلها تبقى ثابتة تماماً ليس في رعب ، بل في حالة جمود لا يصدق ، وحدقت في هذا الخط العنيف الذي يندفع نحوها كالبرق ، وكأنها فقدت

احساسها بالمسافات . أو أنها لم تحسم بعد ما هو مقصده ، ودفن الثور رأسه في حضنها مثل عاشق معذب ولهان .

قبل أن تتمكن من تغيير تعابير وجهها ، كان أحد قرنيه يغوص حتى يكاد ينغرس في قلبها ، بينما تقوس الآخر حول جانبها ورفعها باحكام في قبضة لا تكسر ، واصلت تحديقها إلى الأمام الا أن المشهد كله قد تغير امامها - فخط الأشجار اصبح جرحاً قاتماً في عالم لم يبق فيه شيء سوى السماء - صار لديها نظرة شخص استعاد بصره فجأة الا أنه لم يعد قادراً على احتمال الضوء . كان السيد غرينليف يجري نحوها من الجانب ، وهو يشهر بندقيته ، وقد رأته قادماً بالرغم من أنها لم تكن تنظر إلى ناحيته ، رأته يقترب خارج دائرة غير مرئية ، وخط الأشجار يتوارى خلفه ، ولا شيء تحت اقدامه . أطلق على الثور أربع رصاصات اخترقت عيناه . لم تسمع صوت اطلاق النار الأ أنها أحست بزلزلة الجسم الضخم ، وهو يهوي ويدفعها من فوق رأسه إلى الأمام . هكذا بدت عندما وصل اليها السيد غرينليف محنية فوقه كأنها تهمس في أذنيه ، شيئاً اكتشفته أخيراً .

١٩٦٠

لورنس سارجنت هول

الحيـــــد

عن «ذي هدسون ريفيو»

قبل شروق الشمس في صباح عيد الميلاد ، عانق صياد السمك زوجته الحنونة وغادر فراشه الملاصق لها . لم تكن راغبة في ذهابه ، لأن الوقت كان صباح عيد الميلاد . كان هو رجل ضخم وقاس وقوي جداً وكانت بهجته في الشتاء تكمن في اصطياد بط البحر ، الذي يطير ليقتات بجانب الحيدان الخارجية التي تتكشف عند انخفاض مستوى الجزر . عندما لامست أقدامه العارية الأرضية الباردة ، ولسع الصقيع البارد لحمه العاري ، كان يمكن أن يغير رأيه في ظلمة هذا اليوم الاستثنائي . كان يوماً من تلك الأيام التي يجب قضاءها في المنزل ، يجعل من الطبيعي التفكير في الحيدان الخارجية ، كمكان كان رائعاً للصيد في الماضي ، ولكنه كان قد وعد ابنه ، ابن الثالثة عشرة وابن أخيه ابن الخامسة عشرة الذي جاء من المناطق الداخلية للبلاد . ولهذا السبب أعطى كلٌ منهما هدية هي عبارة عن بندقية صيد آلية في الليلة السابقة ، ليلة عيد الميلاد ، ورغم معرفة الناس بصلابته ، وكونه لا يفسد أولاده بالدلال ، الا أنه حافظ على وعوده عندما فهم مقصدهم . وبالنسبة للأولاد كما هو الحال بالنسبة له ، فإن البيت يعني المكان الذي تستريح فيه بعد أن تكون قد ملأت يومك في عيد الميلاد عملاً واثارة .

كان يقف منفرج الساقين ونافر الذراعين ويمط جسده ما استطاع إلى الأعلى في الخلوة المعتمة ، في غرفة نومه ، وكانت أصوات الرياح العابرة ، وسط أشجار الصنوبر أعلى من أصوات الآحتجاجات المحكمة التي تطلقها زوجته ، كانت رياحاً شرقية تماماً ، كما كان الأولاد يأملون وكما حدس هو في الليلة السابقة . «ستكون الأحوال مثالية ، وعندما تكون هكذا فان على أي كان أن يستفيد منها» . ستكون الطيور في الجو ويمكن للأولاد أن يحصلوا على رياضة الرجال وكانت تلك هي المرة الأولى لهم في الخارج على صخور الجيد .

كان ابنه ذو الثالثة عشرة من العمر صغير الجسم ولكنه كان راسخاً ومتمرساً ، وكانت قوته تكبر في الصيد وهو يتخرج من المياه المحمية ، ومكامن الصيد على طول شواطئ الخليج الداخلي . أما ابن اخيه ذو الخامسة عشرة فكان صبياً مزارعاً أكبر من عمره ، ولديه حب أبناء المزارع للبحر . مع أنه لا يعرف شيئاً عن السباحة ، وغالباً ما يصاب بالمرض في الجو المتقلب ، ولهذا السبب اختار والده المزارع شقيق صياد السمك ، أن ينام ليلة العطلة في بيت أخيه . كثير من الأشخاص الذين كبروا في المزارع كانوا يصابون بصورة منتظمة بدوار البحر ، ولا يستطيعون السباحة . لكنهم لم يكونوا يخافون الماء ، ولا يمكنهم أن يحلموا بشيء سوى أن يكونوا صيادي سمك . أما صياد السمك نفسه ، فكان يسبح مثل فقمة ولم يمرض أبداً . وربما كان يفضل الموت عاجلاً على أن يكون شيئاً آخراً .

ارتدى ملابسه في الظلمة والبرد ثم أيقظ الأولاد بفظاظة ، فهرولوا باضطراب خارج أسرّتهم ، واستيقظت غرائزهم ، بينما بقيت أفكارهم تتحسس طريقها بنعسة كسولة ، وكانت زوجة صياد السمك تسمع من غرفة النوم اصواتهم بوضوح ، وهم يحاولون العثور على ملابسهم يتمتمون لبعضهم فرحين ونصف نائمين ، فيما ذهب زوجها إلى الأسفل حيث المطبخ الدافئ ، ليقلي بيضاً على شكل عيون . كان يعلم أنها هي الطريقة التي يحبها الجميع .

كانت تكره دائماً ذهابهم إلى الخارج في الشتاء ، فقد كان الطقس غرّارا . ولم يكن يوجد حولهم الا عدداً قليلاً من الناس ، يستنجدون بهم في حالة وقوع خلل ، الا أن ذلك لم يكن سوى خوف نساء مثير للضحك ولا يمكن أخذه على محمل

الجد . في بداية عهدهما بالزواج ، كانا يتشاجران كل خريف . لأنها كانت تحثه باستمرار على عدم ركوب القارب ، الا مع بداية الربيع .

كان معظم صيده يتم في الشتاء ، ورغم ان الأسعار كانت مرتفعة ، الا أن العواصف جعلت معدل تآكل مسننات القارب نتيجة الاحتكاك مرتفعاً . ومع ذلك فقد كان يبلي بلاءً جيداً ، ولم يكن هناك شيئاً تستطيع أن تفعله .

كان الناس يظنونه رجلاً صلباً ، لميله إلى المباهاة والفخر لأنه كان يعمل دائماً لوحده في البحر .

ولو كانت تلك حقيقة ، وكان أخوه من اولئك الذين شعروا بقوة انها كانت ، لعاشوا حياة أفضل من الآخرين ، ولكان لأخيه بعض الحق في الانتقاد . وكم مرّ عليها زمان في وحدتها؟ كان تتوق إلى تركه والبحث عن رجل آخر ولكن الأمر ، كان مشوب بالخطورة ، هكذا ومع السنين ، تعلمت أن تغلق ذهنها أمام مسيرته القاسية وتعزّي نفسها ما استطاعت من قدراته غير العاطفية .

مرّة أو مرتين ، ربما تمادى بها الظن الآثم إلى التفكير كيف سيكون حالها لو أصبحت أرملة .

كان فكرة أن ابنها لن يكون متبلد الشعور ، مثل والده بسبب صغر سنه ، اضافة إلى قرقعة الأطباق ورائحة قلي لحم الخنزيز المقدد في المطبخ ، بالطابق السفلي المغلق عن باقي أرجاء المنزل الباردة ، قد أعادت اليها الشعور بالدفء والراحة ، الذي كان يراودها قبل أن تصبح وحيدة في فراشها . سمعتهم بعد فترة يخرجون ويغلقون الباب الخلفي ، وسمعت صوت الجليد ، وهو يتهشم جافاً تحت أحذيتهم بالقرب من نافذتها وصوت زوجها الحاد والساخط ، وهو يوجه الأوامر إلى الأولاد . ارتعشت رعشة خفيفة تحت غطائها الدافئ ، واسترقت السمع إلى صوت ابنها ، وابن أخيه وهما يتحدثان بابتهاج ، ولمرتين لمحت خيالهم تحت الضوء الساقط على السقف الأبيض ، فوق النافذة بينما كانوا يجتازون الممر إلى الشاطئ . سيكون هناك صقيع فوق الزورق والجماد عند حافة المياه . لقد اعتادت هي نفسها على الصيد بالبندقية عندما كانت صغيرة . ولكن بدا لها الآن ان أي شخص يمكنه الخروج للصيد ، هكذا في صبيحة عيد الميلاد لا بد أن يكون ذكراً بلا منازع .

لن يفكر أحد منهم بشأنها حتى يعودوا ويكدسوا لها الطيور التي اصطادوها ، فوق المغسلة لكي تقوم باعدادها .

شقت سمعها وسط برودة الفجر الهادئ اصوات قرقعة العارضة الخارجية التي تفتح لهم الطريق ، باتجاه القارب وتوقف الصوت فجأة كما بدأ .

بعد دقيقتين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة بدأ المحرك الضخم ، يهدر بصوت مطمئن ودافئ ، كان لديه أفضل المعدات وكان يبقيها دائماً في أفضل حالة ، أغمضت عينيها ، لن ينقضي وقت طويل قبل أن يحضر الآخرون للاحتفال بعيد الميلاد ، بدأت دندنة العادم الصيفي على القارب تتعمق ثم تلاشى الصوت تدريجياً مع الريح إلى أن ضاع في البحر وعادت هي إلى النو م .

اشتغل المحرك في الحال رغم تدني درجة الحرارة ، وهذا ما جعل صياد السمك يبدأ نهاره بمزاج جيد ، كان فخوراً بقاربه ، قام هو والولدان بتوجيه مؤخرة المركب ، وتمريره بأمان بين باقي السفن ، انطلق ابنه على طول سطح المركب متقزح اللون ، تحت أشعة الضوء وتألق ابن أخيه عبر مصد الريح ، وأرخى المرساة ملقياً بها إلى أعماق الظلمات .

أما الصياد فأدار الزورق إلى اليمين والقى نظرة على البوصلة ، ثم انطلق يشق عباب اليم نحو الخليج النائي .

سوف تكون الرؤية كافية تماماً مع وصولهم إلى الرأس ، للابحار عبر الممرات اللعينة الملتوية بين الجزر ، وكانت هذه تشكل الامتداد المائي القذر الوحيد . كان صياد السمك يعبرها عادة في الضباب أو في الليل - وكان يقسم دائماً بأنه يستطيع أن يذهب إلى أي مكان في الخليج ، وهو معصوب العينين - ولكن لم يكن هناك ما يدعو للمغامرة حين لا يلزم الأمر ذلك . ومن مدخل القناة كان يستطيع أن يمضي بخط مستقيم ، نحو جزيرة البقرة البنية ويرسي القارب ، بعيداً عن الأنظار خلفها ، ثم يقوم ثلاثتهم بتجهيز طعمهم في القارب مسافة ثلاثمائة ياردة بعيداً عن حدبة جبل الشيطان باتجاه عمق البحر ، حينها يكون المد قد تراجع عن الحيد ويصبح بامكانهم ان ينزلوا إلى اليابسة ويستعدوا للصيد في منتصف المد .

كان الوقت باكراً ، وكان عيد الميلاد ، وكانوا قد وصلوا إلى أبعد مكان يمكن أن

يصل اليه معظم الصيادين في هذا الفصل من السنة الموشكة على الانتهاء ، لذلك كان متأكداً من أنه لا يوجد أحد يستطيع أن يسبقهم على كسب الغنائم ، هناك اصطاد آلاف الطيور أيام عنفوانه ، كانت الحدبة تشكل أفضل مكان للصيد ، والشيء الوحيد الذي كان عليك أن تفعله هو أن تخطط للظروف الملائمة لأنك لا تملك الكثير من الوقت . أربع ساعات فقط ، كان هذا كل الوقت ، وعليك أن تنتهي من الصيد قبل الساعة الثالثة من بعد الظهر ، عندما تغادر الطيور إلى عرض البحر قبل حلول الظلام .

لقد خططوا تماماً لهذا اليوم ، لن يغوص الحيد ثانية إلى الأسفل الا بعد الانتهاء من الصيد ، وسوف يعودون إلى العشاء في البيت في أوان جيد ، وبقليل من الحظ يمكن أن يكون لدى الأولاد حمولة قارب من الطيور يتباهون بها في المرة الأولى ، التي يخرجون فيها للصيد ، أكثر بكثير من الكمية المسموح بها قانوناً . ولكن هذه المسألة لم تكن تؤخذ بعين الاعتبار . فعليك أن تأخذ كل ما يمكنك الحصول عليه في الحياة ، والأ فان الرجل التالي سيحصل عليها دونك .

لم يفشل صياد السمك أبداً في الحصول ، على الصيد من حدبة الشيطان ، وتملكه احساس بأن هذه الرحلة ستكون غير عادية ، فالرياح الشرقية ستهب بقوة كافية ، كما أن المد ملائم تماماً وستهب العواصف في صباح الغد ، وهكذا ستكون الطيور في حركة دائمة ، لقد كانت الأمور تجري على ما يرام .

يوجد في عظامه ذلك العنف القديم ، كانت عيناه تراقبان الجو والضباب والظلام ، فيما يده تعمل على دفة القيادة .

مدّ يده إلى الأولاد وصفعهم مداعباً بينما كانا واقفين قريباً من حرارة ماسورة العادم التي تمر من وسط المركب ، ردوا عليه وصراخهم يعلو على صوت الماكينة ، اذ كانوا يضعون الرهانات كما كانوا يفعلون دائماً على من سيقوم بصيد طيور أكثر ، كانت تثيرهم تلك البنادق الجديدة التي تعد أفضل ما يمكن للنقود أن تشتري من البنادق ، وتلك الوقفة التي يقفونها على أرضية صيد الرجال . اقترب منهما كلب الصيد وهو يهز ذيله وينبح ، كان عجوزاً ومصاباً بالتهاب المفاصل ، وهذان كانا أمران كافيين لعدم ولوجه إلى مياه كانون الثاني ، الا أنه كان سعيداً لأنهم أحضروه معهم .

تلمّس جيبه بحثاً عن الغليون ، وفجأة اهتزت معنويات صياد السمك عندما اكتشف بأنه ترك تبغه في البيت . وتركته فكرة قضاء يوم كامل بدون تدخين في وضع لا يطاق ، فتش ملابسه ثم فتشها مرة أخرى غير قادر على أن يصدق بأن تبغه ليس في مكان ما .

عندما تساءل الأولاد عن الشيء الخطأ ، الذي حصل وجه اليهم اللوم غاضباً لأنهم كانوا مخطئين في اتباعهم بعض الطرق الملتوية .

خاب أملهما فجأة وقررا أن يعودا لاحضار التبغ ، فقد أدركا من خلال سخطه ماذا يعني له ضياع التبغ . رفض بمرارة لأن ذلك سيخرج كل شيء عن نطاقه فقد كان رجل يحب فعل الأشياء بالطريقة التي أعدها لذلك .

عض على غليونه باسنانه ، ولمرتين أخريين نقّب في ملابسه خلال الدقائق القليلة التالية ، وهو غير مصدق . لم يكن رواقي المسلك . وفي لحظة استرخاء ، فكر أن ينقل وجهة صيده إلى مكان قريب من البيت ، ولكن بدلاً من ذلك تابع طريقه وأخذ نفساً من الغليون الفارغ معزياً نفسه بفكرة ، أنه على الأقل لديه ما يكفي من الويسكي إذا بلغ الوضع درجة من الصعوبة وعدم الراحة على الحيد . أمر الأولاد بشكل صارم ان يدققوا للتأكد من أن الزجاجة موجودة في حقيبة الظهر ، مع الطعام حيث كان قد وضعها ، وعندما طمأناه عن وجودها هانت مصيبته بعض الشيء . كان حكم الصياد صحيحاً كالعادة ، ففي الوقت الذي أصبحوا فيه جنباً إلى جنب مع رأس الخليج ، كان هناك ضوء كاف يمكّنهم من تغيير اتجاه القارب والسير خلال سلسلة الصخور بدون تخفيف السرعة . وأخيراً وجه المجاذيف الأمامية باتجاه المحيط المفتوح ، وعندما شق فجر الشتاء عالياً عبر أعمدة طويلة من الغيوم على الطرف الشرقي ، ارتفعت معنوياته مرة أخرى .

فتح الصمام واستقر على وجهة سيره بعد أن اسقط من حسابه الساعتين الماضيتين ، الهواء الآتي من البحر قوياً ، ولكنه كان يبدو أقل برودة . والأؤلاد قد انسحبوا بعيداً عن صياد السمك وراحا يتحدثان مع بعضهما البعض ، وهما يراقبان السماء من خلال النوافذ . اضطرب القارب عبر موجة قصيرة متلاطمة ، تقذف الرذاذ بقوة حول مجدفاته الأمامية اللامعة . في الخلف تضاءلت حدود الرأس حتى

أصبحت مثل عتبة باب سوداء فوق المياه الرمادية . لم تظهر أية بواخر اخرى من بعيد .

ربت الوالدان كلٌ على بندقيته ثم نظرا من خلال سبطاناتها وحركا النوابض ، وتبادلا الملاحظات ، ثم أخذا يتباهان ويتفاخران وكل منهما يعطي الآخر نصائح متناقضة . لفت انتباههما صياد السمك لمرة واحدة مشيراً إلى الأفق ، فحدّقا من خلال النوافذ وشاهدا ما يشبه الغشاء الأسود يطفو على سطح الماء الرقيق المتموج . كان يدور أحياناً ثم ينقلب ويتموج وينعطف ، وبعد ذلك ينهض لينتظم في سلسلة يصبح بعدها سرباً ضخماً من البط يهرب فوق البحر . كانت تلك علامة جيدة . اندفع الولدان إلى الخارج ثم انثنيا فوق الواح صد الأمواج وسط الريح ليشاهدا السرب ، وهو يتحرك بطريقة لولبية تحت الأفق ثم عادا يحومان حول المحرك الساخن ويندبان حظهما . ليتهما كانا في الخارج مستعدين ، قد تكون هذه البطات مجنونة ، إلى حد أن ترجع فيما بعد كي تذبح ، فالمعروف عن البط أنه أحمق . ووفقاً للبرنامج المعد والوقت المحدد ألقوا مراسيهم ، في منتصف فترة الصباح على الجانب المحجوب عن الريح من جزيرة البقرة البنيّة . ووضعوا الزورق الصغير على السطح ، وشحنوه بالبنادق وحقائب الظهر والطعم ، وعبر الأولاد عن حماسهم بطريقة خرقاء ، فيما بدت تعابير صياد السمك رديئة المزاج ومعاملته سيئة ، مما دفعهم إلى التزام الصمت راضين باستيعاب تحملهم كونهم أولاداً ، وقد عزو الأمر إلى افتقاره للتبغ بدون شك .

دارو حول الجزيرة بزورقهم ، وحددوا الجهة المطابقة للشرق في اتجاه سلسلة من الزبد كانت تلون سطح الماء باللون الأبيض على بعد ثلاثمائة ياردة ، ثم وضعوا الأشراك فوق سطح الماء على شكل حرف «V» متباعد الطرفين ، وحذرهم صياد السمك من أن تتبلل أياديهم ، وعندما تبللت أجبرهم على المتابعة باصابع حمراء متألمة حتى يأخذوا عبرة من هذا الدرس ، وما أن أتموا وضع آخر شرك خفيف ومغر كما بدا وضعوا اصابعهم المتخدرة تحت معاطفهم الواقية من الماء حتى يدفئوها على أجسامهم . في نفس الوقت انحرف صياد السمك بالقارب في اتجاه رقعة الزبد ، وبدا الأمر كأنه من فعل ساحر ، فقد ظهر الحيد وهو يشق بطن المحيط مثل ضلع اسود لامع من الأرض .

بعناية لبسوا اخفافهم المعقودة الخاصة بقارة امريكا الشمالية ، بينما كانت أمواج الأطلسي المرتفعة تتلاطم وتلتف كالدوامة ، كما ظلت تفعل دائماً عبر الدهور ، وترتطم بالحواف التي لا تقهر . سحبوا القارب خلفهم واراحوا اجسادهم بقدر ما يستطيعون في مستنقع ضحل مرتفع ، واستلقوا على جنوبهم واقدامهم فوق مستوى الماء وبنادقهم بأيديهم وراحوا ينتظرون .

بعد مضي بعض الوقت ، تناول صياد السمك ثيرموس زجاجي من حقيبة الظهر ، وشربوا ثلاثتهم القهوة ، وانتظروا الاشراك المتداعية كي تغري اول فوج من البط بالطيران نحو الصخرة ، ومع مضي الوقت أحس الأولاد بالجوع والضجر ، فتركهم صياد السمك يفتحون حقيبة طعام الرحلة وتناول كل منهما شطيرة تقاسماها مع الكلب ، أما صياد السمك فلم يأكل شيئاً بسبب عدم وجود تبغ لديه .

في الواقع اليوم لطيفاً نسبياً ، وأصبحوا الآن يتمتعون بالدفء الكافي داخل ملابسهم الصوفية وجواربهم ، وتحت معاطفهم الواقية من البلل وأحذيتهم الطويلة .

بعد فترة بدأ الأولاد يشعرون بالضيق وقد تعبت أعصابهم من قلة النشاط ، أخذ ابن الأخ يتذمر ولكنه جوبه بتعنيف شديد من الصياد - الذي أشار إلى الكلب الرابض بدون حراك عدا عيناه المحاطتين بالبياض - ان أحد أقسام علم الصيد عند الرجال هو أن تتعلم كيف تنتظر . ولكن أخذ يساوره الشك في أن هذا اليوم قد يكون واحداً من تلك الأيام ، التي تختبئ مشاكلها العديدة تحت قناع من الظروف الجيدة . لو صياد السمك كان لوحده كما هي في العادة يقف بعيداً ، عندما تقتضي الظروف الضرورية لتوافق حدوث المد مع وقت عودته إلى البيت وسحبه للاشراك ، ولو كان يملك مقداراً كافياً من التبغ لما شعر بالقلق ، لكن عصبية الأولاد جعلته عصبياً أيضاً . عنّفهم مرة أخرى وقال : عندما يأتي الحظ يأتي كله مرة واحدة ، ثم ينتهي الأمر في لحظات . وحذرهم من التراخي والكسل ، طالباً منهم بأن يبقوا على جاهزيتهم . تحمل الأولاد عذابهم بصمت ، ولكنهم لم يستطيعوا وتحت وطأة تعنيفه التوقف عن التلوي والتحرك إلى أن فقد صبره تماماً واجبرهم بقوة على الانبطاح بهدوء ، لأن البط يستطيع أن يرى رمشة الجفن ، واذا كان الكلب يستطيع أن يبقى بدون حركة ، فهم أيضاً يستطيعون ذلك .

«ها هي جاءت» قالها أخيراً صياد السمك بشكل مهذب .

اهتز الأولاد للفرج السريع ، فقد جاء السرب هابطاً مع الهواء على شكل أرباع وبأعداد ضخمة ، اسود اللون سريع الطيران .

- «لطيف» تنفس ابن صياد السمك الصعداء .

- «حسناً» ، قال صياد السمك بصوت حاد وعنيف «سددوا طلقاتكم على الأفراد في أكثف مكان من السرب ، وانتظروني حتى أطلق النار بعدها . لا تتوقفوا عن الاطلاق حتى تفرغ بنادقكم» .

ثم تدحرج على كوعه الأيسر وأفرد رجليه حتى يثبت نفسه ، اندفع السرب إلى الأسفل على شكل سهم متذبذب ولكنه غير اتجاهه على بعد مئة يا ردة من الاشراك .

- «انها تذهب» صاح الأولاد .

- «ليس بعد» رد صياد السمك بنزق «انها تلتف» .

غيّر السرب من تشكيله والتف على نفسه ثم اندفع في الهواء على شكل قوس مشدود .

- «آلاف» هسهس الأولاد من بين اسنانهم .

وفي الحال هبت عاصفة من الصفافير بيضاء وسوداء وارتطمت بالاشراك .

- «الآن» ، صاح صياد السمك «ممتاز» ، ثم فتح النار على السرب الذي دبت في صفوفه فوضى لحظية بمجرد أن حط فوق عوارض الاشراك . وسحب الثلاثة ازناد بنادقهم ، وغاصت الطيور في الماء وتبعثر السرب حتى لم يعد يسمع له صوت ومرت الأسراب الأخيرة فوق أكتافهم بلا مبالاة ثم تبددت وراحت تتناقص وتتناقص من كل ناحية .

القى الأولاد بنادقهم ، وقفزوا بابتهاج شديد ، وتسلقوا القارب بعجلة .

- سأعالج ذلك القارب» صاح عليهما صياد السمك فتوقفا .

أمسك الحبل الذي يربط القارب ، باحكام ووازن نفسه ثم ادار القارب نحو مؤخرته وأمسك بالمجداف وجدف بقوة بعكس سلسلة الصخور ، حتى استقر القارب فوق سطح المياه .

- «امكث هنا» ، قال لابن أخيه ، لا يوجد معنى لذهابنا ثلاثتنا في القارب .
حدق الولد الواقف فوق الحيد مشدوهاً في المياه الرمادية ، وهي ترتفع وتهبط على طول الحافة المتلألئة وقد انخفضت أكثر منذ وصولهم .

- «أريد أن اذهب معكما» ، قال بنبرة حزينة وكانت عيناه مثبتتان على الدوامات تموجة .

- «عليك أن تلتزم بما أقوله لك اذا رغبت في أن تصطاد معي» .

أجابه صياد السمك بخشونة .

لم يكن الولد يستطيع السباحة ولم يكن يدعه ليتسلق إلى داخل القارب وخارجه الا إذا اقتضت الضرورة إلى جانب أنه كان ضخم الجثة . أخذ صياد السمك ابنه في القارب ، وراح يطوف بين الاشراك ويلتقط الطيور الميتة في حين كان الولد الآخر واقفاً بدون حراك ، يحدق خلفهم من على أعلى جزء في الحيد .

وقبل أن ينتهيا تماماً من جمع الطيور الميتة ازاح صياد السمك اللوح الخارجي وغاص حتى ركبتيه في القارب .

- «الى الأسفل» ، صرخ «انزل إلى الأسفل» ، مرت دزينة من الطيور وهي تحوم باتجاههم «اطلق النار - اطلق» صاح ابنه من قاع القارب على الولد الواقف على الحيد .

أما الكلب فقد ظل يركض جيئة وذهاباً وهو يعوي حتى وصل الماء إلى معدته ، وبقي واضعاً أنفه وفكيه فوق مخالبه الأمامية . لكن الولد فوق الحيد لم يتحرك ، وانحرفت البطات جانباً ، ثم طارت في الهواء بعد أن التقطت الانذار متأخراً . وعبرت وصوت طنينها لا يتجاوز الخمسين قدماً فوق رأس الولد الذي بقي مجمداً ،على الحيد كالتمثال بدون بندقية ، يراقب الآخران وهما يجثمان فوق المركب .

تسلق ابن الصياد على الحيد ممسكاً بالحبل ، وكان قاع المركب مغطى بأجسام ذات ريش أبيض وأسود وأرجلها إلى الأعلى ، واعناقها تتدلى ، كان في غاية السعادة .

- «لقد حصلنا على سبعة وعشرين» ، اخبر ابن عمه «كيف ذلك؟» تسعة لكل واحد «ولد» ، وأضاف يا لعيد الميلاد الرائع . سحب صياد السمك القارب وانبطح الثلاثة مرة أخرى ينتظرون طيران السرب التالي . اعاد الابن تعبئة بندقيته واحتضنها

بحنان .

– وقال «سوف أحصل على عشرة في المرة التالية» ثم سأل ابن عمه» ما المشكلة
– الم ترَ الطيور؟» .

– «نعم» قال الولد .

– «لماذا لم تطلق عليها النار؟» .

– «لم أشعر بميل لذلك» أجاب الولد وما زالت مسحة الحزن بادية على وجهه « هل أنت غبي أو شيء آخر؟» .

– «يا لأهل الجبال» رد ابن صياد السمك بذهول .

لم يقل صياد السمك شيئاً فقد عرف أن الولد الكبير قد أصيب بما يسمى حمى الحيد .

– «بالمسيح» استمر ابن صياد السمك يقول «كنت أحاول على الأقل» .

– «اخرس» ، قال له صياد السمك «واتركه في حاله» .

عادت ثلاثة أسراب أخرى بخط مستقيم واحدة تلو الأخرى في اتجاه المياه الراكدة . وعندما انتهوا منها كان القارب قد أصبح نصف ممتلئ بالطيور الميتة التي تم جمعها .

كانوا خلال تلك الفترة اللاحقة من الهدوء قد التهموا ما تبقى من الطعام واتوا على القهوة الساخنة . عض الصياد على غليونه عضة طويلة ثم تناول جرعة كبيرة من الويسكي .

أمضى الأولاد الوقت راضين يثرثرون حول من اصطاد أكثر

– كان هناك اثنان وتسعون طيراً باتفاق الجميع – من من اصدقائهم سيرون البطات الكبيرة ، كم يستطيع كل منهم أن يأكل في الوجبة الواحدة شريطة أن لا يتناول شيئاً من الخضار؟ كانوا يسمعون من حين لآخر اصوات اطلاق نار متقطع بعيداً على الأرض الرئيسية ، عند أقرب نقطة لهم تبعد مسافة ميلين ناحية الشمال ، ومن بعيد شاهدوا قارب صيد سمك يعود باتجاه منزلهم .

بعد ذلك اخرج صياد السمك يده من داخل معطفه ، وابرز ساعته .

– «هل نستطيع أن نعود الآن؟» سأل الابن :

- «ليس بعد» ، اجاب «قريباً» ، لقد سار كل شيء على ما يرام .

كان قد ملّ من ثرثرة الأولاد ، لذلك نهض بتثاقل وتمطى . تغيرت حالة المد ، وبدأ الجزر وأصبحت السماء أكثر رمادية ، وانتعش الهواء حتى بدأ يفكك زبد الموج . قد تمر ساعة جيدة قبل أن يبدأوا بتفكيك عوارض الاشراك ومغادرة الحيد ، على كل حال فقد خمّن بأنهم سيغادرون أبكر قليلاً . وأمام هبوب الرياح ساوره الشك ، بأن يقدر على المزيد من ا لصيد . أخذ يخطو بحذر على طول مؤخرة الحيد ليفكك فتائله كما أن البرودة ازدادت في الجو .

أخذ الويسكي مفعوله في تدفئته ، لكنه لم يتوقع ذلك الوهج المفاجئ ، الذي لمع بداخله من معدته وحتى رأسه ، كان حينها واقفاً ينظر إلى الرف الصخري ، حيث يقف القارب ولكن القارب الأحمق لم يكن هناك . وللمرة الثانية في ذلك اليوم ، أحس صياد السمك بمدى عمق بلاهة الجحود ، حدّق فاغراً فاه ولكنه لم ير شيئاً سوى السطح المنبسط للرف الصخري ، لف واتجه ناحية الأولاد فزلت قدمه الا أنه تمالك نفسه ودار دائرة كاملة وحدق في فراغ الرف الصخري ، الذي لم يكن يتخيله ، فقد جعله فراغ الرف يشعر كما لو أن كل شيء فعله في ذلك اليوم ، وحتى الآن ، وكذلك في حياته كان كله حلم : ماذا يمكن أن يكون قد حدث؟

المد لا يزال منخفض لمسافة قدم تقريباً ، لم يعد من الممكن التحدث عن وجود بحر ، وبالكاد يستطيع القارب أن ينزلق من تلقاء نفسه . لقد كان طوال حياته حذراً واعياً ومتمكناً ، الا أنه لا يستطيع الآن أن يتذكر كيف سحب القارب آخر مرة؟ ربما في حمأة اطلاق النار كان قد تركه بيد الولد ، ربما أنه لا يستطيع تذكرمتى كانت المرة الأخيرة .

- «يا مسيح» ، جأر بصوت عالٍ دون أن يدرك ما يقول لأنه كان مسلوب اللب من هذا الحدث الخفي إلى حد بعيد .

- «ما الخطأ يا أبي؟» ، سأله ابنه وهو ينهض على قدميه .

انقلب صياد السمك إلى شخص أعمى غير قادر على كبح جماح غضبه ، الشديد «عد إلى الأسفل هناك إلى حيث تنتمي» ، صرخ الصياد وبالكاد لاحظ عمق انذهال الصبي ، ثم ركض كالمجنون على طول الحيد ظاناً أن القارب يمكن أن يكون ،

قد أبحر إلى مكان آخر على الرغم من أنه يعلم جيداً بأنه لم يكن هناك مكان آخر .

تعثر وسقط نصف سقطة ، ثم رجع إلى الأولاد الذين كانا يحدقان فيه ببلاهة ، وبذعر وكأنه اصيب بمس من الجنون «عليه لعنة الله» صرخ بوحشية وأمسك بهما وجذبهما على ركبهما «انهضا على اقدامكما!»

- «ما الخطأ» اعاد ابنه السؤال بصوت مخنوق .

- «لا يهم ما هو الخطأ» زأر» ابحثا عن القارب - انه يطفو من غير مرساة» .

وعندما حدّقا فيما حولهما امسك كتفيهما باحكام ووحشيته ، ووضع وجهيهما في الاتجاه المعاكس لمسقط الرياح ثم ضرب بقبضته على فخذه بعنف .

- «يا مسيح» صاح وقد جن جنونه من حماقتهم .

أخيراً رأى بنفسه القارب يتهادى بسحر كالشرك في عرض البحر المتجهم ، كان على بعد ربع ميل باتجاه الريح على الخط الموصل للبيت مباشرة . دب فيه اندفاع بأن يتعرى ، ويلحق بالقارب ولكن ذلك اعقبه هدوء غريب ، فقد جلس ببساطة فوق الحيد ونسي كل شيء ما عدا هذا الغموض العجيب . وعندما عاد اليه ادراكه بصورة جزئية ، نظر بطرف عينه ناحية الولدين ، الذي كانا يُراقبان القارب بصمت ، وحدق بعد ذلك في عيني ابنه الصغيرتين الصافيتين .

- «أبي» سأل الولد بثبات «ماذا سنفعل الآن؟» .

جعله هذا السؤال ينهض . وسمع نفسه يقول «أول شي علينا أن نفعله» بدقة مطلقة كما لو أنه كان يمارس الحب ، « هو أن نفكر» .

- «هل تستطيع أن تسبح اليه؟» سأله ابنه .

هز رأسه وابتسم لهما . فابتسما بسرعة ، بسرعة كبيرة جداً . - «مئة ياردة ربما في هذا الماء ، انا أتمنى لو أستطيع» أضاف : لقد كان أكثر شيء حميمية وجديراً بالشفقة قاله أبداً .

دار حولهم عدة مرات محاولاً كسر القمقم الذي تقوقع عقله فيه .

ثم قام بقياس مستوى الماء ، كان يبدو راكداً بالنسبة للناظر بالعين بارتفاع ستة انشات ، عن الرف الصخري في هذه اللحظة . لم يكن صياد السمك بحاجة لوضع علامة على جانب الصخرة مقابل الوقت ، لكي يثبت لنفسه أن الماء يرتفع ويرتفع

دائماً . فالأمر اصبح حالياً وراء مقاييس المنطق وهوامش التفكير .

طوال حياته كان صياد السمك ، يحاول أن يذلل عنصر الوقت : كأن ينهض باكراً ليعود بعدها إلى فراشه متأخراً ، وأن يمتلك قارباً سريعاً ، وأن يكسب من النهار أكثر من احتماله ، أو يعمل قبل أن يحين أجله بوظيفة واحدة أخرى ، وإذا كان أوهم نفسه في بعض الوقائع النادرة بأنه قد تغلب على الوقت فان عليه الآن أن يشحذ كل مواهبه واحتياطاته من الخبرة والبراعة .

قدّر حجم المسافة ، ولكن ثلاثمائة ياردة إلى جزيرة البقرة البنية لن ترحمه اضافة إلى مئة ياردة أخرى فوقها يرسو خلفها قاربه البخاري . لو كان في وسعه لامتلك فاتوميتير لسبر أعماق البحار وكشف سترها ، أو راديو يستطيع بواسطته وبوقت قصير سماع صوت زوجته تتحدث اليه وعلى الهواء بشأن العودة إلى البيت .

- «ألا نستطيع التلويح بشيء ما لعل أحداً ما يراه؟» اقترح ابن الأخ . دار صياد السمك بسرعة «اشحنوا بنادقكم» ، وجه أوامره .

جهزها الصبيان كما لو أن الهواء قد اهتاج بالطيور .

- «سوف أطلق طلقة واحدة ثم اعد إلى الخمسة وعندها اطلقوا النار ، وعدوا إلى الخمسة ، بهذه الطريقة سوف يعرفوا بأن مطلق النار يصيد البط ، وسوف نستمر في عمل ذلك» .

- «لم يبق لدينا سوى صندوقين ونصف من الذخيرة» ، قال ابنه : هز صياد السمك رأسه ، فقد كان يعلم من البداية إلى النهاية أن موقفهم هو موقف حسابي مطلق مثل دقات منبه الساعة في غرفة نومه الهادئة . اطلق النار فوثب الكلب الذي كان يراقب الاشراك . اشتغل ثلاثتهم بالعد ، وباطلاق النار كل بدوره . ثم أعادوا شحن بنادقهم . مسح صياد السمك الأفق أولاً ثم تفحص بنظره الحدود الضيقة للحيد ، وهو المكان الوحيد الذي كانت المياه تبدو وكأنها ترتفع فيه ، وعاجلاً سوف ترتفع فوق الرف الصخري . عادوا للعد مرة أخرى ثم أطلقوا النار في الجولات الخمسة الثانية .

- «سوف نستمر حتى الجولة الأخيرة» ، ابلغ صياد السمك الأولاد . ثم جلس وفكر ملياً ، كم كان المركب شيئاً تافهاً؟ فقد أتم صنعه هو والصبي معاً في يوم واحد

كأنه بندقية مصنوعة للقتل .

أخذ ابنه في عد الرفوف الصخرية المتبقية ثم قسمها إلى مجموعات ، كل مجموعة ثلاثة أقسام ، حتى الصخرة التي تحطم فيها الصندوق المبتل «لقد غطى الماء قسمين» ، صاح معلناً ذلك .

أعادوا تجهيز البنادق ووضعوها على ركبهم .

خلف الغيوم السميكة لم يكن باستطاعتهم رؤية هبوط الشمس . وأخذت مياه المد المرتفع تصبح أكثر سواداً .

فكّر صياد السمك بأنه ربما قد أبلغ زوجته بأنهم سيكونون في البيت قبل حلول الظلام سيما ، وأن اليوم عيد الميلاد ، وأدرك أنه نسي كونه يوماً مميزاً . لن يصبح المد مرتفعاً الا بعد مضي ساعتين من غروب الشمس ، وحين لا يعودون قبل حلول الليل ، لا يلتقطهم أحد بالراديو ، عندها ربما ترسل أحداً ليبحث عنهم على الفور ، نبذ هذه الحسبة في الحال وهو يشعر بصدمة مغيثة ، مستذكراً أن المدة الباقية هي ساعتان ونصف على أحسن الأحوال ، خطر في باله بأنها قد ترسل أحد الأشخاص القريبين منهم على الأرض الرئيسية ، لأنها قد تخمن بأن لديه مشكلة في المحرك . نهض واستكشف خط الشاطئ ، الذي كان بالكاد مرئياً ، ثم وقعت عيناه على الشاطئ الصغير عند حواف الحيد ، الحيد المنكمش الذي اصبح أكثر شؤماً من القارب ، وصار يُعزُّ دقيقة أثر دقيقة وكأن العالم الذي يحدق فيه بكل اتساعه من الأفق إلى الأفق تركز فوق هذه الحافة الآخذة بالانكماش .

فحص مستوى الماء وأحس برف الصخور وقد بدأت الأمواج تتلاطم فوقه .

أبلغ صياد السمك الأولاد بعض ما كان يختلج في فكره فتقبلوه بدون تعليق ، وحين التقط نظراتهم ، كانوا يحيدون النظر لكي يوفروا عليه همّاً ، أو لأنهم ليسوا كباراً بما فيه الكفاية لمواجهة ما رأوه ، معظم الوقت ، كانوا يراقبون ارتفاع منسوب المياه ، ولم يكن صياد السمك قادراً على اطلاق كلمة تشجيع ، رغب لو أن أحدهما يسأله فيما إذا كان أحد الأشخاص سيتمكن من الوصول اليهم قبل غمور المد ، ولكنه وجد أنه من المستحيل أن يجيب بنعم . ولكنهم لم يسألوا .

لم يكن صياد السمك متأكداً من مدى مقدرتهم على التخيل في مثل سنهم .

كلاهما شاهدا على الأرصفة أجساداً لغرقى ينزلون من القوارب ، إلى الشاطئ ، هم يدركون الأشياء أحياناً ، وأحياناً أخرى لا يدركونهاأخذ يفترض أنهم قد يكونوا تواقين إلى أحضان امهاتهم ، كان مندهشاً بقدر كبير لمقدرته على تقبّل أي دهشة ما عدا تلك الأشد خطورة ، واكتشف نفسه يتمنى لو أنه لم يغادر سرير زوجته المظلم العاري ذلك الصباح .

- «هل حان وقت اطلاق النار» ، سأل ابن أخيه .

- «قريباً» اجاب وكأنه تخلى عن اطلاق عبارة «ليس بعد» .

بكى ابنه بهدوء للحظة ، و كأنه رجل يشيح بوجهه لكي لا يعطي أو يظهر انطباعاً عن ألمه .

«قبل أن تفتح المدرسة أبوابها» ، قال صياد السمك بصوت متهدج «سوف نذهب إلى المدينة وسوف اشتري لكم أيها الأولاد أي شيء تريدونه» .

وبصعوبة كبيرة وبصوت كليل وكأنه أقل ما يرغب في شيء ، أجاب ابنه بعد لحظة صمت «اني أريد زورقاً بقوة ثلاثين حصاناً من تلك الأنواع الجديدة» .

- «حسناً» ، قال صياد السمك ثم التفت إلى ابن أخيه وسأله :

«وماذا بشأنك؟» .

هز ابن الأخ رأسه بكآبة وقال «لا أريد أي شيء» .

وبعد لحظة صمت أخرى قال ابن صياد السمك «بلا ، انه يريد يا أبتي» ، انه يريد واحداً أيضاً .

- «حسناً» قال صياد السمك مرة أخرى ، ولم يقل شيئاً بعد ذلك .

نبح الكلب بصورة غير متيقنة ولعق وجوه الأولاد ، حيث يجلسون مع بعضهم وكل قد عقد يده وراء ظهره فعانقوه ، وفي هذه الأثناء حطت ثلاث طيور بأنس ، بين الأشراك المتيبسة وجثم الكلب ممتثلاً إلى تدريبه ، راقب الأولاد الطيور بفتور ، وفي الحال شعرت الطيور بشيء أمامها فغادرت المكان وهي تلامس بأرجلها وأجنحتها أطراف الموج محدثة رذاذاً في طيرانها نحو امتداد قاتم لانهائي .

بدأت مياه البحر ترتفع وسط الرياح المتصاعدة حاملة معها نوبة قشعريرة ، جديدة ومميتة ، طاف صياد السمك بسرعة حول ظل الأرض الداكن المتضائل باحثاً عن

علامة ، ومتمنياً أن لا يسقط الثلج ، ولكن الثلج أخذ يسقط ، رقائقاً في البداية ثم ثلجا خفيفاً ، ثم أفقيا عاصفاً . نظر صياد السمك مذهولاً نظرة طولى نحو جزيرة البقرة البنية التي تبعد ثلاثمائة ياردة تماماً عن الجهة التي تهب عليها الرياح ، ونهض على قدميه بعد ذلك ، اغلقت الدنيا من جميع الجهات كما لو أن ما يحدث على الحيد كان خاصاً جداِ حتى بالنسبة لآخر ، ضوء باهت في النهار المنقضي .

– «جولة أخيرة» ، قال صياد السمك بتزمت .

نهض الأولاد وركزوا بنادقهم على أكتافهم ، اطلق صياد السمك النار وسط الثلج الطائر ثم عد حتى الخمسة فأطلق ابنه ثم عد مرة أخرى فاطلق ابن اخيه .

أطلق ثلاثتهم وعدوا لأربع جولات .

– «لقد تبقى لك واحد يا أبي» ، قال ابنه :

تردد صياد السمك ثانية اخرى ، بعدها اطلق النار وكانت تلك هي الرصاصة الأخيرة .

انطلقت الطلقة الحزينة ، وكأنها تخرج من بندقية هواء يلعب فيها الأولاد وضاعت وسط الثلج المتساقط .

هبط الليل بعد لحظة ليلتقي مع البحر المتصاعد ، وكانوا ثلاثتهم مجهدين ، بالكاد يحاول احدهم حماية نفسه من الثلج المتساقط ، بدوا باهتين كالأشباح في معاطفهم الصفراء ، سمع صياد السمك البحر ينشق فاختلس نظرة إلى الأسفل ، حيث موطئ قدميه اللتين بدتا ملفوفتين بغلاف من الثلج ، امسك الولدين بلطف من كتفيهما ودفعهما أمامه ، متلمساً بأقدامه عمق المستنقع الضحل إلى مكان يشكل مثلثاً داخل الصدع الحاد في اعلى نقطة من الحيد ، وطلب من الأولاد ان يبقوا وجوههم إلى الأمام ويلقوا بنادقهم .

– «أريد أن أبقي بندقيتي معي يا أبي» ، توسل ابنه .

– «ألقها» ، قال صياد السمك «لن يؤذيها المد ، والآن ثبتوا أقدامكم على جهتي الصخر وامكثوا هناك» .

شعروا بالكلب الذي بدا شديد السواد يركض مرتبكاً ، جيئة وذهباً بين ارجلهم المنفرجة .

- «أبي» ، قال ابنه «ماذا بشأن الكلب» .

لو نادى الكلب باسمه لبدا ذلك أمراً شخصياً جداً ، وربما كان بكى صياد السمك ، وكأن هذا ما تبقى لديه ليفعله كي يمسك عن الضحك ، ثنى ركبتيه ، وعندما لمس الكلب ورفعه تحت احد ذراعيه كان بطنه غارقاً بالبلل .

وهكذا ظلوا ينتظرون في عزلة وعيهم ، وقد أحاط بهم اتساع المد الرهيب الذي أخذ يعزلهم شيئاً فشيئاً ، ووسط هذا الاتساع بدا الحلزون البحري تحت قدم الصياد شيئاً عظيماً . وخلال تأرجح الأفكار التي ضجت في ذهنه بدا له بيته بلمحة خاطفةمنعزلة بفضول مثل سراب حزيران .

لقد عاش صياد السمك طوال حياته مع الثلج ، والصخور والبحار والرياح ولكنه تيقن الآن من أنه لم يدرك كنهها ، فكرهها رغم أنها لم تتبدل .

يشعر ببرد مميت ، وهمَّ بأن يسأل الأولاد فيما اذا كانوا يشعرون بالبرد ، ولكنه لم يجد منطقاً في ذلك ، فكر بالويسكي فمشى جانبياً إلى الوراء وهو لا يزال يحمل الكلب الأخرق حتى اكتشف الزجاجة باصبع قدمه تحت الماء فالتقطها بسرعة مفرطة ، خوفاً من أن يبتل كمه ، ثم شق طريقه إلى الأمام وانحنى فوق ابنه «اشرب» ،قال وهو يرفع الزجاجة أمام الولد فأمال الولد رأسه إلى الوراء وشرب ثم سعل بشدة وتقيأ وأبلغ والده بيأس بأنه لايستطيع .

- «حاول - حاول ، قال صياد السمك مناشداً اياه كما لو أنها كانت تعني الفرق بين الحياة والموت» .

شرب الولد بخضوع ، ومرة اخرى تقيأ بشدة ، وأمال رأسه نحن صدر أبيه ومرر الزجاجة أماماً إلى ابن عمه الذي شرب وتقيأ أيضاً ، وبينما كان الأولاد يعيدون الزجاجة إلى الخلف سقطت بينهم في الماء الشديد البرودة .

عندما وصلت الأمواج إلى ركبتيه ، افلت صياد السمك الكلب ، وقال لابنه «استدر واصعد على أكتافي» ، فاطاع الولد ، وفتح صياد السمك سترة معطفه وعقد يديه خلف ظهره من خلال حمالات البنطلون ، مثبتاً كاحلي الولد بمرفقيه .

- «ماذا بشأن الكلب؟» سأل الولد .

- «سوف يسلك طريقه بشكل جيد» ، قال صياد السمك «فهو يستطيع تحمل الماء

البارد» . كانت ركبتاه ترتجفان وكانت كل غرائزه تصرخ لتقوية جسده . صرَّ على أسنانه ووقف كالطود في مواجهة جوانب الصدع المغمور بالماء .

أما الكلب الذي عاش مخلصاً لهم ، وكأنه واحد منهم لمدة احدى عشر عاماً ، فقد سبح لبضع دقائق ، جيئة وذهاباً حول ساقي الصياد دون أن يدرك ما يحدث ، ثم تركهم بدون تذمر ، وراح يسبح لوحده كيفما اتفق يدور ويدور في الظلام الحالك ، سبح قدر ما يستطيع بطريقته الروتينية في الماء الصاعق الشديد البرودة ، ثم في لحظة غامضة ، ابتلعه الماء . حسده صياد السمك وهو ينتظر اللانهاية على طريقته في الغرق .

كان البحر يتلاطم بطوفان لا يرحم ، يجرف كل شيء أمامه ، ويرتفع شيئاً فشيئاً ، كأنه يبتلع الأرض حولهم . كان شيئاً لا يدرك بالحس أو العقل .

نادى الولد مرة على ابن عمه ولم يسمع اجابته ، كان صياد السمك في حالة هلع دون أن ينبس بكلمة وفرح بصمت عندما لم يناد الولد مرة اخرى ، وكان حذاؤه الطويل قد امتلأ بالماء ولم يعد يحس بقدميه المتباعدتين حتى أنه لم يجرؤ على تحريكهما . وصلت المياه إلى مفاصل أوراكه ثم إلى أكتافه وبقي حافظاً توازنه ، دون أن يشعر بطول الوقت ، ولكنه شعر بأن نصفه الأعلى قد تجمد وافلتت ساقاه من أعصابه ومن ارادته ،نظر إلى الأمر بطريقة علمية بحتة . كانوا يشكلون ذلك المحور التافه المهزوز ، الذي يدور حوله الاضطراب العالمي ، بقيت الأمواج تتتابع ، ولم يستطع تخيل كم مرة تقاذفت بقوتها المستترة تحت غطاء الليل ، كان هناك اعداد لا تنضب منها . بكى بغضب مفرط ، كلما زاد ارتفاع كل منها وهو يتأرجح ، واحدة بعد الأخرى ، كانت تضربه بقوة وتبتعد بلا هدف نحو عالمها المتوحش الذي لا ينازعها عليه أحد .

مطّ صياد السمك جسده نحو الأعلى بأقصى ما يمكنه ، مثل رجل ينهض من نوم عميق . لا بد أن رأس الصبي يرتفع سبعة أقدام فوق الحيد ، ورغم أنها كانت تكبر كل دقيقة الا أنها كانت حياة قصيرة خفيفة .

وقصد صياد السمك أن يبقيها هناك اذا احتاج الأمر عبر آلاف الحركات من المد .

– ورويداً رويداً ، هبط الولد على رأس والده وسأله «ألم يعد حذاؤك يلمس الأرض

يا أبي؟»

- «ليس بعد» قال صياد السمك واضاف وهو يتكلم من بين أسنانه : «إذا سقطت أنا - فاخلع حذاءك - واسبح باتجاه اسفل الريح - نحو الجزيرة . . .» .

- «أنت . . .؟» سأل الولد في النهاية .

أومأ صياد السمك برأسه قبالة معدة ابنه وقال « - لن يرى أحدنا الآخر بعد الآن» .

لقد فعل الولد لصياد السمك اعظم شيء يمكن فعله ، فرغم أنه كان صغيراً ، جداً على مواجهة الخوف المطلق ، الا أنه كان كبيراً بما فيه الكفاية ليعرف بأن هناك أشياء أكبر من قوة أي رجل ، لقد فعل كل ما يستطيع فعله من خلال ثقته بأن والده فعل كل ما يستطيع فعله .

ولم يسأل شيئاً أكثر من ذلك .

أما صياد السمك الذي هزّ البحر روحه فقد أبقى عينيه مغمضتين في انتظار الليل اللامتناهي .

- «هل حان الوقت الآن؟» قال الولد .

- وبصعوبة شديدة استطاع صياد السمك ان ينطق «ليس بعد ، ليس بعد بالضبط . . .» .

وبينما الأرض تدور على محورها باتجاه ضوء الشمس ، في اليوم الذي تلا يوم عيد الميلاد ، كان هناك اسطول صغير من القوارب ينطلق بسرعة بعيداً عن الشاطئ ، مثل صفائح حديدية تنجذب نحو مغناطيس ، وعند انبلاج ضوء النهار ، وجدوا القارب يطفو بعيداً عن رأس الأرض ، مملوء حتى نصفه بالبط والثلج . لقد كان الصيد جيداً عصر اليوم السابق كما افترض أحدهم من الأرض المجاورة .

وبعد ذلك بساعتين ، وجدوا القارب الكبير يطفو تحت رحمة الرياح على بعد خمسة أميال داخل البحر . ولم يكن قد أصيب بأذى . وبعد انحسار المد بوقت قصير وجدوا صياد السمك وقد علقت رجله اليمنى بقسوة داخل الصدع المتجمد ، على الحيد إلى جانب ثلاث بنادق صيد . كانت يداه معقودتين خلف ظهره بداخل حمالات النبنطلون ، وتحت مرفق يده اليمنى حذاء مطاطي مع جورب قصير وبداخله

سمكة قنديل بحر حية ، بعد ذلك وبعد أن بحثوا عن الأولاد طوال النهار ، في الأعماق قاموا بقطر صياد السمك إلى بيته في قاربه عند الغروب ، وفي صقيع المساء وضعوه بصمت في نعش غير مغطى ومددوه على الرصيف من أجل أن تشاهده زوجته .

بطريقة ما ، وقفت على الرصيف كأنها في حلمها المتكرر تحدق في جثة صياد السمك ، نقية مثل الكريستال فوق الألواح المتجمدة ، كان مطبقاً باحكام على حذاء مطاطي صغير متجمد تحت احدى ذراعيه المثبتتين .

رأته بعيداً عن الندامة والأسى ، كبيراً شاهقاً ، في حلٍ من كونه فانياً .

١٩٦٠

فيليب روث

مدافع عن الإيمان

عن «ذي نيويوركر»

في أيار ١٩٤٥ وبعد أسابيع قليلة من انتهاء الحرب في أوروبا أُرسلت لأناوب في الولايات المتحدة ، حيث قضيت باقي مدة الحرب أعمل في فرقة تدريب في كامب كراودر بولاية ميسوري . كنت قد قضيت مع من تبقى من الجيش التاسع معظم الوقت ، أتنقل عبر ألمانيا بشكل سريع ومتواصل خلال أواخر الشتاء والربيع لدرجة أنني لم أصدق ، حين استقليت الطائرة أنها ستتجه بي إلى الغرب . كان عقلي ينتحي بي منحى أخر . ثمة إحساس ينبئني أني سأنتقل إلى جبهة جديدة حيث سنواصل اندفاعنا شرقاً حتى نلف الكرة الأرضية ، نسير عبر بلدان تنتظرنا في شوارعها الملتوية ، حشود من الأعداء تراقبنا ونحن نستولي على ما يعتبرونه حتى الآن ملكاً لهم . لقد تغيرت لدرجة كبيرة خلال السنتين ، لم يعد يهمني كبار السن وهم يرتجفون ، أو بكاء اليافعين أو الأطفال . نظرات الموت والشك في عيون الذين كانوا سابقاً يعيشون في عز وفخار . لقد صادفني الحظ بأن أطور مشاعري إلى مشاعر رجل مشاة ، قلبه كما قدماه تشعران بوخز الألم أولاً ثم تنتفخان ، لكنهما في النهاية تصبحان قاسيتين بما يكفي لكي يسير عليهما في أصعب المناطق دون أن يشعر بشيء . كان قائدي في كامب كراودر الكابتن بول باريت ، قد خرج من مكتبه يوم تسلمت المناوبة ليصافحني . كان قصيراً فظاً حاد الطباع ، يضع دائماً خوذته اللامعة

المشدودة إلى الأسفل حتى عينيه الصغيرتين ، سواء في الخارج أو الداخل . كان قد أصيب في أوروبا بجرح خطير في صدره في أرض المعركة وتمت إعادته إلى الولايات المتحدة قبل عدة أشهر . «كان يتكلم معي بسهولة وعند التشكيل المسائي قدمني إلى باقي القوات قائلاً كما تعلمون فالرقيب ثيرستون لم يعد معنا وهذا هو الرقيب الجديد ناثان ماركس وهو ضابط مخضرم في الساحة الأوروبية ويتوقع دائماً أن يجد هنا فرقة من العسكر وليس فرقة من الأولاد» .

جلست في غرفة القيادة أحاول بفتور ،حل معضلة جداول المناوبة والاستمارات الشخصية وتقارير الصباح . كان مسؤول المركز نائماً على فرشة أرضية وفمه مفتوحاً .

كان هناك متدرب يقف وهو يقرأ جدول المناوبة الخاص بيوم الغد والذي كان معلقاً على لوحة الإعلانات قرب باب الغرفة . كان الجو دافئاً مساء ذلك اليوم . كنت أستطيع سماع صوت الموسيقى الراقصة تنبعث من الثكنات . أما المتدرب الذي كان يحاول استراق النظر إلي ظاناً أني لا ألاحظه ، فقد تقدم باتجاهي خطوة وهو يسألني أيها الرقيب ، هل سنقيم حفلة تنظيف الثكنات غداً؟ سألته فيما إذا كانوا يقيمونها بالعادة في أمسيات الجمعة . قال نعم ثم أضاف : هذا هو كل ما في الأمر إذن سوف نقيم حفلة تنظيف .

أدار ظهره لي ،سمعته يتمتم ويهز كتفيه ، انتابني الشك بأنه يبكي فسألته ما اسمك أيها الجندي ؟

التفت إلي ،لم يكن يبكي أبداً بل على العكس . كانت عيناه الخضراوين ضيقتين وطويلتين تلمعان كالسمك تحت الشمس .

خطا ناحيتي وجلس على طرف المكتب ومد يده قائلاً : «اسمي شيلدون» . «قف على قدميك يا شيلدون» . قلت له .

نهض عن المكتب وتابع : «شيلدون غروسبارت» . ابتسم وبدا راضياً من تمكنه من استدراجي إلى رفع الكلفة بيني وبينه .

قلت له : «هل أنت ضد تنظيف الثكنات ليلة الجمعة يا غروسبارت؟ ربما من غير المستحسن إقامة حفلات تنظيف ، ربما يجب أن نحضر خادمة تفعل ذلك» .

دهشت من نبرة صوتي ،شعرت أنني أتكلم مثل أي رقيب أول أعرفه . «كلا أيها

الرقيب» رد بجدية ،جدية كانت تخفي وراءها ابتسامةِ «الأمر فقط يتعلق باختيار حفلات التنظيف ليلة الجمعة من بين كل الليالي» . عاد إلى زاوية المكتب مرة أخرى ، لم يكن جالساً أو واقفاً بل كلاهما . ونظر إليَّ بتلك العينين اللامعتين الضيقتين ثم أطلق إشارة من يده . كانت إشارة خفيفة ليست أكثر من تلويح زنده أماماً وخلفاً لكنها كانت كافية لتشغلنا عن شأن أي أمر آخر في غرفة القيادة ، تجعلنا نحن الاثنين مركز العالم . بدت للحقيقة وكأنها تستثني كل شيء ما عدا قلبينا .

«الرقيب ثيرستون كان شيئاً مميزاً» همس وهو ينظر إلى المسؤول النائم «ولكننا اعتقدنا أن الأمور ستتغير معك قليلاً» .

ـ «نحن؟» سألته

ـ «الأشخاص الذين يدينون باليهودية هنا» .

ـ «لماذا؟» سألته بصوت أجش «ماذا يدور في خلدك؟» كنت غاضباً دون معرفة سبب ذلك ، هل هي قضية شيلدون أو أي شيء آخر؟

ـ «ظننا بما أنك من عائلة ماركس مثل كارل ماركس ، الأخوة ماركس فهؤلاء كلهم . . م ا ر ك س أتلفظ اسمك هكذا أيها الرقيب؟» .

ـ «م ا ر ك س نعم» .

ـ يقول فيشباين . . توقف «ما أريد قوله أيها الرقيب» . كان وجهه ورقبته حمراوين وفمه يتحرك بدون صوت ، صمت برهة ثم قال لنفسه وهو ينظر إليَّ . بدا وكأنه قرر أنه لن يتوقع أي تفهم مني أكثر من ثيرستون ، فقد كنت على دين ثيرستون وليس على دينه ؛ أربك الشاب نفسه بمحاولة معرفة ديني ولكنني لم أرغب بمعارضته والسبب ببساطة أني لم أرتح له .

حين أدرك أني لم أفعل شيئاً سوى التحديق به ، تكلم بنبرة مختلفة «أترى أيها الرقيب من المفروض على اليهود في ليلة الجمعة أن يقيموا صلواتهم .»

ـ «وهل حرمكم الرقيب ثيرستون من هذا عندما كان هناك حفلات تنظيف؟»

ـ «كلا» .

ـ «هل فرض عليكم أن تبقوا وتمسحوا الأرضيات ؟»

ـ «كلا أيها الرقيب .»

ـ «هل فرض عليكم الكابتن أن تبقوا وتمحسوا الأرضيات ؟»

ـ «ليس الأمر هكذا أيها الرقيب إنما الآخرون في الثكنات» ، مال نحوي قليلاً «يعتقدون أننا نحاول التملص ولكننا في الحقيقة نحترم موعد صلواتنا فاليهود يذهبون إلى الصلاة الجمعة ليلاً .»

ـ «إذن اذهبوا .»

ـ «الآخرون يحتجون علينا بدون وجه حق .»

ـ «إن هذه ليست مشكلة الجيش يا غروسبارت ، إنها مشكلة شخصية عليكم أن تحلوها بأنفسكم .»

ـ «ولكن هذا ليس عدلاً .»

ـ «علي أن أذهب ، لا يمكنني أن أفعل شيئاً تجاه ذلك» قلت له .

تصلب غروسبارت ووقف أمامي قائلاً : «ولكن هذه مسألة دينية يا سيدي .»

ـ «رقيب أول» قلت له .

ـ «أعني رقيب أول» أجابني بغضب شديد .

ـ «أنظر ! إذهب وراجع القس ، إذا أردت رؤية الكابتن باريت يمكنني أن أرتب لك موعداً معه .»

ـ «كلا كلا لا أريد أن أسبب أية مشكلة أيها الرقيب . إن هذا أول شيء يتهمونك به ، أنا أريد حقوقي فقط .»

ـ «اللعنة يا غروسبارت كفاك احتجاجاً ، إن لك حقوقك . بإمكانك البقاء لتمسح الأرضية أو بإمكانك أن تذهب إلى شول» .

عادت له ابتسامته ثانية وومض اللعاب على جوانب فمه .

«أتعني الكنيس يا رقيب ؟»

«أعني شول يا غروسبارت .»

زلفت عنه وخرجت ، بالقرب مني سمعت صوت وطأة قدم الحارس على الحصى ،خلف النوافذ المضاءة للثكنات رأيت شباباً يرتدون التي شيرت وثياب العمل جالسين على المقاعد يلمعون بنادقهم . فجأة سمعت صوت حفيف خلفي التفت ورأيت غروسبارت ، يركض نحو الثكنات يسابق الريح ليخبر أصدقاءه اليهود أنهم

كانوا على حق وأنني مثل كارل وهاربو ، واحد منهم .

في اليوم التالي وبينما كنت أتبادل الحديث مع الكابتن باريت ، ذكرت حادثة الأمس وقد بدا لي أن الكابتن فهم من حديثي ، أني كنت أدافع عن رأي غروسبارت أكثر من أني كنت أشرحه . أجابني الكابتن : ماركس أنا مستعد أن أقاتل جنباً إلى جنب مع زنجي إذا ثبت لي أنه رجل ، وهذا مدعاة فخر لي ، قالها وهو ينظر إلى النافذة ، ثم تابع أني أملك عقلاً متفتحاً وبالنتيجة أيها الرقيب لا أحد هنا ، يعامل معاملة خاصة لا للأفضل ولا للأسوأ ، ما على الرجل أن يفعله هو أن يثبت نفسه . إذا كان يطلق النار جيداً أعطيه إجازة آخر الاسبوع ، وإذا حصل على درجات جيدة يأخذ أيضاً إجازة أسبوع ، فقد استحقها ، ثم أدار وجهه على النافذة وأشار إليّ باصبعه أنت يهودي . ألست على حق في ذلك يا ماركس .

ـ «نعم يا سيدي .»

ـ «وأنا معجب بك . أنا معجب بهذه الأوسمة على صدرك . إنني أحكم على الرجل بما أراه منه في ساحة القتال أيها الرقيب! إنه ما يملكه هنا» وتوقعت أن يشير إلى موقع قلبه ولكنه بدلاً من ذلك أدار بهامه باتجاه أزرار قميصه وأشار إلى بطنه «شجاعته» أعني شجاعته .

ـ «حاضر يا سيدي ،لا أقصد من ذلك سوى أن أمرر لك ما يشعر به بعض الرجال .»

ـ «يا سيد ماركس سوف تشيخ قبل وقتك إذا بقيت مهموماً بما يشعره الرجال ، أترك هذه الأمور للقس فهي مهمته . وليست مهمتك ، دعنا ندرب هؤلاء الرجال على إطلاق النار جيداً ، إذا كان الشبان اليهود يشعرون أن باقي الرجال يتهمونهم بالتهرب من المهام الموكولة إليهم ! حسناً لا أدري ولكن يبدو مضحكاً تخيل اللّه ينادي غروسمان بأعلى صوته بأن عليه أن يذهب إلى الكنيسة .

ـ «إلى الكنيس» قلت له .

ـ «الكنيس هو الصحيح سوف أكتب بهذا للمراجع المسؤولة ، شكراً على إبلاغك الأمر لي .» ذلك المساء وبعد دقائق من تجميع الفرقة خارج غرفة القيادة لتشكيلات الطعام ، دعوت العريف روبرت لاهيل لرؤيتي ، كان لاهيل غامقاً ضخم الجثة ذا شعر

كثيف يزحف خارج ثيابه حيثما استطاع . كان في عينيه نظرة تذكرك بالديناصورات والكهوف ، قلت له : «لا هيل عندما تنتهي من التشكيلة أرجو أن تذكر الرجال بأنهم أحرار في الذهاب إلى الصلاة عند عقدها ، شرط أن يبلغوا غرفة القيادة قبيل مغادرتهم .»

حك لاهيل زنده ،لكنه لم يعط أي انطباع يدل على أنه سمع أو فهم ! قلت له : «لاهيل الكنيسة هل تتذكر كنيسة ، قس ، قداس ، اعتراف؟» ثنى إحدى شفتيه محاولاً أن يبتسم ، اعتبرت هذه الإشارة ، علامة على عودته للحظة إلى الوضع البشري .

«الرجال اليهود الذين يرغبون بحضور الصلوات هذا المساء عليهم أن يمروا على غرفة القيادة في الساعة السابعة» ثم بعد تفكير قليل أضفت :«بأمر من الكابتن باريت .» قبل أن يختفي ضوء النهار بقليل عن كامب كراودر (كان أرقّ ضوء رأيته هذه السنة) ، سمعت صوت لاهيل الغليظ الذي لا يعرف الرقة يدوي خارج نافذتي «أصغوا إلي جيداً أيها الجنود ، أبلغني توبي بأن أخبركم أنه في الساعة السابعة ينبغي على كل الجنود اليهود أن يمروا هنا إذا رغبوا في حضور الصلوات اليهودية .

في الساعة السابعة نظرت من نافذة غرفة القيادة ورأيت ثلاثة جنود باللباس الكاكي المنشىّ يقفون على الساحة الرباعية المغبرة . كانوا ينظرون إلى ساعاتهم ويتململون بعصبية ، بدأ الظلام ينتشر وظهر الثلاثة ، صغاراً جداً على تلك الساحة المهجورة .

عندما فتحت الباب سمعت أصوات حفلة التنظيف قادمة من الثكنات المجاورة ، أصوات الأسرة تجر نحو الجدران الخشنة وصنابير الماء تصب على الأرضية والمكانس تمسح الأرضيات الخشبيّة ، لإزالة الغبار تحضيراً للتفتيش يوم السبت . خطوت إلى الخارج وما أن لمست قدماي الأرض حتى سمعت غروسبارت يقول للآخرين انتبهوا . قفز الثلاثة وتخيلت أني أسمع الأمر . تقدم غروسبارت إلى الأمام وقال «شكراً يا سيدي» . «ناداني رقيب يا غروسبارت» ذكرته مرة أخرى أن الضباط فقط ينادون بسيدي .

«أنا لست ضابطاً ، لقد مر عليك في الجيش ثلاثة أسابيع وأظنك تعرف ذلك»

فرك راحتيه على جانبيه ، مشيراً إلى أننا أنا وهو نعيش نفس التقليد وقال شكراً على أي حال .

«نعم» قالها شاب طويل يقف خلفه «شكراً على كل حال» .

أما الثالث فقال هامساً : «شكراً» ولكن فمه لم يرتعش ولم يحرك ساكناً سوى طرف شفته .

«شكراً على ماذا؟» سألته .

شخر غروسبارت بفرح «شكراً على بلاغك الذي أعلنه العريف لقد جعل الوضع ألطف بكثير» أكمل الشاب الطويل جملة غروسبارت . ابتسم غروسبارت وقال : «إنه يعني بأن الوضع أصبح رسمياً ومعلناً ، وأننا لا نبدو وكأننا نتهرب من مهماتنا حال ابتداء العلم .»

ـ «لقد كان الأمر صادراً عن الكابتن باريت أجبتهم .» «ولكنك ساعدت في إعطاء دفعة للأمر .»

قال غروسبارت «لذلك نحن نشكرك» «ثم التفت إلى رفيقيه وقال : «أيها الرقيب ماركس أريد أن أعرِّفك على لاري فيشباين» .

خطا الشاب الطويل إلى الأمام ومد يده ، صافحته وسألني : «هل أنت من نيويورك ؟»

«نعم» أجبته .

ـ «وأنا أيضاً» كان له وجه هزيل شديد الشحوب يرتد إلى الداخل واصلاً عظمة خده بذقنه عندما يبتسم ، كما فعل عند إعلان بلاغنا يفتح فمه على أسنان خربة . كان يرمش كثيراً وكأنه يغالب الدموع . «من أية ناحية من نيويورك ؟» سألني .

التفتُّ إلى غروسبارت وسألته : «الساعة الآن السابعة وخمس دقائق متى تبدأ الصلوات ؟»

أجابني وهو يبتسم : «بعد ١٠ دقائق أريدك أيضاً أن تقابل ميكي هالبرن هذا هو ناثان ماركس رقيبنا .»

خطى الشاب الثالث أماماً وأدى التحية صائحاً : «الجندي مايكل هالبرن .»

رددت له التحية وأنزل يده ثم تفقد جيوب قميصه إذا كانت مزررة . أم لا «هل

أسير بالشباب أم ستأتي معنا ؟»

برز فيشباين من خلف غروسبارت «سوف يقدمون لنا المرطّبات كتبرع من سيدات سانت لويس ، أخبرنا الرابي عن ذلك في الأسبوع الماضي أعني ، «القس» تمتم هالبرن .»

«إننا نرحب بك معنا» قال غروسبارت .

نظرت حولي أحاول أن ألتمس عذراً ، رأيت مجموعة من الوجوه تحدق بنا من خلف نوافذ الثكنات «هيا أسرع يا غروسبارت» قلت له .

«حاضر» التفت إلى الآخرين وقال : «إلى الأمام سر .»

بدؤوا بالسير ولكن بعد عشرخطوات ، استدار غروسبارت وركض باتجاهي قائلاً : «عيد حصاد سعيد يا سيدي» ثم اختفى الثلاثة في ظلمة ميسوري الغريبة .

حتى بعد اختفائهم عن ساحة العرض التي تحول لونها إلى الأزرق الغامق الآن بقيت أسمع صوت غروسبارت يهتف خطوتين إلى الأمام .

مع ازدياد الظلمة عادت إليّ الذاكرة مثل لمعة ضوء بدأت أتذكر الصيحات الحادة التي انطلقت من ملعب برونكس قبل سنوات عديدة بالقرب من جراند كون كورس حيث لعبت في أمسيات الربيع الطويلة . كانت ذكرى عطرة بالنسبة لشاب مثلي بعيداً مثل هذا البعد عن السلاح ، وعن البيت . أعادت إليّ صوراً قديمة جعلتني أزداد شفقة على حالي . انسجمت في حلمي بشدة لدرجة أنني شعرت أن يداً تتحرك بداخلي ، تتحرك مروراً بتلك الأيام العتيقة في غابات بلجيكا حين كنت أرفض أن أبكي علي الأموات ، مروراً بتلك الليالي في بيوت المزارعين الألمان حيث كنا نتدفأ على كتبهم التي نحرقها ، مروراً بالسجناء الذين كانوا يقضون محكومية لا نهاية لها حين كنت أغلق قلبي عن أي شعور بالرحمة نحو زملائي ، حيث كنت أنكر على نفسي وقفة المنتصر المتباهي . يجدر بي كيهودي أن أضرب بحذائي جدران سجون ويسل ومنستر برونشفيك .

أما الآن فقد سقطت كل تلك التخديرات التي خدرت بها ذاكرتي أمام أصوات الليل التي حركت ذاكرتي ، نحو بيتي ونحو الماضي القديم ووجدت نفسي أتذكر فجأة من أنا وأتبع طريق غروسبارت إلى الكنيس رقم ٣ حيث تقام خدمة الصلاة

اليهودية ، جلست في مقعد فارغ في الصف الأخير . أمامي بصفين كان يجلس غروسبارت وفيشباين وهالبرن وهم يحملون الأقداح الصغيرة البيضاء الخاصة بالحبوب .

كان كل صف من المقاعد أعلى من الذي أمامه لذا كنت أستطيع أن أرى بوضوح ما يجري أمامي ، كان فيشباين يصب محتويات قدحه في قدح غروسبارت وكان غروسبارت يبدو مرحاً وهو يصبّ السائل الملون ويلون يده ويد فيشباين باللون الأرجواني .

من خلال الضوء الأصفر اللامع ، رأيت القس يقف على المسرح أمام الجميع وينشد أول سطر من القراءة السريعة الإجابة .

أخذ غروسبارت يحف بأصابعه على طرف الكأس بينما بقي كتابه مغلقاً على حضنه ، وحده هالبيرن كان يجيب على الترانيم بالصلوات ، وهو يمد أصابع يده اليمنى فوق غلاف كتابه المفتوح . كانت قُبّعته مشدودة للأسفل عند حاجبه لكي تبدو مستديرة كالقلنسوة . أما فيشباين ذو الوجه الطويل الشاحب فكان ينظر هنا وهناك ، يحني رأسه ليتفحص الوجوه بالدور في الصفوف الواقعة أمامه وبجانبه وخلفه . عندما التفت إلى الخلف رآني ولمعت عيناه ثم أحنى رقبته باتجاه غروسبارت وهمس شيئاً في أذنه ، عندها عاد الجميع إلى تلاوة صلوات الرد على الأناشيد . كان صوت غروسبارت يعلو بين أصوات الآخرين ، أما فيشباين فأخذ ينظر إلى الكتاب أمامه ولكن دون أن تتحرك له شفة .

أخيراً جاء وقت شرب النبيذ ، ابتسم القس وهو يرى غروسبارت ينهي كأسه بجرعة واحدة ، شرب هالبرن بهدوء وهو يتأمل أما فيشباين فقد أنهى الأمر بكأس فارغ ـ قال القس موجهاً حديثه للجميع : «أنا أنظر إلى هذا الجمع الليلة (وشدد على كلمة الليلة) أرى أمامي وجوهاً جديدة أود أن أرحب بها وهي خاشعة في خدمة صلوات مساء الجمعة في كامب كراودر أنا الميجر ليو بن عزرا قسيسكم .»

رغم كونه أمريكياً إلا أن القس تهجأ كلامه بالحرف كأنما ليجعله مفهوماً لقراء الشفاه بين جمهوره ثم تابع : «تحضرني كلمات قليلة لأقولها قبل أن نلتحق بغرفة المرطبات حيث قامت السيدات اللطيفات من جمعية معبد سيناء في سانت لويس

بولاية ميسوري بتحضير جلسة رائعة لنا .»

انطلق التصفيق والصفير ، رفع القس يديه بعد ابتسامة فورية وراحتاه ممدودتان وعيناه متجهتان إلى الأعلى كأنما ليذكّر الحضور أين هم ، أعقب ذلك صمت فجائي ، أعتقد أني سمعت حينها غروسبارت يثرثر دع الغوييم (الرعاع) ينظفون الأرضية . لم أكن متأكداً من الكلمات ولكن فيشباين وكز هالبرن الذي نظر إليه ببلاهة . عاد إلى كتاب الصلاة الذي ظل مشغولاً به طوال خطبة الربي (القس) ثم شد بيده على خصلة شعره البارزة من تحت القبّعة وبدأ يحرك شفتيه .

تابع الربي : «أرغب أن أكلمكم للحظة عن الطعام أنا أعلم! أنا أعلم (كان يلحّن كلماته بضجر ، ثم أضاف) أنا أعلم أن الطعام الغريب له طعم الرماد في أفواهكم ، ويسبب لبعضكم القيء أحياناً ، اعلم كم يتعذب ذووكم وهم يرون أطفالهم وأبناءهم يأكلون أطعمة غير نظيفة ومهينة للذوق . لا أستطيع أن أقول لهم إلا أن أغمضوا عيونكم وابلعوا ما استطعتم كلوا ما تحتاجونه للعيش وتخلصوا من الباقي ، أتمنى أن أساعدكم أكثر وبالنسبة للذين يرون الأمر مستحيلاً أطلب منهم أن يحاولوا ويحاولوا أكثر أو يأتوا إليّ لأكلمهم على انفراد .»

إذا كان اشمئزازكم قوياً فسنحاول طلب مساعدة من الأعلى . امتلأ المكان بالهمسات والثرثرة ثم خمدت الأصوات ، وعاد الجميع يغني «أين كيلا وهاينو» ، بعد كل هذه السنين اكتشفت أني ما أزال أحفظ بعض الكلمات ، ما إن انتهى الحفل فجأة حتى وجدت غروسبارت فوقي . «مساعدة من الأعلى؟ هل يعني الجنرال» : «لا يا شيلي» قال فيشباين : «إنه يعني اللّه .» صفق على وجهه ونظر إلى هالبرن «إلى أي مدى تستطيع أن تعلو ؟»

«اسكت» قال غروسبارت : «ماذا تظن أيها الرقيب؟»

ـ قلت : «لا أدري ، الأفضل أن تسأل القس .»

«سأذهب إليه سآخذ موعداً معه على انفراد وكذلك ميكي ، طأطأ هالبرن رأسه : كلا كلا يا شيلدون .»

«إن لك حقوقاً يا ميكي» قال غروسبارت : «لا يجب أن يظلوا يدفعوا بنا من مكان لآخر .»

ـ قال هالبرن : «حسناً إن الأمر يزعج أمي ولكن لا يزعجني .»

نظر غروسبارت إليّ وقال : «لقد تقيأ بالأمس بسبب اللحم المفروم . كان لحم خنزير والله أعلم ماذا أيضاً .»

ـ «كنت أعاني من نزلة برد» قال هالبرن : «هذا هو السبب ثم دفع بخصلة شعره البارزة تحت قبّعته .»

ـ سألته : «وماذا عنك يا فيشباين؟ هل تطلب الكوشر أيضاً ؟»

احمر وجهه وقال : «قليلاً ولكني أحتمل الأمر . لدي معدة قوية ولا آكل كثيراً على أي حال .» استمريت في التحديق به ، رفع معصمه تأكيداً على ما يقول . كان رباط ساعته محكم الشد حتى آخر ثقب ، قد ظهر ذلك لي بوضوح . .

ـ «لكن خدمة الصلاة مهمة لك .»

ـ نظر إلى غروسبارت وقال طبعاً «يا سيدي .»

ـ «يا رقيب» قلت له .

ـ قال غروسبارت وهو يقفز بيننا :«لا تبدو الصلاة مهمة كثيراً في المنزل ، لكن بعيداً عن البيت تعطيك إحساساً بيهوديتك .»

«علينا أن نقف مع بعضنا البعض» قال فيشباين .

اتجهت نحو باب الخروج ، أفسح لي هالبرن المكان ،سمعت غروسبارت يقول بصوت عالٍ لكي أسمع .

ـ «هذا ما حدث في ألمانيا ،لم يقف اليهود مع بعضهم البعض ، بل تركوا الآخرين يقضون عليهم .»

ـ استدرت وقلت لغروسبارت «اسمع يا غروسبارت . هنا يوجد جيش وليس مخيماً صيفياً .»

ابتسم ورد قائلاً : «وماذا يعني هذا؟»

حاول هالبرن أن يبتعد ولكن غروسبارت أمسك يده

ـ «كم تبلغ من العمر يا غروسبارت؟» سألته .

ـ «تسع عشرة !!»

ـ «وأنت يا فيشباين»

ـ «تسعة عشرة أيضاً لقد ولدنا في نفس الشهر .»

ـ «وماذا عنه» أشرت إلى هالبرن الذي كان قد وصل سالماً إلى باب الخروج .

ـ «ثمانية عشرة» همس غروسبارت «ولكنه لا يستطيع ربط حذائه أو تنظيف أسنانه لوحده ، إني أشعر بالأسف عليه .»

ـ «إني أشعر بالأسف علينا جميعاً يا غروسبارت ولكن أطلب منك أن تتصرف كرجل فقط ولا تبالغ في الأمور .» قلت

ـ «أبالغ بماذا يا سيدي ؟»

ـ «مقالة سيدي كبداية لا تبالغ في هذه» قلت له وتركته واقفاً ثم مررت بهالبرن ولكنه لم ينظر إليّ وعندما صرت في الخارج سمعت غروسبارت يقول : «ميكي حبيبي عد إلى هنا يوجد مرطبات .»

ـ تذكرت جدتي وهي تناديني حبيبي .

مضى أسبوع على هذه الأحداث . في صباح أحد الأيام بينما كنت أعمل على مكتبي ناداني الكابتن باريت لشرب القهوة معه في مكتبه . عندما دخلت لاحظت أن خوذته مشدودة إلى أسفل وجهه حتى تكاد تغطي عينيه . كان يتكلم على الهاتف عندما دخلت ، توجه بالكلام إليّ بعد أن غطى بيده سماعة الهاتف وسألني «بحق الجحيم من هو غروسباتر هذا ؟»

ـ «إنه متدرب في الكتيبة الثالثة يا كابتن .»

ـ «ما هذا القرف حول موضوع الطعام ، لقد اتصلت أمٌ بأحد أعضاء الكونغرس تشكي له طعامنا» . رفع يده عن السماعة ثم حرك خوذته إلى الأعلى حتى أصبحت أرى رموش عينيه .

ـ «نعم يا سيدي» ، كان يرد على الهاتف ـ «نعم يا سيدي أنا ما أزال معك» هزَّ الهاتف أمامي قائلاً : «أنا لا أطعم الفرقة ما هذا بحق الجحيم .» قلت له «إن غروسبارت هذا شخص غريب» ، استقبل باريت كلامي بابتسامة ماكرة ولكن متسامحة ، جعلتني أغير توجهي في الحديث ، تابعت «إنه يهودي أرثوذكسي لذلك ليس مسموحاً له أن يأكل بعض الأطعمة .»

ـ «إنه يتقيأ قال لي النائب في الكونغرس ، كلما أكل شيئاً يتقيأ تقول أمه .»

ـ «إذن لماذا يجب على أمه أن تتصل بالبيت الأبيض .»

ـ «إن الآباء والأمهات اليهود هم أكثر محافظة مما تتوقع ، لديهم حياة عائلية متماسكة وعندما يغيب الولد عن البيت تقلق الأم كثيراً ربما ذكر الشاب شيئاً في رسالته فسرتها أمه خطأ .»

ـ «أود أن أناوله لكمة في فمه ، أننا نخوض حرباً هنا وهو يريد طبقاً من الفضة .»

ـ «لا يجب أن تلوم الشاب يا سيدي ، أنا متأكد أننا سنصلح الأمر عندما نسأله . إن الآباء والأمهات اليهود .»

ـ «إذا كان الآباء والأمهات يقلقون على أولادهم بحق المسيح . لكنهم لا يركبون خيولهم ويشدون رسنها .»

قاطعته بصوت أعلى وبنبرة أشد : «إن الحياة العائلية يا كابتن هامة جداً ولكنك على حق ، الأمور تخرج عن نصابها أحياناً ، إنه شيء عجيب ولكن لأن العلاقة متماسكة بهذا الشكل فإن الأمر يصبح . . . .»

لم يعد يريد أن يسمع أكثر ، رغم كل محاولاتي الهادئة لتفسير الرسالة عاد وأمسك بسماعة الهاتف قائلاً : «يا سيدي إن ماركس هنا يخبرني أن اليهود يميلون دائماً إلى الضغط لنيل مطالبهم ويعتقد بأنه سيحل المشكلة هنا في الفرقة ، نعم يا سيدي سأعود إليك بأسرع وقت ممكن» . علق السماعة وقال : «أين الرجال أيها الرقيب .»

ـ «في ميدان التدريب .»

ـ أنزل خوذته بعنف فوق عينيه للمرة الثانية وقفز عن مقعده قائلاً : «سوف نذهب في جولة .»

قاد الكابتن السيارة وأنا بجانبه . كان يوماً ربيعياً حاراً ، كنت تعباً وأحسست أن إبطيَّ يذوبان على جانبي وعلى صدري . كانت الطريق جافة ، ومع وصولنا إلى ميدان الرماية شعرت بحبات الغبار تصرُّ تحت أسناني على الرغم من أن فمي بقي مغلقاً طوال الرحلة ، أوقف الكابتن السيارة بعنف وقال لي أن أخرج بسرعة واعثر على غروسبارت .

وجدت غروسبارت مبطوحاً على بطنه يطلق النار على هدف من مسافة ٥٠٠

قدم ، أما فيشباين وهالبرن فكانا ينتظران دورهما وكان فيشباين يضع على عينيه نظارات «جي أي» الفولاذية الحواف ، لم أرها عليه من قبل ، كانت تسبغ عليه منظر بائع متجول عجوز ، على استعداد ليبيعك بندقيته التي يحملها بالإضافة إلى الحزام الملفوف حوله . وقفت خلف صناديق الذخيرة بانتظار أن ينهي غروسبارت إطلاق النار . رجع فيشباين إلى الخلف ليقف بجانبي .

«مرحبا رقيب ماركس» قال لي .

ـ «كيف حالك» تمتمت .

ـ «جيد شكراً لك إن شيلدون قناص جيد .»

ـ «لم ألاحظ ذلك .»

ـ «إنني لست بمثل خبرته ولكني سوف أجرِّب الأمر الآن ، إني لا أريد كما تعلم أن أسأل » ـ توقف عن الكلام فقد شعر رغم دفء الحوار أن أصوات إطلاق النار اضطرته إلى رفع صوته علي .

ماذا هناك؟ سألت كان الكابتن باريت منتصباً في وضع الوقوف في سيارة الجيب وهو يمسح الصفوف بنظره بحثاً عني وعن غروسبارت .

ـ «إن أهلي يسألونني دائماً إلى أين نحن ذاهبون» قال فيشباين : «الجميع يقولون إلى المحيط الباسيفيكي ، أنا شخصياً لا أبالي إلى أين ولكن أهلي . . أريد أن أريح تفكيرهم حتى أستطيع التركيز على إطلاق النار .»

ـ «لا أدري إلى أين سنذهب يا فيشباين ولكن حاول التركيز على أي حال .»

ـ «يقول شيلدون أنك ربما تستطيع أن تعرف أين؟»

ـ «إنني آخذ الأمر بهدوء أيها الرقيب إن المشكلة في البيت .»

أنهى غروسبارت إطلاق النار وبدأ ينفض الغبار عن ثيابه بيد واحدة ناديته قائلاً غروسبارت الكابتن يريد أن يراك .

اتجه نحونا كانت عيناه تلمعان وترمشان مرحبا .

ـ «لا توجه هذه البندقية إلينا .»

ـ «لن أطلق النار عليك أيها الرقيب» ابتسم ابتسامة عريضة وأزاح فوهة البندقية جانباً .

ـ «اللعنة عليك يا غروسبارت إن الأمر ليس مزاحاً اتبعني .»

سرت أمامه ، اعتمرني شك بأن غروسبارت كان يمشي خلفي مشية عسكرية وبندقيته على كتفه وكأنه في مهمة خاصة ، عندما وصلنا إلى الجيب العسكرية أعطى الكابتن تحية عسكرية قائلاً : الجندي شيلدون غروسبارت سيدي .

«هوّن عليك يا غروسمان» . انسلّ الكابتن قليلاً في المقعد الفارغ بجانبه وعقف إصبعه كإشارة ليدعوه إلى الاقتراب منه

«غروس بارت يا سيدي : شيلدون غروسبارت إنها غلطة شائعة .» انحنى غروسبارت أمامي وأشار إليّ أنه قد فهم الأمر . التفت بعيداً في الوقت الذي كانت شاحنة الطعام تنزل ستة أفراد رافعي الأكمام .

كان رقيب الشاحنة يصرخ عليهم بينما هم يجهزون المعدات لصف الطعام .

ـ «يا غروسبارت لقد كتبت والدتك إلى أحد أعضاء الكونغرس مدعية بأننا لا نطعمك جيداً هل لك علم بذلك؟» قال الكابتن

ـ «إنه والدي يا سيدي لقد كتب إلى عضو الكونغرس فرانكوني يخبره بأن ديني لا يسمح لي بأكل بعض أنواع الطعام .»

ـ «ما هو هذا الدين؟»

ـ «اليهودية .»

ـ «اليهودية يا سيدي» قلت لغروسبارت .

ـ «عفواً ـ اليهودية يا سيدي» قال غروسبارت .

ـ «على ماذا كنت تعتمد في طعامك ، لقد مضى عليك في الجيش شهر كامل ولا يبدو لي كأنك ستنهار جوعاً .»

ـ «إني آكل لأني مضطر لذلك يا سيدي ولكن الرقيب ماركس يمكنه أن يشهد أني آكل فقط ما يلزمني لكي أستمر حياً .»

ـ «هل هذا صحيح يا ماركس» سأل باريت .

ـ «أنا لم أرَ غروسبارت وهو يأكل يا سيدي .»

ـ «ولكنك سمعت الربي» قال غروسبارت «لقد أخبرنا ماذا علينا أن نفعل وأنا استمعت له .»

ـ نظر الكابتن إلي وقال : «حسناً يا ماركس؟»

ـ «أنا ما زلت لا أعرف ما الذي يأكله وما الذي لا يأكله يا سيدي» رفع غروسبارت يده يلتمس العون ، بدا وكأنه يريد مني أن أحمل له بندقيته .

ـ «ولكن أيها الرقيب .»

ـ قاطعته بجديه فوراً : «عليك يا غروسبارت فقط أن تجيب على أسئلة الكابتن .»

ـ ابتسم باريت ابتسامة لم يكن لها وقع طيب لدي : «حسناً يا غروسبارت ما الذي تريده ؟ ورقة صغيرة للخروج من هنا .»

ـ «كلا يا سيدي أريد أن يسمح لي بالعيش كيهودي كذلك الآخرون .»

ـ «أي آخرين؟» قال الكابتن .

ـ «فيشباين وهالبرن .»

ـ «هما أيضاً لا يحبان طريقة خدمتنا .»

ـ «إن هالبرن يتقيأ يا سيدي لقد رأيته .»

ـ «كنت أظن أنك أنت الذي يتقيأ .»

ـ «مرة واحدة يا سيدي ، لم أكن أعرف أن الصوصج لحم خنزير .»

ـ «سوف تقدم لكم لائحة طعام يا غروسبارت ونعرض عليكم أفلام للتدريب حول الطعام ، ويمكنك أن تحدد حينها متى نحاول أن نسممك .»

لم يجب غروسبارت ، اكتمل خط الطعام ضمن صفين طويلين ، لمحت فيشباين في آخر أحد الصفوف أو ربما لمحت نظاراته التي كانت تعكس الشمس على وجهي ، وقف هالبرن بجانبه وهو ينفض ياقته الداخلية بحرمة كاكيّة اللون ، تحرك الجميع مع الصف باتجاه الطعام ، لوهلة صغيرة انتابني رعب حقيقي من أن الرقيب المسؤول عن الطعام قد يصبح متورطاً في قضية غروسبارت .

ـ «ماركس» قال الكابتن : «أنت يهودي أليس كذلك؟»

ـ «أجبته بصراحة نعم يا سيدي .»

ـ «كم لك من الوقت في الجيش أخبر هذا الشاب»

ـ «ثلاث سنوات وشهرين .»

ـ «سنة كاملة في ميدان القتال يا غروسبارت ١٢ شهر في ساحات المعارك في

أوروبا . إني معجب بهذا الرجل» ضرب الكابتن على صدري «هل سمعته يتأفف من الطعام أريد منك جواباً واضحاً يا غروسبارت نعم أم لا .»

ـ «كلا يا سيدي .»

ـ «لماذا فهو يهودي أيضاً .»

ـ «إن بعض الأشياء تبدو أهم لبعض اليهود من غيرها .»

ـ انفجر باريت : «اسمع يا غروسبارت ، إن ماركس هذا رجل وطيب وبطل ، عندما كنت أنت ما تزال في المدينة كان ماركس يقاتل الألمان .

مَن الذي يعمل أكثر لمصلحة اليهود ، أنت الذي تتقيأ بسبب قطعة صوصج أو قطعة لحم أم ماركس الذي يقتل هؤلاء النازيين .

لو كنت أنا يهودياً يا غروسبارت لقبلت أقدام هذا الرجل ، إنه بطل ويأكل ما نعطيه ، لماذا يجب أن تتسبب لنا بمشاكل ، أريد أن أعرف ما الذي تهيؤه لاتهامنا .

ـ «كلا يا سيدي .»

ـ «إنني أتكلم مع حائط ، خذه من طريقي» قذف با ريت نفسه في مقعد السائق إني ذاهب لأرى القس ، انطلق با ريت بالجيب عائداً نحو المعسكر وسط عاصفة من الغبار التي أثارها موتور السيارة .

وقفنا أنا وغروسبارت لوهلة بجانب بعضنا البعض ، نراقب الجيب وهو يبتعد ثم نظر إليّ وقال : «أنا لا أريد أن أبدأ بإثارة المشاكل إن هذا أول اتهام يرموننا به دائماً .»

عندما تكلم غروسبارت تنبهت إلى أسنانه البيضاء والمستقيمة وقد دفعني منظر أسنانه إلى تفهم موقف أهله ، لا بد أنهم قد أخذوه في السابق إلى طبيب أسنان فقد كان ابنهم . وعلى الرغم من كل حديثه عن أهله ، كان من الصعب التصديق أن غروسبارت كطفل وكوريث له صلة رحم بأحد مثل أب أو أم ، وفوق كل شيء أنا .

هذا الإدراك دفعني إلى موضوع آخر .

ـ «ماذا يعمل أبوك يا غروسبارت؟» سألته بينما نحن نتوجه إلى خط الطعام

ـ «إنه خياط .»

ـ «أمريكي؟»

ـ «الآن نعم مع وجود ابن له في الجيش» قالها مازحاً .

«وأمك ؟» سألته

رمش قليلاً ثم أجاب : ربة بيت إنها تنام وممسحة الغبار في يدها .

ـ «هل هي مهاجرة سابقة أيضاً ؟»

ـ «إنها تتكلم اللغة اليهودية فقط .»

ـ «وأبوك أيضاً ؟»

«إنه يتكلم الإنجليزية قليلاً مثل كلمات تنظيف ، ضغط ، ارتد بنطالك ، هذا كل مداه في اللغة ولكنهما طيبان معي .»

ـ إذن يا غروسبارت ، مددت يدي لأوقفه ، التفت إلي وعندما التقت عيوننا ، شعرت أن عيناه قد تراجعتا قليلاً وأخذتا ترتجفان في محجريهما يا «غروسبارت أنت الذي كتبت الرسالة إذن .»

بدا لي لوهلة أن عيناه ترمشان جذلاً نعم واستمر بالسير تبعته ، وأكمل «إن أبي كان سيكتب نفس الشيء لو كان يعرف الكتابة بالإنجليزية لقد كانت الرسالة موقعة باسمه ، حتى أنه هو الذي أرسلها بالبريد ، لقد بعثتها لهما من بريد نيويورك . كنت مندهشاً وقد لاحظ هو ذلك ، مد يده أمامي بجدية تامة! الدم هو الدم أيها الرقيب ، قالها وهو يقرص عِرقاً أزرقاً في معصمه .»

ـ سألته : «بحق الجحيم ما الذي تحاول أن تفعله يا غروسبارت لقد رأيتك تأكل بنهم كالذئب في صف الطعام ، وإذا أردت للمدفأة أن تشتعل فعليك أن تلقمها بالفحم .»

ـ «إننا نتعب كثيراً من التدريب أيها الرقيب .»

ـ «لماذا قلت في رسالتك أنك تتقيأ كل الوقت ؟»

ـ «كنت أتكلم عن ميكي هنا ، فهو لن يكتب أبداً أيها الرقيب رغم أني رجوته فعل ذلك ، سيضيع نفسه هدراً إذا لم أساعده لقد استعملت اسمي واسم أبي ولكني مهتم بميكي وفيشباين أيضاً .»

ـ «أتعتبر نفسك المسيح أليس كذلك؟» كنا قد وصلنا إلى خط الطعام .

ـ قال وهو يبتسم : «إن هذه ملاحظة جيدة أيها الرقيب ولكن من يعلم ربما تكون أنت المسيح المنتظر . . . . يقول ميكي أن فكرة المسيح هي فكرة جامعة ، ذهب مرة إلى

يبشيفا ، وعاد يقول إننا جميعاً نكوّن المسيح ، مني قليلاً ومنك قليلاً ، عليك أن تسمع هذا الشاب يتكلم .»

ـ «أنا قليلاً وأنت قليلاً قلت له ، إنك تريد أن تصدق ذلك أليس كذلك يا غروسبارت؟ فهو سيجعل كل شيء مبرراً بالنسبة لك .» إنها ليست فكرة سيئة لكي تؤمن بها أيها الرقيب إنها تعني أن علينا جميعاً أن نعطي قليلاً .» أجاب غروسبارت .

ابتعدت عنه لأكل حصتي من الطعام مع الآخرين .

بعد مضي يومين ، وصلت إلى مكتبي رسالةٌ معنونة إلى الكابتن باريت جاءت عبر تسلسل قيادي من مكتب عضو الكونغرس فرانكوني ، حيث انتقلت من الجنرال ليمان إلى الكولونيل سوسا إلى الميجر لامونت ، والآن إلى الكابتن باريت قرأتها مرتين ، كانت مؤرخة في ٤ أيار وهو اليوم الذي تحدث فيه باريت مع غروسبارت في ميدان الرماية .

عزيزي عضو الكونغرس

قبل كل شيء أود أن أشكرك نيابة عن ابني شيلدون غروسبارت على اهتمامك ، لقد استطعت مخاطبة شيلدون على الهاتف في الليلة السابقة ، أعتقد أنني قد قد تمكنت من حل مشكلتنا ، فهو كما ذكرت لك سابقاً ولد متدين جداً ، وقد وجدت صعوبة كبيرة في إقناعه بأن أفعل ما يمكن للمتدين عمله وهو ما أراد اللّه نفسه من شيلدون أن يفعله ، تحمل آلام الندم الديني لصالح بلده ولصالح الإنسانية . لقد أخذ هذا الأمر مني وقتاً وجهداً يا سيدي عضو الكرنغرس .

لكنه تمكن من رؤية النور في النهاية ، الحقيقة إنه قال (لقد كتبت كلماته على مسودة كي لا أنساها) أظن أنك على حق يا أبي فمثلي الملايين من زملائي اليهود دفعوا حياتهم في كفاحهم أمام العدو ، إن أقل ما يمكنني عمله هو أن أحيا حتى ولو بقليل من ميراثي الديني ، من أجل المساعدة في إنهاء هذا الكفاح ومن أجل أن أعيد لأبناء اللّه كرامتهم وإنسانيتهم ، إن هذا الأمر سيكون مصدر فخر لأبي يا سيدي ، وعلى فكرة أراد شيلدون أن يعلمني وأن يمرر لك اسم الجندي الذي ساعده في الوصول إلى هذا القرار ، إنه الرقيب ناثان ماركس وهو مقاتل مخضرم مسؤول عن

شيلدون وقد ساعد شيلدون في تحمل بعض الصعوبات الأولى التي واجهها في الجيش ، كما تمكن من إقناع شيلدون بتغيير أفكاره حول قوانين الطعام في المعسكر. إني متأكد من أن شيلدون سيثمن كثيراً أي تقرير يتسلمه ماركس ، شكراً لك وحظاً طيباً . أنتظر رؤية اسمك في الانتخابات القادمة .

مع الاحترام
صامويل غروسبارت

كان هناك رسالة أخرى ملحقة برسالة غروسبارت وموجهة إلى الجنرال مارشال ليمان القائد الأعلى للقوات المسلحة ، مرسلة من عضو الكونغرس شارلز . أي .فرانكوني يعلم فيها القائد ليمان أن الرقيب ناثان ماركس هو ذخر للجيش الأمريكي والشعب اليهودي .

ما هو الدافع لغروسبارت وراء هذا وهل يشعر أنه قد تمادى كثيراً ؟ هل كانت الرسالة نوع من التراجع الاستراتيجي أو محاولة بارعة ، لتقوية ما يسميه تحالفاً بيننا أو هل غير رأيه حقيقة أمام حوار خيالي بينه وبين أبيه .

بقيت في حيرة من أمري لأيام قليلة إلى أن أدركت ، أنه مهما كانت دوافعه فقد قرر الابتعاد عني وإعطاء نفسه الفرصة ليصبح جندياً . رأيته عند التفتيش ولكنه لم يرمش ورأيته في تشكيلات الطعام ولم يومئ لي بأية إشارة . وفي أيام الآحاد كان يجلس مع باقي المتدربين ، يراقب فريق الكرة الخفيفة (سوفت بول) .

ولكنه لم يكلمني بأي كلام غير ضروري . كذلك فعل فيشباين وهالبرن اللذان كانا يأتمران بأمر غروسبارت! أنا متأكد من ذلك .

يبدو أنه رأى حكمة في التراجع ، قبل أن يغوص في قباحة الحصول على امتيازات لا يستحقها . لقد أتاح لي هذا الابتعاد فرصة لأغفر له مواجهاته السابقة علاوة على إعجابي به وبحسن تقديره .

في نفس الوقت وبعيداً عن غروسبارت ، بدأت أعتاد على عملي وعلى مهماتي الإدارية . اكتشفت حين وقفت على الميزان فيما بعد أنني لم أعُد مقاتلاً ، فقد زاد وزني وصرت أجد الصبر ، لأقرأ أكثر من ثلاث صفحات من الكتاب . بدأت أفكر

في المستقبل أكثر وأكثر حتى أني كتبت رسالة إلى فتاة كنت أعرفها قبل الحرب ووصلتني عدة إجابات ، راسلت جامعة كولومبيا طالباً فهرس كلية الحقوق وتابعت أخبار الحرب في الباسيفيكي ، راودني ظن بأني قد بدأت أرى نهاية الأمور ،حلمت ذات ليلة أنني أسير في شوارع منهاتن بروادواي الشارع ١١٦ بالتحديد ، حيث عشت الثلاث سنوات التي درست فيها كولومبيا . أخذت ألملم نفسي حول تلك الأحلام وبدأت أشعر ببعض السعادة . في أحد أيام السبت وبينما كان الجميع في الخارج ، جلست وحدي في غرفة القيادة أقرأ دورية شهرية حول أبناء الرياضة ظهر غروسبارت أمامي فجأة .

ـ «هل أنت من مشجعي لعبة البيسبول أ يها الرقيب؟»

ـ رفعت رأسي ورأيته «كيف حالك» قلت له .

ـ قال غروسبارت :«بخير لقد بدؤوا بصنع جندي مني .»

ـ «وكيف حال فيشباين وهالبرن ؟»

ـ إنهما يتدبران أمرهما ، ليس لدينا تدريب بعض الظهر لذلك قررا الذهاب إلى السينما .

ـ «لماذا لم تذهب معهما ؟»

ـ «رغبت أن أمر وأسلم عليك .»

ابتسم ابتسامة خجولة تعني أن كلانا على دراية بأن صداقتنا قد نَمت خلال هذه الزيارات غير المتوقعة ، من خلال تذكر أعياد ميلادي واقتراض ماكنة قص الحشيش من بعضنا البعض . في البداية شعرت بالضيق ثم أبعدت هذا الشعور شعور عام بعدم الراحة غمرني وأنا أفكر بأن الجميع في المعسكر منهمكون في حضور فيلم في قاعة معتمة ، وأنا هنا لوحدي مع غروسبارت ، أغلقت المجلة واستمعت إليه .

قال لي «أيها الرقيب أريد أن أطلب منك خدمة ، إنها خدمة ولا شيء غير ذلك» توقف متيحاً لي فرصة رفض الاستماع إليه ، مما دفعني طبعاً إلى التصرف بلياقة لم أكن أرغب بها «تفضل» قلت له .

«في الحقيقة إنهما خدمتان .»

انتظرت ولم أقل شيئاً .

«الأولى هي تلك الإشاعات التي تقول إننا ذاهبون إلى الباسيفيكي .»

ـ «كما قلت لصديقك فيشباين إنني لا أعرف ، علينا أن ننتظر لنعرف ذلك مثل سائر القوم .»

ـ «هل تعتقد أن هناك فرصة لنا للذهاب شرقاً ؟»

ـ «ألمانيا على ما أعتقد .»

ـ «أقصد نيويورك .»

ـ «لا أظن ذلك يا غروسبارت» . أجبته بارتجال .

ـ «شكراً على المعلومات أيها الرقيب .»

ـ «إنها ليست معلومات يا غروسبارت فقط . إنها تكهنات .»

ـ «للحقيقة إنه من المريح أن نبقى قريبين من البيت . . . الأهل كما تعلم . . . .

«مشى خطوة باتجاه الباب ثم التفت إلي وقال : «هل من الممكن أن أسألك خدمة أخرى .»

«ما هي ؟» قلت له

ـ «هي أن لي أقارب في سانت لويس وقد أبلغوني أنهم سيعدون لي عشاء عيد الفصح إذا تمكنت من زيارتهم ، بحق اللّه أيها الرقيب إن هذا يعني الكثير لي .»

وقفت وقلت له : «لا إجازات خلال التدريب الأساسي يا غروسبارت .» «لكن لدينا فرصة من الآن وحتى صباح الاثنين أيها الرقيب ، يمكنني أن أذهب هناك دون علم أحد .»

ـ «أنا أعلم وأنت تعلم .»

ـ «لكن هذا يبقى بيننا فقط نحن الاثنان . في الليلة السابقة اتصلت بعمتي وكان عليك أن تسمعها وهي تقول لي ، تعال عندنا ما سأطبخ سمكة بموجب الطرق الدينية ، يوماً واحداً أيها الرقيب أنا سأتحمل اللوم ما قد يحدث .»

ـ «لكن الكابتن غير موجود لتوقيع الإجازة .»

ـ «يمكنك أن توقعها أنت .»

ـ «اسمع يا غروسبارت .»

ـ «أيها الرقيب لقد مضى علي شهران وأنا آكل هذه القمامة ، أشعر أنني أكاد أن

أموت .»

ـ «لكن اعتقدت أنك عقدت العزم على التعايش مع هذا الأمر . حتى ولو نقص قليلاً من ميراثك الديني .»

ـ أشار بأصبعه إلي «إنها لم تكن موجهة إليك لتقرأها .»

ـ «لقد قرأتها فماذا تريد ؟»

ـ «إن هذه الرسالة كانت موجهة إلى عضو الكونغرس .»

ـ «غروسبارت لا تخادعني لقد رغبت أن أقرأها .»

ـ «لماذا تضطهدني أيها الرقيب ؟»

ـ «هل تمزح ؟»

ـ «لقد مررت بهذا من قبل ، لكن ليس من شخص يدين بنفس ديني .»

ـ «اخرج من هنا يا غروسبارت اغرب عن وجهي .»

لم يتحرك من مكانه بل أجابني : «إنك خجل من نفسك هذا ما أنت عليه لذلك تتحامل على ما تبقى منا . يقولون إن هتلر نفسه كان نصف يهودي وعندما أراك أقول لا شك في ذلك .»

ـ سألته «ماذا تريد مني يا غروسبارت ، هل تريدني أن أمنحك بعض الامتيازات ، أن أغير لك طعامك أن أبحث لك عن أوامرك الجديدة وأن أعطيك إجازات في نهاية الاسبوع .»

ـ «إنك تتكلم مثل الرعاع» ضرب غروسبارت بقبضته «هل هو بسبب هذه الإجازة التي طلبتها أليس الفصح مقدساً ؟»

ـ الفصح ! خطر لي فجأة أن الفصح قد مرٌ منذ أسابيع وقد قلت له ذلك .

ـ «نعم هذا صحيح» إجابتي «من يقول لا ، لقد مر منذ شهر وكنت أنا في ميدان التدريب ، آكل الحشيش والآن أطلب منك خدمة بسيطة .»

«إن أي يهودي يمكن أن يفهم طلبي . إن عمتي ترغب في أن تحتفل معي بعيد الفصح بعد شهر من وقوعه» أدار ظهره للخروج وهو يتمتم .

ـ «عد إلى هنا ناديته ، توقف ونظر إلي ، قلت له : يا غروسبارت لماذا لا تحاول أن تكون مثل الباقين ، لماذا تصر على أن تبقى مثل القرحة في الإبهام .»

ـ «لأنني يهودي أيها الرقيب أنا مختلف عن الجميع ، ربما أفضل منهم ربما لا لكنني مختلف .»

ـ «إننا في حالة حرب يا غروسبارت حاول أن تكون في الوقت الحالي مثل سائر الناس .»

ـ «إنني أرفض .»

ـ «ماذا ؟»

ـ «إنني أرفض ، لا أستطيع أن أكون غير ما أنا عليه هذا كل ما أملكه» اغرورقت عيناه بالدموع «من الصعب أن تكون يهودياً ، لكنني أتفهم الآن ما يقوله ميكي : إن من أصعب الأشياء عليك أن تبقى وحيداً» رفع يده باتجاهي «وقال انظر إلى نفسك .»

ـ «توقف عن البكاء»

ـ «توقف عن هذا ، توقف عن ذاك ، توقف أنت أيها الرقيب ، توقف عن الإنغلاق على نفسك» ، خرج مسرعاً وهو يمسح دموعه بكم قميصه «إنه أقل شيء ممكن أن نفعله لبعضنا البعض .»

بعد ساعة نظرت من النافذة ، رأيت غروسبارت يتجه نحو ميدان الرماية ، كان يرتدي بنطالاً كاكياً.ويحمل كيساً صغيراً ، خرجت إلى الحرّ في الخارج كان الوضع هادئاً ، لم أرَ أحداً سوى أربعة متدربين قرب قاعة الطعام ، يتحلقون حول وعاء كبير موضوع أمامهم ، يقشرون البطاطا تحت الشمس .

ـ ناديت غروسبارت .

التفت ناحيتي وأكمل سيره .

ـ «غروسبارت تعال هنا»

التفت وعبر الميدان ثم وقف أمامي .

ـ «إلى أين أنت ذاهب ؟»

ـ «إلى سانت لويس ولست أبالي بشيء .»

ـ «سوف يتم اعتقالك بدون إجازة .»

ـ «سوف يتم اعتقالي بدون إجازة .»

ـ «سوف توضع في الحجز .»

ـ «أنا أعيش الآن في الحجز أدار ظهره ومشى» . تركته يمشي خطوة أو خطوتين ثم قلت له : «عد إلى هنا ، تبعني إلى المكتب حيث طبعت له إجازة ، وقعتها باسم الكابتن وباسمي وبالأحرف الأولى من اسمي .»

أخذ الإجازة ثم عاد وأمسك بيدي ، «أيها الرقيب إنك لا تعرف كم يعني هذا لي .»

ـ «حسناً لا تورط نفسك في متاعب» .

ـ «يا ليتني استطيع أن أصف لك كم يعني هذا لي .»

ـ «لا أريد منك أي خدمات ولا تكتب لأعضاء الكونغرس مرة أخرى .»

ـ ابتسم «إنك على حق لن أفعل ذلك لكن دعني أفعل لك شيئاً بالمقابل .»

ـ «أحضر لي قطعة من تلك السمكة ، فقط اغرب عن وجهي بحق الجحيم .»

«سوف أفعل سأحضر معها شرحة جزر وبعض الفجل الحار لن أنسَ» . «حسناً فقط أريهم إجازتك على البوابة ولا تخبر أحداً .

«لن أخبر أحداً ، إنني متأخر شهراً عن الفصح لكن كل عام وأنت بخير» .

ـ «وأنت بخير يا غروسبارت قلت له .»

ـ «أنت يهودي طيب أيها الرقيب مهما حاولت أن تفتعل من قسوة القلب ، إلا أنك من الداخل شخص محترم طيب إنني أعني ذلك .»

تأثرت كثيراً بتلك الكلمات التي خرجت من فم غروسبارت : «حسناً يا غروسبارت بإمكانك أن تناديني الآن سيدي واغرب عن وجهي بحق الجحيم .»

خرج من الباب ، شعرت بارتياح شديد لتوقف المعارك مع غروسبارت لم يكلفني الأمر شيئاً ولن يكتشف باريت الأمر وإذا ما اكتشف فسوق أختلق له عذراً . جلست على مكتبي لبعض الوقت وأنا مرتاح لقراري ثم فتح باب الشبك فجأة ودخل غروسبارت .

«أيها الرقيب !»نظرت إلى الخلف . كان يقف فيشباين وهالبرن وهما يرتديان الكاكي ويحملان كيسين صغيرين مثل غروسبارت .

ـ «أيها الرقيب لقد صدفت ميكي وهالبرن خارجين من السينما ، كدت

أضيعهم .»

ـ «غروسبارت ألم أقل لك لا تخبر أحداً .»

ـ «ولكن عمتي قالت ، بأنه يمكنني أن أحضر بعض الأصدقاء معي ، والحقيقة يجب أن أفعل ذلك .»

ـ «إني أنا الرقيب يا غروسبارت وليس عمتك .»

نظر إلي غروسبارت غير مصدق ثم شد هالبرن من قميصه وقال لميكي : «أخبر الرقيب كم يعني هذا الأمر لك .»

ـ نظر إلي هالبرن وغص قليلاً ثم قال : «كثيراً» .

خطى فيشباين إلى الأمام تلقائياً وقال : «إن هذا يعني الكثير لي ولأهلي أيها الرقيب ماركس .»

ـ «كلا» قلت بصوت عال .

طأطأ غروسبارت رأسه «أيها الرقيب إنني أتفهم منعك لي ولكن كيف يمكنك منع ميكي وهو شاب يهودي متدين إنني لا أفهم ذلك .»

ـ «إني لا أنكر على أحد ، لكنك تماديت قليلاً يا غروسبارت ، إنك أنت الذي أنكرتهم .»

«سوف أعطيه إجازتي» قال غروسبارت «وأعطيه عنوان عمتي مع ملاحظة صغيرة على الأقل دعه يذهب .»

خلال ثوانٍ كان غروسبارت يضع الإجازة في جيب بنطال هالبرن ، نظر إلي هالبرن وكذلك فعل فيشباين ، كان غروسبارت قد وصل إلى باب الخروج ودفعه قائلاً : «يا ميكي أحضر لي قطعة من السمكة على الأقل وانطلق خارجاً .

نظر ثلاثتنا إلى بعضنا البعض ثم قلت لهالبرن : «أعطني هذه الإجازة أخرجها من جيبه وسلمها لي ، وفي هذه الأثناء كان فيشباين قد تحرك نحو الباب ثم تباطأ قليلاً ووقف فاغر الفم قليلاً ثم قال : «وأنا» .

أرهقتني سخافته المطلقة ، ارتميت على مقعدي وأنا أشعر بنبضات قوية تضرب مؤخرة عيني ، قلت يا فيشباين : «إنك تفهم أني لا أحاول إنكار شيء عليكم لو كان الجيش ملكاً لي لقمت بتقديم سمكة جيلفايت في قاعة الطعام وربما كنت أبيع كوغل

في المطعم أقسم لك .»

ضحك هالبرن

«إنك تفهم ذلك أليس كذلك يا هالبرن ؟»

ـ «نعم أيها الرقيب .»

ـ «وأنت يا فيشباين أنا لا أريد أن أصنع أعداء هنا أنا مثلكم أريد أن أنهي وقتي هنا وأعود للبيت إني أتوق لجميع الأشياء التي تتوقان لها .»

«إذن أيها الرقيب لماذا لا تأتي معنا ؟» قال فيشباين

ـ «إلى أين ؟»

ـ «إلى سانت لويس عند عمته شيللي ، سوف نأكل طعام فصح عادي ونلعب لعبة إخفاء الفطير» . ابتسم ابتسامة عريضة أظهرت أسنانه السوداء ،

حانت مني التفاتة ورأيت غروسبارت يقف على الطرف الآخر من الباب ، نادى ميكي قائلاً : «خذ هذا هو العنوان ملوّح بقطعة ورق قل لها إنني لم أستطع الحضور» .

لم يتحرك هالبرن نظر إلي ورأيته يهز كتفيه استهجاناً .

جلست إلى الآلة الكاتبة وقمت بطباعة إجازتين لفيشباين وهالبرن : «إذهبوا أنتم الثلاثة .»

ظننت لوهلة أن هالبرن سيقوم بتقبيل يدي .

عصر ذلك اليوم جلست أحتسي الجعة في أحد بارات جوبلين مصغياً نصف إصغاءة ، لأحدى مباريات لعبة كاردينال . حاولت أن أقيّم بوضوح هذا الأمر الذي تورطت به ، أخذت أفكر بأن هذه المعركة مع غروسبارت لم تكن خطأي ولم تكن خطأه ، من أكون أنا لأقدّم هذه المشاعر الكريمة ، بل من أكون أنا لأكون مغلق القلب ، حقوداً بهذا الشكل ، وبعد ذلك ليس مطلوباً مني أن أحرك العالم ، هل أملك الحق أو المنطق لكي أثقّل على غروسبارت ، عندها يعني ذلك أن أضغط على هالبرن وفيشباين أيضاً . هذا الشخص القبيح الرضي .

من بين ذكريات الطفولة التي راودتني في الأيام القليلة الأخيرة . كان صوت جدتي وهو يقول : لماذا كل هذا الضجيج ، كانت كلمتها هذه موجهة إلى أمي التي كانت كلما آذيت نفسي وأنا أقوم بعمل ، ليس من المفروض أن أعمله تنهمك في

توبيخي في الوقت الذي كنت أحتاج فيه إلى قبلة أو ضمة حنونة ، تأبى أمي أن تقوم بها .

كانت جدتي تعلم أن الرحمة تأتي قبل العدالة . كان يجب أن أتذكر ذلك أيضاً من يكون ناثان ماركس ليبخل بالرحمة أيضاً . أعتقد أن المسيح نفسه لن يبخل بالتأكيد ببعض الأمور البسيطة . . أستغفر اللّه ربما يقوم بالضم والتقبيل .

في اليوم التالي وبينما كنت ألعب الكرة الخفيفة على ساحة العرض ، قررت أن أسأل بوب رايت الذي كان مسؤولاً عن التصنيف والتعيين ، إلى أين سيُرسل المتدربون حال انتهاء الدورة بعد أسبوعين ، سألته بطريقة عارضة .

أجابني سوف يرسلون جميعاً إلى الباسيفيك ، لقد أنهى شولمان الترتيبات للباسيفيك منذ أيام .

صَدَمَتْني تلك الأخبار ، فقد صرت أنا الأب بالنسبة لهالبرن وفيشباين وغروسبارت .

تلك الليلة وبينما كنت أهم بالنوم سمعت قرعاً على باب غرفتي سألت من وجاءني الجواب :

ـ «شيلدون .»

ـ فتح الباب ودخل إلى الغرفة ، شعرت بوجوده لوهلة دون أن أتمكن من رؤيته كيف كانت؟ سألته :

اقترب مني عبر الظلام «رائعة أيها الرقيب» ، جلس على طرف سريري نهضت لأستقبله .

قال : «وماذا عنك أنت هل كانت نهاية أسبوع سعيدة ؟»

ـ «نعم» .

لقد خلد الجميع للنوم . أخذ نفساً عميقاً ـ جلسنا صامتين لبعض الوقت غمرني شعور بيتي غريب ، الباب كان مغلقاً والقطة في الخارج والأطفال نائمون .

ـ «أيها الرقيب هل يمكنني أن أخبرك بشيء شخصي ؟»

لم أجبه وبدا كأنه يعرف لماذا ، تابع قائلاً : «ليس بخصوصي أنا ولكن بخصوص ميكي ، لا أشعر مع أحد كما أشعر معه ، فقد سمعته يبكي ليلة الأمس ويتنهد

بشدّة وبشكل يحطم القلب .»

ـ «أنا آسف لسماع ذلك ، اضطررت أن أكلمه لأوقفه عن البكاء ، أمسك بيدي أيها الرقيب ولم يتركها كان في حالة هستيريا ، كان يقول باستمرار يا ليتنا نعلم إلى أين سنذهب حتى لو كان إلى الباسيفيكي ، هذا أفضل من لا شيء ، فقط يريد أن يعرف .»

منذ مدة طويلة ، يبدو أن أحدهم علّم غروسبارت تلك القاعدة المؤلمة بأن الأكاذيب فقط هي التي تخرج الحقيقة . ليس لأني لم أكن أصدق أن هالبرن يبكي فقد كانت عيناه دائماً حمراوين ولكن للحقيقة أن غروسبارت كان يكذب . كان يتّبعُ استراتيجية معينة بطريقته تلك ، وشعرت بمدى قوة هذا الإلهام فهناك استراتيجية اعتداء ولكن يوجد مقابلها استراتيجيات تراجع ، لذلك ومع إدراكي أنني أنا أيضاً لا أخلو من الخداع أخبرته ما أعرفه ، ستذهبون إلى الباسيفيكي .

تنهد قليلاً ، لم يكن يخادع بذلك وقال : «كنت أتمنى أن يكون مكاناً آخر .»

ـ «كذلك أنا .»

قفز فوق كلماتي وقال : «أتظن أنه بامكانك أن تفعل شيئاً إزاء ذلك كأن تغير شيئاً ربما .»

ـ «لا يمكنني أن أفعل شيئاً .»

ـ «ألا تعرف أحداً من تلك القيادات ؟»

ـ يا غروسبارت لا يوجد شيء يمكنني أن أفعله ، إذا كانت الأوامر تقول نحو الباسيفيكي فهي كذلك .

ـ «ولكن ميكي .»

ـ «ميكي ، أنت ، أنا كلنا يا غروسبارت لا يوجد شيء يمكننا أن نفعله ربما تنتهي الحرب قبل ذلك ـ صلي لكي تحصل معجزة .»

ـ «ولكن !»

«تصبح على خير يا غروسبارت» ، أدرت ظهري وشعرت بالراحة وأنا أسمع صوت ارتفاع زنبركات السرير ، حين وقف غروسبارت استعداداً للخروج . رأيته الآن بوضوح ، كانت فكاه ساقطتين وبدا كالدائخ ، لاحظت لأول مرة كيساً من الورق في

يده .

يا غروسبارت ابتسمت له : «هل هذه هي هديتي ؟»

أه نعم أيها الرقيب : «منا جميعاً» سلمني الكيس قائلاً إنها كعكة بيض .

ـ «كعكة بيض ؟»

ـ «كعكة بيض ؟» أخذت الكيس وشعرت برطوبة السمن في قاعه فتحته لا بد أن غروسبارت يمزح .

ـ «ظننا أنك ربما تحبها كعكة بيض صينية ربما تحب طعم . . . . . .»

ـ «هل قدمت لكم عمتك كعكة بيض ؟»

ـ «لم تكن بالبيت .»

ـ «غروسبارت لقد دعتك إلى منزلها أنت وأصدقاؤك .»

ـ «أنا أعلم لقد أعدت قراءة الرسالة كان الموعد في الأسبوع القادم» . نهضت من الفراش وسرت إلى النافذة غروسبارت . . . . ولكني لم أكن أنادي عليه .

ـ «نعم» .

ـ «ماذا أنت بحق اللّه ماذا أنت يا غروسبارت» ظننت بأن هذه أ ول مرّة يواجه سؤالاً لا يملك له جواباً فورياً .

ـ «كيف يمكنك أن تفعل بالناس هكذا ؟»

ـ «أيها الرقيب لقد كان يوماً جيداً لنا جميعاً . إن فيشباين يحب الأكل الصيني» .

«ولكن الفصح» قلت له .

لقد أخذنا الأكلة المفضلة من الدرجة الثانية .

اشتد بي الغضب ورفضت أن أتنحى

ـ «يا غروسبارت إنك كذوب ومخادع وماكر ولا تحترم شيئاً أبداً ، لا تحترمني ولا تحترم الحقيقة ولا تحترم حتى هالبرن المسكين إنك تستخدمهم جميعاً .»

ـ «أيها الرقيب ـ أيها الرقيب أنني أشعر مع ميكي أقسم باللّه أنا أحبه وأحاول .»

ـ «تحاول ! تشعر !» تقدمت نحوه وأمسكته من قميصه وهززته بعنف ، اخرج يا غروسبارت ، أخرج وابتعد عن وجهي بحق الجحيم ، لأنني إذا رأيتك مرة أخرى

فسأقلب حياتك كلها تعاسة . هل تفهم ذلك .

ـ «نعم .»

أفلته من يدي ، عندما غادر الغرفة راودتني رغبة في أن أبصق على الأرض التي كان يقف عليها حيث لم أستطع أن أكبح غضبي ، بدا لي أن هذا الغضب قد سيطر عليَّ لدرجة لن أستطيع التخلص منه إلا بالبكاء أو بارتكاب العنف .

تناولت الكيس الذي أعطاني إياه غروسبارت وطوحته من النافذة بكل عزم ، وفي اليوم التالي وبينما كان الرجال يمشطون المنطقة حول الثكنات سمعت صيحة من أحد المتدربين الذي كان يبحث في الأرض عن بقايا سجائر ولفافات حلوى كعكة بيض يا اللّه كعكة بيض صينية .

بعد أسبوع كنت أقوم بقراءة الأوامر التي وصلت إليَّ من القيادة ، لم أصدق ما قرأته . كان على كل المتدربين أن ينطلقوا إلى معسكر ستونمان بكاليفورنيا ومن ثم إلى الباسيفيك ، ما عدا واحداً هو الجندي غروسبارت ، فسيرسل إلى قلعة مون ماوت في نيوجيرسي .

قرأت الأسماء في الرسالة المنسوخة عدة مرات دي ، فاريل ، فيشباني ، فيوزيللي ، فيليبويش ، جلينيكي ، غرومك ، جوكوا هالبرن ، هاردي ، هيلبرانت وحتى انتون زيغالدو ، كلهم سيرسلون إلى الباسيفيكي قبل نهاية الشهر ، كلهم ما عدا غروسبارت لقد أمسك خيطاً ولكن لم يكن أنا .

رفعت السماعة واتصلت بالقيادة . جاءني الرد علي الهاتف الآخر :

ـ «العريف شولمان يا سيدي .»

ـ «أريد أن أكلم الرقيب رايت .»

ـ «من يتكلم يا سيدي .»

ـ «الرقيب ماركس .»

ـ لدهشتي سمعت الصوت يقول آه أنت رفيقه أيها الرقيب . كلمة آه من شولمان أخذت تدور في رأسي وأنا أنتظر رد الرقيب رايت ، لماذا آه ومن هو شولمان ثم فجأة بكل بساطة ، اكتشفت الخيط الذي أمسكه غروسبارت ، للحقيقة استطعت أن أسمع غروسبارت ، يوم اكتشف شلومان في مركز القيادة أو في لعبة بولنج أو ربما خلال أداء

الصلوات أنا سعيد لرؤيتك من أين جئت ؟»

ـ «من برونكس .»

ـ «وأنا أيضاً .»

ـ «هل تعرف كذا وكذا ؟»

ـ «وأنا أيضاً .»

«أتعمل في القيادة ؟ حقاً ما هي الفرص المتاحة للذهاب شرقاً ، هل تستطيع أن تفعل شيئاً بهذا الخصوص أن تغير شيئاً ، تكذب ، تخادع ، تغش ، يجب علينا أن نساعد بعضنا البعض ، كما تعلم لو أن اليهود في ألمانيا . . . . .

ـ «كيف حالك يا نات» ـ أجابني رايت «كيف أصبحت يدك الآن ؟»

ـ «بخير يا بوب ، أرجو أن تستطيع مساعدتي ،»

كنت أسمع كلماتي بوضوح وقد ذكرتني تلك الكلمات بغروسبارت الذي استهدفته في خطيئتي بأسرع ما كنت أتخيل . قلت لرايت قد يبدو الأمر غريباً ولكن هناك شاب جاءت الأوامر بإرساله إلى مونموث ويريد أن يغيرها ، فقد قتل أخاه في أوروبا وهو متحمس للذهاب إلى الباسيفيكي ، يقول إنه يشعر بالجبن إذا بقي في الولاية هنا ، لا أدري يا بوب هل يمكن أن تفعل شيئاً حيال ذلك وأن تضع شاباً آخر مكانه إلى مونموث .

ـ «مَن؟» سألني راي ؟

ـ «أي شخص ، أول اسم على الحرف ربما لا يهمني ، الشاب يريد فقط أن يسأل إذا كان هنا إمكانية لعمل شيء ؟»

ـ «ما هو اسم الشاب ؟»

ـ «غروسبارت ـ شيلدون»

لم يجب رايت

ـ «نعم قلت له إن هذا الشاب يهودي ، يظن أنني ربما أستطيع مساعدته أنت تعلم .»

ـ «أظن أنني أستطيع أن أفعل شيئاً» قال رايت أخيراً ، «لم يأت الميجر إلى هنا منذ مدة فلديه مهمة مؤقتة في ملعب الغولف ، سأحاول يا نات . هذا كل ما أستطيع

أن أقوله لك .»

«سأكون شاكراً بالتأكيد يا بوب ، أراك يوم الأحد» ، أغلقت السماعة وأنا أتصبب عرقاً .

في اليوم التالي جاءت الأوامر الجديدة : فيشباين ، فيوزيللي ، فيليبويشي ، جلينيكي ، غرومك ، غروسبارت ، غوكوا ، هالبرن ، هاردي . . . وحده الجندي هارلي أرلتون حالفه الحظ بالذهاب إلى فورت مونموث بنيوجيرسي ، حيث يحتاجون لسبب ما لشاب متدرب على المشاة ،

بعد تناول الطعام تلك الليلة عدت إلى غرفة القيادة لأعد جدول الحراسة . كان غروسبارت ينتظرني صاح في وجهي : «أيها الوغد ماذا لديك ضدي ـ وضد عائلتي ، هل يؤذيك أن أبقى بجانب أبي ـ اللّه يعلم كم شهر بقي له على قيد الحياة» .

ـ «ولماذا ؟»

«إنه مريض بالقلب» قال غروسبارت «ألا يكفيه ما واجه من المشاكل في حياته حتى تضيف عليه ، إني ألعن اليوم الذي قابلتك فيه يا ماركس ، لقد أخبرني شولمان بما حدث ، ليس هناك حدود لعدائك للسامية أليس كذلك؟ ألا يكفيك الضرر الذي فعلته هنا حتى تتم ذلك الاتصال الهاتفي ، هل حقاً تريدني أن أموت ؟» .

ـ «تصبح على خير يا غروسبارت .»

«إنك مدين لي بتفسير! وقف في طريقي .»

«شلدون أنت مدين لي بالعديد من التعبيرات .»

ـ «قطب جبينه ، أنا مدين لك ؟»

ـ «نعم مدين لي ومدين أكثر لفيشباين وهالبرن .»

ـ «هذا صحيح تريد أن تعكس الأمور الآن ، أنا لست مديناً لأحد ، فعلت كل ما أستطيع لهم وأظن أن لدي الحق الآن لأساعد نفسي .»

ـ «علينا أن نساعد بعضنا البعض أنت قلت لي هذا بنفسك يا شيلدون .»

ـ «هل تسمي هذه مساعدة بعد الذي فعلته ؟»

ـ «كلا إنها مساعدة لنا جميعاً .»

دفعته جانباً وسرت نحو الباب ، سمعت أنفاسه الغاضبة ورائي وقد بدت كالبخار الخارج بقوة من آلة بخارية .

«سوف تكون بخير» قلت له وأنا أقف على الباب «وأظن أن فيشباين وهالبرن سيكونان بخير حتى وهم في الباسيفيكي ، هذا إذا استمر غروسبارت يرى في خنوع الأول ورومانسية الآخر بعض المنفعة لنفسه .»

وقفت خارج غرفة القيادة ، كنت أسمع غروسبارت يبكي خلفي هناك في الثكنات المضاءة النوافذ . كنت أستطيع رؤية الشباب بقمصان التي شيرت ، جالسين على أسرتهم يتحدثون عن الأوامر تماماً كما كانوا يتحدثون لليومين الأخيرين . كانوا يلمعون أحذيتهم وأحزمتهم بعصبية هادئة ويرتبون ثيابهم الداخلية محاولين أن يتقبلوا قدرهم . أما خلفي فقد كان غروسبارت يبتلع الأمر بصعوبة ،

أما أنا فقاومت نفسي بشدة من أن ألتفت إلى الخلف ، أطلب السماح منه لحقدي وانتقامي ومشيت أتقبل قدري .

١٩٦٢

ستانلي إلكن

باعة وفضوليون - فضوليون وباعة

عن «برسبكتيف»

لعن غرينسبان عجلة القيادة التي تضرب معدته ، مثل ضربة قاسية مباشرة من يد إنسان ! لعن اللّه السيارات التعيسة ، لقد دفعت ٤٥٠٠ دولاراً ولا يوجد فيها مكان أتنفس فيه . أخذ يفكر بمرارة بالبائع المبتسم الذي باعه السيارة . كانوا ينادونه جيك في صالة العرض . انسل من المقعد بحذر كأنه يحمل شيئاً قابلاً للكسر وأراح جسمه الضخم خارج السيارة ، لكنه عندما رأى عداد الموقف انتابه غضب جامح : إنهم لا يدعونك تعيش ! سوف أَضَعُ نقودك في العداد من أجلك سيد غرينسبان . كان يقلّد صوت الشرطي الإيرلندي . دولارين أسبوعياً من أجل هذا النذل ، إضافة إلى النقود التي ندفعها للعداد ثم يتكلمون عن اليهود . رأى غرينسبان الشرطي عبر الشارع يحرر مخالفة . دار حول سيارته وتفقد بعناية أبواب السيارة . انطلق نحو مخزنه . أيها السيد غرينسبان ناداه الشرطي .

التفت إليه قائلاً : «نعم» .

ـ «صباح الخير»

ـ «نعم نعم . صباح الخير»

تقدم النذل نحوه عابراً الشارع البزات ، من يرتدي البزات غير المجانين .

ـ «يوم لطيف يا سيد غرينسبان» قال الشرطي .

وافق غرينسبان بغيظ .

ـ «لقد تأثرت كثيراً حين عرفت مشكلتك يا سيد غرينسبان»

«هل وصلك كرتي ؟» سأله الشرطي

ـ «نعم لقد وصلني ، شكراً لك ،» تذكر أنه استلم شيئاً عليه رسمة ورد وأشعة وردية . ربما صورة صليب أو ما شابهه .

«كنت أود الحضور إلى الكنيسة ، لكن عديلي جاء من كليفلاند لزيارتنا ، فلم أتمكن من ذلك .»

«نعم» قال غريسبان «ربما في المرة القادمة»

نظر إليه الشرطي ببلاهة ، بينما كان غرينسبان يمد يده إلى جيبه .

ـ «كلا لا تهتم بذلك سيد غرينسبان ، سأهتم بها اليوم .»

«أرجوك إنسى الموضوع اليوم .»

ـ شعر غرينسبان وكأنه يعطي المال هباءً ، قال في نفسه لا تمن علي أيها النذل أبقي الدولارين بدل منتك .

أدار الشرطي ظهره استعداداً للذهاب وهو يقول :«حسناً يا غرينسبان لا يستطيع أحد أن يقول شيئاً في أوقات مثل هذه ، لكنك تعلم كم يهمني أن تستمر في حياتك أليس كذلك ؟» «بالتأكيد» قال غرينسبان «هذا صحيح أيها الضابط .»

عبر الشرطي الشارع منهياً كتابة المخالفة ، تابعه غرينسبان بنظره حانقاً وهو يراقب مسدسه يتدلى في قرابه . كانت الشمس تعكس أشعتها على الأصفاد التي تلمع على جنبه ، النذل قال في نفسه :

ـ «يخاف على نقوده القذرة ـ سوف يصبح هناك زيادة في أماكن الوقوف أسرع مما يعتقد .»

مشى باتجاه الدكان . كان بإمكانه أن يوقف السيارة أمام محله ، لكنه تركها بحكم العادة أمام دكان منافسه ، مسألة ضغينة قديمة لا معنى لها ، غداً سوف يغير المكان ما الفرق ، موقف واحد بالناقص لماذا عليه أن يسير على قدميه .

أحس بانتفاخ وبثقل في معدته ، يجب أن أذهب إلى الحمام وإلا سأنفجر ، نظر إلى الشارع بفراغ دون أن يشعر بأي من الإثارة السابقة وما الذي جعله يعود .

فجأة أخذ يسائل نفسه في حزن ، كم أفتقد هذا الولد يا إلهي هارولد المسكين ،

لن أراه مرة أخرى ، لن أرى ابني مرة أخرى ، كاد يختنق ، رجل ضخم شاحب اللون يضرب بقبضته على صدره بحزن وأسى ، سحب محرمة من جيبه وتنشق .

هكذا سارت الأمور ، يعوم في الفرن والفتور فجأة ليذوب في حزن شديد وحانق . لم يعد الشارع مكاناً له ، تذكر زوجته غاضباً ، لا بد أنها أصيبت بالجنون حتى تردد على مسامعه دائماً ، أشغل نفسك ، أشغل نفسك ، ماذا تظنه ولد صغير ، سيفقد عقله .

لقد فقد حقه في تقرير مصيره ، صار المطلوب منه أن يمضي وكأن شيئاً لم يحدث . زوجته وهذا الشرطي لهما نفسيتان متشابهتان ، الأمر كما في أفلام السينما إذ بعد أن يرفسك الحصان في رأسك ، عليك أن تنهض وتمتطيه كي يرميك وينهي الأمر ، لو أنه يستطيع الحصول على مشترٍ فسيبيع كل شيء .

نظر في طريقه إلى النوافذ ، بدت العروض أمامه خرقاء سخيفة الآن ، أصبح الآن يكره كعكات الأعراس والساعات المجوفة ، بينما كان في السابق يستمتع كثيراً بتماثيل العرض الغريبة الضخمة ، تماثيل اللعب تلك ، أخذ يفكر بمرارة . كان يجد متعة خاصة في مشاهدة رفوف المعلبات وأكوام البرتقال والتفاح المرتبة على شكل هرمي في دكانه ، كانت تبدو له شيء لا يصدق . تذكر أنه كان يحب النظر إلى غرف المعيشة الصغيرة المعروضة في نافذة صالة العرض والتماثيل الشمعية الجالسة على الأرائك تقدم القهوة لبعضها البعض . اعتاد أن ينظر إلى ذلك الأثاث الباهظ الثمن ويسميها بضاعة . كانت الكلمة تبدو ثقيلة وغامضة بالنسبة له . بضاعة ينقلونها على ظهورهم ، ماذا يعني ذلك ؟ لا شيء لا معنى له . فطن إلى وجود أحد يراقبه .

أحد يراقبه

ـ «مرحباً يا جيك» كان ذلك مارغوليس الذي ـ يعمل في محل بيع التلفزيونات .

ـ «مرحباً مارغوليس . كيف حالك ؟»

«إن الأشغال سيئة جداً . لقد اخترت العودة للعمل في الوقت التعس» ، رجل يموت ابنه ويقول مارغوليس إن الأشغال سيئة . أخذ يفكر في ابن القحبة التافه هذا .

ـ «لا يمكنك أن تغلق المحل دقيقة واحدة ، فأنت لا تعلم متى يأتي الزبون ، إنني لم أتناول القهوة منذ فارقتنا قال مارغوليس .»

«يبدو أن الأمر كان صعباً عليك ، كان عليك أن تخبرني فقط ، كي أرسل لك فنجاناً»

ابتسم مارغوليس بحزن . تذكر موت ابن غرينسبان .

«لا بأس يا مارغوليس» أحس بالضعف يداهمه مرة أخرى ، أصبح شيئاً يتوجب عليه أن يراقبه ، شيئاً جديداً بالنسبة له ، لكنه مألوف ، ينطلق بسرعة كأنه مركب على زنبركات «بياجيك» أخذَ مارغوليس ينتحب .

ليس الآن يا مارغوليس قالها بغضب ، أحسَّ أنَّ عليه أن يبتعد . كان وجهه منتفخاً كطفل على وشك البكاء ، وبدا خنوعاً هادئاً ، كان عليه أن يحمل قبعته بيده ، لم يستطيع جيك أن ينظر إليه ، لأنه كان يشعر دائماً أنه على وشك إلقاء خطبة أمامه لا يرغب سماعها ، لماذا يحتاج إلى خطبة في الوقت الذي أصبح فيه ابنه تحت التراب ، في علبه معدنية محكمة الإغلاق ، كما يقول مدير الجنازة يا إلهي محكمة الإغلاق مثل معلبات القهوة . ابنه تحت التراب والموديلات في نوافذ العرض يرتدين موضة الموسم القادم . سوف يلكم مارغوليس في وجهه إذا قال كلمة واحدة .

نظر مارغوليس إليه ، انحنى بحزن وهو يمد راحته كأنما يقول أعرف ، أعرف ، استمر ينظر إليه ، أخذ غرينسبان يفكر : إنه يحسب ، هذا ما يفعله ، أن يضع بحسابه حقيقة أن ابني قد مات ، أظنه يقدر كيف يقدم لي الاعتذارات كما يقدر بالعادة حساب زبون في محله .

«يجب أن أذهب يا مارغوليس» قال غرينسباين .

«بالتأكيد وأنا أيضاً» قال مارغوليس وقد بدا عليه الارتياح ، سوف «أراك يا جيك ، إن الرجل القادم من آر . سي . آي . قد عاد مع الحمولة ، ماذا سأفعل بها ؟»

سار غرينسباين إلى آخر صف المنازل ، عبر الشارع وهو ينظر إلى أسفل الشارع الفرعي ، شاهد الكنيس الذي صلى به الليلة عن روح ابنه .

دخل المحل وهو ينظر إليه باشمئزاز ، رأى الإشارات خلف الزجاج ، كالبالونات في

ألعاب التسلية ، وقد كتبت عليها بعض الكلمات ، كانت الأحرف كبيرة وباللون الأحمر ، كأنها تعلن عن نهاية العالم . أما الزجاج فكتبت عليه كلمات كبيرة باللون الأبيض ، كأنها لوحة إعلانات . دخل إلى الواجهة الزجاجية ونظر إليها ، كان مسؤول قسم الخضروات يقف - فرانك على واجهة الخضروات ، يرفع الورق الذي يغلّف حبات البرتقال ، أما الجزار هوارد فقد كان واقفاً عند آلة الحساب يتكلم مع شيرلي المحاسبة ، رآه هوارد من خلال الزجاج ولوح له بحرارة أما شيرلي ففتحت له الباب ، «صباح الخير يا سيد غريسباين» قالت له .

«مرحباً يا جيك كيف حالك؟» قال له فرانك .

«كيف تسير الأمور يا جيك قال هوارد .»

«هل جاء «سيغي»؟ هل أخبرته عن الجبنة ؟»

ـ «لم يأت بعد يا جيك» قال فرانك

«وماذا عن اللحم هل قدمتم الطلبية .»

ـ «طبعاً يا جيك» قال هوارد : «لقد اتصلت بالرجل يوم الخميس .»

ـ «أين الوصولات» سأل شيرلي .

ـ «سوف أحضرها لك يا سيد غريسبان ، لقد اطلعت على وصولات الأسبوعين السابقين ، سأحضر لك وصولات الأسبوع الأخير» ، سلمه رزمة من الورق ، كانت أقل من الأسبوع الماضي بأربعمائة وسبعين دولاراً ، لا بد أنهم كانوا في نزهة ، قال غريسبان في نفسه ، هذا كل شيء! نظر إليهم ورآهم ينظرون إليه باهتمام ، إذن قال إذن .

«من اللطيف أن تعود بيننا يا سيد غريسبان» قالت شيرلي وهي تبتسم «نعم» قال لها «نعم» .

«وصلتنا طلبية أمس ياجيك ، لكن الحمّال المحترم كان ثملاً فلم يتمكن من وضعها بكاملها على الرف» قال فرانك :

انحنى غريسبان قائلاً «لكن المبيعات قليلة»

ـ «لقد كان العمل سيئاً ، أعتقد أنه بسبب الإضراب» قال فرانك .

ـ «إن إضراب عمال المناجم في غرب فرجينيا ، هو السبب في ذلك وفي هبوط

الأشغال في هذه المنطقة .»

«هناك مضاعفات» أجاب فرانك معظم الصناعات تأثرت .

«نعم» قال غريسبان «نعم صناعة البرتزل وصناعة حساء الدجاج بالشعيرية .»

«حسناً كانت الأشغال سيئة يا جيك» قال هوارد مشاكساً .

«أظن أنها كانت سيئة جداً ، إن الوقت مناسب للبيع ما رأيك ؟»

قال غريسبان .

«هل تفكر جدياً بالبيع يا حيك ؟» سأله فرانك .

«هل تشتري محلي يا فرانك ؟»

«أنت تعلم يا جيك ، أني لا أملك مثل هذه الكمية من المال» قال فرانك مرتبكاً .

ـ قال غريسباين «نعم» نعم .

نظر فرانك إلى غرينسباين الذي كان ينتظر منه أن يقول شيئ ،اً لكنه سرعان ما أدار ظهره ليكمل نزع الأوراق عن البرتقال ، لص ! قال غريسباين في نفسه ، يظن نفسه شيئاً أظن أني أهنته ، أنا ذاهب لأبدل ملابسي ، يا شيرلي أرجو أن تناديني إذا حضر سيغي ، دخل إلى الحجرة الصغيرة في الواجهة الخلفية للمحل ، ومد يده لتناول ثياب العمل الموضوعة على العلاقة خلف الباب ، لكنه فوجئ بوجود ثياب داخلية نسائية معلقة فوق ثيابه . كانت هناك صدرية معلقة من جهة واحدة فوق بنطاله . ما هذا ؟ هل هذه غرفة لتغيير الملابس ؟ هل تستحم هذه المرأة في مجلى الحمام ؟

فكر قليلاً ثم حاول بحذر أن يأخذ ثيابه عن العلاقة ، دون أن يلمس باقي الثياب النسائية ، لكنه إرتبك وأسقطها على الأرض ، تكومت فوق بنطاله على الأرض . نظر إلى تلك الثياب ، بدا المنظر قذراً بالنسبة له ، كأنما أمامه شخصان أسقطاها على عجلة من أمرهما ، وراحا يمارسان الحب خلف الباب .

تناول بنطاله وبدّل ملابسه ثم تناول علاّقة أخرى من تحت المجلى ، ألصقها بجانب الأولى ليضع عليها صدرية شيرلي ، توقف قليلاً وتأمل الصدرية ثم شعر بالخجل من نفسه ، شعر بتعب شديد . أدخل رأسه في فتحة المريول وطواه خلف ظهره ، فوق كنزته الزرقاء القديمة التي يرتديها حتى في فصل الصيف . أدار حنفية المجلى وغسل

عينيه . «أغبياء أغبياء قال لنفسه تضعون المرايا لمراقبة زبون ، يسرق العلكة وتغادرون المخزن كلكم في نفس الوقت» كان يتكلم عن هوارد وفرانك . جلس على مقعد الحمام يحاول أن يريح ثقل معدته ، ظل المريول معلقاً تحت صدره وكأنه على مقعد الحلاقة والمنشفة على ركبتيه ، لا بد أني أبدو كمن يقص شعره ، قال لنفسه ، ثم نظر إلى ثياب شيرلي الداخلية إنها نجمتي المفضلة ، تذكر ما قاله هوارد مرة ، «كانت فتاة عرض» ، لا بد أن شيئاً ما كان يجري بينهما أغبياء ! كان يعلم أنهما يذهبان للشرب معاً بعد الدوام . هذا شيء سيء كخطوة أولى ، هل يا ترى يتضاجعان خلف المخزن ؟ إن هوارد متزوج ورب عائلة لكن لا يمكن أن تثق بجزار شاب ، لماذا لا يحاول أن يبيع المخزن ويرتاح من هذه المأساة . هل يجني مالاً كافياً ، إن هذا لجنون ، لكن على كل حال ، هناك أشياء يضطر الرجل أن يلاحقها في عمله ، لكن مثل هذا ! هذا جنون إنه محاط باللصوص والمخادعين ، يثقلون عليه ويدفعونه دائماً ، ماذا يعني هذا ؟ لماذا يفعلون هذا ؟ هل سيكون الأمر مختلفاً لو كان هارولد حياً ؟

طبعاً كلا لقد كان يعرف الكثير عن العمل ، ولكن هذا لن يغير النتيجة . الموت هو عبرة ، يبق لي شيء أطمح إليه الآن . ما الذي أحتاج إليه ؟ في الشارع أو المخزن لقد رأى كل شيء ،كأنّ الجميع مصنوعون من الزجاج . لماذا أصبح فجأة هكذا ؟ وقف ونظر إلى مقعد الحمام ، لا بد أني أحتاج إلى مسهل ، غادر الحمام منزعجاً .

في مكتبه في الغرفة الخلفية ، وقف بجانب الحمام ونظر حوله ، رأى أربعة أو خمسة صناديق من الحساء والخضار المعلبة مسنودة على أحد الجدران ، دفع طاولة أمام خزانة اللحوم وذهب ليحضر قلماً ، حانت منه التفاتة إلى أوراق الملاحظات الموضوعة بجانب جهاز الهاتف ، وقعت عيناه على ورقة كانت بخط ابنه ، يبدو أنها طلبية نقلوها عندما كان يأتي يوم السبت في أوقات ازدحام العمل ، كاد قلبه أن ينفطر وهو يتأمل الكتابة ، يا إلهي إن هارولد ميت ، لمس الأحرف المهجاة بدون دقة والتي كتبت على عجل ، يبدو أنه كان مشغولاً ، بالكاد أستطيع قراءاتها ، قربها إلى عينيه لا بد أنه كان مستعجلاً ، تنهد ثم كرر القول ، يا إلهي لا بد أنه كان في عجلة من أمره ، انتزع الورقة من الدفتر وطواها في جيبه ،خلال دقيقة كان داخل المخزن .

في الواجهة كانت شيرلي تتحدث إلى سيغي ، متعهد الأجبان ، لاحظ

غريسباين أنه كان يتكئ على منصة الكاش بطريقة عفوية ، أثارت غضب غريسباين وعبر الممر نحوه ،سيغي قادماً ، قال له شالوم جيك .

ـ «أريد أن أكلمك .»

ـ «هل الأمر هام يا جيك؟ إنني في عجلة شديدة من أمري ، ما زال لدي بعض الطلبيات .»

ـ «ماذا أحضرت لي ؟»

ـ «الطلبية العادية يا جيك باوندين من الجبنة الزرقاء ، بعض الجبنة السويسرية ! شهية»قال وهو يمسح شفتيه .

ـ «لقد تلقيت بعض الشكاوي يا سيغي .»

ـ «من الأمريكيين بالتأكيد ! إن الأمريكي العادي لا يفقه شيئاً عن الجبنة ، أنا لا أعني شيئاً» ثم استدار ليمشي .

ـ «سيغي هل أنت تركض .»

ـ «سوف أعود غداً يا جيك بإمكاننا التحدث عن الموضوع .»

ـ «الآن أريد الآن .»

ـ «استدار سيغي بتردد ما الأمر ؟»

ـ «إنك تحضر بضاعة قديمة . من هو موزع الجملة الذي يعطيك هذه البضاعة ؟»

ـ «جيك ، جيك لقد تباحثنا في هذا الأمر سابقاً ، أنا أسترد المتبقي دائماً أليس كذلك ؟»

ـ «ليست هذه هي النقطة .»

ـ «هل خسرت بنساً من ورائي ؟»

ـ ««سيغي» من هو مورد الجملة ؟ ومن أين تأتي بهذه البضاعة ؟»

ـ «أنا أبيعك أرخص من مصنع الألبان أليس كذلك ، ألست أرخص منهم ؟ ما الذي تريده يا جيك ؟»

ـ «سيغي لا تكن غبياً واعرف مع من تتحدث ، لا تكن غبياً ، إنك تترك لي تلك الجبنة الرخيصة القذرة التي تلقي بها مصانع الألبان ، إني اشتري منك مستردات جميع المحلات ، لأن الجبنة التي اشتريتها تبدو فاسدة . هل تظن أن الزبون

سيرضى بهذه الجبنة التي تنفجر ، كالقنبلة بعد يومين من شرائها . وماذا عن الزبائن الذين لا يعيدونها ، إنهم يظنون أني أحتال عليهم ولن يعودوا إليّ أبداً ، أنا لا أريد هذه البضاعة ، أعطني بضاعة طازجة ، وإلا سألجأ إلى بائع غيرك .

ـ «لا أستطيع أن أعطيك جبنة طازجة بالسعر نفسه يا جيك أنت تعلم ذلك .»

ـ «بالسعر نفسه» .

ـ «جيك ما بالك» قالها مشدوهاً .

ـ «بالسعر نفسه يا سيغي لا تحاول أن تخدعني .»

ـ «كلمني غداً سوف نصل إلى حل ما» ، أدار ظهره استعداداً للذهاب سيغي ناداه غرينسباين ، لكنه أصبح خارج المخزن .

شد غرينسباين على قبضته : «الأحمق» قال :

ـ «إنه دائماً في عجلة هذا الرجل» قالت شيرلي .

نعم ، نعم قال غرينسباين ثم خطا نحو ثلاجة عرض الأجبان ، ليرى ما أحضره سيغي .

ـ «أيها السيد غرينسباين ، لا أعتقد أن لدي كفايتي من الفراطة» قالت شيرلي .

ـ «أين الحمّال أرسليه إلى البنك .»

ـ «لم يأت بعد هل أذهب أنا بسرعة .»

أدخل غرينسباين أصابعه في علبة الكأس . . . «إن لديك ما يكفي حتى يحضر .»

ـ «حسناً إذا كنت تظن ذلك فلا بأس .»

ـ «ماذا نفعل ، عمل كبير ،عمل كبير يستعمل فكة النقود ؟ أنا لا أرى الزبائن يتدافعون فوق بعضهم البعض في الممرات .»

ـ «لقد سبق وأخبرتك يا جيك» قال هوارد وهو يطل من خلفه «إن العمل أصبح سيئاً . لم تعد الناس تستهلك مثل السابق .»

هنا قال غرينسباين «أعطني عشرة دولارات وسأذهب بنفسي ، يا هوارد ، لقد رأيت بعض الصناديق ، لم توضع على الرف بعد في الخلف ، قم بوضعها على الرفوف يا هوارد .»

ـ «أنا أضعها على الرفوف ؟» سأل هوارد .
ـ «لقد قلت لي بنفسك أن العمل أصبح سيِّئاً . هل أنت هنا لتبقى بعيداً عن الشوارع أم لسبب آخر ؟ ما هذا ؟»
ـ «ولماذا تدفع للولد نقوداً ؟»
ـ «إنه لم يأتِ بعد ، وعندما يأتي سآمره بتقطيع بعض اللحم وهكذا تصبحان متساويين .»
ـ أخذ النقود وانطلق إلى الشارع ، إن الأمر سيء ، عليك إما أن - تثق بهم أو أن تفقد صوابك ، إن كل صاحب محل بيع بالمفرق يعاني من نفس المشكلة ، رَمش بعينه وأخذ يفكر ،حسناً يجدر بي أن أضع نسبة لتراجع العمل ! مهما تأمن الوضع عند علبة الكاش فسيبقى سخيفاً في حالته ، فهؤلاء محترفون مثل المافيا . ماذا سينفعه الغضب ، تقول زوجته : الآن ها قد عاد ليراقبهم ، لم يعد يحتمل حتى الوقوف في مخزنه ، يظنون أنهم سوف يخرجون بشيء ، هؤلاء الأوغاد .
دخل إلى المصرف ، شاهد نباتات الخنشار التي تزين الجدران والمكاتب المرمرية حيث يملأ المودعون بياناتهم ، الروزنامات الأنيقة التي يتم تبديل أوراقها كل يوم ، الحارس الذي يضع مسدسه على وسطه وقرنفلة بيضاء في جيب بذلته . القاصة الضخمة التي يزيد سمكها على سماكة الجدران ، لامعة ومفتوحة خلف الباب الحديدي الصلب .
أمناء الصناديق خلف أقفاصهم ، صغار وهادئون ، لكنهم دخلوا إليها بلا صوت أقدام ، موظفو البنك بشعورهم الرمادية وثيابهم الأنيقة ، يرتاحون على مكاتبهم الضخمة ، وقد ثبتوا شخصياتهم الرسمية خلف لوحات أسمائهم المحفورة إن هذا شيء عظيم . البنك شيء عظيم ، فعلى الأقل لا يتراجع عمله .
سلم أحد أمناء الصناديق ورقة العشرة دولارات ليفكها .
ـ «مرحباً يا سيد غرينسبان ، كيف حالك هذا الصباح؟ لم نرك مؤخراً .»
ـ «لم أداوم في مخزني منذ ثلاثة أسابيع» قال غرينسبان .
ـ «آه إن هذه فرصة طويلة» قال أمين الصندوق .
ـ «لقد توفي ابني .»

ـ «لم أكن أعلم ذلك ، فقال الرجل : أنا آسف جداً .»

أخذ الأوراق التي أعطاها له الرجل ووضعها في جيبه ، ثم شكره . كان الشارع هادئاً وبدا كيوم الأحد ، لا يوجد أحد في المخزن ، لاحظ من خلال زجاج المحلات ، أنه نسي أن يخلع مريوله . بدا له أن المريول يعطيه صفة الرجل المشغول جداً . إن المريول يترك أثراً أكثر من بذلة العمل ، إلا في حال وجود حقيبة ، ربما حقيبة ومريول ، يجعلانك تبدو مشغولاً ، أما الزي وحده فلا يترك أثراً ، الجنود لا يبدون مشغولين وكذلك رجال الشرطة ، ربما رجل الإطفاء يبدو مشغولاً عندما يضع قبعته الضخمة على رأسه .

يا إلهي رجل في مثل سنه يسير في الشارع مرتدياً مريولاً! ، تساءل فيما إذا لاحظه مساعدي الرئيس في البنك وهو يرتدي المريول ، شعر بثقل في معدته مرة أخرى ، بدا قلقاً محبطاً وغير مرتاح ، مر عبر اللوحة الكبيرة على زجاج مطعم الكوكيري حيث يتناول طعامه في العادة ، لوحت له الفتاة الواقفة على علبة الكاش تدعوه إلى الدخول ، أحنى رأسه وتردد ، قبل لحظة عندما رآها تلوح بيدها فكر بالدخول ، سيكون هناك أصدقاؤه وبعض رجال الأعمال ، يشربون القهوة ويدخنون السجاير وينفضونها في فناجينهم ، سيجد هناك تلك الحلويات المقطعة والملفوفة بأناقة في أجزاء متساوية ، حتى بدون أن يدخل كان يعلم تماماً كيف سيكون الأمر في الداخل ، سيكون هناك البائعون والطفيليون ، البائعون يتحدثون ويشكون بحماس عن أوضاع عملهم وعن المسافات التي يقطعونها ، وعن صحتهم ويأسهم الواضح في الحياة ، عن أوضاعهم الغامضة وأحزانهم التي لا يتوقعون من أحد أن يفهمها . الطفيليون الذين يصدون آذانهم عن الحزن ويغمزون من طرف الآخرين ، ترتفع أصواتهم عندما يتمازحون ويخفضونها بنبرة تآمرية عند الحديث عن انتصاراتهم ، أو عن الرجال الذين يعرفونهم في قلب المدينة التجاري ، أو عن المخالفات والبضائع التي يتم تحريكها فجأة وبدون توقع ، عن المكاسب الفجائية غير المتوقعة ، يحركون أصابعهم الدبقة الملطخة بالسكر المرشوش على لفائف الحلويات .

لماذا يحتاجهم ! هؤلاء الشخصيات الكبيرة ؟ ما الذي يعرفونه

هل خسروا أبناءهم ؟

عاد إلى مخزنه وأعطى النقود لشيرلي .

ـ هل جاء الولد ؟ سألها

ـ «كلا يا سيد غرينسباين .»

ـ «سوف أخصم من راتبه!» فكر قليلاً «سوف أخصم من راتبه» .

نظر حوله ، رأى عدة زبائن في المحل ، لم يكن مزدحماً ، لكنه لم يتوقع مثل هذا النشاط ، ربات البيوت الشابات القادمات من الجامعة ، إنهن متسوقات جيدات ، يعرفن تماماً حدود مصروفهن وهذا كل شيء . لم يكن هناك أي خداع في الأسعار ، تمنى أن تتعلم زبوناته القديمات ، الزبونات اللواتي يحضرن في معاطف الفراء ويعتقدن أن معرفتهن القديمة به ، تؤهلهن لبعض الامتيازات الخاصة ، امتيازات في السوبر ماركت ، هل يعطيه تجار الجملة حسومات ؟ ماذا يريدون منه ؟ سار بين الرفوف يعدل وضعها ، حسناً ، على الأقل العمل ليس متوقفاً تماماً ، إذا استمر كذلك طوال اليوم ، يمكنه تحقيق بعض الربح بضعة بنسات ، أو ربما بضعة دولارات ما الفرق !

كان يتكلم مع أحد الباعة عندما رآها ، كان البائع يخبره شيئاً عن منتج جديد ، نوع من المنظفات ثمنه ١٠ سنتات ، أقل على كل علبة ، أو شيء من هذا القبيل ، لكن غرينسباين لم يستطع أن يرفع عينيه عنها ، «هل أسجل لك بعض الصناديق للتجربة يا سيد غرينسباين؟ ففي ديترويت عندما يضعوا المنتج على الرفوف» . . . .

ـ «كلا» قاطعه غرينسباين «ليس الآن لا أريده الآن» .

ـ «ولكن يا سيد غرينسباين إني أحاول أن أخبرك ، هذا منتج جديد لم يمض عليه في السوق ثلاثة أسابيع .»

ـ «فيما بعد ، فيما بعد» قال غرينسباين «تحدث مع فرانك ولا تضايقني» .

ترك البائع مكانه واقتفى أثر المرأة عبر الممر ، يقف حين تقف ويدير رأسه إلى الرفوف مدعياً أنه يرتبها . إذا لمست بيضة واحدة سوف أطردها . كانت المرأة هي السيدة فريمكين زوجة الطبيب وهي زبونة قديمة وخبيرة في الاحتيال ، مضى عليها مدة لم تأت إلى المخزن إثر مشادة حول خمسة وثلاثين سنتاً . كان عليه أن يراقبها ، فقد كانت تملك ملايين الخدع . أحياناً كانت تتسلل إلى رف البيض تكسر بيضتين أو ثلاثاً بأصبعها ثم تلطخ ثوبها بالبيض ، وتهرع إليه شاكية أنه دمر ثوبها ، وأنها

تناولت طبق البيض بكل ثقة ظناً منها أنه صحيح بدون كسر ، كان يضطر أن يبيعها الطبق كاملاً ، بسعر ستة بيضات فقط ليخرسها .

انطلق نحوها ، كانت ترتدي ثوباً لائقاً ، شعر بالارتياح لأنها لن تفعل خدعة البيض بمثل هذا الثوب الأنيق ، قد تفعلها فقط بثوب عادي .

ـ «جيك»! ابتسمت له .

انحنى لها

تابعت : «لقد سمعت عن هارولد ، قالت بحزن ، لقد أخبرني الطبيب ، كدت أصاب بجلطة لهول الخبر ، لمست ذراعه قائلة : اسمع إنك لا تعلم متى يحدث ذلك . السيدة بارون التي كانت جارة لنا في دركسل ، سقطت ميتة وسط الشارع ، في الوقت الذي كانت ستتزوج ابنتها في الشهر التالي .»

«كيف حال زوجتك ؟»

هز غريسبان كتفيه بلا مبالاة : «هل أستطيع خدمتك ،سيدة فريمكين ؟»

«ماذا ؟ أنا لست غريبة ، لا أريد مساعدة ، تابع ترتيب رفوفك ، يمكنني أخذ ما أحتاجه .»

ـ «نعم نعم خذي ما تشائين» ، لا بد أنها بصدد خدعة أخرى ، وصلت إلى مكانه ، ماذا يهم ؟ كانت تقرأ تسعيرة كل شيء ، حتى أنها كانت تكتب ملاحظات ، كان يعلم أنها لن تشتري شيئاً ، إلا بعد اقتناعها بأنها لن تجد أرخص منه في أي مكان آخر .

ـ «أنا بحاجة فقط لبضعة أشياء قليلة ، لا تقلق بشأني» قالت له .

ـ «نعم »قال غرينسباين! يمكنه أن يلوي عنقها هذه الخرقاء النذلة .

ـ «كيف هي الفاكهة اليوم ؟» سألته .

ـ «أتعنين بكل ثقة ؟»

ـ «ماذا إذن ؟»

«سأقول لك الحقيقة ، قال غرينسباين إنها جيدة ، لدرجة أنني لا أرغب في إخراجها من المخزن .»

ـ «ربما سأشتري موزه إذن .»

ـ «ليس خطأ البتة» قال غرينسباين .
ـ «إن لديك مخزناً جميلاً يا جيك ، أنا أقول هذا دائماً .»
ـ «إذن اشتري شيئاً» قال لها .
ـ «سوف نرى» قالت بغموض «سوف نرى» .
كانا يقفان قرب رف الخضرات المعلبة . مدت يدها لتناول علبة بازيلاء من الرف ، ثم قامت بمسح الغبرة عن العلبة براحتيها بطريقة مبالغ فيها ، حدَّقت في السعر . سبعة وعشرون سألت مندهشة؟
ـ «نعم» قال غرينسباين «إن هذا كثير .»
ـ «حسناً قالت»
قال : «اللعنة عليّ» قد مضى لي في هذا العمل إثنتين وعشرون سنة ، ولم أعرف أبداً ما هو سعر علبة البازيلاء .»
نظرت إليه بريبة ثم ابتسمت ابتسامة هادئة واثقة وأعادت العلبة إلى مكانها .
حدّق غرينسباين فيها وإذ بفرانك يمر بجانبه ، التقطه غرينسباين من ذراعه مدعياً أنه يتحدث معه في شأن العمل ، بينما هو يحرص على متابعة السيدة فريمكن متأبطاً ذراع فرانك .
«الخرقاء الحقيرة» تمتم بغضب .
هوّن عليك يا جيك قال له فرانك ، يمكنها أن تعود زبونة جيدة مرة أخرى ، دعها تخادع قليلاً ، أنا سعيد أنها عادت إلينا .
ـ «نعم ـ سعيد . . . »خلى ذراع فرانك واتجه نحو قسم اللحوم« هل من طلبات؟» سأل هوارد
ـ القليل فقط يا جيك يمكنني أن أتدبر الأمر .
لا بأس قال غرينسباين ، أعطني لأرى ، تناول الأوراق من هوارد ، سأقوم بإرسالها عندما تهدأ قليلاً .
قرأ الطلبيات بسرعة ثم اتجه إلى الجهة الخلفية من المخزن ، انتقى أربع علب من الكرتون المقوى ، ثم بدأ يختار الطلبيات من الرفوف ويضعها في العلب ، كان يجد متعة كلما انخفضت أعداد البضاعة عن الرفوف وكلما كان يضع شيئاً في العلبة

يتولد لديه شعور بأنه أصبح هناك كمية أقل للبيع ، انتزع شريحة دهن من قطعة لحم كبيرة ، كانت ملقاة على خشبة تقطيع اللحوم في زاوية الملحمة ، بدت بقع الدماء القديمة على الخشب وكأنها جزء منه ، راقبه هارولد الذي كان متكئاً على لفافة الورق بجانبه وقد لاحظ غرينسباين أن هارولد يراقبه! «طلبية برينشتاين ؟» سأله هارولد .

ـ «نعم» قال غرينسباين .

«إنها تقيم حفلة ، قالت لي ، إنها بمناسبة عيد ميلاد زوجها .»

«عيد ميلاد سعيد» قال غرينسباين .

ـ «نعم» قال هارولد «اسمع يا جيك سوف أذهب لتناول الطعام .»

ـ «أظن ذلك ، أنه يوم بطيء كما ترى .»

وافق غرينسباين

سوف أتناول بعض الطعام وسأتم العمل بعد الظهر .

أخذ علبة أخرى وبدأ يحضر الطلبية التالية ، ذهب إلى قسم المعلبات الموضوعة في رفوف عالية وضيقة ومائلة قليلاً ، الكمية المعروضة للبيع في تناقص ، قال في نفسه بمرارة بدا الأمر وكأنه بلا نهاية ، لا يمكنك أن تصفي عملك وتحوله إلى نقود فلا يوجد صفقات كبيرة في عمل البقالات ، أخذ يفكر بيأس في مئات المنتجات الموجودة في مخزنه من جميع الأنواع والأحجام . كان يعرف كل متسوق ويعلم ما يضعه كل متسوق في عربته ، شيء مزعج قال في نفسه أنه لا يبيع الماس أو البيانو إنما هو يبيع خبزاً وحليباً وبيضاً . لذا يجب أن يكون لديك كمية وإلاّ فإنك لن تبيع شيئاً . كان يخسر الكثير من النقود على مصاريف الكهرباء والتبريد ولوحات الإعلانات والرواتب والامتيازات والبضائع . والسبب هو تلك المحلات الكبيرة ذات الفروع الكثيرة التي تملك مواقف سيارات أمام أبوابها وتدفع أموالاً كثيرة على الإعلانات وتتميز في التسعير فاثنان بالمئة من الربح لن يؤثر عليها .

وهي تملك مصادر تمويلها من مزارعها الخاصة ومصانع الألبان والمخابز ومصانع التعليب الخاصة بها . كل شيء . أولاد السوء .

كان يبدو وكأنه ينتحر في مواجهتهم .

بعد لحظة جاءت إليه شيرلي ، «هل أستطيع أن أتناول طعامي الآن يا سيد

غرينسباين ؟»

لماذا يسألونه ؟ هل هو طاغية «طبعاً طبعاً اذهبي تناولي طعامك سأراقب علبة الكاش .»

خرجت شيرلي فيما أخذ غرينسباين يفكر ، ذهب الأول والآن هي ، لا بد أنهما يلتقيان ، ماذا يفعلان يا ترى يمسكان بأيدي بعضهما البعض ، ادخل بحذر طبق بيض كامل في العلبة وقال ، ما الفرق أحمق وخرقاء .

وقف أمام منصة الخروج وضغط المفتاح البرتقالي ، أخذ يراقب الراية التي تعني لا يوجد بيع تخرج من نافذة علبة الكاش ، أخذ يعد النقود بحزن .

كان فرانك واقفاً عند واجهة الخضار يقشر بعض الخس .

ـ «يا جيك إذا أردت أن تذهب لتناول الطعام فسأبقى لأراقب» هنا قال له .

ـ «ليس بعد» قال جيك .

دخلت امرأة عجوز إلى المخزن ، عرفها غرينسباين فقد جاءت مرتين قبل اليوم وفي كلتا المرتين اشترت علبتين من القهوة التي وضع عليها غرينسباين سعراً خاصاً ولم تشتر شيئاً غيرهما . خسر بسببها حتى الآن ١٢ سنتاً راقبها غرينسباين بحذر واستبد به الغضب عندما رآها تتجه نحو رف القهوة ، تناولت علبتين واتجهت إلى منصة الكاش . كانت تضع شعراً مستعاراً أحمر اللون أعطاها شكل المهرج بجانب جلدها الأبيض الهرم . وضعت القهوة على المنصة ونظرت إلى غرينسباين بخوف ، لكن غرينسباين لم يحرك ساكناً ليحاسبها . وقفت لوهلة ثم دفعت علبتي القهوة باتجاهه وقالت : «٩٦ سنتاً للباوند ، ٢ باوند يساوي دولار و ٣٨ سنتاً إضافة إلى ٦ سنتات ضريبة يصبح المبلغ دولار و ٤٤ سنتاً .»

ـ «سيدتي» قال غرينسباين وهو يحدق بها «ألا تأكلين ؟» هل كل ما تفعلينه هو شرب القهوة ؟»

بدأت شفتاها ترتجفان وجسدها يضطرب . همهمت بخوف «دولار وأربعة وأربعون سنتاً إنها مسجلة هنا» .

ـ «سيدتي هذه هي علبتك السادسة ، إني أخسر نقوداً هنا ألا تعلمين؟» استمرت المرأة ترتجف وكأن برداً ألم بها .

«ماذا تفعلين بهذه يا سيدتي أتبيعينها من باب لباب ؟ هل أنا تاجر الجملة خاصتك ؟»

استمر جسدها ينتفض ، وأخذت تنظر إليه بعينين ذابلتين وكأنها لم تكن مدركة ، لرجفة جسدها الذي بدا وكأنه ليس ملكها .

ذلك الجسد المختبئ وراء تلك العينين ، أحس غرينسباين أنَّ رأسها الأجرد يهتز تحت كومة الشعر المستعار . حسناً قالت في النهاية «دولار وأربعة وأربعون سنتاً» .

أخذ منها النقود ،راقبها وهي تتسلم الكيس وتخرج من المخزن دون أن تنبس ببنت شفة . هزَّ برأسه وهو يتخيل ، منظر امرأة تجلس على المداخل أو تقف على الأبواب الخلفية المفتوحة على مصراعيها ، تعرض القهوة بحزن .

أراد أن يخرج ، يمكن لفرانك أن يراقب المحل وإذا أراد أن يسرق فليسرق .

ـ قال فرانك «الوضع هادئ أنا ذاهب لتناول الطعام .»

«اذهب يا جيك ، أنا لست جائعاً ، معدتي تؤلمني .»

ـ «نعم» قال غرينسباين .

توجه نحو المطعم ، مرَّ على طريقه بالسوبر ماركت الوطني (ناشونال) وحين رأى موقف السيارات المزدحم ، شعر بألم في معدته ، وقف بجانب النافذة ونظر عبر الزجاج ليرى الممرات المزدحمة ، رأى من خلال الزجاج نساءً يتحركن ببطء عبر المخزن ، تراجع إلى الخلف وقرأ الإعلانات على الزجاج ، إنَّ الخضار والفواكه عندي أرخص وأسعار اللحم متشابهة تقريباً . تحرك نحو المطعم ماراً عبر المخازن المألوفة على الطريق وذهب إلى مطعم الكوكري . عندما دفع الباب الزجاجي الثقيل سمع ثرثرة الزبائن ، بدا الصوت في أذنيه مثل بوق انطق فجأة من صمته ، بائعون ومتطفلون ، فكر لحظة متطفلون بائعون ابتسمت له الفتاة العاملة على علبة الكاش ، لم نرك منذ مدة أيها السيد ج . أحدهم أخبرني أنك تتبع برنامج حُمِيَّة هي أيضاً متطفلة وتصنع الفكة .

توجه إلى الجهة الخلفية من المطعم ، ناداه رجل يجلس على مائدة بمقعدين ، كيف حالك يا جيك تعال واجلس معنا .

انحنى تحية للرجل ثم سحب مقعداً من طاولة أخرى ، جلس في الممر المواجه

للرجل ، جلس وانحنى للأمام رافعاً رجلي المقعد الخلفي لجلب انتباه النادلة ، أحس وهو يجلس هناك ،كأنه زائر مؤقت جاء إلى المائدة ليلقي تحية أو يحكي نكتة . كان يدرك أسباب هذا الشعور ، إنها الطريقة التي يجلس بها هؤلاء المتطفلون . أما الآخرون المتحلقون حول الموائد فيبدون وكأنهم يعيشون هناك إذ تعطيك صحونهم النصف فارغة ، انطباعاً أنهم يمضون معظم نهارهم هنا .

ـ «لقد فاتك الأمر يا جيك» قال أحد الرجال «لقد كدنا نوقع «بتراوب» هنا ليكتب شيكاً في الأسبوع الماضي هل أقول صدقاً يا مارغوليس؟ لقد كاد أن يفعلها يا جيك ولكنه في اللحظة الأخيرة قفز من مقعده على ذراعه فكسرها .»

ضحك الرجال الجالسون حول المائدة ، نظر غرينسباين إلى تراوب الجالس بوهن ويأس بين رجلين ضخمين ، كان ينظر باستحياء إلى زجاجة الكوكا كولا أمامه .

لا بأس يا تروب قال الرجل الأول ، إننا نعلم أنك مشغول بتزويج بناتك الكثيرات وبالأعراس الفخمة في نفس الوقت ، إن الأمر رهيب ، إن لتراوب ابن واحد فقط ، وهل تظن أنه يفكر بالزواج ليذهب تراوب إلى العرس ويمتع نفسه فقط . كلا إنه ما يزال صغيراً على الزواج ، لكنه ليس صغيراً كفاية لكي يدور ويوقع نفسه في مشاكل مالية ،

«أليس كذلك يا تراوب ؟ ولد سيىء» .

نظر غرينسباين إلى الرجال وإلى تراوب ذو البنات الكثيرات العدد والذي كان على وشك البكاء . طفيليون وبائعون ، قال في نفسه ، إن الأمر متشابه في كل مكان وعلى كل طاولة ، يلتقي نوعان من الناس كل منهما ، كأنه من جنس آخر يبحث عن شريكه ، بالتأكيد البائع لا يستمع إلى شكاوي غيره ولا الطفيلي يمازح غيره ولكن هذا كله ، المزاح والحزن لا يعني له شيئاً إنهم مثل الطيور التي تطلق صيحاتها فوق شجرة ، إذا حاولت أن تجرهم إلى صفقة يقتلونك ، يأتون كل يوم لتناول طعامهم ويطلقون أصواتهم مثل رعاة البقر في أفلام التلفزيون ، يعلقون أحزمة مسدساتهم ليذهبوا للرقص .

لكن على الرّغم من ذلك فهم تماماً كما يدّعون ، لا يلوون على شيء ، هل فقدوا أولاداً ؟ حتى النقود التي يحصلون عليها لا تساوي عندهم شيئاً في النهاية .

ـ «كما كنت أقول لكم» تابع مارغلويس «عاد رجل غرفة التجارة إلى هنا اليوم .»
ـ «لقد جاء عندي » أيضاً قال بول غولد .
ـ «أعطيته شيئاً» قال مارغوليس .
ـ «كلا طبعاً» قال له الرجل .

«هل جاء إليك يا جيك ، اقذف به خارجاً ، إنه يجمع تبرعات لإقامة ديكورات ، اسمعني إن أمثال هذا الرجل ، يقبضون من جماعة محلات الزهور . إن المبالغ التي يجمعونها من أجل تزيين المخازن الكبرى وسط البلاد ، لا تقدر بثمن أخبرني بذلك ابن عمي الذي يعمل في شارع ستيت ، وقد قلت له : من الذي يحتاج إلى غرفة التجارة ؟ من الذي يحتاج إلى سلال بيض الفصح الملونة المعلقة على قناديل .

لا حاجة لها ، ما دامت خدمة الخاتم ما تزال فعالة ، أليس كذلك يا مارغوليس ؟ قال جوفيشر .

نظر مارغوليس إلى طية سترته وهز كتفيه بلا مبالاة ، كانت هذه بالنسبة لغرينسباين أحدث حركة يقوم بها مارغوليس ، ضحك الرجال ، فقد كانت خدعة الخاتم من اختراع مارغوليس وهي طريقة لإحياء العمل ، كما أخبر غرينسباين وهي أفضل من الطوابع الخضراء ، لقد أثبتت فعاليتها ، فقد كان مارغوليس يقف أمام المخزن ويؤشر لأحد المتفرجين على التلفزيون المعلق عند نافذة العرض ، ثم يدق بخاتمه على الزجاج لكي يجلب انتباهه ، يبتسم له ويقول أي شيء لا يهم ما يقول ، لا يستطيع الرجل الواقف في الشارع أن يسمعه ، بينما كان غرينسباين يراقبه قال له مارغوليس ، انظر إلى هذا ثم ينظر إلى الزبون وهو يحاول تقريب وجهه من النافذة لسماع ما يقوله وفي النهاية ، يضطر الزبون إلى الدخول إليه ليعرف ماذا يريد مارغوليس أن يقول له ، وهنا ينهض مارغوليس مبتسماً مرحباً ، يا صديقي ، كنت أريد أقول لك إن هذا الجهاز المعروض في الخارج لا يساوي شيئاً ، إن ثمنة أغلى من قيمته بكثير ، ولو عرف صاحب المحل أني أقول لك هذا فسيطردني ولكن ما الفرق ليذهب إلى الجحيم ، فكلنا طبقة عاملة ، تعال إلى الداخل وسأريك الجهاز الحقيقي . كان مارغوليس على حق ، فمن الذي يحتاج إلى غرفة التجارة لا البائعون ولا المتطفلون ولا حتى العاملون في الذهب ، شاهد غرينسباين على المائدة الأخرى الرجل الآخر ،

كانا توأمين ولكنهما لا يبدوان كأخوين ، لم يكونا بحاجة إلى سلال الورد المتدلية من المصابيح . كان بول جولد ينادي أخاه في الخلف يا سيد جولد أرجوك أن تُري هذا السيد شيئاً لائقاً ثم يبدآن بالعرض أولاً فيأخذان بالحديث باللهجة الليدية أمام عجوز أبيض الشعر يبرز زراً في طية سترته ليبيعوه شيئاً . كان غرينسباين يسمع صوت الرجل العجوز وهو يخبر الآخرين في قاعة فرسان كولومبس ، لقد اشتريت هذه السترة من شابين يهوديين من يهود الاتحاد السوفياتي في شارع ٥٣ . أغرار قليلي خبرة ، لكن عليك أن تعرف كيف تتعامل معهم فهم يعرفون تماماً ماذا يفعلون .

كانت التجارة لعبة بالنسبة لهم ، قال غرينسباين لنفسه حتى النقود لا تعني لهم شيئاً .

«هل أخبرتك عن هؤلاء الأولاد الذين دخلوا لينظروا إلى الخواتم» قال جو فيشر ، «بالتأكيد ، طفلان يرتديان ثياباً أنيقة ، أظن أنهم كانوا قادمين من وسط البلد ، ربما من محلات بيكوتس وفيلدز ، أظن أنني عرفت الفتاة فهي تسكن في الجوار ، قلت له إني أملك خاتماً هنا ولكن لن أريك سعره . هل تعطيني شيكاً بقيمة ثلاثمائة دولار الآن بدون أن تأخذ موافقة والدك أو أحد» .

«يجب أن أرى الخاتم أولاً» قال لي .

خذ هذا وضعت أصبعي على رقعة السعر المعلقة على خاتم دفعت ثمنه ١١٠٠ دولار .خاتم ضخم عليك أن ترتدي نظارات مكبرة لتنظر إليه ، إني أعني ذلك تماماً يا بول لقد كان خاتم وأي خاتم ، أعطيك سعراً لتأخذه هدية لزوجتك في عيد زواجكما ، لا أمزح معك إنه خاتم وأي خاتم ، فكر جدياً بالموضوع ، يمكننا أن نصنع منه خاتماً جميلاً ملوناً . على أي حال حدّق هذا الولد في الخاتم كالأبله حتى كدت أظن أنه تحجَّر ، كان خائفاً فقد شك في أمر مثل هذا الخاتم الذي يعرض بقيمة ٣٠٠ دولار فقط ، أما الفتاة التي معه فقد بدت متوترة . كانت تعتقد أن الولد على وشك ارتكاب خطأ ، وبدأت تهز برأسها وأخيراً نظر إليَّ الولد قائلاً : اسمعني جيداً إنني لا أبحث عن خاتم بهذا الحجم ، على أية حال إنه ليس حجراً أزرق ! تصور الأمر ولا تحدثني عن المتسوقين ، إنني أستحق جوائز في معاملتهم .

ـ «ماذا ستفعل لو قال لك أنه سيشتري الخاتم» سأله تراوب .

ـ «ماذا هل أنت مجنون ، كان واضحاً أنه من جماعة مشتري الجملة ، هل تظن أنني لا أستطيع تمييز الشخص الذي يحاول أخذ فكرة عن الأسعار من زبون حقيقي؟»

ـ «جيك قل لي ، أليست الفتاة التي تجلس مع لحّامك هي نفسها التي تعمل لديك على علبة الكاش .»

نظر غرينسباين حوله ، كانت شيرلي جالسة مع هوارد ، لم يرهما عندما دخل المحل ، كانا يجلسان في مواجهة بعضهما على المائدة ، لم يرياه بالتأكيد ، ظهرت شيرلي منحنية إلى الأمام وقد ركّزت ذقنها على راحتي يديها مثل الفنجان ، بدت وهي تجلس هناك مثل فتاة شابة ، انزعج قليلاً للأمر فقد بدا سخيفاً ، كان يعلم أنهما يلتقيان ، لكن هذا لا يهم ، ليس الأمر من شأنه . لكن لم يكن محموداً بالنسبة لهما أن يظهرا علناً هكذا ، أخذ يفكر بصدرية شيرلي المعلقة في الحمام ، إن هذا عبث وهم أناس عابثون ، كلهم ، هوارد وشيرلي وحتى الرجال في المطعم كلهم عابثون .

ـ «يبدو أنهما على علاقة حميمة أليس كذلك ؟» قال مارغوليس .

ــ «كيف لي أن أعلم» أجاب غرينسبان .

ـ «ماذا تدير في محلك هناك؟ نادياً للقلوب الوحيدة» .

ـ «هذا ليس من شأني إنهما يقومان بعملهما .»

ـ «وأي عمل !» قال بول .

ـ «إنني أرغب بعمل مثل هذا» قال جوفيشر

ـ «أليس هوارد متزوجاً» قال بول جولد .

ـ «أنا لست شرطياً» أجاب غرينسبان .

ـ «إن جيك يغار لأنه لا ينال شيئاً من هذا .»

ـ «إنك رجل كثير الكلام يا هذا» قال غريسبان إنني رجل في حالة حِداد صمت الجميع على المائدة وقال تراوب البائع «لقد كان جو يمزح معك .»

ـ «بالتأكيد يا جيك» قال جوفيشر .

ـ «حسناً» قال غريسبان : «حسناً .»

طوال المدة التي قضاها غرينسبان على مائدة الغداء . كان يفكر بشيرلي وهوارد ،

إنه يأمل أن لا يرياه ، ولو حصل ذلك ألا يقوما بأي إشارة نحوه ، توقف عن الاستماع إلى أحاديث الرجال حوله واستمر يمضع بعض اللحم أمامه بصمت ، سمع شخصاً يذكر اسم جورج شتاين ، رفع رأسه بانتباه ، فقد كان شتاين يملك بقالة مثله في حي آخر ، كان يقول لمن حوله إنه يرغب في التغيير وأنه سيترك المنطقة ويبحث عن محل مثل محل غرينسباين ، يمكنه أن يحادثه بالتأكيد ، ولم لا فمن يحتاج لمثل هذا ، فهو يملك البناية التي يوجد فيها المخزن ويمكنه أن يعيش على إيجاراتها . حتى جو فيشر كان مستأجراً لديه ، أخذ يفكر بأن يحادث شتاين ، وقد أحس أنه قد وصل إلى قرار حول شيء .

انتظر حتى أنهى هوارد وشيرلي طعامهما ثم غادر المطعم نحو مخزنه . بعد الظهر أحس غرينسباين أن بامكانه التخلص من بعض الغائط في معدته ، لذا ذهب إلى المرحاض الخلفي وجلس على مقعد الحمام ، يحدّق في عتمة السقف فوقه ، لم يكن هناك شيئاً يلاحظه سوى الألواح الفولاذية الصغيرة للسقف والتي بدت مغبّرة منقورة مثل قطع أسلحة مدمرة .

آه إن هذا المكان يشبه حظيرة خنازير ، حوض المغسلة ملطخ مسْوَد ، تبرز الشقوق من طلائه مثل خطوط على خريطة بلد مُدَمّر ، الحنفية التي تنقط باستمرار ،دفعت غرينسبان إلى التفكير بحزن بفاتورة المياه ، شاهد غرينسبان على مقبض الحنفية وجود حرف س . س . باللون الأزرق ،

ماذا تعني س . س . بحق الجحيم ، هو يعلم أن حرف ح . يعني حار وحرف ب . يعني بارد ، لكن ما هو هذا الحرف س . نظر غرينسباين حوله ، كان هناك ثياب قديمة معلقة على خلف الباب ، بنطال رجالي معلق من الداخل والخارج سحّابه مفتوح ، مثل موزة مقشّرة والتجاعيد الكثيرة عند نقطة انفراج الرِّجلين تبدو مثل رقع مهملة الخياطة .

سمع صوت هوارد في المخزن ، كان هوارد يغالي في رفع صوته .

أصغى بانتباه .

خمسة وأربعون سمع هوارد يقول ، كان يكلم رجلاً عجوزاً خفيف السمع يأتي عصر كل يوم ، لشراء قطعة كبد للعشاء ، لا أستطيع إعطاءك أونصتين . لقد قلت لك

لا أستطيع أن أخرب القطعة ، يسمع صوت امرأة تضحك ـ شيرلي ربما ! هل هي معه ؟ يا للجحيم . أن يتضاجعا وقت الغداء شيء! لكن ليس في المخزن ، خذ ثمانية أونصات ، إدْعُ معك شخصاً آخر على العشاء ، خذ ثمانية أونصات وستكفيك أربعة أيام ، ثمانية ولن تضطر للمجيء هنا ، إن هوارد هذا شخص حكيم ما الذي يريده ؟ هل يريد أن يدفع العجوز إلى الجنون ، العجوز يريد قطعة كبد صغيرة تبقيه حياً . ثم سمع صوت خطوات تتجه نحو الغرفة الخلفية ، ترافقها أصوات جدال ونقاش ، سمع صوت امرأة تقول أنا آسفة لا أعرف كيف جاءت هنا ، صدقني ، اسمع أنا سأدفع ثمنها .

ـ «وهل تراهني على ذلك» كان هذا صوت فرانك .

ـ «ماذا تريدني أن أفعل» قالت المرأة محاولة أن تلتمس عذراً لنفسها .

ـ «سوف أستدعي الشرطة .»

ـ «من أجل علبة سلمون رثة»

ـ «إنه المبدأ ، أنت محتالة ولصة قذرة ، وتعلمين ذلك ، سوف أستدعي الشرطة وسنرى هل سيصلحك السجن أم لا .»

ـ قالت المرأة «أرجوك أرجوك يا سيد إن هذا الأمر كله جنون . أنا لم أفعل شيئاً مثل هذا من قبل . لا أملك أعذاراً ولكن أرجوك أعطني فرصة ، أجهشت المرأة بالبكاء .»

ـ «لا فرص لديّ ، قال فرانك سوف أستدعي الشرطة ، يجب أن تخجلي من نفسك ، امرأة ترتدي ثياباً وقورة مثلك . هل أنت مريضة أم ماذا ؟»

«سوف أستدعي الشرطة» ، سمع صوت فرانك يرفع سماعة الهاتف .

ـ قالت المرأة : «أرجوك . أرجوك» أخذت المرأة تشهق «سوف يقتلني زوجي ، ولدي صغير من أجل المسيح أرجوك .»

أعاد فرانك سماعة الهاتف مكانها

ـ «١٠ دولارات» قال فرانك بهدوء .

ـ «ماذا ؟»

ـ «١٠ دولارات ولا تعودي إلى هنا أبداً .»

ـ «لا أملك هذا المبلغ قالت له .»

ـ «حسناً يا سيدتي اذهبي إلى الجحيم ، سوف أستدعي الشرطة .»

ـ «أيها النذل» قالت له .

ـ «إحفظي لسانك» قال لها «عشرة دولارات» .

ـ «سأحرر لك شيكاً» .

ـ «نقداً» قال فرانك .

ـ «حسناً ـ حسناً خذ .»

ـ «حسناً اخرجي من هنا .»

سمع غرينسباين صوت خطوات المرأة تهرول خارجاً . لا بد أن فرانك الآن يتحسس مريوله محاولاً إخراج محفظته الضخمة من الجيب الأمامي . أدار غرينسباين الماء في الحمام ووقف ينتظر .

ـ «جيك ؟» سأل فرانك مرتعداً .

ـ «من كانت هذه ؟ .»

ـ «جيك أنا لم أرها من قبل صدقني ، إنها محتالة لقد أخذت منها ١٠ دولارات يا جيك .»

ـ «لقد أبلغتك من قبل أني لا أريد مشاكل» قال غرينسباين غاضباً وهو يخرج من الحمام . «ماذا دهاك ؟ هل تظن نفسك في لعبة ؟»

ـ «أصغ إلي لقد ضبطتها وهي تسرق السالمون هل تريدني أن أبلغ البوليس من أجل قطعة سلامون ، ثم إن لديها طفلاً .»

ـ «نعم إن لك قلباً كبيراً يا فرانك !»

ـ «كنت سأترك الأمر لك لتعالجه ، لكني بحثت عنك ولم أرك .»

ـ «لقد أرعبتها ، نبهتك لهذا من قبل .»

ـ «جيك إنها عشرة دولارات لصالح المحل ، أصاب بالجنون عندما أكتشف أن شخصاً يحاول سرقتنا .»

ـ «إنك نذل لقد انتهى أمرك هنا .»

ـ «يا جيك لقد كانت محتالة ،» حمل علبة سالمون بيده ليريها لجيك على أساس

أنها شاهد إثبات على الحادث . دفع غرينسباين يده جانباً وصاح : «اخرج من مخزني ، أنا لست بحاجة إليك لا أريد نصابين هنا .»

ـ «من الذي تسميه نصاباً يا جيك ؟»

شعر غرينسباين بغضب شديد يتملكه وكأن حيواناً قد انقضَّ عليه في الظلام ، كان جسمه يرتعد وأخذ يحاول أن يهدئ من روعه . نذل مثل هذا أراد أن يوجه له لكمة في الوجه .

ـ «أرجوك يا فرانك أن تخرج من هنا .»

ـ «بالتأكيد» صاح فرانك «بالتأكيد» ، كان غرينسباين ينظر إليه بدهشة بدا وكأن الغضب أصبح أقوى منه ، ثم فكر بالزبائن ، سوف يسمعونه ماذا سيقولون عن هذا المكان .

تابع فرانك صياحه ، بالتأكيد اطردني هيا ، هل تظن نفسك شخصاً مقدساً ، قدّيساً ، يا إلهي إنك تشم رائحة الفقر ، الجميع ولا تشمُّ رائحتك . عندما كان ابنك رحمة اللّه عليه ، يسحب خمس دولارات من علبة الكاش ، لم تكن لتراه أبداً استشاط غرينسباين غضباً وتملكته رغبة في قتله ، وصاح من يقول هكذا ؟

من يقول هذا كرر فرانك .

ـ «لا شيء يا جيك لا شيء ، ربما كان حينها ذاهباً إلى موعد مع فتاة ، هذا كل شيء الأمر لا يهم .»

ـ «من ينعت ابني باللص ؟ .»

ـ «لا أحد أنا أسف» .

ـ «ابني المتوفى ، أتصف ابني المتوفى باللص .»

ـ «لا أحد يصف أحداً باللص ، لا أعرف ما الذي قلته .»

ـ إنه في التربة ، وعمره ثلاث وعشرون سنة ، في التربة ، لم يهنأ حتى بعمل أو زوجة ، لا شيء ، لم يكن لديه شيء ، لم يكن ليأخذ شيئاً أبداً ، أليس كذلك يا هارولد ، تطلق عليه صفات هي صفاتك ، كان يجب أن يكون حياً اليوم وأنت الميّت كان يجب أن تكون مكانه في التراب ، نذل ـ قوّاد ، لقد رأيت فواتيرك السيئة أيها الكاذب ، كان غرينسباين يزعق وخلال دقيقة كان هوارد بجانبه ، ممسكاً بـــه .

«اهدأ يا جيك خذ الأمور بسهولة ماذا حدث هنا ؟» سأل فرانك، هز فرانك كتفه استهجاناً .

أخرجه من هنا أرجوك، أومأ هوارد إلى فرانك بأن يخرج ثم سحب غرينسباين إلى المقعد القريب من الطاولة التي كان يعتبرها مكتبه ـ «لا بأس يا جيك لا بأس» كان جيك يشهق بشدة وبعد لحظات رفع رأسه وقال : «حسناً يا هوارد أرجوك الزبائن أرجوك .»

ـ «حسن يا جيك ابق هنا حتى تشعر بتحسن .»

هز غرينسباين رأسه، وجلس لبضع دقائق بعد مغادرة هوارد ثم عاد إلى الحمام ليغسل وجهه، أدار الصنبور وراقب المجلى القذر يمتلئ بالماء، لم يكن الماء بارداً، فكر بحزن، ملأ يديه بالماء الساخن وفرك عينيه ثم تناول منديلاً مطوياً من جيبه الخلفي وحله ومسح وجهه بحذر، سمع ضحكات خارج الباب، فكر بالمرأة التي تشتري القهوة ثم تذكر الحمال وناداه باسم هارولد، سمع خطوات تتجه نحو الباب .

هذا صحيح يا سيد غرينسباين كان الرجل ما زال يضحك فتح غرينسباين الباب، كان الحمّال واقفاً وثيابه ممزقة وعيناه حمراوين رطبتين، بدا وكأنه ينزف، هل أنت متأكد أنك أخبرت فرانك بذلك ؟

ـ «ماذا تعني» قال غرينسباين .

«لقد كنت عند قبر هارولد، لم أذهب إلى الجنازة ولكني ذهبت إلى القبر لأني رأيت حلماً .»

ـ «ضع البضاعة على الرفوف» قال غرينسباين : «لقد جاء المزيد منها بعد الظهر .»

«سوف أفعل أجاب الرجل» كان له فم بلا أسنان ولثة ناعمة داكنة، تبرزمن فمه،

كان نحيل الجسم وكأن ثيابه معلقة عليه وأكمامه تنتفخ على بذلته، كأنها معقودة ليس بداخلها لحم .

كان غرينسباين يستطيع ملاحظة جلده الرمادي الأجرد من خلال الشقوق في قميصه وبنطاله . كان جلداً مجعداً ملمسه مثل ملمس نواة حبة دراق ومع ذلك فقد

كان من القوة ما يجعله ، يحمل من البطاقة أكثر مما يستطيع فرانك أو هارولد حمله .

«من الأفضل أن تبدأ الآن» قال غريسباين بضيق وهو يتقدم ليفتح باب الشبك الذي يدخل إلى الممر .

ـ «أريد أن أخبرك عن حلمي يا سيد غريسباين .»

ـ «بدون أحلام ، لا أريد أن تخبرني عن أية أحلام .»

ـ «لقد حلمت بالسيد هارولد ، ابنك المتوفى يا سيد غرينسباين .»

ـ «لا أريد أن أسمع شيئاً ، انظر إذا كان هاورد يريد مساعدة هناك .

ـ «لقد حلمت بنفس الحلم مرتين وهذا يعني أنه حقيقي ، فالأحلام الحقيقية هي تلك التي تأتيك أكثر من مرة .»

ـ «اذهب من هنا أنت وقصصك الخرقاء ، أنا لا أهتم بأحلامك .»

ـ «في ذلك الوقت في هالستد ، حلمت بالنار مرتين .»

ـ «نعم النار نعم» قال غرينسباين .

ـ «لقد حلمت ذات الحلم مرتين ، أرادت الشرطة أن تستجوبني ، إننا نحمل نفس الاسم أنا وابنك .»

ـ «نعم لقد أسميته من بعدك .»

ـ «سأقول لك عن حلمي ، يا سيد غرينسباين لقد كانت غلطة إنه فرانك الذي كان يجب أن يموت ، مثلما سمعتك تقول الآن وسوف يموت ، قال لي هارولد في الحلم إن فرانك سوف يمرض ويموت» ، نظر الحمال إلى غرينسباين وعيناه حمراوان بلون الدم ، إذا أردت ذلك ، قال له فهذا هو حلمي ولقد حلمت بالنار في هالستد مرتين .

ـ «إذهب من هنا أنت وأحلامك المجنونة .»

ـ «إنه حلم حقيقي لقد حصل تماماً كما حلمت .»

ـ «إنك مجنون مجنون .»

خرج الحمال وهو يضحك «ما هذا المكان المجنون ،»

فكر غرينسباين ، لماذا يفعلون هذا ، هل يريدون إثارتي ، أحس لوهلة أن الأمر كذلك ، مزحة كبرى يشترك الكل فيها ، ما عداه ، لقد تم التطفل عليه حتى الموت .

الكل يفعل ذلك به ، الشرطة ، الفواتير ، رجل الأجبان ، هاورد ، شيرلي ، الرجال في المطعم ، فرانك وتلك المرأة والحمال النذل ، كلهم ، لكنه لن يسمح بذلك ، هل يظنونه مجنوناً ؟ مد يده إلى جيبه ليخرج منديله لكنه سحب بدلاً منه ورقة مطوية . كانت تلك الورقة نفسها التي ملأ فيها هارولد ابنه ، الطلب على الهاتف وتركها على المنصة ،حلّ الورقة وقرأها بدون قصد ،خطرت له فكرة رآها صحيحة فالطلب لم يتم إرساله أبداً ، لأن ابنه نسي كل شيء عنه ، وإلا لِمَ ظل الطلب موضوعاً على لبادة الرسائل .

بالتأكيد ، ماذا يمكن أن يكون غير ذلك . حتى ابني لم يكن يهتم ، لماذا يهتم بالعمل بحق الجحيم . كانت فكرة رهيبة تمر به حول ابنه الميت . كان عمره ثلاثاً وعشرين سنة وما يزال ولداً ، بدون زوجه وبدون عمل ، بدون شيء ! هل كانت الخمسة دولارات مهمة بهذا الشكل . أخذ يتخيل بقرف منظر هارولد يغمز بمكر إلى فرانك ، وهو يسحب الخمسة دولارات من علبة النقود ، خمسة دولارات يا هارولد ، خمسة دولارات . أخذ يكلم هارولد وكأنه ينصحه ، لماذا لم تأت لتطلبها مني يا هارولد ، تَنَهَد وقال لماذا لم تأت إلى أبيك ؟ نظف أنفه بالمنديل ، إنه جنون لا شيء عاد يرضيني ، لقد وصفه فرانك بالرجل المقدس ، يا له من رجل مقدس يجلس يبكي في زاوية مخزنه الخلفية ، ليذهب كل شيء للجحيم ، سوف أخلي هذه الرفوف وأبيع البضاعة ، وأتخلص من اللحوم ، وأبيع وأبيع وأكدس المال ، هذا ما يجب عمله أن أبيع كل شيء ، أخذ يفكر بالطلبية التي نقلها ابنه على الهاتف ، هل تم تسليمها ، أحس بالضيق ، تمنى لو أنها سُلِّمت وإذا لم تسلم فإن عليه تحضيرها وبيعها ثانية ، أحس بالإجهاد والتعب ومشى إلى واجهة المحل .

موعد الإقفال قد اقترب ، لم يبق سوى نصف ساعة ، لن يستطيع أن يبقى حتى هذا الموعد ، فعليه أن يكون في الكنيس قبل الغروب ، عليه أن يذهب ليتعبد إلى ربه وأن يعتمد عليهم عند الإغلاق ، إذا لم يستطع بيع المحل ، فإن قلبه سينفطر لتقبل فكرة الاعتماد عليهم عند الإغلاق ، الثقة بهم ، ولكن الثقة بمن ، بروميو ـ بهاورد ، بشيرلي ، بالحمال المجنون ، فقط فرانك يمكنه عمل ذلك ، كيف طرده هكذا ، انطلق يبحث عنه ، وجده واقفاً مع شيرلي عند علبة النقود ، هل يذهب للتحدث إليه ، لكن

ماذا يهم ، ربما عليه أن يطردهم جميعاً وبالتالي طرد جميع من سيحضرون للعمل بعدهم ، ربما يطرد بعدها المستأجرين ، حتى القدامى منهم وأخيراً يطرد أي شخص يستأجر المخزن منه ، سيظل يطرد حتى لا يبقى أحد ، ماذا يهم في الأمر على أي حال .

توجه نحو فرانك وقال له أريدك أن تنسى ما جرى بيننا من قبل ، نظر إليه فرانك نظرة شك ، لا بأس طمأنه غرينسباين وأمسكه من ذراعه بعيداً عن شيرلي اسمع لقد كنا نحن الاثنين في حالة غضب ، لم أقصد أبداً ما قلته لك .

استمر فرانك بالنظر إليه ، قال أخيراً : «بالتأكيد يا جيك أنا لا أكن لك أي ضغينة ومد له يده مصافحاً .»

صافحه غرينسباين بتردد وقال : «نعم ولكن أرجوك يا فرانك أن تؤدي لي خدمة وتغلق المحل ، عليّ أن أذهب للصلاة . »

«بأمرك يا جيك» قال فرانك .

ذهب غرينسباين ليبدل ثيابه ، غسل يديه ووجهه وسرح شعره ، خلع ثيابه بحذر ولبس بدلته وقميصه وربطة العنق التي كان يرتديها في الصباح وعاد إلى المخزن .

كان على وشك المغادرة عندما رأى السيدة فريمكن تدخل المخزن ، لا بأس حدث نفسه يمكنها أن تصبح زبونة جيدة فهو بحاجة إلى عودة الزبائن القدامى الآن ، قد يصيبونك بالجنون ولكنهم حين يشترون ، يشترون بكثرة ،

راقب السيدة فريمكن وهي تسحب عربة من أمام المحل ، وتدخل عبر ممرات الرفوف وتبدأ في وضع البضائع في العربة بسرعة ، وكأنها على عجلة من أمرها ، لم تكن لتلقي بالأعلى الأسعار ، هذه هي الطريقة الصحيحة للشراء ، قال في نفسه ، من الممتع مراقبتها وهي تفعل ذلك ، وصلت إلى براد المثلجات وأخذت ستة قطع منها ثم إلى رفوف المعلبات وبدت وكأنها تأخذ أكبر الأحجام ، خلال دقائق كانت عربتها قد امتلأت يا له من شراء ، قال غرينسباين ، ثم راقبها وهي تتجه إلى رف الخبز أخذت لفّة من الخبز الأبيض ثم نظرت حولها ، لترى إذا كان هناك أحد يراقبها ثم انحنت لتحمل اللفة على صدرها وكأنها كرة قدم ، ثم رآها وهي تمزق اللفة وتتخلص من القطعة الممزقة داخل ثيابها ، ثم تضع اللفة الممزقة داخل العربة مع باقي الأغراض ،

وصلت إلى منصة المحاسبة حيث كان يقف غرينسباين أفرغت عربتها وهي تدفع المشتريات باتجاه شيرلي ، لتحسب قيمتها على آلة النقود وكان آخر ما وضعته على المنصة لفة الخبز الممزقة ، عندما همت شيرلي بتسجيل ثمنها استوقفتها السيدة فريمكن قائلة ، انظري ماذا ستحاسبيني على لفة خبز ممزقة إنها ممزقة ، هل من الممكن أن تحسبي ثمنها عشرة سنتات التفتت شيرلي إلى غرينسباين الذي صاح فجأة .

«اخرجي ، اخرجي أيتها المحتالة ، لا أريدك أن تدخلي إلى هنا - بعد اليوم ، إنك لصة» هرع فرانك .

«جيك ماذا دهاك ؟»

هذه المحتالة ، لقد مزقت لفّة الخبز ، رأيتها بأم عيني ، نظرت إليه المرأة بتحدّ لست ملزمة بقبول هذا الكلام ، يمكنني أن أقاضيك على هذا إنك رجل مجنون ولن أقبل الإهانة من شخص مثلك .

اخرجي من هنا صاح غرينسباين قبل أن أحبسك .

ابتعدت المرأة عنه ، عندما شاهدته يتقدم نحوها هرعت هاربة . «يا جيك» قال فرانك وهو يضع يده على كتفه ، «لقد كانت مشترياتها كثيرة لذلك حاولت الخروج ببضعة سنتات ، ماذا يعني هذا ؟ هل تريدني أن أذهب وأعتذر إليها .»

«اسمع» قال غرينسباين «أريد أن أعرف إذا عادت هذه المرأة إلى هنا مرة أخرى ، لا أبالي ما الذي أفعله ، أريد أن أعرف أريدها أن تدفع ثمن ذلك الخبز .»

ـ «جيك» قال فرانك .

ـ «أنا أتمنى ذلك» .

ـ «جيك إنها عشرة سنتات .»

ـ إنها لي لن أقول أكثر من هذا ، أنا ذاهب للصلاة ، أزاح فرانك جانباً وخرج إلى الشارع ، كانت الشمس قد بدأت تغيب ، أخذ يسرع لأن عليه الوصول إلى هناك قبل المغيب .

في تلك الليلة رأى غرينسباين حلماً للمرة الأولى : كان جالساً في الكنيس ينتظر بدء الصلوات على روح ابنه ، كان الرجال الذين يقفون حوله متقدمين في السن ، يتعبدون وقد بدت وجوههم هشة وشاحبة منذ أن عرفهم في شبابه ، وهم كبار في

السن ، كان أحدهم يراقب الشمس عبر النافذة والجميع بانتظار إشارة منه لبدء الصلاة . أخذ غريسباين يفكر . لا بد أنّ هناك دائماً مكان في العالم تقام فيه الصلوات حين تغرب الشمس أو غربت ، كما أن هناك دائماً متعبدون يراقبون غروبها ويقيمون الصلوات التي تلي طائر اللّه البراق الذي يختفي في الظلام . كان يعلم أن هؤلاء الرجال لا يغادرون الكنيس ، فقد كانت الطريقة الوحيدة التي تبعدهم عن مخاوف الموت ، حتى أنهم لم يكونوا ليتناولوا الطعام ولكن الغرفة كانت عابقةً برائحة البول الحامضية . بالتأكيد فكر غرينسباين في حلمه ، حسناً خلي بينك وبين هؤلاء الحمقى مسافة واسعة ، كلٌ ما يقلقه ، هو اللّه ، أعطى الرجل الواقف على النافذة إشارة وبدأ الجميع في النواح على ابن غرينسباين ، كانت أصواتهم الهرئة تخالف اللحن الغريب للصلاة ، نظر الرابي إلى غرينسباين ، الذي بدأ بتقليد الرجل العجوز ، هز جسمه خلفاً وأماماً ، وهو يقف على كعوب رجليه ، حاول أن يسرع بالهز أكثر منهم ، قال إنني ما زلت أصغر منهم عمراً وأكثر شباباً . لكنه أحس أنه إذا أسرع أكثر في الهز فسيصاب بالغثيان ، ابتسم له الربي ابتسامة الرضا ، وصاح الرجل الواقف على النافذة أن الشمس ، قد بدأت تقترب من نقطة الخطر في السماء وأن على غرينسباين أن يستعد للبدء بالصلاة .

نظر إلى الأحرف السميكة الغريبة في كتاب الصلاة ، «هيا» قال الربي : «فكر بهارولد وتحدث إلى اللّه .»

حاول أن يفكر بابنه ، لكنه لم يسْتطع تذكره إلا وهو طفل في مهده ، كان شيئاً غير حقيقي كأنه صورة . كان الجميع على علم بماذا يفكر وقد عبسوا في وجهه «هيا» قال الربي ثم رأى ابنه يقود دراجة تماماً كما رآه مرة عند الغروب من على شرفة الشقة المطلة على الشارع ، يقود دراجته عبر الممرات الجانبية الرمادية وهو يهز بقفاه وكأنه يركب حصاناً .

شعر أن الآخرين ليسوا راضين بعد .

حاول أن يتذكره وهو أكبر عمراً ولكنه لم يستطع .

قال الربي : «أرجوك يا غرينسباين لقد شارفت الشمس على المغيب ، إنك تضيع الوقت أسرع أسرع .»

حسناً قال غرينسباين ، حسناً دعني أفكر ، توقف الآخرون عن الترتيل وبيأس أخذ يفكر في المخزن ، وبالمرأة التي تشتري القهوة ، كانت أكبر عمراً من جميع الرجال الذين يصلون معه ، فكر في شعرها المستعار الأحمر وبرأسها الذي ينوء تحته يرتجف بجنون ،كأن هذا الكوم الكثيف من الشعر الناري ، لم يكن كافياً لتدفئته .

أطلق الربي تكشيرة ،

عاد وفكر في الحمّال الذي يعمل لديه ، تخيله نائماً على سرير قديم نقال يتقلب في فراش رطب بدون ملاءة ، في حلم مرعب رآه يتلوى تحت قطعة لحم كبيرة يحملها إلى هوارد .

كان الآخرون عابسين جميعاً وبدأ الربي يظهر الملل ، أخذ يفكر بهوارد وكأنه يراقبه من خلال العيون الحمراء المجنونة للحمال الذي يعمل لديه ، كان هوارد يقوم بتقطيع اللحم الطازج بسكينه .

رأى الرجال في المطعم ، رأى البائعين الذين يجهلون الأمل ، رأى الطفيليين الذين يجهلون اليأس ، كل منهم يحلم بعيش قطعة من هذه الحياة ، تمتد فقط إلى نصف ما يستطيعون تقديمه . رأى المحتالين ومعهم قطع العشرة دولارات ونقودهم المسروقة وشهواتهم الغذائية ولفة الخبز الممزقة .

حسناً فكر غرينسباين رأى شيرلي عارية إلا من صدريتها . كان الوقت مساءً والمخزن مغلقاً ، كانت نائمة مع هوارد على بلاطة اللحم «الولد» قال الربي وقد فقد صبره «الولد» .

ركز لبرهة طويلة بينما وقف الجميع بصمت ثم تدريجياً وبصعوبة بدأ يخرج بشيء . كان وجه هارولد في الكفن ، رأى تعابير وجهه والموت يعبث به ومتعهد الدفن ، رآه بوضوح . كان نائماً يلهث بالحزن وشفاهه تنضح بالسخرية . هكذا كان هارولد ذو الثلاثة وعشرين ربيعاً ، لا زوجة ولا عمل ، لم يضحِّ بشيء حتى في الموت ، لقد ترك الحياة في بدايتها ، ابتسم الربي لغرينسباين وأدار وجهه وكأنه وأُخذ يتشاغل عنه بأمر آخر .

«كلاّ» قال غرينسباين «انتظر انتظر .»

التفت الربي وأخذ الجميع ينظرون إليه .

رآه الآن كما رآه الجميع . ذلك الوجه الضعيف ، الغمزة الماكرة ، الابتسامة المعتدّة التي يكللها الشعور بالذنب ، التي مرت على وجهه بشكل لا إرادي وكأنها نبضة غضب . عندما استدار ويده داخل علبة النقود وفرانك ينظر إليه .

١٩٦٤

برنارد مالمود

اللاجئ الألماني

عن «ساترداي إيفننج بوست»

كنت أقرع الباب بحذر بينما كان اوسكار جاسنر يجلس أمام نافذة غرفته الحارة المظلمة في الفندق الواقع على الشارع العاشر مرتدياً فانيلته الداخلية القطنية وثوب الحمام الصيفي ، وفي الخارج عبر سماء حزيران/يونيو كان الشفق الأخضر يذوي في القمة . تلمّس اللاجئ طريقه نحو الضوء ثم أخذ يحدق بي مخفياً يأسه ، وليس المه .

كنت في تلك الأيام تلميذاً فقيراً ، وكنت على استعداد فوري لتدريس أي شخص أي شيء مقابل الحصول على دولار في الساعة على الرغم من أني منذ ذلك الحين قد تعلمت أكثر . في معظم الأحيان ، كنت أقوم باعطاء دروس في اللغة الانجليزية للاجئين الذين وصلوا حديثاً ، فقد أرسلت من قبل الكلية لهذا السبب بسبب خبرتي المتواضعة التي اكتسبتها في هذا الشأن . وحالياً يقوم عدد من تلاميذي بتجربة لغتهم الانجليزية الخاسرة ولغتي أيضاً في ساحة السوق الأميركي . كنت حينها في العشرين من عمري وعلى طريقي لانهاء سنتي الأخيرة في الكلية ، شاباً نحيفاً نهماً للحياة ، انتظر بحرقة اندلاع الحرب العالمية الثانية . كان الأمر كله خدعة لعينة ، فها أنذا يخفق قلبي للانطلاق وعبر المحيط يقوم أدولف هتلر بجزمته

السوداء وشاربه المربع بتمزيق كل الورود . هل سأنسى أبداً ما حدث مع دانزيغ في ذلك الصيف .

كانت آثار الركود القاسية ما تزال بادية ، ولكني على كل حال استطعت أن أكسب بعض المال من اللاجئين ، كانوا يملأون البلدة العليا في برودواي عام ١٩٣٩ . وكان لدي أربعة منهم ، أقوم بتدريسهم كارل أوتوالب النجم السينمائي السابق ، وولفغانغ نوفاك الذي كان في السابق اقتصادياً لامعاً ، وفريدريش ويلهالم وولف وكان يدرس تاريخ القرون الوسطى في هيدلبورغ وقد صدفته بعد تلك الليلة في غرفته بأحد الفنادق الرخيصة التي تسودها الفوضى وأوسكارجاسنر الناقد والصحفي البرليني في جريدة آخت أور أبنديلات ، كانوا رجالاً كاملين ، وكنت أشعر بشعورهم ولكن هذا ما تفعله الأزمات بالناس - يصبحون مثقفين .

كان أوسكار في الخمسين من العمر تقريباً كبير الوجه ، غليظ اليدين وذا شعرٍ كثٍ يميل إلى اللون الرمادي ، وكانت كتفاه متدليتين وعيناه ثقيلتين ملونتين بلون الغيم الأزرق وعندما حدق بيّ بعد أن قمت بالتعريف عن نفسي ، سرى فيهما الشك مثل تيارات تحت سطح الماء ، وكأنه حين رآني ، أحس بالهزيمة مرة أخرى . بقيت واقفاً بصمت عند الباب . وفي مثل هذه الحالات كنت أتمنى لو أكون في مكان آخر ، ولكن كان علي أن أسعى وراء لقمة عيشي ، وأخيراً فتح الباب ودخلت . خفف من توتره وقال شكراً ثم دعاني إلى الجلوس ، أما هو فلم يكن يعرف أين سيجلس . كان يحاول أن يقول شيئاً ثم يتوقف وكأنه لا يستطيع قوله ، كانت الغرفة تعجُّ بالملابس والكتب التي استطاع اخراجها من المانيا وكذلك بعض الرسومات . جلس أوسكار على أحد الصناديق وبدأ يهوي على وجهه بيده الضخمة . هذا الحر تمتم كأنه يجبر دماغه على الحديث «مستحيل» أنا لم أعرف مثل هذا الحر كان الحر سيئاً بالنسبة لي ولكنه كان مروعاً بالنسبة له فقد كان يجد صعوبة في التنفس . حاول أن يتكلم مرة أخرى ورفع يداً ثم تركها تسقط مثل بطة ميتة ، كان يتنفس وكأنه يخوض معركة وربما يكون قد انتصر لأننا تمكنا بعد عشر دقائق ، من الجلوس والتحدث بهدوء . ومثل معظم المثقفين الألمان ، كان اوسكار قد درس الانجليزية مرة . وعلى الرغم من يقينه بأنه لا يستطيع أن يقول كلمة بالانجليزية فقد تمكن أحياناً من أن

يركّب جملة انجليزية مفيدة، ربما طريفة أحياناً، كان يتهجى الكلمات في غير موضعها ويخلط الأسماء بالأفعال ويشوه اللهجات ومع ذلك فقد استطعنا فوراً أن نتواصل بالحديث، تكلمنا معظم الوقت بالانجليزية مع بعض الادخالات من طرفي باللغة اليدية أو اللغة الألمانية المبسطة. فقد كان قد جاء إلى أميركا من قبل في زيارة قصيرة قبل سنة، وجاءت زيارته قبل شهر من وقوع ليلة كريستل وهي الليلة التي حطم فيها النازيون نوافذ المخازن اليهودية وأحرقوا المعابد. جاء للبحث عن عمل فقد كان العمل يتيح له دخول البلاد رغم عدم وجود أقارب له في أمريكا.

كان قد تلقى وعداً بالعمل بمساعدة احدى المؤسسات ليس كصحافي بل كمحاضر، ثم عاد إلى برلين وبعد مرور سنة أخرى من التأخير المريع سُمحَ له بالهجرة، كان قد باع كل ما استطاع بيعه، وتمكن من اخراج بعض الرسومات والهدايا من بوهاوس وبعض صناديق الكتب بعد أن دفع رشوة لاثنين من حرس الحدود النازيين. وبعد أن ودع زوجته، غادر تلك البلاد الملعونة. حدق في وجهي بعينيه المظللتين وقال بلغة المانية «لقد تفارقنا بمودة» كانت زوجتي وثنية أما أمها فكانت متحمسة بشدة ضد السامية، وعادت الاثنتان لتعيشا في ستيتين، لم أطرح عليه أي سؤال مالوثني هو الوثني والمانيا هي المانيا.

كانت وظيفته الجديدة في مؤسسة للدراسات الحكومية هنا في نيويورك وكان عليه أن يلقي محاضرة اسبوعياً من فصل الدراسة الخريفي وخلال الربيع القادم باللغة الانجليزية طبعاً، حول أدب جمهورية ڤيمار، لم يكن قد مارس التدريس من قبل وكان خائفاً أن يفعل ذلك رغم أنه بهذه الطريقة يتم تعريفه للجمهور ولكن فكرة القاء محاضرة باللغة الانجليزية كادت أن تشله. لم يكن يرى كيف يمكنه أن يفعل ذلك «كيف يمكنني أن أفعل ذلك أنا لا أستطيع أن الفظ كلمتين ولا أستطيع أن أتهجي، سوف أبدو أحمقاً»، تعمق حزنه، فقد تتلمذ خلال شهرين من وصوله إلى أمريكا، وتنقله بين عدة فنادق مرتفعة الرسوم، على يد اثنين من مدرسي اللغة الانجليزية وكنت أنا الثالث. كان الاثنان السابقين قد تخلوا عنه لأن تقدمه كان بطيئاً كما أنه وباعتقاده قد سبب لهما بعض الاحباط. سألني إذا كان بامكاني أن أفعل له شيئاً أو أن عليه أن يذهب إلى اخصائي في الحديث يتقاضى خمسة دولارات في الساعة

لكي يتوسل منه المساعدة؟ فقلت له «بامكانك أن تجربه» ومن ثم تعود الي ، في تلك الأيام كنت أتصور أن ماعرفته قد عرفته ، فابتسم عند سماع هذا الجواب ومع ذلك أردت منه أن يتخذ قراره بهذا الشأن ، والا فلن يكون بيننا ثقة طوال المدة ، بعد فترة أجاب بأنه سيبقى معي لأنه إذا ذهب إلى الأستاذ ذو الخمسة دولات في الساعة فقد يساعده بأن يخدم لسانه ولكنه سيضر معدته لأنه حينها لن يبقى لديه مالاً يشتري به طعامه . وقد قامت المؤسسة باعطائه ثلاثمائة دولاراً دفعة مسبقة خلال الصيف ولم يكن يملك سواها . نظر اليّ ببلاهة وقال : لا أعرف كيف سأستطيع الاستمرار هكذا . تصورت أن الوقت مناسب لكي آخذ الخطوة الأولى فإما أن نفعل الأمر بسرعة أو أن نقضي وقتاً طويلاً ونحن نناطح الصخر فقلت له «دعنا نقف قبالة المرآة» .

نهض متنهداً ثم وقف بجانبي : أنا بقامتي النحيفة الطويلة ورأسي الأحمر أصلي من أجل النجاح . نجاحي ونجاحه . واوسكار يقف متوتراً خائفاً يجد صعوبة في النظر إلى وجه أي منّا في تلك الزجاجة المستديرة الزاوية والموضوعة على الخزانة .

- أرجوك هل تستطيع أن تقول «رايت»؟

- «غايت» قالها بصوت يشبه الغرغرة .

- كلا ليس «غايت» ضع لسانك هنا واريته كيف بينما كان يراقب المرآة بتوتر . راقبته أنا الآخر بتوتر . لفّ رأس لسانك خلف طرفه من الأعلى هكذا .

وضع لسانه كما أريته .

- أرجوك الآن الفظ كلمة «رايت»

ارتج لسان اوسكار ثم قال «رايت» .

- جيد والآن الفظ كلمة «تريجر» انها اصعب .

- تجيجر .

- عليك أن تضع لسانك في مقدمة فمك وليس خلفه .

حاول جاهداً . كانت عيناه متوترتين وبدأ العرق يتصبب من حاجبه .

- تدريجر .

- هذه هي .

- اعجوبة تمتم اوسكار .

قلت له إذا تمكنت من لفظ هذا فيمكنك أن تلفظ الباقي .

ذهبنا في جولة بالباص عبر الشارع الخامس ثم سرنا حول بحيرة الحديقة المركزية وكان يضع على رأسه قبعته الألمانية وقد لفّ شريطها إلى الخلف ويرتدي سترة صوفية ذات طية عريضة وربطة عنق أعرض مرتين من تلك التي ارتديها ويتهادى وهو يمشي بقدميه الصغيرتين . كان الطقس في الليل جيداً رغم أنه أخذ يميل إلى البرودة ، وكانت هناك بعض النجوم الكبيرة منتشرة في السماء مما سبب لي شعور بالحزن .

- هل تظن اني سأنجح ؟

- لم لا؟ سألته

وفي وقت لاحق اشترى لي زجاجة من الجعة .

بالنسبة للكثير من هؤلاء الناس الذين يتوخون وضوح اللفظ ، كانت خسارة اللغة تعتبر أكبر الخسائر . اذ أنهم عندها لا يستطيعون أن يقولوا ما يجب أن يقولوه في داخلهم . طبعاً يمكنهم أن يتصلوا بالآخرين ولكن مجرد الاتصال فقط كان محبطاً . وكما أوضح أوتوالب النجم السينمائي القديم الذي اشترى ميسي بعض بضع سنين : «شعرت اني كالطفل أو حتى أسوأ من ذلك . ربما مثل طفل متخلف . فلم أكن استطيع أن أعبر عن نفسي بما كنت أعرفه ، بالتأكيد أن ما أنا عليه أصبح عبئاً علي ، كان لساني يتدلى بدون فائدة» . وكان الأمر مع اوسكار يبدو مشابهاً إذ كانت لديه حساسية حادة تجاه اللسان الذي بدون فائدة ، واعتقد أن مشكلته مع باقي المدرسين كانت أنه من أجل تفادي الغرق في الأشياء التي لا تقال ، كان مستعداً لابتلاع المحيط في جرعة واحدة اليوم سوف يتعلم الانجليزية وغدا سيصفعهم خطاباً مثل خطابات الرابع من تموز ، لا خطأ فيه ، ويلحقه بمحاضرة في المؤسسة حول الأبحاث العامة . سرنا في دروسنا ببطء ، وخطوة خطوة ، كل شيء في مكانه ، وبعد أن انتقل اوسكار إلى شقة مؤلفة من غرفتين تقع إلى الغرب من الشارع الثامن والخمسين قرب الدرايف ، اصبحنا نلتقي ثلاث مرات في الأسبوع عند الساعة الرابعة والنصف ، وفي كل مرة كنا ندرس لساعة ونصف . ثم نذهب لتناول العشاء في المطعم الآلي في الشارع الثاني والسبعين لأن الطبخ كان صعباً في مثل هذا الجو الحار وكنا نتحدث

في الطريق حول أوقاتي حيث قمت بتقسيم الدروس إلى ثلاثة أقسام ، تمارين على الخطابة والقراءة بصوت عال ثم القواعد اللغوية لأن اوسكار كان يشعر بأهميتها ثم كتابة الانشاء وتصليحه مع اجراء المحادثة المطلوبة خلال العشاء ، لم يكن يواجه أية مشكلة في أي من تلك التمارين . كان يبدو وكأنه يتعلم وأن مزاجه آخذ بالتحسن ، كانت تمر لحظات من الفرح ، خاصة عندما يشعر أنه قد تمكن من اللهجة أو عندما ننتقل من سينك إلى ثينك وقد توقف أخيراً عن التصريح بأن لأ أمل فيه .

لم يقل أي منا أي شيء عن الخطاب الذي كان عليه أن يلقيه في أوائل تشرين الأول ، وأبقيت اصابعي متصالبة ، كان الأمر سيأتي من دراستنا اليومية ، واظن اني شعرت بالخوف من المحاضرة رغم أني لم أكن أعرف ، بل لم تكن لدي أدنى فكرة ، وفي الحقيقة لم أستطع أن أقول لاوسكار شيئاً حول هذا الأمر وحول عشرة أمور غيره ستظهر خلال فصل الخريف الدراسي . لاحقاً . عندما علمت أنه كان يحاول بمساعدة القاموس ان يكتب بالانجليزية . وانه قد خرج بكارثة تامة . اقترحت عليه أن نتحدث بالألمانية على أن نحاول فيما بعد تسليك الأمور بالانجليزية . كنت أخدعه عندما قلت ذلك لأن لغتي الألمانية كانت ضعيفة . وعلى أي كان ، دفعت الفكرة بأوسكار نحو انتاجية أكبر في محاضرته على أن يؤجل القلق حول الترجمة إلى وقت لاحق .

كان يعرق منذ نشاط الصباح وحتى ارهاق الليل . ولكن بغض النظر عن أية لغة استخدمها ، رغم كونه كاتباً محترفاً طوال حياته ، وعالماً بأمور موضوعه ، لم يتحرك خطابه أكثر من الصفحة رقم واحد . كان شهر تموز شهراً حاراً رطباً ، ولم تساعده الحرارة عى الإطلاق . كنت قد قابلت أوسكار في نهاية شهر حزيران ، ومع حلول السابع عشر من تموز كنا قد انتهينا من الدروس . أما هو فقد غرق في تلك المحاضرة المستحيلة . كان يعمل كل يوم بيأس متنام ومسعور ، وبعد أن قام بكتابة أكثر من مائة صفحة افتتاحية ، رمى القلم بغضب علىّ الحائط وهو يصيح : لا أستطيع الاستمرار في الكتابة باللسان القذر . وأخذ يلعن اللغة الألمانية ويعبر عن كرهه لتلك البلاد الملعونة وشعبها الملعون وتحول بعد ذلك من سيء إلى أسوأ . فعندما توقف عن محاولات كتابة المحاضرة توقف عن احراز أي تقدم في اللغة الانجليزية . وصار ينسى ما كان قد عرفه سابقاً ، ثقل لسانه وعادت له اللهجة الألمانية بكل حيويتها . ولم يبق

ما يقوله بالانجليزية سوى لهجة مشوهة محدودة . لم أسمع منه بالألمانية سوى ما كان يهمسه إلى نفسه . واشك في أنه كان يعرف ما يقول . وهكذا انتهى عملنا الرسمي معاً رغم أني كنت أمر عليه يوماً بعد يوم وأجلس معه ، كان يجلس لساعات في كرسيه المخملي الضخم الأخضر اللون بدون حركة ، وهو يغلي ويحدق خلال النوافذ العالية في سماء الشارع الثامن والخمسين التي لا لون لها بعيون دامعة يائسة .

ثم قال لي في احدى المرات : اذا لم استطع تحضير هذا الخطاب فسأقتل نفسي .

– دعنا نبدأ من جديد يا أوسكار . قلت له . أنت قم بالإملاء وأنا سأكتب أن الأفكار هي التي تهم وليس التهجئة .

لم يجب لذا توقفت عن الكلام .

كان قد أغرق نفسه في حزن داخلي . كنا نجلس لساعات غالباً في صمت عميق وكان هذا الأمر نذيراً سيئاً بالنسبة لي فقد كان لي بعض الخبرة في مثل هذه الحالات من الكآبة ، مثل ولفغانج نوفاك الاقتصادي رغم أن الانجليزية بدت أسهل له . الا أن مشاكله على ما أعتقد ، ظهرت نتيجة مرض جسدي المّ به . وكان يحس أكثر من أوسكار بفقدان بلده . أحياناً في بواكير المساء كنت أسعى لاقناع اوسكار بالسير معي في نزهة قصيرة ، كان منظر المغيب وهو يجرجر فوق الجروف الشاهقة يروق له . على الأقل كان ينظر وهو يرتدي كامل ثيابه ، القبعة وربطة العنق والبذلة . ورغم شدة غضبه أحياناً الا أننا كنا ننزل الأدراج ببطء ، وأنا اتساءل اذا كان سيتمكن من الوصول إلى الأسفل فقد كان يبدو وكأنه معلق دائماً بين طابقين .

كنا نسير ببطء صعوداً نحو البلدة ، ونتوقف لنجلس على البنك ونراقب الليل وهو ينسدل فوق نهر هدسن ، وعندما كنا نعود إلى غرفته ونحن في مزاج جيد ، كنت أستمع إلى الموسيقى في الراديو . ولكني كنت أحاول أن أسترق السمع إلى نشرة أخبار . فكان يقول لي أرجوك لم أعد أستطع أن أسمع أكثر عن مآسي هذا العالم . كنت أغلق الراديو حينها . وكان على حق فلم تكن تلك الأيام أيام أخبار جيدة . كنت أعصر ذهني لعلي أجد شيئاً أقوله له . هل أن بقاء الفرد حياً يعتبر من الأخبار الجيدة ، من يستطيع مناقشة هذا الموضوع . أحياناً كنت اقرأ له بصوت عال ، وتذكرت أنه كان يحب أن يسمع القسم الأول من قصة الحياة في الميسيسبي . كنا ما زلنا

نذهب إلى المطعم الآلي مرة أو مرتين في الأسبوع ، هو بسبب العادة لأنه لم يكن يشعر بالرغبة في الذهاب إلى مكان آخر ، وأنا لكي أخرجه خارج غرفته . كان اوسكار يأكل قليلاً ويلعب بالملعقة خلال الأكل . كانت عيناه البليدتين تبدوان وكأنهما قد حقنتا بطلاء أسود .

في احدى المرات . وبعد أن مرت علينا عاصفة لحظية من المطر البارد ، جلسنا نقرأ الصحف على بنك رطب مطل على النهر . على الأقل بدأ أوسكار يتكلم . أخذ يعبر بلغته الانجليزية المشوهة عن حقده الشديد والأبدي على النازيين لأنهم دمروا مستقبله واقتلعوا حياته بعد نصف قرن من العيش . ورموه مثل قطعة لحم نازفة للنسور . كان يلعنهم بشدة ويصف الأمة الألمانية بأنها أمة لا انسانية بلا رحمة ولا ضمير . أنهم خنازير يتنكرون بشكل طواويس . أنا متأكد أن زوجتي كانت في قلبها تكره اليهود . كان يتكلم بمرارة شديدة وفصاحة لا تستخدم الكلمات ثم يعود إلى صحنه ، كنت راغباً في سماع أمور أكثر عن زوجته ولكني قررت عدم سؤاله عن هذا الموضوع .

بعد ذلك ، وفي الظلام ، اعترف اوسكار بأنه حاول الانتحار خلال أول اسبوع من وصوله إلى أمريكا . كان الوقت آخر أيار وكان يعيش في فندق حقير . وقام في أحدى الليالي بتعبئة بطنه بحبوب الباربيتوريت المنومة . ولكن هاتفه كان قد وقع عن الطاولة وقام موظف الفندق بارسال فتى المصعد لتفقد الأمر ولما وجده الأخير غائباً عن الوعي استدعى البوليس وقاموا بمعالجته في المستشفى .

- لم أكن أنوي أن أفعلها ، قال كانت غلطة .
- لا تفكر بهذا العمل مرة ثانية ، قلت له أنها هزيمة .
- لن أفعلها قال بوهن . لأن العودة إلى الحياة أمر صعب .
- أرجوك لأي سبب كان .

وفي وقت لاحق عندما كنا نسير فاجأني بقوله : ربما يجب علينا أن نجرب كتابة المحاضرة مرة أخرى .

عدنا مجهدين إلى البيت وجلس هو على مكتبه الحار . كنت احاول أن أقرأ له بينما بدأ هو ببطء يركّب أول صفحة من محاضرته . كان يكتب بالألمانية بالطبع ، لم

يصل إلى نتيجة وعدنا إلى نقطة اللاشيء والى الجلوس في الحر وفي صمت . وكنت اضطر احياناً بعد عدة دقائق من الجلوس معه إلى الهروب قبل أن يؤثر مزاجه ويقلب مزاجي . وفي عصر أحد الأيام صعدت إلى شقة أوسكار بدون قصد واصبت بالرعب عندما وجدت بابه نصف مفتوح . وعندما قرعت الباب لم يجبني أحد . وبينما أنا أقف هناك أقشعر ربما حتى اسفل نخاعي أدركت أني أفكر باحتمال أن يكون قد حاول الانتحار مرة أخرى ، ناديت أوسكار ثم دخلت إلى الشقة ، وبحثت في كلا الغرفتين وفي الحمام ولكنه لم يكن هناك ، فكرت أنه ربما نزل قليلاً ليبتاع شيئاً من البقالة وانتهزت الفرصة لكي أجول بنظرة سريعة في الغرفة . لم يكن يوجد في خزانة الأدوية شيئاً يدعو إلى الخوف ، فقط بعض حبوب الآسبرين ، لم يكن يوجد أي أثر لليود . فكرت للحظة بوجود مسدس ، بحثت في جرار مكتبه وجدت فيه رسالة صغيرة مرسلة بالبريد الجوي من المانيا . لم أتمكن من قراءة الخط حتى حين أردت ذلك ولكني حين حملت تلك الورقة الصغيرة في يدي استطعت أن أميز جملة واحدة «لقد بقيت مخلصة لك مدة سبعة وعشرين سنة» ان سبعة وعشرين سنة هي مدة طويلة ، فكرت قليلاً لم يكن هناك أي مسدس في الجرار . أغلقته ثم توقفت عن البحث وخطر لي بأنك إذا أردت أن تقتل نفسك فلن تحتاج أكثر من غزة دبوس مباشرة . وعندما عاد اوسكار ابلغني أنه كان يجلس في المكتبة العامة دون أن يتمكن من القراءة . عدنا مرة أخرى إلى المشهد الذي لا يتغير ، رفع الستار عن شخصين صامتين في شقة مفروشة . أنا في المقعد الخلفي ، واوسكار في الكرسي المخملي الذي أقعده بدلاً من أن يدعمه . وهو يرتخي فيها بوجهه الرمادي الضخم وجسده الرمادي وعيناه الزائفتين . حاولت أن افتح الراديو ولكنه نظر الي نظرة متوسلة أن لا تفعل ذلك ، ثم نهضت كي أغادر الشقة ولكن اوسكار طلب مني بالحاح وهو يبلع ريقه بأن أبقى . بقيت ، وأنا أفكر هل يوجد شيء آخر من هذا الأمر لم أره . كانت مشاكله ، والله أعلم ، حقيقية . ولكن هل يوجد عنده مشكلة تفوق مشكلة اللاجئ المخلوع من وطنه ، المتغرب الذي يشعر بعدم الأمان حالياً وهو يعيش في بلد غريب لا أصدقاء له فيه ولا يتكلم لغته . كان تقديري يشابه التقديرات القديمة . لا يغرق الجميع في هذا المحيط فلماذا يغرق هو ؟ بعد فترة كونت فكرتي وسألته : هل يوجد

شيء غير مرئي تحت السطح . كنت خبيراً بمثل هذه الأمور في الكلية وتساءلت إذا كان هناك جزءاً من الكآبة قد يتطلب مساعدة من طبيب نفسي يؤهله ليبدأ في كتابة محاضرته . فكر بالأمر ملياً . وبعد عدة دقائق أجابني بتردد أنه كان يخضع للتحليل النفسي في ڤيينا خلال فترة شبابه . «فقط الأسلوب العادي» قال : مخاوف وتخيلات لم تعد تزعجني فيما بعد .

– لم تعد تخطر على بالك الآن .

– كلا .

– لقد كتبت العديد من المواضيع والمحاضرات من قبل ، قلت له . ما لا أفهمه رغم معرفتي بصعوبة الوضع هو لماذا لا تستطيع تخطي الصفحة الأولى .

رفع يده نصف رفعه : انه شلل في ارادتي ، المحاضرة واضحة كلها في ذهني ولكن في اللحظة التي أقوم بها بكتابة كلمة واحدة ، سواء بالانجليزية أو بالألمانية . ينتابني خوف شديد بأني لن أستطيع أن أكتب الكلمة التالية ، كأني بأحد يرمي حجراً على زجاج منزل كبير فيتهشم المنزل برمته ، هكذا أنا . تتهشم الفكرة كلها ، ويستمر هذا الأمر حتى أُصاب باليأس .

قال لي أيضاً بأن خوفاً ينمو بداخله خلال عمله ، من أن يموت قبل أن ينهي محاضرته . أو أن محاضرته ستكون من السوء لدرجة أنه قد يتمنى الموت بعدها لأن الخوف يسبب له شللاً كاملاً .

– لقد فقدت ايماني – لم أعد . . . أملك كالسابق ثقة بنفسي لقد دخلت في حياتي كثير من الأوهام .

حاولت أن أصدق ما أقوله له : ضع ثقتك بنفسك ، سوف يمر هذا الشعور وينتهي فيجيبني : ليس لدي أية ثقة ، لأجل هذا ولأجل كل ما خسرته أود أن أشكر النازيين .

كان الوقت حينها منتصف شهر آب وكانت الأمور تزداد سوءاً كيفما قلّبتها ، فقد بدأ البولنديون الاستعداد للحرب ، كان اوسكار بالكاد يتحرك وكنت أنا شديد القلق رغم ما أبديته من هدوء .

جلس في كرسيه الضخم بعيون عليلة يتنفس مثل حيوان جريح .

- من يستطيع أن يكتب عن والت ويتمان في مثل هذه الظروف الرهيبة؟ .
- لماذا لا تغير الموضوع؟ .
- لا يوجد فرق في تغيير الموضوع . كل الأمر بلا فائدة .

كنت أمر كل يوم لاراه . مهملاً سائر تلاميذي ، وبالتالي رزقي وعملي . كان لدي شعور مخيف بأنه لو استمرت الأمور على هذا النحو فستنتهي بانتحار اوسكار وشعرت برغبة ملحة في منع حدوث ذلك . والأنكى من ذلك أنني كنت أخاف احياناً على نفسي من أن تضربها نوبة الكآبة التي تضربه . سميها موهبة جديدة من قلة الاهتمام باهتماماتي القليلة . استمر الحر شديداً قاسياً . فكرنا بالهروب إلى بلد آخر . ولكن كنا كلينا مفلسين ، في أحد الأيام اشتريت لأوسكار مروحة قديمة ، أتساءل لماذا لم نفكر بذلك من قبل - صار يجلس في مقابلها لساعات كل يوم إلى أن توقفت عن الدوران بعد اسبوع ، وقد تزامن ذلك بعد فترة وجيزة من توقيع معاهدة عدم الاعتداء بين النازيين والسوفيات ، لم يستطع النوم في الليل وصار يجلس على مكتبه ويلف رأسه بخرقة مبللة مستمراً في محاولته كتابة محاضرته . كان يستهلك مقادير كبيرة من الورق وهو يتمرن على دواسة الركض ولكنه لم يخرج بشيء . وعندما كان ينام من الارهاق كانت تنتابه أحلام مرعبة بأن النازيين يعذبونه ويرغمونه أحياناً على النظر إلى جثث الأشخاص الذين ذبحوهم . أخبرني أنه في أحد أحلامه كان عائداً إلى المانيا لزيارة زوجته ولما لم يجدها في البيت ارشدوه إلى المقبرة . وهناك على الرغم من أن الاسم المكتوب على حجر القبر لم يكن اسمها الا أن الدماء كانت تسيل من قبرها على الأرض ، وكان يئن كلما تذكر ذلك الحلم ، بعد ذلك أخذ يخبرني أشياء عنها . وكيف تقابلا معاً خلال الدراسة ثم عاشا معاً وتزوجا في عمر الثالثة والعشرين ، لم يكن زواجاً سعيداً فقد انقلبت إلى امرأة مريضة لا تقدر على انجاب الأطفال . كان هناك شيء خطأ في تركيبتها الداخلية .

ورغم أني لم أطرح أية اسئلة الا أن اوسكار قال لقد عرضت عليها المجيء معي ولكنها رفضت .

- لماذا؟ ما هو السبب؟
- كانت تظن أنني لا أرغب في مجيئها .

- وهل أنت كذلك؟ .

- كلا! قال .

أوضح لي بأنه عاش معها لمدة سبعة وعشرين سنة وسط ظروف صعبة . كانت تعيش تناقضاً دائماً مع اصدقائهما من اليهود ومع اقاربه رغم أنها لم تكن تبدو في ظاهرها شخصاً متميزاً . ومع ذلك فقد كانت أمها من ألد أعداء السامية .

- ليس لدي شيئاً الوم به نفسي قال اوسكار .

خلد إلى سريره للنوم . وانطلقت أنا إلى مكتبة نيويورك العامة لأقرأ عن بعض الشعراء الألمان الذين كان يحاول أن يكتب عنهم باللغة الانجليزية . ثم قرأت كتاب «أوراق من العشب» وكتبت ما ظننته أن أحد هؤلاء الشعراء أو اثنين منهم قد اقتبسه من ويتمان . وفي أحد ايام أواخر شهر آب . عرضت لأوسكار ما كتبته وكان في معظمه تخمينا . لم تكن فكرتي أن أكتب له المحاضرة . استلقى على ظهره بدون حراك واستمع بحزن تام لما كتبته . ثم قال : كلا أنهم لم يقتبسوا من ويتمان حب الموت - ان هذا يسري في الشعر الألماني - ولكن كان الاقتباس مثل أي شيء ، من شعوره الانساني .

ولكن هذا الشعور لا يظهر مطولاً على الأرض الألمانية . تابع قائلاً فسرعان ما يتم تدميره .

اعتذرت له عن خطئي ولكنه على أي حال شكرني . تركته وأنا أشعر بالهزيمة وبينما كنت أنزل الدرج سمعت أحداً يبكي .

سوف أنسحب من هذا الأمر . فكرت لقد أخذ مني الكثير ولا أرغب أن أغرق معه .

بقيت في منزلي في اليوم التالي متذوقاً نوعاً من التعاسة الخاصة التي تليق بشخص في عمري ، ولكن في تلك الليلة بالذات اتصل بي أوسكار هاتفياً يباركني ويشكرني بعنف لأني قرأت له تلك الملاحظات . لقد استفاق ليلاً ليكتب لي رسالة يشرح لي فيها الخطأ الذي ارتكبته في ملاحظاتي . وانتهى به الأمر ليكتب نصف محاضرته . نام النهار كله وينوي الليلة انهاء المحاضرة .

شكراً لك قال لي شكراً لكل شيء وشكراً لأنك وضعت ايمانك في شخصي .

الشكر لله قلت له . دون أن أخبره أني كدت أن أفقده .

أكمل اوسكار محاضرته - كتب واعاد الكتابة - وخلال الأسبوع الأول من أيلول كان النازيون قد غزوا بولندا ورغم أننا لم نتأثر كثيراً ، الا أنه راودنا احساس بالانعتاق لأن البولنديين الشجعان ربما سيهزمونهم . استغرقت ترجمة المحاضرة اسبوعاً آخر . ولكننا هنا حصلنا على تعاون من فردريك ويلهالم وولف المؤرخ وهو رجل لطيف واسع الاطلاع والمعرفة يحب الترجمة . وقد وعد بمساعدة اوسكار في المحاضرات القادمة . كان لدينا اسبوعان للتدرب على لقاء اوسكار . وكان الطقس قد تغير ببطء وكذلك هو . فقد استيقظ من هزيمته مثخناً بعد معركة مرهقة وبعد أن خسر من وزنه ما يقارب العشرين باونداً . كان مزاجه ما يزال رمادياً . وعندما نظرت إلى وجهه ، توقعت أن أرى فيه أثراً للجراح . ولكنه كان ما يزال محتفظاً بطبيعته المترهلة وغير الواضحة . عادت الحياة لعينيه الزرقاوين وصار يسير بخطى متسارعة وكأنه يحاول التقاط الخطوات التي لم يتمكن من أن يخطوها خلال تلك الفترة الطويلة من الحر والتي تركته يرتمي ببلادة في غرفته .

عد نا إلى الروتين السابق نلتقي عصر ثلاثة أيام في الأسبوع لمتابعة الأداء والقواعد والتمارين الأخرى ، علمته الحروف الصوتية وسجلت له لوائح طويلة بالكلمات التي كان يسيء لفظها .

عمل جاهداً لساعات طويلة وهو يحاول وضع كل صوت في مكانه المناسب . حاملاً نصف عود كبريت بين أسنانه لابقاء حنكيه منفصلين بينما يمرن لسانه . كان يمكن لهذا الأمر أن يبدو عملاً مقيتاً مملاً ، لولا ايمانك بأن لك مستقبلاً . وعندما كنت انظر اليه ، كنت ادرك ماذا نعني عندما نقول عن أي شخص بأنه اصبح رجل آخراً .

سارت امور المحاضرة والتي كنت قد حفظتها عن ظهر قلب ، بشكل جيد وكان مدير المؤسسة قد دعا عدداً كبيراً من كبار القوم واصبح اوسكار اول لاجئ يتم توظيفه في المؤسسة . فقد كان هناك نوع من التحرك لجعل الجمهور مدركاً لهذا العنصر الجديد من الحياة الأمريكية . جاء مراسلان صحفيان مع مصورة وكانت القاعة مزدحمة . جلست أنا في الصف الأخير بعد أن وعدته بأن أرفع يدي كلما اصبح الصوت غير مسموع . ولكن الأمر لم يتطلب ذلك . كان اوسكار ببدلته الزرقاء وشعره

الحليق يبدو عصبياً بالطبع . ولكنك لا يمكنك ان تلاحظ ذلك اذا كنت لا تعرفه وعندما صعد واعتلى منصة المحاضرة ونشر اوراقه أمامه ونطق أول جملة له بالانجليزية أمام الجمهور ، ارتعش قلبي فلم يكن أحد عدا كلينا أنا وهو يملك فكرة عن العناء الذي مر به قبل الوصول إلى هنا . لم يكن لفظه سيئاً أبداً حرف «س» بدلاً من حرف «ث» ولفظ «باغ» بدلاً من «باك» . وما عدا ذلك كان ممتازاً . وكانت قراءته للشعر جيدة في كلا اللغتين وعلى الرغم من أن والت ويتمان بدا وكأنه جاء إلى جزيرة لونغ ايلند على شكل مهاجر الماني الا أن شعره كان يقرأ كما يجب أن يقرأ الشعر :

كل ما أعرفه هو أن روح الله هي أخ لروحي
وان كل الرجال الذين ولدوا على وجه الأرض هم اخوتي
والنساء اخواتي وحبيباتي .
وأن أساس الخلق هو الحب .

قرأ أوسكار هذه الأبيات وكأنه يؤمن بها . كانت وارسو قد سقطت بيد النازيين ولكن الأبيات حمته إلى حد ما ، جلست في الصف الأخير وأنا أعي أمرين . الأول : كم هو سهل أن تخفي أعمق الجروح والثاني : هو شعور بالكبرياء والفخر لهذا العمل الذي قمت به .

بعد مضي يومين على المحاضرة ، . صعدت الدرج إلى شقة أوسكار لأجد حشداً من الناس هناك . كان اللاجئ الألماني ملقى على الأرض بثياب نومه المهلهلة ، وكان لون وجهه أحمراً فاقعاً ، وشفتاه زرقاوين يسيل على زواياها أثر لزبد . وقد ركع بجانبه رجلا اطفاء يعالجانه بجهاز استنشاق . كانت النوافذ مفتوحة والهواء مفعم برائحة الغاز .

سألني أحد رجال الشرطة من أكون . ولم استطع اجابته سوى بكلا آه كلا قلت كلا ولكنها كانت نعم بلا تردد ، فقد انتحر اوسكار بالغاز . لم أكن لافكر أبداً بالفرن الموجود في المطبخ .

لماذا؟ سألت نفسي لماذا فعلها؟ ربما بسبب مصير بولندا قبل كل شيء ولكن الجواب الوحيد الذي كان يمكن لأي أحد أن يأتي به هو الملاحظة التي كتبها اوسكار والتي تقول بأنه لم يكن في حالة جيدة وأنه يوصي بكل ممتلكاته لمارتن جولدبرغ وهو

أنا مارتن جولدبرغ .

مرضت لمدة اسبوع ، ولم يكن لدي رغبة لأن أرث أو أحقق في شيء ولكني فكرت بأن ألقي نظرة بين اشيائه قبل أن تقوم المحكمة بوضعها تحت الحجز . لذا قمت بتمضية الصباح جالساً في أعماق كرسي اوسكار المخملي محاولاً قراءة رسائله ، وجدت في الدرج العلوي لمكتبه رزمة صغيرة من الرسائل من زوجته ، وبريدا يحمل تاريخاً حديثاً من حماته المتشددة ضد السامية .

كانت كتابتها محشوة جداً . أمضيت ساعات في محاولة حل مغاليقها : قالت ان ابنتها هجرتها بعد أن هجرها اوسكار ، ورغم توسلات أمها ونداءاتها المتقدة ، فقد قررت أن تتحول إلى اليهودية بواسطة رابي حاقد .

وفي احدى الليالي ظهر رجال القمصان البنية ، ورغم أن الأم لوحت بالصليب البرونزي بشدة أمام وجوههم الا أنهم سحبوا السيدة جاسنر مع بعض اليهود الآخرين إلى خارج البناية ، ونقلوهم في عربات إلى بلدة حدودية صغيرة في بولندا المهزومة . وسرت آشاعات تقول بأنهم اطلقوا النار على رأسها ثم رموها في خندق مفتوح مع بعض الرجال اليهود العراة وزوجاتهم وأطفالهم ، وبعض الجنود البولنديين ونفر من الغجر .

١٩٦٧

جويس كارول أوتس

إلى أين أنت ذاهبة، أين كنت؟

عن «ايبوك»

الى بوب ديلان

كان اسمها كوني وعمرها خمس عشرة سنة ، ولديها عادة عصبية سريعة تثير الضحك ، كأن تقوم بمد رقبتها لكي تنظر في المرايا أو لكي تتفقد وجوه الناس . ربما لتتأكد من أن وجهها هو على ما يرام . كانت أمها تلاحظ وتعرف كل شيء . ورغم أنها لم يعد لديها سبب لتديم النظر إلى وجهها . فقد كانت توبخ كوني على هذه العادة وتقول لها «أوقفي هذا التصرف الأبله ، من تظنين نفسك؟ أتظنين أنك جميلة جداً؟» . أما كوني فكانت ترفع حاجبيها أمام هذه التوبيخات المألوفة وتنظر من خلال أمها إلى تلك الرؤيا الظلالية لنفسها تماماً كما هي الآن في تلك اللحظة . كانت تعلم أنها جميلة وكان هذا كل شيء . لقد كانت امها جميلة يوماً ما ، اذا استطعت ان تصدق كل تلك الصور القديمة في الألبوم . أما الآن فقد وهنت نظراتها ولهذا السبب كانت دائماً تلاحق كوني .

- لماذا لا تحافظين دائماً على غرفتك نظيفة مثل أختك؟ بماذا صففت شعرك؟ ما هذه الرائحة العفنة بحق الجحيم؟ أهو دواء تثبيت الشعر؟ ألا ترين أختك؟

كان عمر اختها جون أربع وعشرون سنة وكانت تعيش معهم في البيت وتعمل سكرتيرة في المدرسة الثانوية حيث تدرس كوني . وكأن هذا لم يكن أمراً سيئاً بما فيه

الكفاية بالنسبة لكوني - أن تكون أختها معها في نفس البناية - فقد كانت جون انسانة بسيطة ومنتظمة ومكتنزة لدرجة أنه كان يتوجب على كوني أن تسمع عبارات الثناء لها من أمها ومن أخوات أمها طوال الوقت . جون فعلت هذا ، جون فعلت ذاك» لقد وفرت مالاً وساعدت في تنظيف المنزل وقامت بالطبخ وكوني لم تستطع أن تفعل شيئاً . كان دماغها مملوءاً بأحلام النهار التافهة .

أما والدهم فكان يقضي معظم الوقت في عمله وعندما يعود إلى البيت ، يطلب العشاء ، ويقرأ الصحيفة خلال العشاء ، وبعد ذلك يخلد إلى النوم . لم يكن يكلف نفسه عناء التحدث معهم كثيراً . ولكن أم كوني كانت تظل تحوم حول رأسه لتشكو كوني ، حتى أصبحت كوني تتمنى إما أن تموت هي ، أو أن تموت أمها ، وأن ينتهي كل شيء» انها تجعلني أرغب في التقيؤ أحياناً . كانت تشكو لصديقاتها وكان في صوتها نبرة مسلية وقوية ومتواصلة . تسبغ قوة على كل كلمة تقولها سواء كانت صادقة أم لم تكن .

كان هناك أمر جيد فقد كانت جون تذهب إلى بعض الأماكن مع صديقاتها اللواتي كن على شاكلتها بساطةً وانتظاماً . لذلك وعندما كانت كوني ترغب أن تفعل ذلك لم تكن تواجه اعتراضات من أمها . كان والد أعز صديقات كوني يأخذ الفتيات بالسيارة مسافة الثلاثة أميال الموصلة إلى البلدة ويتركهن في مركز بلازا للتسوق حيث يمكنهن التحدث عبر مخازن التسوق أو الذهاب إلى السينما . وعندما كان يعود ليقلهن عند الساعة الحادية عشرة ، لم يكن يكلف نفسه عناء السؤال عما فعلنه هناك .

لا بد أنهن كن منظر مألوفاً ، وهن يسرن حول مركز بلازا للتسوق ، يرتدين الشورتات ، وأحذية البالية المسطحة اللاتي كن يتنقلن بها عبر الأرصفة ، اضافة إلى تلك الآساور الساحرة المتدلية على خصورهن النحيفة ، وكن يملن على بعضهن البعض ويهمسن أو يكتمن ضحكاتهن عندما يمر شخصاً مسلياً أو مثيراً للاهتمام . كانت كوني تملك شعراً أشقراً طويلاً يجذب الأنظار لشدة شقرته ، ترفع جزءاً منه على وجهها وتترك الباقي لينسدل على ظهرها . كما كانت ترتدي سترة جيرسي خارجية . كانت تبدو في البيت شيئاً وشيئاً آخر عندما تكون خارجه . كان لكل شي

فيها جانبان . جانب للبيت ، والآخر لأي مكان آخر غيره . وكانت تتمايل في مشيتها أحياناً كالأطفال . وأحياناً أخرى تمشي بتراخ كأنها تستمع إلى موسيقى في رأسها . كان فمها شاحباً يتكلف الابتسام طوال الوقت ، ولكنه ينقلب ارجوانياً متألقاً في الأمسيات التي تخرج فيها ، أما ضحكتها فكانت ساخرة ومتشدقة في البيت تنقلب إلى عالية وعصبية في أي مكان آخر» . ها ها مضحك جداً» . تماماً مثل تلك الرنة الساحرة لاسوارتها .

أحياناً كن يذهبن للتسوق أو للسينما ، ولكنهن في أحيان أخرى كن يقطعن الطريق السريع المزدحم بعجلة لينتهين في مطعم مفتوح يتسكع فيه الشباب الأكبر سناً . كان المطعم مبنياً على شكل زجاجة كبيرة . أوسع قليلاً من شكل الزجاجة الحقيقية وعلى سقفه توجد صورة دوارة لشاب مبتسم يحمل ساندويش هامبرغر إلى الأعلى وفي احدى ليالي الصيف ، بينما هن يسرن بجرأة وبأنفاس لاهثة . اقتربت منهن سيارة ، وظهر شاب من النافذة يدعوهن للركوب معه . ولكنهن تجاهلنه لأنه كان شاباً من المدرسة الثانوية لم يكنّ يستلطفنه . اكسبهن هذا التجاهل له شعوراً جيداً . وتابعن السير عبر صفوف السيارات المتوقفة والعابرة إلى المطعم البراق الذي يعج بالذباب . كانت وجوههن فرحة ومتأملة كأنهن يعبرن إلى مكان مقدس يلوح في الظلام ليمنحهن النعمة التي جئن يطلبنها . جلسن على احدى الطاولات وعقدن ارجلهن عند الكواحل وكانت اكتافهن الرقيقة تتصلب بالاثارة وهن يستمعن إلى الموسيقى التي جعلت من المكان مكاناً رائعاً ، كانت الموسيقى دائماً خلفهن شيئاً يعتمد عليه تماماً مثل موسيقى الخدمات الكنائسية . جاء شاب يسمى ايدي ليتحدث معهن وجلس بشكل معكوس على كرسيه وأخذ يدور بنفسه على الكرسي بشكل أنصاف دوائر ثم يتوقف ويستدير مرة أخرى : وبعد فترة سأل كوني اذا كانت تريد أن تأكل شيئاً؟ فأجابت بنعم ، ثم تأبطت ذراعه خارجاً . رفعت صديقتها رأسها وهي تنظر اليها نظرة شجاعة مضحكة - قالت لها كوني سنلتقي عبر الطريق عند الساعة الحادية عشرة .

- أنا أكره أن أتركها هكذا ، قالت كوني بجدية . ولكن الفتى اجابها بأنها لن تبقى لوحدها لمدة طويلة . انطلقا في سيارته ولم تستطع كوني أن تمنع عينيها من

الطواف عبر زجاج السيارة في كل تلك الوجوه حولها على طول الطريق . كان وجهها يشرق بالفرح . وهو فرح لم يكن له علاقة بوجود أيدي أو حتى بوجودها في هذا المكان . وربما كان سببه هو تلك الموسيقى . رفعت كتفيها إلى الأعلى وأخذت تتنشق الهواء مسرورة فقط لأنها على قيد الحياة ، وفي تلك اللحظة وقع نظرها على وجه كان يبعد عدة أقدام عنها ، كان وجهاً لفتى ذا شعر أسود شعث يقود سيارة قديمة ذهبية اللون ولها سقف قابل للطي ، حدّق فيها ثم أطلق ابتسامة من شفتيه ، ضيقت كوني عينيها ثم أشاحت عنه ولكنها لم تستطع الا أن تنظر اليه من الخلف وهناك وجدته ما زال يراقبها ، هز لها باصبعه وضحك قائلاً : سوف أحصل عليك يا حلوتي .

أمضت ثلاث ساعات مع إيدي في المطعم حيث تناولا بعض الهمبرجر وشربا الكوكاكولا في كؤوس شمعية دائمة التعرق ، ثم سارا عبر الممر مسافة ميل أو ما يقاربها . وعندما ودعته عند الساعه الحادية عشرة الا خمس دقائق لم يكن في بلازا مكان مفتوحاً يستقبل الناس سوى دار السينما . كانت صديقتها هناك تتحدث مع أحد الفتيان وعندما اقتربت كوني ابتسمت الفتاتان لبعضهما البعض وقالت كوني «كيف كان الفيلم؟» فأجابتها الفتاة «أنت الذي يجب أن تعرفي» ، عدن بسيارة والد الفتاة نعسات وفرحات . ولم تستطع كوني الا أن تنظر إلى مركز التسوق المعتم وقد فرغت ساحة مواقف السيارات بجانبه وذوت أنواره ، والى المطعم المفتوح الذي ما تزال السيارات تدور حوله بدون توقف . ولم تستطع سماع الموسيقى من تلك المسافة البعيدة .

في صباح اليوم التالي سألتها جون كيف كان الفيلم واجابت كوني «هكذا وهكذا» .

كانت تخرج برفقة تلك الفتاة وفتاة أخرى عدة مرات في الأسبوع بهذه الطريقة ، وتقضي معظم وقتها الباقي حول المنزل - كان الوقت عطلة صيف - وكانت تعترض طريق أمها وتفكر وتحلم بالفتيان الذين قابلتهم ولكن الفتيان جميعاً تراجعوا وذابوا في وجه واحد . لم يكن وجه على وجه الدقة ولكن فكرة ، شعور اختلط مع أصوات الموسيقى الملحة وهواء تموز الرطب . كانت أم كوني تعيد سحبها إلى صحوة النهار بإشغالها في أعمال معينة . أو بأن تقول لها فجأة : «ما هذا الذي نسمعه عن الفتاة

بيتينغر؟» كانت كوني تجيب بعصبية «آه هي تلك الحقماء» . كانت كوني دائماً تضع حدوداً واضحة وكثيفة بينها وبين الفتيات أمثال هذه ، وكانت أمها تملك ما يكفي من البساطة واللطف لكي تصدقها ، كانت أمها بسيطة لدرجة أن كوني كانت تعتقد أنه من الوحشية بمكان أن تستمر في خداعها بهذا الشكل . كانت أمها تحوم في البيت بشبشب قديم مخصص لغرفة النوم . وتشكو على الهاتف أحدى اخواتها إلى الأخرى . ثم تتصل بالاخرى وتأخذان في الشكوى من الثالثة وعندما يذكر اسم جون تظهر نبرة رضا على لسان أمي ، أما إذا ذكر اسم كوني ، فالنبرة تنقلب إلى السخط ، لكن هذا لم يكن يعني أنها تكره كوني . بل في الحقيقة كانت كوني تعتقد أن أمها تفضلها على جون لأنها كانت أجمل . ولكن كلتيهما كانتا تدعيان الغضب ، وكأنهما تتصارعان أو تتعارضان حول أمر ليس بذي قيمة بالنسبة لهما . احياناً عندما يحتسيان القهوة معاً ، كانتا تبدوان مثل صديقتين . ولكن شيئاً ما يظهر ، بعض الاغاظة التي تحوم مثل ذبابة حول رؤوسهما ، تظهر فجأة لتنقلب وجوههما متجهمة متحدية .

في أحد أيام الأحد استيقظت كوني الساعة الحادية عشرة ، لم يكن أحد منهم يهتم بالذهاب إلى الكنيسة - وغسلت شعرها لكي تتركه يجف في الشمس على مدى النهار . كان أهلها واختها ذاهبين إلى حفلة شواء في منزل احدى عماتها ، ولم تكن كوني ترغب بالذهاب لأنها لم تكن مهتمة ، قلبت عينيها كي تظهر لأمها تماماً ما تفكر به .

«أبقي وحدك في البيت إذن» ردت عليها أمها بحدّة . تمددت كوني على ظهرها في احدى كراسي البستان وأخذت تراقبهم وهم يبتعدون في السيارة . كانت أمها ما تزال تنظر اليها بتلك النظرة الغاضبة التي لم تلن أبداً من خلال النافذة ، وفي المقعد الخلفي جلست أختها الحزينة جون مرتدية كامل ثيابها . وكأنها لا تعرف ماذا تعني حفلة شواء مع كل هؤلاء الأطفال الذين يتراكضون صارخين والذباب الذي يملأ المكان . جلست كوني وعيناها مغمضتان بوجه الشمس تحلم مبهورة بالدفء حولها وكأنه نوع من الحب أو لمسة حب . وانزلق ذهنها في أفكار حول الفتى الذي رافقته في الليلة السابقة . وكم كان لطيفاً معها . كم كان الأمر جميلاً ، ليس بالطريقة التي

تفكر بها جون ، ولكنه جميل ورقيق كما يظهر في أفلام السينما ، وفي الأغنيات الواعدة . وعندما فتحت عينيها ، بالكاد استطاعت أن تعرف أين هي فقد كان البستان مليئاً بالأعشاب . وكان هناك سياج من الأشجار تظهر السماء خلفه زرقاء هادئة . ادهشها بيت المزرعة المبني من الاسبست والذي مضى على وجوده الآن ثلاث سنوات . بدا صغيراً ، وهزت رأسها وكأنها تستعد للاستيقاظ .

كان الجو شديد الحرارة . انسلت داخل البيت واشعلت المذياع لكي تبدد السكون . ثم جلست على طرف سريرها عارية القدمين . وراحت تستمع لساعة ونصف من الزمن إلى برنامج يدعى «اكس واي زد» صنداي جامبوري» يقدم تسجيلاً تلو التسجيل من تلك الأغاني السريعة الثقيلة الكثيرة الزعيق . أخذت تغني معها وسط هتافات «بوبي كينغ» «ايتها الفتيات انظرن إلى نابليون - صن وشارلي بريدان منكن أن تصغين بانتباه إلى هذه الأغنية التالية .

اصغت اليها كوني بانتباه ، وهي تنبض في اشراقة فرح . بدت وكأنها تأتي من تلك الموسيقى نفسها . وتتمدد بتراخ حول تلك الغرفة الصغيرة وصدرها يعلو ويهبط مع كل شهيق وزفير من نفسها . بعد وهلة سمعت صوت سيارة تدخل عبر مدخل المنزل . استوت جالسة فوراً وهي مشدوهة . لا يمكن أن يكون أبوها لأن الوقت ما زال مبكراً على عودتهم ، وكان صوت تطاير الحصى تحت عجلات السيارة يسمع على طول طريق المدخل الطويل ، ركضت كوني إلى النافذة ، كانت سيارة لا تعرفها . سقفها القابل للطي مفتوحاً ومدهونة بلون ذهبي براق لا تنفذ منه الشمس . بدأ قلبها يخفق بشدة . وأخذت تشد شعرها باصابعها . يا للمسيح! . . . يا للمسيح! راحت تتساءل اذا كانت تبدو بمظهر قبيح . توقفت السيارة عند الباب الجانبي واطلقت زاموراً قصيراً أربع مرات كأنما هذه اشارة تعرفها كوني . عبرت إلى المطبخ واقتربت ببطء من الباب ثم فتحت الباب المنخلي . كانت اصابع قدميها العاريتين تلتفان على بعضها اسفل الدرج ، وكان هناك صبيّان في السيارة . والآن عرفت السائق فهو ذلك الشاب ذو الشعر الأسود الأشعث الذي يبدو وكأنه مستعار . كان يبتسم لها .

- لست متأخراً أليس كذلك؟ قال لها

- من تظن نفسك بحق الجحيم؟ قالت كوني

- لقد أخبرتك بأني سأتي ، اليس كذلك؟
- أنا لا أعرف حتى من أنت .

كانت تتكلم وهي عابسة ، حريصة أن لا تظهر أي اهتمام أو متعة . أما هو فكان يتكلم بنبرة سريعة متألقة - نظرت كوني بتأن إلى الفتى الآخر الذي يجلس بجانبه ، كان شعره بنياً جميلاً مع غُرة تنسدل على جبينه . وكانت هيئته الجانبية تنم عن مظهر شرس ومحرج . ولكنه لم يتكلف النظر اليها حتى الآن . كان كل منهما يضع نظارات شمسية على عينيه ، فيما كانت نظارات السائق معدنية تعكس كل شيء بصورة مصغرة .

- ألا تريدين أن تذهبي معنا في نزهة؟

ابتسمت كوني بتكلف وتركت شعرها ينسدل على أحد كتفيها .

- ألا تعجبك سيارتي؟ انه دهان جديد قال لها .
- ماذا؟
- انك لطيفة .

حاولت أن تبدو متململة وهي تطرد الذباب عن باب البيت .

- ألا تعرفين أو ماذا ؟ قال لها .
- انظر - أنا لا أعرف حتى من تكون ، ردت كوني باشمئزاز .
- ياه ، أن ايلي يملك راديو اترين أما أنا فالراديو مكسور .

رفع ذراع صديقه وأراها راديو ترانزستور صغير كان يحمله .

وهنا بدأت كوني تسمع الموسيقى . كانت نفس تلك الموسيقى التي استمعت اليها للتو في منزلها .

- بوبي كينغ؟ قالت له
- اني استمع اليه طوال الوقت اعتقد أنه رائع .
- انه رائع . اجابت كوني بتردد .
- اسمعي ان هذا الشخص رائع ، انه يعرف اين تكون الاثارة . احمرَّ وجه كوني قليلاً . لأن النظارات كان تجعل من المستحيل عليها أن ترى اتجاه عيني الفتى . لم تستطع أن تقرر اذا كانت قد أستلطفته أم لا ، أو اذا كان فقط من النوع الأحمق ، لذا

أمضت الوقت واقفة على مدخل الباب دون أن تنزل لرؤيته أو تعود إلى الداخل إلى أن قالت -

- ما هذا النوع من الدهان على سيارتك؟

- ألا تستطيعين قراءته؟ ثم فتح باب السيارة بحذر وكأنه يخشى أن يسقط عنها الدهان ، وخرج بحذر أيضاً ، وثبت قدميه على الأرض بشدة ، كان زجاج نظارته حول الإطار يدور ببطء وكأنه يقوى شيئاً فشيئاً لتظهر صورة سترة كوني الخضراء لامعة في وسطه .

- هنا هذا هو اسمي كبداية قال . وكان اسم آرنولد فرند مكتوباً بأحرف سوداء على جانب السيارة وبجانبه شكل لوجه دائري مبتسم ذكر كوني بشكل القرعة الا أنها هنا كانت قرعة ترتدي نظارات شمسية .

- أرغب أن أقدم لك نفسي : أنا أرنولد فرند وهذا هو اسمي الحقيقي وسوف أصبح صديقك يا عزيزتي . وهذا الذي في الداخل هو ايلي أوسكار ، وهو يخجل قليلاً . رفع ايلي راديو الترانزستور إلى كتفه وثبته بتوازن عليه - والآن هذه الأرقام هي عبارة عن شيفرة سرية يا عزيزتي . كان أرنولد يشرح الأمر وهو يقرأ الأرقام ٣٣ ، ١٩ ، ١٧ ، ويرفع حاجبيه ليعرف ما الذي تفكر هي به ، ولكنها لم تكن تفكر كثيراً . فقد كان حاجز السيارة الأيسر محطماً تلمع فيه الكتابة التالية - تنفيذ امرأة مجنونة - اضطرت كوني إلى الضحك أمام هذا الموقف ، وسرَّ أرنولد لضحكها ونظر اليها قائلاً : «يوجد المزيد على الجهة الأخرى هل ترغبين أن تأتي لتري» .

- كلا - قالت

- لماذا لا ؟

- ولماذا نعم؟

- ألا ترغبين برؤية السيارة؟ ألا ترغبين بجولة فيها؟

- لا أعرف

- لماذا لا تعرفين؟

- لدي أعمال أقوم بها .

- مثل ماذا؟

- أعمال .

ضحك كأنه يسمع شيئاً غريباً . ثم ربت على فخذيه . كان يقف بطريقة غريبة مستنداً إلى سيارته كأنه يوازن نفسه ، لم يكن طويلاً . ربما أطول منها بإنش أو ما يقاربه . أعجبت كوني بطريقة لبسه والتي كانت تشبه الطريقة التي يلبس فيها جميع هؤلاء الفتيان . جينز كالح مشدود محشو داخل حذاء بال . وزنار مشدود أيضاً على وسطه يبرز لونه الفاقع وقميصاً أبيضاً تسوده بعض القذارة وتظهر منه عضلات ذراعيه وكتفيه الصلبين . بدا وكأنه خارج لتوه من عمل شاق لحمل الأشياء أو رفعها . كانت عضلات رقبته بارزة ووجهه مألوفاً إلى حد ما . وكانت ذقنه وفكيه ووجناته تميل إلى اللون الغامق لأنه لم يكن قد حلق ذقنه منذ يوم أو يومين . أما أنفه فكان طويلاً شبيهاً بأنف الصقر يتنشق كأنه يظنها أمامه وجبة ينوي أن يلتهمها أو كأن الأمر كله مجرد مزحة .

- كوني إنك لا تقولين الحقيقة . ان هذا اليوم مخصص لكي تذهبي معي في نزهة بالسيارة ، وأنت تعلمين ذلك ، قال لها وهو ما يزال يضحك . ولكنه عندما اعتدل وانتهى من نوبة الضحك التي اصابته بدا وكأن كل كلامه كان مزيفاً .

- كيف عرفت اسمي؟ قالت بشك .

- انه كوني .

- ربما وربما لا .

- أنا أعرف كوني خاصتي . قال وهو يلوح باصبعه .

تذكرته الآن بشكل أوضح فقد رأته سابقاً في المطعم ، واحمرّ خداها عندما تذكرت كيف التقطت انفاسها في اللحظة التي مر بها - كيف نظرت اليه وكيف تذكرها .

- لقد جئت أنا وايلي خصيصاً لك . قال لها . سوف يجلس ايلي في المؤخرة

- أين ؟

- أين ماذا ؟

- أين سنذهب؟

نظر اليها ورفع نظاراته الشمسية عن عينيه . ورأت كيف كان جلده شاحباً حول

عينيه مثل ثقوب كانت في الضوء بدلاً من أن تكون في الظل كانت عيناه مثل قطع زجاج مكسور تلتقط الضوء بطريقة لطيفة .

ابتسم . وكانت ابتسامته كما لو أن فكرة الذهاب في نزهة إلى مكان ما شكلت فكرة جديدة بالنسبة له .

- فقط لجولة بالسيارة يا عزيزتي كوني .

- أنا لم أقل أبداً أن اسمي هو كوني قالت له .

ولكن أعرف انه كذلك ، أنا أعرف اسمك وكل شيء عنك ، اعرف الكثير من الأشياء قال أرنولد فرند . لم يكن قد تحرك بعد بل بقي واقفاً متكئاً على جانب السيارة . لقد أبديت اهتماماً خاصاً بفتاة جميلة مثلك وعرفت كل شيء عنك ، فأنا مثلاً أعلم أن أهلك وأختك قد ذهبوا إلى مكان ما ، واعلم كم من الوقت سيمضون . واعلم من الذي كنت معه ليلة أمس . وأن أعز صديقة لديك اسمها بيتي اليس كذلك؟

كان يتكلم بصوت بسيط جذل ، تماماً كأنه يعيد تسميع كلمات أغنية . وكانت ابتسامته تبعث على الاطمئنان وعلى الشعور بأن كل شيء على ما يرام . قام ايلي برفع صوت الراديو في السيارة ولم يتكلف أن ينظر اليهما .

يمكن لايلي ان يجلس في المقعد الخلفي ، قال أرنولد فرند مشيراً إلى صديقه بحركة عفوية في ذقنه ، وكأن ايلي لا يحتسب له حساب وليس عليها أن تقلق بشأنه .

- كيف عرفت كل هذه المعلومات؟ قالت كوني

- اسمعي : بيتي شولتز ، توني فيتش ، جيمي بتنجر ، نانسي بتنجر ، قال لها بنبرة غنائية «رايموند ستانلي وبوب هاتر» .

- هل تعرف كل هؤلاء الأولاد؟

- أنا أعرف الجميع .

- انك تمزح .

- طبعاً .

- ولكن كيف جرى ولم نرك من قبل؟ .

- بالطبع رأيتني من قبل قال لها ثم نظر إلى حذائه . وكأنها قد تسببت في اهانته ، ولكنك لا تتذكرين .

- أظن أنني كنت سأتذكرك . قالت كوني

- «نعم» كان يتطلع إلى هذا الجواب مبتسماً ، شعر بالغبطة وبدأ يعد الوقت ويشد على قبضة يده وهو يستمع إلى الموسيقى من راديو ايلي . اشاحت كوني بنظرها عن ابتسامته نحو السيارة التي كان دهانها يلمع لدرجة تؤذي عين من ينظر اليها . نظرت إلى ذلك الاسم «أرنولد فرند» ثم إلى الواجهة الأمامية للسيارة حيث كتبت عبارة مألوفة - ادعموا الأطباق الطائرة - كان تعبيراً اعتاد الأطفال على ترديده في السنة السابقة ولكنهم لم يستخدموه في هذه السنة . نظرت اليه لوهلة وكأن الكلمات كانت تعني لها شيئاً لم تعرفه بعد .

- ما الذي تفكرين به ؟ - هه ؟ - سألها ارنولدفرند هل تخشين أن يتطاير شعرك مع سرعة السيارة؟ .

- كلا .

- تظنين أنني لا أقود السيارة جيداً؟

- كيف لي أن أعرف ذلك ؟

- أنك فتاة صعبة المراس . كيف هذا؟ قال لها : الا تعلمين أنني صديقك؟ ألم ترين اشارتي في الهواء عندما مررت بي؟

- أية اشارة؟

- اشارتي . وقام برسم حرف × في الهواء وهو يميل نحوها .

كانت تفصل بينهما مسافة عشرة أقدام وعندما أنزل يده إلى الأسفل كانت علامة اكس × ما تزال شبه مرئية في الهواء أغلقت كوني باب الخريس . ووقفت خلف الباب تماماً تستمع إلى الراديو والى كلام الشاب معاً . حدقت في أرنولد فرند وهو يقف هناك مسترخياً بعناد أو مدعياً الاسترخاء ، واضعاً يده بتراخ على مقبض الباب . وكأنه يريد الابقاء على وضعه دون أن تكون له نية التحرك مرة اخرى ، أدركت معظم الأشياء عنه : بنطلونه الجينز المشدود الذي يبرز فخذيه وقفاه وحذائه الجلدي اللامع وقميصه الضيق وحتى ابتسامته المراوغة ، تلك الابتسامة الناعسة

الحالة التي يعبّر فيها الأولاد عن أفكار لا يستطيعون وضعها في كلمات . أدركت كل هذا كما أدركت طريقة حديثه الغنائي الساخر قليلاً . والذي يعكس جدية وكآبة ، وأدركت طريقة شد قبضته على قبضة يده الأخرى تقديراً للموسيقى المستمرة خلفه . ولكن كل تلك الأشياء لم تتناسب مع بعضها البعض .

- كم تبلغ من العمر؟ سألته فجأة .

ذوت ابتسامته . فرأت حينها أنه لم يكن فتى صغيراً . كان أكبر منها بكثير ، ربما في الثلاثينات . وبدأ قلبها يخلق بسرعة عندما أدركت هذا .

- إن سؤالك هذا جنون ، ألا يمكنك أن تري أنني في نفس عمرك؟ .

- مثل عمري! إلى الجحيم .

- ربما أكبر منك بسنتين ، أنا في الثامنة عشرة .

- الثامنة عشرة؟ سألته متشككة .

ابتسم لكي يعيد الاطمئنان اليها وبدت الخطوط على زوايا فمه . كانت أسنانه بيضاء كبيرة ، وابتسامته عريضة لدرجة جعلت عيناه تضيقان . ورأت كم كانت حواجبه كثيفة - كثيفة وسوداء وكأنها رسمت بمادة سوداء . ثم بدا عليه الاحراج فجأة ونظر من فوق كتفه إلى ايلي وقال : هو - انه مجنون ، انه مشكلة ، أحمق ، شخصية حقيقية . كان ايلي ما يزال يستمع إلى الموسيقى ، ونظاراته الشمسية تحجب أفكاره . وكان يرتدي قميصاً برتقالياً لامعاً مفكوك الأزرار حتى منتصفه لكي يبرز صدره الذي كان شاحباً أزرقاً لا توجد فيه عضلات مثل صدر أرنولد ، كانت قبة قميصه مرفوعة إلى الأعلى وأطرافها تلتف حول ذقنه كأنها تحميها . يجلس الراديو الصغير على أذنه كأنه مصاب بالدوار تحت الشمس .

- انه غريب قالت كوني .

- هيه - انها تقول انك غريب - فيك شيء من الغرابة . صاح آرنولد فرند ثم ضرب على السيارة ليجذب انتباه ايلي ، استدار ايلي للمرة الأولى ورأت كوني لأول مرة انه لم يكن فتى أيضاً ، كان ذا شعر اشقر ووجه حليق ووجنات خفيفة الحمرة وكأن عروقه تنمو قريباً من جلده ، كان وجهه وجه شاب في الأربعين . احست كوني بدوار ينتابها امام هذا المنظر ثم حدقت فيه وكأنها تنتظر حدوث شيء يغير من

صدمة اللحظة ، ويعيد الأمور إلى نصابها . كانت شفاه ايلي ما تزال تردد كلمات الأغاني ، متمتماً مع اللحن الذي يدخل في اذنيه .

– ربما يجب عليكما أن تذهبا أنتما الاثنان من هنا . قالت كوني بوهن

– ماذا ؟ كيف ذلك ؟ صاح ارنولد فرند لقد أتينا إلى هنا لنأخذك في نزهة ، اليوم هو الأحد . ظهر صوته الآن كصوت الرجل الذي يتكلم في الراديو ، كان نفس الصوت ، فكرت كوني .

– ألا تعلمين أن اليوم كله هو يوم الأحد ، ويا عزيزتي لا يهم من الذي كنت معه ليلة الأمس . أنت الآن مع أرنولد فرند ولا تنسي هذا أبداً ، ربما من الأفضل ان تخطي إلى هنا ، قال هذه الكلمات الأخيرة بصوت مختلف ، أكثر صرامة ربما وكأن هناك حرارة أخذت تهرب منه .

– كلا لدي أعمال أقوم بها .

– ياه !

– الأفضل لكما أن تذهبا .

– لن نذهب حتى تأتي معنا .

– أين معكم ! يا للجحيم .

– كوني ، لا تعبثي معي ، أعني ، أعني لا تراوغي ، قال وهو يطرق برأسه ، ثم ضحك غير مصدق لما يحدث . ووضع نظاراته على مقدمة السيارة بحذر . وكأنه كان يرتدي باروكة بالفعل وبعد أن رفعها ، حدقت فيه كوني وعادت موجة أخرى من الدوار والخوف تنتابها حتى شعرت بأنها لم تعد ترى بتركيز . وكأن هناك غشاوة على عينيها وهي تراه واقفاً يتكئ على سيارته الذهبية اللون . خطر لها اعتقاد بأنه قاد سيارته عبر الممر حقاً ولكنه جاء من مكان مجهول قبل ذلك . أو أنه ينتمي إلى مكان مجهول . وان كل شيء عنه ، حتى هذه الموسيقى المألوفة التي تسمعها هي شيء نصف حقيقي .

– إذا جاء والدي ورآك – » .

– لن يأتي . انه في حفلة الشواء .

– كيف تعرف ذلك؟

- العمة تيلي ، انهما يشربان الآن ويجلسان - قال لها وهو ينظر شزراً كأنه يحدق عبر البلدة نحو بستان العمة تيلي . ثم وكأن رؤيا بدت تتضح ، انحنى بقوة ، وقال نعم انهم يجلسون هناك ، هذه أختك في ثوبها الأزرق - هه - وأكعابها العالية ، القبعة المكسيكية - انها محزنة ، ليست مثلك يا عزيزتي ، وهذه أمك تساعد امرأة سمينة بتنظيف الذرة ، انهم ينظفون الذرة أو يقشرونها .

- أية امرأة سمينة؟ قالت كوني .

- وكيف لي أن أعرف أية امرأة سمينة . أنا لا أعرف كل امرأة سمينة لعينة في هذا العالم . ضحك ارنولد فرند .

- آه ، انها السيدة هورنبي قالت كويني . . . من الذي دعاها ،

آحست وكأن رأسها اصبح خفيفاً بعض الشيء وأخذ نفسها يتسارع .

- انها سمينة جداً وأنا لا أحب السمينات . أنا أحبهن مثلك تماماً يا عزيزتي . قال وهو يبتسم لها ابتسامة ناعسة ، حدقاً ببعضهما البعض لوهله عبر باب الشبك ثم قال برقة . والآن ما عليك أن تفعليه هو ما يلي :

سوف تخرجين من هذا الباب وتجلسين بقربي في المقعد الأمامي وسوف يجلس ايلي في المقعد الخلفي . إلى الجحيم يا ايلي ، حسناً أنك لست صديقة ايلي . انك صديقتي وأنا عشيقك يا عزيزتي .

ماذا ؟ أنك مجنون .

- نعم ، أنا عشيقك . انك لا تعرفين ما يعني هذا ولكنك سوف تعرفين قال لها ، أنا أعرف ذلك أيضاً . أنا أعرف كل شيء عنك ، ولكن انظري أنه شيء رائع في الحقيقة . ولن تجدي شخصاً أفضل مني ولا أكثر لطفاً وأدباً مني ، أنا أوفي بوعدي دائماً ، سوف أقول لك كيف هو الأمر ، أنا لطيف في البداية ، في المرة الأولى سوف أشدك لي لدرجة لن تستطيعي معها أن تفكري بالابتعاد عني أو تدعي شيئاً ، لأنك تعرفين بأنك لن تقدري على ذلك . سوف أدخل إلى داخلك حيث كل شيء محاط بالأسرار وسوف تستسلمين لي وتحبينني .

- اخرس ، انك مجنون قالت كوني ، وتراجعت خلف الباب ثم وضعت يديها على أذنيها وكأنها سمعت شيئاً رهيباً : شيئاً لم يكن موجهاً لها . ان الناس لا تتكلم

هكذا . انك مجنون - أخذت تتمتم . وبدا لها كأن قلبها اصبح أكبر من صدرها . كان يضرب بشدة وبدأ العرق ينهال منها بغزارة . رأت أرنولد فرند يقف ثم يخطو مترنحاً باتجاه الشرفة . كاد يقع تقريباً ولكنه مثل أي سكير حذق استعاد توازنه ، وتقدم بحذائه العالي ثم أمسك بأحد أعمدة الشرفة .

- عزيزتي قال هل ما زلت تستمعين؟

- أخرج من هنا بحق الجحيم .

- كوني لطيفة يا عزيزتي اسمعي .

- سوف استدعي الشرطة .

ترنح مرة أخرى ثم اطلق من فمه بسرعة شتيمة كبيرة ، كانت جانبية لم يقصد أن تسمعها منه . ولكن حتى كلمة مسيح بدت عنيفة وهو يلفظها ، ثم عاد إلى الابتسام مرة أخرى ، راقبت ابتسامته وهي تخرج منحرفة كأنها تأتي من خلف قناع . كل وجهه كان عبارة عن قناع ينسدل حتى حنجرته ثم وكأنه قد أجرى عملية تجميل لوجهه ونسي حنجرته . عزيزتي اسمعي هكذا سيتم الأمر أنا أقول الحقيقة دائماً واعدك بذلك . أنا لن أدخل إلى هذا البيت خلفك .

- من الأفضل لك أن لا تفعل ذلك لأني سوف أتصل بالشرطة . اذا لم -

- عزيزتي! قال لها وكأنه يتكلم من خلال صوتها : انا لن أدخل عندك ، أنت التي ستخرجين الى ، اتعلمين لماذا؟

كانت تلهث . بدا لها مطبخ البيت وكأنها لم تره من قبل . أو كأنه غرفة دخلت اليها لم تكن تصلح بما فيه الكفاية . لن تساعدها أبداً . فنافذة المطبخ بدون ستائر منذ ثلاث سنوات وما زالت هنا بعض الصحون في المجلى - ربما عليها أن تنظفها . مرت يدها عبر الطاولة وشعرت بشيء لزج هناك .

- هل تسمعين يا عزيزتي ، هه

- سأنادي الشرطة .

في اللحظة التي تلمسين فيها الهاتف سأكون في حل من وعدي وسأدخل اليك ، انك لا ترغبين بذلك .

ركضت إلى الأمام محاولة أن تقفل الباب ، كانت يداها ترتجفان .

- ولماذا تفعلينه؟ قال لها أرنولد فرند بدقة وهو يتكلم مباشرة في وجهها ، انه باب شبك فقط انه لا شيء . كانت احد فردات حذائه تبدو في زاويته غريبة وكأن قدمه لم تكن فيها .

- أعني أن أي انسان يمكنه أن يقتحم باباً شبكياً أو زجاجياً أو خشبياً أو حديدياً أو أي شيء اذا احتاج لذلك . أي شخص وخاصة أرنولد فرند . لو قمت باشعال النار في المكان فستهربين للارتماء بين ذراعي تطلبين الأمان وكأنك تعرفين أنني عشيقك ، ولتوقفت عن المراوغة . أنا لا أمانع بفتاة خجولة ، ولكني لا أحب الخداع . كل جزء من كلماته كانت تتضمن نغمة ايقاعية ، عرفتها كوني ، كانت صدى أغنية من السنة الماضية حول فتاة ترتمي بين ذراعي صديقها وتعود للبيت مرة أخرى .

وقفت كوني حافية القدمين على الأرضية المشمعة تحدق فيه .

- ماذا تريد؟ همست .

- أريدك أنت ، قال لها .

- ماذا ؟

- لقد شاهدتك تلك الليلة ، وفكرت هذه هي . نعم سيدي لم أكن بحاجة إلى أن أنظر أكثر .

- ان والدي عائد ليأخذني كما أنه علي أن أغسل شعري أولاً ، ردت عليه بصوت جاف ونبرة سريعة وبالكاد استطاعت أن ترفع صوتها ليسمعها .

- كلا لن يعود أبوك الآن . ونعم كان عليك أن تغسلي شعرك وقد غسلته لي أنه رائع وبراق وكله لي شكراً لك يا حبيبة قلبي . قال لها بانحناءة ساخرة ، ولكنه كاد يفقد توازنه مرة أخرى . كان عليه أن ينحني ليعدل من وضع حذائه ولكن قدميه كما يبدو لم تستطيعا اكمال الطريق إلى أسفل . لا بد أن حذاءه كان محشواً بشيء حتى يبدو أطول مما هو عليه . حدقت كوني فيه وفي ايلي بالسيارة وكان ايلي يبدو وكأنه ينظر باتجاه يمين كوني نحو لا شيء .

قال ايلي وهو يدفع كلماته في الهواء واحدة تلو الأخرى وكأنه اكتشفها للتو ، هل تريدني أن أقوم بخلع الهاتف؟

- اغلق فمك وابقه مغلقاً . قال أرنولد فرند وقد احمر وجهه كما يبدو من

الانحناءة أو من الاحراج لأن كوني قد رأت حذاءه «هذا الأمر لا يعنيك» .

- ماذا - ماذا تفعل ؟ ماذا تريد؟ قالت كوني اذا اتصلت بالشرطة الآن فسوف يحضرون لاعتقالك .

- لقد وعدت أن لا أدخل . الا اذا لمست هذا الهاتف وسوف أفي بوعدي هذا . قال لها . ثم عاد إلى وضعه الأول منتصباً وحاول ارجاع كتفيه إلى الوراء . بدا وكأنه بطل فيلم يريد أن يعلن عن شيء هام ، كان يتكلم بصوت عال وكأنه يوجه حديثه لأحد يقف خلف كوني . أنا لم أخطط للدخول إلى بيت لا أنتمي اليه . ولكني خططت لكي تخرجي أنت الي كما يتوجّب عليك أن تفعلي الأ تعرفين من أنا؟

- انك مجنون . همست . وتراجعت عن الباب ولكنها لم ترغب في الدخول إلى أي جزء آخر من البيت ، كأنها تخشى أن يكون هذا ايذاناً له باقتحام البيت - ماذا تفعل؟ انك مجنون - أنت

- هه ماذا تقولين يا عزيزتي ؟

أخذت تنظر في المطبخ حولها . لم تستطع ان تتذكر ماذا كانت هذه الغرفة .

- هكذا هو الأمر يا عزيزتي : أنت تخرجين وننطلق بالسيارة في نزهة لطيفة ولكن اذا لم تخرجي فسوف نبقى هنا حتى يحضر باقي اهلك إلى البيت وعندها سينالونها كلهم .

- أتريدين أن أخلع هذا الهاتف قال ايلي وهو يحمل الراديو بعيداً عن اذنه . ثم اطلق تكشيرة وكأن ابتعاده عن الراديو هو أمر فوق احتماله .

- لقد قلت لك أن تخرس يا ايلي قال ارنولد فرند ، انت أصم . ضع سماعة على أذنيك ثم رتب امرك . ان هذه الفتاة الصغيرة لن تفتعل مشكلة وستكون لطيفة معي ، لذلك اعرف حدك يا ايلي . هذا الموعد ليس لك ، حسناً ، لا تكثر علي نحنحتك ، لا تتصرف معي بقذارة وقسوة ولا تتثاقل معي . قال بسرعة وبنبرة لا تحمل أي معنى . وكأنه يعيد تكرار بعض التعابير التي تعلمها ، والتي لم يعد متأكداً أي منها يصلح لمثل هذا الموقف . ثم تابع كلامه بألفاظ جديدة متسارعة وهو يغلق عينيه : لا تزحف تحت سياجي ولا تحشر نفسك داخل ثقب سنجاب . لا تستنشق غرائي ، ولا تأكل من طعامي . واحتفظ باصابعك الملوثة بالشحم لنفسك . حجب عينيه ونظر إلى

كوني التي كانت قد تراجعت إلى طاولة المطبخ .

- لا تأبهي له يا عزيزتي انه مجرد شخص تافه ، انه احمق ، حسناً أنا هو فتاك . وكما قلت لك تأتين إلى هنا بلطف مثل سيدة محترمة وتمدين لي يدك . وسوف لن يتأذى أحد ، اعني لن يصاب بأذى والدك العجوز اللطيف ذو الرأس الأصلع وأمك واختك ذات الكعوب العالية ، اسمعي لماذا تحشرينهم في هذا الأمر؟

- أتركني لوحدي . همست كوني .

- هاي ، أنت تعرفين المرأة العجوز التي تسكن أسفل الطريق . تلك التي تملك دجاجاً وأشياء أخرى . أتعرفينها؟

- إنها ميتة ! .

- ميتة؟ ماذا تعرفين عنها؟ قال أرنولد فرند .

- انها ميتة .

- ألا تحبينها؟

- انها ميتة - انها - انها لم تعد هنا - .

- ولكن ألا تحبينها؟ أعني هل لديك شيئاً ضدها؟ حقد أو ما شابهه؟ .

اخفض صوته وكأنه أحس بأنه قد أبدى بعض الخشونة . لمس النظارات الشمسية المعلقة على رأسه كأنما ليتأكد أنها ما تزال مكانها .

- والآن كوني فتاة طيبة .

- ما الذي أنت بصدد فعله؟

- أمران فقط أو ربما ثلاثة قال أرنولد فرند «ولكنني أعدك بأن لا يستمر هذا الأمر طويلاً . وسوف تحبينني كما تحبين الأشخاص المقربين منك ، سوف تفعلين ذلك . لقد انتهى الأمر بالنسبة لك هنا ، لذلك اخرجي ، لا تريدين أن توقعي أحد من الناس في مشكلة ، أليس كذلك؟

استدارت واصطدمت بكرسي أو شيء مشابه مما تسبب لرجلها بالأذى ولكنها ركضت نحو الغرفة الخلفية ورفعت سماعة الهاتف . صاح شيء في أذنها ، قهقهة خفيفة ،كان الخوف قد تملك منها لدرجة أنها لم تستطع فعل شيء سوى أن تستمع - كان الهاتف ثقيلاً ودبقاً .

وانسلت اصابعها نحو قرص الهاتف ولكنها كانت اضعف من أن تلمسه ، وأخذت تصرخ في الهاتف في ذلك الصباح . وصاحت تنادي أمها . وأحست بانفاسها ترتعش جيئة وذهاباً في رئتيها وكأنّ أرنولد فرند يطعنها بشيء مرة تلو الأخرى بلا رحمة .

كان هناك صوت نواح مزعج ومحزن يحيط بها وقد حشرت نفسها بداخله تماماً كما حشرت داخل المنزل .

بعد برهة استطاعت أن تسمع مرة أخرى وكانت تجلس على الأرضية مسندة ظهرها المبلل على الحائط .

كان أرنولد فرند ينادي عبر الباب : «تلك فتاة جيدة ، اعيدي الهاتف مكانه» فدفعت الهاتف بعيداً عنها .

- كلا يا عزيزتي . اعيديه مكانه ، اعيدي الهاتف مكانه .

رفعت الهاتف واعادته مكانه ، وتوقف رنين القرص .

- تلك هي الفتاة الطيبة والآن تعالي إلى الخارج .

كان الخوف عميقاً فيها ولكنه تحول الآن إلى فراغ فقد نسف الصراخ والزعيق ما كان فيها من خوف . ثم جلست وقد عقدت رجلاً فوق الأخرى وفي داخل رأسها يلمع وميض من الضوء ، لم يترك لها مجالاً للراحة . فكرت بأنها لن ترى أمها مرة ثانية ولن تنام في سريرها مرة أخرى . ابتلت سترتها الخضراء البراقة بالعرق .

قال أرنولد فرند بصوت رقيق مسرحي : ان المكان الذي جئتِ منه لم يعد له وجود الآن . وما كنت تفكرين فيه قد أُلغي تماماً . هذا المكان الذي أنت فيه الآن داخل منزل والدك ليس إلا علبة من الورق بإمكاني نسفها في أي وقت . أنت تعرفين ذلك وكنت تعرفينه دائماً . أتسمعينني؟

فكرت : علي أن أفكر علي أن أعرف ماذا يجب أن أفعل .

سوف نذهب إلى حقل جميل في الريف حيث الرائحة اللطيفة والشمس . قال ارنولد فرند ، سأحيطك بذراعي بشدة حتى لن تحتاجي إلى محاولة الافلات . وسأريك الحب كيف يكون . إلى الجحيم بهذا البيت أنه يبدو صلباً على أي حال ، قال لها ثم مرر اظفره على باب الشبك ولكن الصوت لم يسبب لكوني الارتعاش كما

حصل في اليوم السابق .

- والآن ضعي يدك على قلبك يا عزيزتي هل تحسين ذلك؟

تلك المشاعر القوية أيضاً . ولكننا نعرف ما هو أكثر من هذا . كوني لطيفة معي ، كوني لذيذة ما استطعت ، لأن فتاة مثلك لا تملك سوى أن تكون لطيفة وجميلة ومستسلمة . واخرجي قبل أن يعود الباقون .

شعرت بخفقان قلبها وكأن يدها تغلفه . فكرت ولأول مرة في حياتها أنه لا يوجد شيء تملكه أو يعود اليها ، فقط هذه الخفقات تعيش بداخلها ، حتى هذه لم تكن في الحقيقة ملكاً لها .

- أنت لا تريدين التسبب لهم بالأذى . تابع أرنولد والآن انهضي يا عزيزتي ، انهضي بنفسك .

وقفت .

والآن استديري إلى هذه الجهة ، هكذا تماماً تعالي اليّ - ايلي أبعد هذا أقول لك أيها التعس . قال أرنولد فرند . وكأن كلامه ليس غاضباً أو كأن كلماته جزء من تعويذة ملائمة للوضع . والآن اخرجي من المطبخ باتجاهي يا عزيزتي . ولنرى ابتسامة على وجهك . حاولي . فأنت فتاة صغيرة رقيقة وشجاعة ، انهم الآن يأكلون الذرة والسجق المشوي على النار في الخارج ، وهم لا يعرفون عنك شيئاً ولن يعرفوا أبداً ، وأنت يا عزيزتي أفضل منهم لأن لا أحد منهم كان يمكن أن يفعل مثل هذا الأمر لك .

شعرت كوني بأن الأرضية الشمعية تحت قدميها كانت باردة . أزاحت شعرها عن عينيها إلى الوراء ، أرخى ارنولد فرند يده عن العامود تماماً وفتح ذراعيه لها وكانت أكواعه تتجه نحو بعضها البعض ومعصميه مرخيين كدليل على أن الضمة أحرجته . كان ساخراً بعض الشيء ولم يكن يريد لها أن تخجل .

وضعت يدها على الشبك وأخذت تراقب نفسها وهي تدفع الباب وتفتحه ببطء وكأنها شعرت بأمان أكثر عند مخرجه . أخذت تراقب جسدها ورأسها ذو الشعر الطويل وهما يتحركان في الشمس إلى حيث كان أرنولد ينتظر . يا فتاتي الجميلة ذات العينين الزرقاوين . قال أرنولد وهو يطلق تنهيدة نصف موسيقية ، لم يكن لها

علاقة بعينيها البنيتين ، ولكنه كان مأخوذ مثلها بتلك المساحات العظيمة من الأرض التي تمتد في الشمس خلفه وتحيط به من كل الجهات ، أرض كبيرة لم ترها كوني من قبل ولم تدرك منها سوى معرفة أنها ذاهبة اليها .

١٩٦٨

ماري لاد جفل

الحيوان الدولابي

عن «سايكتري»

رغم أني جالسة أنحني بجد فوق مجهري ، إلا أني أنظر حالمة من أمام وعبر النافذة المفتوحة على ساحات الجامعة الكسولة بعد الظهر . ولكن معلم المختبر وهو طالب خريج يتمتم قليلاً ، ويحلم باليوم الذي سيصبح فيه مساعد أستاذ يتقدم نزولاً عبر صف الطاولات ، وأعود أنا إلى مجهري . لا أخطط التخصص في علم الأحياء . فالمطلوب مني موضوعان علميان . وأنا أنظر بدون تحيز إلى أرجل الضفادع وأكباد الخنازير في مساقات السنة الثانية ، وقد علق على كل منها رقعة تبين الاسم ، وهي تطفو في برميل من مادة (لحفظ الجثث) عند الزاوية . ولها رائحة تشتم منها التقنية والسرية والتقدم . ولكنها لا تحركني البتة . ففي السنة القادمة سأكون في مختبر آخر وفي مساق علمي آخر ، أعبث بمصابيح الغاز والحقول المغناطيسية . الوقت الآن آخر الخريف ، على الرغم من بقاء بعض الدفء في تكساس ، أصوات تدريبات كرة القدم التي تصلني ضعيفة عبر النافذة . . .

نحن أربعون طالباً في السنة الأولى في الغرفة ، ومنذ وصولنا إلى جامعة الولاية قادمين من البلدات الصبارية الناعسة ومن المدن الغرة الصغيرة وغابات الصنوبر والسهول ، ونحن ندرس البروتوزوا ، المخلوقات ذات الخلية الواحدة التي تنقسم ببساطة . عندما تريد أن تصبح اثنتين ولا تعرفها إذا كانت حيوانات أو نباتات . كان

معلم المختبر ينكب علينا بحماس ، يريدنا أن نلقي نظرة جيدة على هذه الأميبا ونقدر تماماً السبايروجيرا .

ولكنه اليوم ، وهو يوزع علينا الشرائح الزجاجية ، وعلى كل منها نقطة ماء من البركة ، يبلغنا بأننا سنترك وحيدة الخلية ، ونبدأ تسلقنا على سلم التطور الطويل . فاليوم سنرى الدولابيات التي تنتمي إلى عائلة الميتازوا ذات الخلايا الكثيرة . ونحن أيضاً على الطرف الآخر من المجهر ، ننتمي إلى هذه العائلة . فالدولابي مثلنا يملك دماغاً وجهازاً عصبياً ومعدة .

كنت أحسن ضبط المجهر في ذلك الوقت . وأعرف أن هذه الصور المتموجه هي انعكاسات لأهداب . كما أني أعرف الطحالب عندما أراها ، تلك المادة الورقية الخضراء ، التي تشبه خضار البروكولي على طبق العشاء في نزل الجامعة . قريباً سوف أجد الدولابي ، يتحرك بغضب ، وبجسم شفاف كباقي الحيوانات الصغيرة ويموج باهتياج في محيطه الأصلي .

بينما أنا أراقب ، أصبحت شاهدة لأزمة في حياة هذا الدولابي . فهو عالق وسط شبكة من الطحالب ، ولا يستطيع الإفلات . جسمه الشفاف الصغير يتحرك . ولكن الحاجز الطحلبي يبدو صعب الاختراق ، يستدير ثم يتلوى ويتقلب ولكنه يبقى عالقاً . اهدأ قليلاً ، أهمس له . انبطح بهدوء وأمسك أنفاسك ثم انطلق إلى اليسار . ولكنه في حالة رعب شديد ، وبعيد عن أي خطة عمل معقولة . يبدو لي أن حركته قد تباطأت وكأنه يشعر بالإعياء .

ربما أستطيع مساعدته ، ربما أتمكن من وضع إصبعي على طرف الشريحة الزجاجية ، وأقلبها قليلاً بحيث يجرف الماء ، هذا الحاجز بحذر وبهدوء . أخذت ألمس الشريحة ، ولكن النتيجة كانت ثورة عنيفة في عالم الدولابي . فقد انجرف الدولابي ، وسجنه الطحلبي بتهور بعيداً عن ناظري ، وظهرت أمامي عوالم أخرى من الدولابيات ، والطحالب ووحيدي الخلية ومخلوقات متفرقة من الأعماق مدفوعة بأمواج جامحة . لقد ضاع صديقي الدولابي . أضعته . أنا المخلوق الضخم الأشعث ، الأكثر عملقة من جوليڤر . لقد ابتعدت عنه إلى الأبد بحجمي الضخم ولا يوجد طريقة أبداً تجعلني أنتقل من بُعدي إلى بُعده .

الجرس يقرع وحصة المختبر إلى انتهاء ، آخذ شريحتي ، من تحت المجهر وعليهما أصغر نقطة ماء ، أنظر إليها بشك ، ثم أبدأ بمسحها لكي أضعها جانباً . ولكني أتردد وأنظر إليها مرة أخرى . يراني معلم المختبر واقفة يأتي إلي مسرعاً . هل أخذت فكرة عن الحركة الهدبية ؟ يسألني قلقاً . أظن ذلك ، أجيبه وأنظف الشريحة حتى تصبح جافة ولامعة ثم أعيدها مكانها .

مثل ذلك المعلم المتحمس في المختبر ، أصبحت ولفترة قصيرة بعد عدة سنوات مزارعة مشاركة مثقفة ، كما كنا نطلق على الخريجين الجدد ، الذين يشاركون في عدة أعمال مختلفة غير محدّدة وغير مكافئة مالياً بالنسبة للجامعة . خلال هذه المدة ولسبب ما استلمت مهمة مراجعة أوراق عائلة بنتون . والتي أحضرها أحد المنحدرين منهم . إلى الجامعة راغباً أن يجد شيئاً ملائماً يمكن أن يصنعه بها .

كانت عائلة بنتون عائلة معروفة إلى حد ما ، هاجرت من الشرق إلى ولاية تينيسي في أعوام التسعينات من القرن الثامن عشر . ثم تحركت بعد ثلاثين سنة ونيف نحو الجنوب الغربي . وكان أفراد العائلة معروفين بكونهم ملاكين ومحامين محترمين ، ناجحين ، يخافون الله ، ولا يعملون إلا صالحاً . كما كانوا مشهورين بكونهم أنقذوا معظم الأوراق التي وقعت بين أيديهم . جميع هذه الصفات بلغت ذروتها في شخص جوزيا بنتون الذي كان يعمل كأمين صندوق الولاية في عقد الأربعينات من القرن التاسع عشر ، وقام بالاحتفاظ بكل ورقة وقعت بين يديه .

لذا بقيت لأسابيع وأسابيع أجلس في زاوية الأرشيف في المكتبة وأقلب الصفحات الصفراء المهشمة ، أحلل في الكتابة الواهية ، والباهتة لرسائل بنتون الغرامية ، وسجلات مصاريف أقمشة البرادي ، والألبسة النسائية القصيرة ، بالإضافة إلى تقارير وشكاوي المستأجرين لدى آل بنتون . ورسائل للأزواج المسافرين من عائلة بنتون إلى زوجاتهم ، وفواتير مبيعات عبيد آل بنتون وأحاديث نميمة سياسية من أصدقاء آل بنتون ، وأحاديث عائلية بين أقربائهم . ومفكرات بُدئ بكتابتها ولم تكتمل . كذلك بعض أوراق الولاية التي انتزعها ، مثله مثل أي بيروقراطي آخر يجيء بعده ، من الملفات الرسمية .

كان من المستحيل أن لا أصبح مهتمة بآل بنتون . جلست مع هذه الصناديق

المليئة بالقصص القديمة ، وأخذت أفصلها تفصيلاً بحماس ، مثل سؤال صديق : ما الجديد ؟ تشاجرت ليدا ماي بنتون مع أخت زوجها سالي ، كان سبب المشكلة جوناثان بنتلي الذي تبين أنه كان مخموراً . أما رسائل العمة أميلي بنتون إلى زوجها المسافر ، فكانت تبدأ وتنتهي بالاحتجاجات حول الإخلاص والطاعة . ولكنها كانت تخبره فيما بينهما ، ماذا عليه أن يفعل ومتى يفعل ذلك ؟ ولكن إذا كان لليزي زوجة جوزيا أي رأي فلم يكن ليسجل أبداً ، وإذا مر ذكرها ، فقد كان يذكر أنها طيبة ورقيقة وعزيزة ومتوعكة دائماً . في حين ظهر جوزيا كالصخرة ، شريفاً صارماً عاقد العزم ، ينهي ما يبدأ به ، ولكن ما أثار انتباهي أكثر هو ابنه روبرت جوزيا بنتون الصغير .

لم يكن هناك الكثير ليقال عن روبرت جوزيا بنتون قبل عام ١٨٣٢ .

فعندما كان في العاشرة من عمره ، أرسل إلى مدينة في مساتشوستس ، لكن قبل ذلك طبعاً كان هناك بعض الذكر له ، فعندما ولد ، كتب جوزيا الذي كان لديه ابنتان قبله ، بفخر إلى أخيه ، لقد ولدت ليزي هذا الصباح طفلاً وزنه ثمانية باوندات ، سوف أجعل منه إن شاء الله عالماً ورجلاً محترماً . فيما بعد وفي إحدى الرسائل القليلة التي استلمتها ليزي ، أبدت أختها التي كانت تقوم بزيارة لهم ، إعجابها بروبرت قائلة ما هذا الوليد الجميل الذكي . كما ورد مرة وعندما كان روبرت جوزيا على وشك بلوغ الثامنة من عمره ، ضمن مصاريف جوزيا الأب الفقرة التالية : فرس أغبر لابني . أُرسل روبرت جوزيا إلى ماساتشوستس ليصبح عالماً محترماً ، ربما كما كتب جوزيا إلى مدير المدرسة آنذاك . بناء على تعليماتكم . حيث رد مدير المدرسة : سوف يُعطى ابنك تأسيساً كاملاً في الرياضيات واللغة اللاتينية ، مع بعض الانتباه الثانوي للغة الفرنسية ، وإلى تلك الرياضات التي تليق بشاب محترم . وسوف تصلك تقارير دورية حول تقدم ابنك ، وتقضي قوانين مدرستنا أن يكتب كل طالب لأبيه كل أسبوعين حتى تظل على اطلاع جيد فيما يتعلق بوضعه ، وأنا شخصياً أشرف على هذه الرسائل لكي أتأكد من عدم احتوائها على معلومات مغلوطة ، لأن طيش الشباب وقلة خبرتهم قد تدفعهم إلى فعل ذلك ، وبذا فإنك تكون وفي كل الأوقات على معرفة صحيحة وصادقة بما يجري .

غادر روبرت جوزيا إلى المدرسة في أواخر الصيف ، وفي الخريف وأشهر الشتاء

التي تلت ، كانت الرسائل تصل كل أسبوعين ، منمقة جداً ، وحسنة التهجي ، بأحرف صغيرة صارمة تبدأ ب «والدي العزيز المحترم» ولم يكن يخاطب ليزي في الرسائل ومع ذلك فقد كان يورد في الرسالة جملة تقول : أرسل محبتي إلى والدتي . وكانت الرسائل تنتهي دائماً بكلمة «ابنك المطيع» . كان يكتب أنه في حالة جيدة ، وأنه يدرس بجد كي يكون جديراً بأفعال أبيه ، التي أكرمه بها . وأنه يعامل باحترام فائق من قبل أساتذته ومديره . ويأمل أن تكون تقارير المدير مرضية لهم . في أحد المرات ذكر أنه يجد اللاتينية صعبة جداً ، ولكنه بسرعة أضاف : لا تظن يا والدي العزيز أني أناقش رأيك الحكيم أو رغبتك في دراستي لها ، فإنني لن أهملها قط . وأحياناً كان يعتذر عن قصر الرسالة بقوله : لقد سمح لي بشمعة واحدة وهي على وشك أن تخمد . في عيد الميلاد ، ذهب ليقول في رسالة : إني أفتقد أمي العزيزة وأنت كثيراً ، كذلك أخواتي ، سوف أحاول التغلب على هذا الشعور بتكريس انتباهي كلية إلى دروسي . وكان كثيراً ما يسأل عن الحصان الذي كان يدعى جوبيتر وعن كلبه نيرو ، ويسأل إذا كان تيموثي يعتني جيداً بجو بيتر ونيرو .

هكذا استمرت الرسائل ، مؤدبة صارمة مع ملاحظات وفيرة وبالغة ، يتسلل إليها أحياناً نغم طفولي كئيب ، وبين الفينة والأخرى كان يبدو واضحاً تماماً بأن روبرت جوزيه يريد أن يعود للبيت . في شهر كانون الثاني لم يكتب روبرت شيئاً ، ولكن المدير كتب أن روبرت يعاني من نزلة برد خفيفة ، إلا أنه أكد بأنه سيشفى تماماً قريباً . وهذا ما حدث فقد عادت الرسائل بعد أسبوعين ولكنه كتب فيها مرة : أتمنى أن استطيع رؤية أمي العزيزة .

ثم جاءت رسالة من جون بنتون وهو ابن العم الأكبر لروبرت ، الذي كان يدرس في كلية هارفارد . وكان قد مر في طريق عودته إلى الكلية من عطلة قصيرة ليرى روبرت في المدرسة .

كتب جون :

«عمي العزيز ، أرجو أن تسامحني لأني سآخذ حرية زائدة في مخاطبتك بخصوص زيارتي الأخيرة لابنك روبرت جوزيا . إن روبرت يبدو نحيلاً جداً ، نتيجة لإصابته حديثاً بنزلة برد وأظن أنه يدرس كثيراً . ليس لدي أي شك بأن مدير

المدرسة شخص متعلم رائع وضميره حي ، وأن المدرسة ممتازة ولكن نظامها في منتهى الصرامة ، ومع ظني بأن بعض الأولاد قد يستفيدون كثيراً من هذا ، إلا أنني أعتقد أن الوضع شديد الصرامة بالنسبة لروبرت جوزيا في هذه المرحلة ، وخاصة أن بنيته الجسمية رقيقة وأنه ما يزال في عمر غض ، أريد أن أؤكد لك أن موقف روبرت ، هو موقف المحب المطيع لأمانيك وأرجو يا عمي العزيز أن تسامحني على تدخلي في شؤون عائلتك ، ولكني واثق من حكمتك السديدة في الأمور .

ابن أخيك الذي يحترمك دائماً ...

«جون بنتون» .

حسناً ، كان من الجيد أن ينظر أحد في أمر روبرت جوزيا ويطلع على حقيقة وضعه ، ولكن السؤال كان : هل أن شخصاً عاقداً العزم مثل جوزيا يمكن أن يستمع لهذا الكلام ؟

من الواضح أن الإجابة كانت كلا . فقد مرت الأسابيع واستمرت الرسائل الصارمة تصل من روبرت جوزيا ، ولكنها الآن أصبحت أكثر شوقاً للعودة إلى البيت ، ومرة أو مرتين ابتعد بفضول عن الموضوع الذي يكتب عنه . قد تكون رسالة جون تركت فهماً خاطئاً لدى جوزيا ، فقد كان بالنسبة له ابن أخ ما زال في أول طلعته . وكان على شخص آخر أن يحاول إفهام جوزيا بأن روبرت بحاجة إلى أن يعود إلى البيت .

ولم تكن ليزي أبداً هذا الشخص بسبب ضعفها وشحوبها وكثرة توعكها ، ربما كانت في أشد حالات القلق ، ولكنها لم تكن تستطيع أن تبدي رأيها . إنما كان يتوجب على أحد ما أن يفعل شيئاً ، فجوزيا ليس بالإنسان السيئ ، لكنه كان شخصاً صارماً فقط ، وطموح ومتشبث برأيه . وقد كان بالإمكان إفهامه . أما أنا فقد دب بي الهياج وأنا أحاول عصر دماغي لأجد الطريقة الصحيحة لإفهام جوزيا .

ولكن فجأة حصل شيء - ربما قرع الباب أحد التلاميذ الخارجين من المكتبة ، وبدأ الماضي والحاضر يدوران حولي على شكل موجات تتقاذفني على طاولة المكتبة ، فها أنا في النصف الثاني من القرن العشرين أقلب في أوراق صفراء مكدسة حولي . لأمور قد حدثت عام ١٨٣٢ وأصبح جميع أشخاصها في عداد الأموات ، ليس هناك

شيئاً أستطيع أن أفعله لروبرت جو زيا . يمكنني أن أمسك رسائله بيدي وأقرأ الكلمات التي خطها ولكني كنت بعيدة جداً عنه ، يفصلنا عن بعضنا قرن كامل . لم يكن هناك شيء أستطيع أن أقوله لأبيه أو أن أصل إلى مداه من البعد الذي أعيش فيه ، فليس هناك طريقة أنفذ خلالها من بعدي إلى بعده .

أخذت أنظر إلى باقي الرسائل بقلب نصف مكلوم . بقيت هناك اثنتان أو ثلاثة من الصغير روبرت جوزيا ثم توقفت الرسائل . لم يكن هناك شيء . فقط حسابات وفواتير ورسائل تجارية ، ولاحقاً بعض الرسائل الشخصية إلى جوزيا ولكن لم يكن فيها أي ذكر لروبرت جوزيا . لقد قرأت تاريخ ثلاثين أو أربعين سنة من أوراق آل بنتون ، ولكني لم أجد ذكراً واحداً لروبرت جوزيا .

ترعرعت أنا وابنة عمي ليا في أنحاء مختلفة من البلاد ، ولم نعرف بعضنا جيداً ، وعندما جاءت لتعيش في المدينة التي أعمل فيها ، شعرنا أن من واجبنا أن نكون أصدقاء ، وكن هذه الصداقة كانت عبئاً لأنها كانت مفروضة ومحسوبة ، ضمن توقعات أسرتينا بأن لدينا الكثير لنقوله لبعضنا البعض . لأن الحقيقة التي لا مفر منها هي أننا لم يكن لدينا شيء . فقد كنا نتصل ببعضنا البعض بالهاتف من وقت لآخر لنتبادل الأحاديث حول أخبار العائلة ، وبما أنّها كانت جديدة على المدينة ، فقد قمت بتعريفها على أصدقائي . ولكنها كانت تصغرني بستة أعوام ، وربما لذلك كانت تشعر بأن الناس الذين أعرفهم كانوا يبدون مجهدين بالنسبة لها ، ولكني أظن أن أي انسان كان سيبدو مسحوقاً قليلاً أمام ليا .

كان والد ليا وهو عمي كبيراً في العمر حين ولدت ، فقد توفيت زوجته الأولى تاركة أربعة أبناء بالغين ، ولذا تزوج مرة أخرى من فتاة رقيقة أنجبت له ابنة ثم ماتت بعدها بمدة قصيرة . وتساءل الناس كيف يمكن لرجل عنيد قاس مثل هذا أن يتدبر أموره مع طفلة صغيرة ؟ ولكنه تدبر الأمر جيداً . فقد أزهرت فيه مسحة أبوية رقيقة لم يعرفها أبناؤه من قبل . كان دائماً هو وليا مع بعضهما البعض ، يمتطون ظهور الخيل معاً في مزارعه ، ويراقبون حصاد القش معاً ويذهبون للتسوق وشراء ثياب ليا معاً . كان الرجل العجوز يبدو وكأنه لا ينتمي إلى المكان . ولكنه كان هادئاً في حكمه ، بأنه في مثل هذا المكان الذي يشبه أي مكان آخر في الدنيا ، كل ما عليك أن تفعله

هو أن تكون بسيطاً ، وقادراً على أن تدفع ما يطلب منك . كان عمي غنياً . ليس من نوع الأغنياء الذين يملكون يخوتاً لكنه كان مزارعاً غنياً من ولايات الوسط الغربية ، ومن النوع الذي يطفئ الأنوار عندما ينتهي ولا يدخل في عمق ممارسات الأغنياء .

وعندما أصبحت ليا في عمر المراهقة ، وبدأ جمالها يظهر ، أرسلها إلى أفضل مدرسة للبنات استطاع إليها سبيلاً . فقد كان يعتقد أن سمعة المدرسة قد لا تعني شيئاً ، ولكن هذا ما كان يستطيع أن يفعله ، مع أنه سألهم مسبقاً ماذا سيعلمونها حتى تستطيع أن تكسب عيشها .

أصبحت ليا رسامة تجارية ، وفي آخر الأمر عثرت على وظيفة في المدينة . ولعل أفضل كلمة يمكن أن أصفها بها عندما قابلتها لأول مرة : فتاة ناضجة مكتملة ومستقلة في الحادية والعشرين من العمر ، رائعة ومتألقة تلمع كالماسة إلا أن عينيها الصافيتين الغريبتين بلونهما الأصفر البني ، كانتا تنظران إلى الدنيا ببساطة الأطفال وبهجتهم .

كانت ترى الأفضل في كل إنسان ، قابلت مرة شخصاً يكره النساء فقالت : أعتقد أنه خجول ولطيف . ثم عندما تعرفت على عجوز مشهور بالفسق ، أكدت أنه كان طيباً طوال الوقت لدرجة أنه ذكرها بأبيها . لقد أثارت حنقي بهذا .

كانت تتشارك في السكن مع اثنتين من زميلاتها في المدرسة ، وكن ثلاثتهن لطيفات ، ساحرات ومرحات كأنهن خرجن للتو من خط إنتاج سماوي ، يسرن مقهقهات كل منهن تعقص شعر الأخرى أو تلبس ثيابها . كن يأكلن سندويشات زبدة الفستق يتشدقن بحكمتهن في الحياة مثل جراء صغيرة في حذاء ، ويقدمن أنفسهن إلى العالم كسلاح «نُزُل الفتيات الذي لايقهر» . أما أنا فكنت ما أزال شابة ولا أقلق بشيء ، كنت أحب المدينة وأعمل في مؤسسة دولية ، كنت على ما أذكر أعمل مع المساعد التنفيذي الثالث للبعثة البريطانية .

إلى أن أخبرتني في إحدى الليالي أنها مخطوبة وأنها ستتزوج حالاً . كان يعمل مساعداً أصغر في مؤسسة قانونية معروفة هي «جود ، باركر وايفري» . لم يكن ينقصه من المؤهلات شيء . لا في السمو ولا في العلم ولا في الخلفية . شعرت بأنها قد ركزت على ملائمته لعالمي قليلاً ، فقد وضعتني في مرتبة فئة الأقارب الكبار . لم

يكن والدها يتمتع بصحة جيدة في ذلك الوقت - فقد كان خارجاً للتو من عملية جراحية ، وكانت هي تخطط للعودة إلى المنزل لرؤيته ، لذا قرر الاثنان الزواج هنا والسفر إلى منزلها يوم الأحد التالي .

أقامت لها زميلاتها حفلة صغيرة يوم السبت في الشقة ، وسألتني هل تحبي أن تقابلي ديك ؟ قلت لها هذا يسرني وتمنيت لها كل السعادة التي في الدنيا .

كان هذا ليلة الاثنين وكنت قد أمضيت أسبوعاً شاقاً في العمل ، بحيث لم يتح لي المجال في التفكير بليا ، فقد أبقتني سلسلة من الاجتماعات الدولية مشغولة حتى ساعات متأخرة من الليل ، لم أستطع مغادرة العمل يوم الأربعاء ، حتى منتصف الليل تقريباً وعندما خرجت لآخذ تكسي كنت في حالة يرثى لها من الإنهاك . غطست في المقعد الخلفي للسيارة ، وحلحلت حذائي ذا الكعب العالي في الظلام . وكانت صديقة السائق تجلس بجانبه في المقعد الأمامي ، وأظن أن عمله الليلي وحيداً في الشوارع دفعه لأخذها معه ، كانت تميل على كتفه وعندما توقفنا أمام الاشارة الحمراء ، أزاح رأسه برفق نحوها وتمتم لها بببعض المقاطع اللفظية فضحكت ، واعتقدت وأنا أنظر إلى رأسيهما من الخلف أنهما كانا مرتاحين في تقاربهما ، أكثر من كونهما شابان يلتقيان ببعضهما البعض فقط ، فقد يكونان عاشقين قديمين أو ربما متزوجين . عندما وصلت إلى العنوان أشعل الضوء قليلاً ليعيد لي الفكة فلاحت لي نظرة إليهما . كان هو شاب جميل في أواخر العشرين من العمر ، أما هي فكانت في نفس العمر تقريباً ، وكانت جميلة ترتدي جنزاً أزرقاً وشعرها أشقر كثيف .

يجب أن أتوقف هنا لأوضح أنني ماهرة في معرفة الناس . فأنا لي معرفة بالناس مثل باغانيني أو اسكوفير ، والناس الذين يقولون لك نحن نتذكر الوجوه ولا نتذكر الأسماء ، هم بالنسبة لي هواة ، فأنا أستطيع تذكر آلاف الوجوه التي لا أعرف لها أسماء ، وتعجٌ بها الشوارع ، الناس الذين قصوا شعري مرة ، أو باعوني أحذية ، أو وقفوا بجانبي في المصعد . أو في صفوف التذاكر أو أعطوني قميصاً جديداً بانفعال بدلاً من قميص لم يناسبني ، أو حتى الناس اللذين كلموني أربع كلمات في حفلات كوكتيل ، مقابل أربع كلمات مني . أستطيع أن أتذكرهم كلهم ولكنهم لا يتذكرونني أبداً .

المرة الأولى التي أضع فيها قدمي في شوارع باريس، كانت مع صديقة لي تحتل مركزاً مرموقاً في المؤسسة الدولية التي أعمل بها، وتعتبر مسؤولة منذ سنة أو أكثر عن طرد شخص فرنسي يدعى شاربنتير، كان يعمل في المؤسسة بسبب مشاكسته. وفي اعتقادي أن الرواية بلا شك تختلف من جهته عن روايتها، ولكني لم أكن أعلم شيئاً عن تفاصيل القصة. أما هو فقد عاد للعمل في جهاز الخدمة المدنية الفرنسي، حيث كان سابقاً ولكن ليس قبل أن يترك آثار جارحة بها. نزلت من المركب النهري مع صديقتي في صباح ربيعي باريسي مشمس، ولم نكن نلوي على شيء سوى أن نتجول بسعادة. وعلى الفور عرفت السيد شاربنتير في الشارع، كنت معتادة على المعرفة المحلية في بلدي، وكنت أخمد ابتسامتي عند معرفتي لأحد بالسرعة التي أنظر بها إلى الإشارة الضوئية، ولكني فقدت توازني هنا على هذا النجاح المدهش الذي حققته في معرفة السيد شاربنتير - صرخت السيد شاربنتير- . توقف وتوقفنا نحن. ولكن الصدمة حولت وجهيهما إلى حجر. انحنى لنا انحناءة قصيرة، أرفقها بهزة وحشية أما هي فكانت أسنانها تشد على بعضها، مثل المسننات بينما كانت تؤدي له التحية. لقد كانت أعمق أمنية في قلبيهما أن لا يلتقيا أبداً. ومثل أي ضيف في مثل هذا الوضع تمتمت بكلمات مثل : كم هو لطيف أن نراك مرة أخرى وكم هي جميلة مدينتكم؟ كنت أتكلم الانجليزية بلغة مبسطة رغم معرفتي بأن لغته الإنجليزية ممتازة. رمقني بنظرة هي مزيج من الكراهية والدهشة. فقد كنا نعرف بعضنا منذ سنة تقريباً أو أكثر، لكنه لم يعرفني. تابعت أنا وصديقتي سيرنا ولكن ظل المقابلة خيم على النهار. كانت صامتة معظم الوقت، وكنت أنا أبتسم كلما التقت عيوننا. لم تكن باريس بالنسبة لي المدينة الساهرة مثلما هي لدى البعض.

مساء السبت ذهبت إلى شقة ابنة عمي وقابلت خطيبها. كان شاباً جميل المنظر في أواخر العشرين من عمره، يرتدي ربطة عنق محافظة، نظراته مباشرة ويسلم بيده بحزم. حياني بدفء خاص يليق بابنةالعم. كانت معاملته لليا مزيجاً من الحماية الجادة والإعجاب. طبعاً لم يعرفني. لم يكن هناك أية غمامة في نظراته الصافية الشابة. وكانت ابنة عمي متألقة تنتقل بين الضيوف كالجنية الصغيرة. أخبريني يا ماري، همست عندما اقتربت مني لوهلة :

ماذا تظنين به ؟ أليس رائعاً ؟

- إنه أنيق جداً وساحر . قلت لها .

- آه ، أنا سعيدة أنه أعجبك ، صاحت ثم ضمتني إليها . أنت ووالدي هما الشخصان اللذان أريدهما أن يحبانه .

ولا أهتم بأي أحد آخر . ثم تركتني وانطلقت .

حسناً ، اعتقدت أن هناك أكثر من رجل مهني مكافح ، قد قاد السيارة في الليالي ليكسب بعض النقود . وبالتأكيد هناك الكثير من الشباب ، الذين كان لهم حب قديم قبل أن يقابلوا جديدهم ، رغم أن الجدول كان مزدحماً . ليست إساءة تستحق التعليق فأنا متحررة كالآخرين ولكن - هي ابنة عمي الصغيرة الجميلة المتألقة ليا ، التي لا يوجد بيني وبينها نعمة مشتركة والتي تظن بأن كل العالم يحبها كما أحبها والدها . نظرت إلى الشاب مرة أخرى ، تخيلت بأن ملامح وجهه المنمقة ، كانت كلها شريرة وأن كل كلمة أو إيماءة تصدر منه هي باطلة . هل هو في الحقيقة محام يعمل مع جود ، باركر واقيري ؟

أستطيع أن أعرف . أستطيع ببساطة أن أتصل بهم وأسأل عنه تحت أي حجة . ولكن الوقت كان ليلة السبت ، والعرس يوم الأحد ويوم الأثنين - آه - لا أريد أن أعرف .

قد أستطيع أن أحدق في عينيه الزرقاوين ، وأصارحه بأنني رأيته يقود سيارة التاكسي ليلة الأربعاء الماضي ، برفقة امرأة شابة شقراء وفي ظروف حميمة جداً . وأشك أنه كمحام شاب واعد في أمسية زواجه لابنة عمي ، سيكون لديه شيء ليجيبني . ولكن بحق السماء كيف لي أن أقول له هذا؟ كان الأمر ميلو دراميا ويتطلب موقفاً من أب غاضب يتكلم قرب المدفأة ، أو ربما عمة عجوز تنتصب في حافلة ، وتلقي نظرة حادة من خلف كأس الشاي . أما أنا فلم أستطع أن أتدبر الأمر . كنت ابنة عم فقط ، في مثله عمره وأبدو أقل ثقة بنفسي منه ، بنظارتي التي تسحل على أنفي ، ولا أملك أذناً للكلام لا شخصياً ولا غيره ، أخاف أن أظهر نفسي في مظهر الحمقاء وسط ضجة حفلة كبيرة في شقة صغيرة ، حيث بالكاد يسمع الجميع صيحة ، والأكواع تصطدم ببعضها البعض من جميع الجهات . كذلك ماذا لو كنت

مخططةً ، قد أكون باغانين أو اسكوفير ، لكن يبقى هناك احتمال ، بأن يكون الأمر بداية ميمونة لنا جميعاً . وعلى أي حال كان الوقت متأخراً ، والكنيسة قد تم حجزها وثياب العرس معلقة على العلاقة الساتان في الخزانة ، وعازف الأورغ قد أعطي الأمر لعزف أغنية «أحبك بصدق» .

عندما هممت بالمغادرة تلك الليلة رميت ذراعي حول ليا فجأة عند الباب وضممتها بشدة . هل هذه هي ابنة عمي الصغيرة ، معادلتي ومعاصرتي بين ذراعي؟ ولكني كنت بعيدة عنها للأبد بسبب التعقيدات المتعلقة ، بما كنت أعرفه ولم أكن أستطيع عمله . لقد قادتنا حياتنا كل إلى إبعاده تماماً . مثل أناس يمرون ببعضهم في مصاعد مختلفة ، يسيرون للقاء ما ينتظرهم على الطريق من خير أو من شر . لذا تركتها بارتباك ، وابتسمت بغباء لعريسها الذي قبلني قبلة على الخد وتكلمنا جميعاً عن رؤية بعضنا في اليوم التالي .

تناولت العشاء معهما بعد شهرين من عودتهما إلى المدينة . كان يبدوان سعيدين ، وكانت النجوم تلمع في عيني ليا مثلما هي دائماً . لم أستطع أن أقول أنني أحببته ، ولكني هذه المرة أحسست بوجود شيء مطمئن ، أكثر هدوءاً وراحة في جوهره . لم يكن فيه ما يومي بكونه لاندرو أو الرجل ذا اللحية الزرقاء . كان شاباً لامعاً لطيفاً بما فيه الكفاية ، ظننت بأن أساليبه كانت أكثر نجاحاً فبعض الناس أكثر بساطة مما يبدون ، كانت عيناه مركزة بثبات على الفرصة الرئيسية . كان هذا أسوأ ما كنت أستطيع الظن به ، وكنت سعيدة أنني لم أحاول مواجهته بقصتي السخيفة عن سائق التاكسي . ربما لم تكن لتؤدي إلى شيء من الخير وربما أكون مخطئةً على أي حال ترك الاثنان المدينة بعدها ، واتصلت ليا بي لتخبرني أن هناك فرصة لديه في الغرب الأوسط ، وأنه سيترك جود وباركر وأفيري . كانت سعيدة أنها ستكون قريبة من أبيها . بعد سنة من هذا ، وبعد مدة قريبة من وفاة والدها تم طلاقهما وعادت ابنة عمي ، إلى المدينة لتعمل في مهنة الدعاية للأزياء .

افترضت أنها تعمل لتبقي نفسها مشغولة فقط ، ولكن عمتي ناقلة الأخبار العجوز والتي كانت في زيارة حالية للمدينة أخبرتني غير ذلك . فليا ستصبح امرأة غنية ، ذات يوم ولكنها حالياً مضطرة إلى أن تجري وراء رزقها لأن والدها قبل وفاته ،

غير من وصيته حيث قام بربط أمواله بشكل أمين للأيام القادمة . لم أعلم ما سبب الطلاق - طبعاً قسوة عقلية أو شيء آخر على ما أعتقد .

لم أكن أستطيع أن أسأل ليا ، إلا إذا رغبت هي في الحديث . أما ديك فقد تزوج مرة ثانية فوراً بشقراء ، رخيصة صغيرة وجعداء الرأس كما وصفتها عمتي . ظلت ليا امرأة أنيقة ، ولكن بريقها انقضى وكان التعب ظاهراً حول عينيها . ولكن كذلك أبدو أنا الآن ومع الزمن هكذا يبدو الجميع .

١٩٦٩

جيمس آلان مكفرسون

الشاطئ الذهبي

عن «ذي اتلانتك منثلي»

في ذلك الربيع ، عندما كان لدي إمكانيات واعدة ، ولم يكن لدي نقود ، حصلت على وظيفة بواب . كنت لا أزال صغيراً في ذلك الوقت ، أنفق النقود بدون حساب . وفي معظم الليالي التي كنت أعود فيها للنوم ، كانت تراودني أحلام بأنه سيأتي زمن تتحقق فيه إمكانياتي ، وتتصدر سيرة حياتي الأغلفة المغبرة للعديد من الكتب ، ويقول الجميع : لقد عرف الحياة بمستوياتها المتنوعة . فمن صبي يمسح الأحذية ، إلى نادل مستقل إلى طباخ من الدرجة الثالثة ثم إلى بواب . لقد نهض إلى . . . .

لم أكن بواباً من قبل ، ولم أخلق لأكون ، ربما كان هذا هو السبب الذي دفعني لأكون كذلك . إلا أني بعد مضي فترة من الزمن ، أصبحت أعتقد أن السبب هو أنني أستطيع أن أعمل بواباً ، دون أن أكون كذلك . وعندما كنت أُسأل في الحفلات أو في المناسبات ماذا أعمل لأعيش ، كان يبدو لطيفاً أن أجيب بكل أريحية ، وأنا أقف واضعاً إبهامي في جيب صديريتي : حسناً إنني بواب مبتدئ . يمكن أن يفكر الهيبيون بأن هذا وضع يبعث على الانحطاط ، ويأخذون بمضايقتي . كما أن الناس العاملين في الفلسفة أو القانون قد يشعرون بعدم الارتياح ، وهم يحاولون أن يجعلوني أشعر بالأفضل نحو وضعي أو يتساءلون كيف استطعت أن أدخل إلى الحفلة دون

دعوة؟ ما هو البواب المبتدئ يمكن أن يسألوا ، وهنا قد أجيبهم بأني لم أحصل على بطاقتي بعد فأنا حالياً أتلقى دروساً فقط ، وهناك العديد من المواد المعقدة ، التي يتوجب عليك أن تتعلمها قبل أن تحصل على بطاقتك ، وعلى بنايتك الخاصة . ما هي هذه المواد ؟ الطبيعة البشرية كمادة أولى ، ثم الطبيعة العرقية . لماذا العرقية ؟ وأجيب بصوت منخفض ، حتى لا يسمعني شخص آخر : يجب أن يكون باستطاعتك تحديد اليهود والزنوج الذين يمرون بك . إن هذا فظيع يمكن أن يلمّحوا لك بسخط ، إنه فن يمكن أن أضيف ببراعة . وبعد فترة وجيزة من التوقف عن الحديث ، يأتي السؤال المؤكد : ولكنك أنت نفسك زنجي فكيف يمكنك أن تحتفظ بقومك خارجاً . من كل النواحي قد أبدو منحطاً جداً وأجيب : أنا لا أبقيهم خارجاً ولكنهم إذا دلفوا إلى الداخل ، فإن وظيفتي ، هي أن أبقيهم بائسين ما استطعت ، فالأمور آخذة بالتغير . وهنا يمكن أن ينظر إلي المتحدث وهو غير مصدق أنها موضوعية العمل كبواب يمكن أن أنهي المحادثة . بينما يبدأ المتحدث بالابتعاد لا تحتقرني يمكن أن أنادي وراءه وبارتباك شديد ، وأتابع : هناك شخص يجب أن يفعل ذلك .

لقد كانت بناية قديمة بجانب ميدان هارڤارد ، عاش فيها كونراد ايكين ذات مرة ، وفي أيام الشاطئ الذهبي ، قبل أن تبنى هارڤارد وبيوتها العظيمة ، كان المكان ملاذاً للأغنياء ، ولكن هذا العالم أصبح الآن من الماضي .

هذه البناية تعتبر من المعالم القليلة ، التي بقيت حية منذ تلك الفترة . كان سقف رواقها عالياً ، مدعماً بعوارض سميكة من الخشب الأحمر . وأرضيتها مغطاة بالمرمر ومختلف الزخرفات الحديدية . كما كان فيها هاتف منزلي من الطراز القديم ، الذي لم يعد يعمل حالياً . لكل شقة موقد صغير . وحتى أحواض الاستحمام الواسعة وسلسلة المراحيض ، لها لمسة طبيعية جعلتني مبهوراً بهذه التحف اللامعة من الماضي ، والتي لم تستطع الحداثة أن تنال من قدرها .

شعرت بانجذاب نحو الغنى .

بناية عجيبة ، لأن الناس الذين عاشوا هناك جعلوها قديمة . أقيمت في مكان مناسب بين بيوت هارفارد وساحتها . كنت أتوقع أن أجدها مسكونة من قبل بعض الهيبيين ، أو من فتيات عاملات مفعمات بالأمل ، أو من بعض الطلاب المتخرجين

على اختلاف أشكالهم ، ولكنني بدلاً من ذلك وجدت فيها أغلبية من الأرامل والنسوة العجائز ، ومن الرجال الخصيان المتوسطي الأعمار ، ومن الشباب اللواطيين إضافة إلى بعض المتزوجين وأحد المعلمين .

لم يكن يبدو أن هناك حياة في البناية ، عندما أسير عبر الأروقة الهادئة في المساء الباكر ، كنت أجد نفسي مدفوعاً في بعض الأحيان ، لأن أطرق أحد الأبواب ، لأقدم نفسي وأسمع ولو لمرة واحدة أحداً يتنفس . كان الوقت ربيعاً في كامبريدج ، وفي ساحة شارلز في الأسفل ، وهناك طلاب وطالبات سعداء يمارسون الحب ، بينما تراقبهم من أعلى الجسر عيون حزينة لرجال في منتصف العمر .

أنه زمناً نشطاً : فطلاب القانون مشغولون بصنع أهدافهم السامية ، وطلاب الأعمال يقومون بتسجيل الأموال ، التي يمكن أن يجنوها . بيوت هارفارد قد بدأت تفرغ من ساكنيها . وفي الميدان بعض الملتحين من أعمال المطاعم يهيئون موائدهم آملين في قدوم بعض منتسبي الدراسات الصيفية .

الهواء ينذر بتغير فعلي ، واستجابة لذلك ، قام جيمس سوليڤان ، الناظر العجوز ، بتمرير حاويات القمامة الثلاث المهترئة ، ليسلمها لي بكل تواضع ومسؤولية . وبتواضع مشفق أيضاً ، أبلغني أن عليّ أن أجمع أية فضلات أو نفايات ، قد تقوم العجائز المستأجرات برميها في الرواق .

بعد ذلك ، أصبحت غنياً ، وأصبح لي شقتي الخاصة ، وفتاة رقيقة وجهاز ستيريو بسماعتين ، وكرسي رث وشوكة واحدة للطعام ، ووظيفة ودافع لتحقيق الكسب ، إضافة إلى روح الشباب التي أمتلكها ، جعلني أرثي لحال سوليفان ، فقد عمل سوليڤان في هذه البناية مدة ثلاثين سنة ، ونحت تاريخها كله في طيات دماغه تماماً ، كما نحت حياته الخاصة في تجاعيد وجهه .

كان كل ما حققه طوال هذه المدة ، زوجة تشبه كلبة مسعورة ، وثلاثة قطط والتهاب كيسي وقصر نظر شديد وإدمان على الكحول . كان قد بلغ من العمر أكثر من سبعين عاماً ، وبالكاد يستطيع أن يمشي على قدميه . لم تكن الاثنان والعشرون دولاراً التي تقدمها له إدارة المبنى لتكفيه بشيء . لذلك اختار الحل الوسط بأن يتقاعد ليراقب عملي .

في اليوم الأول لي في العمل كبواب، وأثناء قيامي بسحب حاوياتي الثلاثة الطافحة بالقمامة إلى خارج البناية، رأيته يجلس على مقعده في الردهة مثل عجوز ذاو مرتدياً بنطلونه الأزرق المبقع، يدخن ويراقبني بهدوء. كان مدخناً شرهاً. وقد لاحظت فوراً أنه كان يلقي بأعقاب السجائر وسكنها على الأرضية بحذر، ثم يسحقها تحت قدميه إلى أن تصبح بقعة رمادية صفراء. بعد ذلك يجهد في دفع هذا الخليط بحذائه تحت المقعد، وعيناه تراقبني بصمت طويل مثل عيني القط وأنا أسحب صفائح القاذورات الكثيرة إلى الخارج، حيث مجمع النفايات المجاور للبناية. وعندما انتهيت قدّم لي صحنين قديمين، لكي أعزز موجودات مطبخي، إضافة إلى نصيحته الأولى، اجلس من أجل المسيح، وأرح ثقل قدميك. جلست على البنك الأحمر الذي يليه، وتقبلت منه سيجارة ذابلة أخرجها من علبة مهشمة يضعها دائماً في جيب سترته. قال لي : الآن سوف أخبرك بعض الأشياء التي ستساعدك على الاستمرار في عملك بهذه البناية.

أصغيت له بانتباه شديد... قال :

إذا حصل وطلب منك أحد من أولاد القحبة هؤلاء، أن تعمل عملاً إضافياً فتأكد من أنهم سيدفعون لك مقابله

أكدت له بشكل مطلق أنني سألتزم بذلك، ثم تابع يقول :

إذا كان هؤلاء الأوغاد يستطيعون تحمل العيش هنا، فإنهم يستطيعون تحمل الدفع !

بدون شك أكدت له مرة أخرى

والشيء الآخر. أضاف يقول : لا تدع أياً من الفتيات، تدس مخلفات القطط تحت أنفك، لأن ذلك لا يدخل ضمن وظيفتك، وأخبرهن بأن يضعنها في كيس ويأخذنها إلى الخارج بأنفسهن.

ذكّرته بأني أعرف جيداً موقعي من الحياة، وأني لن أقوم برفع مخلفات القطط أو أي شيء مشابه لها. نظر إليّ مطوّلاً من خلال عدسات نظارته السميكة وقد بدا وكأنه هو نفسه قط من هذه القطط.

ثم قال أخيراً، وإذا ظلّوا يحاولون دسها في القمامة، فتأكد بأنهم سوف يدفعون

ثمن ذلك ، فهم يستطيعون أن يتحملوا الدفع .

حطّم عقب السيجارة السابع على الأرضية ، وبعثر الخليط كما فعل من قبل ثم قال وهو يشعل سيجارة أخرى إنني ، في الثلاثين سنة التي عملت فيها هنا ، لم أرفع مخلفات قط إلى الخارج وأنت لن تفعلها أيضاً .

قلت له : أنا ذاهب إلى الأعلى لأغسل يدي

صرخ من ورائي : تذكر ! لا تأخذ مخلفات قطط من أي منهم .

أكدت له مرة أخرى وأنا أقسم بحياتي أنني لن أفعل ذلك ولا حتى من أجل أجمل الفتيات في البناية .

شعرت بارتياح تام وأنا آخذ المصعد ، لأني عقدت العزم أن لا أفعل ذلك ، وفي الحقيقة ، لم يكن هناك أية فتيات جميلات في البناية .

لم أعرف أبداً ، ما الذي كان يعمله قبل مجيئه إلى هنا ، ولكني أعلم بأن عمله كبواب في هذه البناية هو أعلى منصب وصل إليه في حياته . فقد راقب جيلين من الأغنياء ، عبروا البناية في طريقهم إلى ساحة هارفارد ، وشاهد الكثير من الحكام ، وهم يمتطون جيادهم البيضاء في الساحة نفسها ، ويقومون بإطلاق أبناء وبنات الأغنياء إلى الحياة ، كي ينتجوا ويكتسبوا وينجبوا ، ثم يعيدون أولاداً وبنات آخرين كي تستمر الدورة . كان يراقب ذلك منذ أن أصبح قادراً على رفع الصفائح إلى الخارج بنفسه أما الآن فلم يعد يستطيع ذلك .

كان إيرلندي الطبع ، فخوراً بإنجازات الإيرلنديين ، التي لم يحقق هو منها شيئاً . عرف فرانك أوكونور الكاتب ، عندما كان في هارفارد ، وقد أخبرني في العديد من المناسبات كيف أن أوكونور كان يقف يومياً ليكلمه في طريقه إلى الساحة؟ كما عرف أيضاً جيمس مايكل كيرلي ، وأكثر ما يزهو بذاكرته عن الرجل هو : أنه حين عندما كان جالساً مع جيمس كيرلي في بار بوسطن ودخل أحد معاصري كيرلي وقال : مرحباً جيم ! إن سول بيرنشتاين اليهودي يريد أن يراك . وعندها قال كيرلي مخاطباً سوليفان بصوته الخفيض الذي لا ينسى : دعنا نذهب لنقابل هذا الأمير الإسرائيلي . كانت هذه ذكرياته ، ووجدت نفسي أضع صفائح القمامة جانباً وبكل إذعان أغرق معه في الضحك حول ما يزيد عن مئة أو نحوها من التفاصيل الصغيرة الزاهية

والتافهة ، والتي شكلت مسيرة حياةٍ كاملة في أقبية هارفارد . ومع أنها كانت ذات قيمة ضئيلة بالنسبة لي ، إلا أني كنت أعرف أنها كانت تشكل انعكاسات لمسيرة حياة . وأنها أسعد لحظات حياته ، يقدمها لي رخيصة تماماً كرخص زمن الشباب بقدر ما أشاء من الوقت ومن الاهتمام . كانت سوقاً للمشترين .

في تلك الأيام ، كنت أظن نفسي موهوباً ، ولا يوجد حدٌ لنفاذ بصري . واندفعت في طريق عملي بالقمامة ، مدفوعاً بسعادة لإدراكي بأن خلف كل باب من أبواب شقق البناية الخمسين ، توجد قصة لو شئت أن أباركها بسحر قلمي لجعلت منها سيرة خالدة . راقبت السكان دون هوادة ، ودونت انحرافاتهم وزوارهم وعاداتهم في الأكل . كان بحثي عن المعلومات من الشدة بمكان لدرجة أنني اضطررت إلى أن أكبح نفسي عن نبش قمامتهم قطعة قطعة ، مفضلاً لمسها على السطح دون أن ألوث يدي في أعماقها .

شحذت بصيرتي للعمل ، ومع نهاية شهر حزيران ، وجدت أنني قد جمعت ما يكفي من هذه القصص الهزيلة الساذجة على طراز رواية هنري ميلر . وكان أزهى هذه المكتشفات ما يلي :

١ . السيدة المقيمة في الغرفة ٢٤ كانت خريجة كلية بادوكا .
٢ . الزوجان في الغرفة ٥٥ ، مارسا الحب ٥٠٠ مرة على الأقل في خلال أسبوع ، ولم تكن الزوجة قد اكتشفت الحبوب بعد .
٣ . السيدة العجوز في الغرفة ٣٦ ما تزال تعاني من اضطرابات شهرية .
٤ . السمينان في الغرفة ٥٦ يستهلكان كل ليلة كمية غير عادية من صلصلة الفلفل الحار .
٥ . الرجل السمين في الغرفة ٥٤ لديه كلبان متزوجان من بعضهما البعض لكنه لم يكن متزوجاً من أحد .
٦ . الرجل المتوسط العمر الأعزب الذي يسكن في الغرفة ٦٣ ، رمى إلى الخارج كمية ضخمة من الزهور .

كان فكري مشوشاً بسبب بطء التقدم في عملي ، وقد اعترفت بعبثية عملي إلى جيمس ، عندما كان جالساً في أحد الأيام على مقعده ، يدخن السيجارة إثر

السيجارة ، ويلطخ أرضيتي اللامعة . بخليط من سكن سجائره . هكذا إذن تريد أن تعرف عن أحوال الساكنين ، قال لي وعيونه تومض مثل القطط . هززت رأسي .

- حسناً . قال : إن أول شيء يجب أن تلاحظه هو كم عدد اليهود هنا - لم ألاحظ أي يهودي قلت .

حدق بي في دهشة

- حسناً ، قلت بسرعة لكي أمنع تبلّد بصيرتي أكثر من ذلك يوجد القليل .

- قليل ! يا للجحيم قال : هناك يهود أكثر من الآخرين ، موجودون هنا .

- كيف تستطيع أن تعرف ذلك ؟

نظر إليّ مرة أخرى نظرة غير عازمة وقال : من أين تظنها تأتي كل هذه الفضلات ؟ هزّ رأسه بوهن باتجاه صفائحي المكتظة بالقمامة ، والتفت في الوقت المناسب لأمنع قطعة من المعكرونة السائبة ، من أن تنزلق على الحافة هذا صحيح تابع يقول : فاليهود هم أكثر من يأكل في هذا العالم إضافة إلى أنهم يأكلون الأفضل أيضاً .

عندها اعترفت بأنني من جيل قليلي المعرفة ، لأني اعتقدت أن اليهود يأكلون فقط إلى الحد الذي يكفيهم لشدّ خطاهم إلى البنك يومياً .

ليس هكذا . أجاب بشدة ، ألم تسمع بالعبارة التي تقول : دعنا نصل إلى المطعم قبل أن يصل اليهود هناك .

هززت رأسي بحزن ، وتابع هو :

ألا تعلم بأنه في بعض المطاعم ، يقومون بسحب صحون البصل ، والمخللات المجانية عندما يرون اليهود قادمين .

طأطأت رأسي خجلاً إلى الأسفل فوق أكوام القمامة الضخمة .

مشى مجهداً إلى صفيحتي وأخذ يفرغ بيديه أوراق المعكرونة ومناديل الورق المفتتة من الغرفة ٤٧ . وبعد ثوان قليلة عثر على صفيحة فارغة لفطيرة باتيه . انظر إلى ذلك قال بنشوة . مأكولات فاخرة .

- تلك من غرفة ٤٤ قلت له .

- ومن غيرها ؟ قال بمعرفة تامة . في عام ١٩٤٦ ، انتقلت إلى هناك فتاة سويدية واتخذت من فتاة يهودية ، زميلة لها في الغرفة . بعد ذلك غادرت الفتاة السويدية ،

ومنذ ذلك الحين نشأت هناك سلالة يهودية في تلك الغرفة .

تذكرت بأن الغرفة ٤٤ يسكنها زوجان ، يلقيان إلى الخارج أعداداً كبيرة من معلبات ، «بيرس وزجاجات من ويسكي شيفاز الفخمة» . وتسجيلات محطمة متنوعة وأعداداً قديمة من مجلات ايفرغرين ، وريااليست .

- أنت على صواب قلت له

- طبعاً أجاب وكأنه لا يوجد أي شك في قوله : أستطيع اكتشافهم في أي مكان ، حتى حين يظنون أنهم مرّوا بدون أن يكتشفوا . أحنى رأسه وقال : بيني وبينك : لا تقل عنهم أي شيء رديء أبداً أمام الناس ، لأن عصبة مكافحة التشهير قد تنال منك .

صاحت عليه زوجته من الطابق الثاني ، وشاركها الكلب في الصياح وفي الضرب على الباب . زلف إلى المصعد منزعجاً وهو يقول : لا تتحدث أبداً بين الناس فأنت لا تعرف من يكونون . وقد تحرمك عصبة مكافحة التشهير من كل شيء . لم يكن سوليفان في الحقيقة يكره اليهود ، ولكنه كان قاسياً تجاه أي شخص أفضل حالاً منه . فقد عاش مع زوجته في الطابق الثاني وظلت شقتهما قذرة لانهما كانا كلاهما عجوزين مريضين ولا يستطيعان التحرك بسهولة ، كانت زوجته تكنّس القاذورات إلى الصالة في الخارج وبعد مرور ساعتين على مسح الأرضية : وتشميعها عند الجهة التي يعيشون بها من الطابق ، يظل من المؤكد أن تجد طبقة من الوسخ والدهون وفضلات محطمة من التبغ ، مبعثرة من بابهم وحتى نهاية الصالة . كانت هناك دائماً ، روائح للكلاب والقطط والهرم والموت دائماً حول الباب . لم أرغب أبداً أن أدخل إلى هناك لأني كنت أخشى وجود أشياء في الداخل لا أستطيع أن أسميها .

اكتشفت أن السيدة سوليفان ، جاءت من جنوب إفريقيا وأنها تحب الحيوانات أكثر بكثير من الناس ، وكان يظهر في وجهها الكثير من الألم . وقد ظلت تحتفظ بصفائح لحم صغيرة في نقاط استراتيجية حول البناية ، وغالباً ما كنت أمرُّ بقربها في الصباح الباكر ، أو في وقت متأخر من الليل ، لأجدها ترمي بالفضلات من نافذة الطابق الثاني لتطعم القطط الضالة .

وفي إحدى المرات ، عندما كاد جيمس أن يخنق فأراً ضالاً دخل إلى شقتهم ،

صرخت عليه بأن يعطي الفأر فرصة للهرب .

وكلما كانت تحاول أن تتمشى ، كانت توازن نفسها بالاتكاء على الجدار أو على الدرابزين . كانت تكره البناية ، لأنها تقيّد حركتها ، كما كانت تكره جيمس أيضاً ومعظم سكان البناية . من ناحية أخرى ، كانت تحب ، عرض جوني كارسون . وتحب أن تجلس على الدرجات الأمامية في الخارج ، لأنها لم تكن تستطيع أن تبتعد أكثر من تلك المسافة بدون مساعدة . كانت تحب أيضاً أن تتحدث إلى أي شخص يقف ليستمع لها . لم يكن كلامها مترابطاً إلا عندما كانت تشتم جيمس . وعندها كانت تستخدم الألفاظ الخاصة بالبحارة المخمورين . ولدى مسز سوليڤان رئتان ضخمتان تستخدمهما للصراخ الحاد ، وكان صراخها يأتي مصحوباً بأصوات تشبه نباح الكلاب وتكاد تسمع في جميع أنحاء البناية . لم تكن في الحقيقة شخصاً نظيفاً ، فقد كانت تملك أسناناً رديئة . وأكثر ما يثير الشفقة عليها هو رؤيتها ، بثوبها الخارجي الفضفاض الملطخ بالبقع ، وقبعتها الزرقاء الجديدة ، التي تحتفظ بها لترتديها في الطابق الأسفل ، وهي تجلس على الدرجات في الصباح تراقب العالم يمر عنها دون أن تجد مكاناً آخر على هذه الأرض تذهب إليه .

وقد أخبرني جيمس في مناسبات عديدة ، عن سبب صراخها ، فقد كانت تعاني من اضطراب عقلي ، ولا تستطيع أن تساعد نفسها . ولعل أروع ما في جيمس ، أنه لم يفقد أعصابه أمامها أبداً ، مهما بلغت شدة شتائمها ، ومهما كانت قيمة الشخص الذي يسمعها . كما أن الأمر الثاني الأكثر إثارة للشفقة في العالم هو أن تراهما معاً وهما يشقان طريقهما ببطء في ميدان هارفارد ، وهو يسندها وسط حشود الفتيات اللواتي يدرسن في الصف ، بتنانيرهن القصيرة ووسط الفتيان ذوي القمصان الضيقة ، والهيبيون ، والسواح اليابانيون المدججون بالكاميرات ، يصورون كل إنشٍ في ميدان هارڤارد وسواهما .

في إحدى المرات ، صاح أحد الهيبيين وهو يمر بمحاذاتهما وينظر إليهما من فوق كتفه : لا تكسروا أرقاماً كبيرة في السرعة أيها السيد والسيدة دبس .

على الدور الثاني للبناية كانت تعيش الآنسة أوهارا العانس التي تكره سوليڤان مثلما تكره سيدة كبيرة رجلاً كبيراً . مقابلها في الجانب الآخر ، كان يعيش عجوز

أعزب لطيف، ومتأنق دائماً يدعى ميرفي، كان قد خدم مع مونتغمري في شمال إفريقيا، ويقضي الآن ما تبقى من حياته بتنظيف شقته الصغيرة والتحدث مع الآنسة أوهارا. لقد كان طابقاً إيرلندياً تماماً.

لم أعرف بالضبط لماذا كانت الآنسة أوهارا تكره عائلة سوليڤان بمثل هذه الشدة. لعل ذلك كان بسبب أنهم قذرون لا يحافظون على النظافة في حين كانت هي نظيفة جداً. أو ربما بسبب أن الآنسة أوهارا تعتز كثيراً بإيرلنديتها، بينما هما يفتقران إلى تلك الكبرياء الإيرلندية. وقد يكون الأمر على كل حال، مجرد أنها لم تكن تملك سبباً لكي تحبهم. كانت متشددة في أمور النظافة، وتلقي قمامتها القليلة بإتقان داخل أعداد سابقة من مجلة «كريسيان ساينس مونيتور» ثم تربطها بخيط جديد على شكل قوس. وحين كنت أقوم بجمع كل تلك الرزم المرتبة، أتعجب من أين حصلت على الخيط فتراني أتخيلها وهي تنهض في الليل وتقوم بفتح أقفال دكاكين سوق اللحوم بواسطة دبوس شعر، ثم تعود محملة بياردات وياردات من الحبال البيض، تخبئها تحت سترتها الرمادية التي كانت ترتديها دائماً. ويمكنني أيضاً تخيلها وهي في شقتها الصغيرة تضحك بينها وبين نفسها بصوت خافت، تلف الحبل على ضوء الشمعة لتحوله إلى كرة بيضاء كبيرة. ثم تخبئه في صندوق الخبز.

كانت الآنسة أوهارا تترك بابها مفتوحاً حتى وقت متأخر من الليل. وكان يخامرني شعور بأنها تسمع كل شيء يدور في البناية، وأنه لا يجب عليّ أن أبالغ بممارسة الحب لئلا تسمع صوتي وتقوم بتسجيل جميع عباراتي السعيدة ثم تسردها أمامي إذا ما أثرت حنقها يوماً ما.

كانت تقيم في البناية قبل مجيء سوليڤان. وأعتقد أن طموحها الأكبر في الحياة كان أن تعيش أكثر منه ثم تنتظر انبعاثه بإبرة وكرة محبوكة من الخيطان. قد أمضت أكثر من خمسة عشرة سنة وهي تحاول أن تطرده ولم تعرف أبداً متى ستتوقف عن ذلك. في ليالي الصيف عندما كنت أقوم متألماً بمسح أرضية الطابق الثاني، كانت تقدم لي الجعة أو التفاح أو الكعك، وتحاول أن تستميلني لكي أصبح شاهداً ضد السيد سوليڤان. وتقول: إنه مجرد عجوز قذر يا روبرت وتهمس بصوتها العجوز: إياك أن تفكر في تنظيف أعقاب سجائره القذرة القديمة. فقط أكتب فيه تقريراً إلى الشركة

المالكة .

- آه أنا لا أكترث لذلك ، كنت أجيبها وأنا أشرب جعة الجذور بأسرع ما أستطيع .

- حسناً تقول : إذا سألتني فهما مجرد زوجين مخمورين لم يتوازنا يوماً واحداً من أيام الخمسة والعشرين سنة التي قضياها هنا .

- حسناً أقول : إنها مريضة أيضاً كما تعلمين .

- ها ترفع يديها باشمئزاز إنها تمرض فقط عندما لا يقدم لها شراب مسكر . جاهدت حتى لا أتجشى . كم مضى عليك من الوقت هنا . سألتها . أومأت لي بأن أخطو من الصالة إلى داخل شقتها المعتمة ثم قالت لا تخبره ، وهزت رأسها باتجاه باب عائلة سوليڤان ولكنني هنا منذ أربعة وثلاثين سنة . انتظرت لترى إذا كنت سأبدي دهشتي ثم تابعت وقد كانت البناية في وضع أفضل قبل أن يظهر هذان المخموران ، ثم ناولتني تفاحة وسألتني للمرة الخامسة فيما إذا كان نباح الكلب يضايقني ، ثم أجبرتني على تناول قطعة من كعكة شوكولاتة بالبندق وقالت : لقد قامت القطط بتبليل الأرضية مرة أخرى في الليلة الفائتة . بعد ذلك أجبرتني على مسح الغبار . عن ظهر خزانة عالية لم تكن تستطيع أن تطالها ثم على التقاط ذلك الجزء الضئيل من الغبار الذي سقط من ممسحتي . عادت ودفعت إلي بزجاجة أخرى من الجعة ، ثم أطلعتني على البوم صور لعائلتها ، وبعد تفكير لاحق طلبت مني أن أنزل صورة قديمة وكبيرة تعود إلى جدها الأول لأبيها ، كانت معلقة في مكان لا تستطيع أن تطاله . كان عليّ أن أنفض الغبار عنها أيضاً . بعد ذلك قمنا معاً بالتقاط الغبار ، الذي يمكن أن يكون قد سقط على الأرضية .

إنه في الحقيقة ، رجل عجوز قذر يا روبرت . قالتها بهمس ولا تخشى أن تكتب تقريراً ضده إلى إدارة ملكية البناية ، في أي وقت تشاء . أكدت لها أنني سأفعل ذلك عند أي استفزاز من سوليڤان . وأخيراً قبلت منها تفاحة أخرى ، ولكني رفضت النقود التي عرضتها وهرولت عائداً إلى عملي في مسح الردهة بينما بقيت هي تراقبني من بابها النصف مفتوح .

لماذا تكرهك الآنسة أوهارا ؟ سألت جيمس ذات مرة .

رفع يده التي يمسك بها السيجارة . تاركاً الرماد يسقط على الأرضية بتأنٍّ وقال :

تلك الكلبة العجوز تقف مثل الطير على عنقي ، منذ قدمت إلى هنا وتابع قائلاً : لا تصدقها يا روبرت فهي من هذا الصنف من الناس ، الذي يجلس لينشد الأناشيد حول حلقات حرق القديسين في هذه الولاية .

في تلك الأيام ، كنت أنسى أنني أسود قبل كل شيء وأن لدي فتاة أحبها . هي قبل كل شيء غير سوداء ، وأنه من المحتمل أن يكون أسلافي قد نقلوا أسلافها عبر الماي فلاور . كانت هي غنية في ذلك التفرّد وكنا آنئذ صغيرين جداً ومتفائلين ، وهي تؤمن معي بقدراتي ، التي وإلى حد ما ، أحبتني بسببها ، بغض النظر عن العرق بما جعلها فتاة استثنائية . وقد صنعت مني إنساناً استثنائياً أيضاً ، لأنه لم يكن يتوجب علي أن أطلق لحية ، أو أن أكره أو أن أكون شخصاً متعصباً وفئوياً . كذلك لم يكن يتوجب . على أن أتعاطى المخدرات أو أن أزودها بها . لم يكن علي أن أكون ولأي سبب من الأسباب سوى نفسي . كان علي أن أكون كما أنا فقط . وهذا ما أسعدني أن أكون إنساناً منتجاً ، وهذا ما أسعدنا كلينا .

ومثل الكثير من الأغنياء الميالين إلى الولع بالفنون ، أرادت أن تمتلك في شخص شيئاً لا تقدر هي على امتلاكه في نفسها . ولكني لم أكترث لذلك سامحتها ، لأنها كانت تغض النظر عن نوبات غضبي وعن رائحة القمامة الدائمة حولي وعن القدر الكبير من العداء المستتر في داخلي .

كانت تنزعج من جيمس سوليڤان ، ومن الوقت الثمين ، الذي كنت أضيّعه في الاستماع إلى ثرثرته التي لا تنقطع ، لأنها كانت تعتقد بأن أحاديثه مملة وغير مفيدة ، ولا تخدمني بشيء . فقد كانت معتادة على أحاديث الأغنياء المتقدمين في العمر ، والذين تدور أحاديثهم المتكررة حول احوالهم الرغيدة . وكم من المال سيتركون ورائهم عندما يرحلون في القريب العاجل ، لم تكن شخصاً بارداً على الإطلاق ، بل تعلمت كيف تتحمل الفقراء المتقدمين في العمر ؟ وربما تلقي عليهم التحية أحياناً عند مرورها بهم ولكن ليس أكثر من ذلك .

لم يحبها سوليڤان أيضاً عندما قدمتهما لأول مرة ، لأنه رأى أنها لم تكن وجودية ، ولا يمكن الإفلات منها . لعل من طبيعة الأشياء أن يتحمل الناس المتحررون زوجين من الوجوديين ، من عرقين مختلفين أكثر من زوجين عقلانيين

مختلطين ، ويميلان إلى الجدية فالعلاقة بين الصنف الأول ، يمكن التخلص منها لأنها تشمل أناساً من حثالة العرقين ، يحتاجان بعضهما البعض إضافة إلى احتقار عرقيهما لهما . بينما يعتبر الصنف الثاني تهديداً خطيراً لأنه لا يقوم على عفوية الشهوة الحسية الطاغية ، ولا يعتمد مبدأ «حك لي لكي أحك لك» . والتي تظهر على سطح الأشياء ولا يستطيع حتى الأشخاص الأكثر تحرراً أن يتخلصوا منها بسهولة .

سألني في إحدى الأيام ، ونحن في شقتي بعد أن قدمتهما لبعضهما بوقت قصير

- تلك الفتاة هي إيرلندية ، أليس كذلك ؟
- لا ! أجبته بشكل قاطع
- ما اسمها ؟ سألني
- جودي سميث . قلت له ، ولم يكن هذا اسمها على الإطلاق .
- أستطيع أن أكتشفها . قال لي . تجري في عروقها دماء إيرلندية بلا ريب
- كل شخص قد نال قليلاً من الدم الإيرلندي . قلت له .

نظر إلي نظرة ماكرة من خلف عدساته السميكة وقال

- حسناً ، إنها من عائلة كريمة على ما أعتقد .
- وأنا أعتقد ذلك . قلت له

توقف هنيهة ليدع بعض رماد سيجارته يسقط على السجادة .

- إنهم يقولون أن امرأة العقيد ونيللي أوغراي هما أختان الروح بالروح ! ثم أضاف «رديارد كيبلنغ»

هذا صحيح . أجبته بتلميح مماثل . لهذا السبب عليك أن تحتفظ بتمييز معين عندما تتزوج امرأة العقيد .

بعد ذلك حصل تفاهم بيننا ، ولم نعد نتحدث في هذا الموضوع أبداً .

في كل ليلة تقريباً ، تقوم القطط بتبليل الطابق الثاني ، أثناء مشاهدة السيدة ميغ سوليڤان لعرض جوني كارسون ويقوم الكلب بالعواء ، وبتخميش الباب طوال فترة الإعلانات التجارية ، فيما تقوم هي وكعادتها ، بشتم جيمس ليخرج أو ليتوقف عن

إلقاء رماد السجائر على الأرضية ، أو ليأخذ الكلب خارجاً أو ليفعل أي شيء آخر . إجمالاً ، كانت هذه الأمور غير مفهومة تماماً لنا ، ولسكان الطابق الرابع والخامس والسادس .

وحتى بعد انتهاء عرض كارسون ، كانت تستمر في شتمه لكي يذهب خارجاً . وفي النهاية ، ينزل كعادته إلى الدور الأرضي ويقوم بسحب زجاجة أو زجاجتين من الخمر . كان الدور الأرضي حيث تقيم القطط حفلاتها يحمل دائماً رائحة منتنة . وعندما كنت أراه وسط كل هذه الشحوم والأوساخ والخراطيم المرمية وزجاجات البيرة والكراسي ، والمعدات القديمة والكنبة القذرة التي ينام عليها في بعض الأحيان ، أحسُّ برغبة في البكاء . كان يحتسي أرخص أنواع الشيري المسكر ، مباشرة من فم الزجاجة . وفي كثير من ليالي ذلك الصيف وعند الساعة الثانية صباحاً ، أستيقظ على رنين جرس الهاتف .

– روب ، أناجيمي سوليڤان ! ماذا تفعل ؟

لم أكن أجد شيئاً مناسباً لأجيب على مثل هذا السؤال . أما هو فيتابع :

– تعال إلى الطابق الأرضي واشرب كأساً معي .

– ولكن عليّ أن أكون في العمل الساعة الثامنة والنصف . أجيبه محتجاً

– ألا تستطيع أن تشرب ولو كأساً واحداً . يقولها بصوت مثير للشفقة وكعادتي ، أحمل كأسي معي إلى الأسفل ، لأني لا أرغب في الشرب من الزجاجة مباشرة . لن أفقد صوابي ، وأنا أنظر إليه جالساً على الكنبة ، لأنه أصبح لدي الآن العديد من التسجيلات في مسجلي ، كما أن قصة حياتي تسير بشكل جيد ، فعندي فتاة تثق بي وتنتمي إلي ، وليس إلى عرقها ، وأملك إضافة إلى ذلك طقم صحون جديد ، وصباح كل يوم غد مع شباب أصغر مني سناً .

– لا أريد أن أثقل عليك كثيراً ، اعتاد أن يبدأ كلامه معي

أغصب نفسي كي لا أنظر إلى ساعتي وأقول : طبعاً لا .

إن زوجتي ليست بصحة جيدة كما تعلم ، يقول وهو يناولني الزجاجة لقد أصبحت كبيرة في السن . ويقول الأطباء أنها يجب أن تكون في مؤسسة .

إن هذا ليس مكاناً تكون به .

أنا نفسي مريض يا روب ، ولا أستطيع أن أتحمل أكثر . إنها مجنونة .

أي شخص يحب الحيوانات لا يمكن أن يكون مجنوناً .

أخذ جرعة طويلة من الزجاجة ثم قال : لن أعيش سنة أخرى ، سوف أموت خلال هذه السنة .

- أنت لا تعلم ذلك .

نظر إلي عن قرب بدون نظارته ، لكي أتمكن من رؤية اليأس في عينيه

آمل فقط أن ترحل زوجتي قبلي ، فأنا لا أريد منهم أن يضعوها في مؤسسة بعد رحيلي .

- كانت الساعة قد قاربت الثانية صباحاً ، ورائحة القطط تزكم أنفي ، وكأس الخمر الرديئة ما يزال في يدي لأن عقلي رفض أن يلمسه . كانت جميع أحلامي بالعظمة فوقه وفوق الطابق الأرضي بل وفوق البناية نفسها . لم أدر ماذا أقول في مثل هذا الوضع . كانت الطريقة الوحيدة التي أستطيع بها أن أتجنب كره نفسي ، هي أن أتركه يتحدث عن الجمعية الطبية الأميركية ، أو عن برنامج الميديكير أو عن الوجوديين . فقد كان لسانه سليطاً جهنمياً على ثلاثتهم .

بالنسبة له ، كانت مهنة الطب ، مفلسة أخلاقياً . والمديكير مهزلة كبيرة . فهي تحرم العجائز مثله من دولارات يوم ماطر أما الوجوديون فكان يعتبرهم من سقط الجنس البشري .

كان يسترسل غاضباً ، وبعبارات متقنة تماماً حول كراهيته لهذا الثلاثي . كان يتملكني شعوره بسبب كون جمله ، والفاظه جيدة ومحكمة البناء في هذه المواضيع ، بأنه يستذكرها من بعض قراءاته . لا يهم لو كان قد استعار عبارة أو اثنتين من أحد فالأفكار كانت في النهاية أفكاره هو .

أصبحت الساعة الثالثة صباحاً قبل أن أعرف بذلك ، ثم الثالثة والنصف وكان هو ما يزال مسترسلاً في سرد قائمة ملاحظاته . فقد كان يكره السياسيين بشكل عام ، ويحب أن يذكر بالمناسبة فهرسه الخاص حول الملاحظات السياسية . دقت الساعة الرابعة ، بينما هو يتحدث عن موضوع الحقوق المدنية .

لم أتمكن في تلك الساعة أن أشعر بالمسؤولية تجاهه . أخذت أتثاءب ، لكنه تجاهل

ذلك ، في البداية ثم بدأت أتحرك تدريجياً نحو الباب . لاحظ أنه لن يستطيع احتجازي أكثر من ذلك حتى ولو صرّح بأنه يود أن يصبح زنجياً فخرياً ، لأنه كان يحب ذلك الجنس كثيراً .

– آمل ألا أكون قد أثقلت عليك . قالها مرة أخرى .

– قطعاً لا . قلت كالعادة ثم غادرته لأتخلص من رائحة القطط .

في بعض الأحيان ، كنت أخرج في الليل الرطب وأتجول في الساحة شاكراً بأني لست إلا مساعد بواب عابر . وبينما كنت أتمشى عند ساعات الفجر المبكرة كنت أرى طلاب المساقات الصيفية يتسللون ، خارجين من مهاجع الفتيات إلى الساحة . كان هذا الأمر يغمرني بشعور جيد . فكرت بأن ليلة الغد قد تكون جيدة كي أمارس الحب ، وبذلك أكون مشغولاً حين يدعوني .

– لماذا لا تخبر ذلك العجوز بأن وظيفتك لا تتضمن بأن تكون جليس أطفال له؟ كانت جين تردد ذلك عدة مرات عندما تأتي لزيارتي ، خلال النهار وتجدني نائماً . أنظر إليها وأفكر في داخلي بتلك القوى ، والضغوط الاجتماعية التي تتشكل بانتظار أن تهاجمنا . كان الشهر ما زال تموز ، والجو حار ، وكنت أعمل جيداً .

– إنه مجرد رجل عجوز . أجيبها ومن غيري يستطيع أن يستمع إليه

– إنك رقيق جداً ، تجيبني وما دمت تقوم بعملك فلا تزعج نفسك به

– يمكنك أن يشكل لي موضوع قصة إذا استمعت له بما فيه الكفاية أقول لها :

– هنالك قصص كثيرة جداً حول كبار السن . تجيبني

– أقول : لا . وأنا أفكر في أحوالنا مرة أخرى . الصواب هو أن هنالك أناساً كثيرين بلا قصص .

في بعض الأحيان كان يصعد إلى الأعلى ، بينما هي موجودة عندي . أدعه يدخل على أي حال . كان يقف هناك بمظهره القذر ويبدو متضايقاً ، وهو يحاول التذرع بالأسباب التي دعته للتطفل هكذا . في هذه الأوقات ، كانت تدور بينهما أمور صامتة لا أستطيع ذكرها ، تحجّمه وتعيده إلى حقيقة ماهيته . رجل عجوز يأتي من القبو ، ليتطفل في مكان ليس مرغوباً أن يكون فيه . ولكن طوال الوقت الذي كانت هذه الإشارات تنتقل بينهما ، كان يبقى على الحديث الودي . وبعد خمسة دقائق أو

نحوها من شعوره بأنه غير مرحب به . يعتذر عن قدومه ، ويلقي بعض الرماد على السجادة ثم يخرج من الباب . وفي الأسفل كانت تتناهى إلى مسامعنا أصوات زعيق زوجته .

كان شهر آب على وشك الرحيل تقريباً ، وقد تحملنا العجوز طوال تلك الفترة . كانت القطط لا تزال تبلل داخل البناية ، وكانت ماغي سوليڤان ما تزال تزعق ، في حين ازداد جنون الكلب وراح سوليڤان يشرب الخمر طوال النهار . في الخارج كان الجو حاراً ، والنباتات مورقة خضراء وفتيات الصيف يرتدين تنانير أقصر من قبل . حتى أن بعضها كان بدون ملابس داخلية . كان الرجال في منتصف العمر يقفون أسفل جسر تشارلز ويزدادون هيجاناً . كان الجميع قلقاً يستعد للتغيير الذي سيحصل ، لأن شهر آب هو الشهر الذي يتوجب فيه إنهاء إنجاز الأعمال الصيفية ، وإلا فسيقع الندم خلال الشتاء .

كوننا ، أنا وجين ميالين للتخيل . فقد ابتكرنا عدة ألعاب غريبة ، وقمنا بتسمية إحداها «قوى اجتماعية» . كان القصد منها هو أن نرى أي جانب سوف يفصلنا أولاً . وقد لعبناها مع الركاب المجهولين ، الذين كانوا يطلقون ألفاظاً بذيئة من سياراتهم العابرة . ولأن الدور في اللعب كان دورها فقد أخذت أنظر إليها بترقب . ولكنها كانت تضحك وتقول : لا . لقد لعبناها في الحفلات مع بعض السود غير الواعين ، الذين كانوا يحاولون إغراءها برقصهم البارع وغزلهم الرقيق ، ظانين أنها ربما قد تصبح ملكية مشتركة . كانت تظهر لطفاً وتحفظاً . بعدئذ ، كان يجيء دوري في اللعب ، فتأخذ بالنظر إليّ بترقب . وأتصنع ابتسامة وأقول : لا . لعبنا الجولة الأخيرة على طريق عودتها إلى منزلها في القطار تحت الأرضي ، في ليلة حارة من ليالي آب ، عندما كان أحد جوانب المركبة أسود متوتراً وحاقداً ، وكان الجانب الآخر أبيض يحمل نفس التفكير . لم يكن يوجد مكان يكفي لجلوسنا معاً ، ولم نكن نرغب أن نفترق ، لذلك بقينا واقفين نتشبث بالمقابض عبر جميع المحطات ، ونشعر بأن جميع العيون على جانبي المركبة وجوانب العالم تحدق فينا . شعرنا بأننا قد شخنا . وعندما نزلنا أخيراً عند محطتنا التي لم تعد كذلك بعد حين ، نظرنا إلى بعضنا البعض بانتظار حدوث شيء . ولكن لم يكن هناك ما يقال .

بدأت أتجنب الرجل العجوز، ولا أجيب على الباب عندما أعلم أنه هو الطارق. وأنتظر حتى منتصف الليل لكي أسحب القمامة إلى الأسفل حيث يقل احتمال أن يكون مستيقظاً. كرهت البناية منذ ذلك الحين وأصبحت بواباً حقيقياً لأول مرة.

كنت أنام كثيراً، وأكتب قليلاً جداً. ولم أعد اهتم بموضوع ميديكير، والجمعية الطبية الأميركية والبناية والسيدة سوليفان ولا حتى للكلب المجنون. بدأت آخذ في اعتباري بأني سأرحل من هنا.

في الأسبوع نفسه، نجحت الآنسة أوهارا أخيراً في إقناع الأعزب الإيرلندي ميرفي. بعض السكان الآخرين بتوقيع عريضة تتعلق بشكوى ضد الكلب. بدون شك وقع ميرفي لأنه كان رجلاً لطيفاً تبهره امرأة مثل أوهارا. هو في الحقيقة لم يكن يكترث للكلب، ولا حتى لأي شيء آخر. كانت تدعوه «بعزيزي فرانك» ولدي شعور بأنه حين جاء إلى هذا المكان قادماً من حملة مونتغمري آنذاك، كان يملك السيطرة على نفسه ولكنها استنزفت ذلك منه تماماً سنة بعد سنة، حتى أصبح لا يملك شيئاً سوى الموافقة على ما تطلب منه.

بعد تقديم الشكوى، جاء مدير البناية السمين ليبلغ سوليفان، بأن عليه أن يبعد الكلب. وقد أبلغتني الآنسة أوهارا بالأنباء السعيدة فيما بعد، عندما تمكنت من الوصول إلى بابي.

حسناً، إن ذلك الكلب المجنون ابتعد الآن يا روبرت! يكفينا هذان الاثنان.

– أين الكلب؟ سألتها.

– لا أدري أجابت ولكن ألبرت رستن جعلهم يأخذوه إلى الخارج.

كان يجب أن ترى وجه ذلك السكّير، ذلك العجوز القذر الذي لا ينفع لشيء.

– ستكونين في أمان الآن. قلت لها.

– تقريباً أجابت ولكن أفضل شيء هو أن نتخلص من هذين العجوزين السكيرين بموازاة الكلب.

هنأت الآنسة أوهارا وخرجت. كنت أعلم أن العجوز سيكون الآن منغمساً في الشراب، وأنه يرغب في الكلام. وفي وقت متأخر من تلك الليلة تمكن من اصطيادي على الهاتف.

روب . قال : هنا جيمس سوليفان . هل يمكنك كصديق جيد أن تنزل إلى شقتي . أريد أن أسألك شيئاً هاماً ؟

لم أكن قد دخلت شقته من قبل لم أكن أرغب بذلك . ولكنني على كل حال نزلت إلى الأسفل .

كان لديهما ثلاث غرف ، جميعها مغطاة بالسخام من الزاوية إلى الزاوية . كان هناك رائحة مميزة في المكان لا أرغب أن أشمها مرة أخرى أبداً . وكانت زوجته تجرجر جسمها في أنحاء الغرفة وتغمغم ببعض الكلام . قالت عندما رأتني أدخل من الباب : لا أستطيع أن أنظفها كلياً ، فأنا لا أستطيع حتى أن أنظر باتجاه تلك النافذة ، ولا أستطيع أن أصل إليها لكي أحافظ عليها نظيفة . فردت يديها الاثنتين وأسندت رأسها عليهما إلى الأسفل ، ثم إلى الجانب وأعادت القول : المكان كله قذر ولا أستطيع تنظيفه تماماً .

ماذا تريد ؟ قلت لسوليفان .

اجلس . أشار إلى كرسي مطبخ . هل غيرت تلك اللمبة في الطابق الخامس ؟

لقد فعلت ذلك . أجبته .

ظل صامتاً لفترة ، وهو يجرع من زجاجة الشيري ثم قدّم لي بعض منها في كأس قذرة وقال : أنت أول شخص يدخل إلى هنا منذ سنوات . لم نكن نستطيع إدخال أحد بسبب الكلب . كان في ذهني خاطر يقول بأنني لم أكن لأدخل إلى شقته أبداً ولكن الكلب لم يكن مطلقاً هو السبب .

حسناً ، لقد رحل الآن . قلت وأنا أنظف بأصابعي كأس الشيري القذرة .

بدأ في البكاء : لقد أخذوا كلبي بعيداً . قال : كان هو كل ما أملك . كيف يستطيعون أخذ كلب رجل بعيداً عنه ؟

لم يكن هناك شيء أستطيع قوله . ثم تابع يقول : لا أستطيع أن أفعل شيئاً . وبعد لحظة أضاف : لكنني أعرف من الذي كان وراء ذلك . إنها تلك القحبة الكبيرة أوهارا . لا تثق بها أبداً يا روب . إنها تبتسم في وجهك ولكنها من نوعية هؤلاء الذين أحرقوا جوان أرك في هذه الولاية .

رؤيته هكذا وهو يبكي ، ويستثير شفقتي لكي ألمسه أو لكي أقول شيئاً حنوناً ،

جعلتني أتلهف لأن أكون بعيداً وأهرب بسرعة .

- كل شخص لديه مشاكل قلت له : فأنا الآن بدون فتاة .

أشرق وجهه في الحال ، وللحظة بدت السعادة في عينيه العجوزتين اللتين تشبهان عيون القطط . مال على مقعدي ومد يده لي . لم ألمسه . وأخيراً سحبها وقال : أعرف كيف تشعر . أعرف بالضبط ماهية شعورك .

- بالتأكيد . قلت له .

- ولكنك رجل صغير ، وتملك مستقبلاً أمامك . ليس مثلي أنا ، فأنا سأموت خلال سنة .

عندها ، جرت زوجته نفسها وقدمت لي سيجاراً . كانا شخصين مضيافين . أجبرت نفسي على شرب القليل من الشيري .

- لقد أخذوا كلبي بعيداً اليوم . تمتمت كل ما أملكه في العالم هو كلبي .

نظرت إلى العجوز جيمس . كان يصبُّ من الزجاجة .

خلال الأسبوع الأول من شهر أيلول ، دب الهياج برجل متوسط في العمر ، لم يعد يكتفي بالنظر ، بل حاول انتزاع فتاة من صديقها أسفل جسر تشارلز . وقد ألقى البوليس القبض عليه وساقوه إلى السجن . في حين قامت الفتاة دامعة بسحب ملابسها إلى الأسفل بعد أيام قليلة ، قام رجل آخر بعرض أعضائه الجنسية عند نفس النقطة . كما تم العثور في نفس الأسبوع على شخص ميت على ضفاف التشارلز . تحرك لواء التنانير القصيرة إلى خارج الساحة ، وعم الهدوء والخضار والسلام فيها . أما في بنايتنا فقد انتقل زوجان يهوديان إلى الشقة ٤٤ . لم يكونا من أكلة المشهيات ، ومن حين لآخر كانا يرميان علب الفاصوليا ومعلبات لحم الخنزير إلى الخارج . فقدت الاهتمام ببصيرتي . فقد كنت أملك الكثير من التسجيلات للستيريو خاصتي وشحنات من معلبات «بيرس» وزجاجة صغيرة من الشيفاز ريغال لم أفتحها أبداً .

عاد عملي ليصبح جيداً مرة أخرى ولم أفتقد أياً من الأشياء الأخرى أو أنني أقنعت نفسي بذلك على الأقل .

ظل الرجل العجوز يأتي إلى فوق بانتظام ، ثلاث مرات في اليوم على الأقل . وقد

كيفت نفسي معه . فإذا رفضت إدخاله كان يعود دائماً في وقت لاحق متذرعاً باللمبة في الطابق الخامس . ثم أخذنا نشتري صناديق البيرة معاً ونتقاسمها . وعندما ينتهي النصف الخاص به ، وهذا ما كان يحدث في الغالب ، يصعد إلى الطوابق العليا لينهي النصف الخاص بي . وبدأت أستمتع بالحديث عن السياسة والجمعية الطبية الأميركية ، والميديكير ، والوجوديين وأصغي له وهو يقص على مسامعي مقتطفات من الكتب التي قرأها . اكتشفت أنه قارئ جيد للتاريخ والفلسفة والأدب وكذلك القانون .

كان شغوفاً جداً بقوله : أنا في الحقيقة أعلى مستوى من أن أكون مراقباً لبناية ولكن الظروف هي التي جعلت مني ما أنا عليه .

ورغم أنه كان سكيراً وقذراً ، ورغم أن الوقت من الليل كان متأخراً جداً ، إلا أنني كنت أصدقه وأحبه ، لأن وجوده هنا كان أفضل من بقائي وحيداً . وبعد أن ينصرف كنت أخلد للنوم . ولم أكن وحيداً في نومي . في الحقيقة ، لم أكن أكترث لتأخري في عملي صبيحة اليوم التالي ، لأنني اكتشفت أنه لا توجد هناك أمور تستحق الاهتمام ، سوى أن لا تكون عجوزاً وأن تتمتع بالحياة وأن تملك إمكانية لأن تحلم ولا تبق وحيداً .

١٩٧٠

ايزاك باشيفيز سنغر

المفتاح

عن «ذي نيويوركر»

في الساعة الثالثة من بعد الظهر بدأت بيسي بوبكين بالتحضير للنزول الى الشارع . كان خروجها مرتبطاً بالكثير من الصعوبات خاصة في صيف يوم حار . فعليها أولاً أن تضغط جسدها السمين داخل المشد وتحشر قدميها المتنفختين في الحذاء ، كما أن عليها أن تسرح شعرها الذي صبغته في المنزل ، فراح ينمو بشكل فوضوي ، وقد توشح بكل الألوان الأصفر والأسود والرمادي والأحمر ، بعد ذلك كان عليها أن تتأكد من أن أحداً من جيرانها لن يقتحم شقتها في غيابها ليسرق ملابسها الكتانية والوثائق أو ليعبث في أشيائها ثم يختفي .

واضافة الى معذبيها من البشر ، عانت بيسي من الشياطين والأرواح الشريرة ، فقد كانت تخبئ نظاراتها ، في درج طاولتها ليلاً لتجدها عن الصباح في شبشب . وعندما تضع علبة صبغة الشعر في خزانة الأدوية تجدها بعد أيام تحت وسادتها . وفي احدى المرات تركت وعاء من حساء الخضروات في الثلاجة ، ولكن تلك المخلوقات غير المرئية اختطفته من مكانه وبعد بحث مضني عثرت عليه بيسي في خزانة ثيابها . كانت تطفو على سطحه طبقة كثيفة من الدهن التي اضفت عليه رائحة شحم حيواني فاسد .

الله أعلم بما مرّت به ، وكم مرة تم خداعهاوكم صارعت حتى لا تضعف أو تصاب بالجنون . تخلت عن الهاتف ، لأنها كانت تتلقى مكالمات ليلاً نهاراً من أشخاص مبتزين ومنحلين يحاولون معرفة اسرارها . حتى أن بائع الحليب البورتوريكي حاول مرة اغتصابها ، كما أن ذلك الفتى الذي ينقل أغراض البقالة ، الى الزبائن حاول أن يحرق مقتنياتها بسيجارته . ولن تنسَ أن تذكر الشركة المالكة وناظر البناية ، الذي حاول أن يخرجها من شقتها المستأجرة التي عاشت فيها خمسة وثلاثين سنة وذلك باطلاق الفئران والجرذان والصراصير في غرفها .

أدركت بيسي منذ مدة طويلة أن لا شيء يمكن أن يقف ضد هؤلاء العازمين ، على الإساءة لها . لا الباب الحديدي ، ولا الأقفال الخاصةولا الرسائل التي بعثت بها الى الشرطة أو الى المحافظ و الاف . بي .أي . وحتى الى الرئيس الأميركي في واشنطن ، ولكن عليها أن تأكل لتعيش وكان الأمر يتطلب وقتاً : تفقد النوافذ ومخارج الغاز واغلاق الأدراج ، ونقودها التي كانت تخفيها داخل مجلدات كتب الموسوعة ، أو في الأعداد السابقة لمجلة ناشونال جيوغرافيك ، وحتى في دفاتر حسابات سام بوبكنز القديمة . واسهمها وسنداتها التي كانت تخبئها بين قطع الحطب في الموقد الذي لم يستخدم أبداً ، وأسفل مقاعد الكراسي . ومجوهراتها التي كاتنت تخيطها داخل الفرشة . مرت أيام كانت بيسي تودع مدخراتها في البنك ، ولكنها أقنعت نفسها منذ مدة طويلة أن الحراس يملكون مفاتيح رئيسية . عند الساعة الخامسة كانت بيسي جاهزة للانطلاق ، نظرت الى شكلها في المرآة نظرة أخيرة - صغيرة ، عريضة ، ذات جبين ضيق وانف مسطح وعينان مائلتين ونصف مغلقتين مثل عيون الصينيين ، وذقن تنبت فيها لحية بيضاء صغيرة . ارتدت ثوباً مبتذلاً رُسمت عليه بعض الزهور وقبعة قش مشوهة ومزركشة بحبات كرز وعنب مصنوعة من الخشب . وحذاء رث . وقبل أن تترك البيت قامت باجراء تفتيش نهائي للغرف الثلاث وللمطبخ . في كل مكان كانت تتكدس الملابس والأحذية وأكوام الرسائل ، التي لم تقم بيسي بفضها . كان زوجها سام بوبكين الذي توفي قبل ما يقارب العشرين ، سنة قد قام بتصفية مكتبه العقاري قبل وفاته لأنه كان ينوي أن يتقاعد في فلوريدا ، وترك لها عدداً من الاسهم والسندات وبعض حسابات التوفير البنكية والرهونات العقارية ، وحتى تاريخ اليوم ،

ما زالت الشركات تكتب الى بيسي وترسل لها التقارير والشيكات المالية . قامت دائرة ضريبة الدخل بمطالبتها بدفع ضرائب . ولا تكاد تمر عدة اسابيع الا وتتلقى بيسي اعلانات من احدى شركات دفن الموتى التي تبيع قطعاً من مقبرة وهمية . كانت بيسي تجيب على هذه الرسائل في السابق وتودع الشيكات ، وتتابع دخلها ومصاريفها ولكنها أهملت كل هذا حالياً حتى أنها توقفت عن شراء الصحيفة وقراءة قسمها المالي .

وعبر الممر قامت بيسي بتثبيت بعض البطاقات التي تحمل اشارات لا تعرفها ، الا هي بين الأبواب واطاراتها . أما ثقب المفتاح فقد أغلقته بمعجون . ماذا باستطاعتها أن تفعل سوى ذلك؟ ارملة بدون اطفال ولا أقارب ولا أصدقاء . كانت تمر أيام يطل جيرانها عليها من أبوابهم ليسخروا من اهتمامها المفرط . وكان بعضهم يضايقها . ولكن كان هذا في السابق أما الآن فبيسي لا تكلم أحد ، ولم يعد نظرها يساعدها على الرؤية كالسابق ، واصبحت نظاراتها التي ارتدتها منذ سنين بلا فائدة الآن . أما الذهاب الى طبيب عيون لتركيب نظارات جدد ، فكان جهد لا يطاق بالنسبة لها . كل شيء كان صعب حتى دخول المصعد والخروج منه ، ذلك المصعد الذي يغلق بابه دائماً بعنف . نادراً ما كانت بيسي تبعد مسافة صفين من البيوت من منزلها ، فالشارع الذي يمر بين برودواي وريفرسايد درايف يزداد ازعاجاً وقذارة يوماً بعد يوم . تلعب فيه قطعان من الأطفال ، وهم نصف عراة ويتجول فيه رجال سمر الوجوه ذوي شعور مجعدة وعيون متوحشة . وهم يتشاجرون بالاسبانية مع زوجاتهم اللواتي يظهرن دائماً حوامل ببطونهن المنتفخة ، كن يتحدثن بأصوات حادة متواصلة . وكانت هناك كلاب تنبح وقطط تموء ، وحرائق تشب بين الحين والآخر ، واصوات سيارات الإطفاء والاسعاف والبوليس تجوب المكان . وفي برودواي ، حلت محلات السوبرماركت الكبيرة مكان البقالات القديمة بحيث يتوجب عليك دائماً أن تختار طعامك ومعلباتك وتضعها في عربة ثم تقف بالدور أمام الصندوق لتدفع الحساب .

يا الهنا الذي في السموات . منذ توفي سام ونيويورك وأمريكا وربما العالم كله يتهاوى . لم يبق أحد من الناس المحترمين في الحي . جميعهم غادروا . وحلت مكانهم مجموعات من اللصوص والنشالين وبنات الهوى . سرقت محفظة بيسي

ثلاث مرات وعندما اشتكت الى البوليس قابلوها بالضحك . كان قطع الشارع مغامرة تعرض حياة المرء للخطر . وكانت بيسي تسير خطوة ثم تقف ، نصحها أحدهم بحمل عصا ، ولكن بيسي كانت أبعد من أن تعتبر نفسها عجوزاً أو مقعدة . فقد كانت تصبغ اظافرها بالأحمر كل عدة اسابيع ، وأحياناً عندما كان الروماتيزم يفارقها بسلام ، كانت تجمع الملابس التي اعتادت أن ترتديها من الخزانة وتقيسها وتراقب نفسها في المرآة ، أما فتح باب السوبرماركت فكان أمراً مستحيلاً ، وكانت تضطر الى الانتظار حتى يأتي أحدهم ويمسك به . حتى السوبر ماركت نفسه ، كان مكاناً لم يكتشفه الا الشيطان نفسه . فقد كانت المصابيح تتوهج بالأنوار ، والناس يجرون عرباتهم بطريقة قد تقلب أي انسان يقف في طريقهم ، وكانت الرفوف إما عالية جداً ، أو منخفضة جداً . والضجة العالية تسبب للانسان الاصابة بالطرش ، كما كان التناقض بين الحرارة الشديدة في الداخل والبرد القارس في الخارج كبيراً ، ولا بد أن أعجوبة ساعدتها على تفادي الإصابة بالتهاب رئوي . وأكثر من كل هذا ، كانت بيسي تعاني من التردد في أخذ القرار ، كانت تختار كل سلعة بيدين مرتعشتين ، وتقرأ ما كتب عليها ، لم يكن هذا بسبب نهم الشباب ، بل بسبب تشكك العجائز . وبالنسبة لتقديرات بيسي ، لا يجب أن تمضي في التسوق هذه الأيام أكثر من ثلاثة أرباع الساعة . لكن كانت تمر ساعتان وبيسي لم تنته من تسوقها بعد . وأخيراً عندما تصل بعربتها الى الصندوق يتبين لها أنها نسيت احضار علبة وجبة الشوفان فتضطر للعودة في حين تأخذ احدى النساء مكانها . وعندما تدفع الحساب فيما بعد تطرأ مشكلة اخرى . فقد كانت بيسي قد وضعت الفاتورة في الجهة اليمنى من الكيس ولكنها لم تجدها وبعد بحث مضن تعثر عليها في حقيبة الفراطة الصغيرة على الجهة الأخرى . نعم ! هل تصدق أن مثل هذه الأشياء يمكن أن تحصل؟ لو أخبرت أحداً بذلك لظن أنه من الأفضل لها الدخول الى مستشفى المجانين . عندما دخلت بيسي الى السوبر ماركت ، كان النهار ما يزال مشرقاً ، أما الآن فقد اقترب من الأفول . كانت الشمس الذهبية الصفراء تغوص عبر نهر هدسون نحو التلال الضبابية لنيوجيرسي . وبدأت النباتات في برودواي تعكس الى الخارج الحرارة ، التي كانت قد امتصتها في النهار . ومن أسفل السكك التي كان يهدر عليها القطار تحت الأرض ،

كانت تخرج الأدخنة ذات الروائح الكريهة .

حملت بيسي كيس الأطعمة الثقيل بيد ، بينما أمسكت بمحفظتها باحكام باليد الأخرى . لم تكن برودواي أبداً تبدو بمثل هذه الوحشية ، والقذارة مثل اليوم فقد كانت تفوح منها روائح الاسفلت الناعم ، ومحروقات السيارات ، والفواكه المتعفنة ، وبراز الكلاب . وعلى الممر الجانبي للطريق كان الحمام يتطاير وسط أكوام الصحف ، الممزقة وأعقاب السجائر ، ومن الصعب أن تتصور كيف يمكن لهذه المخلوقات أن تتفادى الدوس عليها من قبل المارين ، وبعيداً كان هناك غبار ذهبي يسقط عبر السماء الحارقة ، وأمامها انتصبت واجهة مخزن مليء بالعشب الصناعي ، ورجال غارقة قمصانهم بالعرق يعبون عصائر البابايا والأناناس بعجلة كأنهم يحاولون اطفاء نار تشتعل ، في داخلهم ، وقد تعلقت فوق رؤوسهم حبات جوز الهند المنحوتة على شكل هنود حمر ، وعلى الشارع الجانبي كان بعض الأطفال السود والبيض قد فتحوا احدى أنابيب المياه وقاموا برش أجسادهم العارية بالمياه . وفي وسط هذه الموجة من الحر اللاهب مرت شاحنة تطلق أغاني وصيحات عالية تصم الآذان عبر سماعات رُكِّبت عليها كنوع من الدعاية لأحد المرشحين السياسيين ، وفي مؤخرة الشاحنة وقفت فتاة بشعر منفوش كالأسلاك توزع المنشورات على المارة .

كان هذا أكثر مما تستطيع بيسي تحمله – قطع الشارع ، انتظار المصعد ثم الوصول الى الطابق الخامس ، قبل أن يغلق الباب بعنف ، وضعت بيسي أغراض السوبرماركت على الحافة وراحت تبحث عن مفاتيحها ، واستخدمت مبرد الأظافر لاخراج المعجون من ثقب المفتاح ووضعت المفتاح وادارته ولكن – اللعنة – لقد انكسر المفتاح وبقي في يدها المقبض فقط ، استوعبت بيسي الكارثة تماماً ، كان للسكان الآخرين مفاتيح احتياطية معلقة في شقه ناظر البناية ، أما هي فلأنها لم تكن تثق بأحد منذ مدة طويلة فقد قامت بتركيب اقفال جديدة ، وكانت متأكدة من أنه لا يوجد مفتاح رئيسي يستطيع أن يفتحه ، وكان لديها نسخة أخرى من المفتاح في أحد الأدراج ولكنها كانت تنقل مفتاحاً واحداً فقط معها ، وقالت حسناً! هذه هي النهاية قالتها بصوت مرتفع .

لم يكن هناك أحد تطلب منه المساعدة ، فقد كان الجيران اعداء دم بالنسبة لها .

وكان الناظر يتحين الفرصة ليراها منهارة ، وكان حلق بيسي متضيقاً لدرجة لم تستطع البكاء نظرت حولها وهي تتوقع ان تعثر على الشيطان الذي وجه لها ، هذه الضربة الأخيرة . كانت بيسي قد تصافت مع الموت منذ زمن . ولكن الموت على سلالم الدرج أو في الشوارع كان مناسباً جداً . ومن يعلم الى متى ستستمر هذه المحنة ، بدأت تفكر بعمق . هل يمكن أن تجد مخزناً لصنع المفاتيح لم يغلق أبوابه بعد؟ وحتى لو كان هناك مثل هذا المخزن فمن أين تأتي بمفتاح لينسخ عنه صانع المفاتيح؟ إذ أن عليه أن يحضر معداته الى هنا ، ثم قد تحتاج الى احضار ميكانيكي الأقفال في الشركة التي انتجت مثل هذه الأقفال الخاصة . لو تبقى معها بعض النقود على الأقل ، ولكنها لم تحمل من النقود أكثر مما يلزمها لقد ارجع اليها أمين الصندوق في السوبر ماركت ، بضعة سنتات فقط ربما عشرين أو أكثر . يا أمي العزيزة – أنا لا أريد أن أحيا بعد الآن . نطقت بيسي باللغة اليدية . وتعجبت كيف عادت لها تلك اللغة المنسية . بعد تردد كبير ، قررت بيسي العودة الى الشارع لعلها تجد ضالتها في احدى محلات بيع الخردوات ، أو تلك المخازن الصغيرة المتخصصة في المفاتيح . والتي ما زالت ابوابها مفتوحة حتى الآن . وتذكرت أنها رأت في إحدى المرات في الحي كشكاً لنسخ المفاتيح ، ثم لا بد أن هناك أناس آخرون يكسرون مفاتيحهم . ولكن ماذا تفعل بالأطعمة التي تحملها ، لم يكن لديها خيار سوى تركها على مدخل الباب ، سوف تسرق على أي حال قالت بيسي لنفسها ، ربما قام الجيران عمداً بتخريب قفلها لكي يمنعوها من دخول الشقة ، بينما يقومون بسرقتها أو باستباحة مقتنياتها .

قبل أن تنزل الى الشارع وضعت بيسي اذنها على الباب ، ولم تسمع شيئاً سوى همهمة متواصلة لم تعرف بيسي سبباً لها . كانت أحياناً تدق مثل الساعة ، وأحياناً تصدر اصواتاً كالأزيز ، ربما احدى المخلوقات العالقة في الجدران أو أنابيب المياه ، وبينها وبين نفسها ودعت بيسي كيس الأطعمة ، التي كان يجب أن تكون الآن موضوعة في الثلاجة ، وليس مصمودة في الحر هكذا فالزبدة قد تذوب والحليب ، قد يفسدا! . أنه عقاب . لا بد أنني ملعونة ملعونة . تمتمت بينما كان أحد الجيران على وشك أن ينزل في المصعد . أشارت اليه بيسي أن يمسك باب المصعد ريثما تدخل . ربما كان احد هؤلاء

اللصوص ، ربما يحاول أن يقبض عليها أو يؤذيها . نزل بهما المصعد وفتح الرجل لها الباب ، فأرادت أن تشكره الا أنها امسكت ، والتزمت الصمت فلماذا عليها أن تشكر أعداءها ، أنهم جميعهم مخادعون؟

عندما خطت بيسي الى الشارع ، كان الليل قد خيم وقنوات الصرف تطفح بالمياه . في حين انعكست مصابيح الشارع على بركة الماء السوداء ، التي بدت كالبحيرة . مرة أخرى كانت هناك نار في الحي . وسمعت بيسي صوت صافرة عربة الاطفاء وقعقعتها . كان حذاؤها مبللاً ، نزلت الى برودواي ولفحها الحر كأنه شريحة معدن ، كانت تصعب عليها الرؤية في النهار . أما في الليل فهي شبه عمياء ، كانت هناك بعض المخازن المضاءة ولكنها لم تستطع أن تميز ما الذي يعرضونه في واجهاتها ، وكان المارة يصطدمون بها . أصابها الندم لأنها لم تكن تحمل عصا ، ومع ذلك بدأت تسير ملتصقة بالنوافذ ، مرت بصيدلية ثم بمخبز لبيع السجاد ، ثم بمعرض للجنائز ، لكنها لم تعثر بين هذه كلها على محل للخردوات ، استمرت بيسي في طريقها وبدأت قواها تخور ، الا أنها كانت مصممة على أن لا تستسلم . ماذا يفعل الانسان عندما ينكسر مفتاحه - يموت؟ ربما يستنجد بالشرطة لا بد أن هناك مؤسسة ما تعتني بمثل هذه الحالات ولكن أين؟

لا بد أن هناك حادثاً ما ، فقد كان الرصيف على جانب الطريق مزدحماً بالمشاهدين . وكانت سيارات الشرطة والاسعاف تغلق الشارع ، وكان هناك من يقوم برش الشارع بالماء ربما لينظف آثار دماء ، بدا لبيسي أن أعين الناظرين تبرق بتشفٍّ غير مفهوم . وكأنهم يستمتعون بمصائب غيرهم من الناس . هكذا ساورها الشك . كان هذا هو عزاؤهم الوحيد في هذه المدينة التعسة ، كلا لن تجد أحداً يساعدها هنا وصلت الى كنيسة ، وقادتها قدماها بضع خطوات الى باب مغلق محمي ومظلل . وبالكاد استطاعت بيسي أن تجلس . وكانت ركبتاها ترتعشان وبدأ حذاؤها ينغرس في أصابعها وفوق الأكعاب وانكسرت احدى عظام المشد ، وأخذت تقطع بلحمها . حسناً ، أن كل قوى الشر مستنفرة ضدي هذه الليلة وأخذ الجوع ، والدوار يضغطان عليها فتذكرت المثل اليدي «إذا عاش الإنسان بدون تقدير ، يموت دون أن يعترف به أحد لقد نسيت حتى أن تكتب وصيتها .

لا بد أن بيسي قد غفت لأنها حين فتحت عينها ، كان هدوء الليل يعم المكان والشارع معتم ونصف فارغ ، ولم تعد نوافذ المخازن مضاءة ، وقد تبخرت الحرارة عن وجه الأرض ، وأحست بقشعريرة تحت ملابسها . وظنت لوهلة أن أحداً قد سرق محفظة نقودها ، ولكنها وجدتها هناك على بعد خطوة منها ربما تكن قد انزلقت مدّت بيسي يدها لتلقتطها ، ولكن يدها كانت بلا شعور ، وأحست برأسها الذي أراحته على الحائط - ثقيلاً كالحجر وتخشبت أقدامها وبدت أذناها وكأنها قد امتلأت بالماء ، رفعت احدى جفنيها فرأت القمر معلقاً في السماء ، على علو منخفض فوق أحد السقوف المسطحة ، كانت تلمح بجانبه نجمة خضراوية اللون حدقت بيسي في السماء بدهشة ، وقد نسيت تقريباً أن هناك سماء . وربما أن هناك الله وملائكة وجنة نعيم والا فأين ترتاح أرواح أبويها ، وأين يرتاح سام الآن؟ آه يا بيسي! لقد أهملت واجباتك . لم تزر ابداً قبر سام في الجبانة ولم تشعل حتى شمعة في مناسبة وفاته . كانت منهمكة بشكل مفرط في الصراع مع القوى السفلية لدرجة انها نسيت القوى العليا . ولأول مرة منذ سنوات ، أحست بيسي برغبة في الصلاة ، عسى أن يرحمها الله القوي . رغم أنها لا تستحق رحمته ، أو ربما يتوسط لها أبوها وأمها لدى الأعالي . همهمت ببعض الكلمات اليهودية التي على لسانها . ولكنها لم تتذكرها جميعها ثم تذكرت كلمة اسمعني يا اسرائيل ولكن ماذا بعد ذلك . يا الهي سامحني ، قالت بيسي ، اني استحق كل ما جرى لي . ازداد الهدوء وازداد معه البرد ، وأخذت اشارات المرور تتغير من الأحمر الى الأخضر ، دون مرور سيارة واحدة ، وبرز لها من بعيد أحد السود ، وكان يترنح ثم وقف قريباً من بيسي ، وأخذ يتلفت نحوها ثم سار بعيداً عنها . كانت بيسي تعلم أن حقيبتها ملأى بالوثائق الهامة ولكنها لأول مرة لم تبد اهتماماً بمقتنياتها . لقد ترك لها سام ثروة ولكنها ذهبت كلها هدراً . أما هي فاستمرت بتوفير النقود لكبرها وكأنها ما تزال شابة ، كم عمري الآن؟ سألت بيسي نفسها . ماذا حققت في كل هذه السنين؟ لماذا لم أذهب الى مكان ما وأتمتع بنقودي ؟ أو أساعد أحداً؟ ضحك شيء في داخلها ، لقد كنت مسكونة تماماً ، لم أكن أنا نفسي أبداً ، والا فكيف يمكن أن نفسر هذا؟

شعرت وكأنها استفاقت من نوم طويل ، فقد فتح هذا المفتاح المكسور باباً في

دماغها كانت قد أغلقته بعد وفاة سام .

كان القمر قد انتقل الى الجهة الأخرى من السقف . وقد بدا على غير عادته ، كبيراً أحمر اللون ووجهه ممحياً تماماً ، كان الجو قد أصبح بارداً الآن وراحت بيسي ترتجف وأدركت أنها قد تصاب بالتهاب رئوي بكل سهولة ، ولكن خوفها من الموت كان قد ولى . كذلك خوفها من كونها مشردة الآن . عبقت نسائم خفيفة من شهر هدسون وظهرت في السماء نجوم جديدة ، اقتربت منها قطة سوداء جاءت من الجهة المقابلة للشارع ، ووقفت لوهلة على طرف الرصيف ، وعيناها الخضراوان تحدقان مباشرة في بيسي ، ثم أخذت تقترب منها ببطء وحذر ، ولسنوات خلت كانت بيسي تكره الحيوانات جميعها - الكلاب والقطط والحمام وحتى عصافير الدوري ، فقد كانت تنقل معها الأراض وتنشر القذارة في كل مكان . كانت بيسي تشعر أن في كل قطة يسكن شيطان ، وكانت ترتعب خوفاً من مواجهة قطة سوداء . وتظن أنها فأل شرير ولكنها احسب بمحبة تجاه تلك المخلوقة ، التي ليس لها منزل تأوي اليه . وليس لها مقتنيات ، ولا أبواب ، ولا مفاتيح ، وتعيش على ما يرزقها ربها . وقبل أن تقترب القطة من بيسي أخذت تشم كيسها ثم بدأت تفرك ظهرها على قدم بيسي وتموء . وهي ترفع ذيلها ، المسكينة لا بد أنها جائعة يا ليتني استطيع أن أقدم لها شيئاً ، كيف يمكن لأحد أن يكره مخلوقاً مثلها تساءلت بيسي؟ يا أمي لقد كنت مسحورة مسحورة سوف أبدأ حياة جديدة ومرت في ذهنها فكرة شيطانية . ربما أتزوج ثانية؟

لم يمر الليل دون مغامرة ، فقد رأت بيسي فراشة بيضاء تطير . حامت لبعض الوقت فوق سيارة متوقفة ثم أقلعت ، عرفت بيسي أنها روح طفل ، وليد لأن الفراشات الحقيقية لا تطير في العتم . ومرة أخرى انتبهت لترى كرة من نار كأنها فقاعة صابون مضيئة تحلق من سقف الى سقف ، ثم تهبط خلف تلك الأسقف فأدركت أنها روح لشخص قد توفي الآن .

أغمضت بيسي عينيها ونامت . ثم أفاقت مع بداية نهار جديد ، وكانت الشمس تشرق من احدى زوايا الحديقة ، المركزية ولم تتمكن بيسي أن تراها من هذا المكان . ولكن فوق برودواي رأت السماء قد تحولت الى اللون البنفسجي الأحمر ، وعلى اليسار منها ، كان النهار يسطع من نوافذ البناية المجاورة لها ، وظهرت إطارات النوافذ

كأنها كوات جانبية لسفينة . هبطت حمامة قربها وأخذت تحجل بأقدامها الحمراء اللون وتنقر شيئاً بدا وكأنه حبة خبز قذرة ، أو قطعة طين ناشف . ذهلت بيسي كيف تعيش هذه الطيور ، أين تنام في الليل وكيف يمكنها أن تحيا في المطر والبرد والثلج؟ واتخذت بيسي قراراً بأنها ستعود الى البيت . فالناس لا يمكن أن يتركوها في الشارع .

كان نهوضها من ذلك المكان يعتبر نوعاً من العذاب ، فقد بدت وكأن جسدها قد التصق بتلك الدرجة التي كانت تجلس عليها . أحست بألم في ظهرها ووخز في قدميها . ورغم ذلك اخذت تسير ببطء نحو المنزل . وهي تتنشق هواء الصباح الرطب ، الذي كان يعبق برائحة العشب والقهوة . لم تعد وحدها الآن ، فقد ظهرت جموع من الرجال والنساء على جوانب الطرق وكانوا جميعاً متوجهين الى أعمالهم ويبتاعون الجرائد من الأكشاك على الطريق ، وينزلون الى محطة القطارات التحت أرضية . كانوا صامتين هادئين كما لو أنهم هم أيضاً أمضوا الليل في عملية البحث الروحي وخرجوا أنقياء . وتساءلت بيسي بدهشة إذا كانوا الآن في طريقهم الى أعمالهم فمتى يستفيقون ليصبحوا على هذه الأهبة ، لا ليس كل من في هذا الحي قتلة ورجال عصابات . فقد انحنى لها أحد الشبان بتحية الصباح ، وحاولت أن تبتسم له مدركة انها قد نسيت تماماً تلك الإيماءات الأنثوية ، التي كانت تتقنها جيداً في صباها . فقد كانت تقريباً من أوائل الدروس التي تلقتها من أمها .

وصلت الى بنايتها وكان الناظر الإيرلندي عدوها اللدود يقف في الخارج يتحدث مع جامعي القمامة . كان رجلاً عملاقاً له أنف قصير وشفة عليا طويلة وخدود غائرة وذقن مدببة ، وكان شعره الأشقر يغطي بقعة صلع في رأسه . نظر الى بيسي فجأة وقال : ما الأمر يا جدتي؟ فأخبرته بيسي بما حدث وهي تتلعثم . وأرته مقبض المفتاح الذي كانت قد أبقته طوال الليل في قبضتها .

- يا أم الله ! صاح .
- ماذا أفعل؟ سألته بيسي .
- سوف افتح لك الباب .
- ولكن ليس لديك مفتاحاً .
- يجب أن تكون قادرين على فتح جميع الأبواب ، في حالة نشوب حريق .

اختفى الناظر في شقته لبضع دقائق ثم خرج حاملاً ، بعض المعدات ورزمة من المفاتيح معلقة بسلسال وصعد مع بيسي في المصعد ، وكان كيس الأطعمة ما يزال على الحافة مكانه ولكنه بدا خاوياً ، وانشغل ناظر البناية في القفل ، ثم سأل ما هذه البطاقات؟ ولم تجب بيسي .

- لماذا لم تأت الي وتعلميني بما حدث؟ كيف تتجولين لوحدك طوال الليل - يا الهي! وبينما هو منهمك في العمل بمعداته فتح باب مجاور ، وظهرت امرأة صغيرة ترتدي ثياباً منزلية وشبشب وتضع عواقص في شعرها المقصوص . وقالت ماذا حدث لك؟ فكلما فتحت الباب كنت أجد هذا الكيس هنا ، لذلك أخذت الزبدة والحليب ووضعتها لك في ثلاجتي ، لم تصدق بيسي اذينها ، يا الهي قومي الطيبون قالت لم أكن أعلم أن . . . .

.انتزع الناظر النصف الآخر من مفتاح بيسي ثم مضت فترة من الوقت استطاع بعدها فتح الباب . وتساقطت البطاقات أمامه ثم دخل الى الردهة مع بيسي ، التي اشتمت رائحة العفونة في شقة لم يكن يعيش فيها أحد لمدة طويلة ، وقال لها الناظر : أرجو أن تستدعيني في المرة القادمة اذا حصل لك شيء مثل هذا ، فأنا هنا لهذا السبب . أرادت بيسي أن تعطيه اكرامية ، ولكن يديها كانت اضعف من أن تفتح محفظتها وأحضرت لها الجارة الحليب والزبدة ، ودخلت بيسي الى غرفة النوم واستلقت على سرير ها وكانت تشعر بضغط على صدرها وكأنها تريد أن تتقيأ . أحسب برعشة ثقيلة تنتقل من قدمها الى صدرها ، أصغت لها بيسي بدون خوف . كانت ترغب فقط في معرفة نبضات جسدها . كان الناظر يتحدث الى الجارة ولم تستطع بيسي أن تستنتج ما كانا يتحدثان عنه ، كان نفس الأمر قد حصل معها قبل ثلاثين سنة ، عندما اعطيت حقنة مخدر قبل اجرء عملية في المستشفى . فقد كان الطبيب والممرض يتحدثان ولكن أصواتهما بدت لها وكأنها قادمة من مكان بعيد ، وبدا وكأنهما يتحدثان بلغة غريبة . بعد ذلك ساد الصمت وظهر لها سام . لم يكن الوقت نهاراً أو ليلاً وكان الشفق غريباً ، وعلمت بيسي في حلمها ان سام قد توفي و لكنه تمكن بطريقة سرية من مغادرة قبره والقيام بزيارتها ، كان ضعيفاً ومحرجاً ولم يكن يقدر على الكلام . سار الاثنان عبر فضاء بدون سماء ، وبدون أرض وسط نفق

مليء بالآثار - بقايا حطام لا اسم له ، ممر معتم ملتو ولكنه مألوف ، ووصلا الى منطقة يلتقي فيها جبلان بينهما ، ممر يلمع كالشروق أو الغروب . ووقفاً هناك مترددين وخجلين قليلاً . كان الوضع يشبه تلك الليلة من شهر عسلهما ، عندما ذهبا الى ايلينفيل في كاتسكلز حيث قادهما مالك الفندق . الى جناح العرسان وسمعت تلك الكلمات نفسها الي قالها لهما وبنفس النبرة :

«لن تحتاجان الى مفتاح هنا فقط أدخلا - وتصبحان على خير .

١٩٧٣

دونالد بارثليم

مدينة كنائس

عن «ذي نيويوركر»

نعم قال السيد فيليبس ، إن مدينتنا حقاً مدينة كنائس . أومأت سيسيليا برأسها وهي تتابع إشارة يده . كان طرفا الشارع محددين . بالكنائس التي تقف جنباً إلى جنب ، بأشكال معمارية مختلفة . كانت كنيسة البحارة المعمدانية تقف بجوار كنيسة المسيح المقدس للمعمدانيين الأحرار ، ثم كنيسة سانت بول الأسقفية البروتستانتية ، ويليها دير الإنجيليين المقدس . ثم كنيسة فيرست كريستيان ساينس ، ثم كنيسة الله فكنيسة جميع الأرواح ، وكنيسة سيدة النصر وكنيسة مجتمع الأصدقاء ، ثم كنيسة التجمع الإلهي وكنيسة الرسل المقدسة . كانت قمم البنايات التقليدية ، وأبراجها تزدحم بجوار التحليقات الخيالية للتصاميم العصرية . كل شخص هنا له اهتمام كبير في شؤون الكنيسة قال السيد فيليس :

– هل يمكن أن أتكيف؟ هنا سألت سيسيليا ، فقد جاءت إلى برستر لتفتح مكتباً فرعياً ، لمصلحة تأجير السيارات . لستُ متدينة بشكل خاص ، قالت : للسيد فيليب الذي كان يعمل في مصلحة العقارات .

ليس الآن قال لها : ليس بعد ، لكن لدينا العديد من الشباب اللطيفين هنا وسوف تتمكنين من الاندماج في المجتمع قريباً . المشكلة الملحة هي أين ستسكنين ؟ معظم الناس يختارون كنيسة ليعيشوا فيها ، فجميع كنائسنا تملك غرفاً إضافية . لدي القليل

من الشقق في أبراج الكنائس ، والتي يمكنني أن أريها لك . ما هي حدود السعر الذي تفكرين به . استداروا بعد الزاوية ، واجهتهم المزيد من الكنائس ، مرّوا عبر كنيسة سانت لوقا ، وكنيسة الغطاس ، وكنيسة جميع القديسين الأوكرانية الأرثوذكسية ، وكنيسة سانت كليمانت وكنيسة المصدر المعمدانية ، ويونيون كونغراشونال وسانت أنارجيري ومعبد ايمانويل وكنيسة المسيح الأولى الإصلاحية ، كانت أبواب الكنائس مفتوحة ويمكن رؤية الأنوار في الداخل .

أستطيع أن أدفع إلى حد مئة وعشرة قالت سيسيليا هل توجد هنا بنايات ليست كنائس ؟

– ولا واحدة قال السيد فيليس . طبعاً العديد من بنايات كنائسنا الرائعة تقدم خدمات مزدوجة ، مثل أي مكان آخر . أشار إلى واجهة مبنى جورجي أنيق هذا المبنى يضم الكنيسة الإصلاحية الوحدوية وهيئة التعليم . والمبنى الذي بجواره هو مبنى كنيسة العنصرة ، ويوجد فيه دكان حلاقة كان هذا صحيحاً . فقد كان يوجد عامود ملفوف بالأحمر والأبيض ، وملحقاً بطريقة غير ظاهرة لواجهة كنيسة الصخرة .

– هل يستأجر الكثير من الناس سيارات هنا ؟ سألته سيسيليا أو هل تعتقد أنهم قد يفعلون ذلك إذا وجدوا مكاناً ملائماً يؤجرهم .

– آه لا أعرف قال السيد فيلبس ، إن استئجار سيارة يعني أنك ستذهبين إلى مكان ما . ومعظم الناس مرتاحون بوجودهم هنا . إذ يوجد لدينا الكثير من النشاطات .

أنا لا أظن اني سأختار مصلحة تأجير سيارات ، إذا كنت ما زلت مبتدئاً في برستر ، ولكنك ستبلين بلاءً حسناً . وأشار إلى بناية صغيرة حديثة جداً ، مبنية من طوب قاس وفولاذ وواجهة زجاجية . هذه كنيسة سانت برنابا . ويوجد مجموعة لطيفة من الناس هنا وتقدِّم هنا وجبات سباغيتي رائعة عند العشاء .

استطاعت سيسيليا رؤية مجموعة من الرؤوس ، تنظر من النافذة ولكنهم عندما لاحظوا أنها تحدق بهم . اختفت الرؤوس .

– هل تظن الأمر سليماً لكل هذه الكنائس أن تتجمع في مكان واحد ؟ سألت دليلها لا يبدو الأمر متوازناً ، إذا كنت تفهم ما أعنيه .

– نحن مشهورون بكنائسنا ، أجاب السيد فليبس هي لا تؤذي أحداً . ها نحن هنا الآن .

فتح باباً ، وأخذا بالتسلق على أدراج مغبرة . في نهاية الطريق دخلا إلى غرفة جيدة ، الحجم مربعة ولها نوافذ على الجهات الأربع ، هناك في الغرفة سرير وطاولة وكرسيان ومصابيح وسجادة ، كما أن هناك أربعة أجراس نحاسية ضخمة تتدلى في وسط الغرفة .

– يا له من منظر ، قال السيد فيليبس مبتسماً صباحاً وظهراً ومساءً . طبعاً عندما ترن فعليك أن تكوني سريعة في مغادرة المكان ، وإلا أصبت برأسك من إحداها «وهذا كل ما كتبته» .

– يا إلهي قالت سيسيليا بطريقة لا إرادية ثم أضافت لا يعيش أحد في شقق الأبراج ، ولهذا السبب هي فارغة .

– هل تظنين ذلك ؟ قال السيد فيليبس .

– يمكنك فقط تأجيرها للقادمين الجدد إلى البلدة ، قالت له بطريقة اتهامية .

– لا أفعل ذلك قال السيد فيلبس إن هذا مخالف لروحية التعاليم المسيحية .

– إن البلدة مروعة بعض الشيء تعرف ذلك ؟

– قد يكون ، ولكن ليس لك أن تقولي هذا ، أليس كذلك ؟ أعني أنك ما تزالين جديدة هنا ، وعليك أن تسيري بحذر إلى حين . وإذا كنت لا ترغبين في شقة عالية ، فلدي طابق تحتي في الكنيسة المشيخية المركزية ، ولكن عليك أن تتشاركي بها فهناك امرأتان تعيشان فيها الآن .

– لا أريد أن أشارك أحداً ، قالت سيسيليا ، أريد مكاناً لي وحدي .

– لماذا ؟ سألها رجل العقارات بحذر لأي سبب ؟

لا يوجد سبب معين أنا فقط أرغب بذلك .

– إن هذا الأمر ليس طبيعياً هنا ، فمعظم الناس يعيشون مع آخرين ، الأزواج والزوجات ، الأبناء والأمهات ، والناس الذين يترافقون في الغرف هذا هو النمط المعتاد .

– إن هذا أمر غير طبيعي .

- هل لديك أماكن مثل هذه عدا عن الأبراج الجرسية . . أعني . . . .

- أعتقد أن هناك القليل ، قال السيد فيليبس بنفور واضح ، وأعتقد أنني أستطيع أن أريك واحداً أو اثنين .

توقف لحظة . . .

- الأمر فقط أنها تختلف في القيمة ، ربما بتأثير المجتمعات المحيطة بنا ، شرح لها موقفه ، لقد كتبوا لنا كثيراً ، وكما حصلنا على أربع دقائق من أخبار السي . بي . أس المسائية قبل ثلاث أو أربع سنوات - مدينة الكنائس هكذا كانوا يسمونها .

- نعم أحتاج إلى منزل لي وحدي ، إذا أريد لي أن أعيش هنا .

- إن موقفك مضحك ، قال السيد فيليبس : من أية طائفة أنت ؟

التزمت سيسيليا الصمت ، الحقيقة أنها لم تكن تنتمي إلى شيء .

- سألتك من أي طائفة أنت ؟ كرر السيد فيليبس .

- إني أحلم بإرادتي ، قالت سيسيليا : أستطيع أن أحلم ما أشاء إذا أردت أن أحلم ، إنني أمضي وقتاً ممتعاً في باريس أو أي مدينة أخرى ، فكل ما علي أن أفعله هو أن أنام وأحلم .

أستطيع أن أحلم ما أشاء .

- بماذا تحلمين ، أي الأشياء تحلمين بها أكثر ؟ قال السيد فيليبس : وهو ينظر إليها بانتباه .

- غالباً أشياء جنسية قالت ، لم تكن خائفة منه .

- إن برستر ليست بلداً لهذا الشيء ، قال فيليبس ونظر بعيداً عنها .

كانت أبواب الكنائس تفتح على جانبي الطريق ، ويخرج منها أفواج صغيرة من الناس - وقفوا أمام الكنائس يحدقون في سيسيليا والسيد فيليبس .

- تقدم شاب إلى الأمام وصاح : إن كل شخص في المدينة يملك سيارة ولا يوجد أحد لا يملك سيارة .

- هل هذا صحيح ؟ سألت سيسيليا السيد فيليبس .

- نعم قال لها إنه صحيح ، لا أحد سيستأجر سيارة ولا حتى بعد مائة سنة .

- إذن فلن أبقى قالت له ، سأذهب إلى مكان آخر .

يجب أن تبقي قال لها : يوجد هناك حالياً مكتب لتأجير السيارات في كنيسة ماونت موريا المعمدانية في الطابق الأرضي ، كما يوجد منضدة وهاتف ومجموعة مفاتيح سيارات وروزنامة .

- لن أبقى قالت له إذا لم يكن هناك سبب تجاري معقول للبقاء .

- إننا نريدك قال السيد فيليبس ، نريدك أن تقفي وراء منضدة وكالة تأجير السيارات خلال ساعات عمل منتظمة . وهذا ما سيجعل من هذه البلدة ، بلدة كاملة .

- كلا لن أبقى قالت سيسيليا .

- يجب أن تبقي إنه ضروري .

- سوف أحلم بأشياء أنت لا تحبها .

- إننا مستاؤون جداً جداً هناك خطأ ما ، قال لها السيد فيليبس .

- سوف أحلم بالسر قالت له ، وستكون نادماً على ذلك .

- إننا مثل سائر البلدان ، إلا أننا كاملون قال لها ، وإن استياءنا يمكن أن يبقى مراقباً من خلال الكمال : إننا نحتاج إلى فتاة لمكتب تأجير السيارات . يجب أن يقف أحد وراء هذه المنضدة .

- سوف أحلم بالحياة التي تخشاها أكثر . هددت سيسيليا .

- إنك ملكنا ، قال لها وهو يقبض على ذراعها ، إنك فتاة تأجير السيارات - كوني لطيفة لا يوجد شيء تستطيعين أن تفعليه .

- انتظر وسترى قالت سيسيليا .

١٩٧٥

روزلن براون

كيف تفوز؟

عن «ذي ماساتشوستس ريفيو»

كل ما يحتاجونه في المدرسة هو إذن مكتوب على ورقة خضراء يقول : ليبق هذا الولد في البيت ، عصّبوا عينيه أو اربطوا يديه أو ثبتوا ذراعيه بحبل مع كاحليه أو أي شيء آخر ! لم يذكروا أبداً أن يُعرض على طبيب ، وحتى هذا البيروقراطي المرخَّص الذي يحضرونه إلى المدرسة مرتين في السنة ، كي يفحص التلاميذ كلهم في نصف يوم وهو يرتدي بذلته التي تشبه بدلات رجال البوليس ، لم يفعل شيئاً . أما أنا فقد طالبت بإصرار متواصل ، إحضار طبيب وفعلت ذلك مراراً وتكراراً ، طبعاً كان لا بد من ذلك ، لأن «هوارد» ظلّ يردد دائماً وبطريقة غير مفهومة أن حركات ابني كريتسوفر تقع «ضمن سلسلة عادية للتصرفات الصبيانية» .

ـ «لكنني أعيش هذا الشيء كل نهار وكل يوم .»

ـ «إنه شيء . . . أنا أعيش مع شيء»

حسناً يمكن لهوارد أن يعتبر كلامه مقدساً إذا شاء ، لكني أمه وأنا أعرف عنه صفات غير صفات الشيء . إن كريستوفر هو طفلي الأول وابني الأول ، كان كومة ضعيفة دافئة من اللحم ، وكنت ألفُّ أصابع قدميه ليلاً حتى لا يبرد ، كانوا يقولون لي دائماً ، يا مارغريت إنك إنسانة درامية وحساسة وطائشة ، لماذا لا تغيّرين بعضاً من طباعك وتصبحين أكثر واقعية !

لكن هذا الشيء ، يركض حول غرفتي في الليل مثل الوطاويط ، يتعلق بفرزات البرادي ويشدها للأسفل ، يقلب مصابيح الطاولات ويمزق بتلات الأزهار اصطناعية كانت أم طبيعية ، يطحنها بيديه لتصبح مثل المسحوق .

كنت أراقب كريستوفر وهو يتمترس في إحدى الغرف أحياناً . . . «يتمترس مثل الجيش» هذه هي الكلمة المناسبة ، جيش يعسكر في سهل مهجور . إنه يتعلق على باب الممر أحياناً ، يشد كتفيه إلى الأسفل كأنه يتعلق على آلة رياضية . لم يكن لديه وركان ، لكنه كان يحمل كتفين عمرهما ست سنوات على جسمه الذي مهما بدا ضئيلاً إلا أنه مصنوع من حديد ، لا يمكن أن يفلت شيء من قبضته أبداً .

ثم ما الذي يراه أمامه ؟

أنا لست بارعة في التخمين ، لكن الغرفة تنقلب إلى حيوان نائم ، أقل ما يفعله هو أن يتشمم الهواء حوله ثم يبدء بالقفز وعندما يغادر الغرفة ، تبدو وكأن أحداً قد انتزع أحشاءها . ثم يعود لينظر بعينيه الغامقتين إلى حيث أقف ، عندما أستطيع أن أقف ، فأنا بالعادة أطارد خلفه ، لأحاول إيقاف هذا النزيف ! ثم يسألنني أين ذهب ؟ ماذا حدث ؟ من قتل هذا الشيء ؟ لقد كان يتنفس قبل لحظات !

آه يا كريستوفر! عندما لا تكون هنا لتنظر إلي ، أضحك على قواك الخفية ، فأنت شخص يستحيل ضبطه ، تتسرب منك الطاقة دائماً باندفاع ، أما بالنسبة لي فأنا كمن أنجبت مولوداً لامرأة غيري .

توجد كراسة صغيرة داخل الزجاجة البنية التي وصفها لنا الطبيب ، كراسة ملونة ومرحة تصور أطفالاً يقودون دراجاتهم وسط حقول من النرجس ، أطفالاً ينامون براحة على مخداتهم ، وآخرون يقومون بعمل واجباتهم ووجوههم تدل على التركيز الشديد .

تقول الكراسة : هذا الدواء ليس للعلاج ولا يسبب الإدمان وليس له أعراض جانبية ، كما يجب تخفيض الجرعة عند البلوغ ، أما المؤشرات السلبية للدواء فتبدأ بالصرع ، وبتعقيدات أخرى متعلقة بالقلب والدورة الدموية ، وقصر نظر شديد وبعض المشاكل المتعلقة بالعيون . . . انظر مجلة طب الأطفال المجلد الثالث صفحة ١٣٦ . . . .

تنتهي الكراسة بتحذير يقول : لا يسمح للأطفال بالوصول إلى تلك الحبوب . . . ملاحظة خاصة : لف الغطاء عند فتح العلبة ، وتذكر أن تعلم أطفالك آداب خزانة

الأدوية .

كنت أعلم ماذا يحلم فأنا أحلم نفس أحلامه ، يأتي هو ليختبئ في داخلي . وحين يشعر بالخوف من الظلام ، يركض عندي وهو يسعل مرتعباً وما أكاد أنهض لأعانقه حتى يذهب خوفه ، ذلك الخوف المدفون في ذاكرته ، أرتدي ثوبي وأمد يدي لأنتزعه من نومه وأخبئه وأطمئنه أن الساحرة الشريرة لم تعد هنا ! يرضى بأن يذهب إلى أبيه ، لكنه لا ينظر إلى وجهي أبداً .

ـ هذا أنت ! ينظر إليّ أخيراً دون أن يتفوه بكلمة ، لكني أعرف أنه يفكر بأني قد أكون أنا تلك الساحرة التي تحمل عصاً خلف ظهرها المحني ، أو أكون تلك الوردة ذات الأفرع المتشعبة والسيقان الطويلة المتعددة ، أو ذلك الوجه الممسوخ الذي أحمله بين يدي كالخرقة المبللة بالدماء . كيف يمكنني أن أساعده في مثل هذه الحالة ؟

أهمس إليه همساً بدون كلمات ، مثل الموسيقى فيجيب «ماما» بصوت كأنه قرع خفيف يسمع من خلال طبقات متراكمة ، ربما من الأتربة أو من الورود . تحلم أخته جودي أحلاماً مشابهة وكذلك الأطفال الذي يأتون معها ، هي أحلام يتوقعها جميع الأطفال مثل جدري الماء تماماً . هناك دائماً الساعة الثالثة في عتمة ليل نفوس الأطفال أيضاً . لا يجب أن نتبجح كثيراً لتفوقنا عليهم ، لكنها بالعادة تحلم وحدها دون أن تشارك أحداً ، ربما ألاقيها في منتصف الطريق لأعطي أحلامها لمسة نهائية .

كنت أحتفظ لنفسي بسجل خاص ، أكتب فيه أحداث كل يوم في حياتي ، لا لسبب خاص ، لكن إحساسي بعدمية الأشياء ، أعمق من قدرة أي سجلٍ على ملاحقته ومع ذلك فقد كان هذا الأمر يهدئ من خاطري قليلاً .

إنه يلعب الآن مع جاكلين في ساحة روزنبرغ ، وهو يتوجه الآن إلى الصندوق الرملي الذي يخص «بريان» شقيق جاكلين الصغير ، أشتم هنا رائحة مشكلة ولكني لن أعترض ، بل لن أتدخل حتى في تسوية النزاع لأن الاعتراض على الأمر ليس هو الهدف ، بل قد يزيد الطين بلّة كما يدعي الطبيب الذي يعارض مثل هذا التدخل . بينما هو يسير عبر الممر الطويل الضيق في الساحة ، يضرب بقدميه الأرض بسرعة وعنف ، أراه ينتزع بعض أزهار النباتات على الطريق ، ثم يقلب حصان بريان الخشبي الأشقر الغالي الثمن ! وهنا توجب عليه أن يتوقف ليفعل ذلك لأن الحصان متوازن

جداً ولا يُقلب بسهولة . ثم أراه يقفز فوق السياج المشدود بالأوتاد وينزل من فوق الزنابق المحيطة به ، يصل أخيراً إلى صندوق الرمل ثم يتجه نحو جاكي التي تقف وظهرها له ، يدفعها بقوة لتقع فوق السياج تركض بعدها باكيةً إلى أمها وقد تمزق ثوبها بسبب الوقعة . لم تفكر حتى بالرد عليه فهي تعرفه جيداً .

ثم أراه يغرز جسده في الرمل ويلتفت إليَّ مرة أخرى ، ذلك الوجه البريء إنه لا يتآمر على شيء ولا يخادع ، أكاد أقسم على ذلك ، فهو لا يملك مثل ذلك الذكاء كما أنه ليس ولداً مشاكساً فظاً ، دائم القفز فوق الأعشاب من شجرة إلى أخرى . طفل ذو وجه فرنسي صغير شاحب . اعتقدت دائماً أن ما ينقصه ، هو لبس تلك البقعات المدببة الرأس التي يرتديها سكان بلاد الغال في فرنسا ! فهو يحمل كل صفات ذلك ، جبين ضيق يغطيه شعر أسود منسدل ، يبدو وكأنه نوع من قصَّات الشعر الحديثة في صالونات الشعر . إنه ليس فظّاً على الإطلاق ! طفلي الصغير ! يمتاز إضافة إلى ذلك بأنه يمتلك أناقة طبيعية غريبة تبعث الرعب في أوصالي ، لأنها تثير شعوراً غريباً بأنه كان يجب أن يكون شخصاً آخر . يبدو الآن وكأنه يحاول أن يقول لي : خذي هذه الأشياء بعيداً إذا كنت ترغبين أن لا ألمسها ، أخرجيني من هذا المتحف اللعين من الذي يدّعي أنني لا أستنفر ؟ أهكذا تحدثون بعضكم البعض ؟ لماذا لا يكون طفلاً من زجاج ؟ فهو سيحطمنا جميعاً دون أن يظهر عليه أي خدش .

انتابتني أسوأ الأفكار وأنا مستلقية في الشمس ، يغالبني النعاس ، كان كريستوفر ما يزال في حضانة الأطفال وجودي تغط في النوم ، كنت أشعر بالذنب وأنا أحاول منح جسمي الشاحب بعض اللون ، من تلك الشمس الكئيبة الباهتة ، ظل نومي متقطعاً وكنت أستفيق بين حين وآخر ، كلما ضربت جارتي ماجديلينا ابنها وسُمع صوت بكائه وأنينه عبر الساحة أو عندما يمر الباص ليهز أنابيب المياه والغاز تحت الأرض ، هزاً عنيفاً ربما يصل أثره إلى الصين .

تبدأ أسوأ الأفكار بالتسلل إلى رأسي كسيل من النمل الأبيض ، ماذا لو كنّا أنا وهاورد في مكان آخر في تلك الليلة التي تمتعنا بها بصنع كريستوفر ، ربما في ليلة ينخر بردها العظام أو في وضع نتغازل فيه وظهرينا لبعضنا البعض ، ولكن الوقت كان صيفاً وكان قد مرَّ على زواجنا ثلاثة أشهر ، وكان الشرشف السفلي ممدوداً مثل غطاء

الرحلات ولو كان هناك ساعة فلكية لأخبرتنا أن الوقت كان ملائماً ولكنني استعدت في ذاكرتي ذلك الوقت مرة أخرى فقد كنا نعيش في منزل يقع على ضفة النهر في تلك السنة وفي السنة التي تلتها وكنت في غاية النشوة في تلك الليلة ، شعرت بأنني غيمة رعدية تنفجر مطراً ورعداً عبر النوافذ المفتوحة ، كانت الأغطية مبللة من الكتب التي غطتها الرطوبة على المكتب المجاور . كنا نشاكس بعضنا البعض لدرجة أن هاورد كسر زجاجة من الجعة ووضع اللوم عليّ .

عدنا لنصنع طفلاً آخر في الليلة التالية ، ألا تتغير الجينات من يوم ليوم ، في ذلك الوسط الحليبي ، كما تتغير أوراق القرعة في الإناء المدوَّر الخاص بالسحب . كنت نائمة في الشمس أفكِّر بالأسوأ ، ففككت جلد كريستوفر وعظامه ، لأعود إلى ذلك الحيوان المنوي ، الذي بدأه وأتخيل مسيرته نحو تلقيح البويضة العمياء . استفقت وقد بللني عرق بارد ، كانت الشمس عالقة خلف غيوم سوداء ، من الدخان تتلبد في آخر شارع باسيفيك ، أحسست بقذارتي ، وكأني قد ارتكبت خطيئة إبَّان غفوتي . كان هناك بعض الرمل الناعم على ذراعي وقدمي ووجهي ، وكأنه ضربت شمس . دخلت إلى المنزل وشرعت في تجهيز الغداء لكريستوفر . هذا الولد الذي سيخلفني في هذه الحياة .

سجلت هنا : يجلس كريستوفر على مائدة المطبخ ، محاولاً أن يعلق حبات الفاصولية على خيط وإبرة ، يبدو أنه تعلم هذا في الحضانة ولكني نسيت أن أسألهم لماذا؟ جودي تستيقظ في الأعلى ، تكاد تسمع صوتها من آخر المنزل ، رغم أن باب غرفتها ما زال مغلقاً ، يقول كريستوفر بهدوء دون أن يرفع نظره عن الخيط : «ماما لقد استفاقت» كأنه يسمع شيئاً يحدث عن بعد ميل . كان يملك غريزة هندي أحمر تنفجر مباشرة عندما أقف بجانبه . عندما تستيقظ أخته ، يبذل جهداً خاصاً ، ليكون لطيفاً معها ما استطاع ، كنت أشعر أنه يحاول أن يضبط نفسه . ويضع يديه في جيوبه أو في ثنايا بنطاله ، لكي لا يشعر بأنه مقيد . لكنه بين الحين والآخر يفلت زمامها ، فقد مرَّ بجانب أخته ، منذ دقيقة ودفعها دفعة خفيفة . ثم سحب ممسحة الحمام ، نحو حوض الاستحمام ، بدون أي احتجاج ، وأوقع إناء الزجاج الذي تحطم مطلقاً شظاياه في كل اتجاه . طبعاً كان عليَّ أنا أن أسلِّم بالأمر دون تذمر ، قد كنت

قد سمعت حلقة الحوض تنزلق ، قبل أن تضرب بالأرض وسط هذا الصمت الذي يغلِّف الانفجار .

هذه المرة ، اختارت جودي أن تستلقي على الحصيرة ، ولحسن الحظ لم تكن الأرضية اسمنتية ، كان شيئاً محبباً بينهما ،و منصفاً لكليهما كانت عيناها مفتوحتين ، لا تدمعان ، ربما تفكر بأمرها بالنسبة لأخيها ، أمرٌ ترغب بالإفصاح عنه .

عندما بدأ بتصعيد حركاته ، يبدأ بالانكماش أمامها ، قد يكون من الصعب تخيل الأمر ولكنه حقيقي وقد شهدته بنفسي . وبينما أنا أسجل الملاحظات ، ركض كرستوفر مختبأً خلف الكرسي الذي أجلس عليه ، وصلت جودي وهي ما تزال توازن نفسها ، بعد الدفعة التي تلقتها منه . كانت تجرُّ لعبتها المفضلة ، «وعاء تحميص الذرة» وتتمتم . كان الوضع مثالياً لكريستوفر لشن الهجوم عليها واستفزازها . كان هاورد خارجاً من معمعة الفوضى ، التي يخلفها تناول طعام الإفطار ، وقد حمل حقيبته مثل درع أمامه ، بسبب ضيق الممر حول المائدة ، يزرع القبل على جبين كل واحد منا . كنت أتوقع دائماً عند خروجه من الباب ، أن يقول شيئاً لطيفاً ، يشجعني به على تحمل مشاق النصف الساعة الحافلة بالمفاجآت ، والتي سأقوم خلالها بتوصيل كريستوفر إلى المدرسة . هذا النهار سمعته يتمتم وهو يفتح الباب الخارجي : «حسناً كيف يمكننا أن نعرف شكل الأطفال الآخرين إذا كنا لم ننجب سوى هذين الاثنين .»

ــ «إننا نعلم »! «ماذا عن جودي ؟»

ـ أجاب وهو يرجح حقيبته مثل الذبابة : «آه إنني أعني الصبيان» .

ـ «إننا نعرف هذا أيضاً» ، «لأننا لسنا عقداً على ألواح قنّب ، بعضنا على الأقل ، ماذا فعل بآلة الحلاقة التي تستخدمها اليوم ؟»

ـ «لقد حطمها وحولها إلى قطع صغيرة ، وتسبب بكسور في المرآة ، عندما رمى بعض القطع عليها . قال هذا وهزَّ كتفيه بلا مبالاة ثم أغلق البوابة بسرعة .»

لماذا أنجبنا جودي ؟ تجرء بعض الناس على السؤال ، مندهشين رغم أن الأمر لا يعنيهم ، كانوا يعنون ما يقولون ويتوقعون منا أن نسامحهم ، على ذلك . كيف استطعنا أن نكرر تلك المغامرة الاستشهادية؟ كنت أرد عليهم بالقول ، إني يوم ميلاد

كريستوفر كنت على استعداد لأكوِّن عائلة كبيرة ، فلا يمكنك أن تبقي سكرتيرة إلى الأبد ، مهما خلع عليك مديرك من ألقاب مدويَّة . كذلك لا يمكنك أن تبقي مساعدة إدارية ، ولا اليد اليمنى التي لا غنى عنها . كانت يداي التي أحتاجها عن دون كل الأيدي . كنت أرغب أن أكون مديراً في منزلي ، ولكن الأمر أصبح روتينياً مثل دعاية الالكاسلزر . إلا أني سأخبركم شيئاً ، لقد أمسكت نفسي كثيراً قبل أن أقرر إنجاب طفل آخر ، فقد سبب لي كريستوفر الكثير من الأذى ، بقي هاورد يدق بقبضته ، على ثوب نومي يطالب بالدخول ، ولكنني تصرفت مثل عذراء . ولم أرد عليه ، ولكني لن أسامحه أبداً ، لأنه رفع قبضته علي ،حتى ولو كان ذلك من باب المزاح الرقيق . في النهاية أعتقد أنه تعب من الأمر ، ومن محاولاته الفاشلة ، لإحضار النبيذ إلى الفراش والرقص معي ، أو محاولة إغرائي والتحايل علي بالأمر . لذلك فقد جاء أمر اقتناعي بإنجاب طفل آخر ،أكثر سهولة ، كان يقول : سوف يكون كرستوفر ابننا الشاذ الوحيد بينما نحيطه بأطفال عاديين سوف نجعل أولادنا الآخرين يفوقونه عدداً .

حسناً فقد قبلت بالأمر ، كان حلاً محكماً ، كنت أفكر ماذا سيأتينا الآن ، وعدني وهو يضع يديه بين رجلي أنه سيكون طفلاً هادئاً ، وجميلاً وسوف يعلِّم كريستوفر ، كيف يكون إنساناً؟ تنهدت ورحبت بالأمر ، ومن شدة يأسي فتحت رجليّ الجامدتين ، ولكني سأخبركم شيئاً آخر ، فعلى الرغم مما تبين لي من حدقه فيما بعد إلا أنني لن أثق به مرة أخرى . فهو واحد صبي مخادع بالنسبة لي ، لقد ذهب هجراني تماماً كما ذهب خصري بعد الولادة ، إنني أشعر بذلك الآن ، وقد عاقبت هاورد على ذلك ، ومنذ أن بدأنا نضع جودي أخذت أراقب جسدي بحذر ، وأبقيته في وضع متناسق مثل طباخ لا يثق بأحد ، ولا يعتمد إلا على خلطته .

في يوم واحد ، فقدت مصباحاً كما فقدت نصف التماثيل العاجية الموضوعة ، على لوحة البيانو ، وجميع معدات الخياطة ، وفي نفس الوقت فقدت أعصابي ، بطريقة يصعب استردادها ، لدرجة أنني فكرت بأن أتناول حبة من حبوب كرستوفر ، الحمراء وأمضي إلى غير رجعة . من هو الأكثر خطورة هنا ؟ هذا الشيء الهزيل ، ذو الست سنوات ، الذي يقفز كالشيطان حول فريسته ، أم تلك الأم ، اليد اليمنى التي

لا يُستغنى عنها ، والتي تحطم المعلبات في خزانة مطبخها ، بصوت لا يسمح إلا في ميادين الرماية .

والأسوء من ذلك ، أنه حين تذهب عنه هذه الطباع لأيام قليلة ، تصفو عيناه ، ويعود رقيقاً يبتسم بهدوء ، أمام كل مصيبة تلم به مثل ممثل سينمائي ، غير مقتنع بدوره . كأن شخصاً آخر يسيطر على عضلاته ، هو لا يستخدمها الآن ، ولكنه يعيش في فجوة ، شيء ضخم معتم يبقيه بعيداً عن متناول يدي .

ليس في أدمغتنا الكثير من الخيال ، فهي مثل دائرة كهربائية ، تبدو أمامي أحياناً بالضوء الأحمر أو الأزرق أو الأخضر ، مثل أسلاك الهواتف ، ربما ترسل الإشارات هكذا بشكل أفضل . أرغب في رؤية ما يجري بداخل رأس كرستوفر ، وأحدق به ، شزراً عندما يكون منشغلاً بشيء ما (وهو في العادة لا يكون كذلك ، فهو يستطيع أن يشعر بي ،حتى لو كنت متخلفة عنه بعدة مئات من السنوات الضوئية) .

أقسم أحياناً بأن لا أعود ، وأدرس الأمر مرة أخرى ، فهو يبحث بي لأن جبهته ليست مرآة من جهة واحدة . أعد نفسي بذلك ولكني أعرف متى يبدأ التحطيم وهو يقول لي : ما الذي تنظرين إليه طوال الوقت؟ كريستوفر التنين الشرير كان يبدو ذابلاً حزيناً وشفافاً ولكني لم أتمكن من رؤية شيء .

كريسي ، كنت أناديه ، وأضع ذراعي حوله ، وهو يبدو ، كأنه لا يرغب حتى في خدش شعور الهواء الذي يتنفسه ، ربما اختلط علينا الأمر بالنسبة لي . لم يكن قد تعلم القراءة بعد ، أنا أعرف أن هذا هو السبب ، فالأمور معكوسة تماماً أو مختلطة ببعضها البعض ، مثل مشهد تكعيبي ، إذا كان يوجد مثل هذا المشهد . يرى وجهي وقمة رأسي ، في نفس الوقت ، وتبدو له الأمور مختلطة ، وغير واضحة مثل مرآة تهتز في صالة ملاهي ، ثم تتلاشى فيها الصور حتى نقطة محددة ، عليه أن يخضعها قبل أن تتمكن منه . ولكن كيف يمكننا أن نعرف ماذا يحدث له ، ماذا لو كان يرى الأمور كما نراها ، نظيفة هادئة ، كأنها ثياب خارجة من التنظيف للتو ، لماذا يبدو مشدوهاً معظم الوقت ، مثل جروٍ صغير يُشدُ من طوقه ووجهه الصغير ، مدفوعاً إلى الأمام وسط فوضى دائمة .

يأتي إليّ لمدة ثانية واحدة ، يشد على بذلته المضادة للريح ، يلهث لينطلق إلى

مكان ما وبينما أشده ، نحوي لدقيقة شدة قد تبدو علاجية لكلينا ، يقبض على ذراعي بعنف ، حتى تكاد تخال شرايينه تهتز من الألم .

ـ «دعني آخذه معي ، عندما أذهب إلى وشنطن دي سي ، في الأسبوع القادم ،» قال هاورد أخذت أحدق به وأقول «لا شك أنك تهزّر .»

«أبداً ولماذا أهزّر بأمر مثل هذا . سوف نتدبر الأمر ، سآخذه معي لمشاهدة بعض البنايات ، حالما ينتهي المؤتمر . أو آخذه إلى سميشونيان ، سوف يحب رؤية بندول الساعة العملاقة» . بدأت أتخيل عينيه ، تحومان في تلك القاعة المليئة بالقناطر حيث الصدى يتردد وينكسر . إنني مسحورة بحق من عرضية تصرفاته .

ـ «ماذا سيفعل طوال الوقت الذي تكون فيه في اجتماعك يا صديقي الشجاع؟»

ـ «آه ، سوف نتدبر شيئاً ما ، سأثقله بالكتابة .»

«هاورد! يا إلهي هل أنا مجنونة أم أنت مجنون؟ هل نعيش نحن الاثنين في بيت واحد ؟»

يأتي هاورد ويمسك بيدي ، ويضع على وجهه تلك النظرة المخادعة التي تجعلني أنسى! لعنة اللّه عليه ، لماذا تزوجته ؟ لقد نجح بأن يبقى رجلاً متوازناً ولطيفاً معظم الوقت ولكن تلك النظرة تبقى دفينة في عينيه وكأنها تختبئ وراء عامود وتختلس إليك النظر بين الحين والآخر فأشعر بأني محاصرة وأنه ليس بإمكاني أن أقاوم ، لذلك أسحب يدي من الأمر .

«ماغي» . . . يناديني محاولاً أن يأخذ يدي مرة أخرى . هذا الأخرق يظن أنهما ملكية متنازع عليها . . . «إني أمنعك من أخذه معك . سوف ينتهي الأمر بك إلى تحطيمه من أجل أن تحظى ببعض الهدوء ، إني أعرف ذلك» ابتسم لي بصبر لا يحتمل ، وقال : «إنني أعرف كيف أدير أمور ابني .»

أخرج من الغرفة وشفتاي ملويتان ، أحمل بيدي إناءً مليئاً بالفواكه لكي أقدمها للأولاد الذين يحومون حولي وحول جهاز التلفزيون الذي يهدر في الداخل بأصواته المزعجة .

في الأسبوع التالي ، يذهب هاورد إلى واشنطن دي سي . ونذهب جميعنا لوداعه في المطار ، لا أدري ما الذي قاله هاورد لكرستوفر ، ولكنه ظلَّ يصيح بينما جودي

نائمة في المقعد الخلفي ، من السيارة ، كان يقفز بوحشية مثل دب مسجون في قفص اضطررت إلى إيقاف السيارة ، على جانب الطريق السريع ، وربطه بحزام المقعد هددته ، بأن يهدأ لأنني بدأت أستعد للتخطيط للمعركة . إنه يملك بعض طباع أبيه ، وهذا ما كان يبعث في نفسي بعض الاطمئنان .

نظر إليّ باستهجان ، واستمر يبكي كأنه يغصب دموعه غصباً على الخروج ، ويركل بقدميه مؤخرة مقعدي ، طوال طريق العودة إلى المنزل .

سأسجل هنا ، المسيرة الطويلة نحو المدرسة ، التي تبعد عنا مسافة صف ونصف من المنازل ، معظم الأطفال ، الذين يذهبون إلى الحضانة مع كريستوفر ، يأتون إلى المدرسة . لوحدهم ويمرون قرب منزلنا حاملين حقائبهم ، على ظهورهم مع إطلالة الشمس الناعمة عند الساعة الثامنة ، معظمهم يسيرون بحذر وتركيز ، فقد يحذرهم ذويهم أن لا يعبروا وسط ازدحام السير لوحدهم وأن لا يكلموا الغرباء ، وأن لا يضيعوا الوقت . أستطيع أن أرى خلاصة نصائح أمهاتهم معلقة على ستراتهم ، مثل الرخصة ، أوامر صغيرة تتحول إلى عادات تتقوى مع الزمن لتدخل إلى نفسياتهم ، مثل العنبر الذي يحتفظ بما بداخله إلى الأبد .

مثل هذا الشيء لا يوجد في كرستوفر وكأنه ولد بدون جسم كيميائي أساسي ، لذلك أضطر لمرافقته إلى المدرسة ، كل يوم صيفاً شتاءً ، نائماً ، مستيقظاً . تتمدد جودي في عربتها ، رغم أنها ترغب بالبقاء في البيت ، وكذلك أنا ، بدأ الجو يبرد في الخارج ، وهذا يعني أن الصيف والخريف قد ولّيا من المنطقة . كأن رجلاً ما قد قام بتجريدهما من ألوانهما ، كما ازدحمت أصُصُ النوافذ بجثث النباتات التي تحولت أوراقها إلى اللون البني .

وتقلصت غصون الأشجار وظلالها ، كأنها عادت خمس سنوات إلى الوراء ، حتى طوب الجدران تغير ، إلى اللون الفضي ، كأن رساماً قد أتم إنجازه ، مع نهاية الأسبوع . منحه هذا اللون وميضاً كئيباً تحت أشعة الشمس الباهتة ، وراح يتلألأ بنعومته مثل امرأة أنيقة الثياب ، تدخل واثقة من نفسها إلى اجتماع عمل .

كان جيراننا آل روزنبرغ قد اشتروا براد خشبية مصقولة ، تبدو وكأنها حظيرة مشققة ، كما اشتروا برميلاً قديماً مصنوعاً من أغصان الشجر ، يصل وزنه إلى ما

يقارب المائة باوند ، يظل فارغاً ويصدر طرطقة طوال الشتاء ، ولكنه يبعد عنهم سارقي البراميل . إني أعجب أحياناً أين ستوصلني أوهامي ، وأنا أنظر من خلال النافذة الأمامية .

انطلق كريستوفر يركض . . . «ليس في الشارع» أخذت أصرخ ثم تعبت من صراخي لأني كنت على علم أنه لن يسمعه ، «إبق على الناصية يا كرستوفر ، لقد تسببت بالكثير من الخراب هناك .» كان كريستوفر يمشي متأرجحاً على باب منزل ، العروسين الجديدين في الحي ، يشد مفاصل الأبواب ويفتحها تابعته بنظري طوال الوقت ، ولكني عندما استرقت النظر إلى جودي وهي تسقط بعض فتات البسكويت على الأرض . عدت لألتفت لجهته ، ولكنه كان قد اختفى . رأيته بعد ذلك يرفس بقدمه غطائين لعلبتي معلبات ، نحو الشارع حيث يقف الحارس ، وينظر إلي كل مرة بطرف عينه . كان هذا الحارس يقف دائماً تحت نافذة ، بيت سيدة عجوز بدون أي سبب ، يبدو أن عمله كان يتطلب الوقوف هناك ! هذا إذا كان لديه عمل . تركت جودي في عربتها ، بعد أن ركزت العربة على جذع شجرة ، وانطلقت لأعيده ، لم أخبر أحداً أنني سأكبر ، لأصبح راعية أغنام ، والأسوأ من ذلك راعية لغنمة وحيدة .

وصلت إلى زاوية الشارع ، وطلبت منه على الأقل أن يمسك بيدي لنعبر الشارع ، حيث يقف الحارس ، الذي ينظر إلي دائماً بطرف عينه . وصلنا قرب منزل مسز ، كورتس وهي امرأة رائعة ، يبعد بيتها مسافة صفين عن بيتنا ، ولها عدة بنات يشبهن بعضهن البعض ، وولد يدعى أنيبال على لائحة الشرف ، من الدرجة السادسة وآخر في جزيرة ، رايكر ولكنه فاشل . وتعمل مسز كورتس جاهدة على إظهار أهمية المشاركة في المجتمع ، من أجل أن تسترضي الآلهة ، التي تقوم بتجديد مستقبل ابنها آنيبال . كنت ألاحظ دائماً سراً دفيناً خلف عينيها البراقتين ، شيئاً من العفوية اليائسة ، بينما هذا العالم يسير بأبنائها ، هي مثلي راعية بلا حظ . أنا أتحدث دائماً . أصبحت قدماي ثقيلتين ، من روتين الرحلة ، كنا ما نزال نسير على طريق المدرسة ، وكان هناك قطعة من الأرض ، على جانب الطريق ، محاطة بأسلاك شائكة ، يمتد مداها من منتصف الطريق إلى أسفلها كانت تحتوي على عشرات من السيارات القديمة المهترئة ، لا أحد يعرف من أين يؤتى بها . كانت هذه الساحة قلعة كريستر

وملعبه . لا أحد يلومه هنا لو حطم شيئاً ، لأن كل شيء فيها كان محطماً بالأصل . لسبب ما اختار كريستوفر السيارة الثالثة ، وتسلل عبر خندق من الزجاج المهشم ، ليتمكن من الوصول إلى المقود ، كان مقعد السيارة الخلفي محروقاً تماماً . (وهذا هو المطلوب للقفز) وقد تمت سرقة معظم قطع «الكروم» ، المعدنية منه ولم يبق إلا زنبركاته الملوية ، التي بدت كبقايا عظام يتدلى منها لحم عفن .

«كريستوفر . . . لقد تأخرنا لن أنتظرك أكثر» ، لكنه لا يمكن أن يستجيب بهذه الطريقة ، بل يجب أن تمد يديك إليه ، ولكن قبل أن أتمكن من استدلال طريقي إليه أشعر بثقل كهولتي وببعض القلق على الفستان ، الذي أرتديه ، كان كريستوفر قد صار خلفي ، يتصارع مع صبيين ، وليس صبي واحد ، لم يكن سبب الاشتباك أمراً معيناً ، بل نوع من تبادل التحيات . سوف أحطم رأسك قال أحد الصبية ، الذي بدا وكأنه في الصف الثاني ، في المدرسة أما كريستوفر فلم يكن يلق بالاً لرهان مثل هذا فتى يريد رأسه ، يمكنه أن يأتي ليأخذه ، ولكنه يتصارع فقط ليضع يديه على شيء ما ، ويبقيهما دافئتين . وصلت إلى باب المدرسة المشقوق إلى نصفين ، ملوثين بمياه الأمطار . رن جرس المدرسة ، كأنه صوت طحن خشن ، قفز الصبيان فوق الحاجز الهابط واختفيا . كانت نتيجة المعركة ظاهرة في شكل كشط ، على وجه كريستوفر ، ولكن على الأقل وصلنا إلى المدرسة قطعة واحدة .

قررت أن أدخل معه لأغسل له مكان الجرح ، ولكنه كان قد اختفى ، بينما أنا أوقف عربة الأطفال ، وأحمل جودي . لم يكن يهتم أبداً بأن يقول وداعاً ، ربما أن الأولاد في عمر ست سنوات لا يفعلون ذلك .

فتحت الباب الثقيل ، المؤدي إلى قاعة المدرسة بصعوبة ، بدا وكأنه باب من عدة قطع ، هذه الأبواب ليست للأطفال ، ولكن كذلك هي هذه المدرسة ، فعلى الرغم من كونها حديثة البناء ، نوعاً ما . إلا أن هندسة العمار بعد حرب ١٩٣٩ كانت قد أدركتها موصلة الغرفة بالممر الرئيسي فظهرت وكأنها سفينة تعمل على خط بحري ، أو مثل ممر في مركز روكفلر ، لا أعلم ماذا يرى الأولاد فيها .

يوجد صندوق على يسار الغرفة ، يحتوي على أغراض متفرقة للتلاميذ ، لم يلمسها أحد ، تماماً مثل كعكة السبع طبقات في مخابز الحلويات ، هذه الأرض هي

أرضي ، وتلك الأرض هي أرضك ، كلهم ينزلون ويصعدون عبر القاعات ، وكأنهم معلقون ببعضهم البعض ، شفاهم مغلقة فالمعلمة فقط هي التي تتكلم عن النظام ، والاحترام . وهي تلبس كعباً يشبه أبواط العسكر ، ربما لكي تعطي انطباعاً عن عملها . يقول كريستوفر دائماً إن المعلمين مزعوجين ويسببون له ألماً في أذنيه ، لكنه لا يشرح كيف يحصل ذلك .

ولكن ما الذي يراه عندما يتكئ بكتفه الصغير ، على الباب ، ويتنهد عند الساعة الثامنة والنصف ، ربما تعجبه تلك اللمعة ، التي لا ضرورة لها ، على الأرضية كأنها تدعوه لعمل شيء ما أو تلك العبسة القلقة ، بين العينين الواسعتين ، تنظر إليه وكأنها قادمة ، من أسفل مياه عميقة ، تراه يميل على جوانبه . وكأنه يتزلج بدون جليد ويهدم مفهوم «هذه الأرض أرضك» كالتلميذ المغرور ، الذي يبقي الباب مفتوحاً لأولاد صفه ، ولكنه بعد أن يمر آخر واحد منهم . يتوجه إلى الناحية الخطأ ، ويسرع الخطى نحو قاعة الرياضة ، ليلعب طوال الصباح ، أنا لا ألومه ، لكن ليست هذه هي النقطة المقصودة ، فأنا محرومة من تلك النقاط المتمردة حديثة العهد . سيدتي إننا بهذا ، نسمح للتلاميذ الذين هم تحت السيطرة ، بأن يفلتوا من السيطرة ، وما ترين يا سيدتي أن ابنك ليس متمرداً ، ولكنه غير قادر ، ولا يمكن تصوره أو التفكير به ، بكل ما في الكلمة في معنى ، أمسكيه قبل أن نفعل له ذلك . تأخرنا بالتأكيد ، فقد تفرقت صفوف التلاميذ ، كل إلى غرفته وأخذت أصواتهم تهدر كالمواتير ، وقفنا أنا وجودي دقيقتين ، لكي نتعود على المكان ، كان رأسها ينام ثقيلاً ، على كتفي والمكان مزدحماً بالأطفال ، الذي يعدون حول معلميهم كالفئران الصغيرة . لقد كنت مثلهم لسنوات عدة ، كنت هادئة ، ولكن ميالة للمساعدة أمحي اللوح دائماً . وهذا كان يقضي أن أمضي بضعة دقائق ، أدق محاتين ببعضهما البعض ، ليطير غبارهما بين الدرس والدرس التالي . كنت أفضل القيام بتلك الأعمال الحسنة ، كل النهار ، على أن أرافق أمثال كريستوفر ، أني أرى نفسي تماماً ، أركض في الاتجاه الآخر ،حينما أراه قادماً نحوي . من إحدى هذه القاعات الضيقة .

هذه القاعة ، تشبه تلك القاعات التي تربيت فيها ، إلا أنها محدثة بعض الشيء ، فدوشات الحمامات تبلغ منتصف الطريق ، بصمت والأنابيب مهجورة مثل نفق كوينز

وسط البلد . لن ألقى الترحاب في غرفة كريستوفر ، فهناك دائماً ذلك الشعور ، الذي يهيمن عليك ، ويحاصرك دائماً . بأن الأهل الذين يأتون إلى هنا هم جواسيس ، أو أنهم جاؤوا يشتكون من شيء ما . أنا شخصياً اقتنعت من الشكوى ، بعد أن تم إبلاغي ، بأن ابني بحاجة حقيقية إلى معلم يتفرغ له فقط ، إن لم يكن لخدمته ، فلضمان سلامة المعدات الدراسية ، وسائر المستهلكات التي لا يعتبر هو جزء منها .

اختفى كريستوفر داخل الصف ، رأيته من خلال ثقب الباب ، كانت الغرفة أنيقة وجديدة ، ولا تختلف كثيراً عن أي غرفة ، في الصف الثالث بكل حروفها الأبجدية ، ودعواتها إلى الوطنية والفضيلة . كان مسموحاً للأطفال أن يستخدموا لوناً واحداً في وقت واحد ، قلة منهم فقط يستخدمون لونين ، لا بد أنهم الأطفال المهذبون ،الواعدون الذين يرتدون ثياباً منمقة . أما كريستوفر فقد منع بلا شك من استخدام زاوية الدهان ، (الاقتصاد المدرسي . . . يا إلهي يا ماغريت ، المطبخ ، الحمام ، غرفة النوم والبحث عن قطع الزجاج المتناثرة بين الأنابيب كالألغام .

قامت السيدة سيبوري بتفقد أيادي الأطفال . كان الأطفال يقلبون أياديهم ، بالدور ثم يتراجعون إلى الخلف عندما ينتهي التدقيق . يا إلهي لقد أرسلت السيدة سيبوري كريستوفر وطفلاً ، آخراً إلى المغسلة لينظفا أيديهما ، أنا أشعر تماماً ، أنهما سوف يدخلان أيديهما في الصنبور ، ثم يقومان برش الأطفال الآخرين بالماء ، في آخر الغرفة ، لن أجرؤ على الدخول هناك لأعرِّف عن نفسي .

كانت السيدة سيسبوري من نوع المعلمين ، الذين يصفون التلاميذ ، الملونين على جانب ، واحد من الغرفة ثم يتحدثون عن التفرقة العنصرية ، فيضخمون الأشياء ، ويقلبون الموازين ، ويغيرون الذرعان مكان الأقدام . أنا أراها الآن قد صنعت من كرستوفر طفلاً ملوناً ، فخرياً كواحد من هؤلاء البورتوروكيين ، الصعبي المراس . كان الأطفال يتجمعون هناك تحت المراقبة الخاصة ، لمساعدة المديرة التي لا تراقب شيئاً ، وهي مساعدة غير محبوبة أبداً بالنسبة لي فهي شابة صغيرة ترتدي فستاناً طويلاً ، يدوس عليه الأطفال دائماً عندما تنحني نحوهم لذلك ، فهي لا تنحني للأولاد ، وجدت نفسي أحشر بين نوبة غضب أولية ، انتابتني وبين شعوري ، بالخجل مما أعتبره غروراً وعجرفة . ولماذا أغضب ، لأنهم غيروا موقعه من الأبيض ، إلى الملون

إنهم هم الأشخاص نفسهم ، الذين يخاف منهم كرستوفر ، الأطفال المعرضون للضرب ، والإساءة . محبوبون ولكنهم جوعى ، تهاجمهم الفئران وهم نيام .

ولدي الطفل المدلل . الذي أطعمه أفضل الأطعمة ، انقلب حزيناً كأن روحه سرقت منه . سأعطيه إجازة هذا الاسبوع ، ولن أرسله إلى المدرسة ، وسيكون هذا في مصلحته .

أنظر إليه الآن ، وهو يقفز بطريقة دائرية ، مع باقي الأطفال . تحت مراقبة هذه المساعدة الوديعة ، ثم يطلق أصواتاً مثل الغربان ، أراه وهو يصدم جسمه بستة أطفال ، معاً فيقعون ويقع معهم . يفعل ذلك بلا سبب ، لا أدري هل الغرفة تدور بهم؟ وتسبب لهم الدوار أم أنه كان يحاول أن يلتقط شيئاً ما؟ ، يستدير الباقون نحوه ويبدؤون بالصياح ، ثم يتكوّمون عليه ، كأن الأمر نوع من الرياضة . . . تتراجع المساعدة إلى الخلف حتى لا يدوسوا على فستانها .

فجأة يبرز ولد ثقيل الوزن ، غامق البشرة ويطأ بقدمه على رقبة كرستوفر ، يحاول كرستوفر التملص منه ، مثل رجل في منصة الإعدام ، أشيح بوجهي ثم أرى السيدة سيبوري تقترب . ينظر الجميع إلى عينيها القاسيتين والمبتهجتين بنفس الوقت ، كنت دائماً بارعة في ابتداع هذه النظرات ، كانت تكسبني شعوراً جيداً .

يهدأ كريستوفر قليلاً ، تمسك به بخشونة وتخلع طوقه الأبيض ، دون أن يقوم هو بالنظر إليها ، ولكن شيئاً يبدو مكسوراً ، في هذا الصبي المتحدي والمتمرد . وجدت نفسي أبكي ، بصمت مثل كل شيء حولي . أشعر بالدم ينفر إلى وجهي . هذه المعلمة هذه الغريبة ، وعصابتها يسببون الإحباط لابني ، يعلمونه كيف يخسر ، أو يعلمونني ، كيف أربح؟ ابني صار في آخر العد يتنفس براحة وبلطف ، لولا أصابعه التي تنتفض بقوة ، على جميع جوانبه . بينما أقف في الخارج ، أحمل طفلتي النائمة على كتفي ، وأشعر أنني خائنة ، فهو يراني من خلال مرآتي ، ذات الاتجاه الواحد . وهو على حق فأنا ساحرة شريرة ، كل يوم يطأ هؤلاء الأشخاص على عنقه ، وأنا أراه الآن ولكنه لم يخبرني عن ذلك أبداً . أجهش بالبكاء ولكنني لا أستطيع أن أتحرك .

١٩٧٦

أليس آدامز

وردوخلنج

عن «ذي نيويوركر»

قبل سنوات عديدة ، في ليلة ماطرة من ليالي بوسطن الربيعية ،كنت أقضي معظم أوقات المساء بعد المدرسة في غرفة المعيشة بشقتنا المحشوة بالتحف الأثرية القديمة بشارع الأرز ، كنت أدون ما نقله لوح الأويجا لأمي . أما أبي فكان أيرلندياً مشاكساً ومدللاً ، عمل في الهندسة لبعض الوقت ثم هرب إلى نيواورليانز مع فتاة ما ، ظلت أمي تتأمل في لوح الاويجا عله ينبئها عن إمكانية عودته .

وفي ليلة عاصفة من ليالي شهر أيار ، أخبر اللوح أمي التي كانت تتشاءم من ليالي العواصف ، أن تتنقل جنوباً إلى ولاية كارولينا الشمالية وتأخذ معها جميع التحف التي جمعتها وتفتح بها دكاناً في إحدى البلدات الصغيرة هناك . فعلت أمي ذلك وبعد بمدة قصيرة ، ولأول مرة في حياتي وقعت في الحب . ولكنه كان حباً لمنزل وعائلة وثلاث أشخاص ومنطقة ريفية خلابة .

ربما لا تحظى الظروف الضرورية التي تسبق الوقوع في الحب بأي اهتمام وأعني الحالة العقلية . أو المكان الذي يسبق رؤية الإنسان لمحبوبته سواءً كان شخصاً أو منزلاً أو قطعة أرض ، لكن في حالتي أنا كنت أعتبر ليالي بوسطن المعتمة على أساس ، أنها ظروف تنتهي بالوقوع في الحب إلا أنني أدركت بعد ذلك أن هناك ظروف أخرى هامة أيضاً مثل الملل الوظيفي ، أو الخوف من التقدم في السن قد تدفع لذلك .

كانت البلدة التي اختارتها أمي تدعى مارغوت، وهو اسم يشبه اسمها في المعمودية «مارغورت» . وقمنا باستئجار بيت صغير يقع في شارع خلفي جميل . وكان للبيت شرفة داخلية وضعت فيها أمي كل تحفها، علقت لافتة متواضعة على المدخل الأمامي كتب عليها - مارغوت - أنتيكات . كان المحل يفتح بعد الظهر فقط، أما في الصباح وأيام الآحاد فكانت أمي تتجول بسيارتها البويك القديمة الواسعة لتبحث عن أثريات عتيقة في مخازن المنطقة ومزارعها وحظائرها . كانت رائدة في مثل هـذه الأمـور إذ إن أحداً لم يفكر بفعل شيء مثل ذلك من قبـل .

ورغم موهبتها الهجومية في الشراء والتي كانت تشعرها بالإحراج في بعض الأحيان، إلا أنها لم تفكر أبداً بتقديم عروض لشراء أثاث مستعمل في غرف العائلات . كنت أتجول معها في الأسابيع الأولى لعملها وتملكتني الدهشة لرؤية المشاهد الطبيعية الخلابة، مثل الضفاف الطينية الحمراء التي تقودك إلى غابات صغيرة تغطيها أشجار الصنوبر الكثيفة، والممرات المتعرجة الرحيبة ذات اللون البني والتي تختبئ خلف كروم العنب المتشابكة بعضها ببعض، والمساحات الجرداء المظللة التي تنهض فيها منازل صغيرة قديمة والدجاجات المبعثرة والأطفال الحفاة الذين يحدقون بك كلما اقتربت منهم .

- مرحباً . . . أنا أدعى السيد كيلفور - مارغوت كيلفور وأنا مهتمة بشراء أثاث قديمة صور عائلية وفضيات .

كانت مارغوت امرأة شديدة الشقار ترتدي ثياباً حريرية، وأحذية ذات كعب عالي تسبب صوتاً أجشاً ودوداً، أما أنا فكنت فتاة في العاشرة من العمر، هزيلة باهتة اللون وفضولية، وكنت أرتدي ثوباً أزرقاً من الكتان مطرزاً عند الصدر . فقد كانت أمي تؤمن دائماً بأهمية الثياب الجديدة مهما كان الأمر .

أما في أيام أخرى فكانت مارغوت تقول : أنا ذاهبة لألقي نظرة على ما أدعوها كتبي لماذا لا تذهبين في نزهة أو تفعلين شيئاً ياجين؟

كنت أفعل ذلك، وأسير في الشوارع الناعسة المغطاة بأوراق الشجر، وعلى الممرات الجانبية المرصوفة، وأمر في طريقي بمنازل أشعر أنها رائعة ومثيرة للاهتمام تماماً كما الكتب التي لم نقرأها بعد . وكنت أتخيل كيف تسير حياة العائلات

بداخلها؟ أما الشارع الرئيسي المليء بالدكاكين فكان أقل إثارة لاهتمامي في معظم الوقت ، إذ يتألف من بنايات طوب بطابقين ، الطابق الأول يحتوي على مخازن للبضائع الجافة أما الطابق الثاني فتشغله مكاتب المحامين وأطباء الأسنان ، كان هناك دكان لبيع الأدوية والعطور يحتوي على طاولات رخامية ومقاعد ذات شبك يمكن للسيدات أن يسترحن فيها ويشربن الكوكا كولا ، وقد أصبح هذا المحل فيما بعد مكاناً محظياً لمارغوت .

أما أنا فأفضل المناطق المدنية مثل كنيسة الأبرشية القديمة المغطاة بالجص الأصفر المتصدع ، والتي تعود إلى عهد ما قبل الثورة إضافة إلى تماثيل أخرى تمثل الذين سقطوا في الحروب الأهلية ، وقد نبتت حولها الشجيرات الزاحفة والمعرشة مثل الليلاب وعشبة فرجينيا .

هذه التماثيل تعود إلى أعوام الأربعينات من القرن العشرين ، وشهدت البلدة بعدها تغييرات هائلة فحصلت المصانع فيها على عقود دفاعية لصنع المظلات العسكرية . كما تم إنشاء مدرسة لجنود البحرية تهتم بشؤون ما قبل الطيران تتبع للجامعة المجاورة للبلدة ، ولكنها في ذلك الوقت كانت ما تزال بلدة وادعة لم يلمسها أحد بعد .

لم أكن أشعر بالوحدة في نزهاتي البرية ، ولكن مارغويت ظلت قلقة من هذا الأمر ، وقادها تفكيرها الفضولي إلى الاقتناع بأن شراء دراجة يساعد على تخطي هذه الوحدة . وظهر لي فيما بعد أنها كانت على حق . لذلك ذهبنا إلى سيرز واشترينا دراجة زرقاء اللون بعجلات نفخ ، وبدأت فوراً باستكشاف أطراف المدينة والمناطق الريفية حولها .

أما البيت الذي وقعت بحبه فكان يبعد ميلاً واحداً عن البلدة ويقع على رأس تلة . كان بيتا حجرياً تنمو الورود المتشابكة بكثرة وتمتد حول ساحته . وهناك ورود حمراء وبيضاء تتسلق حتى سطح شرفته الأمامية . كان السطح ملجأً لي ولهاربيت نقصده دائماً لتبادل المعلومات حول موضوعات جنسية خاطئة . كانت هاربيت فارر ابنة العائلة التي تعيش في هذا البيت . وكان على أحد جوانب البيت جناح ملحق ذو نافذة واسعة تمتد على شرفة طويلة ينحدر بعدها بساط من العشب الأخضر

وينتهي بشكل تدريجي إلى شجيرات ورد عند آخره . كانت ورود جورية صفراء وورود الرودندرون وشجرة خوخ بعدها حدود غابات الصنوبر والبلوط والأرز . والمشهد بمجمله خلطة غنية كريهة ، مهملة وغامضة بعض الشيء ، أدت إلى تحريك مشاعري نحوه بعمق .

كنت أراقب كل هذا كلما أوقفت دراجتي على قمة تلة بيضاء مغبرة ، وذات يوم برزت من الباب الأمامي امرأة صغيرة الحجم . ممتلئة الجسم ، مشدودة القوام . رأيتها تتوجه نحو حلقة ورد صغيرة تحت النافذة وتجلس هناك بلا حركة . والمرأة تدعى أميلي وهي أم هاربيت وكانت تشكو آلاماً شديدة في الظهر لم يتم تشخيصها أبداً ، وتضع ربطة محكمة الشد حول ظهرها . كانت أكبر عمراً من أمي مارغويت ، وشعرها الأبيض يبدو رائعاً لولا أنه قص بطريقة خاطئة في صالونات الثلاثينيات للشعر والتي تشبه محلات الجزارة . منذ البداية سحرت بذلك التباين الواضح بين أميلي ومارغويت وأظن أنني انجذبت قليلاً إلى كثرة تناقضاتها فقد كان جسمها مصقولاً بطريقة وقورة رغم أنها كانت تجلس في مكان قذر . كان شعرها رائعاً ولعل شعر عائلة فارر كان من أول المواضيع التي ذكرتها لمارغويت بعد أن أصبحت صديقة للعائلة . وعلمت فيما بعد أن أميلي كانت تمتاز بتناقضات أخرى كثيرة فقد كانت عضواً في الكنيسة الأسقفية ولكنها تعطي صوتها الانتخابي دائماً لنورمان توماس وتنتمي إلى جماعة نسائية وتحاول دائماً تأخير وجبات الغداء على زوجها المتأخر دائماً

– «لا أظن انها صبغة واحدة بحياتها» كنت أقص لمارغوت بطريقة لبقة عن شعر أميلي .

– «طبعاً» . كانت مارغوت دفاعية فأنا لا يمكن أن أصبغ شعري أبداً حين يكون لونه الطبيعي لائقاً ومناسباً لي .

في ذلك الوقت كانت أحوال مارغوت آخذة في التحسن وعملها جيد ، ووصلتها أخبار من أبي الذي بدء يرسل شيكات قيمة من نيواورليانز ،حيث قال : أنه عثر على عمل في إحدى شركات النفط . ظلت أمي مع ذلك تسأل لوح الأوريجا إن كانت ستراه ثانية ولكن سؤالها أصبح أقل إلحاحاً .

في المرة الثانية التي مررت فيها بجانب البيت رأيت فتاة تجلس على الشرفة

الأمامية وتقرأ كتاباً . وعمرها من عمري تقريباً التفتت نحوي وابتسمنا لبعضنا البعض وفي وقت لاحق ، وأظنه كان صباح سبت من شهر حزيران ، نهضت من مكانها واتجهت نحو الطريق حيث أقف بحجة مشاهدة الحقول الممتدة والطريق السريع ، الذي يلتف حول الساحات الخضراء الكثيفة المحاذية لذلك الأخدود والأشجار البعيدة التي تبدو مظلمة عبر التلال .

«إني املك دراجة تشبه دراجتك تماماً» . وجهت كلامها نحوي بلا مبالاة وكأنها تريد أن توحي أنها لم تأت إلى هنا خصيصاً لمقابلتي .

منذ سنوات وربما منذ ذلك الوقت أصبحت أجد نقيضي في أصدقائي وكنت أسير على خطوات مارغوت بعناد . بدأت أنقلب إلى شقراء ممتلئة وأحمل بعض مشاكلها . أما هاربيت فكانت غامقة اللون قليلاً وباردة وشعرها طويل رمادي ، كانت قد بدأت تنقلب إلى فتاة جميلة .

– هل ترغبين بالدخول « قالت لي » إن لدينا كعكة ليمون لذيذة؟

كان البيت مزدحماً بخليط غريب من الأثاث ، ألقيت نظرة خاطفة على غرفة المعيشة كان فيها أريكة رثة تجاورها طاولة عتيقة جميلة ، سرنا نحو غرفة الطعام التي تحتوي على طاولة قديمة مصنوعة من خشب المهاجوني ، ومحاطة بمقاعد رقيقة يغلب على تصنيعها خشب أشجار الفاكهة . انتابني الرعب حين تخيلت مارغوت هنا بعينيها الفاحصتين وبصوتها الشمالي الأجش ، تقدم عروضاً لشراء الأثاث . أما الجدران فكانت مزدحمة بالصور الزيتية التي تحتوي على مناظر طبيعية منذ القرن التاسع عشر . كانت الرفوف تفيض بالكتب على طول الجدران ، تمنيت لو كان بإمكاني أن أنتقل إلى العيش هنا فوراً .

تناولت قطعة من كعكة الليمون على الشرفة الأمامية ، وأمام تلك المشاهد الطبيعية الخلابة ما زلت أذكر طعمها حتى الآن ، كانت خفيفة حلوة المذاق وذات لون ليموني براق ، شربنا معاً كأساً من الحليب البارد وجلسنا قليلاً ثم شربنا كأساً أخرى وتناقشنا حول الكتب التي نحب أن نقرأها .

كان كلانا في عمر نستطيع البدء بقراءة كتب البالغين ، وصرنا نتناقش فيما بيننا على من يقرأ كتباً أكثر وكانت هاربيت تكسب الرهان بسهولة ، لأن أمها كانت تعمل

في مراجعة الكتب لصالح صحيفة محلية ابتاعت عدداً كبيراً من كتب شتاينك وتوماس وولف وفرجينا ، وولف واليزابيث بوين . إلا أننا عثرنا فيما بيننا على شيء مشترك وهو الحماس لقراءة كتب عن الأطفال الإنجليز وياله من ذوق راق .

– لقد كانت أطيب كعكة ليمون أتناولها ! أخبرت هاربيت فقد بدأت أتبنى شيئاً فشيئاً طريقة مارغوت المعبرة في الحديث .

– إنها جيدة . قالت هاربيت بهدوء ثم أضافت هل يمكننا أن نذهب بالدراجات إلى تلة لوريل؟ انطلقنا نحو الطريق الالتفافي السريع وتوقفنا عند الجسر ، ثم استدرنا عبر طريق ضيق قذر مملوء بالحفر ، يمر عبر الأخدود باتجاه الغابات الكثيفة الغريبة والمغطاة بأشجار الصنوبر الغليظة ذات الغصون المتدلية وأشجار القيقب والعليق وشجيرات رحيقية أخرى . كان الطريق في بعض الأوقات مسدوداً بتلك الأشجار ، وكنا نضطر أن ننزل عن الدراجة ونقودها فوق الطين والرمل والحفر والشقوق المتناثرة عبر الطريق ومع ذلك كنا نستمر في النقاش حول الكتب الأدبية دون انقطاع .

– إني أحب فرجينيا وولف

– نعم انها رائعة تستخدم استعارات مدهشة .

كنت أعتقد أن هاربيت إنسانة ذكية متوازنة وجميلة ولعلها من أجمل الفتيات اللواتي عرفتهن من جيلي شعرت أنها يمكن أن تصبح أي شيء كاتبة ممثلة مراسلة أجنبية (هذا بسبب كثرة حضوري للأفلام) ولم أكن مخطئة أبداً وأصبحت فيما بعد شاعرة مشهورة . وصلنا إلى شاطئ صغير قريب من مكان يتسع فيه الأخدود ، ويمر فوق بعض المنحدرات المائية الضحلة ، أما على الجهة الأخرى فكان هناك صخوراً رمادية شاهقة تنمو بين حجارتها أشجاراً معزولة وملتوية وشجيرات خضراء كثيفة الأوراق ، أما غرة قمة تلة لوريل فكانت وردة الروندرون .

خلعنا أحذيتنا ونزلنا في المياه الدافئة وقاع الماء يدغدغ أطراف أقدامنا مما جعلنا نضحك مثل الأطفال رغم أحاديثنا الأدبية المتقدمة .

في ذلك الوقت كانت مارغوت منهمكة بالعثور على أصدقاء جدد ، وعلى عكسي تماماً فانت تبحث عن أشباهها من الأصدقاء ، وليس عن نقائضها واكتشفت نوعاً من القرابة مع امرأة تدعى دوللي موراي وهي أرملة غنية من مدينة ممفيس ، كانت

تشارك مارغوت العديد من معتقداتها الخرافية مثل الخوف من العواصف الرعدية والإيمان بلوح الأوريجا . كانت تكبر مارغوت بعشرة سنوات وتصبغ شعرها باللون الأحمر كانت امرأة كريمة ولكن مزعجة ومتميزة . كانا يحتسيان كؤوس الجن ويتجاذبان أحاديث النميمة معاً ، كانتا قد تعارفتا في مخزن الأدوية فيما كانا يشربان الكوكاكولا ، ومنذ ذلك الوقت أصبحتا تذهبان إلى البلدة المجاورة لتناول الطعام في المطعم ، كانت جرأة منهما أن تذهبا بدون رفقة أحد إلى مكان بعيد مثل هذا .

كنت متأكدة أن عائلة فارر وهي عائلة تقليدية محافظة ، اعتبرتني طفلة مهملة وكنت دائماً متوفرة لتناول الوجبات معهم والمبيت ليلاً عندهم ، ولكني اكتسبت الكثير من الخبرة من هذه الطريقة في الحياة ، ببساطة شعرت بالحرية ، وللحقيقة أود أن أسجل موقفاً مهماً لمارغوت كأم ، إنها لم تكن تشعرني أبداً بالذنب لأنني كنت أفعل ما اريد ، كم من الأمهات يمكن أن يقال عنهن هكذا .

غابت عن بالي تماماً تلك اللحظة التي قابلت فيها إميلي ، أستطيع أن أتذكر فقط محضرها اللطيف وصوتها الناعم وكيف كنت أبادلها الشعور بالمحبة كان شعرها أبيض جميلاً وعيناها عميقتين مغطستين باللون الأسود وفمها عريضاً تتحرك جوانبه معبرة عن كل ما تشعر به من تسلية أو اهتمام أو ملل أو ألم ، لم أشاهد بحياتي فماً مؤثراً مثل فمها .

كنت أسلي أميلي وأجعلها تبتسم وتجدني شيئاً غريباً ، فتاة شمالية متحمسة وعنيفة ، تستخدم كلمات محظورة مثل الله ! اللعنة ! .... على العكس من الفتيات الجنوبيات المحتشمات اللواتي كانت هي تمثلهن مثل هارييت تماماً .

كانت تحدثني كثيراً وتشرح لي معلومات عن الجنوب لم أكن لأعرفها لولاها مثل «أن سكان فرجينيا يشعرون بالترفع على غيرهم» ، كانت تردد بصوتها الفرجيني اللطيف ، وتضيف : بعض الأشخاص في عائلتي أصيبوا بالصدمة عندما تزوجت رجلاً من كارولاينا الشمالية وجئت للعيش معه هنا شخص بروتستنتي أيضاً طبعاً هذا لا يعتبر سيئاً مثل المعمداني مثلاً كانت تتحدث برفق ولكني كنت أعلم أنها في داخلها تتفق مع باقي أفراد عائلتها وماذا عن الكاثوليك ؟ سألتها فقط لكي أطيل الحديث ما استطعت .

كانت هارييت عند طبيب الأسنان وأميلي تجلس على مكتبها تجيب على بعض الرسائل ، أما أنا فكنت مستلقية على الأريكة بجانبها نتأمل كلانا المنظر الكاسح أمامنا ، إلا أن سؤالي لم يبد تماماً بلا معنى بما أن والدي جون كيلفور كان كاثوليكياً مرتداً . بينما كانت مارغوت مسيحية علمانية على طريقتها .

– نادراً ما كنا نعرف أحداً من الكاثوليك ، ضحكت أميلي وتنهدت إنني أفتقد فرجينيا أحياناً كثيرة ، أتعلمين عندما أذهب إلى هناك أشعر بالفرق في اللحظة التي أعبر فيها الحدود ، لقد قابلت عدة أشخاص من كارولاينا الشمالية وفهمت منهم أن الناس هناك يشعرون بنفس شعور سكان ولاية فرجينيا (طبعاً كانت تجد ذلك غير منطقي) .

– وماذا عن غرب فرجينيا ؟ تينيسي مثلاً ؟

– لم يبد لي أنهم جنوبيون أبداً ، كذلك فلوريدا وتكساس لا تبدوان كذلك .

تقول دوللي أن السيدة فارر امرأة متكبرة سألتني مارغوت عن الموضوع فأجبتها

– بطريقة ما «نعم» كنت أحاول بحياء أن أقلد هارييت .

– آه

– «أخبرت أميلي مرة أنني طالما رغبت أن أخبرها ومنذ اللحظة الأولى التي وقعت عليه عيناي ، أن شعرها جميل جداً وأنها يجب أن تتركه ينمو ، ضحكت أميلي ، كانت تضحك دائماً عندما أتكلم ولكنها في نفس الوقت بدت مندهشة بل ومصدومة فهمت أن ما قلته لم يكن مخالفاً للذوق ولكنها لم تكن معتادة على تلقي ملاحظات من أحد حتى من نفسها ، لم تفكر أبداً في شعرها أجابتني بحيرة : «ربما سأفعل ذلك» .

لم تهتم أميلي أبداً بالثياب التي ترتديها ، كانت إنسانة عملية ترتدي ثياباً قطنية ومعقولة وكعوباً منخفضة وجسمها ضئيلاً وبدون أي بروز ، ونادراً ما كانت تضع المكياج على وجهها الملوح بالشمس والريح ، وأخيراً كنت أعجب لقدميها الجميلتين لكن ماذا عن لورنس ، البروتستنتي المسيحي القادم من كارولاينا الشمالية والذي من أجله تركت أميلي أهلها وولايتها؟ لورنس رجلاًصغير الجسم ذا ملامح غامضة ودقيقة (كانت هارييت تشبهه تماماً) ويعمل كمحامٍ ، لكنه في نفس الوقت كان ضليعاً

بالأدب ، خاصة بالأدب الإنجليزي في القرن التاسع عشر ، كان مؤدباً رغم لسانه اللاذع في بعض الأحيان وله عينان حزينتان وضحكة غريبة مرتفعة يطلقها فجأة . كأن يبدو أصغر من أميلي بعشرة سنوات بينما الفرق بينهما لم يتعد السنتين .

- حسناً قالت مارغوت وهي تجلس في الشرفة على كرسي يعود إلى عهد الملكة آن في صباح حار في شهر تموز ، وسمعت بعض الأخبار الهامة عن أصدقائك ، كانت مارغوت قد قابلت هارييت وأعجبت بها ، وكذلك كان الأمر بالنسبة لهارييت ، كانت مارغوت تجعل هارييت تضحك وتطري دائماً على شعرها الناعم ولسبب ما ، ربما غريزي لم يلتقي الأهل بعد . ربما لأن أميلي بقدراتها الجنوبية على الرصد الاجتماعي أدركت أن مثل هذا اللقاء قد يكون خاطئاً .

في ذلك الصباح كنت أنا وهارييت نخطط للذهاب في نزهة إلى الغابة ، التي تقع عند الجزء الصخري الحاد من تلة لوريل وأجبرت نفسي أن أبقى مصغية أو نصف مصغية لقصة مارغوت عن العائلة .

- حسناً ، يبدو أنه منذ سنتين خلت وقع لورنس فارر في حب مجنون مع فتاة شابة وجميلة والحقيقة كانت هذه الفتاة ابنة يتيمة لأحد أصدقائه ، كان حباً رومانطيقياً . وطبعاً بادلته الفتاة الحب ولكنه أحس بالذنب والأسى لأنهما لم يفعلا شيئاً حيال هذا الموضوع .

لم تعجبني هذه القصة كثيراً بل جعلتني أشعر بالغموض ، وعدم الراحة وأعتقد أنني أنا ومارغوت في لحظة ما تساءلنا لماذا نحكي مثل هذه القصة !

هل كانت مارغوت هنا تحاول الإشارة إلى بعض النواقص في العائلة التي اخترتها لتكون صديقتي إلا أنني سألتها محاولة تقليد صوت هارييت اللامبالي : هل قبلها يوماً ما ؟

- حسناً ، ربما ، لا أعرف ولكن البلدة كلها كانت تعلم بالخبر بما فيهم أميلي فارر وبظهرها المتألم ! مسكينة ! أضافت مارغوت بشعورها الصادق .

نسيت القصة فور خروجي ، لا لسبب إلا لأنها كانت تبدو غير حقيقية بالنسبة لرجل في عمر لورنس وعندما أعدت النظر إلى وجه أميلي ونظراتها إلى لورنس ، لاحظت أثراً لألم حذر لامرأة جرحت في العمق ولرجل يمكن أن يجرحها مرة

أخرى .

في تلك الأيام كان ما أدهشني أكثر في عائلة فارر هو أدبهم الجم في معاملة بعضهم البعض وهو شيء لم أره من قبل عند أحد . لم يكن أحدهم لينطق كلمة جافة بحق الآخر (طبعاً لم أكن أعلم حينها عن الأزواج الذين لا يستطيعون أن يتلفظون بكلمات قاسية) . ربما بسبب وجود عامل الخطر ، كان سقف الشرفة الأمامية من أكثر الأماكن المحببة إلى نفسي ، ونفس هاربيت حيث كنا نجلس معظم ليالي الصيف ، كلما دعيت للمبيت عندهم . كان أكثر ما يعجبني هدوء الريف الذي لم يكن يحطمه صيفاً سوى نقيق الضفادع القادمة من أسفل الواد أو عواء كلب من بعيد . هناك بين عبق روائح الورود وعلى لوح خشبي عالي الصرير كنا نتحدث وهاربيت حول موضوع هام لكلينا ، موضوع الجنس .

– لقد قالت لي إحدى الفتيات اللواتي أعرفهن أنك إذا مارست الجنس كثيراً يتوسع وركاك .

– يقول ابن عمي دنكان هذا الأمر يجعل الأولاد يشعرون بالقوة عندما يفعلونه .

– إنها تؤذي النساء كثيراً وخاصة في البداية ولكني أعرف فتاة من سانتابربارا وأخبرتني أنها رأت بعض الفيلبينين يفعلونها بدون يتأذوا .

– إن الملونين يفعلونها أكثر من البيض .

– طبعاً لديهم كل هؤلاء الأطفال وهكذا يفعل الكاثوليك أيضاً في بوسطن ، تملكتنا هستيريا الضحك ، ضحكنا كثيراً لدرجة أن أميلي سمعتنا وصارت تنادينا لنذهب إلى فراشنا وصوتها كان يجيء دافئاً مسلياً فكانت تحب ترانا نضحك ، وكانت أميلي تعشق مدى تحمسي لكعكة الليمون وتتحداني دائماً حول الكمية التي أستطيع تناولها ومع ذلك استمرت في تزويدي بها . لم تكن طباخة ماهرة ، كان لديها خادمة سوداء تدعى افيلين تقوم بكل الطبخ .

– مرة واحدة رأيت تلك العائلة الوديعة تتحطم ، رأيت الأشخاص الثلاثة يقفون بصلف في وجه بعضهم البعض ، مثل شظايا زجاج محطم ، لم أعد أتذكر السبب وراء هذا الانفجار الرهيب .

– كنا نحن الأربعة نجلس مثل العادة على مائدة الغداء ، كانت أميلي تجلس على

رأس الطاولة وعلى يمينها الجرس الفضي الذي كانت تستدعي به ايفلين لتنظيف المائدة أو لإحضار لون جديد من الطعام ، كنت أجلس أنا وأميلي مقابل بعضنا البعض أما لورنس فكان يجلس مقابل أميلي ويبدو دائماً وكأن مقعده مؤقت مثل ضيف معزز أو طفل مدلل . كنا نتكلم بهدوء وأكاد أتذكر بوضوح تلك الكلمات التي تراكمت لتؤدي بالتدريج إلى ذلك الانفجار وأيضاً إلى خروج الأمر عن السيطرة . أخذت الأصوات تتعالى ثم هرعت هارييت إلى خارج الغرفة واحمر وجه أميلي وسقطت أطراف فمها نحو الأسفل أما لورنس فبدأ يحاضر بصوت بارد عن فوائد قراءة كتاب ترولوب كان من المفترض أن أشاركه الشعور بأن شيئاً لم يحدث ولكني بالكاد كنت أصغي إليه فقد وقع الأمر علي وقوع الصدمة .

هذا الانفلات الفجائي للعنف ، والإفشاء الرهيب للمشاعر العميقة كاد يوحي إلي بأن عائلة فارر لم تكن مثلما تخيلتها تلك العائلة المعصومة عن الغلط ، انزعجت كثيراً وبشكل أناني ولكني سرعان ما شعرت بالراحة عندما مر كل شيء بسلام .

خلال فصل الصيف كان لوح الأوريجا يتهرب من أسئلة أمي أو يجيبها بكلام غير مفهوم .

- هل سأرى جون كيلور مرة أخرى في هذه الحياة ؟

- نعم . . . كلا . . . ربما .

قالت لها دوللي «يا عزيزتي يعني أنك لم تعودي تحتاجين إلى اللوح ، الآن يجب عليك أن تبدئي التفكير بقلبك وبغرائزك منذ الآن .»

استمعت مارغوت إلى نصيحتها ووضعت اللوح جانباً ثم كتبت إلى جون تطلب الطلاق أخذت ألاحظ بعد ذلك ، وفي ليالي آب الشديدة الحرارة أرى رجلاً يدعى لاري أصبح يرافق مارغوت ودوللي مراراً في نزهاتهم الصغيرة . ولاري رجل أحمر الوجه يعمل في بيع وشراء العقارات وقد ذكرني كثيراً بوالدي .

قلت الكثير لمارغوت ودهشت لردة فعلها الغاضبة - إنهم لا يختلفون عن بعضهم البعض فكلهم على النقيض . لاري رجل جنوبي - إنك لا تصغين إلا لعائلة فارر هذه .

لا بد أورد هذه الملاحظة حول غيرة مارغوت من عائلة فارر .

فقد حدث في فترة تالية من حياتي ، أني كنت منزعجة من علاقة أقامتها احدى بناتي مع أفراد عائلة أخرى . لم أكن منطقية في هذا ، فقد كانت عائلة موسيقيين موهبين مثلها تماماً ، ولكن صديق حكيم أخبرني باستطاعتنا جميعاً نتعلق بأكثر من مجموعة واحدة من الآباء والأمهات لأن علاقتنا مع المجموعة الأصلية حميمة جداً وتحتاج إلى بعض التشتيت . ومارغوت لم تكن تملك أصدقاء عاقلين ! طبعاً عدا دوللي السخيفة .

مر الصيف ، بعد أن أشبعنا غباراً وحراً كما كان لورنس يلمح أحياناً وذيلت الورود على السقف ، وعلى حوافي الطرق وانكمش الأخدود وترنحت الشجيرات الرحيقية على أعواد الكروم ، ومرت أسابيع عديدة ولم يهطل المطر وفجأة . وفي فترة بعد الظهر داهمتنا عاصفة رعدية مظلمة . كنا وهاربيت نجلس على الشرفة ونراقب بداياتها . كانت الغيوم السوداء تتلبد في الأفق ، تبعتها أصوات الرعد وأشعة البرق ، ثم جاء المطر الذي تعبق بعده روائح أوراق الأشجار النظيفة والأعشاب الرطبة ، كنت أعلم بأن مارغوت ترتعد الآن خوفاً من العاصفة ، فكرت بدعوتها ثم تذكرت أنها لا تكلم أحداً على الهاتف خلال العاصفة وقد قالت تلك الليلة أن الهاتف رن كثيراً «ولكنني لم أظنك أنت»

- كلا

راودتني فكرة غبية بأنه قد يكون جون والدي . لماذا لا تكونين مثله وتردين على الهاتف .

- قد لا يكون هناك عواصف في نيواورليانز . وتبين فيما بعد ، أن مارغوت كانت على حق وفي اليوم التالي عندما ذهبت بنزهة على دراجتي إلى بيت عائلة فارر ، وجدت أميلي جالسة على العشب . أوقفت دراجتي بجانبها . بدت لي عاجزة حزينة ، فقلت لها لكي أسري عنها ، أنك تربين أجمل الوردو ، التي رأيتها في حياتي ، لم تبتسم مثل عادتها ولكنها تنهدت وقالت يبدو أنني تحولت لأصبح جنائنية . عندما كنت فتاة تخيلت أنني سأصبح كاتبة أؤلف القصص وسيكون لي أربعة أطفال وبدلاً من ذلك أربي الزهور وأكتب ملخصات الكتب «لم أكن مهتمة بالأطفال لذلك سألتها - «ألم تكتبي قصة أبداً»

ابتسمت بحزن - كلا أظن أنني كنت أخشى أن لا أصل إلى درجة ترولوب لقد تزوجت صغيرة كما تعلمين .

في هذه اللحظة خرج لورنس من المنزل مرتدياً قميصاً داخلياً أبيض اللون ونظيفاً ، رمى علي التحية وقال لأميلي يا عزيزتي لدي بعض المواعيد المتأخرة في هيلز بورو . لا تنتظريني على العشاء إذا تأخرت كثيراً .

- كلا ، أرجو أن تقضي وقتاً طيباً قالت له وهي تنظر إليه نظرة قلقة أدركت فيما بعد أنها نفس النظرة التي ترميه بها دائماً .

بعد ذلك بزمن قليل ، حدثت أمور كثيرة وبسرعة ، كتبت مارغوت إلى جوني مرة أخرى تطلب الطلاق . كانت تنوي الزواج من لاري ، اتصل جوني وأخبرها عدة مرات أنها حمقاء وأنه وجد عملاً لدى بعض صانعي السفن في سان فرانسيسكو ضمن عقد دفاعي وأنه سيأتي ليأخذنا وننتقل جميعاً إلى هناك وافقت مارغوت سوف نبدأ حياة جديدة ، طبعاً لم نعرف أبداً ماذا حدث للفتاة التي أحبها .

لم أكن حزينة لفراق عائلة فارر والبيت والبلد والغابات كما أصبحت فيما بعد حينما كنت أتذكرهم ، شعرت ببعض الإثارة عندما رأيت سان فرانسيسكو وتخيلت أني سأعود يوماً إلى هنا وسنرى بعضنا أنا وهارييت مرة أخرى ومثل عشاق مفارقين تواعدنا أن نكتب لبعضنا يوماً بعد يوم .

وفعلنا ذلك عدة مرات في الأسبوع ولمدة طويلة وكتبت لها أخباراً عن سان فرانسيسكو ، وكم هي مدينة جميلة ، وعن التلال وعن البيوت الملونة وعن البحر . وأخبرتها كم أتمنى أن تأتي لتراها أما هي فكتبت تخبرني عن المدرسة والأصدقاء ووصفت لي رحلاتها وحيدة على الدراجة إلى أماكن كنا نزورها معاً وعن الكتب التي كانت تقرؤها .

عندما دخلنا المرحلة الثانوية في المدرسة أصبحت مراسلاتنا أكثر عمومية . ربما تجاوباً مع تقاليد عقود الأربعينيات ، كنا نكتب عن الشبان والحفلات والحقيقة أنني كنت أشعر أحياناً أن لي شعبية كبيرة وأحياناً لا شيء . كانت مراهقتنا عاصفة وفي تلك الفترة تطورت لدي تلك الصفات الدائمة التي يسمونها الطباع أخذت أراجع وضعي أمام وضع هارييت ، كنت مندفعة جداً ولم يكن هناك من يقدم لي النصح

بينما كانت هارييت هادئة ومتزنة وأكثر ذكاءً وجمالاً لم أكن أرغب أن أراها ثانية بالقدر الذي كنت أريد أن أكون أنا هي .

بقي جون ومارغوت معاً ولكنهما كانا يتجادلان كثيراً وشيئاً فشيئاً تطورت علاقتهما إلى نوع من الزمالة والصداقة في بيتنا المقام على التلة الروسية ، أما أنا فقد التحقت بجامعة ستانفورد ودرست التاريخ ولكن بفتور وأما هارييت فقد ذهبت إلى رادكليف لتدرس الأدب الأمريكي وكتابة الشعر .

أضعنا الاتصال ببعضنا البعض .

بقيت مارغوت على اتصال مع صديقتها القديمة من خلال بطاقات أعياد الميلاد والفصح وهكذا سمعت مارغوت أخباراً هامة عن أميلي التي هجرت لورنس وذهبت إلى واشنطن لتعمل في مكتبة فوجر .

كنت فخورة بأميلي وشعرت بالفرح طيلة اليوم لسماع أخبارها ، أظن أن لورنس سوف يسلي نفسه وسيكون الاثنان سعيدين وهما بعيدان .

بالصدفة تزوجت ، وكان زواجي ناجحاً فما زلت أحب زوجي وأقدره ورزقت بأربعة بنات على فترات غير محسوبة ،لم تكن بينهن واحدة تشبه الأخرى سميت الأولى هارييت رغم أنها لم تكن تتمتع بطباع منتظمة .

بين الفينة والأخرى وعبر مروورر السنين كنت أصادف قطعة شعرية لهارييت فارر في مجلة ما وكنت أعجب بها دائماً ونويت أن أكتب لها وثقتي خانتني ، كنت معجبة جداً بهارييت وبأميلي ولورنس وذلك البيت وتلك الأرض وأيضاً ماذا كنت سأقول أن كانت قصيدتك رائعة ! لقد تعلمت أن هذه العبارة كانت غير كافية وغير مرحب بها دائماً لدى الكتاب . والسبب الحقيقي وراء عدم كتابتي لها هو أنه كان هناك الكثير مما يقال كتبت دوللي تخبر مارغوت أن لورنس تحول إلى رجل ثمل معظم الوقت ،لم يكن سعيداً بدون أميلي أما هارييت فكانت تسافر كثيراً وتزوجت عدة مرات ولكنها لم ترزق بأطفال ثم أصيب لورنس بانتفاخ في الرئة وساءت حالته كثيراً لدرجة أن أميلي تركت عملها وعادت لتعتني به ربما بسبب شعورها بالذنب ، وربما لأسباب أخرى لا أعرفها ، ومات ميتة تعسة ، وبطيئة وماتت أميلي بعده بسنوات . ربما بسبب الأرهاق .

وأخيراً كتبت إلى هارييت بخصوص المجلة التي قرأت فيها آخر قصيدة لها كانت رسالة عاصفة ، فوضوية وطويلة كتبت لها حول ماضينا المشترك وحول المناظر الطبيعية والأخدود ، وما أن وضعتها في البريد حتى أخذت أفكر بكتابة رسالة ثانية تكون أكثر رقة .

مرت مدة طويلة ، ولم أسمع جواباً وأخيراً جاءتني رسالتها انتابني شعور سيئ وأحسست بالضياع والقلق كما كنت أحس عدة مرات في حياتي . لم يخطر ببالي أن مجلة كهذه يمكن أن تخطئ بالعنوان .

جاءتني رسالتها من روما حيث تعيش الآن وحيدة كما استنتجت ، قالت إنها استلمت رسالتي للتو وكتبت لي فور قراءتها . كانت رسالة طويلة تجيش بالعواطف ومؤثرة جداً ، كانت جزءاً من شخصية هارييت على ما أذكر أو أتخيل .

ورد في جزء منها ما يلي : كان الأمر غريباً بينما لورنس يعاني سكرات الموت وكأنه يا إلهي كان جل ما يفعله هو أن يموت كذلك أميلي رغم أننا لم نكن على علم بذلك طوال ذلك الوقت لم تكن صورة لورنس أو أميلي هي التي تهزني وتهدر دموعي . وصورتنا ونحن على دراجتنا في قمة التل أو خارج المنزل نذهب إلى مكان ما . كانت تلك الصورة تمثل لي ماضياً ضاع ولن يعود كما ضاعت أميلي وضاع لورنس . ولكنهما كانا يحبانك كثيراً وللحقيقة لقد كنت تشكلين نقطة لقاء نادرة للاتفاق بينهما لقد افتقدناك كثيراً ، وغالباً ما كانا يتحدثان عنك طوال تلك السنوات إني أعجب لنفسي كيف لم أشعر بالغيرة ، ربما لأني شعرت أنني مشمولة في هذا الإعجاب معك فقد كانا يحبانني أكثر عندما أكون معك . قد أستطيع شرح الأمر بطريقة أخرى : ربما كنا ثلاثتنا أقل جنوناً وعزلة عندما تكونين بيننا وربما والله أعلم أكثر سعادة .

رسالة مدهشة ، كانت كافية لتعطيني فرصة ألقي فيها نظرة مطولة على حياتي وأبحث فيها عن ألوان جديدة .

حاشية : عندما قرأ زوجي رسالة هارييت كان تعليقه : يا للغرابة إنها تبدو مثلك تماماً !

١٩٧٨

هارولد برودكي

فيرونا: امرأة شابة تتكلم

عن «اسكواير»

أعرف الكثير من الأشياء! أعرف عن السعادة! لا أعني محبة الله أيضاً ، أعني أنني أعرف السعادة الانسانية مع الجرائم التي تكتنفها .

حتى سعادة الطفولة افكر بها الآن كسعادة متوحشة للطبقة الوسطى .

دعني أصف في أحد الأزمان - أحد الأيام - احدى الليالي كنت ما أزال صبية يافعة وكنا ، والديَّ وأنا - ثلاثة فقط مسافرين من روما الى سالزبورغ ، قاطعين ربع مساحة أوروبا لكي نقضي عيد الميلاد في سالزبورغ ونتمتع بالموسيقى والثلج . سافرنا بالقطار لأن الطائرات كانت غريبة علينا ، وكان والدي يريدنا أن نتوقف في نصف دزينة من البلدات الإيطالية لنشاهد الرسومات ونشتري بعض الحاجيات . كان الأمر سخيفاً ولكننا كنا ثلاثتنا مسحورين بهذا . وكان الأمر غريباً فقط ، كنا نستيقظ في كل صباح في فندق غريب في بلدة غريبة . و كنت أول من يستيقظ ثم اتجه الى النافذة لمشاهدة برج أو قصر . بعدها أوقظ أمي مبرراً لنفسي احساسي بالجموح وايماني بالمغامرة من طريقة تصرفها وشعورها الرومانسي ، كونها في مدينة غريبة ، كما كنت اعتقد عندما انظر من النافذة وأرى برجاً أو قصراً ما . كان علينا تبديل القطار في ڤيرونا وهي مدينة صغيرة معتمة تقع على أطراف جبال الألب . وصلنا الى هناك بعد

أن قطعنا العديد من الطرق صعوداً عبر شبه الجزيرة الايطالية . كنت مصابةً بالدوار بمشترياتنا ومقتنياتنا الجديدة ، حتى بالكاد عرفت من أنا ، فقد اصبحت أمتلك الكثير من الأشياء الجديدة . كان انعكاس وجهي في المرآة أو في نافذة العرض يبدو متألقاً ،نضراً جديداً وربما مقنعاً ومتوهجاً ، كما اعتقدت كان عمري سبع أو ثماني سنوات . وبدا الأمر لي وكأننا في فيلم سينمائي أو في صفحات كتاب . لا تستطيع سوى الصور والكلمات الأكثر بساطة واضاءة ان تعبر عما كان يجول في أفكاري . كنا نتجول متألقين في كل مكان . من السهل أن تبتاع ثياباً لطفل . اصبحت املك ثوباً جديداً محاكاً باللونين الأبيض والأحمر ومرتفع الثمن كالجحيم على ما أظن . كذلك جوارب حمراء ومعطفاً من القماش الأحمر وغطاء للرأس ، وقبعة تحت الغطاء ، وقفازات مخططة رائعة وحذاء مبطناً بالصوف ، وحقيبة صوف ، وتنورة قماش وقمصان عديدة ووشاح ، كذلك ساعة وسوار والمزيد المزيد . كنا ننعم بغرف خاصة داخل القطارات . وكانت أمي تحمل العاباً في حقيبتها ومأكولات وكان أبي يغني لي أغاني الأطفال . وفي بعض الأحيان كنت مأخوذاً بسعادتي لدرجة أني كنت أشعر فجأة بخطر الخوف من أن أبلل نفسي . أما أمي التي كانت تتفهم هذه الأمور الطارئة فكانت تلتقط ذلك الالحاح في صوتي وفي وجهي فتقوم وهي المرأة الضخمة الجميلة بجري الى الحمام بكفاءة وسرعة وهي تتمتم لي : امسكي نفسك قليلاً . ثم تمسك بيدي بينما كنت افعلها . دخلنا ڤيرونا والثلج يتساقط ، كانت وجوه الناس جميلة ،ولكنها صارمة وعابسة وحزينة ، إلا أن تلك الوجوه الجادة كانت تشرق عندما تنظر الي . تبتسم لي أمام إشراقتي . كان الغرباء يقدمون لي الحلوى ، وينحنون أحياناً بحزنهم المعذب لينظروا مباشرة في وجهي وعيناي ، بينما أمي وأبي يحاولون تكوين فكرة عنهم . ويقولون بالإيطالية لقد تأخرنا علينا أن نسرع ، أو يتوقفون ويتركون الغرباء يلمسونني أو يتحدثون الي وينظرون في وجهي لوهلة .

كنت أرى نفسي في عيني رجل غريب أو امرأة غريبة ، كانوا أحياناً يحدقون برقة لدرجة تجعلني أرغب في لمس رموشهم . أو ضرب تلك العيون الغريبة الواسعة المتلألئة . كنت أعلم أني أزين حياتهم وآخذ مسؤولياتي بجدية ، أحد النبلاء الإيطاليين في سيينا قال عني انه لدي سلوكيات أميرة انجليزية - بعض الأحيان ثم

ضحك لأنني في الحقيقة كنت مثيرة ونارية ، فقد كنت أركض وأنا أصيح في الجاليريا وهي قائمة طويلة ومليئة بالصور ولها سقف مغطى بلوحات من الجص ، كنت أجلس على حضن هذا النبيل الإيطالي وأحاول التملص ، كنت طفلة فظيعة واحب نفسي كثيراً وكان هناك تقريباً في كل مكان وفي كل يوم شخص جديد يحبني خلال السفر .

فهمت حينها انني انسانة مميزة ، وعرفت أن كل ما كنا نفعله ، كل شيء نفعله يتضمن نقوداً ، لم أكن أعلم اذا ما كان يتضمن ذهناً أم أسلوباً ، ولكنني علمت عن النقود بطريقة ما . الشيكات وشيكات المسافرين ، ورنة النقود المعدنية . كان أبي نبعاً من النقود . قال لنا أنها فورة . كان يريد أن يدهشنا فقد قام بتوفير بعض المال سابقاً . لم نكن أغنياء ولكننا جهزنا المال لهذه الرحلة . أتذكر أننا دخلنا مستنبتاً زجاجياً خارج فلورنس وكان هناك أشجار برتقال مزروعة في أحواض . ركضت هناك أيضاً . وكان يوجد خادم عجوز ذو وجه خبيث يرتدي ثياباً سوداء ، لم يكن يحب أن يكون خادماً بعد أن ولت أيام الخدمة ، كان عابساً ولكنه ابتسم لي ولأمي وحتى لأبي مرة . كنا مجموعة واضحة الانفصال عن آلام ومآسي العالم ، منغمسين في لهونا وأفراحنا . وكانت أمي سعيدة بسذاجة في أعماق أعماقها . وقد اعتمدت على والدي لاطلاق تلك السعادة ، وقد اطلقها جيداً . لكنها لم تكن تعرف ما هو السر وراء هذه اللاحقيقة ، أو ما أريد أن أقول ، هذه اللعبة الاستثنائية .

كان يوجد في ڤيرونا رسمة أحب والدي ان يراها ، أتذكر الرسام لأن اسمه بيزانيلو كان يذكرني بالحاجة الى الذهاب للحمام عندما كنا نتجول في المتحف ، وهذا المتحف عبارة عن قلعة قديمة تدعى جويلف أو جيبلين لا أتذكر أيهما ، ولكنني أذكر الرسمة لأنها كانت تشمل الرجل الخلفية للحصان ، وكنت أظن الأمر لطيفاً بل غريباً بعض الشيء ولكن والدي كان معجباً بها لذلك التزمت الصمت .

أمسك بيدي وراح يقص علي قصةً حتى لا أشعر بالملل ونحن نتنقل من غرفة الى غرفة داخل المتحف / القلعة . ثم خرجنا الى الخارج . كان الثلج يتساقط وسط ضوء نهار خفيف وكان الضوء يمر عبر الثلج وكنت ارتدي ثوبي الأحمر وحذائي الثقيل . كان والداي يبدوان شابين جميلين ، يرتديان احذية ثقيلة أيضاً . كنا نستطيع

البقاء في الثلج لو أردنا وقد فعلنا ذلك . ذهبنا الى ساحة تدعى بيزا - سكاليجيرا على ما أعتقد اذ اني لا أتذكر الاسم جيداً . وما أن وصلنا الى هناك حتى بدأ الثلج يشتد ثم يستقر ويهبط بشدة ويتفرق الى أن توقف كان الجو بارداً جداً وكانت طيور الحمام تملأ الساحة ، في كل زاوية وعلى كل سطح ، وسط ثلج يغطي الأرض بكاملها ، ما عدا آثار صغيرة تتركها أقدام الحمامات . وكان الهواء يرعد بثقله وكثافته قبل الثلج وبعد الثلج بتصميم رمادي . لم أر في حياتي مثل هذا العدد من الحمام أو مثل هذه الساحة الخاصة المسكونة «البيازا» وكنت أنا بثوبي الأحمر على حافة بعيدة من العالم ، حافة بعيدة لمن عرف مثل هذه القصة ، حافة الجمال الغريب وألعاب أبي والطرف الأبيض على حدود الفصل . كنت مثل نصف مجنونة من شدة الفرح ، على أي حال ، أحضر والدي خمسة أو ستة اكواز ملفوفة من ورق الجرائد وموضوع بداخلها حبوب لونها اصفر ولها نواة تشبه الذرة . صب بعض منها في يدي وقال لي أبقي يديك ممدودتين ومفتوحتين ثم أبتعد .

في البداية لم يحصل شيء ولكني وثقت به وانتظرت . ، ثم جاءت الحمامات بأجنحتها وأجسادها الثقيلة واقدامها الحمراء اللون التي لا تشبه اقدام الطيور ، طارت حولي ثم ابطأت في الدقيقة الأخيرة . وبالت على ذراعي وأكلت من الحبوب التي في يدي ، أردت أن أحجم ولكني لم أفعل . فقط أغمضت عيني وأبقيت يدي ممدودةً بثبات . احببت تلك اللحظة وأحببت سعادتي لم أكن أهتم اذا ما كنت مخطئة بأمر الحمامات والحياة وطبيعتي . كانت البيازا في صمت شديد بينما الثلج يتساقط وظل والدي يصب الحبوب في يدي ثم على أكمام ثوبي ثم على كتفيه أما أنا فبقيت مسلوبة اللب بفكرته هذه رغم بقائي ثابتة جداً .

كانت الحمامات تصفق بأجنحتها بشدة في الهواء الثقيل ، حضر المزيد منها وراحت تجلس على ذراعي وعلى كتفي وأنا أنظر الى أمي ثم الى أبي وثم الى الطيور من فوقي .

آه! لقد عييت . وأنا أعترف عن كل شيء . أشعر دائماً بعلةٍ صغيرة عندما أكون سعيدة مما يجعلني أفقد توازني أحياناً .

تلك الطيور الثقيلة والبنايات الغريبة ، وأمي وأبي بقربي . أمي سعيدة لسعادتي .

بل أنها تكاد تغار قليلاً . كانت تشعر بالغيرة من كل ما يفعله أبي . كانت امرأة ذات روح كبيرة وكأن الحياة لا تكاد تسعها ، غارقة في التبديد وفي الجمال ، تعرف أشياء كثيرة ، تتصرف بحمق وعدم مرونة أو بمزاجية أحياناً ولكن كان شيئاً تشعر به دائماً حين تكون بقربك دون أن تستطيع الفرار منها ، كان لروحها حضور قوي ومدى يملأ المكان من حولها .

لو لم تكن مقيدة من قبل والدي ، ولو لم تكن تحبه ، لما كان هناك حدود معروفة لما قد تفعله ، هي نفسها لا تعرف ، ولكنها تظهر دائماً لطيفة أمامه فهو شديد الملاحظة الى حد غير معقول . وكثير التغير . ويتعب بسرعة . ويتحدث جيداً ويسحر الناس بحديثه بينما نقف أنا وأمي بجانبيه كالأقمار ، نتألق ونخبو ثم بعد فترة يأتي الينا . الى الأقمار ، الكبيرة منها والصغيرة نرحب به ، . ولدهشتي كان يبدو مندهشاً ، وكأنه لا يستحق هذا الحب أم أن زمناً طويلاً قد مرّ قبل أن يكتشف هذا . كان والدي طويل القامة . وقفت والدتي تراقبنا بينما هو يملأ يديّ مرة بعد أخرى بتلك الحبوب . لم أعد أحتمل أكثر من ذلك ، كنت أشعر بالسعادة والتسلية أو أي شيء آخر لا أعرفه . كان هذا كله بداخلي كالدوار . وكنت على استعداد لأن أزعق أو أضحك ، تلك الضحكة التي تخرج مثل السحر ، ثملة ، متألمة ، تشبه البصقة أو القيء أو الله أعلم ، ولكنها تجعل الطفل مجنوناً بالضحك ، شعرت بنفسي أتألق وأتوهج برقة مثل ملاك . مثل الطفل العصفور الكبير في عالم الضحك .

كنت على استعداد لأن أصبح هكذا ولكني أمسكت نفسي . تجمع حولي المزيد والمزيد من الطيور ، كانت تسير حول أقدامي وتنقر الحبوب التي تسقط من يدي أو التي على الأرض ، كانت هناك حمامة تقف فوق رأسي ، ومن بين تلك التي تقف على ذراعي كان البعض يحرك جناحيه ، تزغب تلك الأجنحة الضعيفة المثقلة بالريش وتمدها ، لم أعد أحتمل ذلك فهي كثيرة الزغب وأنا كنت في تلك اللحظة رسولة الرحمة في العالم التي تقوم باطعامها تحت الثلج . فجأة ودفعةً واحدة انفجرت في الضحك ، ولم أعد استطيع أن أتمالك نفسي من الضحك ، أخذت الطيور تهرب عني ولكنها لم تبتعد . ظلت تحوم حولي وفوقي . بعضها يدور في الهواء ، ثم يعود ويهبط . وبعضها مثل الغيم ، وبعضها مثل رزم متجمعة يتقاذفها الهواء غاضبة تنقر

الحمائم الأخرى ، وبعضها مثل حيوانات فظة عمياء تهبط متبخترة ، تمسك بثوبي وتطعم نفسها . عاد الثلج الى الهبوط بينما أنا واقفة هناك بكل رحمتي وسط الساحة قريبة من أبي وأمي . آه . هل سيستمر هذا العالم ، أدرك والدي فجأة انني قد نلت كفايتي وأن قواي تكاد تخور . يا للمسيح كم كان يقظاً . رفعني من بين الحمائم وكنت مخدرة تماماً ووضعت ذراعي حول عنقه وأخذ الثلج في السقوط واقتربت أمي منا وأنزلت غطاء رأسي الى الأسفل وقالت هناك بعض قطع الثلج على جفني . عرفت أنها قد أدركت الأمر ولكنها لم تكن واثقة تماماً ، لم تكن متأكدة من أنه كان يراقبنا بحذر ، واحسست بأنها فقدت بعضاً من سعادتها ثم سارت بجانبنا مثل صبي مرتبك . ولكنها كانت جميلة جداً وكانت تملك قوى على كل حال .

ذهبنا الى مطعم وتصرفت أنا بطريقة لائقة جداً ولكني لم أستطيع أن أتناول الطعام ، ثم سرنا الى القطار . كل الناس ينظرون الينا الا أنني لم أستطع أن ابتسم أيضاً ، كنت متخمة بالإجلال لنسميها بقايا من متعة - جعلتني أشعر بهيبة عميقة . لم أتوقف عن تذكر الحمائم وكيف أن أبي أحبني بطريقة تختلف عن محبته لأمي . وأنه كان يقظاً يراقب أمتعتنا ويراقب الغرباء كأنه يحذر من محاولات اغتيال ، أو ما شابهها . كان يبدو وكأنه في وظيفة . أما أمي فكانت جميلة وحيدة وسعيدة وهذا ما أسبغ عليها نوعاً من التحدي . وبعد ذلك كما ترى ايقظتني في منتصف الليل بينما كان القطار يشق طريقه مقرقعاً عبر منحدر جبلي سحيق . وعبر النافذة في الخارج ، ومن خلال قمرتنا المظلمة كانت السماء تبدو صافية والقمر بدرا! ثم ظهرت الجبال ، سلاسل من الجبال في كل مكان ، جبال ضخمة مدببة ومنحدرة وبيضاء من الثلج . شيء مستحيل ومناف للعقل . كانت ترتفع وسط سماء بلون الحبر ثم تهبط عبر ظلال زرقاء عميقة كالأعاجيب لم أستطع أن اصفها فهي لم تكن تشبه شيئاً كنت أعرفه . كانت أشياء مرتفعة وكنا نحن نرتفع مع القطار نتسلق الى الأعلى . كان كل شيء يبدو غير حقيقي ، ولكنه كما ترى كان كذلك .

وضعت يدي على النافذة وأخذت احدق في هذه البرية المنحدرة ، هذه المعجزات ، البياض والدوار وضوء القمر والظلال التي تنبعث منها . عالماً نظيفاً ليس حقيقياً وليس مألوفاً وليس حمائمياً ولكنه نظيف .

جلسنا أنا وأمي لفترة طويلة نحدق من النافذة ، وعندما استيقظ أبي جاء ليحدق معنا ، انه شيء جميل . قال . ولكنه لم يدرك الحقيقة . فقط أنا وأمي أدركنا ذلك ، قالت له : «عندما كنت طفلة ، كنت اشعر بالملل طوال الوقت يا حبيبي ، كنت أظن ان لا شيء سيحصل لي ، والآن كل هذه الأشياء تحصل لي مثل ما دخلت أنت الى حياتي» . أعتقد أنه كان مصعوقاً بهذا الحب الذي أبدته في منتصف الليل . ابتسم لها بخفة لدرجة أنني اصبحت أحس بالغيرة ولكني بقيت هادئة ، وبعد هنيهة وسط صمته ودهشته منها ومني ، بدأ يظهر وكأنه يختلف عنا أنا وأمي ، ثم عاد الى النوم ثانية أما أنا وأمي فلم ننم وبقينا جالستين قرب النافذة نراقب طوال اليل ، تلك الجبال وذلك القمر والعالم النظيف حولنا ، كنا نراقب معاً . كانت أمي هي المنتصرة .

بقينا صامتين ، ووسط الصمت رحنا نتحدث عن حبنا للرجال ، وكم أن الرجال خطرين ، يسرقون منك كل شيء دون أن يراعوا كم تعطيهم ولكننا لم نكن نرفع صوتنا .

لبثنا ننظر الى تلك الجبال حتى بزوغ الفجر ، وعندما بزغ الفجر كان المنظر أشد جمالاً مما أحتمل ، كانت هناك الوان وردية ، زرقاء وذهبية تومض وتلمع ، حتى الثلج كان ملوناً وقلت آه ، وتنهدت ، كانت كل دقيقة تمر أجمل من الأخرى . ثم قلت أنا أحبك يا أمي ، وغفوت بين ذراعيها .

تلك كانت السعادة حينئذ .

١٩٧٩

سول بيللو

طبق فضي

عن «ذي نيويوركر»

ماذا تفعل حيال الموت – في حالة وفاة أب عجوز . لو كنت شخصاً عصرياً يبلغ من العمر ستين عاماً وقد خبرت الدنيا مثل وودي سلبست . ماذا تفعل؟ هل تأخذ بالبكاء تأخذ به ، على خلفية معاصرة . كيف يمكنك أن تأخذه على خلفية معاصرة ؟ هل تبكي على أب في التسعين من العمر؟ شبه أعمى ، ويعاني من تضخم في القلب ورئتين مليئتين بالماء ، يزحف ويتعثر وتفوح منه الروائح العفنة ، والغازية التي تفوح من الرجال العجائز . أعني كما يضعها وودي كن واقعياً ، فكر بالزمن الذي نحن فيه ، الجرائد اليومية التي تصل اليك – وطيار اللوفتهانزا في عدن ، وقد وصفه الرهائن وهو راكع على قدميه يتوسل إلى الإرهابيين ، أن لا يقتلوه ، لكنهم يطلقون النار على رأسه ، فيقتل ثم يقتلون هم لاحقاً . وما يزال البعض يقتل البعض أو يقتلون أنفسهم . هذا ما تقرؤه في الصحف ، وتراه على شاشة التلفزيون وتتحدث به على العشاء ، فنحن نعرف الآن ما يدور يومياً عبر كافة المجتمع الدولي مثل موجات من الموت تتعاقب لا ارادياً عبر العالم .

لم يكن وودي ، وهو رجل أعمال في ساوث شيكاغو انساناً جاهلاً ، بل كان يعرف من العبارات أكثر مما هو متوقع من متعهد قرميد (للمكاتب والقاعات

والمغاسل) أن يعرف .

وكانت نوعية معلوماته تختلف عن تلك التي تحصل عليها من الشهادات الأكاديمية ، على الرغم من أن وودي قد درس لسنتين في معهد اللاهوت استعداداً ليصبح كاهناً . الا أن عامين من الدراسة في الكلية في ظل الركود الاقتصادي ، كانا أكثر مما استطاع معظم خريجي المدارس الثانوية تحمله ، بعد ذلك وبطريقته الحيوية الرائعة والأصيلة ، (كان والده العجوز موريس أيام شبابه نشيطاً ورائعاً) ، قام وودي بقراءة عدة مواضيع ، واشترك في مجلة ساينس ، وعدة مجلات معلوماتية أخرى ، كما قام بدراسة عدة مساقات في كليات دي بول ونورث وسترن ، شملت مواضيع في علم البيئة ، وفي علم الجريمة ، وفي الفلسفة الوجودية ، كذلك سافر كثيراً إلى اليابان والمكسيك وافريقيا ، وكانت له تجربة في افريقيا ترتبط خاصة بمسألة البكاء . سارت التجربة كما يلي : كان راكباً على متن زورق بخاري قرب شلالات مورشيسون في اوغندا ، عندما شاهد تمساحاً يمسك بعجل جاموس عند ضفة النيل الأبيض ، كان هناك زرافات تقف قرب النهر الاستوائي ، وكذلك بعض القرود وأفراس النهر وطيور الفلامنكو وعدد من الطيور الأخرى تواجه الهواء الصافي في حر الصباح ، كان العجل قد اقترب من النهر ليشرب عندما التقطه التمساح بأظلافه وجره إلى الأسفل . لم تستطع الجواميس الكبيرة أن تفهم ما حدث ، تحت الماء كان العجل ما يزال يتخبط ويقاوم ويمخض الطين . راقب وودي وهو الرحالة النشط هذا المنظر ، وبدا له أن أبوي العجل كانا يتساءلان ببلاهة عما حدث . اختار أن يفترض وجود ألم في هذا الأمر وقرأ فيه حزناً وحشياً على النيل الأبيض ، تكوّن لدى وودي انطباعاً بأنه قد عاد إلى الفترة الزمنية التي سبقت وجود آدم ، وحمل معه انعكاسات هذا الانطباع إلى شيكاغو . كما حمل معه أيضاً رزمة خشيش من كمبالا ، غامر بادخالها دون علم مفتشي الجمارك معتمداً على بنتيه العريضة ووجهه الصريح ولونه الراقي . لم يكن يظهر عليه بأنه فاعل سوء أو رجل شرير بل بدا رجلاً طيباً . كان مغرماً بتحين الفرص ، تثيره المغامرة . القى معطفه على طاولة مكتب الجمارك ، ولو قام المفتشون بتفتيش جيوبه لأنكر بأن هذا المعطف ملكه ، ولكن الأمر مر بسلام ، وكان ديك الحبش الذي قدمه ليلة عيد الشكر محشواً بالحشيش .

ولكم تمتعوا به . فقد كان هذا الاحتفال الأخير الذي يحضره بوب الذي كان يستطيب المغامرة والتحدي . الأ أن بذور الحشيش التي احضرها معه من افريقيا لم تلق نجاحاً حين زرعها في حديقته ، ولكنه اكتفى بباقة من الماريجوانا انبتها خلف مخزن بيته بقرب موقف سيارته الليـنكولن كونتننتال . لم يكن وودي يؤذي أحداً ، ولكنه لم يكن يحب البقاء كلية ضمن حدود القانون . كانت المسألة بالنسبة له مسألة احترام للذات . بعد عيد الشكر ، اشتد المرض على الأب وكأنه اصيب بارتشاح بطيء ، واستمر هذا الحال لعدة سنوات ، قضاها داخلاً إلى المستشفى ، وخارجاً منها ، هزل جسمه وخرف ذهنه ، ولم يستطع التركيز بما فيه الكفاية ، حتى لكي يشكو همه ، ما عدا في لحظات استثنائية ، من أيام الأحاد ، التي كان وودي يخصصها له بانتظام ، ولم يعد موريس وهو الهاوي ، الذي آمن به ويلي هوب الشهير وأخذه على محمل الجد ، يستطيع أن يضرب ابسط كرة بلياردو . كان يستطيع فقط أن يتخيل الضربات . أما هالينا المرأة البولندية التي عاش معها موريس أكثر من أربعين عاماً ، كزوج وزوجة فقد أصبحت هي نفسها الآن أعجز من أن تستطيع المطاردة إلى المستشفيات ، لذلك اضطر وودي أن يفعل ذلك بنفسه . لكن كان أمام وودي أيضاً مسؤولية أمه وهي مسيحية متجددة ، بلغت الثمانين من العمر ، وتحتاج باستمرار إلى عناية والى متابعة في المشافي . الجميع يعاني من السكري وذات الجنب ، والتهاب المفاصل ، واعتام عدسة العين ، ومنظمات القلب ، الجميع يعيش بأجساد آخذة في الأنهيار .

كان لوودي اختان في الخمسين من عمرهما ، مستقيمتين وشديدتي التدين ، لم تتزوجا وبقيتا تعيشان مع أمهما في بيت كلي المسيحية . ووودي يتحمل كامل مسؤوليته أمامهم جميعاً ، وكان عليه من حين لآخر أن يضع احدى أخواته في مصح عقلي . لم يكن الأمر خطيراً ولكنهما أصبحتا مريضتين . كانتا أختين رائعتين وجميلتين يوماً ما ولكنهما كانتا مسكينتين لا تعرفان أصول اللعب . كان كل واحد في العائلة يملك معتقدات منفصلة عن الآخرين ، فالأم كانت مسيحية متجددة ، والأختين متشددتين في الدين ، أما الأب فقد ظل يطالع الصحف البيدية إلى أن فقد قدرته على القراءة ، وكانت هالينا كاثوليكية صالحة ، وظل وودي الذي خلّف وراءه

أربعين عاماً في معهد لاهوتي ، يصف نفسه باللا أدري (اللا أدرية هو مذهب يعتقد بأن وجود الله وأصل الكون هي أمور لا سبيل إلى معرفتها) ، لم يكن الأب يعتنق ديناً أكثر مما يقرؤوه في الصحيفة اليهودية ، ولكنه أجبر وودي على أن يقطع وعداً له بدفنه في مقابر اليهود ، وقد تم دفنه هناك بقميصه المصنوع في هاواي والذي اشتراه له وودي من معرض للأقمشة الحريرية أقيم في هونولولو . لم يسمح وودي لمتعهد دفن الموتى بأن يلبسه اياه ، بل جاء إلى قاعة الدفن وادخل جسده المتيبس في القميص وزرره بنفسه ، وظهر العجوز خلال دفنه كأنه بن غوريون ، مسجى في تابوت خشبي لكي يتحلل بسرعة . هكذا أراد وودي أن يكون الأمر كله . عند القبر قام وودي بطي سترته ولف اكمامها لأعلى ذراعيه المنمشتين ، ثم حرك الجرار الذي يقف قرب القبر وهال عليه التراب بيديه .

كان وجهه ضخماً عريضاً من الأسفل وضيقاً في أعلاه مثل منزل هولندي ، أما أسنانه السفلى القوية ، فكان يعض بها شفته العليا كلما أجهده العمل ، لكنه أكمل واجبه النهائي في دفن والده كما يجب ، على كل ابن أن يفعل . كان جسمه عالي اللياقة ، لذلك لم يظهر الاحمرار في وجهه بسبب اجهاد التعب بل بسبب الاجهاد العاطفي . بعد الجنازة عاد إلى المنزل برفقة هالينا ، وابنها وهو بولندي محترم مثل أمه وموهوب أيضاً . يدعى ميتوش . كان ميتوش يعزف على الأرغن في الملاعب خلال مباريات الهوكي وكرة السلة . هذا الأمر يتطلب شخصاً ذكياً ، لأن العملية كانت مشوبة بالفوضى والهياج .

قاموا بصب بعض الأقداح وتعزية المرأة العجوز . كانت هالينا انسانة مخلصة كرست حياتها مئة بالمئة من أجل موريس .

انشغل وودي باقي الأسبوع بعدة أعمال منها مسؤوليات مكتبية ومسؤوليات عائلية . ويعيش لوحده كذلك زوجته وكذلك حتى عشيقته ، كل في مؤسسة منفصلة . يقوم بأعمال التسوق وشراء حاجيات زوجته كل يوم جمعة ، لأنها منذ انفصالها عنه قبل خمسة عشر عاماً لم تتعلم كيف تدبر أمرها بنفسها؟ كان يملأ لها برادها بالأطعمة ، وكان عليه أن يأخذها هذا الأسبوع لتبتاع أحذية . وكان يقضي مساء الجمعة مع هيلين . وهيلين هي زوجته الفعلية . يوم السبت كان وودي يقوم

بجولته التسوقية الأسبوعية الكبرى ، وفي المساء يكرس نفسه لأمه واخواته ، لذلك بقي وودي مشغولاً جداً عن الاهتمام بمشاعره الخاصة فيما عدا بعض الملاحظات التي يكتبها لنفسه بشكل متقطع «أول خميس في القبر» : «أول جمعة والطقس لطيف» ، «أول سبت وعليه أن يعتاد على الأمر» وخلف تنهيدته كان يطلق أحياناً كلمة «آه يا أبي» .

لكن يوم الأحد كان صاعقاً بالنسبة له ، عندما تقرع أجراس جميع الكنائس جنوب شيكاغو ، الأوكرانية والكاثوليكية واليونانية والروسية والاصلاحية الإفريقية ، واحدة تلو الأخرى . كان مكتب وودي داخل مخزنه ، وقد بنى لنفسه في الطابق العلوي شقة واسعة ومريحة . لكنه كان قد نسي عدد الكنائس التي تحاصر شركة سيلبست للقرميد لأنه اعتاد ان يترك منزله في الساعة السابعة من صباح كل أحد ليقضي نهاره مع أبيه ، كان ما يزال في فراشه عندما بدأ قرع الأجراس ، وشعر فوراً كم كان محروق القلب . كانت هذه الحرقة في القلب بالنسبة لرجل في الستين من العمر ، عملي ، نشيط صحيح الذهن وخبير في الحياة أمراً مؤلماً ، وعندما كان يصاب بهذا الألم كان يؤمن بتناول شيء ليسكنه . لذلك أخذ يفكر ماذا يتناول ، كان يملك العديد من العلاجات ، فقد كان قبوه مليئاً بصناديق الويسكي الاسكتلندي ، والفودكا البولندية والأرمانياك ونبيذ الموسيل والبورغوندي . ،وكان يملك في ثلاجته العديد من قطع الستيك والصيد البحري وملك السرطانات الألاسكي . كان يشتري بسخاء ، بالصناديق وبالدزينات . لكنه في النهاية عندما نهض من الفراش لم يتناول شيئاً سوى فنجان القهوة . وبينما كان الابريق يغلي ارتدى بدلة الجودو اليابانية الخاصة به وجلس يتأمل .

كان وودي يتأثر عندما تكون الأمور صريحة ، فدعامات الارتكاز بالنسبة له كانت مكشوفة وصريحة ، وأعمدة الأسمنت الظاهرة للعيان داخل بنايات الشقق العالية ، كانت صريحة أيضاً . من السيئ أن تقوم بالتغطية على شيء ، كان يكره التظاهر . فالحجر كان صادقاً . وكذلك المعدن . أجراس الكنائس يوم الأحد كانت مستقيمة جداً . حين تفلت من عقالها وتتأرجح وتضرب ذات اليمين وذات الشمال ، وكانت ذبذباتها وضرباتها تفعل له شيئاً ، تنظف دواخله وتنقي دمه . كان الجرس مثل مسار

الحلق يملك شيئاً واحداً ليبلغك ثم يبلغك . أما هو فكان يصغي .

كانت له بعض العلاقات مع الأجراس والكنائس ، فقد كان قبل كل شيء مسيحياً . ولد يهودياً ، وبقيت ملامح وجهه يهودية مع مسحة من الشيروكي . ولكن أمه تحولت قبل خمسين عاماً إلى المسيحية على يد زوج اختها القس د . كوفنر . كان كوفنر يدرس ليصبح حاخاما ولكنه ترك كلية يونيون العبرية في سينسيناتي ليصبح راهباً ويؤسس ارسالية تبشيرية وقام بتربية وودي تربية مسيحية . ولكن الأب كان على خلاف مع هؤلاء المتشددين وكان يقول ان اليهود يأتون إلى الارسالية ، ليشربوا القهوة ويأكلوا البيكن والأناناس المعلب والخبز الطازج ومنتجات الألبان ، واذا توجب عليهم أن يستمعوا إلى الغطاس ، فلا بأس فالزمن كان زمن ركود ، ولا يمكن أن تكون كثير التطلب ، ولكنه كان يعلم أنهم يبيعون البيكن . لقد قال الانجيل بصراحة أن الخلاص سيأتي على يد اليهود . كان الدكتور الراهب يتلقى دعماً من الأغنياء المتشددين ، ومعظمهم من السويديين الذين كانوا يتعجلون الظهور الثاني عن طريق تحويل جميع اليهود إلى المسيحية . كان يقف في المقام الأول لمساندة الدكتور الكاهن ، السيدة سكوغلند التي ورثت مصلحة ضخمة للألبان من زوجها الراحل . وكان وودي تحت رعايتها الخاصة .كان عمره أربعة عشر عاماً عندما رحل ابوه مع هالينا ، التي كانت تعمل معه في دكانه تاركاً زوجته المسيحية المتشددة وابنه ، الذي غيّر ديانته وابنتيه الصغيرتين .

جاء إلى وودي في أحد أيام الربيع وهو في الحديقة وقال له : من الآن وصاعداً أنت رجل البيت . كان وودي حينها يتمرن على لعب الجولف ويضرب بعصاته ، رؤوس نباتات الهندباء البرية في الحديقة . حضر والده إلى الحديقة ببذلته الأنيقة التي لم تكن تليق بحر ذلك النهار . وعندما خلع قبعته «الفيدورا» ، ظهرت علامة عميقة على جلدة رأسه ، وكان العرق يتصبب حولها بغزارة فاقت على عدد شعرات رأسه . قال : أنا راحل من هنا . كان يبدو قلقاً ولكنه عازماً على الرحيل » . لم يعد هناك فائدة ، لا أستطيع العيش هكذا» . من خلال منظوره للحياة كان الأب ببساطة يريد أن يعيش حياته حراً .

كان وودي يستطيع تصوره في قاعة بلياردو أو تحت حرف «ل» . في لعبة كراب أو

يلعب البوكر في الطابق العلوي لمخزن براون وكوبلز . «سوف تصبح رجل البيت» قال الأب ، « لا بأس سأضعك على لائحة الإعانة» ، لقد عدت للتو من مكتب الإغاثة في شارع «وبانسيا» - لهذا كان يرتدي البذلة والقبعة .

- سوف يرسلون باحث حالات ثم اضاف عليك أن تقرضني بعض النقود ، لكي اشتري بنزين ، من نقود الجولف التي وفرتها .

فهم وودي ان والده لن يتمكن من الرحيل بدون مساعدته ، لذلك أعطاه كل ما كان قد حصل عليه ، من نادي صن ست ريدج للغولف في وينتكا . أحس الأب أن درس العمر الذي أعطاه له هو أثمن بكثير من تلك الدولارات ، وكلما اراد تملق ابنه ، كان يتصنع تعبيرا كهنوتياً رفيعاً على وجهه المتورد ذو الأنف الملتوي . كان الأطفال الذين غالباً ما يأخذون تعابيرهم من أفلام السينما ينادونه باسم ريتشارد ديكس . ولاحقاً عندما ظهرت المسلسلات الكوميدية قالوا عنه ديك تريسي .

وكا أصبح وودي يراها الآن ، تحت تأثير اجراسه المتهورة . فقد مهد الطريق لنفسه للهجرة - ها ها - وجد أن الأمر مبهجاً وخاصة موقف أبيه القائل : هذا سيعلمك كيف تثق بأبيك ، فقد كان الموقف دليلاً في صالح الحياة الحقيقية والغرائز الحرة مقابل الدين والنفاق الكاذب ، ولكنه كان موجهاً بشكل رئيسي ضد شخص احمق ، مدقع في الحماقة . كان الأب يحتقر الكاهن د . كوڤنر ، ليس بسبب كونه مرتداً عن دينه ، (لم يكن يهتم بهذا مطلقاً) ، وليس بسبب كون ارساليته موجهة لابتزاز الأموال (اقر الأب بأن الكاهن د . كوڤنر كان شخصاً أميناً) ، ولكن لأن د . كوڤنر كان يتصرف بحماقة ويتكلم كأحمق ويتصرف مثل انسان عابث . كان يرفع شعره مثل باغانيني ، (هذه اضافة من وودي ، فالأب لم يسمع في حياته عن باغانيني) ، ولعل ما يثبت انه لم يكن قائداً روحياً هو أنه كان يحول النساء اليهوديات إلى المسيحية من خلال سرقة قلوبهن . كان يملك خبرةفي ذلك ، قال الأب ، ولا يعلم هو نفسه بأمرة . وأقسم أنه لا يعلم من أين جاءته» .

على الطرف الآخر كان كوڤنر يحذر وودي دائماً :ان أباك شخص خطر ، بالطبع انت تحبه ، عليك أن تحبه وتسامحه ياڤودرو ولكنك أصبحت كبيراً بما فيه الكفاية ، لكي تدرك أنه يسير في طريق الخطيئة .

كان الموضوع كله تافهاً ، فخطايا الأب كانت صبيانية ، لذلك تركت انعكاساً كبيراً ، على صبي وأم ، هل الزوجات أطفال أم ماذا؟ كانت أمه تقول دائماً : آمل أن تشمل هذا البهيمي في صلواتك ، انظر إلى ما فعله ولكن صلّي لأجله فقط ولا تراه . ولكن وودي كان يراه معظم الوقت ، فقد كان وودرو نفسه يعيش حياة بوجهين . وجه مقدس ووجه دنس . فهو قد تقبل يسوع المسيح كمخلصه الشخصي . وقامت العمة ريبيكا باستغلال هذا الوضع واجبرته على العمل تحت امرتها . كان يعمل بواباً للإرسالية يبيت في سكن الأرسالية ، وفي الشتاء كان عليه أن يعبئ موقد الفحم ، حتى أنه نام عدة ليالي على طاولة الحوض قرب غرفة الموقد . كما كان عليه أن يحمل قفل غرفة المستودع أيضاً . يتناول الأناناس المعلب ويقطع شرائح البيكن المدخن بسكينه ، يحشي معدته بالبيكن غير المطبوخ . إذ أن لديه جسداً ضخماً لكي يملؤه .

الآن فقط وهو يحتسي القهوةالميليتا سأل نفسه : هل كان حقاً جائعاً إلى هذا الحد؟ كلا ، ولكنه رغب أن يكون طائشاً . وعندما كان يستل سكنية ويقف على صندوق ليصل إلى قديد البيكن ، ويقاتل العمة ريبيكا . لم تكن هي لتعرف من الذي يسرق؟ ولا يمكنها أن تثبت أن وودي ذلك الصبي الصريح الطيب والقوي ، الذي ينظر اليك مباشرة في عينيك ، كلص أيضاً . ولكنه كان لص أيضاً . وكلما نظرت اليه ، علمت انها ترى أباه فيه ، في التواء أنفه وحركات عينيه وكثافة جسده ، كما كانت ترى في وجهه العفي ذلك الشرير المتوحش «موريس» .

كان موريس ، كما ترون ، ابن شوارع في ليفربول ، وكانت أم وودي وأختها بريطانيتي المولد . وكانت عائلة موريس قد تخلت عنه وهي في طريقها إلى أمريكا لأنه اصيب بالتهاب في عينيه . وكان يمكن أن يتسبب في اعادتهم من جزيرة اليس . توقفوا لبعض الوقت في انكلترا ، ولكن عينيه بقيتا تدمعان ، فقاموا بالتخلص منه ، وغادروا إلى أمريكا واضطر هو أن يعيش لوحده في ليڤربول ولم يزد عمره حينها عن اثنتي عشر عاماً . أما أمي فجاءت من أصل طيب . كان الأب ينام في قبو بيتها ثم وقع في غرامها ، وحين صار في عمر السادسة عشر حل مكان أحد البحارة المضربين . وشق طريقه عبر الأطلسي ثم قفز من السفينة في بروكلين وهكذا اصبح أميركياً ،

دون أن تعلم أمريكا به ، مارس التصويت دون أوراق ثبوتية . وقاد السيارات بدون رخصة قيادة ، ولم يدفع أية ضرائب ، ولم يترك زاوية الا وطرقها ، تشعبت اهتماماته في حياته وبشكل تصاعدي من الخيل إلى ورق الشدة ، إلى البلياردو ثم إلى النساء . هل أحب أحداهن؟ «كان مشغولاً جداً؟ نعم أحب هالينا وأحب ابنه ، وحتى تاريخ اليوم ظلت أمي تعتقد أنه أحبها أكثر من الجميع» ، ولطالما رغب بالعودة ، أعطاها هذا الاعتقاد فرصة للتصرف مثل ملكة ، بمعصميها الممتلئين ووجهها الشاحب الذي يشبه وجه الملكة فيكتوريا . وقد أوصت البنات بعدم ادخاله إلى البيت . كان تقول : امبراطورة الهند تتكلم .

ظلت روح وودرو التي قصفتها الأجراس تطوف صباح هذا الأحد جيئة وذهاباً نحو الماضي ، نحو أعالي زاوية مخزنة المحفوفة بالأصالة - نحو الأجراس التي تروح وتجيء ، معدن فوق معدن إلى أن تمتد دائرة الأجراس فوق جميع معامل الفولاذ ، ومصافي النفط ومصانع الطاقة في أواسط خريف جنوب شيكاغو ، حيث يتوجه جميع ، الكرواتيين والأوكرانيين واليونانيين والبولنديين والسود المحترمون نحو كنائسهم ليستمعوا إلى القداس أو لينشدوا الأناشيد الدينية . كان وودي منشداً جيداً وما زال يحفظ الترانيم حتى اليوم ، يقوم بالشهادة أيضاً حين ترسله العمة ريبيكا لينهض ويتحدث في كنيسة مليئة بالمهاجرين من الدول الآسكندنافية ، عن كيفية تقبّله وهو الصبي اليهودي الإيمان بيسوع المسيح . كانت تدفع له مقابل هذا خمسين سنتاً . كانت هي التي تقوم بانفاق الأموال ، وهي كاتبة الحسابات وهي المسؤول المالي والمدير العام للارسالية ، لم يكن الدكتور الكاهن يعلم شيئاً عن سير العمل . كان دوره يتلخص في اثارة حماسة الناس فقد كان واعظاً رائعاً واصيلاً . ولكن ماذا عن وودي نفسه ، كان لديه ايضاً بعض الحماسة ومقرّباً من الدكتور الكاهن ، وقد علّمه الأخير كيف يرفع عينيه وله الفضل في تعليمه هذا المستوى الأعلى من الحياة ، وكان الباقي هو شيكاغو - طرق شيكاغو التي أصبحت طبيعية لدرجة أن أحداً لم يعد يجادل فيها .

فعلى سبيل المثال ، في عام ١٩٣٣ (أيام قديمة ، وأي قديمة) ، وفي المعرض العالمي لتقدم القرن وعندما كان وودي ما يزال غضاً يجر عربة صغيرة بدولابين ، ويركض

بقدميه القويتين ، مرتدياً قبعة القش الصغيرة فيما المزارعون الحمر المفتولي العضلات - ركابه السكارى - يسخرون منه ضاحكين ، ويطلبون منه جلب بنات الهوى ، كان هو على الرغم من كونه طالباً في السنة الأولى ، بكلية اللاهوت ، لا يرى خطأ عندما تسأله الفتيات أن يدبر أمرهن بمواعيد أو أن يتقبل البقشيش من الطرفين . فقد كان يتعانق في غرانت بارك مع فتاة قوية ، اضطرت أن تعود إلى البيت بسرعة لارضاع طفلها . ركبت بجانبه في العربة باتجاه الويست سايد ، كانت رائحة الحليب تفوح منها وهي تضغط على مقبض العربة ، حتى بللت سترتها . كانت هذه عربة شارع روزفلت . ثم وفي الشقة التي تعيش فيها مع أمها لا يتذكر وودي أنه شاهد أي زوج هناك . ما تذكره فقط هو رائحة الحليب القوية . وبدون أن يشعر بأي تناقض وفي اليوم التالي ، قرأ في العهد الجديد باليونانية - النور يشع في الظلمات والظلمات لم تدركه .

وطوال الفترة التي قضاها مهرولاً بين قصبات الأسواق ، كانت تخامره فكرة وحيدة ، ليس لها علاقة بهؤلاء الأقوياء الشبقين الذين يريدون قضاء وقت ممتع في المدينة . ولكن الهدف والسبب والتصور (لم يكن يستطيع تفسير سبب فكرته هذه فكر الدلائل كانت ضدها) . كان يتضمن فكرة الله التي مفادها بأن يكون هذا العالم عالم محبة ، وأنه سيعيد هذا الأمر في النهاية ويصبح برمته عالماً للمحبة . لم يكن ليبوح بهذا الأمر لمخلوق ، لأنه كان يرى شدة غبائه في هذا الأمر ، كان أمر خاص وغبي . وفي نفس الوقت كانت العمة ريبيكا على حق ، عندما قربت فمها من اذنه وقالت له بشكل شخصي : أنت أرعن صغير مثل أبيك .

كان هناك ما يشهد على هذا الكلام ، أو ما يمثل شاهداً بالنسبة لانسان عجول مثل ريبيكا . نضج وودي بسرعة - كان مضطر لذلك - لكنه ظل يتساءل : كيف تتوقعون من شاب في السابعة عشرة من العمر أن يقوم بتفسير وجهة نظر ومشاعر امرأة في أواسط العمر؟ قامت بازالة ثدييها مثل ريبيكا؟ أخبره موريس أن هذا الأمر يحصل فقط مع النساء اللواتي تعرضن للاهمال ، وهو يعتبر نذير لهن . كما أخبره موريس بأن الأثداء التي لم تداعب بالتقبيل ، والتدليل تبقى عرضة للاصابة بالسرطان . كان هذا هو ما يسمى نداء الجسد وبدا ذلك صحيحاً . لوودي . وعندما

حاول أن يطابق هذه النظرية في مخيلته على الدكتور الكاهن ، وجدها مطابقة – فلم يكن يستطيع تخيل الدكتور الراهب وهو يداعب ثديي ريبيكا . أبقت نظرية موريس ، عينا وودي تنتقلان من الأثداء إلى الأزواج ومن الأزواج إلى الأثداء ، وما زال يفعل ذلك . يتطلب الأمر رجلاً استثنائياً في ذكائه كي لا يتأثر طوال حياته بنظريات والد وودي الجنسية ، ولم يكن وودي يحمل هذه الصفات .

وكان يعرف ذلك ، شخصياً كان يخرج عن طريقه ، وهو يحاول ان يفعل مع النساء ، بهذا الخصوص ما يعتبره صحيحاً . ما تتطلبه الطبيعة . كان هو وأبوه رجلين صلبين عاديين . ولكن احداً مهما بلغت صلابته ، لا يستطيع تجنب التفكير بهذه الأمور الممتعة .

الكاهن الدكتور يعظ ، وكانت ربيكا تعظ ، وكذلك السيدة سكوغلند الثرية كانت تعظ في ايفانستون ، وكانت أمه تعظ وكم كان أبوه يخطب في الهواء الطلق . كان الجميع كذلك ، الفوضيون ، الاشتراكيون ، الستالينيون ، دافعوا الضرائب ، الصهاينة واتباع تولستوي والنباتيون والوعاظ المسيحيون المتشددون – من تشاء ، قوة عضلية ، أمل ، طريقة للحياة أو الخلاص ، احتجاج . . . لماذا تنفلت مكابح أوجاع الناس من جميع الأعمار حين يتم غرسها في أمريكا؟

وتلك المهاجرة السويدية الرقيقة (اوسي كما يلفظون اسمها) ، والتي كانت تعمل طباخة لدى عائلة سكوغلند ، ثم تزوجت ابنهم الأكبر واصبحت فيما بعد أرملته الغنية المتدينة – كانت تناصر الدكتور الكاهن . لا بدّ أنها تربّت لتصبح فتاة كورس . يبدو أن النساء قد فقدن سر رفع شعرهن ، على شكل الجديلة الرفيعة المستوى التي كانت تضعها ، كانت اوسي تولي وودي رعاية خاصة وتدفع قسط دراسته في معهد اللاهوت وقال الأب . . . . . .

في يوم الأحد هذا ، الذي يعمه السلام فور عودة الأجراس إلى الهدوء ، وينفرد بساطه الخريفي باكثف وأجمل عشب حريري أخضر قبيل حلول الصقيع ، ويصبح الدم في رئتيك اشد حمرة ، مما يستطيع هواء الصيف المفعم بالأوكسجين ان يفعل . كما لو أن الحديد في جسدك كان متعطشاً له . حتى رعشة البرد في كل لهثة من أنفاسك . والأب – ستة أقدام تحت التراب لن يحس بهذه اللسعة السعيدة ، مرة

أخرى . كان آخر الأجراس قد ترك الهواء المشرق يتموج اهتزازاً .

في عطلة نهاية الأسبوع ، تعود شواغر السنوات المؤسسية إلى المخزن وتزحف تحت بوابة شقة وودي . كانت تبدو فارغة في أيام الأحاد كما الكنائس خلال الأسبوع . قبل أن يبدأ عمل النهار .

وقبل أن تتحرك الشاحنات والجماعات ، كان وودي يمارس رياضة الركض لمسافة خمسة أميال مرتدياً سترته «الأديداس» . ولكن ليس في هذا اليوم المخصص للأب رغم أن الطقس كان مغرياً للخروج ونفث الأحزان عن الصدور المثقلة . تضايق وودي كثيراً هذا الصباح بسبب كونه وحيداً . أخذ يفكر أنا وهذا العالم - العالم وأنا . بمعنى أنه كان يوجد دائماً ما يفعله في يوم مثل هذا بعض النشاط ليتسلى به ، نزهة أو زيارة ، رسمة يرسمها (كان هاو وخلاق) ، بعض التدليك ، أو وجبةطعام - شيئاً يضعه درعاً بينه وبين تلك الوحدة المزعجة التي تعامل العالم وكأنه مستودع لها - ولكن الأب - يوم الخميس الماضي ، اضطر وودي أن ينام بجانب الأب على سرير المستشفى ، لأنه ظل ينتزع ابر المصل الذي تغذي شرايينه . كانت الممرضات يعدن غرزها مرة بعد الأخرى إلى أن أدهشهم وودي جميعاً ، حين تسلق السرير ليثبت العجوز من ذراعه - بالهون يا موريس ، بالهون ، ولكن الأب ظل يكافح بوهن محاولاً نزع البرابيج . عندما توقف قرع الأجراس ، لم يلاحظ وودي ان بحيرة من الهواء قد غطت مملكته في مخزن سيلبست للقرميد . ما رآه وسمعه ، كان مركبة حمراء قديمة من مركبات شوارع مدينة شيكاغو . من النوع الذي يشبه لونها لون تلك الثيران المعدة للذبح . تلك الأنواع من المركبات التي كانت تسير قبل بيرل هاربر ، ببطنها الضخم وقرقعتها ومقاعدها ، المتينة المصنوعة من الروطان ومقابضها النحاسية التي يتمسك بها الركاب الواقفون ، كانت هذه السيارات تقف في أربع محطات كل ميل . وتسير وكأنها تتخبط تخبطاً في حركتها . وكانت تطلق روائح نتنة من الكاربوليك أو الأوزون ، وترتج عندما يتم شحن ضاغطات الهواء ، كان موصل الكهرباء فيها يُشدّ بواسطة حبل اشارة معقود لسحبه ، بينما سائقها يضرب قرص القدم بأكعابه الغاضبة .

تذكر وودي نفسه وهو يركب السيارة مع أبيه في شارع الويسترن وسط عاصفة

ثلجية عنيفة ، كان الاثنان يرتديان معاطفهما الصوفية ، وقد تسلخت يديهما ووجهيهما بينما الثلج يعضف بالجناح الخلفي ، وعندما فتحت الأبواب وعبروا الأرضية المعدنية الطولية ، لم يكن في السيارة دفء كافٍ لاذابة الثلج وكان شارع ويسترن اطول خط سيارات في العالم كما كان يقول المتحمسون ، وكأن الأمر يستحق المفاخرة . كان طوله ثلاثة وعشرون ميلاً وقد صنع وفق مخططات مرسومة لينتهي في مربع على شكل حرف T تحيط به المصانع والمخازن والمخارط وساحات السيارات المستعملة ومباني ايواء العربات ومحطات الوقود وصالات الدفن وبنايات الخدمات ذات الست طوابق وساحات السكراب وهكذا ، من المروج الجنوبية حتى ايڤانستون في الشمال . كان وودرو وأبيه متجهين إلى شارع هوارد في ايڤانستون لرؤية السيدة سكوغلند . وعند نهاية الخط كان عليهم السير على أقدامهم مسافة خمسة صفوف من البنايات . وكان الهدف من الزيارة جلب بعض النقود للأب . كان أبوه قد أقنعه بمساعدته في ذلك رغم غضب الأم والعمة ريبيكا لو اكتشفتا الأمر ، ولكن وودي كان مكرهاً على الأمر وخائف .

جاء اليه موريس وقال له :

– يا بني لدي مشكلة سيئة .

– ما السيئ فيها يا أبي ؟

– لقد أخذت هالينا من نقود زوجها لأجلي وعليها أن تعيدها قبل أن يفتقدها بوجاك العجوز ، فقد يقتلها لو عرف .

– ولماذا فعلت ذلك؟

– يا بني أنت تعلم كيف يجمع وكلاء المراهنات المال ، يرسلون شخصاً ليروّعك ، سوف يشجون رأسي إلى نصفين إذا لم أدفع .

– أنت تعلم يا أبي بأني لا أستطيع أخذك إلى السيدة سكوغلند .

– ولم لا؟ أنت ابني أليس كذلك؟ والمرأة العجوز تريد أن تتبناك ، أليس كذلك؟ ألا يجوز أن أحصل على شيء منها لحل مشكلتي؟ هل أنا – شخص غريب؟ وماذا عن هالينا؟ فقد راهنت بحياتها من أجلي وها هو ابني يرفض مساعدتي .

– آه ، بوجاك لن يؤذيها .

- سوف يضربها حتى الموت يا وودي .

كان بوجاك قصير القدمين ، يتشابه لون عينيه مع لون ثياب العمل الرمادية القاتمة التي يرتديها . تتركز كل قوته في ذراعيه الأماميتين الماهرتين في طرق المعادن ، واصابعه السوداء التي تشبه المعدن . كان بوجاك خدوماً ولكن الأب يقول أنه يملك بداخله عنفاً كبيراً ، يملك مرجل فولاذ يغلي داخل صدره الضيق . لم يكن وودي يرى أي عنف فيه على الاطلاق ، فلم يكن بوجاك رجلاً يحب المشاكل . واذا كان لا بد من وجود أمر فهو خوفه من أن يتآمر موريس وهالينا لقتله .

ولكن الأب لم يكن بقاتل مأجور ، وهالينا كانت امرأة هادئة وجدية كان بوجاك يحتفظ بمدخراته في القبو ، (كانت البنوك في حالة افلاس) ، وكان اسوأ ما يمكن أن يفعلاه هو أن يأخذا بعض النقود بنيّة اعادتها ف يما بعد . ويرى وودي أن بوجاك كان عاقلاً ، متقبلاً بليّته بهدوء . كان يتطلب من هالينا الحد الأدنى من الخدمات . طبخ الطعام وتنظيف المنزل واظهار الاحترام ، ولكنه وقع خطأ أمام مسألة السرقة ، لأن النقود أمر مختلف ، وتعتبر بالنسبة له أمراً حيوياً ومادة أساسية . فاذا قاما بسرقة مدخراته فقد يقوم من باب الاحترام لهذه المادة ، ولنفسه بعمل شيء . ولكن لا يمكنك أن تجزم بأن الأب لم يقم باختراع قصة محصلي ، وكلاء الرهان والسرقة والوعيد - وحتى القصة كلها . فقد كان قادراً على ذلك ، وستكون أحمقاً أذا لم يساورك الشك فيه . كان موريس يعلم بأن الأم والعمة ريبيكا قد أخبرتا السيدة سكوغلند عن شروره - فقد صورتاه لها بالألوان ، اللون الأرجواني كناية عن الشر . واللون الأسود كنايةعن روحه السوداء ، واللون الأحمر للهب الجحيم - صورتاه لها مقامراً مدخناً سكيراً زانياً وثنياً وهاجراً لامرأته . لذلك كان الأب ينوي أن يصل اليها . وكان الأمر يشكل خطراً على الجميع ، كانت مصاريف الدكتور الكاهن تغطّى من قبل السيدة سكوغلند ، وكانت هذه الأرملة تدع أقساط معهد وودي كما كانت تشتري الثياب للأختين الصغيرتين .

أصبح وودي الآن في الستين ، ذو جسم ملآن وضخم ، شبيه بصورة المنتصر في المادية الأمريكية . فها هو يغوص في كرسيه الضخم ويتحسس بين اصابعه جلد مساند ذراعيها الأنعم من بشرة امرأة متحيراً ومشوش الذهن في أعماقه ، بسبب

بعض الوصمات في داخله . ووصمات من الضوء في دماغه ووصمة تختلج في صدره ، هي مزيج من الألم والمتعة (كيف وصلت إلى هناك) ، وقد تغضن الجلد بين عينيه نتيجة للتفكير الشديد تاركاً أثراً لصداع جانبي . لماذا رضي أن يسير على طريقة الأب؟ لماذا وافق على لقائه ذلك اليوم في مؤخرة غرفة حوض الأشباح المعتمة؟

– ولكن ماذا ستقول للسيدة سكوغلند؟

– المرأة العجوز؟ لا تقلق لدي الكثير لاخبرها به ، وكله حقيقي ، الست أحاول ان انقذ دكان التنظيف ، والغسيل الصغيرة التي أملكها؟ ألن يأتي رسول المحكمة لتثبيت الأمور في الأسبوع القادم؟

أخذ الأب يتدرب على نفحات صوته داخل سيارة ويسترن افنيو . يعتمد على نضارة وودي وعافيته ، ان هذا الصبي الذي ينظر في عينيك مباشرة مناسب جداً لدعم حجته .

هل ما تزال عواصف الشتاء في شيكاغو كما كانت عليه؟ بدت هذه الأيام أقل شراسة . كانت العواصف الثلجية تهبط عليهم مباشرة من أونتاريو . من القطب الشمالي جالبة معها الثلج على ارتفاع خمسة أقدام بعد الظهر . بعد ذلك تخرج الآليات الصدئة الخضراء من محطاتها ، بفراشيها التي تدور على الجانبين ، لتنظف الشوارع من الثلج ، تتبعها عشرة أو اثنتي عشر سيارة ببطء ، أو تنتظر وراءها من صف إلى صف . كان هناك تأخير طويل عند بوابات ريڤرڤيو بارك ، جميع الألعاب الألية تم تغطيتها بسبب الشتاء ، لعبة ظهر التنين ، آلات الرقص . الأنابيب الملتوية ولعبة اللف والدوران . كلها تم تجميعها من قبل الميكانيكيين والكهربائيين ، رجال مثل بوجاك ، صانع الآلات الماهر في شؤون المحركات . كانت العاصفة قد بدأت تضرب خلف الأبواب ولم تعد تستطيع أن ترى بعيداً ، فقط بعض المصابيح التي كانت تشتغل فوق امتداد الأسيجة . عندما مسح وودي البخار عن الزجاج ، كانت اسلاك شبك حماية النوافذ تنوء تحت ثقل حبات الثلج المتساقطة . وكان الناظر إلى الأعلى يستطيع رؤية تتابع الرياح وهي تتدفق من الشمال . كان يجلس في المقعد أمامهم اثنان من عمال تحميل الفحم ، بخوذهم الجلدية وقد وضعوا مجارفهم بين أرجلهم في طريق عودتهم

من العمل . كانت تفوح منهما رائحة العرق والفحم وأكياس الخيش عابقة بالغبار الأسود الذي يلمع على أجسادهم هنا وهناك .

لم يكن هناك الكثير من الركاب ، فالناس لا تغادر بيوتها في مثل هذا الجو . مثل هذا اليوم يصلح لأن تجلس وتلصق رجليك بالمدفأة ، مغلقاً أبوابك الداخلية والخارجية . فقط شخص يعرف كيف يحتال للحصول على بغيته مثل الأب يمكن أن يخرج ويناطح هذا الجو . عاصفة مثل هذه قد تخرج عن نطاق البوصلة ولكنها لا تخرج عن نطاق ميزان بشري يضع خطة للحصول على خمسين دولاراً ، خمسين عسكرياً ، نقود حقيقية عام ١٩٣٣ .

– ان هذه المرأة مجنونة بك ، قال الأب :

– انها امرأة محترمة ولطيفة معنا جميعاً .

– من يعلم ماذا يدور في مخيلتها ، أنك صبي قوي ، لست أي صبي .

– أنها امرأة متدينة ، وتعرف دينها جيداً .

– حسناً ، ليست امك هي الوحيدة التي تدعى أهلك ، لن تقوم هي وريبيكا وكوفنز بحشوك بأفكارهم . أنا أعلم أن أمك تريد أن تمسحني من حياتك ، واذا لم أمد لك يدي ، فلن نستطيع أن تفهم ماهية هذه الحياة . لأنهم لا يفهمون الحياة – هؤلاء المسيحيون السخفاء .

– نعم يا أبي .

– لا أستطيع أن اساعد الفتيات بشيء ، فهما ما تزالان صغيرتين . آسف لذلك ، ولكني لا استطيع أن أفعل لهما شيئاً ، الأمر مختلف معك .

– كان يريدني أن أصبح أمريكياً مثله .

أخّرتهم العاصفة ، بينما كانت القاطرة الشبيهة بلون قطيع البقر تنتظر ربطها بالعربة ، وسط هذه الريح المجنونة التي تعصف وتدوي هائجة . عند شارع هوارد . كان عليهم أن يسيروا مشياً على الأقدام باتجاه الشمال .

– أنت ستبدأ بالحديث أولاً ، قال الأب كان وودي يملك قدرات بائعي المتاجر أو بائعي البسطات . وكان مدركاً لذلك حالما أخذ يقف على قدميه في الكنيسة ، ليشهد أمام خمسين أو ستين مستمعاً . ورغم أن العمة ريبيكا كانت توفيه حقه في

قدرته على ذلك ، الآ أنه كان يشعر أن قلبه هو يتأثر حين يتحدث في الإيمان ، ولكن قلبه هذا كان يغيب أحياناً ودون انتباه ، بينما هو يتكلم عن الدين . ولم يكن يستطيع أن يعثر عليه في أي مكان . وبغياب قلبه كانت سلوكياته الجادة تفتح له طريقه . وكانت يعتمد في ذلك على وجهه وصوته وعلى مسلكيته ، ثم تبدأ عيناه بالاقتراب من بعضهما البعض أكثر وأكثر . وعندها كان يشعر بمسحة من نفاق تهب عليه ، حتى يكاد وجهه يخونه عندما يلويه . كان الابقاء على ملامح الصدق . يأخذ منه كل جهده ، لذلك عندما لا يعود باستطاعته تحمل هذه السخرية يقع في مطب العبث . ومن هذا الباب كان الأب يدخل مباشرة عبر كل هذه الحقول المتقطعة فجوة فجوة . حتى يصل اليه بأنفه الملوي . ووجهه العريض . فيما يتعلق بالأب لا يمكنك أن تفكر على أسس الصدق واللاصدق ، فالأب كان مثل الرجل الذي تقول عنه الأغنية - يريد ما يريد عندما يريد - . كان الأب مادياً ومستهلكاً وجنسياً . وحين يريد أن يتكلم بجدية ، يحدثك عن موضوع غسل تحت الأبطين ، أو ما بين الرجلين أو تجفيف اصابع قدميك ، أو طبخ العشاء أو البصل ، أو جولة بوكر ، أو عن حصان معين في السباق الخامس في أرلنغتون . كان الأب يمثل عناصر الطبيعة ولذلك كان غالباً ما يريحك من تعقيدات الدين وتناقضاته . هنا كانت الأم تعتقد نفسها روحانية . ولكن وودي كان يعلم أنها كانت تخدع نفسها . طبعاً بالنسبة للعقلية الانجليزية ، لم تكن تستسلم أبداً وكانت دائماً تحدث الله أو تتحدث عنه - ارجوك يا الهي - ان شاء الله - سبحان الله . ولكنها كانت امرأة واقعية متواضعة تقوم بمهماتها الواقعية ، مثل اطعام الفتيات وحمايتهن وتهذيبهن والحفاظ على طهارتهن . وقد كبرت هاتان الحمامتان حتى افرطتا في الوزن وثقلت أوراكهما وأفخاذهما ، وأصبحت وجوههما تظهر طويلة وهزيلة واختل عقلهما - كانتا طيبتين ولكن الاختلال كان واضحاً ، كانت باولا مرحة في سذاجة وهبل أما جوانا فكانت تنتابها نوبات احباط .

- سوف أفعل ما استطيع لأجلك ولكن عليك أن تعدني بأن لا تحرجني أمام السيدة سكوغلند .

- انك قلق لأن لغتي الانجليزية سيئة؟ هل أحرجك؟ إن لدي لهجة مقلدة .

– ليس هذا ولكن لهجة كوڤنر ثقيلة وهي لا تمانع في ذلك .

– بحق الجحيم! من يكون هؤلاء المعتوهين ليتكبروا علي . أنت عملياً أصبحت رجلاً ، ولوالدك الحق أن يطلب منك المساعدة ، انه في أزمة وانك قد احضرته إلى بيتها لأن قلبها كبير وليس لك أحد تلجأ اليه .

– لقد فهمت قصدك يا أبي .

وقف الرجلان اللذان يعملان في الفحم عند شارع ديڤون ، كان أحدهما يرتدي معطف امرأة . كان الرجال يلبسون ثياب النساء في تلك السنوات وكذلك النساء يفعلن هذا عندما لا يكون هناك خيار آخر .

كانت ياقة المعطف المكسوة بالفرو شائكة من السخام المبلل . جرّ الأثنان مجارفهما الثقيلة ، وساروا نحو مقدمة العربة . توقفت العربة ببطء .كانت الساعة ، قد جاوزت الرابعة عندما وصلا إلى نهاية الخط ، والجو بين رمادي وأسود في حين استمر هطول الثلج مندفعاً بحركات دائرية تحت مصابيح الشوارع .

في شارع هوارد كانت السيارات متوقفة في جميع الزوايا وقد هجرها ركابها . كانت الأرصفة مغلقة . عبر وودي الطريق نحو ايڤانستون وتبعه الأب وهو يسير في وسط الشارع عبر الأثلام التي حفرتها الشاحنات في الثلج . ظلا يناطحان الريح عبر أربعة صفوف من البنايات ، إلى أن شق وودي طريقه وسط الثلج المتراكم نحو المنزل المحاط بالثلج . وقد اضطر الاثنان إلى دفع الباب الحديدي ، بسبب تراكم . الثلج خلفه . كان هذا البيت الرفيع المستوى مؤلف من عشرين غرفة ، ولا يسكن فيه الا السيدة سكوغلند وخادمتها المتدينة هجورديس . بينما كان وودي والده يمسحان الثلج عن معطفيهما الصوفيين ، وفيما أنهمك الأب بتنظيف حاجبيه الضخمين من العرق والثلج بطرق وشاحه ، اهتزت سلاسل الأقفال وكشفت هجورديس فتحات الهواء في باب العواصف الزجاجي بعد أن أدارت المزلاج الخشبي . كان وودي يدعوها «بوجه الناسك» . فأنت لم تعد ترى نساء مثلها . إذ لا توجد على وجهها أية ملامح انثوية ، جاءت متذمرة كما خلقها ربها وقالت :

– من أنت وماذا تريد؟

– أنا وودرو سلبست ، هجورديس؟ أنا وودي

- ان حضورك غير متوقع .

- كلا . ولكن نحن هنا .

- ماذا تريدان؟

- لقد جئنا لنرى السيدة سكوغلند

- ولماذا تريدان رؤيتها؟

- فقط لنخبرها بأننا هنا .

- يجب أن أبلغها عن سبب مجيئكما بدون موعد مسبق .

- لماذا لا تقولين لها أن وودي ووالده يريدان رؤيتك وما كانا ليأتيا في جو عاصف مثل هذا لو لم يكن لامر هام؟ كان حذرها ، حذر امرأة تعيش لوحدها ، مفهوماً كونها من نساء الجيل القديم المحترمات أيضاً . لم يعد يوجد مثل هذا الاحترام الآن في بيوت ايفانستون بشرفاتها الكبيرة وحدائقها الواسعة . وبوجود خادمة مثل هجورديس تحمل في طيات حزامها مفاتيح كل حجرة ، وكل خزانة وكل جرار ملابس ، وحتى كل صندوق مقفل في قبو المنزل ، وفي منطقة مسيحية انجيلية راقية ، ومحافظة مثل ايفانستون . لم يكن يسمح للبائعين المتجولين ان يقرعوا الأبواب الأمامية . فقط الضيوف المدعويين . والآن بعد مسيرة عشرة أميال في العاصفة جاءء هذان المتسولان من الجانب الغربي من المدينة ، إلى هذا القفر حيث تعيش السيدة السويدية المهاجرة ، والتي كانت هي نفسها طباخة وأصبحت اليوم أرملة محسنة . تحلم وهي محاطة بالثلج ، وأغصان الليلك المتجمدة تقرقع تحت نوافذها ، بقدس جديدة وبعث جديد ويوم الحساب الأخير . ومن أجل تسريع عملية البعث الثانية وما يعقبها ، فان عليها أن تريح قلوب هذين المتسكعين المخادعين ، الذين قدما في العاصفة . بالتأكيد سوف تسمح لنا بالدخول .

بعد أن عادت الحرارة فجأة إلى ذقنيهما الملفعتين ، شعر الأب ووودي بما فعلت بهما العاصفة ، فقد كانت خدودهما تشبه لوحاً مجمداً ، وقفا يرجفان ، ويحكان جلدهما في القاعة الأمامية ، والماء يقطر من ثيابهما . كانت تسمى قاعة أمامية عرضاً . وكان عمود بيت الدرج منحوتاً بصور ريفيه ، وينتهي في الأعلى بنافذة زجاجية كبيرة ملونة رسمت عليها صورة المسيح والمرأة السامرية . كان هناك مسحة

نصرانية في الهواء ربما . عندما يكون مع الأب يميل وودي إلى ابداء ملاحظات يهودية ، أكثر من أي وقت آخر . كانت صفات الأب اليهودية تتلخص في أنه لا يستطيع قراءة أي صحيفة ، الا باللغة اليدية . فقد كان يعيش مع هالينا البولندية ، وكانت زوجته تعيش مع المسيح وابنه وودي يأكل من لحم خاصرة الخنزير المدخن وغير المطبوخ . ومع ذلك فقد كان يبدو عليه من وقت لآخر انطباعاً يهودياً .

كانت السيدة سكوغلند من أنظف النساء - أظافر يديها - رقبتها البيضاء ، اذناها . كل تلميحات الأب الجنسية لوودي ذهبت هباء لأنها كانت شديدة النظافة ، مما جعل وودي يتخيل عندما يراها شلال ماء ، لضخامة بنيتها . كان صدرها كبيراً . مخيلة وو دي تحقق في ذلك . يعتقد انها تبقي جسدها مشدوداً جداً . ولكنها عندما رفعت ذراعيها مرة لتفتح النافذة ، وقف وودي مشدوهاً ، وهو يرى صدرها بجانبه لا يشده شيء . شعرها يشبه خيوط الرافيا التي يتوجب عليك ان تبلها قبل أن تحيكها لتحولها إلى سلة . كان باهتاً جداً . خلع الأب معطفه ولم يكن يرتدي أي بذله تحته ، وقف بسترته وكانت نظراته الحادة توحي بأنه شخص شرير . وأصعب شيء على آل سلبست ان يعطوا انطباعاً بالصدق مع وجود تلك الأنوف الكبيرة والملوية التي يحملونها وسط وجوههم الواضحة المعالم . كانت كل امارات الغش بادية على وجوههم . وكان هذا الأمر يحير وودي . هل يعود سببه إلى عضلات الوجه أو أن المشكلة كانت أساساً في تركيبة الحنك - الزوايا البارزة للحنك . أو ربما بسبب القدرة على التبصر الموجودة في قلوبهم . كانت الفتيات يسمين الأب ديك تريسي ولكن ديك تريسي كان انساناً صالحاً . من الذي يستطيع الأب أن يقنعه ، وهنا التقط وودي هذا الاحتمال العابر . عندما تريد أن يحكم على الأب من مظهره ، فان أي شخص حساس قد يشعر بالندم اذا حكم على انسان خطأ بسبب مظهره أو بسبب شكل وجهه فقط ، لا بد أن البعض فعلوا ذلك إلى أن يتمكن منهم . ولكن هجورديس لم تكن كذلك ، كان يمكن أن ترمي الأب في الشارع الآن وكل أوان مع وجود عاصفة أو بدون وجود عاصفة .

فرغم كونها متدينة ، كانت هجورديس حكيمة أيضاً ، لم تكن لتصل إلى ادارة منزل مثل هذا بعد عمل أربعين سنة في شيكاغو من أجل لا شيء . قادت السيدة

سكوغلند (اوسي) ، زائريها إلى الغرفة المواجهة وهي أكبر غرفة في البيت ، وتحتاج إلى تدفئة اضافية بسبب ارتفاع سقفها إلى خمسة عشر قدماً . وبسبب نوافذها العالية . كانت هجورديس قد تركت مدفأة الصالة مشتعلة . وهي مدفأة أنيقة يوجد على رأسها تاج مصنوع من معدن النيكل يؤدي أوتوماتيكياً ، حين تحريكه إلى رفع مفصل غطاء المدفأة . كان غطاء المدفأة تحت التاج مغطى بالصدأ ، والسخام مثله مثل أي غطاء آخر . وتحت الغطاء يتم تلقيم الفحم في الكوة ، وخاصة فحم الأنثرسايت ، الذي يقرقع في الداخل كحبوب الكستناء . كانت النار تأخذ شكل قبة مرئية عبر الهيكل المؤطر . كانت غرفة جميلة مغطاة برسومات على الخشب ، وكانت المدفأة موضوعة داخل مدخنة الموقد الرخامي . أما أرضية الغرفة فقد تغطت بالواح خشبية مزخرفة ، وبسجاجيد الأكسمنستر وقطع سجاد مخصلة بلون التوت البري من العهد الفكتوري ، عليها خزائن مكشوفة الرفوف ، وموضوعة داخل مجرات عرض خصوصية محاطة بصف من المرايا ، صفت عليها الأباريق الفضية والجوائز التي ربحتها بقرات السيدة سكوفلند . وملاقط مزخرفة للسكاكر واباريق زجاجية وكؤوس . كما كانت هناك بعض الأناجيل ورسومات عن المسيح والأرض المقدسة ، وتلك الرائحة النصرانية الخفيفة وكأن الأشياء قد غسلت بمحلول خفيف من الخل .

– سيدة سكوغنلند ، لقد أحضرت اليك والدي ، اظنك لم تقابليه من قبل . قال وودي .

– نعم يا سيدتي . أنا هو سلسبست .

كان الأب يبدو قصيراً ولكن بارعاً تحت سترته . كان منظر بطنه البارز يبدو صلباً دون ترهل ، كان رجل يملك بطناً صلباً . لم يكن يخاف من أحد . ولم يقدم نفسه ابداً كمتسول . ولم يتذلل لأحد أبداً . اشعرها بطريقة قوله «يا سيدتي» ، بأنه شخص مستقل ويعرف كيف يدبر اموره ، دائماً يصرح بأنه يعرف تماماً كيف يتعامل مع النساء؟ أما السيدة سكوغلند ذات الخمسين عاماً فكانت تبدو أنيقة وهي تحمل سلة محاكة بلون شعرها . كانت تكبره بثماني أو عشرة سنوات .

– لقد طلبت من أبني ان يحضرني اليكم لأني أعلم عن أفعالك الخيرة معه ومن الطبيعي ان تتعرفي على كل من والديه .

– يا سيدة سكوغلند ان والدي يعاني من ضيقة ولم أجد أحداً سواك أسأله العون .

كانت هذه هي المقدمة التي أرادها الأب ومن هنا انطلق يروي للأرملة قصته ، حول العمل في غسل الملابس وتنظيفها والدفعات المستحقة عليه ، وشرح لها عن الانذار التي تلقاه وعن المطلوب منه ، وعن مكتب مأمور التنفيذ وماذا سيفعلون به ثم أضاف أنا رجل وضيع أحاول أن أعيل نفسي .

– انك لا تعيل أطفالك . قالت السدة سكوغلند .

– هذا صحيح قالت هجورديس .

– أنا لا أملك ما أعيلهم به . هل سأتردد لو كنت أملك ذلك؟ هناك طوابير من الناس ، تقف أمام الخبز والحساء في البلدة ، لست أنا وحدي . ما أملكه هو ما أعيش به . هل أعطي الأولاد أباً سيئاً؟ هل تظنين أن ابني قد يحضرني اليك لو كنت أباً سيئاً؟ انه يحب أباه ويثق به ويعرف أنه أب جيد . كلما بدأت عملاً أجد نفسي خارجه ، ولكن هذا العمل سيكون عملاً صغيراً وجيداً إذا تمكنت من الإمساك به ويعمل معي ثلاثة أشخاص وأقوم بدفع رواتبهم واذا أغلقت المكان ، فسينتهي بهم الأمر إلى الشارع . سيدتي سوف أوقع لك مذكرة بأنني سأدفع ما آخذه منك بعد شهرين . قد أبدو رجلاً عادياً ، ولكني رجل أهل للثقة وأعمل بجد واجتهاد . صعق وودي عندما سمع كلمة ثقة من أبيه ، نفخة بوق لفرقة موسيقية ، انطلقت من الزوايا الأربع لتخدر العالم بأجمعه . مخادع! هذا هو الخداع بنفسه . و لمكن السيدة سكوغلند الغارقة بالتزاماتها الدينية كانت بعيدة عن سماعه ، على الرغم من أن كل انسان عاقل في هذه البقعة من الأرض ، يعيش حياة عملية ، ولا يملك شيئاً يقوله لأي كان ، حتى جيرانك لا يملكوا أن يقولوا لك شيئاً ما لم تكن اتصالاتك معهم مبنية على أسس عملية . أما السيدة سكوغلند فكانت رغم كل ثرائها تعيش في عالم غير هذا ، كأن ثلثاها خارج هذا العالم .

– أعطني فرصة لا ظهر ما بي . قال الأب وسترين ما يمكن أن أفعله لأولادي .

ترددت السيدة سكوغلند ، ثم قالت بأن عليها أن تصعد إلى غرفتها في الأعلى وتصلي طلباً للهداية في هذا الشأن يمكنكما الجلوس والانتظار . كان هناك مقعدان

هزازان قرب المدفأة رمقت هجروديس الأب بنظرة عابسة (شخص خطير) ، ثم القت على وودي نظرة عتاب .

(فقد احضر شخصاً غريباً وخطيراً وفوضويا ليؤذي سيدتين مسيحيتين لطيفتين) ، ثم بعد ذلك سارت مع السيدة سكوغلند .

ما إن غادرتا الغرفة حتى وثب الأب من كرسيه الهزاز وقال بغضب : ماذا عن هذه الصلاة؟ هل يجب عليها أن تستشير الله اذا أرادت أن تقرضني خمسين دولاراً .

أجابه وودي : لا إن الأمر لا يعنيك شخصياً . ولكن هكذا يتصرف هؤلاء المتدينون .

- كلا ، قال الأب سوف تعود وتخبرنا بأن الله لم يسمح لها بذلك .

لم يرتح وودي لهذا الكلام ، ظن أن الأب كان متحاملاً ، قال له كلا إنها صادقة يا أبي ، حاول أن تفهم أنها عاطفية وعصبية وصادقة وتحاول أن تفعل ما هو صواب مع الجميع .

أجابه الأب : وهذه الخادمة سوف تقنعها بأن لا تفعل ذلك ، أنها قاسية ويبدو من وجهها أنها تعتبرنا زوجاً من المحتالين .

- ما الفائدة من الجدال ، هكذا قال وودي . قرّب كرسيه من المدفأة ، كانت قدماه مبللتين بالكامل ، لا تنشفان . وكان اللهب الأزرق يخرج من المدفأة مثل قطيع سمك مائي وسط نار الفحم . اتجه الأب نحو الخزانة الصينية المكشوفة ، الرفوف وعالج مقبضها ثم انتزع سكيناً من جيبه ، وخلال ثوان فتح القفل الزجاجي وتناول صحناً فضياً .

- ماذا تفعل؟ سأله وودي .

أما الأب الهادئ المتوازن فقد كان يعرف تماماً ما هذا الشيء أعاد اغلاق الخزانة وسار فوق السجادة وأخذ يصغي . ثم خبأ الصحن تحت حزامه ودفعه داخل بنطاله ، ورفع جانباً من اصبعه الصغير الغليظ ، نحو فمه طالباً من وودي ان يخفض صوته .

اخفض وودي صوته ولكنه كان في حالة صدمة . اتجه نحو الأب وأمسكه من طرف يده ، وبينما كان ينظر إلى وجه الأب ، أخذت عيناه تضيقان أكثر وأكثر ، كأن شيئاً كان يضغط جلد وجهه . كانت هذه الحالة تدعى تهوية زائدة ، يرافقها شعور

بأنك مضغوط وخفيف ومصاب بالدوار ، وبالكاد تستطيع أن تأخذ نفسك . قال له :

– أعده يا أبي .

– قال الأب – انها فضة خالصة ، ويساوي وزنه نقوداً .

– قال له وودي : أبي لقد قلت لي أنك لن تحرجني .

– انه فقط ضمان لي في حال عادت من الصلاة وجابهتني بالرفض واذا قالت نعم فسوف أعيده .

– كيف ؟

– سوف اعيده واذا لم أستطع تعيده أنت .

– أنت الذي فتحت القفل ، أنا لا أستطيع ذلك .

– لا ، الأمر سهل .

– سوف نعيده الآن . أعطني آياه .

– يا وودي لقد أصبح تحت بنطالي ، لا تفتعل ضجة مثل هذه .

– أبي ، أنا لا أصدق ما تفعله .

– من أجل المسيح اغلق فمك ، لو لم أكن واثقاً بك لما جعلتك تراقب ما أفعله ، أنك لا تفهم شيئاً ، ماذا جرى لك؟

– أبي ، هلا أخرجت هذا الصحن من بنطالك الطويل قبل أن تنزل المرأتان . ازداد تشدد الأب وصار يتحدث بلغة عسكرية .

– اسمع أنا آمرك .

وقبل أن يعرف ماذا يفعل قفز وودي على أبيه وراح يتصارع معه . كان أمراً جنونياً أن تقاتل أباك وأن تضع كعبك خلفه وتدفعه نحو الجدار . فوجئ الأب وقال بصوت عال : هل تريد أن تقتل هيلينا؟ اقتلها! اذهب واقتلها وتحمل المسؤولية . راح يقاوم بغضب ودار الاثنان حول بعضهما عدة مرات ، وأخيراً استطاع وودي ، بخدعة تعلمها من أحد أفلام رعاة البقر ومارسها في الملعب ، أن يوقعه أرضاً ، وفي لحظات كان وودي الذي يزن عشرين باونداً ، أكثر من أبيه جالساً فوقه . كان الاثنان على الأرض قرب المدفأة الموضوعة فوق صحن معدني ، مزخرف لوقاية السجاد من النار ، وكان وودي فوق أبيه يضغط على بطنه ، ولكنه كان يعلم أن هذا الوضع لن يساعد على

انتزاع الصحن الفضي من تحت حزامه . جن جنون الأب ، وكان بيده كل الحق أن يغضب أمام هذا العنف الذي أظهره له ابنه . خلّص يده ولكم وودي في وجهه ثلاث أو أربع مرات ، ولكن وودي اخفض وجهه في كتف ابيه ليتقي ضرباته ثم يهمس في آذنه ، يا للمسيح يا أبي تذكر أين أنت ، سوف تعود هاتان المرأتان ، ولكن الأب رفع ركبته القصيرة ، وضرب وودي في ذقنه هازاً أسنانه . ظن وودي أن الرجل العجوز سوف يعضه . ولأنه كان لاهوتياً اعتقد بأن هذه روح غير نظيفة . ثبت مكانه وتدريجياً توقفت ضربات الأب ، كانت عيناه جاحظتين وفمه مفتوحاً ومتجهماً مثل سمكة عنيدة .

أرخاه وودي ومد يده له ليرفعه ، كانت تتجاذبه مشاعر سيئة عديدة . كان وودي يعرف أن العجوز لم يعانيها من قبل أبداً ، لم يكن الأب يعرف مشاعر التذلل ، كان دائماً يشعر بكامل تفوقه مثل خيّال آت من آسيا الوسطى ، أو قاطع طريق من الصين . كانت الأم من ليفربول هي التي تملك المشاعر المهذبة ، السلوكيات الانجليزية . كان القس الدكتور الواعظ ببذلته السوداء ، هو الذي يشرح عن التهذيب وكل ما يفعله هو أن يقمعك ، فلتذهب عظاته إلى الجحيم .

فتح الباب الطويل ودخلت السيدة سكوغلند وهي تقول : هل كنت أتخيل ، أم أن هزةً حدثت في البيت؟

أجابها وودي كنت أرفع الدلو لأضع بعض الفحم ، في المدفأة وقد وقع من يدي . أنا أسف اعتذر عن فوضويتي .

كان الأب في حالة من السخط لم تساعده على الكلام ، كانت عيناه الكبيرتان متقرحتين ، وشعره الخفيف ينسدل على جبينه ويمكنك أن تعرف من بطنه المشدود كيف كان يحاول التقاط أنفاسه من الغضب رغم ان فمه بقي مغلقاً .

– لقد صليت ، قالت السيدة سكوغلند .

– أرجو أن يكون كل شيء قد سار على ما يرام ، قال وودي

– حسنا لا أفعل شيئاً بدون هداية ، ولكن الجواب هو نعم . وأشعر اني محقة في ذلك الآن ، لذا إذا انتظرتماني سأذهب إلى مكتبي واحرر لكما شيكاً ، لقد طلبت من هجورديس أن تقدم لكما فنجانين من القهوة الساخنة ، بعد أن قدمتما في مثل هذه

العاصفة . كان الأب دائماً رجل رهيب ، ما أن اغلقت الباب حتى قال ، شيك؟ إلى الجحيم بالشيك ، لتحضر لي بعض الأوراق الخضراء .

- انهم لا يحتفظون بنقود في البيت ، يمكنك ان تصرفه من بنكها غداً ، ولكنهم اذا افتقدوا الصحن فسوف يوقفون صرفه وأين ستصبح حينها؟ فيما كان الأب يحاول الوصول إلى حزامه ، دخلت هجورديس بالقهوة كانت قاسية معه وقالت ، هل هذا مكان مناسب لتعدل فيه من وضعية ثيابك ، يا سيد ، هل هو حمام للرجال ؟

- حسناً ، أين هي الطريق إلى الحمام؟ سألها الأب .

قدمت لهما القهوة في أكثر الفناجين تشققاً ، بين مجموعتها وضربت الصينية وهي تضعها أمامهما ثم قادت الأب إلى أسفل الممر وظلت واقفة تحرس باب الحمام ، حتى لا تتيح له المجال لأن يتجول في المنزل . استدعت السيدة سكوغلند وودي إلى مكتبها ، وبعد أن سلمته الشيك مطوياً أوصته بأن يصلي من أجل موريس . مرة أخرى جثم على ، «ركبتيه تحت رفوف ورفوف من الملفات العفنة المرتبة في الخزائن الرخامية ، وقرب المصباح الزجاجي الموضوع على طرف المكتب ، والذي كان ظله ينتفض على الجوانب مثل صحن حلوي ؛ ركعت السيدة سكوغلند بلهجتها الاسكندنافية - ذات الرنة العاطفية - تبتهل إلى يسوع - أوه - المسيح - أوه . فيما الريح تعصف بالأشجار وتضرب جوانب المنزل وتقذف بالثلج على الواح النوافذ ، بأن يبعث النور - أوه ويمنح الهداية - اوه ويفتح قلباً جديداً في صدر موريس . كان وودي يضرع إلى الله أن يعيد الأب الصحن الفضي . انتظر السيدة سكوغلند ، وهي راكعة على ركبتيها ما استطاع ، ثم شكرها وهو يشع صدقاً واخلاصاً (قدر ما استطاع) ، على كرمها المسيحي وقال : أنا أعلم أن لهيجورديس ابن عم يعمل في جمعية الشباب المسيحيين في ايفانستون . هل باستطاعتها أن تتصل به وتحجز لنا غرفة الليلة حتى نتجنب مكافحة هذه العاصفة ، في طريق عودتنا . أننا أقرب إلى موقع الجمعية ، من موقع خط العربات . ربما تكون العربات قد توقفت عن العمل الآن .

جاءت هجورديس مرتابة بعد أن استدعتها السيدة سكوغلند ، كانت تغلي غضباً ، فقد اقتحم الاثنان البيت أولاً ثم أخذا راحتهما فيه ، ثم طلبا مالاً واضطرت إلى تقديم القهوة لهما . وربما يكون الأب قد ترك أثراً لمرض السيلان على مقعد

الحمام . تذكر وودي أن هجورديس كانت تمسح مقابض الأبواب بالكحول ، بعد مغادرة الضيوف . ورغم هذا كله اتصلت بالجمعية ، وحجزت لهما غرفة بسريرين وبستة سنتات .

كان أمام الأب متسعاً من الوقت لكي يفتح الخزانة المؤطرة بالزجاج اللامع ، أو بالفضة الألمانية (شيء رائع وفني) ، وما أن قدّما شكرهما وودعا أهل المنزل وصارا في وسط الشارع وقد غطى الثلج ركبهما حتى سأله وودي ، حسناً لقد غطيت عليك ما استطعت ، هل أعدت هذا الشيء؟

- طبعاً ، قال الأب .

شقّا طريقهما نحو بناية الجمعية المحاطة بالأسلاك ، والشبيهة بمخفر شرطة ، - نفس الأبعاد تقريباً - كانت مقفلة ولكنهما قرعا على النافذة . جاء رجل أسود صغير الحجم ، وادخلهما ثم قادهما إلى الطابق العلوي عبر مر اسمنتي منخفض الأبواب . كان المكان يشبه منزلاً صغيراً للثدييات في حديقة حيوانات لنكولن . قال انه لا يوجد طعام ، لذا قاما بخلع ثيابهما وانسلا في سريريهما ملفعين ببعض الأغطية العسكرية الكاكية اللون .

أول شيء فعلاه في الصباح هو الذهاب إلى بنك ايفانستون الوطني لصرف الشيك ، ولكن الأمر لم يمر بدون صعوبات ، فقد تركهم أمين الصندوق ليتصل بالسيدة سكوغلند وغاب عن شباكه وقتاً طويلا . إلى أين ذهب بحق الجحيم» قال الأب لكنه عندما عاد سألنا ، كيف تريدونها"؟

أجابه الأب : أوراق فردية ، ثم التفت إلى وودي قائلاً ان بوجاك يحتفظ بالنقود على شكل أوراق دولار فردية ، ولكن وودي الآن لم يعد يصدق ان هالينا قد سرقت نقود العجوز . نزلا إلى الشارع حيث بدأت فرق ازالة الثلج بالعمل ، وكانت شمس الصباح تشع بقوة ، وكل أطراف مدينة شيكاغو تحاول التخلص من الآثار الجميلة المؤقتة .

- ما كان يجب أن تقفز علي هكذا ليلة أمس .

- أعلم يا أبي ولكنك وعدت بأنك لن تضعني في موقف محرج .

- حسناً ، سوف ننسى الأمر بما أنك وقفت بجانبي .

فقط ، كان بوب قد احتفظ بالصحن الفضي . طبعاً فعل ذلك ، وبعد أيام قليلة علمت السيدة سكوغلند وهجورديس بالأمر ومع نهاية ذلك الأسبوع ، كانت هناك مجموع من الأشخاص تنتظر وودي في مكتب الدكتور كوڤنر بمنزل الأرسالية . وقد شملت المجموعة القس الدكتور كرابي مدير المعهد . ووقع وودي الذي كان يحاول قدر الإمكان أن يكون هادئاً ومتوازناً في وسط النيران . أخبرهم أنه بريء ودافع عن نفسه ، حتى وهو يتعرض للهجوم بأنهم مخطئون منكراً أن يكون هو أو أبوه قد مسوا ممتلكات السيدة سكوغلند - قال لهم أن الغرض المفقود - ادعى أنه لا يعرف حتى ما هو - قد يكون وضع في مكان خطأ ، وسوف يندمون على ما فعلوا حين يجدوه . بعد أن انتهى منه الآخرون ، صرّح الدكتور كرابي أنه سوف يعلق دراسته في المعهد ، حيث أنها لم تكن كما يجب على أي حال ، إلى أن ينطق بالحقيقة ، تنحت به ربيكاً جانباً وقالت له : انك شرير صغير مثل والدك . ان بابنا مغلق في وجهك منذ الآن . كان تعليق الأب على كل هذا ، وماذا في الأمر يا بني؟

- ما كان عليك أن تفعلها يا أبي .

- كلا ، حسناً ، إذا شئت ان تسمع رأيي فأنا لا أبالي بالأمر . يمكنك أن تأخذ الصحن إذا شئت وتعيده لتحشر نفسك بين كل هؤلاء المنافقين .

- أنا لا أستطيع رفع نظري إلى عيني السيده سكوغلند ، لقد كانت لطيفة معنا .

- لطيفة؟

- نعم لطيفة .

- ان كلمة لطيفة لها ثمن .

حسناً ، لم يكن هناك مجال لأن تربح مثل هذه الجادلات مع الأب ، ولكنهما بقيا يتجادلان هكذا لمدة اربعين سنة أو أكثر انطلاقاً من مختلف الأمزجة والمنظورات ، وكلما تغيرت علاقاتهما الحميمة أو تطورت أو نضجت .

- لماذا فعلتها يا أبي؟ من أجل المال؟ ماذا فعلت بالخمسين دولار؟

سأله وودي بعد عقود من زمن وقوع الحادثة .

- لقد سويت حساب مكتب وكيل المراهنات ووضعت الباقي في العمل .

- هل راهنت على عدة خيول أخرى؟

– ربما فعلت ذلك ، ولكنني حصلت على ضعفها يا وودي ولم أوذي نفسي وصنعت معك جميلاً في نفس الوقت .

– معي .

– نعم ، كنت تقود حياة غريبة ، ليست لك يا وودي ، كل تلك النسوة

– يكن كوڤنمر رجلاً – كان بين بين – لنفرض أنهم جعلوا منك قسيساً ، قسيساً مسيحياً ، أولا لن يكون بامكانك أن تحمل هذا العبء وثانياً كانوا سيتخلون عنك عاجلاً أو آجلاً .

– ربما .

– ولن يكون باستطاعتك أن تحول اليهود عن دينهم ، وهو ما كانوا يريدونه منك بالضبط .

– ويا له من وقت لازعاج اليهود قال وودي . على الأقل أنا لم أسرق منهم .

أعاده الأب إلى جانبه ، من دمه ولحمه ، نفس الجسد الكثيف ، نفس الطينة الخشنة . لم يكرس نفسه من أجل حياة روحية لأنه ببساطة لم يكن قادراً على ذلك .

لم يكن الأب أسوأ من وودي ولم يكن وودي أفضل منه . لم يرغب الأب بأية علاقة ، مع النظريات مع أنه كان دائماً يشير لوودي نحو مركز معين ، مركز دافئ ، طبيعة مرح محبوب غير مشدود لمبادئ ، لو وجدت هناك أية نقطة ضعف في وودي فهي أنه لم يكن أنانياً . وكان هذا الضعف في صالح الأب ، رغم أنه كان ينتقده في وودي .

– انك تحمل نفسك عبئاً أكبر منك . كان الأب يقول لوودي دائماً ، وكان هذا صحيحاً فقد أعطى وودي قلبه للأب لأن الأب كان مغرقاً في الأنانية . غالباً هم الناس الأنانيون الذين يكونون محبوبين أكثر ، فهم يفعلون ما تنكره أنت على نفسك ولهذا السبب تحبهم وتعطيهم قلبك .

مستذكراً بطاقة الرهن على الصحن الفضي ، انفجر وودي بالضحك فجأة حتى أخذ يسعل ، أخبره الأب بعد أن طرد من المعهد ومنع من دخول بيت الارسالية –

– هل تريد هذا الشيء مرة أخرى ، ها هي بطاقة الرهن ، لقد رهنت هذا الشيء ،

لم يكن ثميناً كما ظننت .

– ماذا أعطوك مقابلة؟

•– اثنان وستون دولار هو كل ما حصلت عليه ، ولكن اذا رغبت بإعادته ، فان عليك تحصيل الدراهم بنفسك . فأنا لا أملك منها شيئاً .

– لا بد أنك كنت تتعرق في البنك عندما ذهب أمين الصندوق ليستفسر عن الشيك من السيدة سكوغلند .

– كنت متوتراً إلى حد ما . قال الأب . ولكني لم أعتقد أنهم سيفتقدون هذا الشيء بهذه السرعة .

شكلت تلك السرقة جزءاً من الحرب بين الأب وبين الأم والعمة ، ريبيكا والدكتور الكاهن . كان الأب يمثل الموقف الواقعي في حين مثلت الأم موقف القوى الدينية والشكاكين . لم يتوقف القتال بينهما لأربعين سنة ، ومع مضي الوقت تحولت الأم والفتيات إلى شخصيات خيرية وخسرن نتيجة لذلك حدودهن الشخصية .

آه ، المسكنيات ، أصبحن غير مستقرات يعتمدن على الغير ، وفي نفس الوقت اصبح وودي الخاطئ ، الأخ والابن المطيع والمحب ، فقد قام بصيانة بيتهن . وشملت الصيانة السقف والتمديدات ، والعزل وتركيب المكيفات ، يقوم بدفع ثمن الوقود والكهرباء والطعام لهن ، كما ابتاع لهن الألبسة من محلات سيرز وريبوك وويبولد ، واشترى لهن تلفزيوناً ، كن يمضين الوقت بمراقبته بورع تماماً كما الصلاة . تعلمت باولا دروساً في صنع مكرمات الزهور وفي التطريز الابري ، وعملت أحياناً في مهنة استجمامية صغيرة في أحد بيوت المرضى ، ولكنها لم تكن لتواظب على العمل لتتمكن من الاحتفاظ به . أما الأب الشرير فقد امضى معظم حياته ينزع البقع من ثياب الزبائن ، وفي السنة الأخيرة ادار مع هالينا مركز لتنظيف الثياب ، في حديقة وست روجرز . وهو عمل شبيه بعمله السابق في غسيل الثياب ولكنه يمنحه بعض الوقت للعب البلياردو والمراهنة على الخيل ولعب الورق . كل صباح كان يذهب إلى المشغل لتفقد مصافي آلات التنظيف ، وكثيراً ما كان يعثر على أشياء عجيبة ومسلية في أوعية التنظيف – أحياناً . وعندما كان يحالفه الحظ كان يعثر على سلسلة معدنية نفيسة أو على دبوس زينه ، وعندما كان يتم تعزيز سائل التنظيف بتلك

المساحيق ، الوردية والزرقاء من الأوعية البلاستيكية ، كان يجلس ليقرأ صحيفة فوروارد مع فنجان ثانٍ من القهوة ، أو يغادر المكان تاركاً المسؤولية على هالينا .

عندما كانا يحتاجان إلى مساعدة في دفع الإيجار كان وودي يعطيهما دائماً .

بعد افتتاح عالم ديزني الجديد في فلوريدا ، استضاف وودي جميع أهله إلى قضاء عطلة هناك وقام بارسالهم في دفعات منفصلة بالطبع . وقد استمتعت هالينا بذلك أكثر من أي شخص منهم . ولم تتوقف عن الحديث عن العنوان الذي قدمه لها الانسان الآلي ، الذي يمثل ابراهام لنكولن - رائع كيف وقف وحرك يديه وفمه ، لقد كان حقيقياً فعلاً ، وما أجمله حين تكلم ، من بينهم كلهم كانت هالينا هي الأعقل والأصدق والأكثر انسانية . والأن بعد رحيل الأب ، قام وودي وابن هالينا ميتوش الذي يعمل عازفاً على الأرغن بالاعتناء بحاجياتها اضافة إلى الضمان الاجتماعي . بالنسبة للأب ، كان التأمين يعتبر ابتزازاً للأموال ولم يترهك لهالينا سوى بعض المعدات الخربة .

كان وودي يمتّع نفسه أيضاً ، ففي كل عام وأحياناً أقل من ذلك ، كان يترك العمل ليدير شأنه بشأنه ، وينظسم مع دائرة الأئتمان في البنك لترعى مجموعته ثم يغادر ، وكان يسافر بأسلوب خيالي وعالي في اليابان ، لم يضع وقتاً طويلاً في طوكيو ، وأمضى ثلاثة أسابيع بفندق تاوارايا في كيوتو . وهو فندق يعود تاريخه إلى القرن السابع عشر . هنا ، كان ينام مثل اليابانيين على الأرضية ويستحم بالبخار ، وهناك شاهد أقذر عرض للعري على وجه الأرض ، وفي نفس الوقت شاهد الأماكن المقدسة وحدائق المعبد . كما زار استامبول والقدس ودلهي وسافر إلى بورما واوغندا وكينيا في رحلات سفاري ، بالاتفاق مع سائقين وبدو وتجار بازار . كان بشخصه المجرد أشبه بأحد رجال الحاشية الملكية أيام النهضة فقد كان منفتحاً ، سخياً ، ألوفاً . ومن أفخم لأفخم . (كان يمارس رياضة الركض ورفع الأثقال) . ولكنه حافظ على عضلاته ومع مرور السنوات اصبح لونه ضارباً أكثر إلى الحمرة وازداد النمش على ظهره ، ونمت البقع حول جبينه وأنفه المحترم . وفي أديس أبابا اصطحب فتاة أثيوبية جميلة من الشارع إلى غرفته ، واستحما معاً وقام بفركها بالصابون بيديه العريضتين الحنونتين . وفي كينيا قام بتعليم بعض العبارات الفاحشة لامرأة سوداء ، حتى تتمكن من

الصراخ بها بينما يمارس الجنس معها . وفوق النيل أسفل شلالات مورشيسون . حيث تعملق أشجار الحمّى الضخمة ، وسط الطين وتتجشأ أفراس النهر على الضفاف الرملية بعدوانية أمام المارين ، شاهد وودي احدها ترقص على مرج الرمل حيث يقف . تصعد وتنزل فوق الأرض بثقل على أقدامها الأربعة . وهناك شاهد وودي الجاموس الصغير يختفي بعد أن التهمه التمساح .

أما الأم ، التي ستلحق بالأب قريباً ، فكان بالها هادئاً في تلك الأيام ، تتحدث عن وودي كابن لها - ماذا تظنون في ولدي - وكأن عمره ما يزال عشر سنوات . كانت سخيفة احياناً معه ، وتصرفاتها عابثة مغناجة ، كانت فقط تجهل الحقائق ، وخلفها كل الآخرين مثل أطفال في ملعب . ينتظرون ان ينزلوا على المزلاقة كل يصعد الدرجة بدوره نحو الأعلى .

كان الصمت يخيم على مسكن وودي ومكان عمله ، صمت من نفس قياس أجراس الكنائس ، وهي تقرع ، وكان هو يبكي في صمت ذلك النهار الخريفي المشمس الحزين ، كان يقوم بمسح لحياته . ملقياً نظرة متأنية على نواحيها الجسيمة ، وعلى نواحيها الأخرى كذلك ، وماذا نتج عنها؟ ولكن إذا استمرت حرقة القلب هذه فسوف ينطلق للركض ، ربما ثلاثة أو خمسة أميال من الركض إذا اقتضت الضرورة . هل تظن أن مسألة الركض هذه هي نشاط فيزيائي بحت؟ هناك شيء آخر يكمن فيها . لأنه عندما كان يدرس في المعهد مطارداً بين أعمدة عربات المعرض العالمي . كان يتلقى (وهو قادر وثابت) ، خبراته الدينية وهو منطلق . ربما تعاد معه نفسه التجربة ، ولكن كان يشعر بالصدق يأتيه من الشمس ، وهو يتلقى تصريحات بأنه خفيف ودافئ .

كانت هذه التصريحات تجعله بعيداً عن ركابه الشبقين في ويسكونسون . هؤلاء المزارعون الذين لم يكن يسمع صيحاتهم الزانية عندما كان في احدى ولاياته . وأيضاً جاءه سر أكيد ، خرج من بين اسنة اللهب الشمسية ، بأن هدف هذه الأرض هو أن تمتلئ بالخير وتتشبع به . بعد كل ما جرى من امور منافية للطبيعة ، وبعد أن أكل الكلب ، الكلب الآخر ، وبعد أن سحبت أداة الموت في التمساح الجميع إلى الطين . لم ينته كما أرادت السيدة سكوغلند له أن ينتهي حين كانت ترشيه بتجميع اليهود

والدعوة فيهم لكن تعجل بالبعث الثاني ، ولكنه يسلك طريقاً مغايراً . كان هذا هو حدسه الفوضوي . ولم يذهب أبعد من ذلك ، وبالتالي ، تابع حياته كما أرادت له حياته أن يكون .

شيء آخر في هذا الصباح ، شيء واضح في ماديته ، بدأ كإحساس في ذراعيه وخارج صدره ثم مع ازدياد الضغط انتقل إلى داخله ، إلى داخل صدره .

سار الأمر كالتالي : عندما دخل إلى غرفة الأب في المسشفى ورأى سريره مرفوعاً من الجانبين مثل مهد طفل ، والأب ممدد هناك ضعيف يتلوى بلا أسنان ، مثل طفل وليد . والقذارة ظاهرة ، حتى في تجعدات وجهه وهو يريد نزع الابر التي غرست في شرايينه ، مطلقاً سكرات الموت الضعيفة . ورأى الدم يلطخ الشاش الملفوف حول تلك الابر ، خلع حذاءه وانزل السرير إلى الأسفل ثم تسلق نحوه وأمسكه بيديه ليهدئ روعه وكأنه كان أباً للأب ، قال له : الآن يا أبي ، كان الأمر شبيهاً بتلك المشاجرة في صالة منزل السيدة سكوغلند عندما استشاط الأب غضباً مثل روح شرير ة ، وحاول وودي أن يهدئ من روعه ويحذره قائلاً : سوف تعود هؤلاء النسوة . وبقرب مدفأة الفحم ، عندما لكم الأب وودي في أسنانه ورأسه ، ثم انقلب متجهماً مثل سمكة سمينة . لكن الصراع في المستشفى كان ضعيفاً ، ضعيفاً جداً . وفي غمرة اشفاقه على الأب ، حمله وودي وهو يرتعش . كان يقول له : هؤلاء الناس لن يساعدوني على اكتشاف الحياة لأنهم لا يعرفونها . نعم - حسناً يا أبي ما الأمر . كان صعباً عليه أن يستوعب أن الأب الذي بقي يجاهد مدة ثلاثة وثمانون سنة ، وفعل كل ما بوسعه حتى يبقى على قيد الحياة ، أصبح الآن لا يرغب بشيء سوى تحرير نفسه . كيف يمكن لوودي أن يسمح للعجوز بقطع ابر شرايينه؟ الأب العنيد ، أراد ما أراده وحين آراده ولكن ما أراده في النهاية لم يستطع وودي أن يلبيه . كانت نقلة كبيرة . مضى بعض الوقت ، وانتهت مقاومة الأب ، خمد تماماً على ذراعي ابنه وتكوّر جسده هناك . جاءت الممرضات ونظرن اليه ولم يوافقن على ما جرى ، ولكن وودي الذي لم يستطع أن يرفع يديه ليأمرهن بالخروج ، حرك رأسه باتجاه الباب ، أما الأب الذي ظن وودي بأنه قد خمد ، فقد وجد طريقة أخرى للالتفاف عليه ، وكانت طريقته هذه المرة أن يفقد حرارته ، كانت حرارته تخرج منه ، وكما يحصل مع الحيوانات الصغيرة

عندما تمسكها بيديك ، كان وودي يشعر بالبرودة تجتاح جسد بوب شيئاً فشيئاً . عندها ، بينما كان وودي يحاول جاهداً أن يكبحه وظن أنه قد نجح في ذلك . انقسم الأب عن نفسه وعندما انفصل عن دفئه انسل باتجاه الموت . وبقي هناك ابنه الأكبر ذو العضلات الفخمة ممسكاً به ، يضغط حين لم يعد هناك شيئاً ليضغطه . لا يمكنك أن تثبت هذا الرجل القوي الإرادة . عندما أراد أن يقوم بحركته ، قام بها ودائماً بشروطه ، ودائماً ودائماً لديه خطة لاستخدامها عند الحاجة . هكذا كان الرجل .

١٩٨٠

جون أبدايك

الإيمــــاء

عن «بلاي بوي»

خاطبته بإيماءة صغيرة لم يرها تستخدمها من قبل ، نادت عليه جوان من المحطة ، وبعد أن تناولت الغداء مع عشيقها كما كان يعرف ريتشارد . كان اليوم يوم سبت . وكان ابنه الأكبر قد أخذ سيارته ، مما جعله يأخذ سيارة الفولفو التابعة لجوان والتي كانت ما تزال جديدة . وأخذ الأمر منه عدة دقائق قبل أن يتمكن من الانطلاق ، وما أن وصل إلى مركز البلدة حتى كانت هي قد سارت أسفل الطريق الرئيسي ثم صعوداً عبر التل إلى السهل الأخضر . كان الوقت فصل ايلول ، دافئ ومورق مع بقاء لسعة برد بلورية على الأشياء وصفاء خارق للطبيعة . ابتسما عندما شاهدا بعضهما البعض حتى من مسافة بعيدة . فتحت باب السيارة وجلست على المقعد ، ثم ربطت حزام الأمان ، لتخرس رنين انذاره . كان وجهها وردياً نتيجة سيرها في الخارج وثيابها المدنية تشبه الطقم ، وكانت تحمل معها كيساً أو كيسين ، علامة على قيامها بالتسوق ، حاول ريتشارد أن يستدير على شكل حرف "U" في شارع ضيق وفيما كان يتوقف ويتلمس طريقه لتركيب الغيار الخلفي خاطبته قائلة : يا عزيزي ، قالت وهي تنقر اصابع احدى يديها بغرابة وتردد على راحة اليد الأخرى دون أن يصدر عنها أي صوت . كأنها ايماءة تقع بين تصفيق طفل جذل وإشارة من

شخص بالغ لجلب الاهتمام ؛ لقد قررت أن أطردك وسوف أطلب منك أن تغادر البلدة . ملأته المفاجأة ، ورغم قلبه المهزوم فقد كان هذا ما يريده .

– «حسناً» . قال لها . اذا كنت تعتقدين انه بامكانك تدبير امرك ، القى نظرة عجلى على وجهها اليقظ المتورد ليرى اذا كانت حقاً تعني ما تقول . لم يكن ليصدق انها تعني ذلك . اطلقت احدى شاحنات البريد الملونة بالأبيض والأزرق والأحمر التي كانت قد توقفت خلفهم ، زامورها كنوع من التذكير وليس التوبيخ ، فقد كان آل مابل معروفين في البلدة وقد عاشوا فيها معظم فترة حياتهم الزوجية .

التقط ريتشارد الغيار الخلفي ، تراجع ثم أكمل اللفة وانطلق الاثنان نحو منزلهما بسرعة . كانت السيارة الجديدة من القوة والصلابة بحيث بدا ركوبها ممتعاً وخفيفاً . وكأن السيارة هي نفسها قد ذابت معهما في قعقعة لعوب .

– أصبحت الأمور راكدة . شرحت له ، كأننا علقنا! لا يوجد مكان نتوجه اليه .

– انا لن أتخلى عنها ، اعترض الحديث .

– لا تقل لي هذا فقد قلته من قبل .

– وأنا لا أراك تتخلين عنه أيضاً .

– سوف أفعل ذلك إذا طلبت مني ، هل تطلب مني .

– كلا ، يا للرعب ، انه كل ما أملك .

– حسناً ، اذهب إلى حيث تشاء ، اظن ان بوسطن ستكون المكان الأكثر تسلية للأولاد والأقل مللاً بالنسبة لك .

– أنا أوافق متى ترين أن هذا سيحدث . بدت صورتها الجانبية من زوايا عينيه هشة تكاد تتحطم لو نطق بكلمة خاطئة أو قاسية . كان يمسك أنفاسه محاولاً أن يبقى خفيفاً ومرحاً مثل السيارة . مروّا بالسيارة فوق مطب على أحد جوانب الجسر وكان دخان السيجارة يرتج بتراخ حول وجه جوان .

– حالما تجد مكاناً ، قالت له ، في الأسبوع القادم ، هل هذا مبكراً؟ – ربما .

– هل أنت حزين . هل أبدو قاسية لك .

– كلا ، أنك تبدين رائعة ولطيفة جداً مثلما أنت دائماً . انه صحيح ، انه شيء لا أستطيع أن أفعله بنفسي . كيف يمكنك أن تعيشي بدوني .

من زاوية عينه رأى وجهها يتغير ، التفت ليتحقق من رؤيته ، كانت تعابير وجهها عابثة وشجاعة ومتوردة ، لا بد أنها تناولت بعض كؤوس النبيذ على مائدة الغداء مع عشيقها .

على مهلك ، قالت له جوان . علم أنها كانت مناورة خادعة ، ايماءة شجاعة ، كانت تتوسل كي ينقذها احد ولكنها بقيت على صمتها ، رافضة أي جدال . فهي بهذه الطريقة تحفظ كبرياءها .

توالت المنعطفات على الطريق ، صناديق البريد ، الأشجار ، بعضها كان مسوداً مع تغير الفصل من السنة ، سألها : هل هذه فكرتك أم فكرته .

- فكرتي ، لقد جاءتني وأنا في القطار . كل ما قاله أندي هو : يبدو أنني استشعر وجودك معظم الوقت .

كان ريتشارد ينام معظم الليالي في الأسابيع التي اصبحت فيها اجازاتهم الصيفية منفصلة . كان يحاول النوم في كوخ مستأجر على شاطئ البحر يبعد مسافة ميلين من بيتهم ،لكنه في كل مساء مع تزايد طول الليالي ، بدا أن الأيسر للأطفال أن يتناولوا عشاءهم من طبيخ جوان . كان معتاداً على طبيخها ، وللحقيقة فان كل خلية في جسده كانت مركبة من طبيخها . العشاء قد يفضي إلى شرب كأس بعد العشاء بينما الأطفال (اثنان منهم في المدرسة واثنان ما يزالان في البيت) يتابعون واجباتهم المدرسية بتثاقل أو يحملقون في التلفزيون . وهكذا فان شرب كأس بعد العشاء يفضي إلى الحديث والى مواقف جريئة وكلمات قاسية ودموع جياشة وأحياناً إلى خنوع زوجي يفضي بهما صعوداً إلى السرير . كانت على حق ، لم يكن الأمر سليماً ولا يؤدي إلى تحسن . انتهت العشرين سنة التي كانت مناسبة لكي يحبا بعضهما البعض .

عثر على شقة في بوسطن في ثاني يوم من بحثه ، كانت وكيلة المكتب العقاري ذات شعر أحمر وقفاً دائري . تضع قناعاً رثّاً من المكياج كأنما لتخفي شبابها . شعر ريتشارد بالسعادة والخوف وهو يصعد وينزل الدرج وراءها . أرهقها أكثر مما أرهقته . آدخلت المفتاح بعصبية في القفل ودفعت الباب بكتفها وفتحت يديها بايماءة استعراضية مفتوحة تدل على عجزها .

لم تكن الأرضية مغطاة بسجاد من الجدار إلى الجدار أو مصنوعة من الخشب المشقق بل كانت مكسوة بالآجر الأبيض والأسود مثل أرضية ڤيرمير. نظر من النافذة وشاهد ناطحة السحاب وقرر بعدها أن الشقة مناسبة. كانت ناطحة السحاب تقف منذ سنين دون أن ينتهي العمل فيها بعد. كان منظرها يشبه كارثة جميلة ومشهورة. ولعل شهرتها جاءت من كونها كارثة. إذ ظل الزجاج يتساقط منها طوال الوقت. وكون أمرها كارثياً، أسبغ عليها مسحة من الجمال، لعل مهندسها كانت له رؤيا لعله حلم ببناية غير مرئية رغم ضخامتها. كان المقصود من الرجاج ان يعكس منظر السماء وخطوط القرميد القديم المنخفض التي تحُد سماء بوسطن لتذوب بعدها في الأعالي ولكن بدلاً من ذلك، ظل زجاج المرايا في النوافذ يتساقط على الشارع. وتم استبداله برقع قبيحة من الخشب الرقائقي الأسود. ومع ذلك فقد بقيت بعض الأسطح الزجاجية تعكس السماء وتترك انطباعاً، رغم الطبيعة الارتجالية للنوافذ القديمة في هذه العمارة الفجائية بوجود مساحة شاسعة من اللون الأزرق، جاءت لتتعامد مع الزرقة الأفقية الهائلة للون البحر. هذا البحر الذي كان يستيقظ ريتشارد معه في كل صباح وسط الصقيع الصباحي البارد الذي يخرق العظام في الكوخ الذي لا يدفأ، حسناً! قال لصاحبة الشعر الأحمر التي رفعت حاجبيها السوداوين وهي تراقب يديه وهما ترتعشان بينما كان يوقع عقد الإيجار. ويكتب في خانة «الحالة الزوجية» منفصل عن زوجته. وقف أمام الصيدلية ليجري اتصالاً هاتفياً وينقل الأنباء، ليس لزوجته التي ستحزنه، بل لعشيقته البعيدة عنه. حسناً! قال لها بصوت اتهامي. لقد عثرت على شقة ووقعت العقد، غير معقول. وفي وسط تلك الديباجة اللطيفة جاءه رد في مجلة بسيطة واحدة، لا تستخدم هناك أي سرير مائي.

– يبدو صوتك مهزوزاً، قالت له.

– أشعر أنني قد اطلقت ثقباً اسوداً في الفضاء.

– لا تفعلها، اذا لم ترغب في فعلها.

من خلال توقف صوتها واختفائه، احس ريتشارد ان روث تحاول أن تبحث عن سيجارة أو عن منفضة لكي تجهز نفسها لجلسة من الرعاية العاطفية.

– أنا لا أرغب بذلك، هي التي تريدني أن أفعل ذلك. جميعنا نريد ذلك. حتى

الأطفال انقلبوا عليّ أو أنهم يدعون ذلك .

تجاهلت كلمة يدعون قائلة - صفها لي .

كل ما استطاع تذكره هو الأرضية ومنظر الكارثة الزرقاء التي تعكس الغيوم العابرة امام وجهه . وذات الشعر الأحمر التي أخبرته أين يتوجه للتسوق ولغسيل الثياب ، هل سيحتاج إلى غسيل ثياب؟

- تبدو لطيفة ، جاء جواب روث من بعيد . وما كاد ينتهي من قوله حتى جاء شخصان احدهم رجل بريد أسود يبلله العرق . ووقفا ينتظران أمام الكابينة لاستخدام الهاتف . كره المدينة للتو بسبب جوعها وازدحامها .

- ما الذي يبدو لطيفاً فيها . ردّ بحدة .

- هل أنت منزعج ، لا تفعلها اذا لم ترغب بذلك .

- توقفي عن قول هذا . كان اجراء رسمياً مملاً وملاحظاً من كليهما ، ذلك الادعاء بأن كلٌ منهما قد اصبح حراً ضمن زواجه . وأن بامكانهما ان يفعلا ما يشاءان . كانت لعبتهما هي تجنب الاثم ، وكانت روث قد اصبحت خبيرة في هذا الأمر . بدت كلماتها غالباً غير حقيقية بل كأنها ردود جوفاء أو عبارات مجاملة تقال في التشريفات . أو حتى قواطع بين ممرات متاهة . في حين كانت كلمات زوجته منفتحة دائماً وشفافة المعاني .

- ماذا أستطيع أن أقول أيضاً . قالت روث سوى أني أحبك . وعلى الطرف الآخر البعيد بدا الهاتف وكأنه يتنهد . كان يستطيع أن يتصور ايماءاتها ، أدارت وجهها بعيداً عن سماعة الهاتف وزفرت بقوة . وبهذه الطريقة كانت تعبر عن غضبها حتى عندما لا تشعر بالغضب . إذ تزفر زفرة ثم تطفئ سيجارة لم تدخن نصفها بعد ، وتسحقها تحت اصابعها بلا صبر وكأنها تسحق حشرة تقاوم لكي تبقى حية . كان وضوح تفاهتها يؤلمها كما يؤلمها كل الهدر بكل أنواعه . كان يريد أن يغلق السماعة ولكنه رأى أيضاً تلك الايماءة التافهة الجوفاء» لذلك بقي معها على الخط .

وحيداً في شقته ، اكتشف لنفسه مدبرة منزل قوية ونظيفة ، وعندما كانت أي امرأة تغادر الشقة ، كان يقوم على الفور باعادة ترتيبات العزوبية السابقة إلى ما كانت عليه . فيفرغ منافض السجائر التي تمتلئ في حالة زيارة روث ، طافحة بالأجسام

الطويلة لسجائر اطفئت قبل أوانها أما في حالة جوان فكانت اعقاب سجائر قصيرة جداً لم يبق منها سوى الفلتر . كان مسروراً لملاحظة أن المرأتين لم تقوما أبداً سوى بايماءة بالنسبة للتنظيف . فقد ظلّ السرير محطماً والصحون قذرة والمنافض الثلاثة التي يملكها (واحدة من الزجاج وواحدة من الفخار والثالثة غطاء مرطبان معدني للحلوى) غير ملموسة وكأنها قواعد في لعبة كرة القاعدة . كان يبتسم كلما أفرغها مرة أمام المشرحة الفوضوية التي تخلفها روث أو عش الفلاتر الذي تخلفه جوان . كانت ابتسامته خفية مثل حصىً بيضاء في آنية نرجسية . وعندما حاول ثني روث عن اطفاء سجائرها وهي بعد لم يحترق منها سوى جزء يسير ، كانت ترد عليه بذلك الادعاء الجميل الغير متردد والجدير بها ، بأنه من الأفضل لها ولرئتيها ان تنهي سيجارتها باكراً . وبالطبع كانت على حق فمن الأفضل أن تدمّر الآخرين بدلاً من أن تدمر نفسك .

كانت روث تمثل الحب والحياة ، ولهذا السبب أحبها ، ولكن جوان بتدبيرها الملزم وأمنية الموت الخفية لديها ، كانت عزيزة ومألوفة لديه مثل معزّة كتابتها الصغيرة المكتومة وشعر عانتها المتجعد المشدود . لذا ابتسم ريتشارد وهو يفرغ محتويات المنافض . كانت ابتسامته عبارة عن ايماءة بدون وجود حضور . كان هو الذي اختلق حركته هذه بين اهله واجداده . وبين خلفه وحتى حيواناته الأليفة . ثم طورها لتصبح عامة بين زملائه في المدرسة واساتذته . وصار يتفنن فيها أمام عيون اطفاله الجذلة ، اصبح اليوم في وحدته لا يستطيع التوقف عن ممارستها . قام باستحداث شيء مرافق له اعتبره مشاهده الضخم والوحيد ، كان هذا المشاهد هو ناطحة السحاب الزرقاء التي يشعر انها ترافقه طوال الوقت .

كانت زرقاء اللون . ولكنها بدت أكثر اخضراراً من السماء . وبدا ريتشارد متحيراً لبعض الوقت ، لماذا كانت الغيوم المنعكسة فيها تتجه في اتجاه واحد مع الغيوم التي تأتي من خلفها . ثم وبعد أن بذل بعض الجهد في التصور الحيزي ، أدرك أن المرآة لا تعكس حركتنا على الرغم من أنها تنقل آذاننا من مكان إلى آخر وتقرص أفواهنا حتى تجعلنا نشعر بوجوه أحبتنا في المرآة وكأنها قبيحة وغير مألوفة ، مثلما ترى هي الأشياء دائماً - بالتفكير الغريب - .

رأى أن المرآة التي توقف من وسطها لا تؤثر على حركة جيش ، وغالباً تتساوى نصف القيمة مع نصفها المنعكس خلف طرف البناية وكأنهما تتحركان كشيء واحد . أشعة أثر طائرة في السماء أو سهم من أسهم كيوبيد . كانت الكارثة قد حلت خفيفة على قلب المدينة . تظهر في الليل كأنها خط خافت من الأضواء الصغيرة أو كسفينة رفيعة تبحر في السماء . تختفي تماماً وسط المطر والضباب في حين تشتد قتامة قوارير الآجر في المدخنة والأبراج الحديدية في مواجهة بيت ريتشارد . حاول أن يحلل المنطق وراء تبديل النوافذ ، والذي يظهر في أغاط الفجوات والزجاج . ، لم يجد أي منطق فيه - فقط الحركة البطيئة للعمال غير المرئيين وهم يملأون ويفرغون تجاويف الزجاج مثل نحل بلا عقل . ولو أنه راقبها لدقائق عدة ، لكان باستطاعته أن يرى تجويفاً فارغاً يغطى بالزجاج ثم يبدأ بعكس الألوان الخضراء والزرقاء مثل حبة ندى تتكشف شيئاً فشيئاً . مرت الأيام قبل أن يدرك أن فوق الزجاج القديم بالقرب من أنفه ، كانت الألواح الرجراجة لنافذته تزخر بأسماء وتواريخ ظلت اشباح المستأجرين القدامى تحفرها بالحفف الماسية ، ولكن أعمقها وأكثرها بياضاً كان ذلك القسم الهزلي المؤثر والمنقوش في سطرين كل منهما يشتمل على ثلاثة كلمات .

بهذا الخاتم أتزوجك . يا لهذه الثروة الشفافة من قدامى الأحياء التي تغشى فرح المدينة الحالي . كان يتمشى عبر الشوارع مندهشاً من مدى سعادته ، يتوقع أن يكون حزيناً ، يشعر بالذنب والسأم . ولكنه بدلاً من ذلك كانت أيامه دافئة مليئة بالطلبات ، طلبات الطعام والخردوات والمقابلات مع بديلات زوجته المشاغبات مثل الغسالة الكهربائية التي يصب فيها الطلاب ثيابهم وينتظرونها وأيديهم على ذقونهم بينما تقوم بشقلبة الثياب في داخلها في حركة دائرية أبدية ، وحيث تثرثر الزوجات الشابات السوداوات بينما يطوين ثياب البيض . يا لها من متعة غير متوقعة ، وهو يعود إلى البيت متأبطاً ثياباً نظيفة ساخنة مثل الخبز الطازج ويمر عبر أقواس نوافذ باك باي وهي تلمع مثل صناديق العرض . انتابه شعور بالاتزان وأحس بانتعاش ورضا في تلك الساعة التي تقلب فيها في رحلة القطار ، ليصل بسرعة إلى كأسه الثاني قبل العشاء . أحب العودة إلى البيت حاملاً معه أكياس الطعام . كما أحس بارتياح واضح وهو يقوم بطبخ طعامه والتهامه بأكمله بينما ينقل الراديو إلى اذنيه معزوفات لباخ أو

بيشيت ، ويمتع عينيه بكتاب مفتوح وضعه على منصة القراءة التي قام بشرائها . أحب تلك اللعبة الغريبة المنظمة باستهلاك الطعام قبل أن يفسد وشرب الحليب قبل أن يتحمض . أحب الطريقة التي تحوم فيها الطائرات وسط سماء الليل التي تجثم مثل مدينة رقيقة اخرى فوق مدينته . احب صفارات البوليس وهي تدوي متسابقة نحو كارثة ليست له ، لا يمكن لتلك السعادة ان تدوم . كانت فترة مؤقتة أو فرصة ، ولكنها فرصة نظيفة وعادلة ، مستقيمة ومشرّفة رغم ما شابها من فجوات الخوف المفاجئ أو التشوش . كان عليه أن يجدول كل ساعة كي لا يتأخر عن برامجه . وأن يتحرك مثل بقة الماء ، مثل حجر يثب فوق السطح الزجاجي المتوتر لحياته الجديدة . كان يتمشى في كل مكان . وفي إحدى المرات مشى نحو أسس ناطحة السحاب الزرقاء رفيقته وشاهدته . كانت مخيفة . وكانت الألواح الثقيلة والأنفاق المبنية من الأسلاك المعدنية تحرسها صيحات رجال البوليس لحماية المارة من الزجاج المتساقط وحماية مالكي البناية الذين خسروا الملايين حتى الآن ، من أن ترفع عليهم الدعاوي . كانت الجسور المنصوبة والشاحنات تسد المنطقة المتنافرة . أما الطوابق السفلى فكانت مبنية من الخشب الرقائقي المقوى ذا اللون الأسود في حين شكلت تلك البناية التي تبدو جميلة في الفضاء ، جذوراً متشابكة قذرة في أسفلها . تجنب ريتشارد المشي في تلك الطريق مرة أخرى . وعندما زارته روث لعباً لعبة الغسيل وتبارزا على تنظيف مربع أبيض من الأرضية بلبادة بريللو ، فيما تجاهلا المربعات السود . كانت روث تفرك الأرضية عارية وهي تركع على ركبتيها مثل جواد مطهم ممتلئ الجسم ، يتأرجح شعرها الطويل وتتناغم هزة صدرها مع حركاتها الدائرية النشيطة ، وعند مؤخرتها كان شعر عانتها يبدو مسرّحاً مثل شعر عنق الفرس السفلي . فرساً غريبة وجميلة ، لم تكن تستطيع أن تنظف أكثر من مربع واحد . مر الوقت مسرعاً بالنسبة لهما واختفى حتى أنهما لم يجدا وقتاً للتخاطب سوى عند النهاية ، وقفت ويدها على مقبض الباب وسألته :

- أليست هذه البناية مدهشة وتحبني؟
- كلا ، أنا الذي أحبك .
- ألا نستطيع أن نتشارك؟

- كلا .

أحست بحب الامتلاك بالنسبة للشقة وعندما أخبرها أن جوان كانت عنده أيضاً ونامت معه كزوجها فقط من أجل المتعة ، راحت روث تنوح على الهاتف ، في سريرنا؟

- في سريري أجابها بحزم غير مألوف .

- في سريرك ، اذعنت روث وفي صوتها بحة طفل نعس .

عندما انتهت المحادثة أخيراً ، هدأت عشيقته . وراح هو يتكئ بنظرة قبالة صديقته العملاقة التي لا حياة بها . كان لونها قد بهت إلى الليلكي في أحدى جهاتها . فيما بقيت الجهة الأخرى لازوردية اللون وقد اتشحت بانعكاسات باهتة لسُحب الأعالي . كانت تخاطبه وتحدق به مثل وحش أبكم . حدثته عن الجمال والمعاناة ، عن البساطة التي يجب أن تزول وعن الضياع . كان المساء يرقق ظلها نحو اللون الرمادي والليل يغلف جوانبها . تقلص تركيز ريتشارد وقرأ للمرة المائة بتوتر شديد تلك الكلمات التقية الصفيقة ، تلك القطعة الابتهالية التي حضرت باشراق مع لهب الشمس الذاوي :

بهذا الخاتم

أتزوجك

منذ أشهر ، انتزعت روث خاتم زواجها . وعندما جاءت لتسافر معه في تلك الرحلة الليلية ، وضعت على اصبعها العاري خاتماً ماسياً موروثاً ، كحق مقاوم للخداع . وفي الفندق تضايقت روث لأنها اضطرت أن تخفي اسم عائلتها بادعائها اسم عائلته رغم أنه شرح لها بأن هذا الإجراء لتيسير الأمور فقط .

- ولكني أحب ما أنا عليه الآن ، أحتجت . كانت هذه بالتأكيد جوهرتها المركزية الدائمة الاشراق والتي لا ينتهكها أحد . كانت تحب ما هي عليه . كانا كل منهما قد ذهب في طريقه وعندما عادت قبله ، طلبت مفتاح الغرفة من منصة الاستقبال بالفندق على أساس انه رقمها .

سألها موظف الاستقبال عن اسمها ، كانت هذه هي سياسة الفندق اذ لا يمكنه اعطاء المفتاح إلى رقم .

- وما الاسم الذي اعطيته اياه ، سألها ريتشارد مقاطعاً قصتها . خلال توقفها عن متابعة القصة ، حدقت فيه بعينيها الزرقاوين القاتمتين . رأى ترددها أمام تحدي الموظف . كما أنها كانت قبل زواجها مدرسة من الدرجة الثانية ، . ولمس ريتشارد الآن سلوكها المرعب الآمر والمتزمت - الذي كانت تواجه به جمهور الأطفال الذين يملؤون غرف الدراسة - كانت دعوة جوان إلى العشاء أمراً محظوراً . اقترحتها عليه فقط للتسلية في نهاية يوم أحد مع الأطفال . كان قد مضى عليه في بوسطن شهران ، وأخذت عادات جديدة تحل محل عاداته القديمة وكان ترك الأطفال أمراً مغرياً . فقد كانوا يشعرون بالسأم ويجدون أسهل لهم أن يسأموا على التلفزيون ، من أن يسأموا من والدهم ذلك الزائر الدكتاتوري .

- «توقف عن القول بأنك سئمت» ، كان يعنف ابنه جون ، وهو أكثر أولاده وداعة وأكثر من كان يشعر بالذنب لأجله ، كان عمر الخامسة عشر عمر يسبب السأم . عندما كنت في الخامسة عشرة كنت اضطجع حول البيت لأقرأ قصص الخيال العلمي بينما أنت تجلس لتشاهد فيلم كونغ فو - على الأقل كنت أنا أتعلم كيف أقرأ .

- هذا جيد ، كان الطفل يحتج بصوته المراهق وهو يخشى بأن تضيع عليه لقطة حية بالتصوير البطيء لتاي تشي .

عندما كان ريتشارد يعيش هناك ، كان يشاهد ذلك البرنامج معه ، غالباً ليعرف ما اذا كان جيداً ، أو إذا كان الهدوء الذي يتصف به البطل الشرقي والذي تتخلله لقطات من العنف الروحي الخفي ، يؤثر في أخلاقيات الطفل مثلما كانت كتب الكوميديا والأفلام الرخيصة تؤثر في تصرفات ريتشارد ، هدوء بوغارت وتهور ولا مبالاة ايرول فلين وازدواجية وخداع سوبرمان .

جلس على ركبةٍ واحدة على الأريكة ، حيث كان ابنه جون بشفته العليا الزغبة ، ورمشيه الغامقين يرمشان بتعالٍ وغموض ، وانشق صوت ريتشارد وهو يسأل : الن يكون الأمر أقل سأماً إذا كان أبوكَ يعيش هنا؟

- آه ، كلا جاءه الرد عفوياً وسريعاً وكأن السؤال كان متوقعاً . هل كان الولد يعني ذلك ، لم تتحرك عيناه جانباً لوهلة من الزمن ، ربما خوفاً من أن يخادع نفسه ، أو ربما

نتيجة لسأم حقيقي اصابه من الكبار ومن تلميحاتهم .

نهض ريتشارد من موقعه المتوسل وقد أبدى الارتياح لسماعه صوت جوان وهي تنزل الدرج ، كانت ترتدي ثوبها الأسود الملائم لكل المناسبات ، وكان هذا الثوب يتميز برقبته المدببة وياقته المصنوعة من الفضة المكسيكية - على الأقل كان يشكل علامة مدهشة لعدم توافقهما ، لم يكن يسأم منها أبداً وكذلك هي . وكان يخشى أن يعترف بذلك ، كان حذراً فقد نالت منهما الأيام ، لا بد أنها نالت منهما .

على أن المشروبات والمأكولات البحرية والنبيذ كانت تحل محل الحذر . سمع نفسه يقول لهذا الوجه المألوف جداً والغريب جداً الذي يجلس مقابله على المائدة ، انها لطيفة وتحبني ، كما تعلمين (أحس بالخجل مثل إبن أدرك فجأة أن أمه وعلى الرغم من أدبها في اظهار اهتمامها بأهمية شرحه عن منافسة رياضية الا أنها فعلياً غير مكترثة) ثم تابع يقول : ولكنها كانت تقول له كل شيء وترغب أن يقال لها كل شيء ، كان الأمر يشبه العودة إلى الحياة في المدرسة الثانوية . ولعل أسوأ شيء في كل هذا الشرح وكل هذه المضاجعة الرائعة هو أنها لا تبدو حقيقية أمامه مثلما تبدين أنت .

انشق صوته قليلاً ، لا بد أنه قد ذهب بعيداً في الكلام .

وضعت جوان يدها اليسرى ، التي كان خاتم الزواج فيها ما يزال فيها على شرشف الطاولة في حركة تدل على الاقتناع والتساوي ، سوف تصبح كذلك قالت له ، المسألة مسألة وقت .

كان النمط القديم ما يزال سارياً في العالم ، فقد حيّته النادلة التي كانت تدرّس أولاده في مدرسة الأحد بطريقة توحي بأن زواجهما ما يزال ساري المفعول ، كانا يتناولان الطعام في هذا المطعم ثلاث أو أربع مرات في السنة وضمن جدول منتظم . فقد كانا يعرفان المقاول الذي بنى هذا المطعم منذ اثني عشرة سنة وكان المطعم يشبه جناحاً مقلداً من الأنتيك القديم ، وقد غادر هذا المقاول البلدة مفلساً ومخزياً ولكن لغرابة الأمر كان سعيداً ، أخذت ذاكرته تنتقل بين قواطع المكان . كان هناك زوجين آخرين ، أكبر عمراً منهما ، وكان الزوج قد عمل مرة مع ريتشارد ضمن لجنة بلدية - وكانا يأتيان إلى مائدتهما في المطعم سعيدين لطيفين تماماً كما تتطلبه الطريقة

الأمريكية . هل كانا يعلمان؟ لا يهم الأمر في هذه البلاد المشهورة بالترتيبات المؤقتة . كان آل مابل يتمازحان معاً ثم ينقلبان إلى حالة تراخ عندما تذهب عنهما ابصار الزوجين . كانت جوان تحدق بهما من الخلف وتقول : أتساءل ما الذي يملكانه مما لا نملكه نحن؟

- ربما لديهم أقل منا ، قال ريتشارد ، لذلك لم يتوقعان الكثير .

- ان هذا سهل جداً ، كانت تقاوم بخفية تعليقاته المقنعة ، وكان هو ممتناً لذلك - أرجوك أن تقاومي .

سألها - كيف تسير احوال الأولاد؟ بدت جوان مذهولة .

هذا هو طبعه . توقفي عن انتقاده .

- أنا فقط أريده أن يعتقد بأن عليه أن يكون زوجك الصغير فذلك البيت اصبح كبيراً .

- أنا آسف قال لها . وكان فعلاً كذلك - وضع راحتي يديه على الطاولة .

- أليس مدهشاً ، قالت جوان كيف ان زجاجة نبيذ كاملة لم تعد تكفي لشخصين بعد الآن .

- هل اطلب زجاجة أخرى ، كان يشعر بالفزع في داخله ، يا للخسارة لاحظت ذلك وقالت . كلا ! فقط أعطني نصف ما في قدحك .

- يمكنك أخذه كله ، ثم صب قدحه في قدحها .

ثم قالت ، اذن فان مضاجعتك اصبحت رائعة .

أحس بالحرج من تلك الملاحظة ، وخاف أن تصبح توجها مقرفاً في العلاقة . فكما مع روث أيضاً كانت تحكم حديثه آداب البالغين . لذلك كان عليه أن يبقى على حد فاصل بينه وبين جوان .

- نعم ، هي كذلك بالعادة ، قال لها ، كما هو الأمر بين شخصين غير متزوجين .

- هذا صحيح أيها الرجل الأبيض ، جرعت بعض من نبيذه ، بدأت أثار الزهزهة تظهر على جوان ، اتكأت على أقرب نقطة لها من الطاولة ، عليك أن تعدني ، وأتبعت ذلك بإيماءة تترافق مع الوعد ، ثم بسطت يديها في حركة احتجاجية ، عدني بأن لا تخبر أحداً بذلك ولا حتى روث .

– ربما لا يجب عليك أن تخبريني في الحقيقة لا تفعلي ذلك – أدرك لماذا كانت تتكلم باقتضاب حتى الآن . كانت تريد أن تتكلم عن عشيقها وهي تتمسك به بحرارة بداخلها مثل طفل .

كانت على وشك أن تخونه .

– أرجوك لا . قال ريتشارد .

– لا تكن عنيداً ومزعجاً ، انك الشخص الوحيد الذي أستطيع أن أكلمه ، كما أن الأمر لا يعني شيئاً .

– هذا ما قلتيه عندما نمت معي في شقتي .

– هل عنى الأمر شيئاً لها .

– لن تصدقي كم عنى لها .

ضحكت جوان ، أما ريتشارد فقد صدم ، وللمرة الألف ، بكمال اسنانها البيضاء الموضبة توضيباً رائعاً ، وقد انكشفت تحت شفتيها وكأنها برهان على كمال جمجمتها ، وروحها النقية . كان مرحها يحلق بها إلى اجواء سماوية بينما هي تفضي بدخيلة نفسها وتتحدث عن أندي وكيف تشاجر مع مديرة فندق بسبب نقص المناشف في الغرفة التي استأجراها لفترة بعد الظهر . وكيف كان يخلد للنوم لمدة سبعة دقائق بعد كل مرة كانا فيها يمارسان الحب . كان ريتشارد يعرف أندي منذ سنوات ، شاب نحيل ، وخبير في قانون الشركات . ورغم كونه متخصصاً في ترتيب عمليات دمج الشركات العملاقة فقد كان هو نفسه مطلقاً .

كان أندي أنيقاً في لبسه ، دائم الذهاب إلى الكنيسة ، يشعرك في كثير من المناسبات بكرامة لا تناسبه ، ولعل ما جذبه إلى جوان ، كان طلاؤها السطحي اللامع وبرودة نيوانجلند الرقيقة فيها أكثر من الشياطين الشريرة التي تكمن بداخلها – كانت تقول أن طبيبها النفسي . يعتقد بأن أندي وأنت تعيشان متعصبين ، وانك حين غادرت اصبحت أراه سخيفاً مثلك .

– انه ليس سخيفاً ، انه طيب ووفي وأنيق وثري . كما أنه يدفع للكنيسة ، وفيه اثنا عشرة عاقه ، انه يحبك .

– انه يحميك مني ، هكذا تعني بقولك ، ازراره! لقد استغرقنا من الوقت نصف

ساعة بعد ذلك لكي نزرر له جميع ازراره . لو أنهم يصنعون بدلات بأربع قطع لارتدائها فوراً ، كما أنه يغسل كل شيء وفي كل وقت .

– توقفي ، توسل إليها ريتشارد ، توقفي عن اخباري كل هذا . ولكنها كانت مستهترة وسط تلك الانعكاسات الغزلية لخياناتها كان وجهها أحمرا ومرتجفاً لدرجة أن نادلة المطعم كانت تقهقه وهي تصب القهوة لآل مابل . كان وجه جوان ارجوانياً مثل القرنفل وعيناها زرقاوين باهتتين كالثلج . وتكادان تكونا شفافتين . قرأ من بين كلماتها ما الذي تريد قوله – بأن هؤلاء العشاق مهما أحببتهم ليسوا نحن ، وليسوا مقدسين كما الحقيقة مقدسة . الحقيقة هي نحن ، فنحن الذين أنجبنا أطفالاً ، ونحن الذين أعطينا بعضنا البعض اجسادنا الفتية ، ووعدنا بأن نكبر ونشيخ معاً .

وصفت جوان حادثة حصلت في بيتها عندما كان ملكهما . عندما وصل السمكري بدون أن يتوقعه أحد . كان على ريتشارد أن يضحك معها فقد كانت مشاكل السمكري في ذلك البيت أشبه بنكتة قديمة أو قصة بطولية متواصلة :

قرع جرس الباب الخلفي ودخل السيد كيلي ، وأنت تعلم كيف يسمع صدى أصوات المطبخ في غرفة النوم . كنا قد فعلناها ، نظرت اليه لترى اذا كان قد فهم المعنى . أحنى رأسه ولمعت عيناها ثم ركزت في حديثها عن قرع الباب . وبإيماءة من يدها تشبه تلك الايماءة التي قامت بها في السيارة منذ فترة ، رسمت بطرف اصبعها حرف ٧ في الهواء كانت حركتها حماسية ، خجولة ، واثقة ، ومتقنة ، فهم جميع معانيها وعلم بأنها لن تتوقف عن الإيماء بداخله . لن تتوقف أبداً حتى ولو وضع مرسوماً تشريعياً بينهما ، حتى الموت نفسه ستتحمله ايماءاتها التي تقطع في الزجاج .

١٩٨١

سينثيا أوزيك

الشـــــال

عن «ذي نيويوركر»

كانت ستيلا باردة جداً ، كبرودة الجحيم ، كيف كن يسرن على الطرق معاً ، روزا وماغدا تلتفان بين صدرين متقرحين ، وماغدا ملفعة بشال . كانت ستيلا تحمل ماغدا أحياناً ولكنها كانت تغار منها . فتاة نحيلة في الرابعة عشرة من العمر ، تجر صدراً نحيلاً وترغب أن تكون ملتفعة داخل شال ، مخبأة ونائمة يهزها أحد خلال السير كطفلة بين ذراعين . أمسكت ماغدا بحلمة روزا ولكن روزا لم تتوقف عن السير . كانت تسير مثل عربة أطفال ، لم يكن هناك ما يكفي من الحليب وراحت ما غدا ترضع الهواء . أخذت تصيح وانقلبت ستيلا نهمة . فقد كانت ركبتاها مثل انتفاضات عصي ، وأكواعها مثل عظام الدجاج .

لم تكن روزا تشعر بالجوع بل بخفة . ليس كخفة شخص يمشي . بل شخص مغشي عليه أو عالق في نوبة ، مثل ملاك عائم يقظ يرى كل شيء من الهواء دون أن يتلمس الطريق . أو كأنها تتمايل على أطراف أظافر اصابعها . نظرت إلى وجه ماغدا من خلال فتحة من الشال ، مثل سنجاب في عشه يحس بالأمان . ويشعر بأن أحداً لن يصل اليه وهو في داخل لفائف الشال . كان وجهها دائرياً جداً ، كأنه مرآة لوجه ، لم تكن بشرة روزا الجرداء قاتمة مثل الكوليرا بل كانت تمثل نوعاً آخر من الوجوه

بعينين زرقاوين كالهواء ، ناعمتين كريش شعر اصفر اللون . مثل نجمة خيطت على معطف روزا . قد يخالجك ظن بأنها احدى أطفالهن .

كانت روزا تحلم بأن تترك ماجدا في احدى القرى . يمكنها أن تحيد عن الخط لدقائق لتضعها بين يدي احدى النساء على الطرف الآخر من الطريق . ولكنها قد تتعرض لاطلاق النار اذا ما حادت عن الخط . وحتى لو ابتعدت عن الخط لنصف ثانية ودفعت بالكومة الملفوفة بالشال إلى إحدى الغريبات ، فهل ستأخذه؟ ربما ستصاب بالدهشة ، وتخاف ، وربما تلقيه على الأرض ، وعندها سيضرب رأس ماجداً بالأرض وتموت . ذلك الرأس الدائري ، وتلك الطفلة اللطيفة ، توقفت عن الصراخ الآن وأخذت تمص فقط لتشعر بطعم الحلمة الجافة ، وهي تقبض بلثتها الصغيرة بإحكام على الحلمة . كان هناك جزء من سن يبرز من اللثة السفلية ، مشرقاً مثل حجر قبر مصقول من الرخام الأبيض يلمع هناك . وبدون أي احتجاج أرخت ماجدا لثتها عن حلمات روزا ، الحلمة اليسرى أولاً ثم اليمنى ، كلاهما كانتا مشققتين لا أثر للحليب فيهما . مثل صدع قناة بائد أو بركان هامد ، أو عين عمياء أو ثقب متيبس ، لذا انتحت ماجدا جانباً من الشال وأخذت تمصه كبديل عن الحلمة ، راحت تمص وتمص حتى بللت خيوطه ، كان مذاقه جيداً مثل حليب الكتان .

كان شالاً سحرياً يمكنه تغذية طفل لثلاثة أيام بلياليها ، لم تمت ماجدا بل بقيت هادئة ولكن حية ، كانت هناك رائحة مميزة من القرفة والجوز تخرج من فمها . وظلت عيناها مفتوحتين طوال الوقت كأنها نسيت كيف ترمش أو كيف تنام . فيما كانت روزا وأحياناً ستيلا تمعنان النظر في زرقتهما . كانتا تتبادلان حمل ماجدا على الطريق وتدرسان وجهها . انها من العرق الآري قالت ستيلا في صوت رفيع ، مثل صوت وتر ، وقد راود الظن روزا عندما رأت ستيلا تحدق في ماجدا مثل آكلة لحوم بشر صغيرة . فقد بدا لها عندما لفظت ستيلا كلمة عرق آري بأنها قالت فلنتهمها ولكن ماجدا عاشت لتبدأ المشي ، عاشت حتى هذه المدة ولكنها لم تكن تمشي جيداً ، جزئياً لأنها كانت لا تزال في الشهر الخامس عشر من العمر ، والسبب الآخر هو أن رجليها لم يكونا ليحتملا بطنها السمين . فقد كانت تملك بطناً سميناً مليئاً بالهواء ومدوراً . كانت روزا تعطي معظم طعامها لماجدا في حين لم تكن ستيلا تعطي شيئاً .

كانت ستيلا طفلاً نهماً في طور النمو ولكنها لم تكن تنمو كثيراً ولم تبلغها العادة الشهرية بعد . وكذلك الأمر مع روزا التي كانت نهمة أيضاً وتعلمت من ماجدا كيف تتذوق طعم الاصبع في الفم . كانوا في مكان بلا رحمة ، وكانت الرحمة قد ألغيت من قلب روزا . اذ كانت تنظر إلى عظام ستيلا دون أي شعور بالشفقة ، وكانت متأكدة أن ستيلا تنتظر ماجدا لتموت لكي تستطيع أن تغرز أسنانها في فخذيها الصغيرين .

علمت روزا بأن ماجدا ستموت قريباً ، كان يجب أن تكون ميتة الآن لكنها كانت مدفونة عميقاً في ذلك الشال السحري الذي كانت تحسبه بالخطأ صدر روزا المرتعش .

تعلقت روزا بالشال وكأنه كان يغطيها ولم يأخذه منها أحد . أما ماجدا فكانت بكماء ، لم تبك أبداً ، خبأتها روزا في الثكنة تحت الشال ولكنها كانت تعلم أن أحداً سوف يبلغ عنها يوماً ما . أو أن أحداً سيسوقها ، ليلتهمها . ربما ليس ستيلا . وعندما بدأت ماجدا تمشي ، عرفت ستيلا أنها ستموت قريباً وان شيئاً سيحدث . كانت تخاف أن تنام . كانت تنام وثقل فخذتها على جسد ماجدا ، مخافة أن يقوم أحد ما يخنقها تحت فخذتها . بدأ وزنهما يخف ويخف وكأنها هي وستيلا يتحولان إلى هواء .

كانت ماجدا هادئة ولكن عيناها كانتا تفيضان بحيوية رهيبة مثل نمرين أزرقين ، تراقبان وتضحكان أحياناً ، بدأ الأمر وكأنه ضحكة ، ولكن ماذا يمكن أن يكون ذلك . فماجدا لم تر أحداً يضحك من قبل ومع ذلك ظلت تضحك على شالها عندما تنفخ الريح في زواياه ، تلك الريح السيئة التي تجر بطريقها قطعاً سوداء كانت تتسبب في أهراق الدمع من عيني ستيلا وروزا . كانت عينا ماجدا صافيتين دائماً وبلا دموع . تراقبان مثل عيني نمر وتحرسان شالها كي لا يلمسه أحد . فقط كان مسموح لروزا أن تلمسه ، حتى ستيلا لم يكن يسمح لها بذلك . فقد كان الشال طفل ماجدا وحيوانها المدلل وأختها الصغيرة . كانت تلف نفسها به وتمص من احدى زواياه عندما كانت تريد بعض الهدوء .

أخذت ستيلا الشال بعيدا وتركت ماجدا تموت .

وقالت بعد ذلك لقد كنت أشعر بالبرد .

بعد ذلك ظلت ستيلا تشعر بالبرد ، دخل البرد إلى قلبها ورأت روزا أن قلب ستيلا أصبح بارداً . قفزت ماجدا إلى الأمام برجليها الرفيعتين وهي تبحث عن الشال في جميع الاتجاهات حتى تعثرت عند مدخل الثكنة حيث يظهر الضوء . ، رأت روزا ما حدث ولحقتها ولكنها كانت قد اصبحت في الساحة الخارجية تحت الضوء الساطع ، عند الميدان الذي يتم فيه تفقد الأسرى . كان على روزا كل يوم ان تخفي ماجدا تحت الشال بمواجهة حائط الثكنة . وتذهب لتقف في الميدان مع ستيلا ومئات اخريات ، أحياناً لمدة ساعات ، بينما ماجدا مهجورة تحت الشال تمص في زواياه . كانت ماجدا تظل صامتة طوال اليوم ، ولهذا لم تمت . ولكن روزا رأت اليوم أن ماجدا سوت تموت ، وسرت في راحتيها رعشة فرح مرعب . كانت أصابعها مثل النار ، مذهولة ومحمومة ، بماجدا الآن هي في ضوء الشمس تتهادى على قدميها الرفيعتين مثل الأقلام وتصرخ منذ جفاف حلمتي ثدييها ، منذ آخر صرخة صرختها ماجدا على الطريق ، كانت ماجدا مجردة من أي كلام ، وكأنها بكماء وقد ظنت روزا أن شيئاً ما قد حصل لأوتارها الصوتية أو لقصبتها الهوائية أو لفتحة زلعومها . أو أنها أصبحت معاقة بدون صوت . ربما كانت صماء أيضاً أو أن هناك شيئاً ناقصاً في ذكائها . كانت ماجدا بكماء . حتى الضحكة التي كانت تطلقها عندما تهز الريح المغبرة شالها كانت ضحكة آتية من نفخ الهواء الناتج عن اسنانها ، وحتى عندما كان القمل في رأسها وجسدها يضايقها لدرجة تصبح معها متوحشة مثل تلك الجرذان الضخمة التي تجوب الثكنة عند الفجر ، تبحث عن جيفة تأكلها ، كانت تحك وترفس وتفرك وتلتف على نفسها بدون أي تذمر .

ولكن ها هي الآن تطلق شريطاً متواصلاً من الصخب الدبق - «ما !!!! - » .

كان ذلك أول صوت تطلقه ماجدا من حنجرتها منذ جفاف ثديي روزا

- «ما !!!! . . . !!» .

مرة أخرى كانت ماجدا تتهادى تحت ضوء الشمس الخطر في الميدان ، بساقيها الصغيرتين المعوجتين المثيرتين للشفقة . رأت روزا ، رأت أن ماجدا حزينة على فقد الشال وأنها سوف تموت ، سرت موجة من الأوامر عبر ثديي روزا ، ابحثي ، أحضري ، اجلبي . . . ولكنها لم تعرف إلى أين تذهب أولاً إلى ماجدا أو إلى الشال . لو أنها

قفزت في الميدان لانتزاع ماجدا فان الصراخ لن يتوقف لأن ماغدا لم تحصل على شالها بعد ، واذا عادت إلى الثكنة لتبحث عن الشال واذا وجدته وعادت إلى ماجدا تهزه امامها فان ماجدا سترجع لها وتضع الشال في فمها وتعود إلى الصمت مرة أخرى .

بحثت روزا في الظلام ، كان من السهل ان تجد الشال ، فقد كانت ستيلا مكومة فوقه نائمة بعظامها الرفيعة ، حررت روزا الشال منها وانطلقت كالهواء إلى الميدان ، كانت حرارة الشمس تهمس بحياة أخرى ، فراشات الصيف ، كان الضوء هادئاً رقيقاً . وعلى الجهة الأخرى من السياج الحديدي . بعيداً ، بعيداً كانت المروج الخضراء تزهو بالهندباء البرية والورود الليلكية الغامقة اللون . وعلى مسافة أبعد ، كانت الزنابق البريئة تنتصب طويلاً رافعة رؤوسها البرتقالية . في الثكنة ، كانوا يتحدثون عن الأزهار والمطر ، افرازات الروث المكثفة والمياه العفنة الحمراء اللون التي تسيل أسفل الأسِّرة العليا . كان عفناً ممزوجاً بدخان شحمي لاذع يزيِّت جلد روزا . وقفت لبرهة عند طرف الميدان . بدت الكهرباء عبر السياج وكأنها تصدر همهمة ، حتى ستيلا كانت تقول ان الأمر من تخيلنا فقط ، ولكن روزا سمعت اصواتاً حقيقية تسري عبر السلك ، اصوات حزينة مجزعة ، وكلما ابتعدت عن السياج كلما ازداد وضوح الأصوات حولها . كانت اصوات نواح تعزف مشحونة بالاقناع والعاطفة ، كان من المستحيل ان تشك بأنها اشباح . اخبرتها الأصوات ان تتمسك بالشال وان ترفعه عالياً ، وأن تهزه وأن تلوح به مثلما تلوح بعلم . رفعت روزا الشال وهزته ولوحت به ، ومن بعيد كانت ماجدا تعدو متكئة على بطنها المنفوخ بالهواء ، تحاول الوصول بذراعيها اللواتي تشبهان العصي الرفيعة . كانت مرفوعة إلى الأعلى فوق كتف أحدهم ولكن الكتف الذي يحملها لم يكن متوجهاً نحو روزا والشال بل كان يسير مبتعداً . كانت بقعة ماغدا تبتعد أكثر وأكثر عبر دخان المسافات . فوق الكتف كان هناك خوذة تتلألأ ، وقد حولها الضوء إلى شبه قدح . وتحت الخوذة كان الجسد الأسود مثل الدومينو فوق زوج من الأحذية السوداء الثقيلة متجهاً نحو السياج المكهرب ، بدأت الأصوات الكهربائية على السياج تهمهم بوحشية ما١١ ما ١ ، ما ١١ ما ١١ ، كلها مع بعضها كانت تهمهم . كم تبتعد ماجدا عن روزا الآن عبر الساحة ، فقط اثنا

عشرة ثكنة ، هي كل الطريق إلى الجهة الأخرى ، لم يكن حجمها أكبر من عثة .

مرة واحدة ظهرت ماجدا وهي تسبح في الهواء ، كانت ماجدا كلها تبدو مثل مسافر في الأعالي . مثل فراشة تلمس كرمة فضية ، وفي اللحظة التي ضرب فيها رأس ماجدا الدائري وقدماها الرفيعتان وبطنها المنتفخ ويداها الملتويتان حاجز السياج ، هدرت الأصوات الحديدية في جنون ، تحث روزا على الركض باتجاه البقعة التي سقطت ماجدا فيها فوق السياج المكهرب ولكن رو زا لم تطع هذه الأصوات . وقفت فقط لأنها لو ركضت لأطلقت عليها النار . ولو قامت بلملمة بقايا جسد ماجدا لأطلقت عليها النار أيضاً ، اذا أفلتت صرخة الذئب المذعور التي تتسلق عبر هيكلها العظمي وانفجرت في الخارج لأطلقت عليها النار ، لذلك أخذت شال ماجدا وعبأت فمها به ، أدخلته في عمق فمها لكي تمنع تلك الصرخة من الخروج ، شعرت بمذاق القرفة واللوز في لعاب ماجدا على الشال وظلت تعُبُ من شال ماجدا حتى الجفاف .

١٩٨٣

رايموند كارڤر

من حيث أُنادي

عن «ذي نيويوركر»

نحن جالسون على الشرفة الأمامية لمشفى فرانك مارتن المخصص لمدمني الخمر ، وكما هو الحال مع الباقين عند فرانك مارتن ، كان جي . ب . سكير من الدرجة الأولى ، ولكنه كان يعمل أيضاً منظفاً للمداخن ، كان خائفاً لأن هذه هي أول مرة له هنا ، أما أنا فقد سبق لي وجئت هنا مرة من قبل . ماذا أقول ، ها أنا قد عدت . واسم جي . ب . الحقيقي هو جويني ولكنه طلب مني أن أناديه جي . ب . يبلغ جي . ب . من العمر ثلاثين عاماً ، أي أن عمره اصغر قليلاً من عمري وهو يخبرني كيف قرر أن يدخل هذا المجال من العمل . كان يريد أن يستخدم يديه عندما يتكلم ولكن يداه ترتجفان ، أعني أنهما لا تهدئان . قال : لم يحصل معي مثل هذا الأمر من قبل ، ويعني الرجفة ، وأقول له أنا اتعاطف معك ، وان هذه الرعشات سوف تزول ولكن الأمر سيأخذ بعض الوقت .

لم يمض علينا سوى يومين . ولم نكن قد خرجنا للغابات بعد ، كان جي ، ب . يصاب بهذه الرعشات ، وكنت أنا غالباً أحس برجفة في عصب كتفي أو ربما ليس عصباً . ولكني أحس به أحياناً على جانب رقبتي . وعندما يحدث مثل هذا الأمر يجف لعابي وتصبح عملية البلع صعبة بالنسبة لي . أعلم أن شيئاً سيحدث واريد أن

أتحاشاه ، أو اختبئ منه . هذا ما أرغب في فعله . أغمض عيني فقط واجعله يعبر عني . ادع الرجل التالي يمر . يمكن لجي . ب . أن ينتظر دقيقة .

رأيت حالة مرضية صباح أمس ، رجل ينادونه تايني ، رجل ضخم سمين من سانتا روزا ، يعمل كهربائياً ، قالوا أنه يعمل هنا منذ اسبوعين تقريباً . وأنه يصاب بنوبات . كان سيعود الى منزله بعد يوم أو يومين ليقضي ليلة عيد رأس السنة مع زوجته أمام التلفزيون . وقد خطط تايني ليلة رأس السنة لكي يحتسي الشوكولاتة الساخنة ويأكل الكعك . صباح أمس ، عندما نزل لتناول الفطور كان يبدو في حالة ممتازة . كان يصدر اصواتاً تشبه اصوات البط ، وهو يحدث اصدقاءه كيف كان ينادي البطات لتحط فوق رأسه . بلا ، بلام قال تايني وهو يلتقط زوجاً منها . كان شعر تايني رطباً ، منسدلاً على جوانب رأسه . وكان قد خرج للتو من الدش وقد حزّ ذقنه بشفرة حلاقة ، ولكن ماذا يهم فجميع العاملين لدى فرانك مارتن يحزون ذقونهم . انه شيء يحدث دائماً . جلس تايني على طرف الطاولة . وبدأ يروي قصة حدثت له في احدى مباريات الشرب . كان الناس على الطاولة يضحكون ويهزون رؤوسهم وهم يتناولون البيض . وكان تايني يقول شيئاً ، ويبتسم ثم ينظر الى المائدة حوله ليبحث عن اشارة لتقبل حديثه . كنا جميعنا قد ارتكبنا حماقات وسيئات . ولهذا كنا نضحك ، كان تايني يتناول صحنا من البيض المقلي وبعض البسكويت والعسل . كنت أجلس معه على الطاولة احتسي بعض القهوة لأني لم أكن احس بالجوع . وفجأة لم يعد تايني أمامنا . سقط عن كرسيه محدثاً جلبة كبيرة ، سقط ممدداً على ظهره فوق الأرضية وعيناه مغلقتان ، وقدماه تضرب في مشمع الأرضية . هرع الناس الى فرانك مارتن ، ولكنه كان قد أصبح هناك ، اقترب اثنان من الشباب من تايني ووضع أحدهم اصابعه داخل فمه محاولاً الإمساك بلسانه . صرخ فرانك مارتن ، ليبتعد الجميع الى الوراء . عندها لاحظت اننا جميعاً كنا منحنين فوق تايني ، نحدق به دون أن نتمكن من رفع أعيننا عنه ، اعطوه بعض الهواء ، قال فرانك مارتن ثم هرع الى المكتب في طلب الاسعاف .

عاد تايني الى العمل اليوم مرة أخرى – وقام فرانك مارتن باحضاره من المستشفى في سيارته الستيشن ، وصل تايني متأخراً عن افطار البيض . لكنه تناول بعض

القهوة على طاولة غرفة الطعام . احضر له احدهم قطعة خبز . ولكن تايني لم يأكلها . جلس يتناول قهوته فقط محدقاً في الفنجان ، يحركه من حين لآخر الى الأمام والى الخلف . أرغب أن أسأله فيما لو شعر بأي اشارة قبل أن يحدث له هذا الأمر ، أردت أن أعرف اذا كان قد شعر ان كان قلبه قد تخطى نبضه أو أن نبضه تسارع ، هل أحس برعشة في عينيه ، ولكنني لم أتمكن من أن أقول شيئاً ، فلا يبدو عليه أنه متلهف للحديث عن الموضوع ، على أية حال ، ولكن ما حدث لتايني كان شيئاً لن أنساه ، وهو ملقى على الأرض يرفس بأكعابه . وكلما شعرت بهذه الرفة في جسدي ، آخذ نفساً وانتظر لكي أقع على ظهري وعيناي الى الأعلى بينما أحدهم يضع اصبعه في فمي .

في مقعده على الشرفة الأمامية ، كان جي . ب . يجلس ويداه في حضنه . كنت ادخن سيجارة وانفض رمادها في دلو قديم للفحم واستمع الى جي . ب . وهو يثرثر . الساعة الآن الحادية عشرة صباحاً ، ما زال امامنا ساعة ونصف حتى موعد الغداء . لم يكن أحد منا يشعر بالجوع ، ولكننا كنا نتلهف للدخول والجلوس معاً على الطاولة ، ربما نجوع حينئذ .

ما الذي يتحدث عنه جي . ب . على أي حال؟ انه يروي كيف وقع في بئر قرب المزرعة التي تربى فيها ، عندما كان عمره اثني عشرة سنة . كان بئراً جافاً لحسن حظه ، أو لسوء حظه ، يقول وهو يلتفت حوله ويهز برأسه . يصف كيف اكتشفوه في ساعة متأخرة من عصر ذلك اليوم حيث قام أبوه بسحبه بحبل بعد أن بلل بنطاله من الخوف . عانى من كل أنواع الرعب في ذلك البئر ، وهو يصيح في طلب النجدة وينتظر قليلاً ثم يعاود الصياح ، ظل يصيح حتى بُحّ صوته ، ولكنه اخبرني أن وجوده في قعر ذلك البئر ترك فيه انطباعاً ابدياً . كان يجلس هناك وينظر الى فتحة البئر ويرى السماء الزرقاء في أعلاها ، وبين الفينة والأخرى كانت تمر غيمة بيضاء أو سرب من العصافير وبدا له أن اجنحتها في حالة هيجان غريبة ، كان يصغي الى أصوات أخرى . سمع اصوات خشخشة خفيفة فوق جعلته يتساءل اذا كانت الأشياء ستقع فوق رأسه . اخذ يفكر بالحشرات ويسمع هدير الريح فوق فتحة البئر وأثّر فيه ذلك الصوت . باختصار تغير كل شيء في حياته وهو في قعر ذلك البئر ولكن لم يقع عليه

شيء ولم يغلق أحد عليه تلك الدائرة الزرقاء الصغيرة . ثم جاء ابوه ومعه حبل ولم يمض وقت طويل حتى عاد جي . ب . الى العالم الذي كان يعيش فيه .

استمر في الحديث يا جي . ب . ثم ماذا حصل؟ أقول له .

عندما كان في سن الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة ، وقد تخرج من المدرسة الثانوية ، لم يكن امامه شيئاً يرغب ان يفعله في حياته ، نزل الى البلدة لزيارة احد اصدقائه الذي كان يعيش في بيت فيه موقد . جلس هو وصديقه يحتسيان الجعة ثم قرع جرس الباب . فتح صديقه الباب ودخلت امرأة شابة تعمل في تنظيف المدافئ ومعها عدة التنظيف ، كانت ترتدي قبعة عالية . اصابته رؤية تلك المرأة بعقدة لسان ، قالت لصديق جي . ب . انها على موعد لتنظيف موقده . انحنى لها وادخلها الى البيت . لم تنظر اليه تلك المرأة ولم تعره اي اهتمام بل قامت بنشر شرشف على الموقد وضعت عليه عدتها . كانت ترتدي بنطالاً اسود اللون وقميصاً اسوداً وحذاء اسوداً وجوارب سود . وكانت قد خلعت قبعتها . عند هذه النقطة يقول جي . ب . بأنه كاد يصاب الجنون وهو ينظر اليها ، قامت بتنظيف المدخنة بينما كان جي . ب . وصديقه يحتسيان الجعة ويستمعان الى الموسيقى ، ولكنهما كانا يراقبانها ويراقبان عملها ومن حين لآخر ينظر ان الى بعضهما ويبتسمان أو يتغامزان . كانا يرفعان حاجبيهما عندما يختفي نصفها العلوي في المدخنة . كانت جميلة أيضاً ، يقول جي . ب . وعمرها قريباً من عمره .

عندما انهت عملها ، اعادت لف عدتها في الشرشف . وأخذت شيكا من صديق جي . ب . ، كان أهله قد جهزوه لها . ثم سألت صديقه اذا كان يريد أن يقبّلها ، وقالت من المفروض أن يجلب هذا الحظ السعيد . كان هذا كافياً لزعزعة جي . ب . أما صاحبه فقد دارت عيناه . تشدد قليلاً ثم قبلها على خدها وقد احمر وجهه . عند هذه اللحظة كان جي . ب . قد عقد العزم على شيء ، وضع كأس الجعة جانباً ونهض عن مقعده وسار نحو الفتاة الشابة بينما هي تهم بالخروج من الباب .

– وأنا أيضاً قال لها جي . ب . – رمقته بنظرة شاملة من عينيها ، يقول جي . ب . انه شعر بقلبه يخفق وكانت الفتاة كما تبين له فيما بعد ، تدعى روكمسي . بالطبع اجابته روكسي ، ولم لا فلدي بعض الفائض من القبلات . قبلته قبلة حميمة على

شفاهه متمنية ليلة سعيدة ، ثم استدارت للذهاب . أسرع من رمش العين ، تبعها جي . ب . الى الشرفة وفتح لها باب الشرفة ثم نزل الدرج معها حتى المدخل حيث كانت قد أوقفت شاحنتها الصغيرة . كان شيئاً خارج استطاعته ولم يعد يحسب حساب شهر آخر في الدنيا . علم أنه قد قابل شخصاً يجعل قدميه يهتزان . كان ما يزال يشعر بحرارة قبلتها على شفتيه . . . في تلك اللحظة لم يكن جي . ب . قد خطط لشيء بعد . كان يضج بالإحساسات التي تقذف به في كل اتجاه ، فتح لها باب الشاحنة الخلفي وساعدها في ادخال عدتها داخل السيارة . شكراً ، قالت له ، ثم اطلق ما كان يفكر به ، انه يرغب في أن يراها مرة أخرى ، فهل ترغب هي في مرافقته الى السينما .

أدرك ايضاً ما الذي يريد أن يفعله في حياته . اراد أن يفعل ما تفعله هي ، أراد أن يصبح منظف مداخن ، ولكنه لم يفصح عما كان يفكر به حينها . يقول جي . ب . أنها وضعت يديها على وركيها ونظرت اليه نظرة شاملة ثم التقطت بطاقة عمل عن المقعد الأمامي للشاحنة واعطتها له قائلة : اتصل بهذا الرقم بعد الساعة العاشرة مساء ، ستكون آلة الإجابة مقفلة . وحينها باستطاعتنا أن نتحدث . أما الآن فعلي أن أذهب .

وضعت القبعة العالية على رأسها ثم انتزعتها ، نظرت الى جي . ب . مرة أخرى . لا بد أنه أعجبها لأنها ابتسمت له هذه المرة . أخبرها أن هناك لطخة صغيرة قرب فمها . ركبت شاحنتها وأطلقت زاموراً خفيفاً ثم انطلقت .

ثم ماذا حدث؟ اقول له لا تتوقف الأن يا جي . ب . انني مصغ باهتمام . كنت ساصغي له حتى ولو كان يتحدث عن قرار اتخذه في احد الأيام للعمل في تركيب احذية الخيل .

هطل المطر في الليلة السابقة واصطفت الغيوم في مواجهة التلال عبر الوادي ، تنحنح جي . ب . قليلاً ليشحذ حلقه محدقاً في التلال والغيوم . ثم شد ذقنه وراح يتابع قصته .

بدأت روكسي بالخروج معه في مواعيد ، وشيئاً فشيئاً راح يكلمها بشأن السماح له بالذهاب معها في عملها . ولكن روكسي كانت تعمل مع ابيها وأخيها ، وكان

العمل بالكاد يكفيهم . لم يكونوا بحاجة لشخص آخر . الى جانب ذلك من هو هذا الشخص جي . ب . ؟ كوني حذرة منه ، اخذوا ينبهونها . كانت هي وجي . ب . يشاهدان أفلام السينما معاً ، كما كان يذهبان الى عدة رقصات ولكن علاقتهما تمحورت حول تنظيف المداخن معاً وبعد فترة فعلاها وتزوجا . واتخذه حماه شريكاً كاملاً معه . بعد سنة أو ما يقاربها انجبت روكسي طفلاً ولم تعد تعمل في تنظيف المداخن . وعلى أية حال ، تركت العمل . بعد ذلك بقليل انجبت طفلاً آخر . كان جي . ب . الآن في منتطف العشرينات وقام بشراء منزل . يقول أنه كان سعيداً وراضياً بسير الأمور فقد امتلكت كل ما أرغب به ، زوجة وأطفال أحبهم وعمل لطالما رغبت أن أعمل به في حياتي . ولكن لسبب ما ، ومن يعلم لماذا نفعل ما نفعله ازداد ميله لشرب الخمر . كان نوع من الجعة . يقول انه يستطيع شرب الجعة على مدار الأربعة وعشرين ساعة في اليوم ، فقد كان يشرب الجعة منذ مدة طويلة والجعة فقط ، ولم يكن يهم أي نوع من الجعة . كان يشرب الجعة وهو يشاهد التلفزيون ، من حين لآخر كان يشرب خموراً ثقيلة ، ولكن هذا كان يحصل فقط عندما يذهبان الى البلدة - و لم يكثرا من الذهاب على أي حال - أو عندما يزورهما بعض الأصدقاء .

ثم جاء زمن تحول فيه من شرب الجعة الى شرب الجن مع التونيك ، لم يكن يعرف لماذا . واصبح يشرب المزيد من الجن والتونك عند العشاء أو عندما يشاهد التلفزيون ، اصبح كأس الجن والتونك لا يفارق يده . يقول أنه كان في الحقيقة يحب طعمه . بدأ يمر على الحانات في طريق عودته الى البيت ليحتسي كؤوس الجن والتونك ثم يتابع الشرب في البيت . ثم بدأ يتجنب الحضور الى البيت للعشاء ، وحين يحضر لم يكن يرغب في أكل شيء . فقد كان بطنه يمتلئ بالوجبات الخفيفة في الحانات . احياناً كان يدخل من باب البيت ودون سبب معين يقذف وعاء طعامه في غرفة المعيشة . وعندما تصرخ روكسي عليه ، يدير ظهره ويخرج مرة أخرى . بعد ذلك نقل أوقات شربه الى بعد الظهر عندما يفترض أن يكون في عمله . ويقول لي أنه كان يبدأ نهاره في الصباح بكأسين ، وما أن يغسل أسنانه حتى يكون قد استهلك كمية من الكحول . ثم يشرب قهوته وينطلق الى العمل بثيرموس مليء بالفودكا الى جانب وعاء طعامه . يتوقف جي . ب . عن الحديث ، يصمت تماماً! ماذا يحدث ! أنا

استمع! لقد ساعدني حديثه على الشعور بالإرتياح . وفي نفس الوقت كان يجرني خارج وضعي الشخصي . بعد دقيقة اقول : ماذا حدث بحق الجحيم ، تابع يا جي . ب . شد ذقنه ولكنه عاود الحديث بعد ذلك . بدأ جي . ب . وروكسي يتشاجران بشدة الآن . واعني يتقاتلان ويقول جي . ب . انها في احدى المرات لكمته على وجهه وكسرت انفه ، انظر الى هنا يقول لي ، هنا بالضبط أخذ يريني خطاً يمر عبر أنفه ، هذا أنفي المكسور . قام برد الصاع صاعين اذ خلع لها كتفها في احدى المشاجرات ، وفي مرة اخرى شق لها شفتها . كانا يضربان بعضهما أمام أعين الأولاد ، وهكذا خرجت الأمور من يديهما . ولكنه استمر في الشرب ، لم يستطع ان يتوقف ولا شيء كان يوقفه حتى عندما هدده والد روكسي واخوها بضربه ضرباً مبرحاً ، أخبرا روكسي بأن عليها أن تأخذ الأطفال وترحل عنه ، ولكن روكسي اجابتهما بأن هذه مشكلتها ، فهي التي أدخلت نفسها فيها وهي التي ستحلها . أما الآن فيخلد جي . ب . الى بعض الهدوء الحقيقي . يحني كتفه ثم يغوص في مقعده ويأخذ بمراقبة سيارة تمر اسفل الطريق بين هذا المكان والتلال المجاورة .

أقول انني أرغب بسماع باقي القصة يا جي . ب . الأفضل لك أن تستمر في الحديث .

– أنا فقط لا أعلم ، يهز كتفيه بلا مبالاة .

– لا بأس ، أقول به ، أعني حسناً ، لا بأس بأن تستمر بالحديث يا جي . ب . حاولت أن تحل المشكلة من خلال ايجاد صديق لها ، كان جي . ب . يرغب في معرفة كيف تمكنت من ذلك مع وجود أعمال البيت والأطفال . انظر اليه بدهشة . انه رجل ناجح ، اذا أردت أن تفعل ذلك ، أقول له فسوف تجد الوقت لذلك ، سوف تصنع الوقت . يهز جي . ب . رأسه وقول ، اظن ذلك .

على أي حال ، اكتشف جي . ب . الأمر– حول وجود صديق لروكسي ، وجن جنونه . قام بانتزاع دبلة روكسي من اصبعها وقطعها قطعاً ، بمقص اسلاك ، تسلية جيدة – كانا قد دخلا في جولتين من الشجار حول هذه المناسبة . في صباح اليوم التالي وبينما كان في طريقه الى العمل ، تم اعتقاله بتهمة قيادة السيارة وهو ثمل ، فقد رخصة القيادة ولم يعد يستطيع أن يقود الشاحنة لمكان عمله ، قبل ذلك باسبوع

كان قد سقط للتو عن سقف احدى المداخن وكسر ابهامه ، لم يكن يمضي وقت طويل قبل أن تكسر عنقه اللعينة . . . كما يقول . كان هنا عند فرانك مارتن ليشفي نفسه من الخمر ويحاول أن يتصور كيف يعيد حياته الى مجاريها الطبيعية ، ولكنه لم يأت الى هنا رغم ارادته ، ليس أكثر مما كنت أنا ، ولم نكن محتجزين ، كان يمكننا المغادرة متى نشاء ولكن بقاءنا هنا لأسبوع كان محموداً كما تم نصحنا بقوة أن نبقى مدة اسبوعين أو شهر .

وكما قلت ، كانت هذه هي المرة الثانية لي عند فرانك مارتن . وعندما كنت أحاول أن أوقع شيكاً مسبقاً بقيمة بقائي اسبوع ، قال لي فرانك مارتن ، ان العطل دائماً هي أوقات سيئة ، ربما يتوجب عليك التفكير بالبقاء هنا فترة أطول . فكّر بالبقاء اسبوعين ، هل يمكنك ذلك؟ فكّر بالأمر على أي حال ، ليس عليك أن تقرر شيئاً الآن! قال لي ، ثم ثبت الشيك باصبعه ووقعت عليه . سرت مع صديقتي حتى الباب الأمامي وودعتها ، قالت لي ، مع السلامة ثم تمايلت حتى عارضة الباب ودلفت منه الى الشرفة ، كان الوقت عصراً والمطر يهطل . عدت من الباب نحو النافذة وأزحت الستارة ورحت أرقبها وهي تبتعد بسيارتي ، كانت ثملة وكنت أنا كذلك ولم يكن هناك شيء أستطيع فعله . سرت بتثاقل نحو كرسي قديم ضخم بالقرب من أنابيب التدفئة المركزية وجلست هناك ، التفت نحوي بعض الأشخاص الذين كانوا يشاهدون التلفزيون ثم عادوا ببطء الى متابعة ما كانوا يشاهدونه . بقيت جالساً هناك ومن حين لآخر انظر الى الشاشة لأرى ما يحدث . في وقت متأخر من عصر ذلك اليوم ، فتح الباب ودخل جي . ب . محمولاً بين رجلين ضخمين ، اكتشفت لاحقاً أنهما كانا حماه وأخو زوجته قادا جي . ب . عبر الغرفة ، ادخله الرجل الكبير الى الداخل وقدم شيكاً لفرانك مارتن ثم ساعده الرجلان ليصعد الدرج الى الطابق العلوي ، وأظن أنهما وضعاه في الفراش . بعد قليل نزل الرجلان وسارا نحو الباب الأمامي . كانا يسرعان في الخروج كأنهما لا يستطيعان الانتظار حتى ينفضا يديهما من كل هذا ، لم الهما . كلا ! وحق الجحيم ، فأنا أعرف كيف كنت سأتصرف لو كنت مكانهما .

بعد مضي يوم ونصف يوم قابلت جي . ب . على الشرفة الأمامية ، تصافحنا

وأخذنا نعلّق حول الطقس ، اصابت جي .ب . حالة من الارتعاش . ثم جلسنا ومددنا اقدامنا على الدرابزين . واسترخينا في مقاعدنا الى الوراء وكأننا نريد أن نبدأ الحديث حول كلابنا ، هنا بدأ جي . ب . برواية قصته .

أصبح الطقس بارداً في الخارج ، ليس بالبرد الشديد ، ولكن الجو بدأ يعتم . في احدى المرات حضر فرانك مارتن الى الخارج ليكمل تدخين سيجارة ، كان يرتدي كنزة مزررة حتى حلقه . كان قصيراً وثقيلاً ذو شعر رمادي اللون مجعد ، ورأس صغير . لم يكن رأسه متناسقاً مع جسمه . وضع فرانك مارتن السيجار في فمه وراح يتأمل في منظر الوادي ، وقف هناك مثل ملاكم محترف يعرف نتيجة جولته .

يعود جي . ب للهدوء مرة أخرى ، اعني أنه بالكاد يتنفس ، نفضت رماد سيجارتي في دلو الفحم ورمقته بشدة وهو يغوص أكثر وأكثر في مقعده ، يشد جي . ب . زر ياقته ، ماذا يحدث بحق الجحيم؟ اتساءل! أرخى فرانك مارتن ذراعيه وسحب نفساً من سيجارة وترك الدخان يخرج من فمه ثم رفع ذقنه باتجاه التلال وقال : كان لجاك لندن بيتاً كبيراً على الجانب الآخر من الوادي . هناك خلف تلك التلة الخضراء التي تنظرون اليها ولكن الكحول قتله ، فليكن هذا درساً لكم . كان أفضل من كلينا ولكن لم يكن يستطيع أن يعالج الأمور مثلنا ، ينظر الى ما تبقى من سيجاره . كان قد انتهى منه يرميه في الدلو . يجب عليكما أن تقرءا شيئاً خلال وجودكما هناك ، اقرأوا كتاب «صرخة في البريّة» . انكما تعرفان الكتاب الذي أتحدث عنه ، أنه موجود لدينا في الداخل اذا رغبتما في قراءة شيء . انه يتحدث عن ذلك الحيوان الذي نصفه كلب ونصفه ذئب . ما عادوا يكتبون قصصاً مثل هذه بعد اليوم . ولكن كان بامكاننا مساعدة جاك لندن لو كنا هناك في تلك الأيام ، ولو سمح هو لنا بذلك . اعني لو طلب منا المساعدة ، أتسمعاني؟ مثلما نساعد كما الآن اذا طلبتما ذلك واذا اصغيتما . انتهت العظة ولكنه تابع قائلاً : ولكن لا تنسيا اذن ، قالها مرة اخرى . ثم شد بنطاله وسحب سترته الى الأسفل ، سأعود الى الداخل ، قال ، القاكما على الغداء . أشعر بنفسي مثل حشرة عندما يكون هنا ، يقول جي . ب . انه يشعرني بأنني حشرة ، شيئاً يمكن أن تدوسه . يهز جي . ب . رأسه ثم يقول جاك لندن ، يا له من اسم ، اتمنى لو كان لي اسماً مثل هذا بدلاً من الاسم الذي

أحمله .

حدثني فرانك مارتن عن ذلك الموضوع حين احضرتني زوجتي هنا في المرة الأولى . كان ذلك عندما كنا ما نزال نعيش معاً ، ونحاول أن نصلح الأمور احضرتني هنا وبقيت معي ساعة أو ساعتين تتحدث الى فرانك مارتن على معزل ، ثم غادرت . وفي صباح اليوم التالي اخذني فرانك مارتن جانباً وقال يمكننا ان نساعدك اذا رغبت في ذلك واذا اصغيت لما سنقوله لك . ولكني لم أعرف اذا كان بامكانهم مساعدتي أم لا؟ فجزء مني كان يرغب في ذلك ولكن كان هناك جزء آخر . لقد قال كل شيء ، كان هناك «إذا» كبيرة .

هذه المرة وبعد مضي ستة أشهر على زيارتي الأولى ، جاءت بي صديقتي الى هنا ،كانت تقود سيارتي عبر عاصفة من المطر ، كنا نحتسي الشامبانيا طوال الطريق ، كنا كلينا ثملين عندما وصلنا الى المكان ، كانت تريد أن تنزلني هنا ثم تستدير وتعود الى البيت ، فقد كان لديها أعمال أخرى لتقوم بها . مثل : أن تذهب الى عملها في اليوم التالي ، كانت تعمل سكرتيرة في وظيفة جيدة لدى شركة قطع الكترونيات ، كما كان لديها ابن ثرثار في عمر المراهقة . كنت اريدها أن تنزل في فندق معي في البلدة لتمضي الليل وبعدها تعود الى البيت ،لم أعلم اذا كانت قد فعلت ذلك فلم أسمع منها خبراً منذ أن قادتني معها عبر الادراج الأمامية في ذلك اليوم ، ثم دخلت الى مكتب فرانك مارتن وهي تقول ، احزر من الذي هنا؟ ولكني لم أكن غاضباً عليها . ففي المقام الأول ، لم تكن تعرف تماماً ما الذي أخذت تقحم نفسها به عندما قالت لي أن بامكاني العيش معها بعد أن طلبت مني زوجتي الرحيل . شعرت بالأسف عليها . والسبب أنه في الليلة التي سبقت عيد الميلاد جاءتها نتيجة فحص الثدي من المختبر ولم تكن الأخبار مفرحة . كان عليها أن تراجع الطبيب في أقرب وقت . كانت هذه الأنباء سبباً لأن نعاود كلينا البدء بالشرب ،لذلك قمنا بالشرب حتى الثمالة . يوم الميلاد كنا ما زلنا ثملين . كان علينا أن نخرج للأكل في أحد المطاعم لأنها لم تكن ترغب في الطبخ . قمنا كلانا ومعنا ابنها المراهق الثرثار بفتح عدة هدايا ثم ذهبنا الى مطعم ستيك هاوس قريب من شقتها . لم أكن جائعاً . تناولت بعض الحساء ورقيقه خبز ساخنة . جرعت زجاجة نبيذ كاملة مع الحساء كما

شربت هي بعض النبيذ . ثم بدأنا نشرب «بلودي ماري» . لم أتناول شيئاً من الطعام في اليومين التاليين سوى بعض حبات فستق الكاجو ، ولكني شربت الكثير من البوربون . صباح يوم الثامن والعشرين من ديسمبر قلت لها : حبيبتي من الأفضل أن أحزم امتعتي وأعود الى فرانك مارتن ، أريد أن أجرب ذلك المكان مرة أخرى ، ما رأيك أن تأخذيني بالسيارة الى هناك . حاولت أن تشرح لابنها أنها ستغيب عنه طوال العصر والمساء وأن عليه أن يحضر طعامه بنفسه ، ولكن ذلك الصبي اللعين وقف عند باب البيت لحظة خروجنا وأخذ يصيح ويصيح ، هل تسمين هذا حباً ، اذهبا الى الجحيم ، اتمنى أن لا تعودا أبداً ، أتمنى أن تقتلا! تخيل ذلك الصبي ،

قبل أن نغادر البلدة ، طلبت منها الوقوف لدى محل لبيع الخمور حيث اشتريت ثلاث زجاجات من الشاميانيا ، من نوعية جيدة - بايبر - توقفنا في مكان ما لشراء كؤوس بلاستيكية ثم ابتعنا علبة من الدجاج المقلي وانطلقنا وسط عاصفة من المطر نحو فرانك مارتن . نشرب الشامبانيا ونستمع الى الموسيقى عبر الراديو . كانت هي تقود السيارة وأنا أعُب الشمبانيا وأحرك أزرار الراديو . حاولنا أن نجعل من الأمر احتفالاً صغيراً ولكنا كنا حزينين . لم آكل شيئاً من تلك الدجاجة المقلية ، اظنها عادت الى البيت بسلام والا لكنت سمعت شيئاً عن عدم عودتها ولكنها لم تتصل بي ولم أتصل بها . ربما لديها الآن بعض الأخبار عن حالها أو ربما انها لم تسمع شيئاً بعد . ربما كان الأمر كله غلطة ، ربما كان فحصاً لامرأة أخرى . ولكن سيارتي كانت لديها وكان لدي بعض الأغراض في بيتها . كنت أعلم أننا سنرى بعضنا مرة أخرى .

رن جرس المزرعة القديم معلناً وقت الطعام . نهضنا أنا وجي . ب . من مقاعدنا ببطء مثل رجلين عجوزين غريبي الأطوار وعبرنا الى الداخل .

بدأ البرد يشتد في الخارج ، وأصبحت الشرفة باردة جداً على أي حال وكنا نستطيع أن نرى أنفاسنا وهي تخرج منا خلال حديثنا .

صباح يوم رأس السنة ، احاول أن أكلم زوجتي بالهاتف ، لا يوجد جواب ، لا بأس ، حتى لو لم يكن ، لا بأس ، فماذا يتوجب علي أن أفعل . ففي المرة الأخيرة التي تحادثنا فيها بالهاتف انتهى الأمر بالصراخ على بعضنا البعض . ناديتها بعدة اسماء «أيها الدماغ الرطب» قالت لي ثم أغلقت السماعة . ولكني كنت أرغب في

التحدث معها الآن . لا بد أن أفعل شيئاً بخصوص أغراضي الموجودة في بيتها أيضاً .

كان أحد الرجال الموجودين هنا من النوع الذي يسافر كثيراً ، يسافر الى أوروبا والشرق الأوسط ، هذا ما يقوله لها على أي حال . يقول أن لديه أعمالاً هناك . كما يقول أنه يسيطر على نزعته للشرب وليس لديه أي فكرة لماذا هو الآن في مصح فرانك مارتن ولا يتذكر كيف جاء الى هنا .

يضحك على عدم تذكره . كل شخص معرض لفقدان الذاكرة كما يقول . وهذا لا يثبت شيئاً فهو ليس سكيراً كما يقول ونحن نصغي اليه . ان هذا تغيير كبير علينا أن نفعله ، يقول ، وان مثل هذا الحديث قد يدمر توقعات الانسان ، ويضيف أنه لو أمكنه شرب الويسكي بدون ثلج لما سكر - ولما فقد الذاكرة . ان الثلج الذي تضعه في المشروب هو الذي يسبب لك السكر . «أتعرف أحداً في مصر»؟ يسألني أستطيع أن استخدم بعض الأسماء هناك» .

ليلة رأس السنة قدّم فرانك مارتن عشاءً مؤلفاً من شرائح الستيك (لحم البقر) والبطاطا المحمصة وسلطة أوراق خضراء . عادت اليّ شهيتي أكلت السلطة ونظفت صحني من الطعام تماماً وكان باستطاعتي أن آكل أكثر .

انظر الى صحن تايني ، يا للجحيم بالكاد أكل منه شيئاً . قطعة اللحم خاصته ما زالت مكانها وقد أخذت تبرد ، لم يعد تايني كما كان في السابق . هذا المسكين كان يخطط للعودة الى البيت هذه الليلة . خطط كي يلبس عباءته وشبشبه ويسترخي قبالة التلفزيون ممسكاً بيد زوجته . والآن هو خائف أن يغادر المكان . باستطاعتي أن اتفهمه . نوبة واحدة تعني بأنك قد تتعرض لأخرى . لم يعد يروي قصصه الغريبة حول نفسه منذ أن اصابته تلك النوبة . بقي صامتاً لوحده . بعد قليل سأسأله اذا كان بامكاني أن آخذ قطعة اللحم خاصته .

يدفع الصحن كله أمامي .

تركونا نسهر أمام التلفزيون حتى قرعت الساعة معلنة بداية السنة الجديدة في ساحة تايمز . كان البعض منا ما يزال مستيقظاً يشاهد حشود الناس في التلفزيون عندما دخل فرانك مارتن ليرينا كعكة .

ادارها حول كل شخص منا . انا أعلم أنه لم يقم بطبخها ، أنها كعكة مخبز ولكنها تبقى كعكة . كعكة بيضاء ضخمة كتب على سطحها بأحرف وردية . سنة جديدة سعيدة - يوما بيوم .

- أنا لا أرغب في أية كعكة سخيفة يقول الرجل الذي يسافر الى أوروبا والشرق الأوسط ، اين الشامبانيا؟ يقول وهو يضحك .

ندخل جميعنا الى غرفة الطعام . يقطع فرانك مارتن الكعكة ، وأجلس أنا الى جانب جي . ب . يأكل جي . ب . قطعتان مع زجاجة كولا . أما أن فآكل قطعة وألفُ القطعة التالية في منديل ورقي لأكلها لاحقاً .

يشعل جي . ب . سيجارة بيدين ثابتين ويخبرني أن زوجته ستأتي لزيارته هذا الصباح ، في أول يوم من أيام رأس السنة .

هذا عظيم أقول له ثم أحني رأسي لألعق قشدة الكعك التي علقت باصبعي - هذه أخبار عظيمة يا جي . ب .

- «سوف أعرفك بها» قال لي .

- «انني أتلهف الى ذلك» قلت له .

تمنينا لبعضنا ليلة سعيدة وسنة جديدة وسعيدة أيضاً ، نم جيداً يا جي . ب» . اضع المنديل على اصابعي ونتصافح .

اذهب الى الهاتف مرة أخرى ، . اضع فيه قطعة من عشرة سنتات واهاتف زوجتي ، ولكن لا أحد يجيب أيضاً ، أفكر في مهاتفة صديقتي وبينما أنا أطلب الرقم ، ادرك انني لا أرغب في التكلم معها . لا بد أنها في البيت الآن تشاهد نفس البرنامج الذي أشاهده على التلفزيون . ولكن ربما تكون قد خرجت ولم لا ، على أي حال لا أرغب في التحدث معها الآن وأرجو أن تكون بخير ، واذا ما حدث لها أي مكروه فلا أريد أن أعرف . على أي حال لن أتكلم معها الليلة .

بعد الافطار ذهبت مع جي . ب . لتناول القهوة على الشرفة حتى نخطط لانتظار زوجته . كانت السماء صافية ولكن الجو كان بارداً جداً لذا اضطررنا لارتداء كنزاتنا وبدلاتنا .

سألتني اذا كان باستطاعتها احضار الأولاد يقول جي . ب . ولكني أخبرتها ان

تبقيهم في البيت . هل يمكنك ان تتخيل؟ يا ألهي ، لا أريد أن يأتي أولادي الى هنا .

استخدمتا دلو الفحم لنفض سجائرنا ، وأخذنا نحدق في الوادي ، حيث كان يعيش جاك لندن ، كنا نصب المزيد من القهوة عندما اقتربت سيارة واستدارت لتدخل باتجاه مدخل الطريق .

أرى امرأة توقف السيارة وترفع الكابح اليدوي . أرى جي . ب . يفتح باب السيارة ، أراقبها وهي تخرج وأراهما يتعانقان ، ويضمان بعضهما البعض ، اشيح بنظري ثم أعود للالتفات ، يأخذ جي . ب . بيد المرأة ويصعدان الدرج . هذه المرأة التي كانت تزحف عبر المداخن والتي حطمت انف جي . ب . هي الآن أم لطفلين ويكفيها مشاكلهما ،ولكنها تحب هذا الرجل الذي يمسك بيدها . انهض من مقعدي . هذا صديقي يقول جي . ب . لزوجته وهذه روكسي .

تأخذ روكسي بيدي ، هي امرأة طويلة القامة وجميلة وتضع قبعة زرقاء انيقة ، ترتدي معطفاً وكنزة بيضاء ثقيلة وبنطالاً فضفاضاً داكناً . تذكرت ما قاله لي جي . ب . عن صديقها . وعن مقص الأسلاك وكل ذلك - انظر الى يدها ، لا يوجد خاتم زواج ، لا بد أنه قطع منثورة في مكان ما ، كانت يداها عريضتين ولها مفاصل اصابع ضخمة . هذه المرأة يمكنها أن تلاكم إذا اضطرت .

- «لقد سمعت عنك» أقول لها اخبرني جي . ب . كيف تعارفتما ، شي عن مدخنة» .

- «نعم ، مدخنة» تقول وهي تحرك عينيها بعيداً عني ثم تعيدهما ، تخفض رأسها ، لا بد أنها متلهفة لتجلس مع جي . ب . لوحدهما ، شي أنا أتفهمه .

- «من المحتمل أن هناك أشياء كثيرة لم يخبرك بها» تقول «أراهن أنه لم يقل كل شيء» كانت تقول وهي تضحك ، ثم وكأنها لم تستطع الانتظار أكثر من ذلك ، تلف ذراعها حول خصر جي . ب . وتقبله على خده ويأخذان في التحرك نحو الباب .

- «كان من الممتع معرفتك» تقول لي من خلف كتفها «هاه ، هل أخبرك أنه من أفضل الذين يعملون في هذا العمل» . ترخي يدها لتنزلق عن خصر جي . ب .نحو وركه .

- «تعالي الآن يا روكسي» يقول جي . ب . وهو يمسك بمقبض الباب .

- «لقد أخبرني أنه تعلم كل شيء منك» أجيبها .

- «حسناً ، هذا الأمر صحيح بالتأكيد» تقول ثم تضحك ثانية ، ولكن كأنها تفكر في شيء آخر . يدير جي . ب . مقبض الباب ، تضع روكسي يدها بيده وتقول .

- «جو ، الا يمكننا تناول الغداء في البلدة ، ألا يمكنني دعوتك الى مكان ما للغداء» .

يبلع جي . ب . ريقه ويقول «لم يمض علي اسبوع بعد» يرفع يده عن مقبض الباب ويضعها على ذقنه «اظن انهم يرغبون في بقائي في المكان لفترة أطول ، يمكننا تناول القهوة في الداخل» يقول لها .

- «لا بأس» تقول له وعيناها ترمقني مرة أخرى» أنا سعيدة أن جو قد بنى صداقة هنا ، كان لطيفاً جداً أن أقابلك» تقول مرة أخرى . يأخذان في الدخول وأنا أعلم أنني سأقوم بعمل أخرق ، ولكني سأفعلها بأي حال .

- «روكسي» أقول لها «انني بحاجة الى بعض الحظ» أقول لها «بدون مزاح ، القبلة تفعل فعلها» .

ينظر جي . ب . الى الأسفل ، كان ما يزال ممسكاً بمقبض الباب على الرغم من أن الباب كان مفتوحاً . يدير مقبض الباب يميناً ويساراً . بدا محرجاً وكنت أنا محرجاً أيضاً ولكني استمر في النظر اليها ، تبتسم روكسي دون أن تقرر بعد ما الذي ستفعله . وتقول «أنا لم أعد منظفة مداخن الآن» . تقول «تركت العمل منذ سنين ، الم يخبرك جو بذلك ، ولكن الى الجحيم سوف اقبلك ومن أجل الحظ بالتأكيد» .

تتقدم نحوي وتأخذني من كتفي - أنا رجل ضخم الجثة - وتزرع قبلة على شفتي «كيف ذلك» تقول .

«أنه رائع» أقول لها .

«لا بأس» تقول وهي ما تزال ممسكة بكتفي ، تنظر مباشرة في عيني ، «حظاً سعيداً» تقول لي ثم ترخي يدها .

نراك فيما بعد يقول جي . ب . يفتح الباب ويدلف الاثنان الى الداخل . أجلس على الدرجات الأمامية واشعل سيجارة واراقب يدي وهي تتحرك ثم انفخ على عود الكبريت لاطفائه . انتابتني في الصباح حالة من الارتعاشات ، اردت أن أشرب شيئاً

في الصباح ، كان الأمر محبطاً ولم أخبر جي . ب . احاول أن أركز تفكيري على شيء آخر . ولأول مرة آنجح في ذلك . أفكر في مسألة تنظيف المداخن ، وكل هذه الأمور التي سمعتها من جي . ب . وهنا ولسبب ما أبدأ بالتفكير بالبيت الذي عشت فيه مع زوجتي بعد زواجنا مباشرة ، لم تكن توجد مدخنة في ذلك البيت . يا للجحيم ، كلا ، لا أعرف ما الذي جاء به الى تفكيري الآن ، ولكنني اتذكر البيت وكيف بقينا هناك لعدة اسابيع الى أن سمعت صوتاً في الخارج عند الصباح واستيقظت . كان يوم أحد وكانت غرفة النوم ما تزال معتمة . ولكن ضوءاً خافتاً كان يتسلل من نافذتها . اصغيت ، استطعت أن أسمع شيئاً يحف على جانب المنزل ، ققفزت من السرير وتوجهت نحو النافذة .

يا الهي! تقول زوجتي وهي ما تزال في السرير تهز بشعرها بعيداً عن وجهي ثم تبدأ بالضحك : انه السيد فنتوريني مالك البيت لقد نسيت أن أخبرك . قال أنه سيأتي باكراً اليوم ليدهن البيت قبل أن يصبح الجو حاراً ، لقد نسيت كل شيء عن الموضوع ، تقول وهي تضحك ، عد الى الفراش يا عزيزي ، انه مالك البيت فقط . خلال دقيقة اقول لها .

ازيح الستارة بعيداً عن النافذة . في الخارج كان الرجل العجوز يقف الى جانب سلمه مرتدياً ثوب العمل الأبيض . كانت الشمس قد بدأت للتو تشق اشعتها فوق الجبال . ننظر انا والرجل العجوز الى بعضنا البعض . انه صاحب المنزل فعلاً . هذا الرجل الذي يرتدي ثياب العمل ولكن الثياب تبدو كبيرة عليه كما أنه بحاجة للحلاقة أيضاً . أنه يرتدي قبعة بيس بول ليغطي رأسه الأصلع . اللعنة أخذت أفكر ، لو لم يكن عجوزاً شاذاً فأنا إذن لا أفهم شيئاً . في تلك اللحظة تغمرني موجة من السعادة بأنني لم أكن هو . وأن أنا هو أنا داخل غرفة النوم مع زوجتي . يحرك الرجل ابهامه باتجاه الشمس ويدعي بأنه يمسح جبينه . انه يريد أن يخبرني بأنه لا يملك الكثير من الوقت ، ويبتسم العجوز وعندها الاحظ أنني عار تماماً ، انظر الى الأسفل ثم انظر اليه وأهز كتفي بلا مبالاة ، كنت ابتسم ، ما الذي يتوقعه على أي حال . تضحك زوجتي ، تعال الى هنا ، تقول عد الى الفراش الآن وفي هذه الدقيقة ، عد الى الفراش .

أرخي الستائر ولكني أبقى واقفاً عند النافذة . استطيع أن أرى مالك البيت وكأنه يكلم نفسه قائلاً ، عد يا بني ، عد الى فراشك انني أتفهم الوضع ، كأنه سمع زوجتي حين نادتني . ينتزع ورقة من قبعته ويجهز نفسه للعمل ، ثم يتناول دلوه ويبدأ بتسلق السلم .

اتكئ على الدرجة الخلفية حيث اجلس واعقد ساقاِ على ساق . ربما ، في وقت متأخر بعد الظهر ساحاول أن أكلم زوجتي مرة أخرى ثم سأتصل لأرى ما يحدث مع صديقتي ، ولكني لا أرغب أن يخرج لي ابنها الثرثار على الخط واذا اتصلت ، آمل أن يكون في الخارج يفعل ما يفعله بالعادة عندما لا يتسكع حول البيت . احاول ان أتذكر فيما اذا كنت قد قرأت بعض كتب جاك لندن . لم استطع أن أتذكر ولكن كانت هناك قصة قرأتها له في المدرسة الثانوية «كيف تشعل ناراً» هكذا كان عنوانها . .

كان هناك شاب من يوكون يكاد يتجمد من البرد ، تصوروا أنه سيتجمد من البرد حقيقة إذا لم يشعل ناراً . فالنار يمكن أن تجفف جواربه وثيابه وتدفئه ، يبدأ باشعال النار ثم يحدث له شيء ، تسقط قطع من الثلج عن غصن فوق النار وتطفئها وفي نفس الوقت تبدأ الحرارة بالهبوط ويعم الظلام . أخرج بعض النقود من جيبي ، سأجرب زوجتي أولاً واذا أجابت فسوف اتمنى لها سنة سعيدة وهذا كل شيء . لن أتكلم بأي شيء جدي ولن أرفع صوتي ، حتى لو بدأت هي شيئاً ما ، سوف تسألني من أين أتكلم ، وسأضطر لأن أخبرها . لن أقول لها شيئاً عن قرارات السنة الجديدة ، انها ليست شيئاً يتحمل المزاح . بعد أن أكلمها ، سوف اهاتف صديقتي ولكن ربما ساهاتفها أولاً ، أرجو فقط أن لا يكون ابنها على الخط ، «مرحباً يا عزيزتي» سأقول لها عندما تجيب «هذا أنا» .

١٩٨٦

آن بيتي

جانــــوس

عن «ذي نيويوركر»

كان وعاءً رائعاً ، ربما ليس من النوع الذي قد تختاره من بين مجموعة أوعية ، ولا يجذب انتباه الكثيرين ، في معرض حرف فنية . ولكن كان له حضوراً حقيقياً . يثير الاعجاب تماماً مثل جرو ساذج ليس له سبب للشك بكونه مضحكاً . وفي الحقيقة كان مثل هذا الكلب يُحضرُ دائماً مع الوعاء .

كانت اندريا وكيل عقارات حقيقي ، وعندما كانت تعتقد ان بعض الشارين المتوقعين ، قد يكونون من محبي الكلاب . كانت تحضر كلبها في نفس الوقت الذي تضع فيه هذا الوعاء في المنزل المعروض للبيع . كانت تضع صحناً فيه بعض الماء في المطبخ ، لكي يشرب موندو ، وتتناول ضفدعته البلاستيكية ، التي تطلق صفيراً حاداً وتلقيها على الأرضية ، أما هو فيأخذ بالقفز جذلاً كما يفعل دائماً في البيت يضرب لعبته المفضلة . كان الوعاء يوضع عادة على طاولة القهوة ، رغم أنها اصبحت حديثاً ، تضعه على ظهر خزانة شراشف مصنوعة من خشب الصنوبر . أو على طاولة مصقولة . وفي احدى المرات ، وضعته على طاولة الفواكه ، اسفل رسم الحياة الخالدة لبونارد ، حيث حافظ على مكانه .

كل من يشتري بيتاً أو يريد أن يبيع بيتاً ، يجب أن يكون ملماً ببعض الخدع التي

تستخدم لاقناع الشاري بأن للبيت مكانة خاصة . النار التي تضاء في الموقد كل مساء . ازهار النرجس الأسلي التي توضعه في ابريق على طاولة المطبخ ، حيث لا يوجد عادة مكان لوضع الزهور .ربما شيء من نكهة الربيع التي توضع بواسطة نقطة عطر واحدة تتبخر من لمبة المصباح .

الشيء الرائع الذي كان يميز الوعاء كما ظنت أندريا ، تجلى في امكانية ملاحظته وفي براعة صنعه . كانت صفاته تتناقض ظاهرياً مع صفات الوعاء ، فقد كان زجاجه بلون القشطة . وبدا وكأنه يتوهج مهما كان وضع الضوء الذي يسلط عليه . كانت فيه بعض الألوان ، وبعض المسحات الهندسية الصغيرة ، التي كانت موشحة جزئياً بنقاط فضية ، تبدو مع غموضها مثل خلايا تحت عدسة مجهر . كان من الصعب أن لا تقوم بتفحصها ، لأنها كانت تومض متوهجة لجزء من الثانية ، ثم تعود إلى وضعها الأصلي . كان هناك شيء في الألوان وفي تناثرها العشوائي يستدعي الحركة . وكان الأشخاص المهتمون بالأثاث الريفي يعلقون دائماً على الوعاء . ولكن تبين أن الناس الذين يشعرون بالراحة مع بيدر ماير احبوه كذلك وبنفس الحدة ، ولكن الوعاء لم يكن ملفت للنظر بحيث يشك أحدهم أنه وضع في مكانه عن عمد ، وقد يلاحظ الناس ارتفاع السقف عند دخولهم الغرفة لأول مرة ، وفقط عندما تتحرك عيونهم إلى الأسفل أو بعيداً عن انعكاس اشعة الشمس ، على الحائط الشاحب ، يمكنهم أن يلاحظوا الوعاء ، وعندها يتوجهون فورهاً اليه ويأخذون بالتعليق ، كانوا دائماً يتلعثمون عندما يحاولون أن يقولوا شيئاً . ربما لأنهم موجودون في المنزل لسبب جدي وليس لملاحظة قطعة وعاء . في إحدى المرّات تلقت اندريا مكالمة من امرأة لم تكن قد وضعت عرضاً على بيت ، كانت قد أرتها اياه ، قالت المرأة ذلك الوعاء الجميل هل من الممكن ان نعرف من أين ابتاعه مالكوه؟ ادعت اندريا انها لا تعرف ما الذي تسأل المرأة عنه – وعاء؟ في مكان ما من البيت؟ أه على الطاولة التي تحت النافذة ، نعم تسألها بالطبع ، ثم تترك يومين يمران قبل أن تتصل بها مجيبة أن الوعاء كان هدية ولم يعرف اصحابه من أين اشتراه مهدوه . عندما لم يكن الوعاء يتنقل من بيت إلى بيت ، كان يجلس على طاولة القهوة في منزل اندريا . لم تغلفه تغليفاً جيداً (على الرغم من أنها كانت تنقله داخل صندوق) ، كانت تتركه على الطاولة ، لأنها تحب أن

تراه . فقد كان كبيراً بما يكفي لكي لا يبدو قابلاً للكسر أو عرضة للتحطيم ، اذا اصطدم احدهم بالطاولة . أو دعم موندو فيها خلال لعبه . سألت زوجها ان لا يسقط مفاتيح المنزل بداخله فقد كان المقصود أن يبقى فارغاً .

عندما لاحظ زوجها الوعاء لأول مرّة ، انعم النظر فيه ثم ابتسم قليلاً فقد كان دائماً يستحثها على شراء الأشياء التي تحبها .

وخلال السنين الأخيرة ابتاع كلاهما اشياء كثيرة كي يعوضوا عن سنين الفقر التي قضوها عندما كانوا طلاباً متخرجين . أما الآن فقد مرت فترة وهم في بحبوحة من العيش . ولكن متعة اقتناء الأشياء الجديدة تضاءلت مع الزمن . وصف زوجها الوعاء بقوله أنه جميل ، ولكنه لم يرفعه ليفصحه ، لم يعد يهتم بالوعاء أكثر مما يهتم بكلبته الجديدة لايكا .

أما هي فقد كانت متأكدة أن الوعاء ، قد جلب لها الحظ ، وكم مرة راهنت على البيوت التي عرضت فيها الوعاء . في بعض الأحيان كانت تطلب من مالكي البيوت ، أن يبقوا بعيداً أو خارج البيت عندما تقوم بعرضه . ومعظمهم لم يكونوا على علم بأن هذا الوعاء قد دخل منزلهم . في احدى المرات - ولم تكن تدري كيف حدث هذا - تركته خلفها ثم أحست بالخوف من أن يحصل له مكروه ، لذلك عادت مسرعة إلى البيت وتنفست ، الصعداء عندما فتحت لها المرأة مالكة البيت - الوعاء أوضحت اندريا لها - لقد اشتريت وعاء وركزته على الخزانة ، لأحفظه سالماً بينما كنت أطوف في البيت مع الشارين . أحست أنها سوف تقفز على المرأة العابسة وتمسك بوعائها أفسحت المرأة لها الطريق ، وعندما ركضت اندريا إلى الخزانة ، نظرت اليها المرأة نظرة استغراب . لعلها لاحظت خلال ثوان قبل أن تمسك اندريا بالوعاء أن مكانه كان لائق جداً ، وأن أشعة الشمس كانت تضرب الجزء الأزرق منه . كانت مزهريتها قد ازيحت إلى الجانب البعيد من الخزانة . وهيمن الوعاء على المكان . وطوال طريق عودتها إلى المنزل ، . كانت اندريا تتساءل كيف أمكنها أن تنسى الوعاء؟ كان الأمر يشبه ترك صديق في نزهة أو الابتعاد عنه . أحياناً كانت الصحف تكتب عن عائلات تنسى أطفالها خلال انتقالها إلى مدينة أخرى . أما اندريا فلم تكن قد تجاوزت مسافة ميل من الطريق ، عندما تذكرت الوعاء . بعض الأحيان كانت تحلم

بالوعاءء ومرتين في أحلام اليقظة . وعند بواكير الصباح بين النوم وبين آخر غفوة قبل الصحو كانت تراه بوضوح وبتركيز شديد . يدهشها اللحظات - ذلك الوعاء الندي الذي تراه كل يوم .

مرت عليها سنة مربحة في بيع العقارات ، وذاع صيتها وارتفع عدد زبائنها أكثر مما كانت تطلب . خطرت لها فكرة جنونية ، لو كان الوعاء شيئاً حياً لهمت بتقديم الشكر له .

في بعض الأحيان ، كانت ترغب أن تحدث زوجها عن الوعاء . كان زوجها يعمل كمضارب في الأسهم . وكان أحياناً يخبر الناس بأنه محظوظ بالزواج من امرأة تملك حساً فنياً رقيقاً ومع ذلك تستطيع العيش في هذا العالم الحقيقي . كان كل منهما يشبه الأخر كثيراً في الحقيقة . وقد اتفقا على ذلك ، فكلاهما كان هادئاً ، وكانا مترويين يأخذان وقتهما في اصدار الأحكام القيمة ، ولكنهما يصبحان عنيدين عندما يصل الأمر إلى وضع الحلول ، كانا يحبان الدخول في التفاصيل ، ولكن في حين أنها كانت تميل إلى التهكم . كان هو يضيق ذرعاً عندما تصبح الأمور جانبية أو غير واضحة . الا أنهما كانا يعرفان هذا الأمر ويتبادلان الحديث عنه عندما يكونان لوحدهما في السيارة عائدين من حفلة أو من قضاء عطلة نهاية الأسبوع مع الأصدقاء .

لم تكلمه ابداً عن الوعاء ، وعندما كانا يجلسان إلى مائدة العشاء يتبادلان أخبار النهار ، أو يضطجعان على السرير في الليل يستمعان إلى الموسيقى ويدمدمان بعض المقطوعات الموسيقية الناعسة ، كان يحدوها اغراء بأن تفضي له بما تفكر فيه . من ان الوعاء الموجود في قاعة المعيشة ، هذا الوعاء ذو اللون القشدي مسؤول عن نجاحها ، ولكنها لم تكن لتقلها لم تكن تستطيع أن تبدأ بشرح الموضوع . وعندما تستيقظ في الصباح تشعر بالذنب احياناً لأنها تخفي عنه مثل هذا السر الدائم .

هل من الممكن أن يكون لها ارتباط أعمق مع هذا الوعاء . علاقة من نوع ما ، اصلحت فكرها . كيف يمكن ان تتخيل شيئاً مثل هذا بينما هي انسان وهو مجرد وعاء؟ كان الأمر سخيفاً ، فقط فكّر كيف يعيش الناس مع بعضهم ويحبون بعضهم البعض . ولكن هل مثل هذه العلاقات واضحة دائماً ، كانت هذه الأفكار تشوش

ذهنها رغم انها بقيت حاضرة فيه ، كان هناك شيءبداخلها ، شي حقيقي لم تتحدث عنه أبداً .

كان هذا الوعاء شيئاً غامضاً حتى بالنسبة لها ، وكان الأمر محبطاً لأن ارتباطها بالوعاء يتضمن احساساً ثابتاً بالحظ الطيب ، لا يمكن مكافأته وربما كان من الممكن ان يصبح الأمر أسهل للتجاوب لو كان هناك متطلبات في المقابل . لكن هذا الشيء يحدث فقط في القصص الخرافية . الوعاء هو فقط وعاء لم تكن تؤمن بهذا ولو لثانية ، واحدة أما ما آمنت به فكان أن هذا الوعاء هو شيء تحبه .

كانت في السابق تحدث زوجها أحياناً عن عقار جديد ، تريد أن تشتريه أو أن تبيعه دون أن تذكر استراتيجيتها الحذقة في فعل ذلك . كانت تستنبط الأفكار لاقناع ، المالكين الذين يظهرون رغبة بالبيع . أما الآن فقد توقفت عن فعل ذلك لأنها ادخلت الوعاء في جميع استراتيجياتها . وأصبحت مع الوقت أكثر تروٍ مع الوعاء وأكثر تملكاً ، كانت تضعه في البيوت في الوقت الذي لم يكن يتواجد أحد ، فيها وتأخذه معها عندما تغادر تلك البيوت . وبدلاً من تحريك مزهرية أو صحن ، كانت ترفع جميع الأشياء عن الطاولة مجبرة نفسها على التعامل معها بحذر ، لأنها لم تكن في الحقيقة تهتم بأمرها . كانت فقط ترغب في بقائها بعيداً عن العيون . أخذت تتساءل كيف سينتهي بها الأمر . وتماماً مثلما الأمر مع الحب لم يكن يوجد سيناريو معين لانهاء الأمور ، وأصبح القلق هو المحرك الفعال فمن غير المعقول ، ان يندفع الحبيب إلى ذراعي شخص آخر أو يكتب لها رسالة وداعية ويهجرها إلى مدينة أخرى . كانت تشعر بالرعب من امكانية اختفائه وكان هذا كل ما يهمها . قد تستيقظ أحياناً في الليل وتتأمل في الوعاء ، لم يكن يخطر على بالها انها من الممكن ان تكسره ، كانت تغسله ثم تنشفه بحذر ، وتحركه في معظم الأوقات من طاولة القهوة إلى الطاولة المصنوعة ، من خشب الماهوجاني في الزاوية ، أو أي مكان آخر ، دون أن تخاف من حصول أي حادثة ، كان من الواضح ، انها لن تكون الشخص المتسبب في حدوث أي مكروه للوعاء . كانت هي وحدها التي تتعامل مع الوعاء وتضعه بأمان وتنقله من سطح إلى سطح بأمان . لم يكن هناك فرصة كبيرة لأن يكسره أحد . وقد كان الوعاء موصلاً ضعيفاً للكهرباء ، لايمكن لصاعقة أن تؤثر عليه

الا أن فكرة تحطيمه ، ظلت في بالها ولم تكن تستطيع أن تفكر أبعد من ذلك . كيف ستكون حياتها بعد الوعاء . استمرت في التفكير ، بأن حادثاً ما سيقع لهذا الوعاء . ولم لا في هذا الزمن الذي يضع فيه الناس ، نباتات في أماكن ليست مخصصة لها ، من أجل أن ينخدع الزائرين بالتفكير بأن الزوايا المظلمة تدخلها الشمس - زمن مليء بالخداع .

وقعت عينها لأول مرة على الوعاء منذ عدة سنوات حين كانت تزور معرضاً للتحف الفنية ، سراً مع عشيقها وكان يحثها على شراء الوعاء ، ولم تكن هي تحتاج إلى أشياء أخرى كما أخبرته . ولكن الوعاء جذب انتباهها وسارا يتسكعان ، حوله ، ثم سارت إلى منصة أخرى للعرض وسار هو وراءها يربت على كتفها ، بينما كانت تتفحص بين اصابعها منحوتة خشبية . هل ما تزال تصر على أن اشتري هذا الوعاء؟ قالت له . قال لا فقد اشتريته لك . كان قد اشترى لها أشياء كثيرة قبل هذا . اشياء احبتها أكثر . اشترى لها أولاً خاتماً صبيانياً فيروزي اللون مصنوعاً من خشب الأبنوس ناسب اصبعها تماماً ، كانت علبته الخشبية طويلة رفيعة جميلة التعشيق ، استخدمتها فيما بعد في حفظ مساكات الورق ، كذلك اشترى لها سترة رمادية ناعمة بجيب يشبه ا لحقيبة ، كانت فكرته أنه حين لا يكون موجوداً لكي يمسك يدها فان هذا الجيب كفيل بأن يمسكها . فقط عليها أن تشبك يديها داخل هذا الجيب الوحيد وتمدها إلى الأمام . ولكنها مع الوقت اصبحت أكثر انجذاباً نحو الوعاء من أي من الهدايا الأخرى .

حاولت أن تخرج نفسها من هذا الانجذاب ، فقد كانت تملك أشياء أخرى أكثر قيمة وأشد لفتاً للنظر ، ولم يكن الوعاء شيئاً يقفز بجماله عليك ، لا بد أن عدداً كبيراً من الناس مرَّ عنه قبل أن يرياه معاً في ذلك النهار .

قال لها عشيقها بأنها بطيئة في ادراك ماذا تحب حقاً . سألها لماذا عليها أن تستمر في حياتها بهذه الطريقة؟ لماذا تكونين بوجهين؟ كان هو الذي قام بأول تحرك نحوها ، وعندما لم تكن تقرر شيئاً لصالحه ، أو تغير حياتها وتقبل عليه ، سألها ما الذي جعلها تعتقد بأن في امكانها أن تأخذ الأمر على الطريقتين؟ ثم قام بحركة أخيرة وانسحب . كان قراره يهدف إلى كسر ارادتها ، وبعثرة افكارها المتصلبة التي تحترم

الالتزامات السابقة .

مرّ الزمن ، كانت تجلس لوحدها في غرفة الجلوس تنظر إلى الوعاء الموضوع على الطاولة ، هادئا سليماً وغير وضاء . بالنسبة لها كان الأمر كاملاً ، والعالم مقصوصاً من النصف ، عميقاً وفارغاً ، وعند الحافة حتى في الضوء الخافت كانت عينها تتحرك باتجاه وميض أزرق ، نقطة تختفي عبر الأفق .

١٩٨٧

سوزان سونتاغ

طريقة عيشنا الآن

عن «ذي نيويوركر»

كان يشعر في بادئ الأمر بنقص في وزنه ، وقليل من الغثيان فقط ، هذا ما قاله غريغ لألين ، كما أنه لم يتصل من أجل تحديد موعد مع طبيبه ، وفقاً لما قاله جريج ، لأنه كان يتدبر أمر مواظبته على القيام بالعمل بنفس الإيقاع لا أقل ولا أكثر ، لكنه توقف عن التدخين كما نوهت تانيا التي افترضت بأنه قد أحس بالخوف ، لكن ذلك ما كان يريده أيضاً ، وحتى أكثر مما كان يعرف ، بأن يكون في وضع صحي جيد وفي وضع صحي أفضل ، أو ربما استعادة بعض الأرطال من وزنه ، كما قال أورسون . واستطردت تانيا بأنه أخبرها بتوقعه بأن يصبح قادراً على تسلق الجدران (أليس هذا ما يقوله الناس؟) ولدهشته فقد وجد أنه لم يفتقد السجائر مطلقاً ، وأنه وجد متعة بالغة لشعوره بأن رئتيه قد تحررتا من الألم المتواصل ولأول مرة منذ سنين . الا أن ما أراد أن يعرفه ستيفن هو ما اذا كان لديه طبيب جيد ، نظراً لأنه سيكون من الحمق عدم اجراء فحوص بعد عودته من مؤتمر هلسنكي نتيجة الضغط الذي تعرض اليه والجهد الذي بذله حتى لو كان يشعر بأنه أحسن حالاً في ذلك الحين ، وقال لفرانك ، أنه يريد أن يذهب برغم خوفه المؤكد ، كما اعترف لجان ، من هوذا الذي لا يشعر بالخوف الآن؟ على الرغم من أن الأمر قد يبدو غريباً ، وقد أقرّ لكوينتين بأنه حتى وقت قريب ، لم يكن يشعر بالقلق ، بأنه لم يكن يشعر بطعم الخوف المعدني في فمه إلا

الخوف المعدني في فمه إلا في الستة الأشهر الأخيرة فقط ، لأن الإصابة بمرض خطير ، جدي هو أمر يحصل لأناس آخرين ، وأن الأمر هو وهم عادي ، وأردف بأنه اذا كان الشخص في الثامنة والثلاثين ولم يسبق له أن أصيب بمرض خطير ، فانه لن يكون متوهماً كما أكد جان .

بالطبع كان من الصعب أن لا تقلق ، فالجميع كانوا قلقين ، ولكن لن ينفعك أن تصل إلى حد الرعب ، لأنه كما نوه ماكس لكوينتين : لا شيء يمكن للمرء أن يفعله سوى الانتظار والأمل ، انتظر وأبدأ بأن تكون شديد الحرص ، وكن حذراً ثم تأمل ، وحتى لو ثبتت اصابته بالمرض بعد اجراء الاختبار ، فليس له أن يستسلم لأنه أصبح لديهم الآن نتيجة تقدم البحث ، علاجات حديثة تبشر بكبح عناد المرض وايقاف تقدمه . لقد بدا أن كل واحد كان في تماس مع كل واحد غيره ولعدة مرات خلال الأسبوع ، ولدى التدقيق بالأمر ، قال ستيفن لكيت ، لم أكن لأنفق الكثير من الساعات في الحديث على الهاتف ، وعندما أشعر بالانهاك بعد الاتصالين أو الثلاثة التي أجريت معي لتنبئني بآخر الأنباء ، وبدلاً من اقفال الهاتف واعطاء نفسي فترة راحة ، أقوم بطلب صديق آخر أو طلب الاستعلامات لاستعراض الأخبار .

قالت الين أنا لست متأكدة من أنني استطيع احتمال التفكير بهذا الأمر كثيراً ، وأصبحت تخامرني الشكوك في دوافعي الخاصة . هناك بعض الأشياء المتعلقة بالمرض ، وأنا في صدد التعود عليها والتأثر بها . لا بد أن هذا مشابه لما كان يشعر به الناس في لندن أثناء الغارة الجوية . بقدر ما أعلم ، فأنا لست في خطر ، ولكنك لا تعرف ما قد يحدث قالت ايلين .

هذا أمر لا سابقة له ، قال فرانك . وقال ستيفن باصرار ، لكن ألا تعتقد بأنه يجب عليه أن يرى طبيباً ، وقال اورسون ، اسمع انك لا تستطيع أن تجبر الناس على الاعتناء بأنفسهم ، ثم ما الذي يجعلك تفكر بالأسوأ ، فربما يكون الأمر مجرد ارهاق أو تعب قد ألمّ به ، فالناس ما زالوا يصابون بأمراض عادية توقع الخوف في نفوسهم ، لماذا نفترض أنه يجب أن يكون «ذلك المرض» . قال ستيفن ، لكن كل ما أريد أن أتأكد منه ، هو أن يدرك خياراته ، لأن غالبية الناس لا يدركونها ، لهذا لا يرغبون في رؤية الطبيب أو اجراء الاختبار ، لأنهم يعتقدون أن لا شيء هناك يستطيع أحد فعله ،

ولكنه قال لتانيا (على ذمة جريج) هل هناك أي شيء يستطيع المرء ان يفعله ، أعني ما الذي سأجنيه اذا ذهبت إلى الطبيب ، اذا كنت مريضاً حقاً ، فانه سيذكر ذلك في تقريره ، وسأعرف الأمر بأقرب وقت .

وعندما كان في المستشفى ، بدأت معنوياته تزداد اشراقاً ، وفقاً لما قاله دوني ، بدا أكثر سعادة مما كان عليه في الأشهر الأخيرة ، كما قالت أورسولا . وبدت الأخبار السيئة وكأنها راحة له وفقاً لإيرا ، وككارثة حقيقية غير متوقعة وفقاً لكوينتين .

لكن يصعب أن نتوقع منه آن يقول الشيء نفسه لجميع أصدقائه ، لأن علاقته مع ايرا كانت تختلف عن علاقته مع كوينتين (هذا وفقا لكوينتين الذي كان فخوراً بصداقتهما) . وربما ظن أن كويتنين لن يتحطم عند رؤيته أو يبكي ، لكن إيرا أصرت على أن ذلك لا يمكن أن يكون السبب لتصرُّفهِ بشكل مختلف مع كليهما ، ربما يعود ذلك لشعوره بأن الصدمة أصبحت أخف ، أو لأنه كان يستجمع قوته للصراع من أجل حياته في اللحظة التي رأى فيها ايرا . ولكن مشاعر اليأس غَمَرْتهُ عندما وصل كوينتين وهو يحمل الزهور ، لأن الزهور على كل حال كانت تتركه في حالة سيئة ، كما أخبر كوينتين كيت نظراً لأن غرفة المستشفى كانت تغص بالزهور ولا يمكنك أن تحشر زهرة أخرى في تلك الغرفة ، إنك تبالغ بالتأكيد قالت كيت وهي تبتسم ، الجميع يحب الزهور ، حسناً من منا لا يرغب بالمبالغة في وقت مثل هذا قال كوينتين بحده ، ألا تظنين أن في هذا مبالغة ، طبعاً أنا أظن ذلك قالت كيت بلطف ، فقط كنت أمازحك ، أعني لم أقصد أن أسخر منك ، أعرف ذلك قال كوينتين والدموع في عينيه .

قامت كيت بمعانقته ثم قالت ، حسناً ، عندما أذهب هذا المساء ، أظن أنني لن أجلب معي زهوراً ، ما الذي يرغب به . قال كوينتين وفقاً لماكس ، إن أفضل ، شيء يحبه هو الشوكولاته ، هل هناك شيئاً آخر غيرها ، سألت كيت ، أقصد مثل الشوكولاتة وليس لشوكلاته ، قال كوينتين وهو يمخط أنفه : السوس ، والى جانب ذلك . ألا تبالغين ، قالت كوينتين وهي تبتسم ، حسناً ، قالت كيت ، وبالتالي اذا أردت احضار رفاً كاملاً من هذه المواد بالإضافة إلى الشوكلاته والسوس ، ماذا غيرها؟

قال كوينتين ، أحضري حبيبات حلوى هلامية .

لم يرغب في أن يكون وحيداً ، وفق ما قال باولو ، وقد زاره الكثير من الناس في الأسبوع الأول وقالت الممرضة الجمايكية . لقد كان هناك مرضى آخرين على الطابق وسيكونوا سعداء بأن يحصلوا على الفائض من الزهور ، لم يكن الناس خائفين من الزيارة ، لم يكن الآمر مثل الأيام القديمة ، وكما أشارت كيت إلى ايلين فإنهم لم يعودوا يقومون بعزل المرضى في المستشفى ، وقد لاحظت هيلدا أنه لم يكن هناك على باب غرفته تحذيراً للزائرين من احتمالية العدوى كما كان الأمر يتم منذ بضع سنين وفي الحقيقة فقد تم وضعه في غرفة مزدوجة ، وكما أخبر هو اورسون فإن الرجل العجوز على الطرف البعيد من الستارة (الذي هو على وشك أن يخرج من المستشفى قال ستيفن) ليس مصاباً حتى بالمرض .

وهكذا كما استطردت كيت ، عليك حقاً أن تذهبي وتزوريه وسيكون سعيداً برؤيتك ، انه يحب زيارة الناس له ، أنت لست ذاهبة لزيارته لأنك خائفة ، أليس كذلك؟ بالطبع كلا قالت ايلين ولكني لا أعرف ماذا أقول ، أظن أنني سأشعر بالإرتباك الذي سيلاحظه بالتأكيد ، ولعل ذلك سيجعله يشعر أسوأ من قبل ، ولذلك لن أنفعه بشيء أليس كذلك؟

قالت كيت وهي تربت على يد ايلين ، إنه لن يلاحظ شيء والأمر ليس كذلك ، ليس بالطريقة التي تتصورينها ، إنه لا يحاكم الناس أو يتساءل عن دوافعهم ، انه فقط سعيد برؤية اصدقائه . لكني في الحقيقة ، لم أكن صديقة له ، قالت ايلين ، أنت صديقته وقد أحبك على الدوام ، وقد أخبرتني بأنه تحدث معك حول نورا .

أنا أعلم أنه يحبني ، وأنه قد يكون منجذباً لي ، لكنه يحترمك أنت ، أما وفقاً لويسلي فإن السبب في شحة زيارات آيلين هو عدم تمكنها من الاستحواذ عليه لنفسها ، كان هناك دائماً أخريات وعندما يهجرهن ،كان يأتي ويخبرهن . قال دوني ، لقد ظلت واقعة في حبه لسنوات ، وأستطيع أن أدرك بأن ايلين كانت ستشعر بالمرارة لو علمت أنه كان يوجد لديه خليلة تنام معه أحياناً ، إمرأة أحبها فعلاً ، ويا الهي قال فكتور ، الذي يعرفه منذ سنوات ، أنه كان مجنوناً بنورا ، يا لهما من زوجين ممزقي الفؤاد ، بالتأكيد ملاكين ، في حين آيلين لم تتمكن من أن تكون هي . وعندما كان يأتي لزيارته بعض الأصدقاء ، الذين يزورونه يومياً ، كانوا يكمنون للطبيب في الممر ،

وينقضون عليه بالأسئلة ، وكان ستيفن هو الذي يسأل معظم الأسئلة الاستعلامية ، حيث كان على اطلاع حسن ، ليس فقط على القصص التي كانت تظهر في جريدة التايمز لعدة مرات في الأسبوع (والتي أقر جريج بأنه سيتوقف عن قراءتها ، لأنه لم يعد قادراً على الاستمرار معها أكثر) بل وعلى المواضيع التي كانت تنشر في الدوريات الطبية التي تصدر هنا وفي بريطانيا وفرنسا . كما أنه على علاقة اجتماعية بواحد من أبرز الأطباء في باريس والذي كان يجري أبحاثاً مكثفة عن المرض ، إلا أن طبيبته لم تزد عن القول بأن التهاب الرئة لا يهدد الحياة ، وأن الحمى تنخفض ، طبعاً كان لا يزال ضعيفاً ، ولكنه كان يستجيب جيداً للمضادات الحيوية ، وأصبح على وشك إنهاء إقامته في المستشفى والتي استلزمت واحد وعشرين يوماً على الأقل من تناول العلاج والتغذية عن طريق الأوردة قبل أن تبدأ معه بالعلاج الجديد . لأنها كانت متفائلة بشأن امكانية إدخاله في البروتوكول ، وعندما قال فيكتور بأنه كان يواجه مشكلة كبيرة في الأكل (لقد أخبر الجميع عندما حاولوا التحايل عليه لكي يأكل من وجبات المستشفى لم يكن يستسيغ طعام المستشفى ، لأنه يترك في فمه مذاق معدني) وأنه لم يكن أمراً جيداً أن يأتي أصدقاءه له بكل تلك الشوكولاته ، كانت الطبيبة تبتسم فقط وتقول في هذه الحالات فان معنويات المريض عامل مهم ، واذا كانت الشوكولاتة تحسن شعوره وتجعله أفضل ، فإنها لا ترى ضرراً فيها . مما أقلق ستيفن إذ قال ستيفن لدوني مؤخراً ، أنهم أرادوا أن يثقوا بالوعود والمحظورات للأدوية الحديثة ذات التقنية العالية ، لكنهم لم يجدوا هنا سوى الطمأنة المقتضبة والسمعة الفضية لخصوصية المرض ، وقد استشهد أحدهم بما كان ينشر في الصحف بشكل متكرر . وظلت الطبيبة تتحدث مثل ذلك الطراز القديم من الأطباء العاميين في الريف الذين كانوا يقولون للأسرة ، ان الشاي مع العسل أو شوربة الدجاج تفعل مع المريض أكثر مما يفعله البنسلين ، والذي يمكن أن يعني كما قال ماكس أنهم كانوا غارقين فقط في اقتراحات معالجته ، وأنهم لم يكونوا متأكدين بشأن ما يفعلونه ، أو على الأصح كما قال اكسفير بانفعال ، انهم وبحق الجحيم لا يعرفون ما الذي يفعلون ، تلك هي الحقيقة ، الحقيقة الناصعة كما قالت هيلدا مضيفة إلى الرهان بأن الأطباء في الواقع ليس لديهم أي أمل .

قال لويس ، أوه ، لا أستطيع احتمالها ، انتظر دقيقة ، لا أستطيع تصديقها ، هل أنت متأكد ، أعني هل هم متأكدون من قيامهم بجميع الفحوص والاختبارات ، أصبح الأمر هكذا : عندما يرن جرس الهاتف : أفزع من الرد لأنني أعتقد أن أحداً ما يود أن يخبرني بأن أحداً آخر قد اصيب بالمرض ، لكن هل حقيقة بأن لويس لم يعلم بالأمر حتى الأمس .

قال روبرت بنزق ، اني أجد ذلك صعب التصديق ، فالكل يتحدث بهذا الشأن ، ويبدو من المستحيل أن أحد الأشخاص لم يقم بالاتصال مع لويس ، وربما أن لويس كان يعلم ولسبب ما ظل يتظاهر بأنه لم يعلم حتى الآن . كما يذكر جان ؛ ألم يقل لويس شيئاً لجريج منذ أشهر وليس فقط لجريج عن أنه لا يشعر بالراحة وأن وزنه أخذ ينقص ، لذا فهو قلق بشأنه ويرغب في أن يرى طبيباً ، لا يبدو الأمر مفاجأة كاملة له . قالت بيتسي ، حسناً الجميع الآن قلق بشأن الجميع ، هذه هي الطريقة التي يبدو أننا نعيش بها ، الطريقة التي نحياها الآن ، وبعد كل هذا فقد كانوا ذات يوم قريبين جداً من بعضهما البعض ، ألا يزال لويس يحتفظ بمفاتيح شقته ، أنت تعرف الطريقة التي بها تترك شخصاً ما يحتفظ بمفاتيحك بعد أن تقطع علاقتك به ، فقط قليلاً ، لأنك تأمل بأنه سيعود في احدى الليالي مخموراً أو ثملاً في وقت متأخر ، ولكن بالأساس لأنك تظن أن من الحكمة الابقاء على عدة أطقم من المفاتيح منثورة في أنحاء البلدة اذا كنت تعيش وحيداً في أعلى البناية التجارية سالفة الذكر والتي لا يوجد لها بواب أو ناظر مقيم . شخصاً ما تستطيع أن تتصل به في وقت متأخر من الليل اذا اكتشفت أنك فقدت مفاتيحك أو أغلقت عليها في الداخل .

من غيرك لديه مفاتيح ، سألت تانيا ، كنت أفكر أن يزورني شخصاً ما غداً قبل المجيء إلى المستشفى حاملاً بعض الكنوز ، لأنه في أحد الأيام - قالت ايرا - كان يتذمر من غرفة المستشفى ، كم هي كئيبة وكيف انها تعطيك انطباعاً بأنك مقفول عليك في غرفة موتيل مما حفَّز كل شخص أن يبدأ بسرد قصص مضحكة حول غرف موتيلات الطريق العام التي عرفوها ، مثل قصة أورسولا حول نزل لوكسوري برجيت في سكينتادي ، وقد انفجر الجميع ضاحكين حول سريره ، في حين ظل هو يراقبهم بصمت وبعيون تبرق بالحمى ، يلتهم طوال الوقت ذلك اللوح اللعين من الشوكولاتة .

لكن وفقاً لجان الذي مكنته مفاتيح لويس من الطواف في شقة العزوبية لجلب بعض التحف والرسومات من أجل جعل غرفة المستشفى أكثر قبولاً ومواساة، فان الأيقونة البيزنطية لم تكن على الحائط فوق سريره، ووقع ارتباك حسمه أورسون حين تذكر دون أن يبدو عليه أي قلق (نوقش هذا الأمر من قبل جريج) بأن ذلك الولد الذي تخلص منه حديثاً قد تمكن من سرقتها مع أربعة صناديق من الورنيش كما لو أن هذه الأغراض يسهل بيعها . في الشارع مثل تلفزيون أو ستيريو، ولكنه كان دائماً سخياً جداً، قالت كيت بهدوء، ومع أنه يحب الأشياء الجميلة فإنه للحقيقة لم ينجذب اليها، إلى الأشياء، كما قال أورسون التي تعد غير عادية، كما علق على ذلك فرانك، وعندما ارتجفت كيت وانبثقت الدموع من عينيها، استعلم اورسون بانفعال فيما اذا كان قد صدر منه أي لفظ خاطئ، ولكنها أشارت إلى أنهم قد أخذهم الحديث عنه نحو استرجاع الإحداث الماضية مستذكرين كيف كان حاله وما الذي جعلهم يحبوه كما لو أنه قد انتهى، وأصبح الآن جزءاً من الماضي أرهقته كثرة الزائرين . قال روبرت الذي جاء كما أشارت ألين مرتين : (من المحتمل انه كان يبحث عن سبب، لأن لا يعد ضمن الزائرين المنتظمين . لكن مما لا شك فيه، كما قالت أورسولا آن معنوياته قد انخفضت وقد بدا الآن وكأنه يرغب أن يكون وحيداً لبضع ساعات في اليوم . وقد أخبر دوني بأنه بدأ يدوّن مذكراته لأول مرة في حياته، لأنه أراد أن يسجل مسار ردود أفعاله الذهنية أمام هذا التحول المذهل لمجريات الأحداث، أراد أن يفعل شيئاً موازياً لما كان يفعله الأطباء الذين يأتون كل صباح، ويجرون المشاورات حول جسده قرب السرير، وربما لم يكن ما كتبه فيها بتلك الأهمية، كما قال لكونتين بمرارة، ولكنها كانت تساوي أكثر قليلاً من تلك القصص العادية حول الرعب والانذهال اللذان يحصلان له، اضافة إلى تلك التقييمات النادمة حول حياته الماضية والأشياء السطحية التي يمكن اغتفارها، متوجةً بالحلول من أجل عيش أفضل، أكثر عمقاً وتواصلاً مع عمله وأصدقائه، ضارباً عرض الحائط بما يفكر به الناس حوله مسلماً نفسه للتحذيرات والنصائح بأنه في مثل حالته، فإن ارادته يجب أن تتجه نحو الاستمرار في الحياة أكثر من أي شيء آخر، وأنه إذا أراد أن يعيش فعلاً، فإن عليه أن يأمل في العيش وأن يحب نفسه بشكل كاف، (تماماً مثل

ثاناتوس!) يمكن أن يعيش ، وأن يكون استثناء ، ولكن كل هذا ، كما تأمل كوينتين وهو يتحدث على الهاتف مع كيت ربما لم يكن النقطة الأساسية ، فالنقطة الأساسية كانت في الحرص الشديد على المفكرة التي كان يكدس فيها بعض الأوراق لكي يعيد قراءتها يوماً ما ، غارساً فيها شكواه خلسة لأيام في المستقبل يمكن أن يكون فيها المفكرة هدفاً أو تذكاراً ، يمكنه أن لا يعيد قراءتها فعلياً ، لأنه يرغب أن يلقي هذه المحنة وراء ظهره ، ولكن المفكرة قد تبقى هناك في درج مكتبه الماجوريل الضخم ، ويمكنه الآن أن يبوح بأسراره لكوينتين في وقت متأخر من بعد ظهر يوم مشمس وهو مستند على سرير المستشفى وقد ترك أكل الشوكلاتة بقعة على احدى زوايا ابتسامته التي تحطم القلوب ، وأن يرى نفسه في حجرة على السطوح وأشعة شمس تشرين الأول تتدفق من خلال تلك النوافذ الصافية بدلاً من هذه الحجرة المخططة . والمفكرة ، المفكرة الشجية آمنة في الدرج .

ليس هناك مشكلة بشأن التأثيرات الجانبية للعلاجات قال ستيفان (عندما كان يتحدث إلى ماكس) أنا لا أعرف لماذا أنت قلق بشأن ذلك ، فكل علاج قوي له بعض التأثيرات الجانبية الخطيرة ، هذا أمر يتعذر تجنبه أنت تعني بطريقة أخرى ، أن المعالجة يمكن أن تكون غير فعالة . قاطعته هيلدا ، وعلى كل حال ، استطرد استيفان بعناد ، أن مجرد وجود تأثيرات جانبية ، لا يعني أنها ستصيبه كلها ، واحدة واحدة أو حتى بعض منها ، إن هذه تعتبر قائمة بالإخطاء التي يمكن أن تحصل لأن الأطباء لديهم ما يغطون به أنفسهم ، وهكذا فهم يقومون بوضع مخطط (سيناريو) بأسوأ الحالات ، ولكن أليس هذا ما يحدث له وما يحدث للكثير من الناس الآخرين .

قالت تانيا مقاطعة ، مخطط (سيناريو) لأسوأ الحالات ، انها كارثة لا يمكن لأحد أن يتصورها ، انها قاسية جداً ، الا يعتبر كل شيء في هذا الدنيا ، تأثيرات جانبية ، قالت ايرا مازحة ، حتى نحن نعتبر أنفسنا تأثيرات جانبية . ولكننا لسنا تأثيرات جانبية سيئة ، قال فرانك ، انه يحب أن يرى أصدقاءه حوله ، وكل منا يساعد الآخر ، لأن مرضه صبغنا جميعاً بنفس الغراء ، قال اكسفير وهو مستغرق في التفكير ، عدا عن ذلك فمهما كان الحقد والحسد الذي وضع في الماضي حواجز من القلق وعدم الاستقرار في العلاقات بين بعضنا البعض ، إلا أن أمراً خطيراً مثل هذا

(السماء تسقط ، السماء تسقط) يجعلنا ندرك ما هو الأهم حقاً ، أنا أوافق أنه قد ينعتنا بالجبن قليلاً ، «لكن ألا تعتقد أبدى كوينتين ملاحظة إلى ماكس «كوننا قريبين منه كما نحن الآن ، ومحاولتنا ايجاد متسعاً من الوقت للقيام بزيارة خاطئة للمستشفى كل يوم ، هي محاولة منا لتحديد أنفسنا بطريقة أكثر ثباتاً بين صفوف الأصحاء ، غير المرضى ، وغير القابلين للوقوع في المرض وكأن ما حصل له لا يمكن أن يحصل لنا ، بينما في الحقيقة عندما تلعب الأقدار ، قد يأتي وقت ، ليس بالطويل الأمد ، وينتهي الحال بأحدنا إلى حيث انتهى . ومن المحتمل أن هذا ما شعر به ، عندما كان واحداً من المجموعات التي كانت تزور زاك في الربيع (أنت تعرف زاك : أليس كذلك؟)

ووفقاً لكلاريس ، «أرملة زاك ، لم يكن يأت بصورة متواصلة لأنه ، كما قال ، يكره المستشفيات ولم يشعر بأي فائدة من زيارته لزاك ، وكان زاك يلاحظ عدم الراحة على وجهه . «أوه كان واحداً من أولئك» «جبان مثلي قالت إيلي ، وبعد أن أعيد من المستشفى إلى البيت ، وبعد أن تطوع كوينتين لينتقل معه إلى البيت ليقوم بتقديم الوجبات له وتلقي رسائل الهاتف ، وتزويد أمه في ميسيسبي بالمعلومات لابقائها على اطلاع وتجنيبها الطيران إلى نيويورك حتى لا تنقل حزنها إلى ابنها وتربك روتين العمل المنزلي اليومي بتسلطها وضيق صدرها . بعد كل ذلك كان ما يزال قادراً على العمل لساعه أو ساعتين في دراسته ، في الأيام التي لم يكن يصر على الذهاب إلى الخارج من أجل وجبة طعام أو فيلم كان يسبب له التعب . بدا متفائلاً ، كما كانت كيت تعتقد وكانت شهيته جيدة ، وما قاله ونقله اورسون كان أنه وافق على نصيحة استيفان بأن الشيء الأساسي هو المحافظة على المظهر . كان مقاتلاً بحق ، وما كان ليكون كما هو عليه ، لو لم يكن كذلك وكان مستعداً للمعركة الكبيرة ، سأل ستيفن ببلاغة (كما أخبر ماكس دوين) وراهنه على ذلك ثم أضاف ، يمكن أن يكون الأمر أسوأ من ذلك بكثير ، فقد كان يمكن أن تصاب بالمرض منذ سنتين مضتا ، لكن يوجد الآن العديد من العلماء الذين يقومون بالأبحاث عنه ، الفريق الإميركي والفريق الفرنسي والكل يعمل بعناد من أجل الحصول على جائزة نوبل تلك بعد سنوات قليلة على الطريق ، وكل ما هو مطلوب منك أن تفعله هو أن تبقى معافى

لسنة أخرى أو لسنتين وبعد ذلك ستكون المعالجة حقيقية وجيدة . قال نعم كما سمعه ستيفن ، إن توقيتي جيد أما بيتسي التي كانت تتسلق وتلتقط أطعمة الحمية النباتية لمدة عقدمن الزمن قد جاءته بأحد المختصين اليابانيين لكي يراه ، ولكن حمداً لله قال دوني فقد تولد لديه احساساً بالرفض ، إلا أنه وافق على أن يرى الاختصاصي الذي أحضره فيكتور للمعالجة بالتخيل ، على الرغم من أنه لا يوجد شيء يستطيع المرء أن يتخيله ، قالت هيلدا ، النقطة الأساسية لتخيل المرض هي أن تراه بكينونته مع وجود خطوط وحدود له هنا أكثر من هناك ، أشياء محدودة ، كنت أنت مضيفاً لها ، بمعنى أن باستطاعتك عدم استدعاء المرض ، في حين أن المرض كان أمراً كلياً شاملاً كما قال ماكس ، أو أنه يمكن أن يكون كذلك .

لكن الشيء الرئيسي كما قال جريج هو أن ترى أنه لم يسلك الطريق النباتي الذي قد لا يسبب ضرراً لبيتسي السمينة ولكنه قد يكون مدمراً له ، مع هذا الهزال الذي رافقه كل حياته ومع أكداس السجائر وكابحات الشهية التي كان يتقبلها في جسده لسنوات ، والوقت الآن غير مناسب أبداً كما أشار ستيفن لكي يقلق على تنظيف رواسب أعماله ويتخلص من الكيماويات المضافة والملونات الأخرى ، التي نشعر جميعاً بالسعادة أو بغير السعادة عندما نتناولها ونحن أصحاء ، قدر استطاعتنا أن نكون .

وقالت ايرا ، ما يسعدني حتى الآن هو أن أراه يأكل اللحم والبطاطا ، واضافت أورسولا بحزن ، ومعكرونة السباغيتي ، وشوربة المحار ، أضاف جريج ، وعجة البيض الغنية بالكولسترول وجبنة موزاريلا مدخنة كما اقترحت ايفون التي طارت من لندن في عطلة نهاية الأسبوع لكي تراه .

قال فرانك ومن الأفضل بدون كعكة شوكولاته قالت أورسولا لأنه الآن يتناول كميات كبيرة من الشوكولاته .

وبعد ذلك ، ليس حالاً ولكن بعض مضي ثلاثة أسابيع ، عندما وافق الأطباء ، بعد وقت طويل من المشاورات وراء الكواليس على ادخاله في بروتوكولات العقار الجديد ، بدأ يتكلم أقل عن كونه مريضاً ، وفقاً لدوني ، مما بدا وكأنه علامة جيدة ، كما شعرت ، علامة على أنه لم يكن يشعر كضحية ، شعور ليس من يصاب بمرض ،

بل بالأحرى من يعيش مع المرض (تلك كانت الفكرة الصحيحة ، ألم تكن؟) .

مزيد من ترتيبات حسن التقبل ، كما قال جان ، نوع من التعايش يتضمن شعوراً بأن الآمر مؤقت ، وأنه قد ينتهي ، قالت هيلدا ، لكن كيف سينتهي ، أنت تقول كلمة هو سبيتابل (أي حسن الضيافة) وأسمعها هو سبيتال (مستشفى) يا جان ، والأمر المشجع كما أصر ستيفن ، هو أنه ومن البداية وعلى الأمل ومنذ استطعنا إقناعه بالإتصال مع طبيبه هاتفياً ، كان ينوي أن يذكر إسم المرض وأن يلفظه ببساطة وبشكل دائم كما لو أنها كانت مجرد كلمة أخرى ، مثل ولد ، أو معرض ، أو سيجارة ، أو نقود ، أو صفقة ، وكأنها ليست صفقة كبرى .

أقحم باولو نفسه في الحديث ، كما تابع ستيفن وقال أن التفوه بالاسم دلالة على الصحة ، وتلك دلالة يتقبلها المرء كما هو فانياً عرضة للاصابة بالأمراض وغير مستثنى من شيء . انها علامة على رغبة الانسان ، كل انسان ، للنضال من أجل حياته ، وعلينا أن نتخلف عنه في مسألة الأمانة أو أن نتركه يشعر بذلك ، فالمسعى للأمانة قد تم وهو شيء قد انتهينا منه ، ويستطيع أن ينصرف إلى أشياء أخرى .

كما أن المرء يصبح أكثر استعداداً لمساعدته ، قال ويسلي بطريقة ما ، فهو محظوظ .

قالت ايفون ، التي كانت عائدة إلى لندن هذا المساء ، بعد أن عالجت مشكلة في مخزن نيويورك : بالتأكيد محظوظ ،قال ويسلي ، كذلك لم يحاول أحد أن يتجنبه أو ينأى عنه . استطردت ايفون ، فلم يكن أحدا يخاف من معانقته أو تقبيله بخفة على فمه . نحن في لندن كالعادة ، متخلفين بضع سنوات عنكم ، والناس الذين أعرفهم ، أعني الناس البعيدون عن خطر الإصابة ، يبدون مروّعين ، ولكنني متأثرة بتعلقكم وبرودتكم في مواجهة ما أنتم فيه . قد تجدونا هادئين ، قال كوينتين ، لكن علي أن أذكر هنا ، كما نقل عن قوله ، انتي مرتاع وأجد صعوبة في القراءة والمطالعة (وأنت تعرف أنه يحب القراءة - قال جريج - نعم القراءة في تلفزيونه قال باولو) أو في التفكير ولكني لم أصل إلى حد الهستيريا . ولكن لويس قال لايفون أنا أشعر بالهستيريا إلى حد بعيد . «لكنك قادر على أن تفعل له شيئاً وهذا أمر رائع ، كم أتمنى أن أتمكن من الإقامة لمدة أطول» أجابت ايفون «إنه شيء جميل بالأحرى ، ولا أستطيع الإمتناع عن التفكير ، هذه المثالية للصداقة التي حشدتموها حوله (هذه مثالية

محزنة ، قالت كيت) لدرجة الشعور بأنه لم يعد هناك وجود لمرض ، اختتمت ايفون الحديث .

قالت تانيا : نعم ألا تعتقدين أننا نعيش شعوراً بيتياً حقيقياً هنا ، معه ومع المرض ، لأن تخيل المرض أسوأ بكثير من حقيقة شخصيته التي نحبها ونتمنى جميعاً ، كل على طريقته أن نستحوذ عليها ، بالنسبة لي ، قال جان ، أنا أعلم أن اصابته قد قضت على شعوري بالأرتباك من المرض ، فأنا لم أعد أشعر بخوف أو الرهبة كما كنت أشعر قبل أن يصبح هو مريضاً ، كان الأمر فقط أخباراً بعيدة تصلنا عن معارفنا وأصدقائنا ، الذين لم نعد نراهم مرة أخرى بعد اصابتهم بالمرض ، قال كوينتين : ولكنك تعلمين بأني بأك لست في صدد الوقوع ببراثن المرض ، مما دعا ايلين للرد عليه قائلة من ناحيتها : النقطة الرئيسية ، وربما لا تجانب الحقيقة ، يقول الطبيب النسائي الذي أراجعه ، بأن كل من له حياة جنسية معرض للخطر ، لأن النشاط الجنسي هو سلسلة تربط كل منا بالآخرين وربما أخرين غير معروفين ، والآن أصبحت تلك السلسلة الأعظم للكينونة ، سلسلة للموت أيضاً . لم يعد الأمر بالنسبة لك كما في السابق ، أكد كوينتين ، لم تعد بالنسبة لك كما هي بالنسبة لي أو للويس أو لفرانك أو لباولو أو لماكس ، أنا خائف أكثر وأكثر ، ولدي كل الأسباب لأن أكون .

قالت هيلدا : أنا لا أفكر اذا ما كنت في خطر أم لا ، فانا أعلم ، أنا أعلم أنني كنت خائفة من أن أعرف شخصاً ما أصابه المرض ، خائفة مما يمكن أن أراه ومما يمكن أن أشعر به ، وبعد اليوم الأول لحضوري إلى المستشفى شعرت بأنني قد ارتحت ولن أشعر بعد اليوم بذلك الخوف مرة ثانية ، فهو لا يبدو مختلفاً عني .

إنه لا يختلف عنك قال كوينتين ، ووفقاً للويس ، فقد تحدث أكثر من العادة حول اولئك الذين زاروه أكثر من مرة ، هذا طبيعي ، قالت بيتسي ، أعتقد أنه كان يحتفظ بسجل وكان هناك منافسة بين أولئك الذين زاروه أو استفسروا عنه على طريق الهاتف ، أعني حاشيته الداخلية التي تحصل على نقاط أكثر . كانت تلك المنافسة تثير أعصاب بيتسي كما اعترفت بذلك إلى جان ، دائماً نظهر هناك تلك المناورات المبتذلة حول سرير المريض ، لكسب حظوة عنده رغم الشعور الذي يغمرنا بالامتنان

لولاءنا للمريض ، (تحدثي عن نفسك قال جان) إلى المدى الذي نأخذه من وقتنا كل يوم أو تقريباً كل يوم ، ورغم أن البعض منا قد تخلى عن هذه العادة كما أشار اكسفير ، الا أننا نجني من هذا مقدار ما يجنيه هو على الأقل .

قال جان : هل الأمر كذلك؟ اننا نتنافس على اشارة منه تعبر عن شعور خاص بالسعادة لزيارتنا ، وكل منا ينتظر خاتم نحاسي يهديه لنا ، ويرغب بالشعور بأنه هو المرغوب أكثر لديه .

هذه هي الحقيقة المحتومة عن الأقرب والأعز على شخص ليس له قرينه ولا أطفال ولا حتى عشيق رسمي يعيش معه في بيته ، وهي مراتب هرمية لا يمكن أن يجادل فيها أحد ، هكذا نكون نحن الأسرة التي أوجدها بلا معنى ولا عناوين وظيفية أو مراتب ، استطردت بيتي .

(نحن ، نحن ، صاح كوينتين) وهل هي واضحة بهذا الشكل رغم أن البعض هنا وبينهم لويس وكوينيتن وتانيا وآخرون هم عشاق سابقون وجميعنا أكثر من أصدقاء ، إلا أنه لا يفضل أحدنا عن من الآخر قال فكتور ، (من الآن اذن قال كويتنين بغضب) لأني أظن أنه في بعض الأحيان يكون تواقاً لرؤية ايلين التي لم تزره سوى ثلاث مرات ، مرتين في المستشفى ومرة بعد خروجه إلى البيت أكثر مما يتوق لرؤيتي أو رؤيتك ، ولكن وفقاً لتانيا ، بعد خيبة الأمل التي شعر بها لعدم زيارة ايلين له ، أصبح الآن غاضباً ، ولكنه لم يكن في الحقيقة مجروحاً الا أنه منفعل وفقاً لما قال اكسفير . وقد تقبل غياب ايلين بطريقة أو بأخرى كشيء له ما يبرره ، إلا أنه سعيد لأن يرى الناس حوله ، قال لويس ، ويقول بأنه ينتابه احساس بالنعاس عندما لا يكون حوله اصدقاء ، فو ينام (وفقاً لكوينتين) ويمد عنقه بسرعة عند وصول أحد . إنه لأمر مهم أن يشعر دائماً بأنه ليس وحيداً .

لكن فيكتور قال ، هناك إنسانة واحدة لم يسمع منها ، ومن المحتمل أنه يحب أن يسمع منها أكثر من أغلبيتنا ولكن هذه الإنسانة اختفت تماماً ، حتى بعد أن قطعت علاقتها به . إلا أنه يعرف تماماً أين تعيش الآن ، قالت كيت لقد أخبرني بأنه قد اتصل معها هاتفياً عشية عيد الميلاد وقالت له لقد كان لطيفاً أن أسمع منك وأتمنى لك عيد ميلاد سعيد ، ووفقاً لأوروسون ، فقد ظل يثرثر في حين قالت ايلين أنه كان

يشعر بالغضب والازدراء (ماذا تتوقع منها ، قال ويسلي لقد كانت شعلتها مطفئة) ، لكن كيت تساءلت أنه ربما لم يتصل بنورا في منتصف ليلة أرق ، وما الفرق في التوقيت ، قال كونتين لا ، لا أظن هكذا ، وأظن أنه لم يرغب أن يعلمها بأمره ، مباشرة بعد شعوره بالتحسن وبأنه استعاد الباوندات التي سفحها في المستشفى مع العلم أن ثلاجته قد بدأت تمتلئ بحبوب القمح العضوية والكريبفروت والحليب منزوع القشدة (كان قلقاً على نسبة الكوليسترول في جسمه ، تفجع ستيفن) وأخبر كوينتين بأنه يستطيع تدبر الأمر بنفسه الآن وقد فعل ، وراح يسأل كل من زاره : كيف يبدو؟ والجميع قالوا له أنك تبدو رائعاً وأفضل كثيراً من الأسابيع القليلة الماضية حيث لم تتفق أجوبة الجميع في ذلك الوقت . بدأ الأمر يصعب أكثر وأكثر لتحديد كيف يبدو أو كيف يمكن أن تجيب على هذا السؤال بأمانة . كانوا فيما بين أنفسهم يرغبون أن يجيبوه بأمانة ، أكراماً للأمانة (كما اعتقد دوني) واستعداداً للأسوأ ، لأنه كان يبدو هكذا منذ مدة طويلة إلى حد بعيد . بدت على الأقل مدة طويلة نسبياً ، كما لو أنه كان دائماً يبدو هكذا ، كما بدا من قبل ، لكن تلك الكلمات شحبت وصارت باهتة وهشة وغير صالحة للتطبيق بعد مضي عدة شهور .

وفي أحد أيام الخميس ، التقت الين بلويس على باب البناية ، وسألته وهما يستقلان المصعد ، كيف هو في الحقيقة؟ أجابها لويس بلهجة لاذعة ، لكنك ترين كيف هو ، انه معافى تماماً ، الا أن ايلين أدركت بالطبع بأن لويس لم يكن يعتقد بأنه معافى تماماً ، ولكن صحته ليست أسوأ من قبل وكانت هذه هي الحقيقة ، ولكن هل هذا هو الصحيح . إن من القسوة أن نتحدث هكذا .

لا يبدو الأمر لي مهيناً قال كوينتين ، ولكني أعلم ما تقصدين اذكر في احدى المرات التي كنت أتحدث فيها إلى فرانك والذي كان قد تطوع للعمل خمس ساعات في الأسبوع في مكتب مركز الكوارث (أعرف ، قالت الين) وقد قام فرانك بمتابعة شخص تم تشخيص حالته على الأغلب منذ سنة ، كان يشكو إلى فرانك على الهاتف من لا مبالاة بعض الأطباء ، ويتفوه بكلام بذيء تماماً عن الطبيب ، وكان فرانك يقول له : لا يوجد سبب لأن تكون منزعجاً هكذا ، إن مضمون هذا الكلام هو أن فرانك لم يتصرف بصورة غير منطقية ، وأجبته وأنا بالكاد اسيطر على شعوري

بالسخرية ، لكن يا فرانك ، لديه كل الحق أن يكون منزعجاً ، انه يموت ، فأجاب فرانك وفقاً لكونتين ، آوه ، لا أحب أن افكر بشأنه بتلك الطريقة .

وقد مرت فترة قصيرة عندما كان لا يزال في البيت ، أخذ يسترد فيها عافيته ويداوم على معالجته الأسبوعية ، دون أن يصبح قادراً بعد على القيام بعمل كثير ، آخذ يتذمر معظم الوقت ، لكن وفقاً لكونتين ، كان يحضر إلى المكتب عدة أيام في الأسبوع ، حين جاءت أخبار سيئة من صديقين تربطه بهما معرفة جيدة ، أحدهما في هيوستن والآخر في باريس ولكن تم اعتراضها من قبل كونتين لأنه اعتقد أنها ستوقع في نفسه الكآبة . إلا أن ستيفن جادله بأن من الخطأ أن تكذب عليه ، وأن من الأهمية بمكان آن يعيش في واقع حقيقي .

كانت صراحته هي أول انتصاراته ، فقد أحب اطلاق النكات حول المرض ، ولكن الين قالت أن هذا الإحساس لم يكن جيداً لأنه يترك عنده شعور بنهاية العالم ، وهناك الكثير من المصابين بهذا المرض . وقد اصبح المرض عاماً لدرجة أنه قد يستنفذ منه بعض رغبته في الكفاح من أجل حياته . عندما يصبح قدر هذا المرض طبيعياً مثل الموت .

قالت هيلدا : أوه من منا لم يعرف شخصياً ذلك الصديق الذي في هيوستون أو الآخر في باريس ، فأنا كنت أعرف الشخص الذي في باريس كان عازف بيانو متخصص في موسيقى القرن العشرين التشيكية والبولندية . وأنا أحتفظ بتسجيلاته . كان شخصاً ذو قيمة . وعندما حملقت فيها كيت تابعت حديثها مدافعةً أنا أعلم أن كل حياة هي حياة مقدسة على حدٍ سواء ولكن تلك كانت فكرة ، فكرة أخرى . أقصد أن كل هؤلاء الأشخاص النابغين الذي لن يكتب لهم السير في طريق الحياة العادية لبلوغ الثمانين من العمر كما يحصل الآن ، هم أشخاص لا يمكن تعويضهم وهذه خسارة للثقافة . ولكن هذا الأمر لن يستمر إلى الأبد ، قال ويسلي ، ولا يمكن أن يستمر ، من المؤكد أنهم سيخترعون بعض الأشياء (هم ، هم ، تمتم ستيفن) ولكن هل فكرت مرة ، قال جريج ، بأنه إذا لم يمت بعض الناس ، أعني ، حتى لو أنهم تمكنوا من إبقائهم على قيد الحياة (هم ، هم ، تمتمت كيت) فهم يستمرون بكونهم ناقلين للمرض ، وذلك يعني ، إذا كان لديك ضمير أنك لن تستطيع أن تمارس الحب ،

الحب بكل ما في الكلمة من معنى ، ووفق ما ترغب ، ولمجرد أنك ترغب في فعل ذلك ، قالت إيرا ، ولكن ذلك أفضل من الموت ، قال فرانك . ووفقاً لكوينتين ، فإنه عندما كان يسمح لنفسه ببعض الأمل في احاديثه عن المستقبل ، لم يشر البتة إلى أنه حتى ولو لم يمت وبقي محظوظاً بأن يكون من الجيل الأول للناجين من المرض ، لم يشر ابداً كما أكدت كيت بأن ما حصل قد انتهى وأنه وفقاً لأيرا فكّر ملياً بشأن نهاية هذا التظاهر بالشجاعة ، ونهاية الحمق ، ونهاية الثقة بالحياة ، وأخذ الأمر على أنه شيء مسلّم به وان الحياة يجب أن تعامل كأنها شبيهة بالساموراي . فكّر ملياً بأنه على أتم الاستعداد للتخلي عنها بخفة وصفاقة . وتنهدت كيت عندما تذكرت قصة حديث مقتضب ، ظلت تصرّ على اجرائه معه منذ سنتين . كانت تتهادى على منصة مغطاة بسجاد فولاذي صناعي رمادي اللون ، في الطابق العلوي لمرقص «بروفيت» ، وكانت ما تزال تجهز للرقصة التالية عندما ترددت في مخاطبته لأنها شعرت بأن من الحماقة أن تحاول إقناع أمير الاغواء بأن يتقبلها ببساطة وبصدر رحب . إلى جانب أنها لم تكن متحمسة لأن تلعب دور الأخت الكبرى ، وهو دور ، أكدت هيلدا بأنه كان يحاول الإيحاء به للعديد من النساء ، ثم قالت له : يا عزيزي . أتفهم ما الذي أعنيه؟ وكانت إجابته كما تابعت كيت تقول كلا ، أنا لا أرغب بذلك ، اسمعي ، أنا لا أستطيع ، أنا فقط لا أستطيع . إن الجنس مهم جداً بالنسبة لي وقد كان كذلك دائماً . (لقد بدأ يتحدث مثل هذه الأحاديث . وفقاً لفكتور ، بعد أن تركته نورا) . ثم تابع : وإذا ما حصلت عليه ، فأنا أمارسه على أكمل وجه .

لكنه لن يرغب في مثل هذا الحديث الآن ، أليس كذلك . قال جريج ، لا بد أنه يشعر بحماقته لدرجة تبعث على الأسى ، قالت بيتسي ، مثل شخص يستمر في التدخين مدّعياً بأنه لا يستطيع ترك السجائر . ولكن عندما تظهر صور الأشعة المخيفة ، فإنه لن يستطيع الاستمرار ، حتى ولو كان من أسوأ مدمني النيكوتين .

لكن الجنس ليس مثل السجائر ، هل هو كذلك؟ قال فرانك ، وعلاوةً عن ذلك ، ما الذي سينفعه لو تذكر طيشه ، قال لويس بغضب . ان المرعب في الأمر أن تقع في سوء الحظ مرة واحدة . ولكن ألا يمكن أن يصبح شعوره أسوء لو توقف عن ممارسة الجنس منذ ثلاث سنوات ثم اكتشف أنه مصاب بالمرض على أية حال ، نظراً لأن

واحداً من أكثر معالم الرعب في هذا المرض أنك لا تعلم متى التقطت عدواه . ربما حدث هذا الأمر منذ عشرة سنوات ، لأن هذا المرض كان موجوداً منذ سنين وسنين ، قبل أن يعرف بمدة طويلة وحتى قبل أن يطلق عليه اسم .

من الذي يعرف كم كانت المدة (أفكر كثيراً بهذا الأمر ، قال ماكس) ولن يعرف (أنا أعرف ماذا ستقول ، قاطعه ستيفن) كم عدد الذين سيصابون به؟ أنا أشعر بأني في وضع ممتاز ، هذا ما كان يقوله رداً على كل شخص يسأله عن حاله ، ولعل هذا السؤال في أغلب الأحيان ، كان أول سؤال يسأله أي شخص . أو أن يقول ، وفقاً لفكتور ، أنا أشعر بأنني أفضل ، كيف حالك أنت؟ . لكنه كان يقول أشياء أخرى أيضاً مثل : أنا العب لعبة الضفدع مع نفسي أو لا بد أن هناك طريقة للخروج ببعض الايجابية من هذا الوضع ، وفقاً لكيت . كم يبدو أمريكياً هذا ، قال باولو . وقالت بيتسي : حسناً أنت تعرف المثل الأمريكي القديم والمأثور عندما تحصل على ليمونه فاصنع ليمونادة» . والشيء الوحيد المؤكد الذي لا أستطيع أن أتقبله ، وفقاً لما كان يقول لجان» هو أن أصبح مشوهاً . ولكن ستيفن أشار بعجلة إلى أن المرض لم يعد يأخذ هذا المنحى أبداً . فالمظهر الجانبي له متغير . ومني احدى مناقشاته مع الين ذكر كلما تمثل له حاجز دم الدماغ . لم أكن أعتقد أن هناك حاجزاً . قال جان لكنه يجب أن يعرف بما حدث لماكس . قالت الين ان ذلك سيحزنه حقاً ، أرجو أن لا تخبره ولكن كوينتين رد بتجهم . يجب أن يعرف سوف يجن جنونه إذا علم بأننا لم تخبره ، ولكن ما يزال هناك متّسع من الوقت حتى يرفعوا جهاز التنفس الصناعي عن ماكس قالت الين : ولكن اليس هذا امرٌ لا يصدق . قال فرانك :لقد كان ماكس رائعاً ولم يكن يشعر بالمرض اطلاقاً إلى أن استيقظ يوماً فجأة ووجد نفسه يعاني من حمّى شديدة وارتفاع في درجة الحرارة وصل إلى ١٠٥ فهرنهايت . لم يعد يستطيع التنفس . ولكن هكذا يبدو المرض عادةً ، بدون تحذير على وجه الاطلاق ، قال ستيفن . انه مرض ذو أشكال كثيرة . وبعد مضي حوالي أسبوع سأل كوينتين : أين ماكس؟ لم يسأل عن حساب نشاطات كوينتين من جزر البهاما . بعد ذلك ، بدأ عدد الناس الذين ينتظمون في زيارته بالانخفاض ، والسبب يعود جزئياً إلى عودة الضغائن القديمة بين الأصدقاء إلى السطح بعد أن طويت جانباً في الفترة الأولى لدخوله المستشفى وعودته إلى

البيت . كما يعود جزئياً أيضاً إلى العداوة التي ظلت تخبو وترتفع بين لويس وفرانك . إلى أن تفجرت ، على الرغم من المساعي التي بذلتها كيت للتقريب بينهما . كذلك بسبب قيامه هو شخصياً بتفكيك عرى المحبة التي تربط بين الأصدقاء حوله ، لإظهاره استخفافاً بهم . وكأنه من الطبيعي لمثل هذا العدد الكبير من الناس إن يقوموا بإضاعة الكثير من وقتهم واهتمامهم من أجله ، فيزوروه كل بضعة أيام أو يتحدثون معه بتواصل على الهاتف . ولكن وفقاً لباولو ، إن ذلك لم يكن بسبب نقص عرفانه بالجميل ولكن بسبب أنه أصبح معتاداً على الأمر ، وعلى الزيارات التي أصبحت مع الوقت شيئاً أكثر من الطبيعي . نوع من الذهاب إلى حفلة ما . أولاً في المستشفى والأن بعد أن عاد إلى البيت وهو بالكاد يستطيع الوقوف على قدميه . لقد بدأ واضحاً ، قال روبرت بأني كنت على القائمة «ب» . ولكن كيت قالت أن ذلك تفكير سخيف . فلا توجد قائمة مثل هذه الا أن فكتور أكّد وجود مثل هذه القائمة دون أن تكون موضوعة من قبله . فقد كان كوينتين هو الذي أعدّها لكي يضمن رؤيتنا ومساعدتنا له ، بالطريقة التي يريدها . لقد سقط بالأمس على الأرض وهو في طريقه إلى الحمّام . يجب أن لا يعلم بشأن ماكس (لكنه وفقاً لدوني أصبح يعلم) فقد صار الأمر أكثر سوءاً . عندما كنت في البيت ، كان يقول : كنت أخاف أن أنام ، لأنني كنت أنهار في كل ليلة ، وأشعر أنني أهوى في حفرة سوداء في الأسفل . وعندما أنام . أشعر أنني ذاهب للموت ، لذا كنت أنام كل ليلة في البيت والأضواء مشتعلة ، لكنني هنا في المستشفى ، اصبح أقل خوفاً .

في أحد الصباحات ، قال لكوينتين : ان الخوف يندفع بعنف إلى داخلي ويمزقني .وقال لايرا . انه يضغطني على بعضي ويعصرني ، فالخوف يعطي لكل شيء شكله وعلوه ، أنا أشعر هكذا ولا أدري كيف أقولها . كرر القول لكونتين . يذهلني علوّ الكارثة أيضاً ، ولكني في بعض الأحيان أشعر بأنني في حالة جيدة ، كما لو أنني أستطيع القفز خارج جلدي . هل أنا في طريقي إلى الجنون أم ماذا؟ كل ذلك التدليل والاهتمام الذي أتلقاه من الجميع حولي ، مثل طفل يحلم بأن يكون محبوباً . هل هي الأدوية؟ أنا أعلم أن الأمر يبدو جنوناً ولكن في بعض الأحيان اعتقد أنها تجربة رائعة . قال بخجل : كما أن هناك دائماً ذلك الطعم الرديء في الفم وذلك الضغط

في الرأس خلف العنق وتلك اللثة الحمراء الدامية . والألم الفظيع والصعوبة في التنفس ولون الشحوب الذي يشبه لون العاج أو لون الشوكولاته البيضاء .

من بين أولئك الذين بكوا لدى سماعهم نبأ عودته إلى المستشفى ، كانت كيت وستيفن (الذي استدعي عن طريق كوينتين) وكذلك الين وفكتور وايلين ولويس (الذين اعلموا بالهاتف عن طريق كيت) وأيضاً اكسفير واورسولا (الذين اعلموا بالهاتف أيضاً عن طريق ستيفن) .

ومن بين أولئك الذين لم يبكوا كانت هيلدا التي قالت أنها علمت للتو بأن عمتها العجوز ، ابنة الخمسة والسبعين عاماً كانت تموت من نفس المرض الذي انتقلت اليها عدواه عن طريق نقل الدم خلال عملية قلب ناجحة أجرتها قبل خمس سنوات ، وكذلك لم يكن فرانك دوني ولا بيتسي من بين الباكين . ولكن هذا لا يعني ، وفقاً لما قالته ثانياً . بأنهم لم يتأثروا أو يهتزوا . فقد ظن كوينتين بأنهم قد لا يأتون إلى المستشفى عاجلاً ولكنهم ربما يقومون بإرسال هدايا .

كانت إقامته هذه المرة في غرفة خصوصية تعج بالورود والنباتات والكتب والأشرطة ، وقد ضاع الحظر القاسي الذي شهده خلال الأسابيع الأخيرة في البيت وسط روتين زيارات المستشفى . مع أن الأكثرية أبدوا امتعاضهم من استلام كوينتن لدفتر الزيارات (لكن كوينتين كان صاحب الفكرة كما أشار لويس) من أجل تأمين تواصل في هذه الزيارات . مفضلاً اثنين فقط لا أكثر في كل زيارة (هذا القانون المعمول به في المستشفيات ، لم يكن اجبارياً هنا ، على الأقل في هذا الطابق ، ولكن لا أحد يستطيع أن يجزم ، ربما من باب اللطف أو عدم الكفاءة) استدعي كوينتين أولاً إلى المستشفى لكي يقوم بحجز الزيارات اذ لم يعد يسمح بالزيارة بدون مواعيد ، كما لم يعد بالمستطاع منع أمه من ركوب الطائرة أكثر من ذلك ، فقد وصلت وأقامت في فندق بجانب المستشفى . ولكن اهتمامه بزياراتها اليومية بدأ أقل من المتوقع ، هذا ما قاله كوينيتن . ولكن ايلين قالت . نحن الذين كنا نهتم ، هل تظن أنها ستقيم طويلاً . كانت زيارته هنا أسهل من زيارته في البيت ، كما قال دوني ، حيث لم يكن أحد يكترث ببقاءه وحده في الغرفة . وحين كنا نأتي لزيارته ، أزواجاً ، لم يكن لدينا شك بشأن دورنا ، وكيف ينبغي علينا أن نكون متجمعين ، مذهولين ، مبتهجين ،

متفهمين ، غير متطلبين ، خفيفي الظل . من المهم أن تكون خفيف الظل ، لأن هناك طمأنينة تكمن أيضاً وسط هذا الرعب ، كما قال الشاعر وفقاً لكيت . .(عيناه ، عيناه المتألقتان ، قال لويس) عيناه ، تبدوان كليلتين مكسوفتين ، قال ويسلي لاكيسڤير . لكن بتسي أضافت ليس مجرد عينيه ، بل أن وجهه كله يبدو دافئاً ومفعماً بالعاطفة . مهما كان الأمر ، قالت كيت ، لم أكن واعية هكذا لعينيه من قبل . وقال ستيفن : أنا خائف من كيفية نظرتي ومراقبتي له . إن فيها الكثير من الحدة ، أو نوع من الاحتيال غير المقصود ، قال فيكتور ، ان وجوده هنا ليس مثل وجوده في البيت فهنا يحلق كل صباح وأياً كان الوقت الذي يزورونه فيه ، فإن شعره الملتف كان دائماً مرّحاً . إلا أنه اشتكى من أن الممرضات قد تبدلن منذ أن كان هنا في المرة الأخيرة . وأن هذا التبديل لم يعجبه ، وهو يرغب أن يعود كل شيء إلى ما كان عليه ، كانت الغرفة قد أصبحت تحتوي الآن على بعض لمساته الشخصية (كلمة عرضية تقال عن مقتنيات شخص ، قالت الين) فقد أحضرت تانيا بعض الرسومات ورسالة من ابنها الذي يبلغ من العمر تسع سنوات ويعاني من صعوبة في الكتابة بسبب اصابته بالدسلكسيا ، والذي أصبح الآن قادراً على الكتابة بعد أن أحضرت له جهاز كومبيوتر . كما أحضر دوني شمبانيا وبالونات هيليوم ، ثبتها على رجل سريره .

قال . بعد أن صحى من احدى غفواته ، ووجد دوني وكيت يبتسمان على جانب سريره : اخبراني عما يجري ، أو أسردا لي قصة ، كانت نبرته حزينة وعلّق دوني قائلاً من الذي يستطيع التفكير بقول أي شيء . وقالت له كيت : أنت هي القصة .

وأحضر اكسفير تمثالاً غواتيمالياً للقديس سباستيان ، مصنوعاً من الخشب ويعود تاريخه للقرن الثامن عشر ، وله عينان موجهتان إلى أعلى وفم مفتوح . وعندما سألت تانيا . ما هذا الشيء قال اكسفير إنه تقدمة إلى الحب القديم وأضاف : في موطني يعتبرون القديس سباستيان حاميهم من الطاعون ، ويرمزون إلى الطاعون بالسهام ، هل الطاعون يرمز اليه بالسهام؟ الجميع يتذكر ذلك الشاب اليانع ذو الجسد الفتي وهو مربوط إلى شجرة والسهام تخترق جسده (يبدو دائماً واضحاً بسببها ، قاطعت تانيا) ولكن الناس ينسون تكملة القصة ، واصل اكسفير . وعندما جاءت النساء المسيحيات لدفن الشهيد ، وجدت أنه لا يزال على قيد الحياة فقمن برعايته حت استعاد

عافيته . قال له وفقاً لستيفن . لا أعرف أن سان سبستيان لم يمت . ان روعة الموت لا يمكن أنكارها ، أليس كذلك؟ قالت كيت لستيفن على الهاتف إنه أمر يشعرني بالخجل . وقالت هيلدا : نحن نتعلم كيف نموت أما ايلين فقالت : أنا لست على استعداد لكي أتعلم . أما لويس الذي كان قادماً للتو من مستشفى آخر حيث كان ماكس ما يزال موضوعاً في غرفة العناية الحثيثة . فقد قابل تانيا قبل أن تغادر المصعد في الطابق العاشر ، وبينما كان يتمشيان مع بعضهما في الممر المضاء عبر الأبواب المفتوحة ، ويحولان أبصارهما عن المرضى الآخرين الغارقين في أسرتهم وفي براييش أنوفهم وقد بدوا وكأنهم يشعون تحت الضوء المائل إلى الزرقة والمنبعث من أجهزة التلفزيون ، قالت تانيا للويس . ان الشيء الذي لا أستطيع احتمال التفكير بشأنه ، هو أن يمت شخص ما بينما تلفزيونه شغّال . دخل الأن في حالة عزلة غريبة ومثيرة للأعصاب ، قالت ايلين وذلك ما سبب لي ارباكاً رغم أن البقاء معه أصبح أكثر سهولة . في بعض الأحيان كان كثير التشكي ويقول : انني لا أستطيع تحملهم وهم يأتون هنا في كل صباح فيأخذوا من دمي . ماذا يفعلون بكل ذلك الدم؟ سمعوه يقول ذلك . ولكن أين كان يكمن غضبه ، قال جان بدهشة؟ معظم الوقت ، كان البقاء معه محبباً وغالباً ما كان يسأل : كيف حالك؟ كيف شعورك؟ انه الآن لطيف إلى حدٍ بعيد قالت ايلين . وقريب إلى النفس ، قالت تانيا (قريب إلى النفس ، قريب إلى النفس قالها باولو متأوهاً) .

في البداية ، كان مريضاً جداً ولكنه بقي متماسكاً ومستجمعاً لقواه ، وفقاً لأفضل المعلومات لدى ستيفن ، لم يكن هناك خوف من عدم شفائه هذه المرة وقد ذكر الطبيب بأنه سيتم اخراجه من المستشفى في العشرة أيام القادمة ، اذا ما سارت الأمور كلها على أحسن ما يرام . تم اقناع الأم بالعودة إلى الميسيسيبي وكان كوينتين قد جهز الشقة لعودته . أما هو فقد ظل يكتب مذكراته دون أن يطلع عليها أحد . الا أن تانيا ، التي كانت أول من وصل اليه في احدى صباحات الشتاء المتأخرة ، وجدته وقد غلبه النعاس وعندما القت عليه نظرة خاطفة . ارتاعت وفقاً لجريج ، ليس بسبب شيء قد قرأته ولكن بسبب التغير المتعاظم في كتابة خط يده على الصفحات الحديثة . فقد أصبحت كتابته عنكبوتية وأقل وضوحاً ، حتى أن بعض خطوط النص

راحت تحيد عن السطور صعوداً وهبوطاً حول الصفحة .

قالت أورسولكوينتين : كنت أعتقد أن الفرق بين القصة والرسم أو الصورة هو انك يمكنك الكتابة في حالة القصة بأنه ما يزال على قيد الحياة ، قال ستيفن ولكنك في الصورة أو الرسم لا تستطيعين إظهار «ما يزال» بل تستطيعين فقط اظهار أنه حي ، حي فقط .

١٩٨٧

تيم أوبراين

الأشياء التي حملوها

عن «اسكواير»

كان الملازم أول جيمس كروس يحمل رسائل من فتاة تدعى مارثا ، تدرس في السنة الثالثة في كلية ماونت سبستيان بولاية نيوجيرسي . لم تكن رسائل غرامية . ولكن الملازم كروس كان يأمل أن تصبح كذلك ، لهذا فقد احتفظ بها مطوية في لفة بلاستيك ، وضعها في حقيبة الظهر التي تخصه . عند العصر وبعد مسيرة يوم ، كان يحفر خندقه ، ويغسل يديه بالماء المحفوظ في مزادته ثم يفض الرسائل ، ويحملها بين أطراف اصابعه ، ويمضي الساعة الأخيرة من ضوء النهار وهو يدعي قراءتها . وتشطح به تخيلاته نحو رحلات رومانتيكية يخيم فيها في الجبال البيضاء ، بولاية نيوهامبشير . كان أحياناً يلعق أطراف المغلفات مدركاً أن لسانها ، لا بد قد مرّ هناك . أكثر من أي شيء ، كان يريد من مارثا أن تحبّه كما أحبها ، ولكن الرسائل كانت في معظمها حديث عادي بعيد عن مسائل الحب ، كان ما تزال عذراء ، وكان هو متأكداً من ذلك – تدرس اللغة الانجليزية في كلية ماونت سباستيان ،وكانت تكتب أخباراً حلوة عن اساتذتها وعن زميلاتها في غرفة السكن وعن امتحانات نصف الفصل ، وعن مدى احترامها لشوسر وتعاطفها الكبير مع فرجينيا وولف . حتى أنها كانت أحياناً تقتبس أبياتاً من الشعر . ولم تكن تذكر الحرب أبداً سوى قولها جيمي كن

حذراً ، كان وزن الرسائل يبلغ عشر أونسات وعليها دائماً توقيع «مارثا - مع الحب» . ولكن الملازم كروس فهم كلمة «حب» ، بأنها طريقة في التوقيع ولا تعني ما كان يدعي أحياناً أنها تعنيه . وعند الغسق كان يعيد الرسائل إلى حقيبته . ثم ينهض مشوشاً قليلاً وببطء ويتحرك بين الرجال ، ويتفحص الأجواء ، وعندما يحل الظلام يعود إلى خندقه ويراقب الليل متسائلاً اذا كانت مارثا عذراء أم لا .

كانت الأشياء التي يحملونها معهم محددة حسب الحاجة . ومن بين الحاجات الأكثر ضرورة ، كانت فتاحات المعلبات ، أمواس الجيب ، ساعات اليد ومقابض الحرارة واربطة الكلاب وباكيتات العصير المجفف ، والقداحات وعلب الكبريت وعُدد الخياطة والعلكة وشهادات دفع الرواتب العسكرية ووجبات الطعام الجاهزة وزجاجتين أو ثلاثة من الماء . كل هذه الأشياء مجتمعة تزن بين ١٥ - ٢٠ باوند اعتماداً على عادات حاملها ومعدل طعامه . فهنري دوبنز الضخم ، كان يحمل معه وجبات اضافية ، وكان مولعاً بالدراق المعلب المرشوش على الكعك ، أما ديف جنسن الذي كان يمارس الصحة الميدانية فكان يحمل معه فرشاة أسنان ، وخيطان لتنظيف الأسنان . وعدة قطع صابون صغيرة مثل تلك التي تقدم في الفنادق ، كان قد سرقها من المحلات في مدينة سيدني باستراليا . كذلك تيدلافندر المرعوب دائماً ظلّ يحمل معه عدة مهدئات إلى أن قتل برصاصة ، في رأسه خارج قرية ثان كي في اواسط نيسان . أيضاً وبسبب كونهم جنوداً ميدانيين ، كانوا يحملون خوذاً من الحديد تزن الواحدة منها خمسة باوندات ، بما فيها البطانة وغطاء التمويه اضافة إلى ستراتهم وبناطيلهم . كان القليل منهم يرتدي لباساً داخلاً تحتياً . أما أحذيتهم فكانت من نوع أحذية الأدغال وتزن ٢,١ باوند . كان ديف جنسن يحمل ثلاث أزواج من الجرابات ، وعلبة من بودرة دكتور شول للأقدام لوقاية قدميه من مرض الأقدام الخندقية الذي كان غالباً ما يصيب الجنود في الخنادق ، وحتى مقتله ، ظل تيدلاڤندر يحمل ستة أو سبعة أونصات من مستحضر للعلاج ، كان بالنسبة له شيئاً ضرورياً ، ميشيل ساندرز كان يحمل معه بعض الواقيات الجنسية بينما كان نورمان باوكر يحمل معه مفكرة . أما رات كيلي فكان يحمل معه مجموعة كتب هزلية . وكان كي وا وهو معمداني مخلص يحمل نسخة مفصلة من العهد الجديد جاءته هدية من والده الذي يُدرِّس

في مدرسة الأحد باوكلاهوماستي . كما كان كايوا يحمل معه واقيات من الأزمنة الرديئة من بينها عدم الثقة في الرجل الأبيض والتي نقلها عن جدته ، وفأس الصيد التي كان جده يحملها . هكذا للضرورة احكام . ولأن الأرض كانت مليئة بالألغام والاشراك الخداعية ، فقد توجب على كل رجل ميدان أن يحمل معه سترة مغطاة بالنايلون ، ومحشوة حتى منتصفها بالفولاذ تزن ٦,٧ باوندات رغم أنها تبدو أثقل في الأيام الحارة . ولأنك يمكن أن تموت بسرعة ، فان كل رجل كان يحمل معه لاصقة طبية كبيرة يضعها غالباً في طرف الخوذة لتسهيل الوصول اليها . كذلك لأن الليالي كانت باردة والرياح الموسمية رطبة ، كان كل رجل يحمل معطف بونشو ويزن هذا المعطف مع بطانته المدروزة حوالي باوندين . ولكنه كان يستحق كل أونصة فيه . ففي نيسان على سبيل المثال عندما قتل تيدلاڤندر استخدم الرجال معطفه للفه ونقله عبر حقول الأرز ثم رفعه إلى الطائرة المروحية التي نقلته .

كانت هذه الأشياء تسمى أرجل أو نخور .

أن تنقل شيئاً كان يعني أن تضعه على ظهرك وتتنقل به . وعندما وضع الملازم جيمي كروس حبه لمارثا على ظهره عبر التلال والمستنقعات ، لم يكن الأمر يتضمن السير أو التقدم ، بل كان يتضمن احمالاً أبعد بكثير من هذا المعنى .

معظم الرجال كانوا يحملون معهم صوراً . وكان الملازم كروس يحمل في محفظته صورتين لمارثا ، الأولى كانت لقطة موقعة بكلمة حب رغم أنه كان يعرف أفضل من ذلك . ظهرت فيها مارثا وهي تقف مستندة إلى حائط من الطوب . كانت عيناها رماديتين محايديتين وشفاهها مفتوحة قليلاً وهي تحدق مباشرة إلى آلة التصوير ، وفي الليل كان الملازم كروس يتساءل من الذي أخذ لها هذه الصورة . كان لا يعلم أن لها أصدقاء من الذكور ، ولأنه كان يحبها كثيراً ، كما أنه كان باستطاعته ان يرى ظل آخذ الصورة ، ظاهراً على جدار الطوب . أما الصورة الثانية فقد كانت مقصوصة من الكتاب السنوي ، لكلية ماونت سبستيان للعام ١٩٦٨ . كانت مأخوذة خلال لعبة كرة طائرة نسائية ، وكانت مارثا منحنية في موازاة الأرضية لتصل إلى الكرة ، وراحتي يديها مركزتين بشكل حاد ولسانها مشدود ، في حين ظهرت تعابير وجهها صريحة وتنافسية ، لم يظهر عليها أي أثر لتعرّق . وكانت ترتدي بنطلون رياضة قصير ،

وقدماها ، كما يظن كانتا قدمي عذراء ، جافتين لا توجد فيهما شعرة واحدة ، كانت حافة ركبتها اليسار مردودة إلى الأعلى ، وتحمل ثقل جسدها كله ، وكانت في ذلك الوقت تزن مئة باوند . تذكر الملازم كروس انه لمس مرة ركبتها اليسار . كان المسرح معتماً حينها وكانا يشاهدان فيلم بوني وكلايد ، وكانت مارثا ترتدي تنورة من الصوف . وخلال المشهد النهائي عندما حاول لمس ركبتها ، التفتت نحوه ورمقته بنظرة جدية حزينة ، جعلته يسحب يده فوراً ولكنه بقي يتذكر دائماً احساسه بتلك التنورة الصوفية والركبة التي تحتها ، وتذكر كذلك صوت الرصاص الذي قتل بوني وكلايد . كم كان الأمر محرجاً وكم كان بطيئاً وجائراً؟ تذكر أنه قبّلها أمام باب النزل الجامعي متمنياً لها ليلة سعيدة . عند تلك اللحظة كان عليه أن يفعل شيئاً شجاعاً . كان عليه أن يحملها عبر الدرج إلى غرفتها ، ويربطها بالسرير ويظل طوال الليل يلمس تلك الركبة اليسرى . كان عليه أن يغامر . وكلما نظر إلى تلك الصور ، فكر بأشياء جديدة ، كان عليه أن يفعلها . ما يحملونه معهم كان مرتبط بالرتبة وبالتخصص الميداني جزئياً . كونه ملازم أول وقائد فصيل عسكري ، جيمي كروس يحمل معه بوصلة وخرائط وكتب شيفرات ومنظار ومسدس عيار ٠,٤٥ يزن ٢,٩ باوند وهو محشو بالكامل ، كما يحمل معه مصباحاً انبوبياً . اضافة إلى مسؤوليته عن أرواح رجاله . وكجندي لاسلكي ميشيل ساندر يحمل معه راديو نوع PRC-25 وكان يهلكه في المسير اذ كان يزن ٢٦ باوند مع بطاريته .

وكعنصر طبي ، كان رات كيلي يحمل حقيبة كتانية مليئة بالمورفين والبلازما وحبوب ضد الملاريا ولاصق جراحي وكتب كوميدية وجميع الأشياء التي على الممرض أن يحملها بما فيها مرهم للجروح الثقيلة ، وكان وزن كل هذا الأشياء يصل إلى حوالي ٢٠ باوند .

أما هنري دوبنز ، فكونه رجل ضخم ومقاتل ، فقد كان يحمل معه بندقيته م - ٦٠ تزن ٢٣ باونداً وهي غير محشوة ، ولكنها كانت محشوة معظم الوقت تقريباً ، اضافة إلى ذلك كان دوبنز يحمل ما بين ١٠ - ١٥ باوند من الذخيرة المتدلية من أحزمة حول صدره وكتفيه .

وكجنود ميدانيين ، كانوا معظمهم يحملون بندقية م - ١٦ القتالية التي تعمل

بالغاز ، وتزن غير محشوة ٧,٥ باوند و ٨,٢ باوند بكامل طلقات مشطها العشرين ، واعتماداً على عدة عوامل طوبوغرافية ونفسيه ، كان حملة البنادق يحملون معهم ما بين ١٢ - ٢٠ مشط موضوعة في أحزمة كتف عريضة مصنوعة من القماش ، وذات ثقوب مخصصة لوضع الأمشاط ، مما يضيف للحمل ٨,٤ باوند أخرى ، على الأقل أو ١٤ باوند على الأكثر كذلك ، وعندما كانت تتوفر عدة تنظيف البنادق ، من فراشي فولاذية ، وعيدان تنظيف المسننات وأنابيب زيت LSA وماسحات ، الجنود يقومون بحملها مضيفين باونداً آخر على حمولتهم ، بعض الجنود كانوا يحملون قاذفة قنابل م - ٧٩ التي تزن غير محشوة ٥,٩ باوند وهي سلاح خفيف نسبياً ، بدون ذخيرته التي كانت ثقيلة الوزن ، كل لفة منها تزن ١٠ أونصات ، وكانوا ينقلو ن معهم ٢٥ لفة بالعادة . ولكن تيدلافندر الذي كان خائفاً ، حمل معه ٣٥ لفة ، وعندما اطلقت عليه النار ، وسقط قتيلاً خارج بلدة شان كي ، سقط فوقه ٢٥ باونداً من ا لذخيرة اضافة إلى بدلة مدفعية وخوذة وجرابة ، مؤن ومياه وورق تواليت ومهدئات وباقي أشياء أخرى ، اضافة إلى خوفه الذي لا يوزن . كان عبارة عن وزن ميت لم ينتفض ولم يتخبط . حتى كايوا الذي رآه يسقط قال : كان الأمر أشبه بمشاهدة صخرة تسقط ، أو كيس رملي أو ما شابهه . فقط صوت «بوم» ثم سقط ، لم يكن سقوطه كما في الأفلام حيث يتدحرج القتيل ويتخبط ثم ينتهي مطروحاً على قفاه - لم يكن كذلك أبداً - لقد سقط التعس المسكين سقطة لعينة «بوم» ولا شيء آخر . كان ذلك في صباح مشرق من أواسط شهر نيسان . وقد أحسّ الملازم كروس بالألم وراح يلوم نفسه . قاموا بتجريد لافندر من معداته وذخيرته وجميع الأشياء الثقيلة الأخرى وقال رات كيلي : من الواضح ان الرجل قد مات ، وقام ميشيل ساندرز باستخدام الراديو ليخابر الاسعافات ، ويطلب ارسال مروحية . ثم قاموا جميعاً بلفه بمعطفه ، وحملوه إلى حقل أرز جاف وأمّنوه هناك وهم يدخنون من المخدر الذي كان يحمله إلى أن حضرت المروحية . وقد حفظها الملازم كروس لنفسه ، أخذ يتصور وجه مارثا النضر الناعم ، ظاناً أنه يحبها أكثر من أي شيء آخر ، أكثر من رجاله ، والآن مات تيد لافندر لأنه (أي كروس) ، أحبها كثيراً ولم يستطع التوقف عن التفكير بها . عندما انقشع غبار المروحية ، وضعوا تيدلافندر على متنها ، وبعد ذلك قاموا باحراق قرية

شان كي ، وظلوا يسيرون حتى الغسق ثم قاموا بحفر خنادقهم . في تلك الليلة ظل كايوا يشرح كيف كان عليك أن تكون هناك لترى سرعة ما حدث؟ لقد سقط المسكين ككتلة اسمنت بوم ، بوم . . . ظل يقول .

اضافة إلى تلك الأسلحة الثلاثة القياسية م - ٦٠ ، م - ١٦ ، م - ٧٩ ، كان الرجال يحملون ما يرونه مناسباً كوسيلة للقتل ، أو وسيلة للبقاء أحياء ، كانوا يحملون علب لنصب الاشراك ، وفي عدة مرات أو في عدة مواقع كانوا ينقلون معهم رشاشات م - ١٤ و CAR- 15 ورشاش Ks السويدي وبنادق للتشحيم ، كما كانوا يستولون على بنادق Ak- 47 وشي كوم ومدافع آر .بي . جي . وبنادق سيمونوف ورشاشات عوزي ، التي تباع في السوق السوداء ومسدسات سميث أندويسون عيار ٣٨ ومدافع لاو ١٦ م واسلحة نارية وكواتم صوت وسنجات ومتفجرات c-4 البلاستيكية وهراوات . وكان لي سترنك ينقل مقلاعاً وهو سلاح الملجأ الأخير كما كان يسميه . اما ميتشيل ساندر ، فكان يحمل برجمية نحاسية على أصابعه ، . فيما حمل كايوا فأس جده المكسوة بالريش . كل ثالث أو رابع من الرجال ، كان ينقل لغماً مضاداً للأفراد من نوع كلايمور يزن ٣,٥ باوند مع أداة اطلاقه . كما كان الجميع يحملون قنابل ذات شظايا تزن الواحدة منها ١٤ أونصة ، واحدة منها على الأقل من نوع م -١٨ التي تطلق دخاناً ملوناً وتزن ٢٤ اونصه . بعضهم كان ينقل قنابل مسيلة للدموع أو قنابل فوسفورية بيضاء . كانوا ينقلون كل ما يستطيعون حمله اضافة إلى رعبهم الصامت من الأشياء المرعبة التي كانوا يحملونها .

في الأسبوع الأول من نيسان ، وقبل مصرع لافندر تلى الملازم جيمي كروس رسالة تحمل تعويذة حظ من مارثا ، هي عبارة عن حجر بسيط يزن أونصة واحدة على الأقل . ناعم الملمس وذو لون حليبي موشح بنقاط برتقالية وليلكية ، وشكله بيضاوي مثل بيضة مصغرة . وفي الرسالة المرفقة ، كتبت مارثا أنها عثرت على الحجر قرب شاطئ جيرسي عند النقطة التي يلمس الماء بها التربة وقت المد . حيث تلتقي الأشياء ثم تفترق . كانت هذه الفكرة ، فكرة الانفصال والالتقاء ، هي التي دفعتها لالتقاط الحجر ، وحمله في جيب صدرها لعدة أيام ، لم تكن تشعر بوزنه طوال الوقت ، ثم قررت أن ترسله بالبريد الجوي ، ليكون بمثابة تذكار لمشاعرها الصادقة

نحوه . وجد الملازم كروس هذا الأمر رومانسياً ولكنه تساءل ما هي مشاعرها الصادقة ، التي تقول عنها وماذا تعني بالضبط بكلمة انفصال ، لكن التقاء . أخذ يتساءل كيف لعبت أمواج المد عصر ذلك اليوم على شاطئ جيرسي حين رأت مارثا هذا الحجر وانحنت لتنقذه من وضعه الجيولوجي؟ تخيلها عارية القدمين ، كانت مارثا تكتب الشعر وتحمل احساسات الشعراء ، لا بد أن قدميها بنيتان وعاريتان ، وان اظافر قدميها غير ملونة وعيناها باردتان وداكنتان ، كمياه المحيط في شهر آذار . ورغم شعوره بالألم الا أنه تساءل من الذي كان معها عصر ذلك ا ليوم ، تخيل ظلين يتحركان على مساحات الرمال حيث تلتقي الأشياء وتفترق . كانت غيرته نوع من الغيرة الشبحية . كان يعلم ذلك ولكنه لم يستطع أن يتمالك نفسه ، عن ذلك فقد كان يحبها كثيراً . وخلال تقدمه في أوائل أيام نيسان اللاهبة ، يحمل الحجر في فمه ويقلبه بلسانه يتذوق رطوبة البحر واملاحه . سرح خياله وصار يجد صعوبة في التركيز على القتال ، في بعض الأحيان كان يصرخ على رجاله أن يتفرقوا عن ا لصف ويبقوا أعينهم مفتوحة ، ثم يعود ليغرق في أحلام اليقظة . يتخيل نفسه وهو يسير عاري القدمين مع مارثا على شاطئ جيرسي ولا يحمل على ظهره شيئاً . كان يشعر نفسه ينهض وحوله الشمس والأمواج والنسائم الطرية وكل الحب والاشراق .

كان ما ينقلونه يختلف باختلاف المهمة

فعندما كانت مهمتهم تأخذهم إلى الجبال كانوا يحملون شبكات تمنع الناموس عنهم ومناجل لقطع القصب وأغطية كتانية وعصائر ضد البق .

أما إذا كانت المهمة عشوائية ، وتشمل امكنة معروفة بكونها سيئة ، فكانوا يحملون كل ما يستطيعونه . وفي بعض الحقول التي تتكاثر فيها الألغام الفردية منها والثقيلة كانوا يلتفون حولها وهم يجرّون كاشفة الغام تزن ٢٨ باونداً مرفق بها سماعاتها ولواقط الحس الكبيرة . كانت هذه المعدات تشكل ضغطاً على أسفل الظهر والكتفين ، كما أن التعامل معها يزيد الوضع ارباكاً . واضافة إلى ذلك فإنها تصبح أحياناً بدون فائدة بسبب وجود قذائف ، وشظايا قديمة على الأرض ولكنهم على أي حال كانوا ينقلونها معهم ، من أجل سلامتهم جزئياً ومن أجل الشعور الوهمي بالسلامة كسبب آخر .

وفي حالة الكمين أو المهمات الليلية الأخرى ، يقومون بحمل أدوات خاصة . كان كابوا يأخذ معه دائماً انجيل العهد القديم وزوجاً من الأحذية ، بدون كعب لأجل عدم اصدار صوت ، أما ديف جنسن فقد كان يحمل معه فيتامينات عالية النسبة في الكاروتين لتحسين نظره في الليل . وكان لي سترنك يحمل مقلاعه الذي يدعوه «آمو» ، ويقول أنه لا يشكل له أية إعاقة . وكان رات كيلي يحمل معه بعض البراندي ومخدر للجروح . أما تيد لافندر وحتى يوم مقتله كان يحمل معه مجهره الخاص بالنجوم والذي يزن ٦,٣ باونداً بما فيه صندوقه المصنوع من الألومنيوم . وكان هنري دوبنز يحمل رباط بنطلون صديقته ، ويلفه حول عنقه كمهدئ له . كانوا جميعهاً يحملون معهم أشباحاً ، وعندما يحل الظلام ، كانوا يتحركون بمفردهم عبر المروج وعبر حقول الأرز ، لينصبوا كمائنهم حيث يهيئون بهدوء الغامهم الخاصة ويستلقون في الليل وهم ينتظرون .

بعض المهمات الأخرى كانت أكثر تعقيداً ، وتتطلب معدات خاصة .

ففي منتصف نيسان ، كانت مهمتهم البحث عن شبكة انفاق محكمة البناء في شان كي التي تقع جنوب شولاي وتدمير الشبكة .

لذلك ، ومن أجل نسف هذه الإنفاق حملوا معهم قطع من البنترايت الشديدة الانفجار تزن الواحدة منها باونداً واحداً . وحمل كل رجل منهم أربع قطع . كانت المجموعة ثمانية وستون باونداً ، موزعة على الجميع كذلك حملوا معهم اسلاكاً وصواعق وبطاريات . كان ديف جنسن يحمل سدادات للأذن في معظم الأحيان . يطلب منهم بموجب أوامر عليا تفتيش الانفاق قبل نسفها مما كان يعتبر أنباءً سيئة . ولكنهم في كل الأحوال كانوا يهزون اكتافهم بلا مبالاة ، وينفذون الأوامر . كان هنري دوبنز يعفي من دخول النفق بسبب ضخامته أما الآخرون فكانوا يجرون القرعة بالأرقام .

قبل مقتل لافندر كانوا سبعة عشر رجلاً في الفصيل ، وكان على الذي يسحب الرقم ١٧ أن يخلع معداته ، وينسل برأسه أولاً مع مصباحه اليدوي ومسدس عيار ٠,٤٥ الخاص بالملازم كروس أما الباقون فينتشرون حفاظاًعلى سلامتهم . كانوا يجلسون أو يركعون ليس في مواجهة الثقب ، بل يستمعون إلى صوت الأرض من

تحتهم وهم يتخيلون الأشباح وشبكات العناكب وأي شيء قد يكون هناك - كانت جدران الانفاق تضغط بشدة . آه كم يبدو المصباح اليدوي ثقيلاً في اليد ، وكيف كان مرأى النفق بأشد ما تحمل الكلمة من معنى يضغط في جميع الاتجاهات ، حتى الوقت كان يضغط وأنت تتلوى بقفاك وأكواعك - أي شعور يبتلعك وأنت تجد نفسك غارقاً في القلق من حدوث أشياء شاذة ! - هل ينطفىء ضوء المصباح؟ ، هل الفئران في الداخل تحمل مرض داء الكلب؟ واذا أردت أن تصرخ فالى أي مدى تصل صرختك؟ ، هل سيسمعك زملاؤك؟ وهل سيمتلكون الشجاعة لسحبك من هنا؟ في بعض الحالات ، رغم قلتها ، كان الانتظار يبدو اصعب من النفق نفسه ، كان التخيل هو الذي يقتلك .

يوم ١٦ نيسان ، وعندما سحب لي سترنك الرقم ١٧ ، ضحك وتمتم بضعة كلمات ، ثم نزل إلى النفق بسرعة . كان ذلك اليوم حاراً وساكناً . هذا ليس جيد قال كايوا . نظر إلى فتحة النفق ثم عبر حقل أرز جاف يمتد حتى قرية شان كي . لم يكن هناك شيء يتحرك ، لا غيوم ولا طيور ولا بشر . وبينما هم ينتظرون ، دخنوا السجائر وشربوا عصير الكول ايد دون أن يتخاطبوا كثيراً بينهم . كانوا يشعرون بالتعاطف مع لي سترنك ، ولكنهم كانوا يشعرون بحظهم في القرعة ، قد تربح احياناً وأحياناً قد تخسر .

قال ميشيل ساندرز : «واحياناً تكتفي بتفقد المطر» . كان خط قتال مرهق ولم يضحك أحد .

التهم هنري دوبنز لوح شوكولاته وتناول تيد لافندر حبة مهدئ ثم ذهب يبول .

بعد خمسة دقائق تحرك الملازم جيمي كروس نحو النفق ، انحنى وتفحص الظلام . ربما وقع في مشكلة أو ربما كفّ عن المقاومة . فجأة وخارجاً عن رغبته راح يفكر بمارثا . الضغوط والكسور والانهيار السريع وكلاهما مدفونان حيّان تحت هذا الثقل .

الحب العميق الطاحن . كان راكعاً يرقب فتحة النفق . حاول أن يركز على لي سترانك وعلى الحرب ، وعلى كل هذه الأخطار ، ولكن الحب كان أكثر مما يستطيع أن يحمله . أحس بالشلل ، واراد أن يغفو داخل رؤيتها ويتنفس دمها ويختنق . ارادها أن

تكون عذراء وليس عذراء بنفس الوقت . أراد أن يعرفها أكثر ويسبر غور أسرارها . لماذا الشعر؟ لماذا هذا الحزن؟ لماذا هذا اللون الرمادي في عيونها؟ لماذا هي منفردة بنفسها هكذا؟ لم تكن وحيدة ولكنها منفردة بنفسها ، تركب دراجتها عبر حرم الكلية أو تجلس لوحدها في الكافتيريا أو حتى عند الرقص ، ترقص لوحدها . كانت تلك الانفرادية تملؤه بالحب . تذكر أنه عندما قال لها ذلك في احدى الأمسيات ، انحنت واشاحت بوجهها . وكيف بعد ذلك عندما قبّلها ، تقبلت منه قبلته بدون أن تردها له؟ كانت عيناها مفتوحتين على وسعيهما ، لم تكن خائفة ، لم تكن عيونها عيون عذراء ، . فقط عيون ثابتة وغير مرتبطة .

حدّق الملازم كروس في النفق ، ولكنه لم يكن هناك ، كان مدفوناً مع مارثا تحت تراب شاطئ جيرسي الأبيض اللون . كانا محشورين معاً والحجر في فمه . كان ذلك لسانها وكان هو يبتسم . وبغموض كان يدرك كم كان هذا اليوم هادئاً وكم كانت حقول الأرز كئيبة حوله؟ ومع ذلك فلم يكن يستطيع أن يجعل نفسه قلقاً بأمور السلامة . كان بعيداً عن ذلك ، مثل طفل في حرب واقع في الحب . كان عمره ما يزال اثنان وعشرون عاماً ولم يكن يستطيع الا أن يفكر هكذا .

«ديدان» ، قال رات كيلي : «خارجة من القبر ، هذه الزومبي اللعينة» ضحك الرجال وأحسوا ببعض الراحة .

مدينة الأشباح . قال ميتشيل ساندرز . أصدر لي سترنك صوتاً مضحكاً يشبه العويل أووووو . كان في غاية السعادة وعندها فقط ، عندما أصدر لي سترانك ذلك الصوت ، اطلقت النار على رأس تيدلافندر وهو عائد من مكان تبويله . كان مرمياً هناك مفتوح الفم ومحطم الأسنان . وكانت هناك بقعة سوداء منتفخة تحت عينه اليسرى أما عظام خده فقد طارت . سحقاً! قال رات كيلي : لقد مات الرجل وظل يردد : لقد مات الرجل كان صوته عميقاً . مات الرجل أعني مات بجد .

كانت الأشياء التي ينقلوها تتحدد ، إلى مدى معين بمعتقداتهم الغيبية . فقد حمل الملازم كروس معه حجر الحظ وحمل ديف جنسن قدم أرنب ، أما نورمان بوكر الذي كان شخصاً لطيفاً . فقد حمل معه اصبعاً ، أهداه اليه ميشيل ساندرز . كان لون الاصبع بنياً غامقاً مطاطي الملمس ويزن أربعة أونصات على الأقل وقد قطع من جثة

صبي فيتنامي عمره خمسة عشرة أو ستة عشر عاماً . كانوا قد عثروا عليه في قعر قناة للري وقد احترق بشدة والذباب يملأ فمه وعينيه . كان الصبي يرتدي بنطلوناً قصيراً اسود اللون وصندلاً . كان لحظة موته يحمل رزمة من الأرز ومسدساً وثلاثة أمشاط ذخيرة .

أتريد أن تسمع رأيي ، قال ميشيل ساندرز ، هناك اخلاقيات مؤكدة هنا . وضع يده على معصم الصبي وظل هادئاً لبعض الوقت وكأنه يفحص عد نبضه ثم ضرب بلطف على معدته واستخدم فأس كابوا لقطع اصبعه .

- سأله هنري دوبنز ، ما هو الشيء الأخلاقي في هذا؟

- أخلاقي"؟

- نعم آخلاقي أنت تعرف؟

لف ساندرز الاصبع بورقة تواليت وسلمه إلى نورمان بوكر . لم يكن يحمل أثراً لدم ، ثم رفس رأس الصبي وهو يبتسم وراقب الذباب وهو يتفرق عنه ، وقال انه يشبه ذلك العرض التلفزيوني القديم - بالادين خذ سلاحك سوف نرحل .

فكر هنري دوبنز في الأمر ثم قال أخيراً - نعم لا أجد أية اخلاقيات في هذا .

- ها هي يا رجل .

- اذهب عني .

كانوا يحملون معهم بعض القرطاسية والأقلام ، ودبابيس أمان ومصابيح للرحلات وللاشارات ولفات أسلاك وشفرات وتبغ للمضغ وعصي للأكل الصيني . وتماثيل صغيرة لبوذا الضاحك وشموع وأقلام شحمة وقصاصات اظافر ونشرات عن الحالات النفسية ، ومدي كبيرة وطواقي للأحراش وغيرها الكثير . مرتين في الأسبوع عندما تصل المروحيات ، التي تعيد تموينهم كانوا يحملون طعاماً ساخناً موضوعاً في علب من المرمايت وأكياس كبيرة من الخيش ، مليئة بصفائح الصودا والجعة المثلجة . كما كانوا يحملون عبوات بلاستيكية ، للماء تتسع كل واحدة لجالونين . كان ميشيل ساندرز يحمل معه مجموعة من عبوات التنظيف المنشأة للمناسبات ، وكان هنري دوبنز يحمل معه عبوة مبيد حشري «بلاك فلاغ» ، وديف جنسن يحمل أكياس رملية فارغ ة يعبؤها ليلا للمزيد من الأمان ، ولي سترنك يحمل مرهما لتلوين الجسد باللون

الأسمر تحت الشمس . كان هناك أشياء يشترك الجميع في حملها . فعند تحويل المهمات ، يحملون راديو زاحف كبير الحجم من نوع PRC-77 ويزن ثلاثين باوندا مع بطاريته . كانوا يتشاركون في ثقل الذاكرة ، ويأخذون عن الآخرين الحمل الذي لا يستطيعون حمله ، وغالباً كانوا يحملون بعضهم البعض ، في حالة وجود جريح أو مريض . كما يحملون معهم عُدد الشطرنج وطابات كرة السلة وقواميس فيتنامية - انجليزية ، واشارة الرتبة والنجوم البرونزية ، وأوراق الشدة التي كتبت عليها قواعد السلوكيات . كانوا يحملون الأمراض معهم كالملاريا والديزنطاريا اضافة إلى القمل والديدان المعوية والطفيليات والطحالب والعفن . كانوا يحملون أرض فيتنام نفسها - الأماكن والتراب والغبار البرتقالي الأحمر الناعم الذي يغطي أحذيتهم ووجوههم التعبة المرهقة . كانوا يحملون السماء والجو بكامله والرطوبة والرياح الموسمية النتنة التي تنقل الفطريات المتحللة . كانوا يحملون اخطارهم معهم ويتحركون كالبغال . في النهار كانوا يقفون تحت خطر نيران القناصة وفي الليل يبيتون تحت قصف مدافع المورتر . ولكنها لم تكن معركة بل كانت مسيرة بلا نهاية من قرية إلى قرية دون هدف ، ودون تحقيق ربح أو خسارة . كانوا يسيرون فقط من أجل السير ، ويمشون بتثاقل وببطء ، وتراخ تحت الحر الشديد . لا يلوون على شيء بدمائهم وعظامهم البسيطة ، يدبون بأرجلهم ويكدون ، صعوداً إلى التلال أو نزولاً وسط حقول الأرز وعبر الأنهار ثم صعوداً ونزولاً مرة أخرى خطوة تلو الأخرى وأمرا تلو الأمر بلا ارادة . كان الأمر أوتوماتيكياً ، كتركيبهم البنيوي ، وكانت الحرب كلها مسألة تحميل وتوقف . كان السير هو كل شيء ، نوع من الجمود ، من الفراغ ، من البلادة في الرغبة ، والضجر والفكر والأمل والحساسية الانسانية . كانت مبادئهم في أقدامهم وحساباتهم بيولوجية بحتة ، لم يكن لديهم أي أحساس بالاستراتيجية أو بالرسالة . كانوا ينقبون في كل قرية دون أن يعرفوا ما الذي يبحثون عنه ، لا يهتمون لما يفعلون ، يرفسون أواني الرز ويفتشون الأطفال ، والعجائز ، يفجرون الانفاق وأحياناً يشعلون الحرائق واحياناً لا يشعلونها ثم يتجمعون ويتحركون نحو البلدة التالية ، ثم البلدات الأخرى حيث تتشابه الأمور دائماً . ويحملون أرواحهم . كانت الضغوط رهيبة ، وفي حر ما بعد الظهر ، كانوا يخلعون خوذاتهم وستراتهم الثقيلة ويسيرون عارين . كان هذا

يشكل خطراً ، ولكنه يخفف الضغط عنهم ، كما كانوا غالباً ما يتخلصون من بعض الأشياء على طريق تقدمهم ، فقط من أجل الراحة ، كانوا يلقون بأطعمتهم ويفجرون قنابلهم والغامهم . لا يهم لأ نه مع حلول الليل ستأتي المروحيات لتعيد تموينهم وتحضر لهم بعد يوم أو يومين البطيخ الطازج . وصناديق الذخيرة والنظارات الشمسية والسترات الصوفية . كانت مواردهم مذهلة . إذ تصلهم الألعاب النارية بمناسبة الرابع من تموز . وحتى بيض عيد الفصح كان يصلهم . انها خزانة الحرب الأمريكية العظيمة ، ثمار العلم ، وأكداس الدخان ومصانع المعلبات ومستودعات الأسلحة في هارتفورد والغابات في مينسوتا ، ومخازن الآلات وحقول القمح والذرة الهائلة . كانوا يحملونها مثل قطارات الشحن ، على ظهورهم وأكتافهم . ورغم كل الغموض الذي يكتنف فيتنام و كل المآسي ، والأحداث المجهولة ، كان هناك شيئاً واحداً مؤكداً هو انهم لم يكونوا في حيرة مما يحملونه معهم .

بعد أن أقلعت المروحية حاملة جثة لافندر ، قاد الملازم جيمي كروس رجاله إلى داخل قرية شان كهي ، وقاموا باحراق كل شيء ، قتلوا الدجاج والكلاب ودمروا القرية بأكملها ، طلبوا غطاء من المدفعية وراحوا يراقبون الحطام ثم ساروا لعدة ساعات تحت حر بعد الظهر . وعند الغسق وبينما كان كايوا يصف كيف سقط لافندر ، وجد الملازم كروس نفسه يرتعش .

حاول أن لا يبكي ثم بدأ يجهز حفرة في الأرض .

احس بالعار وكره نفسه . لقد أحب مارثا أكثر مما أحب رجاله ونتيجة لذلك قتل لافندر . وعليه أن يحمل هذا الأمر مثل خنجر في معدته حتى تنتهي الحرب . كل ما استطاع عمله كان الحفر ، استخدم اداة الحفر مثل فأس ضخم يشعره بالحب والكراهية ، وبعد ذلك عندما حل الظلام ، جلس عند قاع حفرته وبكى واستمر الأمر لفترة . كان يبكي جزئياً على تيدلافندر ولكن معظم بكائه كان على مارثا وعلى نفسه لأنه كان ينتمي إلى عالم آخر ، ليس حقيقياً تماماً ، ولأنها كانت تدرس سنة ثالثة في كلية ماونت سبستيان بينوجيرسي ، ولأنها كانت شاعرة ، وعذراء وغير مرتبطة . ولأنه أدرك أنها لم تكن تحبه ولن تكون .

– مثل الاسمنت همس كايوا في الظلام اقسم بالله «بوم» ثم سقط بدون أن

ينبس ببنت شفه .

-لقد سمعت هذا قال له نورمان بوكر .

- كان يبول هل عرفت كان ما يزال يشد سحابه ، سُحب وهو يشدّ سحابه .

- حسناً ، حسناً ، هذا يكفي .

- نعم ، ولكن كان عليك أن ترى ذلك فهو فقط . . .

- لقد سمعت يا رجل - مثل الاسمنت لماذا لا تصمت؟

أطرق كابوا برأسه حزناً ونظر إلى الحفرة حيث كان يجلس الملازم جيمي كروس يراقب الليل . كان الهواء ثقيلاً ورطباً والضباب حاراً وكثيفاً يغطي حقول الأرز ، وكان هناك ذلك الهواء الذي يسبق المطر .

بعد وهلة تنهد كابوا .

شيئاً واحداً مؤكداً قال أن الملازم متألم جداً . أعني هذا البكاء الحاد والطريقة التي كان يجر نفسه بها . لم يكن يتظاهر أو أي شيء ، كان يتألم بشدة ، ان الرجل يهتم بنا .

- بالطبع قال نورمان بوكر .

- قل ما تشاء ، ولكن الرجل يهتم فعلاً .

- جميعنا لدينا مشاكل .

- ليس لافندر .

- كلا ، أظن لا قال بوكر ، اصنع لي معروفاً مع ذلك ، اخرس

- هذا هندي حذق ، اخرس .

سحب كابوا جزمته وهو يهز كتفيه استهجاناً ، أراد أن يقول المزيد فقط ليلطف منامه ، ولكن بدلاً من ذلك فتح كتابه العهد الجديد ووضعت تحت رأسه على شكل مخدة .

تسبب الضباب في ظهور الأشياء جوفاء وغير مترابطة . حاول أن لا يفكر بتيدلافندر ولكنه كان يفكر بمدى سرعة موته ، بدون أي دراما فقط سقط ومات ، كان من الصعب أن يشعر بشيء سوى الدهشة ، بدا الأمر له غير مسيحي ، تمنى أن يجد حزناً أكبر أو حتى غضباً ، ولكن عاطفته لم تطاوعه ولم يستطع ذلك . شعر فقط

بالفرح لأنه بقي حياً . كان يحب رائحة كتاب العهد الجديد تحت خديه ، الجلد ، والحبر والورق والغراء ، مهما كان نوع المواد الكيماوية فيه . كان يحب سماع اصوات الليل ، حتى تعبه بدا لطيفاً وأعطته عضلاته المتيبسة ووعيه للوخز في جسده شعوراً بأنه يطفو على سطح ماء ، كان سعيداً بأنه لم يمت . كان معجباً بقدرة الملازم جيمي كروس على تحمل الأسى ، أحس به وهو مستلق هناك ، أراد أن يشاركه ألمه ، أراد أن يهتم مثلما يهتم جيمي كروس ومع ذلك فعندما أُغمض عينيه ، كان كل ما استطاع ان يفكر به هو تلك السقطة وكل ما استطاع ان يشعر به هو المتعة بعد أن انتزع حذاءه ، وهذا الضباب الذي يلتف حوله والتراب الرطب ورائحة الأنجيل وراحة الليل .

بعد برهة نهض نورمان بوكر في الظلام .

- إلى الجحيم اذا أردت أن تتحدث ، تحدث ، اخبرني ،

- انس الأمر .

- كلا يا رجل استمر ، شيء واحد أكره هو هندي صامت .

معظم الوقت كانوا محافظين على توازنهم وعلى وقارهم ، ولكن من وقت لآخر كانت تداهمهم لحظات من الرعب عندما كانوا يريدون أن يصرخوا أو يتذمروا ولم يكن باستطاعتهم فعل ذلك . عندما كانوا يتلوون ويئنون ويخفون رؤوسهم قائلين أيها المسيح حبيبنا ، ثم ينقضون على الأرض ويطلقون اسلحتهم بطريقة عمياء ، يلهثون ويخنعون ويتوسلون أن تتوقف هذه الضجة ، بعدها ينطلقون مسعورين ويأخذون باعطاء الوعود الغبية لأنفسهم ولربهم ولامهاتهم وابائهم ، أملاً بأن يتفادوا الموت ، كانت هذه الأمور تحدث لهم وبطرق مختلفة .

بعد ذلك ، وعندما ينتهي اطلاق النار ، يرمشون ويختلسون النظر ويتلمسون أجسادهم ، يشعرون بالعار ثم يخفون هذا الشعور بسرعة .

يجبرون أنفسهم على النهوض ، كأنهم في تصوير بطيء ، صورة وراء صورة . يعود للعالم منطقه القديم - الصمت المطلق ثم الريح ثم ضوء الشمس ثم الأصوات . هذا هو الثقل الذي يحمله بقاؤهم على قيد الحياة .

وبرعب يعيد الرجال تجميع أنفسهم أولاً بطريقة فردية ، ثم جماعات ليعودوا

ويصبحوا عساكر مرة أخرى . يقومون باصلاح التسربات في عيونهم . ويتفقدون الاصابات وينادون لرفع الجثث ، يشعلون سجائرهم ويحاولون الابتسام ثم ينظفون حلوقهم ويبصقوا ويبدأون في تنظيف اسلحتهم .

بعد وهلة يهز أحدهم رأسه ويقول :

- لا أكذب لو قلت انني كدت أبول في ثيابي .

يضحك آخر مما يعني أن الوضع كان سيئاً . نعم ولكن الرجل بالطبع لم يُبوّل في بنطلونه . لم يكن الأمر سيئاً ، إلى هذا الحد وعلى أي حال لا أحد يفعل مثل هذا الشيء ثم يحدّث به .

كانوا ينظرون شزراً في اشعة الشمس الكثيفة القاسية ، ولبضع لحظات ، ربما يخلدون إلى الصمت ، يشعلون لفة افيون ويراقبون تمريرها من رجل لآخر ، يستنشقون بذُل . بضاعة مرعبة قد يقول أحدهم ، ولكن أحدهم يبتسم أو ينفض حاجبيه ويقول لقد كدت أن أركّب لي ثقباً جديداً في قفاي .

كان هناك الكثير من المظاهر . بعضهم كان يتعامل معها باستسلام حزين . والبعض الآخر بكبرياء أو بضبط نفس عسكري صلب ، أو بروح مرحه ، أو بحماس ، كانوا يخافون من الموت ، ولكن خوفهم من أن يظهروا هذا الخوف كان أكبر من ذلك .

كانو ا يعثرون على نكات ليتبادلوها .

كانوا يستخدمون مفردات قاسية في حديثهم تتضمن رقة مخيفة . قد يقولون تشحّم فلان أو انقلع أو ولع أو سحب وهو يشد سحابه . لم تكن المفردات تنطوي على وحشية ، كانت فقط نوع من الحضور المسرحي . كانوا ممثلين وجاءت اليهم الحرب في ثلاثة أبعاد ، عندما يموت احدهم ، لم يكن الأمر موتاً لأنه كان يبدو بطريقة غريبة وكأنه نص مسرحي ، ولأن خطوط قتالهم كانت تبقى في ذاكرتهم معظم الوقت ، وتختلط سخريتهم بمأساتهم ، ولأنهم كانوا يطلقون على الموت ، أسماء أخرى كأنما ليغلّفوا أو ليحطموا حقيقته نفسها . كانوا يرفسون الجثث ويقطعون الأصابع ، ويتكلمون بلغة ويتناقلون قصصاً عن مؤونة المهدئات ، التي كان ينقلها تيدلافندر . كيف أن المسكين لم يكن يشعر بشيئ ، كان هادئاً بشكل غير معقول .

توجد أخلاقيات هنا قال ميتشيل ساندرز .

كانوا في انتظار المروحية التي ستنقل جثة الميت ، وكانوا يدخنون من مخدراته .

ان الأخلاقيات واضحة هنا ، قال ساندرز وغمز بعينه ، ابتعدوا عن المخدرات ، أنا لا أفرح فهي ستدمر يومكم كل مرة .

- جميل . قال هنري دوبنز .

- انها تنسف الدماغ ، تناولها! أتريد أن توبخنا - لم يبق شيء ، فقط دم ودماغ .

أجبروا أنفسهم على الضحك .

ها هو! قد يقولون مرة بعد أخرى ، وكأن الإعادة نفسها كانت نوعاً من التظاهر . توازن بين الجنون وما يقارب الجنون ، معرفة بدون ذهاب ، ها هو ! وهو يعني انه رائع . دع الأمور تسير . لا يمكنك تغيير ما لايمكن تغييره ، ها هو! أقول بكل ايجابية .

انه هو .

كانوا رجالاً أشداء .

حملوا معهم ظل عواطف الرجال ، الذين قد يواجهون الموت ، والرعب والحب والشوق . كانت هذه الأشياء غير محسوسة ، ولكنها كانت تحمل بالنسبة لهم وزناً محسوساً ، وكتلة وجاذبية خاصة . كانوا يحملون ذكريات مخجلة ، اسرار عامة عن الجبن ، الذي يقيدهم وعن غريزة الهرب أو الاختباء أو التجمد . وفي كثير من النواحي ، كان هذا هو أثقلها ، لانه شيء لا يمكن تجاهله . كان الأمر يتطلب توازناً كاملاً وموقفاً كاملاً .

كانوا يحملون سمعتهم وخوف الجندي الأكبر . وهو الخوف من الاحراج . قد يموت الرجال ويقتلون ، لأنهم لا يرغبون أن يحرجوا في هذه النقطة ، كان هذا ما دفعهم إلى الحرب في المكان الأول . لم يكن شيئاً ايجابياً ما دفعهم للحرب ، ولا أحلاماً بالمجد والفخار بل كان فقط تجنب الخجل ، يزحفون في الانفاق ويتقدمون تحت وابل الرصاص ، كل صباح رغم المجهول الذي ينتظرهم . كانوا يحركون اقدامهم ويتقدمون ويتحملون ويستمرون بالسير . لم يستسلموا لأي بديل واضح . والذي كان فقط أغمض عينيك واسقط . هكذا بسهولة للحقيقة ، اعرج أو ترنح واسقط على الأرض ودع عضلاتك ترتخي ولا تتكلم وابق بلا حراك حتى يحملك زملاؤك إلى المروحية

التي ستحلق بك وتنقلك إلى العالم . فقط مسألة وقوع ولكن أحداً لم يرضى أن يقع . لم يكن الأمر شجاعة بالضبط . بل كان خوف من أن يظهروا على شكل جبناء .

على العموم ، كانوا يحملون هذه الأشياء بداخلهم ، ويحافظون على أقنعة رباطة الجأش . كانو ا يسخرون من ادعاء المرض ، ويتحدثون ببرارة عن هؤلاء الرجال ، الذين فضلوا أن يرتاحوا باطلاق النار على أصابع اياديهم أو اقدامهم . قد ينعتوهم بالهررة أو بالحمير . كان حديثهم ساخراً قاسياً ، يرافقه قدر بسيط من الحسد والأسى ، ومع ذلك فقد كانت هذه الصورة تظهر بنفسها خلف أعينهم .

كانوا يتخيلون فوهة البندقية مقابل لحمهم ، والألم السريع اللذيذ ثم الاخلاء إلى اليابان ثم المستشفى ذو الأسرة الدافئة وممرضات الجيشا الناعمات .

كانوا يحلمون بطيور الحرية .

في الليل ، في موعد الحراسة كانوا يحدقون في الظلام ، نقلوا بطائرات الجمبو ، احسوا بزحمة الاقلاع ، انطلقنا! صاحوا ثم السرعة ، الأجنحة ، المحركات والمضيفة المبتسمة ولكن الأمر كان أكثر من طائرة ، كان طائراً حقيقياً ، طائراً فضياً أملساً له ريش ، وبراثن وصرخات عالية . طاروا وبدأت الأوزان تتساقط ، لم يكن هناك شيء ليحملوه ، ضحكوا وتشبثوا وهم يتحسسون لطمة الريح ، والارتفاع والتحليق . فكروا لقد انتهى الأمر ، كانوا عراة وأحراراً . كان كل شيء خفيف مشرق سريع ومنشط . خفيف مثل الضوء ، مثل ومضة هيليوم في الدماغ . رغرغة طائشة في الرئة وكأنهم يطيرون فوق الغيوم وفوق الحرب ، بعيداً عن الوظائف ، بعيداً عن الجاذبية وعن إماتة الجسد وعن الإشراك الدولية - كانوا يصيحون ، أنا آسف يا أولاد القحبة ، ولكني منطلق الآن ، أنا أحمق أطير على سفينة فضاء . كان شعوراً مريحاً ، احساساً بأنك قد تخلصت من عائق ، وأنت تركب أمواج الضوء وتبحر مع عصفور الحرية الفضي الضخم فوق الجبال والمحيطات ، فوق أميركا وفوق المزارع والمدن الضخمة النائمة والمقابر والطرق السريعة ، وأقواس ماكدونالد المذهبة .

كان الأمر يشبه نوعاً من الطيران ، نوعاً من السقوط إلى الأعلى والى الأعلى ، دوران حول أطراف الأرض ، وعبر الفراغ الواسع الصامت حيث لا توجد أحمال

وحيث كل شيء يزن لا شيء . انطلقنا! كانوا يصرخون ، أنا آسف ولكني انطلقت . وفي الليل ، وسط شيء يشبه الحلم ، كانوا يسلمون انفسهم للمرح والخفة كأنهم حملوا الآن أو ولدوا .

في الصباح الذي أعقب وفاة تيدلافندر ، جثم الملازم أول جيمي كروس عند قاع خندقه وأحرق رسائل مارثا ثم الحقها بالصورتين . كان المطر يسقط بانتظام مما صعب الأمر ، ولكنه استخدم مشعلات حرارة ليشعل ناراً صغيرة ظل يحميها بجسده ، وهو يمرر الصور باطراف اصابعه فوق اللهب الأزرق . أدرك أن الأمر كان فقط ايماءة ، فكر وقال : أحمق وعاطفي ولكن الأكثرية أحمق .

لافندر مات - ولا يمكنك أن تحرق اللوم .

كذلك ، فالرسائل موجودة في رأسه وحتى الآن ، بعد أن أحرق الصور ما زال باستطاعة الملازم كروس أن يرى مارثا تلعب الكرة الطائرة ، مرتدية بنطلون الرياضة الأبيض القصير وقميصها الأصفر . كان يستطيع رؤيتها تتحرك تحت المطر . خمدت النار وسحب الملازم كروس معطفه فوق كتفيه ، وتناول افطاره من احدى علب المعلبات .

لا يوجد غموضاً شديداً في الأمر - قرر لنفسه .

فضمن هذه الرسائل المحروقة ، لم تأت مارثا على ذكر الحرب ماعدا قولها : جيمي كن حذراً . لم تكن متورطة معه . كانت توقع الرسائل بكلمة حب ولكنه لم يكن حباً ، وجميع تلك العبارات اللطيفة بين السطور لا تعني شيئاً .

أطل الصباح رطباً ، ضبابياً ، بدا كل شيء وكأنه جزء من شيء آخر ، الضباب ، مارثا والمطر المتزايد .

لقد كانت حرب قبل كل شيء .

نشر الملازم كروس خرائطه وهو نصف مبتسم ، هز رأسه بشدة وكأنه يريد أن يوضح أمراً ثم انحنى أماماً وبدأ يخطط لمسيرة اليوم . خلال عشرة دقائق أو ربما عشرين ، سوف يستنهض الرجال ليجهزوا احمالهم . عدا عن ذلك سوف يكون يوماً آخر مركبا على الأيام الأخرى .

كان محقاً في ذلك ، فقد كان يشعر بثقل جديد في معدته . لن أعود للتخيلات

بعد اليوم . قال لنفسه :

بعد ذلك ، عندما كانت مارثا تخطر على باله ، كان يفكر بها فقط من حيث أنها تنتمي إلى مكان آخر ، لذلك يغلق ابواب احلام اليقظة . نحن لسنا في سانت سباستيان ، نحن في عالم أخر لا يوجد فيه اشعار جميلة أو امتحانات نصف سنة ، عالم يموت فيه الرجال بسبب عدم الحذر والغباء الشديد . كان كابوا على حق «بوم» ، إلى الأسفل . وها أنت ميت تماماً ولست ميتاً جزئياً .

لفترة وجيزة عبر المطر رأى الملازم كروس عينا مارثا الرماديتين تحدقان به .

فهم الأمر .

راح يفكر :

محزنة جداً ، تلك الأشياء التي يحملها الرجال بداخلهم . الأشياء التي فعلوها أو شعروا أنّ عليهم أن يفعلوها .

كاد أن ينحي لهذه الفكرة ولكنه أحجم .

بدلاً من ذلك عاد إلى خرائطه ، اصبح الآن مصمماً على تنفيذ مهامه باصرار وبدون أي اهمال . لن يساعد هذا الأمر لافندر بشيء ، كان يعلم ذلك ، ولكن انطلاقاً من هذه النقطة ، سوف يعزي نفسه بكونه جندياً ، سوف يتخلص من حجر الحظ السعيد . ربما يبلعه أويستخدم مقلاع لي ستراتك ، أو يرميه على الطريق . سوف يعمد إلى ارسال مجموعة لحماية جناح الفصيل ، من أجل منع التفرق أو التجمع الخاطئ ولابقاء مسيرة الجنود ضمن سرعة ومسافة مناسبتين . سوف يصر على تنظيف الأسلحة ويصادر ما تبقى من مخدرات لافندر . وفي ساعة متأخرة من النهار سوف يجمع الرجال ويخاطبهم بصراحة . سوف يتقبل اللوم على ما حدث لتيدلافندر . سوف يكون رجل في هذا . وينظر في عيونهم مبقياً ذقنه على مستواها . وسيصدر أوامر المهمات بهدوء وبنبرة صوت غير شخصية . صف ضابط ، آمر ، لا يترك فسحة للجدال والنقاش . فوراً منذ الآن سوف يخبرهم بأنه لن يسمح بترك معدات على طريق المسيرة ، وعليهم أن يضبطوا تصرفاتهم ، عليهم أن يذهبوا إلى الغائط معاً ، ويبقوا أوساخهم معاً مع المحافظة على النظافة والنظام . لن يحتمل أي تراخي ، وسوف يريهم بعض الشدة ويبقي مسافة بينه وبينهم .

بالطبع سوف يظهر بعض التذمر بين الرجال ، وربما أسوأ لأن أيامهم ستبدو أطول واحمالهم أثقل ، ولكن الملازم كروس ذكّر نفسه بأن مسؤولياته لا تعني ان يكون محبوباً بل أن يقود . سوف يصبح في حل من الحب ، لم يعد عاملاً مهماً الآن . واذا ما تشاجر أحدهم أو اشتكى سوف يشد شفتيه ويعدل كتفيه في وضع آمر صحيح ، ربما ينحي انحناءة مقتضبة وفظة وربما لا . ربما يهز كتفيه استهجاناً ويقول تابعوا السير ثم يجمعهم لتشكيل طابور . ويتحرك باتجاه شان كي .

١٩٨٩

أليس مونرو

نمر مينيستونغ

عن «ذي نيويوركر»

I

كان اسم الكتاب مقدمات ، وقد كتب بأحرف مذهبة على غلافه الأزرق ، وجاء اسم الكاتبة «الميدا جوينت روث» . وهي التي تسميها جريدة ڤيديت المحلية «شاعرتنا» . في أسفل الصفحة ، فيما يبدو أنه مزيج ، من الاحترام والازدراء سواء ، لتسميتها أو لجنسها . أو للوضع المتوقع من كلا الأمرين ، في مقدمة الكتاب صورة ، مع اسم المصور في زاوية واحدة ، وتاريخ أخذ الصورة ١٨٦٥ وتاريخ النشر ١٨٧٣ .

كان للشاعرة وجه طويل ، وأنف طويل أيضاً ، وعينان داكنتان مثلثتان تبدوان كأنهما ستسقطان على خدها . مثل دمعتين عملاقتين ، أما شعرها الأسود فيتدلى على وجهها باسترخاء ، تتوسطه خصلة بيضاء ، رغم أن عمرها لم يتجاوز الخامسة والعشرين . لم تكن جميلة ، ولكنها كانت تبدو متناسقة وذات شباب مديد ، كانت ترتدي ثوباً غامق اللون مزيّناً ، وكثير الثنيات تغلب عليه الحواشي البيضاء ، على شكل حرف V عند الرقبة . إضافة إلى قبعة مخملية داكنة ، تتناسب مع لون الثياب . كانت تلك القبعة «البيريه» هي التي تجعلني ألمس نواياها الفنية ، أو على الأقل ذلك التطرف العنيد ، والخجول في تلك الشابة . كما كانت رقبتها الطويلة ، ووجهها المائل إلى الأمام ، مؤشرات تدل كلها على نحولها وطولها وصعوبة مراسها .

كانت تبدو من الخصر فما أعلى ، كأنها شريف شاب من شرفاء القرون الأولى .

ربما كانت هذه هي الموضة السائدة ،في تلك الأيام في عام ١٨٥٤ ، كتبت في مقدمة كتابها : أحضرنا والدي أنا وأمي وأختي كاترين وأخي وليام إلى براري كندا الغربية . «كما كانت تظهر في ذلك الزمان» . كان والدي يعمل في تجارة أطقم الأفراس . ولكنه كان رجلاً مهذباً ، يحفظ الإنجيل عن ظهر قلب كذلك كتابات شكسبير وادموند بيرك .

وقد حالفه الحظ في تلك البلاد الجديدة ، استطاع أن يؤسس دكاناً لبيع أطقم الأفراس ، والبضائع الجلدية الأخرى كما استطاع بعد عام أن يبني لنا البيت الذي أعيش فيه ، أنا اليوم وحيدة . كان عمري ١٤ سنة ، وكنت أكبر إخوتي عندما وصلنا إلى هذه البلاد ، قادمين من كنغزتون وهي البلدة التي لم أعد إليها أبداً ، رغم أني ما أزال أتذكرها وأتذكر شوارعها الأنيقة .

كان عمر أختي ١١ سنة وأخي ٩ سنوات . في الصيف الثالث لنا في هذه البلاد ، ضربت الحمى جَسَدي أخي وأختي ، وماتا بفارق عدة أيام وقد أثّرت هذه الضربة ، التي ألّمت بعائلتنا على معنويات والدتي . وظلت صحتها تتدهور حتى قضت نحبها بعد ثلاث سنوات . أصبحت بعد ذلك أرعى شؤون البيت لوالدي ، لمدة اثنتي عشرة سنة ، حتى توفي صباح أحد الأيام داخل دكانه .

كنت مولعة بالشعر منذ سنيني الأولى . وقد كنت أُلهي نفسي بنظم الشعر ، وأُريح أحزاني ، التي لم تكن تختلف عن تلك التي يعانيها أيٌ من ساكني هذه الأرض . رغم أني كنت أبذل جهداً شاقاً ، في كتابتها . لم تكن أصابعي مصقولة بعد ، على تلك المنتجات الشعرية الباهرة التي نجدها اليوم .

كانت تلك الصور الشعرية العميقة ، بعيدة عن قدراتي لذلك اكتفيت بكتابة بعض ، الأبيات الجافة والقصائد القصصية ، وبعض الأشعار الغنائية والتأملات . وهذه عناوين بعض قصائدي : الأطفال وهم يلعبون ، معرض الغجر ، زيارة إلى عائلتي ، ملائكة الثلج ، شامبلين ، في فم مينسيتونغ ، رجل الغابة القديمة واللحن الجنائني .

كان هناك بعض القصائد القصيرة ، التي تحكي عن الطيور والأزهار البرية

والعواصف الثلجية . إضافة إلى بعض الشعر الهزلي ، حول الأفكار التي تخطر على بال الناس ، خلال استماعهم إلى خطبة كنائسية .

ــ «الأطفال وهم يلعبون» ، كانت الكاتبة وهي طفلة ، تلعب مع أختها وأخيها ، إحدى الألعاب ، التي يحاول فيها الأطفال القبض على بعضهم البعض ، كانت تلك الطفلة تلعب وقت الغروب ، عند احمرار الشفق وتدرك بعد ذلك أنها قد كبرت في السن . وأصبحت وحيدة ، وتسمع أصوات أخيها وأختها وهما يناديانها ، تعالي تعالي ، دعي ميدا تأتي (ربما كانت الميدا تدعى ميدا ، في العائلة وقد تم اختصار الاسم لتلائم القصيدة) .

ــ «معرض الغجر» كان للغجر مخيم قرب البلدة ، يتبادلون فيه بيع الثياب والحلي ، كانت الكاتبة طفلة تخاف أن يسرقها الغجر ، من عائلتها إلا أن عائلتها قد سُرِقَت منها ، لم تتمكن من معرفة مكان الغجر والتفاوض معهم .

ــ «زيارة لعائلتي» هي زيارة للمقبرة وحوار في اتجاه واحد .

«ملائكة الثلج» قامت الكاتبة بتعليم أخيها وأختها ، صناعة الملائكة من خلال الاستلقاء في الثلج ، وتمرين أيديهم على صنع أشكال تشبه الأجنحة .

كان أخوها يقفز بدون انتباه ، حتى أنه كسر جناح أحد الملائكة .

هل سيعاد تركيب جناح له في الجنة ، أو إنه سيطير بشكل مؤقت في دوائر .

«شامبلين على مصب المينيسيتونغ» : تمجد هذه القصيدة ، الاعتقاد الشعبي الزائف ،بأن مكتشف النهر ، أبحر عبر الشاطئ الشرقي لبحيرة هيرون ، ونزل عند المصب الرئيسي للنهر .

«رحيل الغابة القديمة» : لائحة بجميع أنواع الأشجار بأسمائها ومظهرها ، واستعمالاتها والتي تم قطعها من الغابة الأصلية مع وصف عام للدببة والذئاب والنسور والغزلان ، وطيور الماء التي تعيش فيها .

«اللحن الجنائني» : وقد خطط لهذه القصيدة ، لتكون رفيقة لقصيدة الغابة ، وهي عبارة عن قائمة بأسماء النباتات . التي جلبت من البلدان الأروربية ، مع نبذة تاريخية وخلفية عنها النباتات ، الكندية الحديثة التي نتجت منها . وقد كتبت القصائد بشكل ثنائيات ورباعيات . وكان هناك محاولتان على شكل سوينتات ، ولكن مع بساطة في

نظم القوافي . أما القافية المستخدمة فتسمى قافية ذكرية رغم وجود بعض القوافي الأنثوية ، بينها كما لم يكن ، هناك قصيدة واحدة غير مقفاة .

II

ورود بيضاء باردة كالثلج
تزهر حيث تنام الملائكة
هل تستريح في الأسفل
أم تطير في جنات اللّه .

عام ١٨٧٩ كانت الميدا روث ، ما تزال تعيش في ذلك البيت ، المقام على ملتقى زاويتي شارع بيرل وشارع دوفرين . وهو البيت نفسه ، الذي بناه والدها لعائلته . ما يزال البيت موجوداً حتى تاريخ اليوم ، ويعيش فيه صاحب حانوت لبيع الخمرة ، وقد غطى الألومنيوم جانبيه اليوم واستبدلت شرفته الواسعة ، برواق داخلي كما اختفت بواباته وسياجه وسقيفة الحطب ، والحظيرة والكنيف . وبقيت صورة للبيت أخذت عام ١٨٨٨ تظهر كل هذه الملاحظات .

كان البيت والسياج يبدوان في حالة رثة ، وبحاجة ماسة للطلاء ، ولكن ربما كان ذلك بسبب نوعية تلك الصور القديمة ، التي تبدو بُنّية اللون وكالحة . وكانت برادي النوافذ ، تبدو معقودة باحكام كأنها عيون بيضاء . لم يكن هناك أي شجرة مظللة ، في الصورة وفي الحقيقة فقد هزلت أشجار الدردار الطويلة ، التي كانت تظلل البلدة حتى أعوام الخمسينات . كذلك أشجار القيقب التي بقيت تظلل البلدة ، حتى اليوم وتم إحاطتها ، بأسيجة غليظة لحمايتها من الأبقار .

وقد أصبح المكان مكشوفاً ، بدون حماية هذه الأشجار ، كما أصبحت الساحات الخلفية للمنازل ومناشر الغسيل ، وأماكن تجميع الحطب والسقائف والحظائر والمراحيض ، الخارجية مكشوفة ومعرضة لأنظار المارة .

كما بقيت بعض المنازل محافظة ، على بقايا ساحات عشبية على شكل بقع ، نباتية وكثبان صغيرة وجروف ترابية . أو ربما بعض أزهار البيتونيا الموضوعة في قوارير مستديرة ، والتي تنمو بها أصول الأشجار المتبقية بعد قطعها .

وحده الشارع الرئيسي ، كان مفروشاً بالحصى أما باقي الشوارع فكانت ترابية ، قذرة تتحول إلى طينية ، أو مغبّرة حسب الفصل من السنة . وكانت الساحات مسيجة لحمايتها ، من الحيوانات أما الأبقار فكانت ترعى مقيدة في الأماكن المهجورة ، أو تترك لترعى في الساحات الخلفية ، وكان بعضها يفلت خارج تلك الساحات . وكذلك الخنازير . وظلت الكلاب تحوم حرة طليقة ، تغفو بكبرياء على الطرق والممرات الجانبية . أصبح للبلدة جذور ، ولم يعد بالإمكان اقتلاعها رغم أنها ظلت في بعض أوجهها محافظة ، على طابع المخيَّم وخاصة مع تواصل الازدحام فيها طول الوقت . فقد كانت البلدة تضج بالبشر والحيوانات في كل اتجاه ، حتى أن السيدات كنَّ يجبرن على ثني أثوابهن ، لتفادي روث الأبقار والخنازير والكلاب ، المنتشر في كل مكان كانت أصوات البناء والسائقين والقطارات التي تصل عدة مرات ، في اليوم تملأ المكان ضجيجاً وصخباً .

قرأت عن هذه الحياة في مجلة ڤيديت .

كانت أعمار السكان أصغر مما هي عليه الآن ، أو ربما مما ستكون في المستقبل . لم تكن الأماكن الجديدة ، تجذب أشخاص فوق الخمسين . كانت الطيور قد بدأت تظهر ، في مقبرة البلدة . والتي كانت في معظمها لأشخاص ، ماتوا وهم في عمر الشباب . ولكن العنصر الشبابي هو الغالب على البلدة ، فالأطفال والأولاد كانوا يجوبون الشوارع ، على شكل عصابات ، وكان التعليم إلزامياً لأربعة أشهر من السنة . إضافة إلى العديد من الأعمال ، التي كان على الأطفال من أعمار الثمانية أو التسع سنوات أن يقوموا بها ، مثل الإمساك بالخيول أو سحب خيوط الكتان ، أو تنظيف معابر الحوانيت . ولكن هؤلاء كانوا يقضون فترة كبيرة من وقتهم ، في البحث عن مغامرات ، فقد يقومون بمطاردة امرأة عجوز ، سكيرة تُكنّى بالملكة آجي . كانوا يضعونها في عربة ذات عجلات ، تُجر باليد ويدورون بها حول المدينة ، ثم يلقونها في حفرة حتى تصحو . أيضاً كانوا يقضون وقتاً كثيراً حول محطة سكة الحديد . ويقفزون على العربات المتنقلة ، أو يتحركون بينها متَحدِّين ، بعضهم البعض في معامرة أو مخاطرة كانت تؤدي في بعض الأحيان ، إلى مقتل بعضهم أو إصاباتهم بعاهات مستديمة .

كانوا يراقبون الغرباء ، الذين يفدون إلى البلدة ويلاحقونهم ويعرضون عليهم ، حمل حقائبهم وإرشادهم إلى فندق قريب أو مناسب . مقابل خمسة سنتات . أما الغرباء ، الذين لم يكن تظهر عليهم مظاهر الترف ، فكانوا يتعرضون للسخرية والمهانة ، والتشكيك . يتجمعون حولهم كالذباب ، يتساءلون هل جاءوا إلى البلدة ، بقصد بدء عمل جديد ، أو لإقناع الناس باستثمار أموالهم في خطة معينة ، أو لبيع العلامات والألعاب السحرية ، أو لإلقاء المواعظ على زوايا الطرق . كل هذه الأحداث كانت تقع في أي يوم من أيام الاسبوع .

«كونوا على حذر» كانت الڤيديت تقول للناس . فهذه الأيام هي أيام الفرص ، والأخطار والطرق تعج بالمتسولين والمحتالين والنشالين ، والمشبوهين واللصوص وكذلك القطارات . وقد انتشرت السرقات وضاعت أموال كثيرة ، مستثمرة بين أيدي المحتالين . وكم سرقت ثياب من مناشر الغسيل ، أو حطب من أماكن تجميع الحطب ، أو بيض من بيوت الدجاج .

وكانت هذه الأحداث ، ترتفع كلما ارتفعت حرارة الطقس .

فقد كان الطقس الحار ، يجلب الحوادث أيضاً ، وترتفع نسبة الخيول الجامحة . وتزداد كميات الحشرات ، لتنتشر الحوادث العارضة ، مثل تلك التي تعلق فيها الأيدي في بالات عصر الغسيل ، أو أن يبتر الرجال أيديهم في المناجر أو يقتل أطفال ، بعد وقوع ألواح خشبية عليهم ، في مخازن الأخشاب . لم يكن أحد بيننا مرتاحاً ، كان يعلو بكاء الأطفال ، الرضع في الحر وتزداد صعوبة التنفس لدى البدينين ، ويتم دفن الجثث بسرعة .

وفي أحد الأيام ، مر رجل عبر الشوارع ، وهو يقرع جرساً وينادي : «استغفروا واندموا» . لم يكن هذا الرجل غريباً ، عن البلدة بل كان الشاب الذي يعمل في دكان بيع اللحوم . صاح الناس خذوه إلى البيت ، وغطوه بثياب مبللة باردة ، أو اسقوه بعض أدوية الأعصاب ، وأبقوه في السرير وصلوا لأجله ، وإذا لم يستعد وعيه فأرسلوه إلى مصح عقلي .

كان منزل الميداروث ، يواجه شارع دوفرين وهوشارع يحظى باحترام كبير . فقد كان يسكنه بعض كبار التجار ، إضافة إلى صاحب المطحنة ومدير آبار الملح ، أما

شارع بيرل الذي كان يواجه نوافذ المنزل الخلفية ، فله قصة أخرى . إذ يعيش بجوار المنزل أفراد من الطبقة العاملة ، يسكنون في بيوت مصفوفة صغيرة ولكنها أنيقة .

إلا أن البيوت في آخر الصف تصبح رثة ، إلى أن يصبح المنظر موحشاً عند صف البيوت الأخيرة . ولا يعيش هناك إلاّ أفقر الناس ، وأدناهم مستوى ، حيث يوجد طرف مصرف قديم سُمي المكان على أثره بمستنقع بيرل . وتنمو هناك الأعشاب الضارة ،والشجيرات تتكدس القاذورات ومخلفات البيوت ، ويتجمع هناك بعض الأطفال الفقراء ، للبحث عن فضلات الطعام ، أو أية أدوات تطرح خارج البيوت .

وحاولت البلدة إجبار هؤلاء الناس على بناء مراحيض ، ولكن سرعان ما تغمرها الأعشاب . ويصبح المكان جديراً بالمغامرات ، لعصابات الأولاد ، وقد أشيع أنه حتى رجل البوليس في البلدة ، لا يجرؤ على دخول شارع بيرل ، السفلي ليل السبت . لم تمر الميداروث عبر الشارع ، أبداً حيث تعيش فتاة شابة تدعى آني . كانت تأتي لتُساعدها في تنظيف المنزل . لكن هذه الفتاة الشابة ، التي تعيش هناك لم تحاول أن تصل أبداً إلى الصف الأخير . من الشارع أو المستنقع ، ولا يجدر بأي امرأة محترمة أن تفعل ذلك .

ولكن هذا المستنقع نفسه ، والواقع إلى الشرق من منزل الميداروث ، كان يبدو جميلاً عند الفجر . كانت غرفة نوم الميدا تقع في الجهة الخلفية ، من المنزل وتتشارك بها مع أختها كاترين .

لم تكن تفكر بالانتقال إلى غرفة النوم ، الكبيرة الواقعة عند واجهة المنزل ، حيث كانت زمها تنام طوال النهار . فمن نافذتها كانت ترى شروق الشمس ، وأشعتها التي تملأ المستنقع بالنور ، حيث تتماوج أشجار البلوط والقيقب ، واللوز البري والطرفاء فوق المستنقع ، وتحول المكان إلى مشهد شفاف خلاب للنظر .

III

«هنا حيث يلتقي النهر بالبحر الداخلي .
حيث تمتد أطرافه الزرقاء على حافة الغابة الساكنة .
أتخيل الطيور والوحوش والرجال الذين غابوا

والذين بقيت أثارهم باهتة على تلك الرمال»

كان جارفيس بولتر أحد الغرباء . الذين وصلوا إلى محطة القطارات منذ سنوات قليلة ، ويسكن الآن في المنزل المجاور ، لبيت الميداروث ويفصل منزله عن منزلها قطعة أرض فارغة ، على شارع دوفرين كان قد اشتراها حديثاً .

كان بيته أكثر بساطة ، من بيت روث . ولا يوجد حوله أشجار فاكهة أو ورود . وقد كان من المتفق عليه ، أن سبب هذا كونه أرملاً . يعيش وحيداً في المنزل ، فقد يُبقي الرجل منزله مزيناً ، ولكنه لا يفكر أبداً في تزيينه وزخرفته .

فالحياة الزوجية تجبره على العيش ، بزخرفة أكثر ومشاعر أكبر . وتحميه من تطرف طبيعته ، مثل شدة البخل أو شدة التبذير ، أو من الفساد أو الإسراف في النوم ، والشرب والتدخين وتعطيه فرصة للتفكير الحر .

ولعل من صالح الاقتصاد ،كما هو معتقد ، أن يقدم شخص محترم له مركزة في البلدة . على شرب الماء من الحنفيات العامة ، أو التزود بالوقود ، من بقايا الفحم الملقاة على خط سكة الحديد .

ولكن هل يفكر جارفيس بتزويد مطافئ البلدة أو سكة الحديد بالملح مجاناً ؟

هذه هي مجلة القيديت تمتلئ بالنكات الخجولة ، والاتهامات الصادقة والغمز واللمز ، والتلميحات المبطنة التي لا يمكن لأي جريدة اليوم أن تتخلص منها . وعلى الرغم أن مقالات أخرى ، كانت تذكره باحترام كقاضٍ مدني وموظف ورجل كنيسة . إلا أنه كان يعاني من التطرف ، في طباعه . وهذا ناتج كما يبدو عن وضعه كأرمل يعيش وحيداً .

حتى مسألة نقله الماء من الحنفيات العامة ، والفحم من خطوط سكة الحديد ، كانت مبررة فهو مواطن محترم ميسور ، طويل . وله كرش خفيف يرتدي دائماً البذلات الداكنة ، وأحذية قاتمة أما ذقنه فكانت سوداء الشعر ، تتخللها بعض الخطوط الرمادية مع نتوء كبير وباهت اللون ، بين شعر أحد حاجبيه ، وكان الناس يتحدثون عن زوجته الشابة الجميلة ، التي توفيت خلال عملية الولادة . أو في حادث مروع ربما كان حريقاً منزلياً أو كارثة قطارات .

لم يكن هناك أي أساس للحقيقة ، ولكنه كان موضوع اهتمام الناس ، كل ما قاله

لهم هو أن زوجته قد توفيت .

جاء إلى هذا الجزء من البلاد ، بحثاً عن النفط فقد كان أول بئر نفط يُحفر في العالم ، في مقاطعة لامبتون إلى الجنوب من هنا ، في الخمسينات من القرن الثامن عشر . وبينما كان «جازفز بولتر» ينقب عن النفط ، اكتشف الملح وعمل ما استطاع ليحصل على نتيجة طيبة منه .

عندما يعود إلى منزله ، من الكنيسة مع الميداروث يأخذ في الحديث عن آبار الملح ، التي يملكها والتي يبلغ عمقها ١٢٠٠ قدم . ويتم حقنها بالماء الساخن ، الذي يقوم بدوره ، بإذابة الملح ثم يُضَخّ المحلول الملحي إلى السطح ، ثم يوضع في أوعية ضخمة للتبخير ، على نار هادئة حتى يتخلص من الماء ، ويبقى الملح صافياً .

وهذا الملح يعتبر سلعةٍ . لا يخف الطلب عليها أبداً . ملح الأرض كما تقول الميدا .

نعم يجيبها وهو عابس ، ربما يظن أنها تهزأ ، به ولكنها لم تنو ذلك أبداً . يتكلم عن منافسين في بلدات أخرى . يحاولون اقتفاء أثره ، وأن يفرضوا أنفسهم في السوق . ولكن لحسن حظه ، فإن آبارهم ليست بالعمق الكافي ، وعمليات التبخير التي يقومون بها ليست كفؤة أيضاً . هناك الكثير من الملح في هذه البلاد ، ولكن استخراجه ليس يا لسهولة التي يظنها البعض .

تسأله الميدا ألا يعني هذا أن هذا المكان كان في السابق بحراً عظيماً ؟ هذا احتامل كبير ، يقول جارفز بولتر ثم ينطلق ليحدثها عن مشاريعه الأخرى ، مثل بناء معمل طوب . وكلاّسة حجر ويشرح كيف يعمل كل منهما؟ وأين يوجد الطين المناسب لذلك؟ ويملك جارنز مزرعتين تزودانه بالحطب ، لاستخدامه وقوداً ، لعملياته .

من بين الأشخاص الذين يعودون إلى بيوتهم ، على طريق الكنيسة أيام الآحاد المشمسة ، لاحظنا اثنين رجلاً يعمل في الملح وسيدة تعمل في الأدب ، لم يكونا في أول عمر الشباب ولكن العمر لم يزل بهما بعد .

هل يمكن أن نسجل بعض الظنون هنا ؟

مثل هذه الأخبار عادة ما تظهر في الڤيديت .

هل يمكننا الظن ، بأن هناك مثال لغزل ما يدور بين الاثنين ؟

كانت الميدا تملك بعض المال ، الذي ورثته عن أبيها ، وتملك بيتاً . وكانت ما تزال في عمر تستطيع فيه إنجاب الأطفال .

وكانت تبدو ربة بيت خبيرة ، وتبدي ميلاً لصنع أنواع الكعك المثلج والمزين ، وهو أمر لا تراه إلا لدى ربات المنازل ، الخبيرات القديمات في المهنة . كان وجهها لائقاً ، وتبدو في وضع أفضل من معظم السيدات المتزوجات ، في عمرها فلم تكن مرهقة بالعمل وبتربية الأطفال .

ولكن لماذا لم يمر عليها قطار الزواج باكراً؟ وفي عمر كان يتطلب وجود نساء منتجات ، وشريكات في الحياة . ربما كان السبب أنها كانت دائماً تبدو عابسة ، الوجه ، فقد أثر عليها موت أخيها وأختها سابقاً ثم أمها التي فقدت عقلها سنة كاملة ، قبل أن تموت وراحت تهذي كل الوقت .

كل هذا جعلها دقيقة حزينة . كما أن انخراطها في كتابة الشعر والقراءة ، وقف حاجزاً أمامها إذا أظهرها بمظهر السيدة في مقتبل العمر . بدلاً من أن يظهر وضعها الحقيقي ، كفتاة شابة تملأ وقت فراغها بتلك الأشياء ، على كل حال ، فقد مرت خمس سنوات منذ نشر كتابها . وربما تكون قد تجاوزت هذا الأمر . أو لأن والدها الأديب الفخور قد بدأ يشجعها .

كان الجميع يسلم جدلاً أن الميدا ، تفكر بالزواج من جارفز بولتر . وأنها ستوافق لو جاء يطلبها ، وأنها تفكر به جدياً . لم تكن هي تريد أن تسرح بآمالها ، بعيداً أو أن تجعل نفسها عرضة للسخرية ، كانت تنتظر إشارة منه . ربما كان حضوره إلى قداس الأحد المسائي ، يشكل فرصة مناسبة لها ، في بعض أشهر السنة للتنزه معاً . بعد حلول الظلام ، وهو يحمل مصباحاً ، حيث الشوارع لم تكن مضاءة بعد في البلدة .

كان يؤرجح مصباحه ، أمام أقدام السيدة ، ويظهران معاً بشكلهما الأنيق ، ربما يمسك بيديها عند اجتياز معبر ، في الطريق . ولكنه لم يكن يحضر إلى قداس المساء ، معها . ولم يكن يدعوها للسير معه ، إلى الكنيسة صباح الأحد ، فقد كان هذا سيبدو إعلاناً صريحاً . كان فقط يسير معها ليوصلها إلى منزلها القريب . من منزله ثم يرفع قبعته ، تحية لها ويتركها وشأنها ، أما هي فلم تكن تدعوه للدخول . فأي فتاة تعيش لوحدها ، لم تكن لتفعل هذا . إذ أن وجود امرأة ورجل لوحدهما ، وراء أربعة جدران

مغلقة ، يعني احتمال وقوع أي شيئ ، انفجار عاطفة مفاجئة ، أو ما أشبه أو انطلاق للغرائز على مصراعيها . ما هي الاحتمالات الموجودة أمام الرجل والمرأة؟ لتفادي هذه المخاطر . أو حتى لو آمنوا بهذه المخاطر ، كم مرة يستطعيون التفكير بهذه الاحتمالات؟

عندما كانا يتمشيان معا . كانت تشتم رائحة صابون حلاقته ، رائحة زيت الشعر ، وتبغ الغليون ، ورائحة الصوف والكتان والجلد ، في ملابسه الرجالية التي تشبه الثياب ، التي كانت تغسلها وتكويها لأبيها الراجل . إنها تفتقد تلك الوظيفة ، وتفتقد تقدير والدها لها كما تفتقد سلطته الغامضة الحنونة .

إن رائحة جارفز ، وحركاته تثير القشعريرة في جسدها .

هل هذه هي علامات الحب ؟ كانت تتخيله دائماً قادماً إلى سريرها ، بسرواله الداخلي الطويل وقبعته .

ورغم أنها تعلم طريقته المثيرة للضحك ، إلا أنها لم تكن مضحكة أبداً . في أحلامها ، فقد كانت تجده جسوراً وقوراً يدخل إلى غرفة نومها ويستلقي على السرير . بجانبها ويستعد لأخذها بين ذراعيه . طبعاً كان يخلع قبعته ، عند هذه النقطة كان يغمرها شعور بالخضوع والترحيب . وكأنها في قبضته خفية ، وكأنه هو الزوج المناسب لها . كانت تلاحظ شيئاً واحداً في النساء المتزوجات هو كيف أن العديد منهن يحاولن دائماً إعادة خلق أزواجهن فيأخذن بتحديد الخيار والآراء لهم بطرق دكتاتورية ، فمثلاً تقول إحداهن أن زوجي شخص استثنائي ، فهو لا يمكن أن يلمس اللفت ، ولا يأكل اللحمة المقليّة (أو يأكل فقط اللحمة المقلية) . ويحب أن أرتدي اللون الأزرق (البني) دائماً . ولا يستطيع تحمل موسيقى ، الأورغ ويكره أن يرى المرأة ، تسير وهي سافرة الرأس . وقد يقتلني لو قمت بالتدخين . بهذه الطريقة يتم صنع الرجال المسحورين ، وتحويلهم إلى أزواج وأرباب عائلات . لم تكن الميدا روث تتخيل نفسها كذلك . فهي تريد رجلاً لا يحتاج إلى إعادة صنعه ، رجلاً ثانياً غامضاً شديد ، العزم بالنسبة لها ، لم تكن ترغب في الرفقة فقط . فالرجال بالنسبة لها ــ عدا أبيها طبعاً ــ يبدون محرومين ، بطريقة ما وغير ميالين . بلا شك فإن هذا الأمر ضروري ، كي يقوموا بأداء الدور المطلوب منهم . فهي مثلاً حتى ولو علمت بوجود ملح في الأرض . فلا يحتمل أن تقوم بالتفكير ، في اكتشافه وبيعه . هي ربما تفكر

بالبحر القديم ، الذي كان موجوداً ، مكان هذا الملح . ومثل هذه الأمور ،لا يمكن لجارفز أن يفكر بها . فليس لديه الوقت لذلك .

بدلاً من دعوتها للسير معه ، إلى الكنيسة ربما يأخذ جارفز بولتر منحى أكثر مغامرة في إعلانه فقد يستأجر حصاناً ، ويأخذها لجولة في الريف . إذا فعل ذلك ، فستكون مسرورة ، ولكن نادمة في نفس الوقت . مسرورة لأنها استحوذت على اهتمامه ، أمام الناس . ونادمة لأنه سوف ينزع منها فرصة ، الإحساس بالمناظر الريفية الجميلة ، من خلال الحديث عن مشروعاته وأشغاله .

فالريف الجميل ، الذي وصفته في أشعارها ، يتطلب كداً واجتهاداً لرؤيته على حقيقته . وهناك أشياء يجب تجاهلها ، مثل أكوام الزبل وأعقاب الأشجار المحروقة المنتشرة .في سبخات وأكداس الأعشاب ، التي تنتظر يوماً مناسباً لحرقها في الحقول ، وبعض الأخاديد المتعرجة . التي تم تحويلها إلى خنادق ، طويلة ذات حواف طينية .

كما تم تسييج بعض المراعي ، بأعقاب الأشجار الضخمة ، أو بأخشاب سكة الحديد المربوطة ببعضها البعض . وتم اقتلاع وجرف الأشجار الكبيرة ، لبيعها خشباً . وبقيت الشتلات الجديدة صغيرة . والطرق والمنزل الزراعية بلا أشجار عدا تلك ، المزروعة حديثاً ، أو بعض الأشجار العشبية الصغيرة . الحظائر الخشبية القديمة ، الضخمة ، التي غمرت الريف منذ مئات السنين . بدأت عمليات إعادة بنائها ، الآن فيما ظلت الحظائر الصغيرة الوضيعة ، والبيوت الريفية منتشرة في مجمعات رثة ، على جانب الطرق كل أربعة أو خمسة أميال . قد يبني فيها كنيسة ومدرسة ، ومخزناً ومحلا للحدادة . كانت الغابات حول الريف ، تعج بالناس ، وقد بنيت مزرعة على كل مائة فدان ، وكل مزرعة فيها بيت ريفي . وعائلات مؤلفة من عشرة أو اثني عشر طفلاً . (فهذه البلاد ترسل أفواجاً ، من المستوطنين إلى أونتاريو الشمالية والغرب) . حتى الأزهار البرية ، التي شرعت في جمعها ، من الحقول تحتاج إلى جهود كبيرة عبر قطعان الأبقا التي ترعى في تلك الحقول .

IV

رحل الغجر .
وأصبح مخيمهم خالياً .
كيف يمكنني الآن أن أذهب للشراء .
في معرض الغجر .»

تعاني الميدا من قلة النوم ، وقد نصحها الطبيب بتناول أدوية عصبية . وبروميدات ولما بدأت بتناولها هاجمتها الكوابيس ، والأحلام المزعجة لذا فقد أبقت الزجاجة للطوارئ فقط . وأخبرت الطبيب أنها تعاني من جفاف ، في عينيها كأن فيها زجاجاً حامياً ، إضافة إلى أوجاع في مفاصلها . أجاب الطبيب لا تقرئي كثيراً ، واشغلي نفسك بالأعمال المنزلية ، ومارسي التمارين الرياضية . كان الطبيب يؤمن أن جميع متاعبها ، ستزول إذا تزوجت . كان يؤمن بهذا ، على الرغم من أن أدوية العصبية توصف بالعادة للنساء المتزوجات . لذلك كانت الميدا تقوم بتنظيف البيت ، والكنيسة وتساعد أصدقاءها ، في لصق ورق الجدران . أو في استعدادهم للزواج ، وتصنع إحدى كعكاتها المشهورة ، لرحلة المدرسة يوم الأحد . حتى أنها قررت في إحدى أيام السبت من شهر آب ، أن تصنع جللو العنب فبعض المرطبانات الصغيرة ، من جللو العنب تشكل أمراً رائعاً ، في عيد الميلاد . أو أن تقدم جللو العنب للمرضى . ولكنها بدأت متأخرة ذلك اليوم ، وحل الليل ولم يكن الجللو قد جهز بعد ، كانت القشرة الساخنة ، قد وضعت للتو في القماشة لتصفية العصير ، شربت الميدا فنجاناً من الشاي ، وأكلت بعض الكعك بالزبدة ، وكان هذا كافياً لتسميته عشاء لها . ثم غسلت شعرها ، وأخذت حماماً قصيراً لتظهر نظيفة يوم الأحد ، واستلقت على فراشها دون أن تشعل الضوء ، وتركت النافذة مفتوحة ، واكتفت بغطاء خفيف حتى خصرها . كانت تشعر بالتعب وبنسمة خفيفة تداعب وجهها .

عندما استيقظت ، شعرت بحرارة الليل العالية ، وبالعرق يغطي جسدها . أحست بأنها تسمع أصوات ، سكاكين وفؤوس ومناشير ، تقطع وتضرب داخل رأسها بغضب ، لم يكن هذا حقيقياً . وعندما اكتمل صحوها ، أدركت أنها أصوات كانت قد شعرت بها في السابق . . . مشاجرة في يوم السبت بشارع بيرل . كانت الأصوات ، تتركز

بالعادة حول المشاجرة وأناس سكارى يحتجون .

وينادون بحماس للشجار ، أحدهم كان يصيح قاتل .

كانت جريمة قتل . ولكنها لم تكن خلال شجار فقد طعن ، رجل عجوز في فراشه ، ربما لسرقة بعض الدولارات المخبأة داخل فراشه .

نهضت من سريرها ، واتجهت نحو النافذة ، كانت السماء صافية ، في تلك الليلة والقمر غائباً ، والنجوم تتلألأ . كانت نجوم بيغاسوس تلمع فوق المستنقع . هكذا علمها أبوها ، أخذت تعد النجوم . بإمكانها الآن إصدار أصوات مميزة ، فبعض الناس مثلها قد أفاقوا من نومهم ، «اسكتوا» «اخرسوا» ، هذه الأصوات التي تشبه مواء القطط وقت التزاوج . ولكن لا أحد يسكت . كأنما يوجد كرة من نار تتدحرج في شارع بيرل ، النار فقط هي المزعجة فهي عبارة من صراخ ، وضحك ولعنات وزعيق ، تطلق شرارتها مثل أصوات وحيدة . كان هناك صوتان مميزان ، صوت عواء يعلو ويهبط ، في خفقان منظم وصوت ذو طبقة خفيفة ، ينهال بعبارات مهددة لاذعة . ترافق عادة الروائح الكريهة ، والمناظر المؤذية والفتن والخطر . كان هناك شخص ينادي أقتلني ـ اقتلني ، وهو يُضرب ، كان صوت امرأة تُضرب وتنادي اقتلني اقتلني . وكانت الدماء تنفر من فمها ، أحياناً إلا أن صياحها كان فيه شيء من السخرية والشعور ، بالانتصار ، كان مشهداً مريعاً والناس حولها ينادون ، أوقف هذا الضرب أوقفه أو ـ اقتلها .

كانوا ينادون وكأنهم في مسرح أو لعبة رياضية . نعم قالت الميدا لقد لاحظت ، ذلك من قبل كان الأمر ، يبدو كمقاطع من تمثيلية أو كنوع من المحاكاة التهكمية ، كان هناك شبه مبالغة وعلاقة ناقصة ، وكأنما كان هؤلاء الناس يفعلون هذا الشيء ، دون أن يؤمنوا به ولكنهم لا يستطيعون أن يتوقفوا .

الآن سمعت صوت شيء يرمي كرسي أو قطعة خشب . أو جزء من سياج يقع ، ثم تلاه أصوات مندهشة ، ثم أصوات لأشخاص يركضون .

والناس تفتح لهم الطريق ، اقتربت الفوضى ، منها أكثر استطاعت الميدا رؤية شخص ، يلبس لباساً خفيفاً . ويركض وهو محني ، هذه هي المرأة وقد تمكنت من الاستيلاء ، على عصا أو قطعة خشب وأخذت تلوح بها ، في وجه مطاردها .

اذهب واقبض عليها ،كانت الأصوات تصيح ، اذهب واجلدها بقوة . تراجع الجميع الآن . وبدا هذان الشخصان قريبان منها تماسكا ثم أفلتا ثم وقفا أخيراً عند سياج منزل الميدا . أصبحت أصواتهم مضطربة ، وكأنها أصوات تقيؤ ، ولكْم وزعيق تلتها أصوات ألم ، واختناق وتحقير للنفس ، ربما تكون منطلقة من أي منهما .

تراجعت الميدا بعيداً عن النافذة . وعادت لتجلس على السرير .

هل الصوت الذي سمعته صوت جريمة؟ ماذا عليها أن تفعل؟ يجب أن تشعل المصباح ، وتنزل الدرج إلى الحديقة ! المصباح ! الحديقة ، وقفت على سريرها ، وغطت وجهها بالوسادة ، وعادت الصور لها مرة أخرى : الدرج ، المصباح ، رأت نفسها في القاعة ، الخلفية تفتح مزلاج الباب الخلفي ، ثم غطت في النوم .

استيقظت مشدوهة مع ضوء النهار الباكر ، أخذت تتخيل غراباً كبيراً ، يقف على عتبة النافذة ، ويحدثها عن أحداث الليلة السابقة . مظهراً عدم الرضا . استيقظي وحركي عربة اليد ، كان يقول لها موبخاً ، فهمت منه أنه يقصد بعربة اليد شيئاً آخر ، شيئا سيئاً ومحزناً . استيقظت ولم ترَ أي طائر ، اتجهت لتنظر من النافذة ، كانت هناك جثة ملقاة قرب السياج : عربة اليد! لفت دثاراً حول ثوب نومها ، ونزلت الدرج كانت الغرفة الأمامية ، ما تزال معتمة وستائر المطبخ ما تزال مغلقة . كان هناك صوت سائل ، ينقط ببطء ذكرها الصوت بالضرب ، ولكنه لم يكن سوى عصير العنب يصفى ، خلال الليل كانت العناكب تمد خيوطها عبر الممر ، وأشجار اللبار تقطر بالندى .

أزاحت غصن الشجرة قليلاً عند السياج ونظرت إلى المكان .

كان هناك جثة امرأة ملقية على وجهها . ولم تتمكن الميدا من رؤية وجها ، فقد كان معفراً بكامله في التراب ، كان صدرها مكشوفاً ومتدلياً ، وحلمتها مشدودة . كانت عارية ، عند وركها ورجليها ــ وظهرت على وركها كدمات كبيرة الحجم . أما لون جلدها فكان رمادياً ، ما عدا مكان الكدمات ، كانت ترتدي ثوباً ليلياً تفوح منها رائحة القيء والبول والخمر . هربت الميدا عارية القدمين ، أمام المنظر أخذت تركض حول المنزل ، بين أشجار التفاح والشرفة ، فتحت الباب الأمامي ، وانطلقت تركض عبر شارع دوفرين ، إلى منزل جارفز بولتر الأقرب لها قرعت الباب ، بكلِ ما ملكت

قبضتها من قوة .

ظهر جارفز أخيراً ، وأخذت تصرخ عندما رأته هناك جثة امرأة . كان يرتدي بنطاله ، الغامق المشدود بشكالات وكان قميصه ، نصف مزرر ولم يحلق ذقنه بعد ، وشعره أشعث على رأسه . «عفواً سيد بولتر ، هناك جثة امرأة على بابي الخلفي» . نظر إليها بقسوة : «هل هي ميتة ؟» . كان نَفَسَهُ رطباً ووجهه وعيناه حمراوين .

«نعم أظن أنها قُتلت» قالت الميدا ، نظرت إلى داخل القاعة ، كانت قبعته موضوعة على المقعد ، ـ لقد استيقظت في الليل ، وسمعت ضجيجاً في شارع بيرل . كانت تحاول جاهدة ليبدو صوتها منخفضاً . لقد سمعت الرجل والمرأة يتشاجران .

تناول قبعته ووضعها على رأسه ، وأغلق الباب الأمامي بالقفل . ووضع المفتاح في جيبه ، ثم سار معها عبر الممر ورأى ما رأته هي . أمسكت عن قول إنها تتحمل المسؤولية ، لأنها كان يجب أن تحمل مصباحها ، أو أن تصيح (ولكن من يريد صياحاً أكثر ؟) .

كان يمكنها أن تضرب الرجل أو أن تطلب المساعدة .

ولكن ليس الآن .

نزلا شارع بيرل بدلاً من الدخول إلى حديقة روث .

كانت الجثة ما تزال هناك نصف عارية ، ونصف معلقة بالسياج . لم يسرع جارفز الخطى ـ نظر إلى الجثة ـ دفع قدم الضحية برفق بطرف حذائه .

«أنتِ» قالها بصوت جازم ، منخفض قليلاً ثم دفعها مرة أخرى ، أحست الميدا بغصة مرة في حلقها .

«إنها حية» قال بولتر . تحركت المرأة قليلاً ، وأصدرت أنيناً خفيفاً ، قالت الميدا سأحضر الطبيب . يا ليتها لمست المرأة من قبل ، أو أجبرت نفسها على لمسها . ربما لم تكن ، ارتكبت تلك الغلطة انتظري قال جارفز : «انتظري لنرى إذا كان بإمكانها النهوض . «انهضي الآن» قال جارفز : «للمرأة هيا انهضي .»

حدث الآن شيء عجيب ، نهضت الجثة على أربعتها . ورفعت رأسها ، كان شعرها مغطى بالغبار والدماء . بدأت المرأة تضرب رأسها بقوة ، على وتد السياج . وبينما هي كذلك ، إذ أخذت تصرخ بملء صوتها ، وكأنها في لذة مؤلمة .

«إنها بعيدة عن الموت» قال جارفز «لا داعي لإزعاج الطبيب» وكانت هناك دماء ، قالت الميدا بينما كانت المرأة تدير وجهها الملطخ . الدم يسيل من أنفها ، قال جارفز لقد أصبح جامداً . الآن انحنى قليلاً وأمسك رأسها من شعرها ، المريع كي تتوقف عن أن تضربه بوتد السياج .

قال لها «توقفي عن ذلك ، توقفي واذهبي إلى بيتك ، الآن اذهبي إلى حيث تنتمي» . توقفت المرأة عن الصراخ . هز رأسها وهو يحذرها قبل أن يفلت قبضة يده ، عن شعرها إذهبي إلى البيت .»

ما إن أفلتت من قبضته ، حتى اندفعت المرأة إلى الأمام ، تجر قدميها ، سارت مترنحة تتمايل أسفل الطريق . وهي تصدر أصوات احتجاج متقطعة ، ظل جارفز بولتر يراقبها للحظات . ليتأكد أنها ابتعدت ، ثم مسح يده بورقة شجر عريضة ، عثر عليها ، بين النبات الشائك عند السياج . ونظر إلى روث قائلاً : «هكذا يذهب الجسد الميت» .

كان الباب الخلفي مغلقاً ، سارا نحو الباب الأمامي المفتوح ، كانت الميدا ما تزال تشعر بالإعياء ، كان بطنها منفوخاً وما زالت تحس بالدوار والمرارة .

الباب الأمامي مغلق ، قالت بتردد لقد خرجت من باب المطبخ . لو أنه يتركها قليلاً ، لتذهب مباشرة إلى المرحاض ، ولكنه ما زال يتبعها تبعها حتى الباب الخلفي ، ثم إلى القاعة الخلفية ، كان يتكلم معها بصوت جذل أجش ، تسمعه منه لأول مرة . «لا داعي للذعر ، إنها نتائج السكر ، لا يجب أن تعيش أي سيدة لوحدها ، في منزل قريب ، من هذا الحي السيئ . أمسك بذراعها من تحت الكوع ، لم تستطع أن تفتح فمها لتتكلم ، لأنها إذا نفتحت فمها فقد تتقيأ . ما شعره جارفز بولتر نحو الميدا ، في تلك اللحظة كان شعوراً لم يمر به طوال تلك النزهات ، الحذرة معها وخلال تقديراته الشخصية لصفاتها القيمة ، واحترامها الذي لا يرقى إليه الشك ، وجمالها اللائق . لم يكن يتخيلها كزوجة له ، أما الآن فقد بدا الأمر ممكناً ، فقد حركه شعرها المنسدل بما فيه الكفاية . كان شعراً رمادي اللون ، ناعماً وكثيفاً ، أما وجهها المحمر ، وثيابها الخفيفة ، التي لم يكن ليراها أحد سوى زوج . وكذلك حركة هيجانها ، وضعفها وعدم إدراكها للأمر وأخيراً حاجتها .

«سوف أمر عليك فيما بعد» قال لها ، «وسأرافقك إلى الكنيسة .»

كتبت الڤيديت في اليوم التالي :

اكتشفت إحدى السيدات القاطنات عند تقاطع زاوية شارعي بيرل ودفردين ، يوم الأحد صباحاً جثة ، لامرأة من شارع بيرل ، ظنت أنها ميتة . ولكن تبين فيما بعد أنها ثملة جداً ، وقد تم إيقاظها من حالة السكر ، التي تعاني منها من قبل ، السيد بولتر وهو قاضٍ مدني ، يسكن في الجوار وكانت السيدة قد استدعته .

لقد كثرت مثل هذه الحوادث المزعجة والمشينة في البلدة .

V

جلست على قاع النوم
كأني جالسة على قاع البحر
كان المواطنون المعجبون يمرون بي
ويحيونني بحرارة

ما إن خرج جارفز بولتر ، وسمعت صوت الباب الأمامي ، وهو يغلق حتى انطلقت الميدا إلى المرحاض . لكنها لم ترتح تماماً فقد كان الألم في أسفل معدتها ، ناشئاً عن بداية الدورة الشهرية ، قامت وأغلقت الباب الخلفي . ثم تذكرت كلمات جارفز بولتر ،عن السير معها إلى الكنيسة ، قامت وكتبت على ورقة بيضاء : «أنا أشعر بالإعياء ، وأرغب بالراحة اليوم» . ألصقت الورقة على زجاج نافذة الباب الأمامي ، وأقفلت الباب . كانت ترتجف كأنها خرجت للتو من صدمة ، أو من خطر داهم . ولكنها قامت بإشعال النار لتسخين الشاي ، غلت الماء ، وصبت كأساً كبيراً من الشاي ، أزعجها بخار الماء ، وأحست بالإعياء أكثر وأكثر . وضعت بعض دواء الأعصاب في الشاي ، وجلست لتحتسيه بدون أن ترفع ستائر نافذة المطبخ . كان عصير العنب ولبه ، قد لونا القماشة بلون أرجواني غامق ، وهو ما يزال ينقط . لم تستطع أن تتحمل سماع الصوت . أخذت كأس الشاي ، والدواء وانتقلت إلى غرفة الطعام . كانت ما زالت تجلس هناك ، عندما بدأت تسمع أصوات الخيول ، تتجه نحو الكنيسة ، مثيرة عواصف من الغبار . كانت ما تزال هناك ، عندما سمعت باب المنزل ، يفتح وصوت

أقدام رجل واثق تتقدم نحو الباب ، كانت حاسة السمع لديها قوية جداً ، حتى أنها سمعت صوت الورقة ، وهو ينتزعها من إطار النافذة ويطويها ، وتكاد حتى أن تسمعه يقرؤها . ثم ابتعدت الخطوات ، وأغلق الباب . ظهرت أمامها شواهد الأضرحة ، ضحكت وهي تتخيل شواهد ، الأضرحة تسير في الشارع وترتدي أحذيتها ، وأجسادها الطويلة ممدودة إلى الأمام ، وتعابير وجوهها قاسية ومشغولة . بدأت أجراس الكنيسة تقرع ، ودقت الساعة الكبيرة في القاعة الثانية عشرة . مرت ساعة أخرى ، وبدأت الحرارة ترتفع في المنزل ، احتست كاساً أخرى من الشاي ، مع بعض الدواء ، تعلم أن الدواء يؤثر عليها ويجعلها غير قادرة على الحركة تماماً . ويسبب لها التراخي والكسل ، والاستسلام بدون مقاومة للمحيط حولها . ولكن لا بأس فللضرورة أحكام .

أما محيطها أو بعض محيطها ، في غرفة الطعام فكان يتألف من جدران ، مغطاة بورق مزين ، ستائر مزركشة وستائر مخملية أرجوانية اللون ، على النوافذ ، طاولة بغطاء مطرز ، إناء من الفواكه الشمعية ، وسجادة برتقالية ورمادية اللون عليها ، رسومات زرقاء وبرتقالية ، باقات ورد ، طاولة جانبية متحركة عليها صحون وأباريق ، وفضيات للشاي . وأشياء كثيرة وصغيرة ، مرتبة بأنماط مختلفة ، ولكل من هذه الأنماط زينته الخاصة . التي تبدو مشحونة ، بالحياة وجاهزة للتحرك والتبديل ، أو ربما للانفجار . كان شغل الميدا الشاغل طوال النهار ، مراقبة هذه الأنماط ، ومنع تغيير أماكنهما كثيراً . من أجل إبقائهما كجزء من حياتها . وتفهم وضعها ، كان هناك الكثير في هذه الغرفة ، بما لا يترك حاجة لمغادرتها ، أو حتى للتفكير بالمغادرة .

طبعاً لم تستطع الميدا خلال مراقبتها ، أن تتهرب من الكلمات . ربما تظن أنها تستطيع ولكن لا . فكل هذه البهجة ، واللمعان تأتي بالكلمات من الأعماق .

ليس كلمات خاصة ، بل عبارات متدفقة ، تبدأ بالتعريف على نفسها شيئاً فشيئاً . ربما على شكل قصائد ! قصيدة واحدة . أليست هذه هي الفكرة؟ قصيدة عظيمة جداً تضم جميع الأشعار التي كتبتها ، حتى تلك الأشعار الرثة الغير ، منطقية التي كانت تجربها وتصلح أخطاءها ، أشعار حول النجوم والأزهار والطيور ، والأشجار وملائكة الثلج ، والأطفال الذين يموتون عند الفجر . حتى هذه المواضيع لا

تُوفي نصف قصائدها ، فعليك أن تذكر العربدة والصخب في شارع بيرل ، وحذاء جارفز الملمع دائماً . والشجرة المخلوعة خارج السياج بوردتها السوداء . الميدا هي الآن بعيدة بعداً شديداً عن العواطف الإنسانية ، والمخاوف والاعتبارات المنزلية المريحة . لا تفكر الآن بما كا يجب أن يحصل لتلك المرأة . أو بإبقاء عشاء جارفز بولتر ساخناً وتعليق ثوبه الداخلي الطويل .

فقد طفح حوض عصير العنب ، وبدأ يسيل على أرضية المطبخ ملطخاً الحواف ، ببقع ليس من السهل التخلص منها .

كان عليها أن تفكر بأشياء كثيرة ، في وقت واحد ، شامبلين والهنود العراة والملح في أعماق الأرض ، والنقود والنوايا المدفونة في رؤوس ، مثل رأس حارفز بولتر ، لصنع النقود . أيضاً العواطف الشديدة ، وأحداث الصخب ، والفوضى ليلاً في شارع بيرل . وتغييرات الجو العنيفة . وإذا فكرت في الموضوع ملياً ، فلا يوجد سلام حتى على النجوم . كل هذا يمكن أن يكون ، إذا ما جرى على شكل قصيدة ، وكلمة جري مناسبة تماماً ، هنا لأن عنوان القصيدة «مينسسيتنغ ، وهو اسم لنهر جار بل ، للحقيقة هو النهر نفسه مينيسيتنغ . هذه هي القصيدة بكل تعرجاتها ، وكهوفها وبركها الكائنة تحت أشجار الصيف ، وقطع الجليد التي تسد مجراها في أواخر الشتاء ، وبنضاب ينابيعها المقفرة .

تنظر الميدا عميقاً عميقاً في نهر أفكارها ، تنظر إلى غطاء المائدة ، ترى باقات الزهر تسبح فيه ، تبدو الباقات مكتنزة وغبية تلك الباقات ، التي حنطتها أمها لم تكن تبدو مثل أزهار حقيقية . ولكن منظرها الفضي ، الرائع يبدو لها مدهشاً . كانت بمثابة إشارة أمل لها .

لم تغادر الميدا الغرفة حتى الغسق ، تركتها فقط لتذهب إلى المرحاض ، وتكتشف أنها قد بدأت تنزف من الدورة الشهرية ، كان عليها أن تحضر منشفة وتغطي نفسها . لم يمر عليها من قبل يوماً ، بقيت فيه ترتدي ثياب النوم مثل هذا اليوم . لكن الأمر لم يقلقها ، عبرت إلى المطبخ ، في طريقها وشاهدت بقع عصير العنب المتجمعة على الأرضية . أدركت أنها يجب أن تمسحها ولكن ليس الآن . صعدت الدرج إلى الأعلى ، تاركة آثار أقدامها لوناً أرجوانياً ، على الأرض . كانت تشم رائحة دمها

وعرقها ، الذي سال نتيجة جلوسها ، طوال النهار في غرفة حارة .

ليس هناك مساحة للقلق . فهي لا تخلط بين الورود العائمة ، وشواهد القبور التي تركض بسرعة ، في الشارع وهي في الحقيقة لا تخطئ ، وهي أيضاً لا تخطئ ، في حقائق الأمور إذ هكذا تدرك أنها عاقلة .

VI

«أحلم بكم في الليل
وأزوركم في النهار
أبي أمي
أختي أخي
أليس لديكم كلمة تقولونها لي»
كتبت الڤيديت

في الثاني والعشرين من شهر نيسان عام ١٩٠٣ ، ما بين الساعة الثالثة والرابعة بعد الظهر ، توفيت سيدة موهوبة وقديرة ، وصاحبة قلم أغنى أدبنا المحلي ، بمجموعة من الأشعار الحساسة البليغة . إنه شيء مؤسف أن تصرفات هذه السيدة الرائعة ، قد تحولت في السنين الأخيرة إلى تصرفات متهورة ، وغير طبيعية ، وقد أصبح تركيزها على زخارفها ، وزينتها الشخصية مدعاة للسخرية . والتطرف في أوساط محبيها ومتذوقي فنها .

ولكن كل هذه الأشياء غابت في سجل الذكريات . وبقيت أشعارها المبدعة وجهودها المضنية في مدرسة الأحد ، واهتمامها ووفائها لأهلها وطبيعتها النبيلة واهتماماتها الخيرية ، وإيمانها المطلق تشهد عليها . لم يسعفها مرضها الأخير بالبقاء ، طويلاً فقد انتابها رشح شديد جداً ، خلال تجولها في سبخات بيرل ستريت ، مما أدى إلى بللها . (قيل أن بعض الأشرار ، قد طاردوها عبر المستنقعات ، بقسوة ووقاحة ، وضايقوها واضطهدوها . إلا أن هذه الرواية لم تؤكد) . وقد تطور رشحها إلى التهاب في القصبات ، وتوفيت بحضور جارتها السابقة ، السيدة برت فريلز التي كانت شاهدة على وفاتها ، الهادئة والمؤمنة صباح يوم الاثنين .

في شهر كانون الثاني عام ١٩٠٤ خطف الموت فجأة ، من بيننا أحد كبار مؤسسي هذه البلدة ، بينما كان على رأس عمله في مكتب شركته . السيد جارفيز بولتر ، شخصاً يملك روحاً حيوية وعملية ، ساهمت بشكل فعال في إرساء عدة مشاريع إنتاجية ، وصناعية أعطت فوائد للبلدة ولأهلها .

بحثت في المقبرة عن الميداروث ، ووجدت شاهد أضرحة العائلة ، كان عليه اسم واحد فقط ، هو روث . ثم لاحظت وجود حجرين مسطحين ، على الأرض على بعد ستة أقدام من الشاهد . كان مكتوباً على الحجرين ، أبي وأمي بعيداً عن ذلك ، وجدت حجرين آخرين وقد كتب عليهما اسميْ وليام وكاترين . كان عليَّ أن أبعد بعض العشب النامي ، والقاذورات لأقرأ الاسم الكامل لكاترين . لم يكن هناك تاريخ ميلاد ، أو وفاة على الأضرحة ، ولا شيء من كلمات عزاء .

كانت طريقة خاصة في التذكار ،لا يوجد مثلها في هذا العالم . لم يكن هناك ورود ، ولا حتى أثر لورود مزروعة ، ولكن ربما تكون قد اقتلعت فالحارس ، لا يحب مثل هذه الأشياء ، لأنها تسبب إزعاجاً ، للذين يقصون العشب ، وعندما يوجد من يحتج ، يقوم باقتلاع الشجيرات والورود المزروعة .

ظننت أن الميدا مدفونة في مكان آخر . فعندما تم شراء هذه البقعة ، حين وفاة الطفلين ، كانت الميدا ما تزال في عمر الزواج ، وربما كان من المتوقع أن تدفن ، بجانب زوجها .

ربما لم يبق لها مكان هنا . ثم لاحظت أن بعض الأحجار ، بدت وكأنها قد حركت ، من مكانها قرب الشاهد الرئيسي ، للأضرحة . أولاً قبران للأهل ثم قبران للطفلين ، كانت القبور موضوعة بطريقة تفسح المجال ، لقبر ثالث بينها من أجل إكمال الدائرة . ابتعدت بعض الخطوات ، عن قبر كاترين ، ثم سرت نفس المسافة من قبرها إلى قبر وليام . وعند هذه النقطة أخذت أبعد الأعشاب ، والأتربة بيديَّ العاريتين ، شعرت بوجود حجر ، وعندها عرفت أني على صواب ، واصلت العمل . حتى نظفت الحجر كاملاً ، لأقرأ بوضوح «ميدا» . كانت مدفونة هنا ، وقبرها يحدق في السماء . هكذا كانوا ينادونها في العائلة «ميدا» ، وليس فقط في القصائد . أو ربما أنها اختارت هذا الاسم من أحد قصائدها ، ليكتب على قبرها . ظننت أنه لا يوجد أحد في

العالم سواي يعلم عن هذا الأمر ، أو يربط بين هذه الأشياء ، وربما أكون آخر شخص يفعل هذا ولكن ربما لا ، فالناس كثيري الفضول على الأغلب . يدفعهم فضولهم ، للعثور على أشياء قد تكون سخيفة . لكنهم يربطون الأمور ببعضها البعض ، منهم يعلمون أنهم قد يكونون على خطأ . تراهم يسيحون حاملين دفاتر ملاحظاتهم ، يمسحون الأتربة عن حجارة القبور ، ويتفحصون الصور الصغيرة ، على أمل أن يعثروا ، على رابطة أو علاقة يخرجون فيها بشيء من هذه البقايا .

١٩٩٠

لوري مور

أنت قبيح أيضاً

عن «ذي نيويوركر»

قط تضطر بين الفينة والفينة إلى مغادرة تلك البلدات الواقعة في ولاية الينوي ، والتي تحمل اسماء غريبة مثل : باريس ، أوبلونج ، نورمال . ففي احدى المرات ، وعندما انخفض مؤشر داوجونز مئتي نقطة نشرت احدى الجرائد المحلية في ترويستها متباهية على عرض صفحتها «رجل من نورمال يتزوج امرأة من اوبلونج» ، لقد عرفوا ما الذي كان مهما . لقد فعلوا! ولكنك ستكون مضطراً لأن تغادر مرة بين فترة وأخرى حتى لو كان ذلك فقط عبر الحدود إلى تيري هاوت لمشاهدة فيلم .

في وسط حقل واسع خارج باريس ، تتناثر اعداد قليلة من البنايات القرميدية ، هي عبارة عن كلية صغيرة للفنون الحرة تحمل اسماً غير مألوف هو ، «هيلديل فرساي» ،حيث ظلت زوي هندريكس تُدرِّس التاريخ الأميركي هناك لمدة ثلاث سنوات . كانت تُدرِّسْ موضوع «الثورة وما قبلَها» للطلاب المبتدئين وطلاب السنة الثانية في الكلية ، وفي كل فصل ثالث كانت تعقد حلقة دراسية رئيسية لطلاب التخصص ، وعلى الرغم من أن تقديرات طلابها ظلت تهبط في السنة والنصف الأخيرة - تصل الاستاذة هندريكس في العادة ،متأخرة وتصل عادة وهي حاملة فنجان شوكولاته ساخنة وتقوم بتقديم رشفات منه للطلاب - الا أن الدائرة المؤلفة من

تسعة رجال كانت على العموم سعيدة بوجودها ، فقد احسوا بأنها أضافت لمسة انثوية كانت ضرورية في اروقة البناية - ذلك الأثر الباهت لعطر «أوبسيشن» ، ورائحة مزيل العرق والاشراقة وطقطقة الأكعاب - كذلك كان هناك طاقماً يقوم بالتمييز ، بين الجنسين وقد أعلن العميد قائلاً «حسناً» الوقت مناسب للتغيير» .

كانوا يعلمون أن الوضع لم يكن سهلاً بالنسبة لها ، ففي احدى المرات ، وعند بداية الفصل الأخير وثبت مرحا إلى داخل قاعة محاضرتها وهي تغني «يتعين علي أن أعرفك» ، - وقد غنتها كلها ، وبناءً على طلب العميد فقد استدعاها الرئيس إلى مكتبه ، ولكنه في الحقيقة لم يطلب منها أي توضيح ، سألها فقط عن حالها ثم ابتسم بطريقة دافئة فأجابته بأنها «ممتازة» ، وتأمل الطريقة التي قالتها فيها ، كانت اسنانها الأمامية تشد على الجزء الداخلي من شفتها السفلى ، كانت جميلة تقريباً ، إلا أن وجهها يظهر التوتر والطموح اللذان يجعلانها قريبة ، ولكن ليس تماماً ، كان هناك جهد زائداً في رسم حاجب العين ، كما أنها تلبس اقراطاً ، وبدون شك لتعوض عن نقص الإثارة في قسماتها ، كان هذا الأمر مخيفاً إلى حد ما ، فقد كانت الأقراط بارزة على جوانب وجهها مثل هوائيات .

- «أنا في طريقي إلى الجنون» ، قالت زوي لاختها الصغيرة ايفان في مانهاتن «يبدو أن الأستاذة هندريكس تعرف المدرج الصوتي كاملاً في مسرحيته ، «الملك وأنا» . هل هذا تاريخ؟» ، كانت زوي تهاتفها كل يوم ثلاثاء .

- ««أنت دائماً تقولين ذلك» قالت ايفان ، «لكنك بعد ذلك تمضين إلى رحلاتك والى قضاء عطلاتك ثم تعودين بعدها وتهدئين ، ثم تبقين هادئة لفترة قصيرة ، وبعد ذلك تقولين بأنك ممتازة ، وأنك مشغولة وبعد ذلك ، بعد برهة قصيرة تقولين انك في الطريق إلى الجنون مرة أخرى ، ثم تعودين لتكرار ذلك وهكذا دواليك» .

كانت ايفان تعمل بدوام جزئي في ستوديو تصوير كمصممة لترتيبات الطعام قبل تصويرها ، وكانت تطبخ الخضار بصبغة خضراء ، وتستعين في تطوير يخنه لحم البقر بطبقة من الأحجار الرخامية وتبحث عن أنواع جديدة من زهور السليكون الصناعية ومكعبات الثلج البلاستيكية . وكانت تعتقد بأن حياتها على خير ما يرام ، فقد ظلت تعيش مع صديقها الذي تعرفه منذ سنوات عديدة . وكان هذا الصديق ثرياً يعمل

بوظيفة صغيرة مسلية في نشر الكتب ، كان قد مضى عليهما خمس سنوات خارج الكلية ، وقد عاشا في بيت فخم ومترف يقع في وسط المدينة ، وله شرفة ومدخل إلى بركة «انها ليست كامتلاكك لبركة خاصة» ، كانت ايڤان تتنهد دائماً كما لو أنها تريد أن تجعل زوي تعرف أنها وكما هو الحال مع زوي ما تزال هناك أشياء يمكنها أن تعيش بدونها .

– «وجودي هنا في الينوي جعلني تهكمية الطبع» قالت زوي على الهاتف ، فقد كانت تصر دائماً بأن الأمر كان تهكماً ، شيء تلقيه بلطف وتعقيد . شيء غريب عن الغرب الأوسط . ولكن طلابها ظلوا يدعونه تهكماً ، كانوا يشعرون بأنهم مؤهلون لادراكه ، وهكذا اضطرت على موافقتهم الرأي» .

– «ما هو عطرك» ، سألها طالب في احدى المرات .

– «ملطف جو الغرف» قالت ثم ابتسمت . الا أنه نظر اليها بدون أي انفعال . كان معظم طلابها من الغرب الأوسط متخمين بالأستروجين لكثرة ما يأكلون من البيض واللحوم .

وقد أخذوا عن أبائهم القيم التي عرفتها ضواحي المدن وأشياء أخرى كثيرة ، فظلّوا وديعين ومدجنين ومسلحين بغموض قوي بشأن أي شيء تاريخي أو جغرافي وكأنهم يعرفون شيئاً صغيراً عن كل شيء .

«كل الولايات الواقعة في الشرق هي صغيرة ومكشوفة وناتئة» ، قال أحد طلابها الذين لم يتخرجوا بعد متذمراً فيما كانت هي تلقي محاضرتها عن ، «نقطة التحول في الاستقلال : معركة ساراتوغا» ثم سألها :

– «استاذة هندريكس ، أنت من ديلاوير في الأصل ، اليس كذلك؟»

«ماريلاند» صححت زوي .

– «أوه» قال ملوحاً بيده بطريقة رافضة . «نيوانجلند» .

كانت موادها – فصول من كتاب تدعى «الاستماع إلى استخدامات الدعابة في النظام الرئاسي الأمريكي» – تستقبل باستحسان على وجه العموم رغم أنها كانت بطيئة في شروحاتها . أحبت أن تدخل في مقطوعاتها بعض الشيء من كل وقت في النهار – لم تكن تثق بالأشياء التي تكتبُ في الصباح قط – لذلك كانت تعيد

القراءة والكتابة باجتهاد ، ولم تكن تسمح لأي جزء من اليوم - سواء مزاجيته - أو اضاءته أن تهيمن عليها . آحياناً كانت تتعلق بقطعة ما لمدة سنة ، تعيد تمحيصها على مدى الساعة إلى أن تتم تدوين اليوم بكل اوقاته فيها .

كانت الوظيفة التي شغلتها قبل أن تلتحق بهيل ديل ڤيرساي في كلية صغيرة ، بنيوجنيڤا بولاية مينسوتا بمركز تسوق داييناغ ، حيث جميع النساء شقراوات لدرجة أن السمراوات كن يعتبرن قادمات من بلاد أجنبية ، «لمجرد أن الأستاذة هندريكس قد قدمت من اسبانيا فان هذا لا يمنحها الحق بأن تظهر أي ملاحظة سلبية فيما يتعلق ببلادنا» ، كان هناك تركيز على المرح والابتهاج . ففي نيوجنيڤا لا يفترض فيك أن تكون انتقادياً أو متذمراً ، كما لا يفترض فيك أن تبدي أي ملاحظة حول التوسع المفرط للبلدة ، وحول مراكزها التجارية المهملة والآيلة للتراجع والهبوط . أيضاً لا يحق لك أبداً قول أنك لم تكن ممتازاً ، شكراً لك وافعلها أنت» ، كان من المفترض أن تكون مثل هايدي - تلك الفتاة في مسلسل الأطفال الكرتوني - تنقل حليب الماعز عبر التلال ولا تفكر في أمر مرتين . فهايدي لم تكن تتذمر ، ولم تكن لتقف أمام آلة النسخ الجديدة من اي . بي . ام . وتقول اذا أفشلتني هذه الآلة اللعينة مرة أخرى فسوف اشق يداي من الرسغين . ولكنها اليوم في مهنتها الثانية وفي السنة الرابعة من بداية تدريسها في الغرب الأوسط ، بدأت زوي تكتشف أشياء لم تكن تعهدها في نفسها من قبل : حدية طباع سطحية ولكنها سريعة وثاقبة . في البداية كانت تدلل طلابها وتغني لهم وتسمح لهم بأن يهاتفوها على البيت ويسألوها اسئلة شخصية ، بدأت الآن تفقد تعاطفها كما أنهم بدأوا يتغيرون بالنسبة لها وأصبحوا مفسدين ومتطلبين .

- «انك تتصرفين» قالت لها احدى طالبات الدراسات العليا في حلقة دراسية باحدى المحاضرات «وكأن رأيك هو أكثر قيمة من آراء الجميع في الصف» .

- اتسعت عينا زوي «أنا الأستاذ» قالت «أنا أتقاضى راتباً لأعمل وفق ذلك» ثم ضيقت حدقتي عينيها وهي تحملق في تلك الطالبة التي كانت تزين شعرها بانشوطة جلدية كبيرة مثل راعية البقر في عرض تلفزيوني حول رعاة البقر .

«ما أعنيه هو أنني اذا لم أفعل ذلك . فان كل شخص في الصف سيصبح له

مكاتب صغيرة وساعات مراجعة» .

كانت الأستاذة هندريكس في بعض الأحيان تشغل وقت الصف بالكامل وهي تتحدث فقط حول ما شاهدته من أفلام .

وحدقت في الطالبة مرة أخرى ثم اضافت «اراهن أنك سوف تحبين ذلك»

- «ربما بدوت وقحة بعض الشيء «قالت الفتاة» ولكنني بكل بساطة أرغب في أن يعني تخصصي في التاريخ شيئاً ما» .

- «حسناً ، تلك مشكلتك» قالت زوي ، وبابتسامة شيعت الطالبة نحو الباب قائلة «تعجبني انشوطتك» .

عاشت زوي بانتظار البريد وبانتظار رجل البريد ، ذلك المتأنق بثوبه الأزرق وعندما كانت تتلقى رسالة حقيقية مع طابع حقيقي مدفوع الثمن من مكان آخر ، تأخذ الرسالة معها إلى السرير وتقرأها مرات ومرات ، وكانت تقضي ساعات وهي تشاهد التلفزيون في غرفة نومها .

لقد وجهت الأستاذة هندريكس انتقادات إلى «القاون هول» ، والى العقيدة الكاثوليكية والى كامل ولاية الينوي . «انه أمر غير معقول» .

وفي عيد الميلاد منحت عشرين دولاراً بقشيشاً إلى ساعي البريد والى جيري سائق التكسي الوحيد ، الذي تعرفت عليه في البلدة وصار ينقلها من والى مطار «تيري هاوت» ، والذي حين ادرك أن اجرة الرحلات كانت شديدة الغلو ، خفض من أجرته .

- «سوف أطير لزيارتك في عطلة نهاية الأسبوع» أعلنت زوي .

- «كنت آمل أن تفعليها» قالت ايفان» فسنقيم انا وشارلي حفلة بمناسبة الهالوين وستكون مبهجة» .

- «لدي طقم جاهز لذلك ، انه شيء أخرق يشبه عظمة عملاقة تخترق رأسك» .

«عظيم» قالت ايفان .

- «انه عظيم» .

- «كل ما لدي هو قناعي «قناع القمر» من السنة الماضية ، والسنة التي قبلها ومن المحتمل أن ينتهي الأمر بي أن أتزوج به» .

- «هل ستتزوجين أنت وشارلي؟» شعرت زوي باشارة تحذير خفيفة .
- «هـ هـ . . .» ليس عاجلاً .
- «لا تتزوجي الآن» .
- «لماذا؟» .
- «ليس بعد فأنت ما زلت صغيرة كثيراً» .
- «انك تقولين ذلك فقط لأنك أكبر مني بخمس سنوات ، ولم تتزوجي» .
- «أنا غير متزوجة ؟ أوه ، يا الهي» قالت زوي «نسيت أن أتزوج» .

لقد خرجت زوي مع ثلاثة رجال منذ أن جاءت إلى هيلديل فيرساي . كان أحدهم يعمل في وظيفة بالبلدية ، وكان قد قام بمعالجة أمر مخالفة وقوف سيارة كانت قد احضرتها اليه محتجة ، ثم دعاها إلى تناول فنجان قهوة في الخارج .

ظنت في البداية أنه مدهش - أخيراً ، شخص لا يريد هايدي! هايدي بكل ما فيها ، هايدي بكامل تجهيزاتها . وسرعان ما اصبح موظف مخالفة الوقوف متعباً وغير منتظم .

وفي يوم خريفي هادئ كانا راكبين في سيارته التعيسة ، وغير العملية عندما سألته ماذا كان الخطأ ، قال «أنت تعلمين أنه لن يضرّك أبداً لو ارتديت ثياباً جديدة» .

كانت ترتدي كثيراً ثياب كوردروي خضراء ورمادية اللون ، لأنها كانت تعطيها انطباعاً بأنها تبرز جمال عينيها ، تلك النجمتين الخجولتين ، أبعدت نملة عن كمها فسقطت في السيارة .

- «هل كان عليك أن تنفضي النملة في السيارة؟» قال وهو يقود سيارته وينظر باحثاً في صدريته ، أولاً إلى اليسار ثم إلى اليمين في مسح سريع عن النملة ، كان يرتدي قميصاً ضيقاً .

- «اعذرني» قالت له .

أبطأ السير أمام ضوء كهرماني ، وقال عابساً «ألم تستطيعي التقاطها ورميها إلى الخارج؟» .

- «النملة؟ كان يمكن ان تعضني . أعني ما الذي يضايقك في الأمر؟»
- «كان يمكن أن تعضك! ها! كم هذا سخيف ! والآن ستقوم بوضع بيضها في

سيارتي» .

الرجل الثاني كان الطف وأضخم . بالإضافة إلى أنه غير حساس لنوع معين ، من الرسومات أو الأغاني . ولكنه كان كثيراً ما ينطق أو يقوم بأشياء تجعلها تجفل . ففي احدى المرات قام بسرقة خضار الزينة من طبق طعامها في احدى المطاعم وانتظرها لتلاحظ ذلك ، وعندما لم تلاحظ في النهاية ، مد قبضة يده عبر الطاولة وقال «انظري» ، وعندما فتحها كانت ورقة البقدونس وشريحة البرتقال مجعدتين داخل يده . ومرة ثانية وصف لها رحلته الأخيرة إلى اللوفر : «وكنت واقفاً هناك أمام الديلاكروا - مركب دانتي - وكان الجميع قد ذهبوا وهكذا بقيت شخصياً مشاهدها الوحيد ، كل تلك الظلال المعذبة تمتد في كل اتجاه ، كانت هناك تلك الحركة في هذه الرسمة التي تبدأ من القعر ثم تصعد ملتفة كالدوامة لتُكوِّن نسيج حجاب دانتي الأحمر ثم تعود لتلتف عبر المدى إلى حيث ترى تلك الشعلات البرتقالية» ، كان يتكلم بطريقة تحبس الأنفاس وقد وجدت هذا الأمر مؤثراً فابتسمت له مشجعة فإذا به يقول «رسمة مثل هذه» ، قالها وهو يهز رأسه «انها تجعلك تشعرين أنك في الغائط» .

- «يجب أن أسألك شيئاً» «قالت ايفان» أنا أعرف أن كل امرأة تشكو من عدم مقابلتها للرجال ، ولكن في الحقيقة انا التقي في عملي مع عدد كبير من الرجال ، ليسوا جميعهم لواطيين» توقفت للحظة «ليسوا كذلك أبداً .

- «ما هو سؤالك؟»» .

أما الثالث فكان يعمل استاذاً في علم السياسة ويدعى موراي بيترسون ، وكان يحب أن يخرج مع زوجين آخرين من زملائه ممن كانت زوجاتهم ينجذبن اليه . عادة ما ترضى الزوجات ان يعبثن معه تحت الطاولة مرة بالاقدام ، ومرة حتى بالركب . وكانت زوي تُتْرك لتناول الطعام مع الزوج وهما يحدقان في كؤوس الماء ، أو يمضغان الطعام مثل الماعز .

- «اوه ، موراي» ، قالت له احدى الزوجات التي لم تكمل بعد دراستها للماجستير ، في العلاج الطبيعي ، وترتدي ملابس رائعة «انك تعلم بأنني أعرف كل شيء عنك : تاريخ ميلادك ، ورقم رخصتك . لدي كل شيء محفوظ في ذاكرتي .

لكن ذلك هو نوع العقل الذي أملكه . ومرة في حفلة غداء اذهلت الحشد عندما انتصبت واقفة وودعت كل فرد منهم باسمائهم الأولى والأخيرة» .

- «لقد عرفت كلباً يستطيع ان يفعل ذلك» ، قالت زوي وفمها محشو بالطعام .

نظر اليها موراي والزوجة بتعابير مغتاظة ومعنّفة . لكن الزوج بدا فجأة مشرقاً وفرحاً . وبعد أن ازدردت زوي الطعام تابعت تقول ، «كان هذا الكلب عبارة عن مختبر متكلم ، وبعد مضي عشر دقائق من الاصغاء إلى الحديث خلال الغداء تمكن هذا الكلب من معرفة اسم كل واحد ، وأصبح بامكانك ان تقول له «خذ هذه السكين إلى موراي بيترسون فيفعل» .

«حقاً» ، قالت الزوجة وهي مقطبة . أما موراي بيترسون فلم يتصل بها بعد ذلك أبداً .

«هل تقابلين أحداً؟» ، قالت ايفان» أنا أسأل لسبب معين وليس مثل اسئلة ماما .

«إني أعود إلى بيتي فأنا آوى اليه عندما تمطر الدنيا أو تبكي أو تتقيأ» .

كانت زوي قد اشترت بيت مزرعة اخضر بلون النعناع بالقرب من حرم الكلية ، مع أنها اصبحت تعتقد بأنها ما كان يجب أن تشتريه . لقد كان شاقاً ان تعيش في بيت ، فقد كانت دائمة التجول داخل الغرف وخارجها تبحث عن المكان الذي وضعت فيه الأشياء . وكانت تهبط إلى الطابق السفلي حيث القبو ، لا لسبب سوى أنه كان يفرحها وجود قبو في منزلها ، كما كان يفرحها ايضاً امتلاكها لشجرة .

كان والداها في ميريلاند مسرورين جداً ، لأن أحد أولادهم استطاع أخيراً آن يمتلك عقاراً . وعندما اتمت صفقة البيت ارسلوا لها باقات الزهور مع بطاقة تهنئة ، حتى أن والدتها أرسلت لها صندوقاً مليئاً بمجلات قديمة للزينة ادخرتها على طول السنين - صوراً لغرف جميلة اعتادت امها أن تنفق الوقت في جمعها حيث لم يكونوا يمتلكون المال لاعادة تزيين بيتهم .

كان الحصول على تلك الصور بالنسبة لأمها مثل الحصول على صور اباحية . كان ذلك الصندوق يمثل بالنسبة لها جميع الأحاسيس والخيالات والأمنيات ، التي لا نهاية لها والتي كانت تداعبها طوال حياتها «يمكنك أن تأخذي بعض الأفكار من تلك التصاميم» كتبت لها أمها .

عندما نظرت زوي إلى صور غرف المعيشة الجميلة والمنسقة امتلأت بالرغبة الشديدة ، نحو تلك الأفكار كما أنها امتلأت بأفكار الرغبة . غمر قلبها الشوق والحنين ، أفكاراً وأفكاراً من الأشواق .

أما الآن . فكان بيت زوي شبه فارغ حقاً ، فقد أخذ المالك السابق معه حتى ورق الجدران مع الأثاث مخلفاً فجوات وظلال غريبة على الجدران ، ولم تفعل زوي شيئاً بهذا الشأن بعد .

كانت قد اشترت أثاثاً ثم ارجعته بعد ذلك ، واستمرت تجهز الأثاث ثم تعيده فكاً وتركيباً مثل الرحم . كانت قد اشترت العديد من صناديق خشب الصنوبر الأملس لاستخدامها كمقاعد حب أو صناديق للأحذية ، لكنها صارت تنظر اليها كتوابيت للأطفال لذلك قامت بارجاعها . وحديثاً اشترت لغرفة المعيشة سجادة شرقية عليها رموز صينية لم تفهمها ، وكانت الفتاة البائعة قد أصرت على القول أنها بالتأكيد رموزاً تعني «السلام» و «الحياة الأبدية» . ولكن عندما أخذت زوي السجادة إلى البيت انتابها القلق فيما اذا كانت الكلمات لا تعني «السلام» و «الحياة الأبدية؟» .

ماذا لو كانت تعني قول «بروس سبرنجستين» ، وكلما ازداد تفكيرها بالأمر كلما زادت قناعتها بأن لديها سجادة تقول «بروس سبرنجستين» ولذلك ارجعتها ايضاً .

اشترت أيضاً مرآة صغيرة غريبة ومفرطة في زخرفتها لتضعها في المدخل الأمامي ، حيث كان موراي بيترسون قد أخبرها بأنها تمنع دخول الأرواح الشريرة الا أن المرآة صارت مصدر رعب لها . وكانت تروعها بصورة امرأة لم تعرفها أبداً .

أحياناً كانت المرأة تبدو أكثر انطلاقاً وبساطة مما تظن ، وأحياناً أخرى متقلبة وعابسة ، وفي أغلب الأحيان كانت تبدو غامضة تماماً .

«انك تشبهين شخصاً اعرفه» ، قيلت لها هذه العبارة مرتين من قبل غرباء في مطاعم تيري هوت .

وفي الحقيقة كانت تبدو في بعض الأحيان في هيئة مغايرة لهيأتها أو لأي هيئة على الاطلاق . واصبح يفرحها أن طلابها وزملاؤها قد تمكنوا من التعرف عليها بشكل مطلق .

أما كيف عرفوا؟ كيف كانت تبدو عندما تدخل إلى الغرفة حتى يتمكنوا من

معرفتها؟ هل هي تشبه هذه؟ لذلك ارجعت المرآة .

– «السبب من سؤالي هو أنني أعرف رجلاً أظن أنك يجب أن تقابليه» قالت لها ايڤان «انه رجل مرح ، مستقيم ، أعزب . هذا كل ما أود قوله لك» .

– «اظن اني اصبحت كبيرة جداً على المرح والبهجة» ، قالت زوي . كان لها شعر اسود هش على ذقنها ، يمكنها أن تتحسسه الآن باصابعها ، لعله عندما تبتعدين عن الجنس الآخر لمدة طويلة تبدئين بمشابهته ، وبفعل ابتكار يائس تبدئين بأن تصبحي أنت نفسك . «أنا فقط أريد أن أجيء وارتدي عظمة الرأس الخرقاء ، وازور سمكات شاري الاستوائية ، وأسألك عن بعض صور الأطعمة» .

فكرت بشأن كل الأوراق الموضوعة امامها «دستورنا كيف يؤثر فينا؟» كانت بصدد التصحيح . و فكرت في كيفية دخولها المستشفى لاجراء اختبارات الرنين المغناطيسي يوم الجمعة . لأنه وفقاً لما يقوله طبيبها ومساعده فان لديها تضخم كبير وغامض في بطنها ، ربما تكون المرارة أو المبايض أو القولون .

«هل تمارسون الطب أيها الرجال؟» ، سألت زوي بصوت مرتفع بعد أن غادروا الحجرة ، ذات مرة حين كانت فتاة صغيرة احضرت كلبها إلى طبيب بيطري قال لها «حسناً ، إما أن يكون لدى كلبك ديدان أو سرطان أو أي شيء آخر أو أن سيارة قد صدمته» . كانت تنظر بشغف إلى زيارة نيويورك .

– «حسناً ، على أي حال ، سنلعبها بهدوء ، أنا لا أستطيع الانتظار كي أراك يا عزيزتي . ولا تنسي عظمة الرأس» قالت إيڤان» .

– «انها عظمة رأس لن تنسيها» قالت زوي .

– «اظن ذلك» ، قالت إيڤان

كانت زوي قد اخفت خبر الفحص بالرنين المغناطيسي حتى عن ايڤان

«اشعر بأنني أموت» الحت زوي مرة على الهاتف .

– «أنك لن تموتي» قالت أيڤان «أنت متضايقة فحسب» .

– «رنين مغناطيسي» قالتها الآن مداعبة الفني الذي وضع الحبل البارد على بطنها العاري ، «هل ذلك الصوت يشبه صوت الاستيريو الحقيقي أم ماذا؟» .

لم تكن تسمح لأي انسان بعمل مثل هذه الضوضاء على بطنها العاري ، منذ أن

ظل صديقها في كلية الدراسات العليا يلوح بذراعيه كلما شعرت بالمرض . ثم يضغط كلتا يديه على سرتها ويأخذ بالتشدق بكلمات انجيلية صارخاً : «ابرأ ! ابرأ! بحق المسيح «فتضحك زوي ثم يمارسان الحب بسرية على أمل أن تحبل .

بعد ذلك يأخذ كلاهما بالقلق معاً إلى أن يضع خده على بطنها ، ويسألها فيما اذا كانت تأخرت ، هل تأخرت؟ هل هي متأكدة؟ يمكن أن تكون قد تأخرت .

وعندما لم تحبل بعد سنتين دبت بينهما الخلافات ، وأخذا يتشاجران ثم انفصلا .

«حسناً» قال فني الأشعة بلا اكتراث .

كان جهاز المراقبة مثبت في مكانه وظهرت احشاء زوي على الشاشة بجميع تجاويفها الشريطية والرمادية . كانت تلمع كالرخام في تسلسل لطيف من التصوير باللونين الأبيض والأسود ، مثل حجر في كنيسة قديمة أو صورة للقمر .

«هل تفترض» ، أخذت تترثر مع الفني «ان ارتفاع العقم في أوساط الأزواج في هذا البلد عائد إلى أن هناك اجناس بشرية مختلفة تحاول أن تتوالد؟» .

حرك الفني اداة التصوير حول البطن والتقط المزيد من الصور . ولدى اجرائه فحصاً خصوصياً لجانب زوي الأيمن دب النشاط فجأة عند الفني إذا أن الآلة التي يعمل عليها تضاءلت طقطقتها . حدقت زوي في الشاشة «لا بد أنك وجدت التضخم هنا» أوحت زوي بذلك .

- «لا أستطيع أن أخبرك بأي شيء» ، قالها الفني بصرامة «سيحصل طبيبك على تقرير اختصاصي الأشعة بعد ظهر هذا اليوم ، وسوف يهاتفك حينئذ» .

- «سأكون خارج البلدة» قالت زوي .

- «أنا آسف» قال الفني .

وبينما كانت تقود سيارتها عائدة إلى البيت ، نظرت ، في المرآة الخلفية وقررت أنها تبدو في حالة جيدة .

حسناً ، كيف يمكن للانسان ان يصف هذا الأمر؟ سقيمة قليلاً وفكرت في النكتة التي تدور حول الرجل الذي زار طبيبه فقال له الطبيب «حسناً ، انا أسف لأن أخبرك بأن لديك ستة أسابيع لتعيش» .

«أريد رأياً آخر» ، قال الرجل «انك تتصرف كأن رأيك هو الأكثر قيمة من رأي أي

واحد غيرك في الصف» .

«تريد رأياً آخر ، حسناً قال الطبيب «انت قبيح ايضاً» .

كم أحبت تلك النكتة ، كانت تظن أنها مضحكة جداً جداً .

استقلت التاكسي إلى المطار وكان السائق جيري سعيداً برؤيتها . «أرجو أن تكون اقامتك في نيويورك سعيدة» قال وهو ينزل حقيبتها من الصندوق : كان يحبها أو على الأقل كان دائماً يدعي ذلك ، وكانت تناديه باسم جير .

«شكراً جير» .

«أنت تعرف ، سأقول لك سراً ، لم أذهب إلى نيويورك من قبل . سأقول لك سراً آخر!! لم أسافر على متن طائرة من قبل» لوح نحوها بحزن وهي تشق طريقها عبر باب الجناح المفضي ، إلى الطائرة ، التفتت نحوه وتابعت «ولا حتى سلم متحرك» .

«السير في رحلة طيران آمنة» ، كانت زوي تقول دائماً «هو أن لا تشتري تذكرة مخفضة أبداً ، وأن تقنع نفسك بأنك لا تملك شيئاً لتعيش له ، على أي حال ، حتى اذا تحطمت الطائرة فان الأمر لا يشكل شيئاً كبيراً ، اما عندما لا تتحطم الطائرة وتنجح في الارتفاع فوق عدميتك فكل ما يتوجب عليك عمله هو أن تسير مبتعداً وتجمع امتعتك ، وعند وصول السيارة التي تستقلها ، تجد لنفسك سبباً مقنعاً لستمر في الحياة» .

- «أنت هنا» ، صاحت ايفان عند سماعها جرس الباب وحتى قبل أن تفتح الباب .

بعد ذلك فتحت الباب على مصراعيه . وضعت زوي حقائبها على أرضية الصالة ، وعانقت ايفان بحرارة ، كانت ايفان حنونة ومخلصة في صغَرها ، وكانت زوي تهتم بها دائماً - تنصحها وتهدئ من روعها - إلى أن بدت ايفان حديثاً ، وكأنها هي التي تقوم بتوجيه النصائح لها ، وتعيد طمأنتها ، اندهشت زوي بهذا وصارت تشك بأن الأمر يعود إلى كونها وحيدة ، مما تسبب في عدم شعور الناس بالارتياح معها .

- «كيف حالك؟» .

- «لقد تقيأت في الطائرة» ، عدا ذلك فأنا جيدة .

- «هل استطيع أن أقدم لك شيئاً؟» دعيني آخذ حقيبة يدك .

- «اصبت بالغثيان على الطائرة . اووو ، ما هذا ، لقد تقيأت في احد أكياس الغثيان» قالت زوي ، حتى لا تظن ايفان انها فعلتها في ممر الطائرة «لقد كنت هادئة جداً» .

كانت الشقة رحبة ومشرقة مع اطلالة على طول الطريق إلى وسط البلدة من الجانب الشرقي ، وكان هناك شرفة وباب زجاجي سحاب .

«اني أنسى دائماً كم هي لطيفة هذه الشقة في الطابق الحادي والعشرين . . .» قد تعمل زوي طوال حياتها ولا تتمكن من امتلاك مثل هذه الشقة ، وكذلك ايفان ، فقد كانت الشقة لشارلي ، عاش فيها هو وايفان مثل طفلين في مهجع ، كانت علب البيرة والملابس منثورة هنا وهناك . وضعت ايفان حقيبة يد زوي بجانب احواض السمك بعيداً عن الفوضى . «كم أنا سعيدة لرؤيتك هنا» قالت «والآن ماذا استطيع ان أقدم لك؟» .

أعدت ايفان وجبة طعام لهما - شوربة معلبات وملحات - .

- «لا أعرف بشأن شارلي» قالت بعد أن انتهوا من تناول الطعام «أشعر وكأننا أصبحنا في منتصف العمر قبل الأوان ، لم نعد نهتم لأمورنا الجنسية على الاطلاق» .

- «هـ م م م» قالت زوي . ومالت إلى الوراء على مقعد إيفان ، تحدق خارج النافذة نحو القمم الداكنة للبنايات . لقد بدا من غير الطبيعي قليلاً أن تعيش فوق في السماء في مثل هذه البناية ، كالعصافير التي تبني أعشاشها على علو شاهق نتيجة عناد أو جرأة بطولية .

أومأت برأسها ناحية أحواض السمك المضاءة ، وقهقهت «اني أشعر مثل عصفور «قالت» ، مع مؤونتي الشخصية من سمك» .

تنهدت ايفا ،ن «انه يأتي إلى البيت ويرتمي كالكيس فوق الكنبة يشاهد كرة القدم المشوشة ببرودة كبرودة الجليد ، إذا كنت تعرفين ماذا أقصد» .

اعتدلت زوي في جلستها وعدت مساند الكنبة ، «ما هي كرة القدم المشوشة؟

- «لم نحصل على سلك الهوائي بعد ، وكل شيء يظهر مشوشاً في التلفزيون ،

وشارلي يشاهدها بتلك الطريقة» .

- «هـ م م بيه ، ان هذا الأمر يحبط قليلاً» قالت زوي ونظرت إلى يديها «وخاصة الجزء المتعلق بعدم الحصول على سلك هوائي» .

- «هكذا يأوي إلى الفراش في الليل» ثم هبت ايڤان واقفة لتصف لها كيف يفعل «ينزع جميع ملابسه ، وعندما يصل إلى ملابسه الداخلية يجعلها تسقط على احدى كاحليه ، ثم يركل رجله إلى الأعلى قاذفاً لباسه الداخلي في الهواء ثم يمسك به ، انا اشاهد ذلك من فراشي بالطبع لا شيء آخر هناك . وهذا كل ما هنالك على وجه الضبط .

- «ربما عليك أن تسيري قدماً معه وتتزوجيه» .

- «حقاً .

- «نعم ، أعني أنتما ربما تظنان ان العيش معاً هكذا هو افضل بين كلا العالمين ولكن - » حاولت زوي أن تجعل لهجتها مثل لهجة أخت كبرى ، لأن من المفترض أن تكون الأخت الكبرى مثل الأم التي لا يمكنك الحصول على مثلها ، «أم» رابطة الجأش .

«لكني وجدت دائماً أنه حالما تفكرين بأنك حصلت على الأفضل ، بين كلا العالمين» - أخذت تفكر الآن في حالها ، وحيدة في بيتها ، مثل صراصير الحصاد التي تشبه وجوهها وجوه الضفادع ، والتي تطير حولها في الليل ، مثل رجال صغار ثم تحط على ستائرها ، محدقة في الأحذية مقاس أربعة عشر الموضوعة عند عتبة الباب ، لكي تطرد المتطفلين . وكما أخبرها أحد الأشخاص فان عليها أن تحتفظ بدمية منفوخة وتضعها على طاولة الافطار - لكن في لحظة مفاجئة يمكن ان يتغير الأمر ويصبح أسوأ ما في كلا العالمين -

- «حقاً» ، ردت ايڤان وقد بدا عليها الاشراق «اوه ، زوي ، لدي شيئاً اريد أن أخبرك به . أنا وشارلي سوف نتزوج» .

- «حقاً» شعرت زوي بارتباك .

- «لم أعرف كيف أخبرك» .

- «ياه ، أظن أن الجزء المتعلق بكرة القدم المشوشة خدعني قليلاً» .

- «كنت أمل أن تكوني وصيفتي» ، قالت ايڤان وانتظرت «الست سعيدة لأجلي؟» .

- «نعم» قالت زوي وأخذت تسرد على إيڤان قصة حول عازفة الكمان التي ربحت جائزة في هلديل ڤيرساي - كيف أن عازفة الكمان عادت إلى بيتها بعد خوضها منافسة في أوروبا ووقعت في حب أحد الرجال المحليين الذي جعلها ترافقه إلى جميع العابه الصيفية في الكرة الخفيفة ووضعها في مقاعد الزوجات من المدرجات لتشجعه ، وتصفق له إلى أن قامت مؤخراً بقتل نفسها ، ولكن زوي توقفت عندما وصلت إلى منتصف الحكاية عند الجزء المتعلق بشأن مشاهدة العاب الكرة الخفيفة .

- «ماذا» قالت ايڤان «ماذا حصل بعد ذلك؟»

- «في الحقيقة لا شيء» ، قالت زوي بخفة «بدأت تلعب الكرة الخفيفة وما عليك الا أن تربها الآن» .

قررت زوي أن تذهب لمشاهدة عرض متأخر لفيلم بعد الظهر تاركة ايڤان تنجز الأعمال المنزلية المتبقية عليها ، قبل الحفلة - حيث قالت «علي أن أقوم بها وحدي حقا» . كانت قد توترت قليلاً بعد سماعها قصة عازفة الكمان .

وفكرت زوي بالذهاب إلى أحد معارض الفن ، ولكن كان على النساء اللواتي يذهبن وحدهن إلى المعارض أن يظهرن متأنقات ، ووقورات ويتحركن بهدوء وهن يحملن حقائب يد رائعة .

ولكنها بدلاً من ذلك سارت إلى الأسفل على طول خليج كيبس ، ومرت على دكان لبيع أقراط الأذن القديمة يدعى «ضعيه في اذنك» ، ثم صالون حلاقة يدعى «دوريان جراي» ، هذا هو الشيء المضحك بشأن كلمة «جمال» فكرت زوي ، ابحث عنها في الصفحات الصفراء وستجد مئات الأماكن التي يديرها دهاة عدائيين ، لطيفين وخطرين ولكن عندما تبحث عن كلمة «صدق» «ها» فانك لا تجد شيئاً على الاطلاق . فكرت زوي بشأن زواج ايڤان ، وهل يمكن أن تتحول ايڤان لتصبح الزوجة الأكولة للسيد بيتر بمبكين؟ وهل ستجعل زوي في حفل الزواج ترتدي فستاناً ارجوانياً مماثلاً لفساتين باقي الوصيفات؟ كانت زوي تكره الألبسة الموحدة ، حتى أنها رفضت أن تنضم إلى «فتيات

الألف» ، في المرحلة الأولى لأنها لم تكن ترغب بأن ترتدي نفس الملابس مثل غيرها . ولكنها الآن ربما تضطر إلى فعل ذلك . يمكنها أن تجعل لباسها مميزاً وذلك بأن تعقدها على جانب واحد وتثبتها بدبوس ملابس ، ثم تلف على خصرها شاشاً طبياً تثبته في الجزء الأعلى من ثوبها بواسطة دبابيس من تلك ، التي يكتبون عنها بأحرف بارزة «السيء قد يحصل» .

أثناء مشاهدتها فيلم - الموت على حسب الرقم - اشترت عصي حلوى من السوس الأحمر لتشدها بقوة وتلوكها . واختارت في المسرح مقعداً بعيداً في احد الجوانب ، انتابها شعور غريب بالخجل لجلوسها وحيدة وتمنت أن يعتم المكان بسرعة ، وعندما أطفئت الأنوار وبدأت العروض القادمة تتوالى مدت يدها إلى داخل حقيبتها ، تبحث عن النظارات ، الا أنها كانت قد نسيتها في حقيبة السفر . كذلك مناديلها الورقية وقلمها وأقراص الاسبرين وحلوى النعناع ، كل شيء كان في حقيبة السفر . هكذا اصبح حالها ، امرأة تجلس وحيدة لمشاهدة الأفلام ، وجميع حوائجها في حقيبة السفر . في الحفلة التنكرية (الهالويين) ، كان هناك ما يقارب الأربعة وعشرون شخصاً ، بعضهم تنكر برؤوس قرود وايادي ضخمة يكسوها الشعر ، وكان هناك شخص تنكر بشكل عفريت ، وشخص آخر تنكر على شكل طعام مجمد ، كما كان هناك شخص رائع اصطحب ابنتيه الصغيرتين . راقصة بالية وأخت راقصة بالية وكلتاهما ترتديان ثياب راقصات بالية ، وكان هناك مجموعة من الساحرات المثيرات - يرتدين الأسود بشكل كامل . وقد تبرجن وتزين بالمجوهرات «أنا أكره أولئك الساحرات المثيرات ، لأن هذا ليس من روح الهالويين» قالت ايفان .

تخلت ايفان عن قناع القمر والبست ، نفسها ثياب ربة بيت مع عاقصات شعر ومريول ، وهو قرار ندمت عليه فيما بعد .

أما شارلي فلأنه يحب السمك ، ولأنه يمتلك سمك ولأنه يجمع السمك كان قرر بأن يتنكر على شكل سمكة ، صنع لها زعانف واعين على جانبي رأسه .

- «كيف حالك زوي! أنا آسف لعدم كوني هنا عند وصولك» ، قال شارلي ، وانفق ما تبقى من وقته في التحدث مع الساحرات المثيرات جنسياً .

- «هل أستطيع معاونتك في شيء؟» سألت زوي اختها ، واضافت «لقد أجهدت

نفسك كثيراً» ، ثم ربتت على ذراعها بلطف كما لو أنها كانت ترغب في أن يكونا لوحدهما .

- «يا الهي ، لا يوجد شيء على الاطلاق» قالت ايڤان وهي ترتب الفطر المحشو فوق الطبق ، وعندما انطلق مؤقت الفرن سحبت منه صفيحة أخرى مملوءة « في الحقيقة أتعرفين ماذا يمكن أن تفعليه؟» .

- «ماذا؟» قالت زوي وارتدت قناع عظمة الرأس .

- «أن تقابلي ايرل» ، انه الشاب الذي فكرت به لك . عندما يحضر إلى هنا تحدثي معه قليلاً ، انه لطيف ، مرح وهو في طريقه لانهاء اجراءات الطلاق .

- «سوف احاول» ، صاحت زوي «حسناً ، سوف احاول» ونظرت إلى ساعتها .

وصل ايرل ، وكان متنكراً كامرأة عارية وقد الصق بالغراء نجارة فولاذ بشكل بارع على جواربه وحلمات مطاطية تبرز كقطع لحم الخنزير على صدره .

- «زوي ، هذا هو ايرل» قالت ايڤان .

- «سعيد بلقائك» ، قال ايرل وهو يستدير حول ايڤان ليصافح يد زوي ، ثم حدق في قمة رأس زوي «عظمة رهيبة» .

أومأت زوي برأسها «وحلمات رائعة» قالت ، ونظرت إلى ما وراءه من خارج النافذة نحو المدينة المترامية وهي تتألق عالياً قبالة السماء . كان الناس يقولون عنها أشياء مألوفة ، كم هي تشبه الجواهر أو السلاسل أو العقود أو القلائد المدلاة ، تستطيع أن ترى الساعة في بناية كون ايد ، وان ترى الأمبير ستايت برأسها البرتقالي المذهب . وكذلك بناية الكرايزلر وكأنها مركبة صاروخية تنطلق من موقع منخفض ، وفي أقصى الغرب يمكنك أن تلمح أستور بلازا بسطحه الأبيض الطائر مثل غطاء رأس الراهبات .

- «هناك بيرة على الشرفة في الخارج ، هل أحضر لك واحدة منها يا ايرل؟» سألت زوي .

- «بالتأكيد ، آه ، سوف أحضر فوراً . هاي شارلي ، كيف تسير الأمور؟»

صرّ شارلي بأسنانه وصفر واستدار الناس ليروا من صاحب الصوت «هاي إيرل» أحد ما نادى من عبر الغرفة» .

حشروا أنفسهم بعيداً عن الضيوف الآخرين ، عبر القرود والساحرات المثيرات

للشهوة .

خطت زوي وايرل إلى الخارج على الشرفة عبر الباب السحّاب ، الذي اصدر صوتاً يشبه الخشخشة وخرج الاثنان ، وسط هواء الليل الضبابي البارد ، عظمة رأس وامرأة عارية .

كان هناك زوجان آخران أيضاً في الخارج يدمدمان بسرية ، لم يكونا مرتدين أية أطقم تنكرية وابتسما لزوي وايرل «هاي» قالت زوي التي عثرت على الثلاجة البلاستيكية وانتزعت منها زجاجتي جعة .

– «شكراً» ، قال ايرل وقد انطوت حلماته المطاطية إلى الداخل ، وعندما التف ليفتح الزجاجة ، صات الحلمات تغمز وتتلوى .

«حسناً» ، تنهدت زوي بقلق . لقد تعلمت أن لا تخاف من رجل ، مثلما تعلمت في طفولتها أن لا تخاف من دودة الأرض أو من الحشرات الأخرى ، وغالباً ، عندما كانت تتحدث إلى رجال في حفلات ، كانت الأشياء تتسارع في ذهنها ، وكلما استرسل الرجل في حديثه معها بتهذيب ، تبدأ في التفكير بأنها سوف تقع في الحب وسو ف تتزوج ، بعد ذلك تجد نفسها في معركة وصاية مريرة معه من أجل الأطفال ، آملة في تسوية الخلافات ، بحيث أنها ورغم كل خياناته ، لا تعود وتحتقره بعد ذلك ، وفي الدقائق القليلة المتبقية تحفظ عن ظهر قلب اسمه الأخير ، وتعرف ماذا يعمل لكي يعيش ، على الرغم من وجود تاريخ طويل بينهما تطأطئ رأسها ويحمر وجهها خجلاً وترحل .

– «لقد قالت لي ايفان بأنك استاذة في التاريخ ، اين تدرّسين؟»

– «فقط عبر حدود انديانا إلى الينوي» .

ظهر وكأنه صدم قليلاً «اظن أن ايفان لم تخبرني بذلك الجزء» .

– «لم تفعل؟» .

– «لا» .

– و«حسناً ، تلك هي ايفان ، بيني وبينك ، عندما كنا اطفالاً كنا نعاني كلانا من إعاقات في المخاطبة .

– «لا بد أن ذلك كان قاسياً قال ايرل وقد اختفت واحدة من حلماته وراء ذراعه ،

التي يمسك بها الزجاجة في حين خف وميض الأخرى وأصبحت وردية بلون قمر وردي .

- «نعم ، حسناً ، لم تكن خسارة كبيرة ، فقد اعتدنا أن نذهب إلى ما كنا ندعوه معالجة التحدث لمدة عشر سنوات من حياتي ، وكان علي أن ارسم جملة في دماغي بالتفصيل قبل أن انطق بها . وتلك كانت الطريقة الوحيدة التي استطيع بها أن أنطق بجملة مترابطة منطقياً .

جرع ايرل البيرة من زجاجته «كيف قمت بذلك؟ أعني كيف سار الأمر معك» .

- «كنت اسرد الكثير من النكات . فأنت تعرف ان النكات هي الرسائل القصيرة للحاضر ، وأنت تستطيع أن تقولها بالضبط . أنا أحب النكات ، النكات والأغاني» .

ابتسم ايرل وكان على شفاهه ظل أحمر خفيف من أحمر الشفاه ، لكن البيرة ازالته .

- «ما هي النكتة المفضلة لديك» قال ايرل .

«أوه ، النكتة المفضلة لدي ربما - حسناً ، حسنا جداً ، هذا الرجل الذي يذهب إلى عيادة الطبيب ، و - » .

- «اظن اني أعرفها» ، قاطعها ايرل بحماس ، واراد أن يسردها بنفسه «دخل رجل عيادة طبيب ، وأخبره الطبيب بأنه يحمل اليه بعض الأخبار الجيدة وبعض الأخبار السيئة - اليست هذه هي النكتة؟» .

- «لست متأكدة» قالت زوي «يمكن أن تكون نسخة مختلفة» . ولكنه تابع قائلاً ، اعطني الأنباء السيئة أولاً ، فقال الطبيب ، حسناً . أمامك ثلاثة أسابيع للعيش ، فصرخ الرجل ، أعيش ثلاثة أسابيع!

ما هي الأخبار الجيدة؟

فقال الطبيب «هل ترى تلك السكرتيرة أمامك في الخارج؟

أخيراً تمكنت من النوم معها .

قطبت زوي جبينها .

- «اليست تلك هي التي كنت تفكرين فيها؟» .

- «كلا ، ردت زوي وفي لهجتها نبرة اتهام «نكتتي كانت مختلفة» .

- «اوه» قال ايرل وهو ينظر إلى البعيد وبعد ذلك عاد ثانية ،

- «ما هو نوع التاريخ الذي تدرِّسينه؟» .

- «أنا أدرّس التاريخ الأميركي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في المقام الأول» تذكرت زوي ، وفي كلية الدراسات العليا كانت طريقة التعارف بين اثنين تبدأ دائماً «ما هو القرن المفضل لديك؟» .

- «من حين لأخر اعطي دروساً في مواضيع خاصة» ، اضافت «مثل الدعاية والشخصية في البيت الأبيض ، تلك كانت مواضيع كتابي» .

فكرت في شيء اخبرها به أحد الأشخاص ذات مرة حول عصافير الدوري ، وكيف تبني وتحكم بناء اعشاشها قبل موسم التزاوج .

- «كتابك عن الدعابة؟» .

- «نعم ، وحسناً ، عندما اعطي مساقاً في مواد مثل هذه فاني ادرسها على مدى القرون ، ما هو قرنك المفضل؟» .

- «ثلاثتها كلها» .

- «العفو» ، تلألأت عيناها مع مرور نسمة هواء ، وازدادت الحركة حولهم ، واحست بشعور ممتع وتافه مثل شخص ارتقى إلى السماء خطأ ثم رفض بازدراء .

- «ثلاثة ، فقط ثلاثة» .

- «حسناً ، اربعة ، في الحقيقة» ، كانت تفكر في جيمس تاون وفي الحجاج الذين يأتون هنا بزنانيزهم وقبعاتهم التي تشبه قبعات الساحرات ، ليؤدوا صلواتهم .

- «أنا مصور» قال ايرل وكان وجهه قد بدأ يومض تحت وطأة مستحضر التجميل الأحمر الذي صار دبقاً تحت عينيه مع شمس الغروب .

- «هل تحب ذلك؟» .

- «حسناً ، لقد بدأت بالفعل أشعر بأنه خطر قليلاً» .

- «حقاً؟» .

- «قضاؤك لكل وقتك في غرفة مظلمة مع ذلك الضوء الأحمر ، وكل تلك المواد الكيماوية ، هناك علاقة بين ذلك وبين مرض الشلل الرعاشي كما تعرفين .

- «لا ، لا أعرف ذلك قالت ثم تابع إيرل ربما يتوجب علي أن أرتدي قفازات مطاطية ، الا أن ذلك لا يروق لي ، لأنه لن يكون حقيقياً ما لم ألمسه مباشرة على ما

أعتقد .

- «هـ م م» قالت زوي وقد بدأت ترن عبر رأسها اشارة تحذير .

- «في بعض الأحيان عندما امسك بصورة أو شيء آخر أحس بلسعة تجعلني القي بها جانباً ثم أقوم بالغسل باستمرار وأمل أن لايحصل شيئاً ، أنا لا أحب المطاط على جسدي مثل هذا .

- «حقاً» .

- «أعني اللمس الجسدي هذا ما تريدينه والا لماذا القلق» .

- «أظن» ، قالت زوي ، تمنت لو تتذكر نكته أو شيئاً بطيئاً مدروساً مع المشهد الأخير . فكرت في قردة الغوريلا وكيف عندما يحبسونها لمدة طويلة في الأقفاص تضرب بعضها بعضاً بالرأس بدلاً من أن تتزاوج .

- «هل أنت على علاقة مع أحد؟» سألها ايرل فجأة بضبابية .

- «الآن ، ونحن نتحدث» .

- «حسناً ، ما أعنيه هو أنني متأكد بأن لديك علاقة مع عملك» ، واستكنت على فمه ابتسامة صغيرة مثل بيضة .

عادت تفكر في حدائق الحيوانات ، وكيف أن الناس أكلوا الحيوانات عندما كانت المدن تقع تحت الحصار في الحروب العالمية تابع قائلاً «لكن أنا أقصد مع رجل» .

- لا ، أنا لست على علاقة مع رجل» ومسحت ذقنها بيدها واستطاعت أن تتحسس الشعرة الخشنة الوحيدة هناك .

«ولكن كانت علاقتي الأخيرة مع رجل لطيف جداً» قالت ، ثم اخذت تخترع قصة ، «كان عالم نبات من سويسرا - خبير في الأعشاب الضارة ، اسمه جيري وكنت اناديه جير ، وكان مرحاً إلى حد بعيد ، كنت أذهب معه لمشاهدة الأفلام ، كل ما كان يلاحظه هو النباتات ، ولم يكن يعير الرواية أي انتباه ، وذات مرة أثناء مشاهدة فيلم عن الأدغال ، أخذ يثرثر وبصوت مرتفع بجميع هذه الأسماء اللاتينية ، كان شيء مثيراً بالنسبة له» . توقفت قليلاً لتلتقط انفاسها» ، وفي آخر الأمر عاد إلى أوروبا لدراسة الايدلفايس ونظرت إلى ايرل «هل أنت مرتبط بعلاقة؟ مع امرأة؟» غيّر ايرل من مكانه وأخذت التجاعيد في جواربه تتغير وتنشق إلى الخارج مثل شيء

يتحطم ، وانزلق شعر عانته فوق أحد أوراكه مثل صديرية فتاة الحانة ، «لا» قال وهو يتنحنح وكان الصوف الفولاذي تحت ذراعيه يسحل ببطء إلى الأسفل ناحية مؤخرة فخذه .

«فأنا خرجت للتو من زواج كان مثقلاً بالحوار السيء مثل» «هل تريدين فسحة أكثر؟ سوف اعطيك فسحة أكثر! كلونك - المهرجين الثلاثة الأساسيين» نظرت اليه روي بتعاطف «افترض بأنه من الصعب للحب أن يستفيق بعد ذلك» تهللت اساريره ، فقد كان يريد الكلام حول الحب :

- «ولكن وفق ما أعرف فان الحب مثل شجرة ، اذا نظرت إلى الأشجار تجدينها تستمر في النمو رغم ما تتعرض له من اصابات وندوب وكدمات كما أنها تبقى واقفة رغم كل الجروح والخدوش .

«نعم ، حسناً قالت زوي «في منطقتي ، معظم الرجال أما متزوجين أو لواطيين ، هل شاهدت ذلك الفيلم - الموت حسب الرقم؟» . نظر اليها ايرل وكان قد ضاع بعد ما شعر أنها آخذة في الابتعاد عنه «كلا» قال لها .

انزلقت احدى حلماته تحت ذراعه واندست هناك مثل حلية ، وبقيت هي تفكر في الأشجار وفي الحدائق وفي الناس الذين يأكلون حمر الوحش في زمن الحرب وأحست بألم يشبه الطعن في جوفها .

«هل ترغبان في بعض المقبلات؟» قالت ايفان وقد اندفعت من خلال باب السحب الزجاجي ، وهي تبتسم رغم أن عاقصات شعرها قد افلتت وتدلت إلى أطراف شعرها مثل زينة عيد الميلاد أو مثل الطعام الذي يمد للطيور ، ودفعت أمامهما طبقاً من الفطر .

«هل تطلبين تبرعات أم توزعينها؟» ، قالها ايرل بظرف واحاط ايفان بذراعيه فقد كان يحبها .

- «أنت تعلمين ، سوف أعود في الحال» قالت زوي .

- أوه» قالت ايفان وقد بدا عليها القلق .

- «سأعود في الحال ، اعدك» .

اسرعت زوي إلى الداخل عبر غرفة المعيشة إلى الحمام المحاذي لغرفة النوم ، والذي

كان خالياً ، لأن غالبية الضيوف كانوا يستعملون الحمام الواقع بجوار المطبخ ، واشعلت مفتاح الإضاءة ثم أغلقت الباب ، كان الألم قد توقف ، ولم تكن في الحقيقة بحاجة للذهاب إلى الحمام ، لكنها مكثت هناك على كل حال كي تستريح ، ونظرت في المرآة فوق المغسلة من تحت عظمة الرأس المستعار التي تلبسها فرأت الزغب الرمادي والليلكي ، تحت جلدها مثل عرف عصفور منقوش ، اقتربت أكثر من المرآة ورفعت ذقنها قليلاً لتبحث عن الشعرة الخشنة ، كانت هناك في آخر حنكها حادة وسوداء مثل سلك . فتحت صندوق الأدوية ونبشت فيه ، إلى أن عثرت على ملقط صغير ورفعت رأسها ثانية وسددت أطرافه المعدنية إلى وجهها تضغط وتشذب وتخطئ ، خارج الباب استطاعت ، أن تسمع شخصين يتحدثان بصوت منخفض ، كانا قد دخلا إلى غرفة النوم يتناقشان في أمر ما ثم جلسا على السرير ، كان أحدهما يقهقه بطريقة مصطنعة ، ثم عادت زوي توجه الملقط ، إلى ذقنها التي أخذت تدمي قليلاً ، فسحبت الجلد على طول الفك ، واحكمت شد الملقط بقوة حول ما أملت بأنه كان الشعرة ثم شدت بقوة فنتشت قطعة من الجلد الا أن الشعرة بقيت والدم يسيل عند جذورها ، صرّت زوي على أسنانها وهمست «هيا» .

كان الرجل والمرأة في الخارج يسردان القصص في غرفة النوم بنعومة ويتضاحكان ، كان هناك صوت صرير ودفع على غطاء السرير ، وصوت كرسي ينقل من مكانه .

صوبت زوي الملقط بعناية وضغطت بشدة ثم سحبت برفق ، وفي هذه المرة أخرجت الشعرة مع وخز طفيف ، من الألم وبعذ ذلك شعرت زوي بفيض من الإرتياح ، وتنفست الصعداء ، ثم انتزعت بعض محارم الورق وبرفق أخذت تربت على ذقنها ، وعندما رفعتها كانت مليئة ببقع الدم ، لذلك انتزعت كمية اخرى من محارم الورق وضغطت بشدة حتى توقف الدم ، بعد ذلك اطفأت النور ، ثم فتحت الباب وخرجت لتنضم إلى الحفلة «اعذروني» ، قالت للزوجين في غرفة النوم ، لقد كانا هما نفس الزوجين الذين قابلتهما في الشرفة ، نظرا اليها في دهشة وكل منهما يحيط الأخر بذراعه ويأكلان أصابع الحلوى .

كان ايرل لا يزال واقفاً في الشرفة وحيداً ، عادت زوي لتنضم اليه هناك وقالت «مرحباً» .

استدار نحوها وابتسم ، كان قد عدّل لباسه التنكري قليلاً ، على الرغم من ان جميع الاضافات الجنسية المميزة التي ألصقها على جسده ، بدت محكوم عليها بالسقوط في أية لحظة .

- «هل أنت على ما يرام؟» سأل وهو يتجرع البيرة من زجاجة أخرى كان قد فتحها .

- «اوه ، نعم ، ذهبت فقط إلى الحمام» ، ثم اطرقت ، واضافت بعدها «في الواقع لقد كنت ازور عدة عيادات أطباء في المدة الأخيرة» .

-= «ما الخطب؟» سأل ايرل .

- «اوه ، ليس من المحتمل أن يكون هناك شيء ، ولكنهم يخضعونني لبعض الفحوصات» ، ثم تنهدت وقالت ، «فقد اجريت اختبار السونوغرام ، كما اجريت اختبار الماموغرام ، وفي الأسبوع التالي سوف أجري اختبار الكاندي غرام ، لدي العديد من كلمات غرام» .

- «هنا ، لقد تركت لك هذه » وتناول منديلاً مع حبتين من الفطر كانتا باردتين وقد سال الزيت منهما على المنديل .

- «شكراً» ، قالت زوي ودفعتهما معاً بداخل فمها ، «لاحظ» قالت وفمها مملوء» اذا كان حظي جيداً فسينتهي بي الأمر بأن اجري عملية استئصال المرارة» .

عبس ايرل وقطب وجهه وقال مغيراً اتجاه الحديث :

- «اختك سوف تتزوج ، اخبريني حقاً كيف تفكرين بشأن الحب» .

- «الحب ، الا يفعلون ذلك الآن؟ لا أعرف» مضغت لقمتها ثم ازدردتها وهي تفكر بعمق .

- «حسناً ، سوف أخبرك ماذا أفكر بالحب ، هنا قصة حب - كان لي صديقة . . .

- «لديك شيء ما فوق ذقنك» قال ايرل وتقدم ليلمسه .

- «ماذا» قالت زوي وخطت إلى الوراء ثم اشاحت بوجهها بعيداً وأمسكت بذقنها ، كانت قطعة من محارم التواليت تتدلى منها مثل شريط لاصق «أنها لا شيء» قالت «انها مجرد - لا شيء» .

تفرّس ايرل فيها .

- «على أية حال «واصلت الحديث : صديقتي هذه كانت قد فازت في مسابقة للعزف على الكمان ، طافت كل أنحاء اوروبا وفازت في جميع المسابقات واصدرت تسجيلات واقامت الحفلات وحازت على الشهرة ، ولكن لم يكن لديها حياة اجتماعية ، وهكذا في أحد الأيام رمت بنفسها عند اقدام قائد الفرقة الموسيقية ، وتعلقت به بشكل رهيب . رفعها ثم وبخها بلطف وأعادها إلى غرفتها في الفندق ، بعد ذلك عادت من أوروبا إلى الوطن ، إلى بلدتها القديمة وتوقفت عن عزف الكمان . وأقامت علاقة مع شاب محلي ، كان هذا في الينوي ، كان الشاب يصطحبها إلى أحد بارات بغ تن كل ليلة من أجل الشرب مع رفاقه من فريق الكرة ، واعتاد على قول أشياء مثل «كاترينا تحب عزف الكمان» بعد ذلك يقرصها في خدها ، عندما اقترحت في احدى المرات أن يعودا إلى البيت قال لها «ماذا تظنين نفسك ، هل تظنين أنك مشهورة كثيراً لتجلسي في مكان كهذا؟ حسناً ، دعيني أخبرك شيئاً ، يمكنك أن تعتقدي أنك مشهورة قالها مرتين ، فلا أحد هنا سمع بك أبداً . ثم قام واشترى شراباً لكل واحد من الموجودين عداها هي . بعد هذا تناولت معطفها وعادت إلى البيت واطلقت رصاصة على رأسها» . بقي ايرل صامتاً .

- «تلك هي النهاية لقصة الحب التي أعرفها» قالت زوي .

- «أنت لا تشبهين أختك على الاطلاق» قال ايرل .

- «أو ، حقاً قالت زوي .

اصبح الهواء أكثر برودة ، وأخذت الريح تصفر بصوت منخفض وثقيل كأنها تعزف لحناً جنائزياً .

- «كلا» لم يعد يريد أن يتكلم عن الحب زيادة عن ذلك . «أتعرفين يجب أن تكثري من لبس الأزرق - أزرق وأبيض - حول وجهك ، ان هذا سوف يكسبك لوناً أكثر» ، ومد ذراعه ليريها كيف يمكن للسوار الأزرق الذي يرتديه أن يعكس اشراقة جلدها ، ولكنها أبعدت ذراعه بعنف .

- «أخبريني يا ايرل ، هل تعني كلمة «حثالة» ، أي شيء بالنسبة لك؟» . خطا إلى الخلف مبتعداً عنها ثم هز رأسه وهو غير مصدق ما يسمع .

- «اتعرفين ، لا يجدر بي أن أحاول الخروج مع امرأة صاحبة مهنة ، فكلكن

مبليات ، ان الرجل يستطيع أن يخمن ماذا فعلت الحياة بك؟ . وأنا أتفاهم مع النساء اللواتي يعملن في وظائف جزئية .

- «أوه ، نعم» قالت زوي ، فقد قرأت مرة مادة بعنوان «النساء المهنيات وديموغرافية الأسى» أو «لقد كانت قصيدة» ، إذ كان هناك بحيرة ، وكان ضوء القمر يرقص على صفحتها مذعوراً .

تذكرت ذلك السطر ، ولكن ربما كان العنوان «البيت الفارغ ، علوم الفراغ» أو ربما غجر الفضاء أو فتيات المعهد» . لقد نسيت .

استدار ايرل واتكأ على درابزين الشرفة ، كان الوقت قد أصبح متأخراً وبدأ الضيوف في الداخل بالمغادرة ، وقد انصرفت الساحرات المثيرات للشهوة ، فتمتم ايرل قائلاً «عش وتعلم» .

وردت زوي «عش وكن مقفلاً» . لم يكن هناك سيارات تحتهم في ليكسنغتون ، فقط سيارة تسير بهدوءء .

اتكأ بشدة على أكواعه وأخذ يفكر مطولاً .

- «انظري إلى أولئك القلة من الناس هناك في الأسفل» ، قال «انهم يشبهون البق ، هل تعرفين كيف يمكن ابقاء البق تحت السيطرة؟

انهم يرشونهما بهرمونات البق ، هرمونات انثوية ، فتصاب ذكور البق بالجنون مع وجود هذا الهرمون ، فتبدأ بنكح كل شيء يقع عليه نظرها من أشجار وصخور وكل شيء ما عدا اناث البق ، وهذا هو ما يحدث في هذه البلاد» . قالها بثمالة «الهرمونات ترش حولنا والرجال ينكحون الصخور ، الصخور . كانت خطوط قلم التخطيط قد توسعت حروفها عند قفاه بلون اسود ووردي مثل صفحات المجلات الهزلية ، نهضت زوي وتحركت ببطء ورفسته من الخلف فانزلقت ذراعه إلى الأمام بعيداً عن الدرابزين فوق الشارع واندلقت الجعة من زجاجته قاطعة عشرين طابقاً نحو الشارع في الأسفل» .

- «هاي ، ماذا تفعلين!» قال وهو يتلفت حوله ، ثم انتصب واقفاً ومتأهباً وتحرك بعيداً عن الدرابزين ، ووقف متجاوزاً زوي «ماذا تفعلين بحق الجحيم؟»

- «مجرد لهو» قالت « كنت الهو فحسب» ، لكنه حدق فيها بخوف ورعب

وكانت الكتابة المخططة على قفاه ، قد استدارت باتجاه البلدة كاشفة عن مجسم لامرأة عارية تضع سواراً ازرقاً على رسغها وقد علقت في الشرفة «حقاً كنت أمزح» صرخت زوي وقد تطاير شعرها فوق رأسها مع الريح مثل أشواك خلف العظمة التي كانت تتنكر فيها» .

اذا كانت هناك بحيرة فان ضوء القمر سوف يرقص فوق صفحتها بغضب ثم ابتسمت له وراحت تتساءل كيف تبدو .

١٩٩٣

ثوم جونز

أريد أن أحيا

عن «هاربرز ماغازين»

تساءلت كم مرة في الأسبوع كان عليه أن يفعل هذا ، عدة مرات بلا شك وربما مرة أو مرتين أو ثلاث مرات يومياً وربما خمس مرات في الأيام الكبيرة ، كانت الأنباء في قمة السوء ولكنه كان ينقلها بطريقة جافة مثل الرقيب جو فرايداي . كان ما يزال شاباً ولكن العمل الشاق الذي حمل عبأه تركه منهكاً حتى في هذا العمر . حسناً إن الأخبار السيئة ليست مفاجئة ! كانت تعلم ، بالطبع وكأنك تظل دائماً تأمل بالتحسن سمعت ، أم لم تسمع . ماذا ؟ سألت بسذاجة ، هل تأمل هي بأن تنتعش ! اعطني فرصة ، ماذا ؟ قال ! الصدر والرحم ، مشكلة مضاعفة ، كانت تعلم أنه الرحم فالإفرازات كانت آتية منه كذلك الانتفاخ والتشنجات والتعب . ربما كان الأمر عادياً وقابلاً للعلاج إذا ما تمت ملاحظته في المراحل الأولى وقد تصل نسبة النجاح في علاجه إلى ثمانين بالمئة ، ولكن الإصابة كانت في الصدر أتته من حيث لا يدري ، وهذا ما يجب أن نحذر منه فالنسبة هنا نصف على نصف كما أن ظهور العقد اللمفاوية تحت الإبط يعني المعالجة الكيميائية على الفور ، يا إلهي ! المعالجة الكيميائية هي أسوأ شيء في الدنيا فهي تتسبب في تساقط الشعر وتدخلك في عالم الشعر المستعار والصدر الاصطناعي ولبس الوشاح وتحمل قلبك للانفتاح على مجموعات الدعم والمواساة .

سيدة ولسون؟ بدا الصوت وكأنه آت من علبة . لقد ظهر الآن الحق جلياً وأصبح كل شيء مكشوفاً . ولكن كيف . . . . أخبريني كيف يمكن أن نعيد حياتنا مرة أخرى .

تجمد الدم في عروقها إثر سماعها هذا الصوت القادم وكأنه من علبة . سيدة ولسون آخر فحص لك قد أشار إلى أن سي آي لديك قد وصل إلى مائة وخمسة وعشرين ، مما يعني أنه وصل إلى السقف وأظن أن هذا يعني نوعٌ غير منظم من السرطان .

إنه نوع خارج عن المألوف ! نوع من السرطان الناري ! وليس من النوع البسيط . ولكنه لزج بطيء التقدم كالسلحفاة في شهر كانون الثاني .

كانون الثاني . نظرت من خلال النظارات الطبية الرقيقة المثبتة بالأسلاك نحو البساط الأبيض الغامض في الخارج ، فقد كانت حبات الثلج تتساقط لتقبِّل الرصيف ، وكان منظرها الرائع الفريد يتطلب ساعة من البحث في عالمها الصغير الذي يوحي بالرهبة والدهشة كأنها هدية من السماء . إلا أنها كم تبدو بغيضة لها ، حبات بيضاء فالعالم بالنسبة لها الآن هو عالم بلا لون ، وبلا إشراق ، حتى ولو كانت ملكة العالم لملايين السنين وشهدت المجد تلو المجد ماذا يهم الآن وقد وصل بها الأمر إلى هذه المرحلة . دخلت ثم خرجت ثم دخلت وخرجت مرة أخرى ، كان هناك عرض كرتوني مدهش ، كان أحسن العروض ، صحيح أنها تعاني من السرطان ولكن هذه الأفلام الكرتونية مدهشة . ديلوايد ، حسناً تعيش وتموت هكذا هي الحياة في المدينة الكبيرة أنه أمر يحصل مع الجميع . جزء من خطة ومن تكون هي لتعارض هذه الخطة ؟

كان أسوأ ما في الأمر هو حنجرتها ، كانت تشعر ناراً في حلقها في المكان الذي أدخل فيه الأنبوب ، قالت الممرضة أنها ستتصل بالطبيب للسماح لها بإعطائها بعض المسكنات .

– يا إلهي ! أرجوك أي شي .

حسناً دعينا نلهو قليلاً فلا أحد يريد أن يعرف قالت الممرضة وهي تدير مقبض أنبوب التحكم المركزي .

أفلام كرتون ! يا إلهي شكراً يا إلهي ! من الذي اخترع هذا الدواء ؟ اكتب له رسالة ، امنحه رتبة فارس ، امنحه جائزة نوبل ، أين كان المقبض إنه شيء تفيدك معرفته . ومن كانت تلك الممرضة؟ فلورنس نايتنجيل ، الأم تيريزا تفخر بهذا - يا ولد لم يكن الأمر يعني انتهاء الجراحة ، أدركت فجأة كم تحملت من الألم النفسي والآن انقضى الأمر بمسحة سحرية أفلام كرتون . يا لفرحتي .

لم يكن صوته قادماً من صفيحة معلبات ، وما كان أبداً ، صوتاً عادياً قد تبدو نبرته عالية بعض الشيء بالنسبة لرجل ، ولا يعني أنه كان أنثوياً بل المشكلة معه هي أنه لم يكن حقيقياً ، لم يكن الشخص الذي يمكن أن تعتبره من لحمك ودمك ، لم يكن يملك قدرة على مشاركتك في عواطفك لماذا يدخل في هذا المجال إذا لم يكن على دراية بالمشاركة العاطفية ؟ فالعاطفة هي البضاعة التي يتاجرُ بها في هذا الحقل .

كانوا يقولون لها ، الصدر سليم إنه مجرد فقط ورم حميد ، لقد أحضرنا أخصائياً ليستأصله ، وقد راجعت للتو التقرير الجرثومي ، ولا يوجد داعي للقلق ، إنما الجزء الآخر ليس سليماً كما نظن ، أخشى أن يكون السرطان قد تفشى داخل بطنك فهو ظاهر مثل بذور العنب الصغيرة ، وكما أنه نوع نادر وسريع الانتشار ، لا نستطيع أن نستأصل شيئاً منه الآن .

لقد أنفقت معظم وقتي أحاول فك التعقيدات في المصران وسوف نقوم بإعطائك بعض السيبلاتين . . ولولا وجود تلك التعقيدات لتمكنا من حقنك مباشرة في بطنك . وهذه الطريقة لا تشعرك على الأقل بالإعياء ولكن تلك التعقيدات تشكل مشكلة حقيقية وقد تتسبب بمشاكل أكثر مستقبلاً . كانت الغرفة باردة جداً ولكن الطبيب النحيل كان قد بدأ يعرق ، إنه لشيء مؤسف ، قال وهو ينظر إلى ملفها : إن صحتك ممتازة لولا ذلك الشيء . كانت تعلم أن أمراً مثل هذا سوف يحدث ولكنها سمعت نفسها تقول للطبيب : هل تعني . . . . إنه يتوجب علي أخضع إلى . . .

- للمعالجة الكيميائية - نعم - ولكن لا تقلقي بشأن هذا الآن ، دعينا نقوم بشفائك في الوقت الحالي ، أغلق الملف وخرج مسرعاً ، إلى اللقاء نراكِ قريباً . . انتهت لعبة الحزازير وحان الآن وقت المحنة ، لم تكن ترغب بسماع تفاصيل أخرى ، قال لها شيئاً عن وجود احتمال عشرين بالمائة لبقائها على قيد الحياة ، وعليها أن

تتحملها . لم تكن من النوع المحارب فقد رأت ماذا فعلت المعالجة الكيميائية بزوجها جون ، كان هذا آخر المطاف .

اضطرت إلى الضحك ثم أحست ببعض الدوار . بدا الأمر وكأنه يعكس تلك الأغنية التي تقول : الحرية هي كلمة أخرى لعدم بقاء شيء تخسره . إذ أنك عندما تتحطم تماماً لا يعود هناك مجال لوقوع الأسوأ فلماذا القلق ؟ طبعاً ربما يحالفها الحظ ولكن هذه النسبة قد تكون واحد في الألف ، ومع ذلك تبقى هناك كلمة ربما .

كان قد تم إزالة رحمها ومبايضها حيث جذر المرض ، شكراً لله على ذلك لقد تم إزالة تلك الأعضاء الكريهة ، ولكن إلى أين ؟ هل ألقوها في القمامة ؟ هل أحرقوها ؟ وما الذي يهم الآن فقد تم القضاءعلى المصدر ، ربما لن يكون الأمر سيئاً بعد الآن ، لا أدري كيف وصل إلى هذا السوء ، على كل حال فقد انتهى الكلام عن إجراء جراحة رئيسية وموجعة لمنطقة البطن ، ومنذ اليوم الثالث بدأت تسير على عربتها والأنابيب المربوطة بها ، وأصبح الأمر عملاً يومياً عبر الردهة .

حسناً . لقد أصبح الديولوديد في أفلام الكرتون خارج اللائحة الآن ، ولكن المورفين لم يكن في نصف سوئه ، انتهينا من الكرتون وبقي ذلك الوجع الخفيف ثم جاءت التمارين يسار يمين يسار يمين ، اثنان ثلاثة أربعة حتى رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة ، كانت مع المورفين ترفع قدمها ربع انش عن الأرض وبدا كل شيء أنعم وأرحم ، ربما توجب عليها أن تبدأ طريق الألف ميل المرهقة .

ولكن هؤلاء الأشخاص الرماديون الذين يحتضرون في غرف المستشفى ! هل أصبحت هي منهم ؟ هل يمكن أن يحصل هذا الأمر ؟ هل يعقل أن تموت حقاً ؟ ربما في لحظة ما ظننت تظن أنك قد تموت ، ولكن ها هي الآن وباكراً هكذا وحتى قبل أن تجد الوقت لتعتاد على هذه الفكرة .

كلا . إن هذا كله حلم سيئ ، سوف تستيقظ منه في غرفتها البناتية الصغيرة المقامة على مزرعة قرب بحيرة باتل في مينيسوتا ، صحيح أن الوضع يعاني ركوداً هناك وأن الأمور بدأت تصعب بعض الشيء ولكن ما الكبير في الأمر؟ ما الذي يمكن أن يكون أفضل من شمس الصباح وهي تشرق على بحيرة باتل وزغردة طيور أبو الحناء . تلك البحيرة التي تضج بطيور أبو زريق وطيور الكاردينال ، وطائر الطنان

والطيور ذوات الأجنحة الحمراء التي كانت تملأ السماء قبل ظهور الأمطار الحامضية والتسمم الناتج عن المواد الثقيلة في المياه .

تلك الطيور التي كانت تأتي إلى ساحتها لتنهش حبات الكرز والتفاح والأجاص على الرغم من أنها كانت ترغب أكثر في تذوق التوت .

آه ، الشباب ، النظرات الجميلة ، البشرة النظيفة والعضلات المتناسقة والشعر البراق وحتى الأقدام كانت جميلة وقوية وتنبض بالحياة ، فتاة سعيدة ذات مستقبل مبشر ، كانت تشجع فريقها الرياضي في سنتها المدرسية الأخيرة ثم نالت منحة لدراسة الصيدلة في كلية الصيدلة بفرجيس فولز ، ولو لم يتوف والدها لأصبحت صيدلانية فقد كانت علاماتها جيدة ولكن الحظ السيئ الذي كان يرافق تلك الأيام ، أيام الركود الاقتصادي بلغ أشدّه وكان عليها أن تحدد خياراتها فقد كان العالم واسعاً كبيراً أمامها في ذلك الوقت ، وكان بانتظارها دائماً شيء من المغامرة ربما أمير وسيم تعيش معه العمر بسعادة ، سار الحظ معها ولكن أين ذهب ذلك الزمان وكيف ذرت تلك الأحلام . الآن هي تعيش في الظل وعزاؤها الوحيد في تلك المدينة الكئيبة إبرة المورفين الدافئة الحميمة .

كان من المفروض أن يكون طبيبها هو الأفضل في هذا الحقل ، ولكنه لم يكن يملك أخلاقاً سريرية ، وقد بدأت تشعر بالكره نحوه وخاصة عندما حرمها من المورفين وفرض عليها تناول حبوب التالينول ٣ . ثم بدأ الوهم يتسرب إليها من أن الأمور آخذة بالتراجع وبوتيرة سريعة .

أهلها قاموا بوضع روتيناً معيناً لرؤيتها . . . فعندما يكون أخوها مشغولاً تأخذها ابنتها في السيارة إلى العيادة ثم تعود بها إلى المكتب أما الطبيب النحيف فيبتعد عنها أو يأتي متأخراً . ربما يعتبر نفسه شيئاً مهماً . ألا يمكنهم ترتيب الأمر معاً ، مثلاً أن يذهبوا إلى الغائط معاً أو يتوقعوا ما سوف يحدث ، قد لا يكون الأمر مهماً حين تقف في الطابور أمام البنك وأنت في صحة جيدة ، ولكن أن تكون مريضاً بالسرطان وتنتظر ساعة وساعتين ثم يبلغونك أن تعود مرة أخرى في الأسبوع القادم ، تعود لأمر أسوأ من سابقه ، فهذا أسوأ شيء يحدث لك في العالـم .

هنا يصبح من الصعب عليك أن تنهض ، وإذا نهضت فعليك أن تجر نفسك جراً

لتناول السيبلاتين وطعمه المعدني في الفم ، قلة الراحة ، مجاراة الخطى التقلب على الأريكة . ولكن هذا الأمر ليس سليماً ، عليها أن تنهض وتسير وهي لا تستطيع القيام بذلك ، لذلك تعود مرة أخرى إلى الأريكة ، تنهض مرة أخرى وتتساءل ، هل هذا حقاً ما يحدث لي؟ أنا لا أصدق أن هذا يحدث لي ، كيف يمكن أن يحصل هذا الشيء؟ ثم تصل إلى مراحل الإسهال والقيء التي تضربها في وقت واحد وتملأ غرفة الحمام من السقف إلى الأرضية ، قيئاً جافاً وقيئاً فيه دم أو فيه عصائر المعدة الصفراء ، قد تستطيع شرب كأس من التيكيلا وتعقبه بكأس من الرم ثم الجن ثم تناول كعكات عيد الميلاد النهدية اللون وخمس باوندات من السوس وأملاح الأبسوم (ملح إنجليزي) . ثم بعض الكاز ومسحوق الغسيل وتشعر بعد كل ذلك أنك في نزهة يوم الأحد مقارنة بتناول السيبلاتين . إن الشيطان وحده يمكنه خلق مرض لا يمكن معالجته إلا بتسميم نفسك لتصل قاب قوسين من الموت ، وحتى لو لم يداهمك الموت فإنك قد تتمنى أن تموت .

كانت حشود الزائرين تتواصل طول ساعات النهار حاملين الزهور . وكنت في قرارة نفسي أصيح اذهبوا عني ، دعوني لوحدي بالله عليكم اتركوني لوحدي . ومع ذلك أعود وأردد شكراً لمجيئكم يا إلهي ما أجمل هذه الورود . مرت لحظات عندما كانت تحس بنوبة إسهال جديدة تستبد بها رغبة في القفز من النافذة عبر الطوابق الخمسة ، ألا تكفي خمس طوابق للموت ؟ أم عليها أن تبقى نائمة هنا وتموت ببطء؟ ربما عليها أن تقفز على رأسها مباشرة على أرضية الاسمنت وعندها لن تشعر بشيء . ولكنها لم تكن تستطيع أن تستلقي ، وكل جسمها يرغب في القفز كالسنجاب ، كانت برامج التلفزيون مملة وسخيفة ، مسرحيات غنائية تافهة ، حتى الأغاني القديمة بدت لها تافهة . إن الإنسان لا يعيش الا مرة واحدة ، أخذت تتحسر على الوقت الذي أضاعته وهي تشاهد المسرحيات الغنائية تمنت لو تستطيع أن تغفو قليلاً ، يا إلهي ألا يمكنهم إعطائي الدلوديد ، كلا فلننتظر قليلاً ، ربما يدفع الدلوديد الوضع إلى الأسوأ .

إذن عليها أن تتناول مخدراً ، ولكنه قد يبقيها نائمة خمسة أيام متتالية . فقط يا ليتني أنام ، أحست أنها يجب أن تخطو قليلاً ثم أحست أن عليها أن تستلقي قليلاً ، أن تتقيأ قليلاً ، آه شكراً لقدومكم :

«ما أجمل هذه الباقة من الزهور» .

كانت المعالجة الثانية أسوأ بكثير من الأولى أما الثالثة آه . اللعنة لقد أصبح سيناريو المعالجة أسوأ بكثير .

إن نجوم السينما الذين أصيبوا بالسرطان ثم كتبوا عنه يعتبرون محاربين صبورين وبواسل مقارنة بها . لم يكن لديها أدنى فكرة كم من الممكن أن يكون الأمر رهيباً . المجاعة في بنغلادش لا شيء مقارنة بما تشعر به إنها مستعدة للمبادلة ، خذوا بطاقتي الماستر كارد ومفاتيح سيارتي البويك سوف أجر بدلاً منها عربة بدولابين ! أي شيء إلا هذا ، حتى مرض نقص المناعة فأنا مستعدة لأن أبادل مرضي هذا به مع أي شخص ، أي شخص .

قال لها الطبيب النحيف ذو الصوت الذي يشبه صوت الأرنب :

«أن درجة سي أي ١٢٥ ما تزال مرتفعة لديك» وقال إن الأمر عائد لها لتقرر إذا كانت ستمضي في هذا الأمر ، لم تكن تدري ما الذي يمنعها وعاد صوته مرة أخرى وكأنه قادم من علبة ، سمعت نفسها تقول أيها الطبيب ماذا كنت ستفعل لو كنت مكاني ؟

أطرق مفكراً فترة من الوقت ثم رفع أطراف نظاراته المعدنية وفرك أنفه وقال : «كنت سأخضع للعلاج القادم» .

كان هذا الخيار هو الأسوأ . خمسة أيام من التقلب في الفراش بدون نوم ، التقيؤ والإسهال وهذا الهاتف كم ترغب في انتزاعه من الحائط . بعد كل هذه السنين ألا يمكنهم صنع جرس صامت ، هل أصبحت أدمغتهم ملأى بالغائط أم ماذا ؟ آه . أهلاً أنا أفضل اليوم ، كل شيء على ما يرام ستأتين يوم الأحد لزيارتي ؟ مع الأولاد كلا كلا أنا أشعر بصحة جيدة وأرغب في رؤيتك .

في أحد الأيام جاءها الصوت النحيف بأخبار جيدة . «إن درجة آل سي آي ١٢٥ لديك قد أصبحت ضمن الحدود الطبيعية لقد بدأ الأمر يعمل» .

هللويا ! يا إلهي دعها تصبح معجزة .

إنها معجزة قال لها ، بدا وكأنه صار إنسانياً .

اختاري من تشائين د . كيلدار ، د . بن كاسي ، د . ماركوس ولبي . لقد هبط

السي . آي . عندك إلى الحضيض . أعتقد أن علينا أن نجري العلاج مرة أو مرتين ثم نعود لتفحّص الأمر .

إذا كان العلاج أقل من اللازم فإن السرطان قد لا يموت أما إذا كان أكثر من اللازم فإن هذا قد يتسبب في تسمم خلاياك السليمة . ربما تتسبب جرعة واحدة من السيبلاتين في اصابتك بذبحة قلبية ومن ثم تموتين . معالجة أخرى هي كل ما أستطيع أن أفعله . حاضر سيدة ويلسون مرة أخرى ونعود للفحص .

«اني أكره أن أقول هذا» قال لها أين ذهبت بأفلام الكرتون ؟

سوف أكون صريحاً معك ، ما يزال لدينا مشكلة !

هذه النتوءات التي تشبه بذور العنب أصبحت الآن أقل من السابق ولكن الخلايا الباقية منها سوف تصبح مقاومة للسيبلاتين وستصبح خياراتنا أضيق من قبل . سوف نحاول القيام بتجربة شهر من المعالجة الكيماوية الشديدة هنا في المستشفى ، ليس بهدف الشفاء بل بهدف إيقاف تقدم المرضى وإلا فلن نستطيع أن نفعل شيئاً ألبتة ردت بصوت ضعيف «ماذا إذا لم أفعل شيئاً ؟»

- «ستكونين ميتة في غضون ثلاثة أشهر»

- «ميتة ! كيف ؟» قالت له .

- «سيضرب السرطان الرئتين والكبد أو المثانة ، لا تقلقي يا سيدة ولسون لن تشعري بألم كثير ، سوف أعمل على ذلك» أغلق الملف وانطلق خارجاً .

أدركت أنها في نهاية الأمر تريد أن تعيش قبل أي شي شيء آخر وبأي شروط لذلك قامت بتناول المزيد من السيبلاتين ، ولكن الطبيب كان على حق ، لم يستطع السيبلاتين أن يؤثر في تلك الخلايا الصلبة المقاومة ، والتي تشبه الصراصير التي تبقى حية حتى بعد وقوع حرب نووية ثم تنمو وتستمر . فليكن ! على الأقل لن تشعر بألم . ماذا تستطيع أن تفعل غير ذلك ، ما كان عليها أن تسمح له بفتح بطنها مرة أخرى ، إن هذا الأمر ضرب من الجنون . سوف تسمح له بتبخيرها مع الدكتور كنوز بست ، لقد ضربها الهواء ولا عجب أنها تشعر كالنار المتوحشة .

جاء أصدقاؤها وبذلت جهداً لإجراء بعض الحديث ، كيف يمكنهم أن يعرفوا ! كيف يمكنهم أن يعرفوا ماذا يعني هذا الشي؟ قالوا لها إنهم يحبونها ، كانت رائحة

المشروب تفوح من أنفاسهم ، إذ إن عليهم أن يشربوا كثيراً قبل أن يستطيعوا الوقوف بجانبها ، كانوا ينظفون لها وجهها ولكنها ظلت تعرق لوحدها طوال الليالي ، تلك الليالي السوداوية التي كانت تقضيها مع التايلينول ٣ والكساناكس .

ولكنها عندما كانت تعود إلى طبيعتها وإلى مزاجها تقول «الحرية هي كلمة أخرى لمعنى أن لا يبقى هناك شيء لتخسره» .

بعد عشرة أيام من المعالجة ، تدرك أن أصدقاءها ليسوا أغبياء فقد كانوا يعلمون أنه لا يمكنهم أن يعرفوا الحقيقة وقد أخبرها الطبيب ذو الصوت الأرنبي أنه لا فائدة ترجى من الاستمرار في العلاج بالسيبلاتين ، قال لها أنا آسف أعلم أنك امرأة شجاعة ، بعد شهر من تركها لذلك السم السيبلاتين ظهر هناك بعض الفائدة ، عادت لترى ألوان الأرض مرة أخرى وتحس بطعم الأكل ورائحة الأزهار ، كان الأمر بالتأكيد نوعاً من اللذة الحلوة المرة ، ولكن أصدقاءها أخذوها برفقتهم إلى هاواي حيث أبلغوها أنها يجب أن تقابل هذا الصديق العظيم . الذي عرض أمامها مسرحية وكان يحضر لها الورود كل يوم ، ورود ثمينة ورائعة ، لم تكن لتأبه لأي رجل بعد وفاة جون بالسرطان منذ عشر سنوات . ما أروع أن تنسى الأمر للحظة هنا وهناك لحظة ! فلتكن هذه اللحظة عشرة أو خمسة عشر ثانية ، كيف يمكنها أن تنساها ، منذ أن تلقت الأنباء لم يعد بإمكانها أن تنساها .

والآن عادت إليها تلك الآلام ، الوخز ، رقّةُ القلب ، مثل طعن الخناجر ، ربما كان هذا الألم أمراً يومياً عادياً ضخمته مخيلتها ، ربما كان حقيقياً ، ولكن هل يتحرك بسرعة؟ هذه النار المتوحشة؟ من الأفضل لها أن لا تسأل . فجأة عاد لها الرعب مرة أخرى ، تلك الليالي التي تقضيها وحيدة .

وأخيراً وفي أحد الليالي انهارت ونادت على ابنتها ، كانت تكره أن تفعل هذا ، أن تتقيأ في المنشفة ولكنها كانت المرة الخامسة عشرة ولم تكن قد صلّت بعد .

«آه ، أهلاً ، أنا بخير . . . ولكنني أفكر في النزول والبقاء لفترة بسيطة فأنا أرغب في رؤية جاني و – »

– «سوف آخذك عندها في الصباح .»

على الأقل كان أقاربها حولها ، تلك الحفيدة الرائعة يا للبهجة ، ربما قد تنسى الألم

وهي تلاعب هذه الفتاة الصغيرة ، إن الأمر أفضل من هاواي . بعد سنة كاملة من الجحيم حيث لم يتجاوز الوقت الجيد أكثر من ساعة وأربع دقائق وجدت طريقة لكي تنسى ، أخذت تساعد في غسل الأطباق وتراقب الألعاب وتحل الكلمات المتقاطعة في مجلة التايمز ولكن الألم اشتد ، عليه اللعنة إنه أشبه بالقوارض الصغيرة ذات الأسنان الصفراء أو بقطيع من النمل الأبيض الشفاف . الآلاف منه تأكل أمعاءها ، لم تستطع أن تلمس التالينول ٣ .

مر الطبيب الجديد ليعطي الديلوديد ، ارتاحت كثيراً ولكن ما حصلت عليه كان قارورة صغيرة من الحبوب الوردية وبعد الجرعة الأولى أدركت أن مفعوله بالشكل الحبيبي ليس كافياً ، لم يفدها بشيء ولكنهم وعدوها بأن لا ألم - بدأت تفقد قواها وتتحطم .

أمضيا يومين على شاطئ اوريجون ، من المريح أن تكون مع صهرها ، لم تكن لتدعي أن الأمور تختلف عما هي عليه الآن ، إذ يمكن أن يسبب لها وجعاً في القلب بتفاهة أحاديثه وسجائره النفاذة الرائحة ، فهو يدخن علبة كاملة في اليوم مع العلم أنه كان يقدر الوضع ويدخن خارج الغرفة بعيداً عنها .

أرادت أن تقول له : أيها الأحمق إن صحتك هي كنزك الثمين ، ولكنها كانت هي التي سمحت بمرور ستة أشهر بعد خروجها الأول من المستشفى .

كان شاطئ اوريجون رائعاً على الرغم من أن الموج كان بارداً جداً لسباحة حقيقية ، جلست عند مسبح الفندق تراقب حفيدتها وهي تسبح على طول البركة لوحدها مثل جرو صغير ولكنها سباحة مقبولة بالنسبة لطفلة في السابعة . شاهدا عرضاً من الشهب ذات ليلة ولكن من الصعب الحفاظ على مزاج جيد - وأنت سقيم .

بعد الاستحمام وقفت أمام المرآة ، بدا منظرها مرعباً وقد غطت جسدها آثار الجراحات تماماً مثل عروس فرنكستاين ، صلعاء ، هزيلة ، شاحبة ، ببطن منفوخ ، لم تستطع أن تنظر إلى وجهها في المرآة . كانت أحياناً تسقط على الأرض وتظل مستلقية هناك ، وقد منعتها شدة المرض من البكاء . وبدت أضعف من أن تستطيع ارتداء ثيابها ومع ذلك ارتدت ثيابها ووضعت تلك الباروكة اللعينة على رأسها ونزلت لتناول العشاء . كان من السهل أن تفعل ذلك إذا ادعت بأن ما يحدث ليس حقيقة

أو يحدث فقط في أفلام التلفزيون .

أحست بأنها فتاة صغيرة مذنبة وهي تجلس على مائدة الطعام تنظر إلى الأطعمة التي أجهدت ابنتها نفسها لتطبخها لها ، طبخات قديمة محببة أصبح طعمها الآن خليطاً من غبار القش وزيوت تكساكو .

شعرت بالراحة وهي تعود للأريكة وتحل الكلمات المتقاطعة .

كانت تشعر بثقلها على ابنتها ولكنها كانت تشعر بالرعب ، إلا أنهم كانوا أقرباءها . وعليهم أن يتحملوها حتى ولو وصل الأمر إلى هذا . ظهر صهرها وهو يتأرجح أمامها وحيّاها تحية الصباح عندما نهض لصنع القهوة ، كان حقيقياً وأصيلاً ويفيض حيوية لدرجة أنه كان يسبغ عليها أحياناً بعض الأمل ، ليس لأنه يستخدم المنبهات أو غيرها من تلك التفاهات ولكن عندما تكون سعيداً ويكون لديك هدف تعيش لأجله إضافة إلى حبّك للحياة ، فإنك تعيش الحياة بكل حيويتها .

لقد ارتكبت غلطة كبيرة باختيارها العزلة في تلك الجبال بعد وفاة جون ، فإرادة الحياة أهم بكثير من الأطباء والأدوية . عليك أن تعيد إحياء إرادتك للحياة ، كانت حفيدتها ماهرة في ذلك . لم تستطع أن تذهب إلى تلك الحصص حين يعرض شريط التأمل الذي تستطع من خلاله تخيل أسماك قرش صغيرة شرهة تلتهم خلايا السرطان الشريرة . على الأقل إن صهرها هذا لم يلاحقها باختراعات نظرية وفلسفية مع أنها لاحظت أنه كان يقرأ اغتيال الملك جيمس . لم تستطع أن تأكل كانت حمية الميلك شيك تخنقها ، خليط الفانيلا والشوكولاتة والفراولة ، على حسب رغبتك ، هل ترغب المدام ببعض النبيذ مع العشاء ؟ ها ها ها .

لم يعد الديلوديد يعمل ، كانت تشعر بألم شديد يشبه طعنات الخناجر في صدرها ، حتى أنت يا بروتس ، كانت تنظر إلى الساعة نظرة شر متحفزة - بانتظار تناول الحبوب كل أربع ساعات ، كانت الساعة الأخيرة أشبه بالجريمة فقد بدأ العرق السقيم يتصبب منها في الدقائق الخمسة عشر الأخيرة .

وقد تجرأت في صباح أحد الأيام وسألت صهرها .

«هل يمكنني أن أتناول ثلاث حبات؟»

أجاب ، يا للجحيم خذي أربعة فهذا الدواء آمن ، إذا شعرت بأي ألم ، خذي

أربعة كانت عيناها تكادان تخرجان من رأسها ، خذي اشربي هذه الحبوب مع القهوة وسيذهب الألم بسرعة .

كان صهرها على حق ، وكان أمهر من كل الأطباء ، إنك لا تستطيع عمل كل شيء بموجب الكتاب ، ربما كان هذا هو سبب مشكلتها طوال الوقت ، فقد كانت مطواعة مثل تلك الشخصيات السرطانية المثالية ، التي تؤمن بالقوانين والإرشادات ، هذا النوع من الناس الذين يرغبون بترك العالم ، وهو أنظف مما دخلوه ، هي طيبة تفعل دائماً الشيء الصحيح . ولكن هذا لم يكن صحيحاً ولا عدلاً لذلك فهي تشعر بالغضب الشديد .

في اليوم التالي كان صهرها على الهاتف يملي عليها وصفة دواء الميثادون من طبيب السرطان ، سمعت جانباً من النقاش بينه وبين الطبيب ، وهو يحاول إقناعه بحرارة بإعطائها دواء الميثادون ، جاءتها الوصفة وكأنها أمر تنفيذي يمليه كلارنس دارو أو ف . لي بيلي . لم تكن سمعت من قبل عن شخص يقرع آذان الأطباء مثله ، ليباركه الله ووقف معها ولم يتراجع ، كانت حبوب الميثادون تفعل فعل الشروق البرتقالي اللون في معدتها لتخلق موجات خفيفة تطلق راحة في جسدها ، هذا الإحساس بالراحة يبدد الموت والشك برغم الألم الذي ظل ينتابها لفترة من الوقت ، هذا الألم ما يزال هناك ، ولكن الميثادون له بالمرصاد لم تكن بحاجة إلى تلك الحبوب التافهة كل أربع ساعات .

في إحدى المرات ظهرت بقع أرجوانية اللون على جلدها وتورم كاحلها ، وانتابها وجع شديد في الورك ، قالوا لها في سيارة الإسعاف التي أقلتها إلى غرفة الطوارئ ، إن هذا ليس بالأمر الخطير ، فقط تضيق شرايين . . .

كان عليها أن تتناول مسدس جون عيار ٠,٣٨ حالما سمعت هذا الصوت ، وتضغط الزناد لتفرغ رصاصاته في فمها ، لم تكن تخاف نار جهنم عاشت امرأة محترمة خلوقة على الرغم من قلة إيمانها ، لم تكن من نوعية هاملت الذي يتساءل دائماً ماذا يوجد على الجهة الأخرى ؟ قد يكون هو الشيء نفسه الذي حصل قبل ولادتك زيلش . . . ، لم يكن زيلش سيئاً لهذا الحد ، ما الخطأ في أمر زيلش؟

ذات صباح انتظرت طويلاً قبل أن ينهض صهرها من النوم ، كادت تكسر أحد

أواني الحلويات وهي توقظه ، هل يظن أنه سينام إلى الأبد ؟ ولكنه في الحقيقة استيقظ في وقته المعهود .

«لا أستطيع أن ألتقط أنفاسي» قالت له .

«ربما دخل بعض الماء إلى رئتيك» أجابها ، كان يعلم أنها لا ترغب في الذهاب إلى المستشفى «إن لدينا بعض الديوريتيك الذي كانت كلبتنا بوكسر تتناوله عندما أصيبت بهبوط في القلب ، إنه دواء للكلاب ولكنه ينفع الإنسان ، كان وزن بوكسر يومها خمسة وخمسون باونداً . دعيني أرى ... خذي أربع حبات لا ... خذي ثلاثة من باب الاحتياط فقط . هل تشعرين أنك ستسعلين نعم ... كح كح كح .

هذا كفيل بسحب الماء من رئتيك ، إنه آمن ، حاولي أكل بعض الموز ، أو بعض قشور البطاطا لإبقاء البوتاسيوم عالياً في جسدك ، إذا لم يعمل هذا الدواء جيداً سآخذك إلى المستشفى» .

كيف يمكنه أن يعرف شيئاً كهذا ، هو على حق ، لقد عمل عمله كالسحر ، عليها أن تتبول بجنون ولكنها ، تمكنت من التنفس . مر خوفها بسلام ولكن آه ، لو كان باستطاعتها أن تفعل ... رقم ٢ هذا أفضل إذا كان الميثادون يسبب لها الإمساك فإن الميتاميوسيل كفيل بتسهيل الأمر . كان صهرها يقول . وقد نجح الأمر إلى حد ما ولكنه لم يكن أمراً تكتب عنه إلى أهل بيتها .

«لا أستطيع التنفس لم يعد الديوراتيك يعمل» .

قال لها صهرها في هذه الحالة عليهم أن يفتحوا مجرى الرئة . ولكن الأمر يتطلب الذهاب إلى المستشفى ، مرت العملية بدون ألم وشعرت براحة على الفور ، لقد نجحت العملية ولكن الإجهاد لازمها ثلاثة أيام متوالية .

طال انتظارها في غرفة الانتظار ، لماذا لا يستطيعون أن يتوقعوا ما سيحدث للمريض؟ لا يتطلب الأمر عبقرية لكي تعرف أين تنتشر تلك النار المتوحشة في الجسد؟ هل سيحافظ الميثادون على ذلك الوهج البرتقالي في المعدة أم لم يتبق لديهم شيء من الآمو .

هل الميثادون هو السلاح الأخير أم يوجد أسلحة أقوى مثل هيروين الشوارع؟ ربما كان عليها أن تلبس باروكتها وتخرج للحصول على هذه المادة البيضاء الصينية

الأصل .

بدأت الطفلة الصغيرة تشعر بالملل منها . لم تعد جدتي تسليني بعد اليوم ، فقط تستلقي هناك وتطلق تلك الرائحة . لم تعد تلبس ثيابها ،سوى ثوب الحمام . وللحقيقة كانت تشعر بالراحة في ذلك الثوب القديم ذي اللون الأسود والأحمر والقماش الصوفي المقلم ،ليس من النوع الرفيع بالطبع .

الكلمات المتقاطعة ، انس أمرها أصبحت كئيبة ، بإمكانك أن تعيش عيشة كليوباترا ، إذا وصل الأمر إلى مثل هذا الحد فما الفائدة من هذه الطريقة في العيش .

فهم صهرها مقصدها ، من بين الجميع الذين كانوا يقصدونها ، إن الأمر سيئ وسيستمر من سيئ إلى أسوأ حتى يصل إلى أسوأ شيء . لا أعلم كيف تستطيعين تحمل كل هذا؟ ، كأن يقول لها كيف تشعرين ؟ وهل يشبه ذلك الشعور الناتج عن الإكثار من شرب الخمور ، أسوأ من ذلك ، ليس مثله ؟ إذن ماذا ؟ هل تشبه شرب عشرة فناجين قهوة مغلية ؟ مثل هذا تماماً . يا إلهي ، لا شك أنه سيئ . كيف تستطيعين تحمله ؟ هل الأمر يشبه نتيجة الإكثار من شرب القهوة أو أن هناك جانب آخر؟ هل تشعرين بخدر في أصابعك أو بتشويش في الرؤيا ؟

هل تأخذك ثماني سنوات لتراقبي عقرب الساعة الثاني وهو يسير من رقم ١٢ إلى رقم ١ ؟ حسناً كيف يمكنك أن تعمري خمسة أيام ؟ إذا كنت لا تستطيعين تناول علبة عقاقير كاملة اطلقي النار على نفسك أو أي شيء آخر . ماذا عن الأسبوع التالي ؟ مرهقة ، متعبة آه ، يا أختاه لقد مرت علي ثلاثة أيام وأنا أعاني من الألم بعد السكْر ، أفضل أن أموت على أن أمر بمثل هذه التجربة مرة أخرى . أنا أعلم تماماً اني لا أستطيع تحمل المعالجة الكيميائية .

بعد ظهر أحد الأيام وبعد أن غادر إلى عمله ، عثرت على قطعة أدبية حولها دائرة مرسومة في نسخة كتابه عن شوبن هاور . جاء فيها :

في بواكير الصبا ونحن نتأمل في حياتنا القادمة ، مثل أطفال ينظرون إلى المسرح قبل رفع الستائر ، يجلسون بمعنويات عالية وحماس وينتظرون بداية المسرحية . انها نعمة كبيرة أن لا نعرف ماذا سيحصل لنا في الحقيقة . نعم لقد تركت الكلمات المتقاطعة وراحت تنقب في كتابة العالم «كإرادة وأفكار» .

كان شوبنهاور هذا عبقرياً ! لماذا لم يخبرها أحد عنه؟ كانت تقرأ كثيراً وخاضت في كثير من الفلسفات في ذلك الوقت ،لم تخرج بأي نتيجة معقولة ، المشكلة إذن في المصطلحات ، كانت بارعة في الكلمات المتقاطعة ولكن كلمات مثل الاسكاتولوجي !

يا الله ! إلا أن شوبنهاور دخل مباشرة إلى قلبها من بين كل الأشياء الهامة . فمع شوبنهاور كانت تشعر أنها تخرج من هذا الوقت الكئيب لهذا الشعور باقتراب الموت . ومع تأملاته وأقواله وجدت الرضا لأنه كان يقول الحقيقة بينما العالم برمته يوزع الأكاذيب .

ساعدها صهرها كثيراً في إنهاء بعض الأعمال مثل كتابة وصيتها ، رهن المنزل والتأمين وكيف تفعل هذا وتفعل ذاك؟ ، كيف سيتم الدفن هل بالحرق ؟ أم في التربة ، كان يناقشها في الأمور ، التي لم تكن ابنتها لتتجرأ على التفوه بها . كان ينتظر اللحظة المناسبة ثم يقول ما يريد ، مثلاً قال لها أن ابنتها تحبها كثيراً ولكنها تجد صعوبة في القول . تعلم أنها تنكمش خوفاً من إفشاء تلك المعلومات فقد كانت هي أيضاً تشعر بنفس الشيء وكان هو يعلم ذلك . فلماذا لا تستطيع أن تقول لابنتها كلمتين فقط «أنا أحبك»؟ لم تكن تستطيع ، وكأن الأمر كان شبه مستحيل . لم يكن صهرها يحاسبها على ذلك فقد كان يخشى الوقوع تحت الضغط أيضاً ؟ هل كانت تحضر كل أحد إلى المنزل في الأسفل ؟ ألهذا السبب كان يقرأ شوبنهاور ؟ كلا ، لأنه كان يعشق سماع شوبنهاور .

يقول لا بد لأحد ما أن يظهر ويقول الأشياء كما هي ، هكذا يتكلم عن شوبنهاور الرجل العجوز ذي النظرات الصارمة االذي يظهر في الصورة الملصقة على الثلاجة .

كان مما سمعته من صهرها عن شوبنهاور أنه كتب أعماله الرئيسية مع بلوغه عمر السادسة والعشرين . وقد تم تجاهل فلسفته هذه خلال حياته وحتى الآن . ففي هذه الأيام ما تزال أعماله تعتبر ضرباً من الفن أكثر منها فلسفة بمعناها الحقيقي . عمل فني؟ لماذا ؟ لقد بدت أعماله وكأنها حجج لا تقبل الجدل . عاش شوبنهاور معظم حياته في الغرف الرثة ، بالحي القديم في مدينة فرانكفورت بألمانيا وتشاركه في الغرفة مجموعة من الكلاب الصغيرة ، التي قامت بتسليته خلال قراءته وتأملاته وكتاباته

عن الحياة في وقت فراغه ، ورث بعض المال مما ساعده في الدخول إلى بعض الحفلات الموسيقية والسفر بين الحين والآخر مما ساعده في ذلك تعمقه في عدة لغات فقد كان لديه في الحقيقة ، كتابات حول معظم الأشياء بدءاً من الفكر اليوناني مروراً بالكتاب الشرقيين ، وما تلا ذلك . كان شوبنهاور عالماً كلاسيكياً يملك القدرة على مضغ الأشياء ووضعها في قالب متسائل محير . أما صهرها كان متحمساً للحديث عنه ، فقد أكد أن فرويد أطلق على شوبنهاور لقب واحد من أعظم ستة رجال عاشوا على وجه الأرض ومن بينهم نيتشه وثوماس مان وريتشارد فاغنر .

وهؤلاء جميعاً يقدمون التقدير والامتنان لهذا العبقري الذي اختصرت الكتابة عنه بكلمة واحدة «متشائم» .

كان صهرها يشكو دائماً من أن أعماله التي قد بدأت تنفذ من الأسواق ، ولم يعد من السهل العثور عليها ، وكان يخطط للقيام برحلة إلى فرانكفورت على أمل العثور على بقايا من كتابات هذا البطل وقد كتب لعدد من المسؤولين في ألمانيا متسائلاً ولكنهم صرفوه بفظاظة .

لقد أجهدت نفسها بذلك وبدأت هي تشعر بالقلق أيضاً من نفاذ نسخ أعمال هذا الكاتب وعدم توفرها ، وبدأت تقلق عليه وهي التي ستصبح طعاماً للدود في أي يوم .

لماذا تقلق؟ لأن الحقيقة جديرة بذلك وهي أهم من أي شيء آخر ، لقد أمضت عشر سنوات في تقاعد هادئ ، وكان لديها الوقت لتفكر وتتساءل وتتأمل ولكنها لم تخرج بشيء ، ولكن هذا العبقري الذي يتجاهله الجميع ، فتح أمامه أبعاداً من التفكير . هذا المجهول الذي أصبحت تزداد صعوبة العثور على كتبه يوماً بعد يوم والذي يعتبره العالم أثراً ذيلياً من أثار القرن التاسع عشر ، يذكرونه شخصاً موسوساً بالمرض يحمل بيده بلطة للتحطيم ، ويبغض النساء ، وينام واضعاً مسدسه تحت وسادته ويرتكب الكثير من الأخطاء ، حسناً ، ابحث عن أي شخص في العالم وستراه لا يختلف كثيراً .

بالله عليك كيف يمكنك أن تضع معنى لهذه التفاهة التي يدعونها حياة . يا ليتها تستطيع أن تضغط زراً وتعود وكأنها لم تولد أبداً .

كان صهرها يتعاطى حبوباً ضد الإحباط ، ويدعي أنه شخص حزين يبدو دائماً

نشيطاً مرحاً وجاهزاً للضحك . كان لديه حساً بالتفاهة طالما سبب لها القلق في الأيام الخالية عندما كانت تعتقد أن الحياة هي قطعة من درب مفروش بأزهار الربيع . وإنها لم تكن «تسير في الناحية المشمسة من الشارع» فهي على الأقل «تغني تحت المطر» . هكذا كانت تلك الأيام - يا لحماقتها شجعت صهرها على التفلسف والتهريج وهو ينتصب جذلاً كما بادرته بلمحة إعجاب أو بضحكة كان الألم يزداد ويزداد ولكن كانت هناك فترات من الضحك أيضاً .

ويقول شوبنهاور «لا يوجد وردة بدون شوك ولكن يوجد الكثير من الشوك بدون ورد» .

كان صهرها هذا يهون لها كل التفاصيل القبيحة التي بدت لها مستحيلة ، من بين الناس الذين قصدوها كان هو الأفضل .

شعرت في إحدى المرات بصفاء في رئتيها ، وبعض الهدوء في جسدها إثر استخدام تلك الزيوت المعدنية ، استغلت هذه الفرصة وسألت ابنتها طلباً أخيراً هل يستطيعان أن يأخذاها إلى المنزل مرة أخرى ؟ اتفقوا على موعد محدد وأخذوها بالسيارة عبر الجبال للاحتفال بعيد ميلاد حفيدتها السابع . كان الجميع متواجدين في ذلك المنتجع الجبلي الرائع المنظر ، جميعهم ربما رُوِّعوا من الحالة التي آلت إليها ولكن أحداً لم يظهر ذلك ، لم تستطع الخروج إلى الشرفة بسبب الشمس واضطرت إلى الاتكاء على الأريكة ، الجميع جاءوا إليها مرحبين بها ، كان هذا مزعجاً لها طوال فترة بعد الظهر ولكنها تأثرت كثيراً من الأحاسيس الدافئة التي بدت من أصدقائها . كان هناك العديد منهم .

يا إلهي ! كانوا في الحقيقة يحبونها وقد رأت ذلك بعينيها . لم يعد شيء يخدعها فقد أصبحت تنظر بعمق في النفس البشرية وترى الناس على حقيقتهم .

يا للأصدقاء الرائعين ، كانت فترة بعد الظهر رائعة ، وكانت هي آخر شيء جميل تراه .

وعندما عادت إلى بيت ابنتها بدأت تموت بجدية فقد وصل السرطان إلى رئتيها وأمعائها تماماً كما قال لها الطبيب . يا للجحيم لقد وصل حتى إلى كبدها وبدأ اللون الأصفر يغزو جلدها وحتى بياض عينيها .

أمضت في المستشفى أسبوعاً حيث عذبوها بتلك الفحوصات . كانت تلك هي الضربة القاضية التي وُجِّهت إلى قدراتها الجسدية والنفسية على الاحتمال .

بدأت تشعر بالاختناق ولم تعد تستطيع أن تتنفس . كان جميع اللاعبين موجودين في الغرفة معها ، علمت بأن هذه هي النهاية «بنجو» . وكانت هناك تمتمات تدور في الغرفة وفجأة أخذت الممرضات ملائكة الرحمة يتصرفن بطريقة ميكانيكية ، رأتهم يوجهون لهاتلك النظرات التي تعني أنها ستموت في أي وقت ووصل القس وحتى تلك السيدة البدينة أخذت ترتل جاء صهرها عندها بدلاً من الذهاب إلى عمله ، نظرت إليه بفزع ، كانت تحاول أن تحارب قدر استطاعتها ولكن ها هو قد جاء الآن وهو يعلم ماذا سيفعل بدون أن تسأله ، لحظات كان يقف مع الممرضة ، بعدها قامت بفتح أنبوب المورفين على آخره ولكن ظهرها ظل يؤلمها ، كل هذا المورفين لم يقض على وجع ظهرها ،

فقط أعطها بعض الوقت ولو دقيقة آه ! أفلام كرتون .

خرج أحدهم لشراء ساندويتشات هامبرغر من مطعم ماكدونالدز بينما جلست ابنتها بجانبها وهي تمسك بيدها ، أحست بالرثاء لهم جميعاً فقد كان عليهم أن يقفوا في الخلف ويلعبوا أدوارهم المرسومة لهم تماماً مثلما قال شوبنهاور أن أكثر ما يمكنهم فعله هو ضمان وجود متسع لهم بعيداً عن النار ، لأن الجحيم كان قريباً منهم الآن وبعدئذ أليس كذلك ؟ بدأ رأسها يهتز قليلاً بينما بقيت ممسكة بعلبة حليب ، كان الحليب ينزلق منها على السرير ، حاولت ابنتها أخذ العلبة من بين يديها ولكن أمسكت بها بتحد ،

انسي أمر شوبنهاور وكلامه التافه ، لم تكن تريد أن تموت ، تريد أن تحيا . أن تحيا .

أخذت ابنتها علبة الحليب ثم جاءت الممرضة وفتحت أنبوب المورفين مرة أخرى ، أخيراً ذهبت تلك الآلام وتلك الأفلام الكرتونية إلى غير رجعة إلى الراحة الأبدية .

عادت إلى المزرعة في باتل ليك بولاية مينيسوتا وعمرها تسع سنوات ، وتكاد تسمع صوت ديكها الأحمر السيد بارنز وهو يصيح عند أول ظهور لضوء النهار ، ثم نزل شقيقها وهو يدب على الأرض بحذائه الضخم الذي يرتديه للعمل . فتح الباب ليدخل الهواء البارد إلى البيت ، وسمعت صوت حذائه وهو يهشم الثلج المتجمد في

الخارج ، نعم لقد عادت إلى مزرعتها ، كان شقيقها ينظف المدخل من الخارج ، وطبعاً كان الديك السيد بارنز يلاحقه ويهاجمه أينما ذهب ، تناهت لها أصوات شقيقها وهو يلعنه ويضربه بالمعلف المعدني ، كانت هجمات السيد بارنز متوقعة وبدا من صوته أن فردْ (اسم شقيقها) قد ضربه بشدة ، ولكن بالنسبة لبارنز كانت هذه الساحة هي منطقته ، وبعد دقائق سمعت صوت باب يطرق ويغلق مرة أخرى . إن بارنز هذا شيء مميز ، كان عليها أن تتعلم منه درساً تنفخ صدرها وتنطلق في هذه الحياة . إني أريد أكبر وأفضل ما أستطيع أن أحصل عليه في هذه الحياة ، كان هناك أُناس يحاولون ثنيها عن عزمها ولكن يمكنها أن تفعل ذلك إذا هيأت نفسها .

كان ديكها الصغير الأحمر خبيثاً ماكراً ولكن كان له موقع ثابت في قلبها ، فقد كان دائم البحث عنها ، يغني دائماً لها ولها وحدها ، وفي فترة لاحقة حضر بعض الفتية واتفقوا على لقائها قرب صيدلية صودا فاونتين الواقعة في أعلى البلدة ، ولكن مواجهة واحدة مع بارنز رغم كونهم فتية مزارع كانت تمثل تجربة قاسية لهم . كان ديكاً متطرفاً بشكل غريب . نعم هو الآن في المزرعة . أحست بأختها تستيقظ في الدرفة السفلية من السرير فقد كان قد حان وقت حلب الأبقار ، كانت أختها تستيقظ دائماً بمزاج جيد على عكسها هي التي كانت تفضل قضاء الصباح على مقعد ريش بينما كان حلب الأبقار آخر شيء تفكر به . وفي الأسفل كانت تسمع صوت أمها تتكلم بجذل مع شقيقها وهو يدخل من الخارج مطلقاً الشتائم على الديك اللعين مهدداً بقتله . كانت أمها تضحك من كل قلبها ، كانت امرأة ذات قلب نظيف تماماً .

استطاعت أن تشتم رائحة لحم البيكن في المقلى ، التي كانت دلة القهوة ، قد بدأت تغلي بينما جدتها تقوم بتسخين الحليب لخلطه مع شراب الأوفلتين المقوي الخاص بها . كانت تكره الأوفلتين ، وخاصة عندما تمعن جدتها في غلي الحليب كثيراً لدرجة حرقه . ولكنها كانت تدّعي أنها تحبه وتصر على تناوله لتقوية عظامها ، وتجبر نفسها على ابتلاعه لكي تستطيع توفير بعض الطوابع للحصول على خاتم مجاني مشفر يتلقى عدة رسائل خاصة من الكابتن كودي . البطل الجسور الذي يظهر عبر الهواء . كانت ترغب بشدّة في الحصول على هذا الخاتم ، غير أن الركود الكبير الذي عم البلاد في ذلك الوقت وشح الأموال لم يمكنها من الحصول على الشيفرة أو

على الرسائل السرية ، أو حتى على شهادة الصيدلة ، لو أنها كانت مثل ذلك الديك الجسور لحصلت على ما تريد (حسناً . لقد انتهى كل شيء الآن) . كان اللاعبون جميعهم موجودين في الغرفة ، كان رأسها يهتز إلى الخلف وإلى الأمام ، ولكن سمعها كان ما يزال فعالاً . كان ذهولها واضحاً ولكنها كانت واعية أكثر مما يظنون ، سمعت أحدهم يقول إن شخصاً في ماكدونالد وضع كل شيء على ساندويتش الهامبرغر الخاص بها ، بالإضافة إلى الجبنة والكاتشب . لقد عملوا من الموضوع قضية يوماً ما ، عندما يصلون إلى ما وصلت إليه سوف يعلمون أن هذه الأمور تافهة جداً ولكنها لا تلومهم الآن فهكذا هي الأمور دائماً وهكذا هي الحياة . هذا كان كل شيء وها هي تموت .

فجأة أدركت أن الجزء الصعب قد انقضى الآن وأنّ عليها أن ترخي الأمور . فالحقيقة لم يكن الوضع سيئاً لهذه الدرجة ، لم يكن شيئاً مميزاً . كانت تحاول أن تستعيد صورة مستر بارنز مرة أخرى ، فقد كانت تلك الذكرى عنه مدعاة تسلية لها . حاولت أن تتذكر ألوانه ، لم يكن برتقالياً فاللون البرتقالي شديد الوهج ، أما لون الصدأ فهو رتيب جداً ، والقرمزي زاهٍ جداً . كان رأسه مزيجاً من اللون الأخضر والأصفر والذهبي وصدره وجناحاه أحمرا اللون . بمجمله ديكاً أحمر مقاتلاً كثير المشاكسة . كان يمكنه أن يكون ديكاً جميلاً لو لم يقحم نفسه في مشاكل كثيرة ، فقدَ عُرفه في معركة مع حيوان الراكون حين حاول سرقة بعض بيض الدجاج من القن ، ثم دخل في معركة أخرى بأسنانه وأظافره مع راكون ضخم آخر حاول سرقة البيض الثمين ، وتدخل فردْ وأطلق النار على الحيوان المعتدي وقتله . كان البيض في تلك الأيام يشكل دخلاً لنا ، وكان بارنز يعتبر بطلاً . أخذت تتذكره وهو يتبختر حول الساحة وعيناه تراقبان الدجاجات جميعاً ، فكنّ جميعهن حريمه ، ثلاثون أو أربعون دجاجة وهو شيخهم وسرحت بها الذكرى ، هي تضع بعض الأشكال على قطعة من الورق ، في أحد الأيام عندما كانت مريضة بالجدري ، كانت الأشكال تمثل عدد المرات التي نكح فيها هذا الديك دجاجاته . وفي أقل من يوم كان بارنز قد ارتكب هذا العمل سبعة وأربعين مرة ، طبعاً كانت هذه فقط هي المرات التي تمكنت من رؤيته فيها ، فلم تكن لتجلس طوال النهار مقابل النافذة لتراقب الأمر . لم تكن لتراه

دائماً ، ربما لأنه كان يذهب للعبث مع دجاجات الجيران في المزارع الأخرى . فقد كان الجيران يشكون منه بمرارة . بارنز يملك القدرة على تحريك الأمور مما اضطرها في كثير من الأحيان إلى الخروج على دراجتها والبحث عنه لإعادته إلى صوابه ، وكان بارنز أسطورة في تلك المقاطعة يظن أنه يملك العالم كله فوق ذلك الشمس والنجوم وطريق الحليب . هل كان هذا الشعور يسعده أم يعذبه ؟ لا بد أنه كان شعوراً رائعاً ، ربما هذا ما كان يعنيه شوبنهاور في نظريته حول إرادة الحياة . كان السيد بارنز تشخيصاً كاملاً لشوبنهاور .

طبعاً يصعب الأمر حين تكون ديكاً ، لكن بارنز كان أسعد مخلوق عرفته ربما لأنك حين تفعل ما ترغب به لا يصبح الأمر عملاً . ومهما كان الوضع مملاً في المزرعة فقد كانت تتسلى بمراقبة بارنز بالساعات ، كان منقذها في فترات بعد الظهر الحارة في شهر آب . لم يكن يخاف من أحد أو من أي شيء . هل كان ينتابه الشك أو القلق الديكي ؟

أبداً حاولت أن تستحضر في ذهنها صورة أخيرة عنه ، كان أزعر صغيراً يزن ثلاث باوندات ، ربما ينتظرها السيد بارنز على الجانب الآخر ويحييها ويصبح صديقها مرة أخرى .

اهتز رأسها بشدة ، أصبح المورفين ثقيلاً ، يا إلهي ! كانت تأمل أن لا تتقيأ ، لقد بقي الكثير مما لم تفعله أو تقله . حسناً ، لقد كان كل هذا جزءاً من الأمر ، لو أمكنها فقط أن ترى بارنز وهو يتبختر أمامها للمرة الأخيرة ، هيا يا بارنز !

كان شقيقها فردْ يجلس حزيناً وبيده شطيرة الهامبرغر بعد أن شرب كأسين من الجعة بدا وكأنه يقلد المستر بارنز قليلاً ، هل يستطيع أن يفعل ذلك ؟ من أجل الأيام الخوالي فقط ؟ أصبح صوتها ضعيفاً وتوقفت عن النطق ، هل ماتت للتو ؟ أم تحولت إلى اللون الأسود . كان صعباً عليها أن تعرف ، لا تحزن يا أخي العزيز ولا تبكي عليّ ، إنني أحبك ، ألم تعرف ذلك ؟ ألم أُظهر لك ذلك ؟ أنا آسفة ، آسفة ولكن الكلمات لم تخرج من فمها . كان المرض قد ألمّ بكل شيء . وأيضاً ذلك المخدر كان يجب عليها أن تظهر الحب لابنتها بدلاً من أن تزعم ذلك ، كان يجب عليها أن تكون أكثر إظهاراً وأكثر قرباً .

هذا كل شيء كان ! أحبب أخاك كنفسك واحبب ربك العظيم بكل قلبك وعقلك وروحك . لقد أرسلت إلى هذا العالم لتحب أخاك قدم أفضل ما لديك ، كن رؤوفاً على الحيوانات واتبع الوصايا العشر وما شابهها ، هل هذا هو كل شيء ! هه ! كل هذا كان أشبه بروث ا لحيوانات .

اهتز رأسها مرة أخرى على الجنب وإلى الأمام وإلى الخلف ، واستمر يهتز لم يكن هناك نفق أو ضوء أبيض أو أي شيء من هذا القبيل لقد ماتت فقط . . . .

١٩٩٤

أليس إليوت دارك

عند الغشق

عن «ذي نيويوركر»

فجأة صار ابنها يرغب في الكلام مرة أخرى . خلال النهار كان يجلس مكتئباً عابساً ينظر إلى بركة السباحة من الزاوية المفضلة في مقعده المتحرك وهو ملفَّعٌ بالبطانيات رغم حرارة الصيف ولكن عندما يحل المساء يعود «ليرد» ليصبح نفسه مرة أخرى ، تلك النفس القديمة الحقيقية ويصبح أكثر لطفاً كما كان سابقاً في طفولته ، وقبل أن يخفي نفسه تحت طبقات من السخرية والملاحظات الذكية ، أدهشتها حرارته في الكلام ، لم تعرف رجلاً من قبل يتكلم بهذه الصراحة ، كانت «جانيت» تقوم بمراجعة حوارهما في نفسها بعد أن ينام وتدرك ما كانت تتمنى لو أنها قالته ، تعلم أنهم يعتبرونها مخلصة بشكل عام ، ولكن هذا الأمر كان يتعلق بطريقة استماعها أكثر منه بطريقة التعبير عن نفسها ، وجدت صعوبة كبيرة في التواصل معه ، لكن كان العمل الذي ظلت تتوق إليه طوال حياتها . قبل شهر وبعد زيارة طويلة ومنهكة لصديق له جاء في قطار نيويورك ، أعلن «ليرد» سياسة جديدة فلا زوار ولا مكالمات هاتفية ، لم تكن لتلومه عليها ، فالناس الذين لم يسبق لهم رؤيته منذ زمن يُصدمون عادة إلى حد البكاء لدى رؤيتهم لمظهره فبدلاً من أن يبعثوا البهجة في نفسه كان يشعر بأن عليه لزاماً أن يخفف عنهم . تمكنت من سماع بعض هذه الحوارات ولم تكن الأخيرة بأحسن مما سبقها ولكنه لم يعد يحتمل كرر أكثر من مرة أنه لم يكن

مهيأ ليكون الطرف الشجاع ، الذي يلهم جميع من يزوره ويخرج مندهشاً يهز رأسه بتعجب لأن معنوياته قد ارتفعت . كان يرغب كثيراً في أن يكون الأكثر أناقة ويفتقد هذا الوضع كثيراً فهو لم يكن ضحية جيدة ، إذ إنه عندما يشعر بفقدان القدرة على الاحتمال يتراجع بإرادته خلف جدران من الصمت التام والزهد تبقيه مشغولاً لعدة أسابيع .

ثم عندما تهدأ أموره قليلاً تعاوده الرغبة في الحديث مرة أخرى وخصوصاً الحديث معها .

بدأت القصة عندما كانا ذات ليلة يتناولان الطعام على الشرفة ، لأول مرة منذ دخول الصيف ، وبعد أن قام «مارتي» والد ليرد بعد العشاء لإجراء مكالمة هاتفية ، بقيت جانيت في كرسيها الخشبي المجدول لتأخذ قسطاً من الراحة قبل تنظيف المائدة . شعرت في تلك اللحظة بالحنين إلى تدخين سيجارة ، اعتادت في ليالي مثل هذه الليلة ساكنة الهواء أن تدخن سيجارة وراء أخرى أو ثلاثة سجاير متعاقبة وأن تنفث دوائر كبيرة ورفيعة من الدخان ترتفع مع الهواء نحو الأعلى . كانت تفعل كل ما يطلبونه منها وتنهي ربع علبة سجائر قبل أن يطلبوا منها أن تتوقف ، ولكن الذي لا يصدق في الأمر أنّ «آن» و «ليرد» لم يصبحا مدخنين بل على العكس ألحّا عليها أن تترك التدخين ، وقد سُرّا كثيراً عندما علما أنها توقفت عن ا لتدخين أخيراً ، كانت ترغب لو أنهما شعرا بقليل من الأسف عليها ولكنه كان مؤشراً على أن جزءاً من طفولتهما قد شارف على الانتهاء .

استرعت انتباهها على غير عادة أول حشرة ضوئية تعبر في الليل وأول نجمة تظهر منذ بدأت العتمة تنتشر على المسطح الأخضر ، أخذت الأزهار التي أخرسها حر النهار باطلاق روائحها .

ألقت رأسها على طرف المقعد أغمضت عينيها . بعد قليل أخذ بطرق سمعها صوت تنفس «ليرد» ،كانت تشعر بالسكينة والهدوء لكونها بهذا القرب منه . كم من الأمهات اللائي يقضين وقتاً مثل هذا مع أولادهن الذين يبلغون الثالثة والثلاثين من العمر؟ أخذت تفكر فهي تقضي الآن معه وقتاً أكثر من الذي كانت تقضيه معه في طفولته . بمعنى أنها تستطيع أن تستجمع أفكارها حول ذكريات السنين المتداخلة

برفقته .

عندما كانا يجلسان بهدوء معاً ، كانت تشعر بأنها أقرب منه من أي وقت مضى ، رغم أنه كان هو نفسه ما يزال هنا في قوقعته المتهالكة إلا أنها ظلت تستمتع برفقته .

«الغَسق» قال فجأة :

انحنت وكأنها في حلم ثم جلست والتفتت اليه وكأنها لم تسمع ماذا قال .

«أذكر عندما أخذتني وأنا صغير إلى صالة عرض الصور وأخبرتني أن هذا الوقت في سكوتلندا يسمونه «الغسق .»

ارتعش جلدها وغصّت بهدوء حتى لا تجعل من عودته للكلام حادثة كبرى وقالت وأنت ظننت أني قلت «العتمة»

ابتسم لها ، أخذ ينظر إليها بتفحص «كنت دائماً أظن أن نهاية النهار تؤلمك ولكنك قلت أنها ساعة جميلة لأن اللون الأرجواني يطغى على الأجواء ويصبح شبيهاً بمرتفعات سكوتلندا في ليالي الصيف .»

«نعم وكأن الأرض تغطت بغطاء خلنجي مرقط .»

- «إني آسف لأنني لم أرَ سكوتلندا أبداً» قال لها :

- «ورغم ذلك فأنت سكوتلندي على الأقل من طرفي .»

تذكرت كيف أنها عرضت عليه مرةً الذهاب إلى سكوتلندا ، لكن «ليرد» لم يبد اهتماماً فقد كان وقتها ما يزال في الكلية وكان واثقاً في تحديد اتجاهاته التي انحرفت بعيداً جداً عنها .

«إنني مندهشة لأنك ما تزال تتذكر تلك الجلسة»

« لم تكن بعد قد بلغت السابعة في ذلك الوقت .»

- «لقد بدأت أتذكر الكثير مؤخراً .»

- «حقاً ؟»

- «غالباً فترة طفولتي ، ربما جاءت هذه الذكريات لأنك عُدت للاعتناء بي مرة أخرى ، أحياناً عندما أستيقظ وأرى وجهك أشعر أنني أستطيع أن أتذكرك وأنت تنظرين إليّ في مهدي ، حتى أنني أتذكر الثياب التي كنت ترتدينها .»

- «آه ! ضحكت» بخفة .

- «كان لديك دائماً أجمل التعابير» قال لها .

دهشت وكأنها أُخذت على حين غرّة إلا أنها كانت تملك ذكرياتها أيضاً وهي تنحني على مهد «ليرد» لتجد نفسها فجأة تنظر إلى صورة أمها .

- «أنا أعلم تماماً ما الذي تعنيه» قالت .

- «تعلمين ! أليس كذلك ؟»

نظر إليها نظرة دافئة حميمة جعلتها تستفيق لنفسها وجدت نفسها تلوح بقدمها بعصبية ظاهرة مثل بندول الساعة فتوقفت .

«أمي» قال لها «هناك عدة أشياء ما زلت أريد أن أفعلها :

علي أولاً أن أكتب وصية .»

انخلع قلبها من الخوف فكانت تؤكّد دائماً أمامه بأنه سيتحسن ، لم تكن متأكدة من أنها تستطيع مناقشة الاحتمال الآخر .

- «شكراً» قال لها

- «على ماذا؟»

- «لأنك لم تقولي أن هناك متسعاً من الوقت لذلك أو إبراز أي مشاعر أخرى .»

- «إن السبب الوحيد الذي جعلني لا أقول شيئاً هو أني أريد تجنب الفكرة وليس لأني لا أؤمن بها .»

- «هل تعتقدين أنه لديَ متسع من الوقت ؟»

ترددت ولاحظ هو ذلك وانحنى قليلاً إلى الأمام ولكنها عادت وقالت «إنني أعتقد أنه ما زال يوجد متسع من الوقت لذلك .»

- «حتى ولو أصبحت معافى فستبقى فكرة جيدة .»

- «أعتقد ذلك .»

- «لا أريد أن أترك الأمر حتى يصبح متأخراً جداً ، لا تريدين مني أن أترك فجأة كل شيء للمرضات أليس كذلك ؟»

ضحكت من عودة روح النكتة إليه «حسناً حسناً سوف أستدعي محامياً»

- «هذا رائع .»

مرت لحظة صمت ثم تابع «هل ما يزال هذا الوقت المفضل في اليوم يا أماه»؟

«أعتقد أنه كذلك» قالت له «رغم أني لم أعد أفكر أبداً بمصطلحات الأفضلية .»
- «لا تأبهي للأفضليات إذن . أخبريني ماذا تحبين ؟»
- «ماذا تعني؟» سألته
- «أعني تماماً ما قلت»
- «لا أدري . أنا اهتم بالأشياء العادية ، أنت تعرف ماذا أحب .»
- «سمي شيئاً واحداً .»
- «أشعر أني سخيفة .»
- «أرجوك»
- «حسناً . أحب رقعة الزنابق التي تنمو في الوادي أسفل الأشجار هناك والآن هل بإمكاننا تغيير موضوع الحديث ؟»
- «سمي شيئاً آخر .»
- «لماذا ؟»
- «أريد أن أعرفك أكثر»
- «آه! يا ليرد ليس هناك شيء لتعرفه .»
- «لا أصدق هذا ولا لدقيقة واحدة .»
- «ولكنها الحقيقة فأنا شخص عادي والشيء الوحيد غير العادي لديّ هم أطفالي»
- «حسناً» قال لها «إذن لنتكلم حول شعورك نحوي .»
- «هل تعبث مع مرضاتك هكذا عندما لا أكون موجودة ؟»
- «لا أجرؤ على ذلك ، فهن يعرفن كيف يبقينني حيث يُردنني أن أكون» ونظر إليها قائلاً : إنك تغيرين الموضوع .»

قامت بالتمليس على ثوبها وقالت : «أنا أعلم كيف تشعر اتجاه الكنيسة ولكن إذا رغبت في الكلام فأنا متأكدة أن القس سيكون مسروراً لسماعك ، أو فيما إذا كنت ترغب في استدعاء طبيب . . . » ضحك . فسألته : «ماذا؟»
- «إنك ما زلت تطلقين على المعالجين النفسيين اسم أطباء .»
هزت كتفيها استهجاناً

وتابع يقول

«أنا لا أريد طبيباً مهنياً» ، عقد يديه وشد عليهما بينما كان يكافح لإطلاق الكلمات .

«ماذا أستطيع أن أفعل ؟» سألته :

حدق بعينها وقال : «لقد أتيت من نفس المكان الذي أتيتُ منه أنا ، أريد أن أعرف عنك أكثر .»

ظلت تلك الليلة مستيقظة تفكر بالطريقة التي يمكن أن تساعده فيها وماذا يمكن أن تقدم له غير وقتها ولم تستطع أن تخرج بشيء .

انتابها القلق في اليوم التالي عندما عاد عبوسه مرة أخرى . ولكن في الليلة التالية والليالي التي أعقبتها فعلت الظلمة سحرها ، فقد قامت بتحضير العشاء على المائدة في الخارج وبعد انصراف مارتن إلى دراسته عاودت هي وليرد الحوار ، بدا الهواء حولهم وكأنه يجيش بالطاقة التي يطلقانها في جهودهما لكي يعرفا ويتعرفا ، تساءلت هل يوجد هناك أناس آخرون ، بهذا القرب فهي لم تكن في مثل هذا القرب من أحد لم تكن هي ومارتن بالطبع ، لم يكونا متقاربين روحاً بروح حتى مع صديقاتها المخلصات اللواتي تعتمد عليهن ،كان لديها إحساس دائم بأن ما تفعله يغربهن عنها . طبعاً كان لدى صديقاتها الخيار في أن يقاطعنها كما أنّ مارتن كان يمكنه أن يطلب الطلاق سيما وأن ليرد كان هو أسيراً عندها . فالأهل والأطفال دائماً هم أسرى بعضهم البعض .

على ضوء ذلك كان من المدهش ملاحظة كم كان استيعاب المواضيع بينهما قليلاً ، فقد توقف الاثنان عن الاستماع لبعضهما باكراً جداً وقد ظنّ كل منهما إنه قد فهم كل شيء .

أدركت أنها تشترك مع الجميع في ذلك الذنب ،

وكانت ما تزال تتعجب كلما ذهبت لزيارة منزل ابنتها كيف استطاعت أن تكون لائقة ومرتبة؟ هكذا حيث ظلت في مخيلتها مراهقة مارقة تلقى ثيابها في زاوية خزانتها وترمي قشور الحلوى تحت السرير . كما أنها كانت تستغرب عدم اهتمام «ليرد» بالفتيات . لقد كان كذلك . تذكرت كيف كانت ترقد مستيقظة لتسمعه وهو

يدخل البيت آملة أن يكون ذكياً بما فيه الكفاية لكي يتعلم حقائق الحياة ويأخذ احتياطاته؟

أما الآن فقد اتيحت لها الفرصة لتتخلص من هذه المعتقدات ولا يعني هذا أنها توافق على كل ما يفعله ليرد ، فقد بدت الكثير من أفعاله غير مفهومة بالنسبة لها ولكنها أرادت أن تعرف كل شيء عنه .

عندما كانت تمتلك صوابها بعد لحظات من استيقاظها في الصباح كانت تجد نفسها تتوق حباً وامتناناً إلى «ليرد» وكأنه ما زال طفلاً صغيراً ومخلوقاً كاملاً تتوق إلى رؤية ذلك اليوم الذي تستطيع فيه مراقبته وهو يكبر .

وبسرعة أصبحت تطمع أكثر بتلك الجلسات المسائية ، لدرجة أنها استبدلت عادتها في متابعة قراءة الطالع في الجريدة اليومية ، إلى عادة أخرى هي متابعة أوقات غروب الشمس وصارت تنتشي لرؤيتها وهي تغرب أبكر وأبكر ، كلما انحسرت أيام الصيف لتجعل النهار أقصر وأقصر مما يعني لها أنها لن تنتظر أكثر وأنها لن تنام باكراً .

تعلم أن الأمر يبدو سخيفاً فقد ظهرت مثل فتاة مفتونة تتصرف بطريقة مضحكة .

كان شعوراً لم تكن تتوقع أن يعود إليها مرة أخرى ولكنها تشعر به الآن وقد انغمست فيه لتعيش حياتها بانتظار ساعة طلوع الفجر ، عندما تبدأ عيناه باللمعان وهي الإشارة على أنه بدأ يصحو وأن نهارها الحقيقي قد بدأ .

- «لقد انطلق أبي بسرعة» قال لها في إحدى الليالي بينما هي تتساءل متى سيذكر هذا الموضوع .

- «إن لديه مكالمة هاتفية مستعجلة» قالت بسرعة ،

نظر «ليرد» مباشرة في عينيها وكانت نظراته تنم عن عتاب دافئ كأنما يريد أن يُعلمها بأنه يفهم بأنها تستغل هوس «مارتن» على عمله في سبيل أن تكذب كذبتها الرئيسية في حياتها ، تجنبت نظراته فقد كان موقف «مارتن» مبهماً لديها ، لماذا لا يستطيع أن يجلس لنصف ساعة بعد العشاء ، إذا لم يكن معها فعلى الأقل مع ابنه الذي يحتضر .

التفتت إلى «ليرد» بحدة فقد رنّت كلمة يحتضر في دماغها بقوة ، وأخذت تسأل نفسها هل استطاعت أن تلفظها أم لا ؟ ولكنها لم تقم بأي حركة سوى أنها تمنت في

نفسها ، لو أنها لم تذكرها فهي تحاول ما استطاعت تبني أفكاراً جيدة خلال وجوده إذ أن الأفكار السيئة تسبب له نوماً مزعجاً وتأخذ هي في لوم نفسها فيما بعد .

كانت دائماً تتابع القراءة في المجلات والكتب وتركز على أهمية التأثيرات النفسية على مجرى المرضى ، وهي وإن لم تكن تصدقها كلها فقد كانت تشعر بأنها ملزمة على أخذها بعين الاعتبار ولو ضمن مجال الشك لعلها تساعد أو تساهم في المساعدة ، فلن يتسبب التفكير الإيجابي بأي أذى بل ربما تعطيه الفرصة لأن يعيش بعض الأشهر الإضافية .

- «أعتقد أن أبي لا يحب أن يبقى حولي .»

- «هذا ليس صحيحاً ؛ لقد كان صحيحاً سابقاً»

- «مسكين أبوك لقد كان دائماً موسوساً تجاه المرض وهو شيء نشترك فيه جميعاً .»

- «لا بد أنه يكره الأمر»

- «إنه يريدك فقط أن تتحسن .»

- «إذا كان هذا ما يريده فإنني أخشى أن أحبطه مرة أخرى على الأقل هذه المرة ستكون الأخيرة التي أحبطه فيها .»

كان كلامه مرحاً وبدت عيونه مشعة كما ألفناه سابقاً .

سمحت جانيت لنفسها بمجاراته في مدحه فقد كان دائماً ولعاً بالسخرية ولا يوجد لديه موضوع مقدس بتاتاً ، فصورة السلطة الواقعية في المنزل كانت على الشكل التالي - لم يكن «مارتن» يقضي مدة كافية في البيت ليصبح منظماً حقيقياً للأمور - وكان عليها هي دائماً أن تقوم بتوبيخ «ليرد» وردعه ولكنها كانت في الحقيقة تستمتع بروحه المرحة ، وأخذت الآن تستجيب لها بصفعه صفعة خفيفةً على يده . كانت هذه هي ردة فعلها الفورية المدفوعة بروح عالية لا تأبه للظروف ، ولكن الأمر لم يكن صحيحاً إذ أنه على الرغم من كثافة الثياب التي يرتديها فقد كانت يداها تضربان على عظام فلم يتبقَّ للحقيقة شيء منه . إنه الخاسر على كل حال ، لم تكن تملك سوى هذه الكلمات لتنتقد «مارتن» فقد صدمها هزاله ونحوله وأعادها إلى جدية الموقف مرة أخرى .

دائماً تحاول أن ترسم لمارتن صورة وديعة بين أطفاله فقد أصبح شخصية من اختراعها تلفها سلسلة كاملة من المشاعر حيث تشرح لهم كيف أنه يفتقدهم في رحلات عمله ويفكر بهم في كل دقيقة عندما يتأخر في العمل . ومع ذلك فقد اعترفت لنفسها عندما كانت تقابل طبيباً نفسياً قبل سنوات أن«مارتن» لن يكون أبداً فتى أحلامها .

كان رجلاً طموحاً متحدياً منهمكاً في شؤونه الذاتية ومثل هذا الرجل ما كان يجب أن يتزوج . كانت مشاركتها لأطفالها في وقائع الحياة مصدر راحة لها رغم أنها اكتشفت في النهاية أن الأطفال يعتمدون في حياتهم على الأوهام أكثر من الحقائق . كانوا يكرهون عمله ولكنهم لم يستطيعوا أن يقنعوا أنفسهم بأنه يملك خياراً آخر لذا فقد أسقطت الموضوع من اعتبارها .

- «شكراً يا أمي أنها خسارة في وضعك أيضاً .»

أحست بخفقان خلف عينيها ، أغضبها قليلاً ، فقد كان آخر شيء ترغب فيه هو البكاء ، فهناك وقت طويل لذلك فيما بعد «إنها ليست غلطته بالكامل» قالت بعد أن استردت سيطرتها على نفسها : «أنا أيضاً لا أتكلم عن نفسي بشكل جيد . فأنا لم أتربّى على ذلك .»

- «كذلك أنا» قال لها

- «نعم أعتقد ذلك»

- «لحسن الحظ لم أعر للأمر أي انتباه .»

- «أرجو ذلك» قالت وهي تعني تماماً ما تقول «هل أحضر لك شيئاً ؟»

- «نعم نظام مناعة جديد .»

- مالت بعينيها محاولة أن تخفي تأثير مزاحه على صلواتها -

«إن هذا مضحك جداً كنت أفكر في مجال شاي مثلج أو بطانية إضافية .»

- «أنا بخير ولكني بدأت أتعب في الحقيقة .»

استنفر جسدها كله وأخذت تبحث في وجهه بقلق عن أي مؤشر لتدهور صحته .

كانت أعصابها تنبض وتحس بوخز كلما طلب شيئاً ويرتفع الأدرنالين لديها وتحدث ردة فعل اضرب أو اهرب كما ظنت ، كانت دائماً في الهروب ، ولكنها أرغمت نفسها على البقاء لتقاتل بأية أسلحة قليلة بقيت لديها . كانت دائماً

تتجاوب مع طلباته ، تتأكد من وضع شراشف نظيفة له عندما يتعب وطعام جيد عندما يجوع . كان هذا كل ما تستطيع فعله .

- «هل أحضر لك ممرضة؟» أزاحت مقعدها عن المائدة

- «نعم» قال لها «ليرد» وبضيق مد يده إليها ، كان القمر يضيء جلده بلمعة قرمزية واستحال وجهه إلى اللون الرمادي .

كان منظراً جعل معدتها تهبط ، ركضت مسرعة لتحضر «ماغي» وعندما عادا كانت عينا «ليرد» مغلقتين ووجهه ملوياً على جانب واحد . وفوراً تحسست جانيت حركة صدره كان ما يزال يتنفس ، وكتفاه تتمددان ، أحست قبل ذلك بثوانٍ بقشعريرة باردة تسري في عروقها واستجمعت قواها أمام احتمال أن تكتشف بأنه قد يكون ميتاً .

أخذت ماغي تقيس نبضه مقابل الساعة في يدها ، كانت شفتاها تعدان ثم وضعت يده المنهكة على حضنه ، وتمتمت قائلةً : نبضه سريع

- «لست مندهشة» قالت «جانيت» وهي تحاول السيطرة على خوفها «لقد تحدثنا طويلاً»

- عبست ماغي وقالت «عليّ أن أوقظه الآن ليتناول أدويته .»

- «حسناً أظن أنك على حق فقد نسيت ذلك .»

جرّت جانيت المقعد إلى غرفة العلاج المؤقتة في الأسفل وساعدت ماغي في رفع ليرد على السرير الذي استأجرته من المستشفى ، ورغم أن وزن ليرد كان ضئيلاً جداً إلا أن العملية تطلبت جهداً من كلتيهما فقد كان وزنه وزناً ميتاً ومقارنة بماغي فقد كانت جانيت تشتعل قوة إلاّ في تلك اللحظة التي لمست فيها خدّه الشاحب فأخذت تصلي لئلا تكون قد سببت له أي أذى .

- «من هو كاتبك المفضل» سألها ذات ليلة .

- «آه : هناك الكثير» قالت

- «المفضل حقيقة»

فكرت قليلاً : «الحقيقة أنّ المواضيع هي التي تجذبني أكثر من الكُتّاب فأنا أقرأ الكتب في دورات لأملأ شوقي العاطفي» .

- «مثل ماذا مثلاً ؟» .

- «الكتب التي تحكي عن الناس الذين يهاجرون ليعيشوا في أفريقيا أو استراليا أو البحار الجنوبية .»

- ضحك وقال : «إن هذا يفسّر نفسه وماذا أيضاً ؟»

- «عندما أشعر بكراهية للحياة أقرأ كتباً حول الجرائم الواقعية والحقيقية كما يسمونها اليوم فهي شديدة العقاب»

- «هل هذا ما يدفعك لقراءتها؟ لم أكن أتصور ذلك ، . ولكنني أعلم أني في بعض الأحيان أحب منظر الدم رغم شعوري بالقرف من نفسي لاهتمامي بهذه الأمور .»

- «إن عليك أن تفكر متى مرت عليك مثل هذه الأوقات ، فهذا سينبؤك الكثير»

- توقفت قليلاً ثم تابعت «لا أحب أن أقرأ عن الجنس .»

- «مفاجأة كبيرة !»

- «كلا» قالت «إنها ليست مثلما تعتقد ، ليس فقط لهذا السبب إنك تنظر إلي كسيدة محتشمة ، أنا أعرف ذلك ولكن تذكر أن جزءاً من واجبات الأم هي ضمن هذه الطريق على الرغم من أنني تماديت قليلاً . . .»

- هز كتفيه بود قائلاً : «بدأ الماء يجري تحت الجسر ولكن استمري في موضوع الجنس .»

- «أعتقد أنه يجب أن يبقى موضوعاً شخصياً ، إنني أميل دائماً إلى الشعور بأن هؤلاء الكتاب يستعرضون عندما يصفون مشهداً جنسياً فهم لا يحاولون وصف الجنس على حقيقته بل يحاولون إظهار أنهم لا يخشون الكتابة عنه كأنهم يؤشرون بأصابعهم إلى أمهاتهم» تحرك قليلاً وتابعت جانيت «أتعتقد أنه لا يوجد أساس لهذا الكلام ، أنا أتساءل عن دوافعهم لأني لا أظن أن الجنس يمكن أن يعرض على حقيقته ، أعني كل تلك الأحاسيس والمشاعر التي لا يمكن وصفها بلغة الكلام إذا كنت تريد أن تصف ميكانيكية العملية الجنسية فإنك ستنتهي بتأثيرات تحليلية أو خلاعية وإذا أردت أن توصف العلاقة الحميمة في الجنس فستنتهي بوصف مجردات فقط .

ان الجنس الوحيد الذي تستطيع أن تصفه جيداً هو الجنس السيئ . ومن يريد أن يقرأ ذلك بربك ؟ عندما يمارس كل واحد فينا جنساً سيئاً خاصاً به .»

- «أماه!» أخذ يضحك بدون توقف وقد تدلّت يداه على جانب المقعد .

- «أنا أعني ذلك فالموضوع بالنسبة لي كأنك تقرأ عن شخص يستخدم الحمام .»

- «يا الله !»

- «والآن من هو المحتشم؟»

- «أنا لم أدّعي أنني لست محتشماً» قال لها ربما علينا أن نغير الموضوع التفتت إلى البعيد كانت الأنوار قد بدأت تضاء في المنازل معلنة هبوط الليل ، حتى أوراق الشجر بدأت كئيبة والعشب جافاً رغم كل الرعاية والرّي من قبل البستاني كان الصيف على وشك الرحيل .

«ربما لا يجب أن نغير الموضوع» قالت له «لقد كنت أتساءل : هل كان هذا الجانب من الحياة مرضياً لك ؟»

- «يا أمي لا تقولي أنّك تسألينني حول حياتي الجنسية .»

أخذت منديلها وطوته بعناية وأخذت توضب جوانبه بأطراف أصابعها ، أحست بهدوء ورباطة جأش وكأنها اكتسبت أخيراً القدرة على أن تعطي صورة المرأة المحترمة . ضغطت أصابعها ووضعت يديها على حضنها وقالت .

- «أنا أسألك عن حياتك العاطفية . هل أحببت يوماً ؟»

وهل بادلتك إحداهن الحب ؟»

- «نعم»

- «أنا سعيدة لذلك .»

- «ولكن الأمر لم يكن سهلاً» قال :

- «آه ! أنا أراه سهلاً في كبري»

- «هل يعلم أبي بهذا الأمر ؟» لمعت عيناه بمكر .

- «لا تكن وقحاً» قالت له :

- «أنت التي بدأت ذلك»

- «إذن سأتوقف الآن .»

وضع إشارة مضحكة على وجهه مرة تلو مرة حتى لم يعد يستطيع الابتسام وأعادت إليها تصرفاته ، هذه ذكريات محاولاته وهو طفل أن يسحرها بباقات الورود التي كان يضعها في حضنها والرقصات العفوية التي كان يقوم بها أمامها ، كان دائماً يذهب بعيداً في مثل هذه الممارسات ثم يتراجع ليهجم مرة أخرى وكانت دائماً تسمح له بأن يطريها .

وفجأة أدركت أن ليرد كان دائماً هو حب حياتها .

كان المطر شديداً في تلك الليلة لذا قررت جانيت أن تقدم العشاء في المطبخ حين يخرج مارتن ، أكل الجميع في صمت ،كانت تشعر بالتحرر من التزامها بمواصلة التحدث والتي كانت ترغم نفسها عليها عندما كان ليرد يرفض الحديث مطلقاً . أدركت الآن أنها تستطيع توفير حديثها لما بعد .

لم يكن يأكل شيئاً مؤخراً سوى المأكولات الخفيفة كالبطاطا المهروسة وبوظة الفانيلا وحلوى الأرز .

مرّت الأيام التي كانت فيها تتبع معه حمية قاسية ضد الجراثيم ، لم تعد تجدي كل صنوف الدراسة التي تحضرها لتساعدها في تحضير طعام مناسب له ، وأصبح جسده جزءاً من الماضي أيضاً .

كان يأكل ليغذّي ما تبقى من دماغه ، بدا وكأنه يريد استعادة ذلك الشعور المدلل الذي حظي به عندما مرض في طفولته حين كانت تقدم له شراب الزنجبيل والخبز المحمص المغمس بالقشدة وتلعب معه ورق الشدّة بدون توقف . كان هذا نوعاً من الإحساس العام بالابتعاد عن المرض ، انطلق بعدها تماماً لأنه كان يعلم بأنه سيتحسن ويصبح نشيطاً بعمل ملايين الأعمال المتوقعة منه ، أما الآن فقد انطلق أيضاً ولكن لأنه علم أنه حارب بما فيه الكفاية .

وأخيراً دفع صحنه إلى وسط المائدة مشيراً إلى أنه قد انتهى من تناول الطعام علماً بأن آداب المائدة لديه لم يعُد لها أثر فمن الذي سيهتم ؟

أحست بعصبية خفيفة وهو نفس الإحساس الذي كان يراودها عندما تجلس في طائرة على وشك الإقلاع بسرعة من مدرج المطار . رتبت شوكتها وسكينها على طرف الصحن ودفعت مقعدها إلى الأمام قائلة لقد حلمت حلماً غريباً ليلة أمس .

بقيت عيناه باهتتين
انتظرت قليلاً وقد راودها الشك بأنها بدأت الحديث مبكراً .
- «هل تحب أن تأكل شيئاً آخر؟»
- أطرق برأسه لم تكن هناك أية إرادة في تعبيره ، كان رفضه ميكانيكياً فقط ، كأنها إشارة آتية من معدة متخمة ، مثل حيوان يبتعد عن صحنه بعد أن شبع .

ولكي يمضي الوقت ، حملت الصحون إلى المجلى ونظفتها ثم وضعتها في الجلاّبية ، حملت البوظة إلى الطاولة وسحبت ملعقة من الجرار وتناولت قطعة كبيرة من القشدة السميكة العالقة داخل الغطاء ، أكلت بدون تفكير وكأنما غافلتها حلاوة الطعم على حين غرّة . مع ذلك فقد بقيت طول الوقت تراقب ليرد وكلما أحست بمؤشر على استعداد لديه للكلام تعود إلى الطاولة بسرعة لتجد وجهه ما يزال شاحباً .

مشت إلى النافذة ، كان المسطح العشبي قد فاض بمياه المطر وتكونت داخله برك صغيرة وتدلت أوراق الأشجار دائمة الخضرة ، أما السماء بقي لونها كما كان في الصباح أصفر رمادياً ، رأته يركز بصره على الخط الذي تلتقي فيه قمم الأشجار مع الفضاء وفهمت ما يعنيه . لم يكن هناك فعل محبب له في هذه الليلة الماطرة ، حتى الظلام كان بلا حياة وكان اللون الرمادي للمنطقة قد سرق الضوء منه .

- «أنا آسفة» قالت له بصوت عال وكأن الأمر كان خطأها .

ابتسم لها ابتسامة خفيفة .

ظلت تحوم حوله بعضاً من الوقت على أمل أن يبدأ الحديث ولكنّ وجهه ظل كامداً وأخيراً استسلمت وانتابها شعور بالإحباط وكأنها منبوذة وجاهدت كي تجلس معه وتراقب المطر .

- «لا بأس» قالت «إنها ليلة مناسبة لمشاهدة التلفزيون» جرّت مقعده إلى حجرته وتركته مع ماغي ومن ثم وقفت حائرة لا تدري ماذا تفعل . فلم تكن رسمت خطة طارئة لمثل هذا الوقت . كانت هذه هي الفترة الوحيدة في النهار التي لم تكن تحتاج فيها لتخدّر نفسها بلعب التنس أو بدروس البريدج أو بالقيام بأعمال تطوعية وترهات ، لم تكن حسبت حساباً لهذا الاحتمال . لقد مرّ وقت لم تكن تعطي نفسها فيه أي اهتمام كما كان «مارتن» يسميه الصورة الكبرى ، قادتها حواراتها مع «ليرد»

إلى اختراع صورة خاصة بها . أدركت أن جزءاً منها ساهم في هذا السيناريو ، بدأت أمسيات الصيف تتداخل في الخريف وشيئاً فشيئاً سيأتي الشتاء وتحيا الأحاديث حول النار ، حيث يرخي «ليرد» قدميه على المسند العثماني القديم في الحجرة وتأخذ هي بنسج كنزات الصوف التي ستهديها في عيد الميلاد إلى أطفال ابنتها «آن» .

سمحت لنفسها بتخيل المستقبل وكانت هذه غلطتها وعقابها . فهذه الأمسية الصامتة ذكرتها كيف كانت الأمور سابقاً .

لم تعد تعرف أين تذهب حتى وهي في بيتها وانتهى بها الأمر إلى أن أخذت بالتجول بين حجرات المنزل في حين كان يكتنفها شعور غامض؟

تلفتت حولها عدة مرات متوقعة أن تجد أحداً . ولكن بالطبع لم يكن هنا أحد ، كانت لوحدها تماماً . وأدركت في النهاية أنها كانت تتخيل شخصاً من أجل إضفاء صفة مادية على مصدر جروحها فكانت تحاول اختراع عدو أو شيطان أو قوة شريرة يمكن إخراجها . وزودتها مخيلتها بظواهر ذات وجود مادي تستطيع معها الادعاء بوجود عدو يحوم حولها ، عدو قد يمكنها من استدعاء الشرطة لاعتقاله ولكن العدو كان جزءاً من «ليرد» ولا يستطيع هو أو هي أو أي من الأطباء والخبراء والقسس أن يفرقوا بين ا لاثنين .

صعدت لتأخذ حماماً ، لم تكن تهتم لجسدها إطلاقاً لدرجة أنّها بالكاد لاحظت أن الماء ساخن وأن جسدها قد تورّد أحمر .

بعد ذلك جلست على الأريكة الطويلة في غرفة نومها وحاولت أن تقرأ ، حين سمعت صوتاً فانحنت إلى الأمام باتجاه مصدر الصوت وتساءلت هل هو صوت «ليرد» ؟ ظنت فجأة أنه بدأ يتحدث وأنه يتحدث الآن إلى «ماغي» ارتدت ثيابها ونزلت إلى الأسفل لتجد أنه ما زال في الحجرة وحده مع التلفزيون ولم يرها أو يسمعها ، أخذت تراقبه وهو يشرب ويداه ترتجفان بشدّة من كأس بلاستيكية بواسطة قشة أدخلت في الغطاء مثل تلك التي يستخدمها الأطفال حين يتعلمون الشرب ، حيث كان من المفروض بتلك الطريقة أن لا تقع الكأس إلاّ أن العصير أخذ يدلف حوله لأن يديه لم تتوقفا عن الارتجاف .

كان ليرد يعشق بطانيات الكشمير المخملية القديمة التي كانت تجمعها من

المحلات ، التي لا تخضع لرسوم المكوس في المطارات الإنجليزية والتي كان يضع واحدة منها الآن حول كتفه وأخرى على ركبتيه ، تذكرت تلك الليالي الهادئة عندما كان يرجع إلى البيت بعد حلول الظلام وهو يعلق منشفة حول رقبته قادماً من تمرين كرة القدم .

- «أظن أنها ستكون في الكنيسة قال لها» .

- «أظن ذلك» قالت له «ولكن الأمر عائد إليك .»

- «لا أظن أن الوقت مناسب للإدلاء بتصريح حول معتقداتي الشخصية السيئة ولكني أريد أن أبقي الأمر بعيداً عن الأجواء الحزينة ، بدون زنابق مثلاً .»

- «لا سمح الله .»

- «وبعض الموسيقى الجيدة .»

- «مثل ماذا ؟»

- «كانت لديّ فكرة ولكني نسيتها .»

ضغط بكلتا يديه على عينيه وبدت أصابعه شفافة وكأنه قد سلط عليها ضوء كشاف .

- «أرجو أن تشتري ثوباً رائعاً حزيناً ولكن أنيقاً .»

- «حسناً .»

- «ولا تنتظري حتى الدقيقة الأخيرة .»

لم تجبه .

- خطرت لجانيت فكرة التقارب بين «مارتن» و «ليرد» فأحست بحرية أكبر عندما لم تعد تعقد الأمل عليها ، فنادراً ما كان مارتن يأتي على العشاء ، ربما كان على علاقة بامرأة ما ، تلك الفكرة لم تراودها من قبل ولكنها لم تعد تهددها الآن ، ربما من الأفضل أن يكون الأمر كذلك ، إذا كان يشعر حقيقة بالتعاسة هنا فليفعل شيئاً ليشعره بالتحسن إذا شاء . كانت «جانيت تقول هذا الكلام بكل رحابة صدر وهي في أكثر لحظاتها قوة .

كانت «آن» شجاعة ومبتهجة دائماً خلال زياراتها ولكنها عندما كانت تعود إلى سيارتها كانت تلف ذراعيها حول صدرها وترتجف متسائلة لا أعرف كيف يمكنك أن

تكوني هكذا يا أمي هل أنت بخير؟ كانت دائماً تسأل باهتمام حقيقي . كان «ليرد» يردد دائماً بسخط حنون عندما يختلي بأمه لاحقاً بأن «آن» قد أصبحت سيدة ميئوس منها ، وحاولت «جانيت» في إحدى المرات أن تمازحه بسخرية لأنه عاد أخيراً وتصالح مع أخته ولكنها كفّت عن ذلك عندما رأت عينيه ترمشان بغضب .

كان الطفلين تماماً الذين تمنت أن تنجبهما ، ابنة حلوة المعشر وولد عابث لعوب وتشعر بمتعة كبيرة حين تراهما معاً ولم تحاول أن تتنصت على أحاديثهما ولكنها تراقبهما عن كثب ، عادة أثناء وجودها في المطبخ منهمكة بتحضير الطعام الذي يترافق مع طفولتهما كالبطيخ المقطع على شكل سفينة أو عصير الليمون . كانت تسير مع «آن» إلى السيارة وحذاءاهما المتشابهان يقرقعان على الحصى ، تضُمان بعضهما البعض وتضغطان وكانت تلك الحركات القصيرة تعطيهما دعماً معنوياً كانتا تشتركان في صفات الصبر والرشاقة كقطعة ثياب واحدة مفصلة لكي يستعملها من كان بحاجة إليها أكثر وكانت تلك المشاركة تشكل هدفاً لها في حياتها ، نعمة وسلام وأمان مثل عصر يوم هادئ ، وكانت «جانيت» بعد رحيل «آن» تقضي لحظات هادئة كلما عادت إلى البيت عبر رطوبة الهواء في الصيف ، كان كل شيء هادئاً سوى أصوات قرقعة آلة قص الحشيش أحياناً أو صيحات الأطفال العائدين من المدرسة أحياناً أخرى ، كما كانت هناك الطيور والحشرات ، حياة بسيطة هادئة تلك التي اختارتها «جانيت» فلم تكن تطلب الكثير بينما هي تبقى دائماً تحت الطلب .

كانت بسيطة وكانت بساطتها هي درعها ضد سوء الطالع وقد نجحت تماماً . وعندما نزلت عبر الدرج الصخري وعبرت الباب شعرت بأن قدميها ما تزالان تتمتعان بنشاطهما السابق كانت تستطيع الادعاء بأن حظها ما زال طيباً .

ثم تأخذ في النظر عبر النافذة لترى منظر «ليرد» الأخّاذ الذي لن يعود لزيارتها مرة أخرى تحس بحرقة وألم في صدرها وكأنه كهف مليء بالخفافيش . ربما كانت تطلب الكثير هذه المرة .

– «ماذا كنت ترغبين أن تصبحي عندما تكبرين؟» سألها ليرد .

– «لقد كنت أتوقع أن أصبح امرأة وأماً وأنا قبلت ذلك ولم أتمرد .»

– «لا بد أن هناك شيئاً آخر .»

- «كلا» قالت «آه؟ أظن أنني نلت نصيبي من الخيال اليومي ، حلمت بأني أميليا ايرهارت أو مارغريت ميد ولكن الأمر كله خيال في خيال .»

لم أقترب حتى من الشجاعة الحقيقية هل تتخيلني أطير فوق المحيط لوحدي ؟ ضحكت والتفتت لتنظر إلى ضحكته لمكنه غفا . وصلت رسالة تعزية من أحد أصدقاء «ليرد» الذي يبدو أنّه تلقى معلومات خاطئة أنه قد مات ،كان هناك قصة تعود إلى سنوات خلت عندما كان هذا الصديق يرافق «ليرد» على متن باص في نيويورك ،حيث كانا يجلسان خلف امرأتين عجوزين تعملان كنادلتين وكانتا تتحدثان عن ضرائب الدخل وتحاولان أن تحسبا كم حققا دخلاً من البقشيش بدون أن يكشفا شيئاً أمام الضريبة لكي يبدو الرقم معقولاً ويتجنبا بذلك حضور المدققين .

كانت كل منهما تضرب الأمثلة حول الموضوع وتصف وضعها بالتفصيل عندما نهض «ليرد» وسط وطيس الحوار فقال :

«عفواً لم أستطع إلاّ أن أسمعكما ومال عليهما قليلاً وقال هل لي أن أعرف اسميكما وعنوانكما من فضلكما فأنا أعمل في ضريبة الدخل .»

ساد الصمت الرهيب على الباص وراح الجميع يراقبون ماذا سيحدث ؟

تناول «ليرد» دفتر ملاحظات وقلماً من جيب معطفه ووقف وجهاً لوجه أمام الجمهور المشدوه ، قال : أنا جزء من فريق ضريبي يعمل في برنامج خارجي وسأقوم في العشرة دقائق الأخيرة بتسجيل الاعترافات هل يوجد بينكم من يريد أن يخبرني شيئاً قال ذلك مخاطباً الجميع» .

كانت هناك ابتسامات ، سرعان ما انهمك ركاب الباص جميعهم بالحديث وتبادل الملاحظات ، خاصة عندما أدركوا أنه كان يمازحهم وكيف أن الرعب قد دب فيهم خوفاً من أن يكون قد كشف أمرهم . كان من الصعب التصديق بأن هؤلاء الناس الذين يركبون الباص هم أنفسهم من سكان نيويورك المعروفين بتأففهم وعزلتهم . كان «ليرد» أكثر الشباب حيوية ومرحاً كتب صديقه في الرسالة . والآن هو في مقعده المتحرك يواجه الذباب البطيء الحركة ويحاول أن يطرده من حوله .

- «الغسق» قال : «ليرد» ،

رفعت جانيت رأسها عن خياطتها وأجفلت ، كان الوقت عند العصر وكانت غرفة

المعيشة مفعمة بشمس تشرين الأول الساطعة

- «قريباً سيحل الغسق» قالت له .

فرك حاجبيه وظهر بعض الارتباك في نظرته فأدركت هي أن الظلام قد حل بالنسبة له .

حاول تعديل وضع شاله على رقبته بيدين مرتجفتين فقفزت من مقعدها لتساعده ، ثم عندما أشار إلى المدفأة هرعت لتضع المزيد من الحطب وهي تتساءل ما الخطب ؟ هل أصابه جفاف ؟ وتذكرت أن ظلام الرؤيا قد يعقبه جفاف ، حاولت أن تتذكر ماذا قرأت أو سمعت ، لكن حتى وهي تحاول تلمس المعلومات والحقائق ، ظلت غرائزها تتداخل بأفكار عميقة ومرعبة هزتها هزاً وأخذت تلهث . كما كانت تلهث دائماً ، تتذكر أخطاءها أو أية أشياء لم تكن تريد قولها أو فعلها ، وحاولت أن تتهرب من الحقيقة ،كان عقلها يعمل في عدة اتجاهات محتملة بينما هي تتعامل مع النار ولم تنتبه لنفسها عندما أطارت الشرّر بعيداً وهي تنفخ من رئتيها المتعبتين .

كان عملها ميكانيكياً فهي أشعلت النار مئات المرات ومن ثم لم يعد هناك شيء تفعله ، فبعد أن وضعت الحاجز الواقي حول المدفأة ، ودفعت به قربها مالت لتشد بيجامته على جواربه كي تغطي جلده العاري في حين كانت أشعة الشمس تملأ المكان حوله حتى بدا وكأنه معلقاً بين قضبان ضوء .

- «الغسق» قالها مرة أخرى ولكنه بدا وكأنه يقول العتم لأن كلامه كان مشوشاً .

عندما يصبح الجوّ كله أرجوانياً قالت له وهي تعلم أن ذكاءها يخدعها . لم تكن متأكدة فيما إذا كان يرغب في الكلام معها ، مر وقت طويل عليه دون أن يتكلم ولكنه ليس طويلاً في حياة الآخرين . ربما أسبوعين ولكنها كانت تنهمك في الحديث معه إلى أن يتجه هذا الحوار إلى الصمت حتى أصبحت هي التي تروي الأحاديث وهو يستمع فقط . وفي بعض الأحيان عندما كان يغلق عينيه تنسلُّ بعيداً وتهدء ثم تسود فترة صمت لم تكن تدرك أنها هي سببها حتى إذا طالت هذه الفترة قليلاً قطعها بصوت مرعوب . أماه وكأنه قد أفاق لتوه من كابوس فتعود هي إلى الحديث محاولة أن تربط بين ما كانت تفكر به وبين النقطة التي كان الحديث قد توقف عندها .

نظرت بأدب الى« «ليرد» وقالت له «هل تتذكر جدّكم وهو يتحدث عن «الغسق» ففي الحقيقة كان هو الذي أوحى إليّ بحبه» ، قالت ذلك وهي تتوقع إجابة منه ولكنه كان يبدو وكأنه لم يسمع صوتها لذا راحت تتابع الحديث وهي تغرز إبرة الخياطة في حياكتها حيث لم تعد بعد ذلك تتذكر النقطة التي توقفت عن الحديث عندها ، وغرقت في تفكيرها خائفة أن تتحرك ، خائفة أن تنظر وخائفة من أن تدرك في أي لحظة . أنها أصبحت وحيدة وكل ما شعرت به هو أن النار بدأت تخبو فجأة حتى كادت أن تخمد ، عندما نهضت لتحرك الجمرات حانت منها التفاتة بدون قصد نحوه لترى أصابعه تدق على صدره ، كأنها تنسخ شيئاً تماماً مثل شخص يحتضر وأدركت بأنها إذا ذهبت لتنادي الممرضة فستعود لتجده ميتاً لذا وقفت خلفه وأخذت تضغط وجهها على وجهه تتلمس بيديها ذراعيه الواهنتين لتساعده في نسيجه الأخير إلى أن انتهى .

بعد ذلك وبعد أن أنتهت جميع الاتصالات الضرورية وتم نقل جثة «ليرد» . صعدت «جانيت» إلى غرفته ، استلقت على أحد أسرته في تلك الغرفة التي كانت قد حولتها إلى غرفة للضيوف .عندما ذهب إلى الكلية وأحلّت مكان أشيائه بلمسات بسيطة ديكوراً لغرفة ضيوف ، تذكرت في تلك اللحظة جميع اللمسات التي أجرتها حيث بدلت حقيبة الثياب . التي كانت ملقاة على كعب السرير وطاولة الكتابة المحتشدة بالأدوات والأقلام والعلاقات الخشبية الثقيلة وعوارض الأحذية . حاولت جاهدة أن تتذكر كيف كانت الغرفة عندما كان «ليرد» ما يزال ولداً صغيراً ؟حيث كانت اختارت رسماً جدارياً على شكل قطار قامت بتغييره إلى رسم على شكل غابة عندما قرر «ليرد» ، بأن القطارات سخيفة لذلك اختارت طالباً في كلية الفنون قام برسم الجدارية على شكل غابة ، عندما قرر «ليرد» بأن الغابة سخيفة أيضاً لم يعد يطلب أي شيء منها بل كان يمضي الوقت فيها حتى ترك الغرفة .

جاءت «آن» وعرضت أن تبقى مع أمها إلا أنها شعرت بالراحة عندما طلبت إليها أن تعود إلى أطفالها .

دخل «مارتن» واستلقى على السرير الآخر بينما كانت «جانيت» تراقب الأشجار وهي تتحول إلى ظلال تحت السماء المعتمة وتقاوم دافعاً ملحاً لقراءة قصة بوليسية .

– «أنا آسف» قال لها .

– «إن هذا ليس عدلاً» قالت بغضب لم تشعر بمثله حتى هذه اللحظة وكأنها كانت تختزنه لها «لا يجب أن يموت الابن قبل أهله ، ولا يجب أن يضيِّع شاب في أوائل عمره الثلاثيني وقته في التحدث إلى أمه بل يجب أن يخرج إلى العالم ، لا أن يقضي الوقت وهو يفكر بي وبماذا أهتم وما هي أفكاري أو أن يعيد لي حبي لنفسي فقد كان له ما ينفقه .»

الآن استعادت كل هذا الحب ولا أدري ماذا أفعل به . وسرعان ما فارقها الغضب عندما سمعت «مارتن» يبكي في الظلام ويتنهد . مرت لحظات من الهدوء والصمت ثم سألها «مارتن» أخيراً :

– «هل سنقيم له جنازة .»

– «نعم يجب أن نبدأ بالترتيبات .»

– «أعتقد أنه أخبرك بما يريد .»

– «بشكل عام . ولم يستطع أن يقرر بالنسبة للموسيقى .»

سمعت «مارتن» وهو ينقلب على جنبه ليقابلها عبر الفجوة بين السريرين كان ما يزال يرتدي ثياب العمل أذكر أنني تأثرت بموسيقى مزامير القرب في جنازة والدك .

كان عرضاً سمجاً وبالتأكيد سمجاً ومتأخراً وبدا ، كأنه يأتي من شخص يعيش على هامش حياتنا ولا يعرف إلا قليلاً ولكن لا فرق فقد كانت فكرة جيدة رفَّ لها قلبها .

– «أظن أن «ليرد» كان سيحب هذه الفكرة كثيراً» قالت له الوقت آخر الغسق في اللحظة الأخيرة من اليوم الذي مات فيه ابنها ، فبعد ثوان سيحل الليل . كان القمر يحوم خلف الأشجار صاعداً في طريقه إلى السماء ، قالت في نفسها وهي تراقبه سوف أمضي في طريقي ثم نهضت ومشت على أرضية الغرفة تبحث عن حذائها عندما ناداها مارتن : ناداها مرة أخرى كانت نبرة صوته تشبه تلك التي اعتادت سماعها في تلك الليالي الطويلة ، التي كان نادراً ما يصل فيها إلى البيت قبل أن ينام الأطفال حيث كان يعتمد عليها في أن تروي له ماذا فعلوا في ذلك اليوم . كانت نبرته تشبه تلك النبرة الفضولية الخجولة المراعية ، التي كانت تحس بها دائماً وبالرغم من كل مشاعر الإحباط

والملل وكل الأخطاء والأحاسيس المتسرعة التي كانت تصاحبها كأم أفضت أخيراً إلى شيء ذي أهمية. عندها قررت أن الجولة التالية من المكالمات الهاتفية يمكنها أن تنتظر بينما هي تجيب على السؤال الذي وجهه إليها: «أرجوك أخبريني ماذا كان ابني يحب أيضاً؟»

١٩٩٤

كارولين فيريل

مكتبة حقيقية

عن «بلفشيرز»

الأولاد ، الرجال ، الفتيات ، الأطفال ، الأمهات والرضّع ، كلهم يجب إطعامهم ، كلهم يجب أن تطعمهم باستمرار ، صيفاً وشتاءً . يجب أن يشعروا بالشبع صيفاً وشتاءً ولكنك قد تقف وتتساءل : من أين سنأتي بهذا الغذاء فالأمر يبدو بلا نهاية ، ولا توقف ، من أين؟ تظل تتساءل لأنك تمضي حياتك وأنت تطعمهم ولا تتوقف عن التفكير من أين ستأتي بالغذاء؟ .

طعام الأطفال ، الپان كيك ، الحليب ، العصير ، الحبش المشوي ، الحلويات ، المحبة ، القبلات ، العناق ، الأيدي على الوجوه ، الدفء والحنان ، بوسطن كريم باي . . . . عليك أن تطعمهم ولا أحد سواك صيفاً شتاءً .

تقول لي أمي تعال لنتمرن على كتابة الكلمات عندما تعود اليوم إلى البيت ، أغني لها موافقاً فلست بحاجة للحديث لكي أجعلها تدرك أنني سأفعل كل ما تطلبه مني . عندما يأتي أفراد العائلة ويرونني أنا وأمي ندرس الكلمات في المطبخ يقولون أن أمك تملك وجه خادمة في أفلام السينما فيداها بنيتا اللون وضخمتان مثل المجارف ، تحب أن تلمسك وتداعبك وتدفئك بهما وعندما تمشي تجر قدميها بتثاقل على الأرض . ولكن إذا كان هناك أحد يشبه الخادمات في السينما فهي عمتي إستين التي تحب دائماً أن تقبّل الأطفال حين أحملهم بين يدي وهي وقحة قليلاً ، وتتصرف

دائماً بشكل سيئ إذ تحاول أن تسمعك صوت كعبها كل الوقت وخاصة عندما تكون غافياً أو مرتاحاً في النوم قبيل الفجر. أو حين تكون مستغرقاً في التفكير كيف ستنهض وتقضي نهارك في العمل؟ يناديك صوت كعبها «كليك كليك» ألم ينهض أحد بعد؟ أيها الزنوج الكسالى لا تتوقعوا مني أن أحضر لكم طعام إفطاركم حين تستيقظون «كليك كليك» . . . إني جائعة ولا أبالي ما هو الوقت الآن، . أشعر بالجوع والكآبة وأريد أحداً كي أتحدث إليه حسناً . . . إلى جهنم جميعاً . هذه هي كلماتي الأخيرة لكم «كليك كليك كليك» . . . تربت أمي بيدها على حقيبة المدرسة ذات اللون الأحمر الملائم للفتيات، ولكن لا بأس فهي تربت عليها كما تربت على رأسي . وتحتوي حقيبتي بالعادة على الكتب التالية : علم الأحياء، المعرفي الأخشاب، الرياضيات الأولى، وتاريخ الحضارات .

كان من المفروض أن أُدرس مساق الرياضيات رقم أربعة . ولكن الناس يرودّونني دائماً إلى الخلف، أنا أعلم أن الخطأ ليس خطئي فقد درست المساق الرابع للأطفال منذ أن استعرت كتاباً من مكتبة متنقلة في ساحة المدينة، وقد أحب الأطفال طريقتي في التدريس، أحبّوا شروحاتي الواقعية التي لا تعتمد على حفظ الأشياء في الرأس ومن ثم الانتظار لاستخدامها فيما بعد . لم يكن الأطفال يسألونني إذا ما وصلت إلى حلٍّ صحيح أو خطأ فقد كانوا يثقون بذكائي، كانوا يحبون فقط أن يشعروا بالأرقام أو أن يروها على قطعة من الورق مثل تقسيم الكسور العشرية والكسور الجزئية التي تبقيهم دائماً في حركة حتى حينما أغادرهم . ولكني استمريت أفشل في الامتحانات العامة التي تجري على مستوى المدينة كل أيار من العام ولا أحد يسألني عن ذلك بل يعيدونني إلى الخلف . تقول ابنة عمي سي سي إنني لو لم أكن غبياً لأعتقدت أنهم سوف يستمرون في إرجاعك إلى الخلف إلى أن تعطي نتيجة طبيعية .

يشعر الأطفال بالحزن تماماً مثل أمي عندما أغادرهم إلى المدرسة كل صباح، يبكون وينتحبون ويطلبون أن أجلسهم على حضني فقط مرة قبل أن أذهب ولكن أمي تصمم على رفض طلبهم ثم تتفقد تجاليد كتبي لتتأكد من أن لا شيء قد سُكب فوقها أو أن أحد الأطفال قد مزقها . فالأشياء بالنسبة لأمي يجب أن تكون دائماً

مُرتبة بالترتيب والنظام دائماً في حركة مستمرة . هذا الأمر مزروع في داخل أمي تماماً . كنت قد وعدت لا سيما هذا الصباح أن أمشط لها شعرها بسرعة قبل ذهابي كانت لا سيما في الرابعة من عمرها وبينما كنت أقوم بذلك كانت تواصل الابتسام لشوي وهو ولد قصير الشعر ، حليقه ولا يمكن بالطبع تجديل شعره لذلك فهو يجهش بالبكاء كلما مسحت شعر لاسيما أو نثرته أو طويته .

تحذرني والدتي دائماً لا تترك الأطفال يزعجونك يا لوري ، أجيبها لم أخذلك أبداً لأنني أعلم تماماً ما يجب عمله . تبتسم لي ابتسامة أعرف أنها مزيفة وتقول يا لوري أنت ابني الوحيد ، أنت الرجل الوحيد حولي ولا أريد للأولاد أن يأخذوك مني . أجيبها الجواب الوحيد الذي يمكنني أن أقوله في مثل هذا الظرف ، هل ستطبخين شيئاً خاصاً الليلة ؟

تبتسم أمي وتذهب لإعداد خليط بان كيك من على كرسيها في المطبخ وهنا يبدأ الأطفال بنسيان أمري بعض الشيء فقد ألهاهم البان كيك الذي يعشقونه أكثر من كل شيء في الدنيا . كانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي تجعلني أهرب منهم . فشينيكا منهمكة الآن بصب الشراب السكري على كعكتها المقلية وتونيا تضع صحنها على رأسها استعداداً للحظة الحاسمة .

قابلني على الباب الرئيسي ، تومي زوج لولاجين ، وهو يعمل في البحرية ويحاول دائماً أن يشجعني بأسئلته حول امتحان مساق الرياضيات رقم أربعة ويداعبني بقوله لي : إنك عبقري متخفٍ ، ونهر جارٍ عميق كما وصفني مرةً . كان يحب أن يقص علي نكات أو حكايات من الإنجيل بصوت عال ويقبل أختي لولاجين متعمداً أن يراهما الجميع ، يقبلها في المطبخ مثلاً أو على السرير حيث يكون محاطاً بتسعة أطفال على الأقل ، جميعهم بوجوه بنية متلألئة ، ويقول هكذا يجب أن يكون الحب ثم يلصق وجهه بوجه لولاجين لدقائق عدة .

أغادر البيت متوجهاً إلى مدرسة جين آدامز الثانوية ، يقابلني تومي على الباب متأبطاً ذراع سيدة ، ولكنها ليست لولاجين ، شعرها مبلل وله رائحة دواء منظف للفم . أشعر فجأة بكره شديد له ، لم أكن أكره أحداً من قبل ولكني الآن أكرهه . أعلم أنني ما أن أغلق الباب خلفي حتى تواجه تومي والسيدة التي معه موجة من

الأفواه ولكن دون أن تغرقهما ، تلاحظ ذلك أختي أنيتا عندما تدخل إلى الغرفة فتدخلهما بسرعة وصمت إلى الحمام ، ولكنها قبل أن تفعل ذلك تقبلني على خدي ، وتربت بيدها التي تشبه يد أمي على صدري وتهمس : «تذكر أنك رجلي المفضل ، تذكر ذلك» . ثم تضع في جيبي سكينة لفتح مظاريف الرسائل وتقول لي إذا ضايقك هذا الولد مرة أخرى فقطِّعه . إني أحبك ثم تدفعني خارج الباب .

بينما أنا خارج من باب البناية تسرع نحوي لايلا جاكسون التي تسكن في بنايات المشاريع المقامة وسط البلد والتي يقال بأنها تحمل فيروس الأيدز ، وصلت عندي وقد كاد ينقطع نفسها . أخذت أنظر إليها وأراقب صدرها وهو يعلو ويهبط ، ويثير فيك أحاسيس عاطفية فهو كبير ومقسوم مثل كرتين مرتدتين أنظر إليها وهي تبكي ، وقد تلونت عيناها باللون الأحمر . كانت تحمل طفلها تي - تي بين ذراعيها ورغم برودة الطقس لم تكن تغطيه بأية أغطية ، أقول لها : «لولا يا عزيزتي سوف يموت هذا الولد من البرد» خلعت بدلتي وألبستها لهذه الكتلة الصغيرة من اللحم .

تشكرني لولا ثم تضيف يا لوري : «هناك طلب أريد أن أطلبه منك ! أرجوك لا تقل لا» كانت لولا دائماً تضع طلباتها في إطار من القلق ، قالت : «يا رجل أريد جليسة أطفال جديدة ، لقد كنت أضع تي تي عند أمي والآن هي لا تريده مع الأطفال الآخرين وأنا لا أستطيع أن أفعل شيئاً إلى أن أحصل على جليسة للأطفال» . قلت لها : «أنا ذاهب إلى المدرسة الآن ولا أستطيع أن أراقب تي تي في الصباح ولكن إذا تركته معي بعد الحصة الخامسة فسأحضره معي إلى البيت .» قالت : «إن هذا يعني أن علي أن آخذ هذا الطفل المزعج معي إلى حصة الإنسانيات ، سحقاً يا رجل سوف يملأ الدنيا بكاءً لا أستطيع أن أجتاز امتحان المكتشفين الإسبان ! سحقاً يا رجل» .

فكرت دقيقة ثم قالت : «حسناً يا لوري سوف أحضره لك في فترة الغداء في الكافتيريا ثم أعود قرابة الساعة السادسة أو السابعة لأخذه منك إلى البيت» . انحنت لولا وقبّلت تي تي على رأسه الذي كان يلمع مثل رأس شخص شرب واحة من الماء بعد طول بقاء في الصحراء . استدارت ونزلت إلى محطة القطارات تحت الأرض وهي تلوّح لي وعندما وصلت إلى الزاوية عادت لتعيد لي البذلة التي غطيت

بها تي تي وكان هذا قد استل منها سكينة فتح المظاريف وأخذ يلوح بها مثل العلم كما أخبرتني أن ابن عمها راكيم كان يبحث عني وأنه سينتظرني على الطريق .

«شكراً يا لولا سأراك فيما بعد !»

في السابق ، لم أكن أذهب إلى مدرسة جين آدامز عندما كان يجب أن أذهب فقد استحوذت علي عادة البحث عن راكيم ابن عم لولا ، أسفل طريق القطارات التي تمر بمحطة «براكنر» حيث تتجمع النساء الإسبانيات لشراء البرتقال والبطيخ والتفاح بأسعار زهيدة . كان راكيم مثل المغنطيس ولكني لم أكن أعرف هذا في ذلك الحين . رأيته يوماً وأحسست أني أرغب في وضعه على حضني ليداعبني . ظل هذا الشعور ينتابني وعندها قررت أن أترك المدرسة ولم يكن راكيم ليوقفني عن فعل ذلك . كان صوته عالياً كصوت الشاحنات المتوجهة نحو منهاتن على خط براكنر فوقنا . ولم تكن النسوة تراقبنا بينما نحملق في عيون بعضنا البعض ، لقد علمني راكيم كيف أخاف من المدرسة ومن الناس التي تراقبنا ، قال لي لا تعد وأنا لم أعد فقد كانت أذنه أحب إلي من مساق الرياضيات رقم أربعة . وهكذا لم تطأ قدمي مدرسة جين آدامز لمدة ستة أشهر .

وعلى متن الباص رقم ١٧ قابلت تامي فيرغسون ومعها طفلاها التوأم جوسمولز والطفلة البيضاء لورا ، كانت الطفلة البيضاء الوحيدة التي تعيش في بنايات مشاريع برونكس . أنا أشعر بالأسف فها فهي تملك عينين زرقاوين وشعراً أحمر وعندما حاولت عصابة فتيات فريق برونكس ضربها أمام إحدى البنايات انفجرت بالبكاء وأخبرتهن أن أهلها الحقيقيين هم من سود الجنوب وأنها زنجية الأصل ، سخروا منها في البداية ولكن القصة أصابت عكس ما كان متوقعاً فقد أصبحن جميعهن صديقات لها وما زلن كذلك . قد يحصل أن يسخر منها بعض الناس عندما لا يكنَّ حولها ولكنها تعلم أن ظهرها محمي فهي وفية لهن وتصفف شعرها مثلهن ، مثل تسريحة صفوف الذرة التي تلهب مشاعر الأولاد والبنات على السواء وعندما تكون لورا بين عصبة فتيات برونكس يرغبن في الضحك أما هي فكانت تنظر إليّ عندما أستقل الباص وتناديني أيها الوغد ، كانت تشتمني بصوت عالٍ لكي يسمعها كل ركاب الباص ولكنهم لم يكونوا لينظروا إلي بل يستمرون في النظر إلى ما كاوا

ينظرون إليه في السابق ، إلا أنني أعلم تمام العلم أن آذانهم تدور باتجاهي . تقسم تامي فيرغورسون أنها لن تساعد امرأة بيضاء أبداً ، ولكنها لا يمكن أن تفوت هذه الفرصة فتنهال عليّ بالشتائم أيها اللوطي ذو القفا المشدودة ، اذهب وابحث لك عن وغد ينكحك ، وفي نفس الوقت يشرع أولادها بكتابة ما تجود به أيديهم على نوافذ الباص .

أستمر في السير دون أن أعيرها أي انتباه وأجلس في المقعد المجاور لجو سمولز في مؤخرة الباص ، ويقوم جو بدوره بإطلاعي على واجب مساق الرياضيات الثالث الذي قامت تارين ، أخته من أمه بكتابته له ويقول إنها الآن أذكى من قبل ، عندما كانت تدرس في مدرسة جين آدامز في الربيع ثم يقهقه ضاحكاً .

يستمر الباص في السير ، وأظل أنا متحركاً رغم بقائي جالساً على المقعد ، أشعر بأن كل الآذان متجهة نحوي تستمع إلى قصتي وقصة جو وهو يحكي كيف بقي ساهراً مع تارين حتى الرابعة صباحاً؟ وهما يحاولان حل مسائل ضرب الكسور الجزئية ، وكيف بدأ هو فجأة بالشخير بينما استمرت تارين تعمل حتى وصلت إلى مسائل النسبة المئوية؟ عندها انطلق جرس الساعة ونهض جو وهو يضحك .

كانت كل الآذان متجهة نحونا ولكن التركيز كان علي ، أما تامي فرغوسون فقد انشغلت بإسكات أولادها وإبقائهم هادئين على المقاعد ، ولكني كنت أشعر بعيني لورا تقذفاني بالنظرات كالرشاش وتلعنان علي مئات المرات في الدقيقة الواحدة . . وغد وغد . . .

تابع الباص مسيره وتابعت حركتي ، مثل الماء أو الهواء أو الفضاء الخارجي ، أنا دائماً أختار أمراً لأشغل تفكيري به ، أخذت أتذكر الأولاد وهم ينتظرون عودتي بعد الحصة الخامسة ، وأتذكر شعر لاسيما الناعم تماماً مثل الشعر الذي يغطي رأسي ، لم يكن شعراً إفريقياً بل شعراً حريرياً يغطي رأسي كلياً لأني أشعر بالبرد والوحدة ، وهذا الشعر الكثيف يبعث فيّ الدفء تماماً مثل غطاء السرير . ويُشعرني بالأمان والسلام والعزلة واللذة ، أنا ولاسيما نشعر باللذة عندما ننظر إلى وجوهنا في المرآة هي ما تزال في الرابعة وأنا في الرابعة عشر ، نعانق بعضنا البعض ونحن نبتسم بقيت أتحرك ، وصلنا إلى زاوية قريبة من المدرسة وعندما غادر الباص المكان ، كانت لورا ما تزال

نائمة ، ولم يحاول أحد أن يوقظها .

وعلى ملتقى شارعي بروسبكت و ١٦٧ الشرقي حيث أنزل بالعادة ، وجدت راكيم بانتظاري ، لم يكن من المفروض أن أعلم أنه هنا أو أن يظهر . كان يقوم بفتح علبة حلويات ويعدّل من وضع بنطاله ليظهر وكأنه معلق على قفاه . كانت هذه هي الموضة «كرستيان ديور» . عندما اقتربت منه ، رمى بالعلبة إلى الأرض قرب موقع للقمامة ومدَّ يده ليصافحني على طريقة عصابة أولاد برونكس فكلانا عضو في تلك العصابة ، قال لي : «هل شاهدت لايلا يا رجل»؟

اقتربت منه منحنياً لأسمع ما يقول .

تابع حديثه قائلاً : «هل تعلم أنني دخلت في مساق الرياضيات رقم ثلاثة ، هل سمعت بمثل هذا الهراء من قبل ، أليس هذا هراءً جيداً» . ابتسم وربت على ظهري وأبقي يده هناك . قلت له : «كما قلت من قبل يا راكيم فقد وضعت قدمك على الطريق الصحيح ، إنك تفعل الصواب دائماً» .

خفّض صوته ثم نظر إلى حذائه الذي حاول بعض أعضاء العصابة سرقته منه سابقاً ، ولكنه صاح بأعلى صوته بأنه يعاني من ڤيروس مرض الأيدز الذي التقطه من ابن عمه عندها هربوا جميعاً وهو يمسحون أيديهم رعباً على جدران البنايات في ساحة كون كورس الكبرى .

قال راكيم : يا رجل ليس لدي شيء سوى دماغي الذي يردد لي دائماً «أيها الزنجي ، عليك أن ترفع ظهرك عالياً في المدرسة لكي يعلموا أنك تستطيع ذلك» . أجبته : «راكيم إنك ذكي ليتني كنت أملك ذكاءك ، ربما كنت ذهبت إلى أمكنة أخرى» .

أجابني : «ولكن يا لوري أريد أن يحبني الناس وأن لا يروني بعد ذلك ، أريدهم أن يعتقدوا بأنهم - يحبونني لذلك أريد أن أختبئ بعض الوقت ، راقب ذلك يا لوري ، سوف يكون الجميع في جانبي» .

أقول له : «راكيم إنك تملك لايلا وتي تي على جانبك وجميع الأساتذة وأنت ذكي ، لقد فعلتها ونجحت» .

ويجيبني بعد أن يعدّل من وضع بنطاله مرة أخرى ليبدو معلقاً في وسط قفاه «يا

رجل إن هذا البنطال واسع جداً أتعلم ماذا أريد أن أفعل الآن ، لوري هل تعلم ماذا أريد أن أفعل ، تبّاً ، إنني لم أرك منذ عودتك إلى المدرسة ومنذ عودتي ، أتعلم ماذا أريد أن أفعل الآن ، ولكن الأمر لن يحدث لأنك تظن أنني أحب ابنة عمي لايلا وهذا الطفل اللعين الذي معها ، ولكن هذا لا يكفي ، ولن يكون كافياً أبداً» .

أخذت أفكر بالجلوس في حضنه ، كما كنت أفعل في السابق ، ولكنني تركت الشهور تمر عبثاً لأن الأمر كان سيحدث تحت طريق محطة براكنر ، كما أنه لم يكن حباً مثل حبي للأولاد لأنه كان يدوم فقط لبضع دقائق أما الأولاد فإنه يدوم إلى الأبد . انطلق يسير للخلف وعندما وصل إلى الزاوية بدأ يعدو ، لم يكن هناك أحد في الشارع ولكنه راح ينادي بيتزا روكي ! ابقي هناك يا إيما ، لقد خدعنا المدرسة هذه هي الخطة الرئيسية ، إيما ابقي هناك وأنت كذلك يا لوري !

كنت أريد أن أخبر راكيم أنني افتقدته وأنني لن أكون هناك ولكنه ذهب أما أنا فإن حب الأولاد كافٍ لي وكذلك حفظ الكلمات . هذا كاف تماماً .

كانت واجهة مدرسة جين آدامز خضراء رمادية كثيرة الأبواب والنوافذ . وكنت أقف خارجها ، قرع جرس الحصة الأولى بينما كنت ابتسم للسيد دي أنجيلو وكنت أشعر أن هذا النهار لن يذهب سدىً فقد كانت الشمس تضرب نوافذ المبنى ، حتى الكتب كانت تبدو حارة ساخنة . لاحظ السيد دي انجيلو وجودي ولكنه أشاح بوجهه ، لاحظت ذلك براندت بيللي التي لا تنسى شيئاً وقالت بصوت نستطيع أن نسمعه ثلاثتنا : «عندما يكون الرجل متزوجاً لمدة طويلة فهو يحتاج إلى نوع جديد من الحب أليس كذلك يا لوري ؟»

وبسبب تلك الكلمات ، ثم طرد براندي خارج الصف وتعليق حضورها إلى المدرسة ليوم واحد ، كانت الآذان تتجه الآن نحوي ونحو السيد دي أنجيلو ، كنت أنا بلا شعور ولكنه لم يكن كذلك وهذا ما جعلني أشعر ببعض السعادة فلن يذهب هذا النهار سدىً .

مسح السيد دي إنجيلو جبينه بمحرمته المستوردة وبدأ يشرح للصف : «ماذا تتذكرون عن الكباس ، عن الساق وعن الحشرات» . دخل في الأسئلة ثم توقف عن التعرق وخلال دقيقتين كان قد نسي أمري .

أخذت أفكر، لماذا لا يحصل شيء آخر لماذا يبدأ اليوم متفائلاً ثم لا يحصل شيء. ينعتني الناس هنا في المدرسة بالقبح، أنا أعلم أن عينيّ جاحظتان قليلاً وأنه لا يمكن أن يحصل معي شيء جميل ولكني أسألكم ألا يجب أن يحسب حساب للقلب، إن الحب يشبه قطعة كعك وأنا أملك جميع الأدوات الموجودة في هذه الكعكة. استدار السيد دي انجيلو بعيداً عن مقعدي وأعلن عن امتحان فجائي. أبدى الجميع احتجاجهم وساد جو من عدم الرضا ولكنني كنت الأكثر تعاسة لأنني كنت أعلم أن لا شيء سوف يسير كما أرغب وأخذت أفكر «أيها السيد دي إنجيلو، هل تعلم أنني مستعد أن أتخلى عن كل شيء لأصبح مثلك فأنت تستطيع بكلماتك الحلوة الذكية أن تجعل الناس يضحكون لك ويحبونك، سوف أتخلى عن كل شيء لو سألتني أن أجلس على حضنك وأعض أذنك حتى ترن مثل الجرس الذي يقرع معلناً الدخول والخروج من الصف. سوف أعطي كل شيء فالحب هو قطعة من الكعك، ألا تعلم ذلك يا سيد دي أنجيلو إنني أعيش حبّاً صامتاً في جسد ضائع لذلك لا تدر ظهرك لي!

تأخذني السيدة كابريني جانباً وتهمس في أذني: «يا عزيزي لوري متى ستتمكن من اجتياز امتحانات المدينة، إن لديك بالتأكيد عقلاً رائعاً وأنا أعلم أن ذكاءك سيحملك بعيداً ويفتح لك عوالم جديدة. أدخل دماغك مع أحلامك يا عزيزي وسوف تحققها فإن لك عالمك الخاص ونجمك المضيء».

يعرفني الجميع حولي باسم لوري، وقد بقي اسمي كذلك وتقول ابنة عمي سي سي أن الاسم ملائم لي وتفرقع علكتها في وجهي كلما ذكرت ذلك، وتضيف أنها لو رأت أحداً يضربني فستقف متفرجة لأن ذكراً يحمل مثل هذا الاسم يستحق المشاهدة عند ضربه.

اسمي الحقيقي هو لورنس لنكولن جيفرسون آدامز، وقد اسمتني أمي بذلك الاسم تيمناً بشخص آخر وهو الاسم المسجل في سجلات المدرسة وتقول أمي إنه الاسم الذي يجب أن استخدمه في تعبئة طلبات الالتحاق بالكلية الجامعية، عندما يحين الوقت. كانت تعلم أنني ما زلت أرسب في امتحانات المدينة، ولذلك فهي تحب دائماً أن تساعدني في تماريني وتضحك عليّ عندما أخطئ ولكنها تخاف أن لا

أتعلمها بنفسي ، وتطلب مني أن أتمرن معها . وأنا أفعل ذلك كثيراً ولكن ليس بشكل يومي ، أنظر في القاموس وأحاول أن ألفظ الكلمات . تمرنت يوم الثلاثاء على كلمات مثل : استقلال ، رمزية ، كدر ، اصطلاحات ، وخيوط . ويوم الأربعاء تعلمت فقط كلمة «أبوكريفا» Apocryva وتقول أمي أنني يجب أن أخرج من القاموس الكلمات المناسبة بمعانيها المناسبة ، وأن أعطيها اللفظ المناسب . إن هذا الأمر مهم جداً في تقرير المصير . مثلاً كلمة «مكتبة» لا يبريري . كنت دائماً ألفظها ليبيري وأعرف أنها تعني مكان القراءة والدراسة ، ولكنني لم أكن ألفظها بشكل صحيح . أترى ما أعنيه؟ لقد بدأت أخيراً أرى الأشياء وأعملها بالشكل الصحيح . أما ابنة عمي سي سي فتقول لماذا تتعلم مثل هذا الهراء ؟ لا تعلم بأنه يلزمك أكثر بكثير من لفظ الكلمات حتى تدخل الكلية حتى ولو كانت كلية مجتمع ! إنك أحمق لكي تتمرن على الكلمات بهذا الشكل .

يأتي والداها بايرون وأليزابيث إلى المطبخ ، ويطلبان مني أن أعلمهما الكلمات أيضاً ، وتحتج سي سي لأن هذا الأمر يضايق عيونهما فهما ما يزالا في السنة الثامنة والتاسعة من العمر ومثل هذه القراءة تؤذي نظرهما . ولكنني عندما تغيب سي سي أقوم بتعليمهما كلمات من عشرة أحرف ثم ما يلبثان أن يعودا لمشاهدة التلفزيون مثل سائر الأولاد .

عندما نجلس أنا وأمي للتداول بالكلمات والألفاظ ، تمسح هي على وجهي برفق وتناديني «لورنس يا ولدي الحبيب ، إنك على الطريق الصحيح ولكن عليك أن تفعل الأشياء بطريقة صحيحة» تقبلني وأقبلها وأشعر بيديها اللتين تشبهان أيدي الخادمات في أفلام السينما ، وأعلم أنني في عناية جيدة .

تمرر لي زنزيل جونز ملاحظة في حصة تاريخ الحضارة وقبل أن أفتحها ، أنظر إلى المقاعد الأربعة حولي وأتذكر ليلة خرجت لشراء بعض حفاظات الأطفال وبعض الحبوب للإفطار ووجدتها تبكي أمام صنبور الإطفاء ، تركتها تبكي على كتفي وأخبرتها أن أباها لا شك إنسان مريض لكي يتركها هكذا .

كان مكتوباً في الملاحظة الجملة التالية : «أعطني فرصة أخرى !»

كانت خالتي استين سميث ترغب أن نناديها بالاسمين معاً فهي لا تريد أن تخرج

من ماضيها ، وكنت أحياناً أجرب ارتداء ثيابها عندما ألعب مع الأطفال لعبة الألبسة ، أما ثوبي المفضل فكان ثوباً حريرياً أزرق لا ظهر له ، كانت خالتي ترتديه في النهار وقد وقعت في حب هذا الثوب كذلك كنت معجباً بها لارتدائها ثوباً لا ظهر له في النهار ولكن هذا الإعجاب لا يستمر أكثر من عشرة ثواني ، إذ سرعان ما تفتح فمها وتبدأ بالحديث عن الماضي . كانت تحب أن تعود بنا إلى الماضي ، إلى الأيام التي أُعدم فيها زوجها داڤيد سول سميث عندما علقوه على شجرة عام ١٩٨٥ . ثم أحضروا التلفزيون ليأخذ صورة له . لم تترك خالتي فرصة إلا وتخبرنا عن هذه القصة ، لم أكن أرغب أن اسمعها أبداً ، فقد كان الجميع يبكون عند سماع كلماتها ويشعرون بالحزن عليها . لم تكن خالتي استين إنساناً عادياً بل كانت بيتاً مسكوناً متحركاً .

الحصة الثالثة : بدأت أحلم بالأولاد بينما وقف الآخرون صفاً ليجربوا استعمال المنشار الكهربائي ، أحب أن أحلم بالأولاد فهم الوحيدون الذين لا ينعتونني بالقبح بل يجدونني جميلاً ، طبعاً بالإضافة إلى أمي وأنيتا وهما نكهتي المفضلة في كعكتي حتى ولو كنت أفكر في غيرهما .

كنا في معظم الوقت ثمانية في البيت ولكن عندما تحضر عمتي الأخرى سامنثا يزداد العدد ثلاثة آخرون . تدخل سمانثا إلى المطبخ وتشرع بالبكاء ثم ترى أمي العلامات الزرقاء على جسدها . تبدو وكأنها تبكي إلى الأبد . أما أنا فأحب أن أبعد أفكار الأطفال عن هذا الموضوع فآخذهم إلى غرفة أمي ، حيث يوجد التلفزيون وأغني معهم بعض أغاني الأطفال المشهورة ، أو أعلمهم مساق الرياضيات رقم أربعة أو أجلسهم لينصرفوا إلى برامج التلفزيون بينما أنجز أنا كيّ الثياب . يكلمني جوسمولز بطريقة ودية أما الباقون فمثلهم مثل باقي الناس يرونني ويسمعونني ثم يزلفون بعيداً .

يقول جوسمولز «لوري إن هذه اللعينة تارين كتبت لي نصف المسائل خطأً ، يمكنك أن تبقى مسروراً لأنك لا تتعامل مع مصيبة مثل تارين . لقد كدت أرسب في مساق الرياضيات الثالث» تعلو وجهي مسحة حزن مزيفة ، لأنني أشعر أن الآذان كلها تتجه نحونا ، ليت أمي علمتني كيف أصلي ولكن أمي امرأة لا تؤمن .

يقول سيمزجونيور «لماذا تقول مثل هذا الهراء يا جو ، إن لوري لا يهتم بالقحبات مثلها» .

ويقول باري ميسون : «إن لوري لا يفكر بالفتيات» . بينما يضيف فرانكلين «لوري أيها الرجل قل لي هل لديك شيء تفكر به أفضل من الفتيات قل لي ماذا؟» .

يقطع السيد ماموبل الكهرباء عن المنشار عندما يصل الدور إلى بارين مور فقد سمع القهقهة والضحك رغم قرقعة المنشار العالية ، سكت الجميع ، كان وجهه جامداً كاللوح ، لم يكن السيد ساموبل إنساناً متسامحاً ، لم يكن يرغب أن أرسب حتى ولو لم أفعل شيئاً في الحصة ، مثل النشر وأخذ القياسات ، كان يريد أن يطردني من كل المساق .

عندما توقف المنشار ، ضحك السيد ساموبل لأول مرة ، وشارك الجميع معه في الضحك من منطلق الخوف وشاركت أنا لكي أبعد آذان الجميع عني . كان يضحك ضحكة ريفية عالية ، احمر وجهه الآن وهدأ الجميع ، عادوا يبتسمون فقط .

قال السيد ساموبل : «أيها الأولاد لا أريدكم أن تعبثوا مع الفتاة الوحيدة الموجودة بيننا في الصف» . عاد الجميع إلى الضحك ، قال دانييل فيبز نعم لقد بدأ الأمر مع السيد ساموبل ، أما فرانكلين فأخذ يضحك ويقول لا نريد صغاراً هنا ، من الأفضل لك أن تحمل قفاك وتخرج من هنا قبل أن نقطعها إلى أربع قطع .

بقي جو سمولز هادئاً ينظر من النافذة .

أما جونيور سيمز فضحك وقال : «عد لنا عندما تبدأ بنكاح القحبات» . أما أنا فبقيت أتحرك ، حملت حقيبتي الحمراء وتوجهت نحو الباب ، كانت غريزتي هي الوحيدة التي تعمل وتنقلني إلى عالم الأحياء حيث التصنيف بين الذكر والأنثى . ولكن كان عليٌ من البداية أن أخرج من الغرفة . أخذت أتذكر قول أمي لي دائماً : «لا تجعل الأولاد يتملكون منك» لم يكن في داخلي شيء أخر . تكاد عظامي تتفتت ودماغي وقلبي ينفجران لولا تلك الدوامة التي تعصف في داخلي وتبقيني في حالة حركة .

ضحك بيري قائلاً : «لم أكن أعلم أن السيد ساموبل هو من الجنوب» . مسح راكيم أطراف وجهي برموش عينيه وأشعرني بأنه يعتبرهما جميلتين ، يدور بوجهه حول وجهي ويغرق في عيني وفي فمي ، كانت أصابعه تدور برقة حول جسدي حتى كدت أغفو . تركَت قضبان عربة التسوق حيث كنت أجلس حفراً في ظهري ،

ولكنها بالنسبة لي كانت مثل أصابع ناعمة تدعوني للبقاء رغم هدير الشاحنات في الخارج .

جاءت لايلا جاكسون تركض نحوي ، رغم أن الحصة كانت ما تزال الرابعة ، ولكنها كانت تريد أن تكلم تايرون كلاماً جدياً . سلمتني تي تي الصغير . بدا تايرون وكأنه يريد أن يلمس الصغير ، ولكنه مدَّ أصابعه على الجدار ليستمع إلى لايلا ، أخذت أراقب الكلام وهو يتدفق منها بسرعة ثم فجأة راحا يتبادلان القبلات . كانا الوحيدين الذين يمكنهما تبادل القبلات فكلاهما يحمل فيروس الأيدز ، ولم يكن هناك أحداً ليرضى بأن يقبلهما . لم يلاحظ أحد من المارة أن يديه كانتا داخل قميصها ، أما الطفل تي تي فكان يحب البقاء بين ذراعي وكنت أنا أرغب بذلك .

كانت السيدات منهمكات بشراء الفاكهة والخضار في السوق أسفل محطة براكنر كن ، جميعهن يتكلمن الإسبانية ويرسمن إشارة الصليب على صدورهن ، أو يطلبن السماح والمغفرة قبل أن ينطلقن في أحاديث النميمة .

أخذ راكيم يداعب عنقي ، كنا جالسين تحت دعامات الجسر الاسمنتي ، وكنت أضع يدي على مقبض عربة تسوق مكسورة . قال لي راكيم : لا تعد ، لا تعد وأخذ يهمس في أذني ، كنت أفكر بالكلمات التي تعلمتها وكيف سأتقدم للامتحان العام ، أخذ هو يغني : لا تعد وأجلسني على حضنه وأخذ يحركني حوله ويقول» إنهم لا يحتاجونك هناك ولا أنت تحتاجهم» .

«ولكني أحتاجهم» . قلت له

قال لي «إن هذا الشعور قد يبقى إلى الأبد»

«كلا لن يبقى» أجبته ولكن الأمر انتهى بي حينها بأن أترك المدرسة لستة أشهر ، كانت عربة التسوق تلك هي مدرستي .

إني أفكر ، لن يكون الأمر أكثر من ذلك ، حملت تي تي على كتفي بحذر ، لأنه كان نائماً وعدت لألحق باص رقم ١٧ المتوجه نحو منزلي .

كانت استين سميث تعيش دائماً في ماضيها وتلتصق به ، كنت أريدها أن ترتدي دائماً فستانها الحرير ، الذي لا ظهر له كانت تقول إذا كان بإمكانك الهرب فلماذا لا تفعلها وتهرب كل الوقت؟ بإمكانك أن ترقص وتلوح بيديك وتتحسس

الحب من مصدر ما ، لن تفنى أبداً بل ستصبح حراً .

عندما أكون موجوداً حولها ، كانت تقوم بنقلنا لماضيها يتخلله أحاديث وكلمات وتخبرني لو أنهم شاهدوك في السابق تفعل ما تفعله اليوم لعلقوك من خصيتيك السوداوين .

في اليوم الأخير لي مع راكيم أخبرته أنني أريد أن أعود إلى المدرسة ، وإلى تلك الكلمات حاولت أن أشرح تلك الكلمات لراكيم ، وأخبره أنني سأقبله في عالمي إذا رغب في ذلك . ولكن قال : «لا يوجد هناك مكان لي ولك ولتلك الكلمات ، صاح بصوتٍ عالٍ كلا يا للجحيم» . التفتت جميع السيدات الإسبانيات نحونا وأخذن يحدقن بنا ولكنه تابع قائلاً : «إنك وغد أرعن قبيح القفا وسوف تبقى مكروهاً دائماً وأنا لا آبه بما تفعله ، هنا يبدأ عالمك وينتهي عالمي إنك جبان يا رجل أغرب عن وجهي بحق جهنم» .

كانت أمي تنتظرني على مدخل البيت ، وهي تلوح بيدها ، كانت سعيدة لعودتي إلى البيت ، لأنها كانت تعاني بعض المشاكل مع تومي وتريد مني أن أراقبه مع سائر الأطفال ، عندما تذهب لإحضار لولاجين من السينما . حيث اعتادت الذهاب كلما خططت للانفصال عن تومي ، فلديهما أربعة أطفال وإذا قررت لولاجين أن تترك تومي فقد أضطر أن أترك المدرسة مرة أخرى لأنها قد لا ترغب بأن تربط نفسها بشيء له علاقة بتومي .

أجلست تي تي بجانب تومي على الأريكة حيث أنام بالعادة ، يستيقظ تومي ويقول يا رجل من الذي أحضرته لزيارتي ؟

أذهب إلى المطبخ ، لأغلي بعض الشاي وأجهِّز وجبة غداء للطفل . كانت شينيكا تلعب مع شون لعبة الطبيب والمريض ، حيث يضطر هو إلى الانبطاح وتقوم هي بدور الطبيب الذي يجري العملية ، دخلا إلى المطبخ لكي يعانقاني من قدمي ثم عادا إلى اللعب .

يحتسي تومي الشاي ثم يسألني : «من هذه الصبية الحلوة التي كانت معك هذا الصباح .»

أجبته «لا أعرف» ثم أبدأ بطي ثيابه .

«حسناً» أجابني «ولكنك لا تعرف هؤلاء القحبات اليوم ، إنك تحاول أن تعطيهم

بعض الحب وبعض الوقت الممتع وحتى جزءاً كبيراً وحقيقياً من نفسك ، ولكنهن لا يقدرن شيئاً ويحاولن أن يجعلن حياتك في تعاسة . ولكن أنا لدي لولا على الأقل ويا لها من امرأة .»

ثم يعود إلى النوم وتدخل شينيكا ومعها أخوها ويليس وتسألني اذا كنت سأعلِّمهم مساق الرياضيات رقم أربعة الليلة ، تتبعهم العمة استين إلى غرفة النوم وتسألني لماذا أشعر دائماً بالحاجة إلى رعاية تلك البنت البلهاء ، ثم تضرب رأسها برفق على إطار الباب ثم تعاود طرق الباب بنعلها وتسألني لماذا نشعر نحن النساء بحاجة إلى تعليم هؤلاء؟ لن يصلحوا بالطريقة الصحيحة ، لن يتعلموا إلا الهراء لذلك فنحن دائماً نشعر بالوحدة ، تعاود الطرق بكعبها كليك كليك . . .

كان هناك بعض الكلمات الصعبة التي تعلمتها لأقرأها أمام أمي ، أعلم أنها ستكون فخورة بي بالتأكيد ، قالت لي قبل أن أغادر في الصباح إنها ستطبخ لي ديكاً رومياً على العشاء مع جميع ملحقاته إذا قمت بتعلُّم أربعة كلمات جديدة . أخذت القاموس معي ، ولكن الأطفال جاؤوا يريدونني أن أساعدهم في الاستحمام ، كان تي تي يعاني من الحمّى وقد ملأ المكان بالقيء ، نظرت إلى الكلمات وعلمت بأنني سوف أحفظها بدون دراسة . أدركت ذلك وأنا في الحمام ، وبعد دقائق جاءت لايلا جاكسون ، وهي تلعن حظها إذا حصلت على علامة ٦٠ في امتحان الدراسات الإنسانية . حملت تي تي دون أن تلمسه ، وهي تعتقد أن تايرون قد ذهب إلى بعض الجماعات التي يقابل فيها عدداً من الفتيات المريضات . لم تكن ترغب بأن تبقى وحيدة ، أخذت تلعن وتبكي وتسألني لماذا يجب أن تكون الأشياء سيئة إلى هذا الحد؟ كانت جدائلها قد بدأت تتفكك وأخبرتها أنني سأشدهم لها . أوقف هذا الجواب بكاءها قليلاً ولكنها أضافت : «فوق كل شيء إن راكيم هو شخص سيئ ، لقد وعدني بأنه لن يقول شيئاً عني ولكنه أخذ يذيع كل أخباري في المدرسة مما جعل الباقين يكرهونني ويحجمون عن لمسي» وضعت ذراعي حول لايلا ، توقف بكاؤها وأخذت تفكر بشيء آخر .

بالنسبة لي فأنا أعرف الكلمات بدون أن أدرسها وبدون أن تغني أمي على رأسي ، دخلت لاسيما وتانا ، تريدان أن أجدّل لهما شعرهما مثل لايلا . أحضرتا بعض

القازلين وجلستا عند قدمي كالأحذية .

صاح تومي وهو نائم : «لولا قرّبي قفاك قليلاً إلى هنا» . ثم عاد إلى النوم . أعلم أن باستطاعتي معرفة الكلمات وحدي ، فأنا أملك هذه النكهة من الكعكة وسوف أظل أملكها دائماً . كنت في وضع مريح في المطبخ أدرس الكلمات إلى أن آلمتني عيناي . أصبحت أحفظ الكلمات الآن عن ظهر قلب . تدخل أمي وتضع لولاجين على كرسي المطبخ وتقول «أيها الأولاد افسحوا المجال لابنة عمكم» . تنهد تومي ورفع قفاه الكسولة عن الأريكة ، تصرخ أمي : «لايلا اذهبي من هنا ولا تحضري هذا الطفل المجنون مرة أخرى ، وأنت يا تومي منذ متى أصبحت بحاجة لكي أخبرك كيف تعامل زوجتك ، إنك أخرق قم وتعلّم كيف تصبح رجلاً» .

غادر الجميع ، وانقلب حديث أمي : «لم أنسى أن أحضّر لك عشاءك يا عزيزي ، أنا سعيدة أنك بأمان وبجانبي . سوف نتمرن على الكلمات لاحقاً» .

قلت لها : «إنني يجب أن أقابل راكيم أولاً» نظرت إلي مصعوقة ، ولاحظت من نظراتها أنها تطلب مني أن أقول لا وأنني سأبقى هنا ، ولن أعود إليه ولكني ارتديت معطفي ونظرت إلى أمي ، كان في عينيها دموع ، كانت تعلم أنها لا تستطيع أن تقول لي لا ولا ترغب بأن تطرح عليَّ أية أسئلة .

كنت أفكر ببيتزا روكي ، وكيف سأكون عندما أصل إلى هناك وعندما أعود إلى البيت . لأنني سأعود إلى البيت وسأذهب إلى المدرسة غداً إنني أعرف الكلمات وسوف أخبر راكيم عنها وأشاركه بما أعرف . أريده أن يكون جاهزاً أو أن يقول لي بكل ما يملك من عقل : «أرجوك أن تعطيني فرصة وأعلم أن المكان الوحيد الذي لا أضطر فيه أن أبقى متحركاً هو بيتزا روكي ، هناك أحسُّ بقوة دمي وعظامي ومشاعري» .

سوف أكون بعد بضعة دقائق عند بيتزا روكي ، ولا يهمني إذا كان الأمر لدقائق معدودة ، قمت بتصفيف شعري عند المرآة الموجودة بجانب باب المطبخ ، أخرجت سكينة المظاريف من جيب بذلتي ، ووضعتها على الطاولة بجانب تومي الذي كان واقفاً يعاتب زوجته ويخبرها كيف أنها لم تكن تعرف الحب حتى قابلته؟ ولماذا يجب عليها أن تكون هكذا؟ تدعين أنك ستتركينهم أيتها الساقطة ، إذا استمريت على هذا المنوال فلن تستطيعي الاحتفاظ بأي رجل ! أيها الساقطة . . .

١٩٩٥

جيش جن

مواليد اليوم نفسه

عن «بلفشيرز»

هذا ما تعنيه المسؤولية في صناعة بائدة مثل هذه ، عندما تتجه الأمور في ربع آخر من العام من سيء إلى أسوأ . تتصل مع وكيلك السياحي مرة أخرى ، وعلى الرغم من وجود غرفة شاغرة في الدرجة السياحية من الفندق الذي يعقد فيه المؤتمر ، وهي غرفة تطل على خزانات غرف التبريد ، إلا انك تعود وتسأله فيما لو كان هناك غرفة أقل كلفة . وعندما تعود ماري ، الفتاة الجديدة ، حاملة شيئاً رخيصاً جداً ، فانك تقبل به - فقط لتكتشف كما يفعل آرت وو الآن ، أن الابواب تغلق بعد الساعة التاسعة .

لم يكن الحي يبدو عظيماً ، ولكنه لم يكن سيئاً أيضاً ، كما أن البناية نفسها تبدو متجانسة بما فيه الكفاية ، بطوابقها الاربعة المبنية من الطوب المظلل . كان إسم الفندق محفوراً عليها ، ومضاءً بقطعة بلاستيكية مصنوعة على شكل شمس مشرقة . إلا أن قاطعاً مغطى كان يمر بشكل غير منتظم عبر الباب الزجاجي . كان يبدو في طول ٢ وعرض ٤ ومغلفاً بسجادة صدئة اللون . اضافة إلى ذلك كانت هناك لافتةً رمادية معلقة داخل الزجاج . ولو لم يكن التاكسي قد غادر ، لما قام آرت بقرع الجرس الكهربائي كما تقتضي التعليمات .

ولكن التاكسي كان قد غادر، وكلما أطال آرت تسكعه في الشرفة تحت ثلج كانون الثقيل، كلما بدا له الشارع اكثر فقراً وفراغاً. استجاب لقرع الجرس رجلاً أسود ضخم يعلق قلادة على رقبته ويرتدي سترة زرقاء محاكة على شكل كعكة، وتبدو أطرافها مشدودة بوضوح على كتفيه. كان الرجل يضع ربطة عنق حول القلادة، تنحدر حتى ثلث صدره. وعلى كل حال، كانت الربطة معقودة بأناقة على عنقه ومثبته قبل نهايتها بعقدة كتب عليها شعار الفندق.

كانت عقدة الربطة مشرقةً تبتسم. ولكن الرجل لم يكن كذلك. كان وجهه مدوراً وحليقاً خالياً من التعابير. ونظراته تتوزع عند كل فرصة، ليس من باب الوقاحة ولكن كان واضحاً أنه لا يملك شيئاً ليعرضه على أحد. راح آرت يفكر: ربطة مشدودة وسترة مشدودة، ثم تساءل إذا كان الرجل سينقلب فظاً بعد قليل.

كان آرت قد توصل لعدة استنتاجات طوال الثمانية والثلاثين سنة من حياته. وهذا الاستنتاج كان واحداً منها: أن الرجال ينقلبون إلى الفظاظة عندما تكون الثياب التي يرتدونها غير ملائمة لهم. لكن هذا الرجل بدا مخالفاً لهذه القاعدة. فقد ظهر مهذباً ورسمياً في تصرفاته. بدت قاعة الفندق ضيقة بالنسبة له. تماماً مثل سترته. إلا أنها كانت تشبه محطة للباصات بحيطانها المغطاة بالمرايا المدخنة. وارضيتها المشمعة وخشبها المزيف إضافة إلى آلات البيع النقدي ذات الثقوب والتي بدت مبعثرة هنا وهناك. ماذا كان يهم آرت من كل هذا؟ كانت قاعة الجلوس تبدو وكأنها في طور التنظيف. فقد سحبت الكراسي السكندنافية ذات موديل الستينات، وكذلك الاريكة ومائدة القهوة في جميع الاتجاهات كأنها زواحف تقف على كراتٍ في الغبار. ومع ذلك استمر آرت في تفحصه للمكان. كان يشعر ببعض الضيق. ومثل أي محطة باصات ظلّ يتأمل الاشخاص بشكل رئيسي. شعر ببعض الراحة أمام هذا الرجل الذي يضع ربطة عنق. ولم يلاحظ آرت وجود لوحة خشبية لمؤسسة مجاورة إلا بعد أن استعاد بطاقة التسليف. على الواجهة المعدنية لتلك اللوحة كان مكتوباً العبارة التالية: «أقل حوادث للزبائن ١٩٧٢-١٩٧٣».

ولكن ماذا عن السنوات التي تلت عام ١٩٧٣؟ هل اصبح الفندق اكثر خطراً منذ ذلك الوقت أو هل اصبحت الفنادق الاخرى اكثر أماناً؟ ربما لا هذا ولا ذاك كل

ما عرفه هو أن مؤسسة الحي قد خُلّت ولم تعد توزع تلك اللوحات .

ذكّر آرت نفسه بأن بعض اللوحات في هذه الحياة لا تعد لوحات . هذا ما كان يقوله دائماً لزوجته السابقة ليزا . . . ليزا التي تقرء كل شيء وتغوص في كل شيء . . . ليزا التي كانت متناغمة مع نفسها . ثم تركته في يوم شاهدت فيه شجرة تنشق إلى نصفين إثر ضربة صاعقة جوية . طبعاً كان هذا شيئاً اسْتثنائياً تندر رؤيته ، ولا يحدث سوى مرة في العمر . قالت ليزا أن الشجرة أصدرت صوتاً يشبه الازيز . كان يتمنى لو رآها هو أيضاً ولكن ماذا يعني هذا سوى أن الشجرة كانت الاطول بين أشجار الحي وأنها لم تعد كذلك الآن . وهذا أيضاً لا يعني شيئاً! كذلك الامر بالنسبة للوحة . إتخذ آرت قراره رغم أنه ربما لم يكن القرار الصائب . ربما كان عليه أن يبحث لنفسه عن فندق آخر .

ولكن الوقت كان متأخراً – ولدى مغادرته ، وجد طائرة جاثمة على مدرج المطار وكأنها لم تكن تنوي الاقلاع أبداً . الله وحده يعلم كيف كان يمكن أن ينتهي به الامر لو اعتمد على تكسي قد يأخذه إلى مكان آخر . ربما كان قد اضطر إلى دفع ثلاثة أو أربعة اضعاف ما دفعه على تلك الغرفة المطلة على خزانات التبريد . وخاصة في مثل هذه الساعة . كما أن السعر الذي دفعه كان على أساس أسعار المؤتمر .

لذلك قام بإقفال باب غرفته باحكام . ثم تفقد الفراغات خلف الخزانة وتحت السرير المعدني ، والحمّام ذو الدوش الاخضر . كما بحث خلف الصور الزيتية المعلقة ليتأكد من عدم وجود أي ثقوب يمكن لأحد أن يختلس النظر منها . ذلك الفيلم «المعتوه» . كم تمنى لو أنه لم يرى ذلك الفيلم . لماذا لم يقل له أحد من قبل أن تلك الافلام تعود لتسكنك مرة أخرى . لماذا لم يحذره أحد من ذلك؟ كانت نافذة الغرفة تطل على مخرج للطوارئ ولم يكن أمامه هنا سوى أن يتفقد أقفال النوافذ التي لم تكن لتشكل عائقاً كبيراً أمام اللصوص كونها تفترض انهم يخافون من تحطيم تلك النوافذ . كم يشكل هؤلاء الذين يخافون؟ ٥٪ ، ١٠٪ ، ١٥٪ من اللصوص؟ . قام بإغلاق الستائر ثم قررّ أنه سيكون اكثر ارتياحاً لو أبقاها مفتوحة . كان يرغب في رؤية أي شخص يقترب من المكان ، إذا وُجد هناك من يقترب . قام بقطع جهاز الهاتف عن وصلته . وكانت هذه مغامرة محسوبة . فمن ناحية لن يعود باستطاعته الاتصال

بالشرطة في حال وجود متطفل ولكن من ناحية أخرى فإن هذا الجهاز المفكوك يعتبر سلاحاً بيده . فقد قرأ في احدى القصص عن امرأة قامت بالقاء جهاز الهاتف على مهاجمها مما أدى إلى مصرعه . على أية حال . لا بد أن الحظ رافقها في تلك الواقعة . ومع ذلك فقد فكّر آرت أن بإمكانه القاء الجهاز على أي مهاجم بعزم مماثل لعزم تلك المرأة كما أن بإمكانه ، حتى ولو لم يحالفه ، الحظ أن يجعل رميته من القوة بحيث تؤدي إلى تعطيل أو إبطاء حركة ذلك المتطفل ، خصوصاً وأن الجهاز الذي لديه هنا ، هو من النوع القديم الثقيل الذي يجعلك تشعر بجدية الاتصال الهاتفي . ولعل جهاز الهاتف في اي فندق جديد سيكون من الانواع الحديثة ذات الازرار الكثيرة التي قد لا تستخدم ابداً من قبل أحد رغم انها تشعره بوجود موارد كثيرة تحت تصرفه . لا بد أن الفندق الذي يعقد فيه المؤتمر مليء بتلك الازرار التي يمكن بواسطتها استدعاء البواب أو طلب النادي الصحي أو المطاعم الثلاثة أو خدمات الغرف . حاول آرت أن لا يشغل رأسه بهذه الافكار بينما يخلد للنوم وهو يقبض بيده على جهاز الهاتف . لم ينم آرت جيداً تلك الليلة .

في الصباح ، فكّر في أخذ الهاتف معه إلى المصعد . مرة أخرى تمنى لو أنه لم يشاهد هذا القدر من الافلام . فقد كانت تلك الافلام تستثير فيه أفكاراً مثل هذه وتجعله يتخيل اشياء مثل : ماذا سيفعل لو ظهر هناك لص في المصعد . طبعاً كان جهاز الهاتف شيئاً لا يمكن اخفاءه . فهو ليس مثل سكين يمكن سحبها من اي مكان . حتى المسدس يمكن اخفاءه في جيب الانسان في حين لا يمكن اخفاء جهاز الهاتف . على أية حال قام آرت بحمل الجهاز معه محاولاً ان يظهر الامر بشكل عفوي كما لو أنه يستخدمه كثقلٍ خلال ممارسته رياضة الركض أو كما لو أنه يعمل في مصلحة الهواتف .

سار آرت بخطوات واسعة نحو أسفل القاعة . يقول الجميع أن من يمشي متثاقلاً يعرض نفسه لأن يصبح ضحية . فالعديد من السرقات تتعلق بتلميحات غير لفظية . لهذا السبب كانت ليزا تسير بترفع بعد حلول الظلام وكأنها ترسل اهتزازات معينة . وظلّ آرت يسخر من طريقتها هذهً لانها إذا كانت فعلاً تشعر بالقلق فإن عليها أن تحمل الاثقال وتركض كما يفعل هو . فهذه هي الطريقة الاكثر واقعية لكي يساعد

الانسان نفسه . وقد وافقته ليزا على ذلك .

لفترة من الزمن ، ظلاً يلتقيان بعد انتهاء عملهما في قاعة الرياضة . كان هذا قبل أن تُسقط ليزا بالخطأ ثقلاً على اصبع قدمها إذ قررت بعد ذلك أن تكتفي بالجلوس واحتساء البيناكولادا والمراقبة . أما هو فقد احتج على ذلك ولكن بدون فائدة . من سيقدر لباس صدره تحت السترة أو المعطف ، لم يكن للباس الصدر أي معنى رادع الآن ، هكذا بدء يفكر . فهو لم يكن بالقصير ولا بالطويل . استمر يجري بخطوات واسعة مطلقاً الاهتزازات حوله . كان قد قررٌ أن يتناول الطعام ، وبالتأكيد ، في غرفة طعام الفندق الذي سيعقد فيه المؤتمر . والاكثر من ذلك ، أنه قرر تناول افطاراً اميركياً كاملاً من البيض وشرائح لحم الخنزير وكل ما يحتويه هذا الطعام العالمي من كلام فارغ .

وفي الحقيقة ، ظل آرت يعتبر دائماً أن منظر الرجال المنهمكين في التهام الكرواسون منظراً سخيفاً بعض الشيء . وخاصة في البداية ، عندما يحاولون العثور على نقطة يبدؤون منها قضم تلك الكعكة الدائرية وادخالها إلى افواههم . إذ مهما حاول الشخص فإنه سيحصل في النهاية على قضمةٍ غير متناسقة من الكعكة ، يحاول بعدها أن يحدد بلسانه نقطة اكثر مركزية يقضم منها ، تتركه بنتيجة أقل فائدة مما كان يتوقع . ومن المعروف أيضاً أن أكل الكرواسون ينفرد بين وجبات الافطار بأنه ينثر قطعاً صغيرة من حبيبات الكعك والسكر على السترة السوداء النظيفة . لم يكن آت بالعادة يطلب كرواسون عند الافطار خلال أوقات عمله وظل يعتقد أن هذا الاهتمام الذي يوليه لمثل تلك التفاصيل الصغيرة قد ساعده على عدم فقدان وظيفته كما حصل للعديد من زملائه .

بكلمات أخرى ، هكذا كان الوضع الذي جعله يستمر بالعمل في هذه الصناعة المحتضرة ، ويحمل جهاز الهاتف معه إلى المصعد . استجمع آرت قواه بينما كانت ابواب المصعد تفتح وهي تهتز ببطء تماماً مثل أبواب المصاعد في العالم الثالث . دخل المصعد ليجد نفسه محاطاً بعددٍ من الاطفال . وعندما عبر إلى ردهة الفندق وجد مزيداً من الاطفال . كما شاهد هنا وهناك نسوة عرف من نظراتهن التي تتكلف السخط انهن امهات . يا له من فندق خيري . ضحك آرت ضحكة عالية . معظم

الموجودين كانوا من السود أما الاطفال البيض فكانوا يقفون في الخارج مثل فرصٍ ضائعة من النوع التي قد تجعل مدير آرت يرمي مضربه التنس عبر الغرفة . بالطبع كان المضرب مغلفاً بغلاف حماية بحيث لا تؤذيه مثل تلك الضربة . رغم أن الشخص الذي يقف في مدى الرمي قد يتعرض للاذى . فقد عانى آرت مرة من ضربةٍ مثل هذه وكان يتمنى ان يؤدي الامر إلى كسرٍ في الانف ولكنه اقتصر على رضّةٍ في العظم مع تغير في لون الجلد . ولم يكن الناس ليصدقوا ان مثل هذه الحادثة يمكن ان تقع . ولكنها في الواقع حصلت . فقد كان مديره يصيح : لا تكلمني حول تلك الغلطة ، ففي آخر الامر انتم ايها اليابانيون مسؤولون عن كل هذه الفوضى اللعينة . قال هذا رغم ان مشكلة تلك الحواسيب الصغيرة كانت تتعلق بحواسيب شخصية وهي ظاهرة امريكية بحته . طبعاً كان يمكن لآرت ان يقاضيه على ما حدث لو أنه استطاع اثبات حدوثه . بعض الناس وخاصة ليزا اعتقدوا أنه كان يتوجب عليه على الاقل أن يترك العمل .

ولكن آرت لم يقاضي ولم يترك . بل تحمل رمية المضرب على أنفه . وعندما اعتذر له مديره في اليوم التالي ، أبدى آرت تفهمه للامر ، وعندما اجابه المدير بأنه لا يجب ان يأخذ الامر على محمل الجد ، ردّ آرت بأنه يتفهم الامر ايضاً . كان مديره يعلم تماماً أنه ليس يابانياً بل صينياً كما أنه قام بنفس اليوم باتهام احد العاملين بأنه كسول فاشل . كان هذا هو أسلوبه وقد أمل آرت ان يتذكر المدير تفهمه هذا عندما يحين موعد الترقيات . وقد فعل ذلك بما يرضي آرت وكان هذا في رأيه نصراً مبيناً ، اعتبره آرت نوعاً من القوة فيما رأى فيه الآخرين نوعاً من الاهانه ، لقد كان لدى آرت بعد نظر .

ولكن بعد نظره هذا ، اضافة إلى الشجرة التي ضربتها الصاعقة ، كانا سبباً لهجر ليزا له . أخذ يفكر بهذا الامر الآن بينما الاطفال يحومون تحته وجهاز الهاتف في يده . ما اكثر الاطفال . بدا وكأنه يرى أمامه جميع الاطفال الذين لم يرهم من قبل . وقف مشلولاً لبرهةٍ وكأن قلبه قد فقد عضلته . احد الاطفال كان يرتدي ثياب رياضة حمراء اللون ، وكاد هذا الطفل أن ينتزع جهاز الهاتف من قبضة يد آرت . ثم جاء طفل آخر يرتدي ثياباً بنية اللون ويضع قبعة على رأسه . نهض آرت ليرى عدداً من

فتيان المدارس يصطفون حوله ويراقبون . شعر آرت بأنه اصبح هدفاً للتحدي . إذ لم تكن هناك اشياء كثيرة تقف في الطريق عبر الردهة . وعندما أدرك ذلك شعر انه مستعد للضحك مرة أخرى . ولكن احد الاطفال الصغار لا يتجاوز عمره الخامسة أو السادسة مرَّ من أمامه مرتدياً ثياباً للثلج وكاد آرت أن يلقي الجهاز اليه ولكن جاءته فكرة افضل : من الذي يريد ان يدفع ثمن هاتف مفقود .

وكما حدث الامر ، تساءل آرت اذا كان عليه أن يعيد جهاز الهاتف إلى الغرفة بدلاً من حمله معه طوال النهار . فما الذي يريد أن يفعله في الفندق الذي يعقد فيه المؤتمر؟ أيريد أن يدخل الهاتف معه؟ . تخيَّل نفسه يصطدم ببيللي شور ، وهو زميله في شركة إنفو إدج المنافسة في سوق التأمين . رجل بلا قدرات ادارية ولا يملك أية خلفية تقنية . ولكنه كان ينجح في تقديم حاسوب شخصي لزبائنه . في حين لم يكن آرت يستطيع فعل ذلك . كان بيللي يلعب ظهيراً خلفياً في ا لكلية وكان هذا يعني أن بإمكانه أن يسير مختالاً وكأن هناك أهمية لبقائه مشدود الاطراف في الدقائق النهائية للعبة التي ظل بيللي يدعوها باللعبة الحيوانية المتوحشة . وكان هذا يعني ايضاً ان بيللي سيسأله بالتحديد : ماذا تفعل بجهاز الهاتف في يدك؟ هل تريد أن تكلم نفسك مرة أخرى؟ . . مما يجعل الجميع حولهما ينفجرون بالضحك .

كان بيللي يمثل ذلك النوع من الرجال ، فقد ترقى عبر المبيعات وكان دائماً يفرقع بعض النكات حول شرب الخمرة أو حول الجنس أو حجم التسوق الذي تقوم به الزوجات . طبعاً لم يكن يستخدم تلك الكلمات بالذات ولم يكن يدعو الاشياء بإسمها المبسط بل كان يستخدم تعابير مثل قرع بعض الاقداح أو استخدام الخيار الثلاثي أو وقوع بعض الاضرار . وكان يجعل من الفرضيات تبدو وكأنها وظائف جسدية أساسية . بالطبع كانت تلك المعلومات عادية ولكن الناس كانوا يفهمون ما يرمي اليه بدقة . كأن يقول وهو يلف يديه حولك : اسمع أيها البطل! ماذا تظن الفقراء فاعلون الليلة؟ تخرج المكلمات من فمه ، حتى ولو شابها شعور الاعتداد بالنفس إلا أن دماثته تمسح ذلك الشعور . لم يكن بيللي يتكلم لغة سائدة ولكنه كان يلفظ الكلمات بلهجة يصفها آرت بأنها تلقى استحساناً لدى الجمهور . كان يقول ما يريد الناس كلهم قوله . بالطبع كان بيللي يجيب عن سؤاله بقوله : وما هو الشيء الذي

سيفعلوه؟ ثم يدير ظهره . كان يفرك بطنه وهو يستدير كأنه ينفش شعرات صدره على جدار سترته القطنية الطويلة . مثل هذه الحركة كانت تدعوها ليزا تصرًفاً بدائياً وتضيف بأن ربطات العنق قد اخترعت لايقاف تلك الحركات غير المتحضرة . كانت ليزا تؤمن ايضاً بأنها لم ترى رجالاً آسيويين يقومون بمثل هذا العمل - على الاقل ، إذا فكرٌوا بطريقة سليمة .

ولكن هل هذا صحيح؟ لم يكن متأكداً . فقد نشأت ليزا في الساحل الغربي وكانت واعية تماماً للشؤون الأسيوية في حين كان جلُ ما يعرفه هو أنه لا يوجد احد يملك ابتسامة تلقى استحساناً مثله . من ناحية أخرى ، عندما قابل آرت بيللي لاول مرة وقال له بيللي : آرت وو! يا له من إسم مضادٍ للبولنديين! انفجر الناس حوله يقهقهون . طبعاً كانوا يضحكون بنفس الطريقة التي يضحكون بها في المؤتمرات . لم يكن الامر يتعلق بسماع شيء مضحك ولكنهم كانوا اشخاصاً طيبين يخشون من ان يبدون وكأنهم لم يفهموا مغزى الحديث .

الهاتف! الهاتف! آه لو كان بإمكانه أن يضعه في حقيبته ولكن الحقيبة محشوة حتى الامتلاء . كانت دائماً هكذا ولعل في هذا بعض السوء . فقد كان يملك حقيبة ايطالية ناعمة صلبة الاطراف ولكن ليزا ظلت تقنعه بانه كلما كانت الحقيبة أسمن كلما تحسن مظهره كبائع . لم يكن الامر يستحق ذلك في رأيه ولكن ليزا كانت انسانه متحررة مثلها مثل جماعة الفنون الجميلة لا ترغب بالتفكير بالمال ولكنها تفكر بمشاعر هادئة . ولم تكن النقود تعني لها مالاً ، بل وسيلة للدعم أحطُ من أن تقتنيها وأبعد من أن تلعب بها أصابعك . لم تكن تؤمن بالاقتصاديات الحديثة حيث يلعب كل فردٍ دوره كجزء من تركيبة شاملة ومعقدة تتضمن فعاليات قد ترفع ولو نظرياً من مستوى معيشة كل فرد . كانت تؤمن في التعبير عن نفسها وتؤمن بالدراسة والحياكة . ولا يوجد شيء في الدنيا يعادل في نظرها نزهة على الاقدام في الغابات الخريفية وهي ترتدي كنزة محاكةً باليد . بالطبع . لم تكن تبدو جميلة في مثل هذه الثياب وخاصة الالوان الليلكية منها ، رغم أن الليلكي كان لونها المفضل . الأسيويون شعب متفائل هكذا كانت تقول دائماً وكان يحلو لها أحياناً ان تكحل عينيها باللون الليلكي بما يتناسب مع ثيابها رغم انها كانت تعتقد أنه من غير الطبيعي وضع

الكحل عندما تكون في نزهة على الاقدام .

ركض الطفل ذو الثياب الثلجية باتجاه آرت مرة أخرى وتوقف عند ركبتيه .

كانت مناورة كما اعتقد آرت حين رآه ينزل إلى الأرض . وهنا اختطف الطفل الذي يرتدي ثياب الركض الحمراء ، جهاز الهاتف من يد آرت وراح يعدو بأقصى سرعة منتشياً بالنصر الذي حققه ذلك العمل الجماعي للفريق . أخذ الأطفال يهللون ويضحكون . كيف يمكن لآرت ألاّ يضحك قليلاً على الرغم من أنهم غبّروا معطفه . مسح معطفه بيده وسار نحوهم بتمهل .

ـ أيها الأصدقاء! قال لهم : لقد كان عملاً . وأي عمل ذلك الذي قمتم به هناك؟

ـ شنغ شنغ بولي دولي وونغ وونغ» أخذ الطفل ذو الثياب الثلجية يغني .

ـ والآن! هذه ليست طريقة للكلام قال آرت .

ـ إذهب إلى الجحيم قال له الطفل ذو الثياب البنية وهو يشد أطراف عينيه لكي تبدوان مائلتين كعيون الآسيويين .

ـ اسمع يا هذا «قال آرت» . سأعقد معك صفقة» . كان يريد فعلاً استعادة الهاتف كي لا يضطر إلى دفع ثمنه ولكن آخر شيء شعر به هو ضربة ساحقة على رأسه ، فقد بعدها الوعي .

كانت ليزا قد هجرته بطريقة حبِّية . لم تقم باستدعاء محامٍ كما لم تستدعي أحداً لنقل أشياءها بل قامت ببساطةٍ بعقد يديها ببعضهما البعضٍ وقالت به بصوتها الكاليفورني : «لنكن لطفاء» ثم سألته إذا كان سيساعدها في نقل صناديقها ، على الأقل الثقيلةمنها والتي لا تقدر هي على حملها . وقد ساعدها في ذلك ونقل لها الأشياء الثقيلة والأشياء الأخف ثقلاً فقد كان هو قبل كل شيء رافع أثقال . ثم قام بتصنيف الكتب ولف الأشياء الزجاجية بورق الجرائد وظل يشعر طوال ذلك الوقت وكأنه يعمل في الاحصاء . أو كأنه عضو في العصر الحديث أو قصة يتندر بها الأصدقاء . كل هذا حصل بسبب رفضه الذهاب مع ليزا إلى فريق المواساة الجماعية أو على الأقل كان هذا الرفض هو بداية المشاكل . أما البداية الحقيقية فكانت عندما واجهت ليزا أو واجه كلاهما مشكلة الحمْل . وعندما قررا الذهاب لما يدعونه فحص

عدم الإخصاب . ربما كان هو الذي قرر ذلك كما ظلت ليزا تدعي فيما بعد . كان يعتقد أنه قراراً مشتركاً رغم أنه قام في الحقيقة باجراء التحليل الذي أدّى إلى مثل هذا القرار المشترك . كان هو الذي قام بابراز الخلافات ووضع التكهنات . وهو الذي سحب شجرة القرار التي لم يكن أمامهم بالنسبة لفروعها أي شيء يخسراه لو أنهما استمرا .

لم يكن أحد منهما مدركاً لما قد ينجم عن مثل هذا القرار من فحوصات وإجراءات وأدوية وصور أشعة . انقلبت يدا ليزا إلى اللونين الأزرق والأسود من كثرة ما أجريت لهما عمليات سحب دم يومية . وسرعان ما أخذ يتمرن على دس الأبرة في البرتقال لكي يعطيها المزيد من الأبر . ولكن الأمر لم يكن يشبه ثقب برتقالة ففي المرة الأولى غمره العرق وتغبشت عيناه حتى لم يعد باستطاعته أن يرمش وكانت النتيجة أن قام بسحب الابرة إلى الخارج ببطء ومكر متسبباً بصيحة مؤلمة . أما في المرة الثانية فقد وضع على وجهه منشفة للعرق ومن ثم غرز الأبرة فيها حتى انتفخت مبايضها لدرجة أنه شعر بذلك الانتفاخ تحت بنطلون الجينز الذي كانت ترتديه .

لم يزل آرت يحتفظ بتلك الحقن ، وبعضها نصف مكسور ، مخزنةً كما أوصاه الطبيب داخل زجاجات صودا بلاستيكية . هذا كل ما تركته له : أبر محطمة وزجاجات أدوية عديمة الفائدة عليه أن يتخلص منها بمسؤولية مما يعني أنها ستلازمه طوال بقية حياته . كما تركت له تذكاراً لتلك المرحلة من زواجهما : أكوام من الثياب الحاكة وكأنما أرادت أن تظهر له وجود استخدام بديل للأبر . كنزات وكنزات وشراشف أطفال معظمها كانت تتصرف بها مبقية واحدة أو اثنتان . لم تستطع أن تتمالك نفسها . فقد تعاقبت عمليات التخدير ووضع البيوض ثم عمليات التخدير وزراعة الأنسجة إلى أن استطاعت في النهاية أن تحبل مرتين وفي المرة الثالثة مرت أربعة أشهر ونصف قبل أن تكتشف وجود مشكلة . فقد ظهر على غشاء الجنين مرض هشاشة العظام وهو تشوه جيني يمكن أن يحصل لأي مخلوق .

شحذ عزمه من أجل القيام بمحاولة ثانية . كانت هي حزينة وكان هذا هو الفرق بينهما فقد بقي هو يرى أملاً ولو ضعيفاً في حين لم تر هي أمامها سوى الهزيمة . أطلقت على جنينها اسم طفلها رغم أنه لم يصبح بعد طفلاً . أدعت بأنه لا يفهم ولا

يستطيع أن يفهم وأن الأمر يعود إلى جسدها وليس إلى جسده حين يتعلق الأمر بمعرفة الطفل ومحبة الطفل وحتى خسارة الطفل أيضاً .

في صف المواساة ، وافقت جميع النسوة على أقوالها ورحن يواسينها ويتضامنً معها ويؤكدن على تركيبتهن البيولوجية المشتركة من خلال سيطرتهن على خمسة وثمانين في المائة من الحديث .

كانت الغرفة مدهونة باللون البنفسجي وهو لون انثوي بدا وكأنه يدعم العمل . وفي بعض الاحيان كانت النخلات الصغيرة المزروعة في القوارير تبدو انثوية أيضاً تنحني وتنحني رغم أن مشاركتها كانت تقتصر على رفع الهواء من فتحات التدفئة . بدء بعض الأزواج يتغيبون عن الجلسات وأخيراً تغيب هو عن جلسة أو جلستين أيضاً . لم يكن يتعمد التغيب ولكن كانت هناك أسباباً حقيقية وراء ذلك . إلا أن الحقيقة كما قالتها ليزا هي أنه بدء يعتقد بأنها فقدت منظورها . يمكنهما المحاولة مرة أخرى على أية حال! ماذا ينفع اليأس؟ فهما يعلمان الآن أن بإمكانها الحمل كما أن بإمكانها الحفاظ على حملها . كان هذا يعتبر تقدماً كبيراً ولكنها كانت مثل جزيرة في حزنها . . . جزيرة تتقلص مساحتها وتبتعد كثيراً عبر أفق زواجهما نحو نقطة الاختفاء .

افتقدها كثيراً في البداية! بالتأكيد . . . وما زال يفتقدها حتى الآن ولكن في أوقات متقطعة . في اللحظات الصعبة كما الآن على سبيل المثال : عندما استيقظ ليجد نفسه في غرفة غريبة وقد رُبطت على رأسه قطعة ثلج . استيقظ ليجد نفسه نائماً على سرير غير مرتب يكاد يشبه سريره في الفندق لولا تلك الأكوام من الثياب والشراشف التي تحيط به . كانت سترته ومعطفه يشكلان الثياب الوحيدة في الغرفة التي عُلقت على حمالة داخل خزانة فارغة ، بأناقة وترتيب . كما وقع نظره على طاولة إضافية في الغرفة وفرنٍ ذي عينين وضعت فوقه مقلاة وكوم من الأطباق . كذلك كانت هناك ثلاجة مكعبة الشكل ذات لون بني . أما ستائر الغرفة فكانت مسدلة . لاحظ آرت أن كرسياً قد سحب إلى جانبه وعندما نظر إلى ضوء السرير المشعل ، ظهر أمامه وجه امرأة داخل دائرة الضوء .

ــ «لا تتحرك الآن» . قالت له . نظر إليها ، كانت عبارة عن ظل أسود ممن ظلت

ليزا تشبههم بالكاكاو المخلوط مع الشوكولاته . كانت المرأة ترتدي مئزراً مزهراً أزرق اللون ولها عينان حنونتان ووجه طويل تبرز عضلات الفك فيه إلى جانب عظمة الخد . كانت شفتها العليا تشبه قوس الرماة أما شعرها فكان إفريقياً قصيراً وجميلاً تتسلل منه الألوان الرمادية وتنبعث حوله رائحة دخان . لم يكن في المرأة شيء غير عادي سوى أنها كانت شديدة النحول . ربما من أكثر الأشخاص الذين عرفهم نحولاً . ومع ذلك فقد كانت منهمكة في طبيخ تنبعث منه رائحة احتراق . ربما تكون شعرة من رأسها قد سقطت في نار الفرن . نهضت لكي ترفع المقلاة فاختفت تلك الرائحة اللاذعة . رأى آرت مسحوقاً أيضاً داخل كيس بلاستيكي موضوع على المائدة . اتسعت حدقة عيناه وتراجع إلى الخلف وهو يحاول أن يقرر ما هو هذا الشيء . بدء الصداع يضرب رأسه . آه على حبتي تايلنول . كانت ليزا تكتفي بتناول حبة واحدة بسبب قناعة تولدت لديها بأن وصفة الحبتين قد وضعت بناءً على معايير ذكورية ورغم أنها لم تصرّح بذلك إلا أنها ظلت تعتقد أن عليه تناول حبة واحدة ولكنه ظل يصر على تناول حبتين .

حبتين! حبتين! أراد تناول أدويته . . أدويته الخاصة وليس أدوية شخص آخر .

ـ «إن هؤلاء الفتية غلاظ جداً» قالت المرأة . «لقد بلغوا ذلك العمر الصعب . كم أنذرتهم سابقاً بأن أحداً سوف يتأذى يوماً ما والآن تأكدت من ذلك . تبدو وكأنك قد ضربت بكرة بولنغ . لم أرى شيئاً مثل هذا من قبل . لقد ناديت الرجال ولكنهم كانوا منهمكين بأعمال أخرى مما أعاقهم عن متابعة ما حصل هنا .

لم تُطلق النار على أحد لذلك توجهوا مطمئنين إلى محل دنكن دونتس . كما أنهم كانوا يعلمون أن بإمكانهم الاعتماد على أحدٍ هنا .

غَمَزَتْهُ قائلةً : كيف تشعر؟ هل هذا الرأس الذي يشبه البيضة يؤلمك؟» . تحسس رأسه . كان هناك نتوء في قمته نافر كأنه قطعة خرجت من جبل جليدي . ماذا تسمي هذه الصخور الضخمة الشاردة التي تجثم بين مواقع بروز الشعر . . . على الجروف .

ـ «أشعر أنني متُّ ثم عدتُ إلى الحياة ورأسي في المقدمة» قال آرت .

ـ «سوف أصنع لك شيئاً جميلاً يجعلك تشعر أفضل بكثير» .

ـ آه! قال آرت لو سمحت لي فأنا أفضل تناول حبة تايلنول . إنها موجودة في حقيبتي هذاإذا كنت ما أزال أملك حقيبة .

ـ تملك ماذا؟ قالت له

ـ حقيبتي قال آرت مرة أخرى وقد ارتعدت فرائصه .» هل تعلمين ماذا حدث لحقيبتي؟

ـ آه إنها موجودة قرب الباب . لا تتحرك . سوف أحضرها لك .

ـ «والآن . ها هي حقيبتي بنعومتها الإيطالية وأطرافها القاسية جاثمة على معدتي»

انتزعها آرت وهو يهمس : «شكراً لك» .

ـ «هل تريد أية مساعدة بهذا الشيء» سألته

ـ «كلا» قال آرت ولكنه عندما فتح الحقيقة ، انزلقت وتبعثر ما بداخلها . . . دفتر ملاحظاته ، ملفاته وأوراقه . كل هذا العمل ـ كيف أصبحت مصالحه كلها ملقاة على هذه السجادة البنية الخشنة .

ـ «هنا» قالت المرأة . «لا تتحرك سوف اجمعها لك» . وبكل لطف وذوق لملمت جميع الملفات وأعادتها إلي الحقيبة . كانت هناك نعومة غريبة في حركاتها . بدت الملفات وكأنها أوراق لعب في يد لاعب يوزع الورق .

ـ «لقد كنت أعمل كممرضة» قالت المرأة وكأنها تقرأ أفكاره» . وكنت أتعامل مع الملفات في السابق . ها هو التايلنول .

ـ «سوف أتناول حبتين» . قال آرت .

ـ بالطبع! قالت له «حبتّا تايلنول وبعض الحليب الساخن المخلوط بالعسل أرجو أن لا تؤاخذني على استخدام مسحوق الحليب فقد انتقلنا إلى هنا حديثاً ولم نحضر بعد أي مؤن . نعم . لقد كنت أعمل ممرضة ولكني لا أملك حليباً ولا تايلنول . على ضيوفي أن يحضروا هذه الأشياء معهم . كيف تجد هذا الأمر؟

ضحك آرت قدر استطاعته ثم قال : «ومع ذلك لديك بعض العسل . كيف تجدين هذا؟

ـ «لا أعلم! لقد تركه أحدهم هنا» قالت الممرضة «أرجو أن لا يكون هناك شيء

قد نما بداخله» .

ضحك آرت مرة أخرى ثم تركها تساعده على الجلوس لتناول الحبتين . قامت الممرضة واسمها سندي بوضع المخدات جانباً . ثم قدّمت له الحليب وجلست بقربه وراحت تتحدث بدفء حول مواضيع شتّى : كيف أنها لن تبقى في الفندق لمدة طويلة وكيف أن أولادها اضطروا للانتقال إلى مدرسة أخرى ، وكيف أنها لم تخش من إدخال رجلاً غريباً جريحاً إلى بيتها . فقد نشئت في منطقة مساكن للمشاريع ، وكان عليها أن تعتني بنفسها . أخرجت له سكينها الكبّاس وقد حُفرت عليه الأحرف الأولى من اسم شخص لا تعرفه . لم تستخدم هذا السكين أبداً منذ أن تسلمته كهدية من شخص ما . قالت أن هذا الشخص لم يكن يعرف من هو صاحب حروف الاسم المنقوشة على السكين . هكذا استنتجت من حديثه على الأقل .

أشعلت المرأة سيجارة وشرعت تدخنها مصغية إليه وقد راح يحدثها حول المؤتمر وكيف انتهى به الأمر إلى النزول في هذا الفندق بالخطأ . تردد قليلاً عند ذكر هذه النقطة الأخيرة آملاً أن لا يكون قد أهانها ولكنها لم تظهر أي شعور بالإهانة بل ضحكت وهي تسعل مطلقةً عدة نفخات من الدخان .

ـ «لا بد أن الأمر شكّل صدمة» لك وأنت تنزل في مكان مثل هذا . لا يوجد مكان يكفي لولد رائع مثلك . قالت له .

لسعته كلماتها قليلاً . ولد! . كما أحس بشيء أكثر من ذلك . ولكن ماذا عنك أنت؟ إن هذا المكان لا يناسبك ولا يناسب أولادك أيضاً .

ـ ربما! أجابته ولكن هكذا قدّر الله لنا أليس كذلك؟ أنتم أيها القوم تنهضون ونحن نراقب .

اشتم آرت من لفظها الأخير رائحة ضغينة خفية مغلفة بشيء من الحميمية وكأنها تدعوه إلى أشياء مختلفة .

لعلها تمزح أو لعلها تفترض أشياءً تماماً مثل بيللي شور أو مثل باقي الرجال في مختلف مراحل أعمارهم . يتأملون بوجود رغبة فيما لا أثر لها . يحددون ويتخيلون تفاصيل لذيذة . لا بد أن كونه آسيوي لا يعفيه من ذلك :

كان آرت متأخراً على موعد المؤتمر . ولكن هذا لا يهم فالمؤتمر ينعقد مترافقاً مع

مؤتمر أكبر . وهذا الأخير هو الهدف الحقيقي . كانت الفكرة أن يقوم المؤتمرون في أوقات الاستراحة وبين ورشات العمل بالاطلاع على ما يمكن أن تفعله الحواسيب الصغيرة ، وكان هذا يعني تناول الغذاء .

في نفس الوقت ، كانت الأمور في المؤتمر تتجه إلى ركود ، مما دفع آرت لتقدير الحجم الذي تقلصت إليه هذه التجارة ـ فقد هبطت إلى جزءٍ بسيط مما كانت عليه في السابق . لم تعد أكشاك العرض كما في السابق أيضاً عندما كانت ساحة العرض تزدحم بأروع الأكشاك في السوق . وعندما كان آرت في أقصى نشاطه يعمل أياماً لتجميع الأشياء . أما الآن فإن الزائر يرى فراغات كثيرة في ساحة العرض كما أن عدداً من العارضين أحجم عن المشاركة . وكان هذا الأمر محبطاً وكأن تلك الأكشاك العظيمة أصبحت اليوم تعرض مشاريع لطلاب العلوم في الثانوية . ربما أصبح من الأفضل أن يقدم العرض على لوح أسود وأقلام تدريس . كان آرت في السابق ينصب كشكاً تستطيع منه شراء فهرس تصنيع طائرة من النوع الذي يمكنك جمع قطعها في حقيبة قماش . أما الآن فقد أصبحت الناس تبخل حتى بوضع كراس . لقد ولت أيام الكراريس ذات الاثني عشرة صفحة والألوان الأربعة واستعيض عنها اليوم بنشرات مؤلفة من أربعة صفحات ولونين فقط مع رسومات إضافية مطبوعة بالحرف الأسود الغليظ . ولا يمكن للجميع أن يحصلوا عليها . ربما فقط الأشخاص الجديّون .

جهّز آرت كشكه . ورغم أنه كان عليه أن يبقى حوله ليقدم الخدمات من موقعه ، إلا أنه آثر التنقل من كشكٍ إلى كشك ، يرحب بالناس الذين كان يتوجب عليه رؤيتهم على الإفطار . كانوا سعداء لرؤيته وراحوا يتجاذبون معه أطراف الحديث ويستعيدون الذكريات . وفي الحقيقة كان آرت سيشعر باحترام أكثر لو لم يكن ينزل في فندق من فنادق المنفعة العامة . أنتم أيها القوم! أي قومٍ كانت سندي تعني؟ ربما كانت تحاول أن تبدي وجهة نظرها بشكل طبيعي . ولكنّ كيف يمكن لإنسان أن يأخذ أمراً مؤلماً مثل هذا كأنه حقيقة . كان يتساءل وهو يحاول إطلاق خيالاته معها . بدأت هذه الخيالات بقرعٍ على بابها ثم دخلت في مسار من اللقاءات الحارة ثم انتهت (كم كان ولداً رائعاً) حين أنقذها هي وأطفالها (تساءل كم كان عددهم) من حياتهم التي وصلت إلى طريق مغلق . ما الذي حصل معه حتى أنه لم يعد يتخيل

حدوث أي لقاء جنسي دون محرمات قانونية؟ لم تكن شهوته الجنسية كما يجب أن تكون. على الأقل لم تكن مثل شهوة بيللي شور. حاول آرت أن يفكر بلعبة الطريدة ولكن الحقيقة كانت أنه لم يعد يستطيع تحديد الخيار الثلاثي الوارد في مثل هذه القضية. كل ما كان يعرفه، كما يفترض أن يبدأ، هو أنها كانت رغبةً وأنه لن يستطيع ممارسة الجنس مع امرأة مثل سندي ثم يغادر شقتها. ربما تعتبره هي من قوم آخرين ولكنه لا يستطيع أن يعتبر نفسه من قومها.

انشغل بإعداد بعض البرامج في كشك مجاور. بدت تلك البرامج وكأنها ذات أهمية ولكنها ظلت تفشل دائماً. لذلك لم يستطع أن يفعل شيئاً بها. عاد بحكم الواجب إلى كشكه حيث التقى بعددٍ من الزوار الذي يعرفهم. بعضهم كانوا أصدقاء من النوع الذي يستطيع أن يطلعهم على صور أطفاله. أراد أن يخبر واحداً أو اثنين منهم عن الأحداث التي جرت معه في الصباح. لم يكن يريد التحدث عن الدعوة التي قد لا تكون دعوة بحد ذاتها ولكنه كان يرغب في الحديث عن قصة وجوده في فندق للمنفعة العامة وكيف تعرض للضرب بهاتفه الخاص.

تدفقت الكلمات في رأسه. «الأمر ليس بالسوء الذي تظنه. سوف تتفاجئ كم أن الناس هناك ودودين وغير مدَّعين». ولكنه أدرك في النهاية أنه لن يستطيع التحدث عن الموضوع لأنه يريد الاحتفاظ به لنفسه. أدرك أنه قد استحث طاقاته لتلك المهمة أكثر مما يملك منها. أحس وكأنه تعرض للغزو أو أن قملة من النوع الذي يعيد خلق نفسه قد أصابته في دماغه. كان هناك شيئاً يكرر نفسه ويكبر ويكبر ثم يطرد كل شيء آخر فيه. لم يستطع احتمال كتم ذلك السر. كان عليه أن يطلقه عاجلاً أم آجلاً. تمنى فقط أن لا يكون الأمر عاجلاً. كان يأمل فقط أن لا يضطره الأمر إلى البوح بسره لبيللي شور. وكان قد بدء يبحث عنه وكأنه يريد التأكد من تجنبه. سأل عن بيللي في جميع الأكشاك. ولكن أحداً لم يره. كان غيابه غريباً بعض الشيء مما روَّع آرت لدرجة أنه وجد صعوبة في التركيز عندما جاء إلى كشكه بعض المهتمين برؤية برامجه. أحس أنه أخذ يضيّع الفرص في جميع محادثاته. كان يعلم أن ذلك عائد إلى تلك السخافة المتكررة التي ملئت دماغه.

قبل مدة ليست بالطويلة، وبينما كان آرت يراقب بعض البرامج في قواعد

البيانات والتي كانت تعجُّ ببعض الحقائق المسلية حول العاملين في هذه الصناعة ، اكتشف أنه مولود في نفس اليوم الذي ولد فيه بيللي شور ، مع فارق أربعة سنوات يصغره بها آرت . كان بيللي يبدو أصغر منه وكان هذا الأمر يضايقه ولكنه أحسَّ بالارتياح لهذه المعلومات وقام بكتابة ملاحظة فيها كي يتذكرها عند مقابلة بيللي في المؤتمر ويمازحه حول ميلادهما . بدأ يتمرن الآن على هذا اللقاء : لدي مفاجأة لك! كنت أعلم دائماً أنك من مواليد برج الأسد . اعتقد أن هذا يجعلنا من مواليد نفس اليوم» . كان يريد قول أي شيء يبعده عن ذكر فندق المنفعة العامة الذي ينزل فيه .

في النهاية ، لم يعثر على بيللي . ظل يتساءل عن وجوده طوال النهار إلى أن علم أخيراً أن بيللي قد انتقل إلى عمل جديد في الوادي وأنه ما زال في بدايته . أصبح عمله يشمل الحواسيب الشخصية بالطبع . خطوة جيدة بغض النظر عما سيسببه له من هزائم .

ـ «الحياة تتعلق بالأمور الطويلة الأمد» قال له إيرني فورد . دعونا نواجه الأمر لا يوجد طول أمد هنا» .

وافق آرت بأكثر ما يملك من جذل على هذه الأخبار . فمن ناحية ، كان مسروراً لمغادرة أحد منافسيه حلبة البيع مما يعني حدوث بعض الفوضى في مؤسسة انفو إدج المنافسة . فقد كان سوق التأمين يشكل ٤٠٪ من عمله وكان عليه استغلال أي شيء لصالحه . من ناحية أخرى ، شعر آرت بالارتياح لأنه لن يرى بيللي مرة أخرى . ذلك الذي ولد معه في نفس اليوم ، بنكاته ومزاجه الشعبي . مع ذلك شعر آرت ببعض الحزن .

ـ «كان علينا جميعاً ترك العمل قبل حدوث ذلك» قال .

ـ «لعل الكلمات الأكثر صدقاً لا تقال أبداً» قال إيرني .

لم يكن إيرني صديقاً خاصاً بالنسبة لآرت ولكن الحديث عن بيليي كان يجعله أكثر حميمية . وكأن بيللي ظل يشكل عليه ضغطاً رغم غيابه .

ـ أقول لك بصراحة ، كنت سأعد حقائبي للرحيل ، لولا وجود الزوجة والأطفال ، فهم لا يريدن ترك أصدقائهم كما تعلم . كما أن ابني الأكبر يدرس في الثانوية ولا تستطيع أن ننقله الآن . عليه أن يبقى ليحصل على علامات جيدة تؤهله

للالتحاق بكلية جيدة . وهذا يعني أن عليّ البقاء حتى ولو اضطررت إلى بيع الكعك في محلات مكدونالدر . ولكن انت الآن . . . . .

ــ ربما يتوجب عليّ الذهاب» . قال آرت .

ــ بالطبع عليك الذهاب . ما الذي يبقيك حتى الآن قال آرني .

ــ لا شيء فأنا مطلّق الآن ، هذا ما حدث أليس كذلك . بعض الناس ينجحون في تفادي الطلاق ولكن لا يمكن المراهنة على ذلك .

ــ «إذهب» قال إيرني . «خذ نصيحتي وإذا سمعت عن شيء فسوف أرسله في طريقك .

ــ شكراً قال آرت .

لكنه بالطبع ، لم يكن يتوقع من إيرني أن ينفعه بشيء . لقد مرّ وقت طويل منذ أن اتصل به أحد أو أي شخص آخر كان يعرف عنه . كثير من الناس تاهوا ووصلوا إلى حد اليأس . الجميع يعرف ذلك . حتى الناجون كان يُنظر إليهم بريبة . كانت الحكمة التقليدية تقتضي القفز من السفينة باكراً .

ظلّ آرت يحاول جاهداً الحفاظ على وظيفته إلى أن اكتشف أن هناك أوقاتاً لا تريد فيها الاحتفاظ بوظيفتك . أوقاتاً تريد أن تغادر فيها للحصول على مظلة ذهبية ، تغنيك عن القفز . كان هناك شيء آخر لم يخبره به أحد وهو أن في بعض الأحيان من الأفضل أن يقال عنك إنك طردت من وظيفتك . من كان يتخيل مثل هذا؟ بعض الأحيان كان يتبين لآرت أنه لا يفهم شيئاً وأنه قام بحفر قبره بيده ولم يستطيع حتى أن يستلقي فيه بل ظل يحاول دائماً أن يقف .

مع حلول نهاية اليوم ، زاره بعض الأصدقاء الذين يشعر معهم بالدفء . على الأقل كانوا لطفاء . بعد ذلك وبينما كان يستعد للعودة إلى الفندق حصلت معه مفاجأة كبيرة . اقترب منه أحد صيادي الرؤوس (الذين يبحثون عن موظفين) وعرَّف نفسه على أنه صديق لإيرنست .

ــ إيرنست! إيرني طبعاً . قال آرت .

كان الرجل مربوعاً ، تغطي رأسه دائرة من الشعر تشبه شعر القديس فرانسيس ، وحوله بالطبع بعض فتات الخبز .

فرحة عظيمة قال له . ولكن عليه الذهاب بسرعة الآن . فهو يعرف تماماً الشخص الذي يتوجب على آرت أن يقابله . شخص سيحضر الليلة ويحتاج إلى موظف مثل آرت . كان يحتاج إليه بالأمس في الحقيقة وكان يجب أن يعطي أولوية لمثل هذا الأمر ولكنه أدرك ذلك الآن وقال له في يوم سابق : يجب أن نتمم الأمر . إفطار سريع في الصباح هل تستطيع أن تتصل بنا خلال ساعة . أجاب آرت : بالطبع . وعندما سأله القديس فرانسيس عن رقم غرفته ، تردد آرت ولكنه بعد ذلك أعطاه اسم الفندق الذي ينزل فيه . كيف يمكن للقديس فرانسيس أن يعرف عن مثل ذلك الفندق . أعطاه آرت الاسم بثقة مسبغاً على الأمر بعض الأهمية . ومفسراً الوضع بأنه كاد يتغيب عن المؤتمر بسبب انشغاله ولكنه أدرك في آخر لحظة أن لديه فرصة للحضور إلا أن الوقت كان متأخراً للحجز في الفندق الذي يعقد فيه المؤتمر لذلك اضطر إلى النزول في فندق آخر .

هذا هو النجاح . كان دماغ آرت يعمل طوال النهار . بدا له فجأة أنه قد أخذ يفرغ . كان يمكن أن يكون هو بيللي شور المولود في نفس اليوم مع آرت ولكن في سنة أخرى وتحت نجوم مختلفة . كم تبدو الأمور بسيطة . لم يكن آرت يجهد نفسه في مهمتين أو ثلاثة أو ستة في وقت واحد ولا حتى في عمليات مضاعفة . كان يعلم شيئاً واحداً في وقت واحد . ويعلم أن هذا الشيء الآن هو أن نهاره كان نصراً . لذلك السبب ، أبقى فمه مغلقاً . لم يتفوه بشيء وبقي محافظاً على رباطة جأشه . سار برشاقة نحو الفندق وعبر الردهة ــ رجل منيع ــ لم يقرع باب سندي . كان يتقدم ويتقدم نحو الغرب حيث تنتظره حياة جديدة ومهنة جيدة . ربما يستطيع لعب كرة المضرب . ربما يستطيع اقتناء حمّام جاكوزي . ربما يتعلم كيف يحب هؤلاء الأصدقاء الفريدين الذين يتناولون طعام أعشاب البحر والجيكاما . ربما يصبح كائناً حياً كبيراً .

لم يستطع تذكر أنه لا يملك جهاز هاتف ، إلا عندما وصل إلى غرفته . جلس على السرير . كان هناك صوتاً عند نافذته ، تبعه ظهور خيال شخص . لم يتفاجئ . وعلى أي حال لم يتوقف الشخص عند باب غرفته . على الأقل ليس في هذه الرحلة . كان هذا حظه . أنتم القوم! قالت سندي وهي تستعيد كيس الثلج . فهم آرت وجهة نظرها . وقد كانت على حق .

كان أفضل منها حظاً وبكل تأكيد . ولكنه عندما رأى خيال الشخص الذي عبر قرب نافذته ، تذكر أنه لا يملك أي سلاح . آه لو كان لديه جهاز هاتف . ربما كان اتصل بليزا . أحس ببركة ماء تتكون حوله فجأةً . بدت وكأنها محيط شاسع . ربما يمكنه مهاتفة الشرطة ولكنه سيهاتف ليزا أولاً ليسألها عن رأيها في انتقاله نحو الغرب . «احتمال وارد» . قد يقول لها ، غير راغب في إشعارها أنه يتصل بها بدون سبب وأنه أخذ يغرق في بحر بعيد . لم يكن يريد أن يظهر وكأنه رجل مسكون بأفكار مزعجة .

بعد سنوات عديدة ، نعم كان ذلك طفلاً . لا بد أنه كان طفلاً . لم يستطيع الآن أن يتذكر ذلك الطبيب وهو يشرح عن الطفل : الطفل الذكر الذي ظهر كاملاً في فحوص صور الأشعة . شفافاً وجيلاتينياً ناعم الرأس وله قلب سريع الخفقان . لكن ربما لو كتب له أن يولد لحطم كل عظام جسده .

١٩٩٧

بام دريان

قريبـــاً

عن «سشرن ريڤيو»

ولدت اليزابيث لونغ كروفورد، وهي والدة مارثا بعين كسولة، وعنما بلغت الثانية عشرة، استدعاها والدها صباح أحد الأيام، إلى غرفة الطعام في «مارل كرست»، وهو مسكن عائلة لونغ، قرب أوغوستا بولاية جورجيا. كان في الغرفة طبيب، أخبرها أنه سيقوم بإصلاح عينها، وإعادتها إلى وضع مناسب، لتكون في حالة جيدة، وصحيحة حينما يرغب رجل ما بالزواج منها ذات يوم. أجلسها والدها على حضنه، بينما كان الطبيب يضغط على أنفها وفمها بمنديل مغطّس بالكلوروفورم.

غابت اليزابيث عن الوعي، وهي تحلم بشكلها الجديد الجميل، ولكن يد الطبيب زلّت، وكان النتيجة أن فقدت اليزابيث عينها اليمنى. وبقيت اليزابيث تذكر هذا اليوم طوال حياتها، وتتذكر المناظر الأخيرة، التي رأتها بعينيها الاثنتين... ظلال أوراق الأشجار على الأرضية المضاءة بأشعة الشمس، والشعر الكثيف على ظاهر يدي والدها، وتقليمة بنطال الطبيب، والمنديل وهو ينزل إلى عينها وأخيراً العمى...

هكذا عاشت مارثا ... صعود الأمل ومن ثم هبوطه وكأنه دورة كاملة للعجلة التي تدير هذا العالم.

كان مارل كرست اسماً يصعب لفظه . فالمقطع الأول منه يمتد بجهد ولا يمكن لفظه بسرعة ، أما المقطع الأخير فيبدو وكأنه ينظر إلى العالم من الأعلى تماماً . كما كانت والدة مارثا تتصرف طوال حياتها . كما أن مارل كرست كان مكاناً صعباً ، للعيش يمتد بمساحة مئة فدان ، على أرض رملية تنحدر نحو نهر ساڤانا . أما منزل العائلة فكان يقف عالياً فوق عواميد الطوب من أجل إفساح المجال أمام ساكنيه ، للاستمتاع بمنظر النهر وهو ينطلق مسرعاً بين الوديان .

تزوجت اليزابيث من السيد بيري كروفورد . الذي وافق على العيش في مارل كرست . فلم تكن هي راغبة بمغادرة المكان . وبالقرب من المكان تقع مقبرة العائلة . فوق مسطح شديد الانحدار . وتحتوي المقبرة على صف طويل من القبور ، لأطفال العائلة الذين توفوا خلال ولادتهم ، أو الذين قتلوا إثر سقوطهم عن الجياد ، أو نتيجة للإصابة بالكوليرا وبالحمى الصفراء . وعلى مدى المئتي سنة التي عاشتها عائلة لونغ في مارل كرست .

وقد جاءت تسمية مارل كرست أو القشرة الطينية ، بهذا الاسم نتيجة لقيام العبيد قبيل الحرب الأهلية بنثر الأسمدة الحيوانية ، والأتربة الغنية بالمواد العضوية ، والتي كانوا ينقلونها عبر النهر ، في الحقول الزراعية للمنطقة .

كثيرون ماتوا هنا أو دفنوا تحت الطين ، أو سقطوا إعياءً من الحر ، ومن لدغ الأفاعي ، ومن الغرق وقد دفن معظمهم في زاوية حقل بعيد ، مغطًى بأشجار الصنوبر قبل سنين من ولادة مارثا . وبقي الناس يعثرون تحت أوراق الصنوبر ، المتساقطة على أوانٍ مكسورة أو زجاجات أدوية فارغة ، وعظام بشرية تالفة . إذ أنه في ذلك الوقت كان يبدو أن الناس يؤمنون بأن الميت يجب أن يأخذ معه إلى قبره ، جميع ما توفر من أدويته ووسائل راحته .

بعد إجراء تلك العملية الخرقاء ، عاشت والدة مارثا على حافة الحذر ، تقيس كل خطوة تمشيها . فقد أكسبتها تلك العين العمياء ، التي تسبب بها الطبيب ، نظرة فخورة ولكنها مجزئة . فقد بدا وجهها وكأنه نصفين ، نصف نائم ونصف ثاقب متيقظ لمجابهة أية خيانة قادمة .

هكذا كان وجه والدة مارثا في عمر الخامسة والسبعين ، شرساً ومشوّهاً ، استدعت

مارثا وأخاها بيري جونيور ، إلى دار الرعاية في أوغوستا حيث قاما بوضعها سابقاً إثر إصابتها بعدة جلطات صغيرة من الرأس ، جعلت من الخطر عليها أن تعيش لوحدها في مارل كرست . كما أن الستة الأشهر ، التي مرّت قبل نقلها إلى دار الرعاية ، كانت حافلةً بالمشاكل المتلاحقة ، فقد توقفت والدة مارثا عن دفع الشيكات ، التي حررتها سابقاً . وأحكمت إغلاق الأبواب الداخلية والخارجية ، للمنزل بالأقفال ، وأصبحت مكالمتها الهاتفية الليلية لأولادها مليئة بالشكاوي ، والاحتجاجات فقد تبين لها أن المرأة التي قاما باستخدامها ، لرعايتها في البيت كانت لصة وسكيرة ، وأنها ظلت تسمع كل ليلة أصوات تعبث بالأقفال ، وكان العابث هو هيربرت لونغ ، الذي يسكن في أول الطريق ، والذي ينحدر هو وعائلته من نسلٍ من العبيد ، الذين عاشوا في هذا المكان منذ مئات السنين . وقد انتظروا كل هذا الوقت ليعودوا الآن ويسرقوها !

في ذلك اليوم ، حضر بيري جونيور ومارثا لرؤية أمهم في دار الرعاية ، كانت جالسة على المقعد المتحرك قرب النافذة ، تتمتع بأشعة الشمس ، وترتدي ثوباً أبيض من الكتان ، وتضع حلقتي أذن هما المفضلتين لديها ، إضافة إلى بعض الجوهرات التي ورثتها سابقاً . كان شعرها يبدو فضياً متموجاً ، ويفوح منه عطر «الأربيج» "Arpege" . بدت وكأنها في أجمل ساعاتها .

«إنك تبدين في غاية الروعة يا أماه ! ما هي المناسبة ؟» سألتها مارثا وهي تُقبّل خدها المغطس بالبودرة .

كانت المناسبة ، بعض الأوراق التي تحتفظ بها أمهما في محفظتها . قامت بتسليم تلك الأوراق ، ورقة ورقة إلى مارثا وبيروي جونيور وهي تبتسم ، فقد كانت الأوراق عبارة عن عقود موثقةٍ عند كاتب العدل .

«لقد باعت أمي مارل كرست ، باعتها بكاملها إلى مستثمر ، كان يخطط لتجريف المنزل وتسوية الأرض ، ومن ثم تقسيمها إلى قطع تمهيداً لإعادة بيعها تحت اسم ضاحية أوكس الجديدة» .

مررت أمي ورقة إلى بيري وقالت له : «هذه نسخة من الكوشان وكما ترى فهي موثقة وموقعة جيداً .» أخذ بيري يُقلّبها في الضوء ، باحثاً عن أي خطأ في العقد .

مالت أمي بكرسيها المتحرك إلى الأمام، ووضعت يديها على حضنها، واحمرّ خداها كأنها تريد أن تتذوق طعم انتقام المنتصر، بهذه السرقة التي ارتكبتها ثم أضافت: «أما محتويات البيت وممتلكات العائلة، وسجلاتها فقد بعتها لشاب يعمل في متحف تاريخ الجنوب بأتلانتا». توقفت قليلاً، ثم ضربت بيدها على ذراع المقعد وصاحت: «هكذا تم كل شيء». كان هذا الشاب يزورها في دار الرعاية، منذ أن وضعها ولداها هناك وقد مضى على ذلك سنة كاملة، قام خلالها بأخذها مرة أو مرتين، بالسيارة إلى مارل كرست، لتحضر أشياء كانت قد نسيتها هناك. كان للعائلة ممتلكات ذات قيمة تاريخية هائلة، لدرجة أن جماعة المتحف كانوا يصرّحون دائماً ،بأن هذه الممتلكات هي أغلى وأهم مجموعة، تحف تاريخية موجودة في جورجيا. كانت تحتوي على ثياب كتانية ثمينة، وثياب أطفال خُيّطت على يد نساء العبيد، ومفكّرات وعقود مزارعة، ودفاتر وسجلات كاملة لتاريخ المزرعة ، وكان الشاب لطيفاً معها، وقد خصّص وقتاً كثيراً للجلوس معها، والتحدث في همومها ولم يكن يديم النظر إلى ساعته، أو يختلق الأعذار ليتركها بعد خمسة دقائق.

لم يكن الأمر مفاجئاً جداً بالنسبة لمارثا وبيري، فكل شيء تم استلامه سيعود ويسلّم في النهاية، كما أن أمهم كانت طوال طفولتهم، تردّد أمامهم أنها عاشت على مبادئ عليا. تعني أن كل شيء يجب أن يكون صحيحاً، إلا أنها ولأن كل شيء، لم يكن صحيحاً فقد ظلت تحسُّ بإحباط شديد، وعميق أمام كل شخص وكل ظرف. كانت دائماً تصف مارثا بالفرس، وتشعر أنها تجمع جميع نواقصها في هذا الوصف، فقد كانت مارثا ذات وجه طويل، وأسنان كبيرة وشعر غير جعد وعينين تشعّان وضوحاً مثل عيون الخيل. وكان جسمها كبيراً ومكتنزاً، كثير التعرُّق في الصيف، في حين تظل أصابعها باردة في الشتاء، أما بيري جونيور فلم يكن أكثر من تلميذ عادي تعوزه الحماسة، وحتى زوجها بيري سبّب لها الإحباط في حياتها، فعندما كانت مارثا في السادسة عشرة من العمر، وبيري جونيور في الثامنة عشر، تسلل والدهما صبيحة أحد أيام تشرين الأول ليصطاد البط، في مستنقع قريب من أرض العبيد القديمة، وهناك توفي وحيداً إثر تعرضه لذبحة صدرية، وقد عثر عليه شرطي المنطقة جالساً على مقعده الخاص، بالرحلات في مكمن البط وبندقيته على

ركبتيه ، . ينظر من الثقب الصغير في حائط المكمن ،وكأنه كان يراقب البط البري ، وهو يقفز ويتمختر وسط المياه المعتمة أسفل المستنقع ، حين داهمته الوفاة . أغضبها موته كثيراً وأخذت تكثّف بحثها عن ذلك اللص ، الوهمي الذي سرقه منها ، ومع ذلك فقد ظل الولدان مارثا وبيري الصغير يتوقعان ، أن تضعهما أمهما يوماً على لائحة المشبوهين ضدها ، إلا أنهما لم يكونا مستعدّين لذلك . فلا أحد يستعد بالعادة لوقائع الحياة ، التي غالباً ما تأتي مفاجئة ومرعبة أو تأتي حلوة أكثر مما نتخيلها . فنحن نحلم ونتمنى ونخطط ، ولكن هناك من هو أكثر كرماً منا وأشد مكراً ومهارة ، يخطط الحقائق والوقائع لنا دون أن ندري .

بعد أن أستمعا إلى ما قالته أمهما ، وأدركا ما جردتهما منه ، وبعد أن ألقت ظهرها إلى الخلف راضية عن نفسها ، تنظر إلى كل منهما نظرات قاسية ، وتتحفز لأي سؤال يبدر منهما ، أغمضت مارثا عينيها وأخذت تتخيل الجرافة وهي تهدم البيت ، وتحطم الطاولات والمقاعد والأسرة والخزائن ، وخاصة خزانة قبعات جدتها وأصوافها . رأت من نافذة غرفة نومها النهر الواسع ، وهو ينحرف في الشتاء وضفافه مغطاة بأوراق الشجر المتساقطة ، والأشجار العارية ، ويجر معه مقبرة العبيد القديمة . التي عثرت فيها مارثا في الربيع السابق على ورود بلاستيكية . موضوعة داخل إناء وملقاة بجانب شجرة صنوبر . شعرت مارثا وهي في دار الرعاية ، ذلك اليوم بأن العالم قد أحبطها ، وابتعد عنها للمرة الأولى ، إذ أنه قام بإبعاد أمها عنها بالطريقة نفسها ، التي كانت هي تخبرهم بها ، ليس فقط بالكلمات التي كانت تطلق منها ، ولكن بالخطوات العملية ، التي تبتعد بها عنهم بوجه غاضب وجامد .

توفيت أمهما بعد سنة من تاريخ هذه الواقعة ، إثر ذبحة صدرية أصابتها يوم السبت . وهي جالسة على كرسيها المتحرك ، في قاعة الطعام بدار الرعاية . قتلتها تلك الذبحة الصدرية ، قبل أن يتمكن أحد من لمسها ، ربما تكون هي راضية عن مثل هذه الميتة ، اللائقة لشخص في مثل منزلتها . عند تكفينها دُهشت مارثا ، حين اكتشفت أن شكل أمها قد تغيّر في موتها عما كان عليه في حياتها ، فقد بدا شعرها الفضي المتماوج مرتباً ، وكذلك أصابعها الأنيقة الطويلة ، ولم تظهر عليها تلك الملامح الشرسة المتغطرسة ، التي صبغت حياتها . كان وجهها يبدو مستنفذاً ، وهزيلاً وكأن

تحت هذا الغضب الذي كانت تظهره، كان يكمن حزناً عميقاً يعمل في الخفاء، حتى أن كل محاولات متعهد الدفن لرسم ابتسامة حزينة على وجهها، أو تسليط الأضواء الحمراء عليها، لم تستطع أن تخفف من قساوة ذلك الوجه الذي حملته معها إلى الآخرة.

II

ماذا تفعل في العادة بشيء تتسلمه؟ لم ترغب مارثا بأن ترى أولادها حول كفنها، يرددون يا لأمنا المسكينة! لذلك عادت إلى تلك الحياة الهادئة، التي طالما رغبت بها، حياة عادية متينة الجذور. كانت مارثا ترى أن المرارة التي عاشتها أمها والغضب الذي اكتنف حياتها، كانا لا يتساوان مع آمالها وتطلعاتها. كانت تلك الآمال والتطلعات هي ما تريد مارثا أن تجذرهما في نفسها. لذلك رضيت بالزواج من ريموند ميتلاند بالدرجة الأولى. (ضد رغبة أمها) وكان ريموند رجلاً محترماً من عائلة محترمة، وكان كبير الجسم، حريصاً وجدّياً وله أذنان كبيرتان، كما أن رغباته تتناسب مع رغباتها، وقد عاشا معاً في الريف خارج مدينة أوغوستا. وكان ريموند يعمل بائعاً متجولاً، ويتنقل بين أعلى الساحل وأسفله، ويُطلق على هذه المنطقة اسم ناحية البحر الشرقية، فقد كان يؤمن أن هذه الكلمة الكبيرة تعطيه حداً تنافسياً. يجعله متفوقاً على نظرائه من البائعين، وكانت بمنطقة عمله، تمتد من ميرتل بيتش في ولاية ساوث كارولاينا، إلى جاكسون ڤيل في فلوريدا، وكان من حين لآخر، يبيع تأمينات وموسوعات، ومواد بناء ومواد صحية، ومعدات مكتبية وملحقات لآلات البيع. كما كانت جوارير المطبخ والحجرات الأخرى في البيت مليئة، بأقلام الرصاص والحبر والمساطر وفتاحات العلب، وغلافات المفاتيح وميازين الحرارة، والملاعق الطبية، وكلها موشومة بأسماء وشعارات الشركات التي كان يمثّلها.

كان يقود سيارته في الصيف والربيع، تاركاً النوافذ مفتوحة (كان هذا في أعوام الخمسينات، قبل إدخال أجهزة التكييف في السيارات). ويده اليسرى تتكئ على حافة النافذة، مما كان يُعرّضها لحروق الشمس. وعندما يعود من عمله كانت قمة المتعة، عنده حين يأخذ حماماً ويستلقي على السرير، مرتدياً ثيابه الداخلية

القصيرة، ليأخذ غفوة أمام المروحة. ويستمع إلى موسيقى كلاسيكية حقيقية، من محطة الإذاعة الخاصة بهذه الموسيقى، بينما تقوم مارثا بدهن يده اليسرى برفق ونعومة، بحيث كان يتخيل دائماً أن جلده هو جلدها، وأن سبب راحته لم يكن من المعجون. بل كان لمسة أصابعها الناعمة المستديمة.

كانت أيام الصيف الأخيرة، من شهر تموز في تلك السنة حافلة بالمصادفات. فقد بلغ رايموند الثامنة الخميس وقطعت مارثا السادسة والخمسين من العمر. كما تخرج ابنهما رايموند جونيور من مدرسة جورجيا التقنية. وأنجبت ابنتهما لويز طفلها الثاني.

وفي أحد تلك الأيام، عاد ريموند من رحلة أسبوعية طويلة عبر الساحل. حيث كان يعمل لصالح شركة تومس بينت Tom's Peanut، ورمى مفاتيحه على طاولة المطبخ، ثم ارتمى بين ذراعي مارثا يشكو لها طول الستمائة ميل. التي قطعها في هذا الحر وفي عمره الحالي، كانت رائحته تعبق بالشحمة، والدخان والعرق وروائح الطريق. قال لها إنهم سيجدونه يوماً ما، ميتاً بذبحة قلبية على مقود سيارته، ربما قرب إحدى الطرق الفرعية الشديدة، الحرارة التي تحيط بمستنقع «بي دي»، كانت حجته أنه يرغب الآن في العمل، على مكتب ليبقى قريباً من البيت ومنها.

قالت له مارثا: اذهب وخذ حماماً وتعال لتستلقي.

استلقى قربها بعد الحمام، وأخذت تدهن له يده، أحست هذه المرة بلحمه المتراخي بين يديها، كما لاحظت ضمور عضلاته وتدلّيها، وتراخي صدره وشحوب يده اليسرى، تماماً مثل سائر لون جسده، ثم نظرت إلى تلك الابتسامة الهادئة الصغيرة على فمه. ثم جلست على طرف السرير بينما المروحة تنفث الهواء مقابلهما. كان المعجون ما يزال يفرك بين يديها، عندما برزت في مخيلتها صورة خارجه من جلده، صورة لها رائحة معينة. كانت صورة امرأة في ثياب خضراء، اللون تجلس على مقعد أبيض اللون، وتعقد قدميها الملوحتين بالشمس فوق بعضهما البعض، تضحك وفي فمها سيجارة.

فركت مارثا معجون السولاركير على يده الشاحبة. وفي اليوم التالي كانت تراجع فواتير الهاتف، التي تجمعت خلال الأشهر الستة، الأخيرة لتجد اتصالاً كثير التكرر. في منطقة ليتل ريفر بولاية ساوث كارولاينا. وعندما اتصلت مارثا بالرقم،

أجابها صوت امرأة يطابق تماماً ، ما تخيلته من أرجل كبيرة وسجائر ، كان صوت كسول للمرأة التي برزت لها في تخيلاتها .

في تلك الليلة ، قامت مارثا باطلاع زوجها على تلك الأرقام ، فما كان منه إلا أن وضع يديه على وجهه ، وبكى قائلاً إنها الحقيقة لقد أدارت رأسي ولكني سأنفصل عنها . . . إن اسمها هو . . . قاطعته مارثا قائلة إياك أن تلفظ اسمها في منزلي . . . . يا ليتها تصبر وتعطيه بعض الوقت . . . . يا ليتها تسامحه .

كانت مارثا تملك الكثير من الصبر ، والوقت وإرادة السماح ، حاولا معاً خلال الستة أشهر التي تلت ، ولكن الأمر كان قد ذهب بعيداً مع المرأة الأخرى ، ثم بدأت خيوط القصة تتجمع . . الجوهرات والنقود التي أعطاها إياها حتى نقود القسط الجامعي ، لابنه في جامعة جنوب كاليفورنيا ، والوعود التي قطعها لها . كانت المرأة أرملة تصغر مارثا باثنين وعشرين عاماً .

جُنَّ جنون مارثا ، إذ صارت كلما اعتقدت أنها سمعت القصة كاملة ، تظهر أشياء أخرى ، حتى تبين لها أن لا نهاية لخططه المستقبلية مع هذه المرأة . قبل أن يغادرها ريموند ليعيش مع تلك المرأة الضخمة القدمين في ليتل . ريفر طلبت مارثا من زوجها شيئين ، لا بل ثلاثة أشياء ، البيت في أوغوستا وبيت سكيلي ماونتن ، وهو البيت الذي اشترياه ، عندما كانت لويز ورايموند جونيور ، ما يزالان في المرحلة الثانوية من الدراسة ، ويتكون من طابقين طولاً وغرفة واسعة وسقف من الصفيح . ويقف على أساس في الحجر ، وسط واد يقع في سفح جبل سكيلي بكارولاينا الشمالية . كانوا يذهبون إلى هناك في الصيف ، وفي عيد الشكر . وكان رايموندد أول من ينزل من السيارة حال وصولهم ، بينما هي تمنع الأولاد من النزول وراءه فوراً ، وتقول لهم اعطوا لأبيكم وقته ! وابقوا قليلاً في السيارة . كان ريموند يبدأ بتمديد عضلاته وتنشق الهواء ، النقي ثم يقف ويديه على خاصرتيه ، نافخاً صدره وكأنه ملك على تلك التلال . ثم يتكئ بكوعيه الاثنين على باب السيارة ، ويدخل وجهه من خلال نافذة السيارة ، وهو يبتسم ابتسامة عريضة ، ويقول أنا بالتأكيد يا مارثا مليونير الخمسين سنتاً . كان هذا الاكتشاف يبدو جديداً في كل مرة ، وهو يعني أنه لا يتطلب الكثير ، ليشعر بالغنى وأنه مكتف بما لديه . بعد ذلك يقبلها على فمها قبلة طويلة . كانت

هذه القبلة تعني أنهم قد وصلوا .

أما الطلب الثالث والأخير لها ، من رايموند فكان أن لا يريها وجهه أبداً . وكانت تعني ذلك تماماً ، فهي تريده أن يخرج من حياتها وإلى الأبد ، وهي تعلم تماماً طريق الفراغ البارد ، الموجودة بداخلها حيث تستطيع العيش وفق مبادئها ، قالت له بصراحة : مع السلامة يا ريموند ثم قالت لابنتها خلال الطلاق : «إنني أشكر أمي على هذه القوة ، التي زرعتها بداخلي ، فهي التي أعطتني القدرة على تحمل هذا الأمر .» بهذه الكلمات قطعت مارثا تماماً الحبل مع ريموند .

III

مرت خمس سنوات على الطلاق ، وأعلنت مارثا أنها ستنتقل للعيش ، في سكيلي ماونتن . كانت تتحدث إلى ابنتها لويز ، وتقول : لا بد أن منظم الحرارة لدي قد تعطل ، فلم أعد أستطيع أن أطيق الحرارة هنا بعد اليوم . بدت لويز غير مرتاحة لقرار أمها ، الابتعاد هناك لوحدها ، سألتها «ولكن ماذا لو حصل لك مكروه هناك ، أو اصابتك ذبحة صدرية وأنت لوحدك؟»

«هيا يا أصدقائي فكروا بعيداً» كانت مارثا تمازح أصدقائها في الكنيسة الإنجيلية ، كلما سألوها فيما لو كانت تفكر جدياً ، بما تريد أن تفعله . أخبرت الآخرين أنها ستتقاعد ! ولكن ظلوا يسألونها تتقاعدين من ماذا ؟ من لعب الورق يوم الاثنين ، أو لعب البريدج يوم الثلاثاء ، أو الوقوف في دهليز الكنيسة يوم صلاة الأحد ، وأنت تترقبين وجهاً جديداً ؟ «مرحباً بكل المصلّين الذين جاؤونا هذا الصباح ، أرجو أن تعبئوا هذا الكرت ، وتضعوه في سلة التجميع نحو مسرورون بوجودكم» . . . . هل ستتقاعدين من قراءة الكتب للكفيفين وفاقدي البصر؟ وجر عربة الكتب عبر ممرات المستشفى ، تتطفلين على المرضى البائسين وتشجعيهم على الإبتسام . أم ستتقاعدين من صنع الكعك ، ومعدات الطبخ ومن دعوات التعاطف والتهنئة والتعزية ! تتقاعدين من السير بسرعة إلى الكنيسة ، كلما فتحت أبوابها ، ومن ثم تشرحين سبب تأخرك أو غيابك لإحدى الصديقات ؟ . . . وداعاً لكل هذا ؟

لم ترض مارثا بأن تكلم أحداً عن الوحدة ، التي تلتمسها ، فهي ترغب بأن تكون

وحيدة ، وأن ترى بعينيها مشاهد جديدة غير مألوفة لديها ، أرضاً صخرية تحت قدميها . لم تخبر أحداً كم ترغب من التخلص ، من ذكرى رايموند ، الذي ما زالت روائح سجائره ، تعشش في حجرات وخزائن المنزل في أوغوستا . قبل أسبوع فقط من مغادرتها للمنزل ، وقعت على علبة قديمة متعفنة من بسكويت . «تومز» الذي كان يبيعه رايموند ، في إحدى زوايا جرارات المطبخ . كانت تعلم أن هذا البيت ، سيظل يطلق إلى السطح ذكريات عن رايموند ، مهما حاولت أن تنظف أو أن تمحو أثرها ، فقد سبق وانتشلت قمصان رايموند من قعر إحدى خزائن غرفة النوم . ومزقتها إرباً ثم تناولت فنجان القهوة الخاص به ، من رف المطبخ وحطمته كما قامت بمحو آثار كتاباته ، وتعليماته على الجدار الفاصل بين خزان الماء الساخن والمدفأة .

بالنسبة لها ، فقد ذهب رايموند ، كما ذهبت أمها ، رغم أنها ما زالت تزور قبرها مرتين في السنة ، تحمل وردة بونسيتا في عيد الميلاد ، وزنبقةً في عيد الفصح ، وتقف محنية الرأس ، وقلبها خال من أي رغبة ، في التكلم معها أو أي شوق لرؤيتها .

ولكن الإنسان لا يستطيع إلا أن يفعل شيئاً ، فلا يمكنها أن تبقى جالسة طوال النهار ، مكتوفة الأيدي تلعب لعبة سوليتير على طاولة المطبخ ، كذلك لا يمكنها أن تكلم أحداً ، دون أن تسمع أصداء غريبة ، لحوار تجريه مع نفسها . فقد قررت أن تنطلق للعمل ، قامت بتنظيف الساحة الصغيرة خلف المنزل ، وحفرت فيها بركة ماء ، ثم أضافت غرفتين وشرفة إلى الجهة الخلفية للمنزل . وزادت مساحة المطبخ بشكل طولي ، حتى بدا البيت وكأنه قميص نوم ممدود الذراعين . وراحت تنتقل مرتين أسبوعياً بسيارتها الدودج البيضاء ، عبر الجبال لزيارة دار المسنين للعب ورق الشدة ، أو لتبادل أطراف الحديث معهم كل أسبوع مرة ، وبدون انقطاع ، كانت مارثا تبعث برسالة لأخيها بيري جوينور ، الذي تحول إلى التصوف بعد وفاة زوجته . وانضم إلى جمعية «البعث» السرية . كان يكتب لها بدوره عن هجرة الأرواح ، وعن قدرة الروح على الانتقال ، عبر الزمان والمكان لتدخل إلى حيث لا يوجد موت . ولا توجد بداية ولا نهاية ، بل يوجد فقط تيار يدفعك إلى الأعلى دائماً ، وطريق لولبية لا نهاية لها تنقلك نحو الكمال ، والنعيم كتب لها بيري أنه يرغب في الانضمام لزوجته ، وأنه ينتظر هذا اليوم بفارغ الصبر .

جلست مارثا في غرفة نومها ، في البيت الجبلي الذي صنعته لنفسها ، حيث لا يوجد أثرٌ لزوجها الخائن ، أو للجو المرير الذي خلقته لها أمها . لم يكن في البيت صورة لأي منهما ، تحولت مارثا إلى امرأة بسيطة ، طويلة القامة ترتدي بلوزة بدون أكمام ، وفستاناً محاكاً من مادة قنبية خشنة ، وتعقد ضفائرها برباط في أعلى رأسها . وتجلس مستقيمة الظهر عاقدة الكاحلين على مقعد عالٍ ، مشدود إلى طاولة بيضاء خشبية ، وتلبس صندلاً طبياً وجوارب من صوف .

وفي رسائلها لأخيها ، كانت مارثا تردد له النصح دائماً ، وتقول أن على الإنسان أن يكون واقعياً عليك أن توقف نزيف جراحك وتضع اليود على الجروح الأعمق منها ، وتستمر بالحياة في هذا العالم . لقد كانت الحقيقة . (وقد وضعت تحتها سطرين) رفيقاً مستمراً دائم الثقة ، لا تخذلك إذا صادقتها ، ولا تبتعد عنك لتقع في حب شخص آخر . لا يجب أن يرهق الإنسان نفسه باحثاً عن المستحيل . كل شيء تنتهي منه ، عليك بإلقائه جانباً ، فالآمال الخادعة قد تكون قاسية على المرء ، ولا يتوجب عليك أن تتعب نفسك ، في انتظار ما لن يحصل ، أنا أكلمك يا بيري عن خبرة طويلة ، فأنت تعلم كم عانيت من الشرور على يد هذه الحياة ، كلنا كذلك ، ولكنني كلما عشت أكثر تزداد ثقتي بأن عزاءنا في هذه الحياة ، إذا كان يوجد مثل هذا العزاء ، هو في مواجهة الحياة كما هي ، بدون أن نترك لعقولنا ، المجال لتسرح وتمرح ، وتطلب ما تشاء لأن النتيجة قد تكون ضياعاً في غابات التمني ، وندماً في النهاية . هذا يا بيري هو ما أؤمن به .

في عصر أحد الأيام ، وكان قد مرّ على سكناها في جبل سكالي ، ما يقرب السنة ، كانت البركة مليئة بالماء ، والساحة خلف المنزل قد لُفّت بأكملها بسياج ، وكان القش قد جمع لينشف في الحقل ، الذي قامت بتأجيره لأحد الجيران لزراعته . جلست مارثا على الشرفة بعد العشاء ، تراقب عتمة المساء وهي تغمر الوادي رويداً رويداً ، ثم تمتد عبر أسفل المروج ، وهنا أحسّت بتغير قد داهمها ، شيء أمسك بها وأدارها ، كما تدور ريشة المفتاح في قفل ضخم . ربما كان هذا التغير ناتجاً عن ذلك الضوء الذهبي ، المتسلل عبر أكوام القش ، أو ربما كان العمل الذي أنهته اليوم ، وهو كتابه اسم أمها وتاريخ وفاتها على كتاب الإنجيل الخاص ، بعائلة لونغ أو الطريقة التي

جلست فيها ، والكتاب مفتوح على حضنها ، وهي تراقب الحبر ينشف على وجه الصفحات .

لم يكن هذا الكتاب كتاباً عادياً ، فقد كان مغلفاً بغلاف أبيض ، محجر وصفحاته ذهبية اللون ، يتدلى من مؤشرها الأحمر ، صليب ذهبي صغير . كان كتاباً يحفظ أصل العائلة ، وتُسجّل فيه الولادات والوفيات والزيجات ، التي وقعت لعائلة لونغ منذ عام ١٨٢٥ . كان كتاباً جدياً ثقيلاً ذا غطاء جلدي ، وقفل ومفتاح ، تنبعث منها أدخنة التاريخ . أما صفحاته المسجلة في الداخل ، فكانت مختومة وناعمة كالقماش . وكم كانت تشعر بالرعد يهدر في صفحاته ، كلما قام أبوها بفتحه للصلاة .

كانت مارثا قد عادت إلى مارل كرست ، بعد أن باعت أمها كل شيء ، وبدون تردد أو شعور بالذنب ، تناولت هذا الإنجيل من درفة إحدى الخزائن ، الخشبية المحفورة قرب المدفأة داخل الردهة السفلية للمنزل . حيث ظل موضوعاً طوال حياتها ، وحياة أمها وجدتها وأم جدتها ، وكل أمهات العائلة . وأخذته معها إلى البيت . وقد ظل المتحف يكتب لها مطالباً بالكتاب ، كانت الرسائل التي تردها لطيفة مهذبة في البداية . ثم اصبحت تصلها بواسطة محامين ، إلا أنها تجاهلتهم جميعاً .

الآن ، هي تنظر من خلال اسم أمها ، إلى القش الذي ترك لينشف في المرج ، شعرت مارثا شيئاً يرفعها ويحملها ، ثم ينزلها في أقرب مكان إلى رأس الصف الذي شغرته أمها بعد وفاتها . من هنا جاءتها فكرة إقامة حفلة جمع شمل لعائلة لونغ في هذا المكان . وعلى الفور انطلقت بسيارتها ، صباح اليوم التالي نحو المرتفعات ، وأوصت بطبع نشرات مروّسة بعنوان : «حفل جمع شمل عائلة لونغ» وحددت الموعد في اليوم السادس إلى التاسع من تموز لعام ١٩٦٩ ، في الصيف التالي ، وقضت مارثا فصل الشتاء ، في كتابة الرسائل وتسجيل الردود ، ومن ثم إرسال صور للبيت الجبلي ، مع صور الغرف والأسرة المحددة لكل فرد .

يقول بيري جونيور : أعط مارثا وقتاً كافياً ، وبإمكانها التخطيط لأي شيء . ويضيف بيري الذي سبق واشترك في الهجوم ، الذي شنه الحلفاء يوم D-Day . وهو النزول على شاطئ نورماندي ، أن مارثا كان يمكنها تخطيط هجوم النورماندي بأكمله .

أتمت مارثا عملها بنجاح ، فقد تلقت وعوداً من ٢٥ شخصاً من عائلة لونغ من شتى الأرجاء . لحضور هذا التجمع ، وعندما حضر هؤلاء كانت مارثا تقف في منتصف الساحة . التي لم تنس أن تنهي ، تجريفها سابقاً لإنشاء موقف للسيارات ، وتدل كل منهم على المكان المخصص لوقوف سيارته . كانت تحمل ضوءاً كاشفاً ، تماماً مثل شرطي من شرطة الولاية ، في مباريات كرة القدم ، كما كانت تقوم بحمل أمتعتهم وإرشادهم إلى غرفهم . إضافة إلى ذلك أقامت مارثا ألعاباً ، وسباقات للأطفال ، وجولات لمشاهدة الطبيعة الجميلة في الوادي . كانت دائماً في أول الصف ، تكشف الطريق تماماً ، كما كانت تفعل أيام طفولة لويز تشرح خبراتها عن الأشجار ، والزواحف والأحجار ، فقد كانت الفتيات في فرقتها يسمونها السحلية ، بسبب عينيها اللامعتين واندفاعها السريع .

بالنسبة للبالغين من العائلة ، كان هناك الكثير من الطعام ، والكثير من الحديث ، كان إنجيل العائلة ينتقل مع الصور ، من يد ليد ، وقد بدت شجرة العائلة ، مثل لفائف المطبعة ، تظهر عليها خريطة كل فرع ، وكل أصل من أصول العائلة . أما في الليل فكانت تنشط الألعاب والجوائز ، : جائزة لأكبر ، فرد من عائلة لونغ وهو عجوز هرم تلف ، سوف يبلغ الثالثة والتسعين هذا الصيف ، يجلس بهدوء .حيثما أجلسوه ، حتى يعود إليه أحدهم ؛ جائزة أخرى لأصغر فرد ، وهو طفل ولد في حزيران للامار لونغ . التي نالت ترقية في هذا الصيف ، بتعيينها مراقبة لغرفة النسج ، في مطحنة بيب ببلدة بورت ديل في ولاية جورجيا . كانوا يسمونه الطفل الأزرق ، بسبب ولادته بخلل في أحد شرايين قلبه . كان طفلاً وديعاً هادئاً ، ينام بهدوء ، يحدق في كل الوجوه ، التي تمر عليه ، وكأنه يراقب الغيوم في السماء . إنها أكثر امرأة مسيطرة في العالم» . كان الجميع يتهامسون فيما بينهم حول مارثا . «تماماً مثل أمها رحمها الله» تمتم البعض ، حتى أخوها نفسه لم ينج من سيطرتها ، عندما تشاحن معها في المطبخ ، حول موضوع سخيف مثل «القشدة» . ففي صباح أحد الأيام ، دخل إلى المطبخ وهو يصفر ، راغباً في تقشيد بعض الحليب ، لإضافته إلى قهوته . وما أن تناول إحدى الزجاجات ، التي كانت مارثا قد أحضرتها من أحد جيرانها ، حتى تصدت له مارثا من الخلف . وانتزعت الزجاجة من يده قبل أن يتمكن من إغلاق باب

الثلاجة . وهي توبخه قائلة : «إنني أوفر هذه الزجاجة لأصبّها على كعكة التوت ، التي سأقوم بتحضيرها ليلة الوداع»

«هيا يا مارثا ، أريد فقط ملعقة صغيرة !» قال لها بيري :

«كلا لا أستطيع أن أعطيك منها شيئاً» .

امتد الجدال على هذا النحو لمدة نصف ساعة . وأخيراً قال بيري كلمته الأخيرة ، رافعاً الفنجان أمامها ، ويداه ترتجفان : «أريد القليل فقط من هذه القشدة لأضيفه إلى تلك القهوة اللعينة»

«حسناً لا يمكنك أن تأخذ شيئاً يا بيري ، لقد سبق وأبلغتك أنها مخصصة للكعكة وأنني بحاجة إلى كل ما فيها» . وضعت الزجاجة أمامها لتريه إياها . لم تكن تريد تلك الكتلة الصفراء الكثيفة في عنق الزجاجة ، بل القشدة التي ستخفقها لصنع الكعكة والتي ستبدو دافئة وغنية تحت طبقات الكعك الكثيفة : ألا يمكنه أن يتخيلها ! يمكنها هي ، ولعل مجرد التفكير بهذه الكعكة ترك بعض الدموع ترغرغ في عينيها .

أثارتها فكرة مشاحنتها مع أخيها على قطعة قشدة ، وهي التي ظلت تكتب له في الرسائل حول الكرامة وحول مخاطر التأمل في المستقبل أو الماضي من أجل إدراك السعادة والعزاء . هي التي رمت بكل ثقلها من أجل أن تعيش هذا العالم على حقيقته .

أخيراً ألقى بيري جونيور فنجان القهوة على الرف وغادر المطبخ .

سمعه أحد الأطفال يقول لرجل من العائلة : «سوف أتناطح مع مارثا الليلة» وقام هذا الطفل فوراً بتصوير كبشين يتناطحان فوق إحدى المروج الجبلية . وقد تشابكت قرونهما ، وبقيا يدفعان ببعضهما البعض إلى أن سقطا إعياءً وماتا . وقد أثارت هذه الصورة عاصفة من الضحك ، خاصة عندما أنهاها الطفل برسم عظام هذين الكبشين وقد كشفتهما الأيام بعد مرور مواسم عديدة ، وكانت قرونهما الكالحة اللون ما تزال مشتبكة ببعضها البعض .

في اليوم الأخير من الاجتماع ، وكما خططت مارثا ، قامت بتسلق السلم الخشبي ، المهزوز بدون مساعدة أحد وعلقت مصابيح ورقية يابانية الصنع . بين شجرة

القبقب على جانب الطريق وشجرة الأرز القريبة من البيت ، كما حددت الساعة السادسة والربع موعداً لتناول الطعام على أن تلقى كلمات الوداع في الساعة السابعة ، مع ما يرافقها من تبادل التذكارات والتقديرات ، وربما أغنية أو أغنيتين وأخيراً كلمة عالم الأنساب الذي تتبع أثر العائلة حتى بريطانيا ، وسيقوم الليلة بتسمية المكان الذي انطلق منه أوائل مؤسسي هذه العائلة نحو العالم الجديد قبل مئات السنين .

في الساعة السادسة تماماً ، دقت مارثا جرساً فضياً بشوكة فضية وانتظرت حتى هدَء الجو ثم دعت الجميع إلى الوقوف بصف واحد بدءاً من كبيرهم حتى صغيرهم . وقد فعل الجميع تماماً كما خططت مارثا ثم بدءوا بالجلوس حول الطاولات المصنوعة من موائد ثقيلة من الخشب ومن أرض خشبية مغطاة بشراشف بيضاء ، مدّت عليها صحون الدجاج والذرة والفاصوليا ، وبودنغ الجوز وكعكة جوز الهند ، وطبعاً كعكة التوت المفضلة لدى مارثا ، وقد بدت مغطاة بجبل من القشدة المخفوقة .

ما كاد القوم يجلسون لتناول الطعام ، حتى سمعت مارثا صوت جارها إيبل رانكن قادماً من أسفل الطريق . كان بيل رانكن يبيع الحليب الطازج في صفائح ينقلها على عربته ، ويملك مزرعة أبقار خاصة به كانت مارثا تأخذ كل قشدتها منها . وحالما سمعت طقطقة صفائحه وقعقعة عربته ووقع خطوات البغل الذي يجر العربة على تلك الطريق الصخرية ،حتى قامت مارثا بتعبئة صحن كبير بالدجاج والفاصوليا وكعكة جوز الهند وهرعت إلى طرف الساحة لتنتظره . وما أن رآها إيبل رانكن حتى شدّ لجام البغل وأوقف العربة وحياها تحية المساء : (دون أن ينظر إلى عينيها) وهو يرفع قبعته البنية . قدمت له مارثا الطعام قائلة : «تفضل يا سيد رانكن» .

التهم رانكن الطعام بسرعة ، وهو قابع على مقعد العربة ، وكأن عليه مهمة إنهاء الأكل قبل حلول الظلام . كانت مارثا تمسك لجام «سودست» وهو اسم البغل وتربت على وجه وتتحسس عظام أنفه وهو ينفث نفسه على يديها . عندما رأى الأولاد سارعوا لكي يداعبوا البغل ، وهنا استلمت مارثا المسؤولية وأمرتهم أن يقفوا في صف واحد ويستمعوا لما ستقوله لهم : «الآن اضربوا على أنفه برفق ، يجب أن تربتوا برفق على الحيوان كما تربتون على عصفور الدوري ، هل تريدون أن يتذكركم؟ إذن انفخوا في ثقب أنفه برفق ، هكذا ! ألا تسمعونني ؟ هكذا» .

كانت هذه هي كلمات أمها ، وما أن تفوهت بها حتى أحست بأمها تسير وتقف خلفها وتستمع لها ، لتتأكد من أنها تعطي تعليمات معاملة الحيوانات بشكل صحيح . كانت أمها دائماً ترفق بالحيوانات ولم يؤثر إحباطها أو شعورها بالمرارة على هذا الموقف بالحيوانات ، لم تخنها أبداً ولها كانت مارثا ما تزال طفلة . كان هناك قطيع من الكلاب الضالة الجائعة تحوم حول الدرجات الخلفية لمنزل مارل كرست بانتظار أن تطعمهم أم مارثا كما كان هناك دائماً علبة أحذية موضوعة على المدفأة وبداخلها سناجيب صغيرة سبق وأنقذتهم أم مارثا من شجرة صنوبر سقطت وأرضعتهم بالزجاجة حتى بلغوا ثم سرّحتهم في الغابة .

كانت أمها تملك أيضاً حصاناً مكتنزاً ، أحضرته من تنيسي ويدعي جيمبو قامت بتزيينن عرفه الأسود وذنبه برباط أحمر قبل أن تمتطيه في استعراضاتها ، كان تحك له أنفه وتربت عليه وتدخل وجهها في شعر عنقه ، بينما مارثا واقفة تتكىء على وتد السياح تستمع إلى صوت أمها الذهبي الدافئ وهي تكلم الحصان ، وتنتظر منها أن تمنحها بعضاً من هذا الحب المتدفق . انتظرت وكم انتظرت .

أما الآن فقد أحست مارثا بأن أمها تقف بجانبها ، أحست بأنفاس أمها تتدفق من عظام أنفها . ربما قطعت أمها كل هذه المسافة الطويلة لتجدها وتمنع عنها الحب مرة أخرى ، لتقوم بتذكيرها مثلها مثل أي أم صالحة أن بإمكانها كسب الحب إذا هي صبرت ولم تيأس وعرفت كيف تقوم بعمل الأشياء بشكل صحيح مرة واحدة في حياتها .

حبست مارثا أنفاسها ثم هزت رأسها لتطلقها . والتفت حولها لترى إذا كان أحداً قد لاحظها وهي تقف هنا كالبلهاء مغمضة عينيها ، وقبضتاها مشدودتان على جنبيها ، وكأنها منجرفة في نوبة أمل . ولكنها لم ترَ إلا أبل رانكن جالساً فوق مقعد العربة يلتهم عشائه ، والأولاد يداعبون أنف سودست ويمرغون خدودهم على فكيه الناتئتين . أما خلفها في الحديقة فكان الضيوف يجلسون على العشب الأخضر أو في الشرفة وهم منهمكون في تناول طعامهم . داروا حول المائدة وعاودوا ملء صحونهم مرتين أو ثلاثة وتناولوا قطعاً كبيرة من كعكتها اللذيذة . فكرت مارثا بنفسها قليلاً : يا لك من امرأة سخيفة تنتظرين لمسة أمك الميتة ولكن ها هي أمك مرة أخرى تأتي عبر

طبقات السنين وتفور تحت أقدام مارثا مثل نبع عتيد. هذا الذي يسميه الناس «أمل» هذه القوة الماكرة القاسية التي تتحرك عبر العالم، هذا الشيء الصبور العنيد الذي يدعوه الناس أمل والذي لا يتوقف أبداً عن الحبك والربط. وإعادة تجميع الأشياء لاكتشافها وإصلاحها وإتمام عمله، والذي يشكل من حياتك الحاضرة مستقبلاً تجدين فيه الحب والشفاء ثم يدفعك إلى الأمام. بينما يقوم هو بإذابة نفسه وإعادة تشكيلها أمامك، لكي تبقين مواظبة على العيش بهذا الشعور الضروري للبقاء في هذه الحياة وهو الشعور بأنك تتجهين وتتحركين دائماً نحو شيء ما.

كانت مارثا تظن أنها لو تخلت عن الأمل، فإن زمانها على الأرض سيكون خالياً من الشوق ومن مظاهره المشوهة. الله يعلم أنها حاولت ولكنها لم تفلح، حتى أمها لم تستطع فعل ذلك في النهاية، فبعد أن باعت مارل كرست من وراء ظهرانيهم وظنت أنها أصلحت مسيرة حياتها بانتزاع شيء من شخص ما رداً على شعورها بانتزاع شيء منها في السابق، بعد هذا كله لم تشعر أنها حققت كفايتها بل على العكس بدأت تنتحب على كلبها الصغير العجوز.

كان الكلب يدعى راودي، وكان هو الإرث الوحيد الذي خرجت به من أمها وكانت قد نقلته إلى بيتها عندما قامت هي وبيري جونيور بوضع أمهما في دار رعاية المسنين، كان عمره يومها ثلاثة عشرة سنة، وكان نكد المزاج، يرتجف ويخاف أن يعض، لم يبق منه سوى عينيه المتعبتين اللزجتين وجلده الأجعد وعظامه.

في صباح يوم السبت عادت مارثا من البقالة لتجده ملقى على أرضية المطبخ يجتهد في التقاط أنفاسه، بعد أن قلب حاوية القمامة والتهم قطع لحم عفنة من علبة سمنة كريسكو. هرعت به إلى البيطري ولكنه توفي بعد ساعتين، فقد تخثر دمه نتيجة للدهون التي أغلقت مجرى الدم إلى قلبه.

بقيت أمهما وحتى تاريخ موت راودي متعطشة لأخباره تفاصيل طعامه وانتظام ذهابه إلى الغائط، وكانت مارثا وبيري يقدمان لها دائماً هذه المعلومات حتى أنهما كانا يدعيان الحفاظ على راودي بينهما كنوع من المشاركة في الغنيمة. وفي إحدى الزيارات أخبرها بيري جونيور كيف أن راودي استطاع في صباح يوم خريفي بارد أن يطارد السناجب حول حديقة المنزل، وفي زيارة أخرى أخبرتها مارثا أنه ما زال

يستمتع ببسكويت الكلاب على الرغم من أنه بدأ يطيل العلك ، وأنه يستغرق وقتاً طويلاً لكي ينهي أكل قطعة منها . ولكنها حين أخبرتها أنه يعاني من بعض الإمساك لم تتردد أمها في اتهامها بأنها لا تطعمه كفايته من الألياف . اعطه بعض التفاح لقد قلت لك ذلك ألف مرة ، ألا تسمعين ما أقوله لك . كانت تغشو عينيها تلك القساوة القديمة ثم تعود لتبتسم لهما ابتسامة ظاهرية يتلوها البكاء والشوق والأسى ، لماذا لا تحضرون كلبي الصغير لأراه كانا يجيبانها «قريباً يا أماه» ويربتان على يدها ويسحبان شعرها برفق إلى الخلف «في المرة القادمة سنحضره يا أماه» .

نحن الآن في شهر آب ، وقد مرَّ على صيف جمع الشمل خمس وعشرون سنة ، كانت اوليفيا هدسون وهي واحدة من بين حفيدات مارثا تقود سيارتها مع زوجها وابنها الصغير ، عندما مرت بهما السيارة عبر طريق تصعد عبر واد ضيق . قالت اوليفيا يبدو أن هذه الطريق هي التي توصل إلى منزل عمتي مارثا وهو المنزل الذي التقينا به يوم اجتماع شمل العائلة . أما زلت تذكر أني أخبرتك عن هذا الموضوع كان عمر اوليفيا سبع سنوات ، في ذلك الصيف وهي الطفل الأزرق أخوها ظهر في الصور الفوتوغرافية وهي تقف بجانبه وتضع يدها قربه على جانب السرير . ها هما يعودان اليوم إلى الوادي وبينما السيارة تقطع الطريق ، كانت اوليفيا ترقب المناظر الطبيعية باحثة عن شواهد قديمة . لم تكن تتخيل أن المنزل ما زال قائماً . ولكنها كانت تأمل أن تستدل على مكانه من خلال بعض الأشجار والأسيجة والحقول المألوفة ، التي يمكن أن تعيده إلى ذهنها وتستدل منها على مكانه الأساسي . كانت تأمل بالعثور على بعض ألواح السقف المعدنية أو على المدفأة القديمة أو على درج قديم متبقٍ قرب الحقل أو أي شيء آخر .

ولكن عندما وصلت السيارة إلى احدى المنحنيات ، وجدته واقفاً هناك ! كان هو البيت نفسه ، يقف وسط غابة من أشجار الأرز الضخمة وشجيرات القيقب الفضية التي كانت أوراقها تلمع وتهتز مع النسمات . كان هناك لافتة لأحد السماسرة العقاريين ملقاة على العشب بجانب جذع شجرة القيقب الضخمة التي كانت تغطي سائر الشجيرات الأخرى ، وترمي بظلها الواسع على المسطح العشبي الأمامي خلال صيف الاجتماع العائلي . انتاب اوليفيا شعور قوي وفجائي بينما كانت تشق طريقها

وسط الأعشاب الغليظة والشجيرات المحيطة بالمنزل . شعور غامر كأنه حب مستعاد ، كان هذا هو الشعور نفسه وليس ذكرى الشعور . وكان المشهد يحثها على الضحك عالياً ويثير فيها حزناً جارفاً وشوقاً غريباً ليس لشخص خاص بل لإدراك هدف هذا الشعور .

كانت اوليفيا تعتقد أنه لو تم بيع البيت لشخص آخر ، لبقي بلا دهان ولقطّعت حواجزه وامتلأت حديقته بالسيارات الخردة ولو أنها وجدت سياجاً وتدياً مبنياً حوله أو قبعة قش موردة ومعلقة على المدخل ، لذابت القوة التي تحركها نحوه في هذه الحياة الجديدة . ولكن البيت كان يقف الآن ، ويطلق طاقة أصلية وقوية لدرجة أنها شعرت وكأنها تستطيع أن تنظر فيه وتجد الجميع جالسين على مائدة العشاء ، بينما مارثا تدور حول المائدة . وتصب الحليب الطازج في كاسات الأطفال ، والأمهات يسرن وراءها ويفرغن تلك الكاسات ويملأنها بالحليب المبستر المعلب من البقالات .

طبعاً كان ما رأته اوليفيا وهي تشق طريقها وسط العشب وتمر عبر الشرفة العفنة ، أو تنظر من خلال الزجاج الضبابي للنافذة الضيقة قرب الباب ، هو الحجرة الأمامية لبيت مهمل مهجور ومقاعد منتفخة وأوراق مبعثرة وبقع بيضاء منتشرة ، كان هناك علبة مليئة بالزجاجات الزرقاء . أرادت أوليفيا أن تلج إلى الداخل فقد شعرت أن عليها أن تفعل ذلك .

عند أسفل الجبل عثروا على السمسارة العقارية ، كان اسمها بيللي ، وتضع ماسات على أطراف نظارتها ، وجواهر على قميصها الأسود الطويل ، كان شعرها أجعد وعيناها غامقتين نفاذتين مثل هنود الشيروكي ، كذلك عظام خدها . كانت ثقيلة الوزن تلهث بشدة ، لدرجة أن زوج اوليفيا اضطر بأن يدفعها على الدرجات الأمامية المهشمة . ولكن عندما دخلوا إلى المنزل ، انقلبت شخصاً رشيقاً وعملياً . كان المكان ما يزال مملوكاً من أولاد مارثا ، ولكنهم كانوا مشغولين عنه كثيراً لذلك قاموا بعرضه للبيع . كان هناك من يريد شراء المكان وتحويله إلى فندق مستغلاً إنشاء مركز تزلج جديد ، على منحدرات جبل سكيلي . نظرت بيللي إليها ، كانت تعلم أنها قريبة مارثا ، فقد قالت لها : «أنت تشبهينها ، أظنك تفضلين عمتك مارثا ! ولكن هل هي مهتمة بشراء البيت؟» طبعاً كان على أوليفيا أن تقدم عرضاً سريعاً ،

والحقيقة أنه كان عليها أن تقدم العرض اليوم قبل الغد لأن بيللي كانت تنظر إلى ساعتها من حين لآخر فقد قالت إنها تتوقع عرضاً في أية دقيقة من أصحاب مشروع الفندق .

كانت الكتب مبعثرة على أرضية جميع الغرف ، والستائر الذاوية تتدلى على أوتادها الملتوية بينما تمتد أغصان التوت عبر زجاج باب المطبخ «أتعلمين ؟» قالت بيللي لأوليڤيا وهي تصعد الدرج ، : «بعض الناس يقولون بأن البيت مسكون قد ماتت عمتك مارثا في هذا البيت ، ويقال بأنها عادت لتسكنه» ضحكت أوليڤيا ونادت من أعلى الدرج . إذا كان هناك أحداً سيسكن هذا البيت فهو عمتي مارثا .» وراحت تفكر بذلك الهر الرمادي المقطوع الأذن بوجهه الحجري ، فقد كان يجلس على الشرفة حين دخلا بالسيارة ولكنه اختفى كالدخان بين الأحجار عندما شاهدهما يدخلان . أخذت تفكر بمارثا وعنادها وبمشاحنتها مع أخيها على القشدة ، وبمعاركها التي كانت تخوضها لإصلاح الأخطاء وبرائحة ثيابها النظيفة دائماً ، كانت مارثا تريد أن تحصل من الحياة على ما لا تستطيع أن تحصل عليه في حياة واحدة . لا شك أن هذا أمر طبيعي ، في مثل حالتها فستبقى روحها تصارع وتتحرك وتتدخل هنا هناك وتدخل أنفها الضخم في كل غرفة .

تذكرت اوليڤيا كل هذا حينما دخلت غرفة طويلة . كانت النساء والفتيات ينمن تحت افريزها خلال حفلة جمع الشمل ، كانت الغرفة ملأى بملفات رثة وحقائب مفتوحة . والأغرب من هذا كله أنها عثرت على فستان عرس وخمار في إحدى الخزائن . موضوعين داخل صندوق أبيض تحت نافذة بلاستيكية بدون تاريخ أو اسم يربطهما بأي إنسان . انحنت لتنظر عبر النافذة المنخفضة جداً من الجدار ورأت زوجها يركض وراء ابنها على العشب الطويل ، خلف ساحة المنزل الصغيرة حيث أقامت مارثا بركتها الصغيرة ، تلك البركة الضحلة الباردة الموحلة التي لم تكن لتنظف إلا بعد تفريغها .

فتحت أوليڤيا جراراً في إحدى الخزائن بعد أن اضطرت إلى خلعه ، بسبب الصدء ثم بدأت تقلب الملفات المحشوة بأوراق هشة وبنّية اللون : نماذج عقارية ، نشرات عن التصوف وأوراق خضراء مروّسة بعبارة ، «تجمّع عائلة لونغ» أخذت تفكر بالأسبوع

الذي قضته في تلك الغرفة ، كان الرجال يطلقون على تلك الغرفة اسم «قن الدجاج» . فقد كانت مشاجرات النساء وأصوات صياحهن في الصباح تشبه أصوات فوج من الدجاج البياض . كان أبوها رجلاً يحب المزاح وقد كتب اسم قن الدجاج على لوح خشبي وأرفقه برسم لدجاجة سمينة لها مؤخرة ضخمة ورموش طويلة ، وهي تنظر بحياء من أعلى كتفها ، متكئةً على الباب . لم تكن اوليفيا تعد من بين النساء ولم تكن محاطة بالكثير منهن . وقد كن ينمن متغطيات بشراشف النساء وحرامات خفيفة على أسرة مصفوفة مخصصة للمخيمات ، وكانت هي تجر سريرها قرب النافذة إلى جانب سرير أمها وعربة نوم الطفل ، حيث يمكنها رؤية النجوم والكواكب السماوية خلف الجبل قبل أن يغمر ضوء الصباح الوادي كله .

كان مما سمعته اوليڤيا أن مارثا قامت قبل شهر من وفاتها بإضافة غرفة شمسية ، إلى الناحية الجنوبية من البيت ، أما الآن فقد انتهى البيت وانتهت كل غرفه ، وبقي مهجوراً مقفلاً ولمّا ينته بناؤه بعد .

عادت بيللي تنادي من أسفل الدرج : «إن عمتك مارثا كانت تعرف تماماً طريقها عبر هذه الجبال . فقد ذهبت مرة لحضور جنازة أحد الجيران في كنيسة الله الواقعة على الطريق ، وكانت ترافقها امرأة غريبة عن المكان ترتدي حذاءً ذا كعب عال وثوباً أزرق ناعماً وقبعة وفروة طويلة ، وأنت تعلمين كم هم متزمتون هؤلاء الجماعة في كنيسة الله . إذ أنهم لا يسمحون بدخول الكنيسة بمثل هذه الثياب الفاخرة ، ويقال أنهم عندما شاهدوا تلك المرأة تدخل إلى الكنيسة التفتوا اليها جميعاً باستهجان . وظلّوا يحدقون بها حتى قامت عن مقعدها وغادرت لا تلوي على شيء . ولكن عمتك مارثا التي كانت ترتدي ثوباً أسود بسيطاً وكعباً منخفضاً ، دخلت بثقة وجلست في أحد المقاعد الخلفية بهدوء كالفأر وكان أن تقبلها الجميع وكأنها واحدة منهم .»

كانت اوليفيا تشعر بالسرور حينما تسمع عن شهامة مارثا ، ولعل قصة بيللي هذه تعيد بعض البريق واللمعان إلى صورة مارثا المهزوزة . التي رسمتها لها الأيام أمام عائلتها مجنونة متقلبة المزاج . وأضافت بيللي أن الناس في الجبل كانوا يتحدثون عن مارثا خلال الجنازة ، وكأنها فعلت شيئاً رائعاً حين جاءت إلى الكنيسة مرتدية ثياباً

محتشمة . إلا أن مارثا وعندما سمعت بالقصة لم تجد فيها موضوعاً مثيراً ولم تتفاجأ لأنها تعتقد أنها فعلت الصواب . أما ماذا سترتدي يوم الجنازة فلم يكن الأمر ببالها أبداً ، فالجميع يعلمون ماذا سيرتدون في الجنازات .

كانت مارثا قد وصلت إلى خزانتها لتسحب ثوباً أسوداً ، وكانت ترتدي كنزة سوداء في ذلك اليوم البارد وفي الدقيقة الأخيرة قبل ذهابها إلى الكنيسة انتزعت ساعة يدها ذات السوار الذهبي ، وأعادتها إلى الجرار لكي لا تؤذي أعين هؤلاء الناس المتزمتين . كانت تلك الساعة هدية عيد ميلادها من أولادها في إحدى السنين . كان النظر إليها يذكرها بهم وبوجوههم المشرقة الصافية أيام كانوا أطفالاً وكانت الأيام تجري وكأنها بلا عدد .

دخلت إلى الكنيسة الباردة المزدحمة بالمصلين ، وجلست في المقعد الخلفي وراحت تستمع إلى الترانيم ، كانت تبدو وحيدة وقاسية ، ذكرتها تلك الترانيم . بجدول صغير جاف مليء بالحجارة القاحلة في فصل جفاف ، أعادتها صورة ذلك الجدول إلى ذكرى صيف التجمع وإلى تلك النزهة التي رافقت بها أطفالها لرؤية البستان المسكون كما سماه الأطفال حيث تسببت آفة زراعية بقتل الأشجار وبقيت حبات التفاح الذابلة معلقة على غصونها لموسم كامل . وقفت هي مع الأطفال هناك ونظرت إلى حفيدها الأكبر من ابنتها وقالت له : «ماذا تنوي أن تفعل لنفسك حين تكبر يا سيد ألبرت ردموند ؟»

نظر اليها بعينيه الشاحبتين وهو يرتكز على كعبيه ويرسم ، دوائر على تراث الطريق ، كان عمره عشرة سنوات وفي بداية بلوغه ، ويرتدي قميصاً عالياً ويحمل صفارة مربوطة بحبل حول عنقه ، صنعها في مخيم للكشافة في الصيف السابق وأجابها وهو يبتسم . «أريد أن أصبح مليونيراً بخمسين سنتاً .»

كان وقع سماع كلمات رايموند وهي تنطلق من فم ذلك الطفل ، عنيفاً عليها تورد خداها فجأة وشعرت بأن رايموند عاد لينضم إليها دون أن يدعوه أو يرحب به أحد ، جاء اليها بوجهه المكتنز وذراعه الشاحبة الخائنة ، وكل تلك الأشياء التي أبقتها باردة صمّاء عمياء كل هذه السنين : «حسناً أيها الوغد الصغير» سمعته يهمس في أذنها وكأنه يرغب في زيادة التلميح ما رأيك ببعض التفاح؟ .

أجابته قائلة : «إنني أرجو أن لا تضيع الكثير من وقتك ، وأنت تنتهج هذه الطريق» . كانت تنظر إلى حقل التفاح وتحدق في البستان ، وقد فوجئت ببعض الدوار في رأسها وكأنها انتبهت فجأة لحركة دوران الأرض . تلك الحركة التي لا تنتهي والتي جاءت بها إلى هنا . بدا لها ولوهلة من الزمن أن تلك الحقائق المتناقضة والعنيدة ، التي تُغلّف تلك الأشجار عادت وبرزت لها من خلال الحقائق المتصارعة في حياتها . فقد ماتت الأشجار ولكن الثمرة أبت أن تسقط وظلت متعلقة بالأمل ، متعلقة بلا شيء . كانت تلك التفاحة الذابلة كافية لتعيد الحب خلسةً إلى هذا العالم ففي داخل هذه الثمرة توجد بذور وبداخل البذور توجد ثمرة . وفي هذه الحركة رأت مارثا ظلال الأبدية التي تغمر العالم ورأت التيار الذي يحملها والذي لن تنساه أبداً .

عندما انتهت الترانيم ، سرد الواعظ حكاية الباب الضيق وتحدث عن الحساب الصارم وعن الجنة الموعودة ذات الأرض المستوية النظيفة التي ينتقل إليها الإنسان على أمل وثقة بالبعث .

وقفت بعد انتهاء القداس تصافح تلك الأرواح القاسية المتزمتة وكأنهم أقرباء لها .

١٩٩٨

أني برولكس

العجل نصف المسلوخ

عن «ذي اتلانتك منثلي»

طوال مسيرة حياته ، ومن جرح طفولته الكتيم عندما ركب القطار المغادر من شايين مرتدياً سترة الصوف وحتى وهن شيخوخته هذا العام تخلى ميرو عن جميع الأفكار التي تربطه ببداية حياته في تلك الأرض العجيبة في الجنوب حيث كان يعمل في مزرعة تقع في زاوية بيغ هورنز .

غادر ذلك المكان عام ١٩٣٦ ، وخاض الحرب ثم عاد وتزوج ثم تزوج مرة أخرى وأخرى وجنى بعض الأموال من عمله في سخانات المياه والتنظيف بالهواء المضغوط ، وعدد من الاستثمارات الذكية الأخرى ثم تقاعد وانخرط في السياسة المحلية ليخرج منها بدون أية فضيحة ، وطوال الوقت لم يكن ليلتفت إلى الوراء أو يتفقد والده العجوز وأخاه رولو اللذين تحطما مالياً ، على الرغم من أنه كان على علم بوضعهما .

كانوا يدعونها مزرعة وقد كانت كذلك ، ولكن في أحد الأيام قرر الرجل العجوز أن الأبقار لن تستطيع العيش في هذه البلاد القاسية حيث يمكن أن تسقط من المنحدرات الصخرية الشاهقة ، أو تختفي في الحفر العميقة . ناهيك عن العجول التي تقع فريسة للأسود بأعداد كبيرة ، ولا تجد ما ترعاه من العشب سوى نبات الفريبون ذي العصارة اللبنية الشديدة المرارة والنباتات الشوكية ، إضافة إلى الرياح العاتية التي تحمل معها رمالاً كثيفة تعجز عن مواجهتها معدات الرياح .

لجأ الرجل العجوز إلى أساليب ملتوية للحصول على وظيفة موزع بريد ولكنه كان يبدو مذنباً وهو يضع الفواتير في صناديق بريد جيرانه .

رأي ميرو ورولو أن هذا العمل في البريد والذي سقط بالنتيجة عليهم هو ارتداد عن خدمة المزرعة ، فقد انخفض عدد القطيع إلى اثنين وثمانين ولم يعد ثمن البقرة يساوي أكثر من خمسة عشرة دولاراً ، ولكنهم استمروا في إصلاح السياج وقص آذان الأبقار وختم جلودها وسحب الأبقار من الحفر الطينية واصطياد الأسود على أمل أن ينتقل العجوز مع زوجته وزجاجته إن آجلاً أو عاجلاً إلى تن سليب . ليتسنى لهما تنظيم المكان كما قالت جدتهما أوليف عندما خيّب جاكوب آمالها . ولكن هذا الأمر لم يحدث وانتهى ميرو بعد ستين سنة أرملاً تسعينياً نباتياً في غرفة معيشة داخل بيت استيطاني في دولفوت بولاية مساتشوستس .

وفي صباح كئيب ، حمل إليه الهاتف صوت امرأة قالت إنها لويز زوجة تيك ، تدعوه للعودة إلى وايو منغ . لم يكن يعلم من هي تلك المرأة ولا من هو تيك حتى أبلغته أن تيك كورن هو ابن أخيه رولو وأن أخاه قد توفي إثر مهاجمته من قبل حيوان إيمو هائج ، مع أنه كان بانتظار أن تنتهي حياته إثر إصابته بسرطان البروستات قالت له : «نعم إن رولو ما زال يملك المزرعة ! نصفها على الأقل ! وإنها وتيك ظلا يديران المزرعة خلال العشرة سنوات الأخيرة .»

– «حيوان الإيمو؟ هل سمعها جيداً»

– أجابته «نعم ، طبعاً أنت لم تعرف ! هل سمعت عن وايومنغ داون أندر ؟» لم يسمع بها بالطبع ، أخذ يفكر ما نوع هذا الاسم تيك ؟ ويستذكر تلك الحشرات الرمادية المنفوخة التي كانوا ينتزعونها من الكلاب ، هل يظن هذا المدعو تيك أنه بإمكانه أن يستولي على المزرعة ويزهو غروراً بها ؟ وما هذه القصة عن الإيمو بحق الجحيم ؟ هل جميعهم مجانين هناك ؟ هل هذا هو الاسم الجديد الذي يطلقونه على المزرعة وايومنغ دوان أندر ؟

أخبرته المرأة أن رولو كان قد باع المكان منذ زمن طويل ، إلى فتيات الكشافة ولكن الإدارة عاودت بيع المكان إلى مزرعة بانر المجاورة ، إثر مقتل إحدى الفتيات على يد أحد الأسود ، وقد استخدم بانر المزرعة لرعي الأبقار لسنوات قليلة ثم عاد وباعها إلى

رجل أعمال استرالي ، قام بدوره بتسميتها وايومنغ داون أندر ولكن العمل كان شاقاً وطويلاً ولم يحالفه الحظ مع مدير مزرعته ، الذي أحضره من أحد مكاتب رهن الماشية في أيداهو ، لذلك اتصل برولو وعرض عليه نصف الدخل في حالة قيامه بإدارة المكان ، وقد قام رولو بعمله بشكل جيد . طبعاً نحن لا نفتح المكان الآن أمام السواح لأننا في فصل الشتاء .

المسكين رولو كان يساعد تيك في نقل حيوانات الإيمو إلى بناية أخرى ، عندما هاجمه أحد هذه الحيوانات وأصاب منه مقتلاً بمخالبه الحادة وأنت تعلم كم هي سيئة مخالب الإيمو .

نعم أنا أعلم ، أجابها فقد كان يتابع برامج الطبيعة على التلفزيون .

تعالى صوتها فجأة وكأن خطوط التلفون ضعفت في كل أرجاء المقاطعة : «لقد حصل تيك على رقم هاتفك من الحاسوب ! كان رولو يقول أنه سيتصل بك يوماً ما ، كان يريد أن يريك كيف أصبحت الأمور ، لقد حاول أن يواجه الإيمو بعصاته ولكنها مزقته من بطنه إلى أعلى فمه .»

ربما أخذ يفكر ، لم تنته الأمور بعد ، قال لها بعد أن كاد يفقد صبره من هذه القصة ، أنه سيحضر إلى الجنازة ولا داعي لأن تستقبله على المطار لأنه لا يركب الطائرات إثر تجربة سيئة في العاصفة قبل سنين هبطت فيها الطائرة في حالة يرثى لها .

قرر أن يذهب بالسيارة رغم إدراكه بُعد المسافة ، ولكنه كان يملك سيارة جيدة ، من نوع كاديلاك ، كان دائماً يقود سيارة كاديلاك عبر الولايات ، وكان سائقاً ماهراً لم يرتكب حادثة واحدة في حياته (دقّوا على الخشب) وبإمكانه أن يصل إلى هناك في أربعة أيام ، وسيكون عندهم بعد ظهر يوم السبت ، لاحظ إمارات الدهشة في صوتها وأدرك أنها تحاول أن تقدّر كم يبلغ من العمر فهو لا بد أن يكون في الثالثة والثمانين إذ أنه يكبر رولو بسنة أو نحوها ، ربما تتصوره مثل رولو عجوزاً على عكازته يجر أيامه جراً . تخيلها وهي تمّلس بيدها على شعرها المنهك ، مدّد عضلات يديه وثنى ركبتيه وتخيّل أن بإمكانه أن يتفادى الإيمو ثم تخيل أخاه ، وهو يلقى في حفرة بتراب وايومنغ الأحمر . إن هذه الحادثة يمكنها أن تهزه ، فلمع البرق الذي يشق الغيوم ليس سهماً

صغيراً ، ولكنه ضربة ساحقة تنزل من سماء هائجة .

عاد بذاكرته إلى تلك المفاجأة حين ظهرت بينهم صديقة الرجل العجوز ، والتي لم يعد يتذكر اسمها الآن ، اقتحمت حياتهم هكذا في منتصف الطريق . وكم كان رولو يحملق في أطراف أصابعها الدامية اللون من كثرة ما كانت تأكلها ، وفي عروق رقبتها النافرة كالأسلاك وفي سيجارتها المتوهجة دوماً ، ودخانها المتصاعد في حلقات إلى الأعلى ناهيك عن طبقات الشعر التي تغطي ذراعيها وعينيها الجاحظتين اللتين ترمشان باستمرار مع كل نفثة دخان ، وقصصها التي لا تنقطع عن الأحداث البطولية والجرائم العنيفة .

كان ميرو حينها في الثالثة والعشرين ورولو ما يزال في العشرين ، كانت تتلاعب بهم كما تتلاعب بورق الشدة . وأضيف هنا أنك إذا كنت من هواة الخيول فإنك لن تجد أفضل منها شبيهة بالفرس بعنقها المقوّس ومؤخرتها التي تنساب عالياً مثل مؤخرة الفرس ، والحقيقة أنك قد تشعر برغبة في التربيت عليها بين الحين والآخر .

كانت الريح تصرّ حول المنزل وتضرب بحبيبات الثلج عبر شقوق الأبواب الخشبية . كانوا جميعاً مجتمعين في المطبخ وكأنهم منكبّون على عمل جدّي . بينما جلست هي بمؤخرتها العريضة على طرف الصندوق المخصص لتخزين طعام الكلاب ، تحدق في الرجل العجوز وفي رولو ثم تمر بعينيها البارقتين على ميرو ، وتأخذ بأكل أطراف أصابعها بأسنانها وكأنها تمتص منها الدماء بينما تنفث سيجارتها من وقت لآخر .

وقف ميرو أمام الخزانة يتأمل في قبعاته ، وما إذا كان سيأخذ إحداها إلى الجنازة ، وحضرته حينئذ ذكرى والده الذي كان يترك غرة شعره الملعونة معقودة بشدة تحت طرف قبعته ، يرفعها وينزلها إلى اليسار مثل سقف غرفة يهتز إلى الأسفل . كان باستطاعة أي شخص أن يميزه عن بعد ميلين بتلك القبعة العجيبة ، والتي كان يرتديها حتى على المائدة وهو يستمع إلى أحاديث تلك المرأة حول قصص «تن هيد» ، وقد ارتخت عضلات وجهه ومفاصله بعد احتساء الكأس السابع من ذلك الشراب الذي يحركه طوال الوقت بعود الصفصاف . لا بد أنه قد مرّ على وفاته الآن أكثر من خمسين عاماً بعد أن دفن في ثياب سعاة البريد .

بدأت صديقة العجوز قصتها بقولها : «عندما كان والدي ما يزال طفلاً ، كان هناك رجل يدعى تن هيد (رأس الصفيح) يسكن حول مدينة دوبوا ، وكان هذا الرجل يملك مزرعة صغيرة فيها بعض الخيول ، وله زوجة وأولاد ، ولكن كان هناك شيء غريب به فقد كان رأسه يحتوي على صحن معدني نتج عن وقوعه أسفل بعض الدرجات الاسمنتية .»

قال لها رولو متحدياً ساخراً : «الكثير من الأشخاص لديهم مثل هذا الشيء» .

أطرقت برأسها قائلة «ليس كما تظن ، فقد كان هذا الصحن يضرب بدماغه كالكهرباء» أمسك الرجل العجوز بزجاجة الايفركلير ورفع حاجبيه متسائلاً : «حسناً عزيزتي» انحنت قليلاً وتناولت الكأس منه وجرعتها كلها جرعة واحدة قائلة : «لا إن هذا لن يجعلني أخفض وتيرة اندفاعي .»

كان ميرو يتوقع منها أن تبدأ بالصهيل .

«وماذا بعد؟» سألها رولو بينما كان ينظف زبل الخيل أسفل حذائه ، «ماذا عن تن هيد والصحن الكهربائي في جمجمته .»

رفعت كأسها تطلب جرعة أخرى من الأيفركلير من العجوز ، صبّ لها كأساً وقالت : «أنا سمعتها بهذه الطريقة» ثم انطلقت بالحديث .

راح ميرو يقلّب أفكاره حول تلك الليالي العتيقة ، ولم يدر في تلك الليلة هل حلم بتربية الخيول أم بصعوبة التنفس دون أن يجد لذلك سبباً هل هو بسبب تلك القصص الدموية المرعبة؟ أم بسبب ممارسة الجنس؟

استيقظ في الصباح التالي ووجد نفسه غارقاً في عرق منتن الرائحة ، حملق في السقف ، قال بصوت عالٍ قد يستمر الأمر هكذا لمدة طويلة وكان بذلك يعني الطقس والأبقار قبل كل شيء ، ثم ماذا ستكون اختياراته ؟ ربما ولايتين أو ثلاث ولايات في أي اتجاه أو في ودلفوت يتمرن على دراجة التمرينات . لقد كانت الحقيقة مختلفة تماماً بالنسبة له فقد كانت رغبته أن يمتلك امرأة له وحده وليس امرأة من فضلات العجوز .

ما رغب في معرفته الآن . عدا عن العجلات التي تنهب طرق الزفت المحفرة والمشققة ، وعن القبعة الهومبورغ التي تهتز على المقعد الخلفي ، هو هل سرق رولو

صديقه العجوز التي تشبه الفرس وأسرجها ثم انطلق بها عند غروب الشمس .

كانت الطريق بين الولايات مملوءة بالعلامات المخروطية البرتقالية التي تعني أن المكان تحت التصليح ، مما أدى إلى تضييق خطوط السير في خط واحد وأفسد متعة الطريق ، كما انحشرت سيارته الكاديلاك بين شاحنتين ضخمتين ، تطلقان أصواتاً من الكوابح تشبه فحيح الأفاعي بينما تهدر عجلاتها الخلفية الضخمة في وجه الريح مطلقة أوساخاً ضبابية على النافذة الخلفية . انقطعت حبال أفكاره وكأن المشط الذي يعمل داخل دماغه قد اصطدم بمشبك داخلي ، ثم انطلق مسرعاً عندما خفّت حركة السير وزال الازدحام ولكن دورية الطريق السريع كانت له بالمرصاد .

وقف أمامه شرطي ، ذو وجه منمش وشاربين صغيرين وعينين فيهما بعض الحول وسأله عن إسمه والى أين هو ذاهب؟ مرت دقيقة لم يستطع فيها تحديد ما الذي يفعله هنا . كان لسان الشرطي يلحس بالشارب الضامر بينما هو يسجل ملاحظاته بعجلة .

- «إلى الجنازة» أجاب ميرو «أنا ذاهب إلى جنازة أخي» .

- «حسناً خذ الأمر بسهولة وإلا ستتسبب في إيذاء نفسك » .

- «يا لك من جرذ وضيع» قال ميرو وهو يحدق في المخالفة المكتوبة بخط مبتذل ، وكان الشاب ذا الشارب الصغير الصغير كان قد أصبح على بعد ميل من المكان ، بعد أن خرج من المكان ببراعة وخفة ، تماماً كما خرج ميرو مرة من إحدى الطرق الزراعية الفرعية . وهو ينظر شزراً إلى مصدّ الهواء المكشوط في سيارته ، وقد كان يمكنه أن يجعل خروجه أكثر يسرة لولا ذلك الطارئ الذي ألمّ بعضلة يده وجعله ينطلق منتفضاً . اعتقد يومها أن السبب . كان تلك المرأة التي تشبه الفرس والتي كانت تنام على صدر رولو ، بينما العجوز يجرع الأڤركلير دون أن يلاحظ ما يحدث أو ربما لاحظ ذلك ولكنه بدا غير عابئ على الإطلاق ، كان شعرها مجدلاً وموشحاً بلون رمادي ، ربما كان رولو يستخدم تلك الجدائل بدل اللجام نعم ! قالت لهم بصوتها المقنع والخفيض ، والذي تظهر فيه نبرات الكذب سوف أخبركم فقد وقع شيء خاطئ في مزرعة تن هيد ، إذ تغير لون الدجاجات في الليل واصبحت العجول تولد بثلاثة أرجل وظهرت بقع بيضاء على وجه أطفاله بينما أخذت زوجته تصيح في طلب

الصحون الزرقاء . لم يكن تن هيد يكمل شيئاً بدأه حتى أعماله ، ويترك العمل وهو في منتصف الطريق ، حتى بنطاله كان دائماً نصف مزرر يبرز منه بشره طوال الوقت . كان عبارة عن فوضى عارمة متنقلة ، بينما هذا الصحن المكهرب يعبث في دماغه ، وبقيت مزرعته وعائلته في حالة فوضى دائماً . إلا أنها أضافت هنا : «ولكنه كان عليه أن يتغذى ليعيش أليس كذلك ؟ تماماً مثل أي إنسان آخر»!

اعترضها رولو قائلاً : «أرجو أن يكونوا قد أكلوا فطائر حلوى أفضل من تلك التي تضعينها !» كان رولو يكره تلك اللقم الصغيرة المغطاة بحبيبات الكرز وقد بدأ اهتمامه بالنساء بعد أيام قليلة من قول العجوز له : «خذ هذا الرجل وأره تلك الرسومات الهندية ، »كان يتكلم ويهز برأسه أمام الغريب . كان عمر ميرو في ذلك الوقت الحادية عشرة أو الثانية عشرة لا أكثر ، ركبوا الجياد عبر الممر المائي الضيق وشاهدوا زوجين من البط البري يختفيان مع تيار الماء نزولاً ثم يعاودان الظهور وفجأة يطاردهما نسراً يصدر بجناحيه صوتاً أعلى من صوت التصفيق ، تعثرت البطة عبر الأشجار وسقطت صريعة أما الصقر فابتعد برشاقة كما جاء . أما هم فاستمروا يتسلقون تلك الصخور الحجرية ذات القيعان الجيرية التي عرّتها الرياح تاركة مناظراً رائعة وأشكالاً من الأحجار إضافة إلى عظام بالية وأغطية قذرة ومخالب سرطانات مهترئة وأسنان كلاب .

ربط الخيول تحت ظل صف من شجر الصنوبر الطري ومدَّ لها الحبال لكي ترعى ما تشاء في الظل . ثم قاد عالم الآثار الإنسانية نحو الأعلى عبر ذلك الجبل الصخري القاسي ذي الشُعب الكثيرة . وأمامهم امتدت المنحدرات الشاهقة المليئة بالشقوق ، والتي بدت متآكلة متأكسدة بلون برتقالي وقد برزت عروقها المعتمة الداكنة المغطاة ببراز الطيور الجارحة من ملايين السنين .

أخذ عالم الأنثروبولوجيا يتنقل هنا وهناك ، متفحصاً تلك الأشكال الحجرية المرسومة بالأحمر والأسود ، ويدقق النظر في جماجم الجواميس الأميركية القديمة ، كان هناك رسومات تشمل صفوفاً من أغنام الجبال إضافة إلى محاربين مسلحين بالرماح وصورة لرجل يحمل عصا ويقع على ظهره ميتاً ووجوه عنيفة تحمل أعشاباً على رأسها ، قال عنها العالم إنها أغطية للرؤوس مصنوعة من الريش ، كذلك رسماً

لدبٍّ أحمر اللون يرقص على قدميه الخلفيتين ودوائر متراكزة وصلبان وأعمال شبكية . وقد قام العالم بتدوين ملاحظات حول هذه الرسوم في دفتره وكان يلفظ كلمة روبادوبا عدة مرات . هذه هي الشمس ! قال عالم الأنثروبولوجيا الذي يشبه هو نفسه رسماً غير مكتمل مؤشراً نحو هدف رماية وهو يحرك قلمه في الهواء كأنه يطرد البعوض . وهذه هي رسمة يعسوب ، من هنا ننطلق ، «هل تعلم ما هذه ؟» لمس بأصابعه المغبرة شيئاً بيضاوي الشكل مشقوقاً ثم جثا على ركبتيه ويديه وأشار إلى أشياء أخرى ، بضع عشرات منها أجبته : «هل هي حذوة حصان؟»

«حذوة حصان !» ضحك العالم وقال : «كلا يا ولدي إنها رسوم لفرج امرأة ، هذا كل ما في الأمر ، إنك لا تعلم ما هو هذا الشيء أليس كذلك ، إذن اذهب غداً الاثنين إلى المدرسة وابحث عنه في القاموس . إنه رمز هل تعلم ما هو الرمز»؟ «نعم» قال ميرو الذي كان قد رأى تلك الرموز مرتبة بجانب بعضها البعض في فرقة مسيرات مدارس التعليم الثانوي . ضحك العالم وأخبره أن لديه مستقبلاً باهراً ثم أعطاه دولاراً ثمناً لإطلاعه على المكان وأضاف : «لقد كان الهنود يفعلونها أيضاً ، مثلهم مثل سائر الناس .» عثر على الكلمة في القاموس ثم أغلق الكتاب بسرعة وهو يشعر بالإحراج ولكن الصورة بقيت عالقة بذهنه (مع الصوت النحاسي الخلفي لمسيرة عسكرية) . تماماً مثل تلك الرسمة الحجرية التي تشبه الرسم بالألوان المائية ، ولكن لم يتجسد في فكره أية أمثلة جسدية بين تلك التركيبات الصخرية ، التي تصور أعضاء المرأة التناسلية باستثناء تلك المرأة صديقة العجوز والتي كان يتخيلها واقفة على أربعتها وقد دخلت من الخلف تصهل مثل مهرة من لحم ودم وليس رسماً جيولوجياً .

وصل ليلة الخميس إلى ضواحي مدينة دي موان . بعد أن سلك عدة طرق فرعية وتحويلات . وقام بتهيئة جرس إنذار الساعة ولكن صوت غطيطه . أيقظه من نومه قبل أن يرن جرس الإنذار ، كانت الساعة تشير إلى الخامسة وخمس عشرة دقيقة عندما استيقظ ، كانت عيناه محمرتين وهو يحدق من خلال ستائر الفينيل عبر النافذة في سيارته التي غطاها الضباب الثلجي ، وهي تلمع بلون أزرق تحت علامة الموتيل المضاءة والتي كتب عليها «نوم ، نوم» . قام إلى الحمام وخلط بعض القهوة السريعة الذوبان

بالماء وشربها سوداء بدون أية سكر أو قشدة كيماوية ، كان يرغب في بعض الكافيين لأنه أحس ببعض الذبول في جذور دماغه .

كان الصباح بارداً والثلج يتساقط خفيفاً ، فتح باب سيارته الكاديلاك . وقام بتشغيلها ثم انطلق وسط زحام المركبات والشاحنات التي تجر مقطورتين أو ثلاث ، ولكن أضواء السيارات المبهرة جعلته يخطئ مخرج الطريق نحو الغرب دخل في شوارع طينية وهو يدور يميناً ، ثم عاد ودار مرة أخرى إلى اليمين متخذاً من علامة الموتيل المضاءة «نوم ، نوم» نقطة ارتكاز إلا أنه أخطأ مرة أخرى فقد كانت العلامة تتبع لموتيلاً آخر . قاده بمر موحل آخر نحو دائرة من المركبات التي تسير يومياً بسائقيها الذين يحتسون القهوة ويأكلون المعجنات التي تنزلق على لوحة القيادة ، وفي منتصف الطريق الدائري شاهد المدخل المقصود نحو الطريق الرئيسي عبر الولايات ، وجه السيارة نحوه ، ولكنه اصطدم بشاحنة كتب على ظهرها بألوان زاهية «أوقف التدخين فهو المنوم الفعال !» وجاءت سيارة ليموزين من خلفه واصطدمت به ، وبدورها اصطدمت شاحنة صغيرة يقودها سائق يعمل في وحدة تشغيل كهربائي ، بمؤخرة الليموزين ، كان السائق يتثاءب .

لم يستطع متابعة كل ما حدث ، وهو محشور في مقعده خلف كيس الهواء . الذي انطلق داخل السيارة لحمايته ، كان فمه قد امتلئ بالغبار وانزلقت نظاراته على أنفه ، كان أول ما فكر به هو أن يلوم ولاية أيوا ومن يعيش بها ، كان هناك بضع نقاط من الدم على طرف قميصه .

راقب سيارته المحطمة ، تسحب بواسطة عربة القطر والزيت الأسود ينسكب منها على الطريق السريع ، كان قد وضع لفافة الجرح «الباند إيد» على أنفه . وعندما انتهت الشرطة من التحقيق معه ، استقل سيارة تاكسي وهو يحمل حقيبتهُ وقبعته الخاصة بالجنازة ، في اتجاه آخر نحو شركة پوس موتورز حيث ابتاع سيارة كاديلاك سوداء مستعملة أقدم بثلاث سنوات من سيارته المحطمة ، كما أن فرشها لم يكن مصنوعاً من الجلد الأبيض اللون ، بل كان باهت اللون بفعل تأثير أشعة الشمس ، وقام بتركيب عجلات السيارة القديمة القوية على السيارة الجديدة .

كان بإمكانه أن يفعل ذلك لأنه كان يشتري السيارات تماماً كما يشتري علب

السجائر ويدخنها . ولم يهتم بالطريقة التي تسير بها الكاديلاك على الطريق السريع فقد كان يشعر بها وهي تنحرف كلما شدَّ على المقود ، وكان يعتقد أن السبب هو التواء في هيكلها . اللعنة سوف يشتري غيرها في طريق العودة فهو يستطيع أن يفعل ما يشاء . كان قد قطع نصف ساعة بعد بلدة كيرني بولاية نبراسكا عندما شاهد عبر مرآته الخلفية البدر يظهر في السماء خلفه منتصباً خلف الغيوم .

تحسس أنفه المتورم وذقنه التي أصيبت نتيجة صدمها بكيس الهواء . وقبل أن ينام في تلك الليلة ، جرع كأساً من الويسكي المخلوط بالماء الحار وتسلل إلى فراشه . لم يكن قد أكل شيئاً طوال النهار ، ولكن معدته كانت تأنف من أطعمة الطريق .

تلك الليلة ، حلم بأنه في بيت المزرعة ، وأن الأثاث قد انتزع من جميع الغرف وكان في الساحة عساكر يرتدون بزات بيضاء قذرة . وكان دويّ المدافع الضخمة يحطم زجاج النوافذ ويزعزع ألواح الأرضية ويبعدها عن بعضها البعض لدرجة أنه اضطر للسير على العوارض ، شاهد بين شقوق الألواح أحواضاً مطلية بالزنك ومملوءة بسائل داكن متخثر .

صباح السبت ، كان ما يزال أمامه أربعماية ميل ليقطعها قبل الوصول تناول بعض البيض والبطاطا المغمسة بالصلصة الخضراء المعلبة ، وكوباً من القهوة الصفراء ، ثم انطلق في الطريق دون أن يترك بقشيشاً لأحدٍ من الموتيل . فالطعام لم يكن كما يريد . كان يفطر بالعادة على كأسين من الماء وستة فصوص من الثوم وإجاصة .

كانت السماء تبدو من الغرب كئيبة متثاقلة وخلفه ظهرت بقع برتقالية اللون تتابع في خطوط مشعة ، بلا انقطاع تبهر العيون ، وظهرت حافة الشمس الكثيفة أمام الأفق .

قطع حدود الولاية واتجه نحو شايين للمرة الثانية منذ ستين عاماً ، رأى اللافتة الجديدة ،واتجاهات السير والأبنية ولكنه عرف المكان فقد كانت مدينة مبنية على خط قطارات متحرك على الدوام ، تذكر كيف كان مرة في حالة جوع شديد وكيف دخل إلى مطعم محطة يونيون باسيفيك؟ رغم قلة ارتياده للمطاعم ، وطلب شريحة لحم بقر وعندما أحضرت النادلة الطعام لم يكد يقوم بتقطيع اللحم حتى نفر الدم فوق الصحن الأبيض . فغر فاه بصمت فقد أخذ يتخيل الحيوان والمظاهر المضحكة ، التي

ترافق انتقال دمه من جسد إلى آخر . لا بد أن أحد رعاة البقر قد ارتكب خطأً ما .

توقف أمام كشك للهاتف وأقفل السيارة رغم أنه كان يقف بعيداً عنها سبعة أقدام فقط . وأدار الرقم الذي أعطته إياه زوجة تيك . كان في السيارة المحطمة هاتف يزأر صوته في السماعة .

- «إننا لم نسمع منك وأخذنا نتساءل اذا كنت قد غيرت رأيك؟» قالت له

- «كلا سأكون بطرفكم عند العصر ، أنا موجود في شايين الآن .»

- «إن الرياح تصفر بشدة ويقولون إن الثلج قد ينهمر في الجبال .» كان صوتها مشككاً .

- «سوف أكون حذراً» قال لها

خلال دقائق كان قد أصبح خارج المدينة ، منطلقاً نحو الشمال .

بدأت البلاد تتسع أمامه مساحة في كل اتجاه حتى بدت سيارته الكاديلاك . مثل طرف أصبع ، لم يتغير شيء في هذا المكان اللعين ، ما زال باهتاً وشاحباً تعصف فيه الرياح الشديدة والأبقار الوحشية . التي ترعى بعيداً تبدو في حجم الفئران ، وما زالت تشكيلات الأراضي مثل السابق . شعر بنفسه ينزلق بالذاكرة إلى الوراء ، وتبدل هدوء الثالثة والثمانين بسرعة مثل الماء ليحل مكانه فوران الشباب . وغضبه على عالم مجنون وعلى مجانين يعيشون به . ظل دائماً يقول لزوجاته : «إنكن لا تعرفن كيف هو الأمر حتى صرن يعرفنه أخيراً» . ينقر آذانهن بالموضوع دائماً . الشاب الفقير الذي يقف في الشارع وهو يحمل لافتة للبحث عن عمل ، وظيفة مع رجل الأفران يا تاتا . . . . يا تاتا . . . يا .

على بعد ثلاثين ميلاً من شايين شاهد أول لافتة «وايومنغ داون أندر» . وقد كتب على اللافتة فوق صورة لحيوانات الكنغر وهو تقفز عبر دغل مزروع بالقصعين ، وصورة طفل أشقر يبتسم ابتسامة تنم عن السعادة : «تسلية غربية بطريقة أخرى» ، كان عليها أيضاً علم موضوع بشكل قطري ظهر عليه تاريخ اليوم ٣١ أيار .

تذكر رولو وهو يخاطب صديقه والده العجوز . وماذا عن السيد تن هيد ، وينظر إليها من الأعلى إلى الأسفل . . كان ينتقل بعينيه وهو ينظر إليها مثل مكواة على قميص ، فيما كان الرجل العجوز مرتدياً سترة رجل البريد والقبعة المائلة جانباً يجرع

شراب الأيفركلير ولا يبدو أنه يلاحظ ما يحدث أو يهتم بما يحدث، وينهض بين الفينة والأخرى مترنحاً إلى الشرفة ليسقي بعض الأعشاب. وعندما غادر الغرفة انحسر التوتر وعاد الجميع أشخاصاً طبيعيين وكأن شيئاً لم يكن بينهم حتى أن رولو كان مشيحاً، بنظره عن المرأة يداعب أذني الكلب. ويقول له سنارليوسنابر بينما تناولت المرأة وعاءً وغسلته بالماء تحت الصنبور وهي تتثائب. عندما عاد الرجل العجوز إلى مقعده، بدا شراب الأيفركلير كالزيت الحلو في كأسه وعادت نظراته حادة من جديد في حين حمل التبدل في مخارج صوته رسائل معقدة.

«حسناً حسناً» قالت وهي ترد جدائلها إلى الخلف، كان تن هيد يقوم بذبح أحد عجوله كل عام ليكون مؤونة للشتاء، يأكلونه مسلوقاً، مشوياً مدخّناً، محمراً، محروقاً وحتى نيئاً. كان يقف مرة بجانب الحظيرة عندما ضرب العجل بساطوره ضربة قوية فأسقطه مصعوقاً على الأرض. وقام بربط قدميه الخلفيتين ورفعه إلى الأعلى ليعلقه، ثم دفع الحوض أسفله لكي يلتقط الدم النازف. وعندما خفّ سيلان الدم أنزله إلى الأسفل ثم بدأ بسلخ جلده بادئاً بالرأس ثم إلى أسفل العين فالأنف فالجلد الخلفي. لم يقطع رأس العجل بل استمر بالسلخ من الزمع إلى العرقوب فالفخذ فالجذع حتى منتصف البطن عبر الصدر. ثم وقف متجهزاً لسلخ الجلد القاسي هو عمل شاق (هز الرجل العجوز رأسه موافقاً)، تابعت هي أتم سلخ الجلد القاسي حتى منتصف الطريق. إلى أن بدأ يفكر بالغداء، عندها ترك العجل نصف المسلوخ على الأرض، وقبل أن ينطلق إلى المطبخ قطع لسان العجل الذي كان طبقه المفضل، يأكله نيئاً بارداً مع الخردل المصنوع على يد السيدة تن هيد. يضع اللسان في فنجان شاي وينطلق لتناول طعام الغداء. كان الغداء عبارة عن فراخ بأحجام متعددة كان هناك دجاجة لونها أبيض، تحولت بعد الغداء إلى اللون الأزرق نعم أزرق مثل عيني الوالد العجوز.

كانت كاذبة كلياً فعيني العجوز كانتا بنيتين. بدأ الثلج ينهمر على السهول المرتفعة، وانتشرت الغيوم في السماء واختفى الغبار وأصبح الجو جميلاً نقياً كالحرير، ولكن الريح كانت قوية تهز السيارة هزاً. والثلج يسقط بقوة من السماء إلى الأرض. كان هناك أعمدة من الدخان ترتفع في الهواء مئات الأقدام، ظهرت خلالها أشباح نساء عربيات يلبسن الحجاب وأشباح مبانٍ تذوب في الدخان الأبيض. أما الثلج

فصار بشكل قضباناً مستقيمة على الطرق الأسفلتينة . لم يعد يستطيع أن يرى شيئاً ، فالطريق كانت نهراً من الرغوة الباردة والضباب الداكن . داس على الفرامل ببطء فقد كانت السيارة تتأرجح وسط الرياح . هدأ اندفاع السيارة وفجأة توقفت الرياح وعادت الطريق صافية وصار يراها على مسافة ميل .

كيف تعرف متى يكون هناك الكفاية من أي شيء ؟ كيف تعمل تلك الرافعة التي تنصب لافتة قف على الطريق ؟ ما هي التيارات الكهربائية التي تجيش في الدماغ لتدفع شخصاً ما نحو قرار مغادرة مكان ؟ لقد استمع إلى قصتها الجهنمية وتدحرج النرد . ظل يؤمن لسنوات عدة أنه غادر المكان بدون سبب مقنع وعانى من ذلك الكثير . لكنه تعلم أيضاً من البرامج التلفزيونية التي تتحدث عن الطبيعة أن عليه أن يعثر على منطقته الخاصة وعلى امرأة خاصة به . كم من النساء موجودات هناك ، لقد عاين الكثير منهن وتزوج ثلاثة .

أرق من ارتطام الموج في المد العائد من البحر ، عادت صورة المزرعة لتتجمع في ذهنه واستعاد بذاكرته تلك الأسيجة التي بناها ، الأسلاك المشدودة بحزم والزوايا المثبتة لدرجة الكمال ، نتوءات الصخور ومجرى الماء في الوادي الشديد الانحدار ، والمنحدرات الصخرية التي تشبه عظاماً مكسوة بشرائح اللحم ، وهي ترتفع وترتفع . والجدول الذي ينحدر بشدة ثم يختفي داخل عتمة الأرض . حيث الأسماك العمياء . لينطلق مرة أخرى على بعد عشرة أميال غرب المزرعة المجاورة ، التي هجرها أهلوها لرداءة أرضها الحمراء الجافة وضيق أوديتها وشدة انحدارها وكهوفها . التي لا تلائم إلا لعيش الأسود . كان هو ورولو قد أطلقا النار على اثنين منها في ذلك الشتاء قرب كهف الرسومات التي تصور فروج نساء الهنود . بالنسبة للأسود كانت تلك الكهوف ملائمة تماماً .

واصل السير وسط سماء ملبّدة مكفهرة ، عاد الثلج للتساقط مرة أخرى في الستين ميلاً الأخيرة ، كان يتسلق الطريق خارجاً من بوفالو ، انهمر الثلج مثل شرائح شاحبة متباعدة عن بعضها البعض كالمجرات التي طارت في الفضاء منذ عصور غابرة . خلال عشرة دقائق خفف السرعة إلى عشرين ميلاً في الساعة فقد كانت المسّاحات تضرب الزجاج مثل المكانس التي تمسح الأدراج .

بدأ ضياء النهار يضعف تدريجياً عندما وصل إلى مفرق الطريق، بدت الجبال وكأنها تختفي تحت الثلج ولكن الرياح عادت مرة أخرى تهز السيارة وتعصف بكل شيء ما عدا الثلج، أخذ يتصبب عرقاً، وهو يحاول الحفاظ على مساره في الطريق، أصيب بالدوار من شدة الارتفاع وبعد اثني عشر ميلاً من الانزلاق والمقاومة، وصل إلى تن سليب حيث تتوهج أضواء الشوارع من دوائر تشبه شمس ڤان فوخ، لم تكن الكهرباء قد وصلت هنا عندما غادر المكان، في تلك الأيام كان هناك مسافة غير مضاءة بين البلدة والمزرعة تمتد إلى سبعة عشرة ميلاً إلا أن السنين الطويلة قلّصت هذه المسافة اليوم. التقطت أضواء سيارته لافتة تقول «٢٠ ميلاً إلى وايومنغ داون أندر»، كان هناك رسومات فوق الحروف لحيوانات الإيمو والثيران الأمريكية وهي تنظر شزراً.

تحول إلى الطريق المغطاة بالثلج، متتبعاً آثار العجلات الضعيفة والتي ما زال بالإمكان تمييزها. كانت مروحة الحرارة ما تزال تدور مصدرة طنيناً عالياً والراديو صامتاً وأضواء السيارة الأمامية ضبابية بعض الشيء إلا أنه استطاع تمييز كل شيء حوله. كانت الطريق مألوفة وكل شيء كأنه بقي على حاله، منذ غادر المكان حتى الصخور ما زالت كما عهدها تلمع منذ أيام شبابه.

راوده حلم مخيف عندما شاهد مزرعة فارير المهجورة شرق الطريق تماماً، كما كانت منذ ستين سنة. رأى بوابة مزرعة بانر حيث اختفت آثار العجلات الصديقة التي كان يتبعها، ورأى لافتة البوابة الحديدية وهي تتأرجح كالشبح بين الثلج وقد اختفت معالمها بسبب عوامل الطقس. كذلك بدت له الأسيجة ذات الخمس جدلات التي ما تزال مشدودة حول أشكال مظلمة لقطعان البقر. بعد ذلك ستظهر الطريق إلى المزرعة، على يسار المنحنى ولكن الطريق الآن لم تعد واضحة وسط الظلام الدامس.

عادت له الذكريات مرة أخرى حين قالت صديقة العجوز لرولو وهي تغمز له بعينها نعم يا سيدي فقد تناول تن هيد نصف طعام الغداء وذهب لينام قليلاً. استيقظ بعد قليل ومدد ذراعيه وهو يتثاءب قائلاً سوف أذهب لأكمل سلخ باقي العجل.

عاد إلى الحظيرة ولكنه لم يجد العجل نصف المسلوخ هناك ، شاهد لسانه فقط ملقى على الأرض وقد غطاه القش والغبار . كان هناك كلب يلعق الدم من الحوض .

كان صوتها هو الذي يشدك إلى القصة ، صوت خفيض وله رنّة ولم يكن مهماً لفظها لأحرف الأبجدية فقد كان بمقدورها أن تجعلك تشعر بحفيف القش من الكلام أو أن تشم الدخان من نار خيالية .

لم يستطع أن يعرف المنعطف نحو المزرعة ، رغم أن صورته كانت واضحة وحادة في ذهنه تلك الزاوية المغبرة للمنعطف والجزء المنخفض ، الذي كان يحبس الثلج والممر الذي تقف على جانبيه أشجار الصفصاف تضرب أطراف الشاحنة كلما مرت عبرها . سار مسافة ميل وهو يحاول أن يحدد المنعطف ولكنه لم يجده ، ثم بحث عن دكان بوب كيتشن الذي يبعد ميلين عن المزرعة . ولكن المسافة مرت ولم يعثر على شيء . أدار السيارة إلى الخلف وعاد أدراجه ، لا بد أن رولو قد غير مكان المدخل القديم لأنه لم يعد موجوداً حتى أن مكان بوب كيتشن قد اختفى ربما بسبب النار أو الريح . لم يجد المنعطف ، لن يكون الأمر خسارة كبيرة فسيعود إلى تن سليب ويجد له موتيلا يقضي الليل فيه ولكنه كره أن يترك وهو قريب من مكان الوصول ، كره أن يعود تلك المسافة المظلمة في ليلة رديئة مثل هذه وبينه وبين المزرعة أقل من عشرين دقيقة سير . قاد السيارة ببطء متتبعاً آثاره . لاح له مدخل المزرعة على اليمين ، على الرغم من أن البوابة كانت قد أزيلت واللافتة سقطت . كان هذا هو السبب الذي جعله يخطئ المنعطف إضافة إلى شجيرات القصعين الكثيفة التي غطت فجوة الممر .

دخل إلى المنعطف وهو يشعر ببعض الانتصار ، ولكن الطريق ازدادت خشونة تحت الثلج حتى أحسَّ أنه صار يسير فوق صخور ومنحدرات ، أدرك عندها أن الأمر لم يكن على ما يرام . حاول أن يدير السيارة فلم يستطع فبدأ يرجع إلى الخلف بحذر شديد ، تيبست رقبته وهو يحدق في الطريق عبر الأضواء الخلفية ولكن عجل السيارة الأيمن انزلق فوق صخرة ، وغاص في حفرة سبخة وراح يدور بلا فائدة في الثلج ، ولم يستطع أن يفعل شيئاً فقال لنفسه بصوت عال : سوف أبقى هنا حتى طلوع النهار ثم أسير إلى مكان بانر وأطلب فنجاناً من القهوة ، سوف أشعر بالبرد ولكني لن أتجمد حتى الموت .

بدت له نكتة مضحكة وهو يتخيل كيف سيفتح له بانر الباب ويقول : «هذا أنت يا ميرو تفضل واشرب بعض العصير والبسكويت الساخن» ولكنه تذكر أن عمر بوب هو الآن مئة وعشرون سنة ، وبالطبع لن يكون موجوداً هناك ليلعب هذا الدور . كان بعيداً عن بوابة بانر مسافة ثلاثة أميال بينما البيت يبعد سبعة أميال عن البوابة ، سيترتب عليه أن يقطع عشرة أميال سيراً في هذه العاصفة الثلجية . من ناحية أخرى فما زال لديه نصف تنك من البنزين في السيارة ، يستطيع أن يستمر في السير فيها مسافة معقولة ، ويستطيع أن يديرها ويسير في هذا الظلام ولكن حظه كان سيئاً وبقي عليه أن يلعب اللعبة الصحيحة وهي «الصبر» .

أغمض عينيه لنصف ساعة في إغفاءة بينما كانت السيارة ما تزال تهتز من شدة الريح وعندما استيقظ كان يرتعش ، وشعر بمغص شديد في معدته ورغب في أن يستلقي ، لا تيأس قال لنفسه وهو يتحسس مكان المصباح الكهربائي في حقيبة الطوارئ . التي يحملها ولكنه تذكر أن الحقيبة والمصباح والعاكسات . وهاتف السيارة وبطاقة الجمعية الأميركية للسيارات والشمع والكبريت وحتى رجاجة الماء ، بقيت كلها في السيارة المحطمة . وربما تكون الآن قد انتقلت إلى سيارة زوجة سائق عربة القطر . لكنه ربما يستطيع أن يرى في الضوء المنعكس على الثلج ما يكفي ليحرك السيارة ، لبس قفازاته وأقفل أزرار معطفه ثم نزل من السيارة بعد أن أقفلها وسار خلف هيكل السيارة ثم انحنى إلى أسفل . كانت الأضواء الخلفية تنير الثلج ، فتجعله يبدو مثل بقع دم طازجة ، وكان هناك حفرة صغيرة ظهرت إثر دوران العجلة ، ربما يساعده حجرين مسطحين أو ثلاثة من الخروج ، لا يريد أن يصرّ على إحضار حجر ملائم . أخذت الريح تعصف على وجهه والثلج يضربه . راح يتأرجح على الطريق وهو يتحسس الصخور تحت قدميه ليبعدها عن مسار تحرك السيارة ، كانت الريح شديدة وأحس بألم في أذنيه ، حتى قبعته الصوف نسيها في حقيبة الطوارئ اللعينة .

يا إلهي سمعها وهي تتابع سرد القصة . رُوِّع تن هيد بشدة عندما لم يجد العجل نصف المسلوخ . ظن أن بعض الجيران أو بعض الناس الذين يكرهونه وما أكثرهم قد جاؤوا وسرقوا العجل .

نظر تن هيد حوله ، علّه يرى آثار عجلات أو أقدام ولكنه لم يجد شيئاً سوى أثر

خطوات الأبقار القديمة ، رفع يده إلى عينيه وحدق بعيداً ، لا يوجد شيء في الشمال ولا الجنوب ولا الشرق ولكنه رأى من جهة الغرب وعلى جانب الجبل شيئاً جامداً يتحرك ببطء ، كان يسير مضطرباً وكأن شيئاً ناتئاً ورطباً يتدلى أسفل الجزء الخلفي من جسده .

نعم لقد كان عجلاً ، يسير بدون صوت ، يقف وينظر إلى الوراء وطوال ذلك الوقت كان تن هيد يرى رغم بعد المسافة لحم الرأس النيئ وعضلات الأكتاف . والفم الفارغ المفتوح بدون لسان والعينين الحمراوين تحدقان به ببغض شديد ، عرف حينها أن أمره قد انتهى ، وكذلك أولاده وأولادهم وزوجته وجميع صحونها الزرقاء التي ستؤول إلى الكسر والهلاك ، حتى الكلب الذي لعق الدم والبيت الذي قد يطير مع الرياح أو يحترق مع الفئران والذباب التي تعيش فيه .

سادت فترة من الصمت . ثم قالت هذه هي القصة فقد انقلب كل شيء ضده .

هذه هي القصة ؟ قال رولو بطريقة حادة شرهة .

ولكن ميرو عرف أنه يقف على أرض المزرعة ، أحس بها وتذكر هذه الطريق أيضاً . لم تكن الطريق الرئيسة للمزرعة ولكنها كانت مدخلاً منخفضاً لم يكن يتذكره وهو يقطع أسفل النهر . أما الآن فقد تذكر أن البوابة الرئيسة كانت على جانب طريق متفرع قبل مكان بانر بمسافة . عثر على حجر ملائم وأخذ يتساءل ما هي هذه الطريق .

لم تعد خارطة المزرعة واضحة في ذهنه تماماً ، بل بقيت ضبابية ومطموسة وكأنها سحقت مع الزمن . انهارت ذاكرته عن الأبواب والأسيجة في حين برزت صورة الأرض الرديئة واضحة تماماً أمامه وأخذت نتوءات الصخور ترتفع إلى السماء ، والأسود تزأر والنهر الذي كان يشق طريقه بشكل لولبي ، صار يحط من مكان عال وبسرعة هائلة جارفاً معه الصخور من الأعالي . خلف السياج الشائك كان هناك شيء يتحرك .

أمسك بمقبض السيارة ، كانت مقفلة ومن خلال النافذة المطلة على لوحة القيادة شاهد ومضة المفاتيح بداخلها حيث نسيها . كان الموقف مضحكاً أمسك بيده حجرين ضخمين ، قذف بهما بعنف ليكسر زجاج النافذة من جهة السائق ثم مدَّ يده عبر

الثقب داخل السيارة الدافئة . ولكن يده لم تصل أول الأمر إلى المفاتيح بعد أن لفّها حول عجلة القيادة ، كان يعلم أنه لولا محافظته على رشاقته بالتمارين تناول شرائح الجوز والخضار الورقية المقوية لذا استطاع الوصول للمفاتيح . علقت أصابعه قليلاً ثم استطاع تخليصها ، انتزاع المفاتيح قال بصوت عالٍ هكذا يميزون الرجال عن الأولاد ، عندما أطبقت يده على المفاتيح إنطلقت منه التفاتة إلى باب السيارة ، فوجد القفل مفتوحاً وحتى لو كان مغلقاً لم يكن يلزمه سوى رفع زر القفل وفتح الباب من جهة السائق . أخذ يسب ويلعن ثم سحب المماسح المطاطية الأرضية ورتبها فوق الحجارة . تعثر عدة مرات وهو يدور حول السيارة فقد كان عطشاناً ، جوعاناً ويشعر بالدوار ، فتح فمه ليقضم بعض حبات الثلج المتساقطة ، لم يأكل شيئاً منذ يومين سوى البيض المحروق في الصباح أما الآن فيمكنه التهام العشرات من هذا البيض .

بدأ الثلج يهدر عبر النافذة المكسورة ، وجه ا لسيارة إلى الخلف وحاول أن يضغط على دعاسته البنزين ، ولكن السيارة اهتزت قليلاً واستقرت على أثر العجلات ، أدار رقبته إلى الخلف وبدأ يرجع على نور الأضواء الخلفية ، دارت السيارة قليلاً وانزلقت فقد كان الثلج عميقاً ، كان يحاول الرجوع عبر منحنى على الطريق ظهر له مستوياً في البداية ولكنه أدرك فيما بعد أنه منحدر وعر وطويل مليء بالصخور والثلوج . رجع إلى الخلف عشرين قدماً ثم بدأت العجلات تدور بسرعة وانزلقت إلى جانب الطريق لتستقر في أخدود عمقه قدمان أخذت تطلق الدخان ثم توقفت وانتهى كل شيء .

كان قد شعر بالارتياح لبلوغه تلك النقطة حيث انقطع حيله . صرف التفكير عن ولوج مسافة العشرة أميال التي تفصله عن موقع بانر ربما قد لا تكون بهذا البعد أو ربما يكونون قد اقتربوا بالمزرعة أكثر إلى الطريق الرئيسي ، . أخذ يفكر : قد تمرُّ شاحنة من هنا ، كان حذاؤه قد انزلق وتقطعت أزرار معطفه ربما يجد فندق جراند أوتيل الخرافي وسط أعشاب القصعين عند السياج .

وعلى الطريق الرئيسي ظهرت آثار عجلاته ضعيفة تحت ضوء القمر المشمشي اللون القادم عبر الغيوم كأنه ظل غامض يزداد قوة عند هدوء الرياح .

تبين له قسوة الأرض الريفية ، كانت المرتفعات الصخرية تنتصب في ضوء القمر ، والثلج يتصاعد من السهل مثل البخار وبدت خاصرة المزرعة البيضاء . ملتفة حول

السياج والأعشاب تلمع ببريق بارد وتتشابك عبر ممر الصفصاف مثل شعر ميت .

كان قطيع الأبقار منتشراً في الحقل بجانب الطريق وأنفاسها تلتقط الوهج من ضوء القمر وكأنها في حوار بالوني هزلي .

امتلأ حذاؤه بالثلج ، سار عكس اتجاه الريح وقد أدرك أن تمزيق رجل في هذا الجو أسهل من تمزيق ورقة . لاحظ أثناء سيره أن أحد أفراد القطيع داخل السياج كان يرافق خطواته على بعد معين سار ببطء ، فتلكأ الحيوان في مشيته وعندما توقف واستدار ، رأى الحيوان وقد توقف تماماً كان ينظر إليه وهو ينفث البخار من أنفه وبدت على ظهره قطعة من ثلج تشبه بكرة خيطان .

ظهر الأمر له في هذا الجو العاصف واكتشف أنه أخطأ مرة ثانية فقد كانت العين الحمراء لذلك العجل نصف المسلوخ تراقبه طوال هذا الوقت .

١٩٩٩

بام هوستون

الصديقة التي لم تكن لك أبداً

عن «أذر فويسز»

يبدأ اليوم التالي في المدينة عادة كما يلي : يمر صديقي ليو ليأخذني إلى مكان لتناول طعام الافطار يدعى «مطعم ريك وآن» ، حيث يقدمون طبقاً هو خليط من لحم الخنزير والشمندر الأحمر . ثم نقطع جسر الخليج إلى حدائق قصر الفنون الجميلة لنجلس على الحشيش الأخضر المبتل ونقرأ الشعر بصوت عالٍ ونتحدث عن الحب .

نوافير الماء تعج بالأوز الأسود المستورد من سيبيريا . وحين يصادف ذلك اليوم نهاية الأسبوع ويكون الطقس جيداً تقام هناك احتفالات زواج ، معظمها لأشخاص اسيويين ، حيث يلبس العرسان بدلات مخططة رمادية اللون رسمية المظهر ، بينما تلبس النساء فساتين موشحة بالخرز ، جميلة لدرجةٍ يجعل أسنانك تصطك بمجرد النظر اليها .

ترتفع الأعمدة الرومانية في واجهة القصر فوقنا وتميل الوانها إلى الصفرة بدلاً من اللون البرتقالي مع ضوء منتصف النهار . يخبرني ليو كيف بنيت هذه الأعمدة لمعرض باناما الباسفيكي عام ١٩١٥ ، من الجبس والورق المعجون بالماء . ورغم صعوبة الأوضاع الاقتصادية آنذاك تمكنت أمانة المدينة من جمع ما يكفي من الأموال للحفاظ على الأعمدة . ثم دعمها بالاسمنت لتبقى إلى الأبد .

صديقي ليو مهندس معماري ، وعلاقته بمعظم المباني الجميلة في هذه المدينة تثير

الدهشة ، خاصة اذا أخذنا في سنّه في الاعتبار ، فهو يكبرني بخمس سنوات فقط أما أنا فاعمل كمصورة فوتوغرافية ، وانتقل من مهمة إلى أخرى منذ تخرجي من كلية الفنون .

أما البيت الذي بناه ليو لنفسه فيشبه البيوت في حكايات الجن ، تكتنفه الأبراج والزوايا . ويعيش آخر طاووس بري في مدينة بيركلي في شارعه ، بينما أعيش أنا في تلال أوكلاند في منزل صغير جداً على شارع متعرج بشكل لا يسمح بتخطي سرعة عشرة أميال بالساعة . وقد قمت باستئجاره لأن الاعلان عنه نص على « . . . . منزل صغير بين الأشجار ، له حديقة وموقد . نرحب بالكلاب ، طبعاً ! .

ورغم أن لا يوجد كلب عندي الآن ، الا أن ذلك لا يشكل الوضع الطبيعي بالنسبة لي ، فقد تجتاحني الرغبة العارمة في أي وقت للذهاب إلى موقع حجر الحيوانات والحصول على كلب .

اليوم هو أحد ايام السبت الدافئة الزرقاء من شهر نوفمبر ، وهناك خمسة حفلات زفاف اسيوية في حديقة قصر الفنون الجميلة . ورغم أن بدلات الزفاف غير متناسقة الألوان الا أنها متكاملة ، كانما تم تصميمها خصّيصاً . واحدة لكل قوس من أقواس واجهة مبنى القصر .

يقرأ ليو لي قصيدة عن مستنقع مالح ساعة الفجر ، بينما انشغل أنا بأعداد كاميرتي القديمة من طراز لايكا . ان أفضل ما أنتجه من الصور هي تلك التي لا أتقاضى أجراً لتصويرها ، كتلك التي أخذتها لعروس تراقص النادل خلف الحاجز النباتي ، وقد انحنت قبّعته الطويلة لتلمس طرف طرحتها .

ثم اقرأ قصيدة أمام ليو عن الشوق لمدينة سيراكيوز . هكذا تحادثنا دائماً ، أنا وليو . وقد يكون هذا أكثر أساليب القرن رومانسية لو لم يكن ليو غارقاً في غرام غوينسلڤير .

وغويسلڤير هي حائكة بوذية تعيش في منزل من الألواح الخشبية في جزيرة بلڤدير ، تحيك القماش على نول احضرته معها من التيبت . ورغم ان انسجتها المطرزة ومعلقاتها الجدرانية قد وفّرت لها ثروة صغيرة ، الا أنها ترفض أن تدير مكيف الهواء في سيارتها الأودي حتى عندما تقودها عبر وادي ساكرمنتو . فمكيف الهواء ، كما تقول ، هو أحد الأمور التي لا تسمح بها لنفسها

وكون غوينسلفير لا تشعر كما يظهر بوجود ليو لا يسبب له أي نوع من الإزعاج ، كما أن نسيانها في كل مرة تقابله فيها بأنها قد قابلته عدة مرات من قبل إنما يضيف إلى ما يسميه مجموعة عدم كمالها الساحرة . وكما يقول ليو ، ان البوذا الوحيد الذي يمكن أن أحبه هو ذلك القادر على النسيان وارتكاب الخطيئة .

أما غوينسيلفير فهي غارقة في حب رجل من مدينة نيويورك أخبرها مرة في رسالة أن الأمر الوحيد الذي يعتبره أفضل من الثلاثة الآف ميل التي تفصل بينه وبين غرامه هو اذا ما أصيبت بمرض قاتل . «قد أكون جاداً في علاقتي مع امرأة اذا كانت لديها شهور ستة من الحياة ، كما ورد في الرسالة . وقد أرتني كلمات الرسالة كأنها تود التأكد من أنها موجودة فعلاً ، رغم أن شيئاً ما في كلامها جعلني أعتقد أنها فخورة بها .

شخص واحد أعرف أنه واقع في حب ليو (اضافة لي ، قليلاً) هو رجل شاذ جنسياً يدعى رافاييل اعتاد على الوقوع في غرام رجل تلو الآخر ، ثم شراء مجموعة من التسجيلات الموسيقية لعشاقه . وقد ذكر ليو أنه يستلم المجموعات الموسيقية هذه ، كأنما هي تأتي من دار نادي كولومبيا للتسجيلات الموسيقية ، مرة في الشهر دون تأخير ، في علبة كرتونية لا تحمل اسم المرسل أو عنوانه وهذه التسجيلات لموسيقيين لم يسمع بهم أحد ، مثل نيلدز أو بوريس غريبيشنيكوف ، كما أن هناك أغان فولكلورية من جبال الأنديز ورقصات وايقاعات غريبة .

عبر البحيرة المليئة بالأوز ، أوشك احتفال عرس على الانتهاء ، وقد تمكن العريس من المحافظة على جديته اللامتناهية وفرحه لدرجة الهذيان في الوقت نفسه . أراقب أنا وليو القبلة . واضغط أنا زر الكاميرا لأخذ صورة مع نهاية القبلة ، وانفجار الحفل بالهتاف .

ويعلق ليو «يا له من مخدوع» .

وأجيبه : «أكيد ، كأنك لست على استعداد لمبادلته حياتك في هذه اللحظة» .

ويجيب ليو : «أنا لا أعرف شيئاً عن حياته» .

«بل تعلم أنه تذكر أن يفعل كافة الأمور التي نسيت ان تفعلها» .

«أعتقد أنني أُفَضل أن تحتفظي بهذه المحاضرة بالذات لنفسك» . ثم يشير عبر

البحيرة ، حيث قفزت العروس إلى أحضان أشبينتها ، وأسارع أنا إلى التقاط صورة أخرى ، بينما يضيف ليو» أو أن تحتفظي بمحاضرتك لأحد أصدقائك الذين يحافظون على التزاماتهم بشكل متفانٍ .

«في الحقيقة ، لا أستطيع أن الومهم . أعني أنني لو رأيت نفسي أعبر الشارع محملاً بأغراضي . فلست متأكدة انني سوف الملم نفسي وأتبع» .

«طبعاً تفعلين» أجاب ليو ولأنك تفعلين ، ولأن فرصة حدوث ذلك محدودة جداً ، ولأنك تأملين أن يحصل ذلك ، هذا ما يجعلك مصورة عظيمة» .

«العظمة شيء جميل» أجبته «ولكنني أريد التواصل ، اريد أن أشعر بأنفاس دافئة على وجهي» أقولها كأنها تحدٍ رغم أننا نعلم أنها ليست كذلك . تقوم الفتاة التي تحمل الأزهار عبر البحيرة بالقاء بتلات الأزهار في الهواء .

قدمتُ إلى هذه المدينة القريبة من المحيط منذ أكثر من سنة لأنني قضيت مؤخراً فترة طويلة قرب مياه نهر كولورادو العارية الداكنة ، مما اعتبره اشارة إلى أن النهر يريد مني الابتعاد . وكنت قد أخذت عدداً كبيراً من الصور لفوضى الصخور المتناثرة والرمال المحجرة والسماء اللامتناهية مما أدى إلى فقدان توازني والسقوط فيها .

لقد فقدت القدرة على التفريق بين ذاتي وبينها .

كان هناك رجل يدعى جوش لم يقبل مني بما يكفيه تقريباً ، وامرأة تدعى ثيا كانت تريد أكثر بكثير . وقد وقعت بينهما كاحدى الطبقات الصخرية الضعيفة الجيرية التي تختفي تحت الضغط أو تتحول إلى شيء لا شكل له كالنفط .

اعتقدت أنه قد يكون للمدينة نظام معين ، خطوط مستقيمة وسطوح لامعة وزوايا قائمة تعيد اليّ نفسي ، وتأخذ أعمالي إلى أماكن مختلفة قد تكون أكثر أمناً . الوحدة خط مستقيم أيضاً واعتقدت أنها كانت مبتغاي ، لذا حزمت ما أمكن لسيارتي البيك أب أن تحمله وتركت ورائي ما لم أتمكن من أخذه ، بما في ذلك زوجين من ألواح التزلج وغرفة معتمة مليئة بمعدّات طباعة الصور الفوتوغرافة وجبال من أشياء كنت قد أقنعت نفسي باستحالة العيش بدونها .

وجهت نفسي غرباً عبر خط الطريق السريع رقم ٥٠ الذي لا نهاية له ، «أكثر الطرق وحشة في أمريكا كما تقول الشاخصات العديدة التي تنبت من الصحراء على

جانبي الطريق عبر ولايات نيفادا يوتا حتى هذه المدينة البيضاء اللامعة على الخليج .

في البداية ، أصبت بالثمالة من المدينة ، كما يحصل لمن يشرب الفودكا ، من الطريقة التي تمتد فيها كأنها عش من «المادروناس» على شجرة اليوكاليبتوس ومن الطريقة التي تتلألأ فيها أكثر من الماء الذي يحيط بها ، من الطريق التي يمتد جسر البوابة الذهبية خارجاً منها كالأصابع نحو المحيط الواسع الشاسع بعيداً عنها .

أحببت رائحة فطائر العنب الأزرق البري الطازجة في مطعم اوكلاند غريل على شارعي الثالث وفرانكلين ، وصفير القطار امام مدخل المنزل تماماً ، والرجال من كافة الألوان والأعراق ، يغطي جلدهم الوشم ، يقومون بانزال صناديق الخضار من الشاحنات .

في الأسابيع الأولى كنت أجوب الشوارع لساعات طويلة ، أصور من الأفلام كل يوم ما لا أستطيع تحمل نفقاته في اسبوع كامل ، لأغطي هذه الاحياء كلها في مناطق مجاورة لا تخلو من الخطر . والقصص التي يمكن لكاميرتي أن تحكيها . كنت أجوب أسوأ المناطق والدم يضخ في عروقي بالقوة التي ضخ فيها يوم شاهدت جبال الروكي للمرة الأولى قبل سنوات عديدة .

في احدى الإمسيات . استدرت عند زاوية الشارع في منطقة تندرلوين لاصطدم بشخص مقعد يسير على كرسي بعجلات ، وجّه جسده نحوي وغطاني بالبول . أخبرت اصدقائي المندهشين في اليوم التالي أنني تعمدت برحيق الهة المدينة .

تعرفت على رجل يدعى غوردن ، وكنا نذهب بالسيارة إلى رصيف الميناء في المساء نتفرج على أبراج رافعات القوارب التي ترتفع أكثر من عشرين طابقاً ، وكنت اعلق أنها تشبه كتيبة من كلاب الدوبرمان تقوم بحماية الميناء من أي هجوم . أما غوردن هذا فاسمه الحقيقي سلفادور ، أهله فقراء يعملون في جني محصول الفراولة في الأودية الوسطى ، وله اخوة ماتوا نتيجة التسمم بمبيد البالاتيون . ترك الوادي وانتقل إلى المدينة . عندما كان يافعاً لم يستطع الحصول على رخصة قيادة ، فقام بسرقة شاحنة مدير والده ، وتركها واقفة بطريقة مزدوجة أمام مسرح كاسترو . أقنع اسرة في منطقة المبشرين باعطائه مساحة للنوم مقابل عمل يدوي ، وقام بتغيير اسمه إلى غوردن ، وتغيير عمره من ١٥ إلى ٢٠ سنة ، وتقدم بطلب بعثة لدراسة ادب

أمريكا الجنوبية في جامعة الولاية في سان فرنسيسكو . ثم حصل على شهادة الدكتوراة قبل بلوغه سن العشرين ، وعلى عمل للتدريس في جامعة بيركلي عندما بلغ الحادية والعشرين . وعندما حصل على أولى جوائز التدريس كانت أمه تجلس ضمن الحضور . وعندما تلاقت نظراتهما هزّت له رأسها معربة عن إعجابها ، الا أنه لم يجد لها أثراً عندما بحث عنها بعد الحفلة . «هل تصدقين هذا؟» : قالها عندما أخبرني قصته . وفي صوته خليط من الفخر والإحباط لم أعلم اذا كان ما يدعو للتعجب هو أنها حضرت الحفل أم أنها ذهبت فجأة .

«اذا تبين ان امرأة أخرى كنت ارافقها شاذة جنسياً» قال ليو «فإنني سأغادر إلى مدينة مينيابوليس » .

استمرت حفلات الزواج ووصلت اصوات ضحكات المحتفلين الينا عبر البحيرة .

«يمكنك اعتبار ذلك إطراءً اذا حولّت تفكيرك في ذلك الاتجاه»

قلت له .

«أنا لا أحول تفكيري في ذلك الاتجاه» .

«قد يكون ذلك اختياراً تختاره المرأة عندما تشعر أنها استهلكت جميع الاختيارات الأخرى قلت .

«حقاً ! كأنما تبدأين بكونك انساناً ، ثم تقررين أن تصبحي سيارة ! أجاب بتهكم .

«في بعض الأحيان أفكر أن الاختيار هو اما الشذوذ أو الذهاب إلى الاسكا حيث نسبة النساء إلى الرجال هي واحدة لكل عشرة قلت . .

تذكرت ملصقة توضع على صدام السيارة ، رأيتها مرة في مدينة هينز بالاسكا قرب موقع تغادر منه العبارات إلى الولايات الأميركية الرئيسية الثمانية والأربعين .

«عندما تغادرين هذا المكان يا عزيزتي ، تعودين إلى قبحك مرة أخرى» قلت له : «لقد ركع رجال عند قدمي فعلاً في الاسكا» .

«أنا متأكد أن بعض الرجال ركعوا عند قدميك هنا كذلك» حاولت النظر إلى عينيه لأفهم قصده بهذه العبارة ، الا أنه بقي محدقاً في كتاب الشعر .

«الست أفضل صديقة لم تكن لك أبداً قالها بجدّية آخر امرأة قال ليو أنها حب حياته كانت تسمح له برؤيتها مرتين في الأسبوع لمدة سنوات ثلاث . كانت طبيبة

قلب تسكن في منطقة ميناء القوارب ، وقالت أنها تقضي نهارها تصلح القلوب المعطوبة وأنها لا تنوي قضاء بقية وقتها مشغولة بقلبها . مع بداية السنة الرابعة طلب منها ليو زيادة عدد لقاءاتهما الأسبوعية إلى ثلاثة ، فقطعت علاقتها به فوراً .

بعد ذلك ذهب ليو إلى الجسر . كان ذلك قبل تمديد الهواتف في تلك المنطقة ؛ تلك الهواتف التي تتصل مباشرة بالباحثين الاجتماعيين . كان يوماً مشمساً وكان البحر جزراً ، الأمر الذي مكّنه من رؤية الأمواج البيضاء على مد النظر في المحيط الهادئ . بعد فترة قفل نازلاً ، ليس بسبب تحسن في نفسيته وانما بسبب عدم رضاه عن الأرقام فقد كانت هناك مائتين وخمسون حادثة انتحار منذ بداية ذلك العام ، ولو كان الرقم ٤ أو ١٩٩ أو حتى ٢٧٤ لكان قفز منتحراً ، لكنه لم يود أن يسجل تحت رقم ٢٥١ لأنه رقم عديم المعنى .

بدأت امرأة تجلس على العشب قريباً من ليو تحدثه عن مدى الشبه بينه وبين شريكها في العمل . كان لحديثها اسلوب لم أتمكن من تحديده ، اصرار يدل على أنها غارقة في حب الرجل ، أو أنها مجنونة ، أو أنها قامت بقتله صباح ذلك اليوم وأنها جاءت إلى قصر الفنون الجميلة في انتظار القاء القبض عليها .

«مما يدعو للاعجاب بسكان كاليفورنيا يقول ليو بعد أن غادرت المرأة أخيراً أنهم يظنون أنه من الممكن اظهار عقدهم وجنونهم أمام الجميع طالما أنهم اعتذروا في البداية .

نشأ ليو مثلي على الشاطئ الشرقي للولايات المتحدة ، واعتاد اكل الخضار المجمدة من ماركة بيردز آي وفطائر اللحم من ماركة سوانسون على صينية خاصة للأكل أمام جهاز التلفزيون ، بالقرب من أهلنا الذين استهلكوا ثلاثة أقداح من المارتيني أثناء مشاهدة برنامج «ماذا علي أن أقول : أو برنامج «قول الحقيقة : وهم يتحدثون عن كل موضوع على وجه البسيطة ، ما عدا سبب المشكلة . «هل هناك أحد يمكنك الوقوع بحبه باستثناء غوينفير» سألته بعد أن قرأ شعراً عن العناكب العملاقة والدبابير الحفارة .

«هناك امرأة جميلة في مكان عملي تسمي نفسها ملكة الغناء» «أكتب ما سأقوله لك يا ليو وتذكره جيداً : اعتقد أنه من الحكمة تجنب أي امرأة تستخدم التعظيم في

الاشارة إلى نفسها : .

هناك العديد من رجال الشرطة هذا اليوم في حدائق قصر الفنون يوزعون معلومات مطبوعة حول كيفية حماية انفسنا من وباء سرقة السيارات الذي انتشر في المدينة خلال الشهور الخمسة الماضية . وتتم العملية عادة حسب الورقة المطبوعة ، بأن يصدم المجرم سيارة الضحية من الخلف ، وعندما تنزل هي من سياراتها – وتكون عادة امرأة لاستطلاع الأمر . يقوم المجرم بضربها على رأسها بأداة ثقيلة ويتركها ملقاة على الرصيف ويلوذ بالفرار بسيارتها . وتنصح الورقة المطبوعة بأن نبقى داخل سيارتنا وان نغلق الزجاج عند اقتراب السائق الآخر ونوصد الأبواب ونقول عبر الزجاج المغلق : «أنا خائف ، ولن أخرج من السيارة ، أرجو منك أن تتبعني إلى أقرب بقالة أو مخزن . وتؤكد التعليمات أنه يجب عدم السماح ، تحت أية ظروف ، للجاني بأن يقودنا إلى موقع جريمة ثان .

«ليست باستطاعتك ان تفعلي ذلك ، أليس كذلك : يسأل ليو ويربت على ذراعي كرجل حكيم واع .

«ماذا تظنهم يعنون بموقع جريمة ثان أسأل ليو «أنك تتجاهلين السؤال لأنك تعلمين الجواب جيداً . انك الانسان الوحيد الذي يتعرض للذبح قبل الاعتراف بخوفه يقول ليو :

«هل تعلم يا ليو : أقول بهدف تغيير الموضوع «أنت لا تتصرف كشخص يريد أن يكون له أطفال أكثر من أي شيء آخر» .

«صحيح وأنت لا تتصرفين كشخص يريد الزواج مع الأوزات»

«بل أفعلها» أقول بعناد «الان وفوراً» . البس بدلة الزواج دون أسئلة أو مواربة» .

«لوسي ، هل لديك فكرة جدياً كم درجة توجد بينك وبين فستان العرس ؟ : يقول ليو

«كلا . اخبرني» .

«خمسة وخمسون . على الأقل خمسة وخمسون» .

قبل غوردن ، كنت دائماً اصادق رجالاً ذوي شخصية قوية صامتة ، حتى أتمكن من اختراع أي موضوع أود حشره في رؤوسهم . تحدثنا أنا وغوردن عن الكلمات وعن

نوعية الصور التي يمكن أخذها للاستغناء عن الكلمات ، ورادتني نفس الأفكار التي تراودني عادة في الدقائق العشر الأولى : انه بعد سنوات عديدة من المحاولة حققت أخيراً انجازاً كبيراً . الا أنني اكتشفت هفوتي بسرعة كبيرة ، اذ أن لغوردن نوبات عاصفة من الغيرة أشد فتكاً من الصاروخ الموجه ، ولديه القدرة على خلق مشكلة من شيء ببساطة كيس ورقي فارغ . فخلال اسبوع واحد طُلِب منا مغادرة مطعمين . وقد وصل الوضع بسرعة إلى مرحلة أنه لو لم تكن النادلة أنثى لطلبت أنا مغادرة المكان أو الانتقال إلى طاولة أخرى .

بالنسبة لغوردن فان الجميع يحاولون مضاجعتي ، بينما أشجعهم انا على ذلك ، وهذا ينطبق على ميكانيكي السيارة وفني البيانو وعامل المصبغة ومأمور الصندوق . أطلق مرة علي لقب قارورة العسل ، مضيفاً أن جميع الرجال في منطقة خليج سان فرانسيسكو سرب من النحل أعماهم الحب .

عندما أخبرتُ غوينفير كيف وقعت في حب غوردون قالت «ليس لديك سوى القليل من الفرص لتشعري بحياتك على حقيقتها . فيما عدا ذلك تصبحين غير راغبة ان تفعلي ذلك» .

أخبرتها بالأشياء التي أخاف أن أقولها لليو : كيف تتحول النظرة على وجه غوردن من العاطفة إلى الغضب ، كيف صرخ في وجهي في أحد المتاجر مرة بصوت عالٍ لدرجة أن مدير المتجر وضع ورقة في يدي خلسة كتب عليها أنه سوف يصلي لأجلي . كيف كنت أقف كل ليلة في الشارع بينما يجلس هو داخل سيارته مستعداً للانطلاق واصرخ أنا مستجدية «أرجوك يا غوردون ، أرجوك ألا تذهب» .

«قمت مرة في حياتي باجراء عملية لتضخيم صدري من أجل رجل : قالت هي «أما الآن ، فلست على استعداد لخلع اسورتي من يدي قبل الذهاب إلى الفراش» .

تحتفظ غوينيفير بإناء ، مليء بالبطاقات على طاولة المطبخ بين إنائي السكر والقهوة . تسمى هذه البطاقات «بطاقات الملائكة» وقد اشترتها من محل خاص بالجيل الجديد . على كل بطاقة كلمة مطبوعة ، مثل الأخوة الرومانسية ، الابداع ، وهناك صورة لملاك جالس بطريقة تعكس معنى الكلمة على البطاقة .

ذات صباح سحبت بطاقة كتب عليها «الاتزان» وفي منتصف البطاقة صورة لملاك

يجلس باتزان على teeter totter ، وعندما سحبت غوينفير بطاقة نظرت اليها وتنهدت باشمئزاز وقامت بالقاء البطاقة في سلة المهملات دون أن تنظر لي أو إلى الكلمة مرة أخرى ، ثم مدت يدها تسحب ورقة أخرى . ذهبت إلى سلة المهملات ووجدت البطاقة ، كانت الكلمة هي «الاستسلام» وكان الملاك ينظر إلى الأعلى ويداه ممدودتان .

«كم أكره ذلك» قالت عوينفير وقد زمت فمها قليلاً . «لقد القيت كلمة «التسليم» في سلة المهملات الأسبوع الماضي .

أحضرت لي غوينفير قطعة من البسكويت وعلبة من المناديل الورقية . قالت لي ان الاختيار لا يمكن أن يكون جيداً أو سيئاً ، بل هناك فقط الحدث والدروس التي نتعلمها منه . حاولت دائماً أن تصلح الطريقة التي الفظ بها الكلمات : بووذا وليس بوذا .

عندما كنت في الخامسة والعشرين من عمري اخذت معي شخصاً يدعى جيفري إلى أهلي ظناً مني أني سأتزوجه . كان يمثل كل شيء اراده والدي إضافة إلى شهادة الماجستير بادارة الأعمال من جامعة هارفرد ، كانت هناك رقع على أكواع جاكيتته الرياضية ، وكان يلعب الغولف في نادٍ للرجال فقط . قضينا عطلة نهاية الأسبوع معاً نحتسي النبيذ ونأكل معجون اللحم الذي أرسلته أمه من مزرعتها بجنوب فرنسا .

ترك جيفري والدي يريه مجموعة جوائز التنس التي حصل عليها خلال أعوام طويلة ، وجلس يعزف البيانو بينما غنّت أمي أغانيها القديمة .

انتظرت حتى انفردت بأبي لمدة دقيقة وسألته : «بابا – كنت دائماً أناديه بابا – ما رأيك بجيفري؟»

«لوسيل» أجابني «لم أحب أبداً أياً من اصدقائك ، ولا أعتقد أني سأحب أحدهم يوماً ما . فلماذا لا توفري علينا الاحراج وتتجنبي السؤال مرة أخرى؟»

بعد ذلك عدت لمرافقة الميكانيكيين والأدلاء النهريين . أما امي فقد احتفظت بصورة جيفري على بلاطة الموقد حتى وفاتها .

كانت المرة الأولى التي تعرضت فيها للسطو في المدينة عندما ذهبت إلى مسرح كاسترو لحضور عرض متأخر للسينما ، أحد المسارح القديمة العريقة ذات فسطاط

يضيء السماء كأيام الكرنفال ، وسقف يشبه كاتدرائية اسبانية ، وستائر ثقيلة من المخمل الأحمر موشاة بخيوط تلمع ذهباً ، وعازف أرغن حقيقي تبتلعه الأرض لدى بدء العرض .

كنت أحب أن أتسكع هناك بعد انتهاء العرض ، أراقب قائمة الممثلين على الشاشة ثم النجوم الضوئية في سقف المسرح وهي تعود إلى الحياة . وفي مساء يوم الثلاثاء ذاك ، كنت آخر مشاهد يخرج من المسرح إلى ليل بارد مقفر .

كنت قد وضعت قدماً على الرصيف عندما اقترب مني الرجل أكثر من اللزوم حتى في تلك المرحلة .

«هل لديك بعض الفكة التي يمكنك الاستغناء عنها» قال : في الحقيقة لم يكن لدي أيةُ فكّة . كنت قد بحثت في قعر محفظتي عن القروش الأخيرة لشراء تذكرة الدخول . وقد سمح لي بائع التذاكر بالدخول رغم عدم توفر آخر ثلاثة وثلاثين سنتاً .

اعتذرت واتجهت نحو موقف السيارات . عرفت أنه يسير خلفي الا أنني لم ألتفت . خطر ببالي أنه كان يجب أن أخرج مفاتيحي من شنطتي قبل مغادرتي المسرح . كما كان يجب المغادرة فوراً بدلاً من قراءة قائمة الممثلين .

قبل حوالي عشر خطوات من سيارتي شعرت بشيء صلب بين ضلوعي . أراهن أن شعورك يختلف عندما تعلمين أن هناك مسدساً في يدي :

«قد يكون شعوري مختلفاً» قلتها وأنا أستدير بعزم اشد مما كنت أنوي «ولكن الأمر يبقى أنه ليس لدي فكه» .

تفاجأ الرجل ، وقام بتغيير زاوية جسمه بحيث انحنى قليلاً إلى الخلف مبتعداً عني . في تلك اللحظة ، عندما انخفض نظره عن نظري إلى يده التي تحمل ما تحمله داخل جيب سترته ، تذكرت لحظة وجدت نفسي أمام أنثى دب معها شبل يافع ، وكيف وقفنا وجهاً لوجه بتحدٍ ، إلى أن نظرت إلى الأسفل نحو وليدها بنفس الطريقة ، الأمر الذي أعطاني الفرصة لاعلامها بأنه ليس هناك ضرورة لقتلي : بل يمكننا الذهاب كل في طريقه .

«اسمعني جيداً ، قلت له . «لقد مررت بيوم شديد الانفعال» . وبينما كنت أتكلم وضعت يدي داخل شنطتي أمسكت بسلسلة مفاتيحي ، كنوع من السلاح بحد

ذاته . «واعتقد أنه من الأفضل لك أن تتركني أدخل سيارتي واذهب إلى بيتي» .

بينما وقف يفكر بكلماتي خطوت الخطوات الأخيرة نحو سيارتي وولجت فيها . لم انظر بالمرآة الخلفية حتى بلغت الطريق السريع .

بحلول منتصف بعد الظهر نكون أنا وليو قد شاهدنا ما يزيد عن الضروري من الأزواج السعداء وحفلات زواجهم ، لذا قررنا التوجه بالسيارة نحو تيبرون عبر جسر البوابة الذهبية إلى مطعم اسمه غيموس حيث نحتسي المارغريتا المصنوعة من شراب تيكيلا الباترون ، ونتذوق المقبلات ونمتع انظارنا بمنظر جزيرة انجل ومدينة سان فرنسيسكو الأكثر بياضاً من هذا الموقع ، وهي تشرئب كالسراب من مياه الخليج الزرقاء المائلة إلى الخضرة . كنا نشاهد العبارة تتوقف في الميناء ، ويخرج من باطنها سكان الضواحي زرافات ووحدانا ، ثم تعود ونستقبل أفواج المسافرين إلى المدينة في رحلة تقطعها مرتين بالساعة . كنا نشعر بالغيرة من قمصانهم المنشاة واحذيتهم البنية التي تعكس الاتزان في حياتهم .

يتدحرج الضباب عن جبل تامالبيس وتظهر المدينة عبره تارة وتختفي تارة أخرى ، تلمع كبحيرة طبرية تارة وتتحول إلى لون رمادي قاتم حالم كأنها شبح ذاتها تارة أخرى ، ثم تختفي كفكرة عابرة أو «ليلة الأمس» أقول لليو «كنت أسير وحدي في شارع تلغراف . كنت واجمة ، فقد تشاجرت مع غوردن حول جون لينون» .

«هل كان مع أو ضد» يسأل ليو

«ضد» أجيبه . «ولكن ذلك لا يهم . على كل حال ، فقد كنت محتدة وبكيت قليلاً ، وبينما انا أسير بسرعة اصطدمت بشخص مشرد على عكازات يحمل كيلة لجمع الفكة ، قال لي «لا أريد منك فلوساً» ولكن على الأقل أريدك أن تبتسمي» .

«وهل ابتسمتي؟» يسأل ليو

«نعم» أجيبه «بل ضحكت أيضاً ، ثم عدت واعطيته جميع النقود في محفظتي ، وكانت ثمانية عشر دولاراً فقط . أخبرته أن عليه أن يستعمل هذا الأسلوب دائماً» .

«أحبك» يقول لي ليو ويأخذ راحتي بين يديه «اعني ، بالطريقة الجيدة» . عندما كنت في الرابعة من عمري أسكن مع والدي في مدينة بالم بيتش بفلوريدا ، قمت بسحب جرة «من الاسمنت تزن ٧٠٠ باوند من قاعدتها ، مما أدى إلى سقوطي على

رجلتي وكسر عظمتي الفخذ في كلتيهما . كانت جميع الجرار في شارع وورث مزروعة بشجيرات صغيرة مقصوصة على شكل حيوانات ولكن هذه الجرة بالذات بدت لي من وجهة نظري ذات الثلاثة أقدام خالية تماماً .

وعندما سألوني لماذا حاولت أن أرفع نفسي عالياً نحو الجرة» قلت : لقد ظننت أن هناك أسماكاً بداخلها واردت أن أراها . رغم انني لم أعد أتذكر اذا كنت قد تخيلت وجود اسماك حقيقية أم أن تلك الشجرات الصغيرة كانت مقصوصة على شكل أسماك .

كانت الجرة فارغة بالطبع وبانتظار من يقوم باصلاحها ولهذا السبب انقلبت علي . قام ابي بابعادها عني بقوته الخارقة التي غالباً ما نسمع عنها ثم التقطني - بينما أنا أصيح لهذه الجريمة الدموية - وبقي ممسكاً بي حتى حضرت سيارة الاسعاف .

كانت الأسابيع الستة اللاحقة أجمل أسابيع طفولتي ، فقد بقيت في المستشفى للمعالجة طوال تلك المدة محاطةً بالأطباء الذين كانوا يحضرون لي الهدايا ، وبالممرضات اللواتي كنّ يقرئن لي القصص ، إضافة إلى حاملي الحلوى الذين كانوا يحضرون إلى غرفتي ويلعبون معي .

كان والداي يبدوان سعيدين عندما يحضران لزيارتي ، ولكنهما ظلاً هادئين كالعادة . بقيت طوال سنين طفولتي أتخيل وقوع أمراض وحوادث لي ، آملة بأن ينتهي الأمر بي إلى المستشفى مرة أخرى .

في أحد أيام الشهر السابق ، طلب مني غوردون أن نذهب لنخيّم على الشاطئ الوطني في بوينت رييس . لكي يثبت لي ، كما قال ، ان باستطاعته أن يظهر بعض الاهتمام في حياتي . لم أكن قد نمت في الخارج ليلة واحدة منذ قدومي إلى المدينة . قال لي : لا بد أنني أفتقد الشعور بالنوم على أرض صلبة . ورائحة الخيام تحت المطر استعار غوردون شنطة ظهر للرحلات ، وحصل على تصريح بالتخييم هناك ثم تفرغ لدراسة الخرائط خلال عطلة نهاية الأسبوع . كنت في ذلك الوقت ، أحاضر في ورشة عمل حول غرف التصوير المعتمة في كورث ماديرا . كان اليوم يوم سبت وكان على غوردون أن يأخذني من هناك عند الساعة الرابعة بعد انتهاء ورشة العمل . كان الوقت بالكاد يكفي للوصول بالسيارة إلى محطة شاطئ بوينت رييس والسير لساعة

من الزمن نحو أول مخيم . كما أن اليوم التالي سيستغرقنا طويلاً للوصول إلى الشاطئ عند موقع المنارة ثم العودة بالسيارة قبل حلول الظلام .

كنت قد تعلمت في ذلك الحين استشعار المشاكل . وفي ذلك الصباح انتظرت في السيارة مع غوردون بينما دخل أول رجل ، صغير السن بالنسبة لي ثم ثاني رجل كبير بالنسبة لي أيضاً ، إلى القاعة التي ستقام فيها ورشة العمل .

نزلت من السيارة دون أن أرى ذلك الشاب الأشقر الطويل الساحر الذي كان يتأبط حقيبة أوراق تحت ذراعه التي تحمل اللوح عادة . أبقيت نظري بعيداً عنه ولكنه وجد طريقة ليصافحني على أية حال . وعندما فتح لي الباب الضخم لاعبر منه . استطعت ان اسمع صرير العجلات خلفي وكأنها تزن طناً من المعدن . فوجئت قليلاً عندما شاهدت غوردون بانتظاري عند انتهاء ورشة العمل في تمام الساعة الرابعة ودقيقتين . ركبت في سيارة الباث فايندر وعندها وقعت عيني على حقيبة واحدة فقط . قاد غوردون السيارة نحو شاطئ بوينت رييس دون أن ينبس ببنت شفة ثم عبر ستينسون وبوليناس ودوغ تاون وأوليما . كانت طيور مالك الحزين ترتع في خليج توماليس ورؤوسها تحت أذرعها . توقف عند رأس الممر ، ونزل من السيارة ورمى حقيبتي على العشب ثم فتح الباب من جهتي وهو يرمقني بعينيه كأنه يحاول أن ينتزعني من مقعدي .

- أظن أن هذا يعني أنك لن تأتي معي» قلت له وأنا أتخيل كيف يمكننا أن نخيّم بحقيبة واحدة . متشبثةً بالأمل في إمكانية انقاذ هذا النهار .

لا بد أنكم تفكرون الآن . لماذا لم أفعلها : أي أن أخرج من السيارة دون أن أنظر اليه ، واضع حقيبتي على ظهري وانطلق نحو الممر . وعندما أخبركم ما فعلته حقاً ، وهو الزحف إلى مؤخرة السيارة وأنا أتمسك بشبكة التحميل كأن إعصاراً سيمر . ومن ثم الصراخ بصوت متلاحق يصمُّ الآذان . إلى أن ركب غوردون السيارة وعدنا معاً من الشاطئ إلى شارع ٥٨٠ ثم إلى الجسر فإلى شقة غوردون حيث أبلغني انني إذا سكت فيسمح لي بالبقاء عنده . قد تتساءلون كيف يمكن لانسانة ، حتى لو كانت قد فعلت مثل هذا الشيء ، أن تعترف به ولو في مليون سنة .

ثم استطيع أن أخبركم عن الستة عشرة سيارة التي تواجدت لدينا خلال خمسة

عشرة فصل شتاء من عمري ، وكيف قمت أنا وأبي ليلة عيد الميلاد بالدوران في سيارة بلايموث فيوري من وسط السيارة إلى مؤخرتها أربعة دورات كاملة إلى أن انقلبت بنا السيارة تسعة مرات مما اخطرهم لاستخدام قواطع الأقفال لإخراجنا منها . وكيف خرج أبي من مقدمة السيارة الأمامي سليماً معافى .

وقد أخبركم عن إبنة حارتنا التي سرقتني يوماً إثر سماعها صياح والداي وكيف رفضت تسليمي إلى البوليس ، حتى بعد أن أحضروا أمراً بتفتيش منزلها وكيف ظلت يدها وهي ابنة العاشرة ممسكة بي وأنا حينها في الثالثة من العمر وثم كيف انتهت القصة لتصبح نادرة مضحكة يتناقلها أهلنا كلما أحبوا ذلك . وقد أعيد على أسماعكم ذلك الصوت الأجوف التي تسببه زجاجة فارغة عندما تضرب بخشب الفورمايكا أو صوت الفرن الذي يترك مشتعلاً وفوقه قلاية تطلق الدخان بينما توجد كبسة تقول «اطفئ» ، ولكن لا يمكن الوصول اليها . وقد أخبركم عن الكذبة التي أطلقتها لنفسي مع غوردون بأن وجود أي شخص هو أفضل من وجود لا أحد ، وسوف تدركون تماماً لماذا بقيت في مؤخرة تلك الپاث فايندر . الا إذا كنتم محظوظين طبعاً ، وعندها لن تفعلوها .

- «هل أخبرتك من قبل كيف سرقت في احدى المرات؟ سألني ليو ، كنا كلانا نعرف تلك القصة ولكنها كانت روايته المفضلة .

- «أحب أن أسمع ذلك» أقول له ويعود ليخبرني اياها مرة أخرى .

قبل أن يقوم ليو ببناء بيته على الشارع المليء بالطواويس ، كان يعيش في مدينة تقع بين الشاطئ الشمالي والجسر الممتد على البحر ، وفي احدى الليالي غافله رجل مسلّح من الخلف بينما كان يهم بالنزول من السيارة ويحاول البحث عن مفاتيح منزله .

كان لدى ليو ثلاثة عشرة دولار في محفظته ، وعندما قدّم النقود للرجل ، كان يعتقد أنه سيقتله فوراً ، ولكن الرجل سأله هل لديك بطاقة للسحب النقدي ، هيا لنذهب إلى آلة السحب .

ها ! أقول له عندما يصل إلى هذه النقطة من القصة ، «هذا يعني أنك ذهبت إلى الموقع الثاني للجريمة» . كنت أكره الجزء الذي يتحدث عن قيام الرجل بنزع نظارات

ليو وثم قيادته للسيارة حيث تبين أنه لا يعرف حتى كيف ينقل الغيارات مما أدّى إلى احتراق القابض ، حيث بقيت السيارة تطلق الدخان حتى تلة «نوب» . «أنا أدعى بيل» قال الرجل . وظنّ ليو بما أن الوضع اصبح أكثر وداً ، أن بإمكانه أن يطلب منه السماح له باصلاح القابض وعدة الغيار من أجل إنقاذ ما تبقى من السيارة . ولكن ليو لم يشتم رائحة الدم تحت ثياب بيل الا عندما اقترب منه وحرّك علبة الغيارات ليركزها على كتفه . عندها علم أن الرجل كان قد تعرّض لاطلاق نار . قادا السيارة على هذه الحال إلى مركز تسوق سيف واي في مارينا . كانت عينا بيل على الطريق ويداه على المقود . وكان ليو يحرك القابض والغيارات اعتماداً على احساساته . وعندما وصلا إلى آلة سحب النقد ، التفت ليو حوله طلباً للمساعدة ولكنه لم يتمكن من جذب انتباه أحد مع وجود بيل ومسدسه ضاغطاً على جنبه . لا بد أن جميع المارة ظنّوا بأنهما صديقين حميمين . كذب بيل على الرجل بأن أخبره أن هناك حداً للسحب يبلغماية دولار ثم ضغط الأزرار وناوله النقود .

قفلا عائدين إلى الشارع نفسه وعندما وصلا هناك ، شكره بيل مصافحاً ثم طلب منه خدمة أخيرة قبل الفراق قائلاً : سوف أعطيك رقم هاتف ، قال بيل ، انه هاتف صديقتي في ساكرامنتو ، وأريد منك أن تهاتفها وتبلغها أنني فعلت الأمر بسلام .

– «بالطبع» أجاب ليو وهو يطوي الورقة .

– أريدك أن تقسم بالله على ذلك . قال بيل :

– بالطبع قال ليو : سوف أخبرها» .

وضع بيل بندقيته عند زر بطن ليو وصاح «قلها يا ابن القحبة قل أقسم بالله أنني سأخبرها» . فعل ليو ذلك وغادره الرجل .

لدى عودته إلى شقته ، اتصل ليو بالبوليس بعد أن هدئت أوصاله من الرعشة ، وجاءه الصوت من الجهة المقابلة : لا يوجد الكثير لنفعله لك . يمكننا تغبير سيارتك لأخذ البصمات ولكن ذلك سيخلف فوضى كبيرة . بعد ساعتين ، نظر ليو في دليل الهاتف ثم اتصل بكاهن كاثوليكي .

– «كلا» قال الكاهن : لا يتوجب عليك الاتصال بها ، لقد أقسمت بالله تحت ضغط من شخص لا يعرف الله .

– لا أظن أن هذا الجواب صحيحاً ، قلت له عندما سمعت القصة لأول مرة ، وقد أقولها مرة أخرى اليوم . كانت تلك هي المرة الأولى التي تكلمنا فيها عن طبيعة عدم الإيمان بالله وكيف يصبح التعريف متطرفاً عندما تواجه وضعاً يضطرك إلى أن تقسم بالله . ولكنني حين أفكر اليوم ، ليس بمعضلة بيل ولا حتى بليو ولكن بتلك الفتاة في ساكرامنتو وحبيبها الذي أطلقت عليه النار وظل يفكر فيها وهو ينزف ويختطف المهندسين . وأتساءل ما الذي يجعلها تتعلق برجل يمتهن كسر القانون كطريقة للعيش . وأتساءل أيضاً إذا كان قد تمكن من الوصول اليها في تلك الليلة وهل وقفت هي بجانبه تضمد جروحه ، وكيف كانت ترى نفسها ضمن أي جزء من القصة ، وكم ساهمت لتنتهي القصة على هذا الشكل .

– انني خائف جداً قال غوردون ونحن نسير على رصيف الميناء في أول ليلة نقضيها معاً . خائف أن أكون ضعيفاً وعديم الفائدة ، ولذا أقوم بمحاولة تحطيم أقرب الناس الي لكي يصبحوا ضعيفين وعديمي الفائدة مثلي .

أردت أن أعرف السبب الذي جعلني اصغي ولا أصغي لما يقوله . السبب الذي جعلني أعتقد بأن القصة ستنتهي على شكل مختلف معي .

انتهت القصة بيني وبين غوردن في أحد البارات بساحة جاك لندن حيث كنا نقضي سهرة في مشاهدة لعبة كرة قدم بين فريق الفورتي نانينرز وفريق برونكوس . كانت تلك السنة هي الأخيرة لجو مونتانا في سان فرانسيسكو إذ بدأت الإشاعات ترشّحه للإلتحاق بفريق كانزاس سيتي .

كانت اللعبة متأخرة في الموسم وقد قام فريق برونكوس بعمل ما اشتهر به عادة وهو التقدم بعشرين نقطة ثم التراجع والخسارة بالتدريج مع تتابع الأشواط .

وصلت اللعبة عند حد انذار الدقيقتين . كان اليوي ومونتانا يتبادلان الأهداف بأناقة كأنهما قد تفاهما على ذلك قبل بداية اللعبة . بقيت دقيقة و ٢٧ ثانية وكانت الكرة عند الهدف الثاني والعشرين للناينرز وكان لدى مونتانا الوقت الكافي والفرصة الأخيرة للتألق .

– «لا تقولي أنك من مشجعي برونكوس» . تدخل رجل يجلس في الطرف الآخر . وكان قد وصل متأخراً .

- «انها عملية صعبة» أجبته دون أن أبعد عيني عن شاشة التلفزيون . وللمرة المئة كانت الكاميرا تبتعد عن الحدث لتسلط الأضواء على جنيفر مونتانا وهي تبدو قلقة أو دامعة أو مبتهجة . وتلف ذراعيها الحنونتين حول ابنتيها الشقراوتين الجميلتين .

- «يا للهول» قلت . عندما تعود الكاميرا إلى العمل بعد ثوانٍ ، سوف نظن أن جومونتانا هو لاعب الكرة الوحيد في أمريكا الذي يملك زوجة .

ضحك الرجل الجالس إلى جانبي ضحكة قصيرة متقطعة فيما كان جو يأخذ فريقه مسافة ثمانية وسبعين ياردة في سبع جولات نحوالنصر .

على الطريق نحو السيارة ، قال غوردون : هذا ما أكرهه في مشجعي الرياضة ، أنكم تخلقون بطلاً مثل مونتانا من أجل أن تعثروا على شخص يهزمه .

قلت له : لا يوجد لدي شيء ضد مونتانا ، اظن انه يرمي الكرة كالملاك ولكني أفضّل مشاهدته هو على أن أشاهد زوجته .

لقد رأيت الذي تفضلين مشاهدته» قال غوردون حالما وصلنا إلى السيارة ثم طرق باب السيارة بعنف .

«يا غوردون» قلت له : انني لا أعرف حتى شكل الرجل .

كان القمر ناضجاً يغمر بأشعته تلك المناطق من أوكلاند التي لا يجرؤ أحد على ارتيادها ليلاً . عرفت وأنا أبحث فيها عن وجه ، بأنه لا يبالي البتة بما قلته . كان غوردون يحب التجول في أسوأ الشوارع عندما كان يشعر بمزاج سيء . وراح يتحدث بصخب حول قيامي بهزّ ريش ذنبي وابقاء بنطالي مزرراً . كل ما فكرت به حينها هو أن أذكّره أنني ارتدي تنورة . أفلت أصوات المكابح عند وصولنا إلى مدخل بيتي . نزلت من السيارة واتجهت نحو المدخل المعتم .

«ألا تريدين دعوتي إلى الداخل؟» سألني . . . أما أنا فأخذت أفكر بتلك الأشهر المليئة بالليالي التي تشبه هذه الليلة ، عندما كنت أطلب الصفح منه وأتوسل اليه بأن يبقى معي .

- أريدك أن تأخذ هذا القرار بنفسك» . أجبته من خلف كتفي . عندها أدار السيارة في ثوانٍ ثم انطلق لا يلوي على شيء .

في البداية ، بدأت الرسائل تصلني ملصقة على باب بيتي . كانت الكلمات

مقصوصة من عشرة وجوه طباعة مختلفة وملصقة بعدة طبقات من اللاصق حتى بدت وكأنها قماش مفصّل ثم تلى ذلك تمزيق الإطارات ووضع شراب كارو المركز في خزان الوقود ، ورمي مجموعتي من مذكرات ديلان في الوحل أسفل مدخل البيت . حتى أنه في أحد الأيام فتحت مظروفاً مرسلاً من إحدى المجلات التي صوّرت لها لأجد شيك الدفع المخصص لي ممزقاً إلى مئات القطع الصغيرة بحيث أعيد وضعه في الظرف وثم في صندوق البريد .

كنت أحتسي المارغريتا مع ليو في وقت متأخر من عصر أحد الأيام . ولم يكن الضباب قد انقشع تماماً بعد . أقول لليو «ما أتخيله الآن هو أنني سأعود في احدى الليالي إلى البيت لأجد غوردون يخرج لي من بين الممرات والظلال وبيده مسدس ماغنوم ٠,٣٥٧ . وربما تكون احدى أفكاري الأخيرة حينها هي : حسناً ! كان يجب عليك أن تتوقعي منطقياً ما الذي سيحصل بعد .

– لا أدري لماذا تعذبين نفسك بهذا الأمر! يقول ليو . لماذا لا تبلغي البوليس أو أي شخص آخر؟ وأقول له : «ان هذه المدينة ليست بالمكان الجيد لكي تسير بدون رفقة كلب» . يحيطني ليو بذراعيه وأعرف من طريقه لف دراعيه بأنه يظن أن عليه أن يفعل ذلك .

– هل تتمنى أحياناً ، أقول له ، لو أن باستطاعتك الاختفاء تماماً كما تختفي هذه المدينة؟

– أستطيع ذلك ، يجيب ليو ، ولكن ما أتمناه أكثر هو أن استطيع البقاء عندما أرغب في ذلك .

كانت المراكب تصطف على الرصيف أمامنا ونحن نجلس بهدوء . إلى أن انقطعت صفافير المراكب وأقلع القارب مرة أخرى .

– هل أحسست بالخوف يوماً ، أقول لليو ، من وجود أشياء تحتاجها وتدور بداخلك وكأنها تسيطر عليك وتخنقك حتى الموت .

– لا أظن ذلك! يجيبني ليو .

– أنا لا أعني الجنس ، أقول له ، ولا حتى الحب بالضبط ، ولكن كلّ تلك الرغبات التي لا تفلت من داخلك لدرجة أنك لو غيرت كل شيء الآن فإن الأمر

يبقى متأخراً لكي تشبع منها .

يبقي ليو عيناه مثبتين على المدينة التي عادت وخرجت من الضباب مرة أخرى ، . في حين كان برج كويت ينتصب متمايلاً قليلاً وكأنه صفوف من فطائر بيتزا بيبيروني . يقول ليو : كنت حتى سنين قليلة مضت ، اقتحم منزلاً غريباً كل ستة أشهر مثل الساعة ، هل هذا يشبه ما تعنيه؟

تماماً! أقول له .

ينسدل حزام من الضباب ، أسرع من الباقي ، ويلف المدينة بأكملها ، حتى المنطقة التي سرق فيها ليو ، والشقة التي يسكنها غوردون .

عندما كنت في الثامنة عشرة من العمر ، التقيت مع والداي في فينيكس بولاية أريزونا لمشاهدة فرق بنسلفانيا وهي تلعب في مهرجان فييستا باول . كنت قد قدت السيارة من أوهايو في حين طاروا هم من بنسلفانيا . والتقينا ثلاثتنا لأول مرة في سيارة واحدة . أراد والدي أن أقودهما عبر الضواحي الثرية حيث توجد أماكن تحمل أسماء مثل كيرفري وكيف كريك . كانا كلاهما قد أسرفا في الشرب نهاراً أكثر من العادة . وطبعت في رأس أبي فكرة أنه يرغب برؤية أعلى نافورة في العالم وهي تقذف ثلثماية جالون من الماء في الدقيقة في هواء الصحراء الجاف والمبخّر . كنا في منتصف الطريق نحو كيف كريك ، قريبين من النافورة ، عندما أوقفني شرطي قائلاً : أنا آسف لازعاجك ولكني كنت أتعقبك في الدقائق الأربع أو الخمس الأخيرة وعلي أن أخبرك شيئاً ولكني لا أعرف من أين أبدأ .

كانت لوحة الاسم المعلقة على صدر الشرطي تقول أن إسمه مارتن «الكلب المجنون» «جنكنز» أطلق أبي تنهيدة بقيت معلقة في السيارة مثل الضباب .

– حسناً! أولاً ، قال الشرطي جنكنز ، لقد ضبطتك وأنت تسيرين بسرعة ٤٣ فيما السرعة المحددة هي ٢٥ . ثم مررت عن إشارتي «توقف» دون أن تقفي تماماً على حد الأمان ثم قمت بالاستدارة إلى اليمين من المسرب الوسط .

– يا يسوع المسيح ! قال أبي

– كما أن أحد الأضواء الخلفية لسيارتك ، تابع الشرطي جنكنز ، لا يعمل وإما أن تكون غمازات السيارة معطلة أو أنك لا تستخدميها .

- هل تسمع ذلك؟ قال أبي وهو يكلم الهواء
- هل يمكنني رؤية رخصتك وتسجيل سيارتك قال الشرطي :
- «لقد تركت رخصتي في أوهايو» . قلت له
ساد الصمت
- أعطني دقيقة إذن ، قال جنكيز وسوف أطلبها
- الذي لا أعرفه بداية! قال أبي أنه كيف يمكن لشخص بمثل هذه القلة من المسؤولية أن يحصل على رخصة قيادة في هذه البلاد ، فتح مسرب الهواء ثم أغلق وتابع . عليك أن تتساءل هل يجب أن يسمح لهذه الفتاة بالخروج من البيت صباحاً .
- لماذا لا تقولها فقط يا روبرت؟ تنطحت أمي قائلةً : قل ما تريد أن تعنيه! قل يا ابنتي أنا أكرهك . بدأ صوتها يرتجف . «الجميع يرى ذلك ويعرفه ! لماذا لا تقولها بصوت مرتفع» .
«يا آنسة أوروك» قال الشرطي جنكنز وهو عائد إلى نافذة السيارة
«دعنا نسمعها» استمرت أمي موجهة الحديث إلى أبي ، قل له : أيها الضابط أنا أكره ابنتي .
ومضت عينا الشرطي لوهلة وهو يحدق في المقعد الخلفي ، ثم قال : حسب المعلومات التي تلقيتها يا آنسة أوروك ، يتوجب عليك وضع عدسات تصحيحية .
«هذا صحيح» قلت له :
- هل تضعين عدسات لاصقة الآن؟ كان هناك نبرة أمل في صوته
- كلا يا سيدي
- انها لا تستطيع حتى أن تكذب ، سأل أبي ، ولا حتى في أمر صغير .
- حسناً الآن سأعد حتى الثالثة ، قالت الأم ، قل يا ابنتي أتمنى لو أنك لم تولدي .
يا آنسة أوروك ، قال الشرطي جنكنز ، سوف أعطيك انذاراً فقط لهذا اليوم .
اقتطع والدي جزءاً من ضحكة كانت قد ارتسمت على شفتيه .
- أشكرك كثيراً! قلت له
- أنا أكره أن أقول هذا يا آنسة أوروك ، قال الشرطي ، ولكن لا يوجد شيء يمكن

أن أفعله قد يشكل عقاباً لك . مدّ يده لي مصافحاً وقال : أرجو أن تقودي السيارة بأمان الآن ثم اختفى .

عندما انتهى المهرجان ، عدت أنا ووالداي إلى كيرفري لحضور حفلة رأس سنة أقامها أحد اللواطيين الذي كان له معرفة بأمي ، وينتمي الرجل إلى نادٍ للخمر يدعى نادي النظام الملكي للعنب . لم يكن أبي سعيداً بهذا الأمر ولكنه التزم الصمت . كنت أريد فقط مشاهدة الحفل وهو يعرض على شاشة التلفزيون مثلما كنت أفعل كل سنة في طفولتي مع جليسة الأطفال . ولكن الرجال في الحفل كانوا يعرضون أفلاماً وثائقية عن مبادئ النادي ، واحداً تلو الآخر بينما كان يدعى اثنان أو ثلاثة من الحضور بين الفينة والأخرى للنزول إلى قبو النبيذ من أجل الاضطلاع على الزجاجات وتذوقها .

وعندما حاول والدي اشعال سيجارة ، تم قذفه إلى الخارج بأسرع مما كنت أراه يتحرك . أما أنا فكنت أصغر من أن أدعى إلى قبو النبيذ وأكبر من أن أدعى من أحد ، لذا وبعد ساعة من تجاهلي ، خرجت لانضم إلى أبي . كانت أنوار فينيكس تتلألأ بكل الألوان وسط الظلام تحتنا .

لوسيل ! قال لي عندما تبلغين من العمر ما بلغته ، لا تقضي ليلة رأس السنة في منزل لا يسمحون فيه بالتدخين .

– حسناً . قلت له .

– إن أمك . . . . قال لي ، كما اعتاد أن يقول دائماً

– أنا أعرف . . . قلت له رغم أني لم أكن أعرف

– أمك وأنا لم نعطي حبنا قدراً صحيحاً ، ولكن هذه العائلة . . . .

توقف قليلاً عن الحديث ، وكانت سماء فينيكس تتفجر ألواناً ، لم أرى بحياتي العاباً نارية من فوق ، . مثل شمسيات حمراء وخضراء وصفراء ومختلفة الألوان .

– «ادخلوا ادخلوا لنشرب نخب السنة الجديدة» جاء مضيفنا عند الباب ينادينا . كنت راغبة أكثر من أي شيء ، أن يكمل والدي جملته . ولكنه اطفئ سيجارته ونهض وسرنا إلى الداخل . أكملتها له عدة مرات ولكن دون أن أشفي غليلي .

ندفع الفاتورة ، ويخبرني ليو أن بين يديه مؤقتاً ، مركباً طوله سبعة وعشرون قدم

من سوساليتو ، ويعود إلى رجل بالكاد يعرفه . كان الضباب قد انقشع بما يكفي ليمكننا من رؤية موقع الشمس التي كانت تشع بلمعان أكبر عند الجولدن غيت . ركبنا المركب الصغير باتجاه المكان الأكثر لمعاناً مثلما يفعل أي زوجين حقيقيين عصر يوم سبت .كان قاربنا سنجابياً مصمماً للتحركات السريعة وسط ريح خفيفة ، وقد سلمني ليو ذراع الدفّة قبل مائتي ياردة من عبورنا أسفل ظل الجسر المظلم . وكنت قد بدأت استشعر بقيادة المركب عندما نظر ليو من فوق كتفي وقال : يبدو أننا في سباق . نظرت أنا أيضاً ورأيت قارباً يبلغ حجمه ضعف حجم قاربنا وربما عشرة أضعاف ثمنه ، يحاول أن يتغلب علينا .

– ربما عليك أن تستلم الدفّة قلت له .

– لا بأس إنك تقومين بعمل جيد ، قال لي : فقط ركّزي ذهنك على الهدف وانطلقي أول ما استطعت التفكير به في البداية هو تخيل ليو قابعاً على رأس الجسر يعد الأرقام في ذهنه ، إضافة إلى قصة كان غوردون قد رواها لي وتدور حول شابين يلتقيان هناك على أحد الممرات ثم يكتشفان أن كلاهما ناج من قفزة سابقة .

تركت ذهني يسرح عبر المنحدرات الصخرية الشاهقةً والأمواج المتكسرة على صخورها ، مروراً برأس مارني المتداخل في البحر ، وسفن الملاحة الرأسية ، ووصولاً إلى مكان تبتلع فيها المرتفعات خط الشاطئ ، وتصبح هاواي فقط هي التي تفصل بيني وبين النهاية ، وما هي احتمالات الوصول اليها إذا تابعت سيري عبر الأفق دون أن أغيّر مسار المركب .

أستطيع أن أسمع صوت الجداف الأمامي للمركب الكبير وهو يهدر خلفنا ، واركز ذهني بشدةٍ أكثر على عالم لا يوجد فيه سوى هذا البحر من المياه الزرقاء العميقة .

– لقد أخفتني قال ليو ، أنه يقترب منا

ولكن المركب ابتعد عنا ، عائداً باتجاه الميناء في اللحظة التي عبر فيها مجدافنا الأمامي ظل الجسر الضخم ، يقفز ليو فرحاً ويعانقني عناقاً يشبه ذلك العناق الأمريكي حول كأس البطولة . من فوقنا كانت المسافة بين دعامات الجسر تهتز بخفة وسط الريح .

أبحرنا حتى طرف الرأس ، حيث تعلو المرتفعات وتسبغ عليك شعوراً بالعياء

وأخيراً يأخذ ليو ذراع الدفة من يدي ويدير القارب بالاتجاه الآخر . كان الجو مشمساً تماماً مثل برمودا ، وأنا ما أزال أشعر بالزهو بعد السباق وأقول لنفسي بأن ليس هناك شيء أخاف منه ، تماماً مثلما يحدث عندما تذهب أحياناً إلى السينما وتغرق في قصة الفيلم لدرجة أنك عندما تغادر الصالة لا تعود تتذكر ما يحصل معك في حياتك العادية . ربما تنسى على سبيل المثال ، انك تعيش في مدينة يملك الناس فيها العديد من الخيارات بحيث يهدرون الكلمات هدراً ، أو القليل منها بحيث ينزفون في سيارتك من أجل مائة دولار . قد تنسى الاحدى عشرة سيارة أو الاثني عشرة من بين مجموعة الستة عشر . أو تنسى أنك لم تكن تتوقع أبداً أن تبقى لوحدك في عمر الواحد والثلاثين ، أو أن مجنوناً قد يكون بانتظارك عندما تعود إلى البيت في المساء ، وهو يحمل مسدساً . أو أن جميع الناس الذين تعرفهم بدون استثناء يتركون قلوبهم تحوم حول شخص لن يبادلهم الحب أبداً .

– أنا خائفة – أقول لليو . وفي هذه اللحظة ، تتواجه عينانا فيما الضباب ما يزال جاثماً فوق الخليج وكأنه يجثم فوق وعاء ضخم من الماء . ونحن على وشك أن ندخل فيه .

– «لا أستطيع مساعدتك : يقول ليو وهو يدير عيناه عبر الضباب .

عندما كان عمري سنتين ، أخذني والدي إلى شاطئ نيوجيرسي وحملني معه وسط الأمواج المتكسرة إلى أن وصل الماء حدّ صدره . ثم ألقاني مثل كلب وسط الماء ليرى اذا كنت سأعوم أم سأغرق .

أما إامي . التي تنحدر من أعالي جبال روكي حيث الماء يعتبر بارداً جداً للسباحة وحيث يتعلم الأطفال أن لا يبللون وجوههم أبداً (كانت تتحمم فقط دون أخذ دوش) فقد جن جنونها عند رؤيتها لهذا المشهد ، لدرجة أنها استدعت اثنين من منقذي السباحة من موقعين مختلفين لكي يهرعوا لنجدتي . لم يكن هناك حاجة لذلك على أي حال ،فحين وصل المنقذان إلى حيث يقف والدي كنت قد اجتزت امتحان العوم سابحة بأشد ما استطاعت اطرافي غير المجرّبة أن تقذفني . حملني والدي على كتفيه مبتسماً وفخوراً ، ومندهشاً بعض الشيء . أخبرت ليو بأن يمر بي عبر قصر الفنون الجميلة في طريقنا إلى البيت على الرغم من أن طريق جسر ريتشموند تعتبر أسرع .

كان الضباب قد تحرك إلى هناك أيضاً وكانت العرائس الأخيرة تتفقدن تسريحاتهن فيما العرسان يساعدوهن على ركوب السيارات السوداء الفارهة التي ستنقلهن إلى شقق شهر العسل في فندق الفورسيسونز أو إلى المطار حيث تحملهن الطائرات إلى طوكيو أو إلى ريو يبقى ليو في السيارة فيما أعود أنا إلى البحيرة . كان الممر مليئاً ببتلات الورود والأرز الاصطناعي الذي يذوب في الماء . حتى البطات كانت تسير أزواجاً بذلك الاتجاه . لا تكاد رِيَشها الداخلية تتلامس ، أما أعناقها فكانت منحنية قليلاً نحو بعضها البعض فيما تشكلت رؤوس مناقيرها على شكل حرف M تقريباً .
آخذ صورة للبطات ، وصورة لبتلات الورود النازفة على الممرات . ثم أعبر تحت أطول الأقواس وانحني لزوجي الوهمي الذي يأخذ بيدي ونمضي سوياً نحو القس الذي ينحني لنا بدوره ، وننحني له مرة أخرى . «أنا خائفة» ! أقول مرة أخرى ، ولكن هذه المرة كانت كلها أشد وأقوى كأنها غناء . أو كأنها الخطوة الأولى من بين خمسة وخمسين أو ألف خطوة نحو شيء يشبه الحياة الحقيقية . الخطوة الأولى نحو شيء يدوم .

نبذة عن المؤلفين

ـ **أليس آدامز** (١٩٢٦ ـ) كتبت أكثر من مائة قصة قصيرة، وعشر روايات وتعيش في سان فرانسيسكو. أكثر قصصها حداثة هي *رجال الطب*، *عرض جنوبي*، و*بنات كارولين*. وقد حصلت على عدة جوائز بما فيها جائزة او. هنري الخاصة بالإنجازات المستمرة.

ـ **شيروود أندرسن** (١٨٧٦ ـ ١٩٤١) بدأ الكتابة عام ١٩١٣ بعد انتهاء خدمته، في الحرب الإسبانية الأميركية. وقد عمل كطابع ومدير لمصنع دهانات. وقد تلقى ملاحظة نقدية حول مجموعته الأولى من القصص، «*وينسبرغ، أوهايو*» أما أعماله الأخرى، فتشمل الشعر والنقد والمقالات والروايات، مثل *الضحكة المعتمة*، *القطران*، *طفولة في الغرب الأوسط*، و*قصة الراوي*.

ـ **دونالد بارثيلم** (١٩٣١ ـ ١٩٨٩) عرف بالأدب القصصي الإبداعي غير الموقر، وألّف العشرات من الكتب بما فيها *روايات الحزن*، *الثلج الأبيض*، و*الأب المتوفى*، وقد شملت مجموعات قصصه: *عد يا د. كاليجاري*، *ممارسات لا توصف*، *أعمال غير طبيعية*، *حياة المدينة*، *الهواء*، و*أيام عظيمة*. نال جائزة الكتاب الوطني عام ١٩٧٢ عن قصته «*عربة الإطفاء غير المنتظمة قليلاً*»، وهو كتاب للأطفال وقد رشح لنيل جائزة الكتاب الوطني عام ١٩٧٤ عن كتابه «*لذات مذنبة*».

ـ **آن بيتي** (١٩٤٧ ـ)، تعتبر إحدى الأصوات المميزة بين جيلهاوقد ألّفت عدة روايات بينها: *مناظر شستائية باردة*، *الوقوع في المكان*، *الحب دائماً*، *تصور الوصية*، *واحد آخر هو أنت*. وشملت مجموعات قصصها «*البيت المحترق*»، «*تشوهات*»، «*أين تعثر علي*»، وقصص أخرى «*ماذا كان لي*»، «*أسرار ومفاجآت*»، وحديثاً صدرت مجموعة بعنوان «*نقاط الالتقاء*» قصص حديثة ومختارة.

ـ **سول بيللو** (١٩١٥ ـ) ولد في كندا وترعرع في شيكاغو ، تشمل أعماله : *الرجل المتدلي* ، *هندرسون ملك المطر* ، *اقبض على اليوم* ، *ومذكرات موزبي وقصص أخرى* . تلقى عدة جوائز أدبية كما نال جائزة الكتاب الوطني عام ١٩٥٤ عن مؤلفه *مغامرات أوجي مارش* ، وفي عام ١٩٦٥ عن قصة «هيرزوغ» ، وعام ١٩٧١ عن كتابه كوكب السيد ساملر . وفي عام ١٩٧٦ نال جائزة بوليتزر عن كتابه «هدية همبولت» ، كما حصل على جائزة نوبل للآداب .

ـ **اليزابيث بيشوب** (١٩١١ ـ ١٩٧٩) شاعرة مشهورة كانت معلمة ومترجمة ، وكثيرة السفر . تلقت عدة جوائز لشعرها منها جائزة بوليتزر عام ١٩٥٥ عن قصيدتها «*شمال وجنوب ـ الربيع البارد*» . وتشمل أعمالها الأخرى كتباً حول السفر مثل : أسئلة السفر ، *البرازيل* ، ومجموعات من القصائد بعنوان «*الجغرافية رقم ٣*» ، «*الأشعار الكاملة*» ، *المجموعات النثرية* .

ـ **هارولد برودكي** (١٩٣٠ ـ) ولد في إلتون بولاية ألينوي ، تشمل مجموعة قصصه : *الحب الأول وأحزان أخرى* ، *قصص في صيغ كلاسيكية تقريباً* ، *صداقة نجسة* ، *نساء وملائكة* ، *العتمة المتوحشة* ، وقصة موتي وهي مذكرات تؤرخ وفاته بمرض الإيدز تم نشرها عام ١٩٩٦ .

ـ **روزلين براون** (١٩٣٩ ـ) ، شاعرة وكاتبة قصص قصيرة وروايات ، ألفت حديثاً : وسادة كورافراي وهي قصيدة بحجم كتاب . وتشمل مؤلفاتها الأدبية : *سيرة حياة أمي* ، رحمات رقيقة ، *الحروب الأهلية* ، *قبل وبعد المأدبة* ، *وألعاب الشوارع* .

ـ **رايموند كارفر** (١٩٣٨ ـ ١٩٨٨) عُرِف بسطوته كتب القصة القصيرة والشعر . تم ترشيح مجموعته «*اهدئي من فضلك*» ، لنيل جائزة الكتاب الوطني ، وله مجموعتان غيرهما «*الكاتدرائية*» و«*من أين أنادي*» ، والأخيرة عبارة عن قصص

جديدة ومختارة ، وتم ترشيح المجموعتين لنيل جائزة بوليتزر وجائزة دائرة نقاد الكتاب الوطني .

ـ **ويللا كاثر** (١٨٧٦ ـ ١٩٤٧) ولدت في فرجينيا وانتقلت إلى نبراسكا مع والديها وهي في التاسعة . من بين رواياتها العديدة والمعروفة جيداً : *أيها الرواد* ، *أنطونيا خاصتي* ، *والموت يأتي إلى رئيس الأساقفة* . نالت جائزة بوليتزر في عام ١٩٢٣ عن روايتها «*واحد منا*» ، ونشرت أيضاً مجموعات مختلفة من القصص والقصائد والنقد .

ـ **جون شيفر** (١٩١٢ ـ ١٩٨٢) هو أحد أشهر كتاب القصص القصيرة في هذا القرن ، نال جائزة أو . هنري مرتين : الأولى عام ١٩٥٦ عن قصته «*زوج ريفي*» ، والثانية عام ١٩٦٤ عن قصته «*نزول سايشرز*» ، كذلك نال جائزة الكتاب الوطني عام ١٩٥٨ عن قصته «*تاريخ واب شوت*» كما نال جائزة بوليتزر وجائزة دائرة نقاد الكتاب الوطني وجائزة الكتاب الأميركي عن كتابه *قصص جون شيفر* ، التي نشرت عام ١٩٧٩ وفي عام ١٩٨٢ نال الوسام الوطني للأدب .

ـ **غريس ستون كوتس** (١٨٨١ ـ ١٩٧٦) ، ولدت في روبي بولاية كنساس والتحقت بجامعة شيكاغو وأمضت معظم حياتها في مونتانا حيث عملت محررة لمجلة فرونتير Frontier وهي دورية هامة في الأدب الغربي ، شملت منشوراتها كتابين أدبيين «*الكرز الأسود*» ، و«*جولة في مرتفعات الريف*» وكتابين في الشعر .

ـ **أليس أليوت دارك** (١٩٥٣ ـ) ألفت مجموعتي قصص قصيرة «*عند الشفق*» ، و«*عار حتى الخصر*» ورواية «*فكر بإنجلترا*» تم نشرها في ربيع عام ٢٠٠١ .

ـ **پام دربان** (١٩٤٧ ـ) ألفت مجموعة من القصص القصيرة ، «*كل شيء جاهز لأشجار الحمى*» ورواية «*المكان الضاحك*» . نالت جائزة الكتاب الأبيض ،

وعضوية في مركز المواهب الوطنية للآداب . وتعمل كأستاذ في جامعة ولاية جورجيا إضافة إلى محررة لمجلة «فايف بوينتس» .

ـ **ستانلي إلكن** (١٩٣٠ ـ ١٩٩٥) ، ألف أكثر من اثني عشر عملاً قصصياً شملت قصة «*لماذا أحيا وأين أحيا*» ، و«*تيد بليس*» و«*غرفة فان جوخ في آرلز*» و«*ماكغوفن*» ، و«*المملكة السحرية*» و«*متجولون وباعة ، باعة ومتجولون*» . وقد نالت قصته «*جورج ميلز*» ، جائزة دائرة النقاد للكتاب الوطني عام ١٩٨٢ كما تم ترشيحه ثلاث مرات لنيل جائزة الكتاب الوطني .

ـ **وليام فوكنر** (١٨٩٧ ـ ١٩٦٢) مواطن من أكسفورد بولاية مسيسيبي كان كاتباً خصب الإنتاج في القصص القصيرة والشعر والروايات . من بين أفضل كتبه «*أبسالوم أبسالوم*» ، و«*بينما أنا أموت*» و«*الملاذ*» و«*ضوء في آب*» و«*متطفل في الغبار*» ، و«*موسى*» و«*الصخب والعنف*» ، نال فوكنر جائزة بوليتزر عام ١٩٥٤ عن كتابه «*خرافة*» وعام ١٩٦٢ عن كتابه «*الريفرز*» ، كما نال جائزة نوبل للآداب عام ١٩٤٩ .

ـ **كارولين فيريلل** (١٩٦٢ ـ) مؤلفة مجموعة قصص «لا تشطبني» ، التي نالت جائزة كتاب لوس أنجلوس تايمز لأفضل قصة . اشتركت في مركز وليام ت . فلاناغان للأشخاص المبدعين في يادو ، وفي مركز الجبل الأزرق في مؤتمر كتاب «بريدلوف» ، ومؤتمر كتاب الخيال في جامعة ولاية كليفلاند . تعيش في برونكس نيويورك مع زوجها وابنها ، كما أنها ضمن هيئة التدريس في كلية ساره لورنس .

ـ **ف . سكوت فيتزجيرالد** (١٨٩٦ ـ ١٩٤٠) ، كانت أول كتاباته المطبوعة تدور حول قصة بوليسية ، وظهرت في صحيفة المدرسة عندما كان عمره ١٣ سنة ، ألف أربع مجموعات من القصص القصيرة بما فيها قصص عن *عصور الجاز* و«*جميع الشباب الحزانى*» ، كما ألف أربع روايات هي «*الجميلة والملعون*» ، و«*جانب الجنة*»

و«جاتسبي الكبير» و«رقيق هو الليل» .

ـ **ماري لاد چافل** (١٩١٩ ـ ١٩٦٧) ، ولدت في كويرو بولاية تكساس وأصبحت محررة إدارية لمجلة سايكاتري عام ١٩٥٥ ، قصتها المنشورة الوحيدة كانت «*الحيوان الدولابي*» ، وقد ظهرت في مجلة سايكاتري بعد وفاتها كتذكار لها .

ـ **مارثا غيلهورن** (١٩٠٨ ـ ١٩٩٨) ، بدأت مستقبلها الحافل كمراسلة حربية لمجلة كوليير من خلال تغطيتها للحرب الإسبانية الأهلية وقد شملت قصصها ، «*الاضطراب الذي رأيته*» ، و«*الحقل المترع*» ، و«*قلب الآخر*» و«*ليانا*» و«*انبيذ الدهشة*» كما كتبت كتاب مذكرات موضوعه «*السفر مع نفسي ومع الآخر*» .

ـ **سوزان غلاسبل** (١٨٨٢ ـ ١٩٤٨) ، مشهورة بمسرحياتها العديدة بما فيها «*منزل أليسون*» التي نالت جائزة بوليتزر عام ١٩٣١ ومن بين كتبها الأخرى مجموعة من القصص القصيرة وسيرة حياة ، وسبع روايات .

أسست غلاسبل مجموعة لاعبي برفنستاون ومسرح بلاي رايت .

ـ **الكسندر غودين** (١٩٠٩ ـ ؟) ، ولد في أوكرانيا وهاجر إلى نيويورك عام ١٩٢٢ ، عمل في تعبئة الزجاجات في منشأة كيميائية حين كان يكتب روايته «*على الحد*» ولا يعرف عنه أكثر من ذلك .

ـ **لورنس سارجنت هول** (١٩١٥ ـ ١٩٩٣) ، تخرج من كلية بودوين عام ١٩٣٦ وحصل على شهادة الدكتوراة من جامعة ييل عام ١٩٤١ . نالت قصته «*الحيد*» جائزة او . هنري عام ١٩٦٠ ، كذلك نال جائزة وليام فوكنر عام ١٩٦١ . أصدر هول إضافة إلى قصصه عدة كتب في النقد .

ـ **آرنست همنغواي** (١٨٩٩ ـ ١٩٦١) ، بدأ مستقبله الأدبي بمجموعتين من القصص ونشر العديد من الروايات بما فيها «*ستشرق الشمس أيضاً*» ، و«لمن تقرع

الأجراس» ، كما أصدر عدة مجموعات قصصية ومذكرات ومسرحية ورواية «*الطابور الخامس*» وفي عام ١٩٥٣ نال جائزة بوليتزر عن قصته «*الشيخ والبحر*» ، كما نال عام ١٩٥٤ جائزة نوبل للآداب .

ـ بول هورغان (١٩٠٣ ـ ١٩٩٥) ، كتب سبعة وأربعين كتاباً بما فيها ١٧ رواية و ٤ مجلدات قصص قصيرة و ٥ سير حياة وعدة كتب تاريخ وكتب أخرى . نال جائزة بوليتزر عام ١٩٥٥ عن كتابه «*النهر الكبير*» ، وهو كتاب حول نهر ريوجراندي ، كما نال عام ١٩٦٧ نفس الجائزة ، عن كتابه سيرة حياة «*لامي من سانتافي*» .

ـ پام هوستون (١٩٦٢ ـ) ، ألفت مجموعتين من القصص القصيرة المترابطة ونالت في عام ١٩٩٣ جائزة كتاب الولايات الغربية عن كتابها «*رعاة البقر هم نقطة ضعفي*» ، وقد ترجمت تلك الرواية إلى تسع لغات ، كذلك روايتها «*مراقصة القط*» والتي نشرت عام ١٩٩٨ ، ونشرت كذلك مجموعة من المقالات وقصة «بعض القليل عني» ، وتعيش حالياً في كولورادو .

ـ جيش جن (١٩٥٦ ـ) ، ألفت روايتين «*أمريكي نموذجي*» و«*مونا في أرض الميعاد*» . نالت عدة جوائز من مؤسسة بنتنغ في كلية ردكليف ومن مؤسسة المواهب الوطنية الأدبية ، ومؤسسة ججنهايم . وهي تعيش حالياً في ماساشوستس . وأحدث كتبها مجموعة من القصص بعنوان من هو *الإيرلندي* وقصص أخرى .

ـ ثوم جونز (١٩٤٥ ـ) ، ألف ثلاث مجموعات قصصية «*استراحة الملاكم*» التي رشحت لنيل جائزة الكتاب الوطني و«*عضة باردة*» ، و«*سوني ليستون كان صديقاً لي*» . وهو عضو سابق في جبجنعايم وقد نال جائزة أو . هنري عام ١٩٩٣ ويعيش حالياً في أولمبيا بولاية واشنطن .

ـ **رينغ لاردنر** (١٨٨٥ ـ ١٩٣٣)، بدأ مستقبله الأدبي عام ١٩٠٥ كمحرر رياضي وكاتب أعمدة. نشر عدة مجموعات قصصية شملت «*كيف تكتب قصصاً قصيرة*»، و«*عش الحب*» كما نشر إضافة إلى ذلك كتاباً في الشعر، ورواية فكاهية، وسيرة ذاتية ساخرة هي «*قصة رجل عجيب*». كذلك تعاون في كتابة مسرحيتين لبرودواي.

ـ **ماري لرنر**: نشرت عدة قصص قصيرة في مجلات وطنية، ولا يعرف عنها شيء عدا ذلك.

ـ **برنارد مالموند** (١٩١٤ ـ ١٩٨٦)، بدأ مستقبله الأدبي بكتابة قصص قصيرة لصحيفة واشنطن بوست، ثم قام بنشر ثماني روايات وأربع مجموعات قصص قصيرة. نال جائزة الكتاب الوطني عام ١٩٥٩ عن كتابه «*البرميل السحري*»، كما نال جائزة بوليتزر إضافة إلى جائزة الكتاب الوطني عام ١٩٧٦ عن قصته «*الراسخ*».

ـ **جيمس آلان ماكفرسون** (١٩٤٣ ـ)، ألف مجموعتين من القصص القصيرة «*صيحة المطاردة*»، و«*غرفة الكوع*»، التي نالت جائزة بوليتزر عام ١٩٧٨، وقد عرف هذا المؤلف بكتابة المقالات وأحدث إصدار له هو «*رعاية بناتي*»: «تأملات رجال» التي حررها بالاشتراك مع ديويت هنري.

ـ **لوري مور** (١٩٥٧ ـ)، ألفت روايتين «*من الذي سيدير مستشفى الضفادع*» و«*ألعاب الكلمات*»، كذلك ثلاث مجموعات قصصية «*مثل الحياة*» و«*مساعدة الذات*» و«*طيور أمريكا*» وتعيش حالياً في ماديسون بولاية وسكاونسن.

ـ **أليس مونرو** (١٩٣١ ـ)، من سكان أنتاريو نالت جائزة حاكم كندا العام، وقامت بتأليف العديد من المجموعات القصصية التي شملت «*ماذا تظن نفسك*»

و«أقمار جوبيتر» و«رقصة الظلال السعيدة» و«أسرار مكشوفة» و«صديق شبابي» و«تقدم الحب» . و«خادمة الشحاد» و«قصص فلو و روز» . وقد صدر لها حديثاً *القصص المختارة لأليس مونرو* .

ـ **فلاديمير نابوكوف** (۱۸۹۹ ـ ۱۹۷۷) ، ألف أكثر من أربعين مجلداً في الأدب والفكر والشعر ، بما فيها «*دعوة إلى قطع الرأس*» و«*الحياة الحقيقية لسباستيان نايت*» و«*لوليتا*» و«*ضحكة في الظلام*» و«*النار الشاحبة*» ، و«*التواء شرير*» و«*آذا*» ، و«*تكلم*» و«*ذكرى*» . وقد ترجم أعمال بوشكين وغيره من المؤلفين الروس ، كما عرف عالمياً بشهرته كعاشق للفراشات .

ـ **تيم أوبراين** (١٩٤٦ ـ) ، مؤلف كتاب «تعقب كاكياتو» والذي نال عنه جائزة الكتاب الوطني في الأدب لعام ١٩٧٩ ، و«*الأشياء التي حملوها*» ، والتي نالت جائزة شيكاغو تريبيون هارتلاند في الأدب كما وصلت إلى التصفيات لكل من جائزة بوليتزر ، وجائزة دائرة نقاد الكتاب الوطني ، ونالت قصته «*في بحيرة الغابات*» جائزة جيمس فينيمور كوبر من جمعية المؤرخين الأمريكيين وله كتب أخرى مثل «*لو أموت في ساحة القتال*» ، و«*الأضواء الشمالية*» و«*العصر النووي*» وكتابه الحديث «*تومكات عاشقاً*» .

ـ **فلانري اوكونور** (١٩٢٥ ـ ١٩٦٤) مؤلف بارع ومعروف في مجال القصة القصيرة ، وقد نشر مجموعاته «*يصعب أن تجد الرجل الصالح*» و«*كل من طار وقع*» إضافة إلى روايتين «*الدم الحكيم*» و«*الدب العنيف يبتعد*» ، ونالت قصته «*الورقة الخضراء*» جائزة أو . هنري عام ١٩٥٧ كما نالت مجموعة قصص فلانري أوكونور جائزة الكتاب الوطني عام ١٩٧٢ .

ـ **جويس كارول أوتس** (١٩٣٨ ـ) ، مؤلفة لامعة في عالم القصص والشعر والدراما والنقد . من بين العديد من مراتب الشرف والجوائز التي تلقتها ، كانت

جائزة الكتاب الوطني وجائزة البوشكارت وثلاث جوائز أو . هنري ، وجائزة ري وجائزة أو . هنري/بن/مالامود وجائزة بوبست وجوائز إنجازات مدى الحياة من برام ستوكر . وأحدث كتبها هي مجموعة قصصية «*هل ستحبني دائماً*» ، ورواية «*الحب الأول*» .

ـ سينثيا أوزيك (١٩٢٨ ـ) ، مؤلفة قصص قصيرة وكاتبة مقالات ونقد ومسرحية واحدة من بين أعمالها «*مسيح ستوكهولم*» ، «*الثقة*» و«*الأدب والحماسة*» ، و«*الحاخام الوثني وقصص أخرى*» ، و«*السباحة في الهواء*» نالت أربع جوائز أو . هنري لأفضل قصة وجائزة ريا للقصة القصيرة . إحدى مؤلفاتها هي «*الشهرة والجنون*» ، وهي مجموعة مقالات ، ورواية اسمها «*أوراق عابث*» .

ـ دوروثي باركر (١٨٩٣ ـ ١٩٦٧) ، كونت سمعتها بفضل سخريتها اللاذعة في مراجعاتها النقدية لرواية «*غرور الجميل*» ، ورواية «*النيويوركي*» ، وفي كتب الشعر مثل «*الحبل الكافي*» ، و«*الموت*» و«*الضرائب*» . وتشمل مجموعتها من القصص القصيرة «*هنا يرقد*» و«*نواح على الأحياء*» .

ـ كاترين آن بورتر (١٨٩٠ ـ ١٩٨٠) ، نالت جائزة بوليتز وجائزة الكتاب الوطني عام ١٩٦٥ عن «*مجموعة القصص*» وتشمل أعمالها الأدبية «*الأرجوان المزهر*» ، و«*خمر القمر*» ، و«*الحصان الشاحب*» ، و«*الخيال الشاحب*» ، ورواية «*سفينة المجانين*» كما كتبت مجموعة من المقالات وسرد لمحاكمة ساكو فانزيتي .

ـ جـ . ف . باورز (١٩١٧ ـ) أصدر العديد من مجموعات القصص القصيرة ، بما فيها ، «*أمير الظلام وقصص أخرى*» ، و«*حضور غريس*» ، و«*انظر كيف تعيش الأسماك*» و«*ربيع القمح الأخضر*» ، ونال جائزة الكتاب الوطني عام ١٩٦٣ عن قصة «*موت مدينة*» .

ـ **آني برولكس** (١٩٣٥ ـ) تعيش في وايومنغ ، ألفت ثلاث روايات ومجموعة من القصص القصيرة . وتعمل حالياً في وايومنغ على إصدار مجموعتها الثانية . تلقت العديد من الجوائز الأدبية منها جائزة بوليتزر وجائزة الكتاب الوطني ، وجائزة إيريش تايز العالمية للأدب وجائزة بن/ فوكنر وقد ترجمت مؤلفاتها لعدة لغات .

ـ **بنجامين روزنبلاط** (١٨٨٠ ـ ؟) ، هاجر من روسيا إلى نيويورك مع عائلته وهو في العاشرة من عمره . نشرت أول قصصه في مجلة تنشر باليديشية وهو في السابعة عشرة . وظهرت أول قصصه باللغة الإنجليزية في مجلة «*أوت لوك*» ، التحق روزنبلاط بجامعة نيويورك ثم عمل كوكيل تأمين .

ـ **فيليب روث** (١٩٣٣ ـ) ، كتب أكثر من عشرين كتاباً آخرها كان «*أنا تزوجت من شيوعية*» ، وقد نشر عام ١٩٩٨ ، نال جائزة الكتاب الوطني عام ١٩٦٠ عن كتابه «*مع السلامة كولومبوس*» ، وفي عام ١٩٩٥ عن كتابه «*مسرح يوم السبت*» ، كما نال جائزة دائرة نقاد الكتاب الوطني عام ١٩٩١ عن كتابه «*الإرث*» ، وجائزة بن/فوكنر عام ١٩٩٣ عن كتابه «*عملية شايلوك*» ، وجائزة بوليتزر عام ١٩٩٨ عن كتابه «*ريفي أميركي*» .

ـ **وليام ساروبان** (١٩٠٨ ـ ١٩٨١) ، كان كاتباً منتجاً ذا خلفية أرمنية وتشمل مجموعات قصصه القصيرة المتعددة «*الشاب الجريء على الأرجوحة الطائرة*» ، و«*اسمي آرام*» إضافة إلى الروايات والمذكرات كتب وليام عدة مسرحيات اشتهر منها «قلبي في الجبال» و«*زمن حياتك*» ، والتي نال عنها جائزة بوليتزر عام ١٩٤٠ .

ـ **إيزاك باشيفيز سنغر** (١٩٠٤ ـ ١٩٩١) ، وهو ابن وحفيد حاخامات ، ولد في بولندا وهاجر إلى أمريكا عام ١٩٣٥ ، ورغم أن كتاباته الأصلية كانت بالعبرية إلا

أنه تبنى اللغة اليديشية كلغة مفضلة في كتابة القصص . وتتوفر العشرات من أعماله باللغة الإنجليزية وتشمل «*غمبل المجنون*» ، و«*ساحر لوبلين*» ، و«*عائلة موسكات*» ، و«*قصص صغيرة مختارة*» ، والقصة التي نشرت بعد وفاته «*ظلال على هدسن*» ، وقد نال سنغر عدة جوائز أدبية منها جائزتين من جوائز الكتاب الوطني كما نال جائزة نوبل للآداب عام ١٩٧٨ .

ـ سوزان سونتاغ (١٩٣٣ ـ) ، ألفت ثلاث روايات هي «*المتبرع*» ، و«*عدة الموت*» ، و«*عاشق البركان*» ومجموعة من القصص القصيرة بعنوان «*أنا ... الخ*» ومسرحية بعنوان «*أليس في السرير*» ، كما كتبت في العديد من المواضيع والأعمال غير القصصية بما فيها «*ضد التفسير ومواضيع أخرى*» ، و«*عن التصوير*» التي نالت جائزة دائرة الكتاب الوطني للنقد ، و«*الايدز وأشباهه*» ، و«*قارئ سوزان سونتاج*» .

ـ جين ستافورد (١٩١٥ ـ ١٩٧٩) ، نالت شهرتها بعد قصتها الأولى «*مغامرة في بوسطن*» ، ولكنها اشتهرت أكثر بقصصها القصيرة ويتكرر ظهور مقالاتها في «ذي نيويوركر» وغيرها من المجلات ، نالت العديد من الجوائز منها جائزة أو . هنري لعام ١٩٥٥ عن قصتها «*في حديقة الحيوان*» ، وجائزة بوليتزر للأدب عام ١٩٧٠ عن كتابها «*مجموعة القصص*» .

ـ جين تومر (١٨٩٤ ـ ١٩٦٧) ، درس في مدينة نيويورك وأصبح عضواً لامعاً في نهضة هارلم . عمله الرئيسي كان روايته التجريبية «كين» ، عام ١٩٢٣ ، كما ألف مجموعات من القصص والدراما والشعر يصف فيها طبيعة جورجيا الريفية وأهلها . وتوقف عن الكتابة لاحقاً .

ـ جون أبدايك (١٩٣٢ ـ) ولد في شيلينغتون بولاية بنسلفانيا ، وتخرج من كلية هارفارد عام ١٩٥٤ . ثم عمل بعد عام في مدرسة للأدب الإنجليزي ، كما عمل

لسنتين في مهمة محددة كمراسل أحاديث المدينة لصحيفة ذي نيويوركر، ثم انتقل إلى ماساشوستس عام ١٩٥٧، حيث عاش هناك منذ ذلك الحين. آخر رواية له هي «*نحو نهاية الزمن*». وكان أول ظهور لأبدايك في كتاب «أفضل القصص الأميركية القصيرة» عام ١٩٥٩ وقد ظلت قصصه تظهر على تلك الصفحات في كل عقد.

ـ روبرت پن وارن (١٩٠٥ ـ ١٩٨٩)، هو الكاتب الوحيد الذي نال جوائز بوليتزر في كل من الأدب والشعر. وأكثر قصصه شهرة هي «*جميع رجال الملك*»، التي نال عنها جائزة بوليتزر عام ١٩٤٧ وكل من «*وعود*»، و«*قصائد*» من ١٩٥٤ ـ ١٩٥٦ التي ربحت جائزة الكتاب السنوي. و «*الآن وبعد*» (قصائد) ١٩٧٦ ـ ١٩٧٨ التي نالت جائزة بوليتزر للشعر عام ١٩٥٧، ١٩٧٩، على التوالي. وتم تسميته عام ١٩٨٦ أول شاعر ممتاز في الولايات المتحدة.

ـ إيدورا ولتي (١٩٠٩ ـ)، من مواطني جاكسون بولاية ميسيسبي نالت جائزة بوليتزر عام ١٩٧٧ عن روايتها «*ابنة المتفائل*»، كما نالت عدة جوائز أخرى بما فيها الميدالية الوطنية للأدب والميدالية الرئاسية للحرية. شملت أعمالها القصصية العديدة «*عرس دلتا*»، و«*قلب متأمل*»، و«*المجموعة القصصية*»، و«*خسارة المعارك*»، كما قامت بنشر عدة مقالات وكتاب صور وقصة للأطفال ومذكرات.

ـ اي. ب. وايت (١٨٩٩ ـ ١٩٨٥)، أصبح كاتباً مساهماً ومحرراً في ذي نيويوركر عام ١٩٢٦ ومعروفاً بشهرته ككاتب مقالات لامع في القرن العشرين رغم شهرته كفكاهي وكاتب قصة قصيرة. ألف كتابين كلاسيكيين للأطفال، هما «*ستيوارت الصغير*»، و«*شبكة شارلوت*». كما نال جائزة بوليتزر عن أعماله عام ١٩٧٨.

ـ تينيسي وليامز (١٩١١ ـ ١٩٨٣)، معروف بالحوار الرائع في مسرحياته نشرها لأول مرة تحت اسم مستعار عام ١٩٣٩ في مجلة ستوري. ونال جائزة بوليتزر

للدراما عام ١٩٤٨ عن قصة «*عربة أسمها رغبة*» . ونالها مرة أخرى عام ١٩٥٥ عن قصة «*قطة على سطح معدني ساخن*» ، وإضافة إلى إحدى عشرة مسرحية قوية نشر مجموعتين من القصص الدرامية وأربع مجموعات قصصية وكتاباً شعرياً ورواية هي «*الربيع الروماني للسيدة ستون*» .

ـ ريتشارد رايت (١٩٠٨ ـ ١٩٦٠) ، ألف العديد من الكتب حول العلاقات العرقية . من بين رواياته الثلاثة كانت «*الابن الأصلي*» هي الأكثر شهرة ـ نشر سيرتي حياة «*الولد الأسود*» ، و«*الجوع الأميركي*» . كما نشر مجموعتي قصص هي «*أطفال العم توم*» ، و«*ثمانية رجال*» ، وله أعمال أخرى غير قصصية .

الفهرس

THE BEST AMERICAN SHORT STORIES OF THE CENTURY

JOHN UPDIKE : EDITOR
KATRINA KENISON : COEDITOR





■ إنّ اكتشاف قصص رائعة لا تعرفها من قبل هو واحد من أشكال البهجة الّتي يوفّرها لك هذا الكتاب .. لقد قدّم « أبدايك » بعض المختارات المدهشة والمفاجئة أيضاً .

نيويورك تايمز بوك ريڤيو

■ إنّه عمل رائع .. مجلّد واحد يضمّ التاريخ الأدبيّ لهذا البلد بآلامه الّتي لا تحدّ ، وآماله الّتي لا نهاية لها تقريباً .

بوسطن غلوب

■ إنّه لدليل مقنع على أنّ القرن العشرين كان العصر الذهبيّ للقصّة الأمريكيّة . وفي الحقيقة ، إذا كان ثمّة عدالة في هذا العالم ، فإنّ هذه المجموعة المحتفى بها ينبغي أن تزيّن رفوف المكتبات لدى عشّاق الكتب.

كليڤلاند پلين ديلر

■ إنّه لعمل مؤثّر .. الترتيب الزمنيّ هنا يكشف الكثير عن تاريخ هذا النوع الأدبيّ .. إنّ القصّة القصيرة يمكن أن تكون غنيّة ، وكثيفة ، وعميقة ، شأنها في ذلك شأن أطول الروايات .

مجلّة إيل

ISBN 9953-36-021-9



دار الفارس للنشر والتوزيع